صفحات مشرقة من
التاريخ الإسلامي

الدكتور
علي محمد محمد الصلابي

التاريخ الإسلامي

دار الإيمان
إسكندرية

دار القمة
لتوزيع الكتاب والشريط الديني
تليفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩ ت: ٥٤٤٦٤٩٦

صفحات مشرقة من

التاريخ الإسلامي

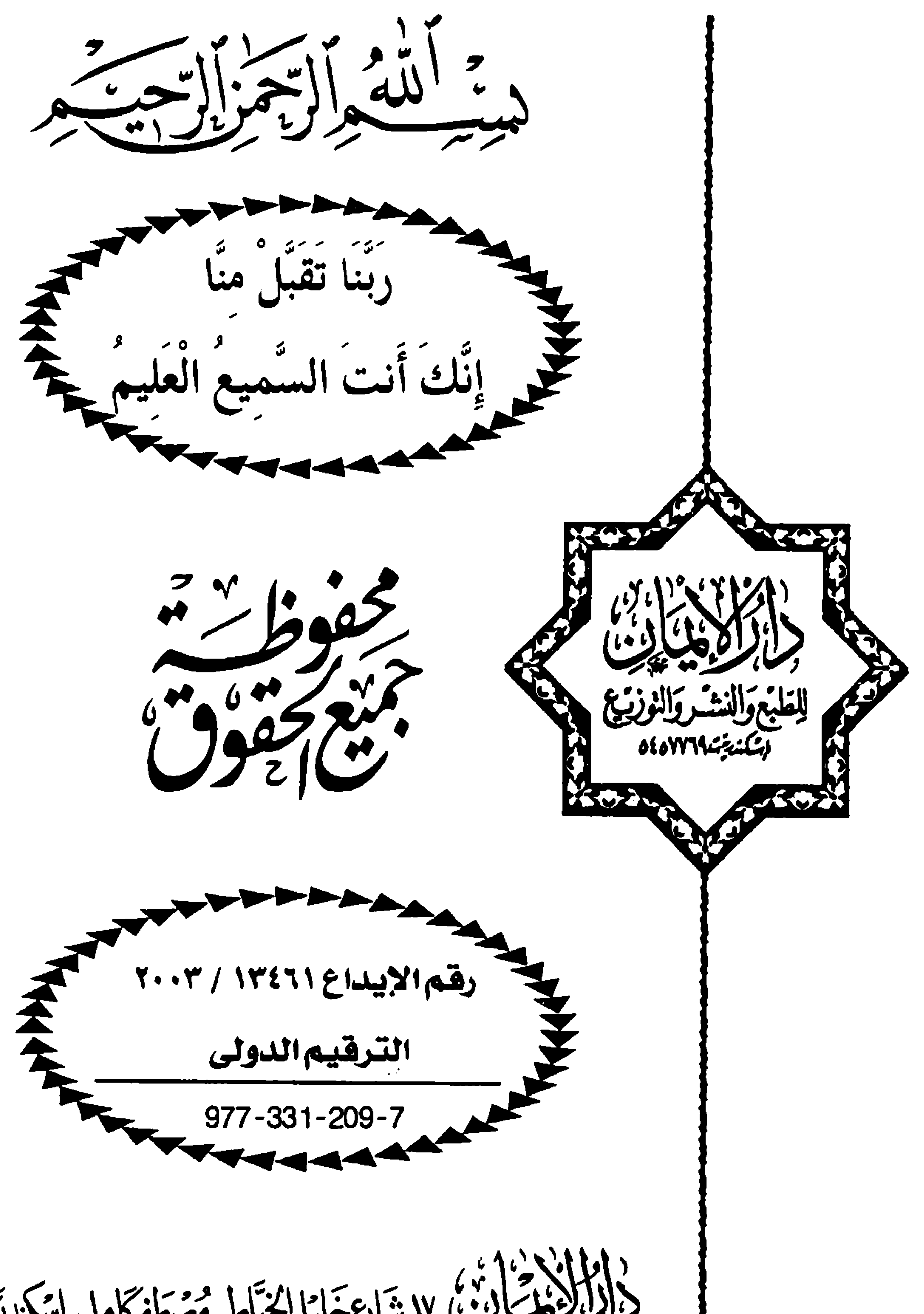
تأليف الدكتور

علي محمد محمد الصلابي

الجزء الأول







دار الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع
١٧ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - إسكندرية
تليفون وفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩ ت: ٥٤٤٦٤٩٦

الكتاب الأول

حركة



في الشمال الإفريقي


بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

أهدي هذا الكتاب . . .

إلى الصحابة الكرام الطيبين الأطهار السابقين الأبرار، ومن سار على نهجهم من العلماء الراسخين والمجاهدين الصادقين، والفقهاء العاملين والقادة الربانيين، والجنود المخلصين الذين قدموا أنفسهم وأموالهم وما يملكون من أجل دعوة الله الخالدة، فطافوا مشارق الأرض ومغاربها مبشرين ومنذرين .

سائلاً المولى عز وجل بأسمائه الحسنى وصفاته العلى ؛ أن يكون خالصًا لوجهه الكريم، وأن ينفع به المسلمين .

﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾

[الكهف : ١١٠]

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا ، من يهد الله فلا مضل له، ومن يُضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿ **يا أَيُّهَا الَّذين آمَنُوا اتَّقُوا اللَّه حقَّ تُقاته ولا تموتُنَّ إلاَّ وأنتم مُسْلمُونَ** ﴾ [آل عمران ١٠٢].

﴿ **يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذي خلَقَكُم مّن نَّفْسٍ واحدَة وخَلَقَ منْهَا زَوْجَهَا وبَثَّ منْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا ونسَاءً واتَّقُوا اللَّهَ الَّذي تَسَاءَلُونَ به والأَرْحَامَ إنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا** ﴾ [النساء: ١] .

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا** ﴾ [الأحزاب: ٧٠ – ٧١] .

أما بعد :

يارب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك ، وعظيم سلطانك ، لك الحمد حتى ترضى ، ولك الحمد إذا رضيت.

من هنا كانت البداية :

فقد بدأت فكرة تأصيل تاريخ ليبيا الإسلامية تنمو وتزداد يوماً بعد يوم في ذهني ،حتى سيطرت على مشاعري ووجداني، وكان ذلك خلف أسوار (الحصان الأسود) المعتقل السياسي الرهيب، وزادت الفكرة نضوجاً في (أبو سليم) المعتقل العسكري، حيث قدر الله لي أن ألتقي في مدرسة يوسف عليه السلام ببعض وجهاء البلاد في فترة الستينات من ذوي المستويات المتنوعة، والخبرات المتعددة، والثقافات المختلفة، الذين حرصوا على توريث تجاربهم وخبراتهم وتاريخهم وتاريخ حركاتهم للأجيال القادمة.

ثم بعد ذلك قدر الله لي – داخل المعتقل – أن أتحصل على نسخة من كتاب عن تاريخ الحركة الإسلامية في الجزائر بقيادة العملاق عبد الحميد بن باديس البربري – رحمه الله – الذي قد أثّر فيّ حقيقةً جهده الجبار في صيانة الهوية الإسلامية في المنطقة، ثم قدر الله لي العيش مع أقطاب المدرسة السلفية آنذاك المتمثلة في تلاميذ الأستاذ الشيخ محمد البشيتي رحمه الله عن كثب، ثم قدر الله لي اللقاء ببعض أبناء الحركة السنوسية ، وقد تأثرت بسردهم

لتاريخ الحركة السنوسية وما قام به الصالحون منهم والمجاهدون في إعزاز الدين ونصرة أهله والدعوة إليه في مشارق الأرض ومغاربها.

وبعد هذه الحصيلة العلمية التاريخية تبلورت لديَّ فكرتان:

الأولى : كتابة تاريخ السجناء السياسيين وقد تم هذا بحمد الله وفضله .

والثانية : كتابة تاريخ الحركه السنوسية ودراستها دراسة تحليلية وافية، لذلك كنت شديد الفرح بكل معلومة أتحصل عليها من أفواه رجال الحركه السنوسية فأكتبها على أوراق الصابون والبسكويت، وأوراق حليب الكورنيش بواسطة أقلام الرصاص، وإذا انعدمت بواسطة الجرافيت التي بداخل بطاريات الشحن الصغيرة، لأن السلطات تمنع دخول الكتب والأوراق والأقلام في المعتقل السياسي.

وممن استفدت منهم في تلك المرحلة الشيخ الفاضل - رحمه الله - محمد القاضي عبد الكبير الفزاني وغيره من وجهاء ناحية الجنوب، والأستاذ راشد السنوسي، والشيخ أحمد الطاهر العرفي، والأستاذ عبد الله الشاعري ، وغيرهم من الإسلاميين والوطنيين الذين شجعوني على تلك الفكرة الوليدة التي ما كانت لتنبت في ذهني لولا أن الله ساق لي أسبابها بدخول السجن والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون، وقضيت في السجن بضع سنين خرجت بخبرات كثيرة منها هذة الفكرة التي بدأت ثمارها بتوفيق الله عز وجل هناك .

وبعد خروجي من السجن في(٣ / ٣ / ١٩٨٨ م) في أحداث خروج السجناء كانت فرحة عظيمة غمرتني بظهور التيار الإسلامي الجارف في أوساط الشباب وامتلاء المساجد، وانتشار الحجاب، وظهور التدين في المناسبات الاجتماعية إلا أنَّه بعد احتكاكي ببعض شباب الصحوة، لاحظت أنها عاطفة جياشة ينقصها العلم الشرعي من الكتاب والسُنَّة وهذا شيء طبيعي في بلاد مثل بلادنا، كما وأنني لاحظت انقطاعاً غريباً عند الأجيال الصاعدة عن تاريخ أجدادهم القريب المتمثل في جهادهم ضد إيطاليا على أسس شرعية دينية عقدية، وكأن الإسلام شيء جديد في بلادي ولم يكن يوماً ما ضارباً بأطنابه في أعماق تاريخها، بل وللأسف الشديد لا يتذكرون من فتوحات الصحابة والتابعين لليبيا والشمال الإفريقي شيئاً على العموم إلا ثقافة ضحلة لا تسمن ولا تغني من جوع!! .

لذلك ازدَدْتُ قناعة بأهمية كتابة تاريخ بلادنا ليس من الحركة السنوسية فقط بل ليمتد من الفتح الإسلامي إلى العصر الحديث، وازدادت الفكرة نضوجاً بعد خروجي من المعتقل الكبير (ليبيا الحبيبة) وتوجهت نحو بيت الله الحرام للتقديم في جامعة المدينة، ثم يسَّرَ الله لي القبول في تلك الجامعة، وقدر الله لي أن أكتب كتاباً بشأن المعتقلين السياسيين داخل

سجون ليبيا منذ (عام ١٩٦٩م إلى عام ١٩٨٨م) ، وقد تناولت في هذا الكتاب ما مررنا به من محن ومنح ورحمة وتوفيق ورعاية من المولى عز وجل، وبكتابة ذلك الكتاب تشجعت لمواصلة العمل الجاد والمثمر الذي يفيد الأجيال التي ستحمل هذا الدين دعوة ودولة، فدعوت الله ولا زلت أدعو أن يكون جهداً موفقاً خالصاً لوجهه الكريم.

وطرحت هذه الفكرة بين إخواني فاستغرب بعض زملائي هذه الفكرة في المدينة النبوية، فأما بعضهم فقال لي: آمال كبيرة لا يوجد من الليبيين من يقوم بها، وأما بعضهم الآخر فقال لي: يبدو أنك تحلم، وبعضهم قال: إن الساحة غير محتاجة لهذا، وبعضهم قال لي: إن التاريخ مكتوب ولا داعي من ضياع الوقت، وبعضهم شجعني وأعانني بكل ما يجده لخدمة هذه الفكرة وشرعت في تحقيقها بانقطاعي في الإجازات الصيفية بين مكتبة الحرم المكي والحرم المدني.

وبدأت الكتابة الفعلية في صيف (١٩٩١م) في مكة وكنت أبدأ من الصبح في مكتبة الحرم في ذلك الهدوء الجميل وعندما تغلق أبواب المكتبة أنزل للصلاة فأطوف بالبيت الحرام داعياً المولى عز وجل أن يكون خالصاً لوجه الكريم، ويذلل الصعب وييسر السبل. ورجعت للمدينة بحمل بعير من المعلومات الجديدة عن الصحابة والعلماء الذين دخلوا ليبيا وانطلقوا في الشمال الإفريقي، ومعلومات عن الدول وكتبتها ولخصتها وأثرتها للنقاش مع إخواني الطلاب الليبيين وغيرهم ومع الأساتذة في جامعة المدينة النبوية وتفاعل الأساتذة وأعطيتهم ما كتبته وأخص بالذكر الأستاذ خالد الصاعدي ، الأستاذ المحاضر في مادة التاريخ في الصف الثالث من الجامعة في كلية الدعوة وعلق عليها واهتم وشجع وأعان بكتب وإرشادات نافعة، وبدأت الفكرة تنمو وتنضج وتتضح، وتفاعل بعض المعتمرين والحجاج من بلادنا الذين غمرتهم الفرحة بهذا العمل الذي رأوا أنه يخصهم ، وهو منهم ولهم وللأمة، وحضوا على ذلك وقالوا: بأنه عمل جاد لعلاج الهزيمة النفسية التي يمر بها شعبنا المظلوم، وذلك بربطه بتاريخه وأمته وحضارته وعقيدته ودينه وإسلامه، وإذا بالكتب المصورة والوثائق التاريخية تنهال عليّ في المدينة المنورة من كل حدب وصوب، ووصلت إلى شيء شعرت بأن الله ذلل أسباب المادة، ويسر جمعها ، وأن الأمر بإذن الله سيتم .

وبعد أن انتهيت من الدراسة في المدينة استخرت واستشرت، وربطت الأمتعة وخصوصاً ما يتعلق بالتاريخ وقصدت بلداً عربياً وفي حي من أحيائه الشعبية في بيت متواضع مبني بالطوب الأحمر تم كتابة خمسمائة صفحة عن الحركة السنوسية،

وكتابة الكتاب الأول الذي أقدم له الآن، ولقد كانت الفكرة في نفسي عظيمة سيطرت على أحاسيسي ومشاعري واعتبرتها تحدياً من تحديات الحركة الإسلامية المعاصرة في بلادي التي لابد لها من القيام بها عاجلاً أو آجلاً.

ولا شك قد ازددْت قناعة في هذه الفترة بأهمية التاريخ في تكوين الأمم، وتربية الشعوب، وتحقيق الآمال، وكان مسلكي في كتابة التاريخ يعتمد على توسيع النقاط البيضاء وتقليل النقاط السوداء، والرد على المخالفات العقدية، والانحرافات الشرعية سواء من أفراد أو من دول ملتزماً في ذلك بعقيدة أهل السُنَّة والجماعة، وأقصد بعقيدة أهل السُنَّة والجماعة ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه من عقيدة سليمة وما انبثق عنها من عبادة سنية، وأخلاق بهية، وتصورات ربانية.

من أهداف هذا العمل :

﴿ ١ ﴾ تأصيل جذور ليبيا الإسلامية، وأنها كانت بوابة الخير والإسلام لشمال إفريقيا، وأن أصول المد الإسلامي المعاصر ليست حديثة بل ضاربة بأطنابها منذ دخول الصحابة والتابعين لليبيا.

﴿ ٢ ﴾ تقرير بأن أصولَ هذا المد الإسلامي في المنطقة أصول سُنّية لا شيعية ولا خارجية ، إنما هي ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه الطيبين الأطهار، (أهل السُنَّة والجماعة).

﴿ ٣ ﴾ تسهيل مبدأ الاعتبار والاتعاظ بمعرفة أحوال الدول وعوامل بنائها، وأسباب سقوطها، والنظر في سنن الله في الآفاق وفي الأنفس والمجتمعات.

وقد انتهجت في كتابي هذا منهجاً يختلف عن منهج صادق النيهوم في كتابه (تاريخنا) الذي اعتمد فيه منهج الفلسفة الملحدة، والعلمانية المشركة في تفسير التاريخ.

وكذلك يختلف منهجي عن منهج كاتب كتاب (الحوليات الليبية) الفرنسي (شارل فيروا) النصراني الحاقد.

وكذلك يختلف منهجي عن منهج كاتب كتاب (المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب) لأحمد محمد الأوسي الأنصاري الطرابلسي، رغم أنني استفدت من كتابه من الناحية التاريخية ، وترتيب الأحداث.

ولا أزعم أني جئت بجديد في كتابي هذا، وإنما وفقني الله للجمع والترتيب، فإن كان خيراً فمن الله وحده، وإن أخطأت السبيل فأنا عنه راجع إن تبين لي ذلك والمجال مفتوح للنقد والرد والتعليق والتوجيه، كما وأنني أقر بأنني قد استفدت كثيراً في كتابي هذا من

كتاب (منهج كتابة التاريخ الإسلامي) للأستاذ : محمد ابن صامل العلياني وكتاب (مدرسة الحديث في القيروان) للأستاذ : الحسين بن محمد شواط، وكتاب (قادة فتح المغرب العربي) للأستاذ : محمود شيت خطاب وغيرها من الكتب والمذكرات الدراسية، وقد دونت ما اختصرته من مباحث وأشرت إليه في هامش الكتاب للأمانة العلمية .

خطة هذا الكتاب :

حاولت في هذا الكتاب إعطاء أهمية بالغة بتعريف رجالات الفتح الإسلامي من الصحابة والتابعين، ورجالات الدعوة والعلم والفقة، كما وأنني عقدت فصولاً للدفاع عن الصحابة رضي الله عنهم وبينت فضلهم ومكانتهم في الدين، وناقشت بعض الأفكار والمعتقدات التي حادت عن المنهج الصحيح بدون سبٍ أو شتم أو طعن ولكن بمنهج أهل السُنَّة والجماعة في الجرح والتعديل، **وقد قسمت فكرة هذا العمل إلى عدة كتب :**

الكتاب الأول : صفحات من تاريخ ليبيا الإسلامي والشمال الإفريقي من قبل الفتح الإسلامي إلى بداية الدولة الأموية .

الكتاب الثاني : عصر الدولتين الأموية والعباسية وظهور فكر الخوارج .

الكتاب الثالث : الدولة العبيدية (الفاطمية) الرافضية .

الكتاب الرابع : فقه التمكين عند دولة المرابطين .

الكتاب الخامس : دولة الموحدين .

الكتاب السادس : الدولة العثمانية .

الكتاب السابع : الحركة السنوسية .

وقد قسمت خطة بحث الكتاب الأول الذي بين أيدينا : إلى مقدمة، وخمسة أبواب وخاتمة وهي كالاتي :-

الباب الأول : قواعد في دراسة التاريخ.

الفصل الأول : مفهوم التاريخ وثمرة دراسته .

الفصل الثاني : أهمية المنهج في الدراسات التاريخية .

الفصل الثالث : قواعد في منهج كتابة التاريخ الإسلامي .

الفصل الرابع : قواعد في المصادر .

الفصل الخامس: نبذة عن بعض مشاهير مؤرخي المسلمين .

الباب الثاني: الشمال الإفريقي قبل الفتح الإسلامي.

الفصل الأول : سكانه.

الفصل الثاني : ديانتـه.

الباب الثالث: ليبيا قبل الفتح الإسلامي.

الفصل الأول : معالم ليبيا.

الفصل الثاني : سكان ليبيا قبل الفتح الإسلامي.

الباب الرابع: الفتح الإسلامي لشمال إفريقية.

الفصل الأول : دواعي الفتح الإسلامي.

الفصل الثاني : بدايات الفتح المبارك.

الفصل الثالث : تثبيت دعائم الإسلام في المنطقة.

الفصل الرابـع : معاوية بن حديج وأبرز معالم عهده.

الفصل الخامس : عقبة بن نافع قائد فتح المغرب العربي.

الفصل السادس : قادة فتح المغرب الأوسط والأقصى.

الباب الخامس: عهد الولاة.

الفصل الأول : كتاب يهدي، وسيف يحمي.

الفصل الثاني : الصحابة الذين دخلوا ليبيا واستقروا في مدينة القيروان.

الخاتمة.

وأخيـراً : أرجو من الله أن يكون عملاً خالصاً لوجهه الكريم، وأن يثيبني على كل حرف كتبته ويجعله في ميزان حسناتي، وأن يثيب إخواني الذين أعانوني بكافة ما يملكون من أجل إتمام هذا الكتاب، وأخص بالذكر الاخ الفاضل / عبد الحكيم الصادق الفيتوري الذي أشرف على تهذيب، ومراجعة، وطباعة الكتاب الأول.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

كتبه

علي محمد محمد الصلابي

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

الباب الأول

قواعد في دراسة التاريخ

الفصل الأول

مفهوم التاريخ وثمرة دراسته

بادئ ذي بدء لابد من الوقوف والإلمام بمعنى كلمة التاريخ لغة، ودلالتها الاصطلاحية إذا ما أطلقت عند المؤرخين من السلف والخلف، لأن معرفة معاني هذه الكلمة لغةً واصطلاحاً يدخل دخولاً أوّليًا في فهم هذا العلم الجم، علم التاريخ الذي يعتني بأحوال الأمم ودولها ، وتوثيق أخبارهم وانتشارهم، وضبط تواريخ ولادتهم ووفايتهم.

مصطلح التاريخ ودلالته [١] :

التاريخ لغة: هو الإعلام بالوقت والتاريخ، وهذا ما قاله الجوهري: «التاريخ تعريف الوقت والتّوْريخ مثله يقال أرخت وورخت» [٢] .

وقد فرق الأصمعي بين اللغتين فقال: «بنو تميم يقولون: ورخت الكتاب توريخاً، وقيس تقول: أرخته تأريخاً» [٣] .

وهذا القول من الاصمعي يؤكد أن لفظة التاريخ عربية أصيلة وليست معربة عن الفارسية كما ذهب إلى ذلك بعضهم [٤] ، وقيل إن أصل كلمة تاريخ سرياني [٥] ومعناه الشهر.

---

(١) اعلم أيها القارئ أن جل هذا الباب مختصر من كتاب (منهج كتابة التاريخ الإسلامي) للأستاذ / العلياني.

(٢) الجوهري، الصحاح مادة: أرخ (١ / ٤١٨) .

(٣) الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، للسخاوي (٦) .

(٤) المرجع السابق (٦) .

(٥) علم التاريخ عند العرب، لعبد الحميد العبادي (٣٤)

وأما تعريف التاريخ في الاصطلاح:

فقد اختلفت عبارات علماء المسلمين في تحديد تعريف له ولعل ذلك راجع إلى سعة الموضوعات التي تدخل في مفهوم التاريخ، ومن الملاحظ أن المؤرخين في القرون الثلاثة الأولى من الهجرة النبوية لم يدونوا تعريفاً كاملاً محدداً لعلم التاريخ وإنما كانوا يكتفون بذكر فوائده وأغراضه، ومن المعلوم أن العلم قد يعرف ببعض أنواعه أو أمثلته أو بذكر غايته، وهذا ما نص عليه الأستاذ خليفة بن خياط بقوله: «هذا كتاب التاريخ، وبالتاريخ عرفَ الناسُ أمرَ حجهم وصومهم وانقضاء عِدَدِ نسائهم ومحل ديونهم» [١] .

وقال قريباً من ذلك الإمام الطبري في مقدمة تاريخه [٢] .

وكذلك حاول العلامة ابن خلدون، المتوفى سنة (٨٠٨ هـ) ، أن يصيغ تعريفاً محدداً لعلم التاريخ في مقدمته فقال: «إن التاريخ في ظاهره لا يزيد عن أخبار الأيام والدول والسوابق من القرون الأولى، تنمو فيها الأقوال، وتضرب فيها الأمثال، وتطرف بها الأندية إذا غصها الاحتفال، وتؤدي لنا شأن الخلافة كيف تقلبت بها الأحوال، واتسع للدول فيها النطاق والمجال، وعمروا الأرض حتى نادى بهم الارتحال، وحان منهم الزوال ، وفي باطنه نظر وتحقق وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق، فهو لذلك أصيل في الحكمة وعريق، وجدير بأن يعد في علومها وخليق» [٣] .

لقد نظر ابن خلدون إلى علل الحوادث وأسبابها وحاول اكتشاف السنن التي تنتظمها، وأكد على بدايات الحوادث وقيام الدول وتعليل سقوطها، أما المقريزي المتوفى سنة (٨٤٥ هـ) ، فقد عرف التاريخ ببيان موضوعه بقوله: «الإخبار عما

---

(١) تاريخ خليفة بن خياط، صفحة (٤٩).

(٢) تاريخ الطبري (١ / ٤-٥).

(٣) مقدمة ابن خلدون (٣-٤).

حدث في العالم في الزمان الماضي » [١] .

كما عَرَّفه محمد بن سليمان الكافيجي [٢] المتوفى سنة (٨٧٩ هـ) بقوله : « هو علم يبحث فيه عن الزمان وأحواله ، وعن أحوال ما يتعلق به من حيث تعيين ذلك وتوقيته » [٣] .

كما عرف المؤرخ الحافظ محمد بن عبد الرحمن السخاوي التاريخ بقوله : « هو التعرف بالوقت الذي تضبط به الأحوال من مولد الرواة والأئمة، ووفاة، وصحة، وعقل، وبدن، ورحلة، وحج، وحفظ، وضبط، وتوثيق، وتجريح وما أشبه هذا مما مرجعه الفحص عن أحوالهم في ابتدائهم وحالهم واستقبالهم، ويلتحق به ما يتفق من الحوادث والوقائع الجليلة من ظهور ملمة، وتجديد فرض وخليفة، ووزير وغزوة وملحمة، وحرب وفتح بلد، وبما يتوسع فيه لبدء الخلق وقصص الأنبياء، وغير ذلك من أمور الأمم وأحوال القيامة ومقدماتها » [٤] إلى أن قال : « والحاصل أنه فن يبحث فيه عن وقائع الزمان من حيثية التعيين والتوقيت ، بل عما كان في العالم » [٥] .

وقال في موضع آخر : « أما موضوعه فالإنسان والزمان » [٦] .

فلا يخفى أن تعريف السخاوي لا يبعد كثيراً عن تعريف الكافيجي، إلا أن السخاوي ركز على مفهوم التاريخ عند علماء الحديث خاصة فقال : « علم أحوال الرجال » وضبط تواريخ ولادتهم، ووفياتهم.

فهذا الذي سبق - كما مر معنا - هو خلاصة التعريفات بعلم التاريخ عن

---

(١) **انظر** : علم التاريخ عند المسلمين، لفرانز روزنثال (٢٦)

(٢) **انظر** : الأعلام للزركلي (٦ / ١٥٠).

(٣) المختصر في علم التاريخ، للكتاني محمد جعفر (٣٢٧)

(٤) الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، للسخاوي (٧)

(٥) ، (٦) المرجع السابق .

السلف والتي فحواها الاعتناء بأحوال الأمم ودولهم، وتوثيق أخبارهم وانتشارهم، وضبط تواريخ ولادتهم ووفياتهم، أما في العصر الحديث فقد أضاف علماء التاريخ المعاصرون ومن لهم ارتباط وثيق بعلم التاريخ واختصاصه.

فقد عرَّف الأستاذ سيد قطب - رحمه الله - التاريخ وغايته بقوله:

«التاريخ ليس هو الحوادث إنما هو تفسير هذه الحوادث، واهتداء إلى الروابط الظاهرة والخفية التي تجمع بين شتاتها، وتجعل منها وحدة متماسكة الحلقات متفاعلة الجزئيات ممتدة مع الزمن والبيئة امتداد الكائن الحي في الزمن والمكان»[١].

ويظهر أن الأستاذ سيد قطب – رحمه الله – قد ركز على اللب والغاية من دراسة التاريخ، وتدوين أخباره، وإلا فالحوادث والأخبار مهمة ولا شك في ذلك، بل هي لبنات البناء التي لا يقوم هذا العلم بدونها، وتعريف الأستاذ سيد قريب جدًّا من تعريف العلامة ابن خلدون، لكن يبدو أن تعريف العلامة ابن خلدون أشمل حيث نص على الاعتناء بالأخبار وتحقيقها، كما أكد على النظر في العلل والأسباب، إلا أنه نحى في تعريفه منحىً فلسفياً بعيداً عن روح النصوص والآثار في حين أن الأستاذ سيد قطب كان واضحاً في إدراك غاية التاريخ حسب المنظور الإسلامي.

فالحاصل بما تقدم من تعريفات أن التاريخ علم نظري إنساني يبحث فيه عن حوادث الزمان من حيث التعيين والتوقيت والتفسير والتعليل.

أهداف دراسة التاريخ وثمراته:

بادي ذي بدء يجب أن نعلم أن التاريخ فرع من فروع العلم، وقد اعتبره العلماء الذين كتبوا فيه من العلوم التي تخدم الشريعة الإسلامية سواءً أكان من الناحية التفسيرية للنصوص، أو معرفة أحوال الرواة، أو توثيق سيرة النبي ﷺ

(١) في التاريخ فكرة ومنهاج، لسيد قطب (٣٧).

وأصحابه رضوان الله عليهم أجمعين، وأئمة الدين بعدهم من تابعين ومن اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين [١] .

ويقرر هذه الحقيقة وينص عليها الإمام المحدث ابن عبد البر النمري [٢] – رحمه الله – بقوله: « ويلزم صاحب الحديث أن يعرف الصحابة المؤيدين للدين عن نبيهم ﷺ ويعني بسيرهم وفضائلهم ويعرف أحوال الناقلين عنهم وأيامهم وأخبارهم حتى يقف على العدول منهم من غير العدول » [٣] .

كما لا يخفي أن التاريخ قد نشأ ضمن العلوم الشرعية وعلى أيدي رجال الحديث وصلته بالشريعة وخدمته لها كانت واضحة جلية سواء في ميدان التربية والسلوك، أو في ميدان علم الرجال والجرح والتعديل [٤] ، ولهذا استعمل السلف الصالح في دحض حجج الكذابين الوضاعين للأحاديث علم التاريخ.

فقد جاء عنهم: « لم يستعن على الكذابين بمثل التاريخ » [٥] ونص على ذلك الإمام سفيان الثوري – رحمه الله – فقال: « لما استعمل الرواة الكذب استعملنا لهم التاريخ » [٦] .

ولذلك اعتنى كبار المحدثين أمثال الإمام البخاري، ومسلم، وأحمد ابن حنبل، وأبي زرعة، وأبي حاتم، والترمذي، بجوانب من علم التاريخ وصنفوا كتباً كثيرة في ذلك، معروفة عند طلبة العلم الشرعي، فإذا كان علم التاريخ بهذه المنزلة

---

(١) انظر: الخوارزمي في كتابه مفاتيح العلوم (٤،٥) حيث جعل علم الأخبار من العلوم الملحقة بعلوم الشريعة.

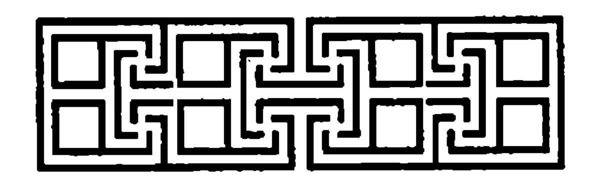
(٢) هو الإمام يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري القرطبي أبو عمر، ولد سنة ٣٦٨ هـ، وساد أهل زمانه في الحفظ والإتقان، له كتب كثيرة، منها: التمهيد، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، وجامع بيان العلم وفضله، وغيرها. وكانت وفاته بمدينة شاطبة بالأندلس سنة ٤٦٣ هـ
انظر: تذكرة الحفاظ (٣/١١٢٨).

(٣) جامع بيان العلم وفضله (٤٦٦).

(٤) أثر الحديث في نشأة التاريخ عند المسلمين، للدكتور / بشار عواد.

(٥)، (٦) الإعلان بالتوبيخ .

المرموقة ، ويحتل الحيز الكبير من عناية علماء الحديث والأثر ، فينبغي إذاً على دارس التاريخ أن يتحرى الإفادة منه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، وفق المنهج السليم لدراسة التاريخ الإسلامي المقرر عن أهل العلم .



المبحث الأول

فوائد دراسة التاريخ

لا ريب أن علم التاريخ يشغل حيزاً لا بأس به في نفوس أهل العلم والمكتبة الإسلامية – كما مر معنا – فطالما أن علم التاريخ بهذه المنزلة والمكانة فإنه لا يخفى على دارسه بأن له فوائد جمة ، وثمار حسان، كما قال الإمام ابن الأثير – رحمه الله – في تاريخه: «ومن رزقه الله طبعاً سليماً، وهداه صراطاً مستقيماً ، علم أن فوائدها كثيرة ومنافعها الدنيوية والأخروية جمة غزيرة» [١] .

ولقد ازدادت أهمية الاعتناء بعلم التاريخ في الحقبة الأخيرة من عصرنا الحاضر، حتى وصلت أهمية هذا العلم عند أهل زماننا أن استخدم كأداة لتوجيه الشعوب وتربيتها كما يريد القادة والساسة، بل استعان بهذا العلم أصحاب المذاهب الفكرية الهدامة في فلسفة مذاهبهم المادية وتدعيمها حتى أصبح هذا العلم عند الأوروبيين في مكانة سامية لا يعلوها علم آخر، لذالك أصبحت نظرتهم للتاريخ نظرة تقديس وإجلال، لأنه يفسر لهم الوجود وتعليل النشأة الإنسانية والطبيعية !! .

فإذا كان ذلك كذلك عند الغربيين، ففي حق المسلم الذي يطلب العلم لخدمة دينه وعقيدته وشريعته أوجب وأحق، لذلك فعلى المسلم الصادق مع ربه، المخلص لدينه ودعوته، المتبع لنبيه ﷺ أن يعتني بدراسة التاريخ دراسة تخدم دينه، وتنشردعوته، وتربط أمته الحاضرة بسلفها الصالح، لا أن ياخذه مجرد معلومات، وحكايات، وأخبار لا تسمن ولا تغني من جوع، مجرد إشباع لرغباته وغريزته النفسية كلا ! إن دراسة التاريخ بوجه عام، وتاريخ الأمة المسلمة على

---

(١) انظر : الكامل في التاريخ، لابن الأثير(١ /٦)

وجه الخصوص لاينبغي أن يكتفي في دراسته بتحقيق الرغبات والحاجات الدونية، بل من أجل الوصول إلى القمة العلية، ألا وهي إحياء الأمة المسلمة بكتاب الله - عز وجل - وسُنَّة رسوله ﷺ ومعرفة كيفية التعامل مع سُنن النهوض والصعود بالأمم، واجتناب سُنن السقوط والهبوط في الأمم،ولهذا قال تعالى حاثّاً عباده على النظر في تاريخ الأمم :﴿ **أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الأَرْضِ** ﴾ [غافر:٨٢].

فإذا تقـــرر ذلك صح القول : بأن لدراسة التاريخ ثمرات، وفوائد جلية ومتعددة، يجدها دارس التاريخ خلال دراسته للتاريخ، فمن هذه الثمرات والفوائد التي يجب أن يقف عليها ويتأملها دارس التاريخ، نذكر منها الآتي :

المطلب الأول

الفوائـــد التربويـــة

لقد تقرر في محكمات الشريعة أن الله - عز وجل - قد خلق الخلق لعبادته وحده سبحانه، وأناط بالمسلم في هذه الحياة وظيفة تحقيق حقيقة العبادة له سبحانه بمفهومها الكامل الشامل لكافة جوانب الحياة، ووجه النشاط البشري، بأن يحقق كمال الخضوع والمحبة له سبحانه وتعالى، وقد شرع له - سبحانه - لتحقيق هذه الغاية عدة وسائل تربوية، فمن تلك الوسائل دراسة تاريخ الأمم، والنظر في أحوالهم، واقتباس العبر والعظات من حالهم ومآلهم كما أمر الله سبحانه نبيه ﷺ بالاقتداء بركب النبيين الأطهار - عليهم الصلاة والسلام - فقال تعالى : ﴿ **أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ** ﴾ [الأنعام: ٩٠] .

وكذلك أمر المؤمنين بذلك فقال تعالى : ﴿ **لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً** ﴾ [الأحزاب: ٢١] .

ذلك بأن الاقتداء بالنبيين والصالحين والشهداء والعلماء العاملين والدعاة المخلصين، في صبرهم، وجهادهم، وتحملهم المشاق في سبيل نصرة العقيدة الصحيحة، وإقامة الدين القويم لهو عامل أساسي من عوامل التربية الإسلامية الراشدة، بل أمرنا - سبحانه - بالنظر والتدبر في أحوال ومآلات الأمم السالفة الكافرة منها والمؤمنة على حد سواء فقال - جل شأنه -: ﴿ **أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا** ﴾ [محمد: ١٠] .

ولذلك يجب على المسلمين في هذا العصر الاعتناء بدراسة التاريخ الإسلامي وبالأخص السيرة النبوية، وتاريخ الخلفاء الراشدين، والفتوحات الإسلامية، وسير العلماء والمجاهدين من سلفنا الصالح، وعرض هذه الصور على الأمة المعاصرة في صورة حية متمثلة في سلوك وأخلاق القادة، والعلماء، والمجاهدين من أبناء الحركات الإسلامية المعاصرة، لأن ذلك يبعث في الأمة روح التدين والالتزام، والزهد في الدنيا الفانية، والرغبة في الحياة الباقية، وحب التضحية والجهاد في سبيل الدين العظيم ابتغاء مرضاة رب العالمين.

فإذا ما أحسن عرض التاريخ الإسلامي في أحسن صورة، فإنه يكون من أنفع الوسائل التربوية في مجال إحياء الأمم وتربيتها بالأحداث والسلوك، لأن التربية بالأحداث والسلوك من أهم وسائل التربية القرآنية، لذلك نجد أن القرآن الكريم عني بهذا النمط من التربية في مواضع كثيرة جداً، كما جاء في عقب غزوة أحد في آخر سورة آل عمران من قوله تعالى: ﴿ **وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾ [آل عمران: ١٢١] إلى قوله تعالى ﴿ **وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ** ﴾ [آل عمران: ١٨٠] وكذلك ورد في السُّنَّة المطهرة والسيرة النبوية تقرير لمبدأ التربية

بالأحداث والسلوك، ولذلك شواهد كثيرة جداً.

يقول الدكتور محمد أمين المصري - رحمه الله - بهذا الصدد:

« لدراسة التاريخ قيمة تربوية من حيث تأثيرها في عقل الدارس وإكسابه عادات خاصة في التفكير فتنشأ لديه العادة التاريخية في تناول الحقائق، والأسلوب التاريخي في التفكير فيها، لأن التاريخ طريقة بحث تقوم على النقد والمقابلة والتحقق ووزن قيم الأدلة وربط السبب بالنتيجة مع التعليل للحوادث وإرجاعها إلى دوافعها » (١) .

المطلب الثاني

إدراك السنن الربانية

لقد تقرر فيما سبق أن للتاريخ فوائد تربوية جمة ذكرنا منها التربية بالأحداث، والسلوك، والاقتداء، والآن نتأمل في فوائد دراسة التاريخ التي منها: التعرف على السنن الربانية وإدراكها في هذا الكون، الكتاب المنظور والمقروء، فمطالعة التاريخ بتدبر تساعد على اكتشاف هذه السُنن الربانية، ومعرفتها وكيفية استمطارها وجلبها أو صرفها ، وبهذه الروح وهذه النفسية في قراءة التاريخ نستطيع أن نحقق الغرض المطلوب منا شرعاً في امتثال أمر الله – سبحانه وتعالى – الذي قد أرشدنا إلى التدبر والتفكير والتأمل في سُننه الكونية والبشرية، الخارقة والجارية منها، وكيفية التعامل معها في كل الحالات، فقد جاء في محكم التنزيل قوله تعالى آمراً عباده بالنظر في سُنن من قبلهم فقال: ﴿ **أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ** ﴾ [غافر:٨٢] .

---

(١) انظر : لمحات في التربية، ، للدكتور محمد امين المصري (٢٢٨)

وقال جل وعلا: ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ سُنَّتَ الأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً ﴾ [فاطر:٤٣] .

وقال تبارك وتعالى: ﴿ سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾ [غافر:٨٥] .

وبعد ذلك فلا شك أن من قرأ التاريخ بهذه العقلية الواعية، فإنه يجده قد حوى بين دفتيه من الحوادث والأخبار، والسُنن المتشابهات،والمواقف المتماثلات ، ما يدفعه إلى كشف سُنن الله في خلقه سواء منها الجارية والخارقة ، وبذلك يستطيع أن يسعى للحصول على سُنن التمكين، والابتعاد عن سُنن التدمير ، واقتفاء سُنن الصالحين والمجاهدين، واجتناب سُنن المجرمين المفسدين، كما هو مقرر - بأن التاريخ يعيد نفسه - فمن عرف سُنن الله في خلقه والتزمها زادته صلابة وقوة في المواقف التي ترضي الرب تبارك وتعالى، بخلاف من يجهلها، لأن من يجهل مصدر الأحداث وسُنن الله - عز وجل - فإنه يكون في حيرة وخوف وقلق لا يعلمه إلا الله !! .

ولكن لا يغيب عنا ونحن بصدد الحديث عن السُنن الربانية، بأنها تنقسم إلى نوعين: نوع يسمى بالسنن الخارقة، والنوع الثاني يسمى بالسُنن الجارية، وسوف نتناول كلاً منهما بشيء من التفصيل.

النوع الأول: السنن الخارقة :

ويقصد بها التي يجريها الله - سبحانه وتعالى - على خلاف مألوف الناس على يد رسول من رسله تأييداً له في دعوته ضد قومه المستنكرين والمستنكفين عن دعوة الحق سبحانه، أو تكريماً له وتثبيتاً، كما فعل تبارك وتعالى حين جعل عصا موسى - عليه السلام - حية تسعى ، فقال: ﴿ قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴾ [طه: ١٩- ٢٠] .

أو كما أمر موسى بضرب الصخرة فإذا هي عين جارية!! قال تعالى: ﴿ **وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا** ﴾ [البقرة: ٦٠] .

وكذلك ما حدث على يدي نبينا محمد ﷺ ، وأنزل القرآن الكريم، وبذلك يتقرر بأن السنن الخارقة هي التي تكون غير مألوفة عند الناس، وتكون خارجة عن مقدور البشر أن يأتوا بمثلها.

النوع الثاني: السنن الجارية :

وهي تنقسم إلى قسمين: قسم متعلق بالأمور الطبيعية الكونية، وقسم متعلق بالأمور الشرعية، فالقسم المتعلق بالأمور الكونية الطبيعية يقصد به سُنن الله في تعاقب الليل والنهار وجريان الشمس والقمر في فلك واحد وفق ناموس محدد قدَّره الله لها تقديراً، قال تعالى: ﴿ **لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ** ﴾ [يس : ٤٠] .

أما القسم المتعلق بالأمور الشرعية ، فيقصد به أوامر الله ونواهيه ، ووعده ووعيده، وهي ثابتة لا تتبدل ، ومطردة غير مقيدة ، كسُنَّته في نصر أوليائه ، وإهانته لأعدائه، كما لا يخفى أن الله سبحانه وتعالى إذا حكم في الأمور المتماثلة بحكم ما، فإن ذلك لا ينقض ولا يتبدل ولا يتحول، فهو - سبحانه وتعالى - لا يفرق بين المتماثلين، ولا يجمع بين المختلفين ، كما قال تعالى: ﴿ **أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ** ﴾ [القلم: ٣٥] .

يقول ابن تيمية - رحمه الله - بهذا الصدد:

« ومن هذا الباب صارت قصص المتقدمين عبرة لنا ولولا القياس واطراد فعله، وسنته، لم يصح الاعتبار بها، لأن الاعتبار إنما يكون إذا كان حكم الشيء حكم نظيره كالأمثال المضروبة في القرآن » [١] .

---

(١) انظر : جامع الرسائل، لابن تيمية (٥٥).

ولكن هذه السنن الربانية بجميع أقسامها ، إنما تدرك وتعرف من خلال النظر في التاريخ ومتابعة أخبار الأمم ومصائرهم، وكيفية قيام حضارتهم وسقوطها؟ ، والتمعن في أسباب ذلك كله، لذلك على المسلم الواعي أن يكثر من مطالعة كتب التاريخ قراءة واعية لإدراك تلك السُنن واستخلاص العبر والأمثال منها، وتأطيرها على هيئة كليات تشتمل على عدد من الجزيئات، ومن ثمَّ ربطها بالواقع المعاصر، لتكون نبراساً يستضيء به السالكون في مدارج المجاهدين والمربين ، وهكذا يجد القارئ المسلم السُنن الربانية التي ذكرت في القرآن يجدها سُنناً كلية تضم في طياتها عدداً كبيراً من الجزئيات تغطي حوادث واقعية غير منصوص عليها، وهذه الكليات حية فاعلة مطردة ثابتة كثبات الجبال الراسيات على الأرض، لا تقبل التغيير، ولا النسخ، ولا النقصان، إنها سُنن الله ، ولن تجد لسُنَّة الله تبديلاً ولا تحويلاً !! .

وفي ذلك يقول الدكتور عماد الدين خليل: « والسُنن الربانية تجيء في القرآن غير محددة لكي تشمل أكبر قدر من الواقع، وتلامس أكبر عدد من التفاصيل والجزئيات » (١) .

ويقول أيضاً: « كما أن معرفة السُنن الربانية تفرض على الجماعة الواعية المدركة والملتزمة أن تتجاوز مواقع الخطأ التي قادت الجماعات البشرية السابقة إلى الدمار والهلاك، وأن تحسن التعامل مع تلك السنن ومع قوى الكون مستمدة ذلك من منهج الله الذي سار عليه أنبياؤه ورسله » (٢) .

كما لا يخفى على دارس التاريخ أن السُنن الربانية قد تستغرق وقتاً طويلاً لكي ترى متحققة، رأي العين، في حين أن عمر الفرد محدود، ولذلك لا يمكنه رؤية السُنن متحققة بل قد يرى الإنسان جانباً من السُنن الربانية، ثم لا تتحقق

(١) ،(٢) **انظر** : تفسير التاريخ، للدكتور عماد الدين خليل(١٠٩) .

نهايتها في حياته مما يحول بينه وبين عدم إدراك السُنن أو التكذيب بها، وهنا يكون دور التاريخ في معرفة أن السُنن الربانية لابد أن تقع ولو طال الزمان، ولكن لما كان عمرها أطول من عمر الفرد، بل ربما أطول من أعمار أجيال فإنها ترى متحققة من خلال التاريخ الذي يثبت أن سُنن الله ثابتة لا تتبدل ولا تتغير، كما قال تعالى: ﴿ **سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً** ﴾ .

[الإسراء:٧٧] .

لذلك ومن خلال دراسة التاريخ دراسة واعية يجب أن يعلم القارئ أن حاضره الذي يعيشه إذا كان فيه ما يتصور أنه مخالف لسُنن الله أنه غير مستثنى من السُنَّة الربانية، بل هو جزء منها، ولكن للسُنَّة الربانية أجل ووقت، وكل شيء خلقه الله بقدر، فالله - سبحانه - قد يؤخر السُنَّة ليبتلي المسلم، ليعظم له أجره، ويمد الكافر في غيه ليأخذه أخذ عزيز مقتدر، قال تعالى: ﴿ **أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ** ﴾ .

[الأنعام: ٦] .

يقول الأستاذ سيد قطب - رحمه الله - في تفسيره لهذه الآية الكريمة:

«هناك حقيقة ينساها البشر حين يمكّن الله لهم في الأرض، ينسون أن هذا التمكين إنما تم بمشيئة الله ليبلوهم فيه، أيقومون عليه بعهده وشرطه، من العبودية له وحده، والتلقي منه وحده أم يجعلون من أنفسهم طواغيت تدعي حقوق الإلهية وخصائصها، إنها حقيقة ينساها البشر فينحرفون عن عهد الله ويمضون على غير سُنَّة الله ، ولا يتبين لهم في أول الطريق عواقب هذا الانحراف، ويقع الفساد رويداً، وهم ينزلقون ولا يشعرون حتى يستوفي الكتاب أجله، ويحق وعد الله، ثم تختلف أشكال الأخذ والنهاية!! فمرة يأخذهم بعذاب الاستئصال، ومرة بعذاب من فوقهم أو من تحت أرجلهم كما وقع لكثير من الأقوام ، ومرة

بالسنين ونقص الأنفس والثمرات كما حدث لأقوام آخرين، ومرة يذيق بعضهم بأس بعض، فيعذب بعضهم بعضاً، ويدمر بعضهم بعضاً، ويسلط الله عليهم عباداً له – طائعين أو عصاة – دورة السُّنَّة، فالسعيد من وعاها ، والشقي من غفل عنها ، وإنه لمما يخدع الناس أن يروا الفاجر الطاغي، أو الملحد الكافر ممكناً له في الأرض غير مأخوذ من الله، ولكن الناس إنما يستعجلون أنهم يرون أول الطريق أو وسطه ولا يرون نهاية الطريق، لأن السُّنَّة تستغرق وقتاً طويلاً لكنها تلاحظ من خلال التاريخ » (١) .

وهذا الذي استنبطه الأستاذ سيد قطب – رحمه الله – من هذه الآيات الكريمة قد جاء مصرحاً به ومنصوصاً عليه في قوله تعالى :﴿ **فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ** ﴾ [الأنعام : ٤٤] فقد فتح الله عليهم أبواب كل شيء عندما نسوا ما ذكروا به من أوامر الله ونواهيه، فلما فرحوا بهذا الفتح وهذا الرزق أخذهم الله بغتة، فإذا درّ الرزق عليهم كان باب الاستدراج كما قال تعالى :﴿ **فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا** ﴾ [الطارق :١٧] وكما جاء في حديث أبي موسي الأشعري – رضي الله عنه – قال ﷺ :« **إن الله عز وجل يملي للظالم فإذا أخذه لم يفلته** » ، ثم قرأ :﴿ **وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ** ﴾ (٢) [هود :١٠٢] .

فلا شك أن هذه الأبواب التي تفتح على الكافرين هي من تمام عدل الله الذي يقضي بأن يعطي كل عامل جزاء عمله :﴿ **مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ** ﴾ [الإسراء :١٨] .

فإنهم لما عرفوا القوانين المادية للتقدم فتح لهم ونالوا ثمرة جهدهم ذلك في الحياة الدنيا، مع أن هذا الفتح وهذا الرخاء لن يكون مثل فتح الله على المؤمنين

---

(١) انظر : في ظلال القرآن(٢ /١٠٣٨) .

(٢) متفق عليه، واللفظ، انظر: صحيح البخاري(٤٦٨٦) ، ومسلم(٤ /١٩٩٧ رقم ٢٥٨٣)

ورخائه عليهم، وطمأنينة قلوبهم إليه، بل هو رخاء موبوء كله آفات واختلاط في كل شيء ، فساد اجتماعي، وانحدار خلقي، ومعيشة ضنك ، وإهدار لكرامة الإنسان وقيمته المعنوية في مقابل المادة التي لا تُغني ولا تُسمن من جوع !! .

ولو تأمل المسلم وعاين بنظرة فاحصة في أحوال مَن حوله مِن المجتمعات الجاهلية في عالمنا المعاصر، لرأى رأي العين تلك الحياة التي يعيشها هذا العالم الشارد عن منهج الله السوي، حياة الضنك، ومعيشة النكد، وطبيعة الغاب رغم تقدمهم المادي كما يزعمون!! ولكنها الجاهلية أينما كانت وحيثما كانت، إنه الشرود عن منهج الله سبحانه!! إنها سُنن الله في الكون التي لا تحابي أحداً من خلقه، ولن تجد لسُنَّة الله تبديلاً ولا تحويلاً !! .

كما لا يخفى أن ثبات السُّنن الربانية يقابله ثبات في طبيعة الإنسان وخلقه، فالحوافز الإنسانية لم تتغير منذ أن خلق الله آدم عليه السلام.

كما أن دوافع الإنسان الفطرية – وهي منطلق نشاطه – لم تزل قائمة كما كانت في الماضي، وما أصلح البشر في الماضي هو الذي يصلحهم في الحاضر.

ونورد فيما يلي بعض السنن الربانية على سبيل المثال لا الحصر :

[١] سُنَّة سوء عاقبة المكذبين:

لقد تقرر في محكم نصوص القرآن بأن الذين يكذبون بآيات الله ورسوله ويظلمون الناس بغير حق، ويسعون في الأرض فساداً، وعدهم الله بسوء العاقبة. قال تعالى: ﴿ **وقوم نوح لَّما كذبوا الرُّسل أغرقناهم وجعلناهم للنَّاس آية وأعتدنا للظَّالمين عذابًا أليما (٣٧) وعادًا وثمود وأصحاب الرَّسِّ وقرونًا بين ذلك كثيرًا (٣٨) وكُلاًّ ضربنا له الأمثال وكُلاًّ تبَّرنا تتبيرًا** ﴾ [الفرقان: ٣٧–٣٩]

فما جرى من تحقيق هذه السُّنَّة في الماضي في أولئك المكذبين، سيجري مثله في الحاضر والمستقبل القريب لكل من أعرض عن ذكر الله وشرعه، ومن فضل الله – سبحانه وتعالى – على الناس وعدله فيهم أن يبقي نعمته المادية والمعنوية

عليهم كالأمن، والاستقرار، والرزق الوفير، والصحة، وما إلى ذلك إذا هم عصوا وجحدوا وبدلوا نعمة الله كفراً وتكذيباً ، قال تعالى : ﴿ **وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ** ﴾ [إبرهيم:٧] .

وقال جل شأنه : ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾ [الأنفال:٥٣] .

[٢] سُنَّة إناطة التغيير البشري :

وتعتبر هذه من سُنن الله – سبحانه – الخالدة التي أناط بالبشرية مسئوليتها رقيهم لأجل وانحطاطهم، ومسئولية اتباعهم للخير أو الشر، حيث إنهم قد منحوا قدراً من الحرية والاختيار، ومع ذلك القدر من الحرية بعث إليهم المولى عز وجل الرسل التي جاءتهم بالهداية الربانية التي فيها خير الدنيا والآخرة لمن اتبع المرسلين ، قال تعالي : ﴿ **فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ** ﴾ [طه:١٢٣] .

فإذا وجدت أسباب الهداية فإن النتائج تتبعها كما قال تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ** ﴾ [الرعد:١١] .

لذلك فإن التغيير يبدأ من النفس سواء بالارتقاء إلى أعلى، أو بالانتكاس والهبوط إلى أسفل، فهي تعتبر النقط الأساسية في تغيير النفس البشرية من الشر إلى الخير أو العكس ، والبشر في كلتا الحالتين هم المسئولون مباشرة عن إصلاح أنفسهم كما قال تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ** ﴾

[الرعد:١١] .

لذا يجب مراعاة هذه السُنَّة الربانية في تغيير النفس البشرية، والمجتمعات الإنسانية، ومن تأمل في هذه الآية الكريمة التي قررت هذه السُنَّة الربانية يجدها قد رتبت حدوث التغيير على مراحل ، فقد جعلت حدوث التغيير من الله – سبحانه – مترتباً على حدوثه من النفس البشرية سواءً بالسلب أو الإيجاب،

وهذا الترتيب يضع البشرية أمام مَفْرِق الطريق، ويربط في عنقها مسئولية عدم إحداث التغيير في النفس البشرية والمجتمعات الإنسانية وفق منهج الله القويم، قال تعالى: ﴿ **حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ** ﴾ وهذه السُنَّة لا يمكن إدراكها إدراكاً صحيحاً وكلياً إلا باتباع المنهج الرباني الذي يربط بين السُنن والأحداث التاريخية ، ويحدد العلاقة السليمة بينهما، حيث إن اتباع المنهج الرباني يعطي خير السُنن ، ويصرف الصوارف ، قال تعالى : ﴿ **قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾ [البقرة : ٣٨] .

[٣] سُنَّة الأيام سجال بين الناس:

فمن رحمة الله – سبحانه – أن جعل مداولة الأيام سجال بين الناس ، من شدة ورخاء، وقوة وضعف، وعز وذل، وصحة وسقم، وغنى وفقر، امتحاناً لهم حتى يعلم منهم – وهو أعلم بما يفعلون – الشاكرين من الجاحدين، والصابرين من الجازعين، والمجاهدين من القاعدين، والمنفقين من الممسكين قال تعالى : ﴿ **إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ** ﴾ [آل عمران : ١٤٠] .

[٤] سُنَّة زوال الأمم بالعلو والطغيان:

قال تعالى : ﴿ **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ** ﴾ [الفجر: ٦-١٤] .

فتأمل في هذه الآيات الكريمة التي تقرر سُنَّة من سُنن الله الربانية التي لا تحابي أحداً من خلقه، إنها سُنَّة زوال الأمم بالترف والفساد ، زوال الأمم بالتجبر والطغيان، زوال الأمم بالبطر والكبرياء!! قال تعالى : ﴿ **وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا** ﴾ [الإسراء: ١٦] أي

أمرناهم بالأمر الشرعي من فعل الطاعات واجتناب المعاصي، فعصوا وفسقوا وحققوا أسباب الزوال والانهيار، فحقَّت عليهم سُنَّة الأخذ والزوال، والتدمير والتنكيل، جزاء فسقهم وعصيانهم﴿ **فَحقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا** ﴾ !! .

[٥] سُنَّة هلاك الأمم بالظلم والإجحاف :

قال تعالى :﴿ **وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ** ﴾ .

[الأنبياء: ١١] .

فإذا ما فشى الظلم وعدم إقامة العدل في أمة من الأمم، فقد تحققت فيها أسباب الهلاك، وحقت عليها سُنَّة الله بالهلاك، ووقعت عليها القاصمة، لأن الله سبحانه وتعالى قد حرم الظلم على نفسه، وجعله بين العباد محرماً كما في الحديث القدسي: [**ياعبادي إني حرمت الظلم على نفسي ، وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا**] (١) .

فإذا اختلت الموازين، وانعدمت القيم، وتحكَّم الأقوياء في رقاب الضعفاء، وقسم المجتمع إلى طبقات سادة وعبيد، وتلاعب السادة بحدود الله وأوامره فقد حقت عليهم سُنَّة الله التي لا تحابي أحداً من خلقه، ولن تجد لسُنَّة الله تبديلاً ولا تحويلاً!! .

جاء في الحديث الصحيح قوله ﷺ :[**إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد!! وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها**] (٢)

[٦] سُنَّة لكل أمة أجل :

لا يخفي أن لله سُنناً ربانية تقرر بأن انهيار الأمم وزوالها لا يكون إلا بأجل مقدر، وهذه السُنَّة في نفس المؤمن مقررة لا خفاء فيها ولا شك، ولكن ضعيف

---

(١) صحيح مسلم(٤/ ١٩٩٦) ، حديث رقم(٢٥٧٧)

(٢) صحيح البخاري(٣٤٧٥) ، ومسلم(٣/ ١٣١٥ رقم ١٦٨٨)

الإيمان الذي يرى موجبات سُنَّة الله في أمة من الأمم، ثم رغم ذلك لا يرى زوال تلك الأمة! ربما شك في هذه السُنَّة ، لذلك فقد جاء في الكتاب العزيز الرد على ما يختلج في النفس الضعيفة من تساؤلات حيال هذه السُنَّة الربانية، فقال تعالى : ﴿ **وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ** ﴾ .

[الأعراف : ٣٤] .

وقال أيضاً : ﴿ **وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ (٤) مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ** ﴾ [الحجر : ٤-٥] .

وهذا ما قررناه وأوضحناه في أول البحث، من أن سُنَّة الله – سبحانه – لا تتخلف ولكن عمرها أطول من عمر الأفراد، ولا تقع إلا بأجل محدد لابد من استيفائه كما نص على ذلك القرآن الكريم : ﴿ **وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ** ﴾ [الأعراف : ٣٤] .

[٧] سُنَّة نصر الله للمؤمنين :

لقد قضت حكمة الله – سبحانه – وسُنَّته الجارية على استحقاق المؤمنين لنصره، إذا أتوا بشروط هذه السُنَّة، ومن هذه الشروط :

﴿ أ ﴾ الاستقامة على منهج الله : قال تعالى : ﴿ **وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا** ﴾ [الجن : ١٦] .

﴿ ب ﴾ عدم الإشراك به - سبحانه - : قال الله تبارك وتعالى : ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا** ﴾ [النور : ٥٥]

﴿ جـ ﴾ ذكر الله كثيراً قال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ [الأنفال : ٤٥]

وبعد فإذا ما حقق المؤمن شروط هذه السُنَّة ، فإن نصر الله لهم قريب، كما قال

تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ ﴾.

[غافر: ٥١].

وقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾.

[محمد: ٧].

وقال تبارك وتعالى: ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم: ٤٧].

[٨] سُنَّة ابتلاء المؤمنين:

لقد جاء في محكم التنزيل نصوص كثيرة تقرر هذه السُنَّة الثابتة، كقوله سبحانه وتعالى: ﴿ **أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ** ﴾ [البقرة: ٢١٤]

وكذلك جاءت نصوص السُنَّة النبوية الصحيحة تقرر ذلك، فعندما سئل ﷺ: **أي الناس أشد بلاءً؟، فقال: « الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض، ما عليه خطيئة »** (١).

وهكذا جرت سُنَّة الله في تمحيص المؤمنين وصقلهم وإعدادهم لينالوا بصبرهم وثباتهم المنزلة العالية عند الله – سبحانه – وليرفع درجاتهم بما يصيبهم من الأذى، وبما يحصل لهم من الشهادة في سبيل الله، قال تعالى: ﴿ **إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠) وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ** ﴾ [آل عمران: ١٤٠–١٤١] وفي هذه الآيات وسبب نزولها فوائد جمة،

---

(١) رواه الترمذي (٤ / ٦٠١)، وابن ماجة تحت رقم (٤٠٣٣)، وصححه الشيخ الألباني – رحمه الله – في الأحاديث الصحيحة رقم (١٤٣).

ومبادىء قيمة ودروس هامة للجماعة المسلمة، نذكر منها: تربيتهم على الثبات في المحن، واتخاذ الشهداء منهم، وتمحيص الأنفس واختيارها، وتعريفها بسرائرها، وبواطن أحوالها، لذلك فإن الابتلاء للمؤمن سُنَّة من سُنن الأنبياء، والصالحين، والصادقين، والشهداء، فما من نبي إلا وقد أوذي وحورب، فمنهم من قتل، ومنهم من ألقي في النار، ومنهم من أخرج من أرضه وعشيرته، وكذلك أتباعهم نالهم من الأذى والقتل والتشريد صنوفٌ عديدة، فلما نجحوا وتجاوزوا هذا الابتلاء الرباني، وثبتوا على الحق المبين، حينئذ تنزَّل عليهم نصر الله - سبحانه - وأبدلهم بعد خوفهم أمناً،ومكَّن لهم في الأرض وجعلهم الوارثين!.

[٩] سُنَّة التدافع بين الحق والباطل:

قال تعالى في محكم التنزيل: ﴿ **وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ** ﴾ [البقرة: ٢٥١] .

وقال تبارك وتعالى: ﴿ **وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ** ﴾ [الحج: ٤٠] .

ولا يخفى أن سُنَّة التدافع من أعظم سُنن الله الجارية في هذا الكون، إذ بدونها تفسد الأرض وتتدهور أحوال الناس، لذلك كانت ضرورة بذل الجهد البشري في دفع الباطل بالحق هي من سُنن الحياة السوية التي لا تكون إلا بها، فإذا ما ثبت أصحاب الحق والفضيلة، وصبروا وصابروا تحقق لهم حينئذ وعد الله بالتمكين، وهزيمة الباطل ودحضه، واندحار أهله.

بيد أن هذا الصراع بين الحق والباطل معركة لا تنتهي حتى يرث الله الأرض ومن عليها، إنها معركة الحق الواحد مع الباطل المتعدد الأشكال والألوان والأصناف، ولا ينبغي أن يغيب عنا أن الله الذي وضع هذه السُّنن قد جعل لكل شيء قدراً، فقد وهب لهذا الإنسان من القدرات والمواهب والإمكانات والقوى،

وإرادة الاستمرار ما يستطيع به – بعد توفيق الله له – من السيطرة والانتصار على الباطل وأعوانه من شياطين الجن والإنس !! .

قال تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلاً ﴾ .

[الإسراء: ٦٥] .

وقال: ﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ٣٨] .

ومن رحمته سبحانه وتعالى بعد أن حكى في كتابه العزيز قصة أول صراع وقع بين الحق والباطل، حينما أمر الملائكة بالسجود لآدم فأبى الشيطان أن يسجد لآدم عليه السلام فأمرهما أن يهبطا إلى الأرض ليواصلا معركة الصراع في ساحة أخرى، فقال تعالى: ﴿ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ .

[البقرة: ٣٦] .

فمنذ ذلك الصراع والهبوط إلى الأرض يحذرهم من عدوهم الأساسي، وغوايته، وإصراره على فتنتهم عن صراط ربهم المستقيم، فقال تعالى في محكم التنزيل: ﴿ يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا ﴾ [الاعراف: ٢٧] .

وقال تعالى: ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة: ٢٥٧] .

وقد تمثلت صور إغواء لبني آدم في صور شتى منها:

■ **عبادة الأصنام والأوثان:** فحذر الله عباده من ذلك بقوله: ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٦٠) وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [يس: ٦٠–٦١] .

■ **الحكم بقوانين الشيطان وإقصاء شريعة الرحمن**: فحذر الله عباده من ذلك بقوله: ﴿ **وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ** ﴾ [المائدة: ٤٩].

وقال: ﴿ **أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ** ﴾.

[المائدة: ٥٠].

ومنها: التمسك بالأعراف والتقاليد التي تخالف شرع الله: فحذر الله عباده من ذلك بقوله: ﴿ **وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ** ﴾ [الزمر: ٥٥].

وعاب عليهم قولهم إذ قالوا: ﴿ **أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا** ﴾.

[الأعراف: ٧٠].

وقولهم: ﴿ **بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ** ﴾ [الزخرف: ٢٢] وغير ذلك من أوجه غواية الشيطان لابن آدم.

ومن الجدير بالذكر أنه يجب الوقوف على الحكمة التعليمية لهذه السُّنَّة التدافعية بين الحق والباطل، وما هي حقيقة الصراع المحمود الذي تركز عليه الآيات الكريمة؟، هل هو الصراع الحتمي الذي بنيت عليه النظرية الديالكتيكية الهيجلية في مجال الأفكار وحركة العقل الكلي حتى يصل إلى مرحلة تجلي المتفرد - كما يزعم من لا خلاق لهم -؟! أو هو الصراع الطبقي في النظرية المادية عند ماركس القائل: «تبدل وسائل الإنتاج حتى يبلغ سيطرة البوليتاريا» [١].

كلا ! ليس هذا التدافع ولا ذاك من تكالب الناس على أعراض الدنيا وشهواتها التافهة سواء في المستويات الدنيا بين الأفراد، أو المستويات العليا بين الجماعات والدول والمعسكرات، بل إنه التدافع الذي يكون لخير البشرية في الدنيا والآخرة،

---

(١) **انظر**: تفسير التاريخ الإسلامي (٢٤٤).

وذلك لا يتحقق إلا بتحقيق العبودية لله وحده، وإزالة كل طاغوت يُعبد من دون الله، إنه كما قال تعالى: ﴿ **وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ** ﴾ . [الأنفال:٣٩] .

فالصراع المحمود: هو الذي يطرد الفتنة بكل أشكالها وصورها من الأرض، ويحرر البشرية من عبادة الطاغوت وظلماته إلى عبادة الله وحده – سبحانه – ونوره.

قال تعالى: ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا** ﴾ [النساء:٧٦] .

فالله سبحانه وتعالى يدفع بأهل الحق أهل الباطل، وقيام المسلمين بهذا الواجب ينفي عنهم شر ذلك الصراع، وتركهم لهذا الدَّفْع يجلب عليهم شراً مستطيراً، ما ترك قوم الجهاد في سبيل الله إلا ذلوا ، كما قال ﷺ : [**إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم بأذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد، سلط الله عليكم ذُلاً لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم**] [1] ، والواقع المعاش دليل لا يحتاج إلى كثير من التدبر!!.

يقول الدكتور عماد الدين خليل: «إن الجهاد يضع الأمة الإسلامية أمام مسئوليتها الحركية الكبرى في العالم، ويمنحها فاعلية دائمة إزاء التجارب والمواقف البشرية، تتجاوز حدود الزمان والمكان، ويرفعها إلى موقع الشهادة على الناس، ذلك الموقع الوسط المميز المتفرد الذي لن ترتفع إليه إلا عندما تمارس جهادها الدائم في كل الجبهات أمراً بالمعروف، ونهياً عن المنكر، وقتالاً بالكلمة، وكفاحاً مسلحاً: ﴿ **وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا** ﴾ [2] [البقرة:١٤٣] .

---

(١) رواه أبو داود في سُننه (٣/ ٢٧٤-٢٨٥) ، سلسلة الأحاديث الصحيحة للشيخ الألباني رقم (١١) .
(٢) تفسير التاريخ الإسلامي (٢٤٩) .

المطلب الثالث

التعرف على معالم تاريخ الإنسانية

بعد أن ذكرنا فائدتين من فوائد ثمرات التاريخ نذكر الفائدة الثالثة ، ألا وهي التعرف على معالم تاريخ الإنسانية ، والتي تعتبر من أهم الثمرات التي ينبغي أن يطلبها ويتعرف عليها دارس التاريخ، من ذلك : متى بدأ تاريخ الإنسانية؟ ، وما هي أطواره التي مر بها ؟ ، وما هي أبرز المعالم التاريخية؟ .

لا يخفى أن بداية تاريخ الإنسانية وأطوارها كانت منذ آدم، كما قررها القرآن الكريم في عدة مواضع، وكذلك ارتبط هذا التاريخ ارتباطاً أساسياً بتاريخ الأنبياء عليهم السلام منذ آدم إلى نوح حتى نبينا محمد– عليهم الصلاة والسلام – لذلك سوف نتناول أهم معالم التاريخ الإنساني التي يجب أن يعتني بها دارس التاريخ .

[أ] المعلم الأول: معرفة تاريخ الأنبياء:

لا ريب أن معرفة تاريخ الأنبياء – عليهم السلام – ودعوتهم وجهادهم وصبرهم وتحملهم لأذى أقوامهم، ومواقف أقوامهم منهم ومن دعوتهم، ومعرفة مصير الذين آمنوا وصدقوا بدعوة الأنبياء، ومصير الذين كذبوهم، لهو المَعْلَم الأساسي في معرفة تاريخ الإنسانية منذ أن خلق الله سبحانه آدم حتى خاتم الرسل عليهم الصلاة والسلام.

[ب] المعلم الثاني: معرفة سيرة النبي ﷺ :

إن التعرف على معالم سيرة خاتم الرسل والنبيين، وصاحب الشريعة الناسخة لكل الشرائع، والعامة للثقلين الإنس والجن، لهو المفتاح الأساسي في كيفية عبادة الله الحقة، وفهم تطبيق أحكامه على المكلفين المؤمن منهم والكافر، لذلك يجب معرفة أحواله وأقواله، وصفاته، وتقريراته ﷺ والاستفادة من تلك السُنن التي أخرجت ذلك الجيل القرآني الفريد الذي خوطب بقوله تعالى: ﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ** ﴾ [آل عمران: ١١٠] .

[جـ] المعلم الثالث: التعرف على تاريخ الخلفاء الراشدين:

لأن معرفة أحوالهم وسيرتهم وتاريخهم، وتاريخ الجيل الأول خاصة، والذي يليه ثم الذي يليه من التابعين لهم بإحسان الذين عاشوا في القرون التي تعتبر من القرون الخيرة ، فهم الذين قاموا بتطبيق الأحكام الشرعية على الوجه المطلوب منهم، وجاهدوا لنشر الإسلام في ربوع الأرض مشارقها ومغاربها، ودونوا القرآن والسُّنَّة والآثار، فقد جاء في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ : [**عليكم بسُنتي وسُنَّة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي**] (١) .

[د] المعلم الرابع: التعرف على سير العلماء والمجاهدين والدعاة:

فينبغي الاعتناء بسير العلماء والمجاهدين والصالحين وجهادهم في سبيل الله وإقامة شريعته – سبحانه – بين أقوامهم، لأن في ذلك أسوة حسنة، ومثال يحتذى به بالنسبة للمسلم المعاصر.

[هـ] المعلم الخامس: معرفة أثر الإسلام في حياة البشرية:

ويتبين ذلك بمعرفة التجارب التي انتهت إليها المجتمعات الجاهلية المتعددة الأشكال والألوان، وبيان أحوالها الاجتماعية، وكيف رفعها الإسلام من تلك البراثن الآسنة بمنهجه السوي الصالح المصلح لكل زمان ومكان إلى تلك القمة السامقة عندما انطوت تحت لوائه، وطبقت شريعته، قال تعالى ممتناً على هذه الأمة: ﴿ **هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ** ﴾ [الجمعة : ٢] .

ويتضح هذا المعلم بتتبع أعمال الهدم والبناء التي قام بها الإسلام في حياة تلك المجتمعات الجاهلية التي حكمها، وما مصير الأفكار والنظم والعقائد التي كانت سائدة؟ ، وكيف بنى تلك المجتمعات بناءاً جديداً منطلقاً من العقيدة الإسلامية ، وقائماً على العدل والحق والحرية.

---

(١) رواه أبو داود (٤ / ٢٠١)، والترمذي (٥ / ٤٤)، والإمام أحمد في مسنده (٤ / ١٢٦).

المطلب الرابع

التأكيد على جملة من الحقائق الهامة في البشرية

والجدير بالذكر بعد أن ذكرنا تلك الفوائد أن نسجل الفائدة الرابعة، والتي هي جديرة بالرصد والتسجيل حسب النسق المهيمن لعرض هذه الحقائق للبشرية وتجنيدها وتدجينها ، **وهذه الفائدة تحمل في طياتها التأكيد على عدة حقائق هامة منها:**

[١] أول شيء عرفته البشرية هو توحيد الله :

نقول: إن كل من عرض التاريخ وتأمله، ودرسه بوعي وبدون اختزال، يتبين له من الوهلة الأولى، أن الأصل في تاريخ البشرية منذ البداية أنها كانت مهتدية بشرع الله - سبحانه - وهداه، ثم بعد ذلك بأمد بعيد طرأ عليها الانحراف والشرك بعدما نسوا الله فأنساهم أنفسهم!! كما جاء عن حبر الأمة ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: « كانت بين نوح وآدم عشرة قرون كلهم على شريعة الحق، فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين » [١] .

ثم كلما تاهت فهوم البشرية عن منهج الله وزاغت عقولهم، وانحرفوا عن منهج الله وأصبحوا في دورات تاريخية متعاقبة من الزيغ والضلال، يرسل الله إليهم رسولاً ليردهم إلى صراطه المستقيم وعبادته وحده - سبحانه - ويدعوهم إلى توحيده فيقول لهم على لسان رسوله: ﴿ **اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ** ﴾ .

[هود: ٥٠] .

ولا يخفى أن هذه الفطرة التي فطر الناس عليها كما قال ﷺ عن ربه: [**يقول الله إني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم جاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن**

---

(١) راجع تفسير الطبري (٤ / ٢٧٥).

دينهم] [1] .

[٢] حقيقة أن الله خالق كل شيء:

لا يخفى على من عنده مسكة من عقل أن الله – سبحانه – خالق كل شيء، وأن الإنسان من خلقه سبحانه وتعالى، وهو مستخلف في هذا الكون لتعميره بمنهج خالق كل شيء –سبحانه وتعالى– فكلما تحققت هذه البدهيه في عقل المسلم أتاحت للمختلف أن يأتلف، وأن لا يشعر بأي عداء بينه وبين هذا الكون البديع، والمسلم بهذه العقلية يشعر بالانسياب والاندماج بين ما يعتقده من عقيدة وبين هذا الكون البديع ، ولكي يصيغ حياته وفق المنهج الرباني، ينقب في هذا الكون، ويرحل في جنباته ويقيم، ومن مختلف تضاريسه يصيغ معانيه ويعيد!! .

فإذا كان هذا شعور المسلم مع الكون الذي هو من خلق الله –،سبحانه – فإن الكافر المتنكر لحقيقة أن الله خالق كل شيء من أسرار هذا الكون الطائع لله – سبحانه – المسبح بحمده، فإذا ما فتح له شيء من أسرار هذا الكون البديع تراه يتبجح ويتطاول ويتكبر، ويستعين بأسماء مختلفة بدل الحمد وشكر الله على هذه المعارف، ولكن هذه الأسماء والمصطلحات تخدم كفره وتمرده على خالق هذا الكون البديع، رغم أنه يظل هو الشاذ عن مخلوقات الله صريحاً فيما يقوله من كفر، حيث لا يقول ما ينتظر قوله، وما يمكن قوله ! .

[٣] حقيقة أن الإنسان خلق سوياً :

لقد تقرر في كتاب الله العزيز أن الإنسان خلق في أحسن صورة من اللحظة الأولى قال : ﴿ **لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ** ﴾ [التين : ٤] .

وليس كما يزعم من لا دين لهم أصحاب مدرسة النشوء والارتقاء، بأن الإنسان كان أصله حيواناً ثم تطور فأصبح إنساناً ! ! كلا ورب الكعبة فقد جاء في

---

(١) رواه مسلم في صحيحه (٤ / ٢١٩٧) ، حديث رقم (٢٨٦٥) .

كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، القول الفصل في هذه الحقيقة فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٨) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩) فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ [الحجر:٢٨–٣٠].

وقال تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [التغابن: ٣].

[٤] حقيقة أن الإنسان يحتاج إلى التذكير :

وهذه الحقيقة من البدهيات عند من عرف دين الله سبحانه، لأن المسلم مهما كانت قوة إيمانه فقد يعتريه الضعف، ويتنكب الطريق في بعض مراحل حياته، لذلك جعل الله سبحانه برحمته سبيلاً إلى التذكير في نفوس المسلمين، فبعث لذلك الرسل، وأنزل الكتب، وسن للمؤمنين التذاكر فيما بينهم فقال: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات:٥٥].

وقال: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد:١٦].

[٥] الصبر على المشاق :

لا يخفى بعد أن ذكرنا الفوائد السالفة لثمرات دراسة التاريخ، أنه ينبغي أن نسجل الفائدة الخامسة والتي هي من الأهمية بمكان، فالفائدة تحمل في طياتها من معالم التربية الإسلامية الكثير، فكلما ازداد المسلم اطلاعاً على سير الأنبياء ـ عليهم السلام ـ تقوت عنده رابطة الانتماء لذلك السلف الصالح المبارك، ويتأكد له أنه يركن ويأوي إلى ركن عريق ضارب بأطنابه في تاريخ البشرية جميعاً، فإذا ما استقر ذلك في نفس المسلم رضي بما أصابه في سبيل الله، بل زاده ذلك ثباتاً على الحق وطمأنينة في النفس.

[٦] القيمة السياسية :

والآن نسجل الفائدة السادسة والتي من الأهمية بمكان، فالفائدة هذه تحمل في طياتها من معالم وأصول التربية في السياسة الشرعية، لأن معرفة التاريخ ودراسته دراسه واعية تكسب صاحبها الخبرة العلمية في كيفية التعامل مع أصناف الناس في كل مراحل الحياة، وتعينه إعانة فعلية في كيفية سياسة البلاد والعباد، وترشده إلى حسن التصرف في الأمور التي يمر بها!! لذلك اعتنى الخلفاء والحكام، والسلاطين، والقادة بدراسة التاريخ عناية فائقة، فإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على أن التاريخ يعيد نفسه، وتجارب الأمم قريبة من بعضها.

[٧] الحصانة الفكرية :

ويقصد بالحصانة الفكرية : إتقان البحث المنهجي التاريخي في معرفة ما أحدث من البدع والخرافات بعد عهد النبي ﷺ، لأن التاريخ منهج بحث ووسيلة من وسائل الكشف عن الحقائق وإثباتها، وقد استخدم كثير من العلماء المنهج التاريخي في كشف الأباطيل والخرافات وبيان المحدثات والبدع في الشرع، لأن الدين الحق هو ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه، وما لم يكن يومئذ ديناً فلا يكون بعدهم ديناً، ولقد وصف ﷺ الفرقة الناجية بقوله : [**ما أنا عليه وأصحابي**] (١) ولعل أبرز من استخدم هذا المنهج الإمام ابن تيمية وتلميذاه الحافظ ابن كثير، والعلامة ابن القيم.

يقول ابن تيمية - رحمه الله - وهو بصدد مناقشته لقضية المشهد المنسوبة للحسين بمدينة القاهرة فقال : « ولم يكن على عهد الصحابة والتابعين، وتابعيهم شيء من المشاهد في بلاد الإسلام – لا الحجاز، ولا أحد من أهل البيت، ولا صالح ، أصلاً بل عامة المشاهد محدثة بعد ذلك!! وكان ظهورها وانتشارها حين

---

(١) **انظر** : سلسلة الأحاديث الصحيحة للشيخ الألباني رقم (٢٠٣).

ضعفت خلافة بني العباس وتفرقت الأمة ، وكثرت فيهم الزنادقة المنتسبون إلى الإسلام ، وعلت فيهم كلمة البدع ، وذلك في دولة المقتدر » [١] .

ويقول أيضاً:« وفي أواخر المئة الثالثة ، فإنه إذ ذاك ظهرت القرامطة العبيدية القداحية بأرض المغرب ثم جاءوا بعد ذلك إلى أرض مصر، وقريباً من ذلك ظهر بنو بويه الأعاجم وكان في كثير منهم زندقة وبدع قوية، وفي دولتهم قوي بنو عبيد القداح بأرض مصر، وفي دولتهم أظهر المشهد المنسوب إلى عليّ رضي الله عنه بناحية النجف، وإلا فقبل ذلك لم يكن أحد يقول: إن قبر عليّ هناك ، وإنما دفن عليّ بقصر الإمارة بالكوفة » [٢] .

[٨] ومن فوائد التاريخ أن له فضائل أخلاقية قضائية :

لأنه يحفظ الحقائق مهما حاول الناس طمسها وإخفاءها، وبذلك ينصف الرجال الذين حاول معاصروهم تجاهلهم، أو تشويه تاريخهم وحركتهم، وإساءة الظن والقول فيهم، كما أنه يكشف الغطاء عن أدوار خيانية وانحرافات عقدية وسلوكية مارسها بعض الأشخاص الذين كانوا ملء سمع الدنيا وبصرها، بسبب مراكزهم وسلطانهم وإعلامهم مما يجعل معاصريهم يفترون فيكيلون لهم المدح والثناء، وينالون منهم التعظيم وتضفي عليهم ألقاب البطولة والحكمة والرأي وحسن السياسة والتدبير!! ، بيد أن التاريخ بما يحفظه من حقائق يصحح مثل هذه الأمور، ويزن الرجال بما قدموه لخدمة أمتهم وعقيدتهم من الخدمات الحقيقية لا الدعائية، والأمثلة على هذا كثيرة لا تحتاج إلى عناء البحث.

[٩] يعين على فهم الواقع :

لا شك أن من ثمرات دراسة التاريخ أنها تكسب الدارس فهماً للواقع والحاضر

---

(١)انظر : مجموع فتاوى ابن تيمية (٣٥/ ١٢٩).

(٢)رسالة تحت عنوان «رأس الحسين» لابن تيمية (١٦٧-١٦٨).

وتمده بالمقدرة على تحليل واقعه ودراسته، لأنه كما قيل في الأمثلة العربية: (ما أشبه الليلة بالبارحة)، وعند الإنجليز يقولون: (التاريخ يعيد نفسه)!! ، وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم من وحدة التصرفات عند تشابه الأقوال والبواعث عند قوم ما، قال تعالى: ﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ لَوْلا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ** ﴾ [البقرة: ١١٨].

وقال تعالى: ﴿ **كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ** ﴾ .

[غافر: ٥] .

وقوله تعالى: ﴿ **كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٥٢) أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ** ﴾ [الذاريات: ٥٢-٥٣] فهم لم يتواصَوْ بتكذيب الرسل فحسب، لذا صح القول: بأن كثيراً من القضايا المعاصرة لها جذور تاريخية بعيدة، فلذلك لابد لنا من معرفة الماضي البعيد وربطه بالحاضر القريب لكي نفهم ما يدور حولنا ونتفادى مشاكل حاضرنا بأقل خسائر ممكنة..

[١٠] معرفة القرون الفاضلة :

لا يخفى أن معرفة القرون الفاضلة التي قال فيها رسول الله ﷺ: [**خير أمتي قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**] [1] فمعرفة أهل القرون ومعرفة سماتهم وخصائصهم، وتراجمهم، وأخبارهم في طلب العلم والجهاد، وفي الزهد والعبادة، وفي كيفية بناء الدولة الإسلامية، وفي نشر العدل ، ودفع الظلم إلى غير ذلك من أحوالهم ورؤية النماذج الكثيرة الممتازة التي تعد بالآلاف، والتي قامت بتطبيق شرع الله في الواقع العملي ، **كذلك فإن ثمرة هذه المعرفة تتضح في جانبين هامين:**

---

(١) متفق عليه: انظر: اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان (٣ / ١٨١) .

الجانب الأول :

بيان البدع والحوادث ومعرفة وقت ظهورها ليتميز ما هو من الدين مما ليس منه .

الجانب الثاني :

إعادة الأمل وبعث الهمة لمحاولة تنقية المفاهيم الإسلامية مما لحق بها من الانحرافات، والقيام بالتطبيق العملي من جديد في واقع الحياة .

الفصل الثاني

أهمية المنهج في الدراسات التاريخية

لقد تقرر في علم اللغة العربية بأن مدلول كلمة النهج، والمنهج، والمنهاج، كلها متحدة في معنى واحد، وهذه المدلولات اللغوية: تعني الطريق الواضح البين، كما نص على ذلك الجوهري : (يقال: أنهج الطريق، أي: استبان وصار شيئاً واضحاً بيناً، ونهجت الطريق. أيضاً إذا سلكته، وفلان يستنهج سبيل فلان، أي: يسلك مسلكه) [١] .

فإذا كان ذلك معنى كلمة المنهج لغة، فمعناها اصطلاحاً: هو السبيل الفكري والخطوات العملية التي يتبعها الباحث في مساره العلمي بقصد تحصيل علم معين، وقد كان علماء المسلمين في القرون الأولى يعبرون عن المنهج بالأصول والقواعد، ولذلك وضعوا أصولاً وضوابط للبحث في مختلف العلوم مثل أصول الحديث (المصطلح) وأصول التفسير، وأصول الفقه وما إلى ذلك، أما المنهج ودلالته في الدراسات التاريخية، سواء بالكتابة والتأليف أم بالدراسة والتعليم، وهذه الشروط تتناول الكتاب ذاته والكتب التي يستمد منها علومه، كما أنها تعني بالغاية والهدف من الدراسة والكتابة، وتعني كذلك بالأسلوب والمصطلحات التي يستعملها، وهنا لابد من ملاحظة الفرق بين نوعين من دلالة كلمة (المنهج) وتحديد المراد بها، فقد تطلق ويراد بها التصورات، والقيم، والمبادىء التي يلتزمها الباحث في بحثه أوكلامه، كما أنها تطلق ويراد بها طريقة معينة في البحث العلمي لمادة من المواد العلمية، لذلك فإن لفظة المنهج وحدها إذا أطلقت تعني الطريق أو السبيل، ولكن يحدد المراد منها ما تضاف إليه، فإذا

---

(١) الصحاح، للجوهري(١/٣٤٦) مادة: نهج .

قلنا المنهج الإسلامي في دراسة التاريخ ، يدل ذلك على التصورات، والمبادىء والمفاهيم المنبثقة من الإسلام ، أما إذا قلنا منهج البحث التاريخي، أو منهج إثبات الحقائق التاريخية، فإنه يعني القواعد والطرق التي اصطلح على وضعها بغرض الإعانة على الوصول إلى صحة المعلومات ، والتأكد من صوابها، فيصبح المنهج بهذا المعني الأخير: أداة بحث يمكن استخدامها - إلى حد ما - من قبل مجموعة من الباحثين وإن اختلفت مناهج حياتهم، وعقائدهم، وتصوراتهم.

لا يخفى أن كلمة المنهج بالمعنى الأول ليست على إطلاقها، فإنها عند المسلم محكومة بالتصور الإيماني، والالتزام العقدي، ومقوماته، وقيمه، وتصوراته عن الله، والكون والحياة، والإنسان ونشأته ، ووظيفته في هذا الكون وغاية وجوده ومصيره، لذلك لابد للباحث المسلم من الالتزام بالمنهج الإسلامي وفق القواعد الشرعية والأصول العلمية، في منطلقاته، وتصوراته، وطريقة بحثه حتى يخدم بكتابته الإسلام بنشر مبادئه الصحيحة في العقيدة، وقيمه التربوية والخلقية في أوساط البشرية التائهة، وبتلك الأسس يستطيع المسلم أن يزن أعمال المؤرخين والباحثين في تفسيرهم للتاريخ، والحوادث، والمواقف العامة والخاصة!! .

وهذا المفهوم العقدي للمنهج والالتزام به في تلقي العلم ومناهج البحث والدراسة، هو مفرق الطريق بين الباحث المسلم وغير المسلم، فالباحث المسلم ينطلق في بحثه عن الإنسان وحركته وتفسير تاريخه من منطلقات علمية وشرعيه ثابتة.

أما الباحث غير المسلم فإنه لعدم إيمانه بالله - سبحانه - وبرسوله ﷺ يفسر الوجود وحقيقة الربوبية والعبودية لله ، ووظيفة الإنسان ودوره ومصيره، بالظنون والأوهام ويرجم بالغيب بدون دليل، ولذلك يكثر بين الباحثين الذين لا يؤمنون بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ رسولاً، الاختلافات الحادة، ويعيشون دائماً في اضطرابات وحيرة وشك، وفي صراع نفسي، وتشتت ذهني لا يصل

بهم إلى معرفة الحقائق على حقيقتها!! ولا شك أن كل هذه الأعراض والأمراض ذات تأثير مباشر على دراساتهم!! ومن أمثال هؤلاء، أولئك الشاردون عن منهج الله – سبحانه – ذلك المدعو إيليا أبو ماضي، الشاعر النصراني حين قال:

جئت لا أعلم من أين ... ولكني أتيت
ولقد أبصرت ... قدامي طريقاً فمشيت
وسأبقى سائراً إن شئت ... هذا أم أبيت
كيف جئت كيف أبصرت ... طريقي لست أدري!!

إلى أن قال هذا الشارد عن منهج الله:

ألهذا اللغز حل أم سيبقى أبديّاً ... لست أدري
ولماذا لست أدري ... لست أدري !![1]

فهو بهذه الأبيات يصور لنا حالة الضياع والقلق، والحيرة والشرود التي يعيشها هو وأمثاله من أبناء عصره الذين لا يؤمنون بالله رباً، ولا بالإسلام ديناً، ولا بمحمد ﷺ رسولاً !! .

يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله، حاكياً عن تجربة خاضها بنفسه في هذا المضمار بقوله: «ويختفي شعور كالشعور الذي عشته في فترة من فترات الضياع والقلق، قبل أن أحيا في ظلال القرآن وقبل أن يأخذ الله بيدي إلى ظله الكريم، ذلك الشعور الذي خلعته روحي المتعبة على الكون كله، فعبرت عنه بقول:

وقف الكون حائراً أين يمضي؟ ... ولماذا وكيف لو شاء يمضي؟
عبث ضائع وجهد غبين ... ومصير مقنع ليس يرضي

فأنا اليوم – ولله الحمد والمنة – أعرف أنه ليس هناك جهد غبين، فكل جهدي

---

(١) عبد اللطيف شرارة، إيليا أبوماضي،و مختارات من شعره، (٢١٥).

مجزي عليه، وليس هناك تعب ضائع، فكل تعب مثمر، وأن المصير مُرْضٍ ، وأنه بين يدي عادل رحيم، وأنا أشعر اليوم ولله الحمد والمنَّة ، أن الكون لا يقف تلك الوقفة البائسة أبداً، لأن روح الكون تؤمن بربها، وتتجه إليه، وتسبح بحمده، والكون يمضي وفق ناموسه الذي اختاره الله له في طاعة، وفي رضاً وفي تسليم، وهذا كسب ضخم في عالم الشعور والتفكير، كما أنه كسب ضخم في عالم الجسد والأعصاب فوق ما هو كسب ضخم في جمال العمل، والنشاط، والتأثر والتأثير» (١) .

وإنك لتجد في أبحاث الأوروبيين عن الحياة والإنسان ضروباً من التخمين والخبط والقول دون دليل، فهذا الدكتور (هـ. جـ. ويلز) صاحب كتاب « معالم التاريخ الإنسانية » يخصص الجزء الثاني من كتابه في البحث عن كيفية تكوين الإنسان، ومراحل تطوره!! فيبحث في القردة، وأشباه الإنسان (تالي النياندر) وإنسان العصر الحجري والعصر الجليدي على أساس أن هذا الإنسان الذي عاش هذه الحقبة من الزمن غير الإنسان المعاصر في تكوينه الجسمي والعقلي، وفي مداركه وعواطفه إلى آخر هذه الأحكام التي لا دليل عليها، والحقيقة هي أن أول البشر هو آدم عليه السلام، و الله خلقه بيده - تبارك وتعالى - ومن تراب ونفخ فيه من روحه وجعله في أحسن تقويم وعلمه الأسماء كلها وأسجد له الملائكة.

ومن المؤسف حقاً أن يكون هذا البحث الذي يعتمد على الظنون والأوهام ويعرض عن الوحي الرباني ويأخذ أدلته عن نشأة الإنسان من الحفائر والهياكل العظمية والجماجم الحيوانية، هو طريق كثير من الباحثين المسلمين الذين كتبوا فيما يسمي بفلسفة التاريخ!! .

واعلم رحمك الله : أنه لا يكفي في الدراسات الإسلامية على مختلف

---

(١) في ظلال القرآن (٦ / ٣٣٥٢).

أنواعها لكي يصل الباحث فيها إلى الحق والصواب أن يتبع الطرق المنهجية فقط!! بل لابد مع ذلك من توفر شروط نفسية وإيمانية في الباحث، لأن الباحث المسلم الواعي بدينه ، العارف بمقاصده واهدافه يتميز عن غيره بأن تصوراته وأهدافه وقناعته الفكرية متلقاة من مصادر ربانية، وبذلك تكون نتائج دراساته أقرب للعدل والصواب قال تعالى: ﴿ **لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ** ﴾ [الحديد:٢٥] .

فالكتاب الذي جاءت به الرسل هو الذي يتلقي منه الحق والعدل، ويقام على منهجه القسط في الأرض بين الناس، ولا يكون الحق والقسط في غير كتب الله ووحيه المنزل على رسله [1] .

لذلك فإن من لوازم المنهج الإسلامي في كتابة التاريخ أن يكون المشتغل بعلم التاريخ الإسلامي وتفسير أحداثه ذا تصور سليم وعقيدة صحيحة، ودراية بعلوم الشريعة ومقاصدها، إضافة إلى تخصصه التاريخي وتمكنه من ذلك، وإلا لأصبح التاريخ الإسلامي ألعوبه لمئات المناهج والأهواء!!، لأن هذا التاريخ هو في الحقيقة تاريخ عقيدة ذات تصورات وأحكام ثابتة مستمدة من مصدر صادق وثيق من وحي العليم الخبير القدير الحكيم السميع البصير المحيط علمه بما كان ومايكون: ﴿ **هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** ﴾ [الحديد:٣]، فالالتزام بالمنهج الإسلامي في الكتابة التاريخية ضرورة علمية ، ومصلحة إنسانية ، ووظيفة شرعية !! .

يقول الأستاذ سيد قطب - رحمه الله - :

« إنه لمن الصعب التصور بإمكان دراسة الحياة الإسلامية كاملة دون إدراك كامل لروح العقيدة الإسلامية ؛ وإدراك التصور الإسلامي عن الله والكون والحياة

---

(١) راجع: تفسير الآية[٢٥] من سورة الحديد، في ابن كثير.

والإنسان ولطبيعة استجابة المسلم لتلك العقيدة ، وهذه الخصائص لا يوجد عند غير الباحث المسلم الملتزم بإسلامه » [١] .

إنه من مصلحة الإنسانية عموماً أن يتولي كتابة تاريخها وتفسيره بمنهجية علمية أصحاب العقيدة الإسلامية الحقة، لأنهم ينظرون بمنظار هذه العقيدة الشاملة في نظرتها للحياة وللإنسانية، والتي لا تقبل تفرقة بين السلوك العملي وبين الاعتقاد القلبي، والباحث المسلم أولي بتفسير التاريخ البشري كله فضلاً عن تاريخه الإسلامي، وذلك أنه يملك المنهج السليم الذي يزن به كافة الأشياء والقيم وأحداث التاريخ، كما لا يخفي أن ترك الالتزام بالمنهج الإسلامي في كتابة التاريخ يوقع الباحث في أخطاء كبيرة تزل بها الأقدام، فهذا محمد عبد الله عنان المؤرخ المصري كاتب من أبناء المسلمين مشهور بدراساته التاريخية يجعل هذا العنوان (أساطير دينية توجه سير التاريخ) !! ، ففي أحد فصول كتاب له سماه « مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام »، أنكر في هذا الفصل ثلاث قضايا مهمة من قضايا العقيدة وهي : المهدي، ونزول عيسي ابن مريم عليه السلام في آخر الزمان، ويوم القيامة!! ، وجعلها من طائفة الأساطير وعرضها عرضاً فيه سخرية واستهزاء بالمؤمنين بها، ولم يفرق بين الكذابين المستغلين لجهل الغوغاء وبين حقائق هذه القضايا العقدية الثابتة بنصوص الشرع، وإجماع الأمة المسلمة سلفاً وخلفاً !! .

وبعد ، فلا ريب أن من أولويات القواعد المنهجية وبدهياتها عدم إنكار القضايا العقدية وغيرها من المجمع عليها بسبب وقوع انحراف عند بعض الناس في تطبيقها ، لأن الانحراف لا يعالج بانحراف آخر ، وإنما يعالج الانحراف بإصلاحه ، وإيضاح الحق وتعرية الباطل وكشفه ، فإذا وجدنا من يستغل الأحاديث الواردة في المهدي – مثلاً – فيدعي لنفسه المهدية لغرض سياسي، أو

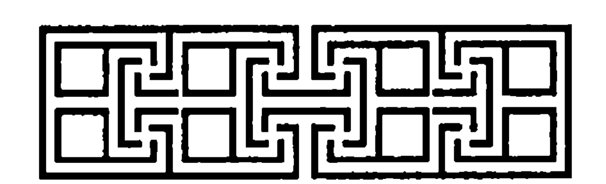
---

(١) في التاريخ فكرة ومنهاج (٤٦) .

اقتصادي، كما حدث ذلك في الواقع التاريخي عندما ادعي العبيديون أن عبيد الله بن ميمون القداح هو المهدي !! ، وكذلك ادعي محمد بن تومرت المغربي ذلك وغيرهم كثير !! .

لذلك نقول: بأن العلاج الصحيح لفهم تفسير التاريخ ليس بإنكار النصوص الصحيحة والإجماعات الصريحة، ووصفها بالأساطير، ورميها باللامعقولية !! كلا. بل يكون بإحقاق الحق وإبطال الباطل ، واتباع الأمانة المنهجية العلمية في ذلك.

والمنهجية الإسلامية منهجية ملتزمة لتمسكها بالفضائل الخلقية ، وأصيلة لاستقلالها عن غيرها من المناهج واستمدادها من الأصول الشرعية ورجوعها للمصادر الأصلية ، ومن شأن هذه المنهجية الأصيلة والملتزمة أن تقي الباحث – بعون الله – من الانحراف والزلل وتصحح له رؤيته، وتُقّوم أحكامه ونتاجه، حتى وإن وقع في خطأ مما لا يسلم منه بشر غير معصوم فإنه سرعان ما يرجع عنه عندما يكتشف ذلك، أو ينبه عليه، فلابد لمن يشتغل بكتابة التاريخ الإسلامي، وتفسير حوادثه، أن يكون مسلماً ملتزماً بعقيدة « **ما أنا عليه وأصحابي** » (١) ، عالماً بشريعة الإسلام وأحكامها .



(١) حديث صحيح ، سبق تخريجه (ص ٤٣) .

المبحث الأول

مصادر طرق إثبات الحقائق التاريخية

لقد اعتني علماء المسلمين بوضع قواعد وضوابط يعرفون بها صحة المرويات واتبعوا منهجاً دقيقاً في نقدها، وينبغي للمؤرخ المسلم أن يطلع على ذلك ويستفيد منه في دراساته التاريخية، والمصادر المهمة في هذا الشأن، هي كتب (مصطلح الحديث) أو (أصول علم الحديث) وأسس هذا العلم موجودة في الكتاب العزيز في مثل قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا** ﴾[الحجرات: ٦] .

وفي السُنَّة المطهرة في مثل قوله ﷺ: « **نضَّر الله آمرأً سمع منا شيئاً فبلغه كما سمع، فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أوعي من سامع** »[١] ففي قوله ﷺ: «**كما سمع** » نص في دقة التحري.

وكان الخلفاء الراشدون أول من سَنَّ للمحدثين التثبت في الرواية واحتاطوا في قبول الأخبار (فقد جاءت الجدة إلى أبي بكر تلتمس أن تورث، فقال: ما أجد لك في كتاب الله شيئاً وما علمت أن رسول الله ﷺ ذكر لك شيئاً، ثم سأل الناس، فقام المغيرة فقال: « حضرت رسول الله يعطيها السدس ، فقال له: هل معك أحد؟ فشهد محمد بن مسلمة بمثل ذلك فانفذه لها »[٢] ، وكذا روي عن عمر بن الخطاب موقف مشابه مع أبي موسي الأشعري[٣] ، ومن هنا ظهر علم نقد الأخبار والسؤال عن الرجال الرواة، فدونت أخبارهم ورحلاتهم وسنين

---

(١) رواه الترمذي في كتاب العلم (٥ / ٣٤) وقال: حسن صحيح

(٢) تذكرة الحفاظ: للذهبي (١ / ٢)

(٣) المرجع السابق (١ / ٦)

ولادتهم ووفياتهم، وشيوخهم وتلاميذهم، ليعرف المتصل والمنقطع من الأسانيد، وظهر كذلك علم الجرح والتعديل وهو الكلام في عدالة الرواة لمعرفة الثقة من غيره، كما دونوا علم علل الأحاديث سواء علل الأسانيد أو علل المتون، وقد دون العلماء هذه القواعد وظهرت في كتب خصصت لهذا الشأن مثل كتاب المحدث الفاصل بين الراوي والواعي، للقاضي أبي محمد الحسن بن عبد الرحمن الرامهرمزي المتوفى(٣٦٠هـ) [١] وكتاب معرفة علوم الحديث، للحافظ أبي عبد الله الحاكم النيسابوري، المعروف بابن البيع، المتوفيسنة ٤٠٥ هـ [٢] وكتاب الكفاية في علم الرواية للإمام الحافظ أبي بكر الخطيب البغدادي، المتوفي سنة (٤٦٣ هـ) [٣]، وكتاب الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع للقاضي عياض اليحصبي البستي، المتوفيسنة ٥٤٤ هـ ، وكتاب علوم الحديث للحافظ أبي عمرو عثمان بن صلاح الدين الكردي المتوفيسنة (٦٤٣ هـ) [٤] فهذه الكتب وغيرها تبين طرق نقد الأخبار وكيفية الموازنة والترجيح بينها عند التعارض، كما أن علماء الجرح والتعديل قد قاموا بجهد في هذا الميدان من أمثال الإمام علي بن المديني المتوفىسنة (٢٣٤ هـ) [٥]، وسيد الحفاظ يحيى بن مَعين المزني المتوفىسنة (٢٣٣ هـ) [٦]، وأحمد بن حنبل المتوفىسنة (٢٤١ هـ)، والبخاري المتوفىسنة (٢٥٦ هـ)، وأبي حاتم الرازي المتوفىسنة (٢٧٧هـ) [٧] وأبي زرعة المتوفىسنة (٢٦٤ هـ) [٨] ،حيث تكلموا في الرجال وفي نقد متون الأحاديث وبيان عللها. ودونوا ذلك في مؤلفات خصصت لهذا الشأن فكتب الإمام البخاري ثلاثة كتب هي التاريخ الكبير، والتاريخ الأوسط، والتاريخ

---

(١) المرجع السابق(٣/٩٠٥).
(٢) المرجع السابق(٢/١٠٣٩)
(٣) المرجع السابق(٣/١١٣).
(٤) المرجع السابق(٤/١٣٠٥)
(٥) المرجع السابق(٤/١٤٣).
(٦) المرجع السابق(٢/٤٢٨)
(٧) المرجع السابق(٢/٥٦٧).
(٨) المرجع السابق(٢/٥٥٧)

الصغير، والإمام ابن أبي حاتم دوّن كلام أبيه ، وأبي زرعة في كتاب سماه الجرح والتعديل، وابن معين له كتاب دونه تلاميذه باسم تاريخ ابن معين [١] وكذلك ابن حنبل مروي عنه كتاب العلل، وأيضاً علي بن المديني له كتاب في علل الحديث [٢] ، وقد كتب كل من محمد بن سعد، وخليفة بن خياط كتاباً في الطبقات، كما كتب ابن حبان البستي المتوفى سنة (٣٤٥ هـ) [٣] كتاباً في الثقات، وكتاباً في المجروحين من المحدثين. وأيضاً كتب الخطيب البغدادي كتاباً جامعاً في أسماء العلماء والرواة الذين نشأوا في بغداد أو وردوا عليها أثناء رحلاتهم العلمية، كما كتب ابن عساكر المتوفى سنة (٥٧١ هـ) [٤] كتاباً مماثلاً سماه تاريخ دمشق.

وهناك كتب تخصصت في الترجمة للرواة الذين وردت أسماؤهم في الكتب الستة ، مثل الكمال في أسماء الرجال لعبد الغني المقدسي ، المتوفى سنة (٦٠٠هـ) [٥] ، وتهذيب الكمال للحافظ المزي المتوفى سنة (٧٤٢هـ) [٦] ، وتذهيب التهذيب للحافظ الذهبي، وتهذيب التهذيب للحافظ ابن حجر.

وخصصت بعض الكتب لأسماء الضعفاء من الرواة من أكثرها تداولاً كتاب ميزان الاعتدال في نقد الرجال للذهبي، وكتاب لسان الميزان لابن حجر العسقلاني. فكل هذه الكتب وغيرها مما لم نذكرها - لأننا لا نقصد الاستقصاء - لازمة للمؤرخ ومعينة له على نقد الروايات والترجيح بينها، ومعرفة صحيحها من سقيمها، أما كتب التاريخ الإسلامي المتخصصة سواء كانت مصادر أولية مثل السيرة النبوية لابن إسحاق، ومغازي الواقدي، وفتوح البلدان

---

(١) كتاب التاريخ ليحيى بن معين بتحقيق الدكتور أحمد محمد نور سيف.

(٢) العلل ومعرفة الرجال بتحقيق الدكتور مصطفى الأعظمي.

(٣) تذكرة الحفاظ (٣ / ٩٢٠).

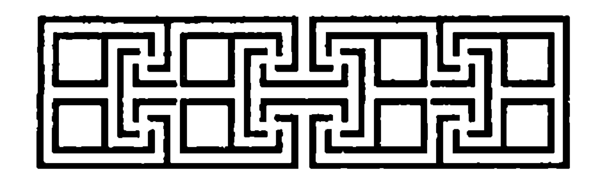
(٤) المرجع السابق (٤ / ١٣٢٨).

(٥) المرجع السابق (٤ / ١٣٧٢).

(٦) المرجع السابق (٤ / ١٤٩٨).

للبلاذري ، وفتوح الشام لابن إسماعيل الأزدي، وفتوح مصر لابن عبد الحكم، وكتاب تاريخ خليفة بن خياط، والأخبار الطوال للدينوري، وتاريخ الأمم والرسل لابن جرير الطبري ، وجمهرة النسب للكلبي، ونسب قريش لمصعب الزبيري .

أو كانت مصادر ثانوية، فإنها تحوي مادة ومعلومات تاريخية تحتاج إلى نقد وغربلة لمعرفة الصحيح من الزائف ، فهي مصادر في المعلومات التاريخية وليست مصادر في الأخبار.



المبحث الثاني

مصادر تفسير الحوادث والحكم عليها

لما كان منهج كتابة التاريخ الإسلامي وتفسير حوادثه يعتمد في أصوله على التصور الإسلامي، ويجعل العقيدة الإسلامية ومقتضياتها هي الأساس في منطلقاته المنهجية، وفي تفسير حوادثه والحكم عليها، لذا يمكن القول بأن مصادر منهج كتابة التاريخ الإسلامي في هذا الجانب هي نفس مصادر الشريعة: القرآن، والسُّنَّة، والإجماع، والقياس.

يعلل ذلك الدكتور أكرم ضياء العمري بقوله:(لأن التفسير الإسلامي للتاريخ منبثق من تصور الإسلام للكون والحياة والإنسان ، فهو يقوم على الإيمان بالله تعالى، وكتبه، ورسله، وباليوم الآخر ، وبالقدر خيره وشره من الله تعالى، فهو لايخرج عن دائرة المعتقدات الإسلامية كما أنه مبني على دوافع السلوك في المجتمع الإسلامي الأول مما يجعل حركة التاريخ الإسلامي ذات طابع متميز عن حركة التاريخ العالمي لأثر الوحي الإلهي فيه) [١] .

لذا ينبغي في تفسير التاريخ الاستمداد من هذه المصادر الشرعية لمعرفة دوافع السلوك في المجتمع الذي نشأ وتكوَّن على هدي الشريعة وشكل حياته وتصوراته وفقاً لها وكانت تعليماتها وأوامرها ونواهيها موجهة لكثير من حركاته في الدعوة إلى الله، وفي الجهاد في سبيل الله ، وفي التعليم وفي بناء الدولة ومؤسساتها الإدارية والاجتماعية ، وفي علاقات المجتمع الإسلامي مع بعضه ومع غيره من المجتمعات.

ولكي يكون تفسيرنا لحركة التاريخ الإسلامي صحيحًا وواقعيًّا فإنه يلزمنا

---

(١) إعادة كتابة صدر التاريخ الإسلامي للدكتور/أكرم ضياء العمري (٣)

معرفة وفهم العوامل التي شكلت المجتمع وتحكمت في حركته وبناء تصوراته وثقافته ، وموازنة هذه الحركة التاريخية بالأوامر والنواهي الشرعية، وكم منها متسق مع هذه الأوامر والمتطلبات؟ وكم منها مائل عنها؟ لنعرف مدي الأثر الذي أحدثه الإسلام في حياة المجتمعات الإنسانية ، ولنعرف كذلك قيمة الخسائر التي لحقت بالمجتمع الإنساني من جراء الانحراف والبعد عن شريعة الله، وندرك أيضاً فضل الله ورحمته بهذه البشرية، إذ أخرجهم بهذا الدين من الظلمات إلى النور ومن الجور إلى العدل ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة ، ومن الشقاء إلى السعادة ومن الخوف والقلق إلى طمأنينة الإيمان وأمنه.

قال تعالى: ﴿ **الَر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ** ﴾ [إبراهيم : ١] .

فالمنهج الإسلامي في كتابة التاريخ يستمد نظرته ومنهجه من أصول الإسلام ومصادره وهذا سر المفارقة بينه وبين المناهج، ففي مجال تفسير الحوادث التاريخية نجد أنه ليس تفسيراً تبريرياً بل تبرز فيه خصائص الإيمان المستعلى على ما سواه.

يقول الدكتور أكرم العمري في ذلك: (إنه ليس تفسيراً مادياً يحصر المؤثرات على حركة التاريخ البشري في العوامل المادية مثل تبدل وسائل الإنتاج – كما في الفكر الماركسي – أو التفسيرات المعتمدة على أثر البيئة الخارجية – من مناخ وجغرافيا واقتصاد – كما في الفكر المادي الغربي، بل هو يوضح دور الإنسان ومسئوليته عن التغيير الاجتماعي والتاريخي في إطار المشيئة الإلهية) [١] .

لا يخفي أن الرجوع للمصادر الشرعية والتمكن من فهم العقيدة الإسلامية والالتزام بها وإدراك مدي تأثيرها على معتنقيها شروط لازمة للمشتغل بكتابة وتفسير التاريخ الإسلامي، فإذا ما اختل شيء منها أتت الدراسة ناقصة شوهاء

---

(١) المرجع السابق(٣) .

متأثرة بالأحوال الفكرية والاجتماعية المحيطة بالباحث ، ولذلك وقع كثير من الكتاب المعاصرين في أخطاء كثيرة بعضها راجع لتقصيرهم في العودة إلى المراجع الشرعية، وبعضها ناتج عن الغبش في التصور، وعدم وضوح الرؤية بالغزو الفكري الأوروبي .

كما أنهم نظراً لانطلاقهم الخاطىء في فهم الشريعة وفي معرفة معني العبودية لله ولوازمها، تراهم يأخذون في الاعتذار عن التشريعات والنظم الإسلامية ، ويبحثون لها عن سند تاريخي قديم بل يحاولون التقريب والملائمة بينها وبين النظم والتشريعات السائدة في الواقع الجاهلي ، وهذا المسلك قلب للحقائق والواقع ، إذ تكون الجاهلية ، ونظمها كأنها هي الأصل ، والشريعة ينبغي أن تلائمها وتوافقها !! .

وهذا الأسلوب التبريري لما يشرعه الله ناتج كما قلنا من الانحراف التصوري وعدم الاعتزاز والاستعلاء بالإيمان والإسلام ، وذهول عن قاعدة مهمة وهي : **أن الشريعة الإسلامية لا تُستفتى ولا يُطلب منها الحلول لمشكلات نشأت في مجتمع لا يطبق الإسلام .**

إن أسلوب التخريجات لمثل هذه القضايا والأوضاع المخالفة للشرع الإسلامي أسلوب مرفوض، إذ ليس من المعقول أن نطلب من الشريعة الإسلامية حل مشكلات الاقتصاد أو العلاقات الاجتماعية للشعب الأمريكي مثلاً!! لأنه لابد أولاً من قبول العقيدة الإسلامية والتسليم لشريعة الله وحاكميته وسلطانه، ثم هي بعد ذلك التسليم والالتزام، تقوم عوج الحياة على منهاجها لا أن نحاول إبقاء عوج الحياة الجاهلية بتسويغ انحرافها وتبريره بفهم متعسف لنصوص الشريعة.

ومن هنا يتبين لنا أهمية الرجوع للمصادر الإسلامية والتلقي منها والالتزام بأحكامها وأن ذلك يوصل بإذن الله إلى نتائج طيبة.

المبحث الثالث

سمات المنهج العلمي عند علماء المسلمين

لا ريب أن سمات المنهج العلمي عند المسلمين واضحة وجلية ،لذلك نحاول أن نلخصها في عدة نقاط حتى يستفيد منها طلبة العلم في بحوثهم العلمية :

[١] استعمال الدليل والوثيقة بعد التأكد من صحتها .

[٢] حُسن الاستدلال باتباع التنظيم والترتيب الملائم للأدلة مع حُسن العرض وتحرير للمسائل .

[٣] الإيمان بكل ما دل عليه الكتاب والسُّنَّة ومن ذلك الإيمان بالغيب، وبالجزاء والحساب والقضاء والقدر، ورد كل ما خالفهما .

[٤] الأمانة في استقصاء الأدلة وإيرادها مع الجمع والترجيح بين الروايات المختلفة وفقاً للقواعد المقررة مع الاستعانة بأقوال العلماءالثقات .

[٥] بيان المصادر والمراجع التي أخذت عنها مع الضبط المتقن في نقل الأقوال ونسبتها لأصحابها .

[٦] الاعتماد على النصوص الشرعية والحقائق العلمية وعدم الارتباط بالأوهام والطلاسم والظنون والتحرر من ذلك .

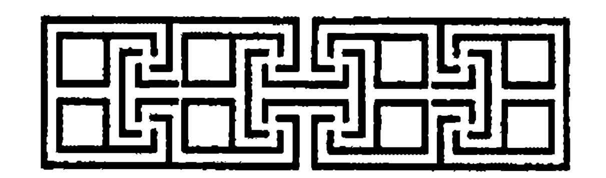
[٧] التجرد من الهوى والميل الذاتيين .

[٨] عدم قبول المتناقضات، وتقديم المبادىء على الرجال ولذلك لا يسلمون لما ينقل عن المشايخ وهو مخالف للدين، ويقولون : هو أحد أمرين إما كذب عليهم أو غلط منهم .

[٩] حُسن الأدب مع كلام الله سبحانه وتعالى ومع الأنبياء ـ عليهم السلام ـ والعلماء والابتعاد عن التجريح الشخصي والاقتصار في النقد على بيان الأخطاء.

وبعد:

فهذه هي القواعد العلمية في البحث التي اتبعها المسلمون في كتابتهم ومؤلفاتهم ، وكلها تنطلق من التزامات خلقية ، ومبادىء شرعية، لأن الأمر بالصدق والأمانة ، ومجانبة الهوى ، وترك القول بدون علم ، والوقوف بالعقل عند حدود القدرات البشرية، هو مما يتقرب به المسلم إلى الله ويلتزمه على أنه عبادة مأمور بها.



المبحث الرابع

غاية المنهج في كتابة التاريخ الإسلامي ووسائل تحققه

لا يخفي أن منهج كتابة التاريخ الإسلامي يقوم في جانبه الفكري والتصوري على المبادىء والقيم الإسلامية. ويستمد من التصور الصحيح لقضايا العقيدة والإيمان ، لذلك فإن غايته ووجهته،مرتبطة بغاية العقيدة الإسلامية فهو يسعي لتكميل الغاية الأساسية من خلق الإنسان، وهي تحقيق العبودية لله سبحانه وتعالى ، بإقامةشريعتة ، وينبغي أن لا يكون تدوينه ودراسته بدون غاية واضحة وهدف يخدم عقيدته وتصوره الإيماني.

إنه لابد أن يربط علمه التاريخي بعقيدته ومنهجه لكي يستفيد من الأحداث التاريخية دروساً وتوجيهات مثمرة، لكي يدرك من خلال الواقع سُنن الله وقدرته وهيمنته على الثمرات التي يرجوها من دراسة التاريخ، فالتزام الباحث بمنهج العقيدة، يرسم له طريقة.التعامل مع الحدث وكيفية معالجته ودراسته وأخذ العظة منه.

وهكذا يتضح لنا أن الارتباط بالعقيدة الإسلامية في تصوراتها وأحكامها هو الغاية الأولي في منهج كتابة التاريخ عند المسلم ، فهو لا يخالف مبدأ ولا حكماً منها، لا ينقاضه لا في كتابته وتدوينه للتاريخ ولا في تفسيره للحوادث

بل عليه أن يستحضر تلك الأحكام والأهداف حال كتابته، وأن يلتزم بها في الارتباط بالعقيدة الإسلامية والانطلاق منها كهدف وغاية في المنهج التاريخي، كما أن المنهج التاريخي يعتبر وسيلة من وسائل تثبيت العقيدة وتحقيقها في الواقع العلمي ، فالالتزام بينهما وثيق ، ككل عمل المسلم الذي يلتزم بعقيدته ويسعى لتطبيقها في واقع الحياة.

كما أن غاية المنهج الإسلامي في دراسة التاريخ الكشف عن الحقائق التاريخية وإظهارها والقول بالحق فيها ؛ وفقاً للمفاهيم والمقاييس الإسلامية ؛ لأن المسلم مأمور بإظهار الحق ، والقول به حتى ولو كان ذلك ضده أو ضد قومه أو عشيرته أو من يحبهم ، لأن الله لا يقبل منا تزوير الحقائق أو إخفائها ، قال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا** ﴾ .

[النساء : ١٣٥] .

وإنما عليه أن يعرض ذلك ولكن في مجاله وبحجمه دون تضخيم لهذه الأخطاء ، أو تشنيع بها ، بل يعرضها باتزان موضحاً الظروف والملابسات التي صاحبت ذلك وأدت إليه ، وعليه أن يوضح الموقف الشرعي في مثل هذه الحالة وفقاً للمقاييس والأحكام الشرعية، كما أن الخطأ يعتبر مجالاً من مجالات التربية والإصلاح حتى لا يتكرر وقوع مثله مستقبلاً . والأسوة في ذلك طريقة القرآن الكريم في عرضه للأحداث التاريخية، فإنه لا يجامل المؤمنين فيخفي ما وقع منهم من أخطاء ، وإنما يذكر ما وقع منهم من خطأ ويعيبه عليهم ويطلب منهم العدول عنه. كما أنه يذكر ما في الجانب الآخر – الكفار – من خير أو شر، قال تعالى موضحاً ما وقع من المؤمنين من المخالفة في غزوة أُحد : ﴿ **وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [آل عمران : ١٥٢] .

وقال أيضاً سبحانه: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ** ﴾ .

[آل عمران : ١٥٥] .

وقال سبحانه: ﴿ **وْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ**

يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين (٤٧) ﴾ [التوبه : ٤٧] .

ففي هذه الآيات السابقة نجد أن الله سبحانه وتعالى قد ذكر ما وقع من بعض المؤمنين من أخطاء ، ولم يجاملهم بالسكوت على شيء من ذلك ، ولكنه أيضاً لم يشنع عليهم بهذا الخطأ ، ويخفي الجانب الآخر من محاسنهم ، أو يوقعهم في اليأس وعدم إمكانية الإصلاح ، وإنما طلب منهم تعديل الخطأ ووعدهم بالعفو والمغفرة .

قال تعالى مبينًا حال الأعراب ليعلمنا الاعتدال وعدم غمط الحق ، أو إخفاء الباطل : ﴿ الأعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله والله عليم حكيم (٩٧) ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرما ويتربص بكم الدوائر عليهم دائرة السوء والله سميع عليم (٩٨) ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول ألا إنها قربة لهم سيدخلهم الله في رحمته إن الله غفور رحيم ﴾ [التوبة : ٩٧ - ٩٩] .

وقريب من هذا المعنى قوله تعالى : ﴿ ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائما ﴾ .

[آل عمران : ٧٥] .

وهكذا فالمنهج الإسلامي في دراسة التاريخ منهج وصفي ومعياري ، فهو يصف الحادثة التاريخية ويستكمل جوانبها المختلفة ويتحقق من صحة الوقائع بكافة وسائل النقل وإثبات الحقائق التي يتميز بها منهجه العلمي، ثم لا يكتفي بهذا الوصف والعرض للوقائع التاريخية بعد أن يتحقق من صحتها وإنما يحاول أن يزن هذه الوقائع بمنهجه المعياري وفقاً للمقاييس والمفاهيم والتصورات الإيمانية . فالأحكام الشرعية والمفاهيم الإيمانية هي الميزان المعياري، الذي توزن به الأحداث والأشياء والقيم والنظم قال تعالى : ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ﴾ [الحديد : ٢٥] .

وباتباع هذا المنهج في الدراسة تحصل العبرة والتوجيه، وتتحقق الثمرة من دراسةالتاريخ ، وهي تقويم سلوك الإنسان بما يوافق الحق مع بيان خطر الانحراف واتباع الباطل وترك العمل بمنهج الله الحق، ومن الغايات التي يسعي المنهج الإسلامي إلى تحقيقها من دراسة التاريخ هي استخدام الأحداث التاريخية في تحقيق الأهداف التعليمية والتربوية لتقويم مسيرة الأمة، والإسهام في رسم خط سيرها وتحديد ملامح مستقبلها ، وقد قرر القرآن الكريم والسُّنَّة النبوية في عدة مواضع مبدأ استخدام الأحداث التاريخية وجعلها مجالاً لتربية الأمة الإسلامية ، وقد جعل الزمن كله ماضيه وحاضره ومستقبله ميداناً لهذا الإعداد وهذه التربية، ففي الماضي عرض تاريخ الأمم السابقة وتاريخ الأنبياء والرسل، وبين مواقع تلك الأمم من الدعوة إلى الله ومن رسلهم الذين أرسلوا لهم ثم أوضح نهاية كل أمة من هذه الأمم ، وبين السمات المشتركة في تاريخ هذه الأمم وفي مواقعها من أنبياء الله، وعلى ضوء هذا الموقف من الرسول ورسالته يتحدد الحكم على كل أمة ويعرف مصيرها ونهايتها ، في الحاضر - وقت نزول القرآن - عرض القرآن كثيراً من أحداث السيرة النبوية ومغازي رسول الله ﷺ، وبين مواقف الناس من الدعوة وأنهم ثلاثة أصناف مؤمن وكافر ومنافق، وقد استخدم الأحداث التي تقع من هذه الأصناف في تربية المؤمنين وإعدادهم وفي كشف أعدائهم ودسائسهم خاصة المنافقين، وهي أحداث عايشوها مباشرة واشتركوا في وقائعها، فعقب عليها القرآن كاشفاً عما في الأحداث والمواقف من الصواب، وما فيها من الخطأ، لكي يأخذ المسلمون الدروس كاملة ويعرفوا أسباب نصرهم وأسباب هزيمتهم.

ومن المعلوم أن التربية بالأحداث المعاصرة أبلغ وأدعي للاستجابة وسرعة التأثير،ذلك أن النفس البشرية تتأثر بالحدث الذي عايشت وقائعة أكثر من تأثيرها بشيء آخر، فيكون استثمارها لهذا التأثير في التربية والتوجيه الصحيح أضمن لسرعة الاستجابة، وفي الزمن المستقبل وعد الله المؤمنين بالنصر والتمكين

في الأرض وجعل لهذا الوعد شرطاً - هو عبادة الله لا شريك له - مما حفز همم المؤمنين وجعلهم يعملون لتحقيق هذا الشرط لتحصل لهم ثمرته في الحياة وقد تحقق على أيدي الجيل الأول من هذه الأمه لما حققوا الشرط المطلوب فأورثهم مشارق الأرض ومغاربها ومكن لهم فيها ، ولا يزال هذا الأمر يتحقق للمؤمنين في مختلف العصور والبقاع كلما حققوا شرطه ، بل إن آيات القرآن وأحاديث رسول الله ﷺ قد أوضحت من معالم المستقبل لما هو أبعد من الحياة الدنيا، وهي الحياة الآخرة ، وما سيكون فيها من الأحداث ، لتوسع نظرة المؤمن للحياة وللزمن وللتاريخ ، فتكون معه زاوية الرؤية أوسع ، والنظر لديه أرحب وأشمل ، وأقدر في الاستيعاب والتحليل.

كما أن الشريعة الإسلامية قد أعطت أحداث آخر الزمان أو الفتن والملاحم، وأشراط الساعة كثيراً من الاهتمام والإيضاح حتى يكون المسلم على وعي تام ومعرفة بهذه الأحداث المستقبلية، وهي أحداث تعطي إشارات وعلامات تذكر المسلم وتحثه على سلوك الطريق السوي، ولذلك لا تفجأه مثل هذه الأحداث أو تعميه عن استبانة طريق الحق، لأن الذي يعلم ويدرك سبب الأحداث ومصدرها يعرف كيفية تفاديها أو مواجهتها. وهذا العلم يعطيه مقدرة على مواجهة المواقف، ويخالف الذي يجهل سبب الأحداث ومصدرها ، فإنه لا يدرك السُنن الربانية ، وتفاجئه الأحداث وهو لا يعرف سببها الحقيقي ، فيورثه ذلك حيرة وقلقاً.

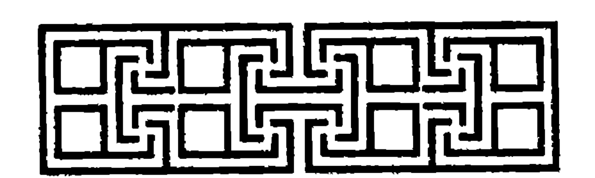
ومن أهم الغايات التي يحققها المنهج الإسلامي في الدراسة التاريخية :

بيان فساد التصورات والعقائد الجاهلية، وتعريتها ببيان تناقضها ليحذر المسلم منها، هذه الغاية مهمة جداً في حياة المسلم ليستقيم تصوره فلا يختلط بشيء من المفاهيم والتصورات الجاهلية؛ لأنه كما قيل: وبضدها تتميز الأشياء، فالتصورات والقيم والمبادىء الجاهلية مضادة للإيمان بالله، ومن مقتضيات الإيمان

بالله البراءة من التصورات الجاهلية والكفر بها قال تعالى: ﴿ **فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى** ﴾ [البقرة: ٢٥٦] .

وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه :

« ينقض عرى الإسلام عروة عروة من نشأ في الإسلام ولم يعرف الجاهلية » ، فمعرفة تاريخ الجاهلية وتصوراتها وقيمها تزيد المؤمن إيماناً وطمأنينة إلى ما عنده من الحق، والمعرفة بمسار الأفكار الجاهلية ودخائلها حصانة ضد الوقوع في شيء منها، ولكن لابد أن يسبق هذه الدراسة معرفة تاريخ الجاهلية ونظمها ، ويصاحبها إيمان بالله صحيح ، واعتزاز بشريعة الله ، وفقهٌ بالحلال والحرام ، وإلا أتت الدراسة محرفة شوهاء.



المبحث الخامس
وسائل تحقيق المنهج

أما الوسائل التي يتحقق بها المنهج في الواقع العملي فهي تقوم على ثلاث ركائز أساسية :

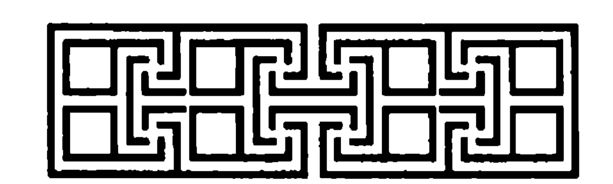
وهي التصور الصحيح المستمد من الشريعة في مصادر ها المتعددة، ثم الرجال الأمناء الذين يحملون هذا التصور ، ويعملون على تحقيقه في واقع حياتهم ودراستهم وتوجيههم وتدريسهم، وفي أخذهم وعطائهم، وفي تحملهم للعمل وأدائهم له فإنه بغير هذا الصنف من الرجال المخلصين لا يتحقق تطبيق المنهج المطلوب في الواقع، لأنه لا يمكن أن يقوم على تطبيق المنهج الإسلامي في الدراسات التاريخية من لا يؤمن بالإسلام أو من لا يعرف التصور الصحيح في الإيمان ولم يدرس الشريعة الإسلامية ويعرف مصادرها وأحكام الحلال والحرام فيها، فالرجال العالمون بالشريعة الصادقون في عملهم هم الذين يحقق الله على أيديهم مثل هذه الأعمال الضخمة الخطيرة، وقد امتدح الله الرجال المؤمنين بقوله : ﴿ **مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ** ﴾ [الاحزاب :٢٣].

وبقوله تعالى: ﴿ **فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ** ﴾ [النور :٣٦-٣٧] .

فالرجال الأمناء المخلصون : هم الوسيلة التي تحقق المنهج في الواقع العملي، وبعد توفر التصور الإيماني الصحيح والعلماء الذين يحملون هذا التصور ويؤمنون به يأتي دور المنهج الإسلامي في الكتابة التاريخية، وإذا لم يكن العمل منظماً ومتبعاً في إعداده المنهج العلمي السليم، فإنه يفقد المنهجية العلمية

السليمة ويفقد العمل كثيراً من مزاياه ، بل دعامة من دعائمه فلا يستطيع الكاتب ولا القارىءتبين المعالم الصحيحة .

وهذه الركائز الثلاثة يكمل بعضها بعضاً ، وإن كان بعضها أكبر وأهم من بعض، فالتصور الصحيح هو القاعدة الأساسية التي لا يتصور وجود عمل سليم مع فقدانها، لأنها هي الحاكمة والمهيمنة على كل ما عداها ، فهي المنطلق الأساسي والمركز المحوري لكافة الوسائل والغايات، وهي في نفس الوقت وسيلة من الوسائل التي يتحقق بوجودها المنهج الإسلامي ، والرجال المخلصون هم الذين يحققون بعلمهم التصور الإيماني في الواقع العلمي والسلوكي ، وخاصة إذا امتلكوا المنهج العلمي السليم وأجادوا تطبيقه في دراساتهم ومؤلفاتهم.



الفصل الثالث

قواعد منهج كتابة التاريخ الإسلامي

المبحث الأول

قواعد في التصور والاعتقاد

[١] الإيمان بوحدة الأمة الإسلامية:

وهذا المفهوم لوحدة الأمة الإسلامية يتبعه وحدة التاريخ الإسلامي على مر العصور ووحدة الحضارة الإسلامية في أطرها ومفاهيمها العلمية. ودارس التاريخ يجب عليه ملاحظة هذه الرابطة المشتركة بين المؤمن بالله على مر العصور فيدرس تاريخهم على أنه وحدة نظراً للاشتراك في المفاهيم والدوافع والمؤثرات التي تساعد على صنع الحدث التاريخي وتشكيله، والذي يقرأ سيرة الأنبياء عليهم السلام وتاريخهم كما ورد في القرآن الكريم يجد التوافق التاريخي والاتحاد في المفاهيم والنظرة للأحداث، وهذا أمر لا يستغرب لأنهم كلهم يصدرون عن مشكاة واحدة ، ويتلقون عن رب واحد ويعودون إلى رسالة واحدة في قواعدها وأصولها، وكذلك تاريخ المؤمنين بالرسل نجد في التوافق فيه هذه المواقف والمفاهيم، وهذا يعبر عن قوانين ثابتة وسُنن لا تتغير في حركة الكون وجري التاريخ الخاضع لمشيئة الله وقدره القائم بالحق .

ويجب علينا دراسة التاريخ على أساس التوزيع العقيدي وأن نبرز وحدة التاريخ الإسلامي بسماته وخصائصه العامة، ونبرز التاريخ الجاهلي بسماته العامة على مدار العصور، وهذا يجنبنا الأخطاء الناشئة من الدراسة على أساس التوزيع الجغرافي أوالعائلي أو الزمني ، والتي تفتت الوحدة العقيدية والرابطة الإيمانية وتأتي بروابط بديلة من الوطن والقيم والإنسانية، وتلوث التاريخ الإسلامي وتصبغه بألوان غريبة عليه وعلى حركته ودوافع أهله وتوجهاتهم السلوكية والفكرية وتسلكه في أطر ضيقة من هذه الحدود المكانية والعائلية .

المبحث الثاني
الحكم الشرعي في المخلفات الحضارية

ومن قواعد التصور والإيمان معرفة القيمة الحقيقية لمخلفات الأمم وآثارها والحكم الشرعي فيها، فالمسلم الذي يستمد تصوره من الكتاب والسُّنَّة ويهتدي بهديهما لابد له وهو يدرس تواريخ الأمم أن يزن آثار هذه الأمم ومخلفاتها التاريخية بالميزان الشرعي يعطيها القيمة الحقيقية على ضوء ذلك الميزان العادل ، فلا يغالي في تعظيمها وتقدير ها كما يفعله فريق من الناس، ولا يغمطها حقاً هو لها.

ولقد أرشدنا القرآن الكريم إلى المنهج الذي نتبعه في دراسة الآثار والوقوف عليها، وبين لنا الفائدة التي من الممكن أن نستفيدها من الوقوف على آثار السابقين وعرفنا على القيمة الحقيقية للآثار، فالعلم بتاريخ الأمم السابقة، والتعرف على آثارها لكي يؤتي ثماره لابد أن يقرن بالعبرة والعظة التي تدفع الدارس والمشاهد والباحث إلى تدبر أحوال نفسه وأسرته ومجتمعه، فلا يدعها أو يدعهم يقترفون ما اقترف غيرهم من الآثام، والإعراض عن منهج الله وعبادة ما لم يأذن به الله ، فيهلكهم الله بعذاب أليم كما أهلك من قبلهم، لأن العلم بأمر الله وشرعه والنظر الصحيح والاعتبار المثمر في أحوال السابقين وتقلبات الدهر بهم يساعد على تربية الفرد المسلم ليكون لبنة صالحة في بناء المجتمع، أما ما يفعله كثير من الدارسين من الاكتفاء بالوقوف على الأطلال ودراستها دراسة وصفية جافة لا روح فيها ، كقولهم: إنهم كانوا يستعملون من أدوات الطبخ كذا وكذا وطريقتهم في الأفراح كيت وكيت، وإنهم كانوا يحرثون بالمحراث الذي نحرث به ... وحرص الاهتمام بالمظاهر الشكلية من قياس الطول والعرض والحجم والمادة المستعملة إلى غير ذلك. إن هذه الدراسة (الأكاديمية) الجافة لا توقظ في القلب

شعوراً ولا تنفخ فيه حياة، ولا تُنير البصائر لتتأمل وتتفكر وتستفيد وتتعرف على سُنن الله وآياته في الأنفس والآفاق، كما أنها لا تتمشي مع المنهج القرآني في عرضه آثار السابقين وطلبه منا أن نسير في الأرض وننظر في سيرنا المستبصر المستفيد، الباحث عن أسباب الدمار الذي حل بأصحاب تلك الآثار: ﴿ **قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ** ﴾ [النمل: ٦٩] .

وقال تعالى: ﴿ **وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنْ بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ** ﴾ [القصص: ٥٨] .

فالله يطلب منا أن يكون سيرنا في الأرض وبحثنا عن الآثار ودراستها بغرض إيقاظ القلوب والبصائر وبعث الحياة فيها.

ومناجاة هذه الآثار والأطلال الباقية سماع أخبارها سماع العظة والعبرة ، ومشاهدة آثار قدرة الله وعقابه للمجرمين وإنجائه للصالحين ، والتعرف على القيم الحقيقية التي تطيب بها الحياة وتعمر، كل ذلك هو سبب النجاة والفوز عند الله.

قال تعالى: ﴿ **فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ (٤٥) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ** ﴾.

[الحج: ٤٥-٤٦] .

وهذا التأمل في آثار السابقين ينتج عنه اتعاظ يتحول إلى سلوك ونهج علمي في واقع الحياة ملتزم بأمر الله ونهيه، وقد جعل الله ذلك هداية للمستبصرين فقال: ﴿ **أَوَ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ أَفَلا يَسْمَعُونَ** ﴾ [السجدة: ٢٦] .

كما أنه قد جعل هذا التأمل والنظر في آثار السابقين في مقام الوعظ البليغ وجعله حجة على الغافلين حين ينزل بهم عذابه فقال تعالى: ﴿ **وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ**

الرُّسُل أَوَ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ (٤٤) وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ (٤٥) وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ (٤٦) فَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ [إبراهيم: ٤٤ – ٤٧] .

وفيما يلي نسوق بعض الآيات التي يتبين منها منهج القرآن وطريقته في عرض أخبار السابقين الذين أعرضوا عن منهج الله ، ولفت أنظارنا للاتعاظ والعبرة بالمشاهد الباقية من مخلفات القوم وآثارهم.

قال تعالى واصفاً ما وصلت إليه الحضارات القديمة من التقدم العمراني : **﴿أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾** [الروم : ٩] .

وقال تعالى : **﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾** [سبأ: ٤٥] .

وقال تعالى : **﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾** [الأعراف: ٧٤] .

وقال عن هود عليه السلام : **﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾** [الشعراء: ١٢٨–١٢٩] .

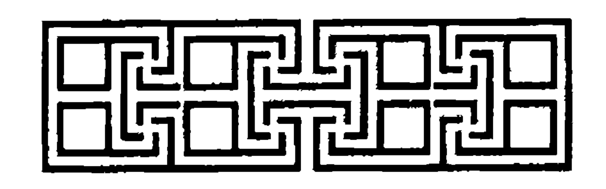
وقال عن قوم فرعون : **﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦) وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ﴾** [الدخان: ٢٥–٢٧] .

ولكن لما لم يستقم أصحاب هذه الحضارات ويسيروا على النهج المستقيم ولم يصدقوا الرسل الذين بعثوا إليهم أهلكهم الله ودمرهم وأورث أرض بعضهم قوماً آخرين وبعضها بقيت خاوية خربة لتكون آيه للمعتبرين. قال تعالى بعد أن

ذكر جملة من الأقوام وتكذيبهم لرسلهم وكفرهم بالله : ﴿ **فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** ﴾ .

[العنكبوت : ٤٠] .

وهذه بعض الآيات التي تدلنا على الشروط في دراسة الآثار والمنهج الذي ينبغي أن يتبع في الدراسة ويوضح لنا القيمة المستفادة منها وهي العظة والاعتبار بما أصاب أصحاب هذه الآثار من الدمار والهلاك لما أعرضوا عن عبادة الله وتحكيم شريعته وأن هذه من سُنن الله الثابتة في كل من يعرض عن شريعته ويتبع هواه .



المبحث الثالث

الفهم الصحيح للقضاء والقدر

ومن القواعد المهمة في منهج كتابة التاريخ الإسلامي الفهم الصحيح لعقيدة القضاء والقدر، وهذه القاعدة الإيمانية قد انحرف التصور الصحيح لها عند كثير المسلمين المتأخرين فمنهم من أنكر ذلك وتنقص المؤمنين به، ومنهم من فهم القضاء والقدر على أنه تواكل وخمول واستسلام مذل. وكلا الموقفين انحراف ومجانبة للصواب فالإيمان بالقضاء والقدر وبعلم الله وتقديره لما كان وما هو كائن أمر لازم ولا إيمان لمن لم يؤمن به ، إذ هو من أركان الإيمان: « **تؤمن بالقدر خيره وشره** » [(١)].

فالله سبحانه وتعالى خلق الإنسان وخلق أفعاله: ﴿ **وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ** ﴾ [الصافات:٩٦]، فكل أحداث البشرية وأعمالها قد كتبت في اللوح المحفوظ قبل خلق السماوات والأرض، ولن يحدث في الكون كله فضلاً عن الأرض شيء يخالف سُنَّته وقدره لما ثبت في الحديث الصحيح: [**إن أول ما خلق الله القلم فقال له: اكتب، قال: رب وماذا أكتب؟ ، قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة**] [(٢)].

وفي الحديث الآخر: [**أن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يبعث الله إليه ملكاً بأربع كلمات فيكتب علمه وأجله ورزقه وشقي أو سعيد، ثم ينفخ فيه الروح..**] [(٣)].

---

(١) رواه مسلم من حديث عمر بن الخطاب ﷺ في كتاب الإيمان: باب وصف جبريل ﷺ للنبي ﷺ الإسلام والإيمان رقم(٨) .

(٢) رواه أبو داود من حديث عبادة بن الصامت(٤ / ٢٢٥) رقم(٤٧٠٠) .

(٣) **متفق عليه**: انظر: اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان(٢ / ٢٠٧) .

فهذه الحقائق لابد من إدراكها والإيمان بها واستحضارها عند مطالعة الحوادث التاريخية لأن الإيمان بها هو أحد عناصر التقويم والحكم على الحادثة التاريخية فمثلاً انتصار المسلمين على الروم في معركة اليرموك. لو أردنا أن نبحث عن الأسباب التي أدت إلى هذه النتيجة رغم أن القوتين غير متكافئتين لا في عدد الجيش، ولا في نظام التدريب ولا نوعية السلاح وكثرته.

فعدد الروم سبعة أضعاف عدد المسلمين، وجيش الروم جيش نظامي مدرب وجيد التسليح بينما الجيش الإسلامي قليل الأسلحة ضعيف التدريب ويقاتل بعيداً عن مركز خلافته، ومع ذلك حصل له الانتصار، فلو بحثنا في الأسباب المادية المنظورة بحثاً عقلياً مجرداً لما استطعنا أن نقبل نتيجة المعركة مما يضطرنا إلي رد هذه الأخبار الواردة بهذه المعلومات، أما إذا بحثنا المسألة من زاوية نظر أوسع وهي أن الأمر ليس أسباباً لابد أن تتبعها نتائجها إنما هناك قدر ومشيئة وخالق يدبر ، يؤتي الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء.

وأن الأسباب وحدها لا تؤدي إلى نتيجة إلا بقدر الله وتوفيقه ، عند ذلك نقبل مثل هذه النتيجة ، ولا نستغربها ، فالمسلم الذي يؤمن بقضاء الله وقدره وبمشيئته سبحانه المطلقة لا ينظر إلى التاريخ على أنه قوالب جامدة من الأسباب والمسببات، بل يدرك أنه ربما تكتمل الأسباب المادية في عمل من الأعمال أو معركة من المعارك ومع ذلك لا تأتي النتائج.

وبهذا يتضح لنا أنه لكي يكون الحكم على الحادثة التاريخية صحيحاً مستكملاً لعناصره لابد من الفهم الصحيح لعقيدة الإيمان بالقضاء والقدر وأنها لا تعني ترك التكاليف الشرعية، وترك الأخذ بالأسباب المقدورة والاستعداد بكل الوسائل المستطاعة وبذل الجهد في تحصيلها ، ولا يجوز لأحد أن يترك العمل احتجاجاً

بالقدر، لأنه لا حجة في ذلك، فما يقع من الأقدار هو في الحقيقة أمر غيبي بالنسبة لنا، ولذلك قال العلماء: (القدر سر الله في خلقه) [١] ، وقد نُهي المسلمون عن الجدال في القدر، وورد في الحديث: « **إذا ذكر القدر فأمسكوا** » [٢].

(فالتكاسل وترك العلم ليس مما يوجبه الرضا بالقضاء والقدر كما أن الاعتماد على الأسباب وحدها هو قطع الصلة بالمسبب والفاعل الحقيقي)، و(بسبب الانحراف في مفهوم القضاء والقدر وقع جملة من الكتاب المعاصرين في أخطاء شنيعة في تقديرهم للدولة الأموية والحكم عليها حيث قالوا: إن الدولة الأموية شجعت الاتجاه نحو الجبر والإرجاء وقالت: إن الأعمال لا تجوز معارضتها لأن من يعارضها يعتبر منكراً للقدر إذ لو أراد الله غير ذلك لكان) (ومن أمثال ذلك أحمد أمين في كتاب ضحى الإسلام وشاكر مصطفى في كتابه دولة بني العباس، والدكتور عفت الشرقاوي في كتابه أدب التاريخ عند العرب).

وقد أطلق هؤلاء الكتاب هذا القول دون أن يوردوا عليه دليلاً، وهذا يرينا مدى التشويه الذي يلحق تفسير حوادث التاريخ الإسلامي عندما توضع في منظور غير إسلامي وعندماتنحرف المفاهيم والتصورات، وهذا الفهم الذي ذهبوا إليه والحكم الذي حكموا به مبني على الجهل بمفهوم القضاء والقدر، وتوهم أن بينه وبين التكاليف الشرعية من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله معارضة، وليس الأمر كذلك كما أوضحنا، كما أن الوقائع التاريخية الثابتة تكذب هذا الادعاء ، فقد قتل كل من غيلان الدمشقي ومعبد الجهني، اللذين أنكرا القدر في ظل الدولة الأموية كما قتل الجعد بن درهم والجهم بن صفوان إمام الجبرية بأمر من الخلفاء الأمويين.

---

(١) **انظر**: منهج كتابة التاريخ الإسلامي (ص ٢٠٠) .

(٢) ذكره أبو نعيم في حلية الأولياء(٤ / ١٠٨) وقدصححه الشيخ الألباني رحمه الله، انظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة، وقم(٣٤) .



المبحث الرابع
الإيمان بالغيب

ومن قواعد التصور والاعتقاد المهمة لدراس التاريخ الإسلامي الإيمان بالغيب وهو أحد أركان الإيمان، كما أنه أخص صفات المؤمنين بالله، قال تعالى في أول سورة البقرة: ﴿ **الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ** ﴾ [البقرة: ١ - ٣] .

ودارس التاريخ الإسلامي إن لم يكن مؤمناً وصحيح التصور في ذلك فإنه لا يستطيع أن يعطي تقييماً علمياً وواقعياً للتاريخ الإسلامي وحركته الجهادية، لأن المسلم المجاهد عندما يقاتل في سبيل الله يعلم أنه ليس وحده هو الذي يقاتل الكفار وأنه لا يقاتلهم بكثرة عدد الجنود ولا بتفوق السلاح وإتقان الإعداد المادي وحده، وإنما بما ينزله الله عليهم من السكينة ورباطة الجأش والطمأنينة وبما يمدهم به من الصبر وقوة التحمل، وغير ذلك من الوسائل المتطورة وغير المتطورة فأحياناً ينزل الملائكة تقاتل إلى جانبهم كما حدث في معركة بدر وغيرها من المعارك، وأحياناً بما يجريه الله من العوامل الطبيعية كإرسال الريح الشديدة التي فرقت الأحزاب عن المدينة، قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا** ﴾ .

[الأحزاب: ٩] .

وقال ﷺ: « **نُصرت بالرعب وأُهلكت عاد بالدَّبور** » [(١)] .

وأحياناً يجريه الله على أيدي بعض المؤمنين من الكرامات كما جرى لعمر بن الخطاب في قصة سارية بن زنيم قال ابن حجر: إن سارية له صحبة [(٢)] .

---

(١) **متفق عليه** : انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري (٢ / ٥٢٠)، ومسلم (٢ / ٦١٧).
(٢) الإصابة لابن حجر (٣ / ٧٠٥).

وقد روي هذه الحادثة ابن جرير الطبري في تاريخه في حوادث سنة (٢٣ هـ) عن فتح (فسا ودار بجرد) وقال: وكان عمر قد رأي المسلمين في المنام وأنهم بصحراء وأن العدو سيحيط بهم إن أقاموا بها فنادي في الناس الصلاة جامعة فأخبر الناس بما رأي ثم نادي: «يا سارية الجبل الجبل» وقال: إن لله جنوداً ولعل بعضها أن يبلغهم فما كان من سارية إلا أن أجمع هو ومن معه من المسلمين على الإسناد إلى الجبل ففتح الله لهم وهزم عدوهم [١].

وقال ابن كثير - رحمه الله - :إنها رويت بإسناد جيد حسن [٢].

وكما في كتابة البطاقة إلى نهر النيل [٣] عندما توقف فيضان الماء وكان له سُنَّة عند القبط وهي تقديم جارية بكر «عروس النيل» تلقي فيه فيجري.

ولما أرادوا إلقاءها بعد فتح المسلمين لمصر قال لهم عمرو بن العاص ﷺ: إن هذا الأمر لا يكون في الإسلام، لأنه يهدم ما قبله، وكتب الخبر إلى عمر بن الخطاب ﷺ فقال في هذه البطاقة: «من عبد الله أمير المؤمنين إلى نيل مصر».

أما بعد فإن كنت تجري من قبلك فلا تجري، وإن كان الله الواحد القهار هو مجريك، فنسأل الله الواحد القهار أن يجريك. فلما ألقاها عمرو فاض النيل ستة عشر ذراعاً في ليلة واحدة.

وكما حدث لعقبة بن نافع الفهري الذي بني مدينة القيروان، روي ابن الحكم صاحب كتاب فتوح مصر والمغرب قال: حدثنا عبد الملك بن مسلمة حدثنا الليث بن سعد أن عقبة بن نافع غزا إفريقية، فأتي وادي القيروان فبات عليه هو وأصحابه حتى إذا أصبح وقف على رأس الوادي، فقال: ياأهل الوادي اظعنوا فإنَّا نازلون، قال ذلك ثلاث مرات، فجعلت الحيات تنساب والعقارب وغيرها مما يعرف من الدواب تخرج ذاهبة، وهم قيام ينظرون إليها من حيث أصبحوا حتى

---

(١) الطبري (٤/ ١٧٨).

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية (٧/ ١٣١)

(٣) مناقب عمر بن الخطاب ﷺ: لابن الجوزي (ص ١٧٣) وابن كثير: البداية والنهاية (٧/ ١٠٠)

أوجعتهم الشمس وحتى لم يروا منها شيئاً، فنزلوا الوادي عند ذلك [١] .

وكما حدث في خوض المسلمين البحر إلى جزيرة دارين بخيولهم وجمالهم وأرجلهم بقيادة العلاء بن الخضرمي وكأنهم يمشون على الرمل فلم تغرق لهم دابة ولا إنسان وقد سجل الشاعر عنيف بن المنذر [٢] هذا الحدث بقوله:

ألم تر أن الله ذلل بحره وأنزل بالكفار إحدى الجلائل

دعونا الذي شق البحار فجاءنا بأعجب من فلق البحار الأوائل [٣]

وأيضاً حدث مثل هذا أثناء فتح المسلمين للمدائن حيث خاضوا بقيادة سعد ابن أبي وقاص ﷺ نهر دجلة، وهي ترمي بالزبد مسودة من كثرة الماء وعمقه.

ودخلوا النهر أفواجاً حتى غطوه من الساحل إلى الساحل من كثرتهم وخرجوا منه أفواجاً ولم يغرق منهم أحد [٤] .

فالذي لا يؤمن بالغيب وأن لله جنوداً كثيرة من غير الإنس يمد بها المؤمنين متى شاء، فإنه لا يستطيع تفسير مثل هذه الحوادث ولا فهمها الفهم الصحيح ، بل تراه إذا جاء خبر من هذه الأخبار إما أن ينكره بالكلية أو يتعسف في تأويله ليخرجه عن دلالته المقصودة، وذلك تهرباً من إثبات المعجزات للأنبياء عليهم السلام والكرامات للمؤمنين الصالحين ، وهؤلاء أصحاب المدرسة العقلية [٥] الذين أقاموا العقل مقام النص الشرعي بل جعلوا العقل حاكماً على النص فيأولون النص ليوافق عقولهم، وقد تلقف المستشرقون فيما يسمونه بالعصور الحديثة أفكار هذه المدرسة ونشروها وعظموا من شأنها لموافقتها لما يحملونه من أفكار مادية تتعارض مع الإيمان بالمغيبات ، وقد جاراهم في هذا كثير من الكتّاب

---

(١) ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب (ص ٢٦٥) تاريخ خليفة بن خياط (ص ٢١٠)

(٢) الإصابة لابن حجر (٥/ ١٣٠)

(٣) تاريخ الرسل والملوك، لابن جرير (٣/ ٣١٠) البداية والنهاية (٦/ ٣٢٩)

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية (٧/ ٦٤-٦٦)

(٥) منهج كتابة التاريخ الإسلامي (٢٠٦)

المسلمين في ظل ظروف وتأثيرات معينة حتى من الذين حملوا راية التجديد الإسلامي من أمثال الأفغاني ومحمد عبده ومحمد فريد وجدي ومصطفي عبد الرازق وأحمد أمين وحسين هيكل.

فضلاً عن الكُتَّاب (الليبراليين) الذين تشبعوا بالأفكار العلمانية أثناء بعثاتهم إلى الدول الأوربية ، فلم يعد الإسلام في حسهم إلا مجرد تراث حضاري أو تعبد شخصي لا علاقة له بحياة الناس ولا علمهم ولا أنظمتهم ، ولذلك لم يراعوا الالتزام به في دراساتهم وأبحاثهم.

بل لقد أثار الكثير منه شبهات وافتراءات لا أساس لها في الفكر الإسلامي الصحيح، وهذه الطائفة (الليبراليون) كان لهم دور في إدارة وتوجيه التعليم في العالم الإسلامي ورسم خططه ومناهجه، وقلدوا في ذلك المناهج والدراسات العلمانية في العالم الأوروبي غربية وشرقية، كما أنهم قد أسهموا بنصيب وافر (مع الأسف) في التأليف عن التاريخ الإسلامي وصياغته بما يتناسب مع الأفكار العلمانية، وقاموا بتفسير حوادث التاريخ الإسلامي تفسيراً يؤكد المذاهب المعاصرة من العلمانية والقومية والاشتراكية والماركسية حتى يوجدوا لها سنداً تاريخياً.

لذلك لا تخلو مولفات مثل هولاء سواء في السيرة النبوية أو صدر الإسلام أو حتى العصور الإسلامية المتأخرة من انحرافات فكرية وجهل بالدراسات الشرعية بل إن بعض ما كتبوه قابل للنقض جملة، فإذا كان هذا حال دراسات أبناء المسلمين فكيف يكون الحال بالدراسات التي أعدها أعداء الإسلام من طوائف الفكر والإلحاد عن تاريخنا الإسلامي؟، إننا مهما افترضنا فيهم من نزاهة علمية وهي غير متوفرة بطبيعة الحال تجاه الإسلام وتاريخه فإن هناك عنصراً مفقوداً وهو توفر الإيمان بالغيب وهو عنصر بالغ الأهمية في تفسير التاريخ الإسلامي [١] .

---

(١) انظر : منهج كتابة التاريخ الإسلامي (٢٠٨).

المبحث الخامس

معرفة حق الصحابة وتميز أهل القرون الأولى

الأمة الإسلامية أمة متراحمة مترابطة، تعرف لذوي القدر منزلتهم ولذوي الفضل فضلهم، فتعطي كلا حقه بالقسط والعدل ، وليست كالأمم الجاهلية المفككة الأواصر التي كلما جاءت أمة لعنت أختها ، وكلما جاء جيل إما يجعل المسئولية على الجيل السابق ويتابعه على غير هدى ولابصيرة، كما حكى الله سبحانه عنهم في كثير من الآيات : ﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ** ﴾ [البقرة:١٧٠] .

وقال تعالى: ﴿ **بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ** ﴾ .

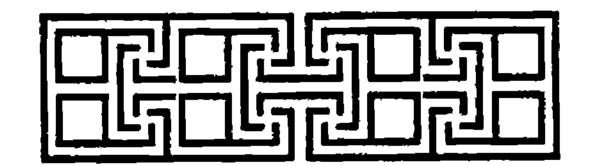
[الزخرف:٢٢] .

وقال تعالى: ﴿ **وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ** ﴾ [الزخرف:٢٣] .

أو يحط من قدر الجيل السابق ، ويتعالى عليه ويفتخر بما حقق من تقدم مادي لم يحصل لذلك الجيل ، والموقف في كلا الأمرين ظلم للجيل السابق وإن بدا في الصورة الأولى وكأنه تقدير وتعظيم ، لأنه تقدير في غير محله ، وعلى غير مستند من الحق والعدل .

أما هذه الأمة الإسلامية التي شرفت بحمل رسالة الله تعالى، وببعثة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ فإن الله قد رسم لها منهجها وطريقها المستقيم فقال تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [الحشر:١٠] .

لذلك لابد من معرفة حق أصحاب رسول الله ﷺ وما لأصحاب القرون الثلاثة الأولي في تاريخ الإسلام من تميز وفضل وفق المقاييس الشرعية دون غلو أو تفريط، فإن الذي أعطاهم هذا التميز وتلك المنزلة هي النصوص الشرعية ، إذاً ليس الأمر اجتهاداً منا أو افتراء على الحق ، فإنه ليس لأحد أن يقرر برأيه المحض دون مستند من الشرع حكماً شرعياً لقوله ﷺ : « **من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد** » (١) .



(١) رواه مسلم رقم(١٧١٨) .

المبحث السادس

التفريق بين أخطاء البشر وأحكام الإسلام

وهذه القاعدة جليلة عظيمة، فمن رزقه الله تصوراً صحيحاً وفهمًا في علم الشريعة يعرف أن البشر يخطئون مهما كانوا محسوبين على الإسلام، فقواعد الإسلام وأحكامه تتلقي من مصدرها الحق – الكتاب والسُّنَّة – لا من عمل الناس وسيرتهم – مالم يكن إجماعاً ممن ينعقد بهم الإجماع – ولا حجة في عمل أحد ولا قوله إذا كان مخالفاً لنصوص الشرع ولهذا قال الإمام مالك: « ليس أحد بعد النبي ﷺ إلا يُؤخذ من قوله ويُترك إلا النبي ﷺ » ، وكثير من الناس يخطيء في هذه المسألة فيظن أن كل ما حدث في التاريخ الإسلامي هو تطبيق لمبادىء الإسلام، أو أن الإسلام أمر بمثل هذه الأفعال التي قام بها المسلمون في ظل الحكم الإسلامي واعتبر ذلك الحدث حجة أوْ مسوغاً للاقتداء به على اعتبار أنه سابقة تاريخية حدثت في المجتمع الإسلامي، لكن من المعلوم أن السوابق التاريخية لا يجوز العمل بها إذا خالفت النصوص الشرعية، أو حدثت نتيجة انحراف وخطأ في المفهوم الإسلامي، أو كانت صادرة عمن لا يحتج بعمله.

ولذلك تراهم إذا تحدثوا عن حضارة الإسلام يذكرون أنواعًا من الأفعال والتنظيمات ، هي مناقضة تمامًا للأحكام الشرعية دون أن يوضحوا أن مثل هذا مما يخالف الأوامر والنواهي الشرعية .

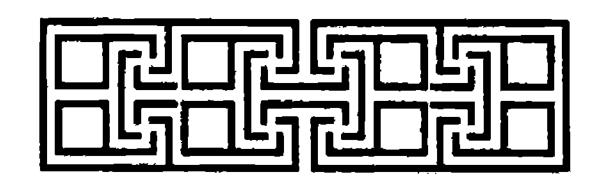
والأمثلة على ذلك كثيرة مثل ما يكتبون عن فن بناء القباب على القبور، ويعرضون كثيراً من المخالفات الشرعية على كونها تقدماً حضارياً، ومن نتاج الحضارة الإسلامية ويفاخرون بها غيرهم ، وهذا في الحقيقة من فساد التصور والخلط بين انحرافات البشر وأخطائهم وبين أحكام الإسلام، والمفترض في الباحث أن يصطحب قيم الإسلام وموازينه، لأن البشر يخطئون ويصيبون، ويستقيمون

على الطريقة فترة وينحرفون فترات، وتتبدل مفاهيمهم وموازينهم إن لم ترجع إلى ضابط ومقياس شرعي، أما أحكام الإسلام وموازينه فهي ثابته لا تتبدل ولا تتغير،كما قال تعالى: ﴿**وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**﴾ [الأنعام:١١٥] .

والذي ينبغي التنبه له أنه في مجال إصدار الأحكام التاريخية على الأشخاص والأحداث لا تتأثر أحكامنا بالمنزلة العلمية أو المكانة الاجتماعية للأشخاص الفاعلين في الحدث التاريخي الذي نعالجه ، مما يدفعنا إلى محاولة تبرير الخطأ وإظهاره بمظهر الصواب، على حساب تشويه المنهج الإسلامي وهذا لا يعني أننا نسيئ الأدب ولا نلتمس العذر لمن له عذر؛ بل إحسان الظن بالمسلم هو المطلوب.

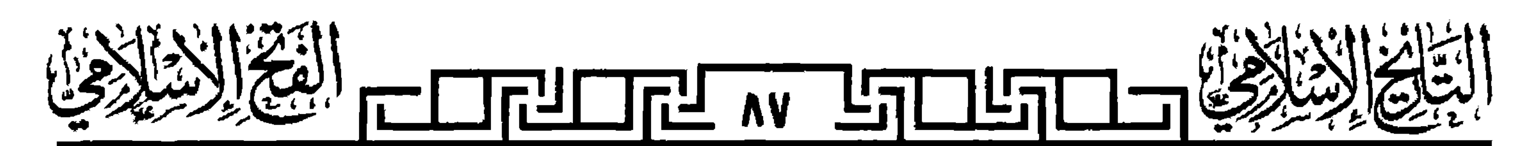
وهناك فرق بين الاعتذار وبين التبرير، والمحذور هو التعصب وتبرير الخطأ وإظهاره بمظهر الصواب (لأن تبرئة الأشخاص لا تساوي تشويه المنهج) [١] .

فالمنهج أعظم من الأشخاص وأكبر، وصيانته أولي وأحري ، فالحق لا يعرف بالرجال ، ولا بكثرة من قاله ، إنما يعرف الرجال بقدر تمسكهم بالحق وإن كانوا هم القلة ؛ فالجماعة ما وافق الحق ، وإن كنت وحدك كما قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه [٢] والمنهج لابد أن يبقي مصوناً ومحافظاً عليه من التشويه والتحريف.



(١) انظر: في ظلال القرآن(١/٥٣٣) .

(٢) انظر: إغاثة اللهفان(١/٧٠) .



المبحث السابع

الإيمان بالسنن الربانية

دراسة التاريخ بوعي وإدراك تساعد الدارس على معرفة السُنن الربانية وتكشفها له مما يجعله يستفيد من دراسته، ويخطط لمستقبله على ضوء تلك السُنن. وسبق أن ذكرنا أن من ثمرات دراسة التاريخ التعرف على السُنن الربانية، والذي يهمنا في هذا الموضوع هو بيان ارتباط الإيمان بالسُنن الربانية بمنهج كتابة التاريخ الإسلامي، وذلك ـ أن لله سبحانه وتعالى سُنناً ثابتة في حركة الإنسان في هذا الكون ـ وهذه السُنن كما عرفنا عليها القرآن ذات ارتباط وثيق بقضية الإيمان والكفر والظلم وقضايا السلوك الاجتماعي والاخلاقي للمجتمعات البشرية، والذي يحدد لنا اتجاهات السنن الربانية هو القرآن الكريم فهو الذي عرفنا بالخير والشر وحدد دلالة ذلك، وعرفنا بالإيمان بالله وبالشرك وبالحق وبالباطل والعدل والظلم، وأن أظلم الظلم هو الإشراك بالله قال تعالى: ﴿ **إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ** ﴾ . [لقمان:١٣] .

وإن الظالم لابد أن ينال جزاءه، كما أن بسط الدنيا على أحد من الناس ليس دليلاً على محبة الله له وإنما يكون من باب الاستدراج ، قال تعالى: ﴿ **وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ** ﴾ [آل عمران:١٧٨] .

وقال تعالى: ﴿ **فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا** ﴾ [الطارق:١٧] .

ثم العاقبة ستكون للمؤمنين، وأن ما يصيبهم في الحياة الدنيا من تعب وعنت وظلم هو للابتلاءوالتمحيص وهذا سُنَّة من السُنن الربانية.

قال تعالى: ﴿ **الم (١) أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢)**

وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾.

[العنكبوت: ١-٣].

وقال تعالى: ﴿**أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ**﴾ [البقرة: ٢١٤] .

وأن النصر الحقيقي لا يكون إلا من عند الله ﴿**وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ**﴾ [آل عمران: ١٢٦] .

وأنه للمؤمنين متى وفوا بشرط الإيمان ﴿**وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ .

[الروم: ٤٧] .

قال تعالى: ﴿**كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ**﴾ [المجادلة: ٢١] .

قال تعالى: ﴿**إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ**﴾.

[غافر: ٥١] .

وأن الأيام دول بين الناس ، قال تعالى: ﴿**إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ**﴾ [آل عمران: ١٤٠] .

وأن الحياة الهادئة المباركة الآمنة ، لا تكون إلا في ظل الإيمان والتقوى والاستقامة على منهج الله تعالى ، كما قال تعالى: ﴿**وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾ .

[الأعراف: ٩٦] .

وأن الإعراض عن منهج الله وترك العمل بشريعته يؤدي بالأمة إلى مدارك الهلاك وضنك الحياة المادية منها والنفسي ، قال تعالى: ﴿**وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ**﴾ [طه : ١٢٤] .

وما أشارت إليه الآيات من معيشة الضنك في الحياة الدنيا لمن يعرض عن ذكر الله، واقع ملموس مشاهد ، فإن المعرضين عن ذكر الله يعيشون إما ضنكاً مادياً في رزقهم أو ضنكاً نفسياً شعورياً، أو هما وقلقاً ، لإن المعاصي تكون شؤماً على أصحابها وفساداً في الأرض قال تعالى : ﴿ **ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** ﴾ [الروم : ٤١] .

وقد ورد في الحديث الذي رواه الإمام أحمد « **وإن الرجل ليُحرم الرزق ، بالذنب يصيبه** » (١) .

وإن الجهاد سُنَّة ربانية فما ترك قوم الجهاد إلا ذلوا قال تعالى : ﴿ **وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ** ﴾ [البقرة : ٢٥١] ، فالله سبحانه وتعالى يدفع بأهل الخير والصلاح فساد أهل الشر والضلال .

فهذه أمثلة من السُنن الربانية التي ذكرها القرآن، ولا يدركها إلا من قرأ القرآن وآمن به وصدقه ، ثم إذا بحث الإنسان في الواقع التاريخي للحياة البشرية يجد مصداق ذلك فيزداد إيماناً على إيمانه، ومعرفة وعلماً بواقعه التاريخي الحاضر، ويجد القدرة على دراسة هذا الواقع دراسة تمكنه من اكتشاف الأخطاء ووصف العلاج اللازم لما أصيبت به البشرية من أمراض وانحرافات، حتى تتفادى الوقوع في الانحراف عن السُنَّة الربانية وتصيب من خيرها .

وبذلك يتضح الارتباط الوثيق بين منهج كتابة التاريخ الإسلامي والإيمان بالسُنن الربانية في الكون ، كما دل عليها القرآن وكشفتها التجارب التاريخية، وهذه السنن مرتبطة بالأحكام والقوانين الشرعية وتطبيق منهج الله في حياة الناس (٢) .

---

(١) المسند (٥ / ٢٧٧) ، وابن ماجة (٢ / ١٣٣٤) .

(٢) **انظر** : منهج كتابة التاريخ الإسلامي (ص ٢٣٥) .

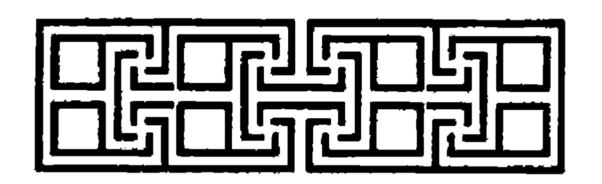


الفصل الرابع
قواعد في المصادر

المصادر بالنسبة للمؤرخ تشكل أهمية كبرى لأنه بدون توفر المصادر لا يستطيع أن يكتب أى بحث تاريخي، والتاريخ معرفة نقلية تعتمد على الأخذ من المصادر، لأن التاريخ خبر عن حدث وقع وانتهي وليس فيه الخيار والرجم بالغيب ولا التجارب المعملية ، كما يفعل الأديب والقاص والشاعر والعالم الفيزيائي .

وما دامت المصادر بهذه الأهمية للمؤرخ فلا بد أن يعتنى بها غاية الاعتناء وأن يرتبها الترتيب الصحيح وفق معايير نقدية محددة كدرجة الثبوت والثقة في المصدر كالقرب من الواقعة التاريخية سواء قرب المصاحبة والمعايشة أو القرب الزمني .

فيقدم ما هو أوثق ثبوتاً كالنقل المتواتر ، ثم ما هو أقل من ذلك ، وتقدم رواية من هو ألصق بالخبر على من لم تكن هذه صفته ، وهنا مجموعة من القواعد التى يلزم الباحث في التاريخ بصفة عامة والتاريخ الإسلامى على وجه أخص أن يراعيها أثناء نظره في المصادر واستقاء المعلومات التاريخية ونقدها [١] .



---

(١) انظر : منهج كتابة التاريخ الإسلامي (٢٣٦).

المبحث الأول

اعتماد المصادر الشرعية وتقديمها على كل المصادر

وذلك أن القرآن الكريم كلام الله الذين لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وقد تكفل بحفظه من التحريف والزيادة والنقصان: ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ﴾ [الحجر: ٩] والقران قطعى الثبوت، آيه آيه وكلمة كلمة.

ويأتى بعد القرآن في قوة الثبوت الحديث النبوى الشريف فإن النبى ﷺ كما أخبر الله عنه أنه لا ينطق عن الهوى، وقد حفظ الصحابة أقوال الرسول وأفعاله وتقريراته وأدُّوها إلى من بعدهم كما سمعوها.

وقد اتبع علماء الحديث والرواية أرقى منهج علمى وأوثقة في تدوين السُنَّة وفي نقد الرجال والمرويات، وفي الكتاب والسُّنَّة ورد كثير من الأخبار التاريخية القديمة كسير الأنبياء ومواقف أقوامهم منهم، أو الأخبار المعاصرة لنزول الرسالة إلى محمد ﷺ مثل بعض حوادث السيرة النبوية ومواقف أهل الأرض من الدعوة الإسلامية.

كما أنه قد جاء في الكتاب والسُّنَّة إشارات إلى الأحداث المستقبلية سواء كان وقوعها في الحياة الدنيا أو الآخرة، وذلك مثل علامات الساعة وأشراطها ومثل أحداث اليوم الآخر، فقد أخبر ﷺ بما تئول إليه حالة الأمة الإسلامية بعده وما يصيبها من التفرق، وما يكون فيها من حركات الإصلاح والتجديد، كما أخبر أنه ستقع أحداث كثيرة بين يدى الساعة، وهى أشراط الساعة، التى اعتنى العلماء بجمعها وتخصيص أبواب لها في مصنفاتهم بل قد أفردها بعضهم بكتب مستقلة. والذين لا يعتمدون القرآن والسُّنَّة في مصادر دراساتهم وأبحاثهم، فإنهم يحرمون هذه الفوائد من النظرة الشمولية والتشخيص الدقيق لاتجاهات الأحداث، وحتى لو عرفوا تشخيص بعض الأسباب، فإنهم لا

يستطيعون وصف العلاج الحقيقى للأمراض الاجتماعية والخلقية التى تصيب المجتمعات فتؤثر في تطور الأحداث وتوجيهها فإن فاقد الشيء لا يعطيه، ولا يملك علاج مثل هذه الأمراض والأدواء إلا الشارع الحكيم ولا يصح أن يتكلم فيه من ليس عنده علم من الشرع.

لذا فإنه لا بد من اعتماد المصادر الشرعية في كل دراسة تعالج وضعاً من الأوضاع الاجتماعية وتساعد على توجيه المجتمع وتنميته سلوكياً واجتماعياً، وهذا العمل من أعظم وظائف المؤرخ وأهم ثمرات دراسته.

فالمصادر الشرعية واجبة التقديم باعتبارين :

[١] لأنها أصدق من كل وثيقة تاريخية فيما ورد من الأخبار وذلك لصدق مصدرها، وعلمه وهيمنته كما أنها وصلتنا بأوثق منهج علمى فالقرآن وصلنا بالتواتر الموجب العلم القطعى في كل آية وكل كلمة، بل وكل حرف. وصحيح السُّنَّة وصلنا بمنهج علمى دقيق، هو أرقى ما تستطيعه الطاقة البشرية.

[٢] والاعتبار الثانى هو لما عليه من السُنن الربانية والنظرة الشمولية لتاريخ البشرية كلها على مدار الزمن ماضياً وحاضراً ومستقبلاً، مما يهيء للباحث المقدرة على اكتشاف القوانين العامة في حركة البشرية وارتبط ذلك بالهدى والضلال والكفر والإيمان سلباً وإيجاباً، والقرآن والسُّنَّة يعطيان الدارس التصورات والمفاهم والقيم التى على ضوئها تفسر أحداث التاريخ ويحكم عليها.

وقد حاول كثير من المؤرخين اكتشاف السُّنن والروابط التى تربط الأحداث أو ما يسمونه (فلسفة التاريخ) غير أنهم لعدم اهتدائهم بالمصادر الشرعية لم يصلوا إلى نتائج مطمئنة.

فالمسيح في نظرهم هو ابن الله ، وأنه قدم نفسه قرباناً تكفيراً عن الخطيئة الأولى خطيئة آدم ، أما بقية التفاسير للتاريخ فإنها تغفل دور الأنبياء والرسل عليهم السلام، وأثر رسالاتهم في تاريخ البشرية ، ولا تعطى أيه أهمية لما جاءوا به من الهدى والنور والدعوة إلى عبادة الله وحده ، ونبذ الشرك والأنداد ، وإقامة الحكم بين الناس بالقسط .

يقول أحد الكتاب المعاصرين مبينًا خطر الدراسات التى لا تعتمد المصادر الشرعية ، وإن كان هو لم يسلم من لوثة الاستشراق ولكن شهد شاهد من أهلها : المستشرقون سبقوا المسلمين في دراساتهم ذات الطابع الحديث، وكانوا أساتذة لكثير من المسلمين الذين أوفدوا إلى أوروبا للتعمق في الدراسات الإسلامية – هكذا – وطرق البحث فيها .

وقد تأثر بعض هؤلاء المسلمين بأساتذتهم المستشرقين ، عادوا فكتبوا وتقرأ ما كتبوا فتلمس أن كتاباتهم تجافي روح الإسلام في كثير من الأحيان، وسبب ذلك هو أن هؤلاء الموفدين لم يكونوا قبل إيفادهم على علم واسع بالدراسات الإسلامية ، وكتابات هؤلاء المسلمين أكثر خطورة من كتابات المسشرقين أنفسهم ، ومرجع ذلك إلى أن القراء يقرءون للمستشرقين بحذر ولكنهم قد يستسلمون للكاتب المسلم ولايحذرون منه) [١] .

فكل دراسة للتاريخ الإسلامى لا تعتمد المصادر الشرعية لا بد أن تصاب بالنقص والتشوه والبعد عن التصور الإسلامى الذي هو جزء لا يتجزأ من الدراسات الإسلامية ، وهو تاريخ أمة ذات عقيدة محركة لها ومسيطرة على نشاطها واتجاهاتها .

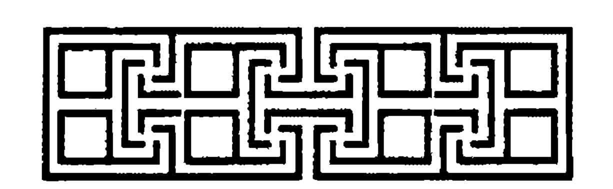
وبسبب الفصل الحاصل بين الدراسات التاريخية والدراسات الشرعية أتيحت

---

(١) انظر : التاريخ والحضارة الإسلامية ، احمد شلبي (١/٥٨).

الفرصة لعدد غير قليل - من الذين لم ينقلوا قدراً كافياً من علوم الشريعة للكتابة في التاريخ الإسلامي، ومن ثم جاءت كتاباتهم صدى للدراسات الاستشراقية، وتحمل كثيراً من لوثة الانحراف الفكرى والغزو الثقافي وتمثل الفهم المشوه للشريعة، وحتى المخلصين من هؤلاء الباحثين لا يكادون ينجون من هذه الآثار ، وذلك راجع إلى قلة البضاعة في الدراسة الشرعية ، وللمنهج الذى به دراسة التاريخ.

إن الواجب يقضى بأن كل من يتصدى لدراسة التاريخ الإسلامى وتدريسه يجب عليه دراسة القرآن الكريم، ومعرفة أسباب النزول وأصول علم الحديث ومعرفة الأحكام الشرعية ، وعقيدة أهل السُنَّة والجماعة ، وعقائد الفرق المخالفة لها لأن هذه من أهم المصادر لدراسة التاريخ الإسلامى ، وخاصة في مجال التحليل والمنظور التاريخى والمنهجية العلمية ، وصدق القائل « العلم يخدم بعضه بعضاً » .



المبحث الثانى
عدم التسليم لكل ما ورد في الكتب المنزلة قبل القرآن

قال تعالي : ﴿ **مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا** ﴾ [النساء:٤٦] .

وقال تعالي : ﴿ **الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** ﴾ [البقرة:١٤٦] .

وقال : ﴿ **يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ** ﴾ [المائدة:١٥] .

وقال :﴿ **وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا** ﴾ .

[المائدة:٤١] .

ففي هذه الآيات وغيرها دلالة واضحة على تحريف اليهود والنصارى لكتبهم المنزلة على رسلهم والواقع يثبت هذا التحريف، فإن الأناجيل التى بين أيدينا قد دونت بعد رفع عيسى عليه السلام بأزمان متطاولة ، واختلافاتها كثيرة ، وما تحويه من الكلام المنكر والقصص الفاسد والشرك بالله ، من أكبر الأدلة على تحريفها مما يجعل كل عاقل يقطع بأن هذا ليس مما يرضاه الله ويحبه فضلاً عن أن يكون من كلامه سبحانه وتعالي . فالكتب السماوية السابقة لنزول القرآن منسوخة الشرائع والأحكام بهذه الشريعة الخاتمة.

أما أخبارها وقصصها فهى مترددة بين الصواب والخطأ، لثبوت وقوع التحريف والزيادة والنقص ، ولذلك قال رسول الله ﷺ : [**لا تصدقوا أهل الكتاب ولاتكذبوهم ، وقولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا**] [1] .

---

(١) رواه البخاري، انظر: فتح الباري(٨ / ١٧٠,١٣,٣٣٣) .

المبحث الثالث

معرفة شروط المؤرخ المقبول

ومن المعلوم أن الأخبار التاريخية في ثبوتها وعدالة رواتها واتصال أسانيدها لا تصل إلى درجة الأحاديث النبوية إلا في القليل النادر، مثل ما جاء مروياً عن طريق علماء الحديث، كأخبار السيرة النبوية وسيرة الخلفاء الراشدين ، وبعض أخبار الأمم السابقة الواردة عن طريق السُّنَّة ، إنما غالبها محمول عن الإخباريين منقطع الأسانيد ويكثر فيها المجاهيل بل إن بعضهم يروى بدون إسناد، أو حتى تبيين المصادرالتى حمل عنها المؤرخ، ورغم ذلك فإن التاريخ الإسلامى إذا قورن بغيره من تواريخ الأمم نجد أنه قد حفظ وخدم ودون في وثائق، وتناقلة الخلف عن السلف، وغالب أخباره وحوادثه الرئيسية قد وصلتنا بالاستفاضة والتواتر، وبالروايات المشهورة ولا يقع الخلاف ويحتاج الأمر إلى التدقيق إلا في تفاصيل الحوادث ، وهذا الوضوح التاريخى لا يوجد في تاريخ أمه من الأمم كما هو في التاريخ الإسلامي **والشروط المطلوبة في المؤرخ ليكون مقبول الرواية نوعان :**

شروط تتعلق به ذاته ، وأخرى تتعلق بما ينقله ويرويه .

أما الشروط المتعلقة بذاته فهي :

[١] العدالة، والعدل هو المسلم البالغ العاقل الذى سلم من الفسق وخوارم المروءة (١) .

[٢] القدرة على التمييز بين المقبول والمردود من الروايات وذلك بمعرفة الرواة وما قيل فيهم من جرح أو تعديل، ومعرفة الأصول المنهجية في النقد والموازنة بين الروايات المتعارضة وكيفية الجمع بينها .

---

(١) أحمد شاكر: الباعث الحثيث (٩٢) .

[٣] العلم بأصول الأحكام الشرعية وبمقادير الناس وأحوالهم ومنازلهم وبمدلولات الألفاظ ومواقعها.

[٤] مصاحبة الورع والتقوى بحيث لا يأخذ بالتوهم والقرائن التى تختلف.

[٥] الضبط لما يراه أو يسمعه.

[٦] تجنب الغرض والهوى. وهذا أمر يعز وجوده إلا في القلة النادرة.

[٧] حسن التصور للموضوع الذى يكتب، وذلك أن يفهم الموضوع الذى يبحثه فهماً جيداً ويحيط به من كافة جوانبه.

[٨] أن يكون جيد العبارة عفيف اللسان عن المنكر من القول.

وبخصوص الشروط التى تتعلق بما يرويه المؤرخ :

فقد ذكر السبكي [١] في طبقات الشافعية قاعدة في المؤرخين، وجعل من الشروط اللازمة لما يرويه المؤرخ ما يلي:

[١] اعتماد اللفظ دون المعنى وذلك أن ينقل الكلام بنصه دون أن يتصرف فيه بتقديم أو تأخير أو تدوين المعني، ومن هنا انتقد العلماء ابن حبان حيث تصرف في ألفاظ الجرح والتعديل المروية عن العلماء في نقد الرواة [٢] وعبر عنها من عند نفسه.

[٢] أن يسمى المؤرخ المصدر الذى نقل عنه معلوماته وبذلك تتضح مصادره وتعرف.

[٣] أن يكون نقله مضبوطاً.

[٤] زاد السخاوى شرطاً آخر وهو (التحرى فيما يراه من الوقائع التى كانت بين

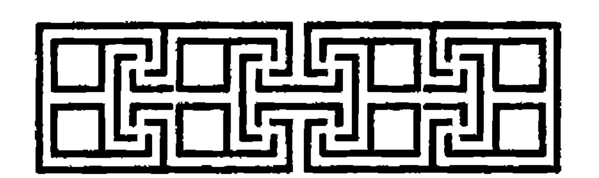
---

(١) هو الشيخ تاج الدين عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي، ولد سنة (٧٢٧هـ) جد في الطلب وتولى التدريس وله مؤلفات كثيرة، توفي سنة (٧٧١هـ)، انظر: البدر الطالع، للشوكاني (١ / ٤١٠).

(٢) انظر: الذهبي: ميزان الاعتدال (٣ / ٥٠٧) في ترجمة ابن حبان.

أعيان الصدر الأول من الصحابة ، لما أمرنا به من الإمساك عما كان بينهم والتأويل له بما لا يحط من مقدارهم ، ويلتحق بذلك ما وقع بين الأئمة سيما المتخالفين في المناظرات والمباحثات) [١] .

وهذا الشرط مهم للغاية ، وعدم مراعاته كان السبب في وقوع كثير من الأخطاء والانحرافات في كتابة التاريخ الإسلامي ، وكان ما دون من مثل هذه الأخبار عوناً للمستشرقين والحاقدين على الإسلام وعلمائه فيما نشروه من دراسات عن التاريخ الإسلامى حتى أخفوا معالمه الأساسية ، وأظهروه في صورة قاتمة شوهاء ، لا تزيد على كونها صراعاً على السلطة وتكالباً على الشهوات ، وفسروا التاريخ الإسلامى كما يحلو لهم تفسيراً مادياً ، أو قوميًا ، أو علمانياً .



(١) السخاوي : الإعلان بالتوبيخ (٦٤-٦٥).

المبحث الرابع

معرفة حدود الأخذ من كتب أصحاب الأهواء والزندقة

من الأمور المهمة في المصادر معرفة الحدود التى تراعى عند الرجوع إلى كتب أصحاب الأهواء من الفرق التى ضلت الطريق، وفارقت الصراط المستقيم إما بدعوى تأويل غير سائغ، أو استجابة لشهوة وهوي ، أو عن زندقة وكفر.

وقد اعتنى العلماء بضبط مذاهب الفرق وأقوالهم لكى تعلم وتعرف حتى أفرد بعضهم ذلك بمؤلفات خاصة مثل أبى الحسن الأشعرى (ت ‎.‎٣٣) في « مقالات الإسلاميين » وأبى الحسين الملطى الشافعى (ت ٣٧٧) في « التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع »، وأبى محمد ابن حزم (ت٤٥٦) في كتابه « الفصل في الملل والنحل » ومثل أبى الفتح الشهرستانى (٥٤٨) في كتابه « الملل والنحل » .

كما أن أصحاب الفرق أنفسهم قاموا بتدوين مذاهبهم ومعتقداتهم وأخبارهم وتراجم رجالهم وعلمائهم، ومناظراتهم وردودهم على المخالفين لهم ومنهم من اشتغل بالتاريخ العام فدون الأخبار وصاغها وفقاً لمعتقده الدينى ومذهبه السياسى فأبرز مثالب خصومه وأخفي كثيراً من جهودهم وحسناتهم، ولأجل هذا فإنه لا بد للمؤرخ المسلم أن يتعرف على ترجمة مؤلف ما يرجع إليه من المصادر فيتعرف على عقيدته واتجاهه السياسى والمذهبى لأن هذه المعرفة تمكنه من التعامل مع النصوص التى يوردها ذلك المؤرخ بما تكون لديه من خلفية بحن اتجاهاته وآرائه ثم يقارنها بغيرها مما عند أصحاب الفرق الأخرى وبما عند الثقات العدول المسلمين.

والموقف من كتب أصحاب الفرق والأهواء ينظر له من ثلاث زوايا هي بحسب موضوع الرواية:

﴿ **١** ﴾ فما كان متعلقاً بنقل حكم من أحكام الشريعة وروايته فإن علماء أصول الحديث **قد قرروا في كتبهم أن الرواية عن المبتدعة تنقسم إلى قسمين** [١] :

القسم الأول : فمن كانت بدعته مكفرة مثل الروافض يسبون أبا بكر وعمر ويكفرون الصحابة، ومثل طوائف الباطنية من قرامطة وإسماعلية ونصيرية وغيرهم من الزنادقة كالخرمية والحلولية والثنوية ، فهولاء لا تقبل روايتهم ولا كرامة [٢] .

أما القسم الثاني : من المبتدعة الذين لا تصل بدعتهم إلى الكفر والخروج من الملة، فمن كان منهم معروفاً بالكذب أو قلة الضبط فلا تقبل روايته، وهذا شرط في كل راو مبتدع أو غير مبتدع، ومن كان مشهوراً بالورع والتقوى والضبط لما يرويه فتقبل روايته حتى وإن كان داعية لبدعته شريطة أن لا يكون ما يرويه مؤيداً لبدعته،واحتجوا لهذا بإخراج البخارى في صحيحه لعمران بن حطان الخارجي مادح عبد الرحمن بن ملجم ـ قاتل على بن أبى طالب ـ فهو من أكبر الدعاة إلى بدعته، ولكن لما عرف بالورع وأنه لا يكذب أخرج الأئمة حديثه [٣] .

﴿ **٢** ﴾ ما كان متعلقاً بالأخبار عن أهل السُنَّة سواء في التاريخ العام أم في التراجم الشخصية ، لا ينظر فيه إلى تعصب الراوى من عدمه ، فمن لاحت عليه أمارات التعصب أسقط خبره ، لأن الخصومة حجاب ساتر عن رؤية الحقيقة كما قيل:

---

(١) ذهب إلى ذلك ابن الصلاح والنووي ، والذهبي، والعراقي، وابن حجر، وغيرهم من المتقدمين من علماء الجرح والتعديل مثل محمد بن سيرين، وعبد الله بن المبارك ، ومالك بن أنس كما في الكفاية للخطيب (١٩٤) يردون رواية كل مبتدع.

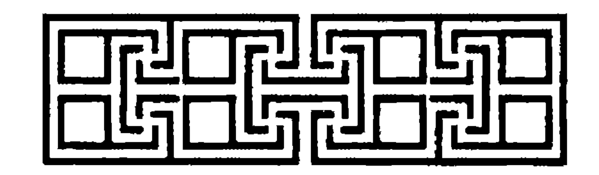
(٢) راجع الذهبي : ميزان الاعتدال (١ / ٤) في ترجمة أبان بن تغلب فقد فصل في ذلك وبين بياناً شافياً.

(٣) **انظر** : الحافظ ابن كثير: اختصار علوم الحديث (١٠٠)، السيوطي في التدريب (١ / ٣٢٤,٣٢٩) .

وعين الرضـا عن كل عـيب كليلة ولكن عين السـخط تبـدي المساويا

أما من لا يلحظ عليه التعصب وكان عدلاً في ذاته فيسبر خبره ويقارن بغيره من الأخبار وبالوجهة العامة للمجتمع الإسلامي.

﴿ ٣ ﴾ والزاوية الثالثة في النظر هي روايتهم الأخبار عن أهل طائفتهم ومذهبهم وهذا كالإقرار منهم فهو حجة عليهم، خاصة حكاية أقوالهم ومذاهبهم فهم أعرف ببعضهم بعضاً وبأصول مذهبهم ومنطلقاته الفكرية وكما قيل في المثل: (من فمك أدينك).

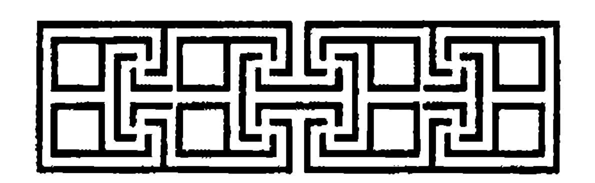


المبحث الخامس

معرفة ضوابط الأخذ من كتب غير المسلمين

فإذا كان الموضوع متعلقاً بديننا من شرح أو تفسير، أو إطلاق أحكام على الشخصيات الإسلامية، أو على علم من علوم الإسلام ، أو نظام من النظم الإسلامية أو دراسة لسيرة النبى ﷺ فإنهم لا يصدقون فيما يقولونه ، ولا يحل للمسلم أن يأخذ عنهم في هذا المجال، لأنهم ليسوا أهلاً أن يؤخذ عنهم شيء من دين الله ، ولأن من شروط البحث في هذه القضايا الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر.

فإذا كان علماء الإسلام لا يثبتون الأحكام بما يرويه المسلم ضعيف الضبط، فكيف يحق لقوم مؤمنين أن يحملوا عن كافر ساقط العدالة يحمل من الحقد والبغضاء على هذا الدين وأهله ما الله به عليم، إن القول في الأحكام الشرعية وفي النظم الإسلامية وفي تقرير رجاله وتاريخه لا يؤخذ إلا من المسلم العارف الثقة ، أما غيره فلا اعتبار لقوله ولا لخلافه لو خالف.

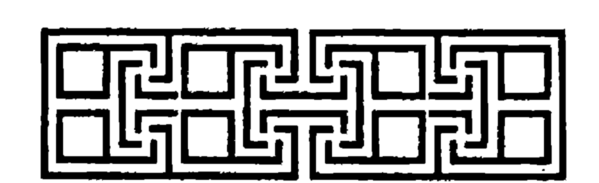


المبحث السادس

قواعد في أسلوب العرض

لما كان الأسلوب هو الأداة التى يعرض بواسطتها المؤرخ موضوعه فإنه يلزمه أن يعتنى به، ويراعى المستوى العلمى والوسط الاجتماعى الذى يكتب له بحيث يكون واضحاً ومؤدياً للأهداف العلمية التى قصدها من بحثه.

وبما أن دراسة التاريخ في حس المسلم مرتبطة بعقيدته، والتاريخ أداة من أدواته في الدعوة إلى الله وتحقيق عبوديته بإقامة منهجه وتحكيم شريعته فإنه يتحتم عليه ملاحظة بعض القواعد في أسلوب الكتابة وطريقة العرض والتى نوردها فيما يلي:



المطلب الأول

جعل العقيدة الإسلامية المحور الأساسي في عرضه

وذلك بتركيزه على التصورات الإسلامية الصحيحة أثناء العرض الموضوعى للحادثة التاريخية مع ملاحظة المحافظة على الوقائع التاريخية وعدم الإخلال بها وعرضها كما جاءت في مصادرها الصحيحة.

وعليه أن يتابع العقيدة في الحوادث والوقائع وتوجيهها لها، وعليه أن يعتنى بعرض النتائج المترتبة على الالتزام بالعقيدة من حصول النصر والتمكين، وتدفق الخيرات، وانتشار الأمن والطمأنينة في النفوس وانقطاع سبل الفساد، وإيضاح عرض النتائج المترتبة عن الانحراف العقيدي، والتقصير في ذلك، قال تعالى: ﴿ **لَقَدْ كَانَ لِسَبَأٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (١٥) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ (١٦) ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ** ﴾ [سبأ: ١٥ - ١٧] .

فإن هؤلاء القوم لما أعرضوا عن دين الله وظلموا أنفسهم أرسل الله عليهم سيل العرم فشتتهم ومزقهم كل ممزق حتى قيل المثل: (تفرقوا أيدى سبا) وهذه سُنَّة الله في كل من أعرض عن عبادته وكذب رسله.

وإن البشرية على طول تاريخها كلما فاءت إلى العقيدة وتمسكت بها حصلت لها السعادة والتمكين في الأرض، وكلما بعدت عنها أصيبت بالأمراض الأجتماعية والخلقية وفشا فيها الظلم والجور وسلط عليها الأعداء.

فالتركيز على محور العقيدة والتذكير بها في كل مناسبة، وربط الحوادث بها وبمقتضياتها هو أسلوب القرآن وطريقته في عرضه لتاريخ الأنبياء عليهم السلام، فإنه يركز على الوحدانية وإخلاص العبودية لله، ونبذ الشرك والمشركين، وبيان تناقضهم ويجعل القصص ونتائجها مرتبطة بذلك .

المطلب الثانى

التركيز في العرض على الأهداف والغايات

المؤمن له في الحياة هدف وغاية عليا يسعى دائما لتحقيقها وهى عبادة الله وحده، وعند دراسته لحقبة معينة من الزمن أو حادثة من الحوادث فإنه ينظر إلى هذه الدراسة على أنها وسيلة من الوسائل للوصول إلى الغاية العليا، فلا ينفق كل جهده في الوسيلة ويترك الغاية، ولذلك ينبغى أن لا تشغلنا الدقائق التفصيلية في حوادث التاريخ عن العبرة من الحدث، والرؤية الشاملة له، وعن الاعتبار الذى يترك في النفس أثراً، وإنفاق الوقت والجهد في البحث عن أمور لا طائل تحتها ولا تعود على الباحث بفائدة ليست من هدف المسلم ولا غايته في الحياة إلا أن يكون البحث في التفصيلات متعلق به مقصد شرعى فلا بأس حينئذ من البحث فيه ومحاولة إثباته.

وهذا هو ما يلحظ من توجيه القرآن للذين تجادلوا في عدد أصحاب الكهف، قال تعالي: ﴿ **سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَاءً ظَاهِرًا وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا** ﴾ [الكهف: ٢٢] .

فالخلاف حول عدد أصحاب الكهف يستخلص من ورائه أن الناس دائما يتعلقون بالأمور الجانبية التى لا فائدة ترجى من وراء معرفتها، ويختلفون في ذلك ثم يخوضون بالجدل فيه بغير علم ويتركون المقاصد والأمور المهمة، وهى أخذ العبرة من وراء سياق القصة، وإنه لا يستوي في أخذ العبرة أن يكون عددهم ثلاثة أو خمسة أو سبعة أو أقل أو أكثر، فالعبرة في أمرهم حاصلة بالعدد القليل والكثير، ولكن إذا وجد علم صحيح بعددهم فإنه لا مانع من الأخذ به وإثباته كحادثة تاريخية، فالذى يجب على المسلم التركيز على الأهداف والغايات منها في كل مناسبة [١] .

---

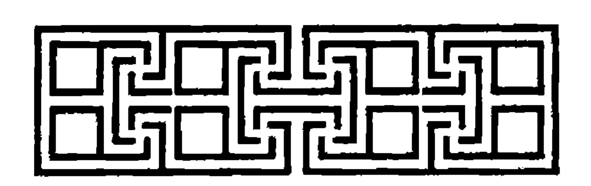
(١) حول تفسير الآية راجع: ابن كثير (٥ / ١٤٤)، سيد قطب (٥ / ٢٢٦٥) في الظلال.

المطلب الثالث

أن يكون العرض موحياً بتحبيب الخير وتبغيض الشر

المؤرخ المسلم ليس ناقلاً لما قيل وما حدث في الزمن الماضي فقط ، إنما هو صاحب رسالة وحامل مشعل هداية للبشرية ، وميزاته في معرفة الخير والشر ليس عرف الناس ولا ما تواضع عليه أهل زمن أو قررته هيئة من الهيئات أو زعيم من الزعماء إنما ميزاته هو شرع الله، ولذلك فإنه إذا درس تاريخ واقعة معينة أو تاريخ شخصية من الشخصيات أو دولة من الدول وجب عليه أن يعرض ذلك بأمانة وصدق، وأن يفحص ويدقق وينقد المصادر والمراجع ويتثبت غاية التثبت ، ثم عليه أن لا يظهر الباطل بمظهر الحق، ولا يظهر الخير بمظهر الشر، إنما يسمى الأشياء بمسمياتها الشرعية فالحق حق مهما كان فاعله، والباطل باطل مهما كان قائله، والميزان هو شرع الله، فإذا رأى غدرة أو ظلماً أو إهانة لأحد أو تعدياً لحدود الله فإنه لا بد أن ينبه على أن ذلك تجاوز ومخالفة لشرع الله ، وإذا رأى عدلاً وإحساناً وجهاداً في سبيل الله وأمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر أشاد به ومدح صاحبه ليكون قدوة في هذا الفعل الطيب.

وهذا من أعظم غايات دراسة التاريخ وثمراته.



المطلب الرابع

إبراز دور الأنبياء وأثره في تاريخ البشرية

الأنبياء عليهم السلام يمثلون خط الاستقامة ومنهج الحق في هذا الوجود بما علمهم الله وأنبأهم به الوحي، وقد جاءوا بعقيدة واحدة هى إفراد الله بالعبادة والاستسلام له بالطاعة والخلوص من الشرك وأهله.

والإسلام بهذا المعنى هو دين الأولين والآخرين من الأنبياء وأتباعهم، وهو الدين الذى لا يقبل الله سواه.

قال تعالي: ﴿ **إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ** ﴾ [آل عمران:١٩].

وقال: ﴿ **وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾. [آل عمران:٨٥].

دور الأنبياء وأتباعهم يمثل في تاريخ البشرية كله خطاً مستقلاً ومترابطاً بعضه مع بعض من آدم إلى محمد ﷺ، وتقف بإزائه الجاهليات على تعدد أنواعها واختلاف أصولها، فالجاهليات تشكل أمة واحدة في مقابل أمة الإسلام ودعاة الحق وحزب الرحمن وأتباع الرسل والأنبياء، والتاريخ البشرى كله منذ خلق الله أدم عليه السلام وأسكنه الأرض وكلفه بالخلافة فيها وأنزل عليه الهدي، يمثل صراعًا بين الحق والباطل، وبين أتباع الهدى وأتباع الضلال فالأنبياء وأتباعهم يريدون تطبيق شرع الله وتنفيذه، وأعداؤهم من دعاة الباطل يريدون تنفيذ أرائهم وأهواء طواغيتهم وكل فترة يتغلب فيها دعاة الحق وينفذون منهج الله، نجد البشرية تنعم بالأمن والاستقرار، وتفيض فيها الخيرات، وذلك لأن منهج الله هو الحق الموافق للفطرة البشرية والمتسق مع ناموس الكون، قال تعالي: ﴿ **مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ** ﴾ [الأحقاف:٣].

وقال تعالى: ﴿ **وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا** ﴾ .

[الجن: ١٦] .

كما أننا نجد أن كل فترة تسيطر فيها الجاهليات تصاب البشرية بالشقاء ويسود فيها الظلم – ولا أظلم من الشرك بالله – وتبتلى بالمصائب، وقد وضح الشيخ أبو الحسن الندوى هذا المعنى في كتابه القيم: «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟».

وكذلك الأستاذ/ سيد قطب رحمه الله في كتابه: «خصائص التصور الإسلامى» في فصل: تيه وركام حتى إن الأرض لتئن من ذلك الظلم وتفرح بزوال الظالمين، قال تعالي: ﴿ **فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ** ﴾ .

[الدخان: ٢٩] .

بل إن قطع دابر الظالمين من النعم التى تستوجب شكر الله وحمده: ﴿ **فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ [الأنعام: ٤٥] .

وقال ﷺ: [**إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب**] [١] ، فأتباع الرسل هم الذين استثنوا من هذا المقت والسخط. ولأجل ذلك فإن على المؤرخ المسلم أن يبرز هذا الأثر وهذا العمل الذى قام به رسول الله ﷺ وخلفه عليه أتباعه، وأن يتبع آثاره في الحياة البشرية في عمارة الأرض، وفي أخلاق الناس وفي آدابهم وثقافتهم وفي آثار دعاة الاصلاح وخططهم ، فإن كلمة الحق لا تضيع هباء ولا بد أن تترك أثراً، ولقد امتن الله سبحانه وتعالى على الأمة الإسلامية وعلى العرب خاصه ببعثه محمد ﷺ، فقال تعالى : ﴿ **كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ** ﴾ [البقرة: ١٥١] .

---

(١) رواه مسلم في كتاب الجنة (٤/ ٢١٩٧) .

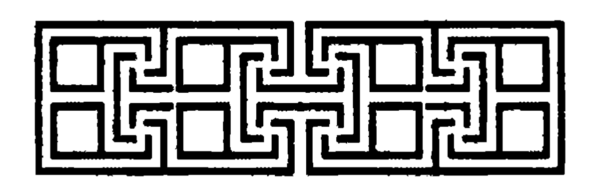
وقال: ﴿ **لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ** ﴾ .

[آل عمران: ١٦٤] .

وفي آيات سورة الجمعة قوله تعالي: ﴿ **هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ** ﴾ .

[الجمعة: ٢] .

فهو الذى زكى أخلاقهم وعلمهم الكتاب والحكمة وما لم يكونوا يعلمون ورفعهم من الضلال المبين - الذى كانوا فيه قبل بعثته - إلى الهدى والنور والصراط المستقيم.



المطلب الخامس

تحرى استعمال المصطلحات الإسلامية

لقد كان من تأثير الغزو الفكرى الأوروبى للمسلمين ، أن شاعت بينهم مصطلحات وألفاظ ومفاهيم غريبة عن عقيدتهم وثقافتهم ، حتى كادت المصطلحات الإسلامية أن تختفي، ووقع في ذلك كثير من الكُتَّاب الذين كتبوا في التاريخ الإسلامى مع أن كثيراً منهم لا يُتَّهمون في دينهم ولا في صدق نياتهم ، لكنهم كانوا ضحايا الفكر العلمانى الوافد، الذى لم يسلم منه حتى أصحاب الثقافة الشرعية، فنجد مع الأسف أنه قد شاع استعمال كثير من المصطلحات الدخيلة على الفكر الإسلامى ليس في مجال التاريخ الإسلامى وحده، وإنما في أغلب كتب الثقافة الإسلامية،ومن هذه المصطلحات نوع له بريق ومعانى مضللة مثل الوحدة العالمية، الإخاء الإنساني، السعى لخدمة البشرية، السلام الدولي ، التعاون العالمي ، المساواة ، الحرية ، زمالة الأديان ، التقارب بين المؤمنين بالله في مواجهة الإلحاد والشيوعية. . .إلخ.

تلك العبارات الموهمة غير محدودة الدلالة، والمسلم قبل أن ينساق وراء هذه الألفاظ الرنانة ويأخذه بريقها يجب عليه أن يزن مثل هذه المصطلحات بالميزان الشرعى ويسأل نفسه ما هى أصول الوحدة التى تدعو إليها بمثل هذه العبارات؟ وما ركائزها؟ وعلى أى أساس نقيم هذه الوحدة العالمية؟ ثم هذه الدعوة للمساواة والحرية والعدالة، على أى منهاج تقام وما هو الميزان الذى يحدد دلالة هذه الألفاظ، وما ضوابط ذلك؟ ، ثم التقارب بين الأديان وهذه الزمالة ، والتعاون ضد الإلحاد على أى منهج يقوم.

إن هناك منهجاً ربانياً واحداً ومئات من المفاهيم والمناهج الجاهلية، فهل المقصود إقامة البشرية على المنهج الربانى والعبودية لله وحده تحكيم شريعته؟ ، أم

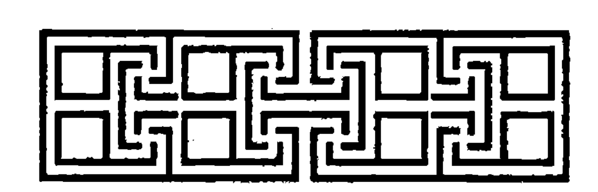
المقصود إقامة خليط من هذه المناهج ذات المفاهيم المتضادة؟ ، يجب أن يكون واضحاً. فتصور المسلم وعقيدته أنه لا التقاء بين الحق والباطل، ولا بين الهدى والضلال ولا بين الإسلام والكفر، وأن الكفر وإن اختلفت مناهجه، وتعددت طرقه، وتباينت درجاته فإنه ملة واحدة ، سواء صدر من نصارى أو من يهود أو من مشركين أو وثنيين أو شيوعيين. وليعلم أن منهج الرسل - عليهم السلام - في إقامة الدين الحق لم يقم على شيء من هذا الخليط ، إنما قام على البراء من المشركين وإقامة الحنيفية السمحة ملة الإسلام.

كما أن هناك مجموعة من المصطلحات الأوربية جرى ترجمتها واستعمالها لدى طائفة من الكتاب المسلمين، وهي ذات مضامين ودلالات محلية وتاريخية، ولا يمكن فصلها عن ذلك الوسط الاجتماعي والظروف التاريخية والثقافية التي واكبت نشوء هذا المصطلح أو ذلك ، مثال ذلك الديمقراطية ، والاشتراكية ، والدكتاتورية، والإمبراطورية واليمين والشمال واليسار، والمحافظين، والليبرالي، والإمبريالى والأحرار، والأرستقراطية... إلخ.

فمثلاً الديمقراطية لا يمكن أن تستعمل كمرادف أو بديل لمصطلح الشورى في المفهوم الإسلامي ، لأن الشورى في الإسلام مقيدة بالنصوص الشرعية بينما الديمقراطية تعنى في أبسط معانيها (حكم الشعب للشعب بالشعب) أى أن الشعب هو مصدر التشريع ، وفي مثال آخر مصطلح الاشتراكية لا يمكن أن يكون بديلاً لمعنى التكافل الإسلامي، لأن هذا التكافل يرتبط بأهداف ودوافع إيمانية لا تلتقى مع أهداف المذهب الاقتصادى الاشتراكى في طريق ومنهج. وقد تابعنا المستعمرين - مع الأسف - حتى في التوزيع الجغرافي والتوزيع التاريخى الذى استخدموه وتلقينا مصطلحاتهم وأنه لا ارتباط لها بواقعنا ولا تاريخنا، فمثلاً في التوزيع الجغرافي يقولون الشرق الأدنى ، والشرق الأوسط ، والشرق الأقصي.

وذلك أن المستعمر الأوروبى اعتبر نفسه في مركز الأرض فأطلق هذا التوزيع

لموقعه، وكذلك التوزيع التاريخى مثل العصور القديمة والعصور الوسطى والعصور الحديثة ، وهذا التوزيع مر بمراحل وتقلبات تاريخية عاشتها أوروبا مما يجعل لكل فترة من الفترات مميزات وخصائص ومفاهيم مستقلة تبعاً للتطورات والانقلابات الفكرية والعقائدية التى عاشتها أوروبا في كل حقبة من هذه الحقب، بينما التاريخ الإسلامى بما فيه تاريخ الأنبياء يمثل وحدة واحدة بالنظر إلى المفاهيم والنظرة السائدة والتى لا تتبدل تبعاً لتبدل الزمان والدول والحكام ، لأنه تاريخ أمة ذات عقيدة واحدة لم تتبدل، ولذلك كان القصد من التوزيع إلى عصور لأغراض التأليف والدراسة، فليس بلازم أخذ هذا التوزيع الأوروبى ولا متابعته عليه، لأنه يفتت تاريخنا ويوجد الحواجز بين عصوره، ومما يبعث في النفس أسى وحسرة أن نرى طائفة من المسلمين عندما يعرضون لتاريخ أمة من الأمم الكافرة ينبهرون من تقدمها فيضيفون عليه روح التقدم والحضارة ويثنون عليه ثناءً كثيراً ويفخرون بمنجزاتها وآثارها ، وتجدهم كذلكم يخلعون مثل هذه الألقاب على الدول الكافرة المعاصرة كقولهم العالم المتحضر، والعالم المتقدم، والدول العظمى، في حين يسمون البلدان الإسلامية بالبلدان النامية ، والعالم المتخلف، أو دول العالم الثالث.
وهذا الانبهار والإعجاب لفقدانهم للميزان القرآنى لمعنى التقدم والحضارة ولانخداعهم بالتيسيرات المادية التى وجدت في هذه الدول، ومن نسيانهم للسُّنَّة الربانية التى دل عليها قوله تعالي : ﴿ **فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ** ﴾ [الأنعام: ٤٤]، ومن فقدانهم لمفهوم الولاء والبراء ، والحب في الله والبغض في الله ، أوثق عرى الإيمان.



المطلب السادس

الابتعاد عن أسلوب التعميم قبل حصول الاستقراء

ومما يلزم ملاحظته في عرضه أن لا يستعمل أسلوب التعميم وإنما تكون عباراته محدودة الدلالة، واضحة المعني، وأن لا يطلق حكماً عاماً على أهل بلد أو على أهل زمان أو على جنس من الأجناس أو ينفي حدوث واقعة معينة ، قبل حصول الاستقراء التام، فمثلاً حادثة مقتل الخليفة الراشد الشهيد عثمان بن عفان وموقف أهل المدينة من ذلك لا يصح أن نقول: إن أهل المدينة كلهم تخاذلوا عن نصرته أو رغبوا في قتله، أو نقول -كما تقول الطائفة المخذولة من الروافض -: إن الصحابة أجمعوا على قتله!! وأنى لهم مثل ذلك !! .

بل نقول: إن أهل المدينة قد وقفوا إلى جانب خليفتهم ودافعوا عنه، كما تدل على ذلك الأخبار الصحيحة، ولكنه منعهم من ذلك وألزم كل من يرى أن له عليه طاعة بالخروج من الدار، لأنه لا يريد إراقة الدماء ووقوع مذبحة بين المسلمين من أجله، ورأى أن أقصى ما يصل إليه أمر الثوار هو قتله، وفرح بالشهادة وتأول حديث رسول الله ﷺ في تبشيره بالجنة على بلوى ستصيبه (١) بهذا الأمر الذى وقع له في حصار الثوار.

ومثل ذلك أن نأتى على مجتمع من المجتمعات أو من العصور فنحكم على أخلاق أهله من خلال شعر اثنين أو ثلاثة أو حتى مائة من الشعراء الماجنين فتقول: إن ذلك عصر مجون وتهتك وخلاعة !! ، فمن المعروف أن كل مجتمع يحوى عناصر مختلفة من الصالحين والطالحين، والحكم يكون للغالب منهما ، كما أنه لايجوز أن نطلق مثل هذه الأحكام على أسرة من الأسر أو طائفة من الطوائف فنقول مثلاً: إن أسرة بنى أمية أسرة ظالمة، أو نقول: إن فرقة المرجئة أو المعتزلة كلهم زنادقة ومنافقون، لأن كل طائفة لا تخلو من بعض الخيرين أو العوام أو المجتهدين المتأولين ، غير أن الحكم يكون للغالب.

---

(١) **انظر**: البداية والنهاية لابن كثير (٧/ ١٨١-١٨٣)، وانظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري (٧/ ٥٣٠)

الفصل الخامس

نبذة عن بعض مشاهير مؤرخي المسلمين

المبحث الأول

الإمام أبو جعفر بن جرير الطبري

المطلب الأول

ترجمته

هو الإمام المجتهد أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي الطبري البغدادي [١] ، ولد سنة ٢٢٤ هـ ، حفظ القرآن في بلدة آمل بطبرستان ثم رحل في طلب العلم سنة ٢٣٦ هـ ، فلم يزل طالباً مولعاً به إلى أن مات [٢] وقد أكثر الترحال ، ولقى نبلاء الرجال ، ثم استقر به المقام في بغداد حتى توفي سنة ٣١٠ هـ ، وصفه الخطيب البغدادى بقوله : « كان أحد أئمة العلماء يحكم بقوله، ويرجع إلى رأيه لمعرفته وفضله، وكان قد جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره ، فكان حافظاً لكتاب الله، عارفاً بالقراءات، بصيراً بالمعاني، فقيهاً في أحكام القرآن، عالماً بالسنن وطرقها ، صحيحها وسقيمها وناسخها ومنسوخها ، عارفاً بأقوال الصحابة والتابعين عارفاً بأيام الناس وأخبارهم » [٣] .

ويقول فيه الناقد الذهبي: « كان من أفراد الدهر علمًا وذكاءً وكثرة

---

(١) تاريخ بغداد : للخطيب البغدادي (٢ / ١٦٢) .

(٢) لسان الميزان : لابن حجر (١٠٢) .

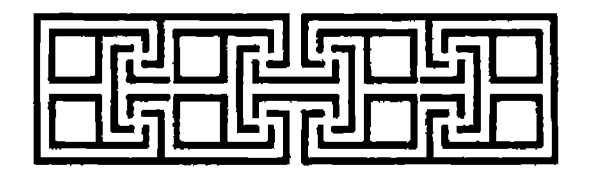
(٣) تاريخ بغداد : (٢ / ١٦٣) .

تصانيف قل أن ترى العيون مثله » [١] .

وقال أيضاً : « كان ثقة صادقاً حافظاً رأساً في التفسير إماماً في الفقه والإجتماع والاختلاف، علامة في التاريخ وأيام الناس عارفاً بالقراءات وباللغة وغير ذلك » [٢] .

وكان رحمه الله عف النفس كريماً ، وقد كانت له مواقف مع بعض الخلفاء والوزراء [٣] فلم يقبل صلاتهم وهداياهم ولا ما عرضوا عليه من المناصب، ورضي بالكفاف من العيش، وزهد في الدنيا ورغب عنها وقنع بما كان يرد عليه من حصة من ضيعة يسيرة خلفها والده بطبرستان [٤] ، وقصر حياته على طلب العلم وكان حصوراً لا يعرف النساء [٥] ، لذلك كثرت تصانيفه وطال نفسه فيها فكتابه جامع البيان من أطول التفاسير وأشملها، حتى قال في وصفه والثناء عليه أبو حامد الإسفراييني : «لو سافر رجل إلى الصين حتى يحصل تفسير محمد بن جرير لم يكن كثيراً » [٦] .

وكتابه تاريخ الرسل والملوك من أوسع كتب التاريخ وأغزرها مادة ، وكذلك يصف العلماء كتابه (تهذيب الآثار) [٧] بأنه لم يصنف مثله ولا يستطيع أحد ذلك !! .



(١) سير أعلام النبلاء : (١٤ / ٢٦٧).
(٢) المرجع السابق (١٤ / ٢٧١-٢٧٥) .
(٣) انظر: المرجع السابق (١٤ / ٢٧١-٢٧٥)، ولسان الميزان : (٥ / ١٠٢-١٠٣) .
(٤) المرجع السابق : (١٤ / ٢٧٤) .
(٥) لسان الميزان : (٥ / ١٠٢).
(٦) المرجع السابق : (١٤ / ٢٧٢) .
(٧) البداية والنهاية (١١ / ١٤٥).

المطلب الثاني

عقيدته

محمد بن جرير الطبرى من كبار علماء الأمة ومجتهديها حسن المذهب والاعتقاد، ثقة في علمه، وقد نقل الذهبى جملاً من كتابه (التصور في معالم الدين) لكى يدلل على سلامة عقيدته ثم عقب على ذلك بقوله : « تفسير هذا الإمام مشحون في آيات الصفات بأقوال السلف على الإثبات لها، لا على النفي والتأويل وأنها لا تشبه صفات المخلوقين أبداً » [١] .

وقال في موضع آخر : « كان ابن جرير من رجال الكمال وشنع عليه بيسير تشيع، وما رأينا إلا الخير، وبعضهم ينقل عنه أنه كان يجيز مسح الرجلين في الوضوء ولم نر ذلك في كتبه » [٢] .

وللإمام الطبرى رسالة في بيان عقيدته [٣] يقرر فيها صحة خلافة الخلفاء الراشدين وأن ترتيبهم في الفضل هو حسب ترتيبهم في الخلافة [٤] وهذا هو مذهب أهل السُّنَّة .

المطلب الثالث

منهجه في الكتابة التاريخية

صنف الإمام أبو جعفر الطبرى كتاباً حافلاً في التاريخ البشرى وهو من كبار علماء الشريعة وأئمة الفقه متضلعاً في كثير من العلوم مثل التفسير والقراءات والعربية ومذهب الفقهاء والسير والأخبار لذلك كان كتابه (تاريخ الرسل والملوك) مبنيًا على هذه الثقافة الواسعة .

---

(١) الذهبي المصدر السابق: (١٤ / ٢٨٠).

(٢) المرجع السابق: (١٤ / ٢٧٧).

(٣) طبعت في بومباي على الحجر سنة ١٣١١هـ، وحققها عبد الله بن حميد في مكة سنة ١٣٩٤هـ.

(٤) المجموعة العلمية السعودية: (٩-١٠).

وقد بدأ أبو جعفر كتابه بمقدمة عن الكون – الزمان والليل والنهار والسماوات والأرض والشمس والقمر – وعن إبليس وما كان فيه من نعمة وكيف أنه كفر وأفسد، وعن خلق آدم ما صار عليه حتى أهبط إلى الأرض (١) .

ثم بدأ بتاريخ البشرية منذ هبوط آدم إلى الأرض وما كان في عهده وعهد أبنائه من أحداث، وجعل تاريخ الأنبياء هو المنطلق لتاريخ الإنسانية، وقد أعطى معلومات واسعة عن التاريخ الفارسي، وعقد مقابلة بين تاريخ مدة أيامهم وأيام بنى إسرائيل (٢) .

أما تاريخ الروم : فلم يذكر منه إلا ما كان له علاقة بأرض النبوات ـ العراق والشام والجزيرة العربية – فهو يذكر قصة الإسكندر ومن ملك أرض الشام منذ رفع عيسى عليه السلام إلى عهد النبى ﷺ .

أما تاريخ العرب: فقد ذكره مفوقاً من خلال تاريخ الإنبياء مثل هود وصالح عليهما السلام ومثل إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ومثل سليمان بن داود، من خلال تاريخ الملوك والجبابرة (٣) من الفرس والروم وأعطى معلومات عن قريش ومن جاورها عند ذكره ولادة رسول الله ﷺ ونشأته حتى بعثته وهجرته. ومصادر الطبرى فيما ذكر من تاريخ الرسل والملوك والزمان قبل البعثة النبوية هى القرآن الكريم ، وأقوال علماء التفسير التى يرويها عنهم بالأسانيد ، وأقوال من سماهم أهل العلم بأخبار الماضين وأمور الأمم السالفين.

وتاريخ الطبرى يمثل قمة التأليف التاريخى عند المسلمين في القرون الثلاثة الأولى، من حيث الشمول الزمانى والمكاني، وإطالة النفس في بسط الأحداث ومحاولة الإحاطة بكافة جوانبها، وأيضاً من حيث المنهجية العلمية، وذلك بنسبة

---

(١) تاريخ الطبري (١ /٩-١٢٦) ط: دار المعارف بمصر.

(٢) المرجع السابق: (١ /٥٧١) .

(٣) المرجع السابق: (١ /٥٥٨-٥٦٠-٥٦٦-٥٦٧-٦٠٩-٦٣٢)

الأقوال إلى أصحابها مع استقامة النظرة التاريخية وإعطاء صورة متكاملة عن حياة الأمة في دقة وأمانة بعيداً عن النظرات الضيقة والأهواء الحزبية.

ومن ميزات تاريخ الطبرى أنه رتبه على السنين بحيث يتمكن الباحث من ملاحظة الأطوار التى مرت بها الأمة الإسلامية في بنائها الحضارى ومعرفة حالات الضعف والقوة التى مرت بها ، وملاحظة ارتباط هذا بحركة الجهاد في سبيل الله والالتزام بشريعته، فكلما كانت الأمة ملتزمة بشريعة الله مجاهدة في سبيله كانت قوية مهيبة، وكلما وقع بها الانحراف وصرف الجهاد في سبيل الله إلى الصراع الداخلى والحفاظ على كراسى الحكم ضعفت وأصابها الهوان.

المطلب الرابع
نظرتـــه للتاريـــخ

الإمام الطبرى من كبار علماء الإسلام ونظرته للتاريخ – أو ما يسمى اليوم بفلسفة وتعليل الحوادث التاريخية ـ تنبثق من اعتقاده وتصوره الإيماني، فهو مؤمن بالله وبأمره ونهيه، وبعدله وبقضائه وقدره، وبأن له سنناً ماضية لا تبديل لها، ومؤمن بحرية الإنسان وقدرته على الاختيار، وأنه مكلف بوظيفة العبودية لله والخلافة في الأرض ، وعمارتها بشرع الله ومنهجه، وبأن الله يثبت الطائع المستجيب ويعاقب العاصى الناكث، ولذلك كانت أحكامه التاريخية على الحوادث تنبثق من هذه النظرة المؤمنة بالله المتمسكة بشرعه وأحكامه ، كما أن تدوينه لتاريخه على حسب سنى الملوك والرسل – الذين مهمتهم التوجيه وسلطة التنفيذ – هو من أجل أن يساعد على توضيح العبرة للمعتبرين ولكى يجلى للبشرية واقعهم الذى كان صفحة وراء صفحة ويريهم كيفية تحقيق سُنن الله عليهم، من نصرة المؤمنين المنفذين لشرعه من الرسل وأتباعهم، وهلاك

الظالمين المحادين لله ولرسله .

يقول الطبرى في مقدمة كتابه موضحاً هذه المعاني: « وأنا ذاكر في كتابى هذا من ملوك كل زمان، من لدن ابتداء ربنا جل جلاله خلقهم إلى حال فنائهم ، وممَّن انتهى إلينا خبره ، ممن ابتدأه الله تعالى بآلائه ونعمه فشكر نعمه من رسول أو ملك مسلط أو خليفة مستخلف، فزاده إلى ما ابتدأه به من نعمه في العاجل نعماً وإلى ما تفضل به عليه فضلاً، ومن أخَّر ذلك له منهم وجعله لهم ذخراً، ومن كفر منهم نعمه فسلبه ما ابتدأه به من نعمة وعجل له نقمة، ومن كفر منهم نعمة فمتعه بما أنعم به عليه إلى حين وفاته وهلاكه، مقروناً ذكر كل من أنا ذاكره منهم في كتابى هذا بذكر زمانه وجُلّ ما كان من حوادث الأمور في عصره وأيامه » (١) .

لقد أكرم الله سبحانه وتعالى خلقه بالإسلام حتى يتحرر الناس من هيمنة التصورات الفاسدة، والعقائد المنحرفة والمناهج الباطلة، والقيم الحقيرة والأخلاق الرديئة وحتى تنجو البشرية من الفساد والتخبط ومن الظلم والاستبداد.

فالذى يعرف الجاهلية هو الذى يدرك قيمة الإسلام ويعرف كيف يحرص على رحمة الله المتمثلة فيه، ونعمة الله المتحققة به . إن جمال هذه العقيدة وكمالها وتناسقها، وبساطة الحقيقة الكبيرة التى تمثلها... إن هذا كله لا يتجلى للقلب والعقل كما يتجلى من مراجعة ركام الجاهلية ـ السابقة للإسلام واللاحقة ـ عندئذ تبدو هذه العقيدة رحمة حقيقية، رحمة للقلب والعقل ورحمة بالحياة والأحياء، ورحمة بما فيها من جمال وبساطة ووضوح وتناسق، وقرب وأنس، وتجاوب مع الفطرة مباشر عميق (٢) وصدق الله العظيم: ﴿ **أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾ [الملك : ٢٢] .

---

(١) تاريخ الطبري: (١ / ٦) .

(٢) خصائص التصور الإسلامي ومقوماته (٣٩) .

المبحث الثانى

خليفة بن خياط

المطلب الأول

ترجمته

هو خليفة بن خياط العصفرى التميمى أبو عمرو البصرى الملقب بشباب. وقد نشأ خليفة في وسط علمى حيث كان والده من أهل الحديث، إلا أنه اهتم إلى جانب الحديث بالتاريخ والسيرة وأيام الناس قال عنه الذهبى - رحمه الله - : « حدث عنه البخارى بسبعة أحاديث أو أزيد في صحيحه »، وقال: « كان صدوقاً نسابة عالماً بالسيرة والأيام والرجال ، وثقه بعضهم ، ولينه بعضهم بلا حجة ، ومات سنة أربعين ومائتين» [١] .

المطلب الثاني

منهجه

كتب ابن خياط كتابين في التاريخ أحدهما في الطبقات والآخر في التاريخ العام وهو معتبر من رجال الحديث ورواته، ومعلوم دقة التزامه بالإسناد خاصة في العصر الذى عاش فيه خليفة، وقد فرق ابن خياط في منهجه في الكتابين، ففي كتاب الطبقات أهمل الإسناد واكتفي بتقديم قائمة مصادره في أول الكتاب، بينما التزم الإسناد في كتاب التاريخ، وإن كانت أسانيده ليست كلها من قبيل الصحيح ، وإنما فيها إرسال وانقطاع وإعضال ، وفي رجاله المجهولون والضعفاء الذين لا يحتج بروايتهم عند أهل الحديث.

---

(١) سير أعلام النبلاء (١١ / ٤٧٢-٤٧٤) .

وقد ركز خليفة بن خياط اهتمامه بعلم الحديث ورغبته في خدمته ، فنجده يذكر في نهاية كل سنة وفيات العلماء والمشهورين، واستعمل الإسناد الجمعى بكثرة، وأورد معلومات تاريخية بدون إسناد وخاصة قوائم أسماء الموظفين والعاملين في الإدارة الذين يذكرهم بعد نهاية حكم كل خليفة.

كما أنه قدم معلومات موجزة لكنها وافيه عن الفتح الإسلامى في عصر الراشدين والعصر الأموي ، وهو لا يعنى بالتفصيلات كثيراً ولا أسباب الحوادث ولا نتائجها وإنما يكتفي بعرض الحادثة ذاتها.

ويعد كتاب التاريخ لخليفة بن خياط من أقدم ما وصلنا من الكتب التاريخية المرتبة على النظام الحولى وعلى الرغم من إيجازه فيه إلا أن القارىء يستطيع من خلاله أن يرصد حركة الأمة الإسلامية والاتجاهات التى سارت فيها،خاصة نشاط الفتوح والجهاد في سبيل الله وبسالة المجاهد المسلم وحرصه على إدخال الناس في الدين الحق، وكيف يكون هذا الكيان الكبير والدولة الإسلامية بمجتمعها المترابط ورقعتها الواسعة .كما أنه لا يخلو من رصد للحركة الفكرية والاتجاهات الدخيلة سواء أكان ذلك إيجابياً أو سلبياً، وهو يقدم معلومات موثقة بعبارات موجزة واضحة في دقة وأمانة علمية دون محاباة لأحد أو تأثر بنظرة حزبية، وكتابته التاريخية بعيدة عن الحشو والمبالغة وعن أسلوب القصص والأيام (١) .

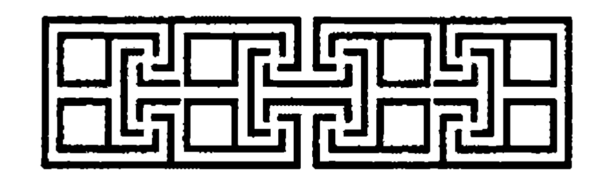
قلت: ومن حق الأجيال القادمة والحاضرة أن تعرف من الذين جاءوا بهذا الدين العظيم إلى بلادنا جملة وتفصيلاً وكيف تربوا وما هى دوافعهم الحقيقية في هذا الفتح العظيم، ولقد لاحظت أن الذين كتبوا عن الفتوحات الإسلامية عموماً وفي الشمال الإفريقى خصوصاً أنهم لم يعطوا لقادة الفتح حقهم من التعريف بهم وبيان عقيدتهم ومبادئهم وحضارتهم التى حملوها معهم من

---

(١) راجع: كتاب منهج كتابة التاريخ الإسلامي، للعلياني (٤٣٢-٤٦٣)

جزيرة العرب الصحراء القاحلة قبل الإسلام، بل وجدت من يحاول تلطيخ القادة وجيوش الفتح الإسلامي، وجعل لذلك الفتح المبارك دوافع اقتصادية ونزعة توسعية واستعباداً للآخرين ولم يكن لهم فيما قالوه أدلة ولا براهين ولا حجج قاطعة، بل حجتهم فيما قالوا أهواء ومتابعة لوحى الشيطان ، حرصوا على إخفاء الحقائق الساطعة والأنوار البهية الواضحة ، والقدوات المباركة من قادة وجنود ودعاة فقهاء وعلماء، واجتهدوا في توسيع النقاط السوداء في تاريخنا وجعلوه تاريخاً دموياً ونزاعاً سياسياً على الملك والسيطرة والزعامة .

ونسأل الله العلي الكبير أن يبارك في هذا الجهد المتواضع لتنوير الأجيال ، وإقامة الحجة على أعوان الشيطان ، قال تعالى : ﴿ **فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ** ﴾ [الرعد : ١٧] .



الباب الثاني

الشمال الإفريقي قبل الفتح الإسلامي

لا يخفى أن من الضرورة بمكان ونحن نتكلم عن تاريخ ليبيا أن نتناول الشمال الإفريقي على الجملة بشيء من التعريف به اسمياً، وتضاريساً ، وسكاناً، وديانة، بحث تكتمل صورته في ذهن القارئ ويتصور أجناس الناس، وما كانوا عليه من ديانة ، أوضاعهم السياسية والحربية والاجتماعية تصوراً كاملاً حتى يستطيع استخلاص العبر والدروس من ذلك ، لأن الحكم على شيء فرع عن تصوره، وبذلك يتحقق المقصود من كتابة هذا الكتاب.

الفصل الأول

سكانه

المبحث الأول

أصل كلمة إفريقيا ومدلولها

جاء في كتاب (قادة فتح المغرب العربي) قوله: أطلق الفنيقيون لفظ أفري (**Aphri**) على أهل البلاد الذين كانوا يسكنون حول مدينتهم القديمة (**Utlca**) وعاصمتهم قرطاجنة مدينتهم الحديثة، وعنهم أخذه اليونان فأطلقوه على أهل البلاد الأصليين الذين يسكنون المغرب من حدود مصر إلى المحيط، ومن ثم سميت هذه المنطقة (أفريكا) أي بلاد الأفري واستعمل هذا الاسم للدلالة على هذه المنطقة، وأخذ معنى هذا اللفظ يتسع شيئاً فشيئاً كما اتسع سلطان الرومان في أفريقية فأصبحت ولاية إفريقية القيصرية تضم ولاية إفريقية الأصلية والجزء الشرقي من تونس الحالية، والمنطقة الداخلية التي تمتد حتى (فزان)، أما

بقية إفريقية الرومانية فسمي الجزء المقابل منها للجزائر الحالية: نوميديا، ويلي ذلك موريتانيا بقسميها القيصرية والطنجية، فإفريقية تشمل كل ما دخل في طاعة الرومان من هذه القارة من برقة إلى طنجة، وعن البيزنطيين أخذ العرب لفظ: إفيريقية، فأرادوا به في أول الأمر كل ما يلي مصر غرباً حتى ساحل المحيط الأطلسي، وهذا هو مفهوم إفريقية العام الذي يكاد يعادل مفهوم المغرب.

أما مفهوم إفريقية الخاص فهو يعني الأجزاء الشرقية من المغرب التي تعادل ولاية إفريقية الرومانية الأصلية، أي البلاد التونسية الحالية مع بعض الأجزاء الغربية لولاية طرابلس (ومنها المدينة) والتخوم الشرقية لبلاد الجزائر إلى (بجاية) في ولاية (قسطنطينة) وعلى ذلك فإقليم إفريقية هو أول أقاليم المغرب [١].

أصل كلمة المغرب ومدولها:

جاء في نفس المصدر قوله: «بلاد المغرب مصطلح يقصد به كل من الأقاليم الواقعة غرب مصر والتي تشمل القارة الإفريقية وتتضمن حالياً البلاد الليبية بولاياتها الثلاث (برقة، وطرابلس، وفزان)، وتونس، والجزائر، بصحرائها المترامية إلى تخوم السودان، وأخيراً المغرب الذي كان يعرف إلى عهد قريب باسم مراكش نسبة إلى عاصمتها الجنوبية، ويمتد طبيعيًّا نحو الجنوب إلى تخوم السنغال والنيجر والمغرب عند الكتَّاب الأوائل ويبدأ مما يلي إفريقية غرباً إلى سواحل المحيط، فقد ولى يزيد بن عبد الملك يزيد بن أبي مسلم مولى الحجاج بن يوسف الثقفي إفريقية والمغرب، وهذا معناه أن المغرب هو غير إفريقية، والمغرب الأقصى، هو بلاد مراكش (المغرب) والمغرب الأوسط هو بلاد الجزائر الحالية، وخط التقسيم بين المغربين: الأقصى والأوسط هو مجرى وادي ملوية أو ما بين تلمسان و (تازا) أما المغرب الأدنى، فهو بلاد القيروان أو ما يسمى اليوم بتونس) [٢].

---

(١) قادة فتح المغرب العربي، محمود شيت خطاب، الجزء الأول (١٣-١٤).

(٢) المرجع السابق: (١٤-١٥).

المبحث الثاني

العنصر البشري

المطلب الأول

العنصـــر البربـــري

قال صاحب كتاب قادة فتح المغرب العربي: «البربر سكان المغرب الأصليون، ونقصد هنا بالمغرب من حدود مصر الغربية إلى المحيط الأطلسي، وهم أقدم أمة عرفها التاريخ في الشمال الإفريقي، ومن المعقول جداً أن يكون العرب قد أخذوا لفظ (البربر) عن اللاتينية (**Barbari**) مع تغيير معناه، إذ كان الأفارقة اللاتينيون يطلقونه عادة على الأهلين.

وقد حاول الكتاب العرب تفسير لفظة: (بربر) فأوردوا في ذلك عدداً من الآراء يمكن تقسيمها إلى قسمين: أولهما: تفسير كلمة (البربر) تفسيراً لغوياً، لأن لغة القوم في رطانة أعجمية تختلط فيه الأصوات التي لا تفهم، فقيل لهم: (ما أكثر بربرتكم) ! ، كما يقال: بربر الأسد إذا زأر بأصوات غير مفهومة أما ثانيهما، فتفسير كلمة: (البربر على حسب عادة العرب في تقسيم الشعوب على الأسس المتعارف عليها عندهم في علم الأنساب ، إذ قيل: شعب المغرب اتخذ اسم أحد آبائه البعيدين، هو برّ بن قيس عيلان، ولكن ابن حزم يقول عن ذلك: (... وهذا باطل لا شك فيه، وماعلم النسابون لقيس ابناً اسمه: بر أصلاً، ولا كان لحمير طريق إلى بلاد البربر، إلا في تكاذب مؤرخي اليمن).

ولم يأت القرن الرابع الهجري حتى كانت أنساب البربر قد دونت بالعربية وأصبحت مثل أنساب العرب، والظاهر أن هؤلاء النسابة اتخذوا شجرة الأنساب العربية التي تقسم العرب إلى قسمين كبيرين ، ينحدران من قحطان وعدنان

- نموذجاً - فقسموا قبائل البربر إلى مجموعتين كبيرتين هما : البرنس، والبتر، وقالوا : إن الجماعة الأولى أبناء برنس بن بربر، وإن الجماعة الثانية أبناء مادغيس ابن بربر الذي لقب بالأبتر) [١] .

وقال أيضاً عن البرانس: البرانس من قبائلهم المشهورة عشرة : إزداجة، مصمودة، أربة، عجيسة، كتامة، صنهاجة، أريغة، ويضاف إليهم حسب رأي البعض لمطة، وعكسورة، وجزولة (كزولة).

وهذه الأصول الكبيرة تنقسم إلى فروع صغيرة، فقبيلة هوارة تنحدر من أوربغ، وقبيلة مكيلة تنحدر من هوارة، وقبيلة غمارة تنحدر من مصمودة [٢] .

وقال أيضاً عن البتر: البتر من قبائلهم المشهورة أربعة : أداسة ونفوسة وضريسة ونبولوا الأكبر، وهذه الأصول الكبيرة تنقسم إلى فروع صغيرة، فمن قبائل (لوا) تعد قبيلتا نفزاوه ولواتيه ، وينحدر من (نفزاوة) قبيلة (وطاطة) وينحدر من (وطاطة) قبيلة (تيرغاش) ومن (تيرغاش) تنحدر قبيلة (ورفجومة) ... إلخ [٣] .

والذي يلاحظ أنه رغم انقسام البربر إلى برانس وبتر وانقسام هؤلاء إلى قبائل مختلفة ، فإن القرابة موجودة بين الجماعتين ، كما أن الصلة وثيقة بين فروع كل منهما، فالنسابون يختلط عليهم الأمر إلى درجة أنهم يضعون قبيلة هوارة في البرانس، ثم يعدونها من البتر أو يجعلونها أختًا لقبيلة أداسة البترية (عن طريق الأم) وكذلك الأمر بالنسبة إلى قبيلة زواو التي تعد من البتر ويعتبرها ابن حزم من كتامة البرنسية.

وابن خلدون يحذو حذو من ينفي انتساب البربر إلى العرب مثل ابن حزم

---

(١) المرجع السابق: (١٤-١٥).
(٢) المرجع السابق: (١٦-١٧).
(٣) المرجع السابق: (١٦).

والحق أن للنسابين العرب والبربر العذر في جعل شجرة النسب البربرية أشبه ما تكون بشجرة النسب العربية، بل وفي إلحاق البربر بالأصل العربي فمما لا ريب فيه أن الشبه قريب بين العربي والبربري ، وهذا أمر وليد البيئة، لأن طبيعة بلاد المغرب يغلب على أهلها الطابع الصحراوي وهي أشبه بطبيعة بلاد العرب مما يترتب عليه نتاج ذو طبيعة متجانسة في الاجتماع والعمران، لذلك ينقسم البربر إلى طائفتين متباينتين، وهما طائفة البربر الحضر (سكان المدر أي البيوت) وطائفة البربر الرحل (سكان الوبر أي سكان الخيام)، وسكان الحضر منهم يسكنون النواحي الشمالية الخصبة والسفوح المزروعة ، وسكان الوبر منهم يسكنون الصحاري والواحات التي تلي ذلك جنوباً وشرقاً.

والفوارق بين الطائفتين اجتماعية لا جنسية، إذ أن البربر المستقرين ينزلون النواحي الخصبة بجبال (زوراس) أي جنوب وسط الجزائر الحالية، وجنوب المغرب، وبعض أجزاء تونس الغربية،وطبيعي أن يكونوا على جانب من الحضارة لا تصالهم بالقرطاجنيين ، واللاتين ، وحضارات البحر الأبيض المتوسط، فاشتغلوا بالزراعة والصناعة وظهر فيهم نفر أخذوا بأسباب الحضارة اللاتينية مثل (يوبا) أمير (نوميديا) الذي درس وتربى في روما، و(يويجرتا) عدو الرومان اللدود، و(ماكسن) الذي لعب دوراً سياسياً هاماً في الحرب ما بين روما وقرطاجنة.

أما البربر الظواعن، فهم بدو يعيشون على الرعي ويميلون إلى الإغارة على ما يجاورهم من نواحي العمران، فكان هذا الاختلاف في الأحوال الاجتماعية، سبباً في نزاع طويل وحروب مستمرة بين الفريقين، فكان الرحل لا ينفكون يغيرون على مزارع المستقرين وقراهم، فاضطر هؤلاء إلى أخذ الحذر منهم والاحتماء من آذاهم ، والاستعانة عليهم باللاتين أو البيزنطيين، مما أدى إلى ظهور الفوارق بين الطائفتين بشكل جلي واضح وكان له أبعد الأثر في مستقبل البلاد السياسي، إذ حال دون اتحاد أهلها، وسهل غزوها ومكن الفاتح (الفتح لا يكون إلا بدعوة

الحق) الأجنبي من أن يستعين بفريق على فريق ، وحال دون نشوء دولة بربرية واحدة أو شعب متكاثف متناسق، أفاد الرومان من هذه الحال إفادة كبرى ، فاستعانوا بفريق على فريق ، فأمكنهم ذلك من البلاد ، وثبت قدمهم فيها ، أما البيزنطيون، فلم يوفقوا إلى الفائدة من تلك الحال ، مما جعل سلطانهم على البلاد ضعيفاً واهياً (١) .

المطلب الثاني

العنصـــر الإفريقـــي

تطلق كلمة – الأفارقة – في بعض الكتب ويراد بها العنصر ذي البشرة السوداء على سكان القارة الإفريقية الأصليين، بيد أن في بعض الكتب المعاصرة إذا ما أطلقت هذه الكلمة يراد بها سكان القارة الإفريقية بحدودها الجغرافية الحالية ، وتشمل ذوي البشرة السوداء والبيضاء ، كسكان الشمال الإفريقي (المغرب العربي) .

يقول الأستاذ محمود شيت خطاب في تعريفه للعنصر الإفريقي: (مع أن هذه التسمية نسبة إلى إفريقية ، إلا أنه يفهم أن الأفارقة مختلفون عن البربر والروم .

وعلى ذلك يمكن أن يكون الأفارقة دخلوا في خدمتهم وانصبغوا بالحضارة الرومانية كما دخلوا في المسيحية، ورغم أن كثيراً من هؤلاء الأفارقة دخلوا في الإسلام، فإن الكثيرين منهم ظلوا يتكلمون لغة خاصة بهم ربما كانت مزيجاً من اللاتينية والبربرية ، أو لهجة محلية) (٢)

---

(١) (٢) المرجع السابق: (جـ ١/ ١٨)

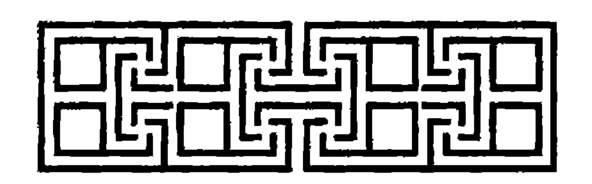
المطلب الثالث

العنصــــر اليهـــودي

لا يخفى أن تواجد العنصر اليهودي في العصور الأولى كان ضئيلاً جداً، وسبب تواجده في منطقة الشمال الإفريقي كان لعدة أسباب منها: سبب سياسي: وهو حب السيطرة وتوسع نفوذهم في أرجاء المعمورة ، وسبب اقتصادي: حيث كان الشمال الإفريقي ينعم بخيرات البر والبحر ، كل هذه الأسباب والدوافع مجتمعة كانت وراء مجيء العنصر اليهودي للمنطقة ، حيث وصلوا على هيئة جماعات صغيرة عن طريق الفنيقيين قبل وصولهم الأخير إلى بلاد المغرب أيام الرومان .

يقرر ذلك الأستاذ محمود شيت خطاب بقوله:

« وجد العرب – المسلمون – أيام الفتح جماعات من يهود في إفريقية ، ويرى بعض الكتاب أن الأفكار اليهودية بدأت تعرف طريقها إلى البلاد عن طريق الفينيقيين ، وذلك قبل أن تهاجر جماعات من اليهود إلى المغرب على أيام الرومان،وقد عمل هؤلاء المهاجرون على نشر اليهودية بين بعض قبائل البربر »(١) .



---

(١) قادة فتح بلاد المغرب (١ / ٢٠) .

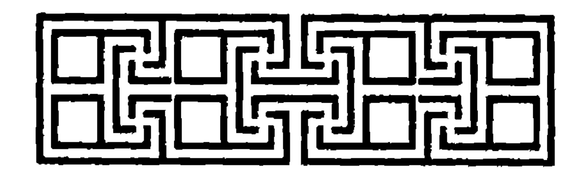
المطلب الرابع

العنصر السوداني

إن كلمة السودان إذا ما أطلقت يراد بها سكان ماوراء البحر الأحمر من القارة الإفريقية ، جنوب المغرب العربي، ويدخل في ذلك دخولاً أولياً السودان، وأثيوبيا، وأرتيريا، والصومال، وجيبوتي، حيث يعتبر سبب تواجد هذا العنصر في الشمال الإفريقي سبباً طبيعياً، لأن أراضي الشمال والجنوب مترابطة ترابطاً إلى أبعد الحدود، لدرجة تسهل بينهما عملية التنقل والتجارة والإقامة والتزاوج، لذلك تجد في سكان الشمال الإفريقي ذوي الألوان السوداء الإفريقية.

يقول الأستاذ محمود بهذا الصدد:

(إن بلاد المغرب وثيقة الصلة من الناحية الجغرافية ببلاد السوادان الغربية، ونلاحظ أن كُتَّاب اليونان القدماء يطلقون اسم الأحباش (الأثيوبيين) على أهل الأقاليم الجنوبية من المغرب ، والحقيقة أن واحات الصحراء كانت همزة وصل بين المغرب والسودان فكان من الطبيعي أن تكون بالتالي منطقة المزج بين العنصرين الأبيض والأسود) [١] .



(١) قادة فتح بلاد المغرب (١/ ٢٠).

المطلب الخامس

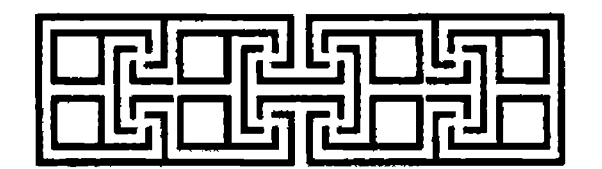
العنصر الرومي والفرنجي

يقصد بهذا العنصر، العنصر الأوربي، خاصة سكان فرنسا ومن حولها، أصحاب الوجوه الحمراء، والشعور الصفراء، والعيون الزرقاء، فتواجد هذا العنصر في الشمال الإفريقي كان طبيعياً حيث إنهم - الروم والفرنج - حكموا هذا الإقليم وأقيمت لهم إمبراطوريات لفترة من الزمان لا يستهان بها ، لذلك حدث الاختلاط بينهم وبين سكان الشمال الإفريقي بصور عدة منها التزاوج والإقامة الدائمة ، حيث بقي منهم في الشمال الإفريقي بصورة دائمة ، لذلك تجد في بعض سكان الشمال الإفريقي الشبه الأوروبي من ناحية الملامح الظاهرة واضحة جداً.

يقول الأستاذ شيت في ذلك:

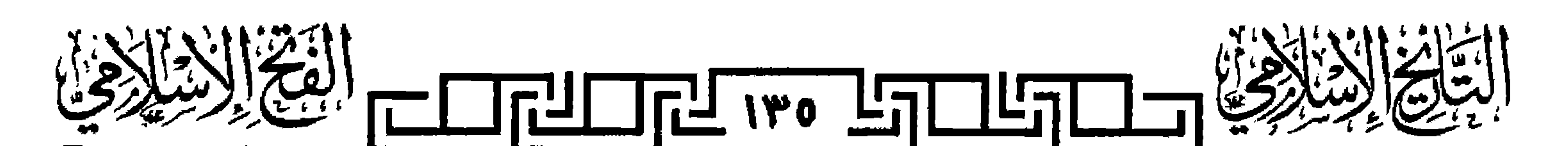
(رغم أن البلاد كانت خاضعة للرومان ثم للروم - البيزنطيين - لمدة طويلة منذ انهارت قرطاجنة أمام روما ، إلا أن هؤلاء ظلوا يكونون جماعة منفصلة عن البربر حقيقة ، وأنه حدث تزاوج واختلاط بين الجماعتين، إلا أن الامتزاج كان محدوداً لم يتجاوز التحالف والدخول في الخدمة العسكرية ، في بعض الأحيان، وفيما بين الحكم الروماني والحكم البيزنطي وقعت البلاد تحت حكم الوندال الجرمان الذين دخلوها عن طريق إسبانيا في القرن الخامس الميلادي، ورغم القضاء على الوندال نرى أن بعضهم تمكن من النجاة ، وأنهم لجأوا إلى داخل البلاد حلفاء أو لاجئين عند بعض القبائل ، ومن الطبيعي أن يكون قد حدث اختلاط بينهم وبين البربر ، والأقرب إلى الحقيقة أن يكون ذلك هو تفسير وجود الشقرة والزرقة بين بعض جماعات البربر، بدلاً من القول: بأن النموذج للرجل

البربري هو الرجل الأشقر ، وكلمة الفرنج ، يقصد بها الفرنسيس، قال ابن خلدون : وهذه الأمة المعروفة بالإفرنجة ، وتسميها العامة بالفرنسيس ، نسبة إلى بلد من أمهات أعمالهم تسمى فرانسة .. إلخ) [١] .



---

(١) قادة فتح بلاد المغرب (١ / ٢٠) .



الفصل الثاني

ديانته

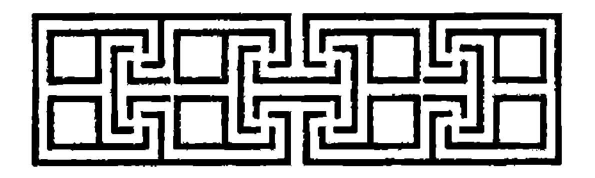
المبحث الأول

الديانة المجوسية

والديانة المجوسية تدور على قاعدتين اثنتين كما هي مقررة عند أصحاب هذا المعتقد: إحداهما: بيان سبب امتزاج النور بالظلمة، والثانية: بيان سبب خلاص النور من الظلمة، وجعلوا الامتزاج مبدأ، والخلاص معادا، وكانت هذه الديانة الوثنية أكثر انتشاراً في بلاد الهند والعجم من الرومان والفرنجة، أما تواجدها في فترة من الزمان قبل ظهور اليهودية والمسيحية في الشمال الإفريقي نظراً لعدم وجود دين سماوي في تلك الفترة، ثم تواجد الرومان المجوس وغيرهم في المنطقة، مع تأثر أهل البلاد بمن غلب عليهم ومسك بزمام أمرهم.

يقول الأستاذ محمود شيت عن ديانة سكان الشمال الإفريقي:

(كانت ديانتهم قبل المسيح المجوسية) (١).



(١) المرجع السابق: (١/١٩،٢٠).



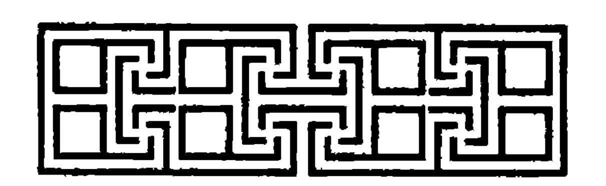
المبحث الثاني

الديانة اليهودية

إن الديانة اليهودية هي ديانة العبرانيين المنحدرين من إبراهيم عليه السلام، والمعروفين بالأسباط من بني إسرائيل الذين أرسل الله إليهم موسى عليه السلام مؤيداً، فحرفوها وأشركوا مع الله غيره في العبادة ونسبوا له الابن ـ تعالى الله عمن يقولون علواً كبيراً ـ وقالوا: إن الله فقير ونحن أغنياء، وقالوا: يد الله مغلولة ، وكفروا بالملائكة والنبيين ، وانحرفوا عن دين موسى عليه السلام انحرافاً كاملاً ، وكان من مواطن انتشار هذه الديانة المحرفة: بلاد الشام وأوروبا، أما الشمال الإفريقي فكان نصيبه النزر اليسير ، حي وصلته هذه الديانة المحرفة عن طريق الفنيقيين على هيئة جماعات صغيرة ضعيفة ، وانتهت بمجرد دخول المسيحية عن طريق الروم الذين أقاموا مملكة وإمبراطورية ضخمة في الشمال الإفريقي استمرت فترة من الزمان لا يستهان بها.

يقول الأستاذ شيت:

«وجد العرب – المسلمون – أيام الفتح جماعات من يهود إفريقية ، ويرى بعض الكتاب أن الأفكار اليهودية بدأت تعرف طريقها إلى البلاد عن طريق الفنيقيين، وذلك قبل أن تهاجر جماعات من اليهود إلى المغرب على أيام الرومان، وقد عمل هؤلاء المهاجرون على نشر اليهودية بين بعض قبائل البربر» [1] .



(١) المرجع السابق: (١/ ١٩،٢٠).

المبحث الثالث

الديانة المسيحية

إن المسيحية تطلق على الدين المنزل من عند الله على نبيه عيسى عليه السلام ، وكتابها الإنجيل ، إلا أن أتباعها حرفوا الإنجيل وعقيدته الصحيحة حتى أصبحت عقائدهم خليطاً من الوثنية الرومانية والهندية، والفلسفة اليونانية، والتحريفات اليهودية، فهم الذين يعتقدون عقيدة التثليث بزعمهم أن الله له ثلاث حالات – الأقانيم – فالإله الأب، والإله الإبن، والإله الروح القدس، قال تعالى: ﴿**لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ [المائدة: ٧٣] .

وكان لديانة المسيحية حينئذ إمبراطورية كبيرة في روما ومصر، استطاعت أن تبسط نفوذها على مساحات شاسعة من الأراضي، فكان من بين تلك الأراضي أرض شمال إفريقية، حيث وجدت النصرانية إليها سبيلاً عن طريق الكنائس ورهبانها الذين قاموا بإجراء اتصالات مكثفة مع أهالي الشمال الإفريقي، فحققوا نجاحاً عجز عن تحقيقه حكام البلاد وقادة الجند، إلا أن انتشارها كان محصوراً في المدن التي أقاموا فيها فيما بعد، أما بالنسبة لانتشارها في مناطق البدو فكان محدودواً للغاية.

يقول الأستاذ محمود شيت خطاب بهذا الصدد:

« دخلت المسيحية المحرفة إلى المغرب عن طريق مصر، وعن طريق روما، خلال القرن الثاني الميلادي، فاعتنقها كثير من البربر، وانتشر الرهبان بين البربر، فكانت المسيحية سبباً للاتصال بين الرومان في العصر الروماني (١٤٦ إلى ٤٣٥ م)، وبين الأهالي، وكانت الكنائس وسطاً صالحاً للاتصال والتفاهم، وبهذا وفق الرهبان

فيما عجز الحكام عنه ، وهو اجتذاب نفر من أهل البلاد [١] .

ولكن لما أحست الإمبراطورية الرومانية بجدوى أعمال الكنائس واتصالات الرهبان بالأهالي قامت باتخاذ إجراءات لازمة نحو الحفاظ على وحدتها السياسية، إلا أن أيام الإمبراطور (دسيوس) الذي طلب من جميع رعاياه البراءة من الديانة المسيحية المانوية، وحث رعاياه بإعلان تمسكهم بالديانة الوثنية المتمثلة في عبادة الأباطرة وآلهة روما الوثنية!! ومن هنا كنت بداية نهاية الديانة المسيحية عند البعض، وبلعن بعضهم البعض، حينذاك وجد سكان الشمال الإفريقي فرصة للتمرد على الإمبراطورية الرومانية، وأعلنوا ثورة سياسية دينية ضد الرومان .

يقول الأستاذ خطاب بهذا الصدد:

« حينئذ رفع البربر علم الثورة على الرومان ثورة سياسية في الواقع دينية في الظاهر، وعبثاً حاولت كنيسة قرطاجنة القضاء على الوندال وعلى الدوناتية، ولم يلبث الوندال أن قُبِلُوا خلفاء للرومان على إفريقية فأنشئوا يضطهدون الدوناتيين وأعداءهم معاً، وفرضوا على الناس مذهبهم – الأريوسي – الذي يقول بطبيعة المسيح البشرية – واضطهدوا الكاثوليك وصادروا أملاك الكنيسة وأموالها، وبهذا تفرق أمر المسيحيين [•] في إفريقية واختلف أتباعها شيعاً وأحزاباً فلم يلبث أن ارتد عنها الكثيرون، وضعف أثرها في ا لداخل » [٢] .

وهكذا كانت بداية الصراع ونهايته إلا أن هناك نقطة جديرة بالذكر في هذا المقام، وهي عندما اضطربت الأمور، وارتد الناس عن النصرانية، وانتشرت

---

(١) المرجع السابق: (١ / ٣٩,٤٠) .

(•) تسمية عبدة الصليب أو النصرانية المحرفة بالمسيحيين فيه نظر، ولو جاز لجاز أن نقول محمديون ، موسويون ، وهذا لا يقال به – إنما هم عُبَّاد الصليب أو أهل كتاب محرَّف ، والله أعلم .

راجع مناظرة بين الإسلام والنصرانية ، الرئاسة العامة للدعوة والإرشاد والبحوث العلمية ، السعودية .

(٢) المرجع السابق: (١ / ٤١) .

المذاهب المتباينة بين سكان الشمال الإفريقي قام القائد جوستنيان بإحياء فكرة النصرانية من جديد عن طريق إعادة بناء الكنائس وترميمها، وإرسال الدعاة إلى القبائل البربرية لنشر الفكرة النصرانية المنحرفة، وتقوية الروابط الدينية بينهم.

يقول الأستاذ خطاب في ذلك: «اهتم جوستنيان اهتماماً بالغاً بإعادة المسيحية إلى أفريقية ، فأعاد بناء كثير من الكنائس وأنشأ بعضها، وشجع البعثات التبشيرية، فأخذت المسيحية تنشط من جديد، وانتشرت بين القبائل البربرية المحيطة بصبرة وفي طرابلس وفي بعض نواحي نوميديا مثل وادي شلف حول تلمسان» [١] .

ولكن دور الكنيسة الإفريقية في العصر البيزنطي ونشاطها النصراني انتهى بمجرد تلبس بعض قساوستها بالمعاصي والذنوب، وتدهور أخلاق القائمين على هذه الدعوة، مع وجود عامل آخر لا يقل أهمية عن الذي قبله ، وهو خصومة المذهب الدوناتي الحادة للكنيسة، مما جعل الناس يفرون من ظلم الكنيسة وطقوسها !! .

وفي هذه الفترة الحرجة نشطت الكنيسة الغربية وأخذت على عاتقها أمر العباد والبلاد، وكان ذلك بزعامة وقيادة جريجوري الأكبر، الذي انتهز الفرصة في تفرق أمر المسحية في إفريقية، ليتدخل في شئون إفريقية عن طريق الكنيسة الإفريقية من خلال قساوستها ومن ثم السيطرة على زمام أمور البلاد والعباد.

جاء في كتاب «قادة فتح المغرب العربي» بهذا الصدد: «بيد أن الكنيسة الإفريقية لم تكن خلال العصر البيزنطي على حال يبعث على الأمل في مستقبل المسيحية في البلاد، فكانت إدارتها مختلة النظام إذ تلاشى النظام الكنسي، واقترف القساوسة ذنوباً كثيرة تدل على العصيان أو التدهور الأخلاقي والفساد،

---

(١) المرجع السابق: (١ / ٤١).

وكانت الدوناتية وخصومتها المشبوبة مع الكنيسة البيزنطية عاملاً آخر من عوامل ضعف هذه الأخيرة ، إذ استطاع دعاتها أن يفروا إلى داخل البلاد نجاة من الاضطهاد، وهناك كانوا يثيرون الناس على الكنيسة البيزنطية فيفر منهم الكثيرون ، بل أخذ البعض يعمد نفسه من جديد وفق طقوس الدوناتنيين.

كانت الكنيسة الغربية قد أخذت تنهض نهضة علمية عظيمة في ذلك الزمن بفضل جهود جريجوري الأكبر، وكانت الخصومة ناشبة بينها وبين كنيسة بيزنطة، ووجد جريجوري في تفرق أمر المسيحية في إفريقية فرصة طيبة يتدخل بها في شئون كنيسة إفريقية ليكسب رعاياهم إلى صفه ، فاستعان بقساوسة ذوي قدرة وشهرة فأخذ مسيحيو أفريقية يتجهون نحو روما متأثرين بما كان جريجوري يذيعه فيهم من نداءات وبما يبذله قساوسته من جهد، وبما حرصت عليه الكنيسة الغربية من إعزاز لأمر الدين وإخلاص في نشره ، وبذلك ازدادت العلاقات العامة بين بيزنطة وإفريقية ضعفاً على ضعف) (١) .

وفي أواخر العصر البيزنطي بعد موت هرقل الكبير سنة (٦١٠م) وخلفه أخوه جريجوريوس كانت حينذاك الانقسامات الدينية قد اشتدت في إمبراطورية البيزنيط، فأراد هرقل أن يجنب بلاده تلك الفوضى الفكرية، فطلب من رجال الدين في دولته أن يصدروا مذهباً وسطاً يرضي كل الطوائف الدينية !! ، فكان صدى هذا المذهب في أوساط دولته أن أثار سخطهم جميعاً حتى أصرَّ أساقفتهم، ورهبانهم على بقائهم على مذاهبهم القديمة، بل وصل الأمر بهم إلى إعداد العدة لمواجهة الدولة، ولكن هرقل عاجلته المنية فمات وتولى بعده قسطنطين الثالث - الذي كان يعتنق المذهب الأرثوذكسي، فأذاق الرهبان الرافضين العودة إلى أحضان الكنيسة سوء العذاب .

---

(١) المرجع السابق: (١ / ٤٢).

يقول الأستاذ محمود شتيت مصوراً تلك الحقبة من الزمان:

« في ذلك الحين ، كانت الانقسامات الدينية قد اشتدت في بيزنطة وأخذ سعيرها يمتد فيحرق ولاياتها بلظاه ، وكان الروم وقد توزعتهم المذاهب المختلفة شيعاً وفرقاً، تتصارع وتتحارب ، وتهبط بالدولة إلى درك عميق، وأحب هرقل أن يخلص بلاده من تلك الفوضى، فأخذ يتصل بكبار رجال الدين في دولته يستطلع رأيهم حتى اتفق رأيه آخر الأمر على إصدار مذهب وسط ترضى عنه الطوائف كلها، فلم يكد المجلس الديني الذي عقده في سنة (٦٣١م) يصدر المذهب الجديد، حتى ثار الناس كلهم عليه، وأنكروه جميعاً ... فلم يجد هرقل بدًّا من أن يصطنع الشدة في إرغام الناس على اتباعه، فاضطهد الكثيرين من رعاياه اضطهاداً شديداً، وشقي به قبط مصر خاصة لما أصابهم على يد « قيرس » الذي ندبه هرقل لتطبيق هذا المذهب في مصر » [١] .

وقال أيضاً : « ومات هرقل وتولى قسطنطين الثالث عرش الإمبراطورية، وكان عدواً للمذهب الذي ابتدعه هرقل، فلم تكد شكوى أساقفه إفريقية تصل إلى علمه حتى أمر بإخراج الرهبان الذين يرفضون العودة إلى أحضان الكنيسة من الأديرة ومصادرة أملاك الأديرة الخارجة ، وبهذا انقلب الحال، ونزل الاضطهاد بأشياع الإمبراطور القديم » [٢] .

وهكذا أصبحت حالة المسيحية في الشمال الإفريقي مذاهب شتى ، وجماعات منشقة ، وأفكار غثى، وصراعات حادة بين الكنيسة البيزنطية الأرثوذكسية، والرومانية الكاثولكية،التي كانت عاملاً أساسياً في انقراض النصرانية، حيث ساعدت هذه العوامل أهالي المنطقة أن يقفوا ضدها ويتمردوا

---

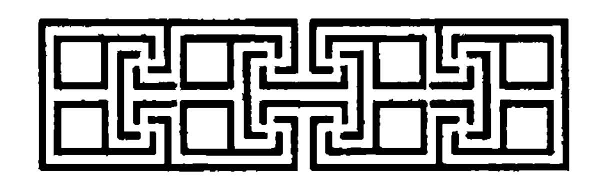
(١) المرجع السابق: (١ /٤٤-٤٥).

(٢) أهم المراجع في الفصلين الماضيين التي رجعت إليها: قادة فتح بلاد المغرب محمود شيت خطاب ، فتح العرب للمغرب، د. حسين مؤنس، تاريخ المغرب العربي لسعد زغلول، المسالك والممالك، لأبي إسحاق الفارسي، مقدمة ابن خلدون، جمهرة أنساب، لابن حزم، تاريخ الفتح العربي في ليبيا، طاهر الزاوي.

عليها، وأن يبحثوا عن بديل يلبي فطرتهم التي ركزها الله عز وجل في نفوس كل البشر، فكانت هذه مقدمة لما بعدها حيث تهيأت نفوسهم لقبول الإسلام دين الفطرة التي فطر الله الناس عليها .

قال تعالى : ﴿ **فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ [الروم : ٣٠] .

وقال تعالى : ﴿ **وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾ [آل عمران : ٨٥] .



الفصل الثالث

حدوده

يجدر بنا ونحن بصدد ذكر الشمال الإفريقي أن نهتم بتعريف حدوده الجغرافية من وإلى، بحيث تتضح معالمه الحدودية القديمة والجديدة للقارئ، ويتصور المنطقة تصوراً صحيحاً شاملاً.

يقول الأستاذ الحسين بن محمد شواط في تعريفه لحد إفريقية : « بأن إفريقية بكسر الهمزة – وهو المشهور – وقيل بفتحها، النسبة إليها إفريقي، وقد اختلف الجغرافيون في تحديد هذه البلاد على أقوال، أهمها :

[١] **قيل** : هي الأرض الواقعة بين برقة وطنجة وعلى هذا فهي تشمل المغرب والجزائر، وتونس، والحزء الأكبر من ليبيا.

[٢] **وقيل** : هي ما بين برقة وتاهرت، أي الجزائر، وتونس، و الجزء الأكبر من ليبيا.

[٣] **وقيل** : حدها من طرابلس إلى بجاية، أي أنها تشمل تونس وجزءاً من الجزائر وجزءاً من ليبيا.

[٤] **وقيل** : إنها بين طرابلس وقُسَّنطينه ، أي : ما يقارب حدود البلاد التونسية حالياً.

[٥] **وقيل** : هي مدينة القيروان [١] .

ولا يخفى أن كل هذه التعريفات تدور حول تحديد المعالم الحدودية لإفريقية أما الشمال الإفريقي فمعالمه واضحة حيث إنه يشمل الدول الخمس المعروفة الآن

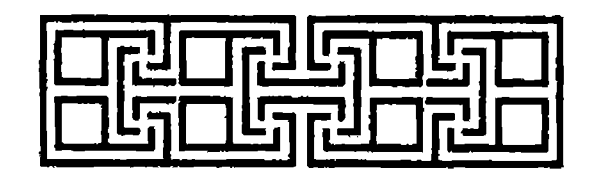
---

(١) **انظر** : مدرسة الحديث في القيروان، من الفتح إلى منتصف القرن الخامس الهجري، للأستاذ/ الحسين ابن محمد شواط، (١ / ٣١-٣٢).

بدول المغرب العربي، وهي : ليبيا، وتونس، والجزائر، والمغرب وموريتانيا .

وينص على ذلك الدكتور سعد زغلول بقوله :

« بلاد المغرب مصطلح يقصدبها الكتاب العرب كل الأقاليم الواقعة غرب مصر، والتي تشمل القارة الإفريقية ، والجزائر بصحرائها المترامية إلى تخوم السودان، وأخيراً المغرب - الذي كان يعرف إلى عهد قريب باسم مراكش نسبة إلى عاصمته الجنوبية - ويمتد طبيعياً نحو الجنوب إلى تخوم السنغال والنيجر» (١) .



(١) تاريخ المغرب العربي من الفتح إلى بداية عصور الاستقلال، (ص٦١) .



الباب الثالث

ليبيا قبل الفتح الإسلامي

لقد تحدثنا في الباب الثاني عن الشمال الإفريقي على الجملة بشيء من الإيجاز، بيد أننا سوف نتناول في هذا الباب ليبيا ومعالمها الجغرافية، وعناصره البشرية وديانتها الرسمية قبل الفتح الإسلامي بشيء من التفصيل بعدما أجملنا.

الفصل الأول

معالم ليبيا

المبحث الأول

أصل التسمية

لقد تقرر في علم الآثار أن نسبة لفظة «ليبو» أو «لوبا» أو «ريبوا» كان يطلقها أهل مصر على القبائل التي تسكن غرب وادي النيل، أما اليونانيون فكانوا يطلقون اسم «ليبي» على شعوب شمال إفريقيا كله باستثناء المصريين.

ذكر الأستاذ طاهر الزاوي في تحديد أصل تسمية المنطقة بليبيا:

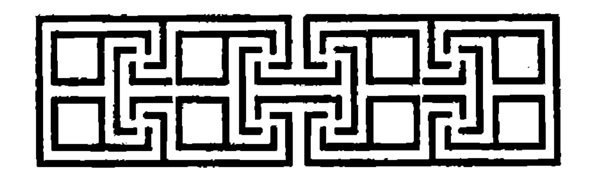
«وقد عدد المقريزي في خططه كور مصر، فذكر من كور الجوف الغربي: كورة الإسكندرية، وكورة مريوط، وكورة لوبيا ومراقية .. وذكر في تحديد مصر أنها تحد من الجهة الغربية ببرقة ..» ونقل عن القضاعي ما نصه: «الذي يقع عليه اسم مصر من العريش إلى آخر لوبية ومراقية، وفي آخر أرض مراقية تلقي أرض طرابلس وهي برقة» (١).

---

(١) تاريخ الفتح العربي في ليبيا، للأستاذ/ الطاهر أحمد الزاوي، (ص ١٤-١٥).

ويقول جون رايت في ذلك : لقد وجد : « في النقوش المصرية للألف الثاني قبل الميلاد وصف للقبائل التي عاشت في صحراء غرب وادي النيل بأنها « ليبو » أو « ريبو » ، وبعد قرون من ذلك الوقت أطلق اليونانيون اسم « ليبي » على شعوب شمال إفريقيا كله باستثناء المصريين » [١] .

وبذلك يتقرر أن اسم ليبيا اسماً رسمياً منذ القدم، قد أطلقه اليونانيون على مدينة قورين – شحات –، ثم بعد ذلك عمم عليه سكان برقة وطرابلس، وكل من كان يقطن غرب منطقة النيل إلى بداية إفريقية – تونس الحالية –.



---

(١) تاريخ ليبيا ، لجون رايت، (ص١٣) .



المبحث الثاني

ليبيا في علم الآثار

إن جزءاً كبيراً من تدوين التاريخ البشري يعتمد على علم الآثار ومحفوظاته الأثرية والفنية، والمخطوطات القديمة فكان نصيب ليبيا من ذلك العلم النصيب الوافر، حيث وجدت الآلاف من الصور المنحوتة على الصخور في أكثر من عشرين موقعاً ، وكانت تحمل في طياتها الأمور الغريبة والعجيبة عن معالم ليبيا البشرية، والفنية والاجتماعية، والمناخية، والطبيعية التي تحتاج من أهل الفن أن ينظروا فيها نظرة تأمل وتدبر حتى يستطيعوا أن يقرءوا ما بين السطور، وما تحت الصور، ويربطوا الغائب بالشاهد من تاريخ المنطقة.

لقد نص المؤرخ الإنجليزي جون رايت في كتابه أنه قد تم العثور على صخور فنية في ليبيا وعلى هذه الصخور الفنية القديمة وجد العلماء آلاف الصور في أكثر من عشرين موقعاً، معظمها في فزان، وفي زاوية براك، ومرزق، وسبها وجبال تبستي، وفي موقع ببرقة قرب حدود مصر والسودان ، وفي أربعة أماكن من جبال منطقة طرابلس أيضاً، وكان أول من لاحظ أهمية هذه الرسوم الصخرية هو البحاثة الألماني (هنريش بارت) سنة ١٨٥٠م ، غير أنها لم تدرس بالتفصيل إلا في السنوات الثلاثين الماضية ، وبقي الكثير من الرسوم التي تحتاج إلى عشرات السنين لفحصها ودراستها.

اعتاد فنانوا ما قبل التاريخ رسم الحيوانات التي كانوا يصطادونها على سطح الصخور الناعمة ورسموا كذلك مناظر لرجال عراة يطلقون السهام على الوحوش الضخمة ، ومما يلفت النظر انقراض واختفاء هذه الحيوانات من ليبيا ، بل من إفريقيا الإستوائية على مسافة مئات الأميال جنوبي ليبيا.

وقد غطى فنانو الصيد القدماء سطوح الصخر الناعمة برسوم واضحة للفيلة والزراف، والتماسيح، ووحيد القرن، وفرس النهر والحيوانات الأخرى التي عاشت زمناً في تلك المنطقة التي أصبحت بعد ذلك من أكبر صحاري العالم، وليست هذه الصحراء الليبية قديمة للغاية فمنذ عشرة آلاف سنة، كان معظم شمال إفريقية مركزاً مثالياً للإنسان البدائي، بالنسبة للصيد وجمع الطعام،حيث كانت ترتع قطعان كبيرة من الحيوانات البرية التي ترعى السافانا والحشائش، ولابد أن الماء كان متوفراً لأفراس النهر، وقد وجدت بقايا متحجرة في أماكن بالصحراء لم يعد فيها نبات هذه الأيام (١) .

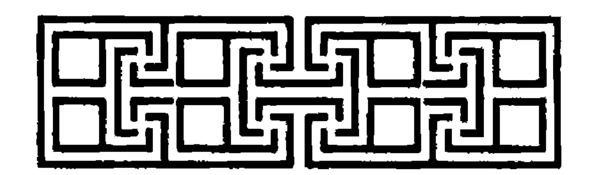
---

(١) المرجع السابق: (١٣-١٤).

المبحث الثالث

حدود ليبيا

إن أبرز معالم حدود ليبيا الجغرافية ثلاث جهات، برقة من الناحية الشرقية، وطرابلس من الناحية الغربية، وفزان من الناحية الجنوبية، أما جهة شمال البلاد طول ساحلها فهي مطلة على حوض البحر الأبيض المتوسط، حيث يصح القول بأن: معالم الحدود الجغرافية لليبيا ابتدأت بحدود غرب مدينة مطروح شرقاً، وحدود غرب رأس أحدير غرباً، وحدود جنوب شرق غدامس غرباً، وحدود جنوب غرب جبل العوينات شرقاً.



الفصل الثاني
سكان ليبيا قبل الفتح الإسلامي

المبحث الأول
العنصر البربري

إن ليبيا تقع على شريط ساحل طويل ممتد إلى أقصى الحدود شرقاً وغرباً مما جعلها محطة لبني البشر على مختلف ألوانهم وأجناسهم، إلا أن الجنس البربري يعتبر من أقدم الأجناس التي عاشت في هذا الساحل الطويل، وهذا ما قرره صاحب كتاب تاريخ ليبيا.

يقول الأستاذ طاهر الزاوي وهو بصدد حديثه عن سكان ليبيا القدماء:

«أمة البربر أقدم أمة عرفها التاريخ في الشمال الإفريقي» (١).

وكلمة بربر إذا ما أطلقت تشمل كل من يتكلم لغة أو لهجة معقدة لا تفهم إلا عند بني جنسه، ويدخل في هذا الإطلاق أمة اليونان، وأمة الرومان، وأمة السودان.

يقول الأستاذ طاهر الزاوي: «وكلمة البربر أطلقت بأربعة إطلاقات في أربعة عهود مختلفة، فأطلقت في عهد هومير على القبائل المعقدة اللغة واللهجة حيثما وجدت، وأطلقت في عهد هيرودوت على الأمم الغريبة عن لغة اليونان وحضارتهم، وأطلقت في عهد بلتوس على الروم ما عدا سكان روما، وأطلقها العرب في عهدهم على الأمة التي تسكن الساحل الإفريقي، لأنهم يتكلمون بلغة ليست مفهومة للعرب، والعرب يطلقون كلمة البربر على الأصوات المتجمعة غير المفهومة» (٢).

---

(١)، (٢) تاريخ الفتح العربي في ليبيا، للأستاذ/ الطاهر أحمد الزاوي، (ص ١٩-٢٠).

المبحث الثاني

العنصر القرمنتي

لقد عاش هذا العنصر فيما بين (٣٠٠٠-٢٥٠٠ ق.م) في الصحاري الليبية خاصة في مدينة فزان، وعلى رعي المواشي ذات القرون الطويلة ، والتجارة مع دول ما وراء البحر ومصر، مما جعله يتأثر بالحالة الدينية، والاجتماعية، والاقتصادية السائدة حينذاك خاصة مصر، ويعتبر هذا العنصر أول من قام بنقل الحصان والعربة من مصر إلى ليبيا.

يقول جون رايت بهذا الصدد: « كان لمصر تأثير اقتصادي، واجتماعي معتبر على قبائل الصحراء البدائية، ووجدت تجارة نشطة بين وادي النيل والغرب والجنوب الغربي، حيث يبدو أن الناس كانوا يعتنقون الديانة المصرية القديمة ويزاولون طقوس الدفن، ثم كان انتقال الحصان إلى ليبيا عن طريق مصر، وجاءت معه العربه ، بعد سنة ألف قبل الميلاد، استعملت بعض قبائل ليبيا وهم « القرمنيون » العربة والحصان لغزو قبائل صحراوية أخرى، ولبناء إمبراطورية في فزان وحولها وفي متحف القلعة بطرابلس نموذج لهذه العربات . . » ولا يعرف شيء عن أصل القرمنتيين الذين كانوا يرعون المواشي ذات القرون الطويلة في فزان القديمة ويحتمل أن يكونوا قد انتقلوا من الساحل نحو الجنوب، وربما كانوا هم الذين أحضروا الحصان والعربة من مصر، وربما أحضروا أيضاً أعمال الحديد لليبيا، ومع مرور الزمن أصبح القرمنتيون يتحكمون في طرق التجارة القادمة من ساحل البحر الأبيض المتوسط عبر الصحراء إلى إفريقيا الوسطى، كما سيطروا على مداخل الصحراء مدة تزيد عن ألف عام، وكان الفنيقيون واليونانيون الذين استقروا على الساحل يتاجرون عن طريقهم، ثم حاربوهم وأصبحوا فيما بعد حلفاء لهم، وقد استطاع القرمنتيون بعرباتهم، وأسلحتهم المتقدمة وتنظيمهم

الواضح، التغلب على قبائل صحراوية أخرى كانت غير منظمة ولا تركب شيئاً في قتالها ، وتستخدم أسلحة بدائية جداً» (١) .

ولا يخفى أن آثار العنصر القرمنتي، ومظاهر حضارته، ومملكته، لا زالت موجودة حتى وقتنا هذا في منطقة وادي الأجال من الجهة الجنوبية لليبيا، والتي تعتبر عاصمة القرمنتيين آنذاك، حيث مكنهم موقعهم الاستراتيجي أن يتحكموا في التجارة الواردة والصادرة إلى وسط إفريقية، ويصبحوا بذلك مركزاً هاماً للنقل والتجارة.

وهذا ما قرره المؤرخ جون رايت بقوله: «كانت البضائع تنقل من منطقة طربلس إلى وسط إفريقيا عن طريق ممرين تجاريين عظيمين يلتقيان على بعد ٢٥٠ ميلاً إلى الجنوب من غامس، ثم تواصلان السير كطريق واحد إلى نهر النيجر، وكان لمدن صبراتة وأودية ولبدة مزية على بقية المدن القرطاجية، لأنها تقع إلى الجنوب على مسافة ١٠٠ ميل على الأقل، ولذلك تكون أقرب مركز إلى أسواق إفريقيا الداخلية، وكان المسافرون الذين يريدون اختصار طريق من النيجر إلى البحر المتوسط يسلكون طريقاً تمر بغدامس وصبراتة، أما القرمنتيون فكانوا يسلكون عدة طرق بالعربات من فزان إلى النيجر، يحلمون بضائع البحر المتوسط إلى أعماق إفريقيا ويرجعون بالذهب والفضة والحديد والأحجار الثمينة، ويحضرون من الصحراء نفسها منتجاتها، كريش النعام والتمور وغير ذلك من السلع، وكان القرطاجنيون يدفعون لرجال القوافل أجورهم من العملة، ينفقونها في المدن، أو من الأطعمة والشراب والملابس، وكان القرمنتيون يحكمون من عاصمتهم في جرمة منطقة محدودة من الصحراء، ولكنهم كتجار كانوا يسيطرون على جميع البلاد من الأطلنطي إلى نهر النيل، ومن حدود السودان إلى سواحل البحر المتوسط» (٢) .

---

(١) ، (٢) تاريخ ليبيا، (ص ١٦-١٧) .

المبحث الثالث

العنصر الفنيقي

لقد اختلف المؤرخون في أصل الفنيقيين، منهم من ذهب إلى أن أصلهم عربي وينحدرون من أصل سامي كان يسكن فلسطين وسواحل الشام ، وهذا ما ذهب إليه الأستاذ طاهر الزاوي ، ومنهم من قال: إن أصلهم كنعاني هاجروا إلى الشام، وسكنت أمة منهم اليونان ، وهذا ما نصره الأستاذ محمود شيت خطاب .

يقول الأستاذ الطاهر الزاوي مقرراً ما ذهب إليه: « الفنيقيون أمة عربية قديمة من الأصل السامي اشتهرت منذ القدم بالتجارة والأسفار البحرية، وكانت مواطنهم فلسطين وسواحل الشام، ومن أشهر مدنهم صيدا وصور، وطرابلس الشام، وبيروت،وكانوا يترددون على الشمال الإفريقي منذ القرن الثاني عشر قبل الميلاد، وأنشأوا على ساحله محطات تجارية كبيرة لنقل بضائعهم منها إلى الأسواق التي تروج فيها وكانت عنايتهم بالتجارة والصناعة بالدرجة الأولى في شئون حياتهم، ولا يبعد أن يكونوا هم الذين جاءوا بزراعة الزيتون إلى إفريقية » [١] .

ويقول الأستاذ محمود شيت خطاب ناصراً ما ذهب إليه: « الفنيقيون من الكنعانيين كبعض المغاربة الأقدمين، وفي سنة (٣٥٠٠) قبل الميلاد هاجرت إلى الشام أمم من الكنعانيين وسكنت أمة منهم في القطر الذي سماه اليونان فينقيا .

وتقع فينقيا في شواطئ أرض الشام في المنطقة المحصورة بين جبال لبنان والبحر الأبيض المتوسط، يبلغ اتساعها نحو خمسين كيلو متراً، ويبلغ طولها نحو خمسمائة كيلو متراً، وهي تمتد من جزيرة « أرواد » شمالاً إلى مدينة عكا جنوباً، وقد أطلق اليونانيون على هؤلاء الكنعانيين كلمة: الفنيقيين نسبة إلى الكلمة

---

(١) تاريخ الفتح العربي في ليبيا، ص (٣٠).

اليونانية فينكس، ومعناها عندهم: النخل واللون الأحمر، لأن هؤلاء الكنعانيين كانوا يلبسون اللون الأحمر، وكانوا يصورون النخل على نقودهم، وعاشت هذه الأمة العظيمة أكثر من (٣١٧٠ سنة) وأحسنت إلى الإنسانية، ومنها تعلمت الإنسانية القراءة والكتابة» [١] .

كما وأن تاريخ العنصر الفنيقي من خلال تطوره ينقسم إلى مرحلتين، مرحلة تأسيس مدينة صيدا سنة (١٥٠٠-١٢٠٩ق.م) والتي كانت آنذاك أعظم مدن الفنيقيين، ومرحلة تأسيس مدينة صور سنة (١٣٣١-١٢٠٩ق.م) والتي تزعمت فيه مدينة صور الإمبراطورية الفنيقية.

يقول الأستاذ محمود شيت خطاب: «ويقسم تاريخ الفنيقيين إلى عصرين:

العصر الأول : عصر صيدا ، والعصر الثاني : عصر صور :

أولاً: عصر صيدا: ويمتد من سنة (١٥٠٠) قبل الميلاد إلى سنة (١٢٠٩) قبل الميلاد، وفي هذا العصر أسس الفينقيون عدة مدن في فنيقيا، وكانت أعظم مدنهم هي مدينة صيدا، وكانت عاصمتهم، ولهذا سمي هذا العصر بعصر صيدا، وقد دامت عظمة هذه المدينة نحو (٢٣٠) سنة.

ثانياً: عصر صور: وهو يمتد من سنة ١٣٣١ قبل الميلاد إلى سنة ١٢٠٩ قبل الميلاد ، وفي هذا العصر تزعم أهل مدينة صور الإمبراطورية الفينقية، وصارت صور من أعظم مدن العالم،وقد استطاع الفنيقيون أن يعيدوا مجدهم الذي كان لهم في العصر الأول في أقصر وقت، وقد قوي اتصال أهل صور بأهل الشمال الإفريقي، وكونوا في موريتانيا ونوميديا وزوجيتان (تونس حالياً) مدناً كثيرة [٢] .

ففي هاتين المرحلتين من مراحل تاريخ الفنيقيين قامت لهم حضارة مدنية تعتبر آنذاك تقدماً عالي المستوى، يدل على اهتمامهم بجوانب تحصيل العلوم

---

(١) انظر : قادة فتح بلاد المغرب (١ / ٢٢) .

(٢) انظر : قادة فتح بلاد المغرب (١ / ١١) .

والتقنية، وتطوير المهن الحرفية، والصناعية والحربية، وتوطيد سرعة الاتصالات ، ولعل آثارهم الباقية في صبراتة، ولبدة ، وبعض ضواحي طرابلس تشهد بذلك .

يقول الأستاذ شيت خطاب مشيداً بحضارة الفنيقيين :

« قد أجمع المؤرخون على أن الفنيقيين كانوا أول من ركب البحر، وأول من صنع السفن البحرية، وكانوا في تلك العصور القديمة أعظم أمة تجارية صناعية، فكانوا ينظمون قوافل تسير في البر إلى الهند، وبابل، وآشور، وبلاد فارس، ولتبيع مصنوعاتهم في تلك الأقطار، كما نظموا قوافل بحرية كانت تذهب إلى شواطئ البحر، تعرض المصنوعات الفنيقية على أمم البحر الأبيض المتوسط، وصاروا يرسلون إلى شواطئ الأقطار البعيدة جاليات منهم لتؤسس مدناً فينيقية تجارية، لتكون مركز الاتصال بينهم وبين تلك الأمم ، كما أسسوا في إقليم طرابلس الغرب مدينة « تزسيوم » وأطلقوا على تلك الجهة كلمة « تزاسين » ، ومعنى ذلك في لغتهم: الأرض الكثيرة المياه ، وهم الذين أنشأوا في تونس إقليم « زوجيتان » وسموا تلك الجهة بهذا الاسم.

وظلوا سادات البحر الأبيض المتوسط يفعلون ما يشاءون ولا ينازعهم فيه أحد إلى سنة (١٥٠٠) قبل الميلاد ، ففي هذا العصر ظهر في البحر سفن أمم جديدة، أخذت الحضارة والصناعة وأصول الملاحة من الفنيقيين،وكان من أعظم هذه الأمم الإغريق، التي صارت تحارب سفن الفنيقيين وتضايقهم في شرق البحر الأبيض المتوسط، وكانت لفنيقيا مستعمرات كثيرة في البحر الأوسط، فلما ضايقها الإغريق تركت تلك الجهة وولت وجهها شطر بلاد المغرب، فمن هذا التاريخ اشتد اتصال الفنيقيين بالمغاربة وأحدثوا في شمال إفريقية مدناً كثيرة [١] .

ويقول في موضع آخر: « وقد استطاع الفنيقيون أن يعيدوا مجدهم الذي

---

(١) المرجع السابق: (١ / ٢٤,٢٥,٢٦) .

كان لهم في العصر الأول في أقصر وقت، وقد قوي اتصال أهل صور بأهل إفريقيا وكونوا موريتانيا ، ونوميديا، ونزوجيتان (تونس حالياً) ومدناً كثيرة، وقد استولوا على جزيرة (مالطة) وجعلوها محطة لسفنهم التي كانت تسير في البحرالأبيض المتوسط، وظل الفنيقيون متمتعين بسيادة البحر الأبيض المتوسط إلى سنة (٣٣١) قبل الميلاد، ففي هذه السنة احتل الإسكندر المقدوني مدينة صور وخرب معظمها وأذاق أهلها العذاب الأليم، وبهذا الحادث انتهى مجد الفنيقيين وعظمتهم، ورث ملكهم أبناؤهم القرطاجنيون، وقد عاش أهل صور متمتعين بالعز (٨٧٨) سنة، وعاشت الأمة الفينقية أكثر من (٣١٧٠) سنة [١] .

سبحان الله ! فقد أصبحت تلك الأمم والحضارات أثراً بعد عين، وها نحن نسطر في تاريخها وحضارتها كأن لم تكن، وهذا كما لا يخفى تحقيق لسُنن الله الثابتة، التي تقرر أن الله سبحانه يمهل الأمم الكافرة ويعطيها شيئاً من التمكين الدنيوي والقوى الظاهرة، إذا أخذت بالأسباب والسُنن الكونية قال تعالى: ﴿ **كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً** ﴾ [الإسراء: ٢٠] .

ولكن يأخذها أخذ عزيز مقتدر لكفرها وشرها وتمردها على منهج الله القويم، وهكذا كان حال الأمة الفنيقية المشركة الكافرة بربها، فقد وصلت إلى قمة الحضارة المدنية –كما مرَّ معنا– حتى ظن أهلها أنهم قادرون عليها،إلا أنها كانت تعبد الأصنام الأحياء منها والأموات،حتى أصبحت هذه الأوثان والأصنام والهياكل معلماً من معالم حضارتها!! فكان من أبرز معالم تمردها عن منهج الله، وكفرها بخالقها تلك الأصنام المسماة بأصنام هرقل المحيطة بجبل طارق، والتي كانوا يتقربون إليها بالأضاحي، والنذور، والدعاء، والخوف، والرجاء!! فلما فعلوا ذلك أتاها أمر ربنا فجعلها حصيداً كأن لم تغن بالأمس، كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون﴿ **سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً** ﴾ [الفتح:٢٣] .

---

(١) المرجع السابق: (١/ ٢٦).

المبحث الرابع

العنصر القرطاجني

إن العنصر القرطاجني امتداد طبيعي للعنصر الفينيقي، إذ تعتبر الصلة بنيهما بمثابة صلة الأب بابنه، وكان سبب وصولهم إلى شمال إفريقية اعتناء الأجداد الفنيقيين بإنشاء المدن وتطويرها خاصة في الشمال الإفريقي، فقد أسسوا مدينة قرطاجنة (تونس) (سنة ٨٤٠ق.م) وكان في عهد الأميرة (ديدون) أو (أليسا) حيث قدمت هذه الأميرة وجماعتها، واستقرت في قرطاجنة التي كان يبلغ تعداد سكانها حوالي مليون نسمة، وبذلك أسست أكبر إميراطورية حينئذٍ إذ كانت تملك شواطئ الشمال الإفريقي، وأغلب أراضي إسبانيا، وأكثر جزائر البحر الأبيض المتوسط، وكان نظام هذه الإمبراطورية السياسي يدار على نمط النظام الجمهوري المعاصر في مدنها الثلاث الرئيسية - قرطاجنة إفريقية وهذه اعظمها، وقرطاجنة الجزيرة الخضراء بالأندلس عند جبل طارق، وقرطاجنة الخلفاء بكورة تدمير بالأندلس، حيث كان هناك مجلسٌ مكونٌ من مائة عضو من أهل الحل والعقد، وكان لهم رئيسان ينتخبان كل سنة.

يقول الأستاذ طاهر الزاوي : « وكان نظام حكمها زمن القرطاجنيين أشبه بالجمهوري، وكان يدير شئون الحكم مجلس مكون من مائة عضو من الأعيان والتجار، وكان لهم رئيسان ينتخبان كل سنة، وديانتهم الوثنية، وأكبر آلهتهم بعل » [١] .

وبعد ست سنوات من استقرار الإمبراطورية القرطاجنية في الشمال الإفريقي بدأت الإمبراطورية بإرسال حملات عسكرية على قبائل البربر التي كانت تسكن

---

(١) قادة الفتح العربي في ليبيا : (ص٣١) .

المنطقة من حدود برقة الشرقية، إلى ساحل أوروبا الجنوبية حتى جبل طارق الذي كان يسمى آنذاك أعمدة هرقل ، وكان الغرض من هذه الحملات إخضاع هذه القبائل لسلطان الإمبراطورية ونفوذها .

يقول الأستاذ محمود شيت خطاب :

« وفي سنة (٤٨٠ق.م) صار القرطاجنيون يغيرون على القبائل البربرية التي كانت تسكن السواحل حتى أخضعوها لسلطانهم، وشمل نفوذهم من حدود برقة الشرقية إلى بحر الظلمات، كما شمل ساحل أوروبا الجنوبي إلى جبل طارق الذي كان يُسمى إذ ذاك أعمدة هرقل » (١) .

وفي بدايات سنة (٢٦٤ ق.م) قامت صراعات عنيفة بين إمبراطورية الرومان التي كانت تقطن سواحل أروربا الجنوبية، وإمبراطورية القرطاجنيين، دامت أكثر من مئة عام انتهت بتغلب الإمبراطورية الرومانية على القرطاجنيين، حيث انتقلت بعد ذلك زعامة الشمال الإفريقي بأسره إلى الإمبراطورية الرومانية الواقعة جنوب أوروبا .

يقول الأستاذ شيت خطاب في ذلك : (في سنة ٢٦٤ ق.م) اشتبكت قرطاجنة في صراع عنيف مع الرومان دام أكثر من مائة سنة، وأخيراً تغلب عليها الرومان سنة (١٤٦ق.م) وقضوا عليها القضاء النهائي، ومحو آثارها من الوجود، فتحولت زعامة الدنيا من شمال إفريقية إلى جنوب أوروبا » (٢) .

وهكذ تحققت فيها سُنَّة الله سبحانه في أخذه للأمم الكافرة الظالمة، التي تبغي في الأرض بغير الحق، فقد سلط عليهم الرومان فمزقوهم شر ممزق .

قال تعالى : ﴿ **وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** ﴾.

[الأنعام:١٢٩] .

---

(١) ، (٢) قادة فتح بلاد المغرب: (١/ ٢٧).

المبحث الخامس

العنصر الروماني

فبعد الحروب الطويلة التي دامت حوالي مئة عام بين الإمبراطورية القرطاجنية والإمبراطورية الرومانية ومن هذه الحروب ثلاث حروب هامة الأولى : كانت سنة (٢٦٤ ق.م) وانتهت بانهزام القوات الرومانية في إفريقية وانهزام القوات القرطاجنية في صقلية ، والثانية : كانت سنة (٢١٨ ق.م) وانتهت سنة (٢٠٢ ق.م) والتي انتصر فيها القائد العسكري هنبغل القرطاجني على القوات الرومانية في إيطاليا،ثم أعاد الرومان الكرة عليه في معركة زاما سنة (٢٠٢ ق.م) ففر إلى الشام ومات في أنطاكية، والثالثة كانت سنة (١٤٩ ق.م) وانتهت (١٤٦ ق.م) بانتصار الرومان على القوات القرطاجنية، مما أتاح الفرصة للقبائل البربرية بقيادة « ماكسن » للانضمام إلى القوات الرومانية هرباً من قسوة القرطاجنيين واستبداداهم .

يقول الأستاذ محمود شيت مقرراً ذلك لقد : « أصبحت الدولة الرومانية أعظم دولة في العالم بعد قضائها على قرطاجنة، فقد وقعت ثالث حروب بين الرومان والقرطاجنيين في المدة ما بين (سنة ٢٦٤ ق.م) إلى (١٤٦ ق.م) .

فالحرب الأولى : ابتدأت من (سنة ٢٦٤ ق.م) وانتهت (سنة٢٤١ ق.م) انهزم فيها الجيش الروماني في إفريقية، وانهزم الجيش القرطاجني في صقلية .

والحرب الثانية : ابتدأت (سنة ٢١٨ ق.م) ، وانتهت (سنة ٢٠٢ ق.م) ، انتصر فيها (هنبعل) القائد القرطاجني في إيطاليا في معركة (كان) وقتل فيها من الرومان ما يربو على السبعين ألفاً، وكانت (سنة ٢١٦ ق.م) وكان (هنبعل) من أكبر قواد القرطاجنيين، وكاد يقضي في هذه المعركة على روما لولا تقاعس دولته عن إمداده بالمال والجند لخلاف كان بينه وبين بعض الرؤساء، وانتصر عليه

الرومان في معركة (زاما) (سنة ٢٠٢ ق.م) ففر إلى الشام ومات في أنطاكية.

الحرب الثالثة : ابتدأت (سنة ١٤٩ق.م) ، رجحت فيها كفة الرومان على القرطاجنيين، واستمات القرطاجنيون في الدفاع عن عاصمتهم فانتهز البربر فرصة رجحان كفة الرومان فانضموا إليهم بزعامة (ماكسن) البربري، فملك الرومان قرطاجنة وخربوها، وأحرقوها بالنار، فأصبحت أثراً بعد عين، وكان ذلك سنة (١٤٦ق.م) [١].

وبتلك المعركة الثالثة التي تعتبر الفيصل في الحروب التي نشبت بين الرومان والقرطاجنيين والتي زال فيها ملك قرطاجنة من الوجود بعد أن دام نحو سبعمائة سنة واستولى الرومان على سواحل ليبيا، وتونس، والجزائر، أما سواحل المغرب الأقصى فلم يستطيعوا الاستيلاء عليها لقيام أهلها بمقاومة مسلحة بقيادة (تاكفراس) لمدة تسع سنوات تقريباً، ولكن بعد ذلك تم الاستيلاء على ناحية المغرب الأقصى (سنة ٤٢ بعد الميلاد) ، وجعلوا عاصمته مدينة « تينجيس ، طنجة الحالية » ، ثم أقاموا عدة مدن عصرية وربطوا بينها بطرق معبدة تشبه الطرق الحديثة، وأنشئوا على مداخلها ومخارجها أبراجاً وقلاعاً تصد الغارات التي قاوم بها المناوئون للإمبراطورية الرومانية.

ولكن ما لبثت الإمبراطورية الرومانية بعد أن أعادت الحياة العمرانية في البلاد حتى قام الحاكم العام الروماني (بونيفاس) بتمرد على سلطان الإمبراطورية الرومانية، وأعلن عصيانه على سلطة روما التي كانت في حالة حصار وتعاني سكرات الموت!! ، ولم يكن لهذا الحاكم قوى عسكرية محلية يستطيع أن يقاوم بها ضربات سلطة روما، فلجأ إلى أعداء الرومان الذين كانت لهم مملكة ودولة قوية في إسبانيا يستعين بها للقضاء على سلطة روما، وكان هذا العدو لسلطة

---

(١) قادة فتح المغرب العربي: (١ / ٢٢)

روما همًّا واستجاب الوندال بقيادة (جينسريك) فلبوا مباشرة نداء الحاكم الروماني ودخلوا إلى المغرب بجيش مدجج بالأسلحة تعداده نحو ثمانين ألف جندي، وانضم إليهم أكثر أهل المنطقة الكارهين للاحتلال الروماني .

وبذلك كانت القاصمة للحاكم العام الروماني الذي رأى أن الوندال انتهزوا الفرصة بدخلوهم للمنطقة وجعلوها تابعة لهم، وأقاموا فيها دولتهم وأصبحت قرطاجنة عاصمة لدولة الوندال بقيادة جينسريك، وهنا أدرك الحاكم العام الروماني (بونيفاس) خطأه في استعانته بالوندال، وكانت هذه نهاية الإمبرطورية الرومانية في الشمال الإفريقي .

يقول الأستاذ محمود شيت خطاب بهذا الصدد:

« قد ظل المغرب خاضعاً للرومان إلى (سنة ٤٢٩ ميلادية)، ففي هذه السنة أعلن الحاكم العام الروماني (بونيفاس) العصيان على حكومة روما، التي كانت ضعيفة في ذلك العصر، وقد استعان بأعداء الرومان على حرب دولته ، وهم « الوندال » الذين كانوا يحتلون في ذلك الوقت جنوب إسبانيا، فاسرع ملك الوندال وهو « جينسريك » إلى بلاد المغرب ومعه « ثمانون ألف جندي » وانضم إليهم كثير من المغاربة لأنهم يكرهون الاحتلال الروماني لبلادهم ولكن « بونيفاس » أدرك أنه أخطأ عندما رأى الونداليين يحتلون المغرب لأنفسهم، فصار يحاربهم إلى أن انتصروا عليه واحتلوا شواطئ المغرب، وتونس، والجزائر، وجعلوا عاصمتهم مدينة « قرطاجنة »، وغادر « بونيفاس » بلاد المغرب (سنة٤٣١م)، وبقيت فيها بعض الجيوش التي أرسلتهم إليها الإمبراطورية الشرقية لإعانة روما (سنة ٤٣٥م) وفي هذه السنة خرج آخر جندي للرومان من المغرب، وبذلك انتهى عصر الرومان الذي دام (٣٩٣ سنة)[١] .

---

(١) قادة فتح المغرب: (١/ ٣٢)

المبحث السادس

عنصر الوندال

لقد تقرر في كتب التاريخ أن عنصر الوندال يرجع أصله إلى الجرمانيين الذي يطلق عليهم اسم الألمان في عصرنا الحاضر، وكان سبب تواجدهم في إسبانيا بعد الإستيلاء على فرنسا في القرن الرابع الميلادي عدة عوامل منها: التوسع وبسط النفوذ ، وتأمين جوانب المعيشة ، ومحاولة الوصول إلى الشمال الإفريقي كعمق استراتيجي لمملكتهم في جنوب إسبانيا.

يقول الأستاذ محمود شيت خطاب:

الوندال هم من الأصل الجرماني- الألمان - زحفوا في القرن الرابع الميلادي على إسبانيا فاحتلوها وأقاموا بها دولة عظيمة، ولما ضعفت الدولة الرومانية صارت تهاجمها القبائل المتبربرة من شمال أوروبا، وتستولى على أراضيها، وكان من جملة القبائل التي هاجمت الإمبراطورية الرومانية قبائل الوندال، وبعد أن احتلو فرنسا تقدموا إلى إسبانيا واستقروا في جنوبها في إقليم الأندلس، وإليهم ينسب هذا الإقليم، فقد كان يُسمى فاندولوسيا نسبة إليهم» [١] .

وفي فترة تمرد الحاكم العام الروماني بونيفاس - كما مر معنا - على الإمبراطورية الرومانية في روما، وطلب الاستعانة من الوندال بقيادة جينسريك، فكان الوندال في ذلك الوقت يملكون القوى العسكرية الرهيبة المكونة من أسطول ضخم من السفن الحربية، وتعداد هائل من القوى البشرية، مما حفزهم لتلبية طلب الحاكم العام الروماني الاستعانة بهم، ودخلوا المنطقة بعزيمة الاستيلاء -لا الاستعانة - لصالح المملكة الوندالية، وكان لهم ما خططوا ونفذوا، حتى أصبحوا فيما بعد تخشاهم الدولتان الشرقية والغربية.

---

(١) المرجع السابق: (١ / ٣٣) .

يقول الأستاذ شيت خطاب بهذا الصدد: «لقد مكث جينسريك أكثر من ثلاثين سنة قاهراً منصوراً، تخشاه الدولتان الشرقية والغربية، فلما مات (سنة ٤٧٧ ميلادية) تولى ابنه «هنريك» وكان قاسياً على الكاثوليك، فقبض (سنة ٤٨٣) على خمسة آلاف من رهبانهم وشردهم في الصحراء، واغتصب أموالهم وكنائسهم، وفي (سنة ٥٢٣ م) تولى على الوندال (هلدريك)، وكان ضعيف الإدارة منحل العزيمة، فخلعوه وولوا مكانه «جليمير» فاستنجد «هلدريك» المخلوع بجوستنيان قيصر القسطنطينية لاسترجاع ملكه، فكانت فرصة اغتنمها جوستنيان لطرد الوندال من إفريقية، فهاجم «بيليساريوس» القائد الروماني قرطاجنة (سنة٥٤٤ميلادية) وأسر ملك الوندال «جليمير» واسترد جميع الأملاك التي كانت تابعة للوندال وأعادها إلى بيزنطة «القسطنطينية» وزالت دولة الوندال بعد أن ملكت نحو مئة سنة» [1].

المطلب الأول
عودة الرومان إلى الشمال الإفريقي بقيادة بيزنطة

فلما أزاح ملك الوندال «جليمير» الملك السابق المخلوع ضعيف العزم والإرادة «هلدريك» استغاث هذا المخلوع بالإمبراطورية الرومانية واستنجد بقيصر القسطنطينية جوستنيان لاسترجاع ملكه، فوقعت المملكة الوندالية في الشَّرَك نفسه الذي وقعت فيه القوات الرومانية بقيادة بونيفاس - كما مر معنا -.

فلما وصل هذا النداء لجوستنيان انتهز الفرصة الثمينة، فأعلن الحرب على الوندال وأرسل على الفور قواته المدججة بالأسلحة الفتاكة بقيادة قائده الماهر «بيليساريوس» إلى قرطاجنة وكان ذلك (سنة ٥٣٤م)، فأسر ملك الوندال جليمير، واستولى على

---

(١) قادة فتح المغرب العربي: (١ / ٣٤).

كل المناطق الخاضعة لمملكة الوندال، وأعاد كل أملاك الوندال إلى ممكلة بيزنطة «القسطنطينية» وزالت دولة الوندال من بعد أن ملكتها نحو مئة سنة.

يقول الأستاذ طاهر الزاوي في ذلك : «ولماخلع هلدريك »استنجد بجوستنيان قيصر القسطنطينية لاسترجاع ملكه ، وكانت فرصة اغتنمها جوستنيان لطرد الوندال من إفريقية وإرجاعها إلى ملك روما،فأنجده وأعلن الحرب على الوندال، وهاجم بيليساريوس القائد الرومي قرطاجنةسنة ٥٢٤م ، وأسر ملك الوندال «جليمير» واسترد جميع البلاد التي كانت تابعة للوندال إلى مملكة بيزنطة» [١].

وفي هذه الحقبة من الزمان أسس الرومان في الشمال الإفريقي حضارة مدنية راقية، فقد أقاموا العمران المتطور، والصهاريج الضخمة، السواقي الشاهقة، والسدود المنيعة، وأصلحوا البنية التحتية، والفوقية للبلاد على الجملة،حتى أحس أهالي المنطقة بهذا الاعتناء الخاص بهم من طرق الرومان فطفق الأهالي ينتحلون كل مقومات الحياة الرومانية لدرجة الاندماج الكامل، ويتركون عاداتهم البربرية، حتى وصل بجند الإمبراطورية الرومانية أن تنتخب سفاروس القائد البربري لعرش الأمبراطورية(**سنة ١٩٣م**) .

يقول الأستاذ طاهر الزاوي: «ومع طول الزمن وتعاقب السنين اندمج بربر السواحل في الروم بسنة تقليد الضعيف للقوي، واستحسان المغلوب ما عليه الغالب من عادات وتقاليد، ونسي بعضهم قوميتهم وعاداتهم، وأصبحوا رومان في كل مقومات الحياة حتى زالت الفوارق بينهم وبين الروم، وبهذا الاندماج أمكنهم أن يتولوا أكبر المناصب في الدولة، فإن سبتيم سيفاروس – وهو بربري الأصل – انتخبه الجند إمبرطوراً لعرش الروم(**سنة ١٩٣م**) » [٢] ، ولكن تفشى

---

(١) ،(٢) **انظر** : تاريخ الفتح العربي في ليبيا :(ص٣٥,٣٦) .

الانحلال الاجتماعي، وكثرة الدسائس والمؤامرات والخصومات، والمذاهب الدينية والسياسية أوهن من تعلق نفوس الناس بالإمبراطورية البيزنطية ، مع وجود عامل مهم ألا وهو اشتداد ساعد الفرس في القرن السادس، ومع اشتداد هذه العوامل أخذت الإمبراطورية البيزنطية تفرض الأموال الطائلة على الأهالي للاستعداد لمقابلة الفرس، واستخدمت القوة والاضطهاد في نزع هذه الأموال، وأسكتت أصوات الناقمين منهم، مما حدا بالأهالي أن يقفوا موقف المعادي فكانت بداية نهاية الإمبراطورية الرومانية.

يقول الأستاذ محمود شيت: «ولقد كان للانحلال الاجتماعي أثر بالغ على انحلال الدولة، فقد كانت نفوس الناس قد وهنت ، وكان الأباطرة أنفسهم أسبق الناس إلى حلقات الملاعب والمسرات ، وكانت النساء كذلك سباقات إليها يخالطن الرجال في تبذل انتهى بالمجتمع كله إلى تدهور سريع، ومن هنا نشأت الدسائس والمؤامرات التي تتصل بهذه الألوان من العبث، فنخرت عظام الدولة الواهنة، وأخذت دائرتها تتسع حتى شملت بلاط الإمبراطور، فأحالته مسرحاً لكثير من الخصومات والجرائم والآثام، وكلما انتصر في القصر حزب ارتفعت له في نواحي الدولة أعلام ، بعضها أنصار، وبعضها مذاهب مختلفة في الدين والسياسة، وكلما مات حاكم نزل البلاء بأشياعه وأتباعه ومناصريه في العقيدة والرأي وندمائه في المباهج والشراب.

وكانت بيزنطة كلما ازداد بها الضعف انسلخ عنها جزء من أملاكها، وكلما اشتد ساعد جار اقتطع منها على قدر ما يستطيع، حتى إذا كان القرن السادس واشتد ساعد الفرس أقبلوا ينهبون أرض الدولة انتهاباً، فاقتطعوا أكثر آسيا الصغرى والشام ومصر، وأخذوا يستعدون للمضي إلى شمال إفريقيا، فلم يكن للدولة بد من أن تبذل ما قد بقي في كيانها الواهن من قوة لتدفع خطرهم، حتى إذا تمكنت من ذلك على يد هرقل، لم يبق لها بعد ذلك من القوة ما يقيمها على أرجلها، إذ كانت الحروب قد كلفتها الثمن الغالي فأنشأت تعتصر دماء من بقي

لها من الرعايا ، حتى كادت توردهم موارد التلف، بدءوا يحتجون ويعترضون، فلجأ الحكام إلى العنف لإسكات أصوات الناقمين منهم، فاشتد الحنق وتأصلت الكراهية بين الجانبين، ولم يكد الفريقان يحسان بما بينهما من خلاف بسيط في مسائل الدين، حتى خيل لهم الحقد الدفين أن الخلاف بعيد يتناول كل مرافق الحياة، فنشبت الفتنة وأهوى الحاكم على رأس المحكوم بسياط الظلم، وأبى المحكوم أن يجيب وأن يطيع، فعظِم الاضطهاد وسالت الدماء، واشتعلت بعض نواحي الدولة كمصر وإفريقية بهذه النار الحامية فأتت على ما فيها » [(١)] .

ولكن رغم هذا الكبت، وزيادة ضيق الأهالي بالرومان، وعجز المملكة البيزنطية عن متابعة الأحداث وتذليل الصعاب للأهالي، إلا أن – المملكة البيزنطية – ظلت تسيطر على مقاليد الأمور في الشمال الإفريقي على الجملة حتى (سنة ٦٤٧م) ، ثم كان بعد ذلك عام الفتح الذي دحر فيه الكفر وأهله، ودخل الناس فيه في دين الله أفواجاً.

ولابد لنا من تعليق :

فرغم كثرة الحروب التي خاضها الرومان ، ورغم ظلمهم للرعية وبطشهم ، إلا أنهم قد احتفظوا بكامل قوتهم العسكرية وظلوا رغم ظلمهم قوة لا يُستهان بها ، فلقد كانوا يُنفقون على الجيش بسخاء ، وكانوا يضعون موارد الدولة تحت تصرف القادة العسكريين ، وكان للجنود وضع متميز بالدولة الرومانية . . . . . ولكن المستشرقين وأذنابهم يحاولون التقليل من قيمة انتصار المسلمين رغم قلة عَدَدهم ، وتواضع عددهم على الرومان ، بإدعاء أن الدولة الرومانية كانت منهكة القوى والظلم الاجتماعي كان متفشيًا وكذا وكذا . . . .

نقول لهم : كان الأمر كذلك ولكنهم حشدوا يوم اليرموك قرابة ربع مليون جندي ، وكان من بينهم ثمانون ألف فارس وثلاثون ألفًا من الرماة ، وكل الجيش متدرع بالحديد في مقابل (٤٠ ألف جندي مسلم) !! .

---

(١) قادة فتح بلاد المغرب : (١ / ٣٦) .

المبحث السابع

العنصر الإغريقي

ويقصد بالعنصر الإغريقي سكان جزيرة اليونان الحالية، فهذا العنصر اشتهر منذ القدم بالهجرة من موطنه الأصلي بحثاً عن الرزق الأمان، وطلباً للاستقرار والاطمئنان، وقد وقع اختياره من أول وهلة على منطقة برقة الواقعة جنوب شمال موطنه الأصلي، وحيث تعتبر أقرب الأماكن إليه وأشبهها طقساً ومناخاً وبيئة بموطنه الأصلي.

فقد قام هذا العنصر بإرسال مجموعات استكشافية إلى عدة مدن واستقر أمرهم بعد عملية الاستكشاف على اختيار مدينة قورينا «شحات حالياً» التي تقع على هضبة ترتفع على سطح الأرض قرابة **٢٤٠٠ قدماً**، قرب نبع دائم، وكان ذلك سنة (٦٣١ ق.م) وأصبح أرسطوكليس أول ملك لها، ثم تولى ابنه أرسيلوس بعده، ثم باتوس الذي شهدت فترة حكمه توسعاً في مملكته وزيادة قدوم المهاجرين اليونان، ومما أخاف القبائل الأصلية أن يطردوا من هذه المنطقة نظراً لزيادة عدد الوافدين من اليونان فاستنجدوا بأهل مصر لطلب العون على طرد اليونانيين، فاستجاب فراعنة مصر لنداء هذه القبائل الليبية وكان ذلك سنة (٥٧٠ ق.م)

يذكر جون رايت في كتابه تاريخ ليبيا: «بعث اليونانيون مجموعات استكشافية ولم ينجحوا في الاستقرار في الأماكن التي اتخذوها في بداية أمرهم في جزيرة «بلاثيا»، وبتشجيع من كاهنة دلفي تحول اليونانيون إلى «أزريس» ولكنهم بعد ست سنوات لبوا دعوة رجال القبائل المحلية لمشاهدة مكان أفضل لاستقرارهم، وكان هذا المكان هو مدينة «شحات» فيما بعد، ذات المطر الغزير، وهناك وعلى بعد عشرة أميال من البحر، وعلى هضبة ترتفع عن سطح الأرض

قرابة ٢٤٠٠ قدماً، قرب نبع دائم، أقيمت مدينة شحات « قورينا » (سنة ٦٣١ قبل الميلاد)، وأصبح (أرسطو كليس) الذي سمي (باتوس) الأول ملكاً لها، وتلاه في الحكم ابنه (أرسيلوس) الأول، حيث حكم ستة عشر عاماً، ثم باتوس الثاني الذي شهد حكمه قدوم المهاجرين من جنوب اليونان وجزر إيجة، وقد أزعج القبائل الليبية المجاورة توسع المستعمرة، لأن الليبيين كانوا يرغبون في أن يشاركوا الأجانب خيرات أرضهم لا أن يطردوا منها، وتدهورت العلاقات مع اليونانيين بعد أن كانت ودية في البداية، والتفت الليبيون إلى مصر يطلبون العون، ولبى نداءهم الفرعون إبريس (أهابرة) في (سنة ٥٧٠ ق.م) حيث سار نحو برقة يقود جيشاً كبيراً، ولكن اليونانيين كسبوا حرباً مفاجئة وقتل إبريس، وجاء وريثه في الملك ، فقام بتحسين العلاقات مع برقة بأن تزوج ابنة (باتوس) [١] ، ذلك بعد الصراعات والنزاعات التي بين القوم، وأخذت طريقها بين الملأ في ذاتها حيناً، والشعب والملأ حيناً آخر، وقد قتل أرسيلسو الثاني بعد أن أجبر على الخروج من قورينا إلى مدينة في الجبل الأخضر شرق ليبيا وهناك تم اغتياله، وفي (عام ٥٢٥ ق.م) احتل الفرس مصر، فطلبت الملكة فرتينا أم الملك أرسلوس النجدة ، فتقدم الفرس لغزو برقة وهاجموا مدنية المرج، ثم ما لبثت أن استسلمت، وواصلوا مسيرهم إلى مدينة بنغازي.

يقول جون رايت لقد: « كان حكم أرسيلوس بداية لنزاعات داخلية دائمة، انتهت بخلافة ابنه « أرسيلوس »الثالث، فبعد أن اضطر « أرسيلوس » الثاني للهرب من البلد كوّن جيشًا وهزم « قورينا » ، ثم أجبر على الرحيل مرة أخرى ، والتجأ إلى المرج ، ولكنه اغتيل هناك، وفي (عام ٥٢٥ ق.م) احتل الفرس مصر ، وطلبت منهم النجدة الملكة « فرتينا » أم الملك أرسيلوس الثالث، للانتقام لمقتل

---

(١) تاريخ ليبيا (٢٩، ٣٠) .

ولدها - فتقدم الفرس لغزو برقة - وتركوا قورينا دون أن يلحقوا بها أذى، ولكنهم هاجموا المرج التي استسلمت بعد حصار طويل سنة ٥١٥ ق.م وسار الغزاة غرباً إلى الموقع الذي توجد فيه بنغازي اليوم، ولكنهم في طريق عودتهم إلى مصر فقدوا كثيراً من رجالهم على أيدي رجال القبائل، وماتت الملكة « فرتينا » فيما بعد »(١).

وخلال هذه الفترة من الزمان استعادت برقة استقلالها، وأُسست مدينة « يوسبر أيدس » (سنة ٥١٥ ق.م)، ثم أنشئت بعد ذلك عدة مدن يونانية أخرى على طول الساحل، منها مدينة توركا - العقورية - مدينة تولمايتا - الدرسية حالياً - مدينة أبولونيا - مرسى سوسة - وفي عام (٥١٥-٤٧٠ ق.م) ، تولى عرش شحات كل من الملك تابتوس الرابع، أرسيلوس، والتعيس، ولكن رغم النزاعات الحادة والصراعات القوية بين مدن برقة إلا أنهم توحدوا في وجه قرطاجنة التي لم تعترف أبداً بحقوق الإغريق التجارية في الشمال الإفريقي.

لذلك اهتم الإغريق بالزراعة إلى جانب التجارة، حيث جلبوا الحبوب الجديدة واعتنوا بإصلاح الأراضي التي كانت تغل ثلاثة مواسم في سنة واحدة كما يقول « هيرودوت » فما أن أهلت بداية القرن الخامس قبل الميلاد حتى أصبحت شحات واحدة من أكبر عواصم عالم الإغريق تجارياً، ومعمارياً ومناخاً وموقعاً جغرافياً، بل أصبحت محطة فكرية هامة جداً آنذاك، فقد ساهم أفلاطون بذاته في كتابة قانون قورينا، وقد درس أفلاطون الفلسفة في قورينا ، وعاش فيها الرياضي المشهور « تيردور » وكان بها مدرسة للفلسفة، وربما كان أرسيطيبوس القوريني هو الذي أنشأها ، كما أن قورينا كانت مركزاً طبياً شهيراً في صفاء هوائها ونقائه ، وجودة طقسها وجمال طبيعتها.

---

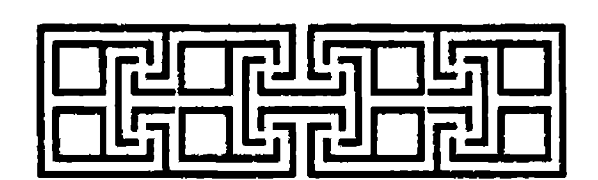
(١) المرجع السابق (٣٥,٣٦).

يقول جون رايت : « قد ازدهرت منطقة برقة بصفة عامة تحت حكم البطالمة الذين قاموا ببناء أسوار دفاعية للمدن الخمس : أبولونيا، وبرنسية وشحات ، وتوسيرا، وطولميد – طلميثة – والتي كونت اتحاداً فيما بينها، وفي ذلك الوقت بنيت بعض المستوطنات اليهودية بالمنطقة، وفي (سنة ١٦٠ ق.م) حدث نزاع في مصر بين حكامها الثلاثة بومبي الثالث ويوجريستس وأخيه فيلومستر، والتجأ الأخير فطلب مساعدة الرومان الذين تدخلوا وأعطوا يوجريتس حكم برقة، وهذا بدوره حكم عشرين عاماً، وأوصى بانتقال البلد إلى حكم الرومان بعد موته (عام ٦٩ ق.م) .

وعاشت منطقة برقة فترة عشرين عاماً في فوضى أهلية قبل أن تنتقل إلى حكم الرومان الصارم، حيث عين مجلس الشيوخ الرماني حاكماً لها اسمه « كورنيليوس مرسيلينوس » (سنة ٧٥ق.م)،وخلال الحروب الأهلية الرومانية التي انفجرت، بعد ذلك بقليل استغل أتباع « بومبي » مدينتي قورينا وبرنسية كقاعدة للانطلاق منها عبر « ترتيكا » للالتحاق بجيش بومبي الرئيسي في تونس، وقد استقر الوضع في العالم الروماني بعد معركة « أكتيوم » (سنة٣١ ق.م) ، والتي كانت فاصلة لدرجة أن أهالي برقة استمروا لمدة ثلاثة قرون يؤرخون بها ، وقد وحد الرومان برقة مع جزر « كريت » كمقاطعة واحدة لمدة ٣٠٠سنة » .

وهكذا انتهت تلك الدول التي عمرت في الأرض أعواماً عديدة ، وآماد مديدة ، شيدوا فيها الصروح الكبيرة، وأقاموا فيها القصور المنيعة، وعتوا في الأرض فساداً، وصالوا واستطالوا على رقاب الناس بغير منهج الله القويم ، ولكن ذهبوا وتركوا كل ذلك فما بقي من تلك الدول إلا أثرًا بعد عين !! ، ولقد عبر عن تلك النهايات شاعر الزهد أبو العتاهية رحمه الله تعالى بأبيات مؤثرات، يحملن في طياتهن العبر البالغة لمن يعتبر ، فقال :

أين القـــرون الماضـــيـــة تـركـــوا المنازل خـــاليـــة
فـــاســـتـــبـــدلت بهم ديارهم الـــريـــاح الـــهـــــــاويـــة
وتـشـــتـت عنهـــا الجـــمـــوع وفـــارقـــتـــهـــا الغـــاشـــيـــة
فـــإذا مـــحل للوحـــوش ولـــلـــكـــلاب الـعــــــاويـــة
درجـــوا فـــمـــا أبقت صـــروف الـدهـر مـنـهـم بـاقـــيـــة
لـم يـبـق بـعـــــــدهـم إلا الـعـظـام الـبـــالـيـــة
ولـقـــد عـــتـــوا زمناً كـــأنهم الـســـبـــاع الـعـــاتـيـــة
في نـعـــمـــة وغـــضـــارة وســـلامـــة ورفـــاهـيـــة [١]



(١) قصائد الزهد، لمحمد أحمد سيد، (ص ٥٥) .



المبحث الثامن

النوميديون

إن النوميديين من قبيلة ماسيلي البربرية،والتي كان يتزعمها آنذاك القائد العسكري مسينيسا الذي كانت تربطه علاقة وثيقة بالإمبراطورية الرومانية، مما جعل قبيلة ماسيلي البربرية تدعم الإمبراطورية الرومانية في حربها مع القوات القرطاجنية بأربعة آلاف فارس مدججين بالأسلحة، وهذا ما جعل الإمبراطورية بعد انتصارها على القرطاجنيين أن تعيد لقبيلة ماسيلي بقيادة زعميها مسينيسا جميع أراضيها،مما حدا بالقائد مسينيسا أن يفكر في توحيد قبائل البربر وتأسيس مملكة نوميدية تجمع تحت ظلها كل قبائل البربر، واستطاع أن يحقق ما أراد.

يقول جون رايت في ذلك : «عن طريق الحرب والقوة ، أصبحت مدينة طرابلس رومانية، ففي (عام ٢٨٩ ق.م) أخذت قرطاجنة «مسينيسا» في صقلية من الإغريق ، وبذلك غدت في احتكاك مباشر في روما ، وقد سطا الأسطول الروماني في مدن قرطاجنة على ساحل شمال إفريقيا خلال الحرب «البونية» الأولى (٢٦٤-٢٤١ق.م) وفقدت قرطاجنة صقلية، ثم اندلعت الحرب البونية الثانية (سنة ١٢٨ق.م) وتم غزو إيطاليا وخربها (هانيبال) القائد القرطاجني، وردت روما على ذلك فأرسلت سفنها الحربية إلى الساحل الإفريقي الشمالي فهزمت القرطاجنيين (عام٢٠١ ق.م) في معركة «زيما» على الحدود الليلبية التونيسية الحالية، وربما كان نجاح الرومان راجعاً إلى مساعدة «مسينيسا» زعيم قبيلة «ماسيلس» النوميدية، الذي دعم الرومان بأربعة آلاف فارس في لحظة حاسمة.

وقد كوفئ «مسينيسا» على مساعدته بأن اشترطت روما على قرطاجنة في معاهدة سالم (سنة٢٠١ ق.م) أن تعيد «لمسينيسا» جميع الأراضي التي كانت

له أو لأجداده في أي وقت مضى، وكان مسينيسا يرى أن المعاهدة تعطيه الحق في حجز أجزاء من منطقة قرطاجنة ليضيفها إلى المملكة النوميدية التي كان يعمل على تأسيسها آنذاك، كان مسينيسا هذا قائداً موهوباً، وقد استطاع توحيد رجال القبائل البدائيين النوميديين وتحويلهم إلى أمة عظيمة على غرار النموذج القرطاجني، وكان هذا إنجازاً رائعاً أدى إلى تشكيل دولة لأهالي الصحراء لأول مرة» (١) .

ولكن مسينيسا لم يكتفِ بإقامة مملكته بين تلك القبائل فحسب، بل قام بحملة عسكرية على مدينة طرابلس وضواحيها، وسهل جفارة ونواحيها، وتوجه إلى مدينة لبدة، وأوية، وصبراتة، وحاصرهن ، فلما رأت المملكة القرطاجنية خطر المملكة النوميدية عليها، وأنها لا قِبَل لها بها ، قدمت تعويضات ومبالغ مالية هائلة لمسينيسا قائد الحملة لتأخيره عن المضي قدماً في حملاته العسكرية للمناطق الخاضعة للمملكة القرطاجنية.

وبعد تأزم القضية لم تجد المملكة القرطاجية بداً من خوض حربٍ خاسرة ضد المملكة النوميدية ، مما استدعى الإمبراطورية الرومانية للتدخل لمناصرة المملكة النوميدية التي كانت حليفة لها، وانتهت هذه الحروب التي دامت قرابة أربع سنوات بتدمير قرطاجنة ومدنها وضمت كل مقاطعاتها إلى ولاية الرومان.

يقول جون رايت عن عجز القرطاجنيين أمام المملكة النوميدية: «عجز القرطاجنيون أمام مسينيسا، لأن شروط السلام لم تكن تسمح لهم بشن حرب ضده دون موافقة الرومان الذين كانوا يؤيدون سلب الأراضي من الأعداء المهزومين، واستولى مسينيسا على منطقة طرابلس حوالي (عام ١٦٥ ق.م) وبحجة منعه من مطاردة حصار لبدة، وأوية، وصبراتة، توجهت قرطاجنة إلى

---

(١) تاريخ ليبيا (ص٤٠) .

روما كي تتدخل لوقف اعتداءات مسينيسا، وقد سوت بعثة من مجلس شيوخ روما ذلك النزاع بأن أمرت قرطاجنة بتسليم المدن لمسينيسا ثم أمرت بدفع تعويضات له لتباطئها في عملية التسليم، وبذلك خضع الساحل الطرابلسي كله لمسينيسا، وامتدت مملكته (سنة ١٦١ق.م) من غرب الجزائر إلى سرت.

وبعد عشر سنوات تأزمت قضية شمال إفريقيا، وأصبحت روما تشعر بأن مملكة النوميديين القوية كانت مصدراً خطيراً عليها، كما كانت قرطاجنة من قبل، وعندما دخلت قرطاجنة (سنة ١٥٠ ق.م)، في حرب يائسة مع مسينيسا تدخلت روما ، واعتبرت مهاجمة قرطاجنة للنوميديين خرقاً لشروط اتفاقية السلام لعام (٢٠١ ق.م) وأعلنت الحرب على قرطاجنة، وكان هناك دافع آخر لدخول روما هذه الحرب، وهو أنها أرادت الحد من طموح مسينيسا الواسع في جعل قرطاجنة عاصمة لمملكته ، وبعد أربع سنوات من الحرب والحصار، استسلمت قرطاجنة لروما، واستبعد أهلها ، وخربت المدينة العظيمة (١٦٤ق.م) ، وضمت مناطقها في شمال تونس إلى ولاية إفريقيا الرومانية، لمنع مسينيسا من احتلالها [١].

وبعد وفاة مسينيسا تولى ابنه الأكبر مسبسا زمام الأمور فترة من الزمن ثم مات، فتولت من بعده زمام الأمور قيادة مشتركة بين أبناء مسبسا وأبناء أخوه جرجوثا الذي انفرد بالسلطة بعد ذلك، وفي هذا العهد ساءت العلاقة بين الرومان والمملكة النوميدية مما حدا بالرومان إلى شن حرب ضروس على المملكة النوميدية، تم فيها اعتقال جرجوثا، وتعيين أخوه جوبا كصنيعة رومانية، إلا أن الحرب الداخلية الأهلية زادت الأمر سوءاً مما دعى الرومان إلى ضم المملكة النوميدية وإخضاعها لسلطان الإمبراطورية الرومانية، وأصبحت بذلك مقاطعة

---

(١) تاريخ ليبيا (ص ٤٠).

إفريقيا القديمة (القرطاجنية)، ومقاطعة إفريقيا الجديدة (المملكة النوميدية) جزءاً من الإمبراطورية الرومانية .

يصور صاحب كتاب تاريخ ليبيا الأحوال التي أدت إلى انهيار المملكة النوميدية فيقول: « وانتهت حالة شبه الاستقلال للمدن (سنة ٤٩ ق.م) عندما اندلعت الحروب الداخلية بين « يوليوس قيصر » وبومبي، وكان ملك نوميديا – جوبا الأول – من المؤيدين لمبومبي، وأجبر « جوبا » دولة لبدة على تقديم الجيوش والمعدات، ولكن بعد هزيمة بومبي (سنة ٤٨ ق.م) وموته، واعتصم أتباعه بإفريقية ، وأصبحت لبدة مركزاً لهم، ورست جيوش يوليوس قيصر في إفريقيا (سنة ٤٧ق . م) ، وقضت على جيش بومبي في العام التالي.

وضمت روما مملكة النوميديين إلى مقاطعة إفريقيا الجديدة، وعُرفت مقاطعة تونس الأصلية باسم « إفريقية القديمة » ، وكعقاب للبدة على مساعدتها لبومبي جعلت مدينة لبدة خاضعة لروما، وغرمت مليون لتر من الزيت كل عام، وأصبحت علاقة منطقة طرابلس سيئة مع روما بعد الحرب، وبعد ود قديم، حيث صارت جزءاً من الإمبراطورية الرومانية » [1] .

قلت: إن الباب الذي مضى يذكرنا بقول الله تعالى: ﴿ **قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ** ﴾ [آل عمران: ١٣٧] .

وقال: ﴿ **فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ سُنَّتَ الأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً** ﴾ [فاطر: ٤٣] .

وقال تعالى: ﴿ **سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ** ﴾ [غافر: ٨٥] .

إنك أيها القارئ الكريم تستطيع أن تتأمل في عدة سُنن من سُنن الله الجارية في

---

(١) تاريخ ليبيا (ص ٤١)

الشعوب والأمم والحضارات والدول من خلال الباب الماضي.

ومن أهم هذه السنن:

[أ] أن هلاك الأمم يكون بفشو الظلم وعدم إقامة العدل، ويكون ذلك عندما تختل الموازين، وتنعدم القيم، وتنحرف الفطرة، ويغيب منهج الله في دنيا الناس، وفي تحكم الأقوياء في الضعفاء، ويشرعون قوانين أرضية تجعل المجتمع طبقات فيه العبيد والسادة، ومن حق السادة أن يفعلوا ما يريدون تلبية لأهوائهم وإشباعًا لنزواتهم، فعند ذلك ينزل العقاب وتقع القاصمة. قال تعالى: ﴿ **وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ** ﴾ .
[الأنبياء:١١] .

[ب] أن انهيارالأمم والشعوب وزوالها يكون بأجل، وأن آجال الأمم أطول من آجال الأفراد، قال تعالى: ﴿ **وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ** ﴾ [الأعراف:٣٤]
وقال تعالى: ﴿ **وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا** ﴾ .
[الكهف:٥٩] .

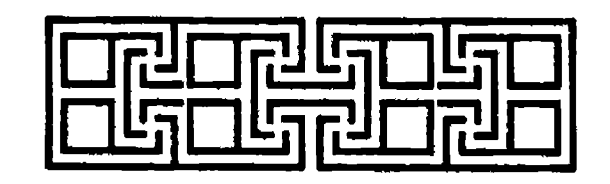
[جـ] أن الأمم والشعوب بحاجة دائمة إلى من يذكرها ويردها إلى الصواب، لأنه مع تطاول الزمن تنحرف عن الحق لأسباب عديدة، ولذلك كان من رحمة الله بالإنسان أنه لم يتركه لفطرته وحدها أو لعقله وحده، ولذلك أرسل الله الرسل وأنزل الكتب.

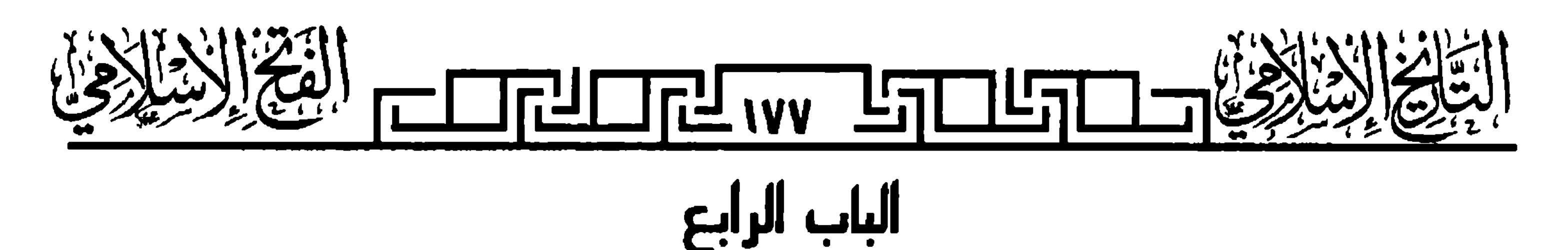
وإذا تأملت وجدت غير ذلك من السنن التي مضت، ولا تزال تمضي في الشعوب والدول والأفراد والحضارات، والأمم، وأن سُنن الله لا تحابى أو تجامل ولا تتغير ولا تتبدل.

[د] أن الترف والفساد من أسباب زوال الأمم، فإذا ما تجبرت أمة من الأمم وعلت

في الأرض وأصابها البطر والكبرياء هيأ الله لها أسباب الانهيار والزوال ، قال تعالى : ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً ﴾ [الإسراء: ١٦] .

أي : أمرناهم بالأمر الشرعي من فعل الطاعات وترك المعاصي فعصوا وفسقوا فحق عليهم العذاب والتدمير جزاء فسقهم وعصيانهم والترف، وإن كان كثرة المال والسلطان من أسبابه ، إلا أنه حالة نفسية تصيب الشعوب والأمم فتتمرد على منهج الله ، وليس كل ثراء ترفاً .





الباب الرابع

الفتح الإسلامي لشمال إفريقية

تمهيد:

كان حال الشمال الإفريقي قبل الفتح يلفظ آخر أنفاسه السياسية، والعسكرية، والدينية، والاجتماعية، فبعد دخول القائد جستنيان قرطاجنة واستسلام آخرملوك الوندال جليمر أخذت الدولة في انحدار سريع وتساقط غريب حيث كانت الإدارة المدنية فيها في غاية من الفساد،كما وأن الاضطهاد الديني والاستغلال المالي ، وفوضى الجيش أصبحت تنذر الإمبراطورية بأخطار عظيمة .

فحاولت قيادات الإمبراطورية البيزنطية إجراء بعض الإصلاحات التي تطيل عمرها إلا أنها باءت كلها بالفشل، وحيث ترتب على هذه الإصلاحات بروز دور الكنيسة الإفريقية الذي يعتبر الخطر القاتل للإمبراطورية الذي تمثل في تنازع العاصمتين الكبيرتين–القسطنطينة وإفريقية– على سيادة العالم المسيحي آنذاك ، ما ترتب عليه أن أصيبت الكنيسة الإفريقية بأزمة زعزعت أعماقها .

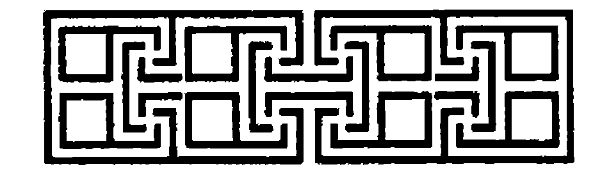
فقد ظهر فيها مذهب سرجيوس بطريق قسطنيطينية الذي يقول بالطبيعة الواحدة الإلهية والإنسانية معاً، والذي وقف إلى جانبه هرقل رغبة منه في اكتساب تأييد اليعاقبة، وعارضت الكنيسة الإفريقية ووجهت الاحتجاجات ضد هذا المذهب إلى الإمبراطور والبابا ، وانتهي الأمر بأن أعلنت أسقفية قرطاجنة عدم صلاحية الإمبراطور.

وتعقد الموقف عندما وصل إلى إفريقية جماعات من الرهبان والراهبات الذين خرجوا من مصر ، فراراً من الاضطهاد وبعداً عن مواطن الخطر في الوقت الذي



كان المسلمون يفتحون فيه مصر.

كانت هذه حالة المسيحية في الشمال الإفريقي قبل ظهور الإسلام: مذاهب منشقة وفساد إداري وعدم نظام ، وإشاعة الرشوة، وتسلط الرومان ، وانقسامات البربر، وفساد العدالة الاجتماعية، والظلم والجور ، مما كان مهداً خصباً لانتشار الإسلام وقبوله كدين فيه خيري الدنيا والآخرة [١] .



(١) راجع كتاب تاريخ المغرب العربي (ص ١٢٤)

الفصل الأول

دواعي الفتح الإسلامي

المبحث الأول

الأمة المسلمة ودورها الريادي

لقد تقرر في بدهيات هذا الدين أن غاية وجود الأمة المسلمة في هذه الحياة هو توحيد الله، وتحقيق عبوديته الشاملة في كل مناحي الحياة وإلى الممات ، كما قال تعالى: ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ** ﴾ [الذاريات: ٥٦]، فإذا كانت تلك غاية العبودية الشاملة التي تشمل الأمة المسلمة ومن حولها من بني البشر، كان لزاماً على الأمة المسلمة أن تقوم في ذاتها بامتثال الإسلام عقيدة وسلوكاً،ونظام حياة متكاملٍ،ثم حمل هذه الأمانة لأجل تبليغها للناس أجمعين، والجهاد في سبيل الله وأداء الأمانة إلى أصحابها، وإزالة كل العقبات التي تقف بوجه آداء هذه الأمانة إلى الناس أجمعين ، حتي لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله، وبذلك يتحقق بسط سيادة الشرع الحكيم على كل بني البشر، ويصبح الجميع يدينون بحاكمية الله سبحانه المطلقة المتمثلة في خضوع الجميع لأحكام الله ورسوله.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله :

و« إذا كان أصل القتال المشروع هو الجهاد بقصد أن يكون الدين كله لله، وأن تكون كلمة الله هي العيا ، فمن منع قوتل باتفاق المسلمين» [١] .

بيد أن علينا أن ننوه هنا بأن أصل الجهاد في سبيل الله ليس لحمل الناس على اعتناق الإسلام كرهاً، كلا !، بل لإزالة الجواحز والعقبات المانعة من سماع دين الفطرة التي فطر الناس عليها.

---

(١)السياسة الشرعية: لابن تيمية (ص ١٨)

قال تعالى :﴿ **لا إكْرَاهَ فِي الدِّينِ..** ﴾ [البقرة:٢٥٦] .

إلا أنه يشرع لإزالة العقبات والموانع والحواجز التي تمنع بسط حكم الله سبحانه على الأرض، ودخول الناس كلهم تحت سلطان حكمه تبارك وتعالى :﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً** ﴾ [البقرة:٢٠٨] .

كذلك يشرع لرفع الظلم عن المستضعفين في الأرض كما قال تعالى:﴿ **وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ** ﴾ [النساء: ٧٥] .

وبهذه الأهداف السامية، والمطالب العالية قام إمام المجاهدين وسيد الأولين والآخرين ﷺ، فقد أرسل الكتب والرسل إلى القادة الملوك والزعماء حينذاك ، وأرسل السرايا والجيوش لإزالة الحكام الذين تمردوا على منهج الإسلام ، فكانت سرية عبد الله بن جحش أول هذه البعوث، واستمر ﷺ في إرسال البعوث والسرايا لإزالة الحواجز البشرية والأعراف الجاهلية، والموانع النفسية، والعوائق المادية المانعة من سماع الإسلام وتفهمه بل قاد ﷺ هو بذاته بعض البعوث والغزوات، والتي كان آخرها غزوة تبوك سنة ٩هـ.

والناس في كل هذه المعارك والغزوات مخيرون بين ثلاثة: إما أن يدخلوا في الإسلام ويكونوا للمسلمين إخواناً، وإما أن يختاروا البقاء على كفرهم، ويؤدوا الجزية، ويخضعوا لسطان الله وحكمه، ولهم ما لنا وعليهم ما علينا، وإما أن يرفضوا هذا وذاك فيكون السيف فاصلاً بيننا وبينهم وبذلك يتحقق قوله تعالى: ﴿ **لا إكْرَاهَ فِي الدِّينِ..** ﴾ [البقرة:٢٥٦]

وهكذا سار على نحو هذا المنهج القويم، والقواعد الجهادية الحكيمة، والأسس النبوية الراشدة، الخلفاء الراشدون الذين حملوا أعباء هذا الدين وطافوا أصقاع الأرض يبذلون الغالي والنفيس في سبيل تبليغ هذا الدين للناس أجمعين طاعة لله ورسوله، ورحمة بالناس وإشفاقاً عليهم، قال تعالى :﴿ **مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ** ﴾ [الفتح:٢٩] .

وقال تعالى :﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ** ﴾ [الأنبياء:١٠٧] .

المبحث الثاني

مبشرات الفتح الإسلامي

لقد تقرر في السيرة النبوية والأحاديث الصحيحة أن رسول الله ﷺ بَشَّر المؤمنين بعدة بشائر، ومن تلك البشائر بشارته ﷺ بفتح كثير من الممالك والبلاد كفتح العراق وجهة المشرق، كما وعد سراقة بن مالك بن جعشم سواري كسرى أثناء هجرته المباركة من مكة إلى المدينة، وهذا نص البشارة التي وعد فيها ﷺ سراقه بسواري كسرى الذي كان آنذاك إمبراطور المشرق، فقد جاء في سيرة ابن هشام قوله: «**فكتب لي كتاباً في عظم أو في رقعة**، أو في خرقة، **ثم ألقاه إليّ فأخذته، فجعلته في كنانتي، ثم رجعت**»(١).

وكذلك وعد ﷺ عدي بن حاتم الطائي ﷺ بذلك حيث قال له: «**فوالذي نفسي بيده لَيُتمَنَّ الله هذا الأمر، حتى تخرج الظعينة من الحيرة، حتى تطوف بالبيت في غير جوار أحد، وليفتحن كنوز كسرى بن هرمز**»(٢).

أما المبشرات بفتح الشام، فقد بشر بها ﷺ وفد تميم الداري حين قدومه إلى المدينة بقوله: «**إذا هلك كسرى، فلا كسرى بعده، وإذا هلك قيصر، فلا قيصر بعده،والذي نفسي بيده لتُنفقن كنوزهما في سبيل الله عز وجل**»(٣).

ولا شك أن هذه بشارة كانت واضحة وجلية بفتح الشام والعراق وبلاد فارس، أما عن بشارة فتح جنوب أوروبا وشرقها، فقد جاءت بها الأحاديث الصحيحة كالتي تبشر بفتح مدينة القسطنطينية الهرقلية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية آنذاك، ومدينة رومية الإيطالية عاصمة البابوية الكاثوليكية.

---

(١) سيرة ابن هشام، (٢ / ٩٧م).

(٢) سيرة ابن هشام (٤ / ٥٨١).

(٣) البداية والنهاية (٧ / ٥٩).

فقد سُئل عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أي المدينتين تفتح أولاً، القسطنطينية أم رومية ؟!!. فدعا عبد الله بصندوق له حلق، فأخرج كتاباً فقال: «بينما نحن حول رسول الله ﷺ نكتب، إذ سئل رسول الله ﷺ أي المدينتين تفتح أولاً ؟، فقال: **[مدينة هرقل]** - يريد القسطنطينية - (١).

كما وقد جاءت الأحاديث الصحيحة ببشارة فتح مصر المقوقسية التي قال فيها ﷺ: « **إنكم ستفتحون مصر، وهي أرض يسمى فيها القيراط، فإذا افتتحتموها فأحسنوا إلى أهلها، فإن لهم ذمة، ورحماً** » أو قال: « **ذمة وصهراً** » (٢)، يشير بذلك إلى هاجر أم إسماعيل عليه السلام، وإلى مارية القبطية أم إبراهيم، التي أهداها المقوقس حاكم مصر لرسول الله ﷺ وأنجبت ابنه إبراهيم.

وبعد فلا ريب أن هذه المبشرات قد أضافت رصيداً ماديًّا، ومعنويًّا وحسيًّا على أن الفتوحات الإسلامية كانت وفق رؤية واضحة المعالم، بأبعادها المرسومة سواءٌ البعيدة المدى أو القريبة، حتى جعلت أبا هريرة رضي الله عنه يقول حين افتتحت الأمصار زمن عمر وعثمان رضي الله عنهما: «افتحوا ما بدا لكم، فوالذي نفس أبي هريرة بيده، ما افتتحتم من مدينة، ولا تفتحونها إلى يوم القيامة، إلا وقد أعطى الله سبحانه محمداً ﷺ مفاتيحها قبل ذلك».

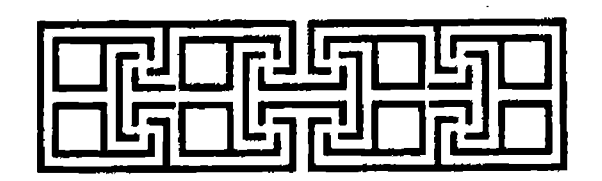
إن الفتوحات الإسلامية خاضعة لمشيئة الله التي جعلت لكل شيء قدراً، «ما افتتحتم من مدينة ولا تفتحونها إلى يوم القيامة، إلا وقد أعطى الله سبحانه محمداً ﷺ مفاتيحها قبل ذلك» إذ لا مكان للعفوية والارتجالية في هذا الدين السماوي القويم، فإن كل تحركات هذا الدين القيم كانت محسوبة في علم الله عز وجل، مسطرة في اللوح المحفوظ، لذلك كانت قيادة الرسول ﷺ لتلك الفتوحات

---

(١) رواه الدارمي، وأحمد، وابن أبي شيبة والحاكم.
(٢) فتح الباري (٦ / ٨٠).

التي افتتحها والمبشرات التي أخبر عنها ، كل ذلك كان وفق خطة ربانية شاملة ترفض الارتجالية ، وخطة عسكرية منظمة تستنكف عن العفوية ، كما قال عنه ربنا تبارك وتعالى : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤) ﴾ [النجم : ٣ ، ٤] .

وجاء في الحديث الصحيح: **«والذي نفسي بيده ، لولا أن رجالاً من المؤمنين لا تطيب أنفسهم أن يتخلفوا عني، ولا أجد ما أحملهم عليه، ماتخلفت عن سرية تغدو في سبيل الله ، والذي نفسي بيده لوددت أني أُقتل في سبيل الله ، ثم أحيا ، ثم أُقتل، ثم أحيا ، ثم أُقتل ، ثم أحيا ، ثم أُقتل »** [١] .



(١) البخاري، كتاب «الجهاد والسير»، – باب تمني الشهادة – (٣/٢٦٨) رقم(٢٤٩٧)

المبحث الثالث

دعاوى المستشرقين... شبهات وردود

إن الاستشراق والمستشرقين من ولادتهم في القرن العاشر الميلادي في أحضان الكنيسة برعاية اليهود ، إبان الفتح الإسلامي لأوروبا ، حينما توجهت أنظار العالم إلى هذا الفتح الجديد، فخافوا أن ينصرف أتباعهم إلى هذا الدين العظيم، فرأوا - بزعمهم - أن أنجح حيلة لمواجهة هذا المد العظيم ، محو صورته الوضيئة والإعجاب به في نفوس أتباعهم على وجه الخصوص، وفي نفوس أتباعه على وجه العموم، وذلك بالطعن فيه وتشويه محاسنه والتنفير منه، فكان أول مُخطط لهذا المكر والكيد النصراني المدعو «بطرس الجليل» رئيس دير كلوي ، الذي راقب الصراع بين الإسلام والنصرانية، واستنتج أن القوة المسلحة لا تجدي نفعاً في محاربة الإسلام والمسلمين ، وإنما ينبغي اللجوء إلى الغزو الفكري، لذلك توجهت محاولات الغزو للقرآن الكريم بترجمته إلى اللاتينية والطعن فيه وتشويه حقائقه ، ثم الطعن في شخص الرسول الكريم ﷺ، في عالمية دعوته ووسائلها الجهادية والدعوية، وما شاكل ذلك من شبهات أوْهَنُ من بيت العنكبوت !! .

ولكن نظراً لعدم تخصص هذا البحث في تقصي عمل الاستشراق والمستشرقين، وشبهاتهم والرد عليها، نكتفي بإيراد بعض شبهاتهم التي هي وثيقة الصلة ببحثنا هذا، ولكل مقام مقال كما قيل.

الشبهة الأول : دعوى عدم وجود استراتيجية للفتوحات الإسلامية :

يقول المستشرق «أنتوني نتنج، وهو يجزم برأيه» « والحملات بعيدة جداً على أن تكون نتيجة لتدبير مقصود هادي ، إذ يبدو أنها بدأت كغارات قصد منها أن توجد مخارج جديدة للروح الحربية التي كانت تسود القبائل، والتي

حظر عليها أن تشتبك في معارك أخوية »[١] .

ويقرر فيليب حتى الذي يمثل خلاصة رأي المستشرقين في هذه الدعوى : « كان على أولي الأمر بعد إخضاع الجزيرة أن يوجهوا الجيوش الحسنة الاستعداد إلى بلدان جديدة، وقد جعل الإسلام من المؤمنين إخوة ، حتى إن الغزو بين القبائل - والغزو قديم العهد في الحياة البدوية - لم يبق أمراً ترضي عنه السلطة، ولكن كان من الصعب كبح القبائل المتوثبة للغزو والقتال، فكان على أولي الأمر أن يوجهوا القبائل في سبل ومنافذ جديدة ... وهكذا بدأت بشكل غزوات تنفيساً للروح الحربية المتأججة في قلوب أبناء القبائل، وخلقاً للمجال الحيوي خارج الجزيرة المكتظة بالسكان »[٢] .

لا شك أن هذه الدعوى باطلةٌ من أصلها، وواهية مردودة بالنصوص الثابتة، والوقائع الصحيحة، فلو تأمل عاقل في دين الإسلام لوجده من النظرة الأولى أنه دين يحث أتباعه ويأمرهم النظام في حياتهم الخاصة والعامة، وبالتفكير والتأمل في كل حركاتهم وسكناتهم، وبالرؤية العميقة للأحداث، والنظرة البعيدة للأهداف، فخذ لذلك مثلاً للإيضاح والتبيان لما قررناه شعيرة الصلاة فحسب، والتي تعتبر من أبرز مظاهر التدين بدين الإسلام، فانظر في كيفية أدائها على سبيل المثال بصورها الجماعية في حالة الحرب، وتحديد دور الإمام فيها والمأموم، والسابق والمسبوق، فما أن نتأمل في تلك الشعيرة وكيفية أدائها فتقر بأن هذا الدين عظيم ، أساسه التنظيم ، والدقة في حالات الحرب والسلم.

فإذا كان ذلك في شعيرة الصلاة التي لا فيها إراقة دماء ولا إهدار أموال، ولا تغريب عن الأهل والأوطان، فكيف يتصور من دين هذا سمته في شعيرة تعبديه

---

(١) راجع كتاب « دواعي الفتوحات الإسلامية »، ودعاوي المستشرقين للدكتور / جميل عبد الله المصري (٣٥).

(٢) نفس المصدر (ص ٣٥).

كالصلاة ، يأمر بشعيرة جهادية عسكرية تتضمن القتال والاستشهاد ، وإهدار المال والتضحية بالأولاد، والتغريب عن الأوطان والإخوان، بدون وضع خطة جهادية بأبعادها الاستراتيجية، لإقامة هذه الشعيرة التعبدية ؟!! [١] .

لذلك كان على أصحاب هذه الشبهات أن يقفوا مليًّا عند سيرة الرسول ﷺ ويتأملوا بعد تخطيطه وأهدافه ﷺ منذ بداية الرسالة، وكيف قام في مكة بتبليغ دعوة الإسلام لزعماء القبائل، وسادة القوم، وملوك الناس آنذاك، يدعوهم بدعاية الإسلام على أن يؤازروه وينصروه، فكان له ما قصد، فقد قبل أهل المدينة تلك الدعوة وقائدها ﷺ التي كانت بداية إرهاصات قيام دولة الإسلام الأولى التي هاجر إليها ﷺ فيما بعد، حيث قام بتثبيت دعائم الدولة الجديدة، وتحمل عبء نشر الدعوة للناس أجمعين وذلك بإرسال الرسل، والاستعداد للجهاد في سبيل الله وفق خطط واضحة المعالم، والأبعاد، والمضامين والأهداف والمقاصد.

وهكذا استمر الخلفاء الراشدون من بعده ﷺ على هذا النمط من التحرك المدروس بأبعاده الشمولية وأهدافه الشرعية، يحدوهم في كل ذلك حب الخير للناس أجمعين في الدنيا والدين، وبهذه الروح وتلك الإستراتيجية استطاعوا أن يفتحوا قلوب الناس ليدخلوا في دين الله أفواجاً حتى وصلوا إلى بلاد الصين ، والروس ، وقلب أوروبا ومجاهل إفريقية ، وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول : « **فوالذي نفسي بيده ليتمن الله هذا الأمر ، حتى تخرج الظعينة من الحيرة ، حتى تطوف البيت في غير جوار أحد ،وليفتحن كنوز كسرى بن هرمز** » [٢] .

الشبهة الثانية: أن الفتوحات الإسلامية كانت حروباً دينية :

وجماع هذه الشبهة يلخصها الدكتور جميل المصري بقوله: «إن المسلمين

---

(١) هذه الفكرة من الأخ عبد الحكيم الصادق، أثناء حوار.
(٢) سيرة ابن هشام(٤ / ٥٨١)

أصحاب عقيدة ، ولكنهم توسلوا بالتعصب الأعمي، وأخضعوا الناس لمبادئهم بالقهر والإرغام ، وخاضوا إلى ذلك بحار الدم والقسوة، وأنهم كانوا يحملون القرآن بإحدى يديهم ، والسيف باليد الأخرى » (١) .

ونقول رغم هذا الإفك المبين، ومواقف هؤلاء المبطلين الذين يعرفون حقيقة الإسلام ودعوته أكثر من بعض المسلمين، كما قال تعالى فيهم: ﴿ **يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ** ﴾ [البقرة:١٤٦]، بيد أن الله سبحانه أقام حجته عليهم ودحض شبهاتهم بأقلامهم، وألسنتهم حيث سخر لهم من يفند شبهاتهم من بني جنسهم ومن جلدتهم ويتكلمون بألسنتهم ، ومن أولئك المستشرقين روزنتال .

يقول المستشرق روزنتال:

« ... وقد نمت المدينة الإسلامية بالتوسع لا بالتعمق، وداعية إلى العقيدة، مناقشة لتلك الحركات الفكرية الموجودة ... وفوق كل ذلك فيتقدم الإسلام وتهاوت الحواجز القديمة من اللغة والعادات ، وتوفرت فرصة نادرة لجميع الشعوب والمدنيات لتبدأ حياة فكرية جديدة على أساس المساواة المطلقة بروح المنافسة الحرة » (٢) .

ويقول فون كيرمير:

« كان العرب المسلمون في حروبهم مثال الخلق الكريم، فحرم عليهم الرسول قتل الرهبان، والنساء والأطفال، والمكفوفين، كما حرم عليهم تدمير المزارع، وقطع الأشجار وقد اتبع المسلمون في حروبهم هذه الأوامر بدقة متناهية، فلم ينتهكوا الحرمات، ولا أفسدوا المزارع، وبينما كان الروم يرمون السهام المسمومة، فإنهم لم يبادلوا أعداءهم جرماً بجرم ، وكان نهب القرى وإشعال النار قد درجت

---

(١) دواعي الفتوحات الإسلامية (ص ٣٩) .

(٢) المرجع السابق(ص ٤١) .

عليها الجيوش الرومانية في تقدمها وتراجعها ، أما المسملون فقد احتفظوا بأخلاقهم المثلى، فلم يحاولوا من هذا شيئاً » [١] .

وأجاد المستشرق غوستاف لوبون بالفعل في طريقة عرضه لعدم إكراه المسلمين الناس على الإسلام، وبين أن الإسلام انتشر بالدعوة وبدون إكراه [٢] .

يقول الدكتور جميل المصري : « والواقع أن مصادرنا لم تبخل علينا بالنصوص الموثقة التي لا تدع مجالاً للشك في أن المسلمين لم يكرهوا أحداً على اعتناق الإسلام، منفذين أمر الله سبحانه وتعالى : ﴿ **لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾ [البقرة:٢٥٦] .

وأما إقبال الشعوب على الإسلام فكان بسببه ما لمسوه في الإسلام نفسه، فهو النعمة العظمية، ولما لمسوه من المسلمين من التخلق بأخلاق الإسلام والالتزام بأحكامه وأوامره ونواهيه، ولما لمسوه في القادة والجند الذين كانوا يقومون بالدعوة بالتطبيق العملي، فتميزت مواقفهم بأنبل المواقف التي عرفها التاريخ العالمي ، فقد كان الخلفاء والقادة يوصون جندهم بالاستعانة بالله ، والتقوى وإيثار أمر الآخرة على الدنيا ، والإخلاص في الجهاد ، وإرادة الله في العمل، والابتعاد عن الذنوب » [٣] .

الشبهة الثالثة : أن الفتوحات الإسلامية كانت حروباً قومية :

لا يخفى عليك أن هذه الشبهة مردودة من أصلها إذ إن أكبر خصومة للدعوة الإسلامية كانت من قِبَل العرب سواءٌ أكانوا عرب مكة، أم عرب الشام والعراق، بل التاريخ يثبت أن هؤلاء العرب المتنصرة وغيرهم ، هم الذين وقفوا في عدة

---

(١) المرجع السابق (ص٤١) .

(٢) المرجع السابق: (ص٤٢) .

(٣) المرجع السابق: (ص ٥٥) .

معارك مع الفرس، والروم ضد المسلمين، فكيف يكون أعداء الدعوة الإسلامية سبباً في الفتوحات الإسلامية ، هذا بهتان عظيم ؟!! .

ولكن لا بأس أن نذكر لك فحوي شبهة القوم، حتي يتضح لك أنها ليست بشبهة وإنما هي المكر والكيد!! وهذا نص الشبهة كما ذكره الدكتور جميل المصري: «وجود العرب في الشام والعراق ومصر، الذين اعتبروا العرب من بني جنسهم، يربطهم مالا يربطهم بأولئك الحكام السابقين من الروم والفرس».

واعتبروا أن هذه الفتوحات : « من سلسلة الصراع بين الشرق والغرب، استرد بها الشرق الأدنى مجده السامي الغابر» [١] وذهب إلى هذه الدعوى الباطلة من المستشرقين بروكلمان في كتاب تاريخ الشعوب الإسلامية، وكلود كاهي، وبرنرد لويس في كتاب العرب في التاريخ، وموريس لومبارد في كتابه: الجغرافيا التاريخية.

الشبهة الرابعة: الفتوحات الإسلامية كانت لأسباب اقتصادية :

ولا ريب أن من تأمل هذه الشبهات وأسباب إثارتها عند هؤلاء المستشرقين ، يجد أن هؤلاء المستشرقين قد انطلقوا لتقييم حركة الفتح الإسلامي من منظورهم النصراني البحت ، الذي قد تجسم في دوافع حركتهم الاستشراقية، حيث كان أول دافع لهم في حركتهم تلك بعد فشلهم في الحروب الصليبية، كان الدافع الديني، ثم الباعث الاقتصادي الذي سيطر على أذهان القائمين على حركة الاستشراق سيطرة كاملة، وما تحركات حركة الاستشراق المعاصرة بقيادة أميريكا، وفرنسا، وبريطانيا، وألمانيا، وإيطاليا، في منطقة الشرق الأوسط، وإفريقيا، وشرق آسيا إلا دليل على ذلك، وما حرب الخليج ودوافعها عنا ببعيد !! .

---

(١) دواعي الفتوحات الإسلامية، ودعاوي المستشرقين (ص ٥٥).

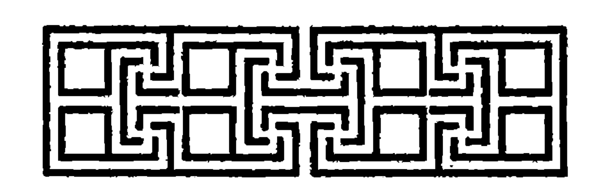
لذلك فهم يحاكمون حركة الفتح الإسلامي الرباني بحركتهم الاستشراقية الجاهلية التي مبناها الكفر بالله واليوم الآخر، حيث إنهم لا يتحاكمون إلى كتاب سماوي ، بل يرفعون لواء المنهج العملي في البحث والنقد الأكاديمي -كما يزعمون- لهذا سوف نحاكمهم إلى المنهج العلمي في البحث والنقد، ويكون ذلك على محورين لا غير:

المحور الأول :

لماذا لا يلتزمون بقواعد البحث العلمي، والنقد الأكاديمي، حيث عمدوا لمحاكمة حركة الفتح الإسلامي صاحبة الكتاب السماوي والدستور الإلهي، التي لها من المراجع العلمية والبشرية مالم يكن من قبل، ولا من بعد لحركة قط، إلى حركتهم الاستشراقية الجاهلية التي ليس بها سند سماوي، ولا دستور إلهي، ولا مرجعية علمية ! ، أتكون هذه المحاكمة عادلة والحال كما مر معنا ؟! ، أفتونا يا أصحاب المناهج العملية ، والقواعد الأكاديمية الاستشراقية المسمومة.

المحور الثاني :

ثم بعد ذلك قرروا في أنفسهم ما قَرَّروه من الشبهات حيال حركة الفتح الإسلامي الرباني، ونظروا في المصادر الإسلامية ليتخيروا كلمات، أو يبتروا نصوصاً، أو يتصيدوا عبارات موهمة قد قيلت في سياق معين، فيقطعونها من سياقها وسابقها ولاحاقها لكي تؤيد ما قرروه من شبهاتهم !! ، ويعرضوا جملة وتفصيلاً عن النصوص المحكمات الواضحات ويتسللون منها لواذاً !! ، أهذا منهج عملي في البحث عن الحقائق ؟!! ، أهكذا تكون قواعد النقد الأكاديمي ؟!!.

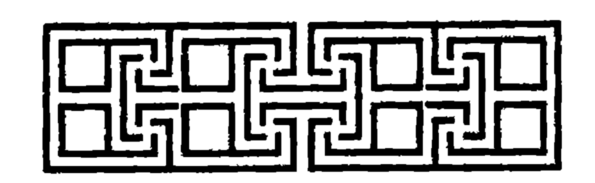


الفصل الثاني

بدايات الفتح المبارك

إرهاصات الفتح :

لقد سبق الفتح الإسلامي لليبيا ، إرهاصات ، وأحداث،وقضايا سياسية، ونزاعات عرقية، وثورات محلية في مدينتي برقة وطرابلس ، التي كان لها أثر بالغ في تغيير مجريات الأحداث السياسية والدينية في المنطقة، وتمهد لتهيئة نفوس أهالي ليبيا لقبول الفتح الإسلامي ، حيث إنهم كانت قد بلغتهم أخبار فتح المسلمين لبلاد الشام ومصر، فتطلعوا إلى الخلاص على أيدي المسلمين من أولئك البيزنطيين وحكمهم الجائر التعسفي، لذلك حاول نفر من أهالي ليبيا التمرد على نظام الإمبراطورية البيزنطية ، والخروج إلى ناحية مصر ، وما أن وصل هؤلاء النفر حتى أعلنوا إسلامهم ودخلوا في دين الله سبحانه ، وأعطوا ولاءهم لقيادة المسلمين بقيادة عمرو بن العاص ، ونيابة عن خليفة المسلمين عمر بن الخطاب ﷺ .



المبحث الأول

حملة عمرو بن العاص ﷺ على برقة

ولما كان الحال في ليبيا كذلك ، فقد قرر عمرو بن العاص ﷺ بناء على تلك المعلومات، أن يضع استراتيجية أمنية وقائية لمصر من الناحية الغربية ، حتى يأمن شر الروم القاطنين بناحية برقة وطرابلس، بعد أن أمن فتوحاته الشامية وذلك بفتحه الإسكندرية ، لذلك قرر عمرو بن العاص ﷺ إرسال عقبة بن نافع الفهري ﷺ كمقدمة استطلاعية لفتح الشمال الإفريقي، وكان ذلك في (عام ٢٢ هـ - ٦٤٢م) على الراجح من الأقوال.

يقول ابن عذاري بهذا الصدد: «إن عمرو بن العاص بعد أن فتح مصر وجه عقبة بن نافع الفهري إلى زويلة، وبرقة فافتتحهما، ثم توجه بنفسه إلى برقة، فصالح أهلها، ولا يستبعد أن تكون حملة عقبة بن نافع هذه عبارة عن سرية استطلاعية وإنها هي التي جعلت عمرو بن العاص يمكث بقية (سنة ٢١هـ/ ٦٤١م) ثم إن الفتح قد تم في الشهور الأولى من (سنة ٢٢ هـ/ ٦٤م) ثم واصل عمرو سيره إلى طرابلس في (سنة ٢٢ هـ/ ٦٤٢ م) أو في أواخرها» [١] .

يبدو لي أن فتح برقة لم يكلف عمرو بن العاص ﷺ كبير عناء، إذ أن جيشه الذي فتح به مصر لا يتجاوز تعداده اثنى عشر ألفاً، مع الأخذ في الاعتبار أن نسبة الجيش الذي وجهه لفتح برقة ثم طرابلس تعداده كان ضئيلاً قياساً مع حجم قوات الإمبراطورية البيزنطية التي كانت ترابط بتلك المنطقة ، إلا أن القوة الحقيقية ليست في تعداده وشكله، وإنما تكمن في إيمانه بالله واليوم الآخر، وحبه

---

(١) ليبيا منذ الفتح العربي حتى انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر، للدكتور صالح مصطفى مفتاح المزيني، ص (٢٨) .

للموت في سبيل الله مع ممارسة فن القتال وخبرته الطويلة في ذلك.

يقول الدكتور صالح مصطفى: « فلما انتهى عمرو بن العاص ﷺ من فتح الإسكندرية، وتنظيم أمورها، سار ببقية جيشه إلى مدينة برقة، ثم أصبح مجموع جيشه بعد أن وصلته الإمدادات لا يزيد على اثني عشر ألفاً، وإذا أدخلنا في حسابنا ما فقده عمرو ﷺ من جند استشهدوا في فتح مصر وما تركه من جند للدفاع عنها، أدركنا قلة عدد جيش المسلمين، الذي وصل به إلى برقة الأمر الذي سهل عليه مهمة السير إلى برقة دون أن يتطلب الإعداد لذلك مجهوداً كبيراً، فلم يكن من الصعب على جيش مثل هذا العدد أن يقطع الطريق فيما بين مصر وبرقة دون أية صعوبة، وقد ساعده على ذلك ما عرف به الجند المسلمون في عصرهم الأول من بساطة في التجهيز للحرب ، والتزود لها وخبرة بفنون القتال في الصحراء » (١) .

والجدير بالذكر، أنه يجب التنوية هاهنا بخصلة هامة قد ساعدت عمرو بن العاص ﷺ أثناء فتح برقة، وهذه خصلة تعتبر منقبة لأهالي برقة ، ألا وهي عدم مقاومتهم للجيش الإسلامي رغبة في العيش تحت ظل الحكم الإسلامي العادل بقيادة عمرو بن العاص، ورغم سجيتهم التي ألفت الحروب والتمرد على أنظمة الإمبراطوريات الفنيقية، الإغريقية، ورومانية، والبيزنطية وغيره، ولذلك تعتبر هذه النقطة عاملاً هاماً من العوامل التي ساعدت الجيش الإسلامي في فتح برقة بدون كبير عناء.

يقول الأستاذ طاهر الزاوي: « وسار بجيشه عمرو بن العاص إلى برقة لفتحها، فلم يحاربه أهلها، وآثروا أن يدخلوا تحت حكم الإسلام ويتمتعوا بما فيه من حرية وعدالة » (٢) .

---

(١) ليبيا منذ الفتح العربي حتى انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر، (ص٢٩).

(٢) تاريخ الفتح العربي في ليبيا (ص ٤٠).

يقول الدكتور صالح مصطفى: « وعندما وصل جيش الفاتحين إلى برقة ضرب عليها الحصار، وتتفق معظم المصادر على أن برقة وهي مدينة انطابلس [١] قد فتحت صلحاً، وأن أهلها قد عاهدوا عمرو بن العاص ﷺ على أن يدفعوا مبلغاً من الجزية مقدارها ثلاثة عشر ألف دينار، وقد اختلف في سبب تحديد الجزية وعللها بعضهم بأنها كانت تمثل عدد الحالمين ممن أثروا البقاء على مسيحيتهم، ولم يعتنقوا الإسلام فحقت عليهم الجزية باعتبارهم أهل ذمة » [٢] .

ولا يخفى أن أحكام أهل الذمة، وكيفية أخذ الجزية منهم، وتحديد قيمتها، كل ذلك مسطر في كتب الفقه بشكل مفصل، وما قصدت التكلم في ذلك وإنما قصدت الإشارة إلى بعض مقاصد أخذ الجزية من أهل الذمة في دولة المسلمين، وهذه المقاصد تدور حول عدة نقاط نذكر منها: تقرير مبدأ لا إكراه في الدين، ولكن عليهم أن يدخلوا بذلك تحت سلطان الدولة المسلمة، وعدم التمرد عليها في حالتي الحرب والسلم، وبدفعهم الجزية تعصم دماؤهم وأموالهم وأعراضهم إلا بحق الإسلام ، وبذلك تعطي لهم فرصة معايشة أهل الإسلام بالإسلام لكي يجاوروا أهله وتكون فرصة للدخول فيه، وبدفعهم الجزية يكونون قد ساهموا في نفقات الدفاع عن أنفسهم وأموالهم وأعراضهم وحرماتهم التي كلفها الإسلام لهم، وأخيراً المساهمة في بيت مال المسلمين الذي يضمن الكفالة والإعاشة لكل عاجز عن العمل، بما في ذلك أهل الذمة بدون فرق بين المسلمين دافعي الزكاة وأهل الذمة دافعي الجزية، فالكل ينعم بعدل الإسلام ورحمته بضمان تلك الواجبات وغيرها .

---

(١) انطابلس، اسم برقة قبل الفتح الإسلامي وهي كلمة رومية معناها بالعربية، خمس مدن، تسمى الآن العقورية، وشحات، وبنغازي، وسوسة، إلخ.

(٢) ليبيا منذ الفتح حتى انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر، (ص ٢٩) .

وبهذه الروح والأخلاق، وبتلك العدالة والإنصاف، استجاب كثير من الشعوب لنداء الفطرة، دين العدل والمساواة، دين رب الأرض والسماء، بمجرد دخول جيوش المسلمين الصادقين إلى أراضيهم، فأصبحوا إخواناً في العقيدة، وحملوا مع الفاتحين الرسالة، وأدوا الأمانة.

فإذا كان ذلك كذلك فيجب الاهتمام بأمر إعداد العدة والجهاد في سبيل الله على منهاج النبوة والخلافة الراشدة،وذلك بإقامة هذه الفريضة كما ينبغي، حتى تقام أحكام كثيرة بدونها لا تُقام، بل تتعطل بالكلية، كما قال تعالى: ﴿ **قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ** ﴾ [التوبة:٢٩].

وبعد فقد واصل عمرو بن العاص ﷺ مسيرته المباركة بعد أن استسلمت مدينة برقة إلى ناحية مدينة طرابلس، خلال مسيره ناحية الغرب، ثم فتح بقية المدن التابعة لبرقة مدينتي توكرة، وبنغازي، ثم وصل إلى مدينة أحدابية التي رفع معظم أهلها شعار الصلح على أن يدفعوا خمسة آلاف دينار فرعوني، ولكن ما لبثوا على دفع الجزية إلا قليلاً حتي أسلم معظم سكانها بعد أن رأوا من الفاتحين من العدالة والمساواة، والصدق والأمانة، والطهارة والعفة، ما لم يروه من قبل في جيوش تلك الأمبراطوريات الهالكة !!.

يقول الدكتور صالح المصطفى بهذا الصدد: «وبعد أن خضعت مدينة برقة للجيش الإسلامي، تابع عمرو بن العاص سيره مع الطريق الساحلي القديم مستهدفاً مدينة طرابلس، ففتح في طريقه بقية مدن برقة مثل توكير (توكرة)، وبرنيق (بنغازي)، وكانتا طلالاً مهجورة أوعلى الأقل كانت حالتهما قد تدهورت بحيث لم تستحقا أن تذكرا في أخبار الفتح، وكانتا من قبل مدنيتين هامتين في الإقليم، وفي نفس السنة ٢٢ هـ/ ٦٤٢م وصل عمرو بن العاص ﷺ

في مدينة أجدابية فافتتحها صلحاً على أن يدفع أهلها خمسة آلاف دينار، وقد أسلم معظم أهلها، وبينما عمرو بن العاص يواصل سيره نحو طرابلس، كان يعمل على تثبيت فتح برقة وتأمين مواصلاته، ولذلك أرسل عقبة بن نافع على رأس قوة من الجيش لغزو المناطق الداخلية من برقة، بينما واصل هو مسيره مع معظم الجيش نحو طرابلس» (١) .

ولا يخفى أن الدور الذي قام به عقبة بن نافع رضي الله عنه خلال هذه الحملة المباركة، كان دور الإسناد، والاستطلاع، والتأمين، حيث أمّن لحملة عمرو بن العاص رضي الله عنه مناطق الجنوب حتى وصل مدينة زويلة فافتتحها، بذلك استطاع عمرو بن العاص رضي الله عنه أن يسير نحو جهة الغرب وهو آمن من الجهات الثلاث، جهة الشرق لقبول أهلها الإسلام، وجهة الجنوب لقبول أهل الإسلام والدخول في طاعة جيش عقبة، أما جهة الشمال كانت متمثلة في شريط البحر الأبيض المتوسط، وكان آنذاك جهة أمنة ، فما بقيت إلا جهة الغرب، لذلك وجه معظم الجيش نحو طرابلس، وماحولها من المدن، فكان له ماقصد .

يقول الدكتور صالح مصطفى: «أما عقبة بن نافع فقد توجه بتلك القوة في اتجاه الجنوب تاركًا ودان (٢) على يمينه، وفاتحاً المناطق الداخلية حتى بلغ مدينة زويلة فافتتحها وفرض على أهلها ثلاثمائة رأس من الرقيق، وبذلك يكون عقبة بن نافع قد مهد لقيام الإسلام في مناطق نائية في الصحراء الجنوبية، إلى حد أن عمرو بن العاص رضي الله عنه قد كتب إلى الخليفة يُعلمه أنه قد ولى عقبة بن نافع المغرب، فبلغ زويلة ، وأن مَنْ بين زويلة وبرقة سِلْم كلهم ، حسنة طاعتهم، قد

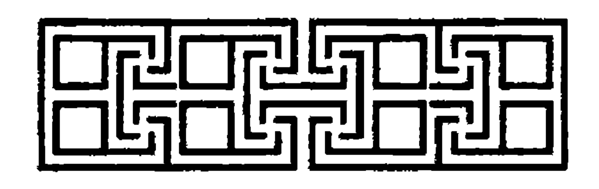
---

(١) المرجع السابق:(ص ٣٠، ٣١) .

(٢) **ودان**: مدينة في جنوب سرت، وكانت مضمومة إليها وهي جزيرة لا تقصر في رخص التمور وكثرتها وجودتها عن أوجلة، ويذكر البكري أن ودان مدينة في بلاد البربر، وهي من حيز برقة يسكنها قوم من العرب، وبينها وبين قصر ابن ميمون ستة أيام، انظر: معجم ما استعجم(٤ / ١٣٧٥) .

أدى مسلمهم الصدقة ، وأقر معاهدهم بالجزية ، وأنه قد وضع على أهل زويلة ومن بينه وبينها ما رأى أنه يطيقونه، وأمر عماله جيمعاً : « أن يأخذوا الصدقة من الأغنياء فيردوها على الفقراء ، ويأخذوا الجزية من أهل الذمة ، فتُحمل إلى مصر، وأن يؤخذ من أرض المسلمين العُشر ، ونصف العُشر ، ومن أهل الصلح صلحهم » .

وحينما كان عقبة يتجه نحو الجنوب كان عمرو بن العاص يسير نحو طرابلس وفي طريقه إليها مر بسرت [١] ، ولم يواجه عناءً في فتحها، إذ لم يذكر أحد أنها فتحت عنوة أو صلحاً، مما يدل على أنها لم تكن ذات خطر، فاكتفى المسلمون باستسلامها، ثم ساروا في طريقهم إلى لبدة [٢] ، فوجدوها خراباً مهدمة وحولها قليل من السكان خليط من البربر والروم فافتتحوها دون مقاومة [٣] .



(١) **سرت** : وهي مدينة كبيرة على سيف البحر الأبيض المتوسط .

(٢) **لبـدة** : تقع شرق طرابلس بنحو(١٢٤ ك.م) أسست في أوائل القرن العاشر قبل الميلاد، احتلها الروم(سنة ٤٢ ق.م) انظر : الزاوي : معجم البلدان الليبية،(٥-٦) .

(٣) المرجع السابق :(٣١-٣٢) .

المبحث الثاني

حملة عمرو بن العاص على طرابلس

ولما انتهى عمرو بن العاص من فتح برقة وتأمين حدودها ، تقدم بمعظم جيشه جهة الغرب حتى بلغ مدينة طرابلس ذات الحصون المنيعة، والأسوار الحصينة التي كانت تحيط بها من جميع الجهات شرقاً، وغرباً وجنوباً إلا ناحية الشمال التي كانت مطلة على البحر، فلما رأى عمرو تلك الحصون المنيعة والأسوار الحصينة اختار موقعاً من ناحية الشرق ورابط فيه ، وكان يرسل طلائعه تلك إلى الأسوار لعلهم يجدون مدخلاً إلى داخل المدينة.

يقول الدكتور صالح مصطفى: « ثم تقدم عمرو بن العاص بجيشه حتي وصل إلى مدينة طرابلس، وكان محصنة، إذ أن الأسوار تحيط بها من جميع الجهات، فيما عدا الجهة البحرية حيث كان الميناء، ورابط عمرو رضي الله عنه في موضع مرتفع يشرف على المدينة من جهة الشرق وظل محاصراً لها لمدة شهر » [١] .

ويقول الأستاذ طاهر الزاوي وهو بصدد الحديث عن مناعة مدينة طرابلس وأسوارها :

« وقد كان سور طرابلس من المناعة بحيث لم يقدر المسلمون أن يتسوروه، كما لم يقدروا أن يقتحموا أبوابه، وكان السور يحيط بالمدينة من جهة الشرق، والغرب ، والجنوب ، ولم تكن مسورة من الشمال بينها وبين البحر » [٢] .

وهكذا استمر عمرو بن العاص في رباطه وحصاره لمدينة طرابلس قرابة الشهر أو يزيد، حتى منّ الله عليهم بتلك الحصون التي ظن أهلها أنها مانعتهم من الله،

---

(١) المرجع السابق : (٣٢-٣٣) .

(٢) تاريخ الفتح العربي في ليبيا، (ص٦٣-٦٤) .

فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا ، وقذف في قلوبهم الرعب ، فقد تمكنت مفرزة من طلائع الجيش المسلم خلال تجوالها الاستطلاعي حول مدينة طرابلس من العثور على معبر إلى داخل المدينة خلال جهة السور الغربية الشمالية ، حيت نزلوا إلى البحر فوجدوا أن هناك سبيل للدخول من تلك الفجوة التي كانت بين نهاية السور وسطح البحر ، فدخلوها من فورهم ، وكانت تلك بداية نهاية الحصار الذي طال قرابة الشهر.

يقول الأستاذ طاهر الزاوي :

« وبقي المسلمون على حصارها نحو شهر لا يقدرون منها على شيء، وكانت رسلهم تغدو وتروح حول السور علهم يجدون فجوة توصلهم إلى داخل المدينة فلم يجدوا، وفي ذات صباح ذهب سبعة من المسلمين للاستكشاف أوللصيد كما يقول ابن عبد الحكيم، وكانوا مسلحين بسيوفهم ررماحهم، وساروا حتي وصلوا إلى جهة السور الغربية الشمالية فوجدوا السور غير متصل بالبحر لأنها لم تكن مسورة من الناحية الشمالية كما ذكرنا ، وقد يكون البحر في حالة جزر مما زاد في اتساع الطريق بين نهاية السور والبحر، ورأوا من الممكن الوصول إلى داخل المدينة من هذه الفجوة، فدخلوها من فورهم من ناحية الكنيسة القديمة، وهو مكان مرتفع يقع في الشمال الغربي من المدينة، وقد أعملوا سيوفهم في رقاب الروم، وعلت أصواتهم بالتهليل والتكبير، وسمع عمرو وبقية المسلمين تكبير إخوانهم داخل السور فأسرعوا إليهم، وتكاثر المسلمون،وعلت سيوفهم رقاب الروم فذهلوا وذعروا فلم يسعهم إلا الفرار » [١].

ويبدو واضحاً من هذه القصة أن سكان مدينة طرابلس من الروم وغيرهم لم تكن لهم المقدرة على مقاومة جيوش المسلمين، لذلك تم الاستيلاء على المدينة

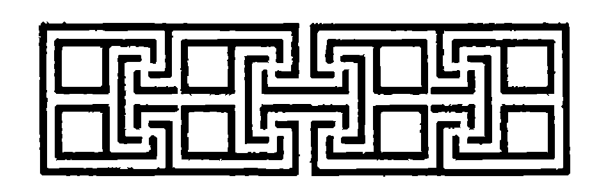
---

(١) تاريخ الفتح في ليبيا (٦٣،٦٤) .

بدون كبير عناء ، ولا مقاومة تذكر لا خارج السور ولا داخله ، حيث فر من فر، وأما من بقي منهم داخل المدينة ، فقد اختاروا الدخول في أمن المسلمين ، وحيث كفلوا لهم حماية أنفسهم وأعراضهم ، ومعابدهم ، وأملاكهم .

يقول الأستاذ الطاهر الزاوي:

« ولما تم استيلاء العرب [١] على المدينة أمنوا من بقي فيها وكفلوا لهم أموالهم، ومنعوا التعدي على أعراضهم وأنفسهم، ولم يذكر أحد من المؤرخين أن الروم قاوموا العرب بالسيف حينما اقتحموا عليهم المدينة، مما يدل على أنهم كانوا في حكم المستسلمين ، ويقال: إن المسلمين بنوا فيها مسجداً ، وإن مسجد أحمد باشا بني على أنقاضه » [٢] .



(١) وددنا من شيخنا الفاضل أن يسمي هذه الجيوش بما سماها الله عز وجل في كتابه، قال تعالى : ﴿**هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ**﴾ بدل تسميتهم بالعرب، لأن هذا الدين دين عالمي، وهذه الجيوش مختلطة من جميع الأجناس التي استسلمت لله ودخلت في دين الله أفواجاً ، فكيف إذن حصر هذه الأجناس في جنس واحد؟ بل كيف تسمي هذه الفتوحات الإسلامية بفتوحات عربية كما سمي شيخنا الفاضل مصنفه بهذا الإسم « تاريخ الفتح العربي في ليبيا ».

(٢) تاريخ الفتح العربي (ص٣٥).

المبحث الثالث

حملة عمرو بن العاص على صبراتة

وقبل مغادرة عمرو بن العاص رضي الله عنه مدينة طرابلس إلى صبراتة [١] ، قام بتثبيت أركان الحكم فيها، وتأمينها ضد هجمات الروم الخارجية، حيث هدم بعض أسوار المدينة مخافة تحصن الأهالي ومقاتلة المسلمين عند مغادرتهم لمدينة طرابلس ، ثم بعد ذلك جد السير بهذه الحملة المباركة ، إلى مدينة صبرة - صبراتة - التي تقع غربي مدينة طرابلس اتجاه الحدود الليلبية التونسية، حيث وجه خيله بقيادة عبد الله بن الزبير إلى مدينة صبراتة، ففتحها على حين غفلة من أهلها، وكان ذلك في الصباح الباكر وقت فتح أبوابها، وإخراج الماشية منها لترعى خارج السور.

يقول الدكتور صالح مصطفى: « وبعد أن تم لعمرو بن العاص فتح مدينة طرابلس، وجه خيله على غفلة إلى مدينة صبرة -وهي في اتجاه الحدود التونسية- بقيادة عبد الله بن الزبير، وكان أهل المدينة قد تحصنوا عندما علموا بمحاصرة عمرو بن العاص لمدينة طرابلس ، ولكن عندما امتنعت مدينة طرابلس، اطمأن أهل صبرة ، وظنوا أن عَمْراً لا طاقة له بهم، ولكن عَمْراً كان قائداً بارعاً، فما أن ظفر بمدينة طرابلس حتى جرد خيلاً كثيفة من ليلته، وأمرهم بسرعة السير، فتقدمت الخيل إلى هذه المدينة في الصباح الباكر، وكان أهلها قد اطمأنوا، وفتحوا أبواب المدينة ، وأخرجوا ماشيتهم لترعى فاستطاع ذلك الجيش أن

---

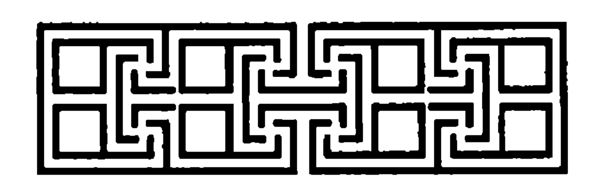
(١) **صبراتة**: مدينة قديمة تقع غربي مدينة طرابلس بنحو (٦٧ كم) على ساحل البحر الأبيض المتوسط أنشأها الفينقيون حوالي (٩٠٠ أو ٨٠٠ ق.م) وهي مدينة من أعظم المدن التي كانت في الشمال الإفريقي، وكانت أكبر من طرابلس، وأعظم منها عمراناً ومدنية، وأروج تجارة (راجع تاريخ الفتح العربي في ليبيا) ، (٦٦) .

يحتوي على المدينة بسهولة ويسر» [١] .

ولما فتح الله عليهم مدينة صبراته رأى عمرو بن العاص رضي الله عنه قائد الحملة المباركة أن التقدم بهذا الجيش الذي استمر في فتح البلدان من برقة وضواحيها، مروراً بأجدابية وريفها، ووقوفاً على سرت وطرقها ، ووصولاً إلى ودان ونخيلها، وحصاراً لطرابلس وفتحها، وأخيراً صبراتة واستسلامها له فيه إضعافٌ لقوته، وتشتيت لجهوده، وتحفيز للعدو لضربه، خاصة وأن رجال مخابراته قد أخبروه بأن هناك تجمعات من الروم والقبائل المحلية بدأت تلتقط أنفاسها وترتب أمورها لمحاربته، فلما رأى ذلك أدرك أن التقدم بدون استئذان الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه فيه نوع من التجاوزات العسكرية المقررة لفتح برقة وطرابلس، لذلك كتب إليه يستأذن في التوغل داخل إفريقية، وأن يمده بالمدد المناسب، وفق الأهداف الجديدة لفتح برقة ومن حولها.

يقول الدكتور صالح مصطفى:

« ولم يشأ عمرو أن يتقدم لقلة القوة التي معه، ولأنه يعلم أن مدناً كثيرة للروم والقبائل المحلية ما زالت أمامه، كما أن عيونه أخبرته بكثرة تجمعاتهم في تلك المدن، ومن أجل ذلك وتنفيذاً لما تقتضيه الخطط الحربية أراد أن يستأذن الخليفة عمر بن الخطاب في التقدم نحو إفريقية طالباً منه المدد إذا ما وافق الخليفة على ذلك فكتب له يقول:« إن الله قد فتح علينا طرابلس وليس بينها وبين إفريقية إلا تسعة أيام، فإن رأى أمير المؤمنين أن يغزوها ، ويفتحها الله على يديه فعل» [٢] .



(١) ليبيا منذ الفتح العربي (ص ٣٥)

(٢) المرجع السابق، (ص ٣٦-٣٧)

المبحث الرابع

حملة عمرو بن العاص على مدينة شروس وعودته إلى مصر

لا يخفى أن مدينة شروس الواقعة في جبل نفوسة والتي كانت تدين بدين النصارى، تعتبر قريبة جداً لمدينة صبراتة، لذا حاول عمرو بن العاص ﷺ أن يجتهد في فتح هذه المدينة قبل وصول رد خليفة المسلمين عمر بن الخطاب ﷺ فتقدم إليها وما زال بها حتى فتحها، ولكن ما أن فتحها حتى جاءه رد خليفة المسلمين عمر بن الخطاب على رسالته بشأن الاستراتيجية العسكرية الخاصة بشئون إفريقية ينص فيها على عدم التوسع بالجيش في فتح هذه الأقاليم.

وهذا نص رسالة خليفة المسلمين عمر بن الخطاب ﷺ: «لا إنها ليست بإفريقية ولكنها المفرقة، غادرة مغدور بها، لا يغزوها أحد ما بقيت»[1].

ولهذا السبب وغيره رجع عمرو بن العاص من جبل نفوسة وتوجه إلى طرابلس، وما أن أقام فيها حتى وصله كتاب المقوقس يخبره فيه بأن الروم يريدون نكث العهد، ونقض ماكان بينهم وبينه، وقد كان عمرو بن العاص قد أبرم عهداً مع المقوقس قبل خروجه من الإسكندرية متوجهاً إلى برقة، بألاً يكتمه المقوقس أي أمر يحدث بعده.

يقول الدكتور صالح مصطفى:

«ولهذه الأسباب رجع عمرو بن العاص من نفوسة بكتاب عمر ﷺ، أضف إلى ذلك أن عمرو بن العاص كان قد عقد عهداً بينه وبين المقوقس، قبل أن يغادر الإسكندرية، على ألا يكتمه المقوقس أمراً يحدث، وعندما وصل عمرو عائداً إلى

---

(١) نفس المصدر (ص ٣٧).

إقليم طرابلس، أتاه كتاب المقوقس يذكر له فيه أن الروم يريدون نكث العهد، ونقض ما كان بينهم وبينه، فانصرف عمرو راجعاً مبادراً لما أتاه الكتاب إلى مصر» [١] .

وهكذا أنجز عمرو بن العاص هذا الفتح المبارك الذي تجاوز فتح الأراضي إلى فتح القلوب التي آمنت بالله ربّاً، وبالإسلام ديناً ومنهجاً، وبمحمد ﷺ نبيّاً ورسولاً، فعاشت تلك الشعوب حياة العدل والمساواة والتسامح والإخاء في ظل الشريعة السمحاء على أيدي أولئك الفاتحين الذين يبتغون بذلك الفتح وجه الله ورضوانه.

يقول الأستاذ سيد قطب - رحمه الله - بهذا الصدد:

«لقد كان الفتح الإسلامي فتحاً فريداً في تاريخ البشرية كلها، لم تعرف له من قبل ولا من بعد نظيراً، لم يكن فتحاً للأرض وكنوزها، إنما كان فتحاً لقلوب ساكني الأرض، وغرس بذرة العدل، والتسامح والمساواة، والإخاء فيها، وإن أي إنسان مخلص للإنسانية، يعرف طبيعة الفتح الإسلامي، ويدرك أهدافه وبواعثه ليتمنى أن لو كان مد الإسلام الأول قد غمر الأرض جميعاً، وألقى البذرة الطيبة الخيرة.

إن الحروب الإسلامية والفتوحات ملحوظ فيها أن تحقق إلى جانب حرية الدعوة وحرية العقيد ة، العدالة المطلقة لجميع الناس فإذا هي لم تحمل هذه المقدمات معها لأهلها وللبلاد المفتوحة كذلك، لم تكن حرباً إسلامية ولا فتحاً إسلاميّاً، ولم تر ثمرتها على ضم رقعة من الأرض إلى العالم الإسلامي، وزيادة رقعة الأرض لم تكن يوماً ذات قيمة في حساب الإسلام، إنما القيمة كلها لتحقيق النظام العادل الكامل الذي يقوم على الشريعة الإسلامية المنبثقة من العقيدة الإسلامية ، وهذا الذي كان يضيف إلى الإسلام شعوباً وقلوباً ، وهذه هي غاية الفتح الإسلامي لا الأرض ولا الفيء، ولا الغنيمة، ولا الغلبة على البلاد والعباد» [٢] .

---

(١) المرجع السابق: (ص ٣٨).

(٢) راجع كتاب «دراسات إسلامية» لسيد قطب (٤٤، ٤٥، ٤٦).

المبحث الخامس

فاتح ليبيا في سطور

المطلب الأول

اسمه، ونسبه، وميلاده

اسمه ونسبه: لقد تقدم فيما مضى أن قائد فتح برقة وطرابلس هو عمرو بن العاص السهمي القرشي، وكنيته أبو عبد الله، وأبو محمد [١]، وأمه سلمى بنت حرملة [٢]، وتلقب بالنابغة، وهي من عنزة [٣].

ميلاده: وأما فيما يتعلق بميلاده، فإن الكتب التي ترجمت لعمرو رضي الله عنه فيما أعلم لم تنص على تحديد السنة التي ولد فيها، لكن روى البيهقي عن عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه قال: «أذكر ليلة ولد عمر بن الخطاب».

يقول الحافظ ابن حجر رحمه الله بعد أن ذكر هذا الأثر:

«فكان عمره لما ولد عمر رضي الله عنه سبع سنين» [٤].

إسلامه: لقد أسلم عمرو في شهر صفر، سنة ثمان للهجرة، وكان إسلامه هو وخالد بن الوليد، وعثمان بن طلحة رضي الله عنهم في وقت واحد [٥].

ولقد سئل عمرو رضي الله عنه عن سبب تأخر إسلامه إلى هذا الوقت فقال: «إنا كنا مع قوم لهم علينا تقدم وسن، توازي حلومهم الجبال، وما سلكوا فجاً فتبعناهم إلا وجدناه سهلاً، فلما أنكروا على النبي صلى الله عليه وسلم أنكرنا معهم، ولم نفكر في أمرنا،

---

(١)، (٢)، (٣) القيادة العسكرية في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم: للدكتور عبد الله الرشيد، (ص٣،٦) اعتمدت على هذا الكتاب في ترجمة عمرو بن العاص،

(٤)، (٥) راجع المصدر السابق (ص ٦٢٥،٦٢٦).

وقلّدناهم ، فلما ذهبوا وصارالأمر إلينا، نظرنا في النبي ﷺ فإذا الأمر بَيِّنٌ فوقع في قلبي الإسلام » (١) .

ولا يخفى أن قصة إسلامه وشدة حيائه من النبي ﷺ قد وردت في صحيح مسلم، حيث قال عمرو رضي الله عنه : « ... لقد رأيتني وما أحد أشد بُغضاً لرسول الله ﷺ مني، ولا أحب أن أكون قد استمكنت منه فقتلته .. فلما جعل الله الإسلام في قلبي أتيت النبي ﷺ فقلت : ابسط يمينك فلأبايعك فبسط يمينه ، قال: فقبضت يدي، قال: [**مالك يا عمرو ؟!!**] قال: قلت: أردت أن أشترط ، قال: [**تشترط بماذا ؟**] قلت: أن يغفر لي، قال: [**أما علمت أن الإسلام يهدم ماكان قبله، وأن الهجرة تهدم ما قبلها، وأن الحج يهدم ما كان قبله؟**] ، وما كان أحد أحبَّ إليَّ من رسول الله ﷺ ولا أجَلَّ في عيني منه، وما كنتُ أطيق أن أملأ عيني منه إجلالاً له ، ولو سُئلْتُ أن أصِفَهُ ما أطَقْتُ لأني لم أكن أملأ عيني منه » (٢) .

المطلب الثاني

مناقبه

لا يخفى أن له من المناقب الجليلة والأخلاق النبيلة، والمواقف الحميدة، مما يجعل هذه السطور غير كافية لأداء حق هذا القائد الصحابي الجليل، ولكن يمكن أن تجمل هذه المناقب الجليلة والمواقف الحميدة في عدة نقاط.

[١] أن الرسول ﷺ لم يعدل به أحداً من الصحابة، قد جاء عن عمرو بن العاص رضي الله عنه قوله: « ماعدل بي رسول الله ﷺ وبخالد أحداً منذ أسلمنا

---

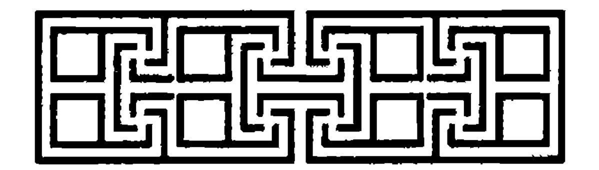
(١) المرجع السابق (ص ٦٢٥،٦٢٦).

(٢) رواه مسلم « كتاب الإيمان »، باب كون الإسلام يهدم ماكان قبله ، وكذا الهجرة والحج (١ / ١١٢) رقم (١٢١).

في حرب » (١) .

[٢] **شهادة رسول الله ﷺ له بالإيمان** : كما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه : « أن رسول الله ﷺ قال : [**ابنا العاص مؤمنان ، هشام ، وعمرو**] (٢) .

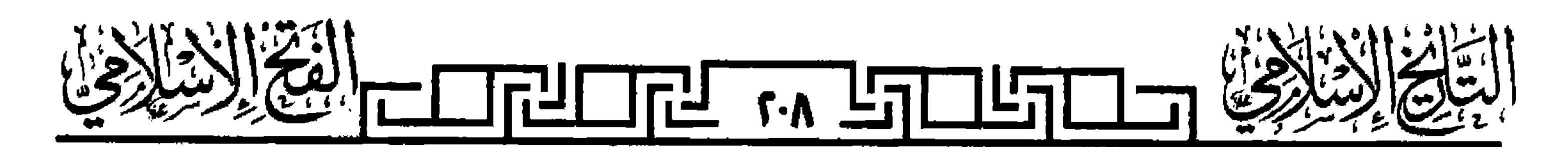
[٣] **شهادة رسول الله ﷺ له بأنه من صالحي قريش** : فقد جاء عن أبي مليكة قال : قال طلحة بن عبيد الله سمعت رسول الله ﷺ يقول : [**إن عمرو بن العاص من صالحي قريش**] (٣) .



(١) وهذا الحديث أخرجه البيهقي باب إسلام عمرو بن العاص (٤/ ٣٤) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢ / ٣٢٧، ٣٥٣) ، الحاكم في كتاب معرفة الصحابة، باب ذكر مناقب هشام ابن العاص، المستدرك على الصحيحين (٣ / ٢٤٠) وقال الحاكم : صحيح على شرط مسلم.

(٣) أخرجه الترمذي، كتاب المناقب، باب مناقب عمرو بن العاص رقم (٣٨٤٤) .



المبحث السادس

أهم صفاته القيادية

المطلب الأول

الشجاعة

من الصفات التي كان يتمتع بها عمرو الشجاعة، فقد كان جريئاً مقداماً ذا شخصية جبارة، لا يهاب خوض غمار الحرب، ولا يخشى الموت، ومن المواقف التي برزت فيها هذه الصفة: ما حدث في معركة اليرموك، حين اشتد القتال بين الروم والمسلمين، حيث أصاب الروم أعين سبعمائة من المسلمين مما اضطرهم إلى الفرار من الميدان، فرأى عمرو أن الموقف يحتاج إلى ثبات فبقي في مكانه ومعه أصحاب الرايات وقاتلوا الروم ببسالة وقوة حتى انتصر عليهم ، ومن هذا يتبين أثر تحلي القائد بهذه الصفة في كسب النصر.

المطلب الثاني

الرأي السديد والعقل الراجح

كان عمرو ﷺ ذا رأي سديد وعقل راجح ، فهو معدود من دهاة العرب المقدمين في الرأي ، ومما يدل على سداد رأيه أن عمر بن الخطاب ﷺ إذا استضعف رجلاً في رأيه قال: « أشهد أن خالقك وخالق عمرو واحد » يريد خالق الأضداد.

وقد وقع الإجماع على أنه أحد دهاة العرب، وفي ذلك يقول الثعالبي ـ رحمه الله ـ : « ووقع الإجماع على أن الدهاة أربعة معاوية، وعمرو بن العاص، والمغيرة ابن شعبة، وزياد بن أبيه ﷺ » ولرجاحة عقله ﷺ بعثته قريش إلى الحبشة للتفاوض مع النجاشي بشأن ردّ المهاجرين إلى مكة.

المطلب الثالث
بُعد النظر

كان عمرو رضي الله عنه يتمتع بصفة بُعد النظر ، فهو يقدِّر كل الاحتمالات ويفترض أن أصعبها يمكن أن يقع، ولهذا كان يأخذ بمبدأ الحيطة، ويشهد ذلك أنه حين فزع أهل المدينة لبس سلاحه ، وقصد المسجد ، بينما تفرق الناس .

عن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: « كان فزع بالمدينة، فأتيت على سالم مولى أبي حذيفة، وهو محتب بحمائل سيفه، فأخذت سيفاً فاحتبيت بحمائله ، فقال رسول الله ﷺ : [**يا أيها الناس : ألا كان فزعكم إلى الله وإلى رسوله؟**] ، ثم قال: [**ألا فعلتم كما فعل هذان الرجلان المؤمنان**] [1] .

المطلب الرابع
القدرة على جمع المعلومات

يُعد جمع المعلومات عن العدو من الأمور الضرورية لتقدير الموقف العسكري، ووضع الخطة المناسبة له، ولهذا كان عمرو رضي الله عنه يحرص على جمع المعلومات عن عدوه وعن طبيعة الأرض التي سيقاتل فيها.

ومن الأمثلة على ذلك: ما حدث في غزوة ذات السلاسل، حيث استعان بأخواله من « بلِي » في إمداده بالمعلومات الضرورية عن أعدائه، مما كان سبباً في انتصاره عليهم.

ولما كان الاستطلاع أمراً ضرورياً لوضع صورة القائد عن عدوه، وسلاحه، وخططه العسكرية وحلفائه ، فإن عَمْراً كان يقدر قيمة هذا الأمر حق قدره سواء

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤ / ٢٠٣) ، والنسائي بسند حسن ، انظر: الإصابة في تمييز الصحابة (٣ / ٣) .

كان ذلك باستطلاعه الشخصي أو بإرسال العيون والأرصاد، ومن الأمثلة على اهتمامه بالاستطلاع الشخصي ما قام به ﷺ من استكشاف مقر قائد الروم « أرطبون » حيث اطلع على مواطن الضعف في مواقع جيش الروم .

المطلب الخامس
الماضي الناصع المجيد

من الصفات القيادية التي توافرت لعمرو ﷺ الماضي المجيد، فهو من بني سهم، وهذا البطن من قريش انتهى إليهم الشرف في الجاهلية، حيث كانت لهم السيادة والسلطان في مكة.

وقد اختص بنو سهم من بين بطون قريش الأخرى بأنهم كانوا أصحاب الحكومة ، وهي: أشبه ما تكون بالقضاء، وفض المنازعات في المسائل الدقيقة حيث كان يحتكم القرشيون وغيرهم من العرب إلى زعماء بني سهم الذين اشتهروا بسداد الرأي، والحلم، والدهاء، والحزم.

إن لبني سهم أيضاً الرئاسة على الأمور الخاصة بآلهتهم وهي قريبة الشبه في عصرنا بالأوقاف العامة، وكان الشأن في ذلك: أن يقوم صاحب هذه الوظيفة بالتصرف في هذه الأموال وفق القواعد التي جروا عليها في العمل بأموال أوثانهم.

وأما أبوه العاص بن وائل بن هشام ، فقد كان من أشراف قريش وذوي الجاه فيهم، ومن أبرز الأدلة على ذلك، أن عمر بن الخطاب لما أسلم وَثَبَتْ عليه قريش حتى أيقن بالهلاك ، وبينما هم قائمون على رأسه، إذ أقبل العاص بن وائل فقال لهم: خلواعن الرجل، أترون بني عدي بن كعب يسلمون لكم صاحبكم؟ ، وعندئذٍ انفض المشركون عن عمر.

كما كان عمرو نفسه من ذوي الشرف في الجاهلية، ومن عرفوا بسداد الرأي والحزم، فقد حاز الشرف من جميع جوانبه، فهو ذو نسب شريف، كما أنه تربى في بيت شريف هو بيت العاص بن وائل، وعاش في بلد شريف هو مكة المكرمة.

المطلب السادس

اتخاذ القرارات الصحيحة

وتنفيذها في الوقت المناسب

من الصفات القيادية التي كان يتحلى بها عمرو ﷺ اتخاذ القرارات الصحيحة، فقد كان يعمل على اتخاذ قراراته، ثم يقوم بعد ذلك بتنفيذها بدقة كاملة، حتي تؤدي الغرض منها، ومن الأمثلة على ذلك: ما رآه عمرو من ضرورة اجتماع المسلمين في اليرموك، إذ أن هذا القرار يحقق مصلحة كبيرة في هذا الظرف الحاسم، وهو حدة المسلمين وإظهار هيبتهم أمام عدوهم حتى لا يطمع فيهم ، كما أنه يدفع مفسدة عظيمة وهي تفرق الجيوش الذي هو مظنة الفشل والخذلان ، مما يغري أعداءهم بالهجوم عليهم، وبذلك تحيق بهم الهزيمة.

وقد كان عمرو ﷺ يعتمد في ذلك على أسس اتخاذ القرارت ابتداء من الاستطلاع، وجمع المعلومات ، وتقدير الموقف، وحساب ميزان القوى ، ووضع جميع العوامل الضرورية في الحسبان ، مثل الطبيعة الجغرافية ، والأهمية الاستراتيجية للموقع والطبيعة البشرية ، سواء كانت في جانب جنده ، أو لدى جنود أعدائه ، حتى ينتهي بإصدار القرار المناسب في وقته [١] .

---

(١) راجع هذه الصفات، كتاب القيادة العسكرية (٦٢٧، ٦٢٨، ٦٣٢).



المبحث السابع

قواعد ومبادئ في الاستراتيجية العسكرية

فإذا كانت تلك صفات شخصية عمرو القائد المحنك البارع ، فما هي إذاً أُسس استراتيجية الحربية التي طبقها في تلك الفتوحات الإسلامية؟ .

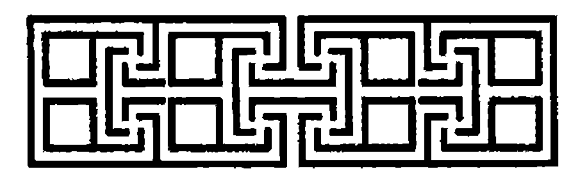
المطلب الأول

الحرص على تطوير القدرة الحركية

لما وصل عمرو ﷺ إلى مصر حرص على تطوير القدرة الحركية لجيشه، وذلك بالاستيلاء على السفن الموجودة في جزيرة «الروضة» لاستخدامها في نقل قواته، كما أن استخدامه لمنطقة غرب النيل كان وسيلة لضمان استخدام القدرة الحركية لقوات المسلمين على أفضل وجه.

ثم إن إصراره على هدم أسوار الإسكندرية لم يكن إلا وسيلة لإزالة كل ما يعيق من استخدام القدرة الحركية، وكان اهتمام عمرو بالشئون الإدارية ، والتنظيمية ، والاقتصاد وغيرها ، إنما هو من أجل القدرة الحركية وتوفير الظروف المناسبة لاستخدامها على أفضل وجه ممكن.

ومما سبق يتبين : أن هذا المبدأ لدى عمرو ﷺ يقوم على ركيزتين أساسيتين هما : الركيزة الأولى : إزالة السدود والحواجز التي يمكن أن تعيق القدرة الحركية، الركيزة الثانية، اختيار محاور العمليات التي تساعد المسلمين على تطبيق هذا المبدأ.



المطلب الثاني

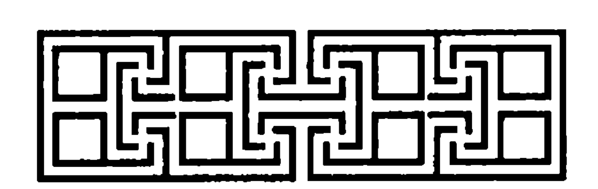
الشدة على أعداء المسلمين

عندما قام عمرو بفتح الإسكندرية الثاني (سنة ٢٥ هـ) غدر أهل قرية تسمى (خربة)، ولما وصل عمرو إلى الإسكندرية وفتحها وجه مولاه ويسمى «وردان» فقتلهم وخرب قريتهم، وتسمى الآن: «خربة وردان».

ومن هذا الموقف، نستنتج أن شدة عمرو وصلابته تزداد عندما يتعرض المسلمون للغدر، وذلك لكي يردع الأعداء عن التمادي في ارتكاب مثل هذا الخُلق الذميم، وحتى يحفظ للمسلمين هيبتهم ويضمن لهم الأمن والسلامة، وبعد أن فتح عمرو الإسكندرية وضع السيف في رقاب الروم الذين كانوا بها، ثم كلموه في ذلك فرفع السيف عنهم، وبنى في ذلك الموضع مسجداً يعرف: بمسجد الرحمة في الإسكندرية.

ومن هذا الموقف: ينبغي أن يعلم أن عَمْراً ﷺ كان يترك في مثل تلك الظروف القاسية التي تدعو إلى الشدة والصلابة مجالاً للرحمة والشفقة، فعندما يأتيه من يطلب الرحمة فإنه يستجيب له، لأنه كان ينطلق من منطق البناء والإصلاح، لا بالحقد أو حب الانتقام.

وقد كان عمرو ﷺ صلباً عند خوض القتال، ففي بلبيس – مثلاً – قام بتصفية قوات العدو وإبادتها كاملة، ومن الجدير بالذكر أن استعمال الشدة لدى عمرو ﷺ في المجتمع الجديد إنما هومجرد وسيلة وليس غاية في حد ذاته، لمتطلبات البناء السلمي الذي يفتقر إلى الاستقرار والهدوء.



المطلب الثالث

ادخار القوي

لقد كانت قوات المسلمين في جميع الحروب التي خاضوها أقل من قوات أعدائهم،ولهذا فكر القادة العسكريون اقتداءً بالرسول القائد ﷺ في إيجاد البديل الذي يعوض عن هذا النقص في العدد والمعدات، فطبقوا مبدأ ادخار القوى.

ومن هؤلاء القادة: عمرو بن العاص ﷺ فقد كان يحسن تطبيق هذا المبدأ كلما دعته الضرورة إليه، ومن الأمثلة على ذلك: أن عَمْراً ﷺ عندما أراد فتح أجنادين وجد أن «أرطبون» الروم قد وضع قوتين لهما شأنهما في كل من «إيلياء» و«الرملة» ففصل عمرو جيشه إلى قوتين صغيرتين ، وعين على كل واحد منهما قائداً ، وأمرهما بمنع أي تحرك لقوات الروم إلى «أجنادين» ، أما القوة الرئيسية فإنه جعل مهمتها مقاتلة جيش الروم، وبهذا الأسلوب تحقق لعمرو النصر على أعدائه الرومان.

المطلب الرابع

خفة الحركة

كان عمرو ﷺ يؤمن بمبدأ خفة الحركة، ويُحسن تطبيقه في الوقت المناسب، ومن الأمثلة على ذلك: أن عَمْراً ﷺ عندما احتل «طرابلس» أمرقواته بالتوجه إلى صبراتة – ليلاً – فتحركت القوات بقيادة عبد الله بن الزبير فدخلها صباحاً ، واستسلم أهل المدينة دون قتال، وفي ذلك يقول ابن عبد الحكم: «كان من بسرت متحصنين .. فلما بلغهم محاصرة عمرو مدينة طرابلس ، وأنه لم يصنع فيهم شيئاً ، ولا طاقة لهم به آمنوا ، ولما ظفر عمرو بن العاص بمدينة طرابلس جرد خيلاً كثيفة من ليلته وأمرهم بسرعة السير فصبحت خيله مدينة «سرت » ، وقد فتحو أبوابهم لتسرح ماشيتهم، فدخلوها فلم ينج منهم أحد، واحتوى جند عمرو على ما فيها ورجعوا إلى عمرو [١] .

---

(١) المرجع السابق: (ص ٦٣٤).

المبحث الثامن

أعمال عمرو بن العاص في عهد الرسول ﷺ

لقد قام عمرو رضي الله عنه بأعمال جليلة في عهد الرسول ﷺ وكان من أهم هذه الأعمال الآتية :

[١] قيادة سرية ذات السلاسل لصد هجوم قضاعة على المدينة .

[٢] هدم سواع بعد فتح مكة .

[٣] دعوة ابْنَي الجلندي « جيفر، وعباد » إلى الإسلام وقد ذهب عمرو رضي الله عنه إلى عمان ودعاهما إلى الإسلام وصدقا بالنبي ﷺ، وخليا بين عمرو وبين الصدقة والحكم فيما بين قومهم وكانا له عوناً على من خالفه [١] .

المطلب الأول

أعماله في عهد أبي بكر وعمر رضي الله عنهما

عقد أبو بكر الصديق لعمرو بن العاص رضي الله عنه لواء الجهاد ووجهه لحرب قضاعة حين ارتدت عن الإسلام، ثم وجهه أبو بكر رضي الله عنه بعد ذلك إلى فلسطين، وأمره بنجدة أبي عبيدة بن الجراح ومشاورته .

وفي معركة اليرموك كان عمرو رضي الله عنه على الميمنة، وكان لمشاركته أثر كبير في انتصار المسلمين، كما كان لعمرو رضي الله عنه مشاركة فعالة في حركة الفتح الإسلامي بالشام ، فقد قام بمشاركة شرحبيل بن حسنة في فتح بيسان ، وسبرذجة ، وأجنادين [٢] .

---

(١) انظر : الطبقات الكبرى لابن سعد، (١ / ٢٦٢)، جوامع السيرة لابن حزم ، (ص٢٣،٢٩) .

(٢) انظر : « تاريخ الطبري » (٣ / ٦٠٥) ، و« الكامل » لابن الأثير (٢ / ٤٩٨) .

كما قام رضي الله عنه بفتح غزة، وسَبَسْطِية، ونابُلُس، واللُّدّ، ويُبْنَي، وعَمْواس، وبيت جِبْرِيل ، ويافا، ورَفَح، وبيت المقدس، ولم يقتصر عمرو رضي الله عنه على فتح بلاد الشام وحدها ، بل شمل أيضاً بعض مشاهير بلاد مصر، حيث كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقد أصدر أمره إلى عمرو رضي الله عنه بعد الفراغ من فتوح الشام أن يسير بمن معه من الجند إلى مصر، فخرج رضي الله عنه حتى وصل إلى العريش ففتحها.

كما شملت حركة الفتح أيضاً: الفرما، والفسطاط، وحصن بابليون، عين شمس، والفيوم، والأشمونين، وأخميم ، والبشرود ، وتنيس ودمياط، وتونة، ودميرة، وشطا، ودقهلة ، وبنا ، وبصير، والإسكندرية ، وبلاداً إفريقية أخرى مثل: برقة وزويلة وطرابلس (١) .

المطلب الثاني
عمرو رجل الآخرة

إن مما يجب التنويه به في هذا المقام ، أن حرص عمرو رضي الله عنه على تولي القيادة العسكرية وغيرها ، من الولايات ، إنما كان يدفعه إليه الإخلاص للإسلام والمسلمين ، والرغبة في ثواب الله تعالى ، ويدل على ذلك الأمر ما يأتي:

أولاً : شهادة الرسول صلى الله عليه وسلم له بالإيمان.

ثانياً: جوابه للرسول صلى الله عليه وسلم لما دعاه إلى الاستعداد لغروة ذات السلاسل، فعن موسى بن على عن أبيه قال: سمعت عمرو بن العاص يقول: بعث إليَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «**خذ عليك ثيابك وسلاحك ثم ائتني**» فأتيته وهو يتوضأ فصعَّد فيَّ النظر ثم طأطأه فقال: «**إني أريد أبعثك على جيش فيسلمك الله ويغنمك، وأرغب لك من المال رغبة صالحة**» قال: قلت: يا رسول الله ما أسلمت من أجل

(١) المرجع السابق(٦٣٤-٦٤٢) القيادة العسكرية في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم .

المال، ولكني أسلمت رغبة في الإسلام ، وأن أكون مع رسول الله ﷺ فقال : « **يا عمرو نِعْمَ المال الصالح للرجل الصالح** » (١) .

ثالثاً: بكاؤه عند موته وخوفه من الله في تلك الوَلايات التي صارت إليه، وقد ورد في صحيح مسلم ما يدل على ذلك في حديث طويل: « عن ابن شماسة المهري قال: حضرنا عمرو بن العاص ﷺ وهو في سياق الموت، فبكى طويلاً وحول وجهه إلى الجدار... وفيه قال: ثم ولينا أشياء ما أدري ما حالي بها »(٢) .

ولقد ثبت أنه كان يدعو في آخر حياته بهذا الدعاء:

« اللهم إنك أمرتنا فأضعنا ، ونهيتنا فارتكبنا ، فلا بريء فأعتذر ، ولا عزيز فأنتصر ، ولكن لا إله إلا أنت ، وما زال يقولها حتى مات » (٣) .

ففي هذه البراهين الساطعة قطع لألسنة المتقولة الذين يتهمون عَمراً بأنه إنما آمن طمعاً في المال أوحبّاً للرياسة، وقد زيف الروافض في سيرة عمرو بن العاص ونسبوا إليه روايات ظلماً وزوراً ، ومن ذاك قصة التحكيم التي فنَّدها الإمام أبو بكر ابن العربي في كتابه النافع « العواصم من القواصم »، ففنَّد قاصمة التحكيم.

فقال في كتابه القيم: « وقد تحكم الناس في التحكيم فقالوا فيه ما لا يُرضي الله ، وإذا لاحظتموه في الكتب الأكثر عدم الدين ، وفي الأقل جهل بَيِّن، والذي يصح من ذلك ما روى الأئمة الثقات كخليفة بن خياط والدار قطني، أنه لما خرج الطائفة العراقية في مائة ألف ، والشامية في سبعين أو تسعين ألفاً ، ونزلوا

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٤/ ٢٠٢,١٩٧) وأخرجه الحاكم في كتاب البيوع، باب لا بأس بالغني لمن اتقى ثم قال: صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه وافقه الذهبي.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب كون الإسلام يهدم ما قبله، وهكذا الهجرة والحج، (١/ ١١٢) رقم (١٢١).

(٣) سير أعلام النبلاء (٣/ ٧٦).

على الفرات بصفين ، اقتتلوا أول يوم وهو الثلاثاء على الماء فغلب أهل العراق عليه، ثم التقوا يوم الأربعاء لسبع خلون من صفر سنة سبع وثلاثين، ويوم الجمعة وليلة السبت، ورفعت المصاحف من أهل الشام ودعوا إلى الصلح، وتفرقوا على أن تجعل كل طائفة أمرها إلى رجل، أبو موسى من جهة عليّ ﷺ ومن جهة معاوية عمرو بن العاص ، وكان أبو موسى رجلاً تقيّاً عالماً أرسله النبي ﷺ إلى اليمن مع معاذ، وقدمه عُمَرُ وأثنى عليه بالفهم ، وزعمت الطائفة التاريخية الركيكة أنه كان أبله ، ضعيف الرأي مخدوعاً في القول ، وأن عمرو كان ذا دهاء وأرب حتي ضربت الأمثال بدهائه تأكيداً ، لما أرادت من الفساد ، وتبع ذلك بعض الجُهال بغضاً وصنفوا فيه حكايات .

وإنما بنوا ذلك على أن عمراً غدر بأبي موسى في قصة التحكيم فصار له الذكر في الدهاء والمكر، وقالوا : إنهما لما اجتمعا بأذرع من دومة الجندل تفاوضا اتفقا على أن يخلعا الرجلين، فقال عمرو لأبي موسى : اسبق بالقول فتقدم فقال : إني نظرت فخلعت عليّاً من الأمر، ولينظر المسلمون لأنفسهم كما خلعت سيفي هذا من عاتقي، وقال عمرو : إني نظرت فأثبت معاوية على الأمر كما أثبت سيفي هذا في عاتقي وتقلده فأنكره أبو موسى فقال عمرو : كذلك اتفقنا وتفرق الجمع على ذلك الاختلاف .

ورد القاضي أبو بكر بن العربي عليه هذه الرواية ، وذكر عاصمة من تلك القاصمة ، فقال : هذا كله كذب صراح ما جرى منه حرف قط، وإنما هو شيء اخترعته المبتدعة ، ووضعته التاريخية ، فتوارثه أهل المجانة والجهارة بمعاصي الله (١) .

---

(١) انظر : العواصم من القواصم، لأبي بكر ابن العربي المالكي (١٧٥، ١٧٦، ١٧٧، ١٧٨، ١٧٩) .

نقد الرواية الباطلة في قضية التحكيم والتي طعن من خلالها عمرو بن العاص وأبو موسى الأشعري رضي الله عنهما :

ولما لحادثة التحكيم من أهمية في التاريخ السياسي للدولة الإسلامية، فإنه من الضروري إجلاء حقيقة وقائعها، حيث أسيء تصور هذا الحادث، بقدر ما أسيء تفسيره، فنتج عن الأمرين خلط كثير وإساءة إلى مكانة الصحابة وقدرهم، حيث باتت القصة الشائعة بين الناس عن حادث التحكيم تتهم بعضهم بالخداع والغفلة، وتتهم آخرين بالصراع حول السلطة ، وبإخضاع هذه الرواية للنقد والتحليل يلاحظ عليها أمران: ضعف سندها واضطراب متنها، وأما سندها ففيه راويان متهمان في عدالتهما ، أبو مخنف لوط بن يحيى، وأبو جنان الكلبي.

الأول : ضعيف ليس بثقة «أبومخنف لوط بن حيي».

قال فيه الإمام أبو حاتم : متروك ، وقال فيه الدارقطني: ضعيف، وقال فيه ابن معين: ليس بثقة، وقال فيه ابن عدي: شيعي محترف صاحب أخبارهم، وقال فيه الذهبي: أخباري تالف لا يوثق به [١] .

أما الثاني : أما أبو جنان الكلبي: قال فيه ابن سعد :كان ضعيفاً [٢] ، وقال البخاري وأبو حاتم: كان يحيي القطان يضعفه، وقال عثمان الدارمي: ضعيف، وقال النسائي: ضعيف [٣] .

يكفي أن في الرواية المذكورة وجود شيعي محترف طعن في عدالته أهل الجرح والتعديل، وهذا من ناحية النسد، أما من ناحية المتن فهناك أمورعدة تبطل الرواية والذي يهمنا في هذا المبحث أن القول بأن أبا موسى الأشعري كان في

---

(١) انظر: تحقيق مواقف الصحابة في الفتن، د. محمد أمحزون (٢/٢٥٣)..

(٢) ابن سعد في «الطبقات» (٦/٣٦٠).

(٣) انظر: تحقيق مواقف الصحابة في الفتن (٢/٢٥٣).

قضية التحكيم ضحية خديعة عمرو بن العاص ينافي الحقائق التاريخية الثابتة عن فضله وفطنته وفقهه ودينه، التي تثبت له بتوليه بعض أعمال الحكم والقضاء في الدولة الإسلامية منذ عهد الرسول ﷺ فقد استعمله النبي ﷺ على زبيد وعدن، واستعمله عمر ابن الخطاب رضي الله عنه على البصرة ، وبقي والياً عليها إلى مقتل عُمَرْ ، وكذلك استعمله عثمان بن عفان على الكوفة، وبقي والياً عليها إلى أن قتل.

إن مما يؤكد عدم صحة الرواية المذكورة عن قضية التحكيم أن العلماء انتقدوها ورووا خلافها في كتبهم، فقد أخرج الدارقطني عن حصين بن المنذر أنه جاء فضرب فسطاطه قريباً من فسطاط معاوية، فبلغ نبأه معاوية، فأرسل إليه، فقال: «إنه بلغني عن هذا – عمرو بن العاص – الذي بلغني عنه فأتيته فقلت له: أخبرني عن الأمر الذي وليت أنت وأبو موسى كيف صنعتما فيه؟ ، قال: قد قال الناس في ذلك ما قالوا، والله ما كان من الأمر على ما قالوا، ولكن قلت لأبي موسى: ما ترى في هذا الأمر؟ قال: أرى أنه في النفر الذين توفي رسول الله ﷺ وهو راضٍ عنهم، قلت: فأين تجعلني أنا ومعاوية؟ فقال: إن يستعن بكما ففيكما معونة ، وإن يستغن عنكما فطالما استغنى أمر الله عنكما » [1] .

وليس من شك في أمر الخلاف الذي رأى الحكمان رده إلى الأمة أو إلى أهل الشورى ليس إلا الخلاف بين عليّ ومعاوية حول قتلة عثمان ، وهو ما أطبقت على ذكره المصادر الإسلامية [2] .

إن سهام الروافض المسمومة وآرائهم المحمومة وجهت للطعن في عمرو بن العاص وأبي موسى الأشعري، وغيرهم من الصحابة وحرص المستشرقون على نشر الروايات المطعونة سنداً ومتناً وروّج لها أذنابهم من أهل الفكر الغربي والعلماني.

---

(١) العواصم من القواصم، لأبي بكر المالكي (ص ١٧٨) .

(٢) انظر: تحقيق مواقف الصحابة في الفتن(٢/ ٢٣٣) .

الحجة في عدالة الصحابيين الجليلين :

إن الصحابي الجليل أبا موسى الأشعري تولى أعمال الحكم والقضاء في الدولة الإسلامية منذ عهد رسول الله ﷺ على زبيد وعدن واستعمله عمر على البصرة، وبقي والياً عليها إلى أن قتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأقره عثمان رضي الله عنه على البصرة، ثم على الكوفة، وبقي والياً عليها إلى أن قُتِلَ عثمان، فأقره عليّ رضي الله عنه فهل يتصور أن يثق رسول الله ﷺ، ثم خلفاؤه من بعده برجل يمكن أن تجوز عليه مثل الخدعة التي ترويها قصة التحكيم؟ ، هذا وقد شهد الصحابة وكثير من علماء التابعين لأبي موسى رضي الله عنه بالرسوخ في العلم، والكفاءة في الحكم، والفطنة والكياسة في القضاء، فهذه شهادة عمر عن أنس قال: «بعثني الأشعري إلى عمر، فقال لي: كيف تركت الأشعري؟ ، قلت: تركته يُعلم الناس بالقرآن، فقال: أما إنه كيس ولا تسمعها إياه»[١] .

وقال الشعبي : كتب عمر في وصيته: «ألا يقرّ عامل أكثر من سنة، وأقروا الأشعري أربع سنين»[٢] .

وقد ثبت عن أبي موسى أيضاً أنه كان ممن حفظ القرآن كله على عهد الرسول ﷺ وكان من المشهورين بتعليمه للناس، فإذا علم أن مدار حياة الناس في ذلك العهد - في سلمهم وحربهم - كان على فقه القرآن والسنة، وعلمت مكانة أبي موسى من ذلك حتي خصه عمر بن الخطاب بكتابه المشهور في القضاء وسياسة الحكم[٣] فكيف يتصور غفلته إلى هذا الحد! ، فلا يفقه حقيقة النزاع الذي كلف بالحكم فيه، وصدر فيه قرار لا محل له، وهو قرار عزل الخليفة الشرعي بدون مبرر يسوغ هذا العزل ، وقرار عزل معاوية المزعوم ثم يقع منه ومن عمرو ابن

---

(١) ابن سعد الطبقات (٤ / ١٠٨) .

(٢) انظر: تحقيق مواقف الصحابة في الفتن (٢ / ٢٢٧) .

(٣) انظر: تحقيق مواقف الصحابة في الفتن (٢ / ٢٢٩) .

العاص ما نسب إليهما من السب والشتم، وهو أمر يتعارض مع ما عرف وتواتر عن الصحابة ﷺ من حسن الخلق وأدب الحديث بينهم ثم أن يخطئ الحكم في القضية التي أوكل إليه النظر في أمرها،ويرون ذلك أيضاً هو شأن عمرو بن العاص الذي يعتبر من أذكياء العرب وحكمائهم، وقد أمره رسول الله ﷺ أن يقضي بين خصمين في حضرته، وبشره حيث سأله: يا رسول الله: أقضي وأنت حاضر؟ بأن له إن أصاب أجران، وإن أخطأ أجر واحد حيث قال: «**إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب له أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر واحد** »(١) .

إن قبول تلك الرواية الرافضية الكاذبة طعن في ورع وتقوى ونزاهة الصحابي الجليل عمرو بن العاص الذي بيَّنت الأحاديث فضله وعمق إيمانه.

إن التاريخ الإسلامي أصبح غرضاً ومرمى لسهام أعداء الإسلام على مختلف مذاهبهم وعقائدهم، ويحاولون أن يوجدوا فجوة بين الإسلام وتاريخه الزاهر حتي يتسنى لهم عزل النشء عن الإسلام وشريعته وتراثه العلمي، ولذلك يبذلون قصارى جهدهم لنفث السموم في المجتمع الإسلامي.

لقد حاول المستشرقون ومن قبلهم الروافض أن ينشروا كل رواية باطلة تنقص من شأن الصحابة الكرام، وتطعن في تاريخ الأمة المجيد، وتصور تاريخهم بأنه صراع على السلطة والسيادة والنفوذ.

ولذلك يجب الحذر من كل رافضي كاذب ومستشرق عربيد وعلماني فاجر وكل من سار على نهجهم، ولا بد من الدفاع المستميت عن تاريخنا الخالد والهجوم الشجاع على أوكار الكذابين، ويكون هذا الهجوم المبارك بقذائف الحق العلمية المملوءة بالحقائق الساطعة والأدلة القاطعة والبراهين الدامغة.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الاعتصام (٨/ ١٥٧) رقم (٧٣٥٢)، ومسلم رقم (١٧١٦).

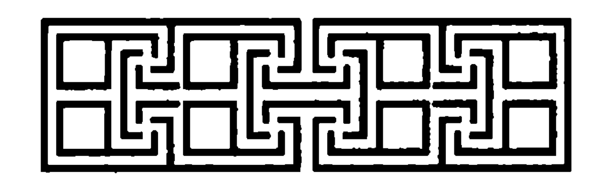
الفصل الثالث

تثبيت دعائم الإسلام في المنطقة

لقد كان من مقاصد حملة عمرو بن العاص رضي الله عنه لبرقة وطرابلس وبقية مناطق ليبيا، فتح البلاد وأزالة الطاغوت الروماني عن قلوب العباد حتى تتضح لهم السبل، وتتفرق لهم الطرق، وتصبح لهم حرية الاختيار: ﴿**لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾ [البقرة:٢٥٦] .

وبعد ذلك: ﴿**فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ**﴾ [الكهف:٢٩] .

ثم كان بعد ذلك الحملة المباركة التي كانت سبباً في دخول ذلك النور إلى تلك المناطق المظلمة بعبادة الأصنام والتقرب إليها بالقرابين، واتخاذ الأنداد والأرباب من البشر من دونه سبحانه وتعالى ، وإخراجهم من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد .



المبحث الأول

حملة عبد الله بن سعد على إفريقية

لقد تقرر في كتب التاريخ أن عمرو بن العاص ﷺ لما فتح ليبيا بداية ببرقة وانتهاء بطرابلس وصبراتة، رجع بعد ذلك إلى مصر حيث كانت ولايته ، ولما تولى عثمان بن عفان ﷺ خلافة المسلمين عزله عن ولاية مصر، وعقدها لعبد الله بن سعد بن أبي سرح الذي كان صاحب ميمنة عمرو بن العاص ، في فتوحاته الشامية والمصرية.

يقول الأستاذ محمود شيت: « كان عبد الله مع جيوش المسلمين التي فتحت أرض الشام، فلما سار عمرو بن العاص لفتح مصر، كان عبد الله قائداً للميمنة منذ توجه من « قيسارية » إلى أن فرغ من حربه، فشهد فتح مصر، وكان صاحب ميمنة عمرو بن العاص في فتوحاته، وفي حربه هناك كلها، وكان عمرو بن العاص يبعثه إلى أطراف « إفريقية » غازياً ويمده بالجنود فيعود من غزواته ظافراً غانماً » (١) .

يقول الدكتور صالح مصطفى: « وفي (سنة ٢٦ هـ/٦٤٦ م) عزل عمرو بن العاص ﷺ عن ولاية مصر واستعمل عليها عبد الله بن سعد ﷺ وكان عبد الله بن سعد يبعث جرائد الخيل ، كما كانوا يفعلون في أيام عمرو بن العاص فيصيبون من أطراف إفريقية ويغنمون » (٢) .

ويبدو لي أن جرائد الخيل هذه لم تكن داخلة ضمن الأهداف العامة للحملة التعليمية لترسيخ مبادئ وأُسس الدين الحنيف عند أهالي برقة وطرابلس، ولكن

---

(١) قادة فتح المغرب العربي (١ / ٥٤).

(٢) ليبيا من الفتح العربي حتى انتقال الخلافة الفاطمية (ص ٣٩).

هذه الجرائد كان تقصد إفريقية – تونس – تمهيداً لفتحها ومعرفة وضعها، فكان حال هذه الجرائد أشبه ما يكون بكتائب الاستطلاع التي تعتبر مقدمة الجيش وعيونه، فلمّا اجتمعت عند عبد الله بن سعد معلومات كافية عن إفريقية، من ناحية مداخلها ومخارجها، وقوتها وعددها ، وموقعها الجغرافي الاستراتيجي، كتب حينئذٍ إلى خليفة المسلمين عثمان بن عفان ﷺ يخبره بهذه المعلومات الهامة عن إفريقية، ويستأذن بناءاً على تلك المعلومات بفتحها، فكان له ما طلب.

يقول الدكتور صالح مصطفى: « ولما استأذن عبد الله بن سعد الخليفة عثمان ابن عفان في غزو إفريقية، جمع الصحابة واستشارهم في ذلك، فأشاروا عليه ففتحها ، إلا أبو الأعور سعيد بن زيد، الذي خالفه متمسكاً برأي عمر بن الخطابِ في ألا يغزو إفريقية أحد من المسلمين .

ولما أجمع الصحابة على ذلك، دعا عثمان للجهاد، واستعدت المدينة عاصمة الخلافة الإسلامية لجمع المتطوعين وتجهيزهم وترحيلهم إلى مصر، لغزو إفريقية تحت قيادة عبد الله بن سعد، وقد ظهر الاهتمام بأمر تلك الغزوة جليّاً فهذا يتضح من الذين خرجوا إليها من كبار الصحابة ، ومن خير شباب آل البيت، وأبناء المهاجرين الأوائل ، وكذلك الأنصار فقد خرج في تلك الغزوة، الحسن والحسين، وعبد الله بن الزبير، وابن عباس، وابن جعفر، وغيرهم.

هذا وقد خرج من قبيلة مهرة، وحدها في غزوة عبد الله بن سعد ستمائة رجل، ومن غنث سبعمائه رجل، ومن ميدعان سبعمائة رجل، وعندما بات الاستعداد تامًّا خطب عثمان فيهم ، ورغبهم في الجهاد، وقال لهم: « لقد استعملت عليكم الحارث ابن الحكم إلى أن تقدموا على عبد الله بن سعد فيكون الأمر إليه، وأستودعكم الله » ويقال: إن عثمان ﷺ قد أعان هذه الغزوة بألف بعير يحمل عليها ضعفاء الناس.

وعندما وصل هذا الجيش إلى مصر، انضم إلى جيش عبد الله بن سعد، وتقدم من الفسطاط تحت قيادة عبد الله ذلك الجيش الذي يقدر بعشرين ألفاً يخترق الحدود المصرية الليبية، وعندما وصلوا إلى برقة انضم إليهم عقبة بن نافع الفهري، ومن معه من المسلمين، ولم يواجه الجيش الإسلامي أية صعوبة أثناء سيرهم في برقة، وذلك لأنها ظلت وفية لما عاهدت المسلمين عليه من شروط زمن عمرو بن العاص، حتى إنه لم يكن دخلها جابي خراج ، وإنما كانت تبعث بخراجها إلى مصر في الوقت المناسب، مما يؤكد بقاء برقة على عهدها لعمرو بن العاص، وقد ذكر أنه سُمعَ يقول: « قعدت معقدي هذا، وما لأحد من قبط مصر على عهد إلا أهل انطابلس، فإن لهم عهداً يوفي لهم به» كما أن عبد الله بن عمرو بن العاص كان يقول:«لولا مالي بالحجاز لنزلت برقة، فما أعلم منزلاً أسلم ولا أعزل منها» [1] .

وهكذا أغَذَّ السير بهذه الحملة المباركة نحو إفريقية وكان ذلك بعد انضمام قوات عقبة بن نافع إليها، إلا أن سعداً قائد الحملة ما فتئ يرسل الطلائع والعيون في جميع الاتجاهات لاستكشاف الطرق وتأمينها، ورصد تحركات العدو وضبطها، تحسباً لأي كمين، أو مباغتة تطرأ على حين غفلة، فكان من نتائج تلك الطلائع الاستطلاعية أن تم رصد مجموعات من السفن الحربية تابعة للإمبراطورية الرومانية، حيث كانت هذه السفن الحربية قد رست في ساحل ليبيا البحري بالقرب من مدينة طرابلس، فما هي إلا برهة من الزمن حتى كان ما تحمله هذه السفن غنيمة للمسلمين، وقد أسروا أكثر من مائة من أصحابها، وتعتبر هذه أول غنيمة ذات قيمة أصابها المسلمون في طريقهم لفتح إفريقية.

يقول الدكتور صالح مصطفى بهذا الصدد: « وبعد انضمام عقبة بن نافع إلى هذا الجيش اتجه صوب إفريقية، وكان عبد الله بن سعد يرسل الطلائع في كل

---

(١) المرجع السابق: (ص٤٥).

الاتجاهات الضرورية، لاستطلاع أحوال المناطق المختلفة، وكانت هذه الطلائع تعود إلى القائد بالأخبار جالبة معها البقر والشياه وعلف الدواب، ولما دنا الجيش من طرابلس تقدمته إليها إحدى تلك الطلائع التي كان يرسلها عبد الله بن سعد، فوجد أفرادها مراكب للروم راسية على الساحل، فحملوا عليها وغنموا ما فيها وأسروا مئة من أصحابها، غير أنهم لم يتعرضوا للأهالي بشئ، وذلك لأنهم تحصنوا داخل مدينتهم، وكان هذه أول غنيمة أصابها المسلمون، وكانت هذه المراكب قد وصلت إلى طرابلس، إما للتجارة أو لتعزيز من كان لها من الروم، إلا أن طليعة الجيش الإسلامي حالت دون تحقيق أحد الهدفين، ولم يتحصَّنْ أهل طرابلس بها امتناعاً على ذلك الجيش، وإنما أخافتهم حادثة المراكب، فالتزموا بيوتهم خشية أن يأخذهم عبد الله بن سعد بتهمة التواطؤ مع السفن الرومية »[١] .

بيد أن عبد الله بن سعد رضي الله عنه اكتفى من أهالي مدينة طرابلس بذلك الموقف السلبي حيال تلك السفن الرومانية، حيث التزموا بيوتهم ولم يتفاعلوا مع ذلك الحدث، لذلك جد السير به إلى إفريقية، وبث طلائعه وعيونه في كل ناحية، حتى وصل جيشه إلى مدينة سبيطلة بأمان، وهناك التقى الجمعان، جيش المسلمين بقيادة عبد الله بن سعد، وجيش جرجير حاكم إفريقية، وكان تعداد جيشه يبلغ حوالي مائة وعشرين ألفاً، وكان بين القائدين اتصالات مستمرة، ورسائل متبادلة، فحواها عرض الدعوة الإسلامية على جرجير ودعوته للدخول في الإسلام، ويستسلم لأمر الله سبحانه، أو أن يدفع الجزية، ويبقى على دينه خاضعاً لسيادة الإسلام، ولكن كل تلك العروض رفضها وأصر واستكبر هو وجنوده!! فلما كان ذلك وضاق الأمر بالمسلمين فكر القائد عبد الله بن سعد، وقال لجنوده: أيها الناس عليكم بقتال من لا يؤمن بالله واليوم الآخر، عليكم

---

(١) المرجع السابق: (ص ٢٣).

بقتال هؤلاء ، فنشبت المعركة بين الجمعين وحمي الوطيس بينهما لعدة أيام ، حتى وصل مدد بقيادة عبد الله بن الزبير، وكانت نهاية هذا المستكبر الطاغي جرجير على يديه.

يقول الدكتور صالح مصطفى: « وصل جيش المسلمين إلى مدينة سبيطلة، وفي هذا المكان التقى جيش عبد الله بن سعد ، مع جيش جرجير الذي بلغ مائة وعشرين ألفاً، وتبودلت الرسائل بين القائدين، على أن يقبل جرجير الإسلام أو يدفع الجزية غير أنه رفض ذلك فضاق أمر المسلمين، واختلفوا مع عبد الله بن سعد في الرأي فدخل فسطاطه مفكراً، بينما تأهب جرجير، للحرب، وجعل ابنته على ديدبان وأقسم بأن من يقتل قائد المسلمين زوجه ابنته ، وكان ذلك تشجيعاً لجيشه على قتال المسلمين ، فبلغ ذلك عبد الله بن سعد ، فأقسم أن من يقتل جرجير نفسه نفله ابنته ، والتحم الجيشان وانتصر المسلمون، وقتل جرجير على يد عبد الله بن الزبير» [١] .

وبذلك كانت نهاية إفريقية إلا أن جرجير كان نصرانيّاً تابعاً لديانة الإمبراطورية الرومانية، لذلك لما وصل إلى الروم أخبار ما حل بجرجير وجنوده، أخذتهم الحمية ﴿**بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ**﴾ [المائدة: ٥١] وقرروا مقاتلة عبد الله بن سعد ومن معه، وأخذ الغنائم التي غنمها من إفريقية، فلما أحس عبد الله بن سعد بخطورة ذلك التجمع الروماني رأى رغبة منهم في إبرام الصلح نظراً لعدة نقاط عسكرية منها: بعد جيش المسلمين عن مركز الإمداد والنجدة، ومخافة تواطؤ قوى الروم والبربر ضده خاصة وأن المعركة التي كانت مع جرجير سقط فيها من الشهداء العدد الكثير، ولكن قبل إبرام الصلح معهم أرسل إلى نائبه على مصر يطلب منه إرسال سفن إليه في أقرب وقت ممكن لحمل الغنائم التي غنمها من إفريقية.

---

(١) المرجع السابق: (ص٤٥).

يقول الدكتور صالح مصطفى: « فلما رأى الروم الذين بالساحل ما حل بجرجير وأهل سبيطلة، غارت أنفسهم وتجمعوا، وكاتب بعضهم بعضاً في حرب عبد الله بن سعد إياهم، فخافوا وراسلوه، وجعلوا له جعلاً على أن يرتحل بجيشه، وألا يعترضوه بشيء ، ووجهوا إليه ثلاثمائة قنطار من الذهب في بعض الروايات، وفي البعض الآخر مائة قنطار، جزية في كل سنة على أن يكف عنهم ويخرج من بلادهم، فقبل ذلك منهم وقبض المال، وكان في شرط صلحهم أن ما أصاب المسلمون قبل الصلح فهو لهم، وما أصابوه بعد الصلح ردوه عليهم، وانصرف راجعًا إلى مصر بعد أن أقام بإفريقية سنة وثلاثة أشهر، أو سنة وشهراً في رواية أخرى » (١) .

ويقول أيضاً: « وتذكر الرواية أنه عندما وصل إلى طرابلس وافته المراكب فحمل فيها أثقال جيشه، وقصد هو وأصحابه إلى مصر سالمين، ووجه إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه بالأموال التي معه من الخمس وغيره، ومن المرجح أن تكون السفن التي وافته في طرابلس من السفن التي غنمها المسملون في سورية والإسكندرية، إذ يذكر إرشيبالبد : أنه قد سهل على العرب بفضل استيلائهم على دور الصناعة البيزنطية في الإسكندرية وسورية أن تكون لديهم سفن حربية وإما حاضرة إما سهلة الإنشاء » (٢) .

بيد أن هناك روايات تنص على عودة عبد الله بن سعد لإفريقية بعد وصوله إلى مصر، وذلك حين نقض أهلها العهد، وكانت ذلك في سنة ثلاث وثلاثين، فانتصر عليهم وقام بتثبيت دعائم النظام الإسلامي هناك، وأقر أهلها على الإسلام والجزية.

---

(١)، (٢) نفس المصدر السابق (٤٦) .

المبحث الثاني

فاتح إفريقية «تونس» في سطور

المطلب الأول

اسمه، وإسلامه، ووفاته

اسمه: عبد الله بن سعد بن أبي السرح بن حبيب بن حذيفة بن حسل بن عامر بن لؤي القرشي العامري ، **ويكنى**: أبا يحيى، واسم أبي السرح الحسام، وأمه أشعرية، واسمها مهابة بنت جابر الأشعرية ، أرضعت عثمان بن عفان ، فعبد الله بن سعد أخو عثمان بالرضاعة.

إسلامه: أسلم عبد الله قديماً وهاجر إلى المدينة المنورة، فهو من السابقين الأولين، وكان يكتب الوحي لرسول الله ﷺ ثم افتتن وخرج من المدينة إلى مكة، ولما فتح المسلمون مكة المكرمة، عهد رسول الله ﷺ إلى المسلمين بقتل نفر من الكفار سماهم وإن وجدوا تحت أستار الكعبة، منهم عبد الله بن سعد، ففر ابن سعد إلى أخيه بالرضاعة عثمان رضي الله عنه فاستأمن له رسول الله ﷺ فأمنه فأسلم عبد الله ذلك اليوم وحسن إسلامه ، ولم يظهر منه بعد ذلك ما ينكر عليه.

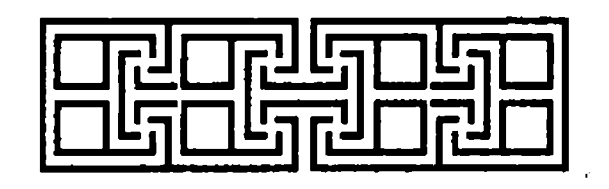
ولقد بايعه رسول الله ﷺ يومئذٍ على الإسلام وقال: الإسلام يجب ما قبله، ولكن عبد الله كان يفر من رسول الله ﷺ أينما رآه خجلاً منه ، فذكر ذلك عثمان لرسول الله ﷺ فقال: **[الإسلام يجب ما كان قبله]** فكان عبد الله بعد ذلك يجلس مع رسول الله ﷺ وحسن إسلامه بعد ذلك وعرف فضله وجهاده، فأصبح وثيق الإيمان كامل الشعور بجلال الإسلام وتبعاته، وكل قول يخالف ذلك لا قيمة له من الناحية التاريخية الصحيحة [١] .

---

(١) انظر: قادة فتح المغرب العربي (جـ١/٥١، ٥٢، ٥٣).

وفاته : وبعد الفتنة التي انتهت بمقتل الخليفة الراشد عثمان بن عفان ﷺ اعتزل عبد الله بن سعد الناس، وأقام بمدينة عسقلان معتكفاً عن اللذات ، واستعداداً للرحيل من هذه الدنيا الفانية إلى الآخرة الباقية ، وكان من دعائه في تلك الخلوة : « اللهم اجعل خاتمة عملي صلاة الصبح » ، وقد استجاب الله سبحانه لهذا الرجل الصالح المجاهد ، ففي ذات يوم عند طلوع الفجر توضأ، ثم صلى الصبح ، فقرأ في الركعة الأولى بفاتحة الكتاب والعاديات ، والثانية فاتحة الكتاب وسورة أخرى، ثم سلم عن يمينه، ثم ذهب ليسلم عن يساره، فقبض الله روحه وكان له ما أراد .

وكان ذلك (سنة ٣٦ هـ/٦٥٦م) ، ودفن بموضع معروف يقال له مقابر قريش بعسقلان في الشام، إلا أن صاحب كتاب « الفوائد الجلية في تاريخ العائلة السنوسية » عبد الملك بن عبد القادر بن علي، يذهب إلى أنه دفن في أوجلة في إحدى واحات ليبيا، ولا يخفى أن ما ذهب إليه صاحب كتاب « قادة فتح المغرب العربي » أصح من حيث ترجيح الرواية وضبط التواريخ والآثار [١] .



(١) قادة فتح بلاد المغرب (١ / ٦٤،٦٥) .

المبحث الثالث

مناقب عبد الله بن سعد رضي الله عنه

لا ريب أن عبد الله بن سعد رضي الله عنه كان صاحب ميمنة عمرو بن العاص في فتوحاته لأرض الشام ومصر، بل كان يرسله يقود حملات جهادية بنفسه على جنوب وغرب مصر من أراضي إفريقيا، التي كانت فيما بعد سبباً لفتح ليبيا وتونس، وبلاد المغرب، والسوادان وماحوله، لذلك فعلى هذه الشعوب أن تذكر هذا الرجل صاحب الفضل عليها بعد الله سبحانه ، بأفضل ما يذكر به الخلف الصالح سلفهم الصالح فهو الذي كان سبباً في دخول الإسلام لتلك البلاد وقلوب العباد، وكفى بذلك شرفاً ومنقبة، لذا نحاول أن نتناول بإيجاز ذكر بعض مناقب هذا القائد الصحابي الجليل في مسيرته الجهادية الدعوية.

المطلب الأول

جهاده في مصر

يقول الأستاذ محمود شيت خطاب: «كان عبد الله مع جيوش المسلمين التي فتحت أرض الشام، فلما سار عمرو بن العاص لفتح مصر، كان عبد الله معه قائداً للميمنة منذ توجه من قيسارية إلى أن فرغ من حربه، فشهد فتح مصر وكان صاحب ميمنة عمرو بن العاص في فتوحاته وفي حروبه هنالك كلها، وكان عمرو بن العاص يبعثه إلى أطراف إفريقية غازياً ويمده بالجنود فيعود من غزواته ظافراً غانماً» [١] .

---

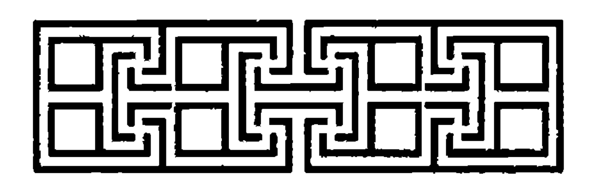
(١) المرجع السابق: (١/ ٥٣،٥٤).

المطلب الثاني

جهاده في إفريقية

يقول الأستاذ محمود شيت خطاب:

«لما ولي عبد الله بن سعد مصر والمغرب بعث المسلمين في جرائد الخيل، فأصابوا من أطراف إفريقية وغنموا، وكتب عبد الله إلى عثمان بن عفان وأخبره بقرب إفريقية من بلاد المسلمين، واستأذنه في غزوها واستشار عثمان من عنده من الصحابة، فأشار أكثرهم بالإقدام على غزو إفريقية، فوجه عثمان العساكر من المدينة في خلق كثير كان منهم عبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن جعفر، والحسن الحسين ﷺ، لذلك سمي هذا الجيش بجيش العبادلة، وسار عبد الله بن سعد بجيشه البالغ تعداده عشرين ألفاً، سنة ست وعشرين، وسار عبد الله إلى إفريقية، فلما وصلوا إلى برقة لقيهم عقبة بن نافع ومن معه من المسلمين – وكان عقبة ومن معه حامية هناك – فساروا جميعاً إلي طرابلس الغرب فقاتلوا من عندها من الروم ... ولقد افتتح عبد الله بن السرح إفريقية سهولها وجبالها، وفتح الله على يديه فتحاً عظيماً وانتصر على ملك البربر جرجير في موقعة سبيطلة، وأذلت تلك الواقعة أهل إفريقية وأصابهم رعب شديد، فإذا كان كل ذلك ليس فتحاً مستداماً، بل غارة فكيف يكون الفتح؟!!» [١].



(١) المرجع السابق: (١/٥٣،٥٤)

المطلب الثالث

جهاده في قبرص

يقول الأستاذ محمود شيت خطاب: « وفي سنة ثمان وعشرين للهجرة، أجاب عثمان بن عفان معاوية بن أبي سفيان حين كان على أرض الشام إلى فتح قبرص، وقال له: لا تنتخب الناس ولا تقترع بينهم! خيرهم فمن اختار الغزو طائعاً فاحمله وأعنه، فسار المسلمون من الشام إلى قبرص، وسار إليها عبد الله بن سعد من مصر فاجتمعوا عليه ، فصالحهم على جزية قدرها سبعة آلاف دينار كل سنة، وفتح المسلمون قبرص وكان لعبد الله فضل كبير في فتحها » (١) .

المطلب الرابع

جهاده في بلاد النوبة

يقول في موضع آخر: « بعث عمرو بن العاص عقبة بن نافع لفتح النوبة، فقاتل المسلمون بالنوبة قتالاً مريراً ، إذ كان أهلها ماهرين برمي السهام ، فرشقوا المسلمين بالنبل حتي جرح عامتهم، فانصرفوا بجراحات كثيرة وحدق مفقودة ولم يصالحهم عمرو بن العاص، ولم يزل يهاجمهم بن حين وآخر حتى عزل عن مصر وولي ابن سعد فغزاهم سنة إحدى وثلاثين هجرية، فقاتله الأساود من أهل النوبة قتالاً شديداً، فأصيبت يومئذٍ عيون كثيرة من المسلمين، فقال شاعرهم:

لم تر عيني مثل يوم دُمقلة والخيل تعدو بالدروع مثقلة

فسأل أهل النوبة عبد الله بن سعد المهادنة، فهادنهم وعقد لأهل « مقرة » بعد دخول جيش المسلمين « دنقلة » عقداً يضمن استقلال بلادهم ويحقق للمسلمين الاطمئنان إلى حدودهم الجنوبية وفتح النوبة للتجارة والحصول على عدد من

(١) قادة الفتح لبلاد المغرب (١ / ٦١،٦٢،٦٣).

الرقيق في خدمة الدولة الإسلامية ، وقد اختلط المسلمون بالنوب والبجة ، واعتنق كثير منهم الإسلام » (١) .

المطلب الخامس

جهاده في إفريقية ثانياً

ويقول أيضاً : « وفي سنة ثلاث وثلاثين هجرية، أعاد عبد الله الكرة على إفريقية حين نقض أهلها العهد ، فانتصر عليهم وأعاد النظام إلى ربوعهم، وأقرهم على الإسلام » (٢) .

المطلب السادس

جهاده في البحر (غزوة ذات الصواري)

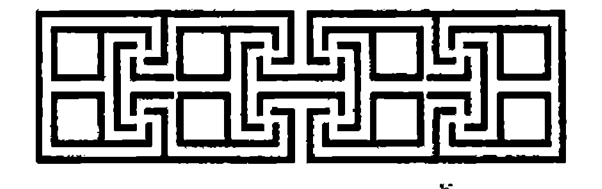
وقال أيضاً: « وفي سنة إحدى وثلاثين هجرية غز عبد الله غزوة: ذات الصواري في البحر من ناحية الإسكندرية، فلقيه قسطنطين بن هرقل في جمع لم تجمع الروم مثله مذ كان الإسلام، فخرجوا في خمسمائة مركب أو ستمائة والمسلمون في مائتي مركب، وحين علم عبد الله بخبر قدوم الروم بهذا الحشد الكثيف، قام بين ظهراني الناس فقال: « بلغني أن ابن هرقل قد أقبل إليكم في ألف مركب، فأشيروا عليَّ ! فما كلمه رجل من المسلمين!! فكرر عليهم طلب الاستشارة فأجاب في المرة الثالثة رجل من أهل المدينة كان متطوعاً مع عبد الله بن سعد فقال: « أيها الأمير إن الله جل ثناؤه يقول: ﴿**كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾ [البقرة:٢٤٩] ، فقال عبد الله: اركبوا باسم الله،

(١) المرجع السابق: (١/ ٦١).
(٢) نفس المصدر السابق: (١/ ٦٣).

فركبوا، وإنما كان في كل مركب نصف شحنته، إذ قد خرج النصف الآخر إلى البر للقتال في منطقة أخرى ، قدم أهل الشام وعليهم معاوية بن أبي سفيان، وعلى البحر عبد الله بن سعد، وكانت الريح على المسلمين ، فأرسى المسلمون والروم، وسكنت الريح، فقال المسلمون : الأمان بيننا وبينكم، فباتوا والمسلمون يقرءون القرآن ويصلون، وأصبحوا وقد أجمع الروم أن يقاتلوا ، وقربوا سفنهم وقرب المسلمون سفنهم، فربطوا بعضها إلى بعض، وصف عبد الله بن سعد المسلمين على نواحي السفن وجعل يأمرهم بقراءة القرآن، ويأمرهم بالصبر.

واقتتل الطرفان بالسيوف والخناجر، فقُتِلَ من المسلمين بشر كثير، وقتل من الروم ما لا يُحصى، وصبر المسلمون يومئذٍ صبراً لم يصبروا مثله في موطن قط، فجرح قسطنطين ملك الروم وقائدهم في هذه المعركة فانهزموا، ولم ينج منهم إلا الشريد، في هذه المعركة بالذات تعرضت حياة عبد الله لخطر داهم، فقد قرن مركبه بمركب من مراكب الروم، فكاد مركب العدو يجر مركب عبد الله إليهم، إلا أن أحد رجاله ضرب السلسلة التي تربط المركبين بالسيف ، فقطعها وبذلك نجا عبد الله من الموت أو الأسر.

لقد أظهر عبد الله في معركة « ذات الصواري » بطولة فائقة ، تلك االغزوة التي أبعدت خطر الروم بعد اندحارهم عن مصر وأرض الشام » [١] .



(١) **انظر** : أسد الغابة لمعرفة الصحابة (٣/ ١٥٦)

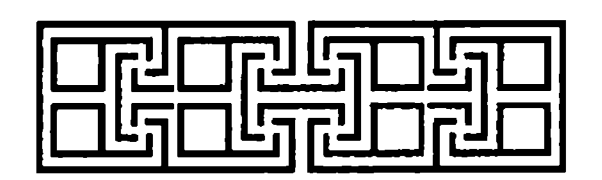
المبحث الرابع

مبادئ في الاستراتيجية العسكرية

لقد تقدم - فيما سبق - أن هذا القائد والصحابي الجليل عبد الله بن سعد صاحب تلك المعارك العظيمة، كان قديراً في وضع الاستراتيجيات الهادية، والقواعد العسكرية ، ومن تلك المبادئ والقواعد التي أسس بنيانها هذا الصحابي الجليل في حياته الجهادية منها : إتقان إدارة الجيش كمّاً وكيفاً، استقرار المؤخرات، حشد القوى، الاقتصاد في القوى، التعرض، الاستعلام والاستطلاع، إعداد الخطة البديلة، المحاربة في ميادين القتال، المناورة الحربية .

يقول اللواء الركن محمود شيت خطاب بهذا الصدد :

« وكان قديراً على وضع الخطط العسكرية المناسبة وكان يحرص على إنجاز استعداداته الضرورية قبل كل معركة يخوضها، ويجيد تحشيد قواته ، ويكمل قضاياها الإدارية ، ويرسل العيون والأرصاد لتزويده بأنباء العدو المفصلة ، كل ذلك يساعده على وضع خطة مُثلَى تؤمن له النصر المبين » [(١)] .



(١) المرجع السابق (١ / ٧٣) .



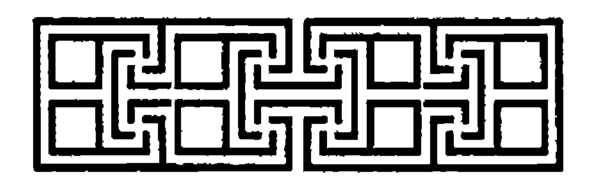
المبحث الخامس

أهم صفاته القيادية

لقد كان عبد الله بن سعد رضي الله عنه ذا مؤهلات قيادية عالية المستوى، تؤهله أن يكون قائداً لتلك الفتوحات المباركة، أو يخوض غمار تلك المعارك الطاحنة خاصة معركة « ذات الصواري » ومن تلك الصفات القيادية التي كان يتحلى بها: الشجاعة ، وعدم الاستبداد بالرأي ، وكثرة استشارته لإخوانه، وقبوله للرأي الثاني والانصياع له بكل رحابة صدر ، وكان لا يتأثر بكلام الناس ، ويفضل أن يكون غازياً لا والياً.

يقول الأستاذ محمود شيت خطاب :

« وكان يمتاز باستشارة ذوي الرأي من رجاله قبل المعركة وفي أثنائها ، ولا يأنف أبداً من الانصياع للرأي الصائب بكل رحابة صدر، بل كان يشجع كل من له رأي سليم على إظهاره ليطبقه فوراً، وتلك ميزة صاحب الشخصية الرصينة القوية التي لا تؤثر عليها تقولات الناس، والظاهر من سير معاركه التي خاضها أنه كان يؤثر أن يكون في ساحات القتال غازياً ، على أن يكون في القصور والياً » [١] .



(١) نفس المصدر (١/ ٧٣).



المبحث السادس

أعماله في عهد الخليفتين عمر و عثمان رضي الله عنهما

لقد تولى عبد الله بن سعد رضي الله عنه أعمالاً كثيرة ومناصب عظيمة، ففي عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ولاه الصعيد المصري وفي عهد الخليفة الراشد عثمان رضي الله عنه ولاه مصر كلها، وكان ذلك (سنة ٢٥ هـ) .

أما المناصب القيادية الميدانية التي باشرها عبد الله بن سعد، منها ولاية الميمنة في جيش عمرو بن العاص، وولاية قيادة جيش فتح إفريقية، وكل ذلك كان في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنهم أما في عهد عثمان بن عفان فقد ولاه قيادة فتوحات أرض النوبة، ومدينة قبرص وغيرها.

يقول الأستاذ محمود شيت خطاب : « وتولى عبد الله – صعيد – مصر بعد فتحها، وكان عمر بن الخطاب هو الذي ولاه الصعيد، فعقد عثمان بن عفان لعبد الله على مصر كلها مضافاً للصعيد وغيره، وعزل عمرو بن العاص عن مصر، وكان ذلك سنة خمس وعشرين هجرية ... » (١) .

وأخيراً:

يبقى التاريخ دائماً وأبداً ذاكراً لعبد الله بن سعد رضي الله عنه فتحه لبلاد تونس الخضراء، وشرقي الجزائر، وقبرص، والنوبة، ونشره لدعوة الإسلام في تلك الربوع، كما أنه يذكر له معاركه البحرية بالتقدير والإعجاب خاصة معركة ذات الصواري، ويذكر له أنه قضى حياته كلها مجاهداً لإعلاء كلمة الله ، رضي الله عنه من صحابي جليل ، فهو الإداري الحازم ، والبطل الشجاع ، والقوى الأمين ، والقائد الفاتح » (٢) .

---

(١) ، (٢) المرجع السابق: (١/ ٧٤) .

الفصل الرابع

معاوية بن حديج وأبرز معالم عهده

توطئة :

بعد أن عاد عبد الله بن سعد ﷺ إلي مصر من غزوة ذات الصواري (عام ٣٥هـ) حيث علم بخبر فتنة الخروج على خليفة المسلمين عثمان بن عفان ﷺ فلما علم ذلك خرج من مصر متوجهاً إلى المدينة حيث عاصمة الخلافة ومقر الخليفة، ولكن ما لبث في المدينة إلا قليلاً ، حتى وافاه خبر مقتل عثمان بن عفان ﷺ ثم استخلف من بعده الإمام عليّ بن أبي طالب ﷺ الذي بدوره أعاد ترتيب ولاته وعماله في المنطقة ، فكان من ضمن أولئك عبد الله بن سعد حيث ولى قيس بن سعد بن عبادة والياً مكانه .

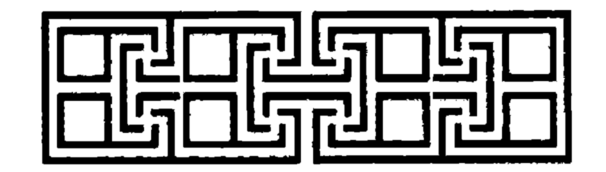
وهكذا كان والي مصر عبد الله بن سعد القائد الجندي ، الذي لم يتأثر بتلك المناصب التي قلما ينزل عنها بشر بيسر إلا إذا كان من أولي التقى والنهي، ونحسب أن فاتح إفريقية من أولئك والله حسبه ، لذلك عندما أحس بنشوب الفتنة بين المسلمين اختار مدينة عسقلان التي كانت بعيدة عن مواطن الفتنة مكاناً لخلوته يتعبد الله فيها، حتي توفاه الله وهو في آخر ركعة من صلاة الصبح، فرضي الله عنه وأرضاه، وأدخله فسيح جناته، اللهم أمين.

ثم توالت الأحداث واستلم معاوية بن أبي سفيان ﷺ مقاليد الخلافة (سنة٥١ هـ/٦٦٥م) حيث عزل فيها عبد الله بن عمرو بن العاص والي مصر للمرة الثانية عن منصبه ، وعين معاوية بن حديج والياً على مصر ، وعقبة بن نافع عاملاً على إفريقية.



يقول الدكتور صالح مصطفى :

« أما بالنسبة (سنة٥٠هـ/ ٦٧٠م)، وذلك بعد أن عزل معاوية بن أبي سفيان عبد الله بن عمرو بن العاص عن مصر ، وولاها معاوية بن حديج ، وفي السنة التي تليها (٤٨هـ / ٦٦٨م) كان معاوية بن حديج عاملاً على مصر وإفريقية إلي أن عزله معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه عن ولاية إفريقية وأقره على ولاية مصر فقط (سنة ٥٠هـ/ ٦٧٠م) هذا فضلاً على أنه في هذه الفترة كان عقبة بن نافع في إفريقية [(١)] .



(١) ليبيا منذ الفتح العربي حتى انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر (٤٨).

المبحث الأول

حملة معاوية بن حديج على ليبيا وإفريقية

لقد تقدم فيما مضى أن معاوية بن أبي سفيان خليفة المسلمين قد عين معاوية ابن حديج والياً على مصر ، ولما استقرت سلطة الخلافة كلف معاوية بن حديج أن يتوجه إلى إفريقية نظراً لخبرته بها وسابقة العلم الجهادية فيه ، وكان جيشه تعداده قرابة عشرة آلاف مقاتل ، وكان الجيش الإسلامي يضم في صفوفه أكابر فقهاء الصحابة وتابعيهم أمثال : عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الملك بن مروان ، ويحيي بن أبي الحكم بن العاص وغيرهم .

يقول الدكتور صالح مصطفى: « أما في (سنة ٤٥ هـ/ ٦٦٥ م) فقد أرسل معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه بعد أن توطدت سلطته في الخلافة معاوية بن حديج إلى إفريقية في عشرة آلاف مقاتل ، وكان معه عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الملك بن مروان ، ويحيي بن أبي الحكم بن العاص ، وعدة من أشراف قريش » [١] .

ولقد ذكر في كتب التاريخ أن هذا الجيش الإسلامي بقيادة معاوية بن حديج رضي الله عنه كان قد تحرك من مصر متجهاً إلى إفريقية عبر الأراضي الليبية التي كان قد رابط بها كل من عقبة بن نافع وشريك بن سمي رضي الله عنهما ، لذلك لم يجد جيش معاوية عند مروره بالأراضي الليبية كبير عناء ، بل لم يذكر أحد من المؤرخين أن معاوية وجيشه الإسلامي لقي أية مقاومة من الشعوب القاطنة في الأراضي الليبية ، ونظراً لالتزامهم إما بالإسلام ، أو بالجزية أو العهد .

وبعد عبوره منطقة طرابلس وحدودها توجه إلى تونس التي تعتبر القصد

---

(١) المرجع السابق : (٥٠) .

الأول من حملته المباركة ، وكانت استراتيجيته في تلك الحملة المباركة السيطرة على مفاصل إفريقية الثلاثة : بنزرت ، وسوسة ، وجلولاء.

وهكذا كانت البداية فقصد معاوية بجيشه إلي سبيطلة، وسبقته أخباره، وبلغ قيصر الروم خبر هذا الغزو، فأرسل نجدة إلي قرطاجنة عن طريق البحر، والتقى المسلمون بالروم والبربر بقرب (الجم) فهزموهم، واستعد الروم للقائه في جلولاء، ليكون دفاعهم عن سبيطلة في مواقع بعيدة عنها، وهناك جمعوا جيشاً لا يقل عن ثلاثين ألف مقاتل، وتواقع الفريقان خارج أسوار المدينة، ولم يلبثوا أن رجحت كفة المسلمين على الروم، فدخلوا المدينة منهزمين وتحصنوا وراء أسوارها، وحاول المسلمون اقتحامها عليهم فلم يقدروا وجرح عامتهم واستشهد كثير منهم فتركوها.

ولكن لا يعلم جنود ربك إلا هو فبينما هم راجعون منها إذ بأحد أسوار المدينة قد تهدم وسقط دون أي عامل بشري، الله أكبر فتحت جلولاء، فرجع معاوية بجيشه المبارك مسارعين ودخلوا المدينة عنوه، وفر منها من نجا من القتل والأسر، وغنموا كل ماحوته المدينة، وكانت هذه الغنيمة من أكبر غنائم إفريقيا في الفتح الإسلامي [١] .

ثم واصل معاوية حملته المباركة للسيطرة على مفاصل إفريقيا، فقد بث السرايا في البلاد، وبعث عبد الله بن الزبير إلي مدينة سوسة البحرية التي ما استطاعت مقاومة قوات ابن الزبير ففتحها وثبت فيها دعائم الإسلام، وهكذا واصل معاوية رضي الله عنه عمله الاستراتيجي الذي يهدف إلى السيطرة على المدن الحيوية والاستراتيجية التي تعتبر مفاصل إفريقيا، فبعث رويفع بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه إلى مدينة جربة الاستراتيجية ففتحها.

---

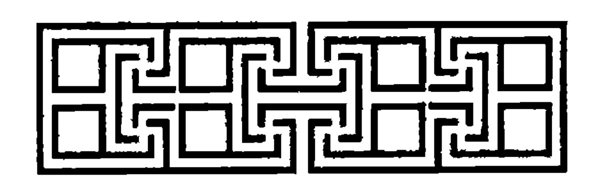
(١) راجع: الفتح العربي في ليبيا (ص ٩٩) .

وبعد أن استتب الأمن في إفريقيا اتجه معاوية ﷺ إلى جبل القرن الذي يسمى اليوم بجبل وسلات، واتخذ منه مقرّاً لقيادته لمنطقة إفريقيا، وبنى بتلك الناحية مساكن سماها قيروان، واحتفر بها آباراً تسمى باسمه (آبار حديج)، وأقام في هذا الجبل قرابة ثلاث سنين .

يقول الأستاذ محمود شيت خطاب« واستقر معاوية في جبل القرن وجعله مقراً له، فبقي هناك ثلاث سنين ، وبنى بناحية القرن مساكن سماها : قيروان، واحتفر بها آباراً تسمى آبار حديج ، وهذه الآبار خارج باب تونس منحرفة عنه إلى الشرق عند مصلى الجنائز » [١] .

وأخيراً :

عاد معاوية بن حديج ﷺ بعد ذلك إلى مصر بناءً على أمر من خليفة المسلمين معاوية بن أبي سفيان ﷺ بعد أن قام بتثبيت دعائم الإسلام في المنطقة، وأسس القواعد الأولي لفتح أوربا، وتبليغ دعوة الإسلام إليها، وهكذا سطر التاريخ لمعاوية ﷺ بماء الذهب تلك الآثار الطيبة في الشمال الإفريقي، فاللهم ارضَ عنه وادخله فسيح جنتك ، آمين.



(١) قادة فتح المغرب العربي (١ / ٨٠)

المبحث الثاني

معاوية بن حديج في سطور

المطلب الأول

اسمه، نسبه، وفاته

اسمه ونسبه: معاوية بن حديج بن جفنة بن قَتِيرة بن حارثة بن عبد شمس بن معاوية بن جعفر بن أسامة بن سعد بن أشرس بن شبيب بن السكون السكوني، يكنى: أبا نعيم: وقيل: أبا عبد الرحمن.

وقيل: إنه من حلوان وليس بشيء، والصحيح أنه سكوني، أما قولهم: إنه سكوني، وقيل: تجيبي، وقيل: كندي، فمن يرى هذا يظنه تناقضاً، الحقيقة: أن السكوني من كندة وولد السكون شبيباً، فولد شبيب أشرس، فولد أشرس عدياً، وسعداً، وأمهما: تجيب بها يعرف أولادهما، فكل تجيبي سكوني، وكل سكوني كندي، فمن نسبه إلي جده الأقرب قال: وكلاهما صواب، وأمه كبشة بنت معدي كرب الشاعرة.

صحب النبي ﷺ وروى عنه حديث: «**إن كان في شيء شفاء فشربه عسل، أو شرطة محجم، أو كية نار، وما أحب أن أكتوي**» (إسناده صحيح)، وهاجر إلي أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ووفد على عمر بن الخطاب رضي الله عنه والظاهر أنه كان صغيراً على عهد النبي ﷺ فلم يشهد غزواته لذلك نال معاوية شرف الصحبة، وما أعظمه من شرف، ولم ينل شرف الجهاد تحت لواء الرسول القائد ﷺ (١).

---

(١) المرجع السابق: (١/ ٧٦).

وفاته رضي الله عنه :

وفي سنة خمسين من الهجرة عزل معاوية بن أبي سفيان معاوية بن حديج رضي الله عنهما عن إفريقيا ، وأقره على ولاية مصر، ووجه إلى إفريقيا عقبة بن نافع الفهري، ثم عزله عن مصر سنة إحدى وخمسين الهجرية، فمات بها (سنة اثنتين وخمسين هجرية – ٦٧٢م) (١) .

المطلب الثاني

مناقبه رضي الله عنه

لا يخفى أن معاوية بن حديج رضي الله عنه قد صاحب عمرو بن العاص رضي الله عنه في فتوحاته لأرض مصر والإسكندرية، وكان محل ثقته، وأهل لمشورته ورسوله الخاص لخليفة المسلمين عمر بن الخطاب رضي الله عنه لذلك كان محل ثقة عمر بن الخطاب رضي الله عنه كذلك، وهذا إن دل فإنما يدل عي أن معاوية بن حديج كان من الشخصيات القيادية الهامة صاحبة المؤهلات الجهادية والقيادية في جيش عمرو ابن العاص، لذا سنحاول أن نتناول بإيجاز معالم هذه الشخصية، ومناقبها الجهادية ، وعقليتها العسكرية.

[١] جهاده في مصر والنوبة:

﴿ أ ﴾ شهد ابن حديج فتح مصر مع عمرو بن العاص، وكان رسوله إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه بفتح مصر والإسكندرية، وقد ذكر معاوية بن حديج قصة وفادته إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه بفتح الإسكندرية فقال: «بعثني عمرو

(١) المرجع السابق: ([illegible] ٨٧).

ابن العاص إلى عمر بن الخطاب بفتح الإسكندرية، فقدمت المدينة المنورة في الظهيرة .. فلما دخلت فإذا عمر بن الخطاب يتناول رداءه بإحدى يديه ويشد إزاره بالأخرى ، فقال: ما عندك ؟ ، قلت: خير يا أمير المؤمنين، فتح الله الإسكندرية ...».

ولا يخفى أن إيفاد معاوية بشيراً بالفتح دليلٌ على ثقة عمرو به واعتماده عليه وأنه كان شخصية لامعةً - في جيش المسلمين الذي فتح مصر- في جهاده وعقله ومنطقة وتصرفه، كما أنه يكون دليلاً على أنه كان مقبولاً من عمر بن الخطاب، إذ لايمكن أن يبعثه عمرو دون أن يكون موضع ثقة عمر وتقديره.

﴿ ب ﴾ وفي سنة إحدى وثلاثين هجرية شهد ابن حديج فتح النوبة تحت لواء عبد الله بن سعد بن أبي السرح، فذهبت عينه يوم دنقلة من بلاد النوبة، فأصبح أعوراً، وياله من وسام جهادي يقابل به الله يوم لا ينفع مال ولا بنون [١].

[٢] جهاده في إفريقيا :

غزا ابن حديج إفريقيا ثلاث مرات، الأولى: سنة أربع وثلاثين هجرية في خلافة عثمان بن عفان، حيث كان عبد الله بن سعد بن أبي السرح والياً على مصر، وكان معه جماعة من المهاجرين والأنصار، ففتح مناطق شاسعة وغنم غنائم عظيمة واتخذ قيروان عند القرن، ولم يزل فيها حتى خرج إلى مصر.

وغزا معاوية إفريقيا سنة إحدى وأربعين هجرية ، ففتح مدينة بنزرت، وكان معه عبد الملك بن مروان، ولما سمع الروم بما أعطى البربر من أموال لعبد الله بن

---

(١) المرجع السابق:(١ / ٧٨) .

سعد بن أبي السرح، ولمعاوية بن حديج، أجبروا البربر في إفريقيا على أن يعطوهم مثل ذلك فاعتذروا ، لأن ذلك ليس في طاقتهم، ولأنهم كرهوا معاملة الروم واستعبادهم وظلمهم لهم ، فوقع القتال بين خليفة جرجير ملك إفريقيا، وبين القائد الرومي ، فهزم هذا القائد خليفة جرجير، ففر إلي الشام ، واتصل هناك بمعاوية بن أبي سفيان، وزين له فتح إفريقيا واصفاً خيراتها وثرواتها ، ودله على عورات الروم، فبعث معاوية بن حديج لفتحها فغزاها سنة خمس وأربعين هجرية .

وقد وجهه معاوية بن أبي سفيان في جيش كثيف تعداده عشرة آلاف رجل، معهم عبد الله بن عمر بن الخطاب ﷺ ، وجماعة من الصحابة والتابعين من بينهم عبد الملك بن مروان، ومضي معاوية حتي وصل إلي إفريقيا، وكانت تضطرم ناراً فنزل بجيشه على قمونية وهي قيروان إفريقيا ، وكان عامل جرجير هو ملك سبيطلة على رأس ثلاثين ألف مقاتل كان القيصر قد وجههم من القسطنطينية في البحر لمدافعة المسلمين عن إفريقيا فلم تغن قوات الروم شيئاً، إذ قاتلهم معاوية فهزمهم عن حصن « الأجم »، ثم بث السرايا في البلاد، وبعث عبد الله بن الزبير إلى « سوسة » ففتحها، وبعث رويفع بن ثابت الأنصاري بحراً إلى جربة ففتحها، ثم عاد أدراجه إلى طرابلس الغرب التي كان أميراً عليها، وبعث عبد الملك بن مروان إلى جلولاء ففتحها.

واستقر معاوية في جبل « القرن » وجعله مقراً له ، فبقي هناك ثلاث سنين، فبنى بناحية القرن مساكن سماها قيروان، واحتفر بها آباراً تسمى آبار حديج، وهذه الآبار خارج باب تونس منحرفة عنه إلى الشرق عند مصلى الجنائز.

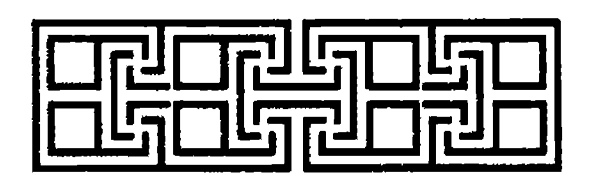
لقد غز إفريقيا مراراً كثيرة كان آخرها سنة خمسين من الهجرة ، ولكن

المؤرخين اقتصروا على ثلاث غزوات منها، وهي أهم غزواته على ما يظهر وعاد معاوية بعد ذلك إلي مصر بعد أن خلد آثاراً حسنة في إفريقيا، وهو الذي بعث عقبة بن نافع سنة خمسين هجرية لغزو إفريقية [١] .

[٣] جهاده في البحر:

﴿ أ ﴾ كان معاوية بن حديج أول من غزا جزيرة « صقلية » إذ بعث إليها عبد الله ابن قيس ، فأصاب أصناماً وفضة مكللة بجوهر، وقد وجه معاوية جيشه هذا في مائتي مركب، وكان ذلك سنة ست وثلاثين هجرية.

﴿ ب ﴾ وفي سنة تسعه وأربعين هجرية ، وجه معاوية عقبة بن نافع الفهري في البحر لغزو الروم بأهل مصر [٢] .



(١) المرجع السابق: (١ / ٨١) .

(٢) المرجع السابق: (١ / ٨٢) .

المطلب الثالث

أهم صفاته القيادية

إن معاوية كان من الأبطال الصناديد، ومن الدهاة المحنكين، ومن رجالات الفتوح الكبار، وكان من ضباط أركان عمرو بن العاص في فتح مصر، ومن ضباط أركان عبد الله بن سعد بن أبي السرح في إفريقيا والنوبة، فلما تولى القيادة كان خبيراً بالمغرب، عارفاً لشئونه وطبيعة أرضه، ونقاط الضعف في أهله، وخبرة معاوية هذه سهلت له فتح كثير من بلاد المغرب.

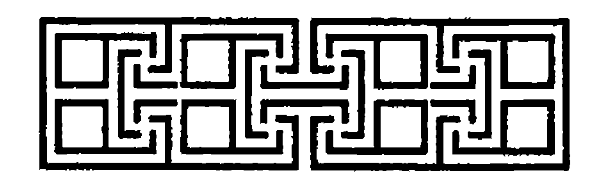
والذي يتتبع قصة جهاده بإمعان، يجد أن معاوية ﵁ كان يهوى الجهاد، فكان يفضل دائماً أن يكون غازياً في ساحات الوغي على أن يكون والياً في باحات القصور.

لقد كان جندياً بالطبع، وكان من أسود المسلمين، سألت عائشة أم المؤمنين ﵂ يوماً رجلاً فقالت: «وكيف كان أميركم في غزواتكم؟» تعني معاوية بن حديج، فقالوا: «ما نقمنا عليه شيئاً»، وأثنوا عليه خيراً، وقالوا: «إن هلك بعير أخلف بعيراً، وإن هلك فرس أخلف فرساً، وإن أبق خادم أخلف خادماً»، فقالت: «استغفر الله! إن كنت لأبغضه من أنه قتل أخي، وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من رفق بأمتي فارفق به، ومن شق عليهم فاشقق عليه**»، وهذا دليل على سهره على مصالح رجاله وحرصه عي راحتهم، ورضائهم وإعطائهم ما يستحقون.

لقد كان معاوية شجاعاً مقداماً ذا شخصية قوية نافذة، له قابلية ممتازة على إعطاء القرارات الصائبة، يتحمل المسئولية ولايتهرب منها ، ذا إرادة قوية ثابتة، يعرف مبادئ الحرب ويطبقها ويعرف نفسيات رجاله وقابليتهم، يثقون به،

ويبادلونه حبًّا بحب وتقديراً بتقدير، له تجربة طويلة في الحرب وماضي ناصع في الجهاد، لقد كان معاوية قائداً ممتازاً، قضى حياته كلها مجاهداً في سبيل الله في البر والبحر على حد سواء.

إن التاريخ يذكر له أنه نشر الإسلام بين عدد لا يُحصى من البربر، ونشر لغة القرآن بينهم، و يذكر له أنه فتح بلاداً شاسعة من شمال إفريقيا في تونس، والجزائر، والمغرب، ويذكر له أنه أول من غزا صقلية ، فمهد للمسلمين فتحها بعد ذلك، وذكر له أنه كان قائد القادة من الصحابة والتابعين، رضي الله عن الصحابي الجليل ، الإداري الحازم ، أمير البحر ، وقائد البر ، معاوية بن حديج السكوني [١] .



(١) المرجع السابق: (١/ ٨٨-٨٩) .
من أراد الاستزادة من ترجمة معاوية بن حديج: الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر، أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير، الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر، طبقات ابن سعد، معالم الإيمان لعبد الرحمن الأنصاري، فتح مصر والمغرب، لابن عبد الحكم، النجوم الزاهرة لابن تغري بردي.

الفصل الخامس

عقبة بن نافع قائد فتح الشمال الإفريقي

توطئة :

لا يخفى أن عقبة بن نافع كانت له علاقة قديمة وطويلة ببرقة وطرابلس وإفريقيا، والشمال الإفريقي عموماً مما أكسبه خبرة جيدة بطبيعة البلاد، ومعرفة عادات ونفوس أهلها ، مما جعله في قائمة المرشحين عند أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه لقيادة الحملة الأخيرة لفتح إفريقيا .

المبحث الأول

بداية الفتح المبارك

لقد تقدم - فيما سبق - أن عقبة بن نافع كانت له خبرة بمناطق الشمال الإفريقي إجمالاً، حيث قد أرسله عمرو بن العاص إلى زويلة (سنة ٢٢ هـ) ففتحها، ثم عينه والياً على إفريقية بعد رجوعه إلى مصر، وبتلك الخبرة والخلفية سار عقبة إلي إفريقية في جيش رهيب ومهيب ، وكانت بداية مسيرة هذه الجحافل المباركة برقة ، لأنه كان مقيماً فيها، ثم سار حتى وصل سرت حيث أقام الجيش فيها فترة من الزمان، وتوجه خلالها عقبة إلى بلاد ودان، وجرمة، وفزان ففتحها ونشر فيها تعاليم الإسلام.

يقول الدكتور صالح مصطفى :

« من المرجح أن عقبة بن نافع قد خرج إلى إفريقية (سنة ٤٩ هـ/ ٦٦٩م) كما يذكر ابن عذارى أو في أولها ، ولا سيما أنه قد خرج بعد معاوية بن حديج كما يذكر ابن عبد الحكم، وكان مع عقبة بن نافع في هذه الغزوة بسر بن أبي أرطأة وشريك بن سمي المرادي، وتقدم عقبة بن نافع بقواته إلى أن وصل مغداش من سرت - وكان بسر بن أبي أرطأة، قد توجه إليها قبل ذلك (سنة ٢٦ هـ/٦٤٦م) من

سرت- فلما وصل عقبة إلى هذه المدينة علم بأن أهل ودان قد نقضوا العهد الذي سبق وأن عقدوه مع بسر بن أبي أرطأة في سنة ٢٣ هـ زمن عمرو بن العاص رضي الله عنه .

فما كان منه إلا أن ترك جيشه واستخلف عليهم عمر بن عليّ القرشي، وزهير بن قيس البلوي، وسار بنفسه وبمن خف معه، وحتى قدم ودان فافتتحها، وجدع أذن ملكهم أدباً له، وأخذ منهم ما كان بسر ابن أبي أرطأة قد فرضه عليهم وهي ٣٦٠ رأساً، ثم واصل سيره إلى مدينة جرمة، ولما دنا منها وكان آخرها قصور خوار، جنوبي فزان، فعندما وصله عقبة،امتنع عليه، ولم يتمكن من فتحه، وظل محاصراً له شهراً، ثم تخلى عنه متجهاً إلى قصور كوار، وقطع أصبع ملكهم أدباً له، وحتى لا تسول إليه نفسه أن يحارب العرب -المسلمين- مرة أخرى وفرض عليهم ٣٦٠ عبداً .

ثم رجع إلى أهل خاوار حتى تجاوزهم، متظاهراً أنه لن يفتح هذا القصر حتي اطمأن أهله فرجع عليهم وتمكن من فتحه، ومن هناك انصرف راجعاً حتى وصل إلى مواضع زويلة اليوم، قاصداً جيشه الذي غاب عنه خمسة أشهر تحت إمرة عمر بن عليّ القرشي، وزهير بن قيس البلوي » (١) .

وهكذا بعد هذه المسحة العسكرية لمناطق ليبيا والتي استغرقت من عقبة ومن معه حوالي نصف سنة، رجع بعدها إلى جيشه المرابط في مدينة سرت، ثم سار به إلى ناحية الغرب، وجنوب غرب ليبيا حيث فتح بلاد مزاتة، وأرسل بعدها سراياه إلي غدامس وفقصة، وسبيطلة ففتحوها .

يقول الأستاذ الطاهر الزاوي في ذلك: « وواصل - عقبة - سيره حتى وصل إلي معسكره غدامس بأرض سرت بعد أن غاب عنهم خمسة أشهر، ولم يلبث عقبة أن توجه إلى إفريقية، واتخذ له طريقاً غير الطريق الساحلي جنوبي جبل نفوسة، وأرسل خيلاً إلى غدامس ففتحها، وواصل سيره إلى إفريقية (٢) .

---

(١) ليبيا من الفتح العربي، (ص٦١،٥٢) .

(٢) تاريخ قادة فتح المغرب العربي (١/١٠٤) .

المبحث الثاني

تأسيس أول مدينة إسلامية في الشمال الإفريقي

وهكذا وصل عقبة بن نافع سيره حتى وصل القيروان، وهناك رأى ضرورة إنشاء قاعدة أمنية للمسلمين تكون لهم مقراً ينطلقون منه لقتال أعداء الإسلام، وملجأ للراحة والتقاط الأنفاس، وترتيب الأمور، إلا أنه لم يعجبه المكان الذي اختاره معاوية بن حديج من الناحية العسكرية الأمنية، فقرر المسير إلي موضع مناسب عسكرياً، وأمنيًّا واقتصادياً، فكان ذلك الموضع المختار لمدينة القيروان الحالية، التي كان تسكنها الحيوانات المفترسة، والوحوش الضارية آنذاك، حتى استنكر عليه بعض من رجاله في اختياره ذلك المكان الموحش !! .

يقول الأستاذ محمود شيت خطاب:

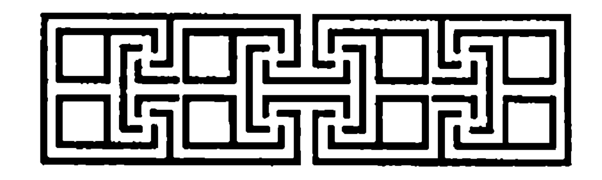
« إن رجاله قالوا له: إنك أمرتنا بالبناء في شعاب وغياض لا ترام ، ونحن نخاف من السباع والحيات وغير ذلك من دواب الأرض، وكان في عسكره خمسة عشر رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ وسائر ذلك تابعون، فدعا الله عز وجل ، وجعل أصحابه يؤمنون على دعائه.

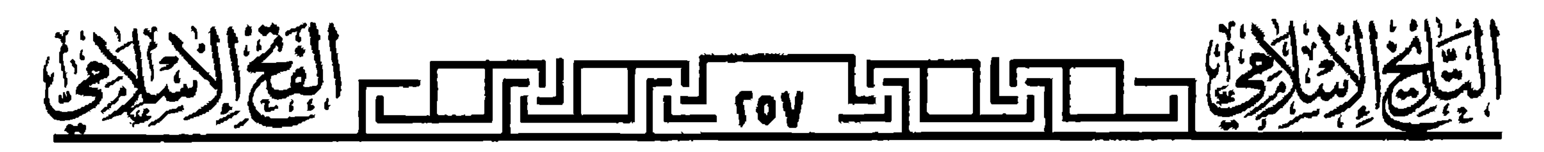
ومضى إلى السبخة وواديها ونادى: « أيتها الحيات والسباع، نحن أصحاب رسول الله ﷺ، فارتحلوا عنا فإنا نازلون، ومن وجدناه بعد ذلك قتلناه » ونظر الناس بعد ذلك إلى أمر عجب، فقد جعلت السباع تخرج من الشعاب تحمل أشبالها، والذئب يحمل جروه، والحيات تحمل أولادها، ونادى في الناس: « كفوا عنهم حتى يرتحلوا عنا » ، فلما خرج ما فيها من الوحوش والهوام، وهم ينظرون إليها نزل عقبة الوادي وأمرهم أن يقطعوا الشجر » [١] .

---

(١) تاريخ قادة فتح المغرب العربي (١/ ١٠٤).

فلما فرغ عقبة بن نافع من تشييد أول صرح إسلامي في الشمال الإفريقي، أردفه بمسجد كبير جعله منارة للعلم، وقبلة لطلاب العلوم الإسلامية، وملتقى للدعاة والعلماء المجاهدين، وكان ذلك(سنة ٥٥هـ) ، وبعد ذلك تفرغ أكثر لفتح ما بعد القيروان من مدن المغرب العربي، ومطاردة فلول الروم والبربر الذين لا يؤمنون بالله ، ولا باليوم الآخر، وسوف نتناول هذه الفتوحات في المباحث القادمة إن شاء الله بشئ من التفصيل.





المبحث الثالث

فاتح المغرب في سطور

المطلب الأول

اسمه، ونسبه، ومولده، ونشأته

اسمه ونسبه:

هو عقبة بن عبد القيس بن عامر بن أمية بن الضرب بن الحارث بن فهر القرشي أبوه، نافع بن عبد القيس الفهري أسلم وكان مع عمرو بن العاص في فتح مصر وبعثه عمرو إلى برقة، وقد بقي إلي خلافة عثمان بن عفان ﷺ وأمه سبية من «عنزة» اسمها النابغة: فهو أخو عمرو بن العاص لأمه، وفي رواية أنه ابن خالة عمرو بن العاص، وفي رواية: أن عمرو بن العاص خاله، وفي رواية أنه ابن أخ العاص بن وائل السهمي لأمه، وعلى كل فعقبة من أقرباء عمرو بن العاص من جهة الأم أولاً: ومن جهة الأب أيضاً على اعتبار أنهما من قريش.

مولده ونشأته:

ولد عقبة قبل الهجرة بسنة واحدة، لذا فقد كانت نشأته في بيئة إسلامية خالصة، ذات طابع عسكري بحت، فحمل سلاحه مجاهداً في العصر الذهبي للفتح الإسلامي الخالد، وبرز في ساحات القتال متحملاً قسطه الأوفى من الجهاد بحرص واندفاع، وتجرد وإقدام، فقد ولد على عهد رسول الله ﷺ ولا تصح له صحبة، ويقال له صحبة وعلي كل حال فهو صحابي بالمولد وهو آخر من ولي المغرب من الصحابة، وقد تولى من صلب القيادة في أيام عمر بن الخطاب الذي لا يولي إلا الصحابة ولا يرضى أبداً أن يعمل صحابي تحت قيادة غير صحابي.

لقد تهيأ الجو المناسب والظروف المناسبة والبيئة المناسبة لعقبة، فاجتمع في تكوينه: الطبع الموهوب، والعلم المكتسب، ليكون قائداً من ألمع قادة الفتح الإسلامي على الإطلاق خاصة في مناطق المغرب العربي [١].

المطلب الثاني

استشهاده

رجع عقبة إلي القيروان، فلما انتهى إلى ثغر أفريقية وهي طبنة أذن لمن معه من أصحابه أن يتفرقوا ويقدموا القيروان أفواجاً ثقة منه بما نال من العدو وأنه لم يبق أحد يخشاه، ومال عقبة بخيل يسيرة يريد «تهودة» وكان معه حوالي ثلاثمائة فارس، فلما رآه الروم في قلة طمعوا فيه، فأعلوا الحصن وشتموه وهو يدعوهم إلى الإسلام، فلم يقبلوا منه، وبعث الروم إلى «كسيلة» الذي كان في عسكر عقبة مضمراً الغدر، فلما أرسل إليه الروم أظهر ماكان يضمره، جمع أهله وبني عمه، وقصد عقبة، فقال أبو المهاجر: عاجله قبل أن يقوى جمعه، وكان أبو المهاجر موثقاً في الحديد مع عقبة، فزحف عقبة على كسيلة، فتنحى كسيلة عن الطريق ليكثر جمعه، فلما رأى أبو المهاجر ذلك تمثل بقول أبي محجن الثقفي:

كفى حزناً أن ترتدي الخيل بالقنا ... واترك مشدوداً عليَّ وثاقيا

إذا قمت عناني الحديد وأغلقت ... مصارع دوني قد تصم المناديا

فبلغ عقبة ذلك، فأطلقه وقال له: الحق بالقيروان بالمسلمين وقم بأمرهم، وأنا أغتنم الشهادة، فلم يفعل، وقال: وأنا أيضًا أريد الشهادة ، وكسر عقبة والمسلمون أجفان سيوفهم، وتقدموا إلى البربر وقاتلوهم، فقتل المسلمون جميعهم ومعهم عقبة، وقتل معه زهاء ثلاثمائة من كبار الصحابة والتابعين في

---

(١) المرجع السابق: (١ / ٩٠، ٩١، ٩٢، ٩٣، ٩٤).

أرض الزاب بتهودة.

وهكذا كان استشهاد عقبة بن نافع رضي الله عنه سنة ثلاث وستين هجرية ٦٨٣م، في معركة تهودة ، وكان مولده قبل الهجرة بسنة واحدة كما أسلفنا (سنة ٦٢١م) وقبره يُزار بالزاب ، كما أن أجداث الصحابة الشهداء الذين استشهدوا معه بمكانهم من أرض الزاب يُزارون لهذا العهد ، وقد جعل على قبورهم أسنمة ثم جصصت ، واتخذ على المكان مسجد عُرِفَ باسم عقبة، وهو في عداد المزارات [١] .

ولاريب أن ما أحدثه هؤلاء المعاصرون على قبور أولئك المجاهدين من الصحابة يعتبر انحرافاً واضحاً عن عقيدة عقبة وأصحابه رضي الله عنهم التي من أجلها أتوا من الجزيرة العربية إلى إفريقيا وقاتلوا وقتلوا فيها، لأنه كما لا يخفى أن أصل انحراف الأمم السالفة كان مرده إلى الغلو في صالحيهم، فقد جاء في الحديث الصحيح عن عائشة أن أم سلمة رضي الله عنها ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسة رأتها وما فيها من الصور، فقال ﷺ : « **أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح بنوا على قبره مسجداً، وصوروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله** »

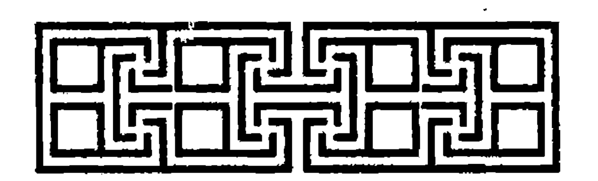
ويقول الإمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ بهذا الصدد :

« وهذه الأصنام كانت قبور ناس صالحين لما ماتوا عكفوا على قبورهم، ثم صوروا تماثيلهم، ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم، وما زال الشيطان يوحي إلى عباد القبور، ويلقي إليهم أن البناء والعكوف عليها من محبة أهل القبور من الأنبياء والصالحين، وأن الدعاء عندها مستجاب، ثم نقلهم من هذه المرتبة إلى الدعاء بها، والإقسام على الله به، فإن شأن الله أعظم من أن يقسم عليه أو يسأل بأحد من خلقه.

---

(١) المرجع السابق: (١ / ١١١-١١٢) .

فإذا تقرر ذلك عندهم نقلهم منه إلى دعائه وعبادته، وسؤاله الشفاعة من دون الله واتخاذ قبره وثناً تعلق عليه القناديل والستور، ويطاف به ويستلم ويحج إليه ويذبح عنده، فإذا تقرر ذلك عندهم نقلهم منه إلي دعاء الناس إلي عبادته، واتخاذه عيداً ومنسكاً، ورأوا أن ذلك أنفع لهم في دنياهم وأخراهم وكل هذا مما قد علم بالضرورة من دين الإسلام أنه مضاد لما بعث به رسول الله ﷺ (١).



(١) فتح المجيد: (١٨٦).

المبحث الرابع

مناقبه رضي الله عنه

إن عقبة بن نافع رضي الله عنه قد تولى مناصب قيادية جهادية في أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه وصاحب في تلك المناصب القيادية قادة أجلاء أمثال القائد البارع عمرو بن العاص رضي الله عنه في فتوحاته لأرض مصر وطرابلس، وكذلك صاحب عبد الله بن أبي السرح، ومعاوية بن حديج في معاركهم في إفريقيا، وأخيراً قاد زمام المعارك والفتوحات في الشمال الإفريقي بنفسه، فجعله الله سبحانه وتعالى سبباً مباشراً في تثبيت دعائم الإسلام في تلك المناطق، فهل يا ترى يعرف أبناء هذه الشعوب « مصر، وليبيا، والسوادان، وتونس، والمغرب، وموريتانيا » فضائل هذا القائد المبارك الذي بذل روحه وكل مايملكه من أجل إيصال دعوة الإسلام إليهم؟ لذا نحاول أن نتناول بإيجاز ذكر بعض مناقبه وعملياته الجهادية، ومسيرته الدعوية وصفاته القيادية.

المطلب الأول

جهاده في مصر وليبيا والنوبة

يقول الأستاذ محمود شيت خطاب:

﴿ أ ﴾ شهد عقبة فتح مصر تحت لواء عمرو بن العاص واختط بها أول صرح إسلامي في الشمال الإفريقي كما أسلفنا، فاكتسب عقبة من معارك فتح مصر ومن أساليب عمرو بن العاص في إدارة القتال خبرة عملية وبرزت مواهبه القيادية بصورة مبكرة حينذاك.

﴿ ب ﴾ بعثه عمرو بن العاص على رأس جيش من المسلمين إلى « زويلة »

ففتحها صلحاً وصار ما بين برقة و« زويلة » سلماً للمسلمين ، وكان ذلك سنة إحدى وعشرين هجرية ، وقد كتب عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب يعلمه : أنه قد ولى عقبة بن نافع الفهري المغرب، فبلغ « زويلة »، وأن من بين « زويلة » و« برقة » سلم كلهم حسنة طاعتهم، وقد أدى مسلمهم الصدقة، وأقر معاهدهم بالجزية ، وأنه قد وضع على أهل « زويلة » ومن بينه وبينها ما رأى أنهم يطيقونه، وأمر عماله جميعاً أن يأخذوا الصدقة من الأغنياء فيردوها على الفقراء، ويأخذوا الجزية من أهل الذمة، فتحمل إلى مصر، وأن يؤخذ من أرض المسلمين العُشر ونصف العشر ومن أهل الصلح صلحهم.

﴿ جـ ﴾ وفي هذه السنة، أي سنة إحدى وعشرين هجرية ، بعثه عمرو إلى النوبة فلقي المسلمون من « النوبة » قتالاً شديداً، ثم انصرف المسلمون من « النوبة »،وبذلك كان عقبة أول من مهد لفتح « النوبة » من المسلمين.

﴿ د ﴾ لقد قدر عمرو بن العاص أهمية الحدود الغربية والجنوبية لمصر، لذلك بعث عقبة إلى « زويلة » وسار هو إلى « ليبيا »، وبعث عقبة إلى « النوبة » وبذلك كان لعقبة فضل كبير في تأمين الحدود الغربية والجنوبية لمصر.

﴿ هـ ﴾ وحين كان عمرو بن العاص على مصر، كان عقبة على رأس المسلمين في حامية « برقة » وعزل عثمان بن عفان عمرو بن العاص عن مصر سنة خمس وعشرين وعقد عثمان لعبد الله بن سعد بن أبي السرح على مصر كلها مضافاً « للصعيد » وغيره، فأقره ابن أبي السرح على منصبه قائداً لحامية « برقة ».

﴿ و ﴾ سار عبد الله بن أبي السرح بجيشه الذي بلغ تعداده عشرين ألفاً، سنة ست وعشرين هجرية ، فلما وصلوا إلى « برقة » لقيهم عقبة فيمن معه من المسلمين الذين كانوا حامية هناك، فساروا جميعاً إلى « طرابلس » الغرب

فقاتلوا مَنْ عندها مِنَ الروم وشهد عقبة فتوحات ابن أبي السرح في إفريقية، وأبلى في جهاده تحت راية ابن أبي السرح أعظم البلاء.

﴿ ز ﴾ لقد كان عقبة على رأس حامية «برقة»، يحمي الحدود الغربية لمصر، فلا يدع الروم يهاجمون مصر من اتجاه ليبيا ، وقد حافظ على تلك المنطقة حتى في أخطر الظروف والأحوال.

كما أنه حمى «برقة» من الروم، فأصبحت تلك المنطقة القاعدة المتقدمة للمسلمين التي ينطلقون منها إلى فتح «إفريقية» لذلك كان عقبة قد قدم فائدة عظيمة للمسلمين من الناحية العسكرية.

المطلب الثاني

جهاده في البحر

﴿ أ ﴾ بقي عقبة في «برقة» بعد ابن أبي السرح أيضاً في أيام معاوية بن حديج السكوني ، وفي سنة تسع وثلاثين هجرية غز عقبة الروم في البحر بأهل مصر.

﴿ ب ﴾ وفي سنة تسع وأربعين هجرية في أيام معاوية بن حديج السكوني غزا عقبة الروم في البحر، فقضى الشتاء هناك بأهل مصر.

المطلب الثالث

جهاده في ليبيا

الفتح : بقي عقبة في «برقة» بعد عثمان بن عفان، وفي أيام عليّ بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان ﵄ ، وفي سنة إحدى وأربعين هجرية ، استعمل عمرو بن العاص عقبة على «إفريقية» فانتهى إلى «لواتة»، وكانوا قد صولحوا

على صلحهم حتى نقضوا ذلك زمن معاوية بن أبي سفيان، فغزاها عقبة فتنحوا ناحية « طرابلس »، فقاتلهم عقبة حتى هزمهم، فسألوه أن يصالحهم ويعاهدهم، فأبى عليهم وقال: إنه ليس لمشرك عهد عندنا، إن الله عز وجل يقول في كتابه: ﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ ﴾ [التوبة:٧]، ولكن أبايعكم على أنكم توفوني ذمتي، إن شئنا أقررناكم وإن شئنا بايعناكم وعقد عمرو لعقبة على « هوارة » فأطاعوا هم و« لواتة » ثم كفروا، فغزاهم عقبة من سنته فقتل وسبي، وفي سنة اثنتين وأربعين هجرية افتتح عقبة « غدامس » وقتل وسبي.

وفي (سنة ثلاث وأربعين الهجرية) افتتح « ودان » ثانية وهي من « برقة » وذلك سنة ست وأربعين الهجرية، فقد خرج عقبة في هذه السنة حتى نزل « مغداش » من « سرت » وكانت « ودان » نقضت عهدها الذي عاهدت عليه بسر بي أبي أرطأة سنة ثلاث وعشرين الهجرية، فترك عقبة جيشه في « مغداش » في أرض « سرت »، وخلف عليهم عمر بن على القرشي، وزهير بن قيس البلوي، وسار إلى « ودان » في أربعمائة فارس، وأربعمائة جمل، وثمانمائة قربة ماء: على كل جمل قربتان لحمل الماء، فلما وصلها أبي أهلها إلا العصيان، وعدم الطاعة، فحاربهم عقبة حتى أخضع البلاد بلداً بلداً ..

ولما استتب الأمر لعقبة في بلاد « ودان » سأل عقبة أهلها: هل من ورائكم من أحد؟ فقالوا له: جرمة، فسار إليها ثماني ليال من « ودان »، فلما دنا منها دعا أهلها إلى الإسلام فأجابوا فنزل منها على ستة أميال ، وخرج ملكهم يريد عقبة، فأرسل عقبة خيلاً فحالت بين ملكهم وبين موكبه ، فأمشوه راجلاً حتى أتى عقبة وقد لغب، وكان ناعماً، فجعل يبصق الدم، فقال له : لم فعلت هذا بي وقد أتيتك طائعاً ؟ ، فقال عقبة: أدباً لك إذا ذكرته لم تحارب المسلمين، وفرض عليه ثلاثمائة وستين عبداً.

ومضى من فوره لإنجاز فتح بلاد « فزان » حتى أتى على آخرها ، ونشر الإسلام

في ربوعها ، وهذه أول مرة دخل فيها المسلمون بلاد « فزان » فاتحين ، وسأل عقبة أهل فزان هل من ورائكم أحد ؟ فقالوا : أهل خاور ، وهو قصر عظيم على رأس المفازة في وعورة على ظهر جبل ، وهو قصبة كاوار ، فسار إليه خمس عشرة ليلة ، فلما وصل إليها دعا أهله إلى الإسلام ، فأبوا ، وطلب منهم الجزية فامتنعوا بحصنهم فحاربهم وأقام عليهم وحاصرهم شهراً دون جدوى ، وتقدم بجيشه جنوباً لفتح بقية بلاد كاوار ، ففتحها حتى أتى على آخرها وقبض على ملكهم وقطع إصبعه ، فقال : لِمَ فعلت هذا بي ؟ فقال عقبة : أدباً لك إذا أنت نظرت إلى أصبعك لم تحارب المسلمين ، ثم فرض عليهم ثلاثمائة وستين عبداً .

ولقد أقدم عقبة على التغلغل في الصحراء بقوات قليلة خفيفة، لأن الحركة في الصحراء صعبة جداً بقوات كبيرة لقلة الماء فيها، ولأن قوات الروم النظامية لن تستطيع القتال في مثل هذا الميدان، وإنما ميدانها المناطق الساحلية التي تتوفر فيها المياه والقضايا الإدارية الأخرى، فليس أمام عقبة غير قوات سكان الصحراء الأصليين، هؤلاء قليلون يمكن التغلب عليهم بقوات خفيفة قليلة كما فعل عقبة ... ذلك ما حدا بعقبة على الإقدام لفتح تلك المناطق الصحراوية بقوات خفيفة منتخبة، فعلاً انجز واجبه وحقق هدفه في الفتح الصحراوي بسهولة ويسر.

وسار عقبة بجيشه إلى المغرب، وجانب الطريق الأعظم وأخذ إلى أرض « هوارة » فافتتح كل قصر بها، ومضي إلى « صفر »، فافتتح قلاعها وقصورها، ثم بعث خيلاً إلى « غدامس » فاستعاد فتحها ثانية، والظاهر أنها نقضت عهدها بعد فتحها الأول، فاضطر عقبة إلى فتحها ثانية وتوجه إلى « قفصة » فافتتحها، ثم افتتح « قسطيلة » ثم انصرف إلى القيروان.

لقد طهر عقبة بهذا الفتح كل المقاومات المعادية بين « برقة »، و« القيروان »، فأصبحت هذه المنطقة خالصة للمسلمين ، حَرِية أن تكون قاعدة رصينة تنطلق منها القوات الإسلامية لفتح شمال إفريقية حتى المحيط الأطلسي.



المطلب الرابع

تأسيسه أول مدينة إسلامية في الشمال الإفريقي

واخيراً:

قد واصل عقبة بن نافع رضي الله عنه حملته الطويلة والشاقة في تلك الصحاري الحارة، التي قد بذل فيها الغالي والنفيس من أجل إخراج أهالي تلك المناطق من ظلمات الجاهلية إلى نور الإسلام يبتغي بذلك وجه الله سبحانه.

أقول: لقد وصل هذا البطل أخيراً إلى القيروان القديم الذي كان في مدينة قمونية،حيث بناه معاوية بن حديج رضي الله عنه فلما نظر إلي الموقع من الناحية الاستراتيجية، لم يعجبه اختيار هذا الموقع الذي كان يقع في الوسط الشرقي لإفريقية حيث لم يكن ضارباً في الجهة الشمالية فيكون في منعة جبلية، ولا ضارباً في الجهة الجنوبية فيكون في منعة رملية !!.

لذا قرر هذا القائد صاحب النظرة الاستراتيجية بأن يختار موقعاً استراتيجيًا ، بحيث يكون دار منعة وعزة للمسلمين وأهلهم، وقاعدة حربية لغزو القواعد الصليبية في عقر دارها، ويكون قاعدة علمية فقهية جهادية حركية لتوريث الدين القيم لمن أسلم من أبناء الشمال الإفريقي أو الجنوب الأوروبي وتثبيت دعائمه حتى لا يرتد أهالي هذه المناطق لجهلهم بالدين وتعاليمه .

فكان له خططه ، فقد وقع اختياره على مدينة القيروان الحالية التي تقع قريبة من ساحل البحر الأبيض المتوسط حيث يمكنه رصدالأعداء الصليبيين ومطاردتهم ، ثم قربها إلى ناحية الأرض وبها سبخة ، حيث يوجد بها كميات كبيرة من الأعشاب والأشجار التي تأكلها الإبل ، وبهذا يكون قد أمن القضية الغذائية.

يذكر الأستاذ محمود شيت خطاب قول عقبة لرجاله: «إن إفريقية إذا دخلها إمام أجابوه للإسلام، فإذا تركها رجع من كان أجاب منهم لدين الله إلي الكفر، فأرى لكم يا معشر المسلمين أن تتخذوا مدينة عزٍ للإسلام إلى آخرالدهر»، فاتفق الناس على ذلك، وأن يكون أهلها مرابطين قرب البحر ليتم لهم الجهاد والرباط.

وقال لعقبة بعض أصحابه: قربها من البحر ليكون أهلها مرابطين، فقال لهم: إني أخاف أن يطرقها صاحب القسطنطينية فيهلكها، ولكن اجعلوا بينها وبين البحر ما لا يدركها معه صاحب البحر، لأن صاحب المركب لا يظهر من اللجة حتى يستره الليل، فهو يسير إلى ساحل البحر إلى نصف الليل، فيخرج فيقيم في غارته إلى نصف النهار، فلا تدركها منه غارة أبداً، فإن كان بينها وبين البحر ما لايجب فيه التقصير، فأهلها مرابطون، ومن كان على البحر فهم حرس لهم، وهم عسكر معقود إلى آخر الدهر، وميتهم في الجنة.

فاتفق رأيهم على ذلك فقال: قربوها من السبخة، فقالوا: إنا نخاف أن تهلكنا الذئاب ويهلكنا بردها في الشتاء، وحرها في الصيف، فقال: لا بد لي من ذلك، لأن أكثر دوابكم من الإبل، وهي التي تحمل عسكرنا، والبربر قد تنصروا وأجابوا النصارى إلى دينهم، ونحن إذا فرغنا من أمرها لم يكن لنا بد من المغازي والجهاد، ونفتح الأول منها فالأول، فتكون إبلنا على باب مصرنا في مرعاها آمنة من غادرة البربر والنصارى، فركب إلى موضع القيروان اليوم وكان غيضة كثيرة الأشجار مأوى الوحوش والحيات، فأمر بقطع ذلك وإحراقه.

وكان مع عقبة عشرة آلاف فارس، وانضاف إليه من أسلم من البربر فكثر جمعه فأمر ببناء القيروان سنة خمسين الهجرية، وأنجز بناءها سنة خمس وخمسين الهجرية، وبنى المسجد الجامع وبنى الناس مساجدهم، ومساكنهم، وكان محيطها ثلاثة آلاف وستمائة باع، فأصبحت المدينة معسكراً للمسلمين وأهلهم وأموالهم يأمنون من ثورة تكون من أهل البلاد، فقوي جنان من هناك

من الجنود بمدينة القيروان، وأمنوا واطمأنوا على المقام فثبت الإسلام فيها، وكان عقبة في أثناء عمارة المدينة يغزو ويرسل السرايا فتغير وتغنم، ودخل كثير من البربر في الإسلام، واتسعت خطة المسلمين ، ورسخ الدين ، وصارت القيروان مدينة كبيرة وعاصمة الإسلام في المغرب، وأصبحت القيروان القاعدة الأمنية للمسلمين في شمال إفريقية » (١) .

المطلب الخامس

جهاده من القيروان إلى المحيط

وبعد أن أصبحت القيران القاعدة الأمنية للمسلمين في شمال إفريقية، واطمأن عقبة بن نافع رضي الله عنه على الفتوحات التي أنجزها وفق الخطة الاستراتيجية المقررة لفتح الشمال الإفريقي، وحيث كانت بدايتها فتح برقة وسرت شرقاً، وزويلة وغدامس جنوباً، ومروراً بطرابلس، وسبيطلة غرباً، وأخيراً وقوفًا بالقيروان قلب الشمال الإفريقي، حيث أسس أول مدينة إسلامية في المنطقة.

وهكذا جد السير بالقائد المبارك لتنفيذ الخطة المرسومة، فقد جهز الجيش، واستخلف على المدينة زهير بن قيس البلوي رضي الله عنه إلا أن عقبة الرجل الشهيد رضي الله عنه قد أحس بأن هذه المعارك التي يريد أن يخوضها هي آخر عهده بدنيا الناس، لذلك رأى أن يجمع أهله وأولاده يلقي عليهم آخر نظرة، ويوصيهم وصية مودع، فقال لهم بعد أن جمعهم:

وصية مودع :

وهذا نص الوصية كما نقلها بن عذارى: « فدعا بأولاده قبل مغادرته القيروان، وقال لهم: إني قد بعت نفسي من الله عز وجل، فلا أزال أجاهد من

(١) المرجع السابق: (١/ ١٠٥، ١٠٦).

كفر بالله ، ثم قال: يا بني أوصيكم ثلاث خصال فاحفظوها ولا تضيعوها، إياكم أن تملئوا صدوركم بالشعر وتتركوا القرآن، فإن القرآن دليل على الله عز وجل، وخذوا من كلام العرب ما يهتدي به اللبيب، ويدلكم على مكارم الأخلاق، ثم انتهوا عما وراءه، وأوصيكم ألا تداينوا ولو لبستم العباء، فإن الدَّيْنَ ذلٌّ بالنهار وهم بالليل، فدعوه تسلم لكم أقداركم ، وأعراضكم، وتبق لكم الحرمة في الناس ما بقيتم ، ولا تقبلوا العلم من المغرورين المرخصين فيجهلوكم دين الله، وفرقوا بينكم وبين الله تعالى، ولا تأخذوا دينكم إلا من أهل الورع والاحتياط، فهو أسلم لكم، من احتاط سلم ونجا فيمن نجا، ثم قال: عليكم سلام الله، وأراكم لاتروني بعد يومكم هذا، ثم قال: «اللهم تقبل نفسي رضاكِ ، واجعل الجهاد رحمتي ودار كرامتي عندك» [1] .

يا خيل الله اركبي :

يقول الأستاذ خطاب : «وسار عقبة في عسكر عظيم حتى انتهى إلي مدينة «باغاية»، لا يدافعه أحد، والروم يهربون في طريقه يميناً وشمالاً، فحاصرها، وقد اجتمعوا بها وقاتلهم قتالاً شديداً، فانهزموا عنه وقتل فيهم قتلاً ذريعاً، وغنم منهم غنائم كثيرة، واحتمى بها المنهزمون داخل أسوار المدينة ، فكره المقام عليهم.

ورحل عقبة فنزل على تلمسان، وهي من أعظم مدائنهم فانضم إليها من حولها من الروم، والبربر، فخرجوا إليه في جيش ضخم، والتحم القتال ووقع الصبر، حتى ظن المسلمون أنه الفناء، ولكنهم هاجموا الروم هجوماً عنيفاً، حتى ألجأوهم إلى الزاب، فسأل عن أعظم مدينة في بلاد الزاب، فقيل له: «أربة» وهي دار ملكهم، وكان حولها ثلاثمائة وستون قرية كلها عامرة، فامتنع بها من هناك

---

(١) البيان المغرب :(١ / ٢٣) .

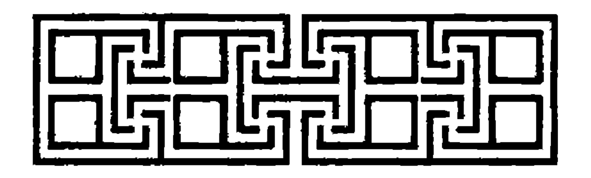
من الروم والنصارى ، وهرب بعضهم إلى الجبال، فاقتتل المسلمون ومن بالمدينة من النصارى، ثم انهزم النصارى وقتل كثير من فرسانهم.

ورحل عقبة إلى « تاهرت » فاستغاث الروم بالبربر، فأجابوهم ونصروهم، فقام عقبة في الناس خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه، وقال: « أيها الناس إن أشرافكم وخياركم الذين ﷺ وأنزل فيهم كتابه، بايعوا رسول الله ﷺ بيعة الرضوان على قتال من كفر بالله إلى يوم القيامة، وهم أشرافكم والسابقون منكم إلي البيعة، باعوا أنفسهم من رب العالمين بجنته بيعة رابحة، أنتم اليوم في دارغربة ، وإنما بايعتم رب العالمين ، وقد نظر إليكم في مكانكم هذا، ولم تبلغوا هذه البلاد إلا طلباً لرضاه وإعزازاً لدينه ، فأبشروا فكلما كثر العدو كان أخزى لهم وأذل إن شاء الله تعالى، وربكم عز وجل لا يسلمكم، فالقوهم بقلوب صادقة، فإن الله عز وجل جعل بأسه على القوم المجرمين »، والتقى المسلمون بأعدائهم وقاتلوهم قتالاً شديداً، فاشتد الأمر على المسلمين لكثرة العدو، ولكنهم انتصروا أخيراً، فانهزمت الروم البربر، وأخذهم بالسيف وكثر فيهم القتل، وغنم المسلمون أموالهم وسلاحهم.

وسار عقبة حتى نزل على طنجة، فلقيه بطريق من الروم اسمه « يليان » فأهدى له هدية حسنةونزل على حكمه، وأراد عقبة فتح الأندلس، وفقال له يليان: اتترك كفار البربر خلفك، وترمى بنفسك في بحبوحة الهلاك مع الفرنج، وتقطع البحر بينك وبين المدد؟! فقال عقبة: وأين كفار البربر؟ فقال: في بلاد السوس وهم أهل نجدة وبأس، فقال عقبة: وما دينهم؟ فقال: ليس لهم دين ولا يعرفون أن الله حق، وإنما هم كالبهائم، وكانوا على دين المجوسية يومئذٍ، فتوجه عقبة، فنزل على مدينة وليلي بإزاء جبل « زرهون »، وهي يومئذٍ من أكبر مدن المغرب فيما بين النهرين العظيمين « سبو – رزغة » وهذه المدينة هي المسماة اليوم على لسان العامة بـ« قصر فرعون »، فافتحها عقبة وغنم وسبى .

وانتهى عقبة إلى « السوس الأدنى » وهو مغرب طنجة، فقاتل جموع البربر الكثيرة، وقتل منهم قتلاً ذريعًا ، وبعث خيله في كل مكان هربوا إليه، ثم سار حتى وصل إلى السوس الأقصى، وقد اجتمع له البربر في عالم لا يحصى، فلقيهم وقاتلهم وهزمهم وسار عقبة حتى بلغ « ماليان »، ورأى البحر المحيط، فقال: « يارب، لولا هذا البحر لمضيت في البلاد مجاهداً في سبيلك ، ثم قال: اللهم اشهد، إني قد بلغت المجهود ، ولولا هذا البحر لمضيت في البلاد أقاتل من كفر بك حتى لا يعبد أحد من دونك » (١) .

تأمل هذه العبارات المشحونة بحب الله ورسوله، وبروح المعاني الجهادية ، وبحرارة الشهادة، وحيوية عبودية الله سبحانه وتعالى وتوحيده ، فقد استشهد قائدنا عقبة بن نافع رضي الله عنه بعدما قال هذه الكلمة التي تكتب بماء الذهب وهو حينذاك ينظر إلى المحيط الهادي ، وكان ذلك سنة ثلاث وستين الهجرية ، (٦٨٣م) في معركة تهودة.



(١) المرجع السابق: (١/ ١١٠، ١١١) .



المبحث الخامس
أهم صفاته القيادية

لقد كان عقبة بن نافع رضي الله عنه مثلاً في العبادة، والأخلاق، والورع، والشجاعة والحزم، والتخطيط، والتفكير الاستراتيجي، مما جعل أراء المسلمين في عهود مختلفة لا يبغون عنه حولاً في تسلم مناصب حربية كبيرة جداً لقيادة أحذر المعارك في الشمال الإفريقي وغربه،فقد قاد حملة تأمينية على برقة لتأمين الحدود الغربية لمصر، وكان ذلك في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأوائل عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه وقاد حملة على إفريقية في عهد عمرو بن العاص، وعلى طرابلس في عهد عبد الله ابن أبي السرح، وبقي قائداً عليهما حتى عهد عليّ بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهم لذا سوف نتناول في شخصية عقبة بن نافع أهم صفاته القيادية ومبادئه العسكرية التي أسس بنيانها في معاركه الجهادية المباركة.

المطلب الأول
صفاته القيادية

لقد ذكر الأستاذ محمود شيت خطاب أهم صفات عقبة رضي الله عنه القيادية حيث قال:« كان عقبة يؤمن أن رأس سلاحه في حربه تقوى الله وحده وكثرة ذكره، والاستعانه به، والتوكل عليه، والفزع إليه وسؤاله التأييد والنصر والسلامة والظفر، وكان يؤمن أن النصر من الله جل ثناؤه، وكان يعتقد أن الانتصارات الإسلامية هي انتصارات عقيدة يحملها إلى العالم مؤمنون صادقون، ويذود عنها حماة قادرون، وكان يحب رجاله ويحبونه، ويثق بهم ويثقون به، وقد بلغت ثقتهم حدًّا جعلهم يعتقدون أنه مجاب الدعوة ، فكان يتفقد أصحابه فيما يعود

عليهم بالنفع ، ويستزيد محسنهم بالتكرمة ، ويغض الطرف عن مسيئهم في الأمور الطفيفة غير ذات البال، ويستعتب مقصرهم بحسن الأدب استعتاب مستعتب له، غير مغتنم للزلة ولا متعرض للعثرة ولا مستريح إلى كشف غامض للعورة» (١) .

ويقول أيضاً: «كان ميمون النقيبة، كامل العقل، طويل التجربة، بعيد التصوب، بصير بتدبير الحرب ومواضعها، ومواضع الفرص والحيل والمكايدة، يحسن تعبئة الخاصة ، ويدخل الأمن عليهم والخوف على عدوهم، مع طلب السلامة لنفسه وأصحابه من العدو، وكان حسن السيرة عفيفاً صارماً ، متيقظاً سخيّاً ... وكانت له قابلية على إصدار القرارات السريعة الصائبة، ذا إرادة قوية ثابتة ، وشخصية رصينة متزنة، يتحمل مسئوليته كاملة بلا تردد ، وله نفسية لا تتبدل في حالتي النصر والاندحار يعرف نفسيات مرءوسيه وقابليتهم ، وله ماضٍ ناصع مجيد» (٢) .

المطلب الثاني
أهم مبادئه العسكرية الاستراتيجية

لا يخفى أن تفرغ عقبة بن نافع للعمل الجهادي، وما كان يتمتع به من صفاته القيادية، وكفايته ومقدرته العسكرية مما جعله صاحب نظرية في المبادئ الاستراتيجية كمبدأ المباغتة وتحشيد القوات، والاقتصاد في المجهود، والالتفاف والمحافظة والمعنويات، والأساليب التعريضية، وإقامة المسالح، وتأمين خطوط المواصلات، وتذليل الأمور الإدارية، استخدام القواعد الأمنية والاستخبارية، والاستطلاعية، كل ذلك كان يطبقه في أعماله الجهادية وفتوحاته الإسلامية.

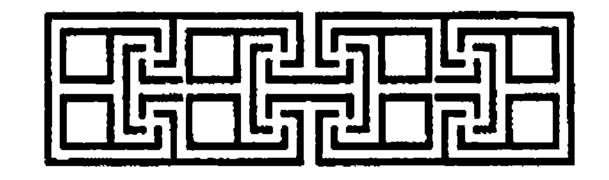
---

(١) قادة فتح بلادالمغرب (١ /١٠٧).

(٢) المرجع السابق: (١ /١٣٣).

وينص اللواء الركن محمود شيت خطاب لما قررناه من مبادئ استراتيجية في أعمال عقبة الجهادية وفتوحاته الإسلامية: «وعند تطبيق أعماله العسكرية على مبادئ الحرب، نجد أنه طبق مبدأ المباغتة في حروبه، وكانت حروبه تعرضية، يعمل على «تحشيد قواته» قبل المعركة، ويقتصد بالمجهود، ويطبق مبدأ «الأمن» ويعمل على «إدامة المعنويات» ويذلل «الأمور الإدارية» كافة لقواته، ويحسب لها أدق حساب، لقد كان عقبة من ألمع القادة الممتازين الذين برزوا في الصدر الأول من أيام الفتح الإسلامي» [1].

ويقول في موضع آخر: «وبدون مبالغة ولا تحيز، فإنه في خلال هذه الفترة القصيرة، قد حقق – عقبة – أعمالاً عسكرية باهرة بلغت حد الروعة والإعجاز، لقد انطلق بكل اندفاع وحماسة لتحقيق الآمال، آماله في فتح إفريقية من القيروان، حتى المحيط الأطلسي، وأنجز ذلك في وقت قد لا يصدقه العقل عند دراسته من الناحية العسكرية البحته» [2].



(١) المرجع السابق (١/ ١٣٤).
(٢) المرجع السابق (١/ ١٣٤).



الفصل السادس
قادة فتح المغرب الأوسط والأقصى

المبحث الأول
أبو المهاجر دينار

لا ريب أن أبا المهاجر دينار بن أبي دينار، قد كان من ضمن قيادات عقبة بن نافع الميدانية، التي قامت بحمل أعباء فتح المغرب الأدنى، والأوسط، والأقصى، مع عقبة بن نافع، وبعد أن عزل معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه عقبة خلال ولايته على إفريقية سنة خمس وخمسين هجرية ، تم تعيين التابعي أبي المهاجر دينار بن أبي دينار رحمه الله من قبل والي مصر مسلمة بن مخلد الأنصاري والياً على إفريقية، إلا أن معاوية خليفة المسلمين بعد برهة من الزمان أعاد عقبة حيث كان، وأصبح أبو المهاجر عند ذلك جندياً من جنود عقبة بن نافع في حملته المباركة على الشمال الإفريقي.

إذن من هو أبو المهاجر ؟ ، وما هي أبرز معالمه في فترة ولايته وما بعدها؟ ، وما هي أهم صفاته القيادية ؟ ، وكيف قضى نحبه؟ ، كل ذلك سوف نتناوله بشيء من الإيجاز في هذا المبحث وتلك المطالب.

المطلب الأول
جهاده في فترة ولايته

لا يخفى أن أبا المهاجر دينار بن أبي دينار كان يمتاز بمزايا عسكرية ميدانية عالية، وضبط إداري رفيع المستوى، وخبرة بطبيعة إفريقية كافية، كما جعلت مسلمة بن مخلد والي مصر يختاره لهذا المنصب الخطير، ويعقد له لواء الحملة.

ويقول اللواء الركن محمود شيت خطاب: «عقد مسلمة بن مخلد لأبي المهاجر على الجيش الذي خرج معه إلى إفريقية، وبعد إنجاز أبي المهاجر تدابيره الإدارية وإعداده خطط الفتح، سار بجيشه إلى قرطاجنة عاصمة الروم في شمال إفريقية، لأن الروم لا زالوا قوة في ساحل المغرب من بنزرت إلى طنجة، وأن هذا الساحل الخصب المتحضر هو مرتعهم وموطنهم، فلابد من تطهير تلك المناطق منهم ليتخلص المسلمون نهائيّاً من مستعمري إفريقية القدامى، وليحولوا بينهم وبين إشاعة التآمر والدس على الفتح الإسلامي.

ونازل أبو المهاجر «قرطاجنة» فاستغلقت وتحصنت بالأسوار العالية، فشدد أبو المهاجر عليهم الحصار، ولما علموا بأن المسلمين لن يبرخوا حتى يحققوا هدفهم بفتح قرطاجنة، طلبوا الصلح، فصالحهم أبو المهاجر بإخلاء جزيرة «شريك» التي كان الروم يتخذونها دوماً مثابة لحشد جيوشهم فيها قبل مهاجمة المسلمين، وذلك لكي يتخذها أبو المهاجر قاعدة أمامية لجنوده يرتكز في عملياته العسكرية عليها وبهذا أثبت أبو المهاجر بأنه ينظر بعيداً من الناحية العسكرية، فيفضل المواقع السوقية «الاستراتيجية» التي تفيده في الفتح على المال الذي كان بإمكانه أن يفرضه على أهل قرطاجنة مقابل إقرار الصلح بين الطرفين.

وفي رواية: أن أبا المهاجر بعث حنش بن عبد الله الصنعاني -صنعاء الشام- إلى جزيرة شريك ففتحها وكان هدف أبي المهاجر من فتح جزيرة شريك أن يراقب الروم ويصدهم إذا هموا بالمسير إلى المسلمين بسهولة أثناء غزوه للبلاد، لأن بإمكان قوة الروم المرابطة في تلك المنطقة أن تهدد بسهولة ويسر خطوط المواصلات لأبي المهاجر في حالة تغلغل قواته غرباً وجنوباً» [1].

وسار أبو المهاجر مع الساحل باتجاه الغرب لا يعترض طريقه أحد، حتى وصل

---

(١) **انظر**: قادة فتح بلاد المغرب (١/ ١٣٩).

« ميلة » في الجنوب الشرقي لبجاية وتبعد عنها بحوالي خمسين ميلاً، فوجدها مستعدة للقتال، وكان فيها طائفة من البربر والروم قد تحصنوا فيها، فنازلها أبو المهاجر وفتحها، وغنم ما فيها واستقر فيها، كانت « ميلة » تتوسط المغربين الأدنى والأوسط، فهي أحسن مكان يراقب أبو المهاجر منه أمور البربر والروم في تلك الأصقاع ، فجعل أبوالمهاجر ميلة مقره وأقام فيها سنتين ، وكان خلال هذه المدة يتصل بالبربر وينشر فيهم الدين، ويريهم حقيقة الإسلام.

وكانت الزعامة في المغربين الأوسط والأقصى لقبيلة أوربة لكثرة عددها وغناها وحضارتها ومناعة مواقعها، وكان رئيسها كسيلة بن لمزم الأوروبي، وكان كسيلة قوي الشخصية ذكي الفؤاد، غيوراً على وطنه، وكان البربر يحبونه ويجلونه، وكان نصرانيّاً متمسكاً بدينه، ورأى كسيلة أبا المهاجر في ميلة فعلم أنه لابد أن يسير لافتتاح المغرب الأوسط والأقصى، فذهب في المغربين الأوسط والأقصى يدعو البربر لمكافحة المسلمين والاستعداد لحربهم، وإجلائهم عن البلاد، واستطاع كسيلة أن يجمع جيشاً من البربر والروم، فسمع أبو المهاجر بجمعه، فسار إليه.

وكان كسيلة قد عسكر بتلمسان، فقصده أبو المهاجر، والتقى الجيشان هناك، فدارت المعركة حامية بينهم، فانتصر المسلمون، وأسر كسيلة، فحمل إلى أبي المهاجر، فأحسن إليه أبو المهاجر وقربه ، وعامله معاملة الملوك ، وتمكن أبو المهاجر من البلاد وظفر بكسيلة، فأظهر الإسلام فاستبقاه أبو المهاجر واستخلصه، وانتهى إلى العيون المعروفة بعيون أبي المهاجر، فهو أول أمير للمسلمين وطئت خيله المغرب الأوسط، صالح أبو المهاجر بربر إفريقية وفيهم كسيلة الأوربي، وصالح عجم إفريقية، ثم رجع إلى القيروان وأقام بها » [1] .

---

(١) المرجع السابق: (١/ ١٣٩، ١٤٠، ١٤١).

المطلب الثاني
استشهاده

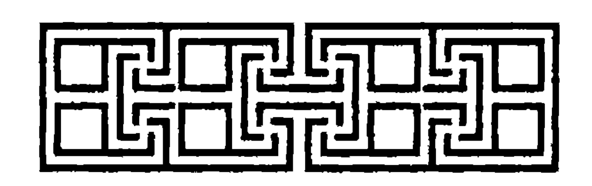
لقد ذكر في كتب التاريخ أن عقبة بن نافع بعد رجوعه إلى ولاية إفريقية مرة ثانية ، وإزاحة أبي المهاجر عنها، قرر مواصلة الفتح من حيث توقف أبو المهاجر، وكانت آخر محطة توقف فيها أبو المهاجر أثناء حملته المباركة مدينة طنجة التي قد أسر رئيسها كسيلة، فأراد عقبة رضي الله عنه التوجه إليه بجيشه إلا أن أبا المهاجر أخبره بأن أهالي طنجة قد أسلموا، وأن قائدهم كسيلة معنا، وليس هنالك عدو لنا، إلا أن عقبة رضي الله عنه كان يخشى ارتدادا كسيلة وأهله، نظراً لتجربته الطويلة مع أهالي إفريقية في نقضهم للعهود وخيانتهم للمواثيق، ولذلك أَغَذَّ السير بعقبة نحو طنجة وما حولها.

يقول اللواء محمود شيت خطاب بهذا الصدد: « فلما انتهى إلى ثغر إفريقية وهي طبنة أذن لمن معه من أصحابه أن يتفرقوا وقدموا للقيروان فوجا صوب فوج ثقة منه بما نال من معظم الأرض ، وأنه لم يبق أحد يخشاه ومال عقبة بخيل يسيرة يريد « تهوذة » وكان معه حوالي ثلاثمائة فارس، فلما رآه الروم في قلة طمعوا فأغلقوا الحصن وشتموه، وهو يدعوهم إلى الإسلام فلم يقبلوا منهم وبعث الروم إلى « كسيلة » الذي كان في عسكر عقبة مضمراً للغدر، فلما أرسل إليه الروم أظهر ما كان يضمره وجمع أهله وبني عمه وقصد عقبة ، فقال أبو المهاجر: عاجله قبل أن يقوى جمعه ، وكان أبو المهاجر موثقاً في الحديد مع عقبة ، فزحف عقبة على كسيلة ، فتنحى كسيلة عن طريقه ليكثر جمعه، فلمارأى أبو المهاجر ذلك تمثل بقول أبي محجن الثقفي:

كفى حزناً أن ترتدي الخيل بالقنا ... واترك مشدوداً عليَّ وثاقيا
إذا قمت عناني الحديد وأغلقت ... مصارع دوني قد تصم المناديا

فبلغ عقبة ذلك، فأطلقه وقال له: الحقْ بالقيروان وقم بأمر المسلمين، وأنا أغتنم الشهادة فلم يفعل ذلك، وقال: وأنا أيضاً أريد الشهادة وكسر عقبة والمسلمون أجفان سيوفهم، وتقدموا إلى البربر وقاتلوهم ، فقتل المسلمون جميعهم ومعهم عقبة ، وقتل معه زهاء ثلاثمائة من كبار الصحابة والتابعين في أرض الزاب بـ« تهوذة ».

وهكذا كان استشهاد أبي المهاجر - رحمه الله - سنة ثلاث وستين الهجرية (٦٨٣م) في معركة تهوذة ، وقبره إلى الآن جاثم على أرض مدينة الزاب، معلماً من معالم البطولة والتضحية في سبيل هذا الدين العظيم الذي رفع الناس من وشائج الطين، وروابط الدماء إلى قمم الروابط والوشائج.. وشيجة الدين وروابطه، فرحم الله أبا المهاجر ، الذي هجر الأوطان، والإخوان والأحباب والمال والأنساب ، في سبيل رفع راية **لا إله إلا الله محمد رسول الله** ، في سماء الشمال الإفريقي، وغرسها في أرضية قلوب العباد في تلك البلاد ، فأبو المهاجر ما فتئ يبذل فيها الغالي والنفيس حتي سقاها أخيراً بدمه الزكي، ودماء إخوانه الطيبين الأبرار، فهل يا ترى يعي أبناء هذه الشعوب أحفاد المجاهدين المتقين معاني كلمة **لا إله إلا الله محمد رسول الله** ، وهل يسعون لنشرها ، وهل يقدِّمونه في سبيلها الغالي والنفيس ، كما فعل أسلافهم من المجاهدين والعلماء من قبل ؟! .



المبحث الثاني
أهم صفاته القيادية ومبادئه الحربية

لقد كان أبوالمهاجر رحمه الله يتحلي بصفات ومميزات لا تجدها إلا عند السادة القادة الصلحاء،مما جعلته يصف في مصف قادة الفتح الإسلامي البارزين، ومن تلك الصفات القيادية التي كان يتحلى بها ، والمبادئ العسكرية التي استخدمها في حروبه الجهادية وفتوحاته الإسلامية ما يلي :

المطلب الأول
أهم صفاته القيادية

فقد كان يتحلى بتقوى الله، والتوكل عليه، والفزع إليه مخلصاً وفيّاً شهماً غيوراً، وكان يمتاز بالحكمة وبعد النظر والتعامل مع الأحداث بسياسة حكيمة، وكان محباً لرجاله ناصحاً لهم محبوباً لديهم، حسن السيرة، عفيفاً شجاعاً سخياً، بعيد النظر، صحيح القرارات والخطط.

ويقول الأستاذ محمود شيت خطاب :

«لقد كان أبو المهاجر من أولئك القادة الذين يقاتلون بسيوفهم وعقولهم، يقاتل بسيفه عندما لا يجد مفرّاً من ذلك، ويقاتل بعقله فيعامل الناس بالحسنى وبالسياسة الحكيمة وبالمنطق السليم ، وبالعقيدة البناءة المنشأ.

لقد جعل أبوالمهاجر رأس سلاحه في حربه تقوى الله، والاستعانة به، والتوكل عليه، والفزع إليه ومسألته بالتأييد والنصر، وكان محبّاً لرجاله محبوباً منهم، يثق بهم ويثقون به» [1] .

---

(١) المرجع السابق: (١/١٤٧-١٤٨) .

المطلب الثاني

أهم مبادئه الحربية الاستراتيجية

لا ريب أن المدة التي عاشها أبو المهاجر في ساحات الفداء والعمل الجهادي، قد أكسبته خبرة حربية، وعقلية استراتيجية، وكفاءة سياسية، فقد طبق خلال عمله في ساحات الفداء مبادئ حروب المدن، والعصابات، كمبدأ الحصار، والمباغتة والتعرض، وتحشيد القوة، والاقتصاد في المجهود، والتعاون، والالتفاف، والمرونة، والمحافظة على المعنويات وتأمين طرق المواصلات واختيار المقصد وإدامته.

يقول اللواء الركن محمود شيت خطاب معترفاً بأن أبا المهاجر كان قائداً حربيًّا بدرجة امتياز، يقول: «كان كامل العقل، طويل التجربة بصيراً بتدبير الحرب ومواضعها، ومواضع الفرص والحيل والمكايد، حسن التعبئة، وحسن السيرة عفيفاً صارماً حذراً متيقظاً شجاعاً سخيّاً، بعيد النظر، وصحيح القرارات والخطط.

وعند تطبيق أعمال أبي المهاجر العسكرية على مبادئ الحرب، نجد أنه طبق مبدأ «اختيار المقصد وإدامته»، فهو لم ينس أن هدفه نشر الإسلام لجعل الفتح مستداماً، فهو داعية أولاً وقائدٌ ثانياً، وأنه طبق مبدأ «التعرض» فكانت معاركه كلها تعرضية، وأنه طبق مبدأ «تحشيد القوة» قبل البدء بحركاته، فاستفاد من كل مقاتل مسلم، ولم يبق في القيروان إلا الشيوخ والنساء، وأنه طبق مبدأ «الاقتصاد بالمجهود» فلم يفرط بقواته دون مبرر، وأنه طبق مبدأ «الأمن» فلم يستطع العدو مباغتة قواته في أية معركة وأنه طبق مبدأ «التعاون» فوحد جهود رجاله لإحراز النصر، وأنه طبق مبدأ «الأمور الإدارية» بشكل ملحوظ، لقد كان أبو المهاجر قائداً ممتازاً» [١].

ويقول في موضع آخر: «ما فعله أبو المهاجر في مصالحة أهل قرطاجنة بغرض

---

(١) المرجع السابق: (١/١٤٨).

إخلاء جزيرة شريك التي يتخذها الروم قاعدة متقدمة لحركاتهم ضد المسلمين، حتى يحرم الروم من تلك الحيوية، وحتى يستفيد منها المسلمون كقاعدة متقدمة لهم في حركاتهم ضد الروم، لقد فضل أبو المهاجر جزيرة شريك الموقع السوقي الاستراتيجي على المال والغنائم، وهذا دون شك، قرارعسكري في منتهى الأهمية، و له دلالته الواضحة على ما كان يتمتع به أبو المهاجر من بعد النظر، وتفكير عسكري سليم» (١) .

ويقول أيضاً: «وفي أيام قيادته في إفريقية عانى أبو المهاجر في إفريقية حرب الحصار لقرطاجنة فأجبر أهلها على طلب الصلح والرضوخ إلى شروط أبي المهاجر، وهذا النوع من الحروب يتميز القائد الذي يعاينها بالضبط الشديد والصبر الجميل، كما عانى حروب الميدان حول تلمسان، وناهض جيوشاً كثيفة للبربر وهذا النوع من الحروب، يتميز القائد الذي يعاينها بالشجاعة والإقدام، وبالقابلية على إعطاء القرارات السريعة الصحيحة، وبالحرص على جمع المعلومات عن العدو، وعن أرض المعركة وبالكفاية الممتازة في إدارة المعركة التعبوية» (٢) .

فرحم الله أبا المهاجر رحمة واسعة، وأدخله فسيح جناته، فقد هاجر، وثابر، وصابر ورابط، وأوذي، وجاهد، واستشهد في سبيل إعلاء كلمة لا إله إلا الله، وأن يكون الدين كله لله.

قال تعالى: ﴿ **فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ** ﴾ [آل عمران: ١٩٥] .

---

(١) المرجع السابق: (١ / ١٤٦) .
(٢) المرجع السابق: (١ / ١٤٧) .

المبحث الثالث

زهير بن قيس البلوي رضي الله عنه

إن زهير بن قيس البلوي رضي الله عنه يعتبر من قيادات فتح الشمال الإفريقي إذ إنه كان صاحب لواء فتح مدينة تونس القديمة، وقاطع دابر فلول الروم والبربر الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، الذين تحصنوا في بعض الحصون حول مدينة قرطاجنة القديمة.

المطلب الأول

اسمه، نسبه

هو : زهير بن قيس البلوي يكنى أبا شداد، يقال له صحبة، وجزم بعضهم بصحبته، فقال: «هو من الصحابة» شهد فتح مصر وكان فتحها سنة عشرين هجرية، ومعنى ذلك أن زهيراً ولد في أيام الرسول ﷺ وهو صحابي المولد.

روى زهير عن جماعة من الصحابة، وروى عنه جماعة من التابعين، وقد عده بعضهم من الصحابة (١) الذين شهدوا فتح مصر ، فلذلك نال زهير شرف الصحبة ولم ينل شرف الجهاد تحت لواء الرسول القائد، إذ من الواضح أنه كان صغيراً على عهد النبي ﷺ (٢) .

المطلب الثاني

جهاده

﴿ ١ ﴾ شهد زهير فتح مصر تحت لواء عمرو بن العاص، وغزا إفريقية ووليها، وفي سنة اثنتين وستين هجرية رد يزيد بن معاوية عقبة بن نافع الفهري إلى إفريقية فاستخلف على القيروان زهيراً، وترك معه جنداً تعدادهم خمسة آلاف رجل مع الذراري والأموال لإعمار القيروان والمحافظة عليها من الغزاة.

---

(١) **انظر** : أسد الغابة في معرفة الصحابة (٢/١١٥) .

(٢) **انظر** : قادة فتح بلاد المغرب (١/١٠٥) .

﴿٢﴾ ولما استشهد عقبة بن نافع الفهري في تهوذة سنة ثلاثة وستين هجرية قصد كسيلة بن لمزم القيروان في جمع كثير من الروم والبربر، فعزم زهير على القتال، فخالفه حنش الصنعاني وعاد إلى مصر فتبعه أكثر الناس، فاضطر زهير إلى العودة معهم، فصار إلى برقة وأقام بها، وقد زحف كسيلة البرنسي إلى القيروان سنة أربعة وستين هجرية ، وانتزعها من يد المسلمين في المحرم، فعظم البلاء على المسلمين، فقام زهير بن قيس خطيباً في الناس، فقال: « يا معشر المسلمين: إن أصحابكم قد دخلوا الجنة ، وقد مَنَّ الله عليهم بالشهادة ، فاسلكوا سبيلهم يفتح الله لكم دون ذلك ».

فقال حنش الصنعاني: « لا والله ما نقبل قولك، ولا لك علينا ولاية، ولا عمل أفضل من النجاة بهذه العصابة من المسلمين إلى مشرقهم » ثم قال: « يا معشر المسلمين ! من أراد منكم القفول إلى مشرقه فليتبعني » فاتبعه الناس ولم يبق مع زهير إلا أهل بيته ، فنهض في إثره ولحق بقصره ببرقة، فأقام بها مرابطاً إلى دولة عبد الملك بن مروان .

وأقبل كسيلة البرنسي بعساكره، فلما قرب من القيروان، خرج من كان بها من المسلمين، إذ لم يكن لهم طاقة بقتاله لعظيم ما اجتمع معه من البربر والروم، فأمن كسيلة من بقي في القيروان من المسلمين، وأقام بالقيروان أميراً على سائر إفريقية والمغرب كله، وعلى من فيه من المسلمين، إلى أن ولي الخلافة عبد الملك ابن مروان، ولم يقم بالقيروان من المسلمين إلا أصحاب الذراري والأثقال، فأمنهم كسيلة وثبت قدمه بالقيروان، واستمر أميراً على بالبربر ومن بقي بها من المسلمين وأضرم المغرب ناراً، وفشت الردة في البربر، إلى أن استقل عبد الملك بالخلافة وأذهب آثار الفتنة من المشرق، فالتفت إلى المغرب لإعادة الفتح الإسلامي المجيد .

ولما استقل عبد الملك بن مروان بالخلافة بعد قضائه على الفتنة الداخلية كان

زهير مرابطاً في برقة منذ استشهاد عقبة بن نافع الفهري، فذكر عند عبد الملك من بالقيروان من المسلمين وأشار عليه أصحابه بإنفاذ الجيوش إلى إفريقية لاستنقاذهم من يد «كسيلة»، وأن يعز الإسلام بها كما كان في أيام عقبة فقال لهم عبد الملك: من للأمر مثل عقبة؟ فاتفق رأيهم ورأي المسلمين على زهير، وكان من رؤساء العابدين، وأشراف المجاهدين، فوجه إليه عبد الملك، وأمره بالخروج على أعنة الخيل في من معه من المسلمين لغزو إفريقية، فسر ذلك زهيراً وسارع إلى الجهاد.

ولكن زهيراً كتب إلى عبد الملك يعلمه بكثرة الروم والبربر، وبقلة من معه من الرجال والأموال، فأرسل عبد الملك إلى أشراف المسلمين ليحشدوا إليه الناس من الشام وأفرغ عليهم أموال مصر، فسارع الناس إلى الجهاد واجتمع منهم خلق عظيم، فأمرهم إن يلحقوا بزهير، فلما وصلوا إليه خرج بهم إلى إفريقية، فلما دنا من القيروان نزل بقرية يقال لها «قلشانة» وذلك في سنة تسعة وستين هجرية، فبلغ ذلك كسيلة وكان في خلق عظيم من الروم، والبربر، فدعا كبارهم وأشرافهم وشاورهم وقال لهم: «أرى أن ننزل بـ«ممس» لئلا يركبنا من بالقيروان فنهلك، ولأن بالقيروان خلقاً كثيراً من المسلمين ولهم علينا عهداً فلا نغدر بهم، نخاف إن قاتلنا زهيراً أن يثب هؤلاء وراءنا، فإذا نزلنا ممس أمناهم وقاتلنا زهيراً، فإن ظفروا بنا تعلقنا بالجبال ونجينا، كما أن الماء بـ«ممس» كثير، فأجابوه إلى ذلك، ورحل إلى ممس فبلغ ذلك زهيراً، فلم يدخل القيروان بل أقام ظاهرها ثلاثة أيام حتى أراح واستراح.

وفي اليوم الرابع زحف زهير في آلاف من المقاتلة، وجمع له كسيلة قبيلة البرانس وسائر البربر ولقيه بممس من نواحي القيروان، وأشرف زهير على عسكر كسيلة في آخر النهار، فأمر الناس بالنزول، فلما أصبح زحف إليه، وأقبل كسيلة ومن معه، والتحم الفريقان، فنزل الضر وكثر القتل في الجانبين حتى يئس الناس من الحياة، ولم يزل كذلك حتى انهزم كسيلة وقتل، ومضى الناس في طلب البربر

والروم، فلحقوا كثيراً منهم وقتلوهم، وجدوا في طلبهم إلى وادي ملوية وادي بطنجة بالمغرب، وفتحت «شقبنارية» وقلاع أخر، وفتحت مدينة تونس، وفي هذه الواقعة ذل البربر وفنت فرسانهم، ورجالهم وخضدت شوكتهم، وقتل رجال البربر الروم وملوكهم وأشرافهم، وفزع أهل إفريقية واشتد خوفهم، فلجئوا إلى الحصون والقلاع، واضمحل أمر الروم فلم يعد لهم شأن يُذكر، وخاف البربر من زهير والمسلمين خوفاً شديداً، وكسرت شوكة «أوربة» من بينهم، واستقر جمهورهم بديار المغرب الأقصى وملكوا مدينة «ولّيلي» وكانت فيما بين فاس ومكناسة ، ولم يكن لهم بعد هذه الواقعة ذكر.

وعاد زهير إلى القيروان، فرأى إفريقية ملكاً عظيماً، فأبى أن يقيم بها وقال: إني ما قدمت إلا للجهاد، وأخاف أن أميل إلى الدنيا فأهلك، وكان من رؤساء العابدين وكبراء الزاهدين، فترك القيروان آمنة، انصرف عنها، وأقام بها كثير من أصحابه فترك القيروان آمنة، لخلو البلاد من عدو ذي شوكة، ورحل في جمع كثير إلى مصر، فبلغ الروم خروجه من إفريقية إلى برقة، فأمكنهم مما يريدون فخرجوا إليها في مراكب كثيرة وقوة عظيمة من القسطنطينية ونهبوا، ووافق ذلك قدوم عسكر زهير، فأمر عسكره بالمسير إلى الساحل طمعاً بأن يدرك سبي المسلمين فيستنقذهم، وأشرف على الروم، فإذا هم في خلق عظيم، فلم يقدر على الرجوع، وقد استغاث به المسلمون وصاحوا، والروم يدخلونهم المراكب، فنادى أصحابه: النزول، فنزلوا، وكان أكثرهم من التابعين، ونزل الروم إليهم، وتلقوهم بعدد عظيم، فتلاحم القتال وتكاثرت عليهم الروم فقتل زهير وأشراف من كانوا معه من العرب ، ولم ينج منهم أحد، وعاد الروم بما غنموا إلى القسطنطينية [١] .

---

١) المرجع السابق: (١ / ١٥٠، ١٥١، ١٥٢، ١٥٣، ١٥٤، ١٥٦، ١٥٧) .

المطلب الثالث

استشهاده

لقد كان زهير رضي الله عنه من رؤساء العابدين، وأشراف المجاهدين صاحب فضل ودين، وكان من العباد المخبتين، وكان من العلماء المتفقيهن، شهد فتح مصر سنة عشرين هجرية، وشارك في معارك عقبة بن نافع رضي الله عنه وقام باسترداد إفريقية من كسيلة وقتله، ثم بعد نهايته من استرداد إفريقية بلغته معلومات خطيرة، فحواها تحشد الروم من قسطنطينية وصقلية على شواطئ برقة، ومنهم من نزل إلى برقة وقد أخذوا السبي والأموال من المسلمين.

فتوجه لتوه ناحية برقة، فلما أشرف من مرتفعات برقة على الروم ورائهم ماذا يفعلون بسبي المسلمين لم يكن له بد من خوض هذه المعركة، وأن يبذل الغالي والنفيس في شواطئ درنة وشحات، فأكرمه الله بالشهادة وثلة ممن معه في تلك المعركة، ودفنوا في مدينة درنة وقبورهم لا زالت موجودة حتى الآن وتسمى مقبرة الصحابة، كان ذلك سنة ست وسبعين هجرية، فرضي الله عنهم وأدخلهم فسيح جناته، ورحم الله زهيراً، حقًّا إنه كان مجاهداً من المهد إلى اللحد.

المطلب الرابع

أهم صفاته القيادية وتطبيقاته الحربية

أهم صفاته القيادية :

لقد امتاز بصفات قيادية عدة منها: الشجاعة، والإقدام، والذكاء، والصبر، والنجدة، والشهامة، والورع، والتقوى، والزهد، وكان يحب رجاله ويحبونه، ويثق بهم، وكان ذا تجربة طويلة عملية في الحروب، مارسها منذ قدر على حمل السلاح حتى يوم استشهاده.

يقول الأستاذ محمود شيت خطاب: «كان زهير من رؤساء العابدين وأشراف

المجاهدين، صاحب فضل ودين، وكان من العباد المخبتين، وكان من العلماء المتفقهين» [١] .

ويقول في موضع آخر: «لقد كان زهير من رجالات السلف الصالح: شجاعة، وبطولة، وإيمانا، وورعاً ... نشأ زهير في بيئة مخلصة تتسم بالشجاعة والإقدام، وترعرع في أيام الجهاد الأولى ، وفي العهد الذهبي للفتح الإسلامي» [٢] .

تطبيقاته الحربية : لقد طبق زهير في معاركه مبادئ حربية كثيرة منها: التحشد ، والأمور الإدارية، وحماية خطوط المواصلات، وجمع المعلومات، والعمليات الاستطلاعية ، والتعرض.

يقول الأستاذ محمود شيت خطاب بعد حديثه عن طلب زهير من عبد الملك يسأله الإمداد بالرجال والأموال: «فأرسل عبد الملك إلى أشراف العرب ليحشدوا إليه الناس من الشام، وأفرغ عليهم أموال مصر ، وبذلك طبق زهير مبدأي التحشد والأمور الإدارية على أحسن وجه» [٣] .

ويقول في موضع أخر: «لست أشك أن حامية منطقة برقة التي خلفها زهير وراءه لحماية تلك المنطقة من العرب، ولحماية خطوط مواصلاته، لا يمكن أن تكون في ظلام دامس بعيدة عن الأحداث لا تهتم بالحصول على المعلومات عن نيات العدو المتربص، فلا بد أن يكون له مصادر مختلفة مهمتها الحصول على المعلومات عن العدو من البربر في مختلف الأماكن والأصقاع» [٤] .

أخيراً: رضي الله عن الصحابي الجليل، والمجاهد من المهد إلى اللحد، الذي أعاد إفريقية إلى حظيرة الإسلام ، وقدم نفسه في سبيل إنقاذ أعراض المسلمين وديارهم، المجاهد الشهيد، زهير بن قيس البلوي .

---

(١) المرجع السابق: (١/ ١٦٣).
(٢) المرجع السابق: (١/ ١٦٣).
(٣) المرجع السابق: (١/ ١٦٥).
(٤) المرجع السابق: (١/ ١٦٧).

المبحث الرابع

حسان بن النعمان الأزدي الغساني

بعد أن استقر ملك عبد الملك بن مروان التفت إلى الشمال الإفريقي وأوضاعه العسكرية والسياسية، فرأى أن يندب لتحقيق أهدافه السياسية والعسكرية في تلك المنطقة حسان بن النعمان، فكتب له بقيادة الحملة على الشمال الإفريقي، فمن هو حسان بن النعمان ؟ .

المطلب الأول

نسبه وأيامه الأولى

هو حسان بن النعمان بن عدي بن مغيث بن عمرو بن مزيقياء بن عامر ماء السماء بن الآزد، أهله من الغساسنة ملوك الشام الذين كانوا موالين للإمبراطورية البيزنطية قبل الفتح الإسلامي، فأسلم بعضهم وبقي بعضهم نصرانياً، فنشأ وترعرع في بيت عريق له ماض مجيد في القيادة والحكم، انتقل جده عمرو بن مزيقياء الذي كان من ملوك اليمن إلى أرض الشام، فكان من أولاده وأحفاده ملوك بني غسان.

كان حسان من التابعين، وقد حدث عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكانت له مكانة مرموقة عند بني أمية وعند الناس ، حتى أطلق عليه لقب : الشيخ الأمين [1] .

---

(١) انظر : سير أعلام النبلاء(٤ / ١٤٠) .

المطلب الثاني

جهاده

﴿ ١ ﴾ لما بلغ عبد الملك بن مروان مقتل زهير بن قيس البلوي، وأصحابه اشتد عليه وعلى المسلمين ذلك ، وكانت المصيبة بزهير وأصحابه مثل المصيبة بعقبة بن نافع الفهري، وأصحابه، وسأل أشراف المسلمين عبد الملك بن مروان أن ينظر إلى أهل إفريقية، ويؤمنهم من عدوهم ويبعث الجيوش إليهم، فقال عبد الملك: «ماأعلم أحداً أكفأ بإفريقية من حسان بن النعمان الغساني» ولما قتل عبد الله بن الزبير سنة ثلاث وسبعين الهجرية أصبح عبد الملك بموقف يساعده على إرسال الجيوش إلى إفريقية، إذ اجتمع المسلمون عليه، فجهز جيشاً كبيراً واستعمل عليهم وعلي إفريقية حسان بن النعمان، وسيرهم إليها في سنة أربع وسبعين هجرية ، وقيل: بعد سنة ٧٦ هـ .

﴿ ٢ ﴾ ودأب حسان على إنجاز استحضارات جيشه الذي بلغ تعداده أربعين ألفاً أقامه أولاً في مصرعدة لما يحدث، وكتب إليه عبد الملك يأمره بالنهوض إلى إفريقية ويقول له: «إني أطلقت يدك في أموال مصر، فأعط من معك ومن ورد عليك، وأعط الناس واخرج إلى بلاد إفريقية على بركة الله وعونه».

﴿ ٣ ﴾ ومضى حسان في جيشه الكبير، حتى نزل طرابلس الغرب، فاجتمع إليه من كان بها، ومن كان خرج معه من إفريقية وطرابلس، فأرسل مقدمة جيشه إلى إفريقية، وعليها محمد بن أبي بكير، وهلال بن ثروان اللواتي وزهير بن قيس، ففتح البلاد وأصاب غنائم كثيرة، وهذا يدل على أنه اجتاز برقة وطرابلس دون أن يلقي مقاومة، وأن جيشه ازداد عدده بالتحاق سكان تلك المنطقة من المسلمين به، وأنه لاقى مقاومات طفيفة في طريقه من طرابلس إلى القيروان من الحاميات الرومية المتفرقة في المدن الواقعة على طريق جيش حسان، ففتح البلاد

وأصاب غنائم كثيرة، وكان تولي هلال بن ثروان اللواتي، وهو أول بربري مسلم تسند إليه قيادة قوة من المسلمين يدل على أن المسلمين كسبوا لأنفسهم أنصاراً من أهل البلاد يدلونهم في مسيرهم وينصرونهم ويقاتلون معهم جنباً إلى جنب.

﴿ ٤ ﴾ وما كاد حسان ينجز استحضارات جيشه من كل الوجوه، إلا وسأل أهل إفريقية: من أعظم الملوك بها قدراً؟ فقالوا: صاحب قرطاجنة «دارا» ملك إفريقية، وقرطاجنة هي المدينة العظمى، قريعة رومة وضرتها وإحدى عجائب الدنيا، وكان يومئذٍ بها جموع من الروم لا تحصى، ولم يكن المسلمون قط حاربوها وفتحوها عنوة، بل كانوا يحاصرونها ويفرضون على أهلها مالاً أو بلاداً مجاورة كجزيرة شريك.

فلما وصل حسان إلى قرطاجنة رأى بها من الروم والبربر ما لا يحصى كثرة، فقتل منهم عدداً كثيراً، فلما رأوا ذلك اجتمع رأيهم على الهرب، فركبوا مراكبهم وسار بعضهم إلى صقلية وبعضهم إلى الأندلس، ففتحها عنوة، فسلبها وغنم ما فيها وأرسل إلى ما حولها من العمال، فاجتمعوا مسرعين، فأمرهم بهدم قرطاجنة وقطع القناة عنها.

وانصرف حسان عن قرطاجنة عائداً إلى القيروان، فعلم أهل بواديها وأقاليمها بهروب ملك قرطاجنة عنها، فبدروا إليها فدخلوها، ورحل إليها حسان ونزل عليها فحاصرها حصاراً شديداً حتى دخلها بالسيف فقتلهم قتلاً ذريعاً وسباهم وأرسل لمن حوله فاجتمعوا إليه مسارعين خوفاً من عظيم سطوته وشدة بأسه، فلما أتوه ولم يبق منهم أحد، أمرهم بتخريب قرطاجنة وهدمها، فخربوها حتى صارت كأمس الغابر.

والظاهر أنه هدم بعض أسوارها لكي لا يحتمي به المدافعون مرة أخرى ، وقطع القناة عنها لكي يحرم المدافعين عنها من المياه العذبة، وهذان العاملان نفذهما في فتحه الأول لقرطاجنة، ومن إجرائه هذا، يبدو أنه استهدف من تخريب تلك

المرافق في قرطاجنة الناحية العسكرية، الحيوية فقط، حتى يحرم الروم وغيرهم من اللجوء إليها أو الدفاع عنها نهائيًا ، ولكنه لم يقم بتدمير مرافقها الحيوية كافة، لأن الأحداث المقبلة تدل بوضوح على أن المسلمين لم يخربوها تماماً، وإنما بقيت على درجة كبيرة من المنعة ، حتى إن الروم تحصنوا بها مرة أخرى بعد ذلك بسنوات، وهذا ما يفهم من قول النويري: « فهدم المسلمون ما أمكن منها » [١] .

وتنبه حسان بعد هذا الحادث إلى أن الروم لا زالوا على شيء من القوة والكثرة في نواحي كثيرة من المناطق المحيطة بقرطاجنة ، وأنه لا زالت هناك مدائن وحصون يجتمعون بها بعد أن انقطع رجاؤهم من قرطاجنة نفسها ، فقد بلغه أن الروم والبربر قد اجتمعوا في « صطفورة » و« بنزرت » وهما مدينتان، فسار إليهم وقاتلهم ولقي منهم شدة وقوة، ولكن المسلمين صبروا، فانهزم الروم، وكثر القتل فيهم ففتح المسلمون تلك البلاد، ولم يترك حسان موضعاً من تلك البلاد إلا وطأه، وخاف أهل إفريقية خوفاً شديداً، ولجأ المنهزمون من الروم إلى مدينة « باجة » فتحصنوا بها، وتحصن البربر بمدينة « بونة » [٢] ، فعاد حسان إلى القيروان لأن الجراح قد كثرت في أصحابه، فأقام بها حتى صحوا.

لقد كانت معركة قرطاجنة الأولى هي التي أدت إلى هروب القوة الضاربة للروم إلى الأندلس، وإلى صقلية، وإلى المناطق المحيطة بقرطاجنة، وأما المعركة الثانية ومعركة « صطفورة »، و« بنزرت » فهي التي أدت إلى تشتيت فلول قوات الروم وبعض حلفائهم البربر، وكانت تلك المعارك من معارك استثمار الفوز، وطهر حسان منطقة قرطاجنة من قوات الروم الباقية ومن حلفائهم، وكان قرار حسان في الإقدام على المعركة الحاسمة قراراً صائباً ، لأن تلك القوات لو تركت وشأنها لزاد عددها ولوجدت موطئ قدم ورأس جسر يهيئ للروم العودة مرة

---

(١) نهاية الأرب، (ص٧٤ ب) نقلاً عن قادة فتح المغرب (١ / ١٨٠)

(٢) بونة: مدينة حصينة بإفريقية تقع على البحر، انظر: معجم البلدان (٢ / ٣٠٩)

أخرى إلى قرطاجنة وما حولها من القسطنطينية أو من صقلية، أو من الأندلس، فيستعيدون ما خسروا من مدن ومناطق أخرى، ويجبرون المسلمين مرة أخرى على خوض معركة كبيرة لا يمكن معرفة نتائجها ولا تؤدي إلا إلى خسائر فادحة في الأرواح والموارد، كما تؤدي إلى مضاعفات قد تعرقل ترسيخ أقدام الفتح الإسلامي في إفريقية وتؤخر إنجاز الفتح الإفريقي.

وكان قراره في العودة إلى القيروان ، وإقامته فيها حتى برأت جراح أصحابه [١] ، وأراح به أياماً، أكمل تدابير جيشه الإدارية، كان قراره هذا صائباً، لأنه كان لابد للجرحى أن يشفوا من جراحهم، ولابد للجيش من راحة بعدما نال من رجاله طول القتال ، ولابد للقضايا الإدارية من معالجة وإعداد ، وبذلك أصبح جيشه حاضراً للقتال مرة أخرى.

﴿ ٥ ﴾ وسأل حسان أهل القيروان عمن بقي من أعظم ملوك إفريقية ليسير إليه فيبيده أو يُسلم، فدلوه على امرأة بجبل أوراس يقال لها: الكاهنة، وجميع من بإفريقية من الروم خائفون منها، وجميع البربر مطيعون لها، فإن قتلتها دان لك المغرب كله، ولم يبق لك فيه مضاه ولا معاند، وكانت هذه الكاهنة تخبرالبربر بأشياء من الغيب، ولهذا سُميت الكاهنة، كانت بربرية [٢] ، وقد اجتمع إليها البربر بعد قتل كسيلة، وهي إذ ذاك ملكة « جراوة » من قبائل البربر الكبيرة، وهي

---

(١) **انظر** : رياض النفوس للمالكي(١ / ٣٢) .

(٢) **قلت** : « الكهنة هم الذين يأخذون عن مسترقي السمع، وكانوا قبل المبعث كثيرين وأما بعد مبعث النبي ﷺ فإنهم قليل، لأن الله تعالى حرس السماء بالشهب وكانت ولا زالت الشياطين من الجن تخبر أولياءها من الإنس، والإسلام حرم ذلك، قال تعالى: **﴿ويوم يحشرهم جميعا يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله إن ربك حكيم عليم﴾** [الانعام:١٢٨] وإخبار الجن الإنس فيه كذب وزور واختلاف، وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: **[من أتى كاهناً فصدقه لما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد]** (رواه أبو داود) ، هكذا يا أخي الحبيب كانت الشعوب والقبائل، والأمم قبل مجيء الإسلام في تيه وضلال وركام من التصورات الباطلة.

يومئذٍ أعظم ملوك البربر، بل هي ملكة البربر دون منازع، وكان لهذه الكاهنة بنون ثلاثة ورثوا رئاسة قومهم عن سلفهم، وربوا في حجرها، فاستبدت عليهم واعتزت على قومها بهم، ولما كان لها من الكهانة، فانتهت إليها رئاستهم ووقفوا عند إشارتها.

وعزم حسان على قصدها، فخرج إليها بجيوشه، ولما بلغ موضعاً يقال له: «مجانة» [١] نزل بها، وكانت قلعة لم تفتح، فتحصن بها الروم، فمضي حسان وتركهم، وبلغ الكاهنة أمره فزحفت من جبل «أوراس» في عدد لا يحصى، فنزلت في مدينة «باغاية» [٢] فأخرجت من بها وهدمتها، لأنها ظنت أن حسان يريد حصنها ليحصن به منها، وأقبل حسان حين بلغه الخبر إلى وادي «مكناسة» [٣]، فقيل له: إنها قد أقبلت في عدد لا يحصي، فقال: دلوني على ماء يسع العسكر الذي أنا فيه، فمالوا إلى نهر «نيني» [٤] فنزل عليه، وزحفت إليه الكاهنة حتى أتت أسفل النهر فنزلت عليه، ودنا الطرفان من بعضهما، فأبى حسان أن يقاتلها آخر النهار، وأبى أن يقاتلها بالليل، وبات الفريقان على مصافهم، فما أصبحوا حتى زحف بعضهم على بعض، فاقتتلوا قتالاً شديداً، وعظم البلاء فظن المسلمون أنه فناء، فانهزم حسان بعد بلاء عظيم، وقتل من المسلمين خلق كثير، فسمي ذلك اليوم يوم البلاء، وسمي النهر الذي التقوا عليه: نهر البلاء، فاتبعته الكاهنة بمن معها، حتى خرج من حد «قابس» فأسلم إفريقية ومضى على وجهه، وأسرت من أصحابه ثمانين رجلاً منهم خالد بن يزيد العبسي، وكان رجلاً مذكوراً، فأحسنت إسارهم، إلا خالد بن يزيد، وكان أذكر من كان مع حسان فحبسته عندها، ثم عمدت إلى دقيق شعير مقلو فأمرت فلت

---

(١) **مجانة**: بلد بإفريقية بينها وبين القيروان خمس مراحل: انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣٨٦/٧).
(٢) **باغية**: مدينة كبيرة بين مجانة وقسطنطينة، انظر: معجم البلدان (٤١/٢).
(٣) **مكناسة**: مدينة بالمغرب في بلاد البربر، تبعد عن مراكش أربعة عشرة مرحلة من الشرق.
(٤) **نيني**: نهر في إفريقية، انظر: معجم البلدان (٢٦٩/٨).

بزيت، والبربر تسمي ذلك «البسيسة»، وقالت لخالد : ما رأيت في الرجال أجمل منك وأشجعَ وأنا أريد أن أرضعك فتكون أخاً لولدي، فعمدت إلى دقيق الشعير الملتوت بزيت، وجعلته على ثدييها ، ودعت ولديها ، وقالت: كلا معه على ثدي ، ففعلا ، فقالت: قد صرتم إخوة ، وكانت الكاهنة من جماعة البربر لها رضاع إذا فعلوه يتوارثون بينهم [١] .

كما يبدو أن الإحسان إلى الأسرى كان من تقاليد البربر العريقة،حيث إنهم دأبوا على الإحسان إلى الأسرى في معاركهم السابقة، فكيف لا تحسن إليهم الكاهنة بعد معركة نيني؟ وقد يكون لتقرب خالد بن يزيد منها أثركبير على إحسانها هذا، فمن المحتمل جداً أن خالداً بذل جهوده بعد أن أصبح أسيراً عند الكاهنة لإنقاذ إخوانه الأسرى ، فكان له ما أراد.

واكتفت الكاهنة بهزيمة المسلمين في جبل الأوراس، ثم تتبعت حسان حتى أخرجته من حدود إفريقية ، ولم تسر إلى القيروان فتقضي على المسلمين فيها وتسيطر على هذا البلد كما فعل «كسيلة» من قبل ؟ .

لقد استخلف حسان أبا صالح على إفريقية ، وقد كانت القيروان عامرة بالمسلمين ، فلماذا لم تقض عليهم الكاهنة وتقض على عاصمة المسلمين في إفريقية مدينة القيروان ؟ .

يبدو أن الكاهنة لم تكن ترجو شيئاً أكثر من خلاص منازل قبيلتها وملك أبنائها في أوراس، فاكتفت بإبعاد القوة التي كانت تهدد سلامة الأوراس وسكانها [٢] ، وما دام المسلمون الذين في القيروان ضعفاء مسالمين ، فلا خطر

---

(١) هذه الصورة من الرضاع لا يعرفها الإسلام، ويشترط أن يكون الرضاع دون الحولين ويتحقق معه وصول لبن حقيقي إلى جوف الرضيع مما يعتبر إرضاعاً، وقد اختلف الفقهاء في عدد الرضعات، وأميل إلى كونه بخمس رضعات مشبعات فما أكثر.

(٢) انظر: فتح العرب للمغرب، د. حسين مؤنس(ص ٢٤٩) .

على الكاهنة منهم ، كما أن تهديد الكاهنة للقيروان بالدمار وسكانها ، غير المحاربين بالفناء، لا يخلو من إثارة البربر المسلمين على الكاهنة مما يؤدي إلى خلق المتاعب والمشاكل لها دون مبرر.

مهما يكن من شيء، فقد بقيت القيروان على حالها لم تمسها الكاهنة بسوء، فبقي من بها من المسلمين يقوم بأمرهم أبو صالح، ولم تحفل الكاهنة لهم ، وإنما عادت إلى «الأوراس» وبهذا لا نخطئ إذا وصفنا حركة الكاهنة بأنها لم تكن أكثر من ثورة محلية في ناحية من نواحي البلاد لا انتقاص تام ، وكان حسان يفهم هذه الحركة هذا الفهم ، ولهذا أقام في طرابلس ينتظر المدد وينظم أموره هناك [١] .

﴿ ٦ ﴾ طفق حسان يرفق في سيره طمعاً فيمن نجا من أصحابه أن يلحقوا به ، وذلك أثناء انسحابه من معركة نيني، مما يدل على أن المسلمين الذين استقروا في القيروان كانوا غيرمحاربين، فلما فصل من قابس كتب إليه أمير المؤمنين: «لقد بلغني أمرك وما لقيت وما لقي المسلمون، فانظر حيث لقيت كتابي هذا، فأقم ولاتبرح حتى يأتيك أمري» فلقيه الكتاب وهو نازل لمكان يقال له اليوم قصور حسان، فبنى هناك قصراً لنفسه ونزل قصوراً من حيز برقة فسميت قصور حسان، وكانت «أنطابلس» و«لوبية» و«مراقية» إلى حد «أجدابية» من عمل حسان، فأقام بعمل برقة خمس سنوات [٢] .

وتوافدت على حسان فرسان المسلمين ورجالها من قبل أمير المؤمنين عبد الملك ابن مروان، فدعا حسان عند ذاك برجل يثق به وبعثه إلى خالد بن يزيد، فأتاه فقال له: إن حسان يقول لك: ما يمنعك من الكتابة إلينا؟ وبعث حسان مع هذا الرجل بكتاب يستعلم من خالد الأمور، فكتب خالد في ظهر كتاب حسان: «إن

---

(١) انظر: فتح العرب للمغرب، (ص ٢٤٩)، نقلاً عن قادة المغرب (١/ ١٨٦).
(٢) انظر: ابن الأثير (٤/ ١٤٣).

البربر متفرقون، لا نظام لهم و لا رأي عندهم، فاطو المراحل وجد في «السير» وجعل الكتاب في خبزة وجعلها زاداً للرجل ووجهه إلى حسان، وكان خالداً قد أنضج الخبز فاحترق الكتاب بالنار، فلما كسر حسان الخبزة وقرأ الكتاب الذي كتبه إليه خالد وجده قد أفسدته النار، فقال له حسان: «ارجع إليه»، وعاد الرجل إلى خالد، فكتب إلى حسان بما كتب أولاً وأودعه قربوس [١] السرج حفره ووضع الكتاب وأطبق عليه حتى استوى وخفي مكانه [٢] .

يجدر بنا أن نتوقف قليلاً هنا، فقد بذل حسان قصارى جهوده لاستطلاع أمر الكاهنة، فاستطاع أن يحصل على معلومات قيمة عن تفرق البربر فلا نظام لهم، ولا رأي عندهم، كما أن تدابير الكتمان التي اتخذها خالد بلغت حد الروعة والإتقان، فهو يخفي رسالة إلى حسان تارة في الخبز الذي عمل على إنضاجه حتى يستوي وخفي مكانه ، ولن يستطيع ضابط استخبارات ممتاز محترف في الوقت الحاضر أن يتخذ تدابير أكثر حذراً وأدق مما فعله خالد في تدابيره تلك، وبذلك استطاع أن يوصل إلى حسان علم ما يحتاج إليه [٣] .

﴿ ٧ ﴾ ملكت الكاهنة المغرب كله خمس سنوات، فلما رأت إبطاء المسلمين عنها قالت للبربر: إن المسلمين إنما يطلبون من إفريقيا المدائن والذهب والفضة، ونحن إنما نريد منها المزارع والمراعي! فلا أرى لكم إلا خراب كلها، حتى ييأس منها المسلمون، فلا يكون لهم رجوع إلى آخر الدهر! فوجهت قومها إلى كل ناحية يقطعون الشجر، ويهدمون الحصون، فذكروا أن إفريقيا كانت ظلاً واحداً من طرابلس إلى «طنجة» وقرى متصلة، ومدائن منتظمة، حتى لم يكن في أقاليم الدنيا أكثر خيرات ، ولا أوصل بركات، ولا أكثر مدائن وحصوناً من إقليم إفريقيا والمغرب.. وخرج يومئذٍ من النصارى والأفارقة خلق كثير، مستغيثين مما

---

(١) القربونس: حمو السرج.
(٢) انظر: فتحوح مصر والمغرب، لابن عبد الحكم ، (ص-٢٧٠).
(٣) نفس المصدر نقلاً عن قادة فتح بلاد المغرب العربي (١/ ١٨٨).

نزل بهم من الكاهنة، فتفرقوا على الأندلس وسائر الجزائر البحرية.

لقد أضر هذا العمل التخريبي بقضية الكاهنة ضرراً عظيماً، لأنه إذا كان قد وجد من أهل البلاد من يؤيدها في مناهضة العرب وطردهم من البلاد، فليس فيهم من يقف مكتوف الأيدي إزاء التخريب الذريع الذي اختارته الكاهنة للبلاد على يديها وأخذوا يعارضون الكاهنة ويناجزونها، فاضطرب الأمر بيدها، وانقلب أمر البلاد من سيء إلى أسوأ.

هكذا تضعضع سلطان الكاهنة في بلادها: إدارة سيئة، وظلم للناس، وتخريب للبلاد، وحكم مرتجل لا هدف له ولا غاية.

وقد أخطأت الكاهنة في تقديرها لأهداف المسلمين من الفتح، فقد كان هدفهم استكمال فتح البلاد ونشر الإسلام في ربوعها، فلم تكن همتهم منصرفة إلى المدائن والمزارع، وإنما إلى أهل البلاد أنفسهم، ولهذا لم يكن لعمل الكاهنة التخريبي أثر في نفس حسان ولافي سياسته، ولم تجنِ الكاهنة من أعمالها إلا سخط أهل البلاد عليها وتركهم إياها وميلهم إلى جانب المسلمين.

﴿ ٨ ﴾ هذه أخبار الكاهنة فماذا عن الروم وحركاتهم في إفريقيا بعد هزيمة حسان أمام الكاهنة، وفي أثناء بقائه متحفزاً في صور من أرض برقة وجد الروم في خروج حسان من إفريقيا فرصة سانحة لاستعادتها وبسط سلطانهم عليها من جديد، وكان الإمبراطور الجديد - لينتيوس - الذي خلف جستنيان الثاني (سنة ٧٤هـ/ ٦٩٥م) قد أهمه سقوط قرطاجنة في يد العرب وتخريب حسان لها، إذ لم يجد تسليم هذا الجزء الكبير من الإمبراطورية - دون مقاومة - أمراً سهلاً على نفسه، كما يقول ديل، فما كادت أخبار هزيمة حسان على نهر نيني ترد إليه، حتى عجل بالعمل فقد أعد حملة كبيرة لإفريقيا، ويبدو أنه بذل في إعدادها جهداً عظيماً ، لأنه تخير لقيادتها قائداً من أشهر قواد الدولة وأقدرهم هو البطريق يوحنا وأعد أسطولاً كبيراً لنقل الجند إلى إفريقيا.

وظهر الأسطول البيزنطي في مياه قرطاجنة في (سنة ٧٨ هـ/٦٩٧م)وتمكن من الاستيلاء على المدينة ، وضرب المسلمين الذين كانوا فيها «الذين على رأسهم أبو صالح» وقسا في معاملة من وقع تحت يده من المسلمين قسوة زائدة، حتى إنه كان ليقتل الكفار بيده - كما يقول تيوفانس ونقفور - فلما تم له ذلك، اكتفى بها وأراح في قرطاجنة طيلة شتاء هذه السنة ، ولم يكلف نفسه عناء الشروع في عمل آخر [١] .

﴿٩﴾ بهاتين الحركتين: حركة الكاهنة، وحركة البطريق يوحنا، تم انتقاص إفريقيا على المسلمين، وخرجت من يدهم جملة ، ولم يبق في طاعتهم شبر واحد من الأرض مما يلي قابس غرباً ، وكان التقاسم بين البطريق والكاهنة سهلاً لا اختلاف فيه، أقامت هي في الجنوب في السهل الداخلي، بينما اهتم يوحنا بأن يعيد الرباط الذي يمتد من «سوسة» إلى «شقبنارية» .

كان حسان في شغل شاغل لإعداد جيشه وتنظيمه وتسليحه، وإكمال قضاياه الإدارية لاستعادة إفريقيا، وتوطيد أركان الإسلام في ربوعها، بينما كانت الكاهنة وكانت الروم في الجهة الثانية يثيرون التذمر ويغرسون الأحقاد ويشيعون الفوضى -كل ذلك يسر لحسان استعادة فتح إفريقيا وتحقيق أهداف المسلمين في أرجائها.

﴿١٠﴾ أقام حسان خمس سنوات على مقربة من سرت في المكان المسمى: قصور حسان، يلح على عبد الملك بن مروان لإرسال الإمدادات إليه، فلماذا تأخرعبد الملك طيلة هذه المدة عن تلبية طلبات حسان الملحة المشروعة؟.

كان عبد الملك في هذه الفترة بالذات مشغولاً بمكافحة الفتن الداخلية ... وهكذا مرت هذه الفترة الحافلة: ثورات داخلية لابد من تحشيد الجيوش للقضاء

---

(١) انظر: فتح العرب للمغرب (٢٥٤)، نقلاً عن قادة فتح المغرب العربي (١/١٩١).

عليها، وغزوات للروم في (سنة سبع وسبعين هجرية وثمانين هجرية)، هذه الغزوات ضرورية لأمن الدولة الإسلامية، وكل ذلك حتى لا يهاجم الروم دار الإسلام، لأن هذا الهجوم هو أنجح وسائل الدفاع كما تنص عليها نظم الحروب .. وطاعون ذريع في أرض الشام لا يُبقي ولا يذر .. كل ذلك منع عبد الملك بن مروان من تلبية طلبات حسان الملحة لتدعيمه بالإمدادات العسكرية من أجل استعادة فتح إفريقيا وقطع دابر الروم والبربر فيها.

﴿ ١١ ﴾ وسير عبد الملك إلى حسان الجنود والأموال، وتوافدت عليه فرسان المسلمين ورجاله، حتى إذا اكتملت استحضاراته للقتال وتهيئة جيشه ماديّاً ومعنوياً، أمره عبد الملك بالمسير إلى إفريقيا وقتال الكاهنة، فرحل حسان إليها في أواخر سنة إحدى وثمانين هجرية ، وبلغ الكاهنة خبره، فرحلت من جبال الأوراس في خلق عظيم، ولما اقترب حسان من الكاهنة، خرجت ناشرة من شعرها، فقالت: يا بني! انظروا ماذا ترون في السماء؟ ، فقالوا: نرى شيئاً من سحاب أحمر، فقال: لا وإلهي، لكنها وهج خيول العرب، ثم قالت لخالد بن يزيد: إني إنما تبنيتك لمثل هذا اليوم، أنا مقتولة، أوصيك بأخويك هذين خيراً، فانطلق فخذ لهما أماناً! فانطلق خالد فلقي حساناً، فأخبره خبرها، وأخذ لابنيها الأمان ... ثم التحم القتال واشتدت الحرب والنزال ، فانهزمت الكاهنة ، فاتبعها حسان حتى قتلها.

كانت هذه المعركة بين المسلمين وبين الكاهنة وجيشها في سنة اثنتين وثمانين هجرية (٧٠١ م) وبعد مقتل الكاهنة أخلد البربر إلى الطاعة، واطمأنت نفوس أكثرهم إلى الإسلام [١] ، وبذلك قضى المسلمون على آخر حركة قام بها أهالي البلاد لردهم ، إذ كانت الكاهنة هي الحصن الأخير الذي احتمى وراءه أهل

---

(١) انظر: فتح العربي في ليبيا، (ص١٣٩٠).

البلاد ، فلما سقطت انتهت كل مقاومة ولم تبق أمام المسلمين غير مقاومة طفيفة من بعض قبائل البربر.

﴿ ١٢ ﴾ وعاد حسان إلى القيروان بعدما حسن إسلام البربر، وطاعتهم، وذلك في (شهر رمضان سنة اثنتين وثمانين هجرية) [١] ، ليريح جيشه وليكمل نواقص قواته الإدارية، فلما استراح جيشه وانجز حسان استحضاراته اتجه إلى شمال القيروان إذ لازالت هناك بقاع يحكمها الروم وقلاع يسيطر عليها البربر، وكانت جبال زغوان في شمال القيروان وفي جنوب قرطاجنة لا تزال موطناً لمقاومة البربر والروم، ولعل قربها من قرطاجنة جعلها الخط الدفاعي الأول عن تلك المدينة، فأرسل إليها حسان مولاه أبا صالح فنازلها ثلاثة أيام دون جدوى، فأسرع إليها حسان بنفسه ففتحها صلحاً.

ولم يبق على حسان إلا استعادة وفتح قرطاجنة ، وكان يوحنا ورجاله من الروم قد حصنوها وأعادوا ما تهدم من أسوارها، وكانوا يرقبون حركات حسان، فسار إليهم، فتحصنوا بها، وحاصرهم حسان فنشبت معركة طاحنة بين الطرفين انهزم في أعقابها يوحنا هزيمة شنيعة، فالتجأ إلى قرطاجنة محتمياً بها، وانهزم الأسطول البيزنطي في موقعة كبيرة سقطت بعدها قرطاجنة في يد حسان، فأدرك اليأس البطريق يوحنا، فجمع أجناده وتولى بيزنطة، ليعود منها مرة أخرى بعدة قوى، ولكنه كان واهماً لأن الظروف لم تسمح له بعد ذلك بالعودة إلى قرطاجنة قط.

كانت للروم سفن بباب النساء، فحملوا نسائهم وأولادهم ليلاً، وأسلموا المدينة ولم يبق بها إلا الملك المسمى بمرياف وأهله وولده، فكتب إلى حسان: « هل لك أن تعاهدني في أهلي وولدي وأشترط لنفسي ما شئته من المنازل وأسلم لك المدينة ؟ ».

---

(١) البيان المغرب (١ / ٢٩) ، نقلاً عن قادة المغرب (١ / ١٩٨) .

ولم يكن للمسلمين علم بفرار الروم منها، فأجابه حسان إلى ذلك، فاشترط الأرض المسماة بمرياف، وهي إذ ذاك قرى كثيرة، ثم أمكنه من المدينة فلم يجد فيها غيره، وغير أهله وولده، فوفى له حسان بما أعطاه من العهد، وأقام مرياف مالكاً لهذه الأرض، وهذه الناحية بمرياف في تونس [١] .

ولما فتح حسان قرطاجنة أرسل أسطوله إلى الجزر المتصلة بساحل إفريقية ففتحها ... وكان قد استمد عبد الملك بن مروان، فأمده بأسطول تحت قيادة عبد الملك بن قطن، فطهر الجزر التي كانت مكمناً للأعداء، كما بعث إلى فاس خيلاً ففتحها، وبهذا خلصت إفريقية لحسان، ولم تعد هناك قوة تعارضه أو تنتقص من أمارته على البلاد، نعم، بقيت بضع نوحي لم يصل إليها المسلمون بعد، وبعض قبائل لم تعلم بمقدمهم، ولكن ذلك لا يمنع من القول بأن الفتح الحربي قد تم، وأن واجب حسان الآن هو الاهتمام بنواحي أخرى في تلك البلاد لنشر الإسلام، وتقرير أمور البلاد، وخراجها وشئونها وما إلى ذلك، أدرك حسان بثاقب فكره وبعد نظره، أن استعادة فتح قرطاجنة لا يمنع الروم من الإغارة عليها بحراً مرة أخرى ولاتحصن فيها من جديد ما لم ينشئ ميناء جديداً، ويكون له أسطول بحري قوي ، ولم يلبث حسان أن وقع اختياره على ترشيش، فبدأ يحصن المدنية من جديد، ويبدو أن مدينة ترشيش كان قد اضمحل أمرها ، حيث بدأ المسلمون يعيدون بناءها ولم يبق منها إلا دير يقيم فيه بعض الرهبان، قد كان العرب يسمعون أصوات بعض الرهبان طول الليل في صلواتهم ليستأنسون بهم، فقالوا: هذه البقعة تونس، وقيل: إن المسلمين سموها: تونس لجمالها ولما تدخله من الأنس والبهجة على القلوب، وبهذا استطاع حسان أن

---

(١) انظر: المسالك والممالك للبكري، (ص ٣٧)نقلاً عن قادة فتح المغرب (١/ ١٩٩).

ينشئ مدينة ثانية بإفريقية، وإذاكانت القيروان قد أصبحت من يوم أنشئت محرساً بريًّا ومعسكراً بحريًّا وميناء جديداً للبلاد يقوم مقام قرطاجنة..

وبقيام هذه المدينة ، حيل بين الروم وبين إفريقية فلم يعودوا يستطيعون النزول إلى أرضها، فأمن المسلمون شرهم وأصبح وجودهم منصرفاً إلى تنظيم البلاد تمهيداً للإسلام، دون أن يزعجهم الروم بهجماتهم المفاجئة بين الحين والحين.

المطلب الثالث

إصلاحاته

أولاً: في سنة اثنتين وثمانين:

استقامت إفريقية لحسان فدوَّن الدواوين، وصالح على الخراج ، وكتبه على عجم إفريقية وعلى من أقام معهم على دين النصرانية من البربر، ثم أوعز إليه عبد الملك بن مروان باتخاذ دار الصناعة لإنشاء الآلات البحرية حرصاً على مراسم الجهاد، ونزل موضع القيروان، وبنى مسجد جماعتها ، وخطط مدينة تونس، وبدأ بنيانها، وحفر قناة تصل بحيرة تونس بالبحر.

تلك إصلاحات مهمة جداً، منها إدارية مثل بناء تونس وحفر قنواتها وبناء مسجد القيروان، ومنها إصلاحات عسكرية، كتجنيد جيش البربر، ومنها إنشاء أسطول بحري إسلامي.

ثانياً: تدوين الدواوين والإصلاحات الإدارية:

دون حسان الدواوين، وأقام لكل وظيفة من وظائف الدولة الكبرى ديواناً فيه الكتبة والرؤساء والمسئولين ، ونظم الجيش وقسمهم على الثغور وفرض لهم العطاء من بيت المال ، وأقام العلم على النواحي الإدارية من خراج وزكاة وجند

وما إلى ذلك مما كان في غير إفريقية من بلاد المسلمين إذ ذاك ، وأقام حسان المساجد في المدن والقرى، وأقام فيها الفقهاء للصلاة والوعظ، والإرشاد والفتوى في المسائل الدينية، وأقام المدارس الابتدائية بجانب كل مسجد لتعليم أبناء المسلمين دينهم ، وتحفيظهم القرآن الكريم ، وتطبع على ألسنتهم بلغته واختار حنش بن عبد الله الصنعاني عاملاً على الزكاة، وفرض حسان الجزية والخراج على من أقام على دينه من النصارى، وعين القضاة للنواحي، وأقام الحراس في النُّهُج والطرقات لحفظ الأمن، وقسم الأراضي بين قبائل البربر، فعين لكل قبيلة خطتها ، وألزم كل قبيلة زراعة أرضها ودفع زكاتها لبيت مال المسلمين.

وقد عد حسان أرض البربر وبلادهم مفتوحة صلحاً، لذلك أقر الأرض في أيدي البربر وجعلها لهم، واعتنى حسان بالمدن والقرى فمهد الطرق للسابلة، وأصلح القنوات للري، وجدد بناء مسجد القيروان ووسعه . . .

واعتنى بالقاعدة المتقدمة البحرية التي أنشأها في إفريقية، وأنشأ مرفأها « الميناء » ودار الصناعة ولم يكن لأهل المغرب أي لغة يتفاهمون بها كلهم، وطريقة يكتبون بها ما يريدون كتابته، ولما كانت العربية هي لغة القرآن والإسلام فقد بدءوا يقبلون عليها ويتعلمونها، فجد حسان كل الجد في تعليم العربية للبربر، لأنها أصل الدين.

وضرب حسان السكة للمغرب دنانير وفلوساً، كان الناس يتعاملون بسكة القوط والبيزنطيين، وهي تحمل رسم ملوكهم وشعارات دولهم.. وكان حسان قد قضى على الروم سياسيًّا وعسكريًّا، وبقي لهم سبب ديني يربط الطوائف النصرانية من الروم الإفريقيين ببيزنطة وهي العلاقات الكنيسية، فقطعها خوفاً من أن يتذرع بها البيزنطيون ويتصلون بالمغرب ، فوصل الكنيسة القرطاجنية بالكنيسة المرقصية الأرثوذكسية في مصر وقطعها عن الكنيسة الكاثوليكية في

روما وبيزنطة [١] .

ثالثاً : مؤسس ولاية المغرب :

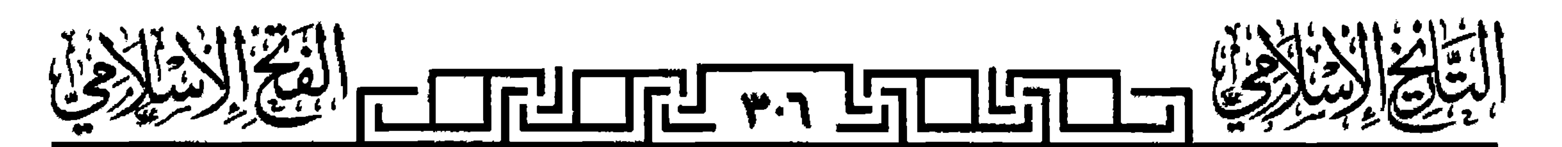
بهذا اكتملت الأسباب لتكون المغرب بلاداً إسلامية صرفة يحكمها عامل خليفة المسلمين ويدين أهلها بالإسلام، ويتخذون العربية لغة.

وسواء أكان السبب الأكبر في ذلك هو بساطة العقيدة الإسلامية أو لم يكن، فإن المغرب الإسلامي القديم اختفى بأديانه ومذاهبه المختلفة ، وحضاراته الهالكة ، وحل محله المغرب، أمة واحدة ذات دين واحد ولغة واحدة وحضارة واحدة ، ووجهة واحدة ، وكان لحسان أثر بالغ في ذلك ... ولقد كان حسان بحق المؤسس الأول لولاية المغرب الإسلامي العربي [٢] .

---

(١) **قلت**: ولأهل الذمة حقوق وعليهم واجبات، بيننا وبينهم عقد يُعرف بعقد أهل الذمة، وهو تأمين من أجاب المسلمين إلى دفع الجزية من الكفار وتعهد للمسلمين بالتزام أحكام الشريعة الإسلامية في الحدود كالقتل والسرقة والعرض، ويتولى عقد الذمة الإمام أو نائبه من أمراء الأجناد فقط، أما غيرهما فليس له حق في ذلك، بخلاف الإجارة والتأمين، فإنه لكل مسلم ذكر أو أنثى أن يجير ويؤمن، وقد أجارت أم هانئ بنت أبي طالب رجلاً من المشركين يوم الفتح فاتت الرسول ﷺ فذكرت له ذلك فقال: **[قد أجرنا من أجرت، وأمّنّا من أمنتي يا أم هانئ]** ولأهل الذمة على المسلمين حفظ أرواحهم وأموالهم وأعراضهم، وعدم أذيتهم ما وفوا بعهدهم ولم ينكثوه، لقوله ﷺ : **[من آذى ذمياً فأنا خصمه يوم القيامة]** فإن هم نكثوا عهدهم ونقضوه بارتكاب ما من شانه نقض العهد حلت دماؤهم ، دون نسائهم وأموالهم، وأن لا يؤخذ المرء بذنب غيره، وينتقض عهد الذمة بأمور منها: الامتناع عن بذل الجزية،وعدم التزامهم بأحكام الشرع التي كانت شرطاً في العقد، وتعديهم على المسلمين بقتل، أو قطع طريق، أو تجسس، أو إيواء جاسوس للعدو، أو زنى بمسلمة، وينقض العهد أيضاً: بأن يذكروا الله ورسوله أو كتابه بسوء ، أما الخراج الذي ضربه حسان على البربر فهو: ما يضرب على الأراضي التي فتحها ا لمسلمون عنوة، فإن الإمام مخير عند احتلاله فتحه أرضاً بالقوة بين أن يقسمها بين المقاتلين وبين أن يوقفها على المسلمين، ويضرب على من هي تحت يده من مسلم وذمي خراجاً سنوياً معلوماً ينفق بعد جبايته في صالح المسلمين العام ، كما فعل عمر رضي الله عنه فيما فتحه من أرض الشام، والعراق، ومصر، ولو صالح الإمام العدو على خراج معين من أرضه، ثم أسلم أهل تلك الأرض، فإن الخراج يسقط عنهم لمجرد إسلامهم بخلاف ما فتح عنوة، فإنه وإن أسلم أهله فيما بعد، يستمر مضروباً على تلك الأرض.

(٢) قادة فتح بلادالمغرب (١ /٧٢-٢١٥).



المطلب الرابع
أهم صفاته القيادية ومبادئه الحربية

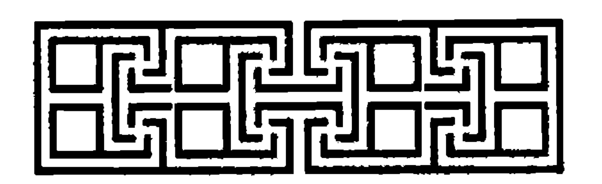
لقد كان حسان قائداً عبقرياً قام في حملته على إفريقية والشمال الإفريقي بعدة أعمال تنم عن شخصيته القيادية، فقد قضى على قوة الروم، وفتت قوة البربر وفتح قرطاجنة عاصمة الروم في إفريقية، وضيق الخناق على قوات الروم حتى قواتها الضاربة، ثم قاتل البربر وقضى على الكاهنة، ثم بذل قصارى جهده لنشر الإسلام بين البربر، فأصبح بين صفوفه اثنا عشر ألفاً من المقاتلين الشجعان بدلاً من أن يكون هؤلاء في صفوف أعدائه فما هي صفات هذا القائد العبقري الفذ، ومبادئه الاستراتيجية التي طبقها في حملته الجهادية ؟ .

أهم صفاته القيادية :

لقد كان حسان رجلاً عاقلاً، رزيناً، مخلصاً وفيّاً، صادقاً، نقياً، ورعاً، أميناً حتى كان يسمى : الشيخ الأمين، وكان يتمتع بصفة بعد النظر، واستخدام العقل في محل العقل، والسيف محل السيف، شجاعاً، مقداماً، شهماً، ذكياً فطناً متيقظاً، له القدرة على إعطاء القرارات السريعة الصحيحة .

أهم مبادئه الحربية :

مبدأ جمع المعلومات عن العدو، مبدأ اختيار المقصد وإدامته، مبدأ التعرض، مبدأ المباغتة، مبدأ تحشيد القوات، مبدأ الاقتصاد بالجهود، مبدأ إدامة المعنويات، مبدأ الأمور الإدارية [١] .



---

(١) راجع المرجع السابق :(١/ ٢١٨، ٢١٩) .

المطلب الخامس

استشهاده

لقد مكث حسان أميراً على إفريقية قرابة اثنتي عشرة سنة، قائداً، ومقاتلاً، عبقرياً، سياسياً ماهراً، حتى تم عزله في ولاية عبد العزيز بن مروان أخي عبد الملك خليفة المسلمين لولاية مصر، وكان ذلك سنة خمس وثمانين الهجرية، وقد لزم حسان بيته بعد عزله ، ثم غز بلاد الروم فاستشهد في تلك الغزوة.

يقول الأستاذ محمود شيت خطاب: «وقد لزم حسان بيته بعد عزله، ثم غزا بلاد الروم فمات هناك... وفي رواية: أنه توفى سنة ثمانين هجرية غازياً في أرض الروم» [١].

ولكن هل بعد استشهاده ينسى التاريخ هذا القائد البطل، والسياسي العبقري وما سطره بعرقه ودمه من فتوحات في سبيل نشر هذا الدين القويم؟! أليس يذكر التاريخ له أنه: «خاض معركة حاسمة من الدرجة الأولى ضد الروم وقضى على آمالهم نهائياً في البقاء في إفريقية، ويذكر له أنه خاض معركة حاسمة من الدرجة الأولى ضد البربر ، فأصبحوا بعدها مع المسلمين لا عليهم، ويذكر له أنه فتح قرطاجنة فحرم الروم من عاصمتهم، التي كانت في نفس الوقت القاعدة الأمنية لهم في إفريقية.

ويذكر له أنه فتح مدينة فاس ، ويذكر له أنه نشر في ربوع إفريقية الإسلام بين البربر، ويذكر له أنه أنجز إصلاحات حيوية في إفريقية،كانت ولا تزال الجذور العريقة لبقاء هذه البلاد إسلامية ، ويذكر له، أنه جعل الفتح الإسلامي في إفريقية فتحاً «مستداماً»: صمد أمام الغزو العسكري الغربي، وأمام الغزو الفكري الغربي، وتحمل من أجل الحفاظ على عقيدته وإسلامه كثيراً من التضحيات

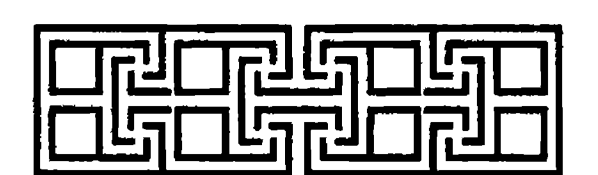
---

(١) المرجع السابق: (١/ ٢٠٥).

بالأرواح والأموال ، رضي الله عن التابعي الجليل ، السياسي المحنك ،الإداري الحازم ، الداعية الحصيف ، البطل الشجاع ، المفكر الفذ ، القائد الفاتح ، حسان ابن النعمان الغساني » (١) .

صدق قول الشاعر إذ يقول:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم
وتعظم في عين الصغير صغارها وتصغر في عين العظيم العظائم



(١) المرجع السابق: (١ / ٢٢٠) .

المبحث الخامس

موسى بن نصير اللخمي

تولى موسى بن نصير رحمه الله منصب والي إفريقية والمغرب سنة اثنتين وثمانين الهجرية بعد عزل القائد العبقري حسان بن النعمان عن ولاية تلك المنطقة ؟!.

المطلب الأول

اسمه ونسبه، وميلاده ونشأته

اسمه ونسبه:

« هو موسى بن نصير بن عبد الرحمن بن زيد، ويُكنى: أبا عبد الرحمن من بني لخم، ويقال له: إنه مولى لخم، وقيل: إنه من أراشة من بلى، ويذكر أولاده أنه من بكر بن وائل، وغيرهم يقول: إنه مولى.

إنه عربي، أبوه نصير كان أسمه: نصراً فصغر، كان من بين سبايا « عين التمر » الذين سباهم خالد بن الوليد المخزومي سنة اثنتي عشرة هجرية، فقد وجد خالد أربعين غلاماً يتعلمون الإنجيل عليهم بابا مغلق فكسره عنهم، وقال: وما أنتم؟ فقالوا: رهبان، منهم نصير أبو موسى بن نصير، وكان نصير ينسب إلى بني « يشكر » فقسمهم خالد في أهل البلاد، فأصل موسى من عين التمر، وقد أعتق نصيراً بعض بني أمية ، فرجع إلى الشام، ثم أصبح على حرس معاوية وعلى جيوشه ، وكانت منزلته عنده مكينة [1] .

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (٤ / ٤٩٦).

ميلاده ونشأته:

«ولد موسى سنة تسع عشرة هجرية (٦٤٠م) في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه بقرية يقال لها «كفر متري» ونشأ في بيت له صلة مباشرة بالجندية، قريباً من قادة الفتح الإسلامي، وقادة الفكر الإسلامي في الشام دار الخلافة بتماس شديد بمعاوية بن أبي سفيان، ومن حوله من قادة الفتح والفكر، بكنف أبيه نصير الذي كان يمتاز بالجرأة والصراحة والورع، فكان لكل ذلك أثره البالغ في حياة موسى قائداً وإنساناً» [(١)] .

وعندما أشتد عوده، وظهرت عليه بوادر النجابة والحيوية ، وأكسبه الزمان تجربة وعلماً ، ولاه معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما أيام خلافته البحر ، فغزا قبرص وبنى هناك حصوناً مثل «الماعوصة» و«بانس»، وغير ذلك من الحصون التي بناها في «قبرص» وكان نائب معاوية عليها، وكان معاوية قد فتح «قبرص» سنة ثمان وعشرين هجرية، وفي سنة أربع وستين شهد موسى معركة «مرج راهط» مع الضحاك بن قيس الفهري الذي كان يدعو سرًّا إلى عبد الله بن الزبير ثم دعا إلى نفسه، فلما قتل الضحاك وانتصر عليه مروان بن الحكم لجأ موسى إلى عبد العزيز بن مروان فحماه وأنقذ حياته من خطر داهم ، وبذلك ابتدأت الصلة الوثيقة بين عبد العزيز بن مروان وموسى بن نصير، ثم أصبح بعد ذلك وزيراً ومستشاراً لوالي مصر عبد العزيز بن مروان، ولما تولى عبد الملك الخلافة عمل موسى مساعداً لأخيه بشر بن مروان على الكوفة والبصرة، ثم تولى أمور العراق، ثم عزل وجاء الحجاج فخاف موسى بن نصير منه فذهب إلى عبد العزيز بن مروان الذي أصلح ما وقع من جفوة بين موسى ابن نصير وعبدالملك بن مروان .

---

(١) قادة فتح بلاد المغرب (١/ ٢٢١،٢٢٢) .

المطلب الثاني

جهاده في البر

بعد أن عزل عبد العزيز بن مروان والي مصر حسان بن النعمان والي إفريقية ولّى مكانه موسى بن نصير، وكان ذلك في أواخر سنة خمس وثمانين الهجريةأو في أوائل سنة ست وثمانين الهجرية.

أولاً: عندما توافدت الجيوش، قام موسى بن نصير خطيباً، فكان مما قاله: «وإنما أنا رجل كأحدكم، فمن رأى مني حسنة، فليحمد الله، وليحض على مثلها، ومن رأى مني سيئة، فلينكرها، فإني أخطئ كما تخطئون، وأصيب كما تصيبون، وقد أمر الأمير أكرمه الله لكم بعطاياكم وتضعفيها ثلاثاً، فخذوها هنيئاً مريئاً، من كانت له حاجة فليرفعها إلينا، وله عندنا قضاؤها على ما عز وهان، ومع المواساة إن شاء الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وهكذا أنجز موسى قبل أن يدخل إفريقية حشد جيشه وأكمل استحضاراته الإدارية، وساوى نفسه برجاله، وأعطاهم ما يستحقون من أعطيات وضاعفها لهم ثلاثاً، وفتح بابه على مصراعيه لتلبية احتياجاتهم كلها، لقد بدأ موسى بداية موفقة جداً في تحمل مسئوليته الجسيمة.

ثانياً: وسار موسى متوجهاً إلى المغرب، وكان الأمن هناك غير مستتب، فلما وصل إفريقية وبها صالح الذي استخلفه حسان بن النعمان على إفريقية، وجد أن البربر قد طمعوا في البلاد بعد مسير حسان، فجمع الناس وألقى فيهم خطاباً بين فيه بوضوح الخطوط العريضة لسياسته العامة في الفتح، قتال العدو القريب أولاً، حتى إذا انتهى من أمره تغلغل بعيداً بالتدريج لقتال العدو البعيد.

ثالثاً: وتنفيذاً لهذه الخطة العسكرية الحكيمة، بدأ باستعادة جبل «زغوان»، وما حوله وبينه وبين القيروان مسيرة يوم كامل، وبنواحي زغوان قبائل من البربر، فبعث إليهم موسى خمسمائة فارس، فاستعاد فتح زغوان وسبى،

فكان ذلك السبي أول سبي دخل القيروان، كما وجه ابنه عبد الله بن موسى إلى بعض نواحي إفريقية فأتى بسبي كثير، ثم وجه ابنه مروان فأتى كذلك بسبي كثير، واستطاع موسى بن نصير أن يقضي على جيوب المقاومة في إفريقية، وخضعت له قبائل البربر، وجعل من منطقة القيروان وما حولها قاعدة أمنية ينطلق منها موسى بن نصير وهو آمن على خطوط مواصلاته، لتنفيذ خططه في الفتح متغلغلاً في المغرب الأوسط والمغرب الأقصى، وبعد أن تم لموسى إخضاع المغرب الأوسط من صحراء درعة إلى السوس الأقصى إلى بلاد المصامدة، تطلع موسى نحو طنجة التي كانت تخضع للأمير الرومي يليان « جوليان » منذ أيام عقبة بن نافع.

رابعاً: خرج موسى من القيروان لفتح طنجة، وجعل على مقدمته مولاه طارق بن زياد، فلم يزل يقاتل ويفتح مدائنهم حتى بلغ مدينة طنجة وهي قصبة بلادهم وأهم مدائنهم ، فلما دنا موسى من طنجة بث السرايا، فانتهت خيله إلى السوس الأدنى فوطئهم وسباهم، وأدوا إليه الطاعة ، وولى عليهم والياً فأحسن فيهم السيرة.

وحاصر موسى طنجة حتى افتتحها ونزلها، وهو أول من نزلها واختط فيها للمسلمين، فأسلم أهلا وخطها موسى قيرواناً للمسلمين، وسار موسى إلى مدائن على شط البحر فيها عمال لصاحب الأندلس، قد غلوا عليها وعلى ما حولها، ورأس تلك المدائن « سبتة » وعليها يليان « جوليان » فقاتله موسى، فألفاه في نجدة وعدة وقوة فلم يطقه، فرجع إلى مدينة طنجة وأقام هناك بمن معه ، وأخذ في الغارات على من حولهم والتضييق عليهم، والسفن تختلف إليهم بالميرة والإمداد من الأندلس من قبل ملكها غيطشة، فهم يذبون عن سبتة ذبًّا شديداً، ويحمون بلادهم حماية تامة وكانت سبتة مدينة حصينة قريبة من الأندلس ، مما ساعد على صمودها بوجه المسلمين الفاتحين.

وكان بطنجة من البربر بطون البتر والبرانس من لم يكن دخل في الطاعة، فوضع موسى على ساحل طنجة حامية للرباط مؤلفة من ألف وسبعمائة رجل عليهم ابنه مروان، ولكن مروان انصرف وخلف على جيشه طارق بن زياد، وبذلك تم فتح المغرب الأقصى إلا إقليم سبتة، وانتشر الإسلام فيه، عاد موسى إلى القيروان بعد أن استعمل على طنجة وأعمالها مولاه طارق بن زياد، وترك عنده تسعة عشر ألفاً من البربر بالأسلحة والعدة الكاملة ، وكانوا قد أسلموا وحسن إسلامهم ، وترك موسى عندهم خلقاً يسيراً من العرب ليعلّموا البربر القرآن وفرائض الإسلام .

المطلب الثالث

جهاده في البحر

﴿ ١ ﴾ مهد موسى لجهاده في البحر بالاهتمام بعمران مدينة تونس وتوسيع دار الصناعة بها، وشق القناة التي توصل بين الميناء « رادس » وبين المدينة على طول اثني عشر ميلاً حتى أقحمه دار الصناعة ، صارت مشتى المراكب إذا هبت الأنواء بالرياح،حيث أمر بصناعة مئة مركب .

﴿ ٢ ﴾ أمر موسى بالتأهب لركوب البحر، وأعلمهم أنه راكب بنفسه، فرغب الناس وتسارعوا فلم يبق شريف ممن كان معه إلا وقد ركب الفلك، فعقد موسى لواء هذه الغزوة لابنه عبد الله بن موسى بن نصير، وولاه عليهم وأمرهم وأمره، ثم أمره أن يتوجه إلى هدفه، إنما أراد موسى بما أشار من مسيره، أن يركب أهل الجلد، والنكاية والشرف، فسميت هذه الغزوة غزوة الأشراف، وسار عبد الله بن موسى بن نصير في مركبه، وكانت تلك الغزوة أول غزوة غزيت في بحر إفريقية « البحر الأبيض المتوسط » فأصاب في غزوته تلك صقلية، افتتح مدينة فيها، فبلغ سهم الرجل مائة دينار ذهباً، وكان المسلمون ما بين الألف إلى التسعمائة، ثم انصرف قافلاً سالماً ، وكان ذلك في سنة خمس وثمانين هجرية

﴿٣﴾ وبعث موسى عياش بن أخيل على مراكب أهل إفريقية، فشتا في البحر، وأصاب مدينة يقال لها: «سرقوسة» ثم قفل في سنة ست وثمانين هجرية ، وكان عبد العزيز بن مروان أمير مصر قد بعث عطاء بن أبي نافع الهذلي في مراكب أهل مصر إلى «سردانية» فأرسى بـ «سوسة» فأخرج إليه موسى ما يحتاجه من الأمور الإدارية «الأرزاق، وسلاح، وتجهيزات» وكتب إليه «إن ركوب البحر قد فات في هذا الوقت وفي هذا العام ، فلا تغرر نفسك، فإنك في تشرين الآخر، فالزم مكانك حتى يتسيَّرْ ركوب البحر ، فلم يكترث عطاء بنصيحة موسى، وشحن مراكبه ثم رفع متوجهاً إلى هدفه، وفي سردانية غنم المسلمون غنائم ضخمة ، ثم انصرف قافلاً فأصابته ريح عاصف، فغرق عطاء وأصحابه.

وفي سنة تسع وثمانين هجرية عقد موسى لعبد الله بن مرة على بحر إفريقية فأصاب «سردانية» وفتح مدائن، فبلغ سبيها ثلاثة آلاف رأس سوى الذهب والفضة والمواد الأخرى، وفي سنة تسع وثمانين هجرية جهز موسى ولده عبد الله، فافتتح جزيرتي «ميورقة» و«منورقة» وهما جزيرتان في البحر بين صقلية وجزيرة الأندلس .

المطلب الرابع
جهاده في الأندلس

﴿١﴾ كان فتح الأندلس نتيجة طبيعية لتمام فتح المغرب، لأن الأندلس هو الجناح الغربي للمغرب، ولأن الأندلس كان المجال الحيوي للفتح الإسلامي بعد إنجاز فتح المغرب الإفريقي، واستقرار الفتح فيه بانتشار الإسلام، وبوجود القوة الضاربة في جانب المسلمين، ولم يستعص على موسى غير مدينة سبتة لمناعتها ووصول الإمدادات إليها من إسبانيا القوطية عن طريق البحر، وكان يحكمها من قبل القوط في إسبانيا حاكم اسمه جوليان ويسميه المسلمون يليان أو بوليان، وقد اختلفت المصادر في شخصية بوليان هذا، فبعضها يذكر أنه قوطي، وبعضها

يزعم أنه رومي، وبعضها ينسبه إلى بربر غمارة . . . وبدأت حركة استقلالية في أطراف البلاد ظلت مستمرة حتى دخول المسلمين أرض الأندلس.

﴿٢﴾ غزوة طريف:

وكان موسى يتوق إلى فتح الأندلس، وكان عامله على طنجة هو طارق بن زياد يتطلع إلى الأندلس أيضاً، وبينما كان موسى يرقب الفرص لتحقيق هذه الأمنية، إذ جاءته رسالة من «يوليان» يعرض فيها تسليم معقله «سبتة» ويدعوه إلى فتح إسبانيا ، وجرت بينهما المفاوضة في هذا المشروع الخطير، وهنا تختلف الرواية في هذا الاتصال، فيقال إن موسى ويوليان اتصلا بالمراسلة، وقيل: إنهما اتصلا بالمقابلة الشخصية ، وإن يوليان هذا استدعى موسى إلى سبتة، وهناك جرت المفاوضات بينهما، وقيل: إنهما اجتمعا في سفينة في البحر، وعلى أي حال فقد استجاب موسى لدعوة يوليان وكان هدف يوليان الانتقام من لذريق الذي اعتدى على ابنته، وكذلك الوفاء لغيطشة صديقه الوفي الملك السابق قبل لذريق.

واهتم موسى بمشروعه اهتمامًا كبيراً، فكتب إلى الوليد بن عبد الملك يخبره بأمر هذا المشروع، فكتب إليه الوليد بأن يختبرها بالسرايا،وأن لا يغرر بالمسلمين، فبعث موسى رجلاً من البربر يسمى طريفاً، ويُكنى بأبي زرعة ، في مائة فارس وأربعمائة راجل فجاز في أربعة مراكب حتى نزل ساحل البحر في الأندلس فيما يحاذي طنجة، وهو المعروف اليوم بـ« جزيرة طريف »، سُمِّيت باسمه لنزوله هناك، فأغار منها على ما يليها إلى جهة الجزيرة الخضراء ، وأصاب سبايا ومالا كثيراً، ورجع سالماً.

﴿٣﴾ فتح طارق :

وفي رجب سنة اثنتين وتسعين الهجرية (نيسان – أبريل ٧١١ م) جهز موسى جيشاً من العرب والبربر يبلغ سبعة آلاف مقاتل بقيادة طارق بن زياد الليثي،

فعبر البحر من سبتة بجيشه تباعاً في سفن يوليان، ونزل بالبقعة الصخرية المقابلة التي لا تزال تحمل اسمه حتى اليوم، أعني « جبل طارق »، وتوالت انتصارات طارق، ففتح مدينة قرطاجنة الجزيرة، ثم زحف غرباً وفتح المنطقة المحيطة بقرطاجنة ، وأقام قاعدة حربية في موضع يقابل « الجزيرة الخضراء » وعليه أقيمت هذه المدينة فيما بعد، وبعد معارك محلية أكمل المسلمون فتح الجزيرة الخضراء وسيطروا على المجاز إلي الأندلس، فزحف لذريق لصد المسلمين، فكتب طارق إلي موسى بأن لذريق زحف إليه بما لا قبل له به، فأرسل إليه موسى « مدداً من خمسة آلاف من المسلمين وعلى رأسهم طريف بن مالك ، وأغلبهم من الفرسان، وبهم كملت عدة من مع طارق اثنى عشر ألفاً التقى الجيشان في يوم الأحد ٢٨ رمضان سنة اثنتين وتسعين هجرية (١٩ تموز - يوليو سنة ٧١١ م) على وادي « برباط » أو وادي « لكة » قرب مدينة « شذونة » واستمرت المعركة ما يقرب من ثمانية أيام، وانتهت بهزيمة القوط هزيمة ساحقة، كانت هذه المعركة هي المعركة الحاسمة التي فتحت أبواب الأندلس للمسلمين.

أحدث انتصار طارق في وادي « لكة » دوياً هائلاً في المشرق والمغرب، وتسامع الناس من أهل بر العدوة بالفتح على يد طارق بالأندلس وسعة الغنائم فيه ، فأقبلوا نحوه من كل وجه ، وخرقوا البحر على كل ما قدروا عليه من مركب، فلحقوا بطارق .

وبدأ طارق يجني ثمار جهده وانتصاره في وادي لكة ففتح « شذونة » عنوة، ثم مضى إلى « المدور » ثم عطف على « قرمونة »، ثم اتجه إلى إشبيلة فصالحه أهلها على الجزية، ومنها زحف إلى إستجة وكانت تؤلف المركز الأول للمقاومة، إذ كانت فلول القوط قد تجمعت هناك، فظفر طارق بصاحب المدينة وأرغمه على الصلح وفرض عليه الجزية .

وفرق طارق جيشه من إستجة فبعث مغيثاً الرومي مولى الوليد بن عبد الملك

إلى قرطبة في سبعمائة فارس، وبعث جيشاً آخر إلي « مالقة »، كما بعث جيشاً ثالثاً إلي « البيرة » أما هو فسار إلي كورة « جيان » بمعظم جنوده في طريقه إلي « طليطلة » وعبر طارق الوادي الكبير، فدخل « طليطلة » سنة ٩٣ هجريةدون مقاومة تذكر.

لقد تغلغل طارق تغلغلاً عميقاً في أنحاء الأندلس، بشكل لا يتناسب مع ما لديه من قوات، فماذا كان رد فعل موسى بن نصير القائد العام بالمغرب كله، والمسئول الأول تجاه القائد الأعلى في الشام؟ [١] .

﴿٤﴾ خطبة طارق الشهيرة :

« أيها الناس، أين المفر؟ البحر من ورائكم، والعدو من أمامكم، وليس والله إلا الصدق والصبر، واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مأدبة اللئام، وقد استقبلكم عدوكم بجيشه، وأسلحته وأقواته موفورة، وأنتم لا وزر لكم إلا سيوفكم، ولا أقوات لكم إلاما تستخلصونه من أيدي عدوكم، وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمراً، ذهبت ريحكم وتعوضت القلوب من رعبها منكم الجراة عليكم، فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العافية من أمركم بمناجزة هذا الطاغية، فقد ألقت به إليكم مدينته الحصينة، وإن انتهاز الفرصة فيه لممكن إن سمحتم لأنفسكم بالموت، وإني لم أحذركم أمراً أنا عنه بنجوة ولا حملتكم على خطة أرخص متاع فيها النكوص، إلا وأنا أبدأ بنفسي، واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشق قليلاً، استمتعتم بالأرفه الألذ طويلاً، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسي، فما حظكم فيه بأوفى من حظي .. وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المومنين من الأبطال عزباناً، رضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهاراً وأختانا ثقة منه بأريحيتكم للطعان، واستماحكم بمجالدة الأبطال والفرسان،

---

(١)قادة فتح بلاد المغرب (١ / ٢٤٠، ٢٥١).

ليكون حظه منكم ثواب الله على إعلاء كلمته، وإظهار دينه بهذه الجزيرة وليكون غنيمة خالصة لكم من دونه، ومن دون المؤمنين سواكم، والله تعالى ولي أنجدكم على ما يكون لكم ذكراً في الدارين، واعلموا أني أول مجيب إلي ما دعوتكم إليه، وأني عند ملتقى الجمعين حامل بنفسي على طاغية القوم لذريق فقاتله إن شاء الله تعالى، فاحملوا معي، فإن هلكت بعده فقد كفيتكم أمره، ولم يعوزكم بطل عاقل تسندون أموركم إليه، وإن هلكت قبل وصولي إليه فاخلفوني في هزيمتي هذه واحملوا بأنفسكم عليه، واكتفوا من فتح هذه الجزيرة بقتله، فإنهم بعده يخذلون» [١].

قلت: تضاربت الأقوال في صحة نسبة هذه الخطبة إلي طارق، فقد ذهب المؤرخ الشامي شوقي أبو خليل إلى إثباتها وعلق على هذه الخطبة فقال: يحلو لبعض المعاصرين التحذلق فقالوا: طارق بربري.. فلا يعقل مطلقاً أن يخب خطبة محبوكة فصيحة مثل هذه الخطبة الرائعة، التي وازن فيها في ترغيب ساحر أخّاذ بين الدين والدنيا.

فأي موجب للشك في نسبة هذه الخطبة لطارق، وطارق اشتهر في قومه بالفصاحة..، ماذا يفيد الإرتياب في أمر تتشابه دلائل عديدة في مراجعنا وبشكل صريح، علماً أن الأدلة لا تتكامل على نقضه ففي نفح الطيب، وصف لطارق يقول: «إن طارقاً كان حسن الكلام، ينظم ما يجوز كتبه»... علماً أن والد طارق «زياد» أسلم منذ أيام عقبة بن نافع... لذلك شب طارق في بيت مسلم، لقنه تعاليم الإسلام، أبوه من ناحية، وموسى من ناحية ثانية.

عجباً للأجانب:

شرقيهم وغربيهم، إن وجدوا في تاريخهم قصة أو قولاً أو حادثة تنهض

---

(١) نفح الطيب ١/ ٢٢٥ .

بجيلهم، وتثبت في نفوس النشء روحاً وتربطهم بأمتهم وذاتيتهم، صححوها وإن لم يروا إلا مرجعاً واحداً من مراجعهم، بل قد يختلقون أحداثاً، وينسجون قصصاً يلصقونها برجالاتهم لما في ذلك من مصلحة للجيل وفائدة للنشء، وخير للأمة، وعجباً لنا... ما بالنا؟! ، مراجعنا تذكر أن طارق كان حسن الكلام ، ينظم ما يجوز كتبه ، وترعرع في بيت مسلم يتلى فيه قرآن كريم ، ثم يأتينا من يقول: ما أظن ، وكان اجتيازه البحر في شهر رجب سنة اثنتين وتسعين هجرية (٧١٠ م) [١] .

المطلب الخامس

طارق بن زياد في سطور

اسمه ونسبه:

أورد ابن عذاري المركشي، صاحب «البيان المغرب في أخبار ملوك الأندلس والمغرب» نسب طارق بن زياد فقال: «هو طارق بن زياد بن عبد الله بن لغو بن ورقجوم بن نير عغسن بن ولهاص بن يطوفت بن نفزاو... فهو نضري» [٢] .

وفي دائرة معارف الشعب جاء: «وقد اختلف مؤرخو العرب في أصله – أصل طارق – فذهب بعضهم إلى أنه كان فارسياً همذانياً، وذهب فريق آخر ومنهم الحميدي صاحب جذوة المقتبس، إلى أنه كان بربرياً من إفريقية، ومن قبيلة نفزة البربرية، وأنه لم يكن بربري الأصل، وإنما كان ينتسب إلى الصدقة [٣] .

وذهب شوقي أبو خليل إلى أنه: « كان بربري الأصل... فقد قيل: إنه طويل القامة، ضخم الهامة، أشقر اللون، وتنطبق هذه الصفات على عنصر البربر» إن

---

(١) قادة فتح بلاد المغرب(١ / ٢١٤) .

(٢) البيان المغرب(١ /٤٣) .

(٣) دائرة معارف الشعب(٢ /٢٣٧) .

الأدلة الصادقة تؤكد نسبة طارق إلى البربر.

قلت: وإخواننا المسلمون من البرابرة أبطال وشجعان تربوا في أحضان القرآن، وأشربت قلوبهم تعاليمه، وأصبحوا أصحاب رسالة خالدة صنعت منهم الأبطال على مر العصور والأزمان فهم إلي الإسلام منتسبون وبه يعتزون وما تقوم به المنظمات النصرانية واليهودية، والدول الغربية من إحياء النعرات البربرية والعربية في أوطاننا ما هي إلا هباءً منثوراً ، وستتحطم جهودهم على صخرة الإسلام الخالدة ، الأيام كفيلة بذلك .

إن إخواننا البرابرة عندما أكرمهم الله بالإسلام قدموا كل ما يملكون في سبيل عقيدتهم ودينهم، بل نستطيع أن نقول إن الجيوش الإسلامية الضاربة التي اصطدمت بالإسبان اعتمدت بعد الله على إخواننا البرابرة الذين اندفعوا خلف طارق في سبيل هذا الدين ونشره للعالمين ، إن هذه العقيدة صهرت المنتسبين إليها عرباً وعجماً في بوتقة الإسلام العظيمة، أي بربري يستطيع أن يقول ما قيل في الخطبة، وهل من الضروري أن يكون جده عنترة ، أو زهير بن أبي سلمى، أو عمرو بن كلثوم حتى يقول ما قيل في الخطبة؟ هات طفلاً من الصين أو من أواسط إفريقيا، أو من صحراء نيفادا، وأنشئه على تلاوة وحفظ القرآن، كما نشأ طارق لخرج خطيباً مصقعاً، حسن الكلام ينظم ما يجوز كتبه، فما بالنا نشكك في خطبة طارق؟ [1] .

ويقول شوقي أبو خليل أيضاً : إنني ما زلت أيام الطفولة، أيام الصف الرابع الابتدائي عندما كانت هذه الخطبة ضمن برنامج القراءة، تعلوها صورة خيالية لطارق يخطب في الجموع، والسفن تحترق في المضيق ما زلت أذكر شعورنا عندما شرح المعلم لنا فتح الأندلس، وقصة حرق السفن والخطبة ، لقد عشنا

---

(١) فاتح الأندلس طارق بن زياد(٤٥، ٤٦) .

لحظات كأننا ننظر إلي الحادثة تقع أمامنا، وما زلت أحفظ قسماً من الخطبة حتى يومنا هذا، وإن لم يكن حفظها غيباً، وما رددت كلماتها إلا وشعرت بعزة وبروح معنوية تدب في النفس، مع كبرياء القلب، وفخر بتاريخ إسلامي مجيد (١) .

مناقشة إحراق السفن:

وشك آخر يذكره كثيرون، عما اشتهر عن إحراق طارق لسفنه، ونحن نذكر في هذا لصدد ثلاث نقاط تدعونا للتفكير ملياً قبل رفضنا فكرة الإحراق :

يقول شوقي أبو خليل :

﴿١﴾ لم تتضافر الأدلة على تدعيم الشك أو ترجيحه والعكس صحيح، تتضافر الأدلة على تدعيم الإحراق .

﴿٢﴾ وفي رواية ابن حبان، الموصوف بأنه صاحب لواء التاريخ في الأندلس، وأفصح الناس بالتكلم فيه، وأحسنهم تنسيقاً له ، عندما ذكر المدد الذي أرسله موسى لطارق، قال: « وكان عمل من السفن عدة » أي جاء المدد على سفن غير السفن التي أقلت طارقاً وجنده إلى أرض الأندلس.. وهذا يؤيد الإحراق، وإلا فلا معنى لعبارة تحشر حشراً، يشعها من وصف بأنه صاحب لواء التاريخ في الأندلس، وأفصح الناس بالتكلم فيه !!! .

إن عبارة « وكان عمل من السفن عدة » عبارة تستدرك جواباً لمن يسأل: لقد أحرقت السفن، فكيف نقل المدد؟ فيأتينا الجواب واضحاً: « وكان عمل من السفن عدة » وتاريخ غزوات العرب، أوضح أن موسى بن نصير، قد اهتم ببناء السفن والأساطيل على طول ساحل المغرب، ومن جبل طارق وحتى طرابلس الغرب وبصريح العبارة، جاء في نفح الطيب: « وكان موسى منذ وجه طارقاً لوجهه، قد أخذ في عمل السفن حتى صار عنده منها عدة كثيرة، فحمل إلي

---

(١) نفس المصدر (٤٤، ٤٥) .

طارق فيها خمسة آلاف من المسلمين مدداً، كملت بهم عدة من معه اثني عشر ألفاً» وهذ جواب جلي واضح، لمن يسأل: ومن أين جاء موسى بالسفن وقد أحرق طارق السفن التي كانت معه؟! وقبيل المعركة أرسل لذريق من يستطلع أمر المسلمين، فعاد من استطلع ليقول لذريق: «فقد جاءك منهم من لا يريد، إلا الموت أو إصابة ما تحت قدميك، قد حرقوا مراكبهم أياساً لأنفسهم من التعلق بها».

﴿٣﴾ صفحات من التاريخ العربي والإسلامي، تحمل أحداثاً مماثلة في الإحراق، لقد أحرق القائد الفارسي سفنه باليمن في نصرة سيف بن ذي يزن، وأحرق المسلمون سفنهم في صقلية ثانية، وفي كريت «أقريطش» مرة ثالثة في مستهل القرن الثالث الهجري» (١).

قلت: ومع احترامي للقول المائل إلى الإحراق إلا أن بث الشجاعة في النفوس له طرق عدة، كما يمكن أن ترجع السفن إلى قواعدها سالمة، وينقطع أمل المجاهدين في ا لرجوع من حيث جاءوا.

﴿٤﴾ بين موسى وطارق:

بلغت موسى أخبار فتوحات طارق فغضب موسى لعصيان طارق لأوامره فقد أمره موسى ألا يتعدى قرطبة على قول، أو موضع هزيمة لذريق – في وادي لكة – على قول آخر، فسارع موسى إلى عبور المجاز ودخول الأندلس، وقيل: إنما جاز موسى باستدعاء من طارق إياه، فقد كتب طارق إلى موسى: «إن الأمم قد تداعت علينا من كل ناحية، فالغوث.. الغوث» فلما آتاه الكتاب نادى الناس واجتمع العسكر.. فاستخلف عبد الله بن موسى على إفريقية وطنجة والسوس، وكتب ساعة قدم عليه كتاب طارق إلي مروان ابن موسى ابنه يأمره بالمسير، فسار مروان بمن معه، حتى أتي المجاز، فأجاز بمن زحف معه في جموعه، لقد كان نزول

---

(١) فاتح الأندلس طارق بن زياد(٤٥، ٤٦).

موسى إلى الأندلس لسبب حربي، وهو تدعيم الفتح وترصينه، حتى يحول دون وقوع كارثة أكيدة على المسلمين من جراء تغلغل طارق في الأندلس تغلغلاً لا يتناسب مع ما لديه من رجال.

أما ما تواتر في كتب التاريخ العربي من أن موسى ما كاد يسمع بأخبار الفتح حتى أكل الحسد قلبه، وقرر أن ينال هو الآخر نصيبه من شرف الفتح، وأنه أساء معاملة طارق وضربه بالسوط فليس بصحيح ، إذ لا يعقل أن يصدر مثل ذلك عن تابعي جليل وفاتح عظيم كموسى، ثم إن طارقاً كان مولى موسى، يعمل بأوامره وينفذها نصاً وروحاً، وكان يكتب إليه أخبارالفتح أولاً بأول، فلو أن موسى حسد طارقاً أو أساء الظن به لاستطاع إزاحته من طريقه ، وذلك بعزله واستدعائه إلى القيروان ، ولايستطيع طارق مخالفة أوامر موسى في شيء.

إن كل الدلائل تشير إلى أن طارقاً كان مثالاً للطاعة والنظام، فقد بعث بأولاد غيطشة إلي مولاه موسى عندما وصلوا إلي طليطلة وقالوا له : أنت أمير نفسك أم على رأسك أمير؟ فقال طارق : بل على رأسي أمير وفوق ذلك الأمير أمير عظيم، وهذا يدل على منتهى الضبط وتقدير المسئولية والالتزام بسلسلة المراجع، ولعل أوضح دليل على أن موسى قدم الأندلس لمعونة طارق لا لتأديبه، وأن موسى قدم الأندلس لأغراض عسكرية بحتة، وأن موسى لم يذهب للقاء طارق بعد نزول أرض الأندلس وإنما انصرف إلى فتح كبار البلاد الجنوبية والغربية التي خلفها طارق دون فتح، وذلك لحماية جناح طارق الأيسر من جهة، ولتدعيم قواعد الفتح المتقدمة في الأندلس ولتثبيت قوات العدو بإشغالها في جبهات عديدة بقوات المسلمين الضاربة، فلما تم له ذلك سار موسى إلى طارق ولقيه في طليبرة على مقربة من طليطلة وحين التقيا قال موسى لطارق : « يا طارق إنه لن يجازيك الوليد بن عبد الملك على بلائك بأكثر من أن يمنحك الأندلس، فاستبحه هنيئاً مريئاً »، فقال طارق : « أيها الأمير! والله لا أرجع عن قصدي هذا ما لم أنتهي إلى

البحر المحيط أخوض فيه بفرسي »، ولم يزل طارق يفتح ومعه موسى إلى أن بلغ جليقية وهي على ساحل البحر المحيط.

وكان عبور موسى إلي الأندلس في رمضان سنة ثلاث وتسعين الهجرية (٧١٢ م) من طنجة على رأس جيش قوامه ثمانية عشرة ألفاً من قريش والعرب ووجوه الناس.. ولقد كان ترصين قواعد الفتح المتقدمة وتأمين خطوط ومواصلات الفتح وحماية الجناح الأيسر الغربي لمنطقة فتح طارق، الأهداف الحيوية الأولى التي حققها موسى بعد إنزال قواته الأندلس.

فتح إشبيلية :

وتحرك بقوته نحو إشبيلية، وكانت من أعظم قواعد الأندلس وأتقنها بنياناً وأكثرها أثاراً وكان دار ملك قبل غلبة القوطيين على الأندلس.

فتح ماردة :

وكانت ماردة أيضاً دار مملكة لبعض ملوك الأندلس في سالف الدهر، وهي ذات عز ومنعة، وفيها آثار وقصور ومصانع وكنائس جليلة القدر فائقة الوصف، فحاصرها أيضاً، وكان أهلها في منعة شديدة وبأس عظيم، فنالوا من المسلمين دفعات وردوهم، وعمل موسى دبابة دب المسلمين تحتها إلي برج من أبراج أسوارها وجعلوا ينقبونها ، وقتل في هذا البرج كثير من المسلمين، فسمي ذلك الموضع « برج الشهداء »، واستمر موسى محاصراً لماردة، ودخلها صلحاً سنة أربع وتسعين الهجرية.

فتح إشبيلية ثانية :

وحين كان موسى محاصراً « ماردة »، ثار عجم إشبيلية وتمردوا وقاموا على من فيها من المسلمين، فلما أن فتح ماردة وجه عبد العزيز بن موسى في جيش إلى إشبيلية ففتحها وقتل أهلها، ولم يغادر عبد العزيز بن موسى إشبيلية إلا بعد أن ترك في إشبيلية وباجة ولبلة حاميات إسلامية لتؤمنها من أي تدبير يقوم به

القوط، وكانت حامية باجة قوية بقيادة قائد عربي معروف هو عبد الجبار قائد ميسرة موسى، وجد بني زهرة أحد بيوت إشبيلية التي سيكون لها شأن.

مقتل لذريق:

لقد أدرك موسى أن مراكز المقاومة القوطية وعلى رأسها لذريق بدأت تتجمع في منطقة الجزء الشمالي من غرب الأندلس بالذات لعرقلة مسيره، والرفادة من وعورة المنطقة ظنًّا منهم أن المسلمين لن يستطيعوا الوصول إليها، فقدر موسى موقف عدوه تقديراً صائباً، لذلك استدعى طارقاً ليلقاه في منتصف الطريق بين ماردة وطليطلة حيث التقى بطارق في موضع يقال له: تايد أو تايتر وهو نهر في المنطقة، وخرج طارق معظماً، ونزل بين يديه، فعاتبه موسى على مخالفته لرأيه في سرعه لاقتحام الأندلس من الوسط، فاعتذر إليه طارق واستلطفه حتى رضي عنه موسى.

اتبع موسى وطارق الطريق الروماني القديم الممتد من ماردة إلى سلمنقة ومضى في فج منسوب إليه بحذاء نهر سمي منذ ذلك الحين بوادي موسى، وظن لذريق وأصحابه أن الفرصة قد سنحت للهجوم على المسلمين، وانقضوا على جيش موسى من ناحية يسميها بعض المؤرخين من المسلمين «السواقي»، وهي «سيجويلادي لوس كونيخورس» بالقرب من بلدة تماس، وهناك وقعت المعركة الحاسمة الثانية في سنة أربع وتسعين هجرية (٧١٢م)، وفي هذه المعركة لقي لذريق حتفه على يد مروان بن موسى بن نصير وهزم القوط هزيمة نكراء.

فتح طليطلة ثانية:

ويبدو أن اشتباك المسلمين مع القوط في هذه الموقعة الحاسمة قد شجع نفراً من بقايا القوط وأنصارهم في طليطلة على نقض طاعة المسلمين، فانتهزوا فرصة خروج طارق وجنده منها، ووثبوا عليها فاضطر موسى إلى فتحها من جديد ودخولها دخول الظافر، وفي طليطلة سلم طارق إلى موسى الكنوز التي غنمها

من الكنائس وغيرها عند فتحه طليطلة لأول مرة ، فأقام بها موسى طوال فصل الشتاء من سنة أربع وتسعين هجرية يدبر أمرها، ثم ضرب عملة ذهبية وأخرى برونزية لصرف رواتب الجند، وذلك بدل السكة القوطية لطليطلة ثم بعث موسى برسولين إلى الوليد بن عبد الملك ينهيان إليه أخبار هذا الفتح العظيم، ووقع اختياره على التابعي على بن رباح وكان رجلاً صالحاً في نحو الثمانين من عمره ومغيثاً الرومي، فاتح قرطبة، ومولى الوليد بن عبد الملك، فلما دخل وفد موسى إلي الوليد، قال على بن رباح: « يا أمير المؤمنين: تركت موسى بن نصير في الأندلس، وقد أظهره الله ونصره، وفتح على يديه ما لم يُفتح على يد أحد ، وقد أوفدني إلى أمير المؤمنين في نفر من وجوه من معه، بفتح من فتوحه، ثم دفع إليه الكتاب من عند موسى فقرأه الوليد، فلما أتى على أخره خر ساجداً » .

فتح شمال الأندلس :

ولما انقضى فصل الشتاء واطمأن موسى إلي هدوء ما بيده من البلاد، عزم على متابعة الفتح فأخذ يستعد للسير نحو الشمال لإكمال فتح شبه جزيرة الأندلس، جمع جيوشه، وأكمل أمورها الإدارية، ثم زحف بها نحو « سرقسطة » الواقعة على الضفة اليمنى من نهر أبرة وكان طارق على مقدمته وسار موسى خلفه في جيوشه، فارتقى إلى الثغر الأعلى، وافتتح سرقسطة وأعمالها، وأوغل في البلاد وطارق أمامه لا يمران بموضع إلا فتح عليهما، وأغنمهما الله تعالى ما فيه، وقد ألقى الله الرعب في قلوب العدو، فلم يعارضهما أحد إلا بطلب الصلح، وموسى يجيء على أثر طارق في ذلك كله، ويكمل ابتداءه، ويوثق للناس ما عاهدهم عليه، ولم تكد طلائع المسلمين تشرف على سرقسطة حتى رعب أسقفها « بنسو » ومن معه من الرهبان، فجمعوا كتبهم المقدسة وذخائرهم الموروثة وقرروا الهجرة من البلد والفرار بهذه الذخائر، فلم يلبث موسى أن أرسل إليهم رسولاً يؤمنهم ويعطيهم عهده، فسكنت مخاوفهم وعدلوا عن مغادرة المدينة، وفتحت

المدينة البيضاء «سرقسطة» أبوابها للمسلمين سنة أربع وتسعين للهجرة، ولم يكد المسلمون يستقرون في هذا البلد حتى قام التابعي حنش بن عبد الله الصنعاني بإنشاء مسجد للمدينة، وقد قدر لهذا المسجد أن يتسع حتى أصبح مسجداً جامعاً وظل قروناً متوالية مناراً للإسلام وأهله في هذه لنواحي.

وبعد فتح سرقسطة فتح موسى «وشقة» و«لاردة» و«طرّكونة».. وحين أوغل موسى وجاوز سرقسطة، اشتد ذلك على الناس وقالوا: أين تذهب بنا؟!، حسبنا ما بأيدينا ، وكان موسى قام حين دخل إفريقية وذكر عقبة بن نافع: لقد كان غرر بنفسه حين توغل في بلد العدو عن يمينه وعن شماله وأمامه وخلفه، أما كان معه رجل رشيد؟! فسمعه حنش الصنعاني، فلما بلغ موسى ذلك المبلغ من التغلغل عمقاً في الفتح – قام حنش فأخذ بعنانه، ثم قال: «أيها الأمير إني سمعتك وأنت تذكر عقبة بن نافع تقول: لقد غرر بنفسه وبمن معه ، أما كان معه رجل رشيد؟! وأنا رشيدك اليوم أين تذهب؟ تريد أن تخرج من الدنيا ؟! ، أو تلتمس أكثر مما آتاك الله عز وجل وأعرض مما فتح الله عليك، دوخ لك؟ إني سمعت من الناس مالم تسمع، وقد ملئوا أيديهم وأحبوا الدعة، فضحك موسى ثم قال: أرشدك الله وكثر في المسلمين من أمثالك ، ثم انصرف قافلاً إلى الأندلس وهو يقول: أما والله لو انقادوا إليَّ لقدتهم إلى رومية «روما» ، ثم يفتحها الله على يدي إن شاء الله» [١].

ولكن موسى استطاع أن يعيد إلى الجنود نشاطهم وحماستهم للفتح وبينما كان يعد العدة لفتح جليقية، إذ أتاه مغيث الرومي رسول الوليد بن عبد الملك يأمره بالخروج من الأندلس وأن يكف عن التوسع في البلاد، وأن يشخص إلى

---

(١) **قلت**: وهذه هي العلاقة بين القيادة والجنود في الجيوش الإسلامية مبنية على التناصح والتعاون على البر والتقوى والسمع والطاعة في العُسر واليُسر والمنشط والمُكره ما دامت القيادة تقود الجنود إلى مرضاة الله والقيادة تسمع للنصح ما دام فيه حق وإرشاد.

دمشق، فساءه ذلك وقطع به عن إرادته، إذ لم يكن في الأندلس بلد لم تدخله العرب إلى وقته غير جليقية، فكان شديد الحرص على اقتحامها، ولكن قدوم مغيث لم يصرف موسى عن المضي في إتمام هذه الغزوة التي صاحبها التوفيق إلى هذه الساعة،فبذل جهده للبقاء في الأندلس بعض الوقت ريثما يتم فتح جليقية.

ولاطف مغيثاً - من أجل ذلك - وسأله إمهاله، إلى أن ينفذ عزمه على الدخول إلى جليقية وللمسير معه في البلاد أياماً، يكون شريكه في الأجر والغنيمة، ففعل مغيث ومشى معه... فلما اطمأن موسى إلى ذلك، بادر إلى السير شمالا لفتح قشتالة القديمة تأميناً للحدود الشمالية لإقليم طليطلة .. سار موسى بنفسه على الضفة الشرقية لنهر إبره في إقليم قشتالة فأطاعه معظم من مرّ بهم من رؤساء هذه الناحية.. وهكذا وصلت جيوش موسى حتى البحر المحيط، فاطمأن إلى أنه فتح شبه الجزيرة كلها، لذلك شعر أنه لم يعد هناك معنى للاسترسال في الفتح .. ولما انتهى موسى في فتوحه إلى هذا الحد القصي، كان لابد أن يعود لا إلى طليطلة أو قرطبة فقط، بل إلى دمشق رأساً، فقد كان مغيث الرومي رسول الخليفة يتعجله، وكان الوليد بن عبد الملك معجلاً عليه لايريده أن يتمهل إذ إن رسولاً آخر من الوليد يكنى أبا نصر بعثه إلى موسى بعدما استبطأه في القفول.

عودة موسى وطارق إلى المشرق :

أخذ موسى في طريق العودة في أواخر خمس وتسعين هجرية « منتصف صيف ٧١٤م » وكان مغيث الرومي قد خف للقائه، فالتقيا بنواحي ليون، وهناك أدركهما طارق عائداً من اشترقه ، وساروا جميعاً إلى إشبيلية حيث ركبوا البحر، وقد اختار موسى إشبيلية عاصمة للأندلس، واستخلف عليها ابنه عبد العزيز وترك معه حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الفهري وزيراً معيناً، وترك معه العساكر ووجوه القبائل ومن يقوم بحماية البلاد وسد الثغور وجهاد العدو،

واستخلف موسى ابنه عبد العزيز على إفريقية، وابنه مروان على « طنجة » و« السوس »، ومر في طريق عودته بـ « القيروان » ثم قدم مصر سنة خمس وتسعين كانون الأول « ديسمبر ٧١٤م » ثم ذهب إلي فلسطين وبلغ دمشق سنة ست وتسعين الهجرية

لما قدم موسى على الوليد قبل وفاته بأربعين يوماً وهذا ما نرجحه ومعه غنائم ضخمة يعجز عنها الوصف، ولكن الظاهر أن قلب الوليد كان متغيراً على موسى، فلم يحسن لقاء موسى، ثم لم يلبث الوليد أن لقي ربه وخلفه أخوه سليمان وهو أشد من أخيه غضباً على موسى، لهذا كان طبيعيّاً ألا ينتظر موسى خيراً كثيراً وأن يدرك أن أيام مجده وعزه قد مضت مع أمس الدابر (١) .

وقد نسب المؤرخون إلى سليمان بن عبد الملك أنه أساء معاملة موسى بن نصير وأبقاه في حر الشمس حتى كاد يُغمى عليه من شدة التعب والجهد والحر، وأن سليمان حبسه وأمر بتقصي حسابه فأغرمه مغرماً عظيماً، وما نسبه المؤرخون لا يصح لأن سليمان ترك أولاد موسى ولاة على إفريقية، ولأن موسي كان أثيراً على نفس يزيد بن المهلب وزير سليمان وصاحب الأمر في دولته، ولأن عمر بن عبد العزيز كان من أقرب المقربين إلى سليمان، ومن المستحيل أن يرضى عمر بن عبد العزيز عن مثل تلك التصرفات دون أن يقول كلمته لإحقاق الحق وإزهاق الباطل، ولأن سيرة سليمان الذي وصفه المؤرخون بأنه مفتاح الخير، وأطلق الأسرى، وخلى السجون وأحسن إلى الناس، واستخلف عمر بن عبد العزيز ، لاتستقيم مع اتهامه بالتنكيل بموسى وهو شيخ كبير له ماض ناصع مجيد في خدمة المسلمين.

---

(١) **قلت**: من خلال دراستي لسيرة موسى بن نصير لاحظت أنه محسود وله أعداء، وهم الذي أوغروا قلب الوليد وسليمان عليه، ثم إن مجده وعزه إنما يكون في طاعة ربه وحرصه على نشر دينه وبحثه عن الشهادة في سبيله: ﴿ما عندكُمْ ينفدُ وَمَا عندَ اللَّه باقٍ﴾

لقد كان موقف سليمان من موسى موقفاً سليماً، وحقائق التاريخ تعلو دائماً على المبالغات المدسوسة عن قصد أو عن غير قصد، ولكن، لماذا عزل الوليد بن عبد الملك موسى عن إفريقية والأندلس، وأقر سليمان هذا العزل؟ ، ولماذا استدعى الوليد موسى من ساحات القتال على عجل ولم يمهله حتى يحقق نياته التوسعية في الفتح ؟ .

أسباب استدعاء موسى إلى دمشق وعزله :

يبدو أن الوليد ومن بعده سليمان اعتقدا أن موسى غرر بالمسلمين، وإنه عرضهم للمهالك بتغلغله إلى حدود بعيدة في الأندلس، كما أنهما خشيا من طموح موسى في التغلغل إلي بلاد أبعد من الأندلس فيقود المسلمين إلى رومية، وأن موسى: « أجمع أن يأتي المشرق من ناحية القسطنطينية ويتجاوز إلى الشام دروبه، ودروب الأندلس، ويخوض إليه ما بينها من أمم الأعاجم النصرانية، مجاهداً فيهم، مستلحماً لهم، إلى أن يلحق بدار الخلافة »، فنما هذا الخبر إلى الوليد، فاشتد قلقه بمكان المسلمين من دار الحرب، ورأى أن ما هم به موسى غرر بالمسلمين إن لم يرجع وكتب له بذلك عهده، ففت ذلك في عزم موسى، وقفل عن الأندلس بعدما أنزل المرابطة والحامية بثغورها، ،أنزل ابنه عبد العزيز لسدها وجهاد عدوها، والظاهر أن الخلفاء لم يكونوا مطمئنين على المسلمين في الأندلس حتى بعد الوليد وسليمان، فقد فكر عمر بن عبد العزيز في إقفال المسلمين من الأندلس وإخلائها، إذ خشي تغلب العدو عليهم، فإذا كان هذا ما يعتقده عمر ابن عبد العزيز الذي تولى الخلافة سنة تسع وتسعين هجرية، فلماذا نلوم الوليد وقد استدعى موسى سنة خمس وتسعين هجرية ، والفتح كان في أوله، والأندلس بعيدة عن دار الخلافة.

لقد كان طموح موسى في التوسع بالفتح، سبباً واضحاً لاستدعائه إلى دار دمشق، وهذا السبب – فيما أرى – من الأسباب الجوهرية التي جعلت الوليد

يستدعيه وهناك سبب آخر وهو أن خصوم موسى دسوا عليه عند الخلفاء أنه يفكر بالاستقلال عن الخلافة وزينوا له ذلك بأساليبهم وكان موسى بوسعه أن يستقل عن الخلافة ، ولكن إيمانه العميق بتعاليم الإسلام وتمسكه والتزامه بها جعله لا يفكر بذلك حتى إن المهلب ابن أبي صفرة سأله عن ذلك فقال موسى : « والله لو أردت ذلك ما نالوا من أطرافي طرفاً ، ولكنني آثرت الله ورسوله، ولم نر الخروج عن الطاعة والجماعة » .

المطلب السادس

أهم صفاته القيادية، ومبادئه الحربية

كان موسى إداريًّا حازماً، استطاع السيطرة على منطقة ولايته في إفريقية والمغرب والأندلس سيطرة كاملة بناءة منشئة بكل كفاية وجدارة، وقد أعانته عقليته الجبارة على التفكير العميق في تطوير البلاد التي تحت نفوذه، وكان من أولئك الولاة الذين يفكرون بما يعملون، ويعرفون ما يريدون ، وينفذون ما يخططون .

لقد كان من مزايا موسى أنه : كان النصر في ركابه، والحزم في قراراته، والخلق الكريم من مزاياه، والحق رائده، والعدل سيرته ، الكرم هدفه، والمواهب السامية خصاله، كان عاقلاً شجاعاً كريماً، وقد بذل جهوداً عظيمة لنشر الإسلام في إفريقية والمغرب، ترك رجالاً من الدعاة ليعلموا البربر القرآن وفرائض الإسلام، وفي سنة خمس وثمانين هجرية تم إسلام أهل المغرب الأقصى، وحولوا المعابد التي كان بناها المشركون إلى القبلة ، جعلوا المنابر في مساجد الجماعات فاستأمن البربر إليه وأطاعوه، وبهذه الخطة العملية الرائعة استطاع موسى أن ينشر الإسلام في ربوع المغرب، وبذلك أشاع الانسجام الفكري بين العرب والبربر بغرس تعاليم الإسلام في نفوس البربر، فأصبحوا من العرب قوة موحدة هائلة وجدت لها

متنفساً في فتح الأندلس، فربط موسى بهذا الفتح مصير الفاتحين من العرب المسلمين وإخوانهم البربر المسلمين، وجعلهم يدافعون عن عقيدة واحدة بقيادة واحده ، لتحقيق هدف واحد هو: إعلاء كلمة الله ، ونشر دينه في الأرض ، حتى تكون كلمة الله هي العليا.

ومن أعمال موسى الإدارية :

ضرب أول عملة إسلامية في الأندلس، ومن أعماله الإدارية التي تتسم بالطابع العسكري أيضاً تحسينه «دار الصناعة» التي كانت بتونس، والتي أسسها حسان بن النعمان حيث استطاع موسى بن نصير أن يسورها ويجري البحر إليها مسيرة اثني عشر ميلاً،حتى أقحمه دار الصناعة، ثم أمر بصناعة مئة مركب، فأصبح بإمكان هذا الدار إنشاء المراكب وتدريب البحارة وتصليح السفن، مما سهل على موسى جهاده البحري وفتح الأندلس.

ومن أعماله الإدارية الخالدة :

نشره اللغة العربية بين البربر، وذلك بإرسال المعلمين والاختلاط الشديد بين العرب والبربر، كما أن إقبال البربر على الإسلام أدى إلى إقبالهم على تعلم اللغة العربية وانتشارها بينهم، مما كان له أكبر الأثر على عروبة المغرب، كما أن اتجاه موسى العملي إلى عدم التفرقة بين العرب المسلمين والبربر المسلمين،في إسناد المناصب إلى الأكفاء منهم جعل من البربر المسلمين سنداً قوياً للعرب المسلمين، وجعل منهم فاتحين يسيرون جنباً إلى جنب مع إخوانهم العرب المسلمين ، ولعل تولية طارق بن زياد، وهو بربري، أخطر المناصب القيادية، هو خير دليل على عدم تفرقة موسى بين المسلمين من بربر وعرب،وأن الكفاءة وحدها هي التي كانت تقدم وتؤخر في نظر موسى،مما جعل البربر يبذلون قصارى جهدهم في الفتح سواء كان ذلك في ساحات إفريقية والمغرب أو في ساحات الأندلس أو جزائر البحر الأبيض المتوسط، لقد كان موسى رجل دولة بكل ما في الكلمة من معاني.

أهم مبادئه الحربية الاستراتيجية :

إنه كان عرف مزايا الأمم التي قاتلها، فيحارب تلك الأمم على هدى وبصيرة ولأنه كان يعرف مزايا الخيل وما يستفاد منها في الحروب وما لا يستفاد، ومن مزاياه الحربية تجربته الطويلة في معاناة الحروب، وإنه كان ذا رأى وتدبير وحزم وخبرة في الحرب، ومن مزاياه أسلوبه الفذ في معالجة الحصون والمدن المنيعة، فقد كان ماهراً في الحصار، وفي قتال المدن، وعنايته الكبيرة بحماية المواصلات، وتفريق قوات العدو لضربها متفرقة على انفراد، كان يطبق مبدأ اختيار المقصد وإدامته ، ومبدأ التعرض ، ومبدأ المباغتة ، ومبدأ الأمن ، ومبدأ تحشيد القوة ، ومبدأ المرونة، ومبدأ إدامة المعنويات ، ومبدأ الأمور الإدارية (١) .

المطلب السابع

وفـــاتـــه

فقد توالت المصائب على الشيخ المجاهد البطل موسى بن نصير بعد وصوله إلى دمشق سنة ست وتسعين هجرية (٧١٤م) ، ولعل من أعظم ما أصابه مقتل ابنه عبد العزيز في الأندلس، وفي سنة سبع وتسعين هجرية حج بالناس سليمان بن عبد الملك، فأمر موسى بالشخوص والحج معه فذكر موسى لسليمان أنه ضعيف، فأمر له سليمان بثلاثين نجيباً موقورة، وبحجرة من حجره، فحج سليمان، وحج معه موسى ، وتوفي موسى في وادي القري، سنة سبع وتسعين الهجرية، وكان عمره حينها ثمان وسبعين سنة قمرية، لأنه ولد سنة سبع عشرة هجرية كما مر بنا، وصلى عليه مسلمة بن عبد الملك.

وهكذا أغمض البطل عينيه إلى يوم القيامة ، ولكن التاريخ لم يغمض عينيه

---

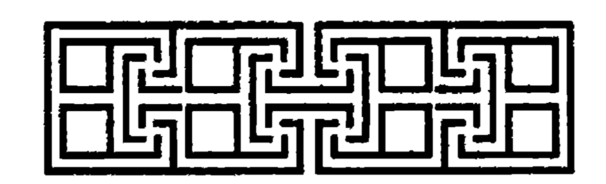
(١) انظر : سير أعلام النبلاء (٤ / ٤٩٦).

عن مآثره الخالدة، ذلك لأنه كان قد جمع من خلال ما أعانه الله سبحانه به على ما بنى له من المجد المشيد، والذكر الشهير المخلد، الذي لا يبليه الليل والنهار ولا يعفي جديده بلى الأعصار.

فعلى الأجيال الصاعدة أن تذكر لموسى أنه فتح المغرب الأقصى واستعاد فتح المغرب الأوسط، وأنه رصن الفتح الإسلامي في الشمال الإفريقي، وأنه فتح الأندلس وقسماً من جنوب فرنسا، وأنه كان من أعظم قادة الفتح الإسلامي، رضي الله عن التابعي الجليل، الإداري الحازم ، والبطل المغوار ، القوي الأمين ، القائد الفاتح، موسى بن نصير اللخمي» [١] .

ولابد وأن نذكر أن موسى – رحمه الله – كان يُقْرَنُ بخالد بن الوليد ﷺ ، حيث لم ينهزم له جيش ولم يُفَل له سيف ، وكان الخلفاء يعرفون له فضله وكفاءته ، ولم يشكُّوا في إخلاصه وولائه . . . وما تغيَّر عليه الوليد أو سليمان إبنا عبد الملك . . . أما الوليد . . . فقد وشى بعض الحاقدين على موسى عند الوليد أنه لم يذكره في دعاء صلاة الاستسقاء ، فغضب الوليد من الواشي وقال له : وهل أُذكر في مقام يُذكر فيه الله ، إن عدت لذلك ضربت عنقك . . .

وأما سليمان فقد جهز موسى وأراد صحبته في موسم الحج تكريمًا له . . . وتوفى موسى بالمدينة النبوية على صاحبها الصلاة والسلام ، وكان رحمه الله قد دعا أن يتوفاه الله شهيداً ، أو بأرض المدينة ، فاستجاب الله له .



(١) راجع : قادة فتح المغرب العربي (١ / ٢٢١-٣٠٩).

المبحث السادس

عبد الله بن الزبير بن العوام الأسدي القرشي

إن عبد الله بن الزبير ابن أبيه ، فاتح صبراته ، وسوسة ، يعتبر من أبرز قيادات فتح ليبيا في زمن الفتح المبارك، فمن هو هذا القائد ، وما هي أهم أعماله الجهادية ، وصفاته القيادية؟ ، كل ذلك سوف نتناوله في هذه العجالة بشيء من الإيجاز .

المطلب الأول

اسمه، ونسبه، وميلاده

اسمه، ونسبه :

هو عبد الله بن الزبير بن العوام بن خويلد القرشي الأسدي، فأبوه أحد العشرة المبشريه بالجنة، فهو ابن حواري رسول الله ﷺ، وأمه أسماء بنت أبي بكر الصديق ذات النطاقين ، وجدته لأبيه صفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ وعمة أبيه خديجة بنت خويلد أم المؤمنين ، وخالته عائشة أم المؤمنين رضي الله عنهم أجمعين.

ميلاده :

هاجرت أمه أسماء بنت أبي بكر من مكة وهي حامل به ، فولدته بـ « قباء » في السنة الأولى من الهجرة ، فهو أول مولود في الإسلام من المهاجرين بالمدينة، فحنكه رسول الله ﷺ بتمرة لاكها في فيه ثم حنكه بها، فكان ريق رسول الله ﷺ أول شيء دخل جوفه، ثم دعا له وبارك عليه، وأذن أبو بكر الصديق في أذنه حين ولد .

أيامه الأولى:

أحضره أبوه الزبير إلى رسول الله ﷺ ليبايعه وعمره سبع سنين أو ثماني سنين ، فلما رآه رسول الله ﷺ مقبلاً تبسم ثم بايعه.

لقد نشأ عبد الله في بيت كريم الآباء والأمهات والعمات والخالات في محيط كله نور وهدى، وجهاد، وفداء، قريباً من رسول الله ﷺ، وهكذا نشأ في محيط مناسب ليكون بطلاً مسدداً ، فنال شرف الصُّحبة ولم ينل شرف الجهاد تحت لواء الرسول ﷺ القائد لصغر سنه .

المطلب الثاني

جهاده

﴿١﴾ شهد عبد الله معركة اليرموك الحاسمة بين المسلمين والروم مع أبيه فلما انهزم الروم يوم اليرموك جعل يجهز على جرحاهم وشهد خطبة عمر بـ« الجابية ».

وشهد ابن الزبير فتح مصر، وكان أحد الشهود على وثيقة الصلح بين المسلمين وبين أهل مصر، وذلك سنة عشرين هجرية ، وشهد مع عمرو بن العاص فتح ليبيا، فلما انتهى عمرو من فتح طرابلس أمر الخيل بالإسراع إلي صبراتة لفتحها ، وبقي هو في طرابلس للإشراف على أمورها، وأسرعت الخيل بقيادة عبد الله بن الزبير، فصبحوها من ليلتهم على غرة، فوجدوا أبواب السور مفتوحة وأهلها مشغولين بإخراج الحيوانات للمرعى، فاقتحموها عليهم بالقوة وأوقعوا فيهم القتل حتى استسلموا ومن فرّ منهم وركب البحر هارباً إلى صقلية، وهدم المسلمون سورها خوفاً من تحصن الروم بها مرة ثانية، وغنموا كل ما فيها وكان شيئاً كثيراً، وأرسلوا إلى عمرو بن العاص في طرابلس يخبرونه بما فتح الله عليهم فحضر إلى صبراتة .

﴿٢﴾ وشهد عبد الله فتح « إفريقية » أيام عثمان بن عفان تحت لواء عبد الله بن سعد بن أبي السرح، وكان الفتح على يديه فقد سيره عثمان في جماعة إلى « إفريقية » سنة ست وعشرين هجرية ليأتيه بأخبار الفتح، فسار مجداً حتى وصل إلى المسلمين هناك وأقام معهم ولما وصل كثر الصياح والتكبير عن المسلمين، وسمع « جرجير » يقول: « من قتل عبد الله بن سعد فله مائة ألف دينار وأزوِّجه ابنتي » فحضر ابن الزبير إلى عبد الله بن سعد وقال له: « تأمر منادياً ينادي: من يأتي برأس جرجير نفلته مائة ألف وزوجته ابنته واستعملته على بلاده » فركب الرعب قلب « جرجير ».

ثم إن عبد الله بن الزبير قال لعبد الله بن سعد: « إن أمرنا يطول مع هؤلاء وهم في أمداد متصلة ببلاد هي لهم، ونحن منقطعون عن المسلمين وبلادهم، وقد رأيت أن نترك غداً جماعة صالحة من أبطال المسلمين في خيامهم متأهبين، نقاتل نحن الروم في باقي المعسكر إلى أن يضجروا ويملوا، فإذا رجعوا إلى خيامهم ورجع المسلمون، ركب من كان في الخيام من المسلمين ولم يشهدوا القتال وهم مستريحون، ونقصدهم على غرة، فلعل الله ينصرنا عليهم »، فأحضر ابن سعد جماعة من أعيان الصحابة، واستشارهم فوافقوه على ذلك.

وفي صباح الغد، نفذ سعد خطة ابن الزبير هذه، فأقام جميع شجعان المسلمين في خيامهم - وخيولهم عندهم مسرجة - ، ومضى الباقون فقاتلوا الروم إلي الظهر قتالاً شديداً، فلما أذن بالظهر وهم الروم بالانصراف على العادة، لم يتركهم ابن الزبير وألح عليهم حتى أتعبهم... عند ذلك أخذ ابن الزبير من كان مستريحاً من شجعان المسلمين وقصد الروم، فلم يشعروا بهم حتى خالطوهم، وحملوا حملة رجل واحد وكبروا، فلم يتمكن الروم من لبس سلاحهم حتى غشيهم المسلمون.

ونظر عبد الله فرأى « جرجير » وقد خرج من عسكره على برذون أشهب ومعه

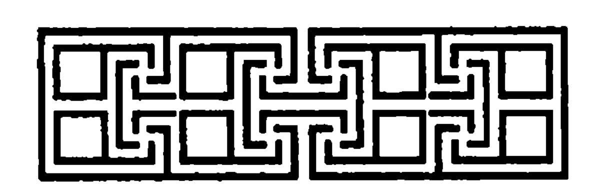
جاريتان تظلانه بريش الطواويس وبينه وبين عسكره أرض بيضاء ليس فيها أحد، فاختار ثلاثين فارساً من المسلمين وأخذهم معه ... ثم انطلق إلى الوجه الذي فيه «جرجير» وخرج صامداً له وما يظن جرجير وأصحابه إلا أن ابن الزبير رسول إليه حتى وصل إليه ودنا منه، فعرف الشر، فثنى برذونه مولياً، ولكن ابن الزبير أدركه فطعنه وأذاقه السيف وحز رأسه ونصبه في رمحه وكبر .. فحمل المسلمون من الوجه الآخر وانهزم الروم بعد أن قتل ابن الزبير «جرجير» فقتل المسلمون منهم مقتلة عظيمة، وأخذت ابنة «جرجير» سبية، فنفلها عبد الله بن سعد عبد الله بن الزبير، وكان سهم الفارس ثلاثة آلاف دينار وسهم الراجل ألف دينار.

ولما أراد ابن أبي السرح أن يبشر عثمان بالفتح قال لابن الزبير:

«أنت أولى بهذا» فأرسله إلى عثمان بشيراً، فأخبره بما فتح الله عليه، فأمره عثمان أن يخطب، فلما خطب قال عثمان: «كأنه أبو بكر» لقد كان فتح «إفريقية» على يديه.

﴿٣﴾ وتولى حرب «إفريقية» معاوية بن حديج السكوني بعد عبد الله بن سعد بن أبي السرح، فكان ابن الزبير ساعده الأيمن في مهمته الشاقة، فقد كان ابن الزبير مع ابن حديج في جهاده، حين وجهه معاوية بن أبي سفيان في جيش كثيف تعداده عشرة آلاف رجل وفتح قمونية، وبث السرايا في البلاد وبعث عبد الله بن الزبير إلى «سوسة» ففتحها وكان ذلك سنة خمس وأربعين هجرية.

﴿٤﴾ وحضر عبد الله بن الزبير إلى الشام لغرو «القسطنطينية» أيام معاوية بن أبي سفان فشهد حصارها وذلك سنة تسع وأربعين وقيل سنة خمسين.



المطلب الثالث

موقفه من الأحداث السياسية

لقد كان ابن الزبير أيام عثمان بن عفان ﷺ أحد المقربين إليه، فلما حاصره أهل الأمصار، دافع عنه دفاعاً مستميتاً في يوم «الدار»، فقد استخلفه عثمان على «الدار» قائداً للمدافعين عن عثمان، فكان هو الذي يقاتل بالصامدين دفاعاً عن عثمان، فيخرج الكتيبة ويباشر القتال بنفسه، فجرح بضعة عشر جرحاً غائراً وكان يقول: «جرحت بضعة عشر جرحاً، وإني لأضع اليوم يدي على بعض تلك الجراحات، فأرجو أن تكون خير أعمالي» كما كان يقول ابن الزبير . . . وفي ذلك يقول عبد الرحمن بن أرطأة الجسري يمدحه ويلوم رجلاً:

فلو كنت مثل ابن الحواري لم ترم وجالدت يوم الدار إذ عظم الخطب
ولكن عبد الله طاعن دونه وضارب يوم الدار أذكره الضرب

لقد كان عبد الله يدين بالطاعة للخليفة القائم ما دام هذا الخليفة على الحق، وكان يربأ بنفسه أن يشارك أهل الفتن في إثارتها بقلبه أو لسانه أو سيفه.

وبعد مقتل عثمان بن عفان، شهد معركة «الجمل» وفيه بضع وأربعون جرحة، وأعطت عائشة ﷺ الذي بشرها بأنه لم يمت عشرة آلاف، ثم سجدت شكراً لله، ولم يكن أحد أحب إليها بعد رسول الله ﷺ وبعد أبيها من ابن الزبير، وما سمعت تدعو لأحد من الخلق مثل دعائها له، وأوصت له بحجرتها.

واعتزل ابن الزبير حروب علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان ﷺ كما اعتزل غيره من كبار الصحابة، وهذا يدل على شدة تعلقه بوحدة كلمة المسلمين وابتعاده عن إراقة دمائهم، ولست أرى في اشتراك عبد الله في معركة الجمل دليلاً عكسياً لكراهية سفك دماء المسلمين، إذ كان ملتاعاً من قتل عثمان وكان لا يريد عقوق والدته وخالته عائشة أم المؤمنين، يرى أن لرأيها في المطالبة بدم عثمان والحث على معاقبة قاتليه وزناً لابد من احترامه وأخذه بعين الاعتبار.

قلت : والموقف الصحيح من الحرب التي وقعت بين الصحابة الكرام ﷺ هو الإمساك عما شجر بينهم إلا فيما يليق بهم ﷺ لما يسببه الكلام في ذلك من توليد العداوة والحقد والبغض لأحد الطرفين، وذلك من أعظم الذنوب، وقبل أن أذكر أقوال السلف فيما شجر بين الصحابة أقدم بعض النصوص التي فيها إشارة إلى ما وقع بين الصحابة من الاقتتال، وبما وصفوا به فيها ، **وتلك النصوص هي:**

﴿١﴾ قوله تعالى: ﴿ **وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ** ﴾ [الحجرات: ٩] .

ففي هذه الآية أمر الله تعالى بالإصلاح بين المؤمنين إذا ما جرى بينهم قتال، لأنهم إخوة، وهذا الاقتتال لا يخرجهم عن وصف الإيمان حيث سماهم الله عز وجل مؤمنين وأمر بالإصلاح بينهم فإذا كان حصل اقتتال بين عموم المؤمنين ولم يخرجهم ذلك من الإيمان، فأصحاب رسول الله ﷺ الذين اقتتلوا في موقعة الجمل وبعدها أول من يدخل في اسم الإيمان الذي ذكر في هذه الآية فهم لا يزالون عند ربهم مؤمنين إيماناً حقيقياً، ولم يؤثر ما حصل بينهم من شجار في إيمانهم بحال لأنه كان عن اجتهاد (١) .

﴿٢﴾ روى الإمام أحمد والبخاري ومسلم رحمهم الله عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : [**لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان وتكون بينهما مقتلة عظيمة ودعواهما واحدة**] فالمراد بالفئتين جماعة على ومعاوية، والمراد بالدعوة الإسلام على الراجح، وقيل: المراد اعتقاد كل منهما الحق.

﴿٣﴾ روى الإمام أحمد ومسلم: عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : [**تمرق مارقة عند فرقة من المسلمين تقتلهم أولى الطائفتين**]،

(١) انظر: العواصم من القواصم، لابن العربي، (ص١٦٩، ١٧٠)

والفرقة المشار إليها في الحديث هي ماكان من الاختلاف بين على ومعاوية رضي الله عنهما، وقد وصف ﷺ الطائفتين معاً بأنهما مسلمتين وأنهما متعلقتين بالحق، والحديث علم من أعلام النبوة، إذا وقع الأمر طبق ما أخبر به الرسول ﷺ ، وفيه الحكم بالإسلام على الطائفتين: أهل الشام وأهل العراق، لاكما يزعمه فرقة الرافضة والجهلة الطغام من تكفيرهم أهل الشام، وفيه أن أصحاب على أدنى الطائفتين إلي الحق، وهذا هو مذهب أهل السُنَّة والجماعة أن عليًّا هو المصيب وإن كان معاوية مجتهداً وهو مأجور إن شاء الله ، ولكن عليًّا هو الإمام فله أجران كما ثبت في صحيح البخاري من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: [**إذا اجتهد فأصاب فله أجران ، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر**].

﴿ ٤ ﴾ وروى البخاري بإسناده إلي أبي بكرة قال: بينما النبي ﷺ يخطب جاء الحسن فقال النبي ﷺ : [**إن ابني هذا سيد ، ولعل الله يصلح به بين فئتين من المسلمين**] ، ففي هذا الحديث رد واضح على الخوارج الذين كفَّروا عليًّا ومن معه ، ومعاوية ومن معه بما تضمنه الحدث من الشهادة للجميع بالإسلام، لذا كان سفيان ابن عيينة يقول: « قوه فئتين من المسلمين تعجبنا جداً » قال البيهقي: وإنما عجبهم لأن النبي ﷺ سماهما جميعاً مسلمين وهذا خبر من رسول الله ﷺ لما كان من الحسن بن على بعد وفاة على في تسليمه الأمر إلى معاوية بن أبي سفيان » .

روى ابن سعد بإسناده إلى محمد بن عليّ – المعروف بابن الحنفية – قال: قال عليّ: إني لأرجو أن أكون وطلحة والزبير من الذين قال الله عز وجل فيهم: ﴿ **وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ** ﴾[الحجر:٤٧] كما شهد رضي الله عنه بالحسنى للقتلى من الفريقين في موقعة صفين، فقد روى ابن أبي شيبة بإسناده إلى يزيد بن الأصم قال: سئل على عن قتلى صفين فقال: قتلانا في الجنة وقتلاهم في الجنة » فالواجب على المسلم أن يسلك في اعتقاده فيما حصل بين

الصحابة الكرام ﷺ مسلك الفرقة الناجية أهل السُّنَّة والجماعة وهو الإمساك عما حصل بينهم ﷺ ولا يخوص فيه إلا بما هو أليق بمقامهم .

قال الشاعر:

دع ما جرى بين الصحابة في الوغي ... بسيوفهم يوم التقى الجمعان

فقتيله منهم وقاتلهم لهم ... وكلاهم في الحشر مرحومان

عودة إلي ابن الزبير ﷺ : اعتزل ابن الزبير حروب على بن أبي طالب، ومعاوية بن أبي سفيان .. وبايع معاوية بعد انتهاء الفتنة الكبرى، وعادت الوحدة الشاملة إلي صفوف المسلمين ، وكان معاوية بن أبي سفيان إذا لقيه قال: « مرحباً بابن عمة رسول الله وبابن حواري رسول الله ﷺ، ويأمر له بمائة ألف » .

وسمع معاوية ﷺ رجلاً يقول:

ابن رقاش ماجد سميدع ... يأتي فيعطي عن يد أو يمنع

فقال: « ذاك عبد الله بن الزبير » ودخل على معاوية وعنده جماعة فيهم مروان ابن الحكم، وسعيد بن العاص، فأوسع له معاوية عن سريره، فلما انصرف عبدالله أقبل مروان على معاوية وقال له: « لله درك من رئيس قبيلة يضع الكبير ولا يدني إلا صغيراً، فقال معاوية: نفس عصام سودت عصاماً » .

خلافة ابن الزبير ﷺ : (١)

﴿ ١ ﴾ لما مات معاوية بن أبي سفيان سنة ستين هجرية، امتنع ابن الزبير عن الدخول في طاعة يزيد بن معاوية، ولما توفي يزيد بن معاوية أوصى بالخلافة لابنه معاوية فبايعه أهل الشام، ولم يمض على خلافته يوماً وقيل: ثلاثة أشهر حتى مات، وكان ابن الزبير قد دعا لنفسه في مكة وجاءته بيعة معظم الأقطار، فأرسل

(١) خلافة ابن الزبير، نقلاً من محاضرات الشيخ عبد العزيز نور ولي، الذي درسنا الدولة الأموية في الجامعة الإسلامية بالمدينة، ولقد أجاد في الرجوع إلى المصادر الموثوقة فاكتفيت بها.

ولاته إليها، وقد اعتبره الذهبي وابن كثير أميراً للمؤمنين، وقال الذهبي: بويع له بالخلافة عند موت يزيد سنة أربع وستين هجرية، وحكم على الحجاز، واليمن، مصر، والعراق، وخراسان، وبعض الشام، ولم يتوثق به الأمر، ومن ثم لم يعده بعض العلماء في أمراء المؤمنين، وعد دولته زمن فرقة، فأن مروان غلب على الشام ثم مصر، وقام عند مصرعه ابنه عبد الملك بن مروان وقاوم ابن الزبير وقتل رحمه الله، ونقل ابن كثير أن ابن حزم اعتبره أميراً للمؤمنين آنذاك.

﴿ ٢ ﴾ لم يكن الصراع في الشام صراعاً قبلياً في بداية الأمر، ولم يكن انقسام أهل الشام قيسية ويمانية نتيجة تنافس بين الطرفين، وذلك لأنه لم يكن معاوية ولا يزيد قد فضلا أحد الطرفين على الآخر بل قربا كلا الفريقين، وإنما ظهر هذا الانقسام، لأن أهل الشام كانوا من بني كلب اليمانية، أما الفاتحون لهذه البلاد فكانوا من القيسية واليمانية، وكان أهل البلاد الأصليين لا يرغبون في انتقال الخليفة من بلد إلى آخر، لذلك رضوا مبايعة ابن الزبير الذي كان مقره الحجاز، وبخاصة أنه رفض طلب الحصين في الانتقال إلى الشام لتتم البيعة له.

أما القيسية الذين سكنوا الشام فلم يكن يهمهم أين يكون مركز الخلافة بقدر اهتمامهم بشخصية الخليفة، وكانوا أعلم بالصحابة وأقدارهم من غيرهم، لذلك كانوا يرون أنه لا يتحقق هذا المنصب إلا لأحد صحابة رسول الله ﷺ، لذلك بايعوا ابن الزبير وعلى رأسهم الضحاك بن قيس الفهري،أما اليمانية من أهل الشام فكانوا على ولائهم لبني أمية، ولذلك اضطرب الناس، فخرج اليمانية إلى الجابية لمبايعة شخص من بني أمية، وأما القيسية فخرجوا إلى مرج راهط، اجتمع الكلبية في الجابية ورشح ثلاثة للخلافة: مروان بن الحكم، وعمرو بن سعيد بن العاص، وخالد بن يزيد بن معاوية، ورجحت أخيراً كفة مروان بن الحكم، وذلك ليكون نداً لابن الزبير، سار مروان إلى مرج راهط، واستطاع الكلبية أن يستولوا على دمشق ويضعوا أيديهم على بيت المال، وبذلك أمدوا

مروان بالمال والرجال ونشب القتال بين جيش الضحاك، وانتهت تلك الموقعة التي دعيت بموقعة مرج راهط، بانتصار اليمانية على القيسية، واستقر أمر مروان في الشام، ثم اتجه مروان إلى مصر لأهميتها بالنسبة للشام، واستطاع انتزاعها وطرد عامل ابن الزبير منها وأخذ بيعتها لنفسه، ولكن مروان لم يعش طويلاً فقد مات في رمضان سنة (٦٥ هـ) ، وعهد بالبيعة إلى ابنه عبد الملك من بعده.

حركة التوابين في العراق:

اتجه عبيد الله بن زياد والي العراق عاملاً عليها من قبل مروان ليلقى فيها حركة التوابين وهم جماعة من أهل الكوفة بقيادة الصحابي سليمان بن صرد فتنادوا بأخذ الثأر من قتلة الحسن، وندموا على تفريطهم وخذلانهم له، وقد بلغ عددهم أربعة آلاف مقاتل، اتجهت هذه الجماعة إلى عين الوردة، ولما علم بهم عبيد الله أرسل إليه حصين بن نمير بجيش الشام الذي بلغ عدده اثنى عشر ألفاً ، ولما التقى الجيشان دعا كل فريق الآخر إليه، فأما جيش الشام فدعا التوابين إلى الدخول في طاعة مروان، وأما التوابون فدعوا جيش الشام إلى تسليم قتلة الحسن، وعلى رأسهم عبيد الله بن زياد، ولما امتنع كل فريق منهم في إجابة الآخر إلى طلبه، اشتبكا في قتال مرير، انتهى بانتصار جيش الشام، ومقتل سليمان بن صرد وعدد كبير من جيشه، وعاد الباقون إلى الكوفة، ولم يطاردهم جيش الشام، وسميت تلك الموقعة بموقعة عين الوردة.

قال ابن كثير - رحمه الله - :

لو كان هذا العزم والاجتماع قبل وصول الحسين إلى تلك المنزلة لكان انفع له وأنصر من اجتماع سليمان وأصحابه لنصرته بعد مقتله بأربع سنين.

حركة المختار الثقفي بالكوفة:

استغل المختار بن أبي عبيد الثقفي فشل حركة التوابين، فدعا الناس إليه زاعماً أنه سيأخذ بثأر الحسين ، فانضم إليه الشيعة، وكان شعاره «بثارات الحسين» كما

استغل الموالي فأخذ يدعوهم إلي الانضمام إليه زاعماً أنه يريد التسوية بين العرب والفرس، ودعا لمحمد بن الحنفية الإبن الثالث لعليّ بن أبي طالب ﷺ مدعياً أن الإمامة انتقلت إليه ، فانضم إليه الشيعة والفرس والسبئية ، كما استطاع استمالة إبراهيم بن الأشتر النخعي.

التقى جيش المختار بقيادة إبراهيم بن الأشتر النخعي بجيش عبيد الله سنة ٦٧هـ ودارت بينهما معركة سميت بموقعة الخاذر، انتصر فيها جيش إبراهيم وقتل فيها عدد هائل من جيش عبيد الله، كما قتل عبيد الله بن زياد نفسه، وهذه الموقعة زادت من شعبية المختار، وصار سيد الكوفة بلا منازع، أحس عبد الله بن الزبير بخطر المختار فأرسل إليه أخاه مصعباً الذي نظم جيشه، وانضم إليه المهلب بن أبي صفره ، وبدأت حقيقة المختار تنكشف لأصحابه، فبدءوا ينفضون عنه وعلى رأس من انفض عنه قائد جيشه إبراهيم بن الأشتر، التقى المختار وجيشه مع مصعب وجيشه في موقعة هزم فيه المختار وقتل، وذلك في رمضان من سنة ٦٧ هـ.

وقد ذكر العلماء أنه المقصود بالكذاب في قوله ﷺ : [**إن في ثقيف كذابًا ومبيراً**] ، ومما يدل على أنه كذاب ما أخرجه الإمام أحمد عن رفاعة القتباني قال: كنت أقوم على رأس المختار، فلما تبينت كذابته هممت وايم الله أن أسل سيفي فأضرب عنقه حتى ذكرت حديثاً حدثنيه عمرو بن الحمق قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [**من أمَّنَ رجلاً على نفسه فقتله أعطي لواء الغدر يوم القيامة**] وفي رواية: « إني دخلت على المختار فألقى لي وسادة وقال : لولا أن أخي جبريل قام عن هذه لما ألقيتها لك، قال: فأردت أن أضرب عنقه فذكرت حديثاً حدثنيه أخي عمرو بن الحمق قال: قال رسول الله ﷺ : [**أيما مؤمن أمَّنَ مؤمناً على دمه فقتله فأنا من القاتل بريء**]وأيضاً ما ذكره الهيثمي عن أبي إسحاق قال: قلت لعبد الله بن عمر ﷺ: إن المختار يزعم أنه يوحى إليه، قال: صدق ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ ﴾ [الأنعام: ١٢١] .

ثورة الأشدق والقضاء عليها:

عاد عبد الملك بن مراوان بعد القضاء على ثورة الأشدق [١] لحرب مصعب، والتقى الجيشان في دير الجاثليق، وكاتب عبد الملك قواد مصعب يعدهم ويمنيهم إذا بايعوه فأخفوا ذلك عن مصعب إلا أن إبراهيم بن الأشتر الذي أطلع مصعباً على كتاب عبد الملك وأشار عليه بقتل قواده لإخفائهم أمر الكتب التي جاءتهم، ولا بد أن يكون جاءهم ما جاءه ، ولكن مصعباً رفض ذلك، فأشار عليه بإبعادهم على الأقل حتى تنجلي الحرب، ولكن مصعباً رفض هذا الرأي أيضاً، واشتعلت الحرب بين الطرفين ، وانخذل أصحاب مصعب عنه، وانضموا لعبد الملك، فانتصر جيش الشام، وقتل مصعب وإبراهيم وجماعة، وكافأ عبد الملك الجنود الذين انضموا إليه، ثم سار إلى الكوفة ودخلها وبايعه أهلها، ثم انتقل منها إلى البصرة فبايعه أهلها أيضاً، وتمكن عبد الملك من العراق سنة ٧١هـ ، وبقي في الحجاز.

قلت: إن رأي إبراهيم بن الأشتر كان صائباً في إبعاده قادة حرب مصعب عن سير المعركة، ولكن الله قضى أمراً كان مفعولاً.

المطلب الرابع
وفاة عبد الله بن الزبير

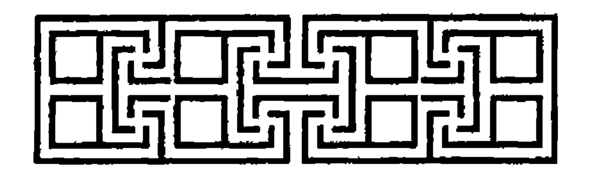
أرسل عبد الملك بن مروان الحجاج بن يوسف الثقفي لقتال ابن الزبير في ذي الحجة سنة ٧٢ هـ فحاصر مكة ورماها بالمنجنيق فَقُتِلَ بها خلق كثير، وما زال الحجاج يحث جيشه على قتال أهل مكة وأهل مكة يخرجون إليه طالبين الأمان، ويتخلون عن ابن الزبير حتى انفض عنه معظم أصحابه، ولم يبق معه إلا القليل،

---

(١) هو عمرو بن سعيد الأشدق الأموي ... عينه عبد الملك بن مروان على دمشق ، فثار عليه وتحصن بها وأخذ أموال بيت المال ، حيث غادرها عبد الملك إلى قرقيسيا .

فدخل عبد الله بن الزبير إلي أمه أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهم يشكو خذلان الناس له ويستشيرها في أمر القتال فقالت له: أنت والله يا بني أعلم بنفسك، إن كنت تعلم أنك على الحق وتدعو إليه، فامض فقد قتل عليه أصحابك، ولا تمكن من رقبتك فيلعب بها غلمان بني أمية، وإن كنت أردت الدنيا، فبئس العبد أنت! ، أهلكت نفسك وأهلكت من قتل معك ، وإن قلت: كنت على حق، ولما وهن أصحابي ضعفت، فهذا ليس فعل الأحرار، ولا أهل الدين؟ وإلى كم خلودك؟! القتل أحسن، فدنا منها وقَبَّلَ رأسها، وقال: هذا والله رأيي، والذي قمت به داعياً إلي يومي هذا... ما ركنت إلى الدنيا، ولا أحببت الحياة فيها، وما دعاني إلى الخروج إلا الغضب لله أن يستحل حرمه، ولكن أحببت أن أعلم رأيك، فزدتيني بصيرة مع بصيرتي، فانظري يا أماه ، فإني مقتول من يومي هذا، فلا يشتد حزنك، وسلمي لأمر الله ، فإن ابنك لم يتعمد إتيان منكر، ولا عملاً بفاحشة، ولم يَجرُ في حكم، ولم يغدر في أمان ، ولم يتعمد ظُلم مسلم ولا معاهد، ولم يبلغني ظُلم عن عمالي فرضيت به بل أنكرته ، ولم يكن شيء آثر عندي من رضى ربي ...» (١) .

وخرج للقتال حتى قتل فأخذ الحجاج جسده وأمر به فصلب، وكان مقتله في جمادى الأولى (سنة ٧٣هـ) ، وبذلك دخلت الحجاز في طاعة عبد الملك، وأخذت البيعة له فيها (٢) .



(١) انظر: سير أعلام النبلاء (٣/٣٦٣-٣٨٠) .

(٢) راجع سير أعلام النبلاء (٣/٣٧٩) .

المطلب الخامس

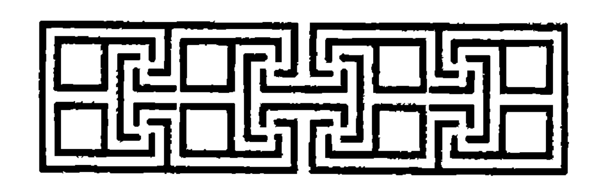
أهم صفاته القيادية ومبادئه الحربية

لقد كان يمتاز بصفات أهلته للقيادة ومن تلك الصفات: أنه كان شهماً فصيحاً شديد البأس، ذا أنفة، له نفس شريفة وهمة عالية، وكان صواماً قواماً، بالحق قوالاً، وللرحم وصالاً، شديداً على الفجرة، ذليلاً للأتقياء والبرره ، حافظاً للقرآن، مبارزاً للشجعان.

وكانت له قابلية لإعطاء القرار السريع الصحيح، ذا إرادة قوية ثابتة، يتحمل المسئولية بلا تردد، يعرف مبادئ الحرب، له نفس لا تتبدل في حالتي النصر والإنحدار، خبيراً بنفسيات رجاله وقابلياته، يثق بجنوده ويبادلونه ثقة بثقة وحباً بحب، ذا شخصية قوية نافذة، له ماض ناصع مجيد.

وكان يحض على تطبيق أكثر مبادئ الحرب أهمية في حروبه، وقد ظهر عملياً بوضوح أنه طبق مبادئ: اختيارالمقصد ، وإدامته والتعرض، والمباغتة، وتحشيد القوة، والأمن، والمرونة، والتعاون، وإدامة المعنويات، والأمور الإدارية.

فرحم الله عبد الله بن الزبير فقد كان الساعد الأيمن لأبيه الزبير في حروبه وخدمته العامة منذ شبابه الباكر حتى قتل الزبير ، وكان من أبرز قادة الفتح الإسلامي في إفريقية، وأن على يديه كان انتصار المسلمين في معركتهم الفاصلة ضد جرجير، فرضي الله عن الصحابي الجليل ، التقي الورع ، الخطيب البليغ ، وبطل الإسلام ، القائد الفاتح عبد الله بن الزبير الأسدي القرشي [١] .



---

(١) انظر: قادة فتح المغرب العربي (٣/ ٤٥-٩٥).

المبحث السابع

عبد الملك بن مروان الأموي

إن عبد الملك بن مروان هو فاتح المدينة الشهيرة جلولاء ، كما أنه قاد الناس في معركة حاسمة في أرض بلاد الروم ، الذي قال فيه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : « ولد الناس أبناء، وولد مروان أباً » ، فمن هو عبد الملك بن مروان ياترى؟! .

المطلب الأول

اسمه، نسبه، ميلاده، ونشأته ووفاته

اسمه ونسبه:

هو عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص القرشي الأموي .

أبوه : مروان بن الحكم ،كاتب عثمان ورئيس ديوانه .

أمه : عائشة بنت معاوية بن المغيرة بن أبي العاص بن أمية .

ميلاده : ولد عبد الملك سنة ست وعشرين هجرية [١] (٦٤٦م) بالمدينة في خلافة عثمان بن عفان، وشهد يوم الدار، مع أبيه وهو ابن عشر سنين، وهو أول من سمي : عبد الملك في الإسلام .

نشأته :

نشأ عبد الملك نشأة إسلامية منذ صغره، فلم يدرك لحظة في الجاهلية، وقد حفظ القرآن في سن مبكرة ، وتلقى الثقافة العربية الإسلامية لغة وأدباً وعلماً ، فبلغ في كل ذلك نشأناً بعيداً ، ويعد من الطبقة الثانية من التابعين، وكان أول ما

---

(١) سير أعلام النبلاء (٤ / ٢٤٦) .

شاهده مجد الدولة الإسلامية وسيادتها، وتأثر بأعمال عمر بن الخطاب رضي الله عنه وسيرته وتتلمذ على عثمان فنشأ ورعًا قارئاً القرآن ، عاملاً بتعاليمه، مكباً على العلم.

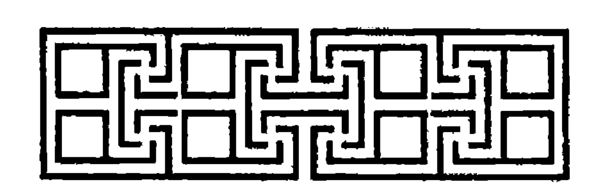
وفاته:

وفي مرض موته قيل: كيف تجدك؟ ، فقال: أجدني كما قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ﴾ .

[الأنعام: ٩٤] .

وعندما ثقل جعل يلوم نفسه ويضرب يده علي رأيه وقال: وددت أني كنت أكتسب يوماً بيوم ما يفوتني، وأشتغل بطاعة الله ، ولما احتضر عبد الملك أمر بفتح الأبواب من قصره، فلما فتحت سمع قصاراً بالوادي، فقال: ما هذا؟ ، فقالوا: قصار فقال: يا ليتني كنت قصاراً أعيش من عمل يدي، فلما بلغ سعيد ابن المسيب قوله قال: الحمد لله الذي جعلهم عند موتهم يفرون إلينا ولا نفر إليهم.

ولما اشتد مرضه قال بعض الأطباء: إن شرب الماء مات، فاشتد عطشه، فقال: يا وليد اسقني ماء، فقال: لا أعين عليك، فقال لابنته فاطمة: اسقيني ماء فمنعها الوليد، فقال: لتدعنها أو لأخلعنك لم يبق بعد هذا شيء ، فسقته فاطمة، فمات ودخل عليه الوليد وابنته فاطمة عنده تبكي، فقال: كيف أمير المؤمنين؟ ، فقالت: هو أصلح !.



المطلب الثاني

جهاده قبل خلافته وبعدها

قبل خلافته:

شتا المسلمون بأرض الروم سنة اثنتين وأربعين هجرية ، وهو أول مشتى شتوه بها، فاستعمله معاوية بن أبي سفيان على أهل المدينة، وعبد الملك يومئذٍ ابن ست عشرة سنة، فركب عبد الملك بالناس البحر، وغزا إفريقية تحت لواء معاوية ابن حديج السكوني، مرتين: مرة سنة إحدى وأربعين هجرية ، وغزاها سنة خمس وأربعين هجرية ، فبعثه ابن حديج إلى « جلولاء » ففتحها، وقد سار عبد الملك إلى « جلولاء » على رأس ألف رجل فحاصرها أياماً دون جدوى، وحين أراد الانصراف وسار بهم رأى غباراً كثيفًا ، فظن عبد الملك أن العدو يطارد قواته ، لذلك كرَّ راجعاً فرأى سور جلولاء قد وقع ، فدخلها المسلمون وغنموا ما فيها.

واختلف الناس في الغنيمة، فكتب ابن حديج في ذلك إلى معاوية ابن أبي سفيان، فكتب « أن العسكر ردء للسرية، فقسم ذلك بينهم، فأصاب كل رجل منهم لنفسه مائتي دينار وضرب للفرس بسهمين، ولصاحبه بسهم، فقال عبد الملك: « فأخذت لفرسي ونفسي ستمائة دينار واشتريت بها جارية »، كما غزا بلاد المغرب مع معاوية بن حديج علي بعث أهل المدينة سنة خمسين هجرية ، فذكر من كفايته وغنائه ومجاهدته في تلك البلاد شيئاً كثيراً.

بعد خلافته:

[أ] في إفريقية:

بعث عبد الملك زهير بن قيس البلوي لاسترداد إفريقية من الروم وحلفائهم البربر، وذلك سنة تسع وستين هجرية ، فانتصر ودخل القيروان، ولكنه قتل بعد

ذلك، وبعد مقتل زهير اختار عبد الملك بن مروان قائداً قديراً هو حسان بن النعمان الغساني ، فسيره إلى إفريقية ، وجعل له الولاية عليها، وذلك سنة ثلاث وسبعين هجرية ، ففتح قرطاجنة، وأتم تحرير الشمال الإفريقي .

[ب] في بلاد الروم :

حاصر المسلمون القسطنطينية أيام معاوية بن أبي سفيان سبع سنوات وكادوا أن يفتحوها ، فلما نشبت الاضطرابات الداخلية بين المسلمين اضطر عبد الملك إلى عقد هدنة مع الروم لينصرف إلى معالجة الأزمات الداخلية بين المسلمين ، وفي سنة ثلاث وسبعين استعاد عبد الملك بن مروان سيطرته علي الدولة الإسلامية فعين أخوه محمد بن مروان والياً علي الجزيرة « وأرمينية » ليكون القائد في الجهة المتاخمه للروم ، وقطع إرسال النقود التي كان يرسلها للروم ، فأعلن أمبراطور الروم جستنيان الثاني الحرب وقدم بجيش كبير لغزو المسلمين ، فلاقاه محمد بن مروان، ودارت بين الطرفين معركة طاحنة هزم فيها الروم هزيمة شنيعة، وكان ذلك سنة أربع وسبعين هجرية .

وبعد استقرار الأوضاع في دار الإسلام، بدأ التوغل الإسلامي في داخل الأراضي البيزنطية، فكانت الطوائف تخرج بانتظام للإغارة على هذه الأراضي بقيادة محمد بن مروان، وغيره من أمراء بني أمية، وفي سنة إحدى وثمانين هجرية بعث عبد الملك بن مروان، عبد الله بن عبد الملك ففتح « قاليقالا » وهي إحدى مدن الروم الكبيرة، وفي سنة أربع وثمانين تمكن عبد الله بن عبد الملك من فتح مدينة أخرى رئيسه

داخل دولة الروم في آسيا الصغري وهي مدينة « المصيفة »وفي سنة سبع وسبعين هجرية غزا عبد الملك بنفسه الروم، ففتح مدنية « هرقلة » .

وهكذا اندفعت قوات المسلمين تفتح المعاقل وتستولى على الحصون بعد تحقيق الوحدة في عهد عبد الملك.

[جـ] في المشرق :

ضم عبد الملك بن مروان سنة ثمان وسبعين هجرية خراسان وسجستان إلى أعمال الحجاج بن يوسف الثقفي، فبعث المهلب على خراسان بعد فراغه من قتال الخوارج ، فاستعاد خراسان وسجستان وفتح مدناً أخرى ومناطق جديدة .

المطلب الثالث

أعماله في فترة خلافته

استقبل عبد الملك الخلافة لهلال شهر رمضان سنة خمس وستين هجرية ، فكان على أرض الشام ، ومصر ، وكان عبد الله بن الزبير علي البلاد الإسلامية الأخرى (١) .

[١] في طريق الوحدة :

فقد بذل عبد الملك قصارى جهده لإعادة الوحدة الشاملة إلى البلاد الإسلامية ... فكان له ذلك حيث انطلق من نقطة الصفر سنة خمس وستين هجرية ، حيث تولى الخلافة ، وحيث كان عرشه مزعزع الأركان حتى في دمشق نفسها، وانتهى في سنة ثلاث وسبعين الهجرية إلى القمة حيث دانت له الدولة الإسلامية كلها، وأعاد الوحدة الشاملة إلى دار الإسلام.

---

(١) **قلت** : إن خلافة عبد الملك بن مروان تبدأ على الصحيح بعد مقتل ابن الزبير ويؤيد ذلك ما أخرجه البخاري أن عبد الله بن عمر كتب إلى عبد الملك بمبايعته له، وذكر ابن حجر أن ذلك كان بعد مقتل ابن الزبير، فحتى لو لم تسلم بخلافة لعبد الملك في الفترة السابقة، لأنها أقل ما يُقال عنها أنها زمن فرقة، وطرق انعقاد الخلافة تكون بالاختيار أو الاستخلاف، كاختيار الأمة للصديق ﷺ أو كاستخلاف الصديق للفاروق، وهناك طريق آخر تجب الطاعة بموجبه، ويحرم الخروج عليه بسببه، ولكنه ليس من الطرق الشرعية، ولا يجوز إلا للضرورة من أجل مصلحة المسلمين وحقن دمائهم وذلك هو طريق القهر والغلبة والاستيلاء على الحكم ما دام قائماً في الناس بالشرع فقد بايع عبد الله بن عمر عبد الملك بن مروان وبالسيف أخذ الملك وأمر له بالسمع والطاعة على كتاب الله وسُنَّة نبيه.

[٢] بعد الوحدة الشاملة:

[أ] إشاعة الاستقرار:

قضى على الخوارج في البحرين سنة ثلاث وسبعين هجرية ، وأعاد بناء الكعبة على ما كانت عليه قبل عبد الله بن الزبير، وبعث المهلب ابن أبي صفرة إلى حرب الأزارقة ، وانطلقت الجيوش الإسلامية للفتح ولاستعادة المناطق التي استعادها العدو في إيران وبلاد الروم وإفريقية، وولى الحجاج سنة خمس وسبعين هجرية العراق.

وفي سنة اثنتين وثمانين هجرية ثار عبد الرحمن بن الأشعث علي الحجاج فاستطاع الحجاج بمساعدة عبد الملك القضاء على أكبر ثورة داخلية هددت كيان الدولة الإسلامية بعد الوحدة وذلك سنة ثلاث وثمانين الهجرية .

وكان من ثمرات الوحدة أن أعادت الدولة الإسلامية كامل سيطرتها على ما فتحه الخلفاء الأولون، وذلك من نهر جيحون شرقاً إلى قرطاجنة غرباً، وإلى أعمال بلاد الروم شمالاً ، بعد أن كان عبد الملك يدفع الإتاوة لإمبراطورية القسطنطينية قبل الوحدة.

[ب] إصدار العملة :

في سنة ست وسبعين هجرية ضرب عبد الملك الدنانير والدراهم ، وهو أول من أحدث ضربها في الإسلام .. وبذلك حقق عبد الملك للدولة الإسلامية استقلالها المالي.

[جـ] تعريب الدواوين:

بقيت أهم دواوين الدولة الإسلامية –ديوان الخراج– وهي التي كانت تشرف على الشئون المالية للدولة تستعمل اللغات الأجنبية، كما كانت حالها في عهود الدول السابقة قبل ظهور الإسلام، فقام بتعريبها، وبذلك أصبحت اللغة العربية

هي لغة جميع الدواوين ، وكان من نتائج ذلك إبطال اللغات الأجنبية ، فتحقق نصر اللغة العربية على تلك اللغات الأجنبية والأقاليم ، فكانِ هذا من أكبر عوامل انتشار العربية بعد عامل القرآن الكريم .

المطلب الرابع
أهم صفاته القيادية ومبادئه الحربية

لا شك أن عبد الملك قبل خلافته كان يعتبر من فقهاء المدينة الأربعة المعدودين، وكان أديباً، عَدوه من القلة الذين لا يلحنون، وكان سياسياً محنكاً ذكيّاً، وكان رجل دولة بكل ما في الكلمة من معاني : يختار الرجال الأوفياء الأمناء، ويولي الأمور للمختارين من الرجال، ويرى أن قوتهم قوة له وللدولة، وضعفهم ضعف عليه وعلى الدولة، وكان يجمع ولا يفرق، ويوحد ولا يشتت، ويعد ولا يظلم ويصالح ولا يخاتل.

أما مميزاته في ميادين الوغي :

فإنه كان لا يستبد برأيه، بل كان يستشير رجاله المقربين في كل صغيرة وكبيرة قبل أن يقدم على تنفيذ أي عمل عسكري، وكانت له موهبة فذة في اختيار الرجال المناسبين للعمل المناسب، وكان يبذل جهوده السلمية قبل خوض كل معركة وحتى أثناءها لتجنب ويلات الحرب، وكان يحاول بكل طاقته استمالة رجال خصمه باذلاً لهم الوعود السخية والمناصب المرموقة والمال الكثير، كان يولي ثقته الكاملة لرجاله، ويتجنب أمر تبديل رأيه فيهم ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، كان ذا رأي سديد، بصيراً بالحرب شجاعاً بالسيف.

فرحمة الله علي التابعي الجليل، الإداري الحازم، القائد الفاتح، العالم الأديب، بطل الوحدة، ورجل الدولة، عبد الملك بن مروان الأموي [١] .

---

(١) راجع كتاب قادة فتح المغرب (٢/٩٥-١٥٢) .

المبحث الثامن
رويفع بن ثابت الأنصاري

رويفع الصحابي الجليل رضي الله عنه فاتح جزيرة جربة في تونس الخضراء، الذي عاش حياة الجهاد حتى استشهد في سبيل الله ، وقد اعتزل الأحداث السياسية ولم يشارك فيها لا بلسانه ولا بسيفه، حتى انشكفت الغمة، وعادت الوحدة الشاملة إلى المسلمين، فمن هذا الصحابي، وكيف كانت حياته الجهادية؟ .

المطلب الأول
اسمه ونسبه

هو رويفع بن ثابت بن سكن بن عدي بن حارثة الأنصاري ، من بني مالك بن النجار كان صحابياً، روى عن النبي ﷺ وروى عنه جماعة من التابعين، ولكننا لا نعرف متى أسلم ولا عن جهاده تحت لواء الرسول القائد ، فقد نال رويفع شرف الصحبة ولكنه لم ينل شرف الجهاد تحت لواء النبي ﷺ .

المطلب الثاني
جهاده

كانت أرض الشام ميدان جهاد رويفع، فلما أنجز المسلمون فتحها سار رويفع تحت لواء عمرو بن العاص لفتح مصر، وليبيا، والنوبة، كما شهد معارك الفتح التي خاضها عبد الله بن أبي السرح لفتح إفريقية، ومعاوية بن حديج السكوني لفتح المغرب.

وفي سنة خمس وأربعين هجرية غزا معاوية بن حديج السكوني المغرب فاستعاد فتح طرابلس الغرب، وترك فيها رويفع بن ثابت والياً عليها سنة ست

وأربعين هجرية فغزا إفريقية « تونس » ودخلها سنة سبع وأربعين هجرية وفتح جزيرة جربة التي كان يسكنها البربر،ثم انصرف من عامه إلى طرابلس مقر عمله.

المطلب الثالث
حياته

كان رويفع صحابياً جليلاً، لم يشارك فيما حدث بين علي بن أبي طالب ومعاوية من قريب أو من بعيد، بل بقي مستقراً في مصر حتى انكشفت الغمة وعادت الوحدة الشاملة بين المسلمين.

سكن مصر واختط بها داراً، وقد ولاه معاوية بن حديج أيام معاوية بن أبي سفيان طرابلس الغرب سنة ست وأربعين هجرية ، وتولى برقة لمسلمة بن مخلد حتى كانت وفاته وهو أمير عليها من قبل مسلمة بن مخلد سنة ست وخمسين هجرية (٦٧٦ م) ، وقبره مشهور في الجبل الأخضر بـ« برقة » في مدينة البيضاء وهو آخر من توفي من الصحابة هناك، روى عن النبي ﷺ ثمانية أحاديث، وكان فقيهاً من أصحاب الفُتيا من الصحابة وكان خطيباً مفوهاً [١] .

المطلب الرابع
أهم صفاته القيادية ومبادئه الحربية

لقد كان رويفع الأنصاري إدارياً حازماً، قوياً، صادقاً، وفياً، تقياً، كريماً، سخياً، وقد بذل قصارى جهده مجاهداً في سبيل الله في ميادين أرض الشام ومصر والشمال الإفريقي.

وقد شهد معارك كثيرة برية وبحرية، فقد سار بجيشه بحراً إلى جزيرة جربة وفتحها وقضى على فساد أهلها الذين كانوا يفسدون في البر والبحر، فنشر فيهم

---

(١) أسد الغابة في معرفة الصحابة (٢ / ٨٨) .

الدين الحنيف وضمهم إلى البربر المسلمين.

لقد كان سلاح رويفع في حربه تقوى الله وحده، وكثرة ذكره والاستعانة به، والتوكل عليه، والفزع إليه ومسألته النصر والتأييد والسلامة والظفر، وكان يسوس رجاله سياسة حكيمة قوامها المحبة المتبادلة والهيبة منهم له، والمحبة من بعضهم لبعض، يتفقد من أمور أصحابه جميع ما يعود نفعه عليهم ويتزيد محسنهم بالتكرمة ويجعل عامة أصحابه في لين الكلمة بمنزلة الخاصة ، من غير أن ينقص أحداً من ذوي البلاء حقه وثوابه.

وكان شجاعاً مقداماً، كامل العقل طويل التجربة بعيد الصوت، مأمون النقيبة ، بصيراً بتدابير الحرب ومواضعها، حسن التعبئة لأصحابه في أحوال التعبئة، مدخلاً الأمن عليهم والخوف على عدوهم مع طلب السلامة لنفسه وأصحابه من العدو، حسن السيرة عفيفاً صارماً متيقظاً سخيّاً ... لقد كان قائداً ممتازاً.

وأخيراً:

يذكر التاريخ لرويفع الأنصاري ﷺ أنه قضي حياته كلها مجاهداً، وإدارياً، ورافق أعلام الفتح الإسلامي من مبدأ سيرها إلى أرض الشام، من المدينة المنورة إلى نهاية مستقرها في الشمال، ويذكر له أنه من الدعاة الأوائل الذين نشروا الإسلام بأرض الشام، ومصر، والمغرب عامة والبربر خاصة.

ويذكر أنه فتح جزيرة جربة ومات بعيداً عن أهله، فاستقرت نفسه مطمئنة في سفوح الجبل الأخضر من أرض ليبيا في برقة حيث لا يزال أهلها يذكرونه بالتقدير والإكبار.

إنه نسي نفسه من أجل عقيدته والمصلحة العامة العليا، فذكره الناس في أيامه ولا يزالون، رضي الله عن الصحابي الجليل، والإداري الحازم، التقي، النقي، الفارس البطل، القائد الفاتح، رويفع بن ثابت الأنصاري النجاري [١] .

---

(١) المرجع السابق: (٢ / ١٥٣-١٥٦).

الباب الخامس

عهد الولاة

الفصل الأول

كتاب يهدي وسيف يحمي

لقد فقه صحابة رسول الله ﷺ معاني كتاب يهدي، وسيف يحمي ، حيث إنهم حملوا السلاح عندما حان وقت حمل السلاح، وفتحوا الكتاب كذلك في وقته المناسب، فلم يكن هناك تعارض عندهم بين طلب العلم الشرعي وتدريسه، وبين حمل السلاح وتطبيق أيات الكتاب في أرض الواقع، لايوجد اختلاف بين هذه وتلك ، فلكل وقت فريضة ، وهكذا كان حقيقة علم الصحابة ﷺ وعلى هذا الطريق سار أئمة أهل السُنَّة والجماعة .

المبحث الأول

كتائب الدعاة والمجاهدين نحو الشمال الإفريقي

إن بداية الفتح الإسلامي لشمال إفريقيا كان سنة اثنتين وعشرين هجرية بقيادة الصحابي الجليل عمرو بن العاص ﷺ واستمرت بعد تلك الحملات الجهادية علي شمال إفريقية حتى كانت حملة القائد الجليل موسى بن نصير اللخمي رحمه الله حيث أكمل فتح الشمال الإفريقي عام ثمان وثمانين هجرية .

ولقد قدم المسلمون خلال فتوحاتهم المباركة للشمال الإفريقي الألوف من الشهداء و الدماء والأشلاء في ساحات الوغي والفداء، التي دامت قرابة ست وستين سنة، وكان من بين أولئك الشهداء أكابر قيادات الفتح الإسلامي منهم (القائد : عقبة ابن نافع الفهري، وأبو المهاجر وزهير بن قيس البلوي) فرحم الله

الجميع وأدخلهم فسيح جناته.

ولا ريب أن جيوش الفتح الإسلامي، قيادات وجنوداً كانوا يحملون الدعوة الإسلامية والعقيدة الصحيحة في شغاف قلوبهم وجوارحهم إلى تلك الشعوب والأمم حيثما نزلوا غرباً وشرقاً، فقد كانوا بالفعل يحملون المصحف والسيف (**كتاب يهدي وسيف يحمي**) إذ إنهم كانوا دعاة بالدرجة الأولى، ومجاهدين بالدرجة الثانية، لأن هناك تلازماً بين العلم والسيف، فالسيف لا يرفع إلا بعلم، العلم لا يتحقق في حقيقة الناس إلا بالسيف والقوة (بعثت بين يدي الساعة بالسيف حتى يعبد الله وحده ولايشرك به ..) [١].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في ذلك: «وأما العلم بالكتاب والحكمة فهو على الكفاية، لا يجب على كل أحد بعينه أن يكون عالماً بالكتاب: لفظه ومعناه، عالماً بالحكمة، بل وجوب ذلك أسبق، وأوكد من وجوب الجهاد، فإنه أصل الجهاد، ولولاه لم يعرفوا علام يقاتلون، ولهذاكان قيام الرسول والمؤمنين لذلك قبل قيامهم بالجهاد، فالجهاد سنام الدين وفرعه وتمامه، وهذا أصله وأساسه وعموده ورأسه» [٢].

وهكذا سارت الدعوة الإسلامية جنباً لجنب مع فتوحات المسلمين، يحملها إلى العالم قادة ربانيون وعلماء مصلحون وجنود فاتحون، رهبان بالليل وفرسان بالنهار حتي أصبحت أغلب معالم هذه الجيوش في تلك البلاد المفتوحة، إحياء الأمة بالقرآن والسُنَّة ، ونشر الدعوة واستفاضة البيان في أوساط العباد وفي ربوع البلاد، والتمكين لشرع الله حتى يحكم العباد والبلاد في تلك الأصقاع، بل قد يصدق على تلك الجيوش تسميتها بجيوش الفقهاء والمحدثين والقراء أكثر من تسميتها بجيوش عسكرية بحتة، حيث إنهم كان لا هم لهم إلا تبليغ دعوة الله

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده من حديث ابن عمر رضي الله عنهما: (٢/ ٩٢) وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح.
(٢) مجموعة الفتاوى، لابن تيمية (١٥-٣٩٠).

سبحانه واستفاضة بيانه إلى كافة الناس أجمعين، وبسط سيادة القرآن والسُنَّة في جميع مناشط العباد والبلاد.

وهكذا اندمجت جيوش الفقهاء والمحدثين والدعاة مع إخوانهم في الدين من البربر وغيرهم من سكان شمال إفريقية، حيث تراهم حيناً في تعليمهم أصول دينهم وفروعه، وحيناً آخر في تربيتهم على كيفية تطبيق مبادئه في أرض الواقع، وحيناً في إعدادهم كدعاة وقادة لحمل العبء معهم، حتى أصبحوا كالرجل الواحد والجسد الواحد: [**إذا اشتكى منه عضو اشتكى معه سائر الجسد**]، فالأهداف أصبحت متحدة والوسائل مشتركة، والمقاصد واحدة، وزالت بفضل الله تلك الفوارق التي تكون عادة بين الفاتحين وأهل البلاد الأصليين وأصبحوا بنعمة الله إخواناً: [**لا فرق بين عربي وعجمي إلا بتقوى الله**].

لقد اكتمل فتح هذه المنطقة عسكرياً سنة ثمان وثمانين هجرية بقيادة موسى بن نصير رحمه الله وما أن استقرت الأوضاع السياسية وتقسم الولاة، والأمراء التي أخذت قرابة عشر سنوات من قيادة المنطقة حتى كان عهد الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز الذي تولى إدارة سدة الخلافة عام تسع وتسعين هجرية، حيث عين إسماعيل بن عبيد الله والياً على الشمال الإفريقي وكان يمتاز بحسن السيرة والسلوك مما جعله يؤثر في قبائل البربر تأثيراً إيجابياً بالغاً.

يقول صاحب كتاب فتوح مصر وأخبارها: « تولى الخلافة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه سنة تسع وتسعين هجرية، فولى إسماعيل بن عبيد الله على حرب المغرب، وخراجه وصدقاته، في المحرم سنة مئة هجرية، وكان إسماعيل حسن السيرة، وأسلم في زمانه جميع البربر طوعاً ورغبة واقتناعاً » [1].

وبتلك التقريرات الإيجابية عن قبائل البربر التي قدمت من الشمال الإفريقي

---

(١) فتوح مصر وأخبارها، (ص٢١٣).

إلي خليفة المسلمين عمر بن عبد العزيز جعلت الخليفة عمر بن عبد العزيز يعجل باتخاذ خطة تعليمية لنشر الإسلام في الشمال الإفريقي: وكان أهم أهداف الخطة التعليمية التربوية:

الهدف الأول:

اختيار علماء ربانيين اشتهروا بالعلم والفقه والدعوة والتجرد للإشراف على التربية والتعليم.

الهدف الثاني:

وضع خطة بعيدة المدى لنشر تعليم اللغة العربية، ومحو الأمية في أوساط القبائل البربرية حتى يسهل عليها بعد ذلك فهم القرآن والسنة والتعامل معهما.

الهدف الثالث:

الاهتمام بربط الناس بالقرآن المجيد الذي هو حبل الله المتين، ويكون ذلك بفتح الكتاتيب وجمعيات تحفيظ القرآن وتجويده.

الهدف الرابع:

البلاغ الواضح المبين لعقائد أهل السُنَّة والجماعة.

الهدف الخامس:

تعليم الناس الحلال والحرام.

وهكذا شرع خليفة المسلمين عمر بن عبد العزيز بتنفيذ هذه الخطة الواعية، بعد تقريرها وتأطرها وفق المبادئ الإسلامية والأسس الحركية، حيث تم تعيين أفضل عشرة من فقهاء التابعين ذوي الصفات المطلوبة من الناحية العلمية الأكاديمية، ومن الناحية العلمية السلوكية التربوية لهذه المهمة الجهادية الصعبة.

وبعد ذلك تحركت القافلة العلمية الدعوية في مهمتها الجهادية نحو الشمال الإفريقي حيث استقر بها المسير في مدينة العلم وقلعة الجهاد، مدينة القيروان

عاصمة العلم في الشمال الإفريقي آنذاك ، وما أن حطت القافلة رحالها، والتقطت أنفاسها من مشقة الطريق حتى طفقت ترتب أمورها، وتجهز أدواتها، وتحصي مواطن الخير، ومواقع العلم حتى تبدأ من حيث انتهى من كان قبلها من أهل العلم والفضل والجهاد، وهكذا استمرت القافلة العلمية في تنفيذ مهمتها الجهادية في أواسط القبائل البربرية ووفق خطة استراتيجية، لنشر الإيمان وإحياء السُنَّة وإماتة البدعة، واستفاضة العلم ورفع الجهل، وإقامة العدل، وإزالة الظلم.

وقد نجحت هذه القافلة الدعوية في مهمها الجهادية أيما نجاح، إذ استطاعت في مدة وجيزة أن تبليغ دعوة الله إلى كافة أبناء تلك الأصقاع التي شملت الشمال الإفريقي، وامتدت عبر البحر إلى الأندلس، وجنوب فرنسا، بيد أنا نقرر بأن لهذا النجاح المتفوق عوامل ساعدت على تحقيقه في فترة وجيزة، ومن أهم تلك الأسباب والعوامل ما يلي:

أولاً: الحالة السياسية آنذاك :

كانت هذه الحقبة من الزمان التي امتازت بهدوء سياسي واستقرار نسبي قد سبقها حلقات جهادية بين الكر والفر، فكانت آخر هذه الحلقات الجهادية حلقة موسى بن نصير والتي تولى بعدها عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه خلافة المسلمين فشكل عهده حلقة من حلقات الاستقرار السياسي، والاستتباب الأمني في ربوع البلاد وقلوب العباد.

ثانياً: الحالة النفسية الفكرية:

لقد استقر في نفوس أولئك الدعاة العلماء المجاهدين من التابعين، أنه لا يستقيم أمر الفكر والدعوة إلا باستقامة القلوب، ولا تتأثر الشعوب بكلام إلا بكلام القلوب، والذي كان لعامل إخلاصهم لله، وصدقهم مع ربهم، والتزامهم بسُنَّة الرسول ﷺ، وورعهم عن حطام الدنيا الأثر البليغ في نفوس قبائل الأمازيغ البربرية.

ثالثاً: الحالة السلوكية الحركية:

إن هذا الدين ليس شعارات ترفع، ولافتات تصنع ، وكلمات تسبك ، وعبارات تنثر، وإنما هو ما وقر في القلب وصدقه العمل، وهكذا كانت حقيقة الحالة السلوكية الحركية لتلك القافلة العلمية الدعوية الجهادية في أوساط القبائل البربرية، العمل قبل القول: وبذلك تأثرت القبائل البربرية برجال القافلة الدعوية الجهادية في نواحي العقيدة السليمة، والعبادة الصحيحة، والأخلاق الرفيعة مما ساعد علي صبغ الحياة البربرية كلها بصبغة إسلامية في جانب اعتقاد جنان، ونطق اللسان، وتطبيق الأركان ﴿ **صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ** ﴾ [البقرة:١٣٨] .

رابعاً : جمال الشريعة الإسلامية:

لا شك بأن حق الأمة الجهاد وحق العلم البيان، وحق الدعوة الحكمة والتدرج، لذلك فقد أخذت هذه القافلة المباركة على عاتقها تطبيق حق الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، حيث استطاعت هذه القافلة الدعوية من تطبيق حق الدعوة بالكلمة والتدرج في استيعاب القبائل البربرية، وذلك بتقديم الإسلام والدعوة بسهولة ويسر ، **مما جعل القبائل البربرية تدخل في دين الله أفواجاً وبالتدرج واهتمت ببيان الآتي:**

أولاً: بيان مقاصد الشريعة :

وذلك بتقرير نشر مبادئ رفع الحرج عن العباد في الإسلام ﴿ **وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ** ﴾ [الحج:٧٨]، وتأصيل مبادئ العبادات الشرعية علي قواعد اليسر، ورفع الحرج والتدرج وفق القوانين السنية واعتبار المصالح البشرية.

ثانياً: إبراز مكانة مكارم الأخلاق في الإسلام :

لا ريب أن فحوى الرسالة المحمدية – على صاحبها أفضل الصلاة والتسليم –

كان لإتمام مكارم الأخلاق كما قال ﷺ: [**بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**][1] وتلك المكارم تشمل العقائد، والتصورات، والسلوكيات حيث العفة، والأمانة، والصدق، والشهامة،الإحسان، والإكرام، والأخوة في الدين والإيثار، والعدل والإنصاف، وبتطبيق تلك الأخلاق الإسلامية في المنطقة المغربية أصبح ابن الكاهنة – التي حاربت الإسلام والمسلمين– بعد دخوله في الإسلام قائداً من قواد المغرب الأقصى في عهد القائد الزعيم حسان بن النعمان الذي قاسى من أمه الأمرين !!.

ثالثاً: تحقيق روح العدل والإنصاف:

وكان ذلك متمثلاً في رفق ولاة المسلمين بالرعية، وتطبيق المبادئ العدلية كما جاءت بها الرسالة المحمدية علي القوي والضعيف، مما جعل قبائل البربر تنظر إليهم نظرة إعجاب وتقدير، وتسرع في الانضمام إلى صفوف هذا الدين العظيم دين الإسلام شريعة، وعبادة، وعقيدة حتى أصبح منهم دعاة للإسلام، وقادة للجهاد حملوا الإسلام دعوة ودولة إلى ربوع الأراضي الأندلسية، والساحات الفرنسية، والجزر الإيطالية، والمجاهل الإفريقية.

تأسيس أول جامعة إسلامية في الشمال الإفريقي:

لاشك أن أول ما ينبغي على الجيش الفاتح تحقيقه هو إيجاد مدينة يستقر بها المسلمون، وتكون محط رحال الجند منها تنطلق سراياهم وبها يحتمون عند الخطر، ولتكون المنطلق الطبيعي لنشأة الحياة الإسلامية، وتثبيت شعائر الدين، وإقامة أحكامه في البلد المفتوح، إلا أن هذه الغاية لم تكن سهلة المنال في إفريقية، لصعوبة مراس أهلها وكثرتهم وبعدها عن مركز الخلافة، هذا يعني انعدام المدد المستمر، كما يعني أن اهتمام الخليفة سينصب أولاً على البلاد القريبة منه، ولذلك فإن مشاكل المشرق كثيراً مما كانت تصرف أنظار ولي الأمر

---

(١) رواه أحمد في مسنده(٢ / ٣٨١) وصححه احمد شاكر.

عن التفكير في وضع إفريقية ، ولهذه الأسباب لم يتمكن المسلمون من تأسيس مدينة القيروان إلا بعد أكثر من عشرين سنة من بداية الفتح، ولقد استهوت ناحية القيروان المسلمين منذ غزوة العبادلة سنة ٢٧هـ فإن أبا السرح قد نزل فيها مدة وضرب فسطاطه في أرضها . . .

كما لا يخفى أن أول من بني مساكن للجند فيها وسماها (قيروان) هو معاوية بن حديج سنة ٤٥ هـ وكان ذلك عند القرن، (وهو جبل قريب من القيروان)، وفي هذه الغزوة توفي الصحابي أبو زمعة البلوي، وبه سميت مقبرة القيروان بعد ذلك بالبلوية، مما يؤكد قرب المساكن التي بناها ابن حديج من موقع القيروان . .

ولما قدم عقبة بن نافع سنة ٥٠ هـ ، لاحظ كثرة ارتداد البربر، لذلك قرر ضرورة تأسيس مدينة للمسلمين من العرب والبربر لتحفظ عليهم دينهم، ودنياهم، فقال لأصحابه : «إن إفريقية إذا دخلها إمام أجابوه إلى الإسلام، فإذا خرج منها رجع من كان أجاب منهم لدين الله إلي الكفر، فأرى لكم يا معشر المسلمين أن تتخذوا بها مدينة تكن عزاً للإسلام إلى آخر الدهر» .

فاتفق رأيهم على ذلك، ونظر عقبة فيما بناه ابن حديج فلم يعجبه، فتحول عنه قليلاً وأمرهم بالبناء بعد أن استشارهم حول الموقع الذي امتاز بطيب مرعاه، وبعده عن البحر حتى لا يطرقه العدو ليلاً، وكان المكان وادياً كثير الشجر وتأوي إليه الوحوش والسباع فنادى فيهم عقبة بقول :« يا أهل الوادي إنّا حالون إن شاء الله، فاظعنوا، ثلاث مرات قال (الراوي) : فمارأينا حجراً ولا شجراً إلا يخرج من تحته دابة حتى هبطن بطن الوادي ، ثم قال : انزلوا بسم الله» [1] .

---

(١) **تكاد المصادر تجمع على ذكر هذه الحادثة وهذه المصادر هي**: تاريخ خليفة بن خياط، فتوح مصر والمغرب، فتوح البلدان، تاريخ الطبري، البداية والنهاية، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، وأول من ذكرها خليفة في تاريخه وقد نقلها عنه الحافظ بن حجر في كتابه الإصابة وحكم على إسنادها بانه حسن، ومع ذلك شكك في صحتها بعض المعاصرين، زاعمين أنها مجرد أسطورة أملتها الظروف التي أحاطت بتأسيس القيروان ولا يوجد مانع شرعي من حدوثها.

فنزلوا وقطعوا الأشجار، وبنى المسجد الجامع ودار الإمارة وبنى الناس بيوتهم ومساجدهم، واستمر البناء خمس سنوات كان عقبة أثناءها يرسل السرايا لتوسيع الفتح، ودعوة البربر للإسلام وعظمت مدينة القيروان، وقصدها البربر المسلمون للتعليم والاشتراك مع إخوانهم الفاتحين.

ولما تولى أبو المهاجر إمارة إفريقية بنى مدينة تيكروان على ميلين من مدينة القيروان فانتقل أكثر أهل القيروان إليها، فلما عاد عقبة في إمارته الثانية أعاد عمارة القيروان، وكان في معسكره هذه المرة خمسة وعشرين صحابياً فجمعهم في وجوه العسكر، ودار بهم حول المدينة، وجعل يدعو، وهم يؤمنون ومما قاله في دعائه: «اللهم املأها علماً وفقهاً، وأعمرها بالمطيعين والعابدين، واجعلها عزاً لدينك، وذلاً لمن كفر بك، وأعز بها الإسلام وأهله، وادمغ بها أهل النفاق والأهواء والشك والضلالة» [1].

وسرعان ما اتسع بناء القيروان حتى اشتمل سورها على أربعة عشر باباً وسبعة محارس، وقسمت إلى أرباض، وحارات، وشوارع ، وأزقة، وأسواق، وحمامات، وقد وصفت القيروان في كتب الجغرافيين والمؤرخين بأوصاف جليلة تنبيء بعظمتها وتدل على فضلها، ومن ذلك قول الإدريسي: «ومدينة القيروان أم الأمصار، وقاعدة أقطار، وكانت أعظم مدن المغرب قطراً، وأكثرها بشراً، وأيسرها أموالاً، وأوسعها أحوالاً، وأتقنها بناءً ، وأنفسها همًّا ... والغالب علي فضلائها التمسك بالخير والوفاء بالعهد والتخلي عن الشبهات، واجتناب المحارم والتفنن في محاسن العلم ...» [2].

أهمية القيروان في نشأة الحياة العلمية بإفريقية:

لا يخفى أن مدينة القيروان تعتبر أول جامعة إسلامية في شمال إفريقية، بل

---

(١) مدرسة الحديث في القيروان، للحسين بن محمد (١/ ٤٤،٤٥،٤٦،٤٧،٤٨).

(٢) مدرسة الحديث في القيروان (١/ ٤٨).

أصبحت لفترة طويلة قبلة علم لكل سكان القارة الإفريقية ، وسكان جنوب البحر الأبيض المتوسط، لذلك أصبحت مدينة القيروان الجامعة الإسلامية صاحبة الرسالة العلمية، والأنشطة الدعوية يصبو إليها الناس من كل حدب وصوب ، يعتكفون فيها لتحصيل العلم تفسيراً وحديثاً وفقهاً في أروقة هذه المدينة العلمية صاحبة الرسالة الإسلامية في القارة الإفريقية.

ولا ريب أن هنالك ثمة أسباب جعلت مدينة القيروان تحتل الصدارة العلمية في القارة الإفريقية ، وهذه الأسباب تكمن في الآتي:

السبب الأول:

بإنشاء مدينة القيروان أصبحت إفريقية ولاية إسلامية جديدة وجزءاً لا يتجزأ من العالم الإسلامي، وبالتالي سيعيش المسلمون فيها حياتهم العادية، علي رأسها التعليم وبث الثقافة الإسلامية، فإن القيروان مدينة رسالة، وعي أهلها تلقى مسئولية نشر الإسلام في المغرب، فكما كانت منطلق الجيوش الفاتحة، كانت كذلك منطلق الدعاة إلى الأنحاء لنشر الإسلام، وقد شعر الصحابة بهذه المكانة للقيروان منذ تأسيسها، فقد قالوا لعقبة عندما أراد تحديد قبلة الجامع: إن أهل المغرب يضعون قبلتهم علي قبلة هذا الجامع فأجهد نفسه في تقويمه.

السبب الثاني:

لقد تم بناء الجامع وهو المدرسة الأولى في الإسلام، ولا شك أن الصحابة الذين كانوا في جيش عقبة قد جلسوا للتدريس فيه على النمط الموجود في مدن المشرق آنذاك، فقد كان مع عقبة أثناء القيروان ثمانية عشرة صحابياً وقد مكثوا بها خمس سنوات كاملة كان عملهم فيها – ولا شك – نشر اللغة العربية وتعليم القرآن والسنة في جامع القيروان، وذلك أثناء بناء مدينة القيروان، حيث لم تكن هناك غزوات كبيرة تتطلب غياباً طويلاً عن القيروان، أما في غزوة عقبة الثانية فقد كان معه خمسة وعشرون صحابياً وسائر جيشه من التابعين، وقد انتشرت

رواية الحديث النبوي الشريف في هذه الفترة ، مما دعا عقبة أن يوصي أولاده ومن ورائهم جميع المسلمين بتحري حديث الثقات وعدم كتابة ما يشغلهم عن القرآن .

السبب الثالث :

لقد استقطبت القيروان أعداداً هائلة من البربر المسلمين الذين جاءوا لتعلم الدين الجديد ، قال ابن خلدون عند حديثه عن عقبة : « فدخل إفريقية وانضاف إليه مسلمة البربر، فكبر جمعه ودخل أكثر البربر في الإسلام، ورسخ الدين »، ولاشك أن الفاتحين قد خصصوا لهم من يقوم بهذه المهمة .

ومن القيروان انتشر الإسلام في سائر بلاد المغرب، فقد بنى عقبة بالمغربين الأقصى والأوسط عدة مساجد لنشر الإسلام بين البربر، كما ترك صاحبه شاكراً في بعض مدن المغرب الأوسط لتعليم البربر الإسلام، ومن قبله تألف أبو المهاجر كسيلة وقومه وأحسن إلى البربر، فدخلوا في دين الله أفواجاً، ودعم حسان بن النعمان جهود عقبة في نشر الإسلام بين البربر، إذ خصص ثلاثة عشر فقيهاً من التابعين لتعليم البربر العربية والفقه ومبادئ الإسلام، وواصل موسى بن نصير هذه المهمة عندما : « أمرالعرب أن يعلموا البربر القرآن وأن يفقهوهم في الدين » [١] ، وترك في المغرب الأقصى سبعة وعشرين فقيهاً لتعليم أهله .

السبب الرابع :

كان كثير من أفراد الجيش قد صحبوا معهم زوجاتهم، ومنهم من اتخذ بإفريقية السراري وأمهات الأولاد، قال أبو العرب :« روى بعض المحدثين أن عبد الله ابن عمر بن الخطاب لما غزا مع معاوية بن حديج كانت معه أم ولد له، فولدت له صبية وماتت، فدفنها في مقبرة قريش بباب سلم، فاتخذتها قريش مقبرة يدفنون

---

(١)البيان المغرب (١ / ٤٢)نقلاً عن مدرسة الحديث بالقيروان.

فيها لمكان تلك الصبية » [١] .

ومن هنا كان لابد من الاهتمام بتعليم النشء المسلم مبادئ الإسلام واللغة العربية، لذلك فقد نشأت الكتاتيب بالقيروان في وقت مبكر جداً، فقد روي عن غياث بن شبيب أنه قال: « كان سفيان بن وهب صاحب رسول الله ﷺ يمر بنا ونحن غلمة بالقيروان فيسلم علينا ونحن في الكُتَّاب وعليه عمامة قد أرخاها من خلفه » [٢]، وكان سفيان بن وهب قد دخل القيروان مرتين أولاهما سنة ٦٠ هـ ، أي بعد الانتهاء من تأسيس القيروان بخمس سنوات، والثاني سنة ٧٨ هـ .

السبب الخامس:

إن الموقع الجغرافي لمدينة القيروان كان له دور كبير في إثراء الحياة العلمية وإنعاشها، فقد كانت في موقع متوسط بين الشرق والغرب يمر بها العلماء والطلبة من أهل المغرب والأندلس في ذهابهم إلى المشرق، فيسمعون علمائها، وكثير منهم يصبح أهلاً للعطاء عند عودته فيسمع منه أهلها كما فعل بقي بن مخلد المسند القرطبي (٢٠١-٢٧٦ هـ) ، والمحدث دارس بن إسماعيل القاسي (٣٥٧هـ) وغيرهما كما كان يدخلها من كان يقصد المغرب أو الأندلس من أهل المشرق .

السبب السادس :

لقد كانت التجارة في القيروان رابحة والسلع فيها نافقة، ولذلك أمَّها كبار التجار من المشرق والمغرب وكثير منهم من المحدثين والفقهاء ، فكان ذلك عاملاً مهماً في ازدهار الحياة العلمية بالقيروان، قرأ عبدُ الرحمن المَقّريُّ الحديث وقدم إفريقية سنة (١٥٦هـ) ، وكيلاً لأحد التجار وسمع منه أهل القيروان ، كما قدمها عبد العزيز بن يحيى المدني (٢٢٦ هـ) ، وأتي معه بمسك يبيعه، وقد

(١) مدرسة الحديث في القيروان (١ / ٥٢) .

(٢) أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير (٢ / ٢٥٨) .

سمع منه محمد بن سحنون وبشر كثير من أهل القيروان، بل من هؤلاء من تاجر بالكتب، فقد جلب أبو علي إسماعيل بن القاسم البغدادي ولد (سنة ٢٨٨ هـ) إلى القيروان عدة أحمال من الكتب في مطلع القرن الرابع، فباع كثيراً منها، وحمل ما تبقى منها فباعه في بلاد الأندلس.

السبب السابع:

ومما أسهم في إثراء الحياة العلمية كون القيروان آنذاك هي العاصمة السياسية، ذلك أنه كلما جاء أمير جديد اصطحب معه مجموعة من العلماء والأدباء، كما فعل يزيد بن حاتم(١٥٥-١٧٠)ومنهم من كان يرسل في طلب العلماء والكتب النادرة من المشرق كما فعل إبراهيم بن أحمد بن الأغلب (٢٦١-٢٨٩ هـ).

السبب الثامن:

وكان بُعدُ القيروان عن مركز الخلافة سبباً آخر لإثراء الفكر، إذ إنها كانت ملاذاً آمناً لأولئك الذين لاحقتهم جيوش الخلافة بالمشرق وضيقت عليهم فقد شهد آخر القرن الأول ومطلع القرنين الثاني وفوداً عدة من الدعاة إلى المذهب الخارجي، كما كان بها عدد من المعتزلة وكان كل من هؤلاء يبث فكره في مسجد عقبة بن نافع بالقيروان حتى منعهم الإمام سحنون رحمه الله.

السبب التاسع:

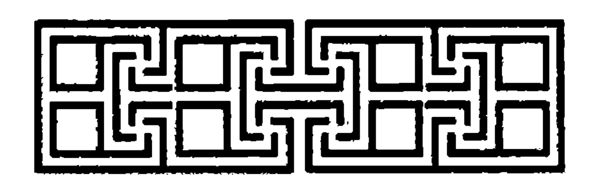
كما أن القيروان اكتسبت نوعاً من الاحترام والتعظيم باعتبارها البلد الذي أسسه صحابة رسول الله ﷺ وظهر به على أيديهم كثير من الكرامات، واستقر بها بعضهم مدة من الزمن، وهي آخر ما دخله الصحابة من بلاد المغرب، حتي وصفها أبو إسحاق الجياني بقوله: «القيروان رأس وما سواها جسد، وما قام برد الشبه والبدع إلا أهلها، ولا قاتل وقتل على إحياء السُّنَّة إلا أئمتها» [1].

---

(١) مدرسة الحديث في القيروان (١/ ٥٥).

وقد لهج المؤلفون القدامى بفضل القيروان على سائر بلاد المغرب في المجال العلمي، ومن ذلك ما وصفها به مقديش بأنها: « منبع الولاية والعلوم ، فهي لأهل المغرب أصل كل خير، والبلاد كلها عيال عليها، فما من غصن من البلاد المغربية إلا منها علا، ولا فرع في جميع نواحيها إلاعليها ابتنى، كيف لا ومنها خرجت علوم المذاهب، وإلى أئمتها كل علم ينسب ... ولا ينكر هذا لاخاص ولا عام، ولا يزاحمها في هذا الفضل أحد على طول الأمد والأيام » (١) .

« وهكذا أصبحت القيروان دار العلم بإفريقية، برز فيها كبار المحدثين، والفقهاء والقراء، رحل إليها أهل المغرب والأندلس لطلب العلم ، وقد نافح أهلها عن مذاهب السلف فصارت دار السُّنَّة والجماعة بالمغرب » (٢) .



(١) حُسن البيان ، للشيخ محمد النيفر ، (ص١٨٩) نقلاً عن مدرسة الحديث في القيروان(١ / ٥٥) .

(٢) مدرسة الحديث في القيروان(١ / ٥٥) .

الفصل الثاني

الصحابة الذين دخلوا ليبيا واستقروا في مدينة القيروان

بدأت أجيال المحدثين في القيروان بالصحابة رضي الله عنهم ، فقد دخلوا إفريقية فاتحين ومعلمين، أسسوا مدينة القيروان -كما سبق- فكسبت بذلك شرفاً على مدى الأزمان، وهم أول من نشر فيها علم الكتاب والسُنَة قولاً وعملاً، ومن هنا سأبدأ الحديث عمن نزل القيروان من الصحابة رضي الله عنهم وأثرهم في نشر السُّنَّة به وبإفريقية عموماً.

المبحث الأول

عددهم وتحقيق القول في ذلك [1]

إن مما يلاحظه الناظر في كتب تاريخ المغرب وتراجم رجاله كثرة من دخل إفريقية من الصحابة ، قال ابن عذارى: « دخل إفريقية من أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين الأولين ناس كثير» [2]، وقد استمر قدومهم إليها من (سنة ٢٧ هـ) إلى (سنة ٧٨ هـ) ، وكان دخلها في كل غزوة جمع غفير منهم، ويتضاءل عدده مع مرور الزمن، فقد كان عدة جيش عبد الله بن سعد سنة ٢٧ هـ عشرين ألفاً أكثرهم أصحاب رسول الله ﷺ ، كما كان مع معاوية بن حديج في غزواته الثلاث بشر كثير من أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار، أما عقبة بن نافع فقد صحبه في غزوته الأولى سنة ٥٠ هـ على الراجح - كما أسلفت - ثمانية عشر صحابيًّا ، وفي غزوته الثانية (٦٢هـ) خمسة وعشرون صحابياً، كما

(١) اعتمدت في هذا الفصل على كتاب مدرسة الحديث في القيروان، وهو أهمها، وكذلك بعض كتب التراجم.

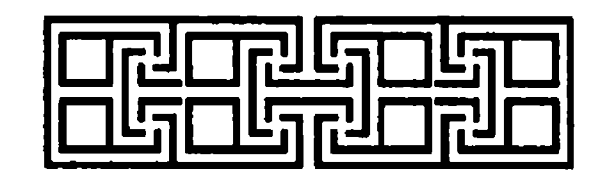
(٢) البيان المغرب (١/ ٨).

دخلها خالد بن ثابت الفهري(سنة ٥٤ هـ) أميراً ودخلها سفيان بن وهب الخولاني(سنة ٦٠ هـ) و(سنة ٧٨ هـ) وهو آخر من دخلها من الصحابة وعلى هذا يكون عدد من وقع التصريح بأسمائهم ضئيلاً جداً بالنسبة للعدد الحقيقي، فقد صرح أبو العرب باسم سبعة عشر منهم.

وذكر المالكي تسعة وعشرين صحابياً، وقد عَدَّ منهم عقبة بن نافع ، وهو لا صحبة له، وذكر الدباغ ثلاثين صحابياً، وقد ذكر فيهم عقبة بن عامر وهو لم يدخلها، وذكر صاحب الشجرة واحداً وأربعين، وقد تعقبت [1] عشرة منهم ، وتبين لي أن ثمانية منهم من كبارالتابعين، لم تثبت لهم صحبة، وواحد لم يدخلها وواحد كرره ، فتمحص له منهم واحدٌ وثلاثون صحابياً.

وبعد النظر في مختلف المصادر والمراجع ولَمِّ شتات هذه المسألة تحصل لدي عدد خمس وأربعين صحابياً ممن له رواية، أي بزيادة أربعة عشر رجلاً على أكبر عدد سبقت إليه فتعداد الصحابة الذين نزلوا القيروان وإفريقية ، وهو ما تمحص لصاحب الشجرة وقد تقدم أنه واحد وثلاثون.

وهذا عدا المخضرمين – وهم ثلاثة – ومن ولدوا علي عهد الرسول ﷺ وَتُوُفِّيَ وهم دون سن التمييز، وقد بلغ عددهم ثمانية عشر رجلاً فيما وقفت عليه بعد البحث، وهؤلاء عدادهم عند المحدثين في كبار التابعين من حيث الرواية [2] .



(١) المتعقب هو الأستاذ الحسين بن محمد شواط، صاحب كتاب مدرسة الحديث في القيروان.

(٢) **انظر**: مدرسة الحديث(٢ / ٤٦٥) .

المبحث الثاني

أثر الصحابة الرواة في نشر السُنَة بالقيروان وإفريقية

لقد ضنت علينا المصادر بالمعلومات المنشودة المتعلقة بالنشاط العلمي للصحابة في القيروان، وأغفلتها إغفالاً تاماً، وقد قمت [1] بتتبع تراجم هؤلاء الصحابة في كتب أهل المشرق والمغرب، وكتب التاريخ العامة والخاصة، لعلي أظفر بما ينير الطريق في هذه المسألة، ولذلك فقد تضخمت مصادر تراجم الصحابة ، ولا حظت أن اهتمام المشارقة بإظهار الجانب العلمي للأفارقة والقيروانيين – وخاصة في مجال الحديث– قليل جداً، حتى إنهم نادراً ما يشيرون في ترجمة الصحابي إلى دخوله إفريقية ، فضلاً عن أن يتحدثوا عن نشاطه العلمي فيها، أما أهل القيروان فإن أغلب ما صنفوه في الحديث وفي تاريخ بلادهم وتراجم رجالها قد فقد، وأهمه مسند المحدث محمد ابن سحنون (ت٢٥٦ هـ)، وقد وصف بأنه كبير ، ولعله إن وجد يسد هذه الثغرة، **والذي يمكن قوله في هذه المسألة بناء على ما توافر من المادة العلمية هو :**

﴿١﴾ أن الصحابة ﷺ عموماً منهل علمي طبيعي لنشر سُنَّة النبي ﷺ ، وقد أمرهم ﷺ بالتبليغ عنه ما استطاعوا ، وقد هجروا أوطانهم وتفرقوا في الأمصار بعد وفاة الرسول ﷺ للقيام بهذه المهمة السامية ، لذلك فإن قلة المادة الواردة في هذا الشأن بخصوص القيروان لا تعني عدم قيامهم بنشر السُنَّة فيها ، إنما تفسر بقلة التدوين وضياع أكثر ما دون.

﴿٢﴾ إن الظروف العامة لإفريقية والقيروان في فترة الفتح لم تساعد علي طول استقرار الصحابة فيه، وهذا يعني عدم وجود واسطة مستقرة من الصحابة لرواية

---

(١) القائم بهذا الأمر هو صاحب كتاب مدرسة الحديث.

السنة، فكانوا يقدمون للغزو، وخلال ذلك ينشرون علوم الكتاب والسُنَّة، ثم يعودون للمشرق، فلما تم الفتح النهائي واستقرت الأوضاع كان أ غلب الصحابة قد توفوا، والباقون ضعفت قواهم - لكبر السن - عن القدوم إليها، لهذا كان أثرهم فيها أقل مما هو في بلاد المشرق.

﴿٣﴾ إن أطول فترة مكثها الصحابة في شكل جماعي بالقيروان هي الفترة التي أسسوا فيها هذه المدينة، ودامت مدة خمس سنوات (٥٠ - ٥٥ على الراجح) وكان عددهم ثمانية عشر صاحبياً في غزوة عقبة الأولى، ومن الطبيعي أنهم في هذه المدة الطويلة قد قاموا برواية علوم الكتاب والسُنَّة ، ونشرها بين من أسلم من البربر، ومن استقر في القيروان من عرب الفتح، ولا سيما ما يحتاج إليه في العبادات والمعاملات، خاصة وقد تم بناء المسجد الجامع، وبنى الناس مساجدهم ودورهم من حوله، ولم تكن هناك حروب في هذه الفترة.

﴿٤﴾ لقد تكرر دخول كثير من الصحابة الرواة إلى إفريقية ثم القيروان بعد تأسيسها، فقد دخلها عبد الله بن سعد مرتين (٢٧، ٣٣ هـ) ودخلها معاوية بن حديج ثلاث مرات (٣٤ ، ٤١ ، ٤٥هـ) وعبد الله بن عمر مرتين (٢٧، ٤٥هـ) وعبد الله بن الزبير مرتين (٦٠ ، ٧٨ هـ) وغيرهم.

ولهذا التردد علي إفريقية أثر كبير في نشر الصحابة للسُنَّة ، وذلك لأن هؤلاء قد عرفوا البلاد وطباع أهلها، فهم أقدر علي معرفة مداخلها وأصلح الطرق لنشر العلم بها، ولا شك أنه قد أصبح لهم بها أصحاب وتلاميذ.

﴿٥﴾ إن كثيراً من الصحابة الفاتحين قد اتخذوا بإفريقية السراري وأمهات الأولاد كما ذكرت المصادر، فقد ولد لعبد الله بن عمر طفلة بموضع القيروان، ولجبلة بن عمرو عقب بإفريقية، كما كان لقيس بن يسار أولاد بإفريقية منهم: أبو محرز القاضي وغيرهم، ووجود عقبهم بها دليل على استمرار أمهات الأولاد فيها بعد عودة الصحابة، ولا شك أنهن سينشرن بإفريقية ما تعلمنه من الصحابة

من السُنَّة القولية والعملية.

﴿٧﴾ إن معظم من دخل إفريقية من الصحابة له رواية عن النبي ﷺ بل إن منهم جماعة من الكثيرين، مثل عبد الله بن عمرو له ٢٦٣٠ حديثاً، وابن عباس له ١٦٦٠ حديثاً، وابن مسعود له ٨٤٨ حديثاً، وعبد الله بن عمر له ٧٠٠ حديثاً، وغيرهم، ولا يمكن لهؤلاء أن يتوقفوا عن نشر العلم الغزير، فإن ذلك أصبح سجية من سجاياهم وطبعاً من طباعهم لا تكتمل حياتهم بدونه.

﴿٨﴾ لقد ثبتت الرواية في إفريقية عن عشر من أصحاب رسول الله ﷺ وهم:

جبلة بن عمرو الأنصاري: وحديثه عندهم عن طريق سليمان بن يسار الذي غزا معه إفريقية سنة ٤٥ هـ، واستقر فيها عند ذلك مدة وأخذ عنه من أهلها خالد بن أبي عمران وغيره.

رويفع بن ثابت الأنصاري: حدث رويفع بإفريقية وسمع منه حنش ابن عبد الله الصنعاني، الذي كان معه في فتح جزيرة جربة، وقد استقر حنش بعد ذلك في القيروان وبقي فيها إلى أن توفي سنة ١٠٠ هـ.

زياد بن الحارث الصدائي: انفرد أهل إفريقية برواية حديث الصدائي الطويل فيخبر بإسلامه وما سمعه من النبي ﷺ وقد رواه عبد الرحمن بن زياد الإفريقي عن زياد بن نعيم عن الصدائي.

سفيان بن وهب الخولاني: سيأتي الحديث في ترجمته وعن طول مكثه في القيروان، وأثر ذلك في نشره للسُنَّة، وتلاميذه القيروانيين.

عبد الله بن سعد بن أبي السرح: ذكر ابن عبد الحكم بسنده إلى عبد الله ابن ربيعة، قال: صلى عبد الله بن سعد للناس بإفريقية المغرب، فلما صلى ركعتين سمعوا جلبة في المسجد، فأرعبهم ذلك وظنوا أنه العدو، فقطع الصلاة، فلما لم ير شيئاً خطب الناس، وقال: إن هذه الصلاة اختصرت، وأمر مؤذن الصلاة، ثم

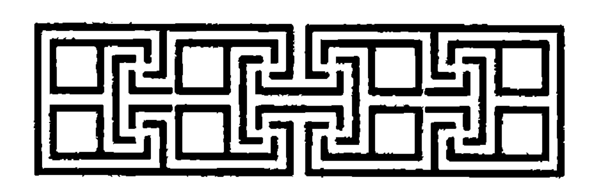
أعادها [١] .

عبد الله بن عمر بن الخطاب: حدث ابن عمر بإفريقية، وذلك في غزوته الثانية.

فضالة بن عبيد الأنصاري: حدث في إفريقية بحديثين، رواهما عنه حنش الصنعاني، الذي كان معه في فتح جربة سنة ٤٧ هـ ، وسمعهما منه أهل القيروان.

أبو زمعة البلوي: وبه سميت البلوية، إحدى مقابر القيروان، فيما بعد وروى عنه أهل إفريقية أنه حين حضرته الوفاة بها : أمرهم أن يسووا قبره بالأرض.

أبو اليقظان: دخل إفريقية مع ابن حديج سنة ٤٥ هـ ، ومنها غزا صقلية وحدث فيها بهذا الحديث: عن ابن عَشَّانة المعافري قال: سمعت أبا اليقظان صاحب رسول الله ﷺ بصقلية يقول: أبشروا، والله لأنتم أشد حباً لرسول الله ﷺ - ولم تروه - من عامة من رآه [٢] .



(١) فتوح مصر (ص ٢٦٢) ، والحديث ضعيف في سنده ابن لهيعة، وهو ضعيف في حفظه.

(٢) مدرسة الحديث في القيروان (٢ / ٢٧٩) .



المبحث الثالث

كبار الصحابة أو الصحابة الرواة

[١] الحسن بن علي بن أبي طالب أبو محمد رضي الله عنه :

دخل إفريقية سنة ٢٧ هـ مع عبد الله بن سعد، وقد صحب النبي ﷺ وحفظ عنه ثلاثة عشرة حديثاً روى له البخاري في صحيحه، وأصحاب السُنن الأربعة وأحمد في مسنده .. اختلفوا في تاريخ مولده ووفاته اختلافاً كثيراً، والأكثر علي أنه ولد سنة ٣ هـ، وتوفى في حدود سنة ٥٠ هـ (١) .

والحسن بن علي أمه فاطمة الزهراء بنت نبينا ﷺ، وقد وردت أحاديث كثيرة في بيان مناقبه رضي الله عنه ومن هذه المناقب ما رواه البخاري بإسناده إلى أبي بكرة رضي الله عنه قال: سمعنا النبي ﷺ على المنبر والحسن إلى جنبه ينظر إلى الناس مرة، وإليه مرة ويقول : [**ابني هذا سيد ، ولعل الله يصلح به بين فئتين من المسلمين**] (٢) ، وهذا الحديث فيه منقبة للحسن رضي الله عنه فقد أخبر النبي ﷺ بأنه سيد، ووصفه ﷺ للفئتين بالعظيمتين كما في رواية للبخاري (٣) ، لأن المسلمين كانوا يومئذٍ فريقين فرقة مع الحسن رضي الله عنه وفرقة مع معاوية رضي الله عنه وهذه معجزة عظيمة من النبي ﷺ إذ أخبر بهذا فوقع مثل ما أخبر، أصل القضية أن علي بن أبي طالب لما ضربه عبد الرحمن بن ملجم المرادي يوم الجمعة وليلة السبت وتوفي ليلة الأحد لإحدى عشرة ليلة بقيت من رمضان، سنة أربعين من الهجرة وبويع لابنه الحسن بالخلافة في شهر رمضان من هذه السنة ، وأقام الحسن أياماً يفكر في أمره، ثم رأى اختلاف الناس فرقة من جهته وفرقة من جهة معاوية ولا يستقيم الأمر، ورأى

---

(١) مدرسة الحديث في القيروان (٢/٤٨٤).

(٢) صحيح البخاري (٢/٣٠٦).

(٣) صحيح البخاري (٢/٣٠٦).

النظر في إصلاح المسلمين وحقن دمائهم أولى من النظر في حقه فسلم الخلافة لمعاوية في الخامس والعشرين من ربيع الأول من سنة إحدى وأربعين، وقيل: من ربيع الآخر، وقيل: في غرة جماد الأول وكانت خلافته ستة أشهر إلا أياماً وسمي هذا العام عام الجماعة، وهذ االذي أخبر به النبي ﷺ: [**لعل الله يصلح به بين فئتين عظيمتين**] [١].

فالحديث فيه علم من أعلام النبوة ومنقبة للحسن بن علي، فإنه ترك الملك لا لقلة ولا لذلة ولا لعلة، بل لرغبته فيما عند الله لما رآه من حقن دماء المسلمين فراعى أمر الدين ومصلحة الأمة [٢].

وفاته: كانت وفاته سنة خمسين من الهجرة بالمدينة المنورة [٣].

[٢] الحسين بن علي بن أبي طالب أبو عبد الله رضي الله عنهما:

هو أبو عبد الله الحسين بن علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم القرشي الهاشمي السبط الشهيد بكربلاء ابن بنت رسول الله ﷺ فاطمة الزهراء رضي الله عنها وريحانته في الدنيا، ولد بعد أخيه الحسن، وكان مولده سنة أربع للهجرة مر بليبيا في غزوة العبادلة، له صحبة ورواية، عدد أحاديثه ثمانية، أخرج له أصحاب الكتب الستة، الإمام أحمد وغيرهم، وقد وردت أحاديث صحيحة في بيان مناقبه ومناقب أخيه الحسن، روى أبو عبد الله الحاكم بإسناده إلى ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: [**الحسن والحسين سيدا شباب الجنة ، وأبوهما خير منهما**] [٤] ومن إكرام الله له ولأخيه الحسن أنهما ماتا شهيدين تكميلاً لكرامتهما ورفعاً لدرجتهما أحدهما مات مسموماً ، والآخر مقتولاً [٥].

---

(١) صحيح البخاري (٢/ ٣٠٦).
(٢) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٤٤-١٤٥)، معالم السنن (٤/ ٣١١).
(٣) فتح الباري (١٣/ ٦٦).
(٤) انظر: صفة الصفوة (١/ ٧٦٢)، فتح الباري (٧/ ٩٥).
(٥) البداية والنهاية (٨/ ٤٦).

مقتل الحسين: لما مات معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما واستخلف من بعده ابنه يزيد قام أهل الكوفة بمكاتبة الحسين بن علي رضي الله عنهما وذكروا له أنهم في طاعته، فخرج إليهم الحسين، فسبقه عبيد الله بن زياد إلى الكوفة، فخذل غالب الناس عنه، فتأخروا رغبة ورهبة، وقتل ابن عمه مسلم بن عقيل، وكان الحسين قد قدمه قبله ليبايع الناس، فجهز إليه عسكراً فقاتلوه رضي الله عنه إلى أن قتل وجماعة من أهل بيته (١).

قلت: وأهل السُنَّة يعتقدون أن الحسين رضي الله عنه قتل مظلوماً، وأن قتله من أعظم المصائب التي وقعت في الإسلام، وهم يلتزمون بما شرعه الله عند المصائب من الاسترجاع، وإن تقادم عهد المصيبة، وما يفعله الشيعة في يوم عاشوراء ليس من الإسلام في شيء، بل هو من أمور الجاهلية التي لم يفعلها رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أحد من السابقين الأولين ومن التابعين لهم بإحسان، ولا من عادة أهل البيت، ولا غيرهم، وقد شهد مقتل عليّ أهلُ بيته، وشهد مقتل الحسين من شهده من أهل بيته، وقد مرت على ذلك سنون، وهم متمسكون بسُنَّة رسول الله صلى الله عليه وسلم في المصائب من صبر واسترجاع وحزن بدون جزع ولا تسخط على إرادة المولى.

مقتله: مات رضي الله عنه قتلاً في يوم عاشوراً من شهر ا المحرم إحدى وستون هجرية (٢).

[٣] عبد الله بن عباس رضي الله عنهما (حبر الأمة وترجمان القرآن):

هو عبد الله بن عباس بن عبدالمطلب أبو العباس، غزا إفريقية مع ابن أبي سرح سنة (٢٧ هـ)، ومر ببرقة، وطرابلس، وهو الذي تولى قسمة الغنائم في جيش العبادلة، وهو من أكثر الصحابة فتوى ورواية، له (١٦٦٠ حديثاً)، أخرج له

---

(١) **انظر**: الكامل لابن الأثير (٤/ ٤٦-٩٣).

(٢) **انظر**: البداية والهاية (٨/ ١٦٢).

الجماعة وأحمد وغيرهم، ومن تلاميذه الذين سكنوا القيروان، حنش بن عبد الله الصنعاني (١) .

وابن عباس هو ابن عم رسول لله ﷺ وحبر الأمة، ومفسر كتاب الله وترجمانه، وكان يقال له: الحبر والبحر، وروى عن رسول الله ﷺ شيئاً كثيراً، وعن جماعة من الصحابة، وأخذ عنه خلق من الصحابة، وأمم من التابعين ، وله مفردات ليست لغيره من الصحابة لا تساع علمه، وكثرة فقهه، وكمال عقله ، وسعة فضله ، ونبل أصله رضي الله عنه وأرضاه، وأمه أم الفضل لبابة بنت الحارث الهلالية أخت ميمونة بنت الحارث أم المؤمنين وهو والد والد العباسيين، هاجر مع أبيه قبل الفتح فاتفق لقياهما بالنبي ﷺ بالجحفة وهو ذاهب لفتح مكة، فشهد الفتح وحنين والطائف عام ثمان ، قيل: كان فتى سنة تسع وصحب النبي ﷺ ولزمه، وأخذ عنه وحفظ، وضبط الأقوال، والأفعال والأحوال، وأخذ عن الصحابة رضي الله عنهم علماً عظيماً مع الفهم الثاقب والبلاغة والفصاحة، والجمال والأصالة والبيان (٢) .

وقد وردت في بيان فضله أحاديث كثيرة صحيحة عن رسول الله ﷺ كان في بيت ميمونة فوضعت له وضوءاً من الليل قال: فقالت ميمونة زوجة النبي ﷺ وخالة ابن عباس رضي الله عنهما : يا رسول الله وضع لك هذا عبد الله بن عباس فقال: [**اللهم فقهه في الدين ، وعلمه التأويل**] (٣) .

وفاته : توفي بالطائف سنة ثمان وستين رضي الله عنه وأرضاه، وجعل الجنة مثواه.

[٤] عبد الله بن جعفر بن ابي طالب، ابو جعفر:

هو عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، بن عبد مناف بن عبد المطلب ابن هاشم أبو جعفر القرشي الهاشمي، وأمه أسماء بنت عميس الخثعمية، أخت ميمونة

(١) مدرسة الحديث في القيروان(٢ / ٤٩٤) .
(٢) انظر: عقيدة أهل السنة الجماعة في الصحابة الكرام لناصر بن علي(١ /٣٨٧) .
(٣) انظر: المسند في الفتح الرباني(٢٢ / ٢٩٢) .

بنت الحارث لأمها، ولد بأرض الحبشة لما هاجر أبواه إليها وهو أول من ولد بها من المسلمين وحفظ عن النبي ﷺ وروى عنه رضي الله عنه وأرضاه، مر بليبيا في جيش العبادلة، له خمسة وعشرون حديثاً، أخرج له الجماعة وأحمدوغيرهم، ووردت له بعض المناقب دلت على عظيم شأنه وعلو مكانه.

ومن مناقبه رضي الله عنه: أنه كان من الذين شبهوا بالنبي ﷺ خَلقاً وخُلقاً ودعا له ولإخوانه ودعا له خاصة أن يبارك في تجارته، فقد روى الإمام أحمد بإسناده إلى عبد الله ابن جعفر أن النبي ﷺ أمهل آل جعفر ثلاثاً أن يأتيهم ثم أتاهم فقال: [**لا تبكوا على أخي بعد اليوم ادعوا إليّ ابني أخي**]، قال: فجيء بنا كأنا أفرخ، فقال: [**ادعو إلي الحلاق**] فحلق رءوسنا، ثم قال: [**أما محمد فشبيه عمنا أبي طالب، أما عبد الله فشبيه خَلْقي وخُلُقي**]، ثم أخذ بيدي فأشالها فقال: [**اللهم اخلفْ جعفراً في أهله وبارك لعبد الله في صفقة يمينه**]، «قالها ثلاث مرات».

وكان ابن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما إذا سلم على عبد الله بن جعفر قال: «السلام عليك يا ابن ذي الجناحين» (١).

. وكان ممن اشتهروا بالجود والبذل والعطاء، ذكر الذهبي أن أعرابياً قصد مروان، فقال: ما عندنا شيء، فعليك بعبد الله بن جعفر، فأتى الأعرابي عبد الله، فأنشأ يقول:

أبو جعفر من أهل بيت النبوة ... صَلاتُهُم للمسلمين طُهُور
أبا جعفر ضَنَّ الأميرُ بماله ... وأنت على ما في يَدَيْكَ أميرُ
أبا جعفر يا ابن الشهيد الذي له ... جناحان في أعلى الجنان يطيرُ
أبا جعفر ما مثلك اليومَ أرتجي ... فلا تتركني بالفلاة أدور
أبا جعفر إن الحجيج ترحلوا ... وليس لي رحيل فاعلمن بعير

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (٣/٤٥٩).

فقال عبد الله: يا أعرابي سار الثَّقل، فعليك بالراحلة بما عليها، وإياك أن تُخْدع عن السيف، فإني أخذته بألف دينار [١].

وفاته: ذكر الذهبي أقوالاً في وفاته منها أنه: مات سنة ثمانين، وقيل: سنة أربع وخمس وثمانين، وقيل: تسعين [٢].

[٥] عبد الله بن عمر بن الخطاب العدوي القرشي رضي الله عنهما:

هو عبد الله بن عمر بن نفيل القرشي العدوي أبو عبد الرحمن مر بأرض الأمل ليبيا في غزوة العبادلة وحدث ابن عمر بإفريقية، وذلك في غزوته الثانية سنة ٤٥ هـ، روى عنه ميسرة الزرودي، وهو من أهل إفريقية، كما سأله يزيد بن قاسط وهو من أهلها أيضاً وتجمع عنده بعض أهلها، فلما أرادوا أن يفارقوه طلبوا نصحاً وسألوه عن بعض الأحكام، ومن هذه الأحكام ما ذكره المالكي: أنا أبا سعيدالمقبري استسلف بإفريقية ديناراً جريجيرياً من رجل على أن يعطيه منقوشاً بمصر، فسأل ابن عمر عن ذلك فقال: «لولا الشرط الذي فيه لم يكن به بأس» وعزاه المالكي إلى موطأ ابن وهب، ومدونة سحنون، وهكذا يكون أهل إفريقية قد تعلموا من هذا الصحابي مواعظ وأحكاماً تفيدهم في دينهم، كما أن في سؤال أهل إفريقية له، واجتماعهم إليه، وطلبهم أن يزودهم من علمه دليل على أنهم كانوا حريصين على الاستفادة من وجود الصحابة بينهم، وأنهم على وعي بدور الصحابة في الرواية وتعليم أمور الدين [٣].

علمه: عرف ابن عمر رضي الله عنهما بالعلم والفقه، وطول ملازمته النبي ﷺ وحفظ القرآن وفهم آياته وأحكامه، وعاش طويلاً فاحتاج الناس إلى علمه وفقهه، ويتحلى إلى جانب علمه النافع الغزير بالتواضع والورع والدقة، فلا يفتي، ولا

---

(١) سير أعلام النبلاء (٣/٤٥٩).

(٢) نفس المصدر.

(٣) مدرسة الحديث في القيروان (٢/٤٧٦).

يجيب عما لم يقع، واشتهر بالرواية عن رسول الله ﷺ .

قال النووي - رحمه الله -: «واعلم أن ابن عمر رضي الله عنهما أحد الستة الذين هم أكثر الصحابة رواية عن النبي ﷺ وهم : أبو هريرة، ثم ابن عمر، ثم أنس، وابن عباس، وجابر، وعائشة رضي الله عنهم » (١) قال رسول الله ﷺ في حقه: «**نعم الرجل عبد الله لو كان يُصلي من الليل**» (٢) فما ترك ابن عمر قيام الليل ولا حتى في الليلة التي استشهد فيها والده الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

عرضت عليه الخلافة مرات عديدة، منعه الخوف من الله أن يتقلدها، وقال الذهبي: هو أحد الأعلام في العلم والعمل، وهو من أهل بيعة الرضوان، وممن كان يصلح للخلافة، فعين لذلك يوم الحكمين مع وجود مثل الإمام علي، وفاتح العراق سعد ونحوهما رضي الله عنهما، ومناقبه جمة، أثنى عليه النبي ﷺ ووصفه بالصلاح (٣) .

وقال سعيد بن المسيب فيه يوم وفاته: وما في الأرض أحد أحب إليَّ أن ألقى الله عز وجل بمثل عمله منه ، وكانت سنة وفاته (٧٤ هـ) (٤) .

[٦] - عبد الله بن مسعود رضي الله عنه :

هو عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب بن شَمْخ بن فار بن مخزوم الهذلي، الإمام الحبر، فقيه الأمة، أبو عبد الرحمن الهذلي المكي المهاجري البدري، حليف بني زهرة كان من السابقين الأولين، ومن النجباء العالمين، شهد بدراً، وهاجر الهجرتين، وكان يوم اليرموك على النفل، ومناقبه غزيرة، روى علماً كثيراً (٥) .

دخل ليبيا في غزوة العبادلة مع جيش عبد الله بن أبي سرح، روى عن النبي

---

(١) تهذيب الأسماء (١ / ٢٨٠) للنووي .
(٢) الطبقات لابن سعد (٤ / ١٤٧).
(٣) انظر : أعلام النبلاء (٣ / ٢٠٣).
(٤) نفس المصدر .
(٥) سير أعلام النبلاء (١ / ٤٦١).

ﷺ (٨٤٨ حديثاً) أخرج أحاديثه أصحاب الكتب الستة والإمام أحمد في مسنده، والطبراني في معجمه، ولقد حفظ سوراً عديدة من القرآن من فيّ رسول الله ﷺ وبرع في الحفظ وإتقان التلاوة، وبقي ابن مسعود ملازماً للنبي ﷺ حتى أخذ عنه معظم سور القرآن مشافهة، وقد تحدث بذلك فقال: « والله لقد أخذت من في رسول الله ﷺ بضعاً وسبعين سورة، والله لقد علم أصحاب النبي ﷺ أني من أعلمهم بكتاب الله وما أنا بخيرهم، قال شقيق: فجلست في الحِلق أسمع ما يقولون، فما سمعت أحداً يقول غير ذلك » (١) .

وطلب النبي ﷺ من ابن مسعود ﷺ ذات يوم أن يقرأ عليه القرآن، فقال ابن مسعود: « أقرأ عليك وعليك أُنزل؟» قال: [**إني أشتهي أن أسمعه من غيري**]، قال: فقرأت النساء حتى إذا بلغت: ﴿ **فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا** ﴾ [النساء: ٤١] .

قال لي: [**كف، أو أمسك**]، فرأيت عينيه تذرفان (٢) .

هذا الصحابي الجليل والعالم النحرير، والعابد الزاهد، والفقيه الفذ، والمجاهد الكبير كان في جيوش الفاتحين للشمال الإفريقي، ومر ببلادنا ليبيا، وكان معلماً مربياً للجنود الذين معه وكذلك لإخوانه الذين دخلوا في دين الله أفواجاً، كانت أقواله ومواعظه حكماً، تحيا بها القلوب، وكان يوصي الناس في أخذ العلم، وأن يأخذوه من أكابرهم فقال في ذلك: « لا يزال الناس بخير ما أخذوا العلم عن أكابرهم، فإذا أخذوه من أصاغرهم هلكوا » (٣) . وتوفي هذا البحر الزاخر من العلوم والمعارف سنة اثنتين وثلاثين هجرية في المدينة المنورة (٤) .

---

(١) **انظر**: البخاري مع الفتح رقم(٥٠٠٠) .

(٢) **انظر**: البخاري مع الفتح، رقم(٥٠٥٥) .

(٣) أعلام المسلمين عبد الله بن مسعود ، لعبد الستار الشيخ،(٣٣٩) .

(٤) أسد الغابة(٣ / ٣٩٠) .

[٧] عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما:

هو عبد الله بن عمرو بن العاص السهمي الإمام الحبر العابد، صاحب رسول الله ﷺ، وابن صاحبه،أبو محمد، وقيل: أبوعبد الرحمن، وقد أسلم قبل أبيه وكان اسمه العاص، فلما أسلم غيره النبي ﷺ بعبد الله، له مناقب وفضل ومقام راسخ في العلم والعمل حمل عن النبي ﷺ علماً جمًّا [١]، مر ببلادنا في غزوة العبادلة ودخل إفريقية وكان يكتب ما يسمعه من النبي ﷺ، بناء على الإذن النبوي الشريف له، وكان غزير العلم، له (٧٠٠ حديث) أخرج له أصحاب الكتب الستة [٢]، وأحمد وغيرهم، من تلاميذه الذين نشروا العلم بالقيروان: عكرمة مولى ابن عباس.

شدة عبادته:

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: «زوجني أبي امرأة من قريش، فلما دخلتْ عليّ، جعلت لا أنحاش لها مما بقي بي من القوة على العبادة، فجاء أبي إلى كنته، فقال: كيف وجدتِ بعلكِ؟، قالت: خير رجل من رجلٍ لم يُفتِّش لنا كنفاً، ولم يقربْ لنا فراشاً، قال: فأقبل عليّ، وعنفني بلسانه، ثم قال: أنكحتك امرأة ذات حسب فعضلتها وفعلت، ثم انطلق، فشكاني إلى النبي ﷺ فطلبني، فأتيته، فقال لي: [**أتصوم النهار وتقوم الليل؟**] قلت: نعم، قال: [**لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأنام، وأمس النساء، فمن رغب عن سُنّتي فليس مني**] [٣].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: جمعت القرآن، فقرأته كلَّه في ليلة، فقال رسول الله ﷺ: «**اقرأه في شهر**»، قلت: يا رسول الله، دعني أستمتع من قوتي وشبابي، قال: «**اقرأه في عشرين**»، قلت: دعني أستمتع، قال:

---

(١) سير أعلام النبلاء (٣ / ٨٠)
(٢) مدرسة الحديث بالقيروان (٢ / ٤٩٥)
(٣) سير أعلام النبلاء (٣ / ٩٠)

«اقرأه في سبع ليال» ، قلت: دعني يا رسول الله ﷺ أستمتع، قال: فأبى [١] ، وصح أن رسول الله ﷺ نازله إلى ثلاث ليال ، ونهاه أن يقرأه في أقل من ثلاث [٢] .

وفاته: مات عبد الله ليالي الحرة سنة ثلاث وستين ، وقيل: توفي في مصر، وقيل: بالطائف، وقيل: بمكة، وقيل: بالشام [٣] .

[٨] المقداد بن عمرو رضي الله عنه :

هو المقداد بن عمرو بن ثعلبة بن مالك بن ربيعة القضاعي الكندي البهراني ويقال له: المقداد بن الأسود، لأنه ربي في حجر الأسود بن عبد يغوث الزهري ، فتبناه وقيل: بل كان عبداً له أسود اللون، فتبناه ، ويقال: بل أصاب دماً في كندة، فهرب إلى مكة، وحالف الأسود، شهد بدراً والمشاهد، وثبت أنه كان يوم بدر راكباً علي فرسه وهو أحد السابقين للإسلام [٤] ، وكان أحد السبعة الذين كانوا أول من أظهروا الإسلام، مر ببلادنا الحبيبة في غزوة العبادلة في جيش عبد الله بن أبي السرح، روى (٤٢ حديثاً)، وأخرج له أصحاب الكتب الستة، الإمام أحمد في مسنده ومالك في موطئه [٥] .

دروس من سيرته يوم بدر :

عندما استشار رسول الله ﷺ أصحابه أثناء خروجه لملاقاة المشركين في بدر تكلم المقداد بعد أبي بكر وعمر فقال: يا رسول الله، امض لما أراك الله فنحن معك، والله لا نقول لك ما قال بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فو الذي بعثك بالحق لوسرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه، فقال

---

(١) المرجع السابق(٣ / ٨٣) .
(٢) المرجع السابق(٣ / ٨٤) .
(٣) نفس المرجع السابق(٣ / ٩٤) .
(٤) سيرأعلام النبلاء(١ / ٣٨٦-٣٨٩) .
(٥) مدرسة الحديث في القيروان(٢ / ٥٠٠٠) .

له رسول الله ﷺ خيراً ودعا له ، وفي رواية البخاري : « قال : ولكنا نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك ، قال ابن مسعود ﷺ : فرأيت النبي ﷺ أشرق وجهه وسره قوله » .

خوفه من الإمارة :

عن المقداد بن عمرو قال : استعملني رسول الله ﷺ على عمل ، فلما رجعت قال لي : كيف وجدت الإمارة؟ ، قلت : يا رسول الله ما ظننت إلا أن الناس كلهم خَوَلٌ لي، والله لا أولي على عمل ما دمتُ حيّاً .

حرصه على الجهاد :

ذكر الذهبي أن أبا راشد الحُبْراني وافي المقداد فارس رسول الله بحمص علي تابوت من توابيت الصيارفة، قد أفضل عليها من عِظَمِه، يريد الغزو، فقلت له : قد أعذر الله إليك، فقال : أَبتْ علينا سورة البحوث (التوبة) : ﴿ **انفِرُوا خِفَافًا وَثقَالاً** ﴾ [التوبة : ٤١] .

وفاته: توفي ﷺ سنة ثلاث وثلاثين وصلى عليه عثمان بن عفان وقبره بالبقيع [١] .

[٩] أبو ذر الغفاري ﷺ :

هو جندب بن جنادة بن عبيد بن حزام بن غفارة بن مليل بن بكر ابن عبد مناف ابن كنانة، أحد السابقين الأولين، من نجباء أصحاب محمد ﷺ ، قيل : كان خامس خمسة في الإسلام، ثم إنه رُدَّ إلى بلاد قومه فأقام بها بأمر النبي ﷺ له بذلك، فلما هاجر النبي ﷺ ، هاجر أبو ذر ﷺ ولازمه وجاهد معه، وكان يفتي في خلافة أبي بكر، وعمر وعثمان [٢] .

---

(١) سير أعلام النبلاء (١ / ٣٨٨) .

(٢) سير أعلام النبلاء (٢ / ٤٦-٧٨) .

مر بليبيا ودخل الشمال الإفريقي في غزوة العبادلة، روى عن النبي ﷺ (٢٨١ حديثاً)، أخرج له أصحاب الكتب الستة وغيرهم.

قال في حقه رسول الله ﷺ [**ما أقلت الغبراء، ولا أظلت الخضراء من رجل أصدق لهجة من أبي ذر**] (١) .

قال عنه الذهبي : « كان رأساً في الزهد، والصدق، والعلم والعمل، قوالاً بالحق، لا تأخذه في الله لومة لائم ، على حدة فيه » (٢) .

وتجد في كتب الشيعة اتهاماً لعثمان رضي الله عنه بأنه ظلم أبا ذر ونفاه إلى الربذة وهذا اختلاق منهم، وإفك مبين، وإنما الذي حدث أن أباذر رضي الله عنه هو الذي اختار الربذة بنفسه، وأن عثمان دعاه من الشام ليكون معه في المدينة بعد أن اختلف أبو ذر مع معاوية رضي الله عنه في الشام، وقال عثمان لأبي ذر: « أحببت أن أجعلك بين أصحابك وخفت عليك جهل الناس »، قالت أم ذر: « والله ما سيّر عثمان أبا ذر – تعني الربذة – ولكن رسول الله ﷺ قال [**إذا بلغ البناء سلعاً، فاخرج منها**] وكان أبو ذر لا يستجيز ادخار النقدين الذهب والفضة، وكان يحدث ويقول: لا يبيتن عند أحدكم دينار ولا درهم، ولا تبر ولا فضة، إلا شيء ينفقه في سبيل الله، أو يعده لغريم ، فقال: هذا دال على فضل إنفاقه وكراهية جمعه ، لا يدل على تحريم (٣) .

وفاته : توفي رضي الله عنه عنه في الربذة في(عام ٣٢ هـ) ، وحضر دفنه عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه الذي مات بعده بقليل.

[١٠] عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنهما :

حضر بدراً مع المشركين، ثم أسلم وهاجر قبيل الفتح، وأما جده أبو قحافة

---

(١) مدرسة الحديث في القيروان ٢ / ٤٨٥–٤٨٦) .

(٢) سير أعلام النبلاء ٢ / ٤٦–٧٨) .

(٣) سير أعلام النبلاء ٢ / ٦٧) .

فتأخر إسلامه إلى يوم الفتح، وكان عبد الرحمن أسن أولاد الصديق، وكان من الرماة المذكورين والشجعان قتل يوم اليمامة سبعة من كبارهم دخل إفريقية ماراً بليبيا في جيش العبادلة ، له أحاديث ثمانية أخرج له أصحاب الكتب الستة وأحمد وغيرهم وهو الذي أمره النبي ﷺ في حجة الوداع أن يعتمر بأخته عائشة من التنعيم، توفي سنة (٥٣ هـ)[1] .

[١١] أبو اليسر كعب بن عمرو الأنصاري رضي الله عنه :

هو كعب بن عمرو الأنصاري السلمي المدني البدري العقبي الذي أسر العباس رضي الله عنه يوم بدر، وشهد العقبة وله عشرون سنة، وهو الذي انتزع راية المشركين يوم بدر، ومناقبه كثيرة، وهذا الصحابي الذي شهد بدراً وبايع في العقبة مر ببلادنا ودخل الشمال الإفريقي في جيوش الفاتحين، له أحد عشر حديثاً، أخرج له مسلم، والأربعة والبخاري في الأدب المفرد، والإمام أحمد وغيرهم، توفي سنة (٥٥ هـ) بالمدينة[2] .

[١٢] فضالة بن عبيد رضي الله عنه :

هو فضالة بن عبيد بن نافذ بن قيس بن صهيب بن أصرم بن جحْجَبَي الفقيه، أبو محمد الأنصاري الأوسي، صاحب رسول الله ﷺ من أهل بيعة الرضوان، ولي الغزو لمعاوية، ثم ولي قضاء دمشق ، وكان ينوب عن معاوية في الإمارة إذا غاب، حدث في إفريقية بحديثين رواهما عنه حنش الصنعاني، الذي كان معه في فتح جربة (سنة ٤٧هـ) وسمعهما من أهل القيروان، أخرج له مسلم، والأربعة، وأحمد وبقي بن مخلد، وابن منده[3] .

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢ / ٤٧١) .

(٢) مدرسة الحديث بالقيروان (٢ / ٥٣٧).

(٣) مدرسة الحديث بالقيروان (١ / ٤٧٨، ٤٩٦) .

قاضي دمشق:

كان أبو الدرداء رضي الله عنه يقضي على دمشق، فلما حضرته الوفاة أتاه معاوية عائداً، فقال: من ترى للأمر بعدك؟ قال: فضالة بن عبيد، فلما توفي قال معاوية لفضالة: إني قد وليتك القضاء فاستعفي منه، فقال: والله ما حبيتك بها، ولكني استترت بك من النار، فاستتر منها ما استطعت.

تأمله في آية ووصيته لابن محيريز:

ذكرالذهبي رحمه الله أن فضالة قال: لأن أعلم أن الله يتقبل مني مثقال حبة أحب إليّ من الدنيا، وما فيها، لأنه تعالى يقول: ﴿**إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ**﴾. [المائدة:٢٧].

وعن ابن محيريز قال: قلت لفضالة أوصني: فقال: خصال ينفعك الله بهن، إن استطعت أن تعرف ولا تُعرف، فافعل، وإن استطعت أن تسمع ولا تتكلم فافعل، وإن استطعت أن تجلس ولا يُجلس إليك، فافعل [١].

وفاته: قال معاوية رضي الله عنه حين توفي فضالة، وهو يحمل نعشه، لابنه عبد الله بن معاوية: تعال اعقبني، فإنك لن تحمل مثله أبداً، وكانت سنة وفاته (٥٣ هـ)، وقيل: (٥٩ هـ)[٢].

[١٣] سلمة بن الأكوع رضي الله عنه:

هو سلمة بن عمرو بن الأكوع، واسم الأكوع: سنان بن عبد الله، أبوعامر وأبو مسلم، ويقال: أبو إياس الأسلمي الحجازي المدني، قيل: شهد مؤته، وهو من أهل بيعة الرضوان، قال مولاه يزيد: سمعته يقول: بايعت رسول الله ﷺ على الموت، وغزوت معه سبع غزوات [٣].

(١) سير أعلام النبلاء (٣/١١٦).
(٢) نفس المصدر (٣/١١٧).
(٣) سير أعلام النبلاء (٣/٣٢٦).

شجاعته: أغار عبد الرحمن بن عُيينة على الإبل التي كانت في ضواحي المدينة فقتل راعيها، وطرد الإبل وهو وأناس معه في خيل ، وكان مع سلمة رباح غلام النبي ﷺ فأقعده على فرس ليُعلم رسول الله ﷺ ، وقام على تل ونادى: يا صباحاه واتبع القوم فجعل يرميهم وحده ويقول:

أنا ابن الأكوع واليوم يوم الرُّضَع

حتى لحقت به خيل رسول الله ﷺ وعلي رأسهم أبو قتادة وتغلبوا على العدو، وقال رسول الله ﷺ في ذلك : [**خير فرساننا أبو قتادة ، وخير رجّالتنا سلمة**] [1] .

ولقد دخل هذا الصحابي الجليل إفريقية مارًّا ببرقة وطرابلس في جيش العبادلة سنة (٢٧ هـ) ، روى(٧٧حديثاً)،أخرج له الجماعة وأحمد والطبري وغيرهم[2] .

وكان رسول الله ﷺ يردفه خلفه في الغزو أحياناً ومسح رسول الله ﷺ علي وجهه مراراً واستغفر له مراراً، حدث إياس بن سلمة عن أبيه قال: « أردفني رسول الله ﷺ مراراً، ومسح على وجهي مراراً، واستغفر لي مراراً عدد ما في يدي من الأصابع » [3] .

وفاته : استأذن رسول الله ﷺ في البدو، وخرج في آخر حياته إلى الربذة، وقبل وفاته بليال نزل إلى المدينة ، وتوفي سنة أربع وسبعين هجرية ، وكان من أبناء التسعين ، وحديثه من عوالي صحيح البخاري [4] .

[١٤] المسور بن مخرمة رضي الله عنه :

هو المسور بن مخرمة بن نوفل بن أهيب بن عبد مناف بن زهرة بن قصي بن كلاب، الإمام الجليل، أبوعبد الرحمن، وأبو عثمان القرشي الزهري، وأمه عاتكة

---

(١) نفس المصدر (٣ / ٣٢٧-٣٣٠) .
(٢) مدرسة الحديث في القيروان (١ / ٤٩٢) .
(٣) سير أعلام النبلاء (٣ / ٣٣٠) .
(٤) نفس المصدر السابق (٣ / ٣٣١) .

أخت عبد الرحمن بن عوف زهرية أيضاً، له صحبة ورواية، عداده في صغار الصحابة كالنعمان بن بشير، وابن الزبير وكان ممن يلزم عمر ويحفظ عنه، دخل إفريقية ماراً ببرقة وطرابلس مع ابن أبي السرح ، وهو الذي حرض عثمان على غزو إفريقية ، بلغت أحاديثه اثنين وعشرين حديثاً أخرج له أصحاب الكتب الستة وأحمد وغيرهم.

كان كثير الصيام، وكان إذا قدم مكة طاف لكل يوم غاب عنها سبعاً، وصلي ركعتين، وشاهد القادسية مع سعد بن أبي وقاص، وكان من خواص ابن الزبير، وكان ابن الزبير لا يقطع أمراً دون المسور في مكة.

وفاته: قيل قتل في حصار الحجاج لابن الزبير في مكة (سنة ٧٣هـ) ، ورجح الذهبي أن وفاته (سنة ٦٥ هـ) ودفن في مكة [(١)] .

[١٥] سفيان بن وهب الخولاني:

الصحابي المعمر، أبو أيمن الخولاني المصري، اختلفوا في صحبته والصحيح أن له صحبة ورواية، كما ذكر ابن حجر في تعجيل المنفعة وغيره، غزا المغرب زمن عثمان، ودخلها غازياً مرة أخرى (سنة ٦٢ هـ) ، وأميراً (سنة ٧٨ هـ) ، حدث بالقيروان ومن تلاميذه في الشمال الإفريقي مسلم بن يسار، وبكر بن سوادة ، له ثلاثة أحاديث انفرد بها أهل مصر وإفريقية، أخرج له الطبراني في الكبير والحاكم وأبو يعلى، وأحمد وابن منده، وأبو نعيم.

وفاته: قيل (٨٢ هـ) بإفريقية، وقيل: (٩١هـ)

١٦ - بلال بن الحارث المزني، أبو عبد الرحمن:

دخل إفريقية سنة ٢٧هـ ، في غزوة العبادلة، وكان يحمل لواء قومه مزينة، وعدتهم أربعمائة وقيل: ثمانمائة، له صحبه ورواية، أحاديثه ثمانية، روى له الأربعة

---

(١) أسد الغابة (٤/ ٣٩٩) .

(أبو داود، والنسائي، والترمذي، وابن ماجة) وأحمد،ومالك، توفي سنة ٦٠هـ

[١٧] جبلة بن عمرو الأنصاري:

دخل جبلة إفريقية مع معاوية بن حديج، في آخر غزواته سنة ٤٥هـ وبقي بها مدة، لأن هذه الغزوة قد دامت قرابة أربع سنوات حتى إنه أخذ عنه من أهلها خالد ابن أبي عمران وغيره، وكان له أثر في نشر السُّنَّة بالشمال الإفريقي.

[١٨] جرهد بن خويلد الأسلمي:

دخل إفريقية مع ابن أبي سرح، له ثمانية أحاديث، أخرج له البخاري في صحيحه، وأبو داود، والترمذي،والإمام أحمد،وبقي بن مخلد، توفي سنة٦١ هـ

[١٩] الحارث بن حبيب بن خزيمة القرشي العامري:

نزل مصر، منها غزا إفريقية،واستشهد بها في بعض غزوات معاوية ابن حديج.

دخل الشمال الإفريقي في غزوة العبادلة، وقد أمره عثمان ﷺ على الجيش حتي يصلوا إلى عبد الله بن سعد في مصر، له حديث واحد في مسند بقي بن مخلد، وأخرج له الإمام أحمد في مسنده.

[٢٠] حمزة بن عمرو الأسلمي، أبو صالح:

شهد فتح إفريقية، له بها آثار محمودة، له عن النبي ﷺ تسع أحاديث، أخرجة له البخاري، ومسلم، وأبو داود، والنسائي وغيره، من تلاميذه سليمان بن يسار، وقد دخل القيروان بعد ذلك واستقر بها، توفي هذا الصحابي الجليل سنة ٦١ هـ

[٢١] خالد بن ثابت الفهمي:

دخل إفريقية مرتين: الأولى مع ابن حديج (سنة ٤٥هـ) والثانية أميراً عليها من قبل مسلمة بن مخلد سنة ٤٥ هـ، وكان خالد ولي الإمارة على عهد عمر وغيره، ولم أعثر على من نسب له رواية عن النبي ﷺ.

[٢٢] ربيعة بن عباد الدؤلي :

صحب النبي ﷺ وروى عنه، شهد غزوة إفريقية مع عبد الله بن سعد، وله بها آثار، له خمس أحاديث، أخرج له الطبراني في الكبير، وأحمد في المسند، توفي سنة ٩٥ هـ.

[٢٣] أبو رمثة البلوي :

لم يذكر تاريخ دخول أبي رمثة إلى إفريقية، وأجمعوا على صحبته ووفاته بها، كان له عن النبي ﷺ ثمانية أحاديث، أخرج له أبو داود، والترمذي، والنسائي، وأحمد.

[٢٤] زياد بن الحارث الصدائي :

له صحبة ورواية، وبعد في المصريين وأهل المغرب، دخل إفريقية وشهد فتوحاتها، ولم يذكر التاريخ زمن دخوله، وله عن النبي ﷺ أربعة أحاديث.

[٢٤] أبو زمعة البلوي :

اشتهر بكنتيه، وقد اختلفوا في اسمه اختلافاً كثيراً، والأكثر علي أنه عبيدة ابن أرقم دخل إفريقية مع ابن حديج سنة ٤٥ هـ، وتوفي بها، وسميت مقبرة البلوية في القيروان باسمه، وقد ذكروا أن قلنسوته دفنت معه وفيها من شعر رسول الله ﷺ، له حديثان، أخرج له البغوي في معجمه، وأبو نعيم في معرفة الصحابة، وابن عبد الحَكَم في فتوحه.

[٢٦] سلكان بن مالك :

ذكر فيمن غزا المغرب من الصحابة ، ولم يحددوا تاريخ دخوله، ولم يسندوا إليه رواية.

[٢٧] أبو خبيس البلوي :

غزا إفريقية وعداده في المصريين من الصحابة، له حديث واحد.

[٢٨] عبد الله بن أنيس الجهني :

أبو يحيى المدني حليف الأنصار، شهد فتح إفريقية مع ابن أبي سرح، له ٢٤ حديثاً، أخرج له مسلم، والأربعة، ومالك، أحمد، والبخاري في الأدب المفرد، وتوفي سنة (٥٤ هـ) .

[٢٩] قيس بن يسار بن مسلم الكناني :

نقل المالكي في « رياض النفوس » عن بن يونس أن قيساً هذا صحابي، وذكر أنه دخل إفريقية مع عقبة بن نافع (سنة ٥٠ أو ٦٢ هـ) وله عقب بإفريقية : منهم : أبو محيريز القاضي .

[٣٠] أبو لبابة الأنصاري :

اختلفوا في اسمه كثيراً، فقيل: بشر، وقيل: رفاعة بن المنذر، وقيل: غير ذلك له خمسة عشر حديثاً، أخرج له البخاري، ومسلم وأبو داود، وابن ماجة، اختلفوا في تاريخ وفاته، والقبر الذي فوق مقبرة قابس بتونس قبره، وقيل: توفي سنة ٤٠ هـ ، أما الإمام ابن حبان فقال: إنه توفي في المدينة .

[٣١] مسعود بن الأسود البلوي :

غزا إفريقية، عداده في أهل مصر، وهو الذي استأذن عمر في غزو إفريقية، وحديثه عند أهل القيروان من طريق علي بن رباح الذي سكن القيروان .

[٣٢] المسيب بن حزن القرشي المخزومي أبو سعيد :

شهد فتح إفريقية مع ابن أبي سرح، له سبعة أحاديث، لم يرو عنه غير ابنه سعيد بن المسيب، وهو من سادة التابعين، أخرج له البخاري، ومسلم، وأبو داود، والنسائي، وأحمد، وبقي بن مخلد .

[٣٣] المطلب بن أبي وداعة السهمي :

غزا إفريقية مع عبد الله بن أبي سرح في جمع من بني سهم كما ذكر ابن

يونس وغيره ، له تسعة أحاديث ، أخرج له مسلم، والأربعة ، ومالك ، وأحمد ، وغيرهم.

[٢٤] المنذر الأسلمي الإفريقي:

نسب إلى إفريقية لكونه سكنها وتوفي بها، واختص أهلها بحديث، من طريق أبي عبد الرحمن الحبلي، دفن في طرابلس وقبره مشهور [١] .

ونكتفي بذكر هذا الكم من الأخيار الذين دخلوا وشاركوا في فتح الشمال الإفريقي، بل منهم من قد ساهم مساهمة مباشرة في بناء مدينة القيروان، وأقاموا صرح الإسلام الشامخ في ربوع البلاد، وفي قلوب العباد، ونشروا علوم القرآن وعلوم سُنَّة النبي ﷺ القولية والفعلية، كما تلقوها عن الرسول ﷺ .

وأخيراً : ننقل لك بعض الأبيات من نونية القحطاني ،أي محمد عبد الله بن محمد القحطاني الأندلسي في مدحه لصحابة رسول الله ﷺ :

قال: إن خير الأنبياء محمد	وأجل من يمشي على الكثبان
وأجل صحب الرسل صحب محمد	وكذاك أفضل صحبه العمران
رجلان قد خلقا لنصر محمد	بدمي ونفسي ذانك الرجلان
فهما اللذان تظاهرا لنبينا	في نصره وهما له صهران
بنتاهما أسنى نساء نبينا	وهما له بالوحي صاحبتان
أبواهما أسنى صحابة أحمد	يا حبذا الأبوان والبنتان
وهما وزيراه اللذان هما هما	لفضائل الأعمال مستبقان
وهما لأحمد ناظراه وسمعه	وبقربه في القبر مضطجعان
كانا على الإسلام أشفق أهله	وهما لدين محمد جبلان

---

(١) راجع مدرسة الحديث في القيروان (٢/ ٤٩٥-٥٠١)وتجدر الإشارة بان الشيخ الحسين بن محمد بن شواط في كتابه القيم مدرسة الحديث في القيروان، قد ذكر خمسة وأربعين صحابياً باسمائهم إلا أني اكتفيت بذكر هؤلاء، ومن أراد المزيد فليراجع هذا المصدر القيم.

أصفاهما أقواهما أخشاهما ... أتقاهما في السر والإعلان

أسناهما أزكاهما أعلاهما ... أوفاهما في الوزن والرجحان

صديق أحمد صاحب الغار الذي ... هو في المغارة والنبي اثنان

أعني: أبا بكر الذي لم يختلف ... من شرعنا في فضله رجلان

هو شيخ أصحاب النبي وخيرهم ... وأمامهم حقاً بلا بطلان

وأبو المطهرة التي تنزيهها ... قد جاءنا في النور والفرقان

أكرم بعائشة الرضى من حرة ... بكر مطهرة الإزار حصان

هي زوج خير الأنبياء وبكره ... وعروسه من جملة النسوان

هي عرسه هي أنسه هي إلفه ... هي حبه صدقاً بلا أدهان

أو ليس والدها يصافي بعلها ... وهما بروح الله مؤتلفان

لما قضى صديق أحمد نحبه ... دفع الخلافة للإمام الثاني

أعني به الفاروق فرق عنوة ... بالسيف بين الكفر والإيمان

هو أظهر الإسلام بعد خفائه ... ومحا الظلام وباح بالكتمان

ومضي وخلى الأمر شورى بينهم ... في الأمر فاجتمعوا على عثمان

من كان يسهر ليله في ركعة ... وتراً فيكمل ختمة القرآن

ولي الخلافة صهر أحمد بعده ... أعني علي العالم الرباني

زوج البتول أخا الرسول وركنه ... ليث الحروب منازل الأقران

سبحان من جعل الخلافة رتبة ... وبنى الأمامة أيما بنيان

واستخلف الأصحاب كي لا يدعي ... من بعد أحمد في النبوة ثاني

أكرم بفاطمة البتول وبعلها ... وبمن هما لمحمد سبطان

غصنان أصلهما بروضة أحمد ... لله در الأصل والغصنان

أكرم بطلحة والزبير وسعدهم ... وسعيدهم وعابد الرحمن

وأبي عبيدة ذي الديانة والتقى ... وامدح جماعة بيعة الرضوان

قل خير قول في صحابة أحمد ... وامدح جميع الآل والنسوان

دع ما جرى بين الصحابة في الوغي ... بسيوفهم يوم التقى الجمعان

فقتيلهم منهم وقاتلهم لهم ... وكلاهما في الحشر مرحومان

والله يوم الحشر ينزع كل ما ... تحوي صدورهم من الأضغان

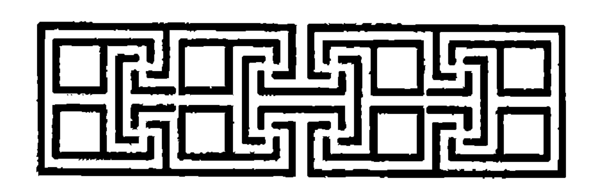
والويل للركب الذين سعوا إلى ... عثمان فاجتمعوا على العصيان

ويل لمن قتل الحسين، فإنه ... قد باء من مولاه بالخسران

لا تركنن إلى الروافض إنهم ... شتموا الصحابة دون ما برهان

لعنوا كما بغضوا صحابة أحمد ... وودادهم فرض علي الإنسان

حب الصحابة والقرابة سنة ... ألقى بها ربي إذا أحياني [(١)]



(١) نونية القحطاني (٢١-٢٥).

الخلاصة :

[١] **إن الباحث المسلم للتاريخ عليه أن يهتم باللب والغاية في دراسة التاريخ** : مع الاعتناء بالأخبار وتحقيقها والتركيز على العلل والأسباب مع تفسير هذه الحوادث والاهتداء إلى الروابط التي تجمع بينها وتجعل منه وحدة متماسكة الحلقات متفاعلة الجزئيات.

[٢] **إن علم التاريخ لا ينفصل عن علوم الشريعة** : بل هو فرع من فروعها يغرف منه المربون في مجال التربية والسلوك، والحديثيون في ميدان علم الرجال،والجرح والتعديل، وقد استخدمه علماء الحديث في دحض حجج الكذابين والوضاعين.

[٣] **إن فوائد علم التاريخ كثيرة جداً منها** : التربية بالأحداث وتنمية السلوك النافع والتأثر بالقدوات، واستيعاب الربانية في حياة الشعوب والأمم والدول والمجتمعات.

[٤] **من أهم السُنن التي تظهر لدارس التاريخ** : سوء عاقبة المكذبين، وسُنة إناطة التغيير البشري بالبشر، وسنة الأيام سجال بين الناس، وسُنة زوال الأمم بالعلو والطغيان، وسُنة هلاك الأمم بالظلم، والإجحاف ، وسنة لكل أمة أجل ، وسُنة نصر الله للمؤمنين، وسُنة ابتلاء المؤمنين، وسُنَّة التدافع بين الحق والباطل، وغير ذلك من السنن.

[٥] **ومن فوائد دراسة التاريخ، التعرف علي معالم تاريخ الإنسانية مثل :** معرفة تاريخ الأنبياء، معرفة سيرة النبي ﷺ ، والتعرف على تاريخ الخلفاء الراشدين، والتعرف على سير العلماء والمجاهدين والدعاة، ومعرفة أثر الإسلام في حياة البشرية.

[٦] **إن دراسة التاريخ تعين الباحث المسلم على التأكيد على جملة من الحقائق الهامة في حياة البشرية مثل** : أول شيء عرفته البشرية هو

توحيد الله، وحقيقة أن الله خالق كل شيء، وحقيقة أن الإنسان خُلِقَ سوياً، وحقيقة أن الإنسان يحتاج إلى الذكرى والصبر على المشاق.

[٧] **إن دراسة التاريخ تكسب القادة العاملين تجارب ضخمة** : في سياسة الدول والأمم والشعوب، وتفتح لهم أبواباً في السياسة الشرعية وعلم المقاصد والمصالح والمفاسد.

[٨] **إن دراسة التاريخ تُكسب الإنسان حصانة فكرية** : بمنهج أهل السُنَّة والجماعة تحفظه من البدع والأهواء وتعين المسلم الحريص علي فهم ومعرفة القرون الفاضلة لتكون نبراساً له في حياته المعاصرة.

[٩] **إن دارسة التاريخ تكسب الباحث مقدرة خاصة لتفسير الحوادث الإنسانية** : وتستمد هذه المنهجية من عقيدة الأمة وكتاب ربها وسُنة نبيها ﷺ ولها طرق خاصة بها في إثبات الحوادث التاريخية تعتمد علي الدقة والدليل والبرهان.

[١٠] **إن من سمات المنهج العلمي في كتابة التاريخ الإسلامي** : استعمال الدليل والوثيقة بعد التأكد منهما، وحسن الاستدلال والتنظيم والترتيب، والإيمان الكامل، بكل ما دل عليه الكتاب والسُنة، ومن ذلك الإيمان بالغيب، وبالجزاء والحساب، والقضاء والقدر، ورد كل ما خالفهما وغير ذلك من السمات.

[١١] **إن كتابة التاريخ الإسلامي له غاية ووسائل تحققه** : ومن أسمى غاياته وأهدافه الارتباط بالعقيدة الإسلامية في تصوراتها وأحكامها، كما أن المنهج التاريخي يعتبر وسيلة من وسائل تثبيت العقيدة وتحقيقها في الواقع العملي، كما ينبه للأخطاء والانحرافات التي وقع بها المسلمون ويحاول أن يربيهم من خلال الأحداث والتنبيه علي ترك الانحراف

والالتزام بالاستقامة، كما يهتم المنهج الإسلامي في كتابه التاريخ ببيان فساد التصورات والعقائد الجاهلية، وتعريتها ببيان تناقضها ليحذر المسلم.

[١٢] **إن من وسائل تحقيق المنهجية في كتابة التاريخ** : التصور الصحيح المستمد من الشريعة ومن مصادرها المتعددة ثم الرجال الأمناء الصادقون الذين يحملون التصور ، ويعملون علي تحقيقه في واقع حياتهم.

[١٣] **إن في منهج كتابة التاريخ الإسلامي قواعد في التصور،والاعتقاد من أهمها** : الإيمان بوحدة الأمة الإسلامية ، ووحدة التاريخ الإسلامي، ووحدة الحضارة الإسلامية، ولا بد من الفهم الصحيح لعقيدة الإيمان بالغيب ومعرفة حق الصحابة وتميز أهل القرون الأولى، وكذلك لا بد من التأكيد في التفريق بين أخطاء البشر وأحكام الإسلام.

[١٤] **إن أهم قواعد المصادر في كتابة التاريخ** : اعتماد المصادر الشرعية وتقديمها علي كل مصدر، إذ أن التاريخ الإسلامي جزء لايتجزأ من الدراسات الإسلامية، وهو تاريخ أمة ذات عقيدة محركة ، حضارة متميزة، وأخلاق إنسانية انبثقت عن تلك العقيدة الصحيحة.

[١٥] **إن من أشهر علماء الأمة في كتابة التاريخ** : الإمام أبا جعفر بن حرير الطبري، وخليفة بن خياط ، وابن كثير، وابن خلدون وقد شقوا هذا الطريق وتركوا لنا تراثاً متميزاً في هذا المجال.

[١٦] **لقد سكن الشمال الإفريقي أجناس عدة من البشر أهمها** : البرابرة والرومان والأفارقة والإفرنج.

[١٧] **إن من أهم الديانات التي انتشرت في الشمال الإفريقي قبل الفتح الإسلامي** : النصرانية، والمجوسية، والوثنية.

[١٨] **إن لفظة الشمال الإفريقي تطلق على الإقليم** : الذي يبدأ من نهاية الحدود المصرية غربًا إلى المغرب الأقصى غرباً، وتدخل فيه كل من ليبيا وتونس والجزائر والمغرب وموريتانيا.

[١٩] **إن الحضارات القديمة عاشت ونمت وازدهرت في الشمال الإفريقي ومن أهمها** : حضارة السكان الأصلية من البرابرة، ومن الحضارات الوافدة : الفنيقية والقرطاجنية والرومانية والوندالية والإغريقية والنوميدية، إلا أنها اندثرت وتركت لنا معالم وآثاراً تعين علي مبدأ الاعتبار والاتعاظ بالأقوام السابقة.

[٢٠] **لقد استفحل أمر النصرانية في الشمال الإفريقي** : إلا أن التفرقة العقيدية والمذاهب الفكرية، والصراعات المذهبية الحادة مزقته، وخصوصاً الصراع العنيف الذي نشب بين الأرثوذكسية البيزنطية والكاثوليكية الرومانية وكان هذا الصراع من أهم عوامل ضعف الدولة القائمة مما جعل أهالي الشمال الإفريقي يقومون بضربات مسددة ضد النصرانية المنحرفة ويتمردون على دولتها المتعسفة ويتطلعون إلى الدين الصحيح لترتوي من ينابيعه المنعشة.

[٢١] إن موقع ليبيا الاستراتيجي جعلها حلقة وصل بين جنوب البحر المتوسط وداخل إفريقية، فأهل ليبيا احترفوا التجارة منذ أزمان موغلة في القدم.

[٢٢] إن تلك الأمم والدول والشعوب التي سكنت الشمال الإفريقي مضت فيها سُنَّة الله التي لا تتبدل ولا تتغير، ويحتاج الدارس للتاريخ أن يقف وقفة متأمل معتبر، ومتعظ خائف، ومفكر دقيق.

[٢٣] **إن دعاوي المستشرقين في حركة الفتح الإسلامي بعيدة عن الدليل وخاوية من البرهان** : و تتهاوى أمام الحقائق الساطعة والأدلة الناصعة

والنقد الموضوعي، والبحث التحليلي المبني على المنهجية العلمية والمعرفة التاريخية الصحيحة.

[٢٤] **يشهد التاريخ أن أهالي برقة قبلوا دعوة الإسلام بدون مقاومة** : وإنما برضى وتسليم لدين الفطرة، وكانت برقة القاعدة الأصلية في غزوات الفتح والدرع الحصين عند الملمات، ونقطة الانطلاق والتوغل في الشمال الإفريقي ومجاهيل الصحراء الكبرى.

[٢٥] إن الصحابي الجليل والقائد الأعلى للفتوحات في الشمال الإفريقي عمرو بن العاص ﷺ تعرض لحملات مشينة لتلطيخ سيرته العطرة، ولقد وجهت قذائف الحق وصواريخ الإيمان إلى تلك الحملات وبينت سلامته مما نسب إليه وأنها بهتان وظلم وزور.

[٢٦] إن عدالة الصحابيين الجليلين أبي موسى الأشعري ، وعمرو بن العاص تقوم على أُسس علمية وحقائق تاريخية وأدلة دامغة، وبراهين ساطعة.

[٢٧] إن عمرو بن العاص ﷺ توقف في فتوحاته عند طرابلس بأمر من الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ﷺ.

[٢٨] إن عثمان ﷺ الخليفة الثالث أمر عبد الله بن أبي سرح ﷺ بمواصلة الفتح بعد أن جمع الصحابة واستشارهم في المدينة، وأشاروا عليه بفتحها إلا أن سعيد ابن زيد خالف رأي الصحابة متمسكاً برأي عمر ﷺ في ألا يغزو إفريقية أحد من المسلمين.

[٢٩] **لقد تولى قيادات حملات الفتح الإسلامي للشمال الإفريقي قادة عظام** : تميزوا بالقدرة القيادية، والكفاءة الحربية، وتحلوا بالروح العالية في نشر الإسلام ودعوته، والجهاد في سبيله مدة زمنية زادت عن سبعين سنة.

[٣٠]**كان قادة الفتح على التوالي هم**: عمرو بن العاص، وعبد الله بن سعد، ومعاوية بن حديج، وعقبة بن نافع، وأبو المهاجر دينار، وزهير بن قيس البلوي، وحسان بن النعمان الغساني، وموسى بن نصير اللخمي، وكانت سيرة كل قائد من هؤلاء مليئة بالدروس والعبر والحكم، والتخطيط البعيد.

[٣١]**من أشهر معارك الشمال الإفريقي** : حتى زمن حسان معركة سبيطلة بإفريقية وقعت بين عبد الله بن سعد، والقائد الرومي « جرجير » وانهزم فيها الجيش البيزنطي، وقتل قائدهم جرجير.

[٣٢]**ومعركة قمونية** :بالقرب من القيروان حالياً نشبت بين القائد معاوية بن حديج وجيش الروم بقيادة نقفور، انهزم فيهاجيش الروم وقتل قائدهم.

[٣٣]**معركة تهوذة** :وقعت بين عقبة بن نافع، وكسيلة، وانهزم فيهاجيش المسلمين، واستشهد القائد الفاتح العظيم عقبة بن نافع، بتهوذة.

[٣٤]**معركة ممس** : « تقع بين القيروان وبين ولاية تبسة » نشبت بين القائد الصحابي زهير بن قيس البلوي، وكسيلة انهزم فيه جيش قبيلة (أوربة).

[٣٥]**معركة وادي مسكيانة** : وقعت بشرق الجزائر بين القائد حسان بن النعمان والكاهنة انتصرت الكاهنة على حسان.

[٣٦]**معركة بئر الكاهنة** : وقعت بين حسان بن النعمان وجيش الكاهنة انتصر فيها حسان، وقتلت الكاهنة عام ٨٢ هـ.

[٣٧]**ومن معارك الأندلس الخالدة** : في تلك المرحلة معركة جزيرة طريف بين المسلمين بقيادة طريف بن مالك وبين القوط الإسبان عام ٩١هـ.

[٣٨]**معركة جبل طارق** :وقعت بين جيش طارق بن زياد والحامية المسيحية

القوطية، وانتصر فيها طارق وفتح الجبل الذي سمي باسمه حتى الآن، وكان ذلك عام ٩٢ هـ .

[٣٩] **معركة «وادي لكة أو شذونة»** : وقعت بين طارق بين زياد، والملك القوطي لذريق ، انتصر فيها المسلمون، وكانت عام ٩٢ هـ ، وتعتبر هذه المعركة حاسمة، لأنها فتحت أبواب الأندلس للمسلمين.

[٤٠] لقد استقر الإسلام فعلياً في الشمال الإفريقي في عهد الخليفة المصلح عمر بن عبد العزيز، ولقد ساعدت بعثة الفقهاء العشرة التي أرسلها عمر بن عبد العزيز على تثبيت العقيدة الإسلامية، وتطهير النفوس، وتعليم الناس كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ .

[٤١] لقد كان بجانب كتائب الجهاد المسلح سرايا وجنود من كبار الصحابة الفقهاء العلماء، ساهموا في فتح الشمال الإفريقي، ومن أشهرهم الحسن والحسين ابنا علي، وأبو ذر الغفاري ، والمقداد بن عمرو ، وعبد الله بن عباس، وابن عمر، وابن مسعود، وغيرهم كثير، وكان لهم أثر في نشر السُّنَّة والعلوم الإسلامية بين أهالي الشمال الإفريقي .

[٤٢] إن أمة الإسلام التي حملت دينها لتشعه علي أهالي الشمال الإفريقي حملت معها حضارة متميزة عن حضارات الشمال الإفريقي التي قبلها والتي كانت وثنية أو ذات ديانة منحرفة عن الصراط المستقيم، ولذلك ظهرت أخلاق وضيعة في سلوكهم ومارسوا على أهالي الشمال الإفريقي ظلماً عظيماً وعسفاً وخيماً وكان دافعهم هو الطمع في خيرات البلاد الكثيرة، وحملوا عنهم ديانة عبادة الأوثان والانغماس في الشهوات، فانطمست البصائر وزاغت الأبصار وضاع التوحيد، ونزلوا في درجة أحط من منزلة الحيوانية، وجرت فيهم وسُنَّة الله في أخذ من

يقع في الذنوب والمعاصي والشرك ويبتعد عن منهج الله ونداء الفطرة.

[٤٣] إن عظمة الفتوحات الإسلامية تظهر إذا قارنتها مع من سبق في الشمال الإفريقي من الغزاة الطامعين.

[٤٤] إن كل الجيوش الإسلامية التي دخلت الشمال الإفريقي كان داعيها ومحركها في حركة الجهاد العقيدة والحرص على هداية الناس وإزالة العوائق التي تحول بينهم وبين دين الفطرة.

[٤٥] إن الدولة الإسلامية منذ عصورها الأولى حرصت على الامتداد الطبيعي وضم الشمال الإفريقي لحظيرتها الميمونة.

[٤٦] إن أهالي البلاد انصهروا مع الفاتحين في محاضن الإسلام العظيمة وحملوا لواء الإسلام والدفاع عنه والتوسع من أجل الدعوة في سبيله.

[٤٧] لقد ظهر دور العلماء والمحدثين والفقهاء من الصحابة والتابعين في إدخال القبائل في الإسلام وتعليمها وتزكيتها.

[٤٨] إن حركة المد والجزر والتوسع والانكماش في الفتوحات الإسلامية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً باستقرار الخلافة والتغلب علي الفتن الداخلية.

[٤٩] إن البحر المتوسط أصبح ببركة الفتح الإسلامي بحراً إسلامياً تابعاً للخلافة.

وهذه بعض النتائج التي وصلت إليها وقد ملت إلى الاختصار الشديد خوفاً من الإطالة والإطناب .

وأسأل الله العلي العظيم رب العرش الكريم أن يتقبل هذا الجهد المتواضع قبولاً حسناً وأن يبارك فيه وأن يجعله من أعمالي الصالحة التي أتقرب بها إليه، وأختم الكتاب الأول بقول الله تعالى: ﴿ **رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [الحشر: ١٠] .

وبقول الشاعر:

أنا الفقير إلى رب البريات — أنا المسكين في مجموع حالاتي

أنا الظلوم لنفسي وهي ظالمتي — والخير إن يأتينا من عنده يأتي

لا أستطيع لنفسي جلب منفعة — لا عن النفس لي دفع المضرات

والفقر لي وصف ذات لازم أبداً — كما الغني أبداً وصف له ذاتي

وهذه الحال حال الخلق أجمعهم — وكلهم عنده عبد له آتي

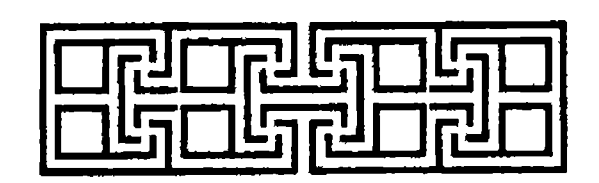
«سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك».

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

كتبه

علي محمد محمد الصلابي

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين



أهم مراجع هذا الكتاب

[١] أثر الحديث في نشأة التاريخ عن المسلمين د. بشار عواد، طبعت في بغداد، سنة ١٩٦٦م.

[٢] إعادة كتابة تاريخ صدر الإسلام د. أكرم ضياء العمري، محاضرة مطبوعة على الآلة الكتابة.

[٣] اختصار علوم الحديث الشيخ إسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق محمد إبراهيم البنا وزميله، ط: دار الشعب بمصر.

[٤] إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان لمحمد بن أبي بكر الزرعي، المشهور بابن قيم الجوزية، تصحيح محمد حامد الفقي، دار المعرفة، بيروت

[٥] أسد الغابة لمعرفة الصحابة لأبي الحسن علي بن محمد الجزري، دار الفكر، طبعة ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.

[٦] البداية والنهاية في التاريخ- عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي – م طبعة السعادة – القاهرة.

[٧] البيان المغرب في أخبار المغرب-أبو عبد الله محمد بن عذارى المراكشي، مكتبة صادر، بيروت.

[٨] البدر الطالع، محمد بن علي الشوكاني، نشر دار الباز، بمكة.

[٩] التاريخ والحضارة الإسلامية، أحمد شلبي، طبعة مكتبة وهبة.

[١٠] الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، أحمد بن خالد الناصري السلاوي – القاهرة – ١٣١٠هـ.

[١١] الاستيعاب في معرفة الأصحاب، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر، تحقيق علي محمد البجاوي، مطبعة نهضة مصر.

[١٢]الإصابة في تمييز الصحابة ، شهاب الدين أبوالفضل أحمد بن علي بن محمد علي الكناني العسقلاني المعروف بابن حجر العسقلاني، المطبعة الشرقية.

[١٣]العبر ، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق فؤاد سيد، مطبعة الكويت. ١٩٦١م.

[١٤]الصحاح ، إسماعيل الجوهري، تحقيق أحمد عبد الغفور، الطبعة الثانية، دار العلم للملايين، بيروت.

[١٥]الأعلام ، لخير الدين الزركلي، دارالعلم للملايين، طبعة سنة ١٩٧٩م.

[١٦]الكامل في التاريخ ، لعلي بن محمد الشيباني، دار صادر، بيروت.

[١٧]المسالك والممالك ، أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي الإصطخري المعروف بالكرفي، تحقيق د. محمد جابر عبد العال الحسيني، مطابع دار القلم، القاهرة ١٣٨١هـ.

[١٨]القيادة العسكرية في عهد الرسول ﷺ ، د. عبد الله بن محمد الرشيد، دار القلم، الطبعة الأولى. ١٤١٠هـ/١٩٩٩م.

[١٩]الطبقات الكبرى ، محمد بن سعد بن منيع البصري الزهري، دار صادر، بيروت، لبنان، ١٣٧٦هـ/١٩٥٧م.

[٢٠]العواصم من القواصم ، لأبي بكر بن العربي، مكتبة السنة، الطبعة الخامسة، ١٤٠٨هـ، عابدين. القاهرة.

[٢١]الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني ، للشيخ أحمد عبد الرحمن البنا، دار الشهاد، القاهرة.

[٢٢]المختصر في علم التاريخ ، لمحمد بن سليمان الكافيجي، مكتبة المثنى، بغداد، ١٩٦٣م.

[٢٣]الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ، محمد عبد الرحمن السخاوي، دار الكتاب العربي، حققه حسام المقدسي.

[٢٤] تاريخ الأمم والملوك، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ١٣٥٨هـ.
[٢٥] تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق د. أكرم ضياء العمري، مؤسسة الرسالة،دار القلم، ط٢، سنة ١٣٩٧هـ.
[٢٦] تذكرة الحفاظ، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تصحيح عبد الرحمن المعلمي، دار إحياء التراث العربي.
[٢٧] تفسير التاريخ الإسلامي، د. عماد الدين خليل، الطبعة الأولى، ١٩٧٥م، دارالعلم للملايين.
[٢٨] تدريب الراوي، جلال الدين عبد لرحمن بن أبي بكر، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف، الطبعة الثانية، دارالكتب الحديثة.
[٢٩] تفسير القرآن الكريم، إسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق محمد إبراهيم البنا وزميله، طبعة دار الشعب بمصر.
[٣٠] تاريخ بغداد، أحمد بن علي بن ثابت البغدادي ، المكتبة السلفية بالمدينة.
[٣١] تاريخ المغرب العربي ، سعد زغلول عبد الحميد ، القاهرة (١٩٦٥م .
[٣٢] تاريخ الفتح العربي في ليبيا، للطاهر أحمد الزاوي، دارالتراث العربي، ليبيا، الطبعة الثالثة.
[٣٣] تاريخ ليبيا، جون رايت، كتاب مصور، دار الفرجاني، طرابلس، الطبعة الأولى، ١٩٧٢م.
[٣٤] تحقيق مواقف الصحابة في الفتن، د. محمد محزون، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ- ١٩٩٤م.
[٣٥] تهذيب الأسماء واللغات، الإمام النووي، المطبعة المنبرية، مصر.
[٣٦] جمهرة أنساب العرب، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم، تحقيق وتعليق عبد السلام هارون، مطبعة المعارف، القاهرة، ١٣٨٢هـ.

[٣٧] جامع بيان العلم وفضله، ليوسف بن عبد البر النمري القرطبي، دارالكتب الحديثة.

[٣٨] جامع الرسائل، للشيخ أحمد عبد السلام بن تيمية الحراني، تحقيق محمد رشاد سالم، مطبعة المدني.

[٣٩] جوامع السير، لأبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم، تحقيق د. إحسان عباس، د. ناصر الدين الأسد، مراجعة أحمد محمد شاكر، طبعة إدارة إحياء السُنَّة .

[٤٠] حسن البيان عما بلغته إفريقيا في الإسلام من السطوة والعمران ، محمد النيفر، المطبعة التونسية ، ١٣٥٣هـ.

[٤١] دواعي الفتوحات الإسلامية وداوي المستشرقين ، د. جميل عبدالله المصري.

[٤٢] دراسات إسلامية ، سيد قطب، طبعة دارالشروق .

[٤٣] رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم وعبادهم ونساكهم وسير أخبارهم وفضائلهم لأبي عبد الله بن أبي عبد الله المالكي، نشره الدكتور حسين مؤنس، القاهرة، ١٩٥١م.

[٤٤] سير أعلام النبلاء ، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقق الدكتور صلاح الدين المنجد، مطبعة المعارف، القاهرة.

[٤٥] سيرة النبي ﷺ ، أبو محمد عبد الملك بن هشام، مطبعة حجازي، القاهرة، ١٣٥٦م.

[٤٦] سنن ابن ماجة ، محمد بن إسماعيل القزويني، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي، الحلبي، بمصر.

[٤٧] سلسلة الأحاديث الصحيحة ، محمد ناصر الدين الألباني، طبع المكتب الإسلامي.

[٤٨] سُنن أبي داود، سليمان بن أشعث السجستاني، تحقيق محيي الدين عبد الحميد، طبع دارالفكر، بيروت.

[٤٩] سُنن الترمذي، محمد بن عيسى، تحقيق أحمد شاكر، دار إحياء التراث.

[٥٠] شذرات الذهب، ابن العماد الحنبلي، مطبعة القدس، القاهرة، ١٣٥٠هـ.

[٥١] طبقات ابن سعد، محمد بن سعد،دار صادر، بيروت، ١٣٧٦هـ.

[٥٢] صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج القشيري، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء التراث العربي.

[٥٣] صفة الصفوة، للإمام أبي الفرج ابن الجوزي، دارالمعرفة، بيروت.

[٥٤] علم التاريخ عند العرب، عبد الحميد العبادي، فصل ملحق بعلم التاريخ، لجنة التأليف والترجمة بالقاهرة.

[٥٥] علم التاريخ عند المسلمين، فرانز روزنثال، ترجمة صالح أحمد العلي، طبعة مكتبة المثني، بغداد.

[٥٦] عقيدة أهل السُنَّة والجماعة في الصحابة الكرام، د. ناصر بن علي، مكتبة الرشيد، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.

[٥٧] عبد الله بن مسعود، أعلام المسلمين، عبدالستار الشيخ، دارالقلم، دمشق، الطبعة الثالثة، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

[٥٨] فتح المجيد شرح كتاب التوحيد، للشيخ عبد الرحمن بن حسن الشيخ، الطبعة الخامسة، ١٢٩١هـ.

[٥٩] فاتح الأندلس، طارق بن زياد، شوقي أبو خليل، دار الفكر، الطبعة الرابعة، ١٩٨٠م.

[٦٠] في التاريخ فكرة ومنهاج، لسيد قطب، الدارالسعودية للنشر، جدة، ط١، ١٣٨٧هـ.

[٦١] فتوح مصر والمغرب، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبدالحكم القرشي، مطابع لجنة البيان العربي.

[٦٢] فتح الباري شرح صحيح البخاري ، المكتبة السلفية، القاهرة .

[٦٣] قصائد الزهد ، محمد أحمد السيد ، مكتبة السوادي للتوزيع، الطبعة الثالثة، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

[٦٤] قادة فتح المغرب العربي ، محمود شيت خطاب، دارالفكر، الطبعة السابعة، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

[٦٥] في ظلال القرآن ، لسيد قطب، دار الشروق، بيروت.

[٦٦] فتح العرب للمغرب ، حسين مؤنس، القاهرة، ١٩٤٧م.

[٦٧] لمحات في التربية ، محمد أمين المصري،طبع دار الفكر، بيروت، ط٤ ،سنة ١٣٩٨هـ.

[٦٨] لسان العرب لابن منظور، قدم له عبد الله العلايلي، إعداد وتصنيف يوسف خياط، طبعة دار لسان العرب، بيروت.

[٦٩] ليبيا منذ الفتح العربي حتي انتقال الخلافة الفاطمية إلي مصر ، د. صالح مصطفى مفتاح المزيني، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، الطبعة الثالثة، ١٩٩٤م.

[٧٠]لسان الميزان ، أحمد بن علي العسقلاني، ط٢ ، دار الأعلمي للمطبوعات، بيروت.

[٧١]اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ، محمد فؤاد عبد الباقي، نشر دارالباز ، بمكة.

[٧٢]منهج كتابة التاريخ الإسلامي ، محمد صامل العلياني السلمي، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

[٧٣]مقدمة ابن خلدون لعبد الرحمن بن خلدون ، دا رإحياء التراث العربية ، بيروت.

[٧٤] مفاتيح العلوم لمحمد بن أحمد بن يوسف الخوارزمي، الطبعة الثالثة، سنة ١٤٠١هـ، مكتبة الكليات الأزهرية ، بمصر.

[٧٥] مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني، طبعة دار صادر، بيروت.

[٧٦] مجموع الفتاوى، لأحمد بن عبد الحليم الحراني، الطبعة الثانية، مكتبة ابن تيمية.

[٧٧] مناقب عمر بن الخطاب، عبد الرحمن بن علي بن الجوزي ، تحقيق الدكتورة زينب القاروط، الطبعة الأولى، دارالكتب العلمية، بيروت.

[٧٨] مدرسة الحديث في القيروان، الحسين بن محمد شواط، الدار العالمية للكتاب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.

[٧٩] ميزان الاعتدال، محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق علي البجاوي، دارالمعرفة، بيروت.

[٨٠] معجم ما استعجم، للبكري ، لجنة التأليف والترجمة والنشر، الطبعة الأولى، ١٦٦٤هـ/١٩٦٨م.

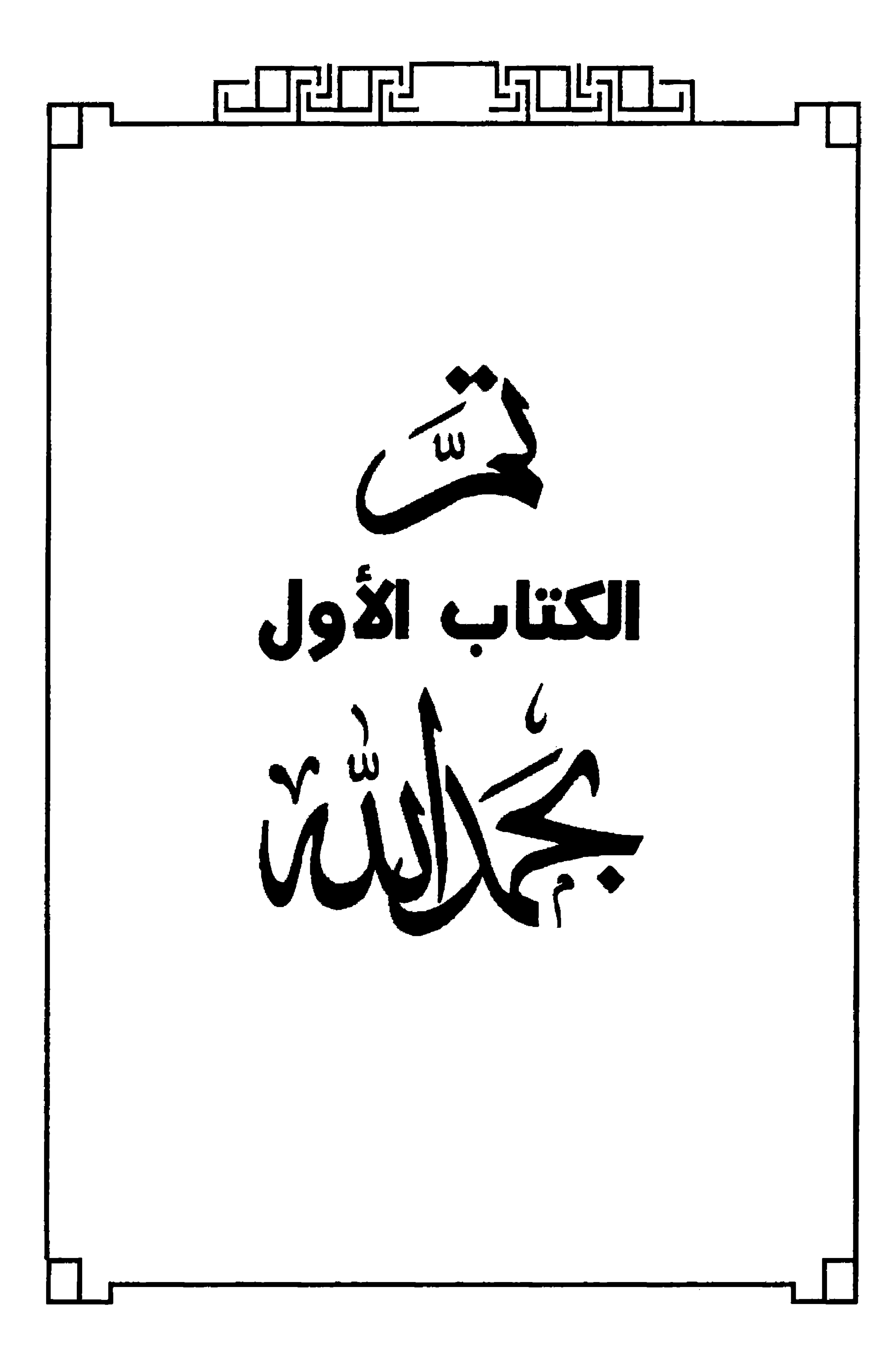
[٨١] معجم البلدان الليبية، لطاهرالزاوي، الطبعة الأولى، طرابلس، ليبيا، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م.

[٨٢] نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، أبو العباس أحمد القلقشندي، القاهرة، ١٩٥٩م. الطبعة الأولى.

[٨٣] نفح الطيب أحمد بن محمد المقري التلمساني، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٣٦٧هـ، الطبعة الأولى.

[٨٤] نونية القحطاني، لأبي محمد عبد الله بن محمد الأندلسي، الطبعة الثالثة، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م، مكتبة السوادي للتوزيع.

[٨٥] نماذج من شعر إيليا أبو ماضي، عبد اللطيف شرارة، دارصادر، بيروت، ١٩٦٥م.


تم
الكتاب الأول
بحمد الله



الكتاب الثاني

عصر الدولتين

الأموية والعباسية

وتأثير فقه الخوارج على الحياة السياسية

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ** ﴾ .

[آل عمران:١٠٢] .

﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا** ﴾ [النساء:١] .

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا** ﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أما بعد :

يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك ، لك الحمد حتى ترضى ولك الحمد إذا رضيت .

هذا الكتاب الثاني: [صفحات من التاريخ الإسلامي في الشمال الإفريقي] .

يتحدث عن [**عصر الدولتين الأموية والعباسية وتأثير فقه الخوارج على الحياة السياسية**] ، فيعطي صورة واضحة عن جذور الأمويين، ورجالهم ودولتهم وخلفائهم وينقل أقوال علماء أهل السُنَّة في بعض خلفاء بني أمية ويوضح دورهم في الجهاد والدعوة ويتعرض لما وقع فيه بعض الخلفاء من انحراف وظلم وجور وتعسف، ويقف عند الأسباب التي ساهمت في سقوط الدولة الأموية، ويتحدث عن القتال الذي حدث في أواخر الدولة الأموية بين الخوارج وولاة بني أمية.

وكذلك يسلط الأضواء على دولة بني العباس ومراحلها والعصور التي مرت

بها ويعرّف بخلفائها، ويتكلم عن الصراع المرير الذي حدث بين الخوارج في الشمال الإفريقي وخلفاء بني العباس.

ويتحدث عن نشأة الخوارج وفرقهم وأحاديث الرسول ﷺ فيهم، ويبين خطورة أفكارهم وعقائدهم على الأمة، وكيف انتقال الفكر الخارجي إلى الشمال الإفريقي، ويتعرض لخلاف علماء الفرق في الحكم على الإباضية و يناقش عقائدهم من منظور أهل السُنَّة والجماعة، ويعطي فكرة عن دولة الأغالبة وأمرائهم ودور علماء أهل السُنَّة في نشر الفقه والحديث وتعليم الناس والحكم بينهم بالكتاب والسنة ومحاربة المبتدعة ويؤرخ لدخول مذهب الإمام مالك في الشمال الإفريقي، وأسباب انتشاره في الإقليم ويختص بترجمة موسعة للإمامين العظيمين أسد بن ا لفرات، وسحنون بن سعيد، ويلقي الضوء على دورهم العلمي والدعوي والجهادي في الشمال الإفريقي ويعطي فكرة عن نظام الحكم في دولة الأغالبة ويتعرض لأسباب سقوطها بنوع من الإيجاز.

ويشير إلى أهمية معرفة سنن الله وكيفية التعامل معها من خلال الوقائع التاريخية ودور العلماء الربانيين في قيادة الأمة نحو المجد والعزة والكرامة، وجهودهم العظيمة في القضاء على البدع ومحاربتها بالأدلة والبراهين والحجج، وتحصين جمهور المسلمين بعقيدة أهل السُنَّة والجماعة التي جاءت في كتاب الله و سُنة رسوله ﷺ والتي ساهمت في بناء سياج فكري عقدي عند جمهور المسلمين، منع من دخول البدع، بل تحطمت أمام ذلك البناء الشامخ الذي وضع الأمور في نصابها بدون تمييع أو تخليط.

وهذا الجهد المتواضع لم يأت بجديد، وإنما هو جمع وترتيب ومحاولة للتحليل والتفسير للأحداث التاريخية التي وقعت في هذه الحقبة الزمنية، والتي تأثرت بالمشرق الإسلامي في حركتها التاريخية، فإن كان خيراً فمن الله وحده، وإن أخطأت السبيل فأنا عنه راجع إن تبين لي ذلك، والمجال مفتوح للنقد والرد

والتعليق والتوجيه.

وهدفي من هذا الكتاب :

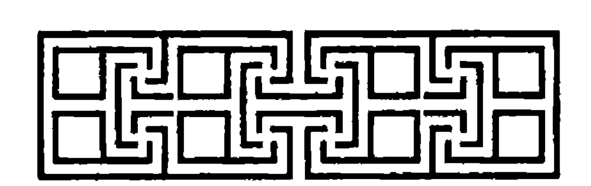
﴿ ١ ﴾ التأكيد على أن أصول المد الإسلامي في الشمال الإفريقي سُنِّيَّةٌ في المعتقد والعبادة والأخلاق والتشريع، أي ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه.

﴿ ٢ ﴾ تسهيل مبدأ الاعتبار والاتعاظ بمعرفة أحوال الدول وعوامل بنائها، وأسباب سقوطها، والنظر في سنن الله في الآفاق وفي الأنفس والمجتمعات.

﴿ ٣ ﴾ الاهتمام بمعرفة عقيدة أهل السُنَّة والجماعة وتربية أبناء الأمة عليها، وكشف معتقدات الخوارج التي تخالف القرآن والكريم وسُنَّة سيد المرسلين ﷺ وإجماع العلماء الراسخين.

﴿ ٤ ﴾ التعريف ببعض العلماء العاملين والفقهاء الراسخين، مثل: علي بن زياد العبسي، والبهلول بن راشد، وأسد بن الفرات، وسحنون بن سعيد والتركيز على دورهم العلمي والفقهي، والتربوي والجهادي.

﴿ ٥ ﴾ إثراء المكتبة الإسلامية التاريخية بالأبحاث المنبثقة عن عقيدة صحيحة، وتصور سليم بعيدة عن سموم المستشرقين، وأفكار العلمانيين الذين يسعون لقلب الحقائق التاريخية من أجل خدمة أهدافهم.



خطة الكتاب :

قد قمت بتقسيمه إلى سبعة فصول :

الفصل الأول : الدولة الأموية ويشتمل على ستة مباحث :

المبحث الأول: الجذور التاريخية للأسرة الأموية.

المبحث الثاني: الخلافة الأموية.

المبحث الثالث: يزيد بن معاوية.

المبحث الرابع: الوليد بن عبد الملك.

المبحث الخامس: سليمان بن عبد الملك.

المبحث السادس: عمر بن عبد العزيز.

الفصل الثاني: عصر الولاة ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: نبذة تاريخية عامة عن الحالة في عصر الولاة.

المبحث الثاني: نبذة عن ولاة الدولة الأموية.

المبحث الثالث: أسباب سقوط الخلافة الأموية.

الفصل الثالث: الخلافة العباسية ويشتمل على أربعة مباحث:

المبحث الأول: ظهور الدعوة العباسية وتطورها.

المبحث الثاني: العصور العباسية.

المبحث الثالث: العصر العباسي الثاني.

المبحث الرابع: العصر العباسي الثالث.

الفصل الرابع: الخوارج في الشمال الإفريقي ويشتمل على مبحثين:

المبحث الأول: نشأة الخوارج.

المبحث الثاني: أهم فرق الخوارج.

الفصل الخامس : الإباضية ويشتمل على خمسة مباحث :

المبحث الأول: نسب الإباضية وفرقهم.

المبحث الثاني: موقف الإباضية من الخلفاء الراشدين.

المبحث الثالث: بعض عقائد الإباضية ومناقشتها.

المبحث الرابع: حقيقة الإيمان وحكم مرتكب الكبيرة.

المبحث الخامس: مسألة الإمامة والخلافة.

الفصل السادس: أهم ثورات الإباضية ويشتمل على مبحث واحد هو:

المبحث الأول: ثورات الإباضية في أواخر الخلافة الأموية وبداية العباسية.

الفصل السابع: دخول المذهب المالكي إلى ليبيا ويشتمل على أربعة مباحث:

المبحث الأول: دخول الموطأ والاهتمام به في الشمال الإفريقي.

المبحث الثاني: ترجمة الإمام مالك بن أنس.

المبحث الثالث: أسباب انتشار المذهب المالكي.

المبحث الرابع: أصول مذهب الإمام مالك.

الفصل الثامن: دولة الأغالبة ويشتمل على ثمانية مباحث:

المبحث الأول: إبراهيم بن الأغلب.

المبحث الثاني: العلامة أبو حفص عبد الجبار بن خالد.

المبحث الثالث: ولاية زيادة الله بن الأغلب.

المبحث الرابع: أسد بن الفرات.

المبحث الخامس: سحنون بن سعيد.

المبحث السادس: نظام الحكم عند الأغالبة.

المبحث السابع: أهم أعمال دولة الأغالبة.

المبحث الثامن: أسباب سقوط دولة الأغالبة.

ثم الخلاصة.

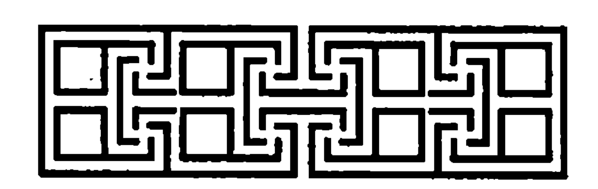
وأخيراً أرجو من الله تعالى أن يكون عملاً خالصاً لوجهه الكريم، وأن يثيبني على كل حرف كتبته، ويجعله في ميزان حسناتي، وأن يثيب إخواني الذين أعانوني بكافة ما يملكون من أجل إتمام هذا الكتاب.

«سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك»، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

كتبه

علي محمد محمد الصلابي

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

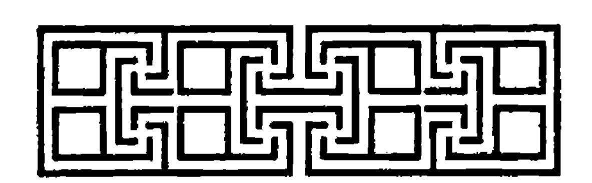


الفصل الأول

الدولـة الأمويـة (*)

إن الدولة الأموية تعرضت للعداء من طوائف اليهود والنصارى والمستشرقين والروافض، حيث سعوا بكل إمكاناتهم البشرية، ووسائلهم الإعلامية لتشويه دورها في حماية الإسلام ونشره والدعوة إليه والجهاد في سبيله .

لذلك رأيت من المفيد لأبناء المسلمين ، أن نتناول بشيء من التفصيل فترة الدولة الأموية وخلفائها من منظور أهل السُّنَّة والجماعة ، حتى يحيط المسلم بتصور صحيح لهذه الدولة ورجالاتها وعلمائها وقيادتها، وما قدمته من إنجازات عظيمة في مسار الحركة العلمية، والجهادية، والسياسية، والدعوية خصوصاً في زمن الخليفة عمر بن عبد العزيز صاحب الفضل بعد الله في استقرار إقليم الشمال الإفريقي، وكان ذلك بعد إرساله للفقهاء العشرة الذين انتشروا بين القبائل وشرعوا في تعليم الناس القرآن الكريم، والسنة المطهرة، واللغة العربية، واهتموا بتزكية النفوس وتوريث العلوم للأجيال، كما لا يخفى على القارئ الكريم أهمية دراسة الدولة الأموية التي كان إقليم الشمال الإفريقي جزءاً منها، يتأثر بسياستها سلباً وإيجاباً .



(*) كانت محاضرات الأستاذ عبد العزيز نور ولي، والدكتور محمد ضيف الله بطاينة في الجامعة الإسلامية في المدينة في كلية الدعوة وأصول الدين هي التي فتحت لي أفاقاً في دراسة الدولة الأموية، واعتمدت عليها في بحثي هذا في الرجوع إلى المصادر الأصلية.

المبحث الأول

الجذور التاريخية للأسرة الأموية

إن جذور الأسرة الأموية ترجع في الأصل إلى أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، وفي عبد مناف يلتقي بنو أمية مع بني هاشم. ولقد ولد لأمية الكبير الذي ينتسب إليه الأمويون من الأولاد الذكور: أبو سفيان واسمه عنبسة، وهو أكبر أولاده، وسفيان، وحرب، وأبو عمرو، والعاص، وأبو العاص، وكان يقال لأبي العاص الأمير، وكان من حكماء قريش، والعيص، وأبو العيص [(١)] .

وقد ولد لأبي العاص عفان، وولد لعفان عثمان الذي كان من أوائل من آمن بالرسول ﷺ وهاجر الهجرتين،وجاهد بنفسه وماله،وتزوج ابنتي رسول الله ﷺ ، **وأما العاص فقد ولد له أبناء كثيرون منهم :**

[١] أبو العاص بن أمية الحكم:

وقد أسلم الحكم يوم الفتح، وكان له من الأولاد: مروان الذي كان كاتب عثمان بن عفان في خلافته وصاحب خاتمه .

[٢] سعيد بن العاص:

وكان سعيد من أشراف قريش وفصحائها، أمره عثمان بن عفان بإملاء المصحف على زيد بن ثابت، واستعمله على الكوفة، وغزا بالناس طبرستان وفتحها، واعتزل أثناء الفتنة ، وولاه معاوية بن أبي سفيان المدينة ، وكان يعاقب بينه وبين مروان بن الحكم في ولايتها.

[٣] ومن أولاد سعيد بن العاص خالد:

وخالد بن سعيد بن العاص بن أمية، أسلم قديماً قيل خامس الذين أسلموا

---

(١) انظر : جمهرة النسب، لهشام الكلبي (١ / ٢٨).

وهاجر إلى الحبشة الهجرة الثانية، وقدم في فتح خيبر، وأسهم له الرسول ﷺ وحضر عمرة القضاء، وحضر فتح مكة وحنينا والطائف وتبوك، واستعمله الرسول ﷺ على صدقات اليمن، وظل عاملاً عليها حتى توفي الرسول ﷺ فرجع خالد عن عمله وفي خلافة أبي بكر الصديق كان أول لواء عقده أبو بكر إلى الشام لواء خالد بن سعيد، ثم عاد فعزله لشيء بلغه عنه.

[٤] أبان بن سعيد بن العاص بن أمية:

أسلم بين الحديبية وخيبر، وهو الذي أجار عثمان بن عفان يوم بعثه الرسول ﷺ إلى قريش عام الحديبية وحمله على فرس، ثم ركب خلفه حتى دخل مكة وقال:

أقبل وأدبر ولا تخف أحداً ... بنو سعيد أعزة الحرم

وأمَّره الرسول ﷺ على بعض السرايا منها سرية إلى نجد، ثم أستعمله على البحرين لما عزل العلاء بن الحضرمي عنها، ولم يزل عليها حتى توفي الرسول ﷺ فرجع عنها.

[٥] عمرو بن سعيد بن العاص بن أمية:

أسلم بعد أخيه بيسير، وهاجر إلى الحبشة الهجرة الثانية، وقدم زمن خيبر، وحضر فتح مكة وخيبر وحنيناً والطائف وغزوة تبوك، واستعمله الرسول ﷺ على قرى عربية منها تبوك وخيبر وفدك، وظل عاملاً عليها إلى أن توفي الرسول ﷺ فرجع وخرج في خلافة أبي بكر إلى الشام غازيًا، فقتل في وقعة أجنادين وقيل قتل يوم اليرموك.

[٦] عبد الله بن سعيد بن العاص بن أمية:

واسمه الحكم فسماه الرسول ﷺ عبد الله، وكان كاتباً محسناً، فأمره الرسول ﷺ أن يعلم الكتابة في المدينة وقتل يوم اليمامة، وقيل قتل يوم مؤتة، وقيل في

أولاد سعيد بن العاص بن أمية، إنه ما فتحت بالشام كورة إلا وجد عندها رجل من بني سعيد بن العاص ميتاً .

[٧] وولد لأبي العاص بن أمية، أسيد، وولد لأسيد من الأولاد:

عتاب، وأسلم عتاب يوم الفتح، واستعمله الرسول ﷺ على مكة عام الفتح حين خرج إلى حنين، ورزقه كل يوم درهماً، وقيل للرسول ﷺ استخلفت هذا الأعرابي فقال ﷺ : «**إني رأيته في المنام أخذ حلقة باب الجنة ففتح له فدخل**».

[٨] وولد لحرب بن أمية:

صخر وهو أبو سفيان، وكان أبو سفيان من أشراف قريش وكان ذا حلم ورأي ودهاء، وقيل كان أفضل قريش رأياً في الجاهلية ثلاثة: عتبة وأبو جهل وأبو سفيان. ولم يسلم إلا عام الفتح وجعل الرسول ﷺ في فتح مكة مَن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، وشهد أبو سفيان حنيناً مع الرسول ﷺ وأعطاه الرسول ﷺ مائة وأربعين أوقية وأعطى ابناه يزيد ومعاوية ، وفقئت عين أبي سفيان يوم الطائف وشهد اليرموك فأصاب عينه الأخرى سهم ففقئت هي الأخرى . ومات عام (٣١ هـ ، وقيل ٣٢هـ ، وقيل ٣٣هـ) ولأبي سفيان من الأولاد: حنظلة، قتله حمزة بن عبد المطلب يوم بدر كافراً، وعمرو بن أبي سفيان أسر يوم بدر، ويزيد ابن أبي سفيان الذي يقال له يزيد الخير، ولاه أبو بكر على الأجناد الذي بعثهم إلى فتح الشام، ولما فتحت الشام ولاه عمر بن الخطاب على فلسطين، ولما مات معاذ بن جبل بالطاعون استخلفه على الشام، ولما مات يزيد استخلف عمر بن الخطاب أخاه معاوية بن أبي سفيان. وعتبة بن أبي سفيان، ولاه عمر بن الخطاب الطائف وصدقاتهم وولاه معاوية بن أبي سفيان مصر بعد موت عمرو بن العاص. وعنبسة بن أبي سفيان، كان والياً على الطائف لأخيه معاوية، وعزله معاوية وولاها عتبة ولعنبسة ولد اسمه عثمان، وكان عثمان فاضلاً ، فلما مات يزيد بن معاوية أراد بنو أمية أن يبايعوه على الخلافة. ومعاوية بن أبي سفيان الذي سبق

التعريف به في غير موضع [١] .

والملاحظ مما سبق :

أن هنالك رابطةً قوية بين عبد شمس بن عبد مناف وبين هاشم بن عبد مناف، وبين المطلب بن عبد مناف، وبين نوفل بن عبد مناف، إلا أن بني أمية كانوا أكثر عدداً من غيرهم، لذلك قد عاندوا الدعوة الإسلامية في بداية مراحلها نظراً لحجمهم البشري، وثقلهم السياسي، وتواجدهم الاقتصادي، ثم ما لبثوا أن انقشعت عنهم حمية الجاهلية، ودخلوا في دين الله أفواجاً، وأصبحوا أبرز قيادات الدعوة الإسلامية فيما بعد .

وهذا ما قرره ابن خلدون إذ يقول: كان لبني عبد مناف في قريش جُمُلٌ من العدد والشرف لا يناهضهم فيها أحد من سائر بطون قريش، وكان فخذاهم، بنو أمية وبنو هاشم جميعاً، ينتمون لعبد مناف وينتسبون إليه، وقريش تعرف ذلك وتسأل لهم الرياسة عليهم، إلا أن بني أمية كانوا أكثر عدداً من بني هاشم وأوفر رجالاً [٢] .

ويقول المقريزي تحليلاً لوصول بني أمية للخلافة دون بني هاشم: لما كان بنو هاشم من قريش اختصها الله سبحانه بهذا الأمر أعني الدعوة إلى الله تعالى والنبوة والكتابة فحازت بذلك الشرف الباقي، وكانت أحوال الدنيا من الخلافة والملك ونحوه زائلة، لهذا زواها الله تعالى عنهم تنبيهاً على شرفهم وعلو مقدارهم، فإن ذلك هو خيرة الله لنبيه محمد ﷺ .

وقد ناقش المقريزي في كتابه: (النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم) قضية استعانة النبي ﷺ والخلفاء الراشدين ببني أمية على العمالات

---

(١) المرجع السابق: ٣٥ - ٣٦ ، راجع أنساب الأشراف للبلاذري: ٤/ ١٢٥-١٣٣ .
(٢) انظر : تاريخ ابن خلدون: (٣/ ٢) .

والولايات دون بني هاشم فقال: وقد ظهر لي أن ولاية الرسول ﷺ بني أمية الأعمال كانت إشارة منه ﷺ إلى أن الأمر سيصير إليهم [١] .

وتفسير المقريزي مرجوح، فاختيار الله عز وجل محمد ﷺ للرسالة لم يكن لاعتبارات عائلية هاشمية إزاء الأموية، وقد قاوم بعض بني هاشم الدعوة أول الأمر، ومنهم من مات من غير أن يسلم، ولم يقل أحد بالموازنة بين الرسالة والدعوة من جهة إزاء الخلافة والملك من جهة أخرى، أو بين محمد ﷺ رمزاً لبني هاشم إزاء الأمويين أو غيرهم، وقام بأمر الخلافة بعد رسول الله ﷺ أبو بكر، وهو قريشي من بني تيم، ثم عمر بن الخطاب، وهو قريشي من بني عدي، وخلفهما عثمان بن عفان، وهو قريشي من بني أمية، ثم خلفه علي بن أبي طالب، وهو قريشي من بني هاشم، وخلف علياً الحسن بن علي، وهو قريشي من بني هاشم، ثم آلت الخلافة إلى معاوية بن أبي سفيان وهو قريشي من بني أمية. ولعل وصول الخلافة إلى بني أمية بعد الخلاف الذي وقع بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان، أوحى للمقريزي الاسم الذي أطلقه على كتابه الآنف الذكر، وذهب فيه ذلك المذهب من القول وعلى أية حال، فإن ما نأخذه من كلام المقريزي وغيره أن بني أمية كانوا كثيري العدد، وأصحاب فعاليات وخبرات، واستعانة الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين بهم في الولايات والعمالات كان في بعض معانيه ومدلولاته ، لما كان لبني أمية من المكانة والكفاية في الإدارة والسياسة.

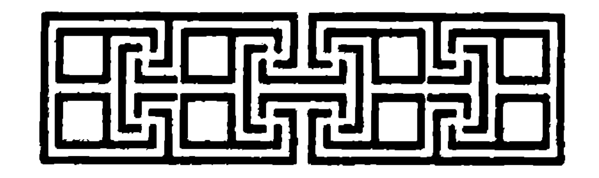
وجعل المقريزي استعانته عليه السلام بهم من العوامل التي قوت نيتهم في طلب الخلافة وقال المقريزى: فإذا كان رسول الله ﷺ أسس هذا الأساس، وأظهر بني أمية لجميع الناس بتوليتهم أعماله فيما فتح الله عليه من البلاد، كيف لا يقوى ظنهم، ولا ينبسط رجاؤهم، ولا يتحد في الولاية أملهم [٢] .

---

(١) التنازع والتخاصم: (٦٣-٦٤) .

(٢) التنازع والتخاصم: (٤٧-٥٧) .

وهذه العلاقة بين الرسول ﷺ وبين بني أمية، ذهب إلى النزاع والتخاصم بين بني أمية جعلها المقريزي السبب في النزاع والتخاصم بين بني أمية وبني هاشم، وجعل وجهة نظره هذه مدخلاً لفهم كل ما يتعلق ببني أمية في تاريخ الدعوة الإسلامية وما قبلها ، وقد أخطأ المقريزي في ذلك ولا شك .



المبحث الثاني
الخلافة الأموية

نتناول في هذا المبحث أبرز القيادات السياسية الأموية التي كانت تمسك بزمام الأمر في مرحلة الدولة الأموية بعد العهد الراشدي، حيث إن هذه القيادات قد امتازت بميزات في عهودها الذهبية والتي كانت من أبرزها الفتوحات الإسلامية التي شملت أصقاعاً كبيرة من الأرض شرقاً وغرباً ، وبراً وبحراً ، وإليك تراجم ومناقب هذه القيادات السياسية الأموية (•) .

أولاً: معاوية بن أبي سفيان (٤١-٦٠ ت):

[أ] نبذة عنه قبل الخلافة:

هو معاوية بن أبي سفيان بن صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشي الأموي، وأمه هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس. ولد معاوية قبل البعثة بخمس سنين ، وأسلم عقب صلح الحديبية (١) ، وهذا هو الثابت الصحيح (٢) . كان أبوه من سادات قريش ، وصاحب العير يوم بدر، وتفرد بالسؤدد بعد يوم بدر، فهو صاحب النفير في يوم أُحد وما بعدها ، ثم أسلم يوم الفتح وحسن إسلامه، وكانت له مواقف مشرفة وآثار محمودة في يوم اليرموك وما قبله وما بعده (٣) .

صحب معاوية رسول الله ﷺ وكان من كتّابه، وروى عنه أحاديث وقد أخرج له الجماعة (٤) .

(•) نقلاً من محاضرات الشيخ عبد العزيز نور ولي.

(١) أسلم معاوية ﷺ عقب الحديبية ، ولكن أخفى إسلامه خوفًا من أبيه أبي سفيان .

(٢) الاستيعاب: ٣/ ٣٧٢ ـ أسد الغابة: ٦/ ٤٣٢ .

(٣) المرجع السابق: ٢/ ٨٣، أسد الغابة: ٢/ ٣٩٢ .

(٤) روى معاوية ﷺ (١٦٣) حديثًا عن النبي ﷺ .

منها: ما أخرجه الإمام مسلم عنه أنه قال – معاوية –: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « **المؤذنون أطول الناس أعناقاً يوم القيامة** »[١].

وعنه أيضاً انه قال: إياكم وأحاديث إلا حديثاً كان في عهد عمر فإن عمر كان يخيف الناس في الله عز وجل، سمعت رسول الله ﷺ يقول: « **من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين**» . وسمعت رسول الله ﷺ يقول: « **إنما أنا خازن، فمن أعطيته عن طيب نفس، فيبارك له فيه، ومن أعطيته عن مسألة وشره كان كالذي يأكل ولا يشبع** »[٢].

وعنه أيضاً، أنه خطب يوم عاشوراء في المدينة فقال: أين علماؤكم؟ يا أهل المدينة! سمعت رسول الله ﷺ يقول لهذا اليوم: « **هذا يوم عاشوراء، ولم يكتب الله عليكم صيامه، وأنا صائم فمن أحب منكم أن يصومه فليصم، ومن أحب أن يفطر فليفطر** »[٣].

وأيضاً عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: خرج معاوية على حلقة في المسجد فقال: ما أجلسكم؟ قالوا: جلسنا نذكر الله، قال: آلله أما أجلسكم إلا ذاك؟ قالوا والله ما أجلسنا إلا ذاك، قال: أما إني لم أستحلفكم تهمة لكم، وما كان أحد بمنزلتي من رسول الله ﷺ أقل حديثاً عنه مني، وأن رسول الله ﷺ خرج على حلقة من أصحابه، فقال: « **ما أجلسكم ؟** » قالوا: جلسنا نذكر الله ونحمده على ما هدانا للإسلام، وما منّ به علينا، قال: « **آلله ما أجلسكم إلا ذاك**» ، قال: « **أما أني لم أستحلفكم تهمة لكم، ولكنه أتاني جبريل فأخبرني أن الله عز وجل يباهي بكم الملائكة** »[٤].

---

(١) صحيح مسلم: كتاب الصلاة، باب فضل الأذان (١ / ٢٩٠) رقم ٢٩٠.
(٢) المرجع السابق: ١٠٣٧،٣٨٧.
(٣) المرجع السابق: رقم الحديث ١١٢٩.
(٤) صحيح مسلم: كتاب الصلاة، باب فضل الأذان (١ / ٢٩٠) رقم ٢٧٠١.

وكان معاوية تحت لواء أخيه يزيد بن أبي سفيان في فتوح الشام، ولما توفي يزيد في خلافة عمر ﷺ ولى أخاه خلفاً له فيما كان والياً عليه من ولاية الشام، ثم في خلافة عثمان ﷺ ضم له الشام كلها، وافتتح سنة (٢٧ هـ) جزيرة قبرص، ولما ولي عليّ بن أبي طالب ﷺ كانت بينه وبين معاوية موقعة صفين التي انتهت بتحكيم الحكمين. ثم لما ولي الحسن ﷺ تنازل له بالبيعة فانعقدت الكلمة على خلافته وأجمعت الرعية على بيعته في سنة (٤١ هـ) .

[ب] منزلة معاوية بن أبي سفيان :

ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**يغزو فئام من الناس فيقال لهم فيكم من رأى رسول الله - ﷺ - فيقولون نعم فيفتح لهم ثم يغزو فئام من الناس فيقال لهم فيكم من رأى صحب رسول الله - ﷺ - فيقولون نعم فيفتح لهم**».. الحديث [١] . فعلق الحكم برؤية رسول الله ﷺ كما علقه بصحبته، وبهذا دل على أن كل من لقي رسول الله ﷺ مؤمناً به ومات على ذلك يعد صحابياً [٢] ، ولاشك أن معاوية منهم ﷺ .

وقد نهى رسول الله ﷺ عن سب الصحابة ﷺ فقال: «**لا تسبوا أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه**» [٣] ، كما نهى عن لعن المؤمن وقال: « **لعن المؤمن كقتله** » [٤] ، وأصحاب رسول الله ﷺ خيار المؤمنين كما ثبت ذلك بقوله ﷺ : «**خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم** » [٥] . وقد استعان به رسول الله ﷺ وجعله كاتبًا للوحي والرسول ﷺ لم يكن يستعين بمنافق ، كما استعان به أبو

---

(١) صحيح مسلم: في فضائل الصحابة باب: ٥٢.
(٢) الإصابة لابن حجر: ١ / ١٠.
(٣) صحيح البخاري : في فضائل الصحابة باب: ٥، صحيح مسلم: في فضائل الصحابة باب: ٥٤.
(٤) صحيح البخاري : في الأدب باب: ٤٤، صحيح مسلم: في الإيمان باب: ٤٧.
(٥) صحيح مسلم : في فضائل الصحابة باب: ٥٢.

بكر الصديق وعمر الفاروق رضي الله عنهما، وهما لم يستعينا بمنافق ولا بذي قرابة، ولا تأخذهما في الله لومة لائم، بل إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان من أعظم الناس فراسة وأخبرهم بالرجال.

وثبت في الصحيح أن النبي ﷺ قال عن الحسن بن علي رضي الله عنهما: « **ابني هذا سيد ، ولعل الله أن يصلح به فئتين من المسلمين** » [1] . وهذا النص الصحيح الصريح بين أن ما فعله الحسن رضي الله عنه محمود مرضي لله ورسوله. وإذا كانت فرقة معاوية هي الفرقة الباغية فهي مؤولة بفعلها والمتأول المجتهد كأهل العلم والدين الذين اجتهدوا فأخطئوا، وقال تعالى: ﴿ **رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا** ﴾ . [البقرة: ٢٨٦] .

وثبت في الصحيح أن الله استجاب هذا الدعاء [2] .

يقول ابن تيميه رحمه الله: أما إذا كان الباغي مجتهداً ومتأولاً ولم يتبين له أنه باغي بل اعتقد أنه على الحق وإن كان مخطئاً لم تكن تسميته باغياً موجبة لإثمه فضلاً عن أن توجب فسقه، وقد شهد القرآن بأن اقتتال المؤمنين لا يخرجهم عن الإيمان بقوله تعالى: ﴿ **وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ⑨ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ** ﴾[الحجرات: ٩-١٠] .

وسائر أهل السُنَّة والجماعة وأئمة الدين لا يعتقدون عصمة أحد من الصحابة ولا القرابة ولا السابقين ولا غيرهم إلا الأنبياء ، بل يجوز عندهم وقوع الذنوب منهم والله تعالى يغفر لهم بالتوبة ويرفع بها درجاتهم ويغفر لهم بحسنات ماحية، أو بغير ذلك من الأسباب قال تعالى: ﴿ **وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ**

---

(١) صحيح البخاري: كتاب الفتن، باب: ٢٠.

(٢) صحيح مسلم: كتاب الإيمان، باب: ٥٧.

الْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[الزمر: ٣٢-٣٥] .

وأخيراً ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال عن معاوية رضي الله عنه : «**لا أشبع الله بطنه**» ، ومن هذا الباب قول النبي ﷺ لمعاذ رضي الله عنه : «**ثكلتك أمك يا معاذ** » وهو لا يقصد حقيقتها ، وقد تبع مسلم رحمه الله هذا الحديث بالحديث الذي رواه البخاري: أن الرسول ﷺ قال: «**اللهم إنما أنا بشر فأيما عبد سببته أو جلدته أو دعوتُ عليه وليس لذلك أهلاً ، فاجعل ذلك كفارة وقربة تقربه بها عندك يوم القيامة** » [١] .

فركب مسلم من الحديث الأول وهذا الحديث فضيلة لمعاوية رضي الله عنه .

[جـ] ولاية العهد:

تولى أبو بكر الصديق رضي الله عنه الخلافة بعد أن تمت له البيعة الخاصة في سقيفة بني ساعدة ثم البيعة العامة في المسجد على المنبر، وقد طعن البعض في خلافته لأنها تمت فلته ، أي على عجل ، وبلغ ذلك الكلام عمر رضي الله عنه في آخر موسم الحج ، فقام خطيبًا في الناس حين عاد إلى المدينة وقال : لا يغترن امرؤ أن يقول إنما كانت بيعة أبي بكر فلته ، ألا وإنها كانت كذلك ولكن الله وقى شرها « يقصد عمر أن السرعة في اختيار أبي بكر كانت خيراً لأنها حسمت مادة الخلاف في سقيفة بني ساعده » ، ثم أكمل أمير المؤمنين عمر كلامه وقال : ... وليس فيكم من تقطع الأعناق إليه مثل أبي بكر [٢] .

بويع أبو بكر رضي الله عنه ثم إنه بعد استشارته لكبار الصحابة أخذ البيعة بعده لعمر ابن الخطاب رضي الله عنه لما لمسه من أفضلية تؤهله لهذه المهمة وكان ذلك عندما أحس بدنو أجله [٣]، ثم إن عمر رضي الله عنه حصرها في أهل الشورى الذين توفي رسول الله

---

(١) صحيح البخاري: كتاب الدعوات باب: ٣٤، صحيح مسلم في كتاب البر والصلة، باب: ٢٥.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير : ٨/١٢٣.

(٣) انظر : قصة السقيفة في صحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب: ٥ .

ﷺ وهو عنهم راض وكان ذلك أيضاً عند دنو أجله، واختير عثمان بن عفان رضي الله عنه من بينهم [١]، ثم كانت الفتنة التي أدت إلى مقتل عثمان رضي الله عنه وطلب الثوارعليّ بن أبي طالب رضي الله عنه لمبياعته بالخلافة، فأبى فلما ألحوا عليه أخبرهم أن ذلك ليس لهم إنما هو لأهل بدر، ورفض قبولها إلا إذا بايعه أهل الشورى، وتمت له البيعة منهم [٢].

ومن الملاحظ في تلك الفترة أن اختيار الخليفة يكون من بين أفاضل الناس، وتتم بيعتهم أولاً ببيعة أهل الحل والعقد، كما أن اختيار الخليفة للخليفة الذي بعده لا ينظر فيه إلى صلة القرابة، وقد كانت بداية تولية ذوي القرابة في عهد معاوية رضي الله عنه عندما أخذ البيعة لابنه يزيد ليكون خليفة بعده، فكيف تم ذلك؟.

ذكر المؤرخون أن بداية هذا الأمر كان إشارة من المغيرة بن شعبة رضي الله عنه عندما أحس بأن معاوية رضي الله عنه يرغب في عزله عن ولاية الكوفة، مما دفع معاوية إلى رده إليها ليوطن له الأمر فيها، وقد سبقت هذه القصة لإظهار دهاء المغيرة لذلك لا نؤكد هذه البداية حتى تتبين صحة الرواية أرسل معاوية إلى زياد بن أبيه يستشيره في الأمر فطلب زياد منه التريث، وأرسل إلى يزيد رجلاً من خاصته يحثه على ترك ما هو عليه، وكان مشغولاً بالصيد واللهو وذلك ليسهل على أبيه أمر مبايعته بالخلافة.

أما البداية الفعلية فكانت بعد وفاة المغيرة بن شعبة وزياد بن أبيه، فقد عزم معاوية في سنة ست وخمسين على ذلك وأرسل إلى عبيد الله ابن زياد بأخذ البيعة لابنه من أهل العراق وكان والياً عليها، ثم أرسل إلى بقية الأمصار بذلك فجاءته بيعتهم إلا أهل المدينة ومكة مما دفع معاوية إلى الشخوص بنفسه إليهم لأخذ البيعة.

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد: ٢ / ٢٧٤ .

(٢) صحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب: ٨ .

إن معاوية في اختياره لخليفة من بعده اقتدى في الجملة بأبي بكر وعمر رضي الله عنهما[١]، وقد كان يريد بذلك أن لا تقع الأمة في خلاف في هذا الشأن وبخاصة مع اتساع الدولة واختلاف الأهواء[٢]، ولكن هل كان مصيباً في اختياره لابنه من بعده؟ إن أحوال الناس في عهد الشيخين تختلف عن أحوالهم في عهد معاوية، فكما لاحظنا أن الناس في تلك الفترة ينشدون أفضلهم، أما في عهد معاوية فكان بعض ولاة الأمر قد مالوا إلى الدنيا، كما أن الشوكة التي تدعم الخلافة انتقلت إلى الشام والعراق بعد أن كانت في عهد الشيخين في الحجاز، لذلك نرى أن عليًّا رضي الله عنه انتقل إلى الكوفة، كما أن دعوة الحصين بن نمير لعبد الله بن الزبير في الانطلاق معه إلى الشام، لتتم البيعة له كانت لنفس الغرض[٣].

لمس معاوية كل ذلك إضافة إلى تحسن أحوال يزيد كما أسلفنا، ودفعه هذا إلى أخذ البيعة له، ولا ننسى الفطرة الإنسانية لحب الأب لابنه لا نشك في تأثيرها على معاوية رغم ما نقل بأن معاوية خطب فقال: اللهم إن كنت إنما عهدت ليزيد لما رأيت من فضله فبلغه ما أملت وأعِنْهُ وإن كنت إنما حملني حب الوالد لولده وإنه ليس لما صنعت به أهلاً فاقبضه قبل أن يبلغ ذلك.

ولعل معاوية رضي الله عنه اجتهد في اختياره ليزيد، وليس من نافلة القول أن نذكر أنه أخطأ في اجتهاده، وبخاصة مع وجود من هو أفضل منه في الأمة، وقد أنكر عليه بعض الصحابة ذلك منهم عمرو بن حزم، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: لعمري لقد أصبح يزيد بن معاوية واسط الحسب في قريش غني عن المال غني عن كل خير، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله لم يسترع عبداً**

---

(١) تحذير العبقري من محاضرات الخضري للتباني: ١٩٣.

(٢) التاريخ الإسلامي لمحمود شاكر ٤/ ١١٩.

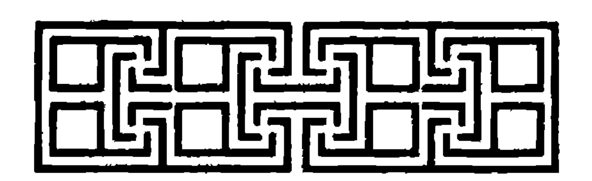
(٣) تحذير العبقري من محاضرات الخضري للتباني: ١٩٣.

رعية إلا وهو سائله عنها يوم القيامة كيف صنع فيها ؟ ، وإني أذكرك الله يا معاوية في أمة محمد مَنْ تستخلف عليها »[١] .

وكان رد الأحنف بن قيس عندما طلب معاوية رأيه فيه اتزان وحُسن تخلص [٢] فقال : (نخافكم إن صدقنا ونخاف الله إن كذبنا، وأنت يا أمير المؤمنين أعلم بيزيد في ليله ونهاره، وسره وعلانيته، ومدخله ومخرجه، فإن تعلمه لله تعالى وللأمة رضا فلا تشاور فيه، وإن كنت تعلم غير ذلك فلا تزوده الدنيا وأنت صائر إلى الآخرة، وإنما علينا أن نقول سمعنا وأطعنا)، ورفض بعضهم مبايعته مثل الحسين وعبد الله بن الزبير [٣] .

[د] وفاته :

كانت وفاة معاوية رضي الله عنه في شهر رجب سنة ٦٠ هـ [٤] .

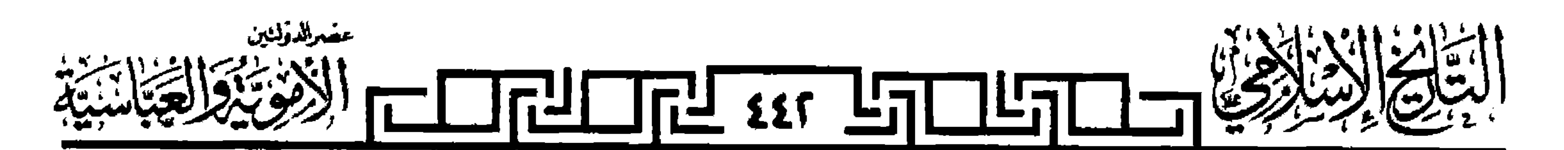


(١)الإصابة لابن حجر: ٢ / ٥٢٥، المطالب العالية: ٤ / ٣٢٨.

(٢)الكامل لابن الأثير: ٣ / ٢٥١.

(٣)تاريخ الطبري: ٥ / ٣٠٣.

(٤)البداية والنهاية: ٨ / ١٤٥.



المبحث الثالث

يزيد بن معاوية (٦٠ - ٦٤ هـ)

[أ] نبذة عنه قبل الخلافة:

هو يزيد بن معاوية بن أبي سفيان القرشي الأموي، وأمه ميسون بنت بحدل الكلبية [١] ولد سنة خمس أو ست أو سبع وعشرين في خلافة عثمان رضي الله عنه [٢]، كان يزيد في الجيش الذي غزا القسطنطينية سنة ٤٩ هـ، والذي كان فيه من الصحابة أبو أيوب الأنصاري وابن عباس وابن عمر وابن الزبير وغيرهم [٣]، وقد ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ قال: « **أول جيش يغزو مدينة قيصر مغفور لهم** » [٤]. وقد أخذ أبوه البيعة له في حياته [٥]، فلما مات معاوية تولى الخلافة في رجب سنة ٦٠ هـ [٦].

ب - خلافة يزيد وما ورد فيها:

حرص يزيد على أن تتم البيعة له خاصة من النفر الذين عارضوا ذلك في حياة أبيه، فأرسل إلى واليه على المدينة الوليد بن عتبة بن أبي سفبان بذلك، فطلب الوليد هؤلاء النفر، فأما الحسين فاستمهله حتى يبايع الناس فأمهله فخرج إلى مكة، وأما ابن الزبير رضي الله عنه فلم يجب الوليد وانطلق إلى مكة قبل الحسين، وأما ابن عمر رضي الله عنهما فقال: إذا بايع الناس بايعت وكان لا يحب الخروج على جماعة المسلمين [٧].

---

(١) السير: ٤/ ٣٥، البداية والنهاية: ٨/ ٢٢٩.
(٢) البداية والنهاية: ٨/ ٢٢٩، تهذيب التهذيب: ١١/ ٢٦٠.
(٣) البداية والنهاية: ٨/ ٤٢.
(٤) صحيح البخاري: في الجهاد باب: ٩٣.
(٥) تاريخ الطبري: ٥/ ٣٠١ - ٣٠٧.
(٦) المرجع السابق: ٥/ ٢٢٢- ٢٢٣.
(٧) تاريخ الطبري: ٥/ ٣٣٩-٣٤٢.

اخرج البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: « **حفظت من رسول الله ﷺ وعاءين فأما أحدهما فبثثته وأما الأخر فلو بثثته قطع هذا البلعوم** » [1] .

قال ابن حجر - رحمه الله - : حمل العلماء الوعاء الذي لم يبثه على الأحاديث التي فيها تبيين أسامي أمراء السوء وأحوالهم وزمنهم، وقد كان أبو هريرة رضي الله عنه يكني عن بعضه ولا يصرح خوفاً على نفسه منهم [2] والذي يؤكد ذلك ما رواه عن النبي ﷺ قال: « **هلاك أمتي على يد غلمة من قريش** » .

فقال مروان: لعنة الله عليهم غلمة؟ قال أبو هريرة: لو شئت أن أقول بني فلان وبني فلان لفعلت، وفي رواية: إن شئت أن أسميهم بني فلان وبني فلان [3] . وأورد ابن حجر رواية أخرى فيها إشارة صريحة لخلافة يزيد، وهي دعاء أبي هريرة رضي الله عنه: أعوذ بالله من رأس الستين وإمارة الصبيان [4] ، وشرح قوله إمارة الصبيان بأن يزيد كان غالباً ينتزع الشيخ من إمارة البلدان الكبار ويوليها الأصاغر من أقاربه [5] ، قلت [6] : لا شك أن قوله رأس الستين يقصد به يزيد، وهذا لا يعني أن بقية النص هو قوله « إمارة الصبيان » تقصده أيضاً، فقد يكون المقصود به غيره ممن جاء بعده، وقد يكون المقصود به يزيد على أنه ولي الخلافة في سن صغيرة بالنسبة لمن قبله من الخلفاء، والله أعلم، وأما ما أخرجه أبو يعلى عن عبيدة: « **لا يزال أمر أمتي قائماً حتى يثلمه رجل من بني أمية يقال له يزيد** » فهو خبر باطل لا يصح إسناده.

[جـ] طاعة أولي الأمر :

قال الله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ**

---

(١) صحيح البخاري: في العلم باب:٤٢ .
(٢) فتح الباري:١ / ٢١٦ .
(٣) صحيح البخاري: في الفتن، باب:٣ .
(٤) فتح الباري:١ / ٢١٦ .
(٥) فتح الباري:١ / ٢٦١ .
(٦) القائل هو الشيخ عبد العزيز ولي صاحب المرجع المنقول عنه هذه المباحث.

منكُمْ ﴾ [النساء:٥٩] وقد أمر النبي ﷺ بطاعة ولي الأمر ولو كان حبشياً كما في الصحيح عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: « **اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة** » [(١)]، وقد نهى رسول الله ﷺ أشد النهي عن الخروج عليهم، فقال: « **خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم وتصلون عليهم ويصلون عليكم، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم** » . قيل: يا رسول الله أفلا ننابذهم بالسيف عند ذلك؟ ، قال: « **لا ما أقاموا فيكم الصلاة، ألا من ولي عليه وال فرآه يأتي شيئاً من معصية، فليكره ما يأتي من معصية الله ولا ينزعن يداً من طاعة** » [(٢)].

وفي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « **إنها تكون بعدي أثرة** [(٣)] **وأمور تنكرونها** » ،قالوا: يا رسول الله كيف تأمر من أدرك منا ذلك ؟ ، قال: « **تؤدون الحق الذي عليكم وتسألون الله الذي لكم** » [(٤)].

ولا شك أنه بذل لهم النصح، لأن الرسول ﷺ قال: « **إن الدين النصيحة** ». قالوا لمن يا رسول الله ؟ ، قال: « **لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم** » [(٥)] . ومذهب أهل السُّنَّة والجماعة أن هؤلاء يشاركون فيما يحتاج إليهم فيه من طاعة الله فنصلي خلفهم، ونجاهد الكفار معهم، ويستعان بهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقامة الحدود، وغلبة الأمر ليزيد وعبد الملك والمنصور فإما يقال يجب منعه من الأمر وهذا رأي مرجوح يؤدي إلى سفك

---

(١) صحيح البخاري كتاب الأحكام، باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية.

(٢) صحيح مسلم كتاب الإمارة، باب خيار الأئمة وشرارهم: (٣/١٤٨٢).

(٣) المراد أنكم ستجدون بعدي قوماً يفضلون أنفسهم عليكم في الفيء ونحوه جامع الأصول لابن الأثير: (٤/٦٥).

(٤) صحيح البخاري، كتاب الفتن، باب قوله ﷺ: « **سترون بعدي أموراً تنكرونها** ».

(٥) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة.

الدماء وإن كان الخارج دَيِّنًا ، وقال من خرج على إمام ذي سلطان إلا كان ما تولد عن فعله من الشر أعظم مما تولد من الخير، كالذين خرجوا على يزيد في المدينة، وكابن الأشعث الذي خرج على عبد الملك في العراق وغيرهم، وغاية هؤلاء إما أن يغلبوا وإما أن يُغلبوا ثم يزول ملكهم فلا يكن لهم عاقبة، فاهل الحرة مثلاً هُزموا وهزم أصحابهم فلا أقاموا ديناً ولا أبقوا دنياً، والله تعالى لا يأمر بأمر لا يحصل به صلاح الدين وصلاح الدنيا وإن كان فاعل ذلك من عباد الله المتقين ومن أهل الجنة وكان أفاضل المسلمين ينهون عن الخروج والقتال في الفتنة.

ولهذا استقر أمر أهل السُنَّة على ترك القتال في الفتنة للأحاديث الصحيحة الثابتة عن النبي ﷺ (١) وساروا يذكرون هذا في عقائدهم ويأمرون بالصبر على جور الأئمة وترك قتالهم (٢) .

[د] موقعة كربلاء:

أرسل أهل الكوفة إلى الحسين في مكة يحثونه على القدوم إليهم لمبايعته ومناصرته، فأرسل الحسين ابن عمه مسلم بن عقيل بن أبي طالب إليها يستعلم الخبر، فخرج حتى قدمها، ونزل على رجل من أهلها يقال له ابن عوسجة وبايعه من أهل الكوفة اثنا عشر ألفا ، وعزل يزيد النعمان على ولاية الكوفة وولاها عبيد الله بن زياد.

اقبل عبيد الله مع وجوه أهل البصرة، ودخل الكوفة متلثماً فمر على مجالس أهل الكوفة وكان لا يمر على مجلس فيسلم عليه إلا رد عليه أهل المجلس قائلين: وعليك السلام يا بن بنت رسول الله ﷺ ظانين بانه الحسين، حتى انتهى إلى قصر الإمارة، فأرسل مولاه ليأتيه بخبر مسلم ابن عقيل، فتحول مسلم عندما علم بقدوم ابن زياد إلى دار هانئ بن عروة المرادي ، وكان قد كتب إلى الحسين يعلمه

---

(١) **انظر** : جامع الأصول لابن الأثير: ١٠ / ٣ .

(٢) راجع شرح العقيدة الطحاوية : ٣٥٧-٣٧٠ .

بمبايعة اثنا عشر ألفاً ويأمره بالقدوم.

واستطاع مولى ابن زياد أن يعرف منزل مسلم ويعلم مولاه بذلك، فطلب عبيد الله هانئ وأمره بأن يأتيه بمسلم فرفض فحبسه عنده، فلما علم مسلم بالخبر جمع آلاف من أهل الكوفة وحاصر قصر عبيد الله، فجمع عبيد الله رؤساء العشائر في قصره وأمرهم أن يصرفوا عشائرهم الذين مع مسلم عنه، فجعل كلا منهم يكلم عشيرته حتى انفضوا عن مسلم ولم يبق منهم أحد، ولم تمض تلك الليلة حتى قبض على مسلم وقتل، وكان هانئ قد قتل أيضاً (١).

وخرج الحسين بأهله من مكة منطلقاً إلى الكوفة، ولما اقترب من الكوفة علم بمقتل مسلم فهمَّ بالعودة إلا أن إخوة مسلم وبنوه طلبوا الثأر، فسار حتى لاقتهم أوائل خيل عبيد الله، فعدل الحسين بمن معه إلى كربلاء، وأرسل عبيد الله إلى عمر بن سعد وجيشه لملاقاة الحسين ومن معه وكان قد ولاه الري، فطلب عمر بن سعد إعفاءه فأبى، فتوجه إلى الحسين فخيره الحسين بين ثلاث : أن يسمح له بالعودة إلى المدينة ، أو تركه يذهب إلى يزيد فيضع يده في يده ، أو أن يلحق بأحد الثغور، فقبل عمر بن سعد منه ، وكتب إلى عبيد الله بذلك ، ولكن عبيد الله أبى إلا أن يضع الحسين يده في يده وذلك بتحريض من شمر بن ذي الجوش، فرفض الحسين النزول على حكم ابن زياد ، والتحم الفريقان في قتال غير متكافئ، وانتهى بمقتل الحسين رضي الله عنه في العاشر من المحرم (٦١ هـ) ، وحمل رأسه إلى عبيد الله (٢).

إن مقتل الحسين بن عليّ رضي الله عنهما اخبر عنه نبينا ﷺ أخرج الإمام أحمد في مسنده عن عبد الله بن يحيي عن أبيه: أنه سار مع علي رضي الله عنه وكان صاحب مطهرته فلما حاذى نينوى وهو منطلق إلى صفين فنادى علي رضي الله عنه : اصبر أبا

(١) تاريخ الطبري: ٥/٣٤٧-٣٥١ .
(٢) المرجع السابق: ٥/٣٨٢-٤٧٠ .

عبد الله اصبر أبا عبد الله بشط الفرات، قلت وما ذاك؟ قال: دخلت على النبي ﷺ ذات يوم وعيناه تفيضان. قلت: يا نبي الله أغضبك أحد ما شأن عيناك تفيضان؟ قال: « **بل قام من عندي جبريل قبل، فحدثني أن الحسين يقتل بشط الفرات، قال فقال: هل لك إلى أن أشمك من تربته، قال: قلت: نعم فمد يده فقبض من تراب فأعطانيها فلم أملك عيني أن فاضتا** » [١].

وقد كره كثير من الصحابة وغيرهم خروج الحسين، بل إن البعض أشار عليه بعدم الخروج، ومنهم عبد الله بن عمر وابن عباس وأبو سعيد الخدري رضي الله عنهم، وقال سعيد بن المسيب رحمه الله: لو لم يخرج لكان خيراً له [٢]، ولكنه قدر الله الذي أخبر به الصادق المصدوق ﷺ.

وأما يزيد فقد ورد أنه بكى على الحسين لما علم بمقتله، وقال لما وصل الخبر إليه: لقد كنت أرضى من طاعتكم بدون قتل الحسين، لعن الله ابن زياد، أما والله لو أني صاحبه لعفوت، فرحم الله الحسين[٣]. وقد أكرم أهله وقرب ابنه علي بن الحسين، ولكن يؤخذ عليه عدم معاقبته لعبيد الله، وهذا لا يعني أنه شريكه في قتل الحسين، وذلك لأن قتل الحسين ذنب وترك القود من عبيد الله ذنب، ولكن ليس هذا الذنب مثل ذلك [٤].

بل إن الذين أخرجوه من مكة برسائلهم وكتبهم ثم تركوا نصرته عندما قدم عليهم وكانوا في جيش عمر بن سعد هم الذين يؤخذون بقتله، كما ثبت في الصحيح أن رجلاً سأل عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن دم البعوض، فقال ممن أنت؟ قال: من أهل العراق، قال: انظروا إلى هذا يسألني عن دم البعوض، وقد قتلوا ابن النبي ﷺ سمعت النبي ﷺ يقول: « **هما ريحانتاي من الدنيا** » [٥].

---

(١) المسند: ١/٨٥، م٢/٦٤٨، وقال محققه: إسناده صحيح.

(٢) سير أعلام النبلاء: ٣/٢٩٦.

(٣) تاريخ الطبري: ٢/٢٤٩.

(٤) منهاج السنة: ٢/٢٤٩.

(٥) صحيح البخاري كتاب الأدب، باب: ١٨.

ولا شك أن قتل الحسين من أعظم الذنوب ، وفاعله والراضي به مستحق العذاب، ولكن ليس قتله بأعظم من قتل أبيه، ولا قتل زوج أخته عمر، ولا قتل زوج خالته عثمان [١] .

يقول ابن تيمية - رحمه الله -: إنه لم يكن في الخروج مصلحة لا في دين ولا في دنيا، بل تمكن أولئك الظلمة الطغاة من سبط رسول الله ﷺ حتى قتلوه مظلوماً شهيداً، وإن في خروجه وقتله من الفساد ما لم يحصل ولو قعد في بلده، فإن ما قصده من تحصيل الخير ودفع الشر لم يحصل منه شيء، بل زاد الشر بخروجه وقتله ونقص الخير بذلك، وصار سبباً لشر عظيم، وإن قتل الحسين مما أوجب الفتن كما كان قتل عثمان كذلك [٢] .

وقال أيضاً: وصار الناس في قتل الحسين رضي الله عنه ثلاث أصناف: طرف يقول إنه قتل بحق، لأنه أراد أن يشق عصا المسلمين، وطرف يقول: إنه هو الإمام الواجب طاعته، أما الطرف الوسط فهم أهل السُنَّة الذين يقولون: إنه قتل مظلوماً شهيداً ولم يكن متولياً أمر الأمة [٣] .

وأما رأس الحسين وأنه حمل إلى يزيد فصار ينكته بقضيب في يده فغير صحيح، والرواية الثابتة في ذلك أن رأس الحسين حمل إلى عبيد الله بن زياد فجعل في طست فجعل يبكي وقال في حسنه شيئاً، فقال أنس: كان أشبههم برسول الله ﷺ وكان مخضوباً بالوسمة [٤] .

هـ - موقعة الحرة :

خلع أهل المدينة يزيد بن معاوية وبايعوا ابن الزبير الذي دعا لنفسه بعد مقتل

---

(١) المنتقى: ٢٨٨.
(٢) منهاج السنة: ٢ / ٢٤١.
(٣) المصدر السابق: ٢ / ٢٤٧، وانظر رسالة سؤال في يزيد بن معاوية (الفتاوى: ٤ / ٤٨١).
(٤) صحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب: ٢٢، **والوسمة**: نبت يُختَضَب به، يميل إلي السواد، (فتح الباري: ٧ / ٢٤٧).

الحسين في مكة، أعلن أهل المدينة ذلك سنة ٦٣ هـ ، وأخرجوا عامل يزيد منها وهو عثمان بن محمد بن أبي سفيان، وأجلو بني أمية منها، وولوا أمرهم عبد الله بن مطيع على قريش وعبد الله بن حنظلة على الأنصار، واعتزل الناس علي بن الحسين وعبدُ الله بن عمر ولم يخلعا يزيداً، كما امتنع محمد بن الحنفية عن خلعه، ولما علم يزيد بذلك أرسل مسلم بن عقبة المري على رأس جيش كبير ليعيد المدينة إلى طاعته، وطلب منه أن يدعوهم لذلك ثلاثة أيام وإذا رفضوا العودة إلى الطاعة يقاتلهم ، وسار مسلم إلى المدينة والتقى ببني أمية الذين أخرجوا منها، وكان أهل المدينة قد أخذوا العهد منهم ألا يعينوا أحداً عليهم، فطلب مسلم منهم عند لقائه بهم أخبار المدينة فسكتوا ولم يجيبوه، وأشار عليه عبد الملك بن مروان أن يأتي المدينة من شرقها وامتثل مسلم لهذه المشورة وجاء المدينة من حرة واقم ، ودعا أهلها ثلاثاً، فلما كان اليوم الرابع خيرهم بين الطاعة وبين القتال، فاختاروا الأخرى ، واقتتلوا قتالاً شديداً ، ثم انهزم أهل المدينة وقتل من الفريقين كثير من الناس [١] .

لقد أنكر بعض الصحابة والتابعين خروج أهل المدينة على يزيد، ورفض بعضهم خلعه فهذا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما جمع ولده وحشمه ويقول: إني سمعت النبي ﷺ يقول: «**ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة**» ، وإنا قد بايعنا هذا الرجل على بيع الله ورسوله، وإني لا أعلم غدراً أعظم من أن يبايع رجل على بيع الله ورسوله ثم يذهب ينصب له القتال ، وإني لا أعلم أحداً منكم خلعه ولا بايع في هذا الأمر إلا كانت الفيصل بيني وبينه [٢] .

ولم يكتف ابن عمر رضي الله عنهما بذلك بل جاء إلى عبد الله بن مطيع محذراً وحدثه بحديث النبي ﷺ : « **من خلع يداً من طاعة لقي الله يوم القيامة لا حجة له،**

---

(١) البداية والنهاية: ٨/ ٢٢٠-٢٢٣ .

(٢) صحيح البخاري: كتاب الفتن، باب: ٢١ .

ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية » [١] . وكان قد ذهب وفد من أهل المدينة إلى يزيد قبل موقعة الحرة فرحب بهم وأكرمهم، ولما رجعوا مشى عبد الله بن مطيع وأصحابه إلى محمد ابن الحنفية وطلبوا منه خلع يزيد فأبى، فقال ابن مطيع إن ابن يزيد يشرب الخمر ويترك الصلاة ويتعدى حدود الكتاب، فقال: ما رأيت منه ما تذكرون، وقد حضرته وأقمت عنده فرأيته مواظباً على الصلاة محباً للخير يسأل عن الفقه ملازماً للسنة. قالوا: فإن ذلك كان منه تصنعاً لك، قال: وما الذي خاف مني أو رجا حتى يُظهر إليَّ الخشوع؟ أفأطلعكم على ما تذكرون من شرب الخمر فلئن كان يطلعكم على ذلك إنكم لشركاؤه، وإن لم يطلعكم فما يحل لكم أن تشهدوا بما لم تعلموا، قالوا: إنه عندنا الحق وإن لم نكن رأيناه ، فقال لهم: أبى الله ذلك على أهل الشهادة، فقال: ﴿**إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ**﴾ [الزخرف:٨٦] ولست من أمركم في شئ قالوا: فلعلك تكره أن يتولى الأمر غيرك فنحن نوليك أمرنا، قال: ما أستحل القتال على ما تريدونني عليه تابعاً ولا متبوعاً، قالوا: فقد قاتلت مع أبيك؟ قال: جيئوني بمثل أبي أقاتل على مثل ما قاتل عليه. فقالوا فمر ابنك أبا القاسم بالقتال معنا، قال: لو أمرته قاتلت، قالوا: فقم معنا مقاماً تحض الناس فيه على القتال. قال سبحان الله آمر الناس بما لا أفعله ولا أرضاه، إذًا ما نصحت في الله عباده، قالوا: إذا نكرهك، قال: إذن آمر الناس بتقوى الله ، ولا يرضون المخلوق بسخط الخالق وخرج إلى مكة.

[و] مسألة استباحة المدينة ثلاثة أيام:

لقد ذكرت المصادر استباحة المدينة ثلاثة أيام حسب وصية يزيد لمسلم، وترتيب تلك المصادر حسب الأهمية:

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب: ١٣.

أولاً : تاريخ الطبري (ت - ٣١٠) :

والطبري في نقله للروايات يحمل القارئ مسئولية البحث فيها، والرواية التي ذكرت ذلك هي رواية أبي مخنف لوط بن يحيى، وهذا نص عبارته وهو ينقل كلام يزيد لمسلم في ذلك : (فإذا أظهرت عليهم فأبحها ثلاثاً، فما فيها من مال أو رقة – الدرهم – أو سلاح أو طعام فهو للجند، فإذا مضت الثلاث فاكفف عن الناس). ثم عندما نقل الحدث قال : (وأباح مسلم المدينة يقتلون الناس ويأخذون الأموال، فأفزع ذلك من كان فيها من الصحابة) [١] . فهو إضافة إلى أنه لم يذكر أكثر مما ذكرنا في ذلك شخصية افتقدت ثقة أصحاب كتب الرجال، حيث قال عنه ابن عدي : شيعي محترف صاحب أخبارهم، وقال الذهبي : أخباري تالف لا يوثق به، فهو متهم بالتشيع مع ضعفه، وهنا يجب علينا الحذر من الروايات التي يسوقها عن الأمويين وبخاصة يزيد المكروه من قبل عامة الشيعة، أما الروايات الأخرى في الطبري فلم تذكر مسألة إباحة المدينة.

الثاني : الكامل لابن الأثير (ت - ٦٣٠):

وابن الأثير منهجه كما في مقدمة كتابه نقل اشمل الروايات وأتمها من تاريخ الطبري في فترة القرون الثلاثة الأولى، وبالتالي هو نقل رواية أبي مخنف [٢] .

الثالث : تاريخ اليعقوبي (ت - ٢٨٤):

هو معروف ميوله الشيعية وتفضيله لروايات الشيعة في كتابه.

الرابع: الإمامة والسياسة والمنسوب لابن قتيبة (ت - ٢٧٦):

ويكفي هذا الكتاب أنه لا تصح نسبته لابن قتيبة ، وهو مشحون بالجهل والركاكة والكذب والتزوير ، وهو الذي أسهب في وصف واقعة الحرة إسهاباً

---

(١) تاريخ الطبري: ٨ / ٢٣٦ .

(٢) الكامل في التاريخ: ١ / ٥ .

كبيراً ومروعاً (١) .

الخامس: الأغاني لأبي فرج الأصفهاني (ت - ٣٥٦) : (*)

وكتاب الأغاني هو كتاب سمر أكثر من كونه كتاب تاريخ، وقد تحامل فيه على من هو أجل من يزيد من الصحابة رضوان الله عليهم مثل خالد بن الوليد، ولا ننسى ميوله الشيعية إضافة إلى ميوله الفارسية (٢) .

السادس: الفخري في الآداب السلطانية لابن الطقطقي (ت - ٧٠٩):

وهو بالإضافة إلى تأخره عن الأحداث فقد كان شيعياً حيث إن سمات التشيع واضحة في كتابه ثم تأتي المصادر الأخرى التي تنقل عن هذه المصادر (٣) .

[ز] محاصرة ابن الزبير:

بعد أن انتهى مسلم بن عقبة من أهل المدينة اتجه إلى مكة للقضاء على ثورة ابن الزبير رضي الله عنهما الذي رفض البيعة ليزيد وخرج عليه بعد استشهاد الحسين رضي الله عنه ، ولكن المنية عاجلت مسلم بن عقبة قبل أن يصلها وخلفه الحصين بن نمير السكوني، فانتهى إلى مكة لأربعة بقين من المحرم سنة ٦٤ هـ ونزل بظاهرها وحاصرها حتى ربيع الأول حيث رميت الكعبة بالمنجنيق، واشتعلت فيها النار، وبقي الحصار مضروباً على مكة حتى جاء الخبر في ربيع الأول بوفاة يزيد بن معاوية، وقد وصل الخبر لابن الزبير قبل أهل جيش الشام فلم يصدقوه حين أبلغهم بذلك، فلما تيقنوا من ذلك اجتمع الحصين بابن الزبير وحثه على الانطلاق معه إلى الشام لتتم البيعة له لكنه أبى فتركه الحصين وانطلق بجيشه عائداً إلى الشام.

---

(١) العواصم من القواصم: ١٩١ .

(*) قالوا في ترجمته أنه كان فاسقاً زنديقاً يشرب الخمر ويجلس إلى القصّاصين .

(٢) انظر السيف اليماني في نحر الأصفهاني لوليد الأعظمي .

(٣) راجع إباحة المدينة وحريق الكعبة بين المصادر القديمة والحديثة للعريان.

[ح] وفاة يزيد وأقوال العلماء فيه:

كانت وفاة يزيد بن معاوية في الرابع عشر من ربيع الأول من سنة ٦٤ هـ [١]، وقد مر معنا قول محمد بن الحنفية فيه، وقال نوفل بن أبي عقرب: كنت عند عمر بن عبد العزيز فذكر رجل يزيد بن معاوية فقال: قال أمير المؤمنين يزيد، فقال عمر تقول أمير المؤمنين يزيد وأمر به فضرب عشرين سوطاً [٢].

وقال الذهبي: مقدوح في عدالته، وليس بأهل أن يروى عنه، وقال أحمد بن حنبل: لا ينبغي أن يروى عنه[٣].

وقال أيضاً: يزيد ممن لا نسبه ولا نحبه، وله نظراء من خلفاء الدولتين، وكذلك ملوك النواحي، بل فيهم من هو شر منهم، وإنما أعظم الخطب لكونه ولي بعد وفاة النبي ﷺ بسبع وأربعين سنة والعهد قريب، والصحابة موجودون كابن عمر الذي كان أولى بالأمر منه ومن أبيه وجده [٤].

وقال ابن تيمية - رحمه الله -:

افترق الناس في يزيد بن معاوية ثلاث فرق:

فالفريق الأول يقول: إنه كان كافراً منافقاً، والفريق الثاني يقول: إنه كان رجلاً صالحاً وإمام عدل، وادعى بعضهم أنه كان صحابياً، بل إن فريقاً منهم رفعه إلى مقام النبوة، أما الفريق الوسط فيقولون: إنه كان ملكاً من ملوك المسلمين له حسنات وسيئات، ولم يكن صحابياً ولم يكن كافراً، وهذا قول أهل العقل والعلم والسنة والجماعة [٥].

---

(١) تاريخ الطبري: ٥/ ٤٩٩.
(٢) تهذيب التهذيب ابن حجر: ١/ ٣٦١.
(٣) ميزان الاعتدال للذهبي: ٤/ ٤٤٠.
(٤) سير أعلام النبلاء للذهبي: ٤/ ٣٥.
(٥) الفتاوى لابن تيمية: ٤/ ٤٨١.



المبحث الرابع

الوليد بن عبد الملك

لقد ذكرت سيرة مروان بن الحكم، وعبد الملك بن مروان في الكتاب الأول.

[أ] نبذة عنه قبل الخلافة (٨٦-٩٦ هـ):

هو أبو العباس الوليد بن عبد الملك بن مروان القرشي الأموي، ولد سنة خمسين من الهجرة وكان مترفاً، وكان يلحن، وقرأ النحو شهوراً فلم ينفعه، وكان يكثر من قراءة القرآن (١) .

[ب] خلافته :

كان مروان بن الحكم قد أخذ البيعة لابنه عبد الملك ثم من بعده لأخيه عبد العزيز، وحاول عبد الملك في خلافته خلع أخيه عبد العزيز والبيعة لابنه الوليد، ولكنه صرف النظر عن ذلك، وقدر الله سبحانه وتعالى أن يتوفى عبد العزيز سنة ٨٥ هـ وبذلك مهدت البيعة للوليد ثم سليمان، فلما توفي عبد الملك تمت البيعة للوليد في شهر شوال سنة ٨٦ هـ (٢) .

[جـ] وفاته وبعض صفاته وأقواله :

مات الوليد بن عبد الملك في جمادى الآخرة سنة ست وتسعين وكانت مدة خلافته عشر سنين سوى أربعة أشهر (٣) . قال الذهبي: كان فيه عسف وجبروت وقيام بأمر الخلافة، وقد فرض للفقهاء والأيتام والزمنى والضعفاء وضبط الأمور، فالله يسامحه (٤) . وذكر ابن كثير أنه كان يبر حملة القرآن ويكرمهم ويقضي عنهم ديونهم (٥) .

---

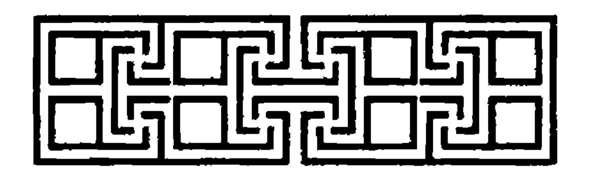
(١) سير أعلام النبلاء: ٤/٣٤٧-٣٤٨.
(٢) البداية والنهاية: ٩/٦٣-٦٤
(٣) سير أعلام النبلاء: ٤/٣٤٨.
(٤) البداية والنهاية: ٩/١٦٨
(٥) تاريخ الطبري: ٦/٤٩٦ .

ويؤكد هذا القول ما أورده الطبري : أن رجلاً من بني مخزوم أتاه يسأله في دينه فقال الوليد : نعم إن كنت مستحقاً لذلك، قال : يا أمير المؤمنين، وكيف لا أكون مستحقاً لذلك مع قرابتي! قال : أقرأت القرآن؟ ، قال : لا، قال : أدن مني فدنا منه، فنزع عمامته بقضيب كان في يديه، وقرعه قرعات بالقضيب، وقال لرجل : ضم هذا إليك، فلا يفارقك حتى يقرأ القرآن، فقام إليه عثمان بن يزيد بن خالد، فقال : يا أمير المؤمنين إن علي ديّناً، فقال : أقرأت القرآن؟ ، قال : نعم فاستقرأه عشر آيات من الأنفال وعشر آيات من براءة، فقرأ، فقال : نعم، نقضي عنكم ونصل أرحامكم على هذا. وكان الوليد يقول لولا أن الله ذكر قوم لوط في القرآن ما ظننت ذكراً يفعل هذا بذكر [1] .

قال ابن كثير- رحمه الله - :

فنفى عن نفسه هذه الخصلة القبيحة الشنيعة والفاحشة المذمومة ، التي عذب الله أهلها بأنواع العقوبات وأحل بهم أنواعاً من المُثلات، التي لم يعاقب بها أحداً من الأمم السالفة وهي فاحشة اللواط التي قد ابتلي بها غالب الملوك والأمراء والتجار والعوام والكتّاب .. إلا من عصم الله منهم [2] .

وفي خلافته فتحت السِند والأندلس وعادت سيرة الفتوحات التي كانت في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه .



(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) البداية والنهاية : ٩ / ١٦٩ .

المبحث الخامس

سليمان بن عبد الملك

[أ] نسبه:

هو سليمان بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية الخليفة أبو أيوب القرشي الأموى بويع له بعد أخيه الوليد سنة ستة وتسعين. كان ديناً فصيحاً عادلاً محباً للغزو يقال: نشأ بالبادية، وأمه وأم الوليد هي ولادة بنت العباس بن حزن العبسية.

جهز جيوشاً مع أخيه مسلمة براً وبحراً لمنازلة القسطنطينية، فحاصرها مدة حتى صالحوا على بناء مسجدها، وكان يستعين في أمر الرعية بعمر بن عبد العزيز، وعزل عمال الحجاج، وكتب: (إن الصلاة كانت قد أُميتت ، فأحيوها بوقتها، وهم بالإقامة ببيت المقدس، ثم نزل قنسرين [١] للرباط، وحج في خلافته).

[ب] بكاؤه في حجته :

رأى بالموسم الخلق، فقال لعمر بن عبد العزيز، أما ترى هذا الخلق الذي لا يحصيهم إلا الله، ولا يسع رزقهم غيره !؟ قال: يا أمير المؤمنين هؤلاء اليوم رعيتك وهم غداً خصماؤك فبكى وقال: بالله أستعين [٢] .

[جـ] توليته لعمر بن عبد العزيز:

ومن حسنات سليمان بن عبد الملك قبوله لنصيحة الفقيه العالم رجاء بن حيوة الكندي الذي اقترح على سليمان في مرض موته أن يولي عمر بن عبد

---

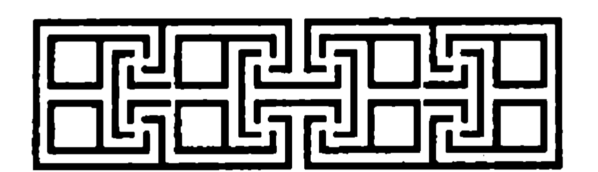
(١) بلدة بالشام بين حلب وأنطاكية، فتحها المسلمون سنة ١٧ هـ، بقيادة أبي عبيدة بن الجراح.

(٢) سير أعلام النبلاء: ٥ / ١١٢.

العزيز، وكانت وصية لم يكن للشيطان فيها نصيب .

وقال ابن سيرين- رحمه الله - :

يرحم الله سليمان افتتح خلافته بإحياء الصلاة ، واختتمها باستخلافه عمر بن عبد العزيز ، وكانت سنة وفاته سنة تسع وتسعين ، وصلى عليه عمر بن عبد العزيز، وكان منقوشٌ في خاتمة : أومن بالله مخلصاً [١] .



(١) سير أعلام النبلاء: ٥/١١١-١١٢ .

المبحث السادس

عمر بن عبد العزيز

﴿الخليفة الزاهد: ٩٩-١٠١هـ﴾

[أ] نبذة عنه قبل الخلافة :

هو عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم القرشي الأموي، وأمه أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب، وجدته من بني هلال، وقصتها مشهورة في امتناعها عن خلط الماء باللبن خوفاً من الله عز وجل واستجابة لنداء عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

ولد عمر بن عبد العزيز سنة ٦١ هـ وقيل ٦٣ هـ، وعاش في المدينة يتزود بالعلم من علمائها، فعاش في نعمة أعمامه وحنان أخواله، فجمع بين خصال العلم والدين إلى جانب الترف والثراء، ثم ارتحل إلى مصر بجانب أبيه الذي كان والياً عليها، ولما بلغ سن الشباب تاقت نفس عمه عبد الملك إلى مصاهرته فزوجه ابنته فاطمة.

ولاَّه عبد الملك على المدينة فجمع فقهاءها وأخبرهم أنه لن يقطع بأمر إلا بعد مشورتهم وطلب العون منهم فكانوا خير عون له، ثم عزله الوليد عن ولاية المدينة فانطلق إلى الشام واستقر في دمشق يشير على الوليد وينصحه، ولما تولى سليمان الخلافة قرب إليه عمر بن عبد العزيز وكان ألين عريكة وأسمع للنصح من الوليد فكان يأخذ في كثير من الأمور بمشورة عمر ويسرع في إرضائه إذا أغضبه [١] .

[ب] خلافته وأسباب الإشادة بها:

بويع له بالخلافة بعهد من سليمان ابن عبد الملك ، في شهر صفر من سنة

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٥ / ١١٤، البداية والنهاية: ٩ / ٢٠٠

٩٩ هـ [١] وعد من الخلفاء الراشدين [٢] ، رغم قصر خلافة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ، إلا أننا نلاحظ الإشادة بها في المصادر القديمة والمراجع الحديثة، ومن أصحاب النحل المختلفة إلا الحاقدين على الإسلام وأهله، فما سبب ذلك، مع أنه يمر بنا في دراسة التاريخ الإسلامي عدة خلفاء كان لهم أعمال جليلة ، ومع ذلك لم يكن لهم ذكر وإشادة من مختلف الناس مثل عمر بن عبد العزيز.

يتلخص ذلك في الأسباب التالية :

[١] الانقلاب الشخصي :

عاش عمر بن عبد العزيز قبل توليه الخلافة ثرياً مترفاً، تلمس ذلك في ثيابه حيث تفوح منها رائحة عطرة عبر الطرقات، ومشيته التي اشتهرت باسمه، والتي كان الجواري يتعلمنها من حسنها وتبختره فيها، كما عرف عنه الظرف والأناقة في الملبس والمظهر، وكانت الحلة تشترى له بألف دينار فيستخشنها، وكان يرى العنبر في لحيته كالملح، كان أحسن الناس لباساً وأطيبهم ريحاً، وقد بلغت غلته في السنة أربعين ألف دينار، ولكنه إثر توليه الخلافة ينقلب انقلاباً مذهلاً، فبعد أن يلقي خطبته الأولى يجد مراكب الخلفاء الفخمة قد أعدت له فيشيح بوجهه عنها ويطلب بغلته ليركبها، ويأمر بتلك المراكب والفرش فتباع ويضم ثمنها إلى بيت المال، لقد تغيرت حاله ساعة تحمله للمسئولية فكأنه لا يتصل بماضيه، وذكرياته وآبائه وأهله بصلة، ولا يعرف غير جده عمر بن الخطاب رضي الله عنه أسوة له.

أصبح لا يملك إلا قميصاً واحداً لا يتعدى ثمنه بضعة دراهم يغسله يوم الجمعة ويتأخر لذلك عن المسلمين المنتظرين لسماع خطبته، ويخرج إليهم وقميصه لم يجف حرصاً على أداء الصلاة في وقتها، وهو الذي أمر المؤمنين أن

---

(١) البداية والنهاية: ٩ / ١٩٢.

(٢) سير أعلام النبلاء : ٥ / ١١٤ . « هو سادس الخلفاء الراشدين لقول النبي ﷺ : « **الخلافة بعدي ثلاثون سنة ثم تكون ملكًا** » [رواه أحمد والترمذي وأبو داود بسند صحيح عن سُفينة مولى رسول الله ﷺ] . فكان الحسن بن عليّ رضي الله عنهما هو خامس الخلفاء الراشدين .

يخبروه إذا حان وقتها حتى لا تشغله أمور الخلافة عن وقتها، وقد كان قبل توليه الخلافة يتأخر عنها أحياناً لأن مرجلته لم تنته من تمشيط شعره، وأصبح يأكل من الطعام الخشن الذي يتكون من الخبز والزيت ويتوق للحج ولكنه لا يجد المال الكافي لأدائه، ويتورع عن شم مسك الفيء، ويقول عن مشيته العمرية، والله ما رأيتها كانت إلا جنوناً، باختصار شديد نقول: تجرد من الدنيا بعد أن أقبلت صاغرة إليه (١).

لذلك لا تعجب أبداً إذا رأينا في خلافته انقلاباً كبيراً في شئون الدولة وعودة إلى سيرة الخلفاء الراشدين فشخص استطاع أن يغير أحوال نفسه كل هذا التغيير سهل عليه أن يغير كل ما حوله ليوافق المنهج الذي التزم به.

[٢] عمله على إحقاق الحق ونشر العدل:

قال تعالى: ﴿ **وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا** ﴾ [المائدة :٤٨].

وقال عز وجل: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ** ﴾ [المائدة:٨].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ **إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ [الشورى:٤٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: « **سبعة يظلهم الله تحت ظله يوم لا ظل إلا ظله، الإمام العادل ..** » الحديث (٢).

---

(١) عماد الدين خليل: ملامح الانقلاب الإسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز: ٢٥-٤٠، استفدت منه في سيرة عمر بن عبد العزيز.

(٢) صحيح البخاري: كتاب الأذان، باب: ٣٩.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إن النبي ﷺ بعث معاذاً رضي الله عنه إلى اليمن فقال: « **اتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب** .. » الحديث [1] .

فالآيات والأحاديث السابقة أشارت إلى أهمية الحق والعدل، وحذرت أشد التحذير من الظلم، والمتتبع للتاريخ يجد أن كل دولة لم تقم على هذين المبدأين لا يكون لها ذكر حسن مهما قدمت من إنجازات، كما أن الدولة إذا انتشر فيها الظلم بشكل عام لا تعيش طويلاً ، كان عمر بن عبد العزيز حريصاً على هذين المبدأين في كل أعماله، فهو يرد المظالم إلى أهلها، فيبدأ بنفسه وأهل بيته فيقطع السجلات التي تخوله وأهل بيته امتلاك أرض جاءتهم بغير وجه حق، ويفتح بابه لكل طارق في مظلمة، بل إنه يطلب من كل من يصاحبه ويجالسه أن يوصل إليه حاجة من لا تصل إليه حاجته ويرشده إلى العدل عوناً له على الحق ويؤدي الأمانة إليه، وإلى الناس ولا يغتب أحد عنده وإلا فلا يصاحبه ويعزل الولاة الظلمة وكل من غمس يده في الدماء بغير حق، هذا وغيره من الأعمال كان لإحقاق الحق ونشر العدل بين الناس، ومن هنا كانت نظرة الناس إلى خلافته بعين الإكبار والإجلال رغم قصرها، ولعل هناك أسباباً أخرى ولكن هذين السببين في نظري من أهمها.

[جـ] أخلاقه :

تجمعت في عمر بن عبد العزيز صفات قل أن تجتمع في شخص أوتي السلطان، ونورد هنا بعض المواقف التي تمثل أخلاق عمر رحمه الله، حيث إن هذه المواقف تمثل أهمية خاصة لكل من أصبح راعياً لمجموعة من الناس.

■ كان عمر يعجبه أن يتأدم بالعسل، فطلب من أهله يوماً عسلاً ولم يكن عندهم شيء منه، ثم جاءوا به فأكل منه فأعجبه، ثم سأل امرأته من أين لك

---

(١) المصدر السابق: كتاب المظالم، باب: ٩.

هذا؟ فأخبرته امرأته أنها بعثت مولاها بدينارين على دواب البريد فجاء به، فطلب إحضار إناء العسل فأخذه وباعه ورد على أهله رأس المال وألقى بقيته في بيت مال المسلمين، وقال: نصبت دواب المسلمين في شهوة عمر [١] .

■ اشتهى يوماً تفاحاً فقام رجل من أهل بيته فأهدى له منه، فلما جاء به الرسول قال: ما أطيب ريحه وأحسنه، ارفعه يا غلام فأقرئ فلاناً مني السلام وقل له: إن هديتك قد وقعت منا بموقع بحيث تحب، فقال له أحدهم: يا أمير المؤمنين ابن عمك ورجل من أهل بيتك وقد بلغك أن النبي ﷺ كان يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة؟ قال: ويحك الهدية للنبي ﷺ هدية وهي اليوم لنا رشوة [٢] .

■ قال رجاء بن حيوة سمرت مع عمر ذات ليلة فغشي السراج فقال لي: ما ترى السراج قد غشي؟ قلت: بلى وإلى جانبه ضيف راقد، قلت: أفلا أنبهه؟ قال: لا دعه يرقد. قلت: أفلا أقوم أنا؟ ، قال: لا ليس من مروءة الرجل استخدام ضيفه، وقام إلى بطاقة زيت فأخذها فأصلح السراج ثم ردها في موضعها ثم رجه، وقال: قمت وأنا عمر بن عبد العزيز ورجعت وأنا عمر بن عبد العزيز[٣] .

■ خرج عمر في ليلة ومعه حرسه فدخل المسجد ، فمر في الظلمة برجل نائم فعثر به ، فرفع الرجل رأسه إليه وقال: أمجنون أنت؟ ، قال: لا ، فَهَمَّ به الحرس، فقال عمر: مه إنما سألني أمجنون أنت؟ ، فقلت له لا [٤] .

■ وكان عمر بن عبد العزيز رحمه الله زاهداً ورعاً حليماً متواضعاً ، وكان كثير البكاء خوفا من الله ، وكان يقوم الليل ولا يمر عليه يوم إلا نظر في المصحف فرضي الله عنه وأرضاه.

---

(١) سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز، لابن الجوزي: ٢١٠.
(٢) المرجع السابق: ٢١١.
(٣) سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز: ٢٢٦.
(٤) المرجع السابق: ٢٣٢.

[د] وفاته وأقوال العلماء فيه:

كانت وفاة عمر بن عبد العزيز رحمه الله بخناصرة من دير سمعان بين حماة وحلب، لخمس بقين من رجب من سنة ١٠١ هـ وقد كانت خلافته سنتين وخمسة أشهر، وقيل في سبب وفاته السل، وقيل: إن أمراء بني أمية دسوا له السم، والله أعلم أي ذلك كان (١) .

قال الذهبي - رحمه الله -: كان هذا الرجل حسن الخَلْق والخُلُق كاملَ العقل، حسن السمت جيد السياسة، حريصاً على العدل بكل ممكن، وافر العلم، فقيه النفس ظاهر الذكاء، والفهم أواهاً منيباً قانتاً لله حنيفاً، زاهداً مع الخلافة، ناطقاً بالحق مع قلة المعين وكثرة الأمراء الظلمة الذين ملوه وكرهوا محاققته لهم، ونقصه أعطياتهم، وأخذه كثيراً مما في أيديهم مما أخذوه بغير حق، فما زالوا به حتى سقوه السم، فحصلت له الشهادة والسعادة، وعد عند أهل العلم من الخلفاء الراشدين، والعلماء العاملين (٢) .

[هـ] دور عمر بن عبد العزيز في تعليم قبائل الشمال الإفريقي:

ومن حسنات عمر بن عبد العزيز العظيمة، إرساله للفقهاء العشرة إلى الشمال الإفريقي لتعليم أهلها دينهم، وإليك تراجم التابعين العشرة لتترحم عليهم وتدعوا لهم بالمغفرة والرحمة والرضوان على ما قدموه لأجدادنا من فقه وعلم وتزكية.

وقد بدأت بركات عهد عمر بن عبد العزيز على الشمال الإفريقي بتعيين أمير صالح عليها هو :

[١] إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر:

ولاه عمر بن عبد العزيز على إفريقية سنة (٩٩- ١٠٠هـ)، فكان خير أمير، قال ابن خلدون :وأسلم جميع البربر في أيامه،وأرسل معه عشرة من فقهاء

(١) البداية والنهاية: ٩/ ٢٠٠، ٢١٨ .

(٢) سير أعلام النبلاء: ٥/ ١٢٠ .

التابعين وعلمائهم يفقهون الناس في أمور الدين ويبينون لهم الحلال والحرام[١].

وكان هذا الأمير في غاية الزهد والتواضع حريصاً على نشر العلم وسار في أهل البلاد بسيرة العدل، وكان شديد الحفظ لحديث الرسول ﷺ فقد روى عنه ابن عساكر أنه قال: ينبغي لنا أن نحفظ حديث رسول الله ﷺ كما نحفظ القرآن.

أخرج له البخاري، ومسلم، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه، وأحمد وغيرهم. ومكث في القيروان معلماً للناس، ناشراً للسنة، لمدة ثلاث وثلاثين سنة حيث توفي بها سنة ١٣١ هـ.

[٢] بكر بن سوادة الجذامي، أبو ثمامة (ت ١٢٨ هـ بإفريقية):

أقام في الشمال الإفريقي أكثر من ثلاثين سنة، محدثاً، ومفتياً، وفقيهاً، وقد انتفع به أهلها، ورووا عنه، أدخل إلى القيروان حديث عدد من الصحابة، منهم: عقبة بن عامر، وسهل بن سعد الساعدي، وسفيان بن وهب الخولاني، كما روى عن جماعة من التابعين منهم: سعيد بن المسيب، وابن شهاب الزهري، وقد قارب شيوخه الأربعين. روى عنه كثير من أهل القيروان منهم عبد الرحمن بن زياد، وأبو زرعة الإفريقي. وكان ثقة في حديثه، أخرج له مسلم والأربعة، والبخاري تعليقاً، وأحمد، والطبراني وغيرهم، وعداده في المصريين رغم طول مكثه بالقيروان ووفاته بها.

[٣] جُعثُل بن عاهان الرُّعيني القتباني، أبو سعيد، (ت حوالي ١١٥ هـ):

عده أبو العرب وابن حجر وغيرهما في التابعين، ولم يذكروا عمن روى من الصحابة، وكان محدثاً، فقيهاً، مقرئاً، تولى قضاء الجند بالقيروان، وبث فيها علماً كثيراً لمدة زادت عن خمسة عشر عاماً، وروى عنه من أهل القيروان عبيد الله بن زحر، وعبد الرحمن بن زياد، وبكر بن سوادة وهو زميله في البعثة العلمية.

---

(١) تاريخ الفتح العربي في ليبيا: ١٤٨.

وثقه أكثر النقاد، وأخرج له الأربعة وأحمد وغيرهم: توفي في خلافة هشام ابن عبد الملك سنة ١١٥ هـ.

[٤] حبان بن جبلة القرشي: مولاهم، ودَفْعُ الوهم بأن عمر رضي الله عنه أرسله لتفقيه أهل مصر (ت ١٢٥ وقيل ١٢٢ بالقيروان):

أدخل في الشمال الإفريقي حديث جملة من الصحابة منهم: ابن عباس، وابن عمر، وعبد الله بن عمرو، ووالده عمرو، وبقي يبث العلم في عاصمة الشمال الإفريقي في مدينة القيروان أكثر من خمس وعشرين سنة، انتفع به أهلها، وروى عنه كثيراً منهم، كعبد الرحمن ابن زياد، وعبيد الله بن زحر، وموسى بن علي بن رباح وغيرهم، وهو عند النقاد ثقة في حديثه، أخرج له البخاري في الأدب المفرد، وابن سنجر في مسنده والحاكم في المستدرك وغيرهم.

[٥] سعد بن مسعود التجيبي: أبو مسعود (ت بالقيروان)، ودفع الوهم بعده في الصحابة:

يروي عن جماعة من الصحابة، منهم: أبو الدرداء ويروي عن النبي ﷺ مرسلاً حتى وهم بعضهم فعدّه في الصحابة، ولذلك نبهت معظم المصادر على أنه لا صحبة له، وقد سكن القيروان وبث في الشمال الإفريقي علماً كثيراً، وكانت مجالسه مليئة بالحكم والمواعظ البليغة، وكان شديداً على الأمراء.

روى عنه من أهل القيروان: مسلم بن يسار الإفريقي، وعبيد الله بن زحر، وعبد الرحمن بن زياد الإفريقي، في جامع ابن وهب وغيره، وذكر الدباغ أنه توفي بالقيروان بعد أن بث فيها علماً كثيراً، ولم يذكر تاريخ وفاته.

[٦] طلق بن جعبان الفارسي:

وقيل: جابان، والصواب الأول كما في الإكمال، تابعي، لقي ابن عمر وسأله، وأكثر روايته عن التابعين، كان فقيهاً عالماً، روى عنه من أهل القيروان: موسى بن علي، وابن أنعم، ولم يذكروا مدة إقامته بها ولا تاريخ وفاته.

[٧] عبد الرحمن بن رافع التنوخي، أبو الجهم (ت بالقيروان سنة ١١٣ هـ):

دخل القيروان في وقت مبكر، سنة ٨٠ هـ ، وهو أجل قضاتها، وذلك على عهد حسان بن النعمان واستمر يبث فيها العلم ما يقارب ثلاثاً وثلاثين سنة، حتى انتفع به خلق كثير من أهلها.

وقد أدخل إلى القيروان حديث جماعة من الصحابة عرفنا منهم: عبد الله بن عمرو بن العاص. وحدث عنه من القرويين: عبد الرحمن ابن زياد الإفريقي، وعبيد الله بن زحر الكناني، وبكر بن سوادة الجذامي، وغيرهم.

أخرج له البخاري في الأدب المفرد وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه في سننهم، والفسوي في المعرفة والتاريخ، وغيرهم.

وقد ضعف النقاد حديثه، قال البخاري في التاريخ الكبير: (في حديثه مناكير). وقال ابن حبان في الثقات: (لا يحتج بخبره إذا كان من رواية ابن أنعم، وإنما وقع المناكير في حديثه من أجله). وقال في مشاهير علماء الأمصار: (من ثقات المصريين وإنما وقعت المناكير في روايته من جهة الإفريقي لا من جهته) وهو أول من ولي قضاء القيروان وتوفي بها سنة ١١٣ هـ .

[٨] عبد الله بن المغيرة بن أبي بُردة الكناني، (ت بعد سنة ١٢٣):

كان مقيماً في القيروان قبل زمن بعثة عمر بن عبد العزيز بمدة طويلة، وكان معروفاً لدى أهلها مشهوراً بينهم بالعدالة والتقى، وقد ولاه عمر بن عبد العزيز قضاء القيروان سنة ٩٩ هـ ، لما علمه من فضله ودينه وعلمه، فاستمر في منصبه إلى أن استقال منه سنة ١٢٣ هـ ، وكان زاهداً ورعاً عالماً، سار في أهل القيروان بالكتاب والسُّنَّة ونشر العلم بينهم لمدة طويلة زادت عن خمس وعشرين سنة ذكره ابن حبان في الثقات وأثنى عليه المصنفون بالفضل والدين والعلم.

[٩] عبد الله بن يزيد المعافري الحبلي، أبو عبد الرحمن (ت ..١ هـ بالقيروان على الصحيح):

دخل القيروان في زمن مبكر،ولعل ذلك كان مع موسى بن نصير سنة ٨٦ هـ

لأنه شهد فتح الأندلس، ثم عاد إلى القيروان، فسكنها وبنى بها داراً ومسجداً، ثم عين ضمن أفراد البعثة العلمية إلا أن وفاته كانت سنة ١٠٠ هـ، أي بعد سنة واحدة من التكليف الرسمي، ومع ذلك فقد قال عنه المالكي: (فانتفع به أهل إفريقية، وبث فيها علماً كثيراً).

أدخل إلى القيروان حديث جماعة من الصحابة ممن لم يدخلها: وزاد في إفشاء حديث من دخلها منهم، حدث عن ابن عمر، وعقبة ابن عامر، وابن عمرو، وأبو ذر، وروى عنه من أهلها عبد الرحمن بن زياد، وأبو كريب جميل بن كريب القاضي (ت ١٣٩)، وغيرهما.

وكان رجلاً صالحاً ورعاً شديد الإقبال على نشر السُّنَّة، وكان تأثيره في الحياة العلمية - خاصة الجانب الحديثي منها - بالقيروان كبيراً، وقد بنى فيها مسجداً لمجالسه العلمية.

أجمع النقاد على توثيقه، وحديثه عند مسلم، والأربعة، وابن وهب في جامعه، وأحمد وغيرهم.

[١٠] وهب بن حي المعافري:

وقد ذكر ابن أبي حاتم أن هناك من قلبه إلى: حي بن موهب وأن أبا زرعة قد صحح ذلك، غزا إفريقية قديماً، لأنه سأل ابن عباس المتوفى سنة ٦٨ هـ، عن آنية أهل المغرب كما في الرياض والمعالم، وهو من أفراد بعثة عمر، وقد سكن القيروان، وبث فيها علماً كثيراً، وبها كانت وفاته، وقد أدخل إلى القيروان حديث ابن عباس وغيره، وروى عن النبي ﷺ مرسلاً، وروى عنه من أهل القيروان عبد الرحمن بن زياد الإفريقي. ولم تظهر المصادر حاله من حيث التعديل والجرح [١].

هؤلاء الفقهاء العشرة من خيرة فقهاء التابعين أرسلهم عمر بن عبد العزيز إلى

(١) راجع هذه التراجم في الكتاب القيم، مدرسة الحديث بالقيروان: ٢ / ١٤ إلى ٥٢٢

الشمال الإفريقي ليفقهوا ويعلموا الناس دينهم فكانوا عند ظنه بهم وكانوا للناس قدوة صالحة. وقد سبق هؤلاء العشرة كثير من التابعين الذين قاموا بتعليم أهل البلاد أحكام الدين علماً وعملاً.

وكان لهؤلاء العشرة آثار هامة في الفقه والحديث وفي نشر السُنَّة العملية والاعتقادية الصحيحة، وساعدوا ولاة أمور المسلمين على مقاومة النحل الخارجية وتركيز أحكام الإسلام بين البربر، فقد روى المالكي أنه لما ثارت الخوارج على حنظلة بن صفوان بطنجة سنة ١٢٢هـ جمع حنظلة علماء إفريقية وهم الذين بعثهم عمر بن عبد العزيز إلى إفريقية ليفقهوا أهلها فكتبوا هذه الرسالة ليقتدي بها المسلمون ويعتقدوا ما فيها: (.. فإن أهل العلم بالله وبكتابه وسُنَّة نبيه ﷺ يعلمون أنه يرجع جميع ما أنزل الله عز وجل إلى عشر آيات: آمرة وزاجرة ومبشرة، ومنذرة، ومخبرة، ومحكمة، ومتشابهة، وحلال وحرام وأمثال، فآمرة بالمعروف، وزاجرة عن المنكر، ومبشرة بالجنة، ومنذرة بالنار ومخبرة بخبر الأولين والآخرين، ومحكمة يعمل بها، ومتشابهة يؤمن بها، وحلال أمر أن يؤتى، وحرام أمر أن يُجْتَنب، وأمثال واعظة، فمن يطع الآمرة وتزجره الزاجرة فقد استبشر بالمبشرة وأنذرته المنذرة، ومن يحلل الحلال، ويحرم الحرام، ويرد العلم فيما اختلف فيه الناس إلى الله، مع طاعة واضحة ونية صالحة، فقد فاز وأفلح وأنجح وحيي حياة الدنيا والآخرة والسلام) [١] .

إن هذه الرسالة تعتبر وثيقة عظيمة الأهمية إذ تدل على أصالة علم هذه البعثة العلمية، ووضوح أهدافهم الشرعية أمامها حتى أنهم أوجزوا فحوى الرسالة المحمدية – على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم – في عدة سطور موجزة. ونظراً لعظيم فائدتها عممت على أن تقرأ على منابر المساجد في جميع ضواحي إفريقية.

---

(١) انظر : رياض النفوس للمالكي: ١ /١٠٢، ١٠٣ .

الفصل الثاني

عصر الولاة (٩٦-١٨٤هـ)

المبحث الأول

نبذة تاريخية عامة عن الحالة في عصر الولاة (*)

يطلق عصر الولاة على تلك الحقبة الزمنية الواقعة بين انتهاء زمن الفتح وقيام دولة الأغالبة، وفي هذه الفترة كان حكَّام الشمال الإفريقي يُعيَّنون من قبل الخليفة، ويمتد نفوذهم إلى المغرب والأندلس إلى أن استقل بالأندلس عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك سنة ١٣٧ هـ.

لقد امتازت بداية هذا العصر بوئام عجيب بين الفاتحين وإخوانهم البربر المسلمين الذين أقبلوا في شغف على تعلم الدين الجديد، وانضموا إلى الجيش الإسلامي، وحدثت بينهم المصاهرات، وكثر بناء المساجد والكتاتيب في سائر البلاد الإفريقية، وأخذ أهل مدنها يقلدون العاصمة الإسلامية حتى في طرازها المعماري، وانتشرت الثقافة الإسلامية بين البربر، ولا غرابة في كل هذا فإن أول الولاة وهو محمد بن يزيد القرشي (٩٦-٩٩ هـ) قد استقر في إفريقية بأحسن سيرة وأعدلها، وكان يقسم ما يقبضه من غنائم على المسلمين من البربر والعرب على السواء.

وبذلك نَعِمَ البربرُ بعدالة الإسلام فكان لهذا التصرف أبعد الأثر في نفوسهم، وتدعمت هذه السيرة الحسنة بقدوم إسماعيل بن أبي المهاجر (٩٩-١٠١ هـ) والياً من قبل الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز، فسار سيرة من أرسله (خير وال

(*) هذا المبحث أخذته من كتاب مدرسة الحديث في القيروان.

وخير أمير، وما زال حريصاً على دعاء البربر إلى الإسلام فأسلم بقية البربر على يديه)، وكان إذا عاد من الغزو افترش ذراعه فنام عليه وكان زاهداً متواضعاً من كبار العباد، فأقبل عليه البربر المسلمون يسمعون منه حديث رسول الله ﷺ، وقد كان في روايته من الثقات، أخرج له الجماعة إلا الترمذي.

ونظراً لاهتمام عمر بن عبد العزيز بتدوين السُّنَّة وحرصه على نشرها فقد أرسل واليه ابن أبي المهاجر ضمن عشرة من التابعين، من ثقات رواة الحديث، لتفقيه أهل القيروان ونشر السُنَّة في ربوع إفريقية، وكانوا أهل علم وفضل اختط كل منهم داراً بالقيروان، وبنى مسجداً وكتّاباً لتعليم البربر وأبنائهم اللغة العربية ومبادئ الإسلام، وقد وصف كل منهم بأنه: (انتفع به أهل إفريقية وبث فيها علماً كثيراً).

ولا شك أن المقصود بالعلم هنا علم الرواية المتعلق بالكتاب والسُّنَّة بصفة عامة، سواء من ناحية أدائها إلى طلابها بالإسماع والإقراء وغيرها، أو من ناحية تبليغ أحكامها المتعلقة بالعقيدة والعبادات والمعاملات والأخلاق، إذ أن المذاهب الفقهية المحددة بالأئمة الأربعة وغيرهم لم تكن قد ظهرت بعد، وقد استقر هؤلاء التابعون بالقيروان حتى عُدُّوا من أهلها، فقد اعتبرهم المالكي الطبقة الأولى من علماء القيروان، ومنهم من زادت إقامته بها على ثلاثين عاماً، وهم في كل ذلك لا يفترون عن القيام بمهمة نشر العلم بإفريقية.

إلا أن هذا التوجه لم يدم طويلاً بسبب فساد سياسة الولاة التالين ، فما أن توفي عمر بن عبد العزيز سنة ١٠١هـ حتى سارع يزيد بن عبد الملك بعزل إسماعيل بن أبي المهاجر وتولية يزيد بن أبي مسلم كاتب الحجاج وصاحب شرطته، وكان ظلوماً غشوماً أساء السيرة في البربر، وأراد وسم حرسه في أيديهم - وكان أكثرهم من مسلمي البربر - كما تفعل ملوك النصارى، ووضع الجزية على من أسلم من أهل الذمة، متبعاً سيرة الحجاج في أهل العراق، فنقم عليه

البربر، واتفق حرسه على قتله، وقالوا: جعلنا بمنزلة النصارى، فلم يلبث أن قتلوه وتولى بعده بشر بن صفوان الكلبي (١٠٣-١٠٩ هـ) ثم عبيدة بن عبد الرحمن السلمي (١١٠-١١٤ هـ) فكان همهما الغزو، ولم يؤثر عنهما اهتمام بالعلم، إلا أن الثاني ظلم البربر وتعسف في معاملتهم فحنقوا عليه.

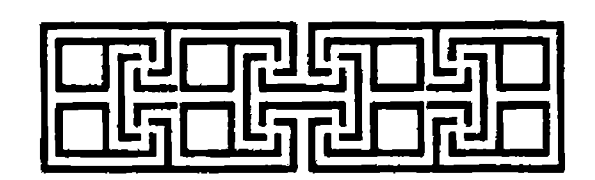
ثم قدمها عبيد الله بن الحبحاب سنة (١١٦ هـ) من قبل هشام بن عبد الملك فأتم بناء جامع الزيتونة، ودار الصناعة بتونس، وغزا صقلية وجنوب الصحراء إلا أنه استجاب لمطامع رؤسائه بالمشرق فإنهم كانوا يستحبون طرائف المغرب، ويبعثون فيها إلى عمال إفريقية.

واشتد استياء البربر المسلمين من هذه الأفعال القبيحة، ورأوا التناقض الصارخ بين تعاليم الإسلام وبين سلوك هؤلاء العمال، وأصبحت عندهم قابلية للتمرد في الوقت الذي فشت فيه النزعة الخارجية في إفريقية والمغرب، ونادى أصحابها بشعارات خارجية، ظاهرها فيه بعض الحق وباطنها ينطوي على شر عظيم، كالمساواة بين المسلمين ووجوب الخروج على الحكام الظلمة وغيرها، فصادف ذلك هوى في نفوس البربر، وتحمس كثير منهم لما نادى به دعاة الخوارج، إلا أنهم لم يعلنوا التمرد والعصيان إلا بعد أن يئسوا من إمكانية تبليغ صوتهم بالشكوى إلى الخليفة، ذلك ما ذكره الطبري حيث قال: فما زالوا - بربر إفريقية - من أسمع أهل البلدان وأطوعهم إلى زمان هشام ابن عبد الملك... فلما دب إليهم دعاة العراق واستشاروهم شقوا عصاهم، وفرقوا بينهم إلى اليوم.

وكان من سبب تفريقهم: أنهم ردوا على أهل الأهواء فقالوا: إنا لا نخالف الأئمة، بما تجني العمال، ولا نحمل ذلك عليهم، فقالوا لهم: إنما يعمل هؤلاء بأمر أولئك. فقالوا لهم: لا نقبل ذلك حتى نبورهم -،أي نختبرهم - فخرج ميسرة المظفري زعيم الصفرية في بضعة عشر إنساناً حتى قدم على هشام، فطلبوا الإذن، فصعب عليهم، فأتوا الأبرش - وزير هشام بن عبد الملك - فقالوا: أبلغ

أمير المؤمنين أن أميرنا يغزو بنا وبجنده فإذا أصاب نفلهم دوننا. وقال تقدموا وأخّر جنده. فقلنا: تقدموا فإنه ازدياد في الأجر ومثلكم كفى إخوانه .. ثم إنهم عمدوا إلى ماشيتنا فجعلوا يبقرونها على السخال يطلبون الفراء الأبيض لأمير المؤمنين فاحتملنا ذلك، ثم إنهم ساومونا أن يأخذوا كل جميلة من بناتنا فقلنا: لم نجد هذا في كتاب ولا سُنَّة ونحن مسلمون، فأحببنا أن نعلم عن رأي أمير المؤمنين ذلك أم لا؟ قال: نفعل. فلما طال عليهم ونفذت نفقاتهم ... كان وجههم إلى إفريقية فخرجوا على والي هشام فقتلوه واستولوا على إفريقية.

وهكذا اندلعت بإفريقية، والمغربّ ثورات لا نهاية لها، ابتدأت سنة ١٢٢ هـ وهي أول ثورة في إفريقية في الإسلام، وتضافرت جهود الإباضية والصفرية للإطاحة بحكومة القيروان، وأصبح هَمّ الخليفة في المشرق القضاء على هذه الثورات فكان يرسل الجيش تلو الآخر، وقد ذكروا أن هذه الحروب منذ أن استعرت إلى أن تم القضاء عليها، في عهد يزيد بن حاتم سنة ١٥٦ هـ بلغت ٣٧٥ موقعة ذهب ضحيتها آلاف القتلى، وقد شارك فيها العلماء مقاتلين وواعظين، فقد استنجد حنظلة بن صفوان بمن تبقى من بعثة عمر بن عبد العزيز لما ثارت عليه الخوارج، وقد دامت هذه الحروب أكثر من ثلاثين سنة تمكن الخوارج خلالها من الاستيلاء على القيروان مرتين، حيث استولى عليها الصفرية سنة ١٤٠ هـ لمدة سنة وشهرين، وقد ربطوا دوابهم في المسجد الجامع وقتلوا كل من كان فيها من قريش وعذبوا أهلها .. ثم وليها بعدهم الإباضية لمدة سنتين [١].



(١) مدرسة الحديث في القيروان: ١/٥٦ إلى ٦١.

المبحث الثاني

نبذة عن ولاة الدولة الأموية وخلفائهم في عصر الولاة

[١] يزيد بن عبد الملك:

هو الخليفة أبو خالد القرشي الأموي الدمشقي، استخلف بعهد عقده له أخوه سليمان بعد عمر بن عبد العزيز، وأمه عاتكة بنت يزيد ابن معاوية ولد سنة إحدى وسبعون. وكان لا يصلح للإمامة، مصروف الهمة إلى اللهو والغواني، مريض بنوع من السل، ومات بسود الأردن لخمس بقين من شعبان سنة خمس ومئة، فكانت دولته أربعة أعوام وشهراً، وعهد بالخلافة إلى أخيه هشام، ثم من بعده لولده الوليد بن يزيد .

[٢] يزيد بن أبي مسلم:

ولاه يزيد بن عبد الملك ولاية إفريقية وكان ظلوماً غشوماً أساء السيرة في البربر، وأراد وسم حرسه في أيديهم، و(كان أكثرهم من مسلمي البربر)، كما تفعل ملوك النصارى، ووضع الجزية على من أسلم من أهل الذمة، متبعاً سيرة الحجاج في أهل العراق، فنقم البربر واتفق حرسه على قتله، وقالوا: (جعلنا بمنزلة النصارى) فلم يلبث أن قتلوه وولوا عليهم محمد بن يزيد - (وهي ولايته الثانية) وكتبوا إلى يزيد بن عبد الملك معتذرين من قتل يزيد بن أبي مسلم فقبل عذرهم وأقر ما فعلوه . وقد اقترن قتل يزيد بظهور دعوة الخوارج في إفريقية، وقد وصلت إليهم من القادمين من العراق، فلقنوها لمسلمي الشمال الإفريقي فاستجاب لها من كان في نفسه هوى وانغمس في الجهل وتأثر من سوء سيرة الولاة، وله أغراض في تدمير الخلافة الإسلامية .

[٣] ولاية بشر بن صفوان على أفريقية:

ولاه يزيد بن عبد الملك على إفريقية سنة ١٠٣هـ ، وقد نكَّل بآل موسى بن نصير تنكيلاً فظيعاً ، واستصفى أموالهم لنفسه، ثم رجع إلى يزيد فوجده قد توفي سنة ١٠٥هـ ، وتولى هشام بن عبد الملك فرده إلى إفريقية، وغزا صقلية، ورجع إلى القيروان فمات بها سنة ١٠٩هـ ، وكانت ولايته سبع سنين (١) .

[٤] الخليفة هشام بن عبد الملك:

ابن مروان أبو الوليد القرشي الأموي الدمشقي ولد بعد السبعين، واستخلف بعهد معقود له من أخيه يزيد، وكانت خلافته في شعبان سنة خمس ومئة، وأمه فاطمة بنت الأمير هشام بن إسماعيل بن هشام أخي خالد بن الوليد بن المغيرة المخزومي ، وكان هشام حريصاً جماعاً للمال، عاقلاً حازماً سائساً فيه ظلم مع عدل (٢) .

[٥] الخليفة هشام مع سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب أحد الفقهاء السبعة:

لما حج هشام بن عبد الملك دخل الكعبة فإذا هو بسالم بن عبد الله، فقال لسالم سلني حاجة، فقال: إني لأستحيي من الله أن أسأل في بيته غيره، فلما خرج سالم خرج هشام في أثره فقال له: الآن خرجت من بيت الله فسلني حاجة، فقال سالم: من حوائج الدنيا أم حوائج الآخرة؟، قال: من حوائج الدنيا ، فقال سالم: إني ما سألت الدنيا من يملكها، فكيف أسألها من لا يملكها ؟! (٣) .

من أقوال الخليفة هشام : (ما بقي علي شيء من لذات الدنيا إلا وقد نلته إلا شيئاً واحداً، أخٍ أرفع مؤنة التحفظ منه) . ومن شعره: ويقال: إنه ما حفظ له من الشعر سوى هذا البيت :

---

(١) تاريخ الفتح العربي في ليبيا: ١٦١ .
(٢) البداية والنهاية: ٥/ ٢٤٤ .
(٣) البداية والنهاية: ٥/ ٣٦٨ .

إذا أنت لم تعص الهوى قادك الهوى إلى بعض ما فيه عليك مقال [١]

وفاته :

كانت وفاته بسبب ورم الحلق ، داء يقال له : الحرذوْن، وفي سكرات موته نظر إلى أولاده يبكون حوله فقال : جاد لكم هشام بالدنيا وجدتم عليه بالبكاء، وترك لكم ما جمع، وتركتم له ما كسب، ما أسوأ منقلب هشام إن لم يغفر الله له، وكان نقش خاتمه الحكم للحكم الحكيم، وكانت وفاته يوم الأربعاء لِسِتٍ بقين من ربيع الآخر سنة خمس وعشرين ومئة

قال العلامة ابن كثير - رحمه الله -:

(لما مات هشام بن عبد الملك مات ملك بني أمية، وتولى وأدبر أمر الجهاد في سبيل الله، واضطرب أمرهم جداً، وإن كانت قد تأخرت أيامهم بعده نحو من سبع سنين، ولكن في اختلاف وهيج، وما زالوا كذلك حتى خرجت عليهم بنو العباس فاستلبوهم نعمتهم وملكهم وقتلوا منهم خلقاً وسلبوهم الخلافة [٢] .

[٦] ولاية عبيدة بن عبد الرحمن على إفريقية:

ولاه هشام بن عبد الملك على إفريقية في المحرم أو صفر سنة ١١٠هـ مكان بشر، وكان محل إقامته القيروان [٣] .

[٧] يزيد بن مسلم الكندي:

كان عاملاً على طرابلس من قبل عبيدة بن عبد الرحمن وكان المستنير بن الحبحاب الحرشي قد كلف بغزو صقلية من طرف عبيدة، فتثاقل عن غزوها حتى جاء الشتاء وصعب ركوب البحر، ثم جهز نفسه وغزاها، وبينما هو في طريقه إليها هاج به البحر، وأغرق كل ما معه من السفن بما فيها ومن فيها، ورمي

---

(١) **انظر**: سير أعلام النبلاء: ٥ / ٣٥١-٣٥٣ .

(٢) البداية والنهاية: ٥ / ٣٦٩ .

(٣) تاريخ الفتح العربي في ليبيا: ١٦١ .

بالسفينة بمن كان بها على طرابلس، فأمسكه يزيد حتى جاءه كتاب عبيدة يأمره بالقبض عليه وإرساله إليه موثوقاً، فنفذ يزيد أمر عبيدة وأرسل إليه ابن الحبحاب كما أمر، فأوجعه ضرباً، وطاف به القيروان، على حمار تشهيراً به لتقصيره في غزو صقلية، وتأخيره إلى وقت الشتاء حتى كان ذلك سبباً في غرق الجيش وخسارة المسلمين، وعزل هشام عبيدة سنة ١١٤هـ ودامت ولايته أربع سنين وستة أشهر [١] .

[٨] عبيد الله بن الحبحاب:

ولاه هشام بن عبد الملك على إفريقية في ربيع الآخر سنة ١١٦هـ ، وقيل سنة ١١٤ هـ ويقال: إنه هو الذي بنى جامع تونس، وقد ظهر لهشام في عدة مناسبات عجزه عن القيام بأمور المسلمين، فعزله في جمادى الأولى سنة ١٢٣ هـ [٢] .

يشعر المتتبع لأحداث إفريقية بأنه منذ أن تولى يزيد بن مسلم ١٠٢هـ إلى أن تولى كلثوم بن عياض سنة ١٢٣ هـ ، قد قل النشاط في إفريقية، وأهمل أمر الفتح ومحاولة إخضاع من لم يخضع من البربر. ولولا ما كان من أمر عبيدة لابن الحبحاب بغزو صقلية وفشله فيه لقلنا: إنه لم يكن هناك نشاط، ويظهر أن الخليفة هشاماً أدرك هذا خصوصاً لما ظهر له عجز عبيد الله بن الحبحاب، فتدارك الأمر وولى[٣] على إفريقية كلثوم بن عياض ليجدد النشاط في إخضاع من بقي مناوئاً للخلافة.

[٩] كلثوم بن عياض :

وبلغت أخبار الخوارج في إفريقية هشام بن عبد الملك، فولى عليها كلثوم بن عياض القشيري في جمادى الآخرة سنة (١٢٣هـ) وأرسله إليها في جيش قوامه

---

(١) المصدر السابق: ١٦١-١٦٢-١٦٣ .

(٢) تاريخ الفتح العربي في ليبيا: ١٦١-١٦٢-١٦٣ .

(٣) المصدر السابق نفسه.

اثنا عشر ألفًا ، وخرج معه أهل مصر، وأهل برقه، وأهل طرابلس، وزحف إلى الشمال الإفريقي متوغلاً سنة (١٢٣هـ) فلقيه ميسرة من رؤساء الخوارج الصفرية -بقرب طنجة- في جموع من البربر كثيرة واستماتوا في قتاله حتى قتلوه وهزموا جيشه، وقويت شوكة الخوارج واقتطعوا المغرب عن طاعة الخلفاء في المشرق[١] .

ويقول صاحب شذرات الذهب : هزمهم أبو يوسف الأزدي رأس الصفرية الخوارج، ولعل ميسرة هو أبو يوسف أو أحد قواده، واتبعت الخوارج من انكسر من المسلمين فثبت لهم حتى بلغ القشيري ابن عم كلثوم وانتصر عليهم، وقتل أبا يوسف الازدي رئيس الخوارج [٢] .

[١.] صفوان بن أبي مالك :

لما وصل كلثوم إلى طرابلس، وكان الحاكم عليها صفوان بن أبي مالك أعد صفوان جيشاً وخرج معه إلى إفريقية، فوصلوا القيروان في رمضان في هذه السنة وكان الجيش يقدر بثلاثين ألفاً ، وخرج كلثوم لقتال الخارجين عن الخلافة واستخلف على القيروان عبد الرحمن بن عقبة الغفاري ، وعلى الحرب مسلمة بن سوادة الجذامي القرشي.

وما زال بعض الرؤساء من البربر الذين اعتنقوا المذهب الخارجي يتربصون بالمسلمين ويتحينون الفرص للوثوب عليهم، ومن هؤلاء القادة عكاشة بن أيوب الفزاري، وهو من قبيلة هوارة من البرابرة الصفرية، وكان يقيم بنواحي قابس، فجمع هوارة وسار بها على مسلمة بن سوادة منتهزاً غياب عياض بن كلثوم عن القيروان، وأرسل عكاشة إلى صبراته فحصر أهلها في المسجد، وجعل عليها حبيب بن ميمون .

---

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) شذرات الذهب في أخبار من ذهب لأبي الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي: ١ / ١٦١ .

وبلغ خبر ما حل بأهل صبراته إلى صفوان حاكم طرابلس، فخرج لنجدتهم، وحاول أخو عكاشة أن يدافع عن صبراته، فما لبث أن غلب على أمره ونجا برأسه منهزماً بعد أن قتل أكثر أصحابه من زناته وهوارة وغيرهم، ولحق بأخيه عكاشة في قابس، وكتب كلثوم بن عياض إلى صفوان بطرابلس يستنجده على عكاشة، فأنجده بأهل طرابلس ... ولكن جيوش الخوارج من البربر تكاثرت على كلثوم فقتل قبل أن يصل إليه صفوان في نجدته، ولما بلغ صفوان قابس بلغه قتل كلثوم وأصحابه فرجع إلى طرابلس، وتفرق جيش كلثوم، فرجع أهل إفريقية ومصر إلى إفريقية، وذهب أهل الشام إلى الأندلس وكان من بينهم عبد الرحمن بن حبيب الآتي ذكره، وكان ذلك سنة ١٢٤هـ أو ١٢٥هـ .

لم ييأس من بقي من المسلمين من النصر برجوع صفوان إلى طرابلس وقتل كلثوم بالرغم من مكانتهما المرموقة بينهم فتحصن سعيد بن بحرة وأصحابه بقابس وتنحى عنها عكاشة بنحو عشرين ك.م. وأعاد المسلمون جمع صفوفهم، فخرج عبد الرحمن بن عقبة الغفاري في أهل القيروان لقتال عكاشة فلقيه بين القيروان وقابس، فانهزم عكاشة وقتل عامة أصحابه ثم جمع جموعه وأعاد الكرة على عبد الرحمن، فهزم عكاشة وأعاد الكرة الثالثة فهزم، وفي الرابعة استعان بعبد الواحد ابن يزيد الهواري الصفري فخرج إليهم عبد الرحمن، فقتل عبد الرحمن وأصحابه وكان ذلك سنة ١٢٤ هـ وتقدم عكاشة وعبد الواحد في جيوشهم إلى القيروان [١] .

[١١] حنظلة بن صفوان الكلبي:

بعد قتل عبد الواحد بن عقبة كان عكاشة وعبد الواحد يهددون القيروان بجموعهما، وأسند هشام بن عبد الملك ولاية إفريقية والمغرب إلى حنظلة بن

---

(١) تاريخ الفتح العربي: ١٦٤-١٦٥ .

صفوان في صفر سنة ١٢٤ هـ فأخذ في الاستعداد للدفاع عن القيروان.

وكان عكاشة بن أيوب الفزاري وعبد الواحد بن يزيد من برابرة هوارة، ومن المتمذهبين بمذهب الخوارج الصفرية الذين يستحلون أموال أهل السنة، ويستبيحون نساءهم وقتلهم، وكان معهم من البربر جموع عظيمة قدرت بثلاثمائة ألف، ولما وصلوا القيروان خرج إليهم حنظلة فهزموه، وتقدموا لحصار القيروان فأعاد حنظلة جمع شمله وتأهب لقتالهم، وأخرج كل ما في خزانته من السلاح والعتاد، ودعا الله بطلب النصر وأمَّن المسلمون على دعائه ، وخرج للقائهم خارج القيروان، والتحم الجيشان بمكان يقال له القرن ، قرب القيروان وكانت حرباً في أبشع صور الحروب القاسية، فهبت ريح النصر على أهل السُنَّة وهزم الخوارج، وقتل عبد الواحد وجيء برأسه وبعكاشة أسيراً إلى حنظلة فقتله حنظلة، وقتل في هذه المعركة ما يزيد على مائة وسبعين ألفاً وكان هذا سنة (١٢٤ هـ) وتسمى واقعة القرن [١] .

وسمع الليث بن سعد الفقيه المصري المشهور بخبر هذه المعركة فقال: (ما غزوة كنت أحب أن أشهدها بعد غزوة بدر أحب إليَّ من غزوة القرن) .

قلت: لكونها ضد الخوارج وقتالهم فيه أجر عظيم ومثوبة من رب العالمين وتحقيقاً لما جاء في قتالهم على لسان الصادق الأمين ﷺ .

[١٢] معاوية بن صفوان:

كان عامل حنظلة على طرابلس، فكتب إليه حنظلة يستنجده فأنجده بأهل طرابلس ولما وصل إلى قابس بلغه خبر هزيمة عكاشة وعبد الواحد، فأمره حنظلة أن يتقدم بجيشه إلى حرب الخوارج من البرابرة وغيرهم بنفزاوة فذهب إليهم وقاتلهم حتى قتل، فبعث حنظلة زيد بن عمرو الكلبي إلى جيش معاوية ورجع

---

(١) نفس المصدر السابق ، (ص: ١٦٦) .

به إلى طرابلس [١] .

[١٣] خلافة الوليد بن يزيد:

ابن عبد الملك بن مروان بن الحكم الخليفة أبو العباس الدمشقي الأموي ولد سنة تسعين، وقيل سنة اثنين وتسعين ، ووقت موت أبيه كان الوليد نيف عشرة سنة، فعقد له أبوه بالعهد من بعد هشام بن عبد الملك فلما مات هشام سلمت إليه الخلافة [٢] .

[١٤] موقف الإمام الزهري معه قبل الخلافة :

كان الإمام الزهري يقدح أبداً عند هشام في الوليد ويذكر أموراً عظيمة، وكان يقول يجب خلعه من ولاية العهد، فلا يقدر هشام ولو بقي الزهري لفتك به الوليد [٣] .

ولما أراد هشام خلع الوليد من ولاية العهد، قال الوليد:

كفرت يداً من منعم لو شكرتها ... أراك على الباقين تجني ضغينة

جزاك بها الرحمن ذو الفضل والمنّ ... فيا ويحهم إن مت من شر ما تجني

رأيتك تبني جاهداً في قطيعتي ... كأني بهم يوماً وأكثر قيلهم

ولو كنت ذا حزم لهدّمت ما تبني ... الا ليت أنا حين يا ليت لا تغني [٤]

قتله: وبسبب فسقه ومجونه ولهوه وشربه الخمر أراد الجند والرعية التخلص منه وقاد ذلك يزيد بن الوليد، فلما أحاطوا بالوليد نشر المصحف،وقال:أقتل كما قتل ابن عمي عثمان وكان مقتله في جمادى الآخرة سنة ست وعشرين ومئة .

---

(١) تاريخ الفتح العربي ص: ١٦٦ .

(٢) سير أعلام النبلاء: ٥ / ٣٧٠ إلى ٣٧٦ .

(٣) نفس المصدر السابق، وقال محقق الكتاب العلامة الشيخ شعيب الأرناؤوط: الخبر تالف من أجل الواقدي فإنه متروك.

(٤) المصدر السابق.

[١٥] خلافة يزيد بن الوليد:

ابن عبد الملك بن مروان الخليفة أبو خالد القرشي الأموي الدمشقي الملقب بالناقص، لكونه نقص عطاء الأجناد توثَّب على ابن عمه الوليد بن يزيد، وتم له الأمر، واستولى على دار الخلافة في سنة ست وعشرين ، ولكنه ما مُتِّع ولا بلع ريقه.

[١٦] خطبته عند قتل الوليد:

إني والله ما خرجت أشراً ولا بطراً، ولا حرصاً على الدنيا ولا رغبة في الملك وإني لظلوم لنفسي إن لم يرحمني ربي، ولكن خرجت غضباً لله ولدينه، وداعياً إلى كتاب الله وسنة نبيه، حين درست معالم الهدى وطفئ نور أهل التقوى، وظهر الجبار المستحل للحرمة، والراكب البدعة، فأشفقت إذا غشيكم ظلمه أن لا يقلع عنكم من ذنوبكم، وأشفقت أن يدعوا أناسا إلى ما هو عليه، فاستخرت الله ودعوت من أجابني فأراح الله منه البلاد والعباد.

أيها الناس: إن لكم عندي إن وليت أن لا أضع لبنة على لبنة ولا أنقل مالاً من بلد إلى بلد حتى أسُدَّ الثغور، فإن فضل شيء رددته إلى البلد الذي يليه، حتى تستقيم المعيشة وتكون فيه سواء، فإن أردتم بيعتي على ذلك بذلت لكم فأنا لكم، وإن ملت فلا بيعة لي عليكم، وإن رأيتم أقوى مني عليها، فأردتم بيعته، فأنا أول من يبايع ويدخل في طاعته وأستغفر الله لي ولكم.

وأول من خرج بالسلاح في العيد يزيد بن الوليد بين صفين من الخيل في السلاح في باب الحصن إلى المصلي.

وعظه لبني أمية :

وكان يقول لبني أمية إياكم والغناء، فإنه ينقص الحياء ويزيد في الشهوة، ويهدم المروءة وينوب عن الخمر، فإن كنتم لابد فاعلين فجنبوه النساء ، فإن

الغناء داعية للزنى.

وأصابته بدعة القدرية ودعا الناس إليها وقرب أصحاب غيلان الدمشقي الذي صلبه هشام بن عبد الملك لبدعته الشنيعة وهو عند المعتزلة أفضل من عمر بن عبد العزيز للمذهب.

وفاته:

كانت وفاته في سابع ذي الحجة سنة ست وعشرين ومئة، فكانت دولته ستة أشهر وآخر ما تكلم به وا حسرتاه وا أسفاه [1].

[١٧] الخليفة إبراهيم بن الوليد:

ابن عبد الملك الخليفة أبو إسحاق القرشي الأموي بويع بدمشق عند موت أخيه يزيد، وكان أبيض جميلاً وسيماً طويلاً أميل إلى السمن. ومكث في الخلافة سبعين ليلة، ثم خلع ووليها مروان بن محمد.

قال الذهبي - رحمه الله -: (وعاش إبراهيم إلى سنة اثنتين وثلاثين ومئة مسجوناً، وكان ذا شجاعة وأمه بربرية ولم يستقم له أمر، فكان جماعة يسلمون عليه بالخلافة وطائفة بالإمارة، وامتنع جماعة من بيعته. وقيل فيه من الشعر:

يُبَايَعُ إبراهيمُ في كل جُمْعَةٍ ... ألا إنَّ أمْراً أنتَ واليهِ ضَائِعُ

وفاته:

قتل يوم الزاب في سنة ١٣٢هـ

[١٨] استقلال عبد الرحمن بن حبيب عن الدولة الأموية:

هو عبد الرحمن بن حبيب بن عبيدة بن عقبة بن نافع، كان من أنصار كلثوم ومن المنهزمين في معاركه مع عكاشة إلى الأندلس سنة ١٢٣هـ وقتل والده حبيب

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٥ / ٣٧٤ إلى ٣٧٧.

مع كلثوم، وهو أول متغلب على إفريقية، واستقل بها أيام حكمه على بني أمية، وخلع طاعة أبي جعفر المنصور العباسي، ورجع من الأندلس إلى تونس في جمادى الأولى سنة (١٢٧هـ) ودعا أهلها إلى نفسه فأجابوه وحاول حنظلة أن يدخله تحت طاعته فأبى وقتل رسل حنظلة.

واعتزم عبد الرحمن أن يحتل القيروان ويضمها إلى تونس، فأرسل إلى حنظلة يطلب إليه التخلي عنها، وأنه مُصرٌّ على حربه إن لم يفعل، وكان حنظلة تقيًّا ورعاً، فلم يسعه أمام إصرار عبد الرحمن على الحرب إلا أن يتنازل له عن القيروان حقناً لدماء المسلمين، وكان ذلك في جمادى الأولى سنة ١٢٩هـ ودخل عبد الرحمن القيروان، وتغلب على إفريقية كلها واستقل بها وكتب إليه مروان بن محمد بولايتها وفي سنة (١٣١ هـ) جدد سور طرابلس من جهة البر، وانتقل إليها الناس من كل مكان.

وفي هذه السنة (١٣٢ هـ) قتل مروان بن محمد، وانقرضت دولة بني أمية من المشرق، بعد أن ملكت إحدى وتسعين سنة وتسعة أشهر وخمسة أيام وولي الملك فيها أربع عشرة خليفة وظهرت على أعقابها دولة بني العباس والله يرث الأرض ومن عليها [١].

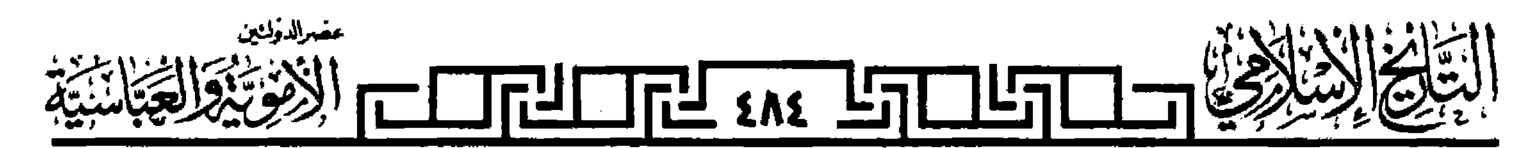
قلت:

قال تعالى: ﴿ **قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾

[آل عمران: ٢٦].

---

(١) **انظر**: تاريخ الفتح العربي، طاهر الزاوي، ص ١٦٧، ١٦٨.



مروان بن محمد
آخر خلفاء الدولة الأموية

ابن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية، أبو عبد الله الملك الخليفة الأموي يعرف بمروان الحمار، ومروان الجعدي نسبة إلى مؤدبه جعد بن درهم.

وكان مروان بطلاً شجاعاً داهيةً، رزيناً، جباراً، يصل السَّير بالسُّرى وسمي بمروان الحمار لشدة تحمله، كما قيل أصبر في الحرب من حمار، ولد سنة اثنتين وسبعين (١).

بويع له بالخلافة بعد قتل الوليد بن يزيد، وبعد موت يزيد بن الوليد، ثم قدم دمشق وخلع إبراهيم بن الوليد وهو آخر ملك من بني أمية وكانت خلافته خمس سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام، وبقي بعد أن بويع لأبي العباس السفاح بالخلافة العباسية تسعة أشهر.

فتح بلاداً كثيرة وحصوناً متعددة في سنين كثيرة وكان لا يفارق الغزو في سبيل الله وقاتل طوائف من الناس والكفار ومن التُرك والخزر وغيرهم فكسرهم وقهرهم، وقد كان بطلاً شجاعاً حازم الرأي لولا أن جنده خذلوه بتقدير الله عز وجل لما له في ذلك من حكمة لما سلب الخلافة لشجاعته وصرامته، ولكن من يَخْذُلُ اللهُ يُخْذَل ومن يَهُنِ اللهُ فما له من مُكْرِم (٢).

وفاته :

بعد انهزامه أمام جيوش العباسيين في معركة الزاب فر هارباً فلحقته طلائع من

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٦ / ٧٤

(٢) البداية والنهاية: ٥ / ٤٩

العباسيين لحقت به في مصر في منقطة أبو صير وعندما باغتته الخيل والتفت عليه من كل جانب استل سيفه وبقي يقاتل حتى قتل وكان من كلامه قبل أن يقتل: إن الجزع لا يزيد في الأجل، وإن الصبر لا ينقص الأجل.

وكان يتمثل بهذين البيتين:

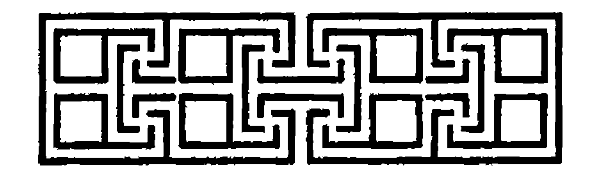
ذل الحياة وهول الممات ... فإن كان لابد من ميتة
وكلاً أراه وخيماً وبيلاً ... فنسير إلى الموت سيراً جميلاً [١]

وذكر صاحب شذرات الذهب، أنه كان صائماً يوم قتله وكان يتمثل بقول الحجاج ابن حكيم:

متقلدين صفائحا هندية ... وإذا دعوتهم ليوم كريهة
يتركن من ضربوا كأن لم يولد ... وافوك بين مكبرٍ وموحد

وكان نقش خاتمه:

رضيت بالله العظيم، وقيل اذكر الموت يا غافل، وكان مقتله يوم الاثنين عشر خلت من ذي الحجة سنة اثنتين وثلاثين ومئة [٢].



(١) مروان بن محمد وأسباب سقوط الدولة الأموية لسعدي أبو حبيب: ٨٢.
(٢) شذرات الذهب: ١/١٨٣.

المبحث الثالث

أسباب سقوط الخلافة الأموية

عندما كنت أقرأ كتاب (**مروان بن محمد وأسباب سقوط الدولة الأموية**) للكاتب السوري سعدي أبو حبيب تذكرت الدكتور محمد ضيف الله بطاينة الأردني الذي كان أستاذاً في الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية وعندما كنت في السنة الرابعة بكلية الدعوة كان من حسن حظ دفعتنا أن درّسنا الأستاذ الدكتور الفاضل في التاريخ الإسلامي، وكان المقرر ما يتعلق بالدولة الأموية ووزع علينا مذكرات ذات قيمة علمية استفدت منها في بحثي هذا، وكانت محاضراته من أروع المحاضرات، أداء وتحضيراً وصدقاً قال الشيخ ـ حفظه الله ـ : زال سلطان بني أمية من بلاد المشرق الإسلامي بمقتل مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية لثلاث بقين من ذي الحجة سنة اثنين وثلاثين ومئة للهجرة، وقد حاول المؤرخون في العصر الحاضر أن يلتمسوا أسباب زوال سلطان بني أمية، فذكروا في هذا الجانب أسباباً عديدة نقسمها إلى الآتي:

أولاً: أسباب مباشرة:

تجمعت عن الهزائم المتلاحقة لجيوش بني أمية أمام جيوش العباسيين التي بدأت الثورة في خراسان، وأخذت تزحف من هناك نحو حاضرة الأمويين في دمشق، فالتقت مع جيوش بني أمية التي يقودها مروان بن محمد وهزمتها في معركة الزاب من عام ١٣٢هـ، ثم سارت جيوش العباسيين من بعد ذلك في اتجاهين أحدهما نحو العراق والآخر نحو الشام، وأما مروان بن محمد فأخذ يتراجع نحو بلاد الشام، فسار إلى قنسرين ثم إلى حمص ودمشق ثم إلى الأردن ثم إلى فلسطين ودخل من هناك إلى مصر، وقوات بني العباس تلاحقه حتى قتلته

في (أبو بصير بمصر) ، ولما علمت قوات بني أمية التي كانت محاصرة في واسط بالعراق بمقتل مروان استسلمت لبني العباس ودخلت في طاعتهم، وبذلك انتهى سلطان بني أمية، وانتقل إلى بني العباس.

ثانياً: الأسباب غير المباشرة:

ويمكن أن نجملها فيما يلي :

﴿ ا ﴾ أسباب تتعلق ببني أمية والخلفاء منهم وهي:

[١] ضعف شخصية بعض الخلفاء منهم.

[٢] بذخ بعض الخلفاء وإسرافهم.

[٣] تحكيم بعض الخلفاء أهواءهم في أمر قوادهم.

[٤] ولاية العهد وما يترتب عليها من صراع.

[٥] النزاع بين أفراد البيت الأموي على الخلافة.

﴿ ب ﴾ أسباب تتعلق بالرعية:

[١] العصبية العربية.

[٢] النزاع بين العرب والموالي.

[٣] قيام حركات المعارضة : الشيعة، الخوارج، الدعوة العباسية.

﴿ جـ ﴾ أسباب عامة:

[١] ازدياد الخطر البيزنطي.

[٢] المشكلات الاقتصادية.

وكل الأسباب السابقة عوامل لا ينكر تأثيرها على إضعاف سلطان بني أمية، إلا أن أبرز تلك العوامل التي واجهت بني أمية وكانت العامل الأساسي في زوال دولتهم ، نشوب الخلاف الذي دب بين أفراد البيت الأموي من أجل الخلافة .

لقد جرت محاولات من قبل كبار بني أمية لتحويل الخلافة عن أحدهم إلى غيره، ولكن هذه المحاولات بدت أكثر ضرراً وأبعد أثراً عندما أوشكت الخلافة أن تنتقل من أبناء عبد الملك بن مروان إلى أبنائهم، فازدادت المنافسة بين أبناء الأبناء، واشتدت حتى صار عقلائهم يخشون أن يُفْضِي ذلك إلى زوال سلطانهم.

قال العباس بن الوليد بن عبد الملك، في نصحه لأخيه يزيد:

إني أعيذكم بالله من فتن ... لا تلحمن ذئاب الناس أنفسكم
مثل الجبال تسامى ثم تندفع ... إن الذئاب إذا ما ألحمت رتعوا
إن البرية قد ملت سياستكم ... لا تبقرن بأيديكم لبطونكم
فاستمسكوا بعمود الدين وارتدعوا ... فثم لا حسرة تغني ولا جزع

إلا أن ذلك النصح لم يُقبل، وَقَتَلَ يزيدُ بنُ الوليدِ الوليدَ بنَ يزيد، فأدى ذلك إلى أمور أهمها:

ثار أهل حمص وأعلنوا الطلب بدم الوليد بن يزيد وهجموا على دار العباس ابن الوليد بن عبد الملك أخي يزيد وأخرجوه وأهله من بينهم وهدموا داره.

[أ] ثار أهل فلسطين وبايعوا يزيد بن سليمان بن عبد الملك.

[ب] ثار أهل الأردن وبايعوا محمد بن عبد الملك بن مروان ولكن يزيد بن الوليد استطاع أن يستميلهم.

[جـ] امتنع نصر بن سيار الذي كان والياً على خراسان من قِبَل الخليفة المقتول الوليد بن يزيد، امتنع من أن يسلم عمله للعامل الذي عين من قِبَل والي يزيد بن الوليد على العراق، لذلك وقعت الفتنة في خراسان بين مؤيد للخليفة القائم ومعارض. وبعد موت الخليفة يزيد بن الوليد زحف مروان ابن محمد بالجيش نحو دمشق يعلن الطلب بدم الخليفة المقتول الوليد بن

يزيد ولا يعترف بخلافة الخليفة إبراهيم بن الوليد، **وقد كلف مروان ذلك أن يشتبك مع:**

﴿ ١ ﴾ بشر بن الوليد بن عبد الملك الذي ولاه أخوه يزيد على قنسرين فأسره مروان وأسر أخاه مسروراً وحبسهما.

﴿ ٢ ﴾ اشتبك مروان مع جيش أرسله الخليفة إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك بقيادة سليمان بن هشام بن عبد الملك وهزمه في معركة عين الحر.

﴿ ٣ ﴾ أما في العراق فإن أهل الكوفة قالوا لعبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب وكان زار الكوفة قالوا له: ادع إلي نفسك فبنو هاشم أولى بالأمر من بني مروان.

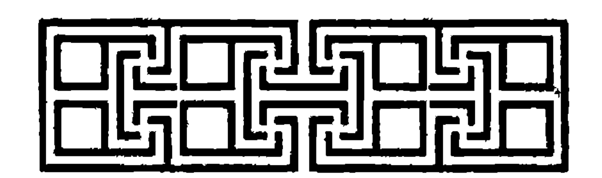
﴿ ٤ ﴾ انتفض أهل الشام وثاروا على مروان بعدما كان غلب على الشام، وكان الذي يحرضهم ثابت بن نعيم الجذامي فأضطر مروان إلى أن يحاربهم فحاربهم وأخضعهم لسلطانه.

﴿ ٥ ﴾ قال الجند لسليمان بن هشام بن عبد الملك ١٢٧هـ أنت أرضى من مروان عند أهل الشام وأولى منه بالخلافة فأطاعهم وأعلن الخروج على مروان فقاتله مروان وهزمه وهزم جمعه.

﴿ ٦ ﴾ أعلن الخوارج في هذه الأثناء الثورة فثار سعيد بن بهدل الشيباني في الجزيرة، وثار بسطام البهي في الجزيرة أيضاً وقتل سعيد الشيباني بسطاماً، ثم خلف من بعد سعيد في قيادة الخوارج الضحاك ابن قيس الشيباني، وقد استطاع هذا أن يستولي على العراق.

﴿ ٧ ﴾ كما ثار الخوارج في خراسان وثاروا في مكة والمدينة وبالرغم أن مروان بن محمد نجح في التغلب على ثورات الخوارج وإخضاع من ثار، سواء بالعراق أم في الشام، فإن المسلمين بعامة لم ينظروا بعين الرضى إلى أخذ

مروان الخلافة بحد السيف وقهر الناس، ودخلت النفوس نفرة، وتصدعت عصبة بني أمية في الشام وغيرها، وانعكس ذلك على موقف الجند في معركة الزاب بين مروان وبني العباس، ولم يخلصوا في القتال الإخلاص المعهود، وعندما تراجع مروان من معركة الزاب نحو الشام لم يجد في أثناء رجوعه معيناً ولا نصيراً من أهل الشام، ولم يكن حاله في مصر أفضل فقد تخلى الناس عنه هناك حتى قتل [١] .



---

(١) من محاضرات الدكتور محمد ضيف الله بطاينة، في الجامعة الإسلامية ١٤١٤هـ .

الفصل الثالث

الخلافة العباسية

تنسب الخلافة العباسية إلى العباس بن عبد المطلب عم الرسول ﷺ، وكان قيام هذه الخلافة في سنة (١٣٢هـ) وقبل البدء في دراسة هذه الخلافة نتطرق أولاً إلى كيفية نشأتها؟ (•).

المبحث الأول

ظهور الدعوة العباسية وتطورها

لاحظنا أن الخلافة انتقلت إلى بني أمية أولاً: بتنازل الحسن بن علي رضي الله عنه لمعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه وثانياً: بترسيخ مروان بن الحكم وابنه عبد الملك مبدأ التوارث في الحكم، ولكن الخلافة العباسية لم يكن ظهورها بنفس الشكل.

ظهرت في الخلافة الأموية دعوات معارضة منها دعوة آل البيت وقد تمثلت أولاً في خروج الحسين بن علي رضي الله عنه ثم حفيده زيد بن علي، كما ظهرت حركة المختار بن عبيد الثقفي التي نادت بإمامة محمد بن الحنفية، وهذه الحركة تدعى الكيسانية وتميزت هذه الحركة عن سابقاتها بأن لها مبادئ وأفكار مستقاة من أفكار السبئية التي أخذت عن المجوسية والهندوكية والمسيحية واليهودية (١).

ورغم أن محمد بن الحنفية لم يكن له علاقة بهذه الحركة إلا أن المختار استغل اسمه، ومع أن هذه الحركة قد هزمت إلا أن جذورها بقيت تعمل لتنشر أفكارها بين الناس، وقد انقسمت هذه الدعوة بعد وفاة محمد بن الحنفية إلى قسمين:

(•) جل الفصل أخذته من محاضرات الشيخ عبد العزيز نور ولي.

(١) راجع مبادئ الكيسانية في الملل والنحل للشهرستاني، وغيره من مصادر الفرق.

قسم ادعى أن محمد بن الحنفية لم يمت، وإنما اختفى في جبل رضوى[١]، وعنده عين ماء وعين عسل يأخذ منهما رزقه وهو المهدي المنتظر، وهذا القسم يدعى بالكربية نسبة إلى أبي محرب الضرير[٢]. وقسم آخر اعتقد موت محمد ابن الحنفية وانتقال الأمر من بعده لابنه أبي هاشم عبد الله بن محمد، ويدعى بالهاشمية نسبة لأبي هاشم[٣].

كان أبو هاشم طموحاً جمع حوله الأتباع وأحاط حركته بسرية تامة واستمر يزور البلاط الأموي لإبعاد الشبهة عنه، ورغم ذلك فقد أحس الخليفة سليمان بن عبد الملك بخطره ويقال: أنه دس له من سقاه السم وهو في طريقه إلى الحجاز، ولما أحس أبو هشام بدنو أجله مال إلى الحميمة[٤]. حيث يعيش محمد بن علي بن عبد الله بن عباس وأولاده، وأطلعه على أخبار دعوته وعرفه بأتباعه ودعاته. وأعطاه كتاباً إليهم يأمرهم بطاعته، وهكذا انتقلت الدعوة الهاشمية إلى العباسيين وذلك سنة ٩٨هـ[٥].

[أ] مراحل الدعوة :

وجه محمد بن علي في عام ١٠٣هـ اثني عشر نقيباً إلى خراسان ليقوموا بالدعوة فيها، ثمانية من العرب وأربعة من غير العرب، ويرتبط بكل نقيب عدد من الدعاة يدعون الناس دون أن يبينوا مَن الإمام، وكانوا يحيطون عملهم بسرية تامة، واختيرت خراسان مركز للدعوة العامة لاضطراب أحوالها من حيث كثرة المشاحنات فيها بين القيسية واليمانية وقربها من بلاد ما وراء النهرين حيث يكثر

---

(١) رضوي: من جبل تهاة يقع بين المدينة وينبع (ياقوت : ٣/ ٥١).

(٢) عبد القاهر البغدادي: الفرق بين الفرق: ٣٧ .

(٣) الملل والنحل: ١/ ٢٠١ .

(٤) الحميمة: بلد في أطراف الشام قرب عمان (ياقوت : ٢/ ٣٠٧).

(٥) التاريخ الإسلامي، لمحمود شاكر: (٥/ ٤٣-٤٥) ، فاروق عمر: طبيعة الدعوة العباسية، فصل تنظيم الدعوة وتفجيرها.

الفرس والموالي الذين يبتغون الحصول على امتيازات أكبر، ولبعدها عن مركز الخلافة الأموية، أما الكوفة فلا تصلح لدعوة عامة ولكن لدعوة خاصة سرية جداً وذلك لشدة المراقبة عليها من قبل ولاة بني أمية إضافة إلى خذلانها لكل دعوة بعد انضمامهم لها (١) .

أرسل محمد بن علي في عام ١٠٩هـ رجلاً قوياً متفهماً للمحيط الفارسي واسمه عمار ولقب بخداش فقام بنشاط واسع لنشر الدعوة في خراسان ولكنه اتصل بأصحاب المبادئ المنحرفة مثل الخرمية مما أغضب عليه محمد بن علي واستطاع ولاة بني أمية القبض عليه وقتله سنة ١١٨هـ (٢) .

توفي محمد بن علي في سنة ١٢٥هـ وانتقل الأمر من بعده لابنه إبراهيم الذي عمل على تنظيم الدعوة وإعطائها صفتين جديدتين :

[١] أن الدعوة والبيعة للرضا من آل البيت .

[٢] الأخذ بثأر شهداء آل البيت .

وانضم بذلك إلى هذه الدعوة الشيعة وأخذوا في تأييدها، كما أعطى الدعوة دفعة جديدة باختياره لأبي مسلم الخراساني قائداً عامًّا لها في خراسان على أن يستشير سليمان بن كثير الخزاعي الذي قام بالدعوة بعد خداش، وكان أبو مسلم شاباً مما جعل سليمان بن كثير أن يعطيه الثقة الكاملة في بداية الأمر، ولكنه أظهر كفاءة وقدرة أرغمت سليمان على الانسحاب، وانفرد أبو مسلم بالقيادة في خراسان سنة ١٢٨هـ (٣) .

استطاع أبو مسلم أن يضم إليه العرب اليمانية ومن ثَمَّ عمد إلى السيطرة على خراسان فتم له ذلك بتغلبه على نصر بن سيار والي بني أمية ثم وجه إبراهيم بن

---

(١) المرجع السابق: ٥ / ٤٣–٤٥ .
(٢) التاريخ الإسلامي، لمحمود شاكر: ٥ / ٤٣–٤٥ .
(٣) المرجع السابق: ٥ / ٤٣–٤٥ .

قحطبة الطائي على رأس جيش إلى العراق فانتصر على يزيد بن هبيرة والي الأمويين على العراق.

شك مروان بن محمد في أن الدعوة التي تنتشر في خراسان وراءها إبراهيم بن محمد العباسي فالقى القبض عليه، وكما أحس إبراهيم أنه مقتول لا محالة عهد بالأمر لأخيه أبي العباس وأمره بالخروج من الحميمة والتوجه إلى الكوفة، فسار أبو العباس بإخوته وأعمامه إليها، وهناك أخذت البيعة له رغم محاولة أبي سلمة الخلال القائم بالدعوة في الكوفة من نقل الأمر إلى العلويين، ثم وجه أبو العباس عمه عبد الله ابن علي إلى الشام لحرب بني أمية فسار عبد الله إليها وطرد مروان منها بعد أن هزمه في موقعة الزاب، ولما استقر الأمر له في الشام لاحق مروان ابن محمد حتى وقع في يديه في بوصير بمصر وقتل [١].

[ب] نظرة عامة في الدعوة العباسية:

﴿ ١ ﴾ يذكر كثيرٌ من الباحثين أن الدعوة العباسية هي ثورة فارسية ضد السيادة العربية التي تمثلت في الخلافة الأموية، ولكن لو تتبعنا هذه الدعوة في مراحلها المختلفة لوجدنا:

أولاً: أن النقباء الذين بعثهم محمد بن علي إلى خراسان كان معظمهم من العرب واختيار القواد في خراسان من الموالي لا يعني أنها ثورة فارسية، لأن اختيار قائد من الموالي لخراسان يناسب تلك البلاد كما اختير قائد عربي للعراق وعباسي للشام.

ثانياً: لو رجعنا إلى المصادر التاريخية لوجدنا أن مقاومة الدعوة لم تكن من العرب كما أن مؤيديها لم يكونوا من الفرس في خراسان، بل إن هناك كثيراً من الموالي حاربوا الدعوة في خراسان إلى جانب ولاة بني أمية، كما أن كثيراً من

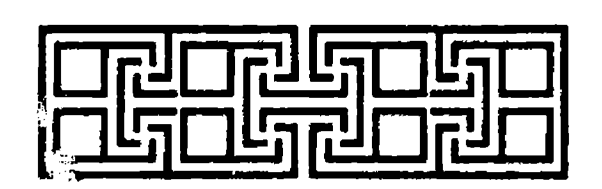
---

(١) التاريخ الإسلامي، لمحمود شاكر: ٥/ ٤٣-٤٥

العرب وقفوا إلى جانب الدعوة وأيدوها.

ثالثاً: اختيار خراسان مركز للدعوة ليس دليلاً على موالاة الموالي لها حيث إن خراسان فتحت في عهد عثمان ﷺ وفي فترة الخلافة الأموية انتقلت كثيرٌ من القبائل العربية للسكنى فيها، وأصبح عدد العرب فيها ما يقارب عدد سكانها الأصليين.

﴿ ٢ ﴾ كانت الدعوة الهاشمية التي قادها أبو هاشم بن محمد بن الحنفية دعوة متطرفة وكانت تعمل في الخفاء للقضاء على الخلافة الإسلامية بسبب ما اعتنقته من عقائد وأفكار فاسدة، وانتقال الأمر إلى بني العباس كان في صالح الدولة الإسلامية أولاً وأخيراً، وذلك لأن بني العباس كانوا على منهج أهل السُنَّة والجماعة بعكس تلك الطائفة، ورغم أن العباسيين رفعوا شعارات عامة أدت إلى انضمام طوائف مختلفة إليها، إلا أنهم لم يمكنوا تلك الطوائف من الأمر بعد قيام دولتهم واستقرار الخلافة لهم، بل حاربوا تلك الطوائف، واعتناق بعض قادة الدعوة لتلك العقائد المتطرفة لا يعني أن هذه الدعوة كانت ذات طبيعة متطرفة، بل إن العباسيين مثلوا الإسلام الصحيح في حركتهم كما أن عدم إدخالهم لمبادئ الغلو والرجعة والتناسخ هو الذي جذب المسلمين نحوهم أكثر من غيرهم من الفرق الأخرى ، ولو اعتنقت الدعوة العباسية تلك المبادئ لاتهمها أعداؤها بانحراف العقيدة واستغلوا ذلك في مناهضتهم لها [1] .



(١) طبيعة الدعوة العباسية: ١٢٧

المبحث الثاني

العصور العباسية

امتد حكم العباسيين من سنة ١٣٢هـ إلى سنة ٦٥٦هـ وهي السنة التي سقطت فيها بغداد في أيدي المغول ، **وقسمت هذه الفترة إلى عدة عصور:**

[١] **العصر العباسي الأول** : يمتد من سنة ١٣٢هـ إلى سنة ٢٣٢هـ وهو عصر سيطرة الخلفاء كما يعرفه البعض بأنه عصر النفوذ الفارسي، ولكن التعريف الأخير فيه نظر [١] .

[٢] **العصر العباسي الثاني** : ويمتد من سنة ٢٣٢ إلى سنة ٣٣٤هـ، وهو يعرف بعصر النفوذ التركي .

[٣] **العصر العباسي الثالث** : ويمتد من سنة ٤٤٧هـ إلى سنة ٦٥٦هـ، وهو يعرف بالعصر السلجوقي [٢] .

[أ] العصر العباسي الأول:

تولى الخلافة في هذه الفترة تسعة خلفاء، والشجرة التالية تبين هؤلاء الخلفاء ومدة حكم كل واحد منهم. العباس بن عبد المطلب القرشي الهاشمي، عبد الله، علي، محمد، إبراهيم:

[١] أبو العباس السفاح (١٣٢-١٣٦) .

[٢] أبو جعفر المنصور (١٣٦-١٥٨) .

[٣] المهدي (١٥٨-١٦٩) .

[٤] الهادي (١٦٩-١٧٠) .

---

(١) معركة حطين للذهبي : ١٠٩٩-١١٨٧.

(٢) عبد العزيز سالم: دراسات في تاريخ العربي : ٣/٦، ١١٠٩

[٥] الرشيد (١٧٠-١٩٣) .

[٦] الأمين (١٩٣-١٩٨) .

[٧] المأمون (١٩٨-٢١٨) .

[٨] المعتصم (٢١٨-٢٢٧) .

[٩] الواثق (٢٢٧-٢٣٢) .

[ب] شخصيات خلفاء العصر العباسي الأول:

أولاً : أبو العباس السفاح (١٣٢-١٣٦ هـ):

هو عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، كان شاباً مليحاً مهيباً أبيض طويلاً ووقوراً، مات وهو في أوائل العقد الرابع من عمره، وكان مشهوراً بجوده. بويع له بالخلافة سنة ١٣٢هـ في الكوفة وتوفي بالجدري في ١١ من ذي الحجة سنة ١٣٦هـ بالأنبار [١] .

ثانياً : أبو جعفر المنصور (١٣٦- ١٥٨ هـ):

هو عبد الله بن محمد بن علي، ولد سنة خمس وتسعين أو نحوها، ضرب في الآفاق ورأى البلاد، وطلب العلم وكان أسمراً طويلاً نحيفاً مهيباً، خفيف العارضين، ومُعَرَّق الوجه، رحْبَ الجبهة، وكان مهيباً شجاعاً ذا رأي وحزم، ودهاء وجبروت، وكان حريصاً على المال، تاركاً للهو واللعب، ذا فقه وأدب وعلم وكان صحيح الإسلام [٢] ، وكان حليماً رغم شدته، وكان يتصدى لمصالح الناس أول النهار، وينظر في مصالح أهله في آخره،ولا يرضى من عماله انشغالهم باللهو [٣] .

كان يلقب بأبي الدوانيق لشدة محاسبته للصُنَّاع، ومع ذلك كان جواداً بالمال في المهالك، وكان يعتبر نفسه من الملوك، فكان يقول: الملوك أربعة: معاوية

(١) البداية والنهاية: ١٠ / ٦٣.

(٢) سير أعلام النبلاء: ٧ / ٨٣.

(٣) البداية والنهاية: ١٠ / ١٢٨.

وعبد الملك وهشام بن عبد الملك وأنا [١] .

تولى الخلافة سنة ١٣٦ هـ وتوفي في ذي الحجة ١٥٨ هـ وكان سائراً إلى مكة للحج ودفن بها [٢] .

ثالثاً: المهدي (١٥٨-١٦٩ هـ):

هو محمد بن عبد الله بن محمد بن علي ولد سنة سبع وعشرين ومئة، وكان جواداً مقداماً وكان محبوباً إلى رعيته محارباً للزندقة منكلاً بأهلها طلب العلم وتأدب وولي طبرستان في خلافة أبيه [٣] .

وقد لقب بالمهدي رجاء أن يكون الموعود في الأحاديث، فلم يكن هو ، وقد تولى الخلافة سنة ١٥٨هـ وتوفي في المحرم من سنة ١٦٩هـ [٤] .

رابعاً: الهادي (١٦٩-١٧٠ هـ):

هو موسى بن محمد بن عبد الله بن محمد، ولد بالري وكان أبيض طويلاً جسيماً، وكان فيه ظلم وشهامة ولعب وكان شجاعاً فصيحاً لسناً أديباً مهيباً عظيم السطوة كان مثل والده في استئصال الزنادقة، وكان يكره تدخل النساء في شئون الدولة، وقد قال لأمه الخيزران، وكانت متصرفة في الأمور: لئن وقف ببابك أمير لأقتلنَّك، أما لك مغزل يشغلك أو مصحف يذكرك، تولى الخلافة سنة ١٦٩ ، وتوفي في ربيع الأول من سنة ١٧٠هـ [٥] .

خامساً: الرشيد (١٧٠-١٩٣ هـ):

هو هارون بن محمد بن عبد الله بن محمد، كان مولده بالري سنة ١٤٨هـ ، وكان أبيض طويلاً جميلاً وسيماً يميل إلى السمن، وكان من أنبل الخلفاء وأحشم الملوك، ذا حج وجهاد وغزو وشجاعة ورأي، وفصاحة وعلم وبصر بأعباء الخلافة،

---

(١) السير: ٧/ ٨٣-٨٤ .
(٢) المصدر السابق: ٧/ ٨٧ .
(٣) المرجع السابق: ٧/ ٤٠٠-٤٠١ .
(٤) البداية والنهاية: ١٥٥، ١٦١ .
(٥) السير: ٧/ ٤٤١، ٤٤٣، ٤٤٤ .

وله نظر جيد في الأدب والفقه [١] . غزا بلاد الروم وهو صغير السن في خلافة والده ، ولما تولى الخلافة كان يغزو عاماً ويحج عاماً، وكان يصلي مائة ركعة في اليوم ، ويتصدق بألف صدقة، وكان يحب العلماء، ويعظم حرمات الدين ، ويبغض الجدل والكلام، ويبكي على نفسه، ولهوه وذنوبه لاسيما إذا وُعِظَ [٢] . كان الرشيد إذا حج أحج معه مائة من الفقهاء وأبنائهم، وإذا لم يحج أحج ثلاثمائة بالنفقة السابغة والكسوة التامة، وكان تولية الخلافة سنة ١٧٠هـ، وتوفي بطوس في جمادى الأخرى سنة ١٩٣ هـ [٣] .

سادساً: الأمين (١٩٣-١٩٨ هـ):

هو محمد بن هارون بن محمد بن عبد الله، ولد سنة سبعين ومئة، وأمة زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر، كان كثير اللهو واللعب، فصيحاً أديباً، وقد تولى الخلافة سنة ١٩٣ هـ، وكثرت في عهده الفتن بسبب الصراع بينه وبين أخيه المأمون، وانتهى الأمر بمقتله سنة ١٩٨ هـ [٤] .

سابعاً: المأمون (١٩٨-٢١٨ هـ):

هو عبد الله بن هارون بن محمد بن عبد الله، ولد سنة سبعين ومئة، كان فيه تشيع واعتزال وجهل بالسُّنَّة الصحيحة، وكان سبب اعتزاله إجتماع جماعة منهم حوله فأخذ المذهب عنهم، وكان يحب العلم ولكن لم يكن ذا بصيرة فيه، وكان يحفظ القرآن، وكان له اطلاع بعلوم عدة مثل الفقه والطب والفرائض والنحو والكلام والغريب، وأمر بتعريب كتب الأوائل، وعمل مرصداً فوق جبل دمشق، ودعا إلى القول بخلق القرآن، وكان ذا حزم ورأي وعقل وهيبة وحلم، وكان

---

(١) المرجع السابق: ٩ /٢٨٦-٢٩٥.
(٢) البداية والنهاية: ١٠ /١٦٤.
(٣) السير: ٩ /٢٨٦-٢٨٧.
(٤) البداية والنهاية: ١٠/٢٢٢-٢٣٠.

جواداً، ذا حافظة قوية، وكان حين توفي والده سائراً في غزو ما وراء النهر، وحدثت بينه وبين أخيه حوادث، وتولى الخلافة في المحرم سنة ١٩٨هـ، وقد مال إلى رأي العلويين فترة، ثم قال في القرآن مقالته الفاسدة وامتحن العلماء من أجلها ولم يتركها حتى توفي في رجب سنة ٢١٨هـ (١).

ثامناً: المعتصم (٢١٨-٢٢٧ هـ):

هو محمد بن هارون بن محمد بن عبد الله، ولد سنة ثمانين ومئة، كان ذا قوة وبطش وشجاعة وهيبة، ولكنه كان قليل العلم، وكان أمير الحج سنة ٢٠٠هـ، وهو الذي فتح عمورية حين تولى الخلافة، وقد امتحن الناس بفتنة خلق القران، وكتب إلى الأمصار بذلك، وأخذ المؤذنين وفقهاء المكاتب بها، وأنشأ مدينة سامراء، وجعل عسكره من المماليك الترك، وأسكنهم تلك المدينة، وكان له همة عالية في الحروب، ومهابة عظيمة في القلوب، وإنما كانت همته الإنفاق على الحرب لا في البناء ولا في غيره، وكان توليه للخلافة سنة ٢١٨ هـ، وتوفي في ربيع الأول سنة ٢٢٧ هـ (٢).

تاسعاً: الواثق (٢٢٧-٢٣٢ هـ):

هو هارون بن محمد بن هارون بن محمد، ولد سنة ست وتسعين ومئة، وكان من الخلفاء الذين أحسنوا إلى الطالبيين حتى ما ترك فيهم فقير، ولكنه بقي على سيرة أبيه وعمه في القول بخلق القرآن، وكان وافر الأدب، وكانت خلافته سنة ٢٢٧ هـ، وتوفي في ذي الحجة سنة ٢٣٢ هـ (٣).

[جـ] أهم سمات العصر العباسي الأول:

[١] بناء مدينة السلام (بغداد):

لقد بنيت في الخلافة الأموية عدة مدن، وكانت هذه المدن ذات صبغة

---

(١) المرجع السابق.
(٢) البداية والنهاية: ١٠/ ٢٨٧-٢٨٨.
(٣) السير: ١٠/ ٢٧٢-٢٨٩

عسكرية، فهي عبارة عن معسكرات للجند، وكانت هناك مدن ذات صبغة إدارية، أما في العهد العباسي فإن الخلافة كانت مرتبطة ارتباطاً كبيراً بالجيش والموظفين، ولذلك كانت فكرة إنشاء المدن مثل بغداد وسامراء كانت تهدف إلى أن تكون المدينة الجديدة تضم دواوين الموظفين ومعسكر للجند ، بويع أبو العباس السفاح للخلافة في الكوفة، ولكنه أحس أنها لا تصلح مركزا للخلافة لميولها العَلَوِيَّةُ الواضحة ، لذلك لم يستقر بها، بل بدأ يتنقل بغية اختيار موقع جديد يكون مركزاً للخلافة، فبنى الهاشمية قرب الكوفة ثم انتقل إلى الأنبار وبنى قربها أيضاً مدينة سميت بنفس الاسم (الهاشمية) .

ثم تولى أبو جعفر المنصور الخلافة فبنى الرُّصَّافة قرب الكوفة، ثم قام برحلة بقصد البحث عن موقع مناسب للعاصمة الجديدة وذلك عام ١٤١ هـ حيث وجده بين نهري دجلة والفرات، فهذا الموقع بين النهرين يساعد في تحصين المدينة، كما أن هذين النهرين وما تفرع عنهما من جداول يساعدان في خصوبة الأرض، وهذا يوفر لسكان المدينة الغذاء وييسر لهم المواصلات النهرية، إضافة إلى اعتبارات مناخية واقتصادية أخرى كان لها تأثيرها في اختيار هذا الموقع ، دُعيت العاصمة الجديدة بمدينة السلام، وقد بدأ بناؤها عام ١٤٥هـ وحصنت المدينة بإحاطتها بالرصافة وبمعسكر وبحفر الخنادق حولها، كما حصنت المناطق المحيطة بها فقد اعتبر بناء الرصافة معسكر المهدي على الجانب الشرقي لدجلة سنة ١٥١هـ وبناء الرافقة على التخوم السورية سنة ١٥٥هـ ، من التحصينات لتلك المنطقة وبالتالي للعاصمة الجديدة، وزيادة لحماية المدينة نقلت الأسواق إلى خارج الأسوار حتى لا يتسنى للجواسيس الذين يأتون على شكل تجار لدخولها، وبني للسوق جامعاً خاصًّا به لنفس الغرض، كما بنيت المدينة بشكل دائري ليسهل الدفاع عنها ، وبني قصر الخليفة ودواوين الدولة داخل الأسوار، وكانت للمدينة أربعة أبواب وهي: باب خراسان وباب الكوفة وباب البصرة

وباب الشام ، وعلى كل باب قبة وتعلو السور أبراج الحراسة والمراقبة، وقد تم بناؤها سنة (١٤٩هـ) [١] .

[٢] ظهور الثورات المنحرفة، ومن هذه الثورات:

ثورة الراوندية :

ظهرت هذه الثورة في عهد أبي جعفر المنصور وكان الراوندية يقولون بالتناسخ وادعوا ألوهية المنصور، وفي سنة (١٤١هـ) أتوا قصره وجعلوا يطوفون حوله ويقولون هذا قصر ربنا فقبض المنصور على رؤسائهم وسجنهم، فغضبوا وهاجموا السجن وأخرجوا رؤسائهم منه، وقصدوا نحو المنصور، فخرج إليهم بنفسه ولحقت به جيوشه وقضت عليهم [٢] .

ثورة المقنعية :

وهم أتباع المقنع اسمه عطاء، وكان يقول بالتناسخ ويزعم أن الله ظهر في صورة آدم، ولهذا سجدت له الملائكة، ثم نوح والأنبياء من بعده واحداً تلو الآخر، ثم تحول إلى أبي مسلم الخراساني ثم تحول إليه تعالى عن ذلك علوًّا كبيراً، وكان قبيح الوجه أعور، ولذلك اتخذ قناعاً من ذهب على وجهه ، وكان يُري أتباعه قمراً يُرى من مسافة بعيدة، فعظم اعتقادهم به ومنعوه بالسلاح، وحاصره جيش المسلمين بقيادة سعيد الحريثي في قلعته سنة ١٦٣هـ ، وألحوا عليه في الحصار فلما أحس بالغلبة تحسى هو ونساؤه سمًّا فماتوا ، ودخل جيش المسلمين قلعته واستحوذوا على أمواله [٣] .

ثورة الخرمية :

أتباع بابك الخرمي الذي ظهر في آخر عهد المأمون، وكان يقول بالتناسخ

---

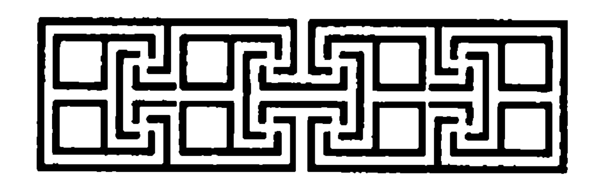
(١) تاريخ بغداد : ١ / ١٣ ، فاروق العمر : العباسيون الأوائل .
(٢) البداية والنهاية : ١٠ / ٧٨ .
(٣) المصدر السابق : ١٠ / ١٤٩ .

ووجود إلهين وإباحة النساء ، وقوي أمره في خلافة المعتصم وما زال المعتصم يرسل إليه الجيوش حتى قضى عليه سنة (٢٢٢هـ) [١] .

وهناك حركة سبناذ المجوسي سنة (١٣٧ هـ) ، خرج يطلب دم أبي مسلم الخرساني، وحركة أستاذ سيس في بلاد خراسان سنة (١٥٠ هـ) .

ويلاحظ في معتقدات هذه الحركات أنها امتداد لمعتقدات المزدكية التي أخذت عن المانوية والتي ظهرت أيام قباذ والد أنو شروان ، وكانت تقول بوجود إلهَين النور والظلمة، وكانوا ينهون الناس عن الخلاف والمباغضة والقتال، ولما كان أكثر ذلك يقع بسبب الأموال والنساء في نظرهم أباحوها وجعلوا الناس شركة فيهما كاشتراكهم في الماء والنار والكلأ [٢] .

ونحب أن ننوه إلى أن المانوية كانت دعوة إلى اعتزال النساء لقطع النسل وإفناء النوع البشري ، حتى ينتصر إله النور بزعمهم ، وأما المزدكية فقد كانت على العكس من ذلك ، حيث أباحت اشتراك الناس في الأموال والنساء . . . بل لقد أباحت الوقوع على المحارم والعياذ بالله [٣] .



---

(١) محمود شاكر: ٥ / ٢٢١ .

(٢) التاريخ الإسلامي: ٥ / ٢١٩ .

(٣) يرجع إلى كتاب « ماذا خسر العالم بإنحطاط المسلمين » ، الندوي .

المبحث الثالث

العصر العباسي الثاني

لا ريب أنه قد صاحب ظهور العصر العباسي الأول تشكيلات سياسية، وولايات أسرية ، وإمارات مذهبية مستقلة كالأغالبة، والأدارسة، وغيرهم، وكانت بدايات العصر العباسي لهذه الحقبة تعتبر منذ عهد الخليفة جعفر المتوكل (٢٣٢-٢٤٧ هـ) أما نهاية هذا العصر فكانت في آخر عهد الخليفة عبد الله المستكفي (٣٣٣-٣٣٤ هـ)

واليك ترتيب أسماء خلفاء الدولة العباسية في عهدها الثاني:

[١] جعفر المتوكل (٢٣٢-٢٤٧ هـ) .

[٢] محمد المنتصر (٢٤٧-٢٤٨ هـ) .

[٣] أحمد المستعين (٢٤٨-٢٥٢ هـ) .

[٤] محمد المعتز (٢٥٢-٢٥٥ هـ) .

[٥] محمد المهتدي (٢٥٥-٢٥٦ هـ) .

[٦] أحمد المعتمد (٢٥٦-٢٧٩ هـ) .

[٧] أحمد المعتضد (٢٧٩-٢٨٩ هـ) .

[٨] علي المكتفي (٢٨٩-٢٩٥ هـ) .

[٩] جعفر المقتدر (٢٩٥-٣٢٠ هـ) .

[١٠] محمد القاهر (٣٢٠-٣٢٢ هـ) .

[١١] محمد الراضي (٣٢٢-٣٢٩ هـ) .

[١٢] إبراهيم المتقي (٣٢٩-٣٣٣ هـ) .

[١٣] عبد الله المستكفي (٣٣٣-٣٣٤ هـ) .

أولاً: سمات العصر العباسي الثاني

[١] بدء النفوذ التركي:

كان المعتصم قد استخدم الجند الترك وأكثر من ذلك حتى زاد أذاهم في بغداد وتضايق الناس منهم، فبنى لهم مدينة (سر من رأى) [١] وكان هؤلاء الجند يستعان بهم في الجهاد والقضاء على الحركات الخارجية على الدولة [٢] ، ولكن بدأ نفوذ هؤلاء الترك يزداد وبخاصة مع ضعف الخلفاء، وبدؤوا يتسلطون على أمور الدولة وأصبح الخليفة في كثير من الأحيان اسماً أو صورة في قصره ليس عليه إلا التوقيع على التعليمات أو إصدار الأوامر التي يفرضها عليه القادة ، **وقد وصف أحد الشعراء ذلك بقوله:**

خليفة في قفص يقول ما قالا له
بين وصيف وبغا كما تقول البَبغا

والذي ساعد في ضعف الخلفاء أن معظمهم تولوا الخلافة وهم لازالوا في سن لم تساعدهم على تمرس أمور الدولة، فنجد من الخلفاء من لم يتجاوز الثلاثين من عمره عند المبايعة مثل: المتوكل والمنتصر والمستعين والمعتمد والمكتفي والراضي.

وهناك من لم يتجاوز العشرين، فالمعتز تولى الخلافة وهو في التاسعة عشرة، والمقتدر بويع له وهو لم يتجاوز الثالثة عشرة، أما من تجاوز الثلاثين منهم: المهتدي الذي بلغ الخامسة والأربعين حين بويع له، والمعتضد وكان عمره سبعاً وثلاثين حين تولى الخلافة، والقاهر وقد بلغ اثنين وثلاثين سنة حين تولى الخلافة، والمتقي أربعاً وثلاثين، والمستكفي أربعين سنة.

إضافة إلى أن معظم هؤلاء الخلفاء يتولى الأمر بمساعدة القادة الترك، وبالتالي

---

(١) التاريخ الإسلامي: ٦/ ١٢.
(٢) المصدر السابق: ٦/ ١٣.

يكون أداة طيعة في أيديهم، فنجد الجند الترك كانوا يرغبون في تولية محمد بن الواثق ، ولكنهم عدلوا عنه لصغر سنه إلى جعفر المتوكل بن المعتصم، ثم ابنه محمد المنتصر تولاها أيضاً بمساعدتهم بعد مقتل والده، ثم أحمد المستعين بن المعتصم بايعوه وعدلوا عن أولاد المتوكل خوفاً منهم أن يثأروا لأبيهم، ومحمد المعتز بن المتوكل بويع له بعد خلع عمه المستعين، وكذلك محمد المهتدي بن الواثق ولي بعد أن أُشْهِدَ على المعتز أمامه بأنه عاجز عن الخلافة واعترف بذلك، ثم أحمد المعتمد بن المتوكل الذي بويع له بعد مقتل المهدي، ثم أحمد المعتضد ابن طلحة الموفق بن المتوكل، ثم على المكتفي بن المعتضد، ثم جعفر المقتدر بن المعتضد الذي عهد إليه أبوه، وما لبث أن خلع ثم قتل وبويع محمد القاهر بن المعتضد بعد أن زهد فيها عبد الله بن علي المكتفي، ثم جاء محمد الراضي بن المقتدر بعد خلع عمه القاهر، ثم إبراهيم المتقي بن المقتدر الذي بويع له بعد أخيه، ثم أخيراً عبد الله المستكفي بن المكتفي الذي بويع له بعد خلع المقتدر.

كما أن تسلط بعضهم على بعض ساعد في ضعفهم فنجد المنتصر يتسلط على أبيه ، مما شجع الأمراء على قتله ،كما تسلط على أخويه المؤيد والمعتز ليخلعهما من ولاية العهد ، كما وقع القتال بين المستعين والمعتز طلباً للخلافة، وانتهى الأمر بخلع المستعين ومبايعة المعتز، وقام المعتز بخلع أخيه المؤيد من ولاية العهد، وأبعد ابن عمه المهتدي، وأيضاً لصغر سن المقتدر حاول جماعة عزله وولوا ابن المعتز ولكن مؤيدي المقتدر استطاعوا استعادة الخلافة له وسجن ابن المعتز كما عذب القاهر عندما تولى الخلافة آل أخيه المقتدر.

ومع ضعف هؤلاء الخلفاء إلا أن بعضهم كان فيه صلاح، ومع ذلك فإن صلاحهم لم يفد رعيتهم كثيراً، فهناك المتوكل الذي نصر السُنَّة وقضى على فتنة خلق القرآن، والمهتدي كان ورعاً متعبداً صواماً عادلاً، والمعتضد كانت أيامه طيبة كثيرة الأمن والرخاء، أسقط المكوس ونشر العدل ورفع الظلم عن الرعية، ثم

المكتفي ساس الرعية بسيرة حسنة فأحبوه ودعوا له، والراضي كان سمحاً كريماً أديباً شاعراً محبًّا للعلماء، ثم المتقي كان كثير التلاوة للقرآن.

ولم تخل هذه الفترة من محاولات لبعض الخلفاء في التخلص من النفوذ التركي، فالمتوكل حاول نقل الخلافة إلى دمشق لذلك، كما كان المنتصر يصفهم بأنهم قتلة الخلفاء، وعاد المستعين إلى بغداد ليتخلص من نفوذهم ولم يقبل اعتذارهم وحذا المعتمد حذوه في العودة إلى بغداد ، لم يعد أحد من الخلفاء بعده إلى سامراء، وقد كان أخوه الموفق هو القائم بأمر الدولة، واستطاع الموفق برجاحة عقله وحسن تدبيره أن يسير أمور الدولة، كما جلس للمظالم وقاد الجيوش بنفسه للقضاء على ثورة الزنج ، ولكنه توفي قبل الخليفة، ثم المعتضد الذي جدد ملك بني العباس بعد أن كاد يزول وكان يسمى السفاح الثاني، وقد كانت فترة المعتمد والمعتضد (٢٥٦-٢٨٩ هـ) فترة انتعاش وقوة للخلافة بجهود الموفق وابنه المعتضد.

[٢] ظهور منصب أمير الأمراء:

بدأ ظهور هذا المنصب في خلافة الراضي (٣٢٢-٣٢٩ هـ) وذلك مع فساد وضع الوزراء وعجزهم واضطراب أحوال الدولة وكثرة الطامعين فيها، كل هذه الأمور دفعت الخليفة إلى استحداث هذا المنصب وتوليته لشخص يستطيع إدارة الدولة والنظر في كل شئونها، وكان أول من تولى هذا المنصب محمد بن رائق وكان والي البصرة وواسط، وامتاز بعلو الهمة والشجاعة والشهامة وتولى هذا المنصب سنة ٣٢٤ هـ[١] .

وبظهور منصب أمير الأمراء ضعف منصب الوزير وقل نفوذه، وذلك لأن أمير الأمراء أصبح هو حاكم الدولة بتسلمه لمقاليد الأمور، فهو الذي يولي ويعزل

---

(١) سير أعلام النبلاء: ١٥/ ٣٢٥.

الولاة، كما أن الأموال تجلب إليه فينفقها فيما يراه مناسباً، كما أصبح يدعى له على المنابر مع الخليفة ونقش اسمه على السكة تحت اسم الخليفة (١) .

ولكن سرعان ما أصبح هذا المنصب مطمع الطامعين، وكان أول من انتزعه «بحكم» الذي دخل بغداد سنة ٣٢٧ هـ، ومع فساد هذا المنصب فسدت أمور الدولة واضطربت أحوالها وأدى هذا إلى ضعف حالة الدولة العباسية، ولم يبق للخليفة غير بغداد وأعمالها، وأما بقية أنحاء الدولة فتولى أمورها أسر مختلفة مثل: الحمدانيين والساسانيين والبويهيين وغيرهم (٢) .

[٣] مقتل معظم خلفاء هذا العصر:

كان من أضرار النفوذ التركي على الخلافة العباسية، أنهم تسلطوا على الخلفاء أنفسهم، فإذا أحسوا من خليفة ميلاً عنهم أو نفور الناس منه لشدة خضوعه لقواده الترك عملوا على إزاحته وتولية غيره لتحقيق مصالحهم أو لاسترضاء العامة، ولما كان عزل الخليفة وخلعه لا يتأتى إلا إذا فقد الخليفة لشرط من الشروط الواجب توافرها فيه أو موته لجئوا إلى القتل وأحياناً إلى سمل العينين فيصاب بالعمى وبالتالي يفقد شرط الإبصار.

والخلفاء الذين قتلوا في هذا العصر هم: المتوكل حيث دبر ابنه المنتصر مع الترك مؤامرة لاغتياله، وكانت المحاولة الأولى لاغتياله في دمشق ولكنهم فشلوا، ثم كانت المحاولة الثانية التي تكللت بالنجاح على يد بعض قادة الترك بالسيف، ثم تلاه المنتصر الذي غضب على الترك، ففكروا في قتله وأوعزوا لطبيبه بذلك وأعطوه مالاً كثيراً ففصده بريشة مسمومة فمات. ثم المستعين الذي تنكر للترك وامتنع عن العودة إلى سامراء فخلعوه وبايعوا ابن أخيه المعتز، وقامت الحرب بينهما وهزم المستعين، ولكن القادة الترك لم يكتفوا بخلعه ونفيه فقد أوجسوا

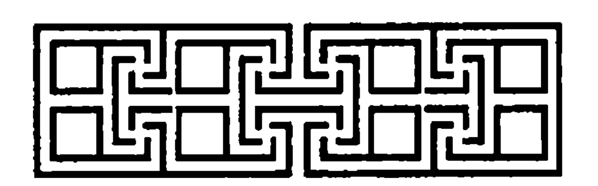
---

(١) تاريخ عصر الخلافة العباسية، ليوسف العش: ١٨٢.

(٢) حسن إبراهيم حسن: ٣ / ٢٨.

خيفة من بقائه حيًّا، وزينوا للمعتز بقتله، ثم أرسلوا أحد حجاب القصر في شرذمة من الجيش فقتله.

ثم إنهم ما لبثوا أن قتلوا المعتز حيث دخل جماعة منهم إليه وجروه برجله إلى باب الحجرة وضربوه بالدبابيس وخرقوا قميصه وأقاموه في الشمس، فكان يرفع رجلاً ويضع أخرى من شدة الحرارة، ولازالوا يلطمونه، ثم أشهدوا عليه خلع نفسه وسلموه إلى من يعذبه فمنعوا عنه الماء والشراب ثلاثة أيام، ثم أدخلوه سرداباً وسد عليه بابه فمات، ثم المهتدي حيث ثار عليه الترك وأسروه ثم خلعوه ثم عذبوه حتى مات، ثم المقتدر الذي خلع مرتين ثم أعيد إلى الخلافة وأخيراً خرج عليه أحد قادة الترك، وانتهى الأمر بقتله، ثم القاهر الذي خلع وسملت عيناه وحبس واستمر في الحبس حتى مات سنة ٣٥٧ هـ، ثم المستكفي الذي قتله الديلم بعد أن جروه من سريره وساقوه ماشياً إلى منزل معز الدولة، وسملوه وحبسوه، حتى مات سنة (٣٣٨هـ) (١).



---

(١) **انظر**: الكامل في التاريخ في سنة وفاته أو خلعه في الجزء السادس، وتراجمهم في سير أعلام النبلاء في الجزء الرابع عشر والخامس عشر والتاريخ لحسن إبراهيم حسن الجزء الثالث.

المبحث الرابع

العصر العباسي الثالث

وهكذا انتهى العصر العباسي الثاني بتلك الفجائع المريرة، والأحقاد الدفينة، والمكائد الخبيثة. ثم أعقب هذا العصر عصر آخر يسمى في المنظومة السياسية بالعصر العباسي الثالث، حيث يؤرخ لهذا العصر منذ بداية عهد الخليفة المطيع لله ، وامتد هذا العصر من عام ٣٣٤هـ ، واستمر إلى نهاية عام ٤٤٧هـ حيث كانت نهاية خلافة الخليفة عبد الله القائم.

وتولى الخلافة في هذه الحقبة الزمانية أربعة خلفاء من بني العباس وهم :

[١] الفضل المطيع (٣٣٤-٣٦٣) .

[٢] عبد الكريم الطائع (٣٦٣-٣٨١) .

[٣] أحمد القادر (٣٨١-٤٢٢) .

[٤] عبد الله القائم (٤٢٢-٤٦٧) .

سمات العصر العباسي الثالث :

أولاً: سيطرة الأسرة البويهية على الحكم:

تنتسب الأسرة البويهية إلى بويه بن فناخسرو الديلمي، وكان علي ابن بويه الذي لقب بـ «عماد الدولة»، أحد قادة الديلم، ولكنه سرعان ما تملك البلاد، واستطاع هو وإخوته الحسن الملقب بـ «ركن الدولة»، وأحمد الملقب بـ «معز الدولة»، أن يستولوا على شيراز التي استقر فيها علي بن بويه وجعلها مركزاً لحكمه وعراق العجم حيث استقر الحسن بن بويه، وكرمان والأهواز حيث استقر أحمد، وكان الأخوين الحسن وأحمد يدينون بالولاء لأخيهم الأكبر علي بن بويه. زحف أحمد بن بويه معز الدولة إلى بغداد سنة ٣٣٤هـ ، واستقبله الخليفة

المستكفي استقبالاً حافلاً وقلده أمير الأمراء ومنحه وأخويه الألقاب ولكن سرعان ما ساءت العلاقة بين أحمد بن بويه والخليفة المستكفي ، حيث اتهم الخليفة بعمله في الخفاء على إزالته وإعادة الحكم للترك، فخلعه وبايع ابن عمه المطيع بالخلافة (١) .

وبتملك أسرة بني بويه على بغداد بدأ عهد جديد من عهود العصر العباسي سمي بالعصر البويهي لم يكن حال الخلافة العباسية في العصر البويهي بأحسن من حاله في العصر التركي الذي سبقه، فرغم أن مدة كل خليفة من خلفاء هذا العصر قد طالت إلا أنهم بقوا ضعافاً ليس لهم من الأمر شيء، وقد تتابع على الحكم في العراق من البوهيين أحمد بن بويه الذي لقب كما أسلفنا بمعز الدولة (٣٣٤-٣٥٦ هـ)، ثم ابنه بختيار الذي لقب بعز الدولة (٣٥٦-٣٦٧ هـ)، ثم عضد الدولة بن ركن الدولة الحسن ابن بويه (٣٦٧-٣٧٢ هـ)، ثم ابنه أبو كاليجار المرزبان الذي لقب بصمصام الدولة (٣٧٢-٣٧٦ هـ)، ثم أخوه شرف الدولة الذي انتزع الحكم منه (٣٧٦-٣٧٩ هـ)، ثم أخوهما أبو نصر الذي لقب ببهاء الدولة (٣٧٩-٤٠٣ هـ)، ثم جاء بعده ابنه أبو شجاع الذي لقب بسلطان الدولة (٤٠٣-٤١١ هـ)، ثم أخوه مشرف الدولة (٤١١-٤١٦هـ)، ثم أخوهما أبو طاهر الذي لقب بجلال الدولة (٤١٦-٤٣٥ هـ)، ثم أبو كاليجار بن سلطان الدولة (٤٣٥-٤٤٠ هـ)، ثم ابنه أبو نصر خسرو فيروز الذي لقب بالملك الرحيم (٤٤٠-٤٤٧ هـ) الذي انتهى عصر بني بويه به (٢) .

ثانياً: استفحال سلطان الشيعة :

لقد انتشر في هذا العصر سلطان الشيعة في مناطق متعددة من العالم الإسلامي آنذاك، سواء دويلات مستقلة لهم أو ظهور أحزاب شيعية مختلفة.

---

(١) التاريخ العباسي والفاطمي للعبادي: ١٦٢-١٦٣ .

(٢) التاريخ الإسلامي لحسن إبراهيم: ٣ /٤٣-٦٣ .

[أ] البويهيون :

لقد كانت الأسرة البويهية التي تقلدت الحكم في بغداد وجعلت الخليفة تحت سيطرتها كانت هي نفسها تعتنق المذهب الشيعي، بل إنهم أظهروا عقيدتهم بكل وضوح وتحدوا الناس من أجلها فقد أمر معز الدولة سنة ٣٥١ هـ عامة الشيعة ببغداد بالكتابة على المساجد ما نصه (لعن الله معاوية بن أبي سفيان، ولعن من غصب فاطمة رضي الله عنها فدكًا [١] ، ومن منع من أن يُدفن الحسن عند قبر جده عليه السلام، ومن نفى أبا ذر الغفاري ، ومن أخرج العباس من الشورى) .

وقام بعض الناس بمسحه في الليل، فأراد معز الدولة إعادة كتابته ولكن أشار عليه وزيره بأن يبدلها بـ (لعن الله الظالمين لآل رسول الله ﷺ) ولا يذكر أحداً في اللعن إلا معاوية ، ففعل ذلك [٢] .

في السنة التالية أمر معز الدولة في العاشر من المحرم بغلق الأسواق وإظهار النياحة، وأن يلبسوا قباباً عملوها بالمسوح، وأن يخرج النساء ناشرات الشعور سادرات الوجوه قد شققن ثيابهن ويدرن في البلد بالنوائح ويلطمن وجوههن على الحسين بن علي رضي الله عنهما، فاستجاب الناس لذلك، ولم يستطع أهل السُّنَّة المنع لكثرة الشيعة، ولأن السلطان معهم، ثم تكرر هذا الأمر في السنة التي بعدها. وفي الثامن عشر من ذي الحجة [٣] من سنة (٣٥٢ هـ) أمر معز الدولة بإظهار الزينة في البلد وأشعلت النيران في مجلس الشرطة وأظهر الفرح وفتحت الأسواق ليلاً كما يفعل لليالي الأعياد ، فعل ذلك فرحاً بعيد الغدير [٤] - يعني غدير خم - وضربت الدبابات والبوقات وكان يوماً مشهوداً .

ومع أن البويهين ناصروا مذهبهم بشكل كبير، إلا أنهم لم ينقلوا الخلافة من

---

(١) هي أرض كانت نصيب النبي ﷺ من خيبر .

(٢) الكامل في التاريخ: ٧ / ٤ .

(٣) هو يوم مقتل امير المؤمنين عثمان رضي الله عنه .

(٤) يدّعي الشيعة - قبحهم الله - ان النبي ﷺ بايع عليًا وأوصى له بالإمامة في ذلك اليوم .

بني العباس إلى العلويين ، لأن هذا الأمر سيؤدي إلى صدام بينهم وبين عامة الناس، وهذا الصدام لن يكون مثل غيره مما وقع بين السُّنَّة والشيعة، بل قد يؤدي إلى إضعاف مركزهم أو زواله، ومن جهة ثانية فإن وجود خليفة علوي يعترفون بخلافته ويقرونها سيسلبهم كثيراً من صلاحياتهم، ومن هذه النقطة بالذات قد أشار إليها أحد خواص معز الدولة عندما أراد الأخير نقل الخلافة إلى العلويين حيث قال له: ليس هذا برأي فإنك اليوم مع خليفة تعتقد أنت وأصحابك أنه ليس من أهل الخلافة، ولو أمرتهم بقتله لقتلوه مستحلين دمه، ومتى أجلست بعض العلويين خليفة كان معك من تعتقد أنت وأصحابك صحة خلافته فإن أمرهم بقتلك لفعلوه (١) .

[ب] العبيديون:

نشأت هذه الحركة أولاً في المغرب على يد أبي عبد الله الشيعي، وهو رجل من أهل الكوفة يدعى الحسين بن أحمد بن زكريا، وكان قد تنقل بين اليمن والحجاز واستقر أخيراً في المغرب حيث بدأ دعوته السليمة عام ٢٨٨ هـ واستمرت ثلاثة أعوام، عمل خلالها على جذب الأنصار إليه، وبخاصة في قبيلة كتامة البربرية، ثم كانت مرحلة الحرب التي استمرت حتى سقوط القيروان عاصمة دولة الأغالبة في يده وذلك عام ٢٩٧ هـ (٢) .

ولما استقرت الأحوال بأبي عبد الله الشيعي طلب زعيم الدعوة التي كان في الشام وهو عبيد الله من ذرية عبد الله بن ميمون القداح الفارسي وهو يزعم أنه من ذرية فاطمة ﵂ لذلك سمى دولته بالدولة الفاطمية، وادعى أنه المهدي، ولكن أكثر العلماء ينفون صحة هذا النسب، وقد قامت الدولة العبيدية في المغرب من (عام ٢٩٨ هـ إلى عام ٣٦١ هـ ، وانتقلت إلى مصر عام ٣٦٢ هـ) ،

---

(١) الكامل في التاريخ: ٦ / ٣١٥ .

(٢) في التاريخ العباسي والفاطمي: ٢٢٤-٢٢٥ .

واستمرت إلى عام (٥٦٧ هـ) ، وسياتي مزيد بيان وتفصيل عنها في الكتاب الثالث إن شاء الله.

[جـ] القرامطة :

قامت هذه الحركة على يد حمدان بن الأشعث الملقب بـ« قرمط »، وكان قيام حركته في الكوفة سنة ٣٧٨ هـ وكان حمدان قرمط قد اعتنق المذهب الشيعي الإسماعيلي على يد أحد دعاتها وهو حسين الأهوازي، وصار قرمط من كبار دعاة الإسماعيلية وأحد أصولها، وقد خلفه زعيم آخر يدعى الحسن بن بهرام ويعرف بابي سعيد الجنابي، التفت حوله القرامطة وهاجم سنة ٢٨٧ هـ هجر عاصمة البحرين وجعلها عاصمة له، وقد استفحل شرهم بشكل كبير فهاجموا بغداد، كما هاجموا سنة ٢٨٩ هـ دمشق وفي سنة ٣١٧ هـ هاجموا الحجاج في المسجد الحرام وقتلوا من كان فيه وألقوا جثثهم في بئر زمزم، كما هاجموا من كان في طرقات مكة وما حولها وقتلوا عدداً هائلاً منهم، ونهبوا دوره وخلعوا الحجر الأسود وأخذوه معهم إلى عاصمتهم ، وما أعادوه إلا بأمر عبيد الله المهدي العبيدي (١) .

وعادوا إلى مهاجمة دمشق سنة ٣٦٠ هـ وأوقعوا بأهلها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، واستمر خطرهم على الإسلام والمسلمين إلى نهاية العصر البويهي .

[د] الحمدانيون:

ينتسب الحمدانيون إلى قبيلة تغلب العربية، وقد نشأت دولتهم في شمال العراق والشام عام ٣١٧ هـ وكانت عاصمتهم حلب، وقد دافعوا عن حدود بلاد الشام الشمالية، وكانت لهم جولات في مواجهة الروم. وكان الحمدانيون فيهم تشيع ولكنه لم يصل إلى درجة الغلو، ولكن هذا التشيع جعل صلاتهم بالدول

---

(١) الكامل في التاريخ: ٦/ ٢٠٣-٢٠٤.

الشيعية الأخرى صلات جيدة، فأدت هذه الصلات إلى إرسال الهدايا الثمينة لهم، كما أن هذه الصلات اتسعت إلى حد مساعدتها لهم في هجماتهم الغاشمة على المسلمين بالمال والسلاح.

هذه بعض الحركات والدول التي اعتنقت المذهب الشيعي وظهرت في هذا العصر وهناك غيرها، وقد بسطت نفوذها على بقاع شاسعة من العالم الإسلامي آنذاك وأذاقت أهل السُنَّة الويلات ولكن الله غالب على أمره [١] .

ثالثاً: ظهور الإمارات المستقلة :

[١] الإمارة الأموية في الأندلس (١٣٨-٣١٦ هـ) :

هرب عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك من أيدي العباسيين، وعندما وصل إلى إفريقية متخفياً عن طريق مصر وبرقة اختفى هناك مدة، ثم سار إلى المغرب الأقصى حيث نزل على أخواله، وفي سنة ١٣٦ هـ ، بدأ يعد العدة لدخول الأندلس. أرسل عبد الرحمن مولاه بدر الرومي إلى الأندلس الذي دعا له فيها واستطاع أن يجمع حوله أعواناً ثم عاد إلى عبد الرحمن يخبره بأحوالها.

عبر عبد الرحمن مضيق جبل طارق في غرة ربيع الأول سنة ١٣٨هـ والتف حوله مؤيدوه فسار بهم حتى التقى بيوسف بن عبد الرحمن الفهري والي العباسيين وجرى بينهما صدام انتهى بانتصار عبد الرحمن ودخوله قرطبة في ذي الحجة من نفس السنة [٢] .

لقب عبد الرحمن بن معاوية بالداخل لأنه أول من دخل الأندلس من بني أمية حاكماً، وبه بدأ عهد جديد سمي بعهد الإمارة حسب شكل الحكم. واستمر هذا العهد حوالي قرن وثلاث أرباع القرن، حتى إعلان الخلافة فيها سنة ٣١٦ هـ.

وكان عبد الرحمن الداخل أو صقر قريش كما سماه أبو جعفر المنصور

---

(١) أيُعيد التاريخ نفسه؟: ٥٤-٥٥-٥٦-٥٧.

(٢) سير أعلام النبلاء: ٨/ ٢٤٤-٢٤٦، التاريخ الأندلسي: ٢١٦.

لشجاعته وقوة نفسه أول أمراء هذه الإمارة ودعي أيضاً بعبد الرحمن الأول، لأنه أول ثلاثة أمراء بني أمية حملوا هذا الاسم وهم أشهر أمراء تلك الفترة (١) .

[ب] شجرة نسب الإمارة الأموية في الأندلس:

هشام بن عبد الملك – معاوية – عبد الرحمن – هشام – الحكم – عبد الرحمن – محمد – المنذر – عبد الله – محمد – عبد الرحمن .

أمراء الإمارة الأموية في الأندلس :

[١]عبد الرحمن الداخل الأول (١٣٨–١٧٢) .

[٢]هشام الأول (١٧٢–١٨٠) .

[٣]الحكم الأول (١٨٠–٢٠٦) .

[٤]عبد الرحمن الأوسط الثاني (٢٠٦–٢٣٨) .

[٥]محمد الأول (٢٣٨–٢٧٣) .

[٦]المنذر (٢٧٣–٢٧٥) .

[٧]عبد الله (٢٧٥–٣٠٠) .

[٨]عبد الرحمن الناصر الثالث (٣٠٠–٣٠٥) وفي عهده بدأت الخلافة الأموية في الأندلس سنة ٣١٦ هـ.

[جـ] أحوال الإمارة الأندلسية :

أدى الفتح الإسلامي للأندلس إلى انتقال حالته إلى حياة قائمة على أسس إسلامية، وقد أثمرت الجهود التي بذلت من قبل الولاة في ترسيخ دعائم الحياة الإسلامية وظهرت ثمار تلك الجهود في عهد الإمارة.

فقد نمت التنظيمات المختلفة في عهد الإمارة، وظهر منصب الحجابة والوزارة ،

---

(١) المرجع السابق:٢١٧ .

كما ظهرت القوة الحربية البحرية وتقدمت التنظيمات العسكرية، وعني بالثغور والأساطيل وتميز هذا العهد وما تلاه بالإنتاج في مختلف النواحي العلمية فنمت العلوم وازدهر الميدان الثقافي وكثر الإنتاج فيه واتسع نطاق التعليم، وزاد الاهتمام بالكتب والمكتبات في أنحاء الأندلس كافة وشملت كلا الجنسين وغدت الأندلس أحد مراكز الثقافة في العالم الإسلامي (١) .

ووجد تبادل ثقافي بين العلماء وفي المؤلفات بين الأندلس وبقية البلاد الإسلامية (٢) ، وشاع التعليم في هذا العهد وما بعده في أنحاء الأندلس وأصبح عامًّا وشمل الذكور والإناث، وعمت معاهد التعليم ومؤسساته سواء بجهود الأمراء وبجهود المجتمع وكانت اللغة العربية هي لغة الثقافة والتفاهم عند المسلمين بصورة رئيسة (٣) .

ومن الجوانب الحضارية التي أولتها النهضة العامة في الأندلس عنايتها بالجانب العمراني الذي قام على أسس هندسية وفنية في الدقة والذوق والأناقة، وكان الاهتمام العمراني يشمل المرافق العامة والخاصة (٤) .

ومن أبرز المنشآت العمرانية العامة مسجد قرطبة الجامع الذي بدأ بناءه سنة (١٧٠ هـ) في إمارة عبد الرحمن الداخل (٥) .

كما اهتم في هذه الفترة بإنشاء المدن وإقامة التحصينات ودور صناعة السفن، والحدائق والمساجد وأنشئت دار السكة لضرب النقود (٦) . وفي ميدان الزراعة جلبت إلى الأندلس الغروس والبذور المتنوعة، وتقدمت وسائل الري، وأجريت المياه سواء للسقي أو للشرب بطريقة فنية (٧) .

---

(١) التاريخ الأندلسي :٢٧٨-٢٨٩ .
(٢) المرجع السابق :٢٨٠ .
(٣) المرجع السابق :٢٨٦ .
(٤) المرجع السابق :٢٧٩ .
(٥) المرجع السابق :٢٤٤ .
(٦) المرجع السابق :٢٧٩ .
(٧) المرجع السابق :٢٨٠-٢٨٦-٢٨٧-٢٨٩ .

وتوفر في هذه الفترة الأمن والرخاء سوى بعض الحوادث الداخلية المحددة، وكذلك تحرشات أسبانيا الشمالية والفرنج التي كانت تعكر ذلك الجو الآمن. كما قامت بعض علاقات دبلوماسية مع عدد من الدول في أوربا وغيرها بعد أن ظهرت هيبة الإمارة في الأندلس ووضحت قوتها وعلت مكانتها وحرصت هذه الدول على صداقة الأندلس وإقامة علاقات ودية معها، لذلك وجهت إلى الأندلس سفارات كثيرة، لقد كانت هذه الإنجازات وغيرها نتيجة دخول هذا البلد في رحاب الإسلام وخير إنجاز له تحرره من العبودية للناس إلى العبودية لله وحده (١).

[د] العلاقة بين الإمارة الأندلسية والخلافة العباسية :

استمرت الصلات بين الإمارة الأندلسية وبين بقية العالم الإسلامي كما هي رغم وجود الجفوة بين أمراء الأندلس وبين الخلافة العباسية، ولم تحاول الخلافة العباسية استعادت الأندلس محاولة جادة، فلم تتجاوز محاولتها تأييد الدعوات التي تقوم لصالحها ودعمها، أما تسيير الجيوش فلم يحدث إطلاقاً، ولعل السبب في ذلك بُعْد الأندلس عن مركز الخلافة من جهة وما يكلف ذلك من جهد وخسارة للطرفين من جهة أخرى (٢).

أما ما ذكره بعض المؤرخين الغربيين من أن العلاقة بين شارلمان ملك فرنسا وبين الرشيد كانت لهدف لهما لتقوم فرنسا بمهاجمة الإمارة الأموية فلا صحة له، لأنه مهما بلغت العداوة بين الأمراء والخلافة فلا يمكن أن تصل إلى درجة أن يشجع الرشيد حاكماً مسيحيًّا لاحتلال قطراً من الأقطار الإسلامية وطرد المسلمين منه، فالخلافة العباسية ترى في الإمارة الأندلسية قطراً خرج عن الطاعة وأنه عاجلاً أو

---

(١) التاريخ الأندلسي: ٢٨٠-٢٨٦-٢٨٧-٢٨٩.

(٢) المرجع السابق: ٢٨٧-٢٨٩.

آجلاً سيعود إليها، وتحريض شارلمان لاحتلاله يعني خروجه من أيديهم تماماً (١) .

من جهة أخرى كانت الخلافة العباسية ترى في أهل الأندلس من رعاياهم المسلمين فلا يمكن بحال من الأحوال أن يوافقوا أو يشجعوا الغارات التي يشنها عليهم نصارى الشمال، بل لو أنهم استطاعوا دفعاً لما تقاعسوا عن ذلك .

لا يمكن معرفة هذه الجوانب من قبول ادعاءات مثل هؤلاء المؤرخين وهم أتوا من جهلهم بطبيعة الرابطة التي تربط بين أفراد المجتمع الإسلامي، وأنها رابطة لا تحدها حدود زمانية ولا مكانية، بل هي أكبر من المطامع الدنيوية (٢) .

رابعاً: فتنة خلق القرآن :

ازدهرت في هذا العصر الحركة العلمية وبرز العلماء في مختلف العلوم العقلية والنقلية، ونشطت حركة الترجمة وبخاصة في عهد الخليفة المأمون فترجمة كتب اليونان والهند، ولو اقتصرت الترجمة على العلوم النافعة لم يكن في ذلك بأس ولكنها شملت كتب الفلاسفة الذين تكلموا في الغيبيات التي لا يعلمها إلا الله فكانت هذه الكتب سبب الفتن التي أصابت الأمة الإسلامية آنذاك . فما لبث أن ظهر علم الكلام وبالتالي تطور مذهب الاعتزال، وأخذ يتجه إلى مناقشة الأمور العقائدية بصورة جدلية، وهذا بالتالي أدى إلى نفي صفات الله سبحانه وتعالى أو تأويلها وقد اعتنق الخليفة المأمون عقيدة المعتزلة وأظهر فتنة خلق القرآن وامتحن العلماء فيها .

كانت البداية مناظرات ومجادلات كلامية بين الطوائف ثم انتقلت إلى مرحلة الصراع بين أهل السُنَّة والمعتزلة، واستطاعت المعتزلة أن تحمل المأمون على اعتناق

---

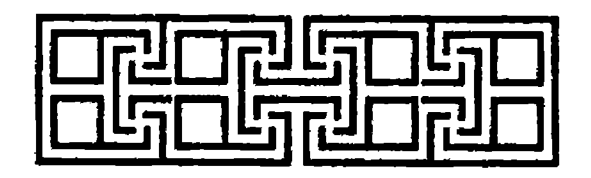
(١) العلاقة السياسية بين الدولة العباسية والأندلس: ١٣٥ .

(٢) من الأدلة على قوة العباسيين ونفوذهم السياسي أن شارلمان ملك فرنسا أرسل يستأذن هارون الرشيد في قتال الدولة الأموية الثانية بالأندلس ، فغضب الرشيد غضبًا عظيمًا ، وأرسل إليه ردًا غليظًا ، ثم أرسل يحذر أمراء الأندلس ، رغم الجفاء الذي كان بينه وبينهم .

مذهبها وتدفعه لتقريره على الأمة وكان المأمون كما قال ابن كثير يحب العلم، ولكن لم تكن له بصيرة نافذة فيه فدخل عليه بسبب ذلك الداخل وراج عنده الباطل، ودعا إليه وحمل الناس عليه قهراً [١] ، فحدثت الفتنة [٢] .

وكانت بداية هذه الفتنة في أواخر عهد المأمون سنة ٢١٨ هـ [٣] .

ولما مات أوصى المعتصم بأن يعتقد ما اعتقده هو [٤] . وكان الإمام أحمد على رأس من واجهوا هذه الفتنة وقد لاقى في سبيل ذلك كثيراً من التعذيب، وكان ذلك على يد المعتصم حيث إن المأمون مات قبل أن يلتقي بالإمام أحمد، واستمرت الفتنة في عهد الواثق وَرُفِعَتْ في عهد المتوكل [٥] .



(١) البداية والنهاية: ١٠ / ٢٨٨.

(٢) مقدمة في شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي: ١ / ٣٥.

(٣) البداية والنهاية: ١٠ / ٢٨٤.

(٤) المرجع السابق: ١٠ / ٢٩٣.

(٥) **انظر** : حول الفتنة سير أعلام النبلاء: ١١ / ٢٣٧-٢٦٥، والمصدر السابق: ١٠ / ٣٤٥-٣٤٩.

الفصل الرابع

الخوارج في الشمال الإفريقي

المبحث الأول

نشأة الخوارج(•)

أولاً: معاني اسم الخوارج :

قبل أن أذكر بداية نشأة الخوارج وتطورهم، نذكر طائفة من أقوال أهل العلم فيهم: فقد بيَّن أبو الحسن الأشعري أن اسم الخوارج يطلق على الذين خرجوا على الخليفة الراشد علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وكان خروجهم على علي هو العلة في تسميتهم بهذا الاسم، حيث قال رحمه الله تعالى: «والسبب الذي سموا له خوارج خروجهم على علي ابن أبي طالب لما حكم» (١) .

وأما ابن حزم فقد بين أن اسم الخارجي يتعدى إلى كل من أشبه أولئك النفر الذين خرجوا على علي رضي الله عنه وشاركهم في معتقدهم، فقد قال: (ومن وافق الخوارج من إنكار التحكيم وتكفير أصحاب الكبائر والقول بالخروج على أئمة الجور وأن أصحاب الكبائر مخلدون في النار وأن الإمامة جائزة في غير قريش فهو خارجي وإن خالفهم فيما عدا ذلك مما اختلف فيه المسلمون خالفهم فيما ذكرنا فليس خارجياً) (٢) .

وأما الشهرستاني فقد عرف الخوارج بتعريف عام اعتبر فيه الخروج على الإمام

(•) جل الفصل الرابع منقول من كتاب: عقيدة أهل السنة في الصحابة للدكتور ناصر بن علي، وكتاب مذكرات في الفرق للدكتور العواجي.

(١) مقالات الإسلاميين، لأبي الحسن الأشعري: ١/٢٠٧ .

(٢) الفصل في الملل والأهواء والنحل، لابن حزم: ٢/١١٣ .

الذي اجتمعت الكلمة على إمامته الشرعية خروجاً في أي زمن كان، حيث قال في تعريفه للخوارج: (كل من خرج على الإمام الحق الذي اتفقت الجماعة عليه، يسمى خارجياً سواء كان الخروج في أيام الصحابة على الأئمة الراشدين أو كان بعدهم على التابعين بإحسان والأئمة في كل زمان) [١] .

وقال ابن حجر رحمه الله تعالى معرفاً لهم :

« والخوارج الذين أنكروا على علي التحكيم وتبرءوا منه ومن عثمان وذريته وقاتلوهم، فإن أطلقوا تكفيرهم فهم الغلاة منهم » [٢] .

وقال في تعريف آخر: « أما الخوارج فهم جمع خارجة، أي طائفة وهم قوم مبتدعون سموا بذلك لخروجهم عن الدين وخروجهم على خيار المسلمين» [٣] .

فالخوارج هم : أولئك النفر الذين خرجوا على علي ﷺ بعد قبوله التحكيم بعد موقعة صفين ولهم ألقاب أخرى عرفوا بها غير لقب الخوارج ومن تلك الألقاب: الحرورية سموا بهذا الاسم لنزولهم بمنطقة حروراء في أول أمرهم، ومن ألقابهم: الشراة لقولهم شرينا أنفسنا في طاعة الله، ومن أسمائهم: المارقة والمحكمة لإنكارهم الحكمين، وقولهم لا حكم إلا لله، وهم يرضون بهذه الألقاب كلها إلا المارقة، فإنهم ينكرون أن يكونوا مارقة من الدين كما يمرق السهم من الرمية [٤] .

ولكن يجب أن ننوه ههنا على ضوابط تعريف الخوارج ، حيث إن هذه التعاريف السالفة لا تنسحب بالضرورة على من خرج على الحكام المبدلين لشرع الله الحنيف، الذين يحرسون مناهج العلمانية الكافرة ويسوسون الدنيا بها !! ، بل يصدق وصف الخوارج – سالف الذكر – وينسحب على من خرج على الحكام

(١) الملل والنحل، للشهرستاني: ١ / ١١٤ .

(٢) هدي الساري مقدمة فتح الباري: ٤٥٩ .

(٣) فتح الباري: ١٢ / ٢٨٣ .

(٤) عقيدة أهل السُّنة والجماعة في الصحابة: ٣ / ١١٣٤ .

المسلمين الذين يحكمون بشرع الله الحنيف ويسوسون الدنيا به . وعلى ذلك انعقد إجماع أهل السُّنَّة والجماعة ، كما ذكر ذلك الإمام النووي – رحمه الله – بقوله : قال القاضي عياض أجمع العلماء على أن الإمامة لا تنعقد لكافر وعلى أنه لو طرأ عليه الكفر انعزل، إلى أن قال : فلو طرأ عليه كفر وتغيير للشرع أو بدعة خرج عن حكم الولاية وسقطت طاعته ووجب على المسلمين القيام عليه وخلعه ونصب إمام عادل إن أمكنهم ذلك . (١)

ثانياً: بداية نشأة الخوارج:

وأما بداية نشأتهم فإنها كانت بعد حصول الاتفاق على التحكيم بين علي ومعاوية سنة سبع وثلاثين، فقد أخرج الطبري من طريق سليمان بن يونس بن يزيد عن الزهري أن أهل الشام نشروا المصاحف حين كاد أهل العراق أن يغلبوهم ودعوا إلى ما فيها، فهاب أهل العراق، فعند ذلك حَكَّموا الحكمين، فاختار أهل العراق أبا موسى الأشعري، واختار أهل الشام عمرو بن العاص، فتفرق أهل صفين حين حكم الحكمان وإنهما يجتمعان بدومة الجندل، فإن لم يجتمعا لذلك اجتمعا من العام المقبل بأذْرُح، فلما انصرف عليّ، خالفت الحرورية وخرجت وكان ذلك أول ما ظهرت فأذنوه بالحرب وقالوا : لا حكم إلا لله (٢) .

فكان أول خروجهم على عليّ ﷺ، بعد أن وافق على التحكيم واعتبروا التحكيم خطيئة تؤدي إلى الكفر .

ولما بعث عليٌّ أبا موسى ومن معه من الجيش إلى دومة الجندل، اشتد أمر الخوارج وبالغوا في النكير على عليّ وصرحوا بكفره، فجاءه رجلان منهم وهما : زرعة بن البرج الطائي، وحرقوص بن زهير السعدي، فقال لا حكم إلا لله، فقال عليّ لا حكم إلا لله، فقال له حرقوص، تب من خطيئتك واذهب بنا إلى عدونا

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي: ١٣/ ٢٢٩ .

(٢) انظر : تاريخ الأمم والملوك : ٥/ ٧٥ .

حتى نقاتلهم حتى نلقى ربنا، فقال علي: قد أردتكم على ذلك فأبيتم، وقد كتبنا بيننا وبين القوم عهوداً وقد قال تعالى: ﴿ **وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلا تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً** ﴾ [النحل: ٩١].

فقال له حرقوص: ذلك ذنب ينبغي أن نتوب منه فقال عليّ: ما هو بذنب، ولكنه عجز من الرأي، وقد تقدمت إليكم فيما كان منه ونهيتكم عنه، فقال له زرعة بن البرج: أما والله يا علي لئن لم تدع تحكيم الرجال في كتاب الله لأقاتلنك أطلب بذلك رحمة الله ورضوانه، فقال علي: تبًّا لك ما أشقاك كأني بك قتيلاً تسفي عليك الريح، فقال: وددت أن قد كان ذلك، فقال له علي: إنك لو كنت محقاً كان في الموت عزية عن الدنيا، ولكن الشيطان قد استهواكم [١].

ولما رأوا عزم عليّ على إنفاذ الحكومة وبعثة أبا موسى الأشعري، قرروا الانفصال عنه وتعيين أمير عليهم، فاجتمعوا في منزل عبد الله بن وهب الراسبي فخطبهم خطبة بليغة زهدهم في الدنيا ورغبهم في الآخرة والجنة وحثهم على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ثم قال: فاخرجوا بنا إخواننا من هذه القرية الظالم أهلها إلى جانب هذا السواد إلى بعض كور الجبال أو بعض هذه المدائن منكرين لهذه الأحكام الجائرة، ثم قام حرقوص بن زهير فقال بعد حمد الله والثناء عليه: إن المتاع بهذه الدنيا قليل وإن الفراق لها وشيك فلا تدعونكم زينتها أو بهجتها إلى المقام بها ولا تلتفت بكم عن طلب الحق وإنكار الظلم ﴿ **إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ** ﴾ [النحل: ١٢٨].

فقال حمزة بن سنان الأسدي: يا قوم إن الرأي ما رأيتم وإن الحق ما ذكرتم، فولوا أمركم رجلاً منكم، فإنه لابد لكم من عماد وسنان ومن راية تحفون بها، وترجعون إليها فبعثوا إلى زيد بن حصن الطائي وكان من رءوسهم - فعرضوا

---

(١) المرجع السابق: ٥ / ٧٢، الكامل في التاريخ: ٣٣٤.

عليه الإمارة فأبى، ثم عرضوها على حرقوص بن زهير فأبى، وعرضوها على حمزة ابن سنان فأبى، وعرضوها على شريح بن أبي أوفى العبسي فأبى، وعرضوها على عبد الله بن وهب الراسبي فقبلها، وقال: أما والله لا أقبلها رغبة في الدنيا ولا أدعها فرقاً من الموت [١].

واجتمعوا أيضاً في بيت زيد بن حصن الطائي السنبسي فخطبهم وحثهم على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتلا عليهم آيات من القرآن، ومنها قوله تعالى: ﴿**يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ**﴾ [ص:٢٦] وقوله تعالى: ﴿**وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ**﴾ [المائدة:٤٤]، ﴿**فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**﴾ [المائدة: ٤٥]، ﴿**فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**﴾ [المائدة:٤٧].

ثم قال: فاشهد على أهل دعوتنا من أهل قبلتنا أنهم اتبعوا الهوى ونبذوا حكم رجل منهم يقال له: عبد الله بن شجرة السلمي، ثم حرض أولئك على الخروج على الناس وجاء في كلامه اضربوا وجوههم وجباههم بالسيوف حتى يطاع الرحمن الرحيم، فإن أنتم ظفرتم وأطيعوا الله كما أردتم - أثابكم ثواب المطيعين له العاملين بأمره، وإن فشلتم فأي شيء أفضل من المصير إلى رضوان الله وجنته؟ [٢].

قال العلامة ابن كثير بعد أن ذكر ما أملاه الشيطان لهم بما تقدم ذكره:

وهذا الضرب من الناس من أغرب أشكال بني آدم، فسبحان من نوع خلقه كما أراد وسبق في قدره العظيم، وما أحسن ما قال بعض السلف في الخوارج إنهم المذكورون في قوله تعالى: ﴿ **قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ**

---

(١) تاريخ الطبري: ٥/٧٤-٧٥.

(٢) **انظر**: البداية والنهاية، لابن كثير: ٧/٣١٢.

كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا ﴾ .

[الكهف :١٠٣-١٠٥] .

والمقصود أن هؤلاء الجهلة الضلال، والأشقياء في الأقوال والأفعال ، اجتمع رأيهم على الخروج من بين أظهر المسلمين، وتواطئوا على المسير إلى المدائن ليملكوها على الناس ويتحصنوا بها، ويبعثوا إلى إخوانهم وأضرابهم ممن هم على رأيهم ومذهبهم من أهل البصرة وغيرها فيوافوهم إليها، ويكون اجتماعهم عليها، فقال لهم زيد بن حصن الطائي : إن المدائن لا تقدرون عليها، فإن بها جيوشاً لا تطيقونها وسيمنعوها منكم ، ولكن واعدوا إخوانكم إلى جسر نهر جوخي ولا تخرجوا من الكوفة جماعات، ولكن اخرجوا وحداناً لئلا يفطن بكم فكتبوا كتاباً عاماً إلى من هو على مذهبهم ومسلكهم من أهل البصرة وغيرها وبعثوا به إليه ليوافوهم إلى النهر ليكونوا يداً واحدة على الناس، ثم خرجوا يتسللون وحداناً لئلا يعلم أحد بهم فيمنعوهم من الخروج، فخرجوا من بين الآباء والأمهات والأخوال والخالات وفارقوا سائر القرابات يعتقدون بجهلهم وقلة علمهم وعقلهم أن هذا الأمر يرضي رب الأرض والسموات، ولم يعلموا أنه من أكبر الكبائر الموبقات والعظائم والخطيئات، وأنه مما زينه لهم إبليس الشيطان الرجيم المطرود عن السموات الذي نصب العداوة لأبينا آدم، ثم لذريته ما دامت أرواحهم في أجسادهم مترددات وقد تدارك جماعة من الناس بعض أولادهم وإخوانهم، فزادوهم وأنبوهم ووبخوهم، فمنهم من استمر على الاستقامة، ومنهم من فر بعد ذلك فلحق بالخوارج فخسر إلى يوم القيامة، وذهب الباقون إلى ذلك الموضع ووافى إليهم من كانوا كتبوا إليه من أهل البصرة وغيرها، واجتمع الجميع بالنهروان وصارت لهم شوكة ومنعة [١] .

---

(١) البداية والنهاية، لابن كثير: ٧/ ٢٠٧.

فبداية الخوارج على شكل جماعي له اتجاهه وآراؤه الخاصة بدأ بالخروج على عليّ ﷺ، وأما خروج ذي الخويصرة في زمن النبيّ ﷺ فكان اعتراضه على النبيّ ﷺ اعتراض فرد وليس اعتراض جماعة وأما خروج الثائرين على عثمان ﷺ هو خروج عن طاعة الإمام الحق إلا أن هذا الخروج لم يكن يتميز بأنه خروج جماعة لها عقائدها الواضحة وآراؤها المتميزة، وإنما كان خروجاً من قوم أهل جهل وبغي وتعنت وأهل ظلم وخيانة وافتراء اندس فيهم زنادقة.

ثالثاً: الأحاديث والآثار الواردة في ذم الخوارج:

لقد وردت أحاديث كثيرة عن النبي ﷺ في ذم الخوارج وصفوا فيها بأوصاف ذميمة شنيعة جعلتهم في أخبث المنازل، وكذا وردت بعض الآثار عن السلف تتضمن كذلك ذمهم وما سلكوه من الطريق المخالف لغير سبيل المؤمنين .

فمن تلك الأحاديث الواردة في ذمهم :

﴿ ١ ﴾ ما رواه الشيخان في صحيحهما من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ وهو يقسم قسماً – إذ أتاه ذو الخويصرة وهو رجل من بني تميم، فقال: يا رسول الله اعدل، فقال : « **ويلك ، ومن يعدل إذا لم أعدل، قد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل** » !! فقال عمر يا رسول الله ائذن لي فيه فأضرب عنقه، فقال: «**دعه فإن له أصحاب يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم، يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية** » (١) .

وإذا تتبعت أحاديث رسول الله ﷺ في الخوارج تجد ذماً واضحاً لهم، فقد وصفهم ﷺ بأنهم طائفة مارقة، وأنهم يشددون في الدين في غير موضع التشديد، وأنهم يبالغون في الصلاة وقراءة القرآن، لكنهم لا يقومون بحقوق

---

(١) صحيح البخاري: ٢ / ٢٨١، صحيح مسلم: ٢ / ٧٤٤-٧٤٥.

الإسلام، بل يمرقون منه بحيث يدخلون فيه ثم يخرجون منه سريعاً لم يتمسكوا منه بشيء.

وفي قوله: [لا يجاوز تراقيهم] احتمالان:

الأول: يحتمل أنه لكونه لا تفقهه قلوبهم ويحملونه على غير مراد.

الثاني: يحتمل أن يكون المراد أن تلاوتهم لا ترتفع إلى الله [١].

ومن صفاتهم الذميمة التي ذمهم بها الرسول ﷺ:

أنهم ليس لهم من الإيمان عندما يقرءون القرآن يظنونه لشدة ما بلغوا إليه من سوء الفهم أنه لهم وهو عليهم.

﴿ ١ ﴾ وفي البخاري عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: « **يخرج قوم في آخر الزمان أحداث الأسنان سفهاء الأحلام يقولون من خير قول البرية ، لا يجاوز إيمانهم حناجرهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية** » [٢].

ومن صفات الذم التي ذم بها الخوارج على لسان رسول الله ﷺ أنهم ابغض الخلق إلى الله، فقد جاء في صحيح مسلم من حديث عبيد الله بن أبي رافع مولى رسول الله ﷺ أن الحرورية لما خرجت وهو مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه قالوا: لا حكم إلا لله ، قال علي كلمة حق أريد بها باطل، إن رسول الله ﷺ وصف ناساً إني لأعرف صفتهم وهؤلاء يقولون الحق بألسنتهم لا يجاوز هذا منهم (وأشار إلى حلقه) من ابغض خلق الله إليه منهم أسْوَد إحدى يديه طُبْى شاه [٣] أو حلمة ثدي، فلما قتلهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: انظروا فنظروا فلم يجدوا شيئاً، فقال: ارجعوا فوالله ما كذبت ولا كذبت مرتين أو ثلاثاً ثم وجدوه في

---

(١) فتح الباري: ٦/٦١٨.

(٢) صحيح البخاري: ٢ / ٢٨١.

(٣) **طبي شاة**: ضرع شاة: انظر النهاية في غريب الحديث و الأثر: ٣/ ١١٥.

خربة فأتوا به حتى وضعوه بين يديه، قال عبيد الله وأنا حاضر من أمرهم وقول علي فيهم [١].

ومن الصفات القبيحة التي ذمهم بها ﷺ أنهم بمروقهم من الدين لا يوفقون للعودة إليه، وأنهم شر الخلق والخليقة، فقد روى مسلم رحمة الله من حديث أبي ذر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: « **سيكون بعدي من أمتي قوم يقرءون القرآن لا يجاوز حلاقيمهم، يخرجون من الدين كما يخرج السهم من الرمية، ثم لا يعودون فيه، هم شر الخلق والخليقة** » [٢].

وروى من حديث أبي سعيد أن النبي ﷺ ذكر قوماً يكونون في أمته يخرجون في فرقة من الناس سيماهم التحالق قال: « **هم شر الخلق أو من شر الخلق، يقتلهم أدنى الطائفتين إلى الحق** » [٣].

قال النووي: قوله ﷺ: « **يتيه قوم قبل المشرق** » أي يذهبون عن الصواب الحق يقال تاه إذا ذهب ولم يهتد لطريق الحق والله أعلم [٤].

ومن الصفات المذمومة التي تلبسوا بها وأخبر النبي ﷺ أنها واقعة فيهم:

أنهم يتدينون بقتل أهل الإسلام وترك عبدة الأوثان والصلبان، فقد روى الشيخان في صحيحهما من حديث أبي سعيد الخدري قال: [بعث علي رضي الله عنه وهو باليمن بذَهَيْبَةٍ في تربتها إلى رسول الله ﷺ فقسمها رجل بين أربعة نفر ... فجاء رجل كث اللحية مشرف الوجنتين [٥]، ناتيء الجبين [٦]، محلوق الرأس فقال: اتق الله يا محمد، قال فقال رسول الله ﷺ: « **فمن يطع الله إن عصيته**

---

(١) صحيح مسلم: ٢/ ٧٤٩.

(٢) صحيح مسلم: ٢/ ٧٥٠.

(٣) المرجع السابق: ٢/ ٧٤٥.

(٤) شرح النووي: ٧/ ١٧٥.

(٥) **مشرف الوجنتين**: اي غليظهما، والوجنة ما ارتفع من لحم خد الإنسان.

(٦) **ناتئ الجبين**: أي بارز الجبين من النتوء وهو الارتفاع.

أيأمنني على أهل الأرض ولا تأمنوني؟ » قال: ثم أدبر الرجل، فاستأذن رجل من القوم في قتله يرون أن خالد بن الوليد ، فقال رسول الله ﷺ : « **إن من ضئضئي** [١] **هذا يخرج قوم يقرئون القرآن لا يجاوز حناجرهم ، يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان ، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية ، لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد** » [٢] .

وفي هذه معجزة باهرة للرسول ﷺ حيث وقع منهم ما أخبر به ﷺ فإنهم كانوا يسلون سيوفهم على أهل الإسلام بالقتل وكانوا يغمدونها عن الكفار من اليهود والنصارى، وكانوا يعظمون ظلمهم، بل بلغ بهم سوء حالهم، أن عنفوا أحدهم على تناوله حبة تمر من نخيل كتابي كما زجروا أحدهم ولاموه على قتله خنزيراً لمعاهد، أما سفكهم دماء أهل الإسلام فإنهم يستحلون ذلك ويهونون أمره، ولا يلومون عليه كقتلهم عبد الله بن خباب بن الأرت [٣] وغيره من المسلمين فإنهم فعلوا ذلك واستعرضوا الناس بالسيف دون أن يقول بعضهم لبعض هذا منكر.

ومن الصفات القبيحة التي كانت ذماً وعاراً مشيناً للخوارج أن الرسول ﷺ حرض على قتلهم إن هم ظهروا وأخبر ﷺ أنه لو أدركهم لأبادهم بالقتل إبادة عاد وثمود، وأخبر ﷺ بأن من قتلهم له أجر عند الله تعالى يوم القيامة. ففي صحيح البخاري قال ﷺ : « **لئن أدركتهم لأقتلهم قتل عاد** » [٤] ، وفي رواية أخرى قال: « **لئن أدركتهم لأقتلهم قتل ثمود** » [٥] .

---

(١) **الضئضئ** : بالهمز الأصل، والمراد: يخرج من صلبه ونسله، جامع الأصول لابن كثير: ١٠/ ٨٨ .
(٢) صحيح البخاري: ٢/ ٢٣٢، صحيح مسلم: ٢/ ٧٤١-٧٤٢ .
(٣) **انظر**: مصنف ابن أبي شيبة: ١٥/ ٣٢٣ .
(٤) صحيح البخاري: ٢/ ٢٣٢ .
(٥) المرجع السابق: ٣/ ٧٤، جل مبحث الخوارج من كتاب عقيدة أهل السُنة في الصحابة ، د/ ناصر بن علي عائض.

وأما الآثار الواردة عن السلف في ذم الخوارج فكثيرة جداً أيضاً نذكر طرفاً منها لبيان أن الخوارج اتصفوا بصفات ذميمة عابهم بها السلف رحمهم الله فمن الصفات التي ذمهم بها السلف أنهم قوم أصيبوا بالفتنة فعموا عن الحق وصموا فلا يسمعون حقاً ولا يهتدون إليه.

فقد روى عبد الرازق عن معمر عمن سمع الحسن قال: لما قتل عليّ رضي الله عنه الحرورية قالوا: من هؤلاء يا أمير المؤمنين، أكفارهم؟، قال: من الكفر فروا! قيل فمنافقون؟، قال: إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً، وهؤلاء يذكرون الله كثيراً، قيل فما هم؟ قال: قوم أصابتهم فتنة فعموا فيها وصموا [1].

ومن الصفات الشنيعة التي شنع عليهم السلف بها: أنهم كانوا يعتبرونهم من شرار خلق الله تعالى، حيث إنهم عمدوا إلى آيات من كتاب الله تعالى مقصود بها الكفار فجعلوها في المؤمنين، فقد كان عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يراهم شرار خلق الله وقال: إنهم انطلقوا إلى آيات نزلت في الكفار فجعلوها على المؤمنين [2] وروى عبد الرازق عن معمر عن أبي غالب قال: لما أتي برءوس الأزارقة فنصبت على درج دمشق [3] جاء أبو أمامة رضي الله عنه، فلما رآهم دمعت عيناه، ثم قال: كلاب النار كلاب النار هؤلاء لشر قتلى قتلوا تحت أديم السماء وخير قتلى تحت أديم السماء الذين قتلهم هؤلاء، قلت: فما شأنك دمعت عيناك؟ قال: رحمة لهم إنهم كانوا من أهل الإسلام قال: أبرايك قلت: كلاب النار أو شيء سمعته؟ قال: إني إذاً لجرئ، بل سمعته من رسول الله غير مرة ولا اثنتين ولا ثلاثاً فعدد مراراً، ثم تلا ﴿**يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ**﴾ حتى بلغ ﴿**هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾ [آل عمران: ١٠٦-١٠٧] وتلا ﴿ **هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ**

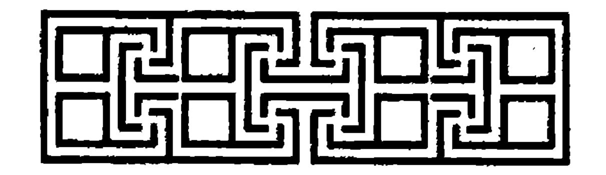
---

(١) مصنف عبد الرزاق: ١٠/١٥٠.

(٢) رواه البخاري تعليقاً: ٤/١٩٧.

(٣) هذه الرءوس مما كان بعث به المهلب بن أبي صفرة في عهد عبد الملك بن مروان.

آياتٌ مُحكَماتٌ﴾ حتى بلغ ﴿أُولُوا الأَلْبَابِ﴾ [آل عمران : ٧] ثم أخذ بيدي فقال : أما إنهم بأرضك كثير فأعاذك الله تعالى منهم [1] وروى ابن أبي شيبة بإسناده إلى عمير بن إسحاق ، قال : ذكروا الخوارج عند أبي هريرة رضي الله عنه قال : أولئك شرار الخلق [2] .



(١) مصنف عبد الرزاق : ١٠ / ١٥٢، مصنف ابن أبي شيبة: ١٥ / ٣٠٧-٣٠٨.

(٢) مصنف ابن أبي شيبة: ١٥ / ٢٠٥.

المبحث الثاني

أهم فرق الخوارج

لقد تشبعت الخوارج إلى فرق عدة بلغ بها بعض أهل العلم ممن كتب في الملل والنحل إلى عشرين فرقة، وعند النظر في هذه الفرق من خلال الكتب التي ألفت في الفرق يتضح أن الخلاف والنزاع بينهما لم يكن في أمور مهمة تؤدي إلى تكوين جماعات مستقلة، بل إن معظم نزاعهم كان يحصل في كثير من أحوالهم حول أمور فرعية، ومن ذلك العدد الكثير الذي ذكر في تعداد فرقهم، نذكر هنا أهم فرقهم المتمثلة في المحكمة الأولى والأزارقة، والنجدات، والصفرية، والإباضية، وعداها من الفرق فهي متفرعة منها وداخلة فيها.

أولاً: المحكمة الأولى:

يقصد بالمحكمة الأولى أولئك الذين خرجوا على الخليفة الراشد علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وهم الذين أعلنوا شعار لا حكم إلا لله. والتفوا حوله وقد اختلف في أول من نادى بهذا الشعار منهم، فقيل أنه عروة بن حدير أخو مرداس الخارجي، وقيل إن أول من نادى يزيد بن عاصم المحاربي، وقيل إنه رجل من بني يشكر، كان مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه بصفين، ولما اتفق الفريقان على التحكيم ركب وحمل على أصحاب علي، وقتل منهم واحدا ثم حمل على أصحاب معاوية، وأنه خرج من حكمهم فقتله رجل من همدان ، ثم إن جماعة ممن كانوا مع علي رضي الله عنه في حرب صفين ، استمعوا منه ذلك الكلام واستقرت في قلوبهم تلك الشبهة، ورجعوا مع علي إلى الكوفة، ثم فارقوه ورجعوا إلى حروراء [١] .

ولما استقروا في حروراء كانوا يعاملون من يخالفهم من المسلمين في رأيهم

---

(١) انظر: مقالات الإسلاميين: ١/ ٢٠٧-٢٠٩، الفرق بين الفرق للبغدادي: ٧٤-٧٥.

أبشع المعاملة وأشد القسوة، قال أبو الحسين الملطي واصفًا ما بلغوا إليه من ظلم وإجرام: (فأما الفرقة الأولى من الخوارج فهم المحكمة الذين كانوا يخرجون بسيوفهم فيمن يلحقون من الناس، فلا يزالون يقتلون حتى يقتلوا، وكان الواحد منهم إذا خرج إلى التحكيم لا يرجع حتى يقتل أو يقتل، فكان الناس منهم على وجل وفتنة) (١) .

ومن أبشع جرائمهم وأفظعها قتلهم عبد الله بن خباب بن الأرت، فقد روى الإمام أحمد بإسناده إلى حميد بن هلال عن رجل من عبد القيس كان مع الخوارج ثم فارقهم، قال: دخلوا قرية فخرج عبد الله بن خباب مذعوراً يجر رداءه، فقالوا: لم ترع، قال: والله لقد رعتموني، قالوا: فهل سمعت من أبيك حديثاً يحدثه عن رسول الله ﷺ تحدثناه، قال: نعم سمعته يحدث عن رسول الله ﷺ: [أنه ذكر فتنة القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي، قال فإن أدركت ذاك فكن عبد الله المقتول] قال أيوب ولا أعلمه قال: ولا تكن عبد الله القاتل قالوا: أأنت سمعت هذا من أبيك يحدثه عن رسول الله ﷺ قال نعم. قال فقدموه على ضفة النهر فضربوا عنقه، فسال دمه، كأنه شراك نعل ما أمَّذَقَ (٢) وبقروا أم ولده عما في بطنها (٣) . وكان الذي تولى قتله منهم رجل يقال له: مسعر بن فدكي (٤) .

ولما بلغ علياً رضي الله عنه نبأ قتلهم عبد الله بن خباب وقتلهم الكثير من الأطفال والنساء، وقد كان رضي الله عنه متأهبًا للعودة إلى صفين لمقاتلة أهل الشام، فرأى أن العودة لمقاتلة هؤلاء المفسدين أولى فكان في ذلك خير له ولأهل الشام فرجع إلى

---

(١) التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع، لأبي الحسن محمد بن أحمد الملطي: ٥١.
(٢) معناه أنه مر فيه كالطريقة الواحدة ولم يختلط به، ولذلك شبهه بالشراك الأحمر وهو سير النَّعْل.
(٣) انظر: المسند: ٥ / ١١٠.
(٤) مقالات الإسلاميين لأبي حسن الندوي: ١ / ٢١٠.

النهروان (فقاتلهم مقاتلة شديدة وكان عددهم أثني عشر ألفا فما انفلت منهم إلا أقل من عشرة، وما قتل من أصحاب علي إلا أقل من عشرة ، فانهزم اثنان منهم إلى عمان، واثنان إلى كرمان واثنان إلى سجستان واثنان إلى الجزيرة، وواحد إلى تل موزن)[١] . وظهرت بدع الخوارج في هذه المواضع منهم [٢]، وقد انمحت بدعهم في بعض هذه الأماكن نهائيًا، وبعضها باقية فيها إلى اليوم.

ثانياً: الأزارقة :

هم أتباع رجل منهم يسمى بأبي راشد نافع بن الأرزق الحنفي، ولم يكن للخوارج قوم أكثر منهم عدداً وأشد منهم شوكة، ولهم اعتقادات فارقوا بها المحكمة الأولى وسائر فرق الخوارج، فهم يعتقدون أن من خالفهم من هذه الأمة فهو مشرك بينما المحكمة يعتقدون أن مخالفهم كافر ولا يسمونه مشركاً، ومما اخْتُصُّوا به أيضاً أنهم يسمون من لم يهاجر إلى ديارهم من موافقيهم مشركاً، وان كان موافقاً لهم في مذهبهم وكان من عاداتهم فيمن هاجر إليهم أن يمتحنوه بأن يسلموا إليه أسيراً من أسراء مخالفيهم وأطفالهم ويأمروه بقتله، فمن قتله صدقوه في دعواه أنه منهم، وإن لم يقتله قالوا: هذا منافق ومشرك، وقتلوه ويزعمون أيضاً، أن أطفال مخالفيهم مشركون ويزعمون أنهم يخلدون في النار، وبالإضافة إلى هذه المعتقدات الشاذة والآراء المنحرفة، فقد نادى الأزارقة ببعض الآراء التي تنم عن جهلهم بالشرع وعدم فقههم في الدين، من ذلك: إسقاطهم حد الرجم عن الزاني المحصن بحجة أنه لم يرد في القرآن نص عليه [٣] .

كما أسقطوا أيضاً حد القذف عمن قذف المحصن من الرجال مع وجوب الحد على قاذف المحصنات من النساء، تمسكاً أيضاً: في زعمهم بما – ورد في القرآن –

---

(١) بلد قريب من حران، انظر معجم البلدان: ٢ / ٤٥ .

(٢) انظر: الملل والنحل: ١ /١١٧ .

(٣) انظر: الفصل في الملل والأهواء والنحل: ٤ /١٨٩ .

وذهبوا أيضاً إلى أن يد السارق تقطع في القليل والكثير من غير اعتبار لنصاب الشيء المسروق، وأن القطع يكون من المنكب كما أوجبوا على الحائض الصلاة والصوم في حال حيضها، كما أنهم حرموا قتل النصارى واليهود وأباحوا قتل المسلمين، وهذه الآراء واضح فيها الجهل وعدم العلم والفهم للقرآن، وعدم الإلمام بالسُّنَّة، ويصدق عليهم قوله ﷺ: «**يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم**» [١].

وقد اشتدت شوكة الأزارقة وصارت لهم قوة حتى أخذوا في مقاتلة غيرهم حتى تغلبوا على بلاد الأهواز وأرض فارس وكرمان أيام عبد الله ابن الزبير حين بعث عاملاً على البصرة، فأخرج لهم سرية لقتالهم وكان عدد هذه السرية ألف مقاتل، فقتلهم الخوارج ثم بعث إليهم بثلاث آلاف من المقاتلة فظفر بهم الخوارج أيضاً، فبعث عبد الله الزبير من مكة كتاباً وجعل قتالهم إلى المهلب بن أبي صفرة حتى جمع عسكراً عظيماً وهزم نافع بن الأزرق وقتل في هذه الهزيمة وبايعت الأزارقة بعده رجلاً آخر منهم فهزمه المهلب أيضاً، وقتل في هذه الهزيمة، فبايعوا بعده قطري بن الفجاءة التميمي، وسموه بأمير الموت، واستمر المهلب في مقاتلتهم حتى انحازوا إلى نيسابور من بلاد فارس وجعلوها دار هجرتهم [٢].

وقد بلغت المدة التي قاتلهم فيها المهلب تسع عشرة سنة، بعضها في زمان ابن الزبير، وبعضها في زمان عبد الملك بن مروان ولما ولي الحجاج بن يوسف العراق أقر المهلب على قتالهم فاستمر المهلب في مقاتلتهم حتى وقع الخلاف بين قطري ابن الفجاءة وأتباعه، فواصل المهلب مقاتلة قطري فكان كلما سار قطري إلى ناحية من النواحي تبعه المهلب حتى هزمه إلى الري، ثم اتجه لمقاتلة جماعة أخرى منهم بقيادة رجل منهم يسمى عبد ربه الصغير حتى كُفِيَ شغله وقتله، وبعث الحجاج جيشاً عظيماً إلى الري فقاتل قطري بن الفجاءة، فانهزم إلى طبرستان ثم

(١) الحديث في صحيح مسلم: ٢/ ٧٤٠.
(٢) **انظر**: الفرق بين الفرق: ٨٥-٨٦، البداية والنهاية: ٨/ ٣٤٨.

هرب في جملة من أتباعه إلى موسى بن عبيدة بن هلال اليشكري فتبعته جنود الحجاج حتى قتلته وقطع الله دابر الأزارقة بقتل قطري فلم تجمع لهم قوة بعد ذلك مثل ما كانت لهم من قبل (١) .

ثالثاً: النجدات :

هؤلاء هم أتباع نجدة بن عامر الحنفي الذي يقال: إنه كان باليمامة حيث تخلف عن نافع بن الأزرق عند رجوعهم من مكة، وبينما هو في طريقه ليلحق بمعسكر نافع بن الأزرق التقى به من أخبره بما أحدثه نافع من الآراء التي منها:

استباحة قتل أطفال مخالفية ، وحكمه على القعدة بالشرك(٢) . وهنا قيل: إنه رجع إلى اليمامة لما سمع بما أحدثه نافع وأعلن انفصاله عنه وتبرأ منه ، وبويع له بالإمامة وأصبح أميراً على طائفة من الخوارج عرفوا بالنجدات (٣) ، وصار لنجدة وأتباعه نفوذاً واسعًا في كثير من البلدان شمل البحرين وشواطئ الخليج وامتد إلى عمان وبعض أجزاء اليمن (٤) .

وذهب النجدات إلى أن الدين أمران :

أحدهما: معرفة الله تعالى ومعرفة رسله عليهم الصلاة والسلام وتحريم دماء المسلمين (٥)، والإقرار بما جاء من عند الله جملة فهذا واجب على الجميع والجهل به لا يعذر فيه.

والثاني: ما سوى ذلك فالناس معذورون فيه ، إلى أن تقوم عليهم الحجة في الحلال والحرام ، وتدين النجدات بمبدأ العذر بالجهل في أحكام الفروع حتى

---

(١) **انظر**: تاريخ الإمم والملوك للطبري: ٦ / ٢٠٢.

(٢) **انظر**: الملل والنحل للشهرستاني: ١ / ١٢١.

(٣) مقالات الإسلاميين: ١ / ١٧٤.

(٤) **انظر**: الفرق بين الفرق: ٩٠، الكامل لابن الأثير: ٤ / ٢٠١.

(٥) المقصود بالمسلمين الموافقون لهم في مذهبه.

سموا بالعاذرية [١] .

وقد اختلف النجدات مع زعيهم نجدة بن عامر الحنفي، ونقموا عليه عدة أمور من بينها تعطيله حد الخمر، وعدم عدله في قسم الفيء وتفريقه الأموال بين الأغنياء من أتباعه وحرمانه ذوي الحاجة منهم، ومكاتبته عبد الملك بن مروان، ووصل الخلاف إلى قتل نجدة وانقسموا إلى ثلاث فرق، النجدية والعطوية نسبة إلى عطية بن الأسود الحنفي والي الفديكية نسبة إلى أبي فديك ، وكان هذا الخلاف بين النجدات من أعظم العوامل في تدمير هذه الفرقة حيث اضمحل أمرها وتلاشى أثرها [٢] .

رابعا: الصفرية:

لقد اختلف العلماء فيمن تنتسب إليه هذه الفرقة، هل سموا بذلك نسبة إلى الصُفرة إشارة إلى صُفرة وجوههم من أثر ما تكلفوه من السهر والعبادة والزهد، أم سموا بهذه التسمية نسبة إلى رجل معين ، كما نسبت الأزراقة والنجدات والإباضية.

المهم في هذا الموضوع:

أن الصفرية كانت أقل شذوذاً وأقل غلواً من الأزارقة إذ أنهم خالفوهم في رأيهم تجاه القعدة ومرتكب الكبيرة، فلم يكفروا القعدة كما ذهب الأزارقة ما داموا موافقين لهم على مذهبهم، ولم يكفروا مرتكب الكبيرة على الإطلاق كما هو مذهب الأزراقة، بل فرقوا بين الذنوب التي فيها حد مقرر كالزنا والسرقة والقذف والقتل العمد، فهذا في رأيهم لا يتجاوز بمرتكبهم الاسم الذي سماه الله بها زان، وسارق وقاذف، وقاتل عمد، وليس صاحبه كافراً ولا مشركاً،وكل ذنب ليس فيه حد كترك الصلاة والصوم فهو كفر وصاحبه كافر [٣] . ولا يرى

---

(١) انظر : الملل والنحل: ١ /١٢٤ .

(٢) عقيدة أهل السُنة والجماعة في الصحابة (٣ /١١٥٠، ١١٥١) .

(٣) انظر : الفرق بين الفرق: ٩١ .

الصُفرية أن دار مخالفيهم دار حرب ، كما لم يحكموا بقتل أطفال المشركين وتكفيرهم ولا يقولون بخلودهم في النار، ولم يجيزوا سبي الذرية والنساء، ولهم آراء انفردوا بها في الشرك والكفر والبراءة. فالشرك عندهم شركان: شرك هو طاعة الشيطان، وشرك هو عبادة الأوثان، والكفر كفران: كفر بإنكار النعم، وكفر بإنكار الربوبية، والبراءة براءتان: براءة من أهل الحدود سُنَّة ، وبراءة من أهل الجحود فريضة، ولم يسقط الصُفرية عقوبة الرجم كما فعل الأزارقة، وأجازوا التقية كالنجدات ولكن في القول دون العمل [١] .

كلمة للشيخ طاهر الزاوي - رحمة الله - في الخوارج:

يذكر الشيخ طاهر الزاوي في كتابة تاريخ الفتح العربي في ليبيا أن دعوة الخوارج تسللت عن طريق رسلهم إلى المغرب، وبثوا فيه ضلالاتهم ووجدت دعوتهم الخبيثة من البربر آذاناً صاغية فتمكنت من نفوسهم وتفرقوا أحزاباً وشيعاً تسمت كل منها باسم رئيسها.

واختلفت أهواؤهم فيما يدعون إليه، وأعان على نشر ضلالاتهم بين البربر الجهل الذي كان مخيماً علي عقولهم، وكان هَمٌّ أصحاب هذه النحل محاربة مبادئ الإسلام وانتزاع الدولة من العرب بأي ثمن كان، ورفعوا راية العصيان في وجه الخلافة الأموية ، وانتشرت بدعة الخوارج في كافة المغرب،

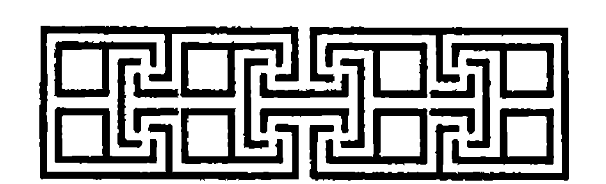
ويقول صاحب خلاصة تاريخ تونس: (وانتشرت في الأندلس لأنها كانت إذ ذاك تابعة لإفريقية، وقد ساعد على انتشارها ما طرأ على الدولة الأموية من ضعف بسبب ظهور الدعوة العباسية) وقد كان لظهور دعوة الخوارج في إفريقية أسوأ الأثر علي الإمارات الإسلامية في إفريقية، ولم يستقم أمرها إلى أن استقر أمر الدولة العباسية فاهتموا بإفريقية اهتماماً خاصاً.

---

(١) الملل والنحل للشهرستاني: ١/١٣٧.

وقد تسربت بدعة الخوارج إلى إفريقية في زمن غير معين ويظهر أنه كان في أواخر المائة الأولى من الهجرة، وأوائل المائة الثانية منها، جاء بها جماعة من الأفاقين من المشرق، وكانت قبيلة مضغرة - من البربر البتر - أول من اعتنق المذهب الخارجي، وانتشر فيها، وكان لرئيسها ميسرة المضغري نشاط في الدعوة إليه، وكان ميسرة يعرف بالفقير وهو أول من ناصر نحلة الخوارج ودعا إليها، وجمع الناس على تأييدها وقد تلقاها من الأفاقين القادمين من المشرق.

ولما ولي عبد الله بن الحبحاب على إفريقية سنة ١١٤هـ استعمل عمر بن عبد الله المرادي على طنجة والمغرب الأقصى، فنقم البربر عليه سيرته فيهم فقتلوه سنة ١٢٥هـ وولى ميسرة بدله على طنجة عبد الأعلى بن جريج الإفريقي وهو رومي الأصل، ومولى للعرب فقتل أيضاً، وانتشرت الفتنة واضطرب حبل الأمن في المغرب فأرسل عبد الله بن الحبحاب إليه جيشاً بقيادة خالد بن أبي حبيب الفهري، فلقيه ميسرة في جموع كثيرة من البربر فهزمه وقتل خالد، وازدادت فتنة الخوارج في المغرب وقويت شوكتهم وكان من أكبر قواد ميسرة المشهورين طريق أبو صبيح البرغواص وكان قائماً بدعوة الصُفرية [١] .



---

(١) انظر: تاريخ الفتح العربي في ليبيا: ١٥٤-١٥٥ .

الفصل الخامس

الإباضية

لقد تحيرت كثيراً عند وصولي إلى تاريخ الإباضية في بلادنا حيث أن الأمر يحتاج إلى تجرد وإنصاف وبيان الحقائق التي يتقرب بها إلى الله عز وجل ومن أسباب تحيري أن علماء الفرق يعدون الإباضية من فرق الخوارج وشيوخ الإباضية ينكرون ذلك ولا يعترفون بنسبتهم إلى الخوارج، ويعدون هذا من غلطات التاريخ التي لم يتحر فيها المؤلفون الحقيقة، وعالج الشيخ مفتي ديارنا رحمه الله طاهر الزاوي هذا الموضوع بأن جعل كلامه عن الإباضية مستقلاً عن الخوارج، وذهب إلى كونه مذهب من المذاهب الإسلامية التي يتقرب بها إلى الله تعالى ، ودعا أبناء المسلمين في ليبيا خصوصاً من أتباع المذهب المالكي والإباضي ؛ إلى تحقيق إخوة الدين ويجب على الجميع أن يكونوا كتلة واحدة، وإخواناً متحدين متحابين، وقال: إن جميع مذاهب المسلمين تصدر عن أصل واحد هو كتاب الله وسُنَّة رسول الله ﷺ ، الذين جاء بهما محمد ﷺ [١] .

ولم يتعرض الشيخ طاهر الزاوي رحمه الله إلى تذكير إخواننا في الدين في بعض المزالق العقدية التي خالف فيها بعض علماء الإباضية المعتمدين في المذهب لأصول أهل السُنَّة والجماعة التي هي العصمة للأمة من الوقوع في الانحرافات العقدية وغيرها، ونقصد بأصول أهل السُنَّة والجماعة ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه الغر الميامين الطيبين الأطهار ، وما عليه الأئمة الأخيار من أئمة هذا الدين.

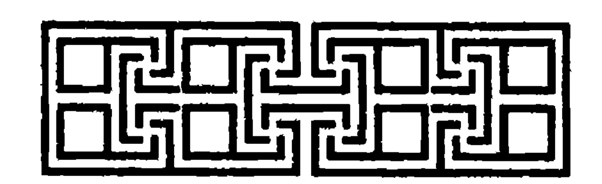
ولا نستطيع أن ننكر ما قام به أتباع هذا المذهب من جهاد ضد إيطاليا في

---

(١) تاريخ الفتح العربي في ليبيا، للشيخ طاهر الزاوي:١٥٥ .

العصر المعاصر والوقوف مع الخلافة الإسلامية متمثلة ذلك في شخصية زعيمهم الموهوب الشيخ سليمان الباروني، ولا نستطيع أن ننكر شجاعتهم وإقدامهم وما قدموه للمسلمين في بلادنا ضد الكفر والإلحاد والنصارى إلا أن ذلك لا يمنع أن نقول ما نراه حقًّا وصواباً وديناً وقربة إلى الله تعالى مراعين في ذلك الأدب والأخلاق في النقد وغرضنا في ذلك الالتقاء على كتاب الله وسُنَّة النبي ﷺ ﴿**إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ**﴾ [هود:٨٨].

فعلى القارئ الكريم أن يتذكر قول الله تعالى عن الذين ﴿ **يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ** ﴾ [الزمر:١٨] فهذا خلق قرآني كريم.



المبحث الأول

نسبة الإباضية وفرقهم وزمن دخولهم للشمال الإفريقي ودولتهم

أولاً : ينتسبون إلى عبد الله بن إباض بن تيم اللات بن ثعلبه بن بني مرة بن عبيد رهط الاحنف بن قيس آل مقاعس التميمي، كان من أهل العراق جاء إلى الإمام جابر بن زيد لأخذ العلم عنه كان يناظره في أموره وفي مهماته الدينية وفيما يأتي منها وما يذر، وهو تابعي عاصر معاوية، وابن الزبير، وكانت له آراء واجه بها الحكام (١) .

يقول الشيخ مفتي الديار الليبية - رحمه الله -:

(وهذا المذهب معدود من مذاهب المسلمين التي تعتمد أصولها على الكتاب والسنة ويتفق في كثير من أصوله وفروعه مع مذاهب أهل السنة، ولا يختلف معها إلا في مسائل قليلة، وما من مذهب من مذاهب أهل السُنَّة إلا وهو يخالف غيره في بعض المسائل، وقد قال ابن حزم في كتابه (الفصل في الملل والنحل) : إن أصحاب عبد الله بن يزيد الإباضي الفزاري الكوفي أقرب إلى أهل السُنَّة من بقية الفرق الأخرى. وهذا المذهب منتشر في مسقط وعمان من بلاد العرب بالمشرق، وفي الزنجبار من بلاد إفريقيا، وفي إفريقية وفي ليبيا والجزائر.

ومن أسمائهم :

يقول الدكتور غالب العواجي: (قد ذهب بعض العلماء من الإباضية إلى تحديد الوقت الذي استعملت فيه تسمية الإباضية، وأن ذلك كان في القرن

---

(١) انظر : طلقات المعهد الرياض في حلقات المذهب الإباضي، سالم بن حمود السيابي : ٧٧ ، وانظر : الإباضية بين الفرق الإسلامية ص ٣٥٣ لعلي يحيى معمر.

الثالث الهجري وقبلها كانوا يسمون أنفسهم جماعة المسلمين، أو أهل الدعوة، أهل الاستقامة، كما يذكر ابن خلفون من علمائهم [١] .

ثم ناقش الدكتور غالب في كتابه القيم قضية إدراج الإباضية ضمن فرق الخوارج فقال: (ومن هنا يتبين لنا أن تسميتهم باسم الخوارج قديمة وجدت قبل ظهور الأزارقة سواء كان ذلك من التنبؤ بظهورهم على لسان النبي ﷺ أو في ترديد هذا الاسم على لسان علي رضي الله عنه أو على ألسنة غيره من الناس وعلى ألسنة بعض علماء الإباضية أيضاً وعلى هذا فلا يخطئ من ألحق تسمية الإباضية بالخوارج – ويبقى ما امتاز به الإباضية من تسامح – أو تسامح أغلبيتهم تجاه مخالفيهم قائماً وثابتاً لهم رغم ما يظهر أحياناً في بعض كتب الإباضية من الشدة والقسوة تجاه المخالفين لهم والحكم عليهم بالهلاك والخسران كما يقرره الوارجلاني منهم في كتابه الدليل لأهل العقول) [٢] .

لقد ذكر الدكتور غالب رأي علي يحيى معمر – رحمه الله – في قضية الإباضية : وإنها ليست من فرق الخوارج وذكر غيره من علماء الإباضية الذين يرون أنهم فرقة من فرق الخوارج [٣] .

ثانيا: فرق الإباضية :

انقسمت الإباضية إلى فرق منها ما يعترف به سائر الإباضية ، ومنها ما ينكرونها ويشنعون على من ينسبها إليهم ، ومن تلك الفرق :

الحفصية : أتباع حفص بن أبي المقدام.

اليزيدية : أتباع يزيد بن أنيسة.

الحارثية : أتباع حارث بن يزيد الإباضي.

---

(١) فرق معاصرة، للدكتور العواجي : ١ / ٨٠ ، انظر: أجوبة بن خلفون ص ٩ .

(٢) فرق معاصرة: ١ / ٨٤ .

(٣) نفس المصدر: ١ / ٨٠ إلى ٨٤ .

أصحاب طاعة لا يراد بها الله [١] . إلا أن علي يحيى معمر - رحمه الله - ينفي وجود هذه الطوائف عند الإباضية أشد النفي [٢] .

وإضافة إلى تلك الفرق السابقة ، فإنه يوجد ست فرق أخرى للإباضية في المغرب هي :

فرقة النكار :

زعيمهم رجل يسمى أبو قدامة يزيد بن فندين الذي ثار في وجه إمام الإباضية بالمغرب عبد الوهاب بن رستم. وسميت هذه الفرقة بالنكارية لإنكارهم إمامة ابن رستم. وقد سميت الفرقة الموافقة لعبد الوهاب بن رستم بالوهابية أو الوهبية.

النفاثية :

نسبة إلى رجل يسمى فرج النفوسي المعروف بالنفاث ونفوسة قرية تقع في ليبيا.

الخلفية :

نسبة إلى خلف بن السمح بن أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري الذي كانت له مناوشات مع الدولة الرستمية.

الحسينية :

وزعيمهم رجل يسمى أبو زياد أحمد بن الحسين الطرابلسي.

السكاكية :

نسبة إلى زعيمهم عبد الله السكاك اللواتي من سكان قنطرار ، تميز بأقوال تخرجه عن الإسلام وقد تبرأت منه الإباضية.

---

(١) انظر : مقالات الأشعري ١ / ٨٣ .

(٢) الإباضية بين الفرق : ص ٢٣ .

الفرثية :

زعيمهم أبو سليمان بن يعقوب بن أفلح [١]

ثالثا: زمن دخول الإباضية إلى الشمال الإفريقي:

وأول دخول هذا المذهب إلى إفريقية في أوائل المائة الثانية من الهجرة سنة (١٢٠هـ)وما بعدها تقريباً. ويؤخذ من كتاب السير للشماخي أن أول من أدخله إلى إفريقية سلمة بن سعيد قدم من المشرق إلى إفريقية في أول المائة الثانية لنشره والدعوة إليه، وكان شديد التعصب له، وذكر الشماخي في كتاب السير أنه كان يقول: (وددت أن يظهر الأمر – يعني مذهب الإباضية – يوماً واحداً، فما أبالي أن تضرب عنقي).

وقد اجتمع به في إفريقية عاصم السدراتي، وإسماعيل بن درار الغدامسي وداود القبلي النفراوي، وعبد الرحمن بن رستم، وأخذوا عنه مذهب الإباضية، ولما رأى رغبتهم في دراسة هذا المذهب رغبهم في السفر إلى البصرة لتلقي المذهب على يد أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة البصري مولى بن تميم، وكان إذ ذاك من العلماء المبرزين في المذهب، فرحلوا إليه أربعتهم وانضم إليهم بالبصرة عبد الأعلى بن السمح أبو الخطاب الحميري اليمني فأصبحوا خمسة، ومكثوا عند أبي عبيدة خمسة أعوام يأخذون عنه المذهب الإباضي حتى أصبحوا من أعلامه ثم رجعوا خمستهم إلى إفريقية في زمن معين، ويظهر أنه فيما بين الخمسة والعشرين إلى الأربعين من القرن الثاني الهجري.

وعبد الرحمن بن رستم بن مهران وهو من الفرس حج مع أبيه وأمه،فمات أبوه بالحجاز، وتزوجت أمه برجل من القيروان، فذهب معها إلى القيروان، وأول ما تلقى مذهب الإباضية على مسلمة بن سعيد، وهؤلاء الخمسة يسميهم الإباضية

---

(١)فرق معاصرة: ١/ ٨٥.

حملة العلم، وهم عندهم في محل التعظيم والإجلال، ومن أئمتهم المشهورين.

وبعد رجوع هؤلاء الخمسة إلى إفريقية زاد انتشار مذهب الإباضية وكثر أنصاره كما سنذكره في حروب أبي الخطاب. وقد انحصر أتباع هذا المذهب في إفريقية في البربر وكان أكثر أتباعه من هوارة ولمسابة ونفزاوة، ومغيلة، ومغراوة، وبني يفرن بن زنانة، وقد توارثوه خلفاً عن سلف، وما زالوا يدينون به إلى الآن وَقَلَّ أن تجد في طرابلس بربرياً على مذهب مالك، كما يندر أن تجد فيها عربياً على مذهب الإباضية [1].

قلت: وأصبح كثير من أبناء الشعب الليبي عرباً وبربراً يدينون بعقيدة أهل السُّنَّة والجماعة وينقادون إلى الدليل من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ونبذوا التعصب الذميم وراء ظهورهم واستفادوا من تاريخهم من خطورة التعصب وأثره في تفرق المسلمين وينظرون إلى غد مشرق يسود فيه تحكيم شرع الله في بلادهم وقد أخذوا بالأسباب الربانية والسُنن الكونية من أجل التمكين لدين الله تعالى.

رابعاً: دولة الإباضية:

قامت للإباضية دولتان أحدهما في المغرب والأخرى في المشرق - عمان - تمتع المذهب الإباضي فيهما بالنفوذ والقوة. وساعد انتشار المذهب الإباضي في عمان بُعْدها عن مقر الخلافة ثم مسالكها الوعرة. ويرجع دخول المذهب الإباضي عمان إلى فرار بعض الخوارج بعد معركة النهروان إلى هذا البلد كما يرى بعض العلماء. ولكن السالمي من علماء الإباضية يرى أن دخول المذهب إلى عمان يرجع إلى قدوم عبد الله بن إباض.

وعلى أي حال فقد قوي المذهب واراد أهل عمان الاستقلال عن الخلافة العباسية؛ في عهد السفاح والمنصور، وانتخبوا لهم خليفة هو الجلندي بن مسعود بن جيفر الأزدي إلا أن جيوش الخلافة العباسية قضت على حلم أهل

---

(١) انظر: تاريخ الفتح العربي في ليبيا: ص ١٥٥ وما بعدها.

عمان وظلت جزءاً من الدولة العباسية إلى سنة ١٧٧هـ حيث بدأت نزعة الاستقلال وولوا عليهم سنة ١٧٩هـ إماماً منهم، واستمرت ولاتهم في الحكم في عمان ، ابتداء بأول خليفة وهو محمد بن أبي عفان الأزدي ثم الوارث بن كعب الخروصي ثم غسان بن عبد الله ثم عبد الملك بن حميد ثم المهنا بن جيفر اليحمدي، وهكذا توالت أسماء الخلفاء الإباضيين اسماً تلو الاسم حتى عهد اليعارية الذين قوي نفوذهم جداً ، واستمروا إلى أن حدثت الانشقاقات والتفرق بينهم فتدخلت الدول الاستعمارية وقضت على الإمامة.

أما بالنسبة لدولة الإباضية في المغرب ، فإن قيام هذه الدولة كان نتيجة لانتشار المذهب الإباضي هناك بين قبائل البربر . وطريقة قيام المذهب الإباضي - في المغرب - تمت بوضع خطة للقبض على زمام السلطة شيئاً فشيئاً وكان أول زعيم لهم هو أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري، فاستولوا على طرابلس ثم عين عبد الرحمن الرستمي قاضياً عليها وواصل أبو الخطاب انتصاراته، ولكن جيش الخلافة العباسية دحرهم في معركة قتل فيها أبو الخطاب وتفرقت الإباضية، ثم قام عبد الرحمن الرستمي الذي يعتبر مؤسس الدولة الرستمية الإباضية في المغرب بمحاولات الاستقلال وتمت له السيطرة على أماكن كثيرة وسلموا له بالخلافة سنة ١٦٠هـ وهو فارسي الأصل، وقد توفي سنة ١٧١هـ فاختاروا ابنه عبد الوهاب ، الذي واصل تنمية المذهب إلى أن مات فخلفه ابنه أفلح بن عبد الوهاب، وبعد وفاته تولى ابنه أبو اليقظان محمد بن أفلح إلى أن توفي فخلفه ابنه أبو حاتم يوسف بن محمد بن أفلح إلا أن العلاقة ساءت بينه وبين عمه يعقوب بن أفلح ودارت بينهما معارك هائلة ومن هنا بدأت الدولة الرستمية في الأفول وداهمتهم الشيعة بقيادة أبي عبيد الله الشيعي وانتهت أسرتهم في سنة ٢٩٦ هـ فرثاهم علماء الإباضية كثيراً [١] .

---

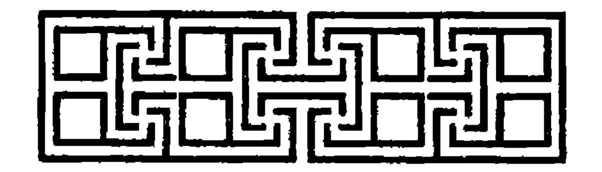
(١) فرق معاصرة: ١/ ٨٦-٨٧-٨٩ .

خامساً: موقف الإباضية من المخالفين لهم :

تتسم معاملة الإباضيين لمخالفيهم باللين والسماحة ويحرمون الاغتيال والقتل في السر وأن يبدأ أحد من أهل البغي من أهل القبلة بقتال حتى يدعى إلا من عرفوه بعينه ، وجوزوا تزويج المسلمات من مخالفيهم، وهذا ما يذكره علماء الفرق عنهم إضافة إلى أن العلماء يذكرون عنهم كذلك أن الإباضية تعتبر المخالفين لهم من أهل القبلة كفار نعمة غير كاملي الإيمان ولا يحكمون بخروجهم من الملة إلا أن هذا المدح ليس بالاتفاق بين العلماء فهناك من يذكر من الإباضية أنهم يرون أن مخالفيهم محاربون لله ورسوله وأنهم يعاملون المخالفين لهم أسوأ المعاملة، والحقيقة أن القارئ لكتب علماء الفرق يجد أنهم متعارضون في النقل عنهم إلا أن يقال إن طائفة من الإباضية متشددون وآخرون معتدلون، وبهذا وجد الشيخ علي يحيى معمر - رحمه الله - ثغرة في كلام علماء الفرق لوصفهم بالتناقض والاضطراب في النقل إلى آخر ما أورد من انتقادات لا تسلم له على إطلاقها .

وذلك أنك تجد في بعض كلام علماء الإباضية أنفسهم الشدة في الحكم على المخالفين لهم ووصفهم بأنهم كفار وأنهم من أهل النار ما لم يدينوا بالمذهب الإباضي، وتجد آخرين يتسامحون في معاملة المخالفين لهم ويبدو عليهم اللين تجاههم ، وتجد التعصب في حكمهم على مخالفيهم ظاهراً قويًّا من قراءتك لكتاب مقدمة التوحيد لابن جميع وكتاب الحجة في بيان المحجة في التوحيد بلا تقليد للعيزابي، ورسالة في فرق الإباضية بالمغرب للمارغيني، وكتاب الدليل لأهل العقول للورجلاني وكذا العقود الفضية وكشف الغمة الجامع لأخبار الأمة فإن القارئ لهذه الكتب يجد التشديد تجاه المخالفين قائماً على أشده كما تشهد بذلك مصادرهم المذكورة ، ومع هذا فإن العلماء المتقدمين وكثير من المتأخرين يذكرون عبارات كثيرة تصف الإباضية بالتسامح واللين تجاه المخالفين ممن يدعون

الإسلام إلا معسكر السلطان فإنه دار بغي وحرابة، ومع ذلك نفى الشيخ علي يحيى معمر أن يكون من مذهب الإباضية أنهم يرون أن معسكر السلطان معسكر بغي وحرابة، ولكنه هو يقسّم حكام المسلمين في كتابه الإباضية بين الفرق الإسلامية جعل هذا الوصف ينطبق على الحاكم الذي يخرج عن العدل ولا يطبق أحكام الإسلام كاملة [١] .



(١) انظر : الإباضية بين الفرق الإسلامية ص ٢٧-٢٨، وانظر: فرق معاصرة: ١ / ٨٩ .

المبحث الثاني
موقف الإباضية من الصحابة

أولاً : موقف الإباضية من الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم :

من الأمور المتفق عليها عند سائر الخوارج الترضي التام والولاء والاحترام للخليفتين الراشدين : أبو بكر وعمر رضوان الله عليهما ، أما بالنسبة للخليفتين الراشدين الآخرين عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما فقد هلك الخوارج فيهما وذموهما مما برأهما الله عنه ، والذي يهمنا أن نشير هنا رأي الإباضية في الصحابة رضوان الله عليهم والرد عليها من منظور أهل السُنَّة والجماعة .

[أ] موقف الإباضية من عثمان رضي الله عنه :

من الأمور الغريبة أن تجد ممن يدعي الإسلام ويؤمن بالله ورسوله من يقع في بعض الصحابة خصوصاً من شهد له الرسول ﷺ بالجنة وثبتت بذلك النصوص في حقه ، فعثمان رضي الله عنه صحابي جليل شهد له الرسول ﷺ بالجنة ونحن نشهد واثقين من ذلك ، أما بالنسبة لبعض الإباضية فقد تبرءوا منه ومن خلافته ، بل وحكموا عليه بالارتداد والعياذ بالله وحشاه من ذلك ، ففي كتاب كشف الغمة لمؤلف إباضي في السب والشتم لعثمان ما لا يوصف ولم يكتف بالسب والشتم ، وإنما اختلق روايات عن بعض الصحابة يسبون فيها عثمان بزعمه ويحكمون عليه بالكفر ، ولا شك أن هذا بهتان عظيم منه ويوجد كذلك كتاب في الأديان وكتاب آخر اسمه « الدليل لأهل العقول » للورجلاني فيهما أنواع من السباب والشتم لعثمان ومدح لمن قتلوه حيث سماهم (فرقة أهل الاستقامة) وهم في الحقيقة بغاة مارقون لا استقامة لهم إلا على ذلك [١] .

---

(١)انظر : فرق معاصرة : ١ / ٩٤ ، انظر : الدليل لأهل العقول ص ٢٧، ٢٨

وإليك أخي القارئ الكريم :

الأدلة الواضحة والبراهين القاطعة والأنوار الساطعة في فضل عثمان ومكانته في الدين ومحبة سيد المرسلين له مما هو معلوم عند جمهور أهل السُنَّة والجماعة أن أفضل الناس على الإطلاق بعد أبي بكر وعمر هو عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب ابن لؤي بن غالب بن فهر يكنى أبا عمرو ويقال: أبا عبد الله (١) ، يجتمع مع النبي ﷺ في عبد مناف وعدد ما بينهما من الآباء متفاوت فالنبي ﷺ من حيث العدد في درجة عفان كما وقع لعمر سواء (٢) ، وأمه رضي الله عنها أروى بنت كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس وأمها أم حكيم البيضاء بنت عبد المطلب وهي شقيقة عبد الله والد النبي ﷺ ويقال: إنهما ولدا توأماً فكان ابن بنت عمة النبي ﷺ وكان النبي ﷺ ابن خال والدته، وقد أسلمت أمه رضي الله عنها وماتت على الإسلام، ولها صحبة رضي الله عنها وأما والده فإنه مات في الجاهلية.

فعثمان رضي الله عنه أحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وأحد الستة أصحاب الشورى وأحد الثلاثة الذين خلصت لهم الخلافة من الستة، ثم تعينت فيه بإجماع المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم فكان ثالث الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين المأمور باتباعهم والاقتداء بهم وكان رضي الله عنه من السابقين الأولين إلى الإسلام وهاجر إلى الحبشة أول الناس ومعه زوجته رقية بنت رسول الله ﷺ ثم عاد إلى مكة وهاجر إلى المدنية، فيما كانت وقعة بدر اشتغل بتمريض بنت رسول الله ﷺ وأقام بسببها في المدينة ، وضرب له رسول الله ﷺ بسهمه وأجره فيها ، فهو معدود فيمن شهدها فلما توفيت زوَّجه رسول الله ﷺ بأختها أم كلثوم، ولذلك لقب بذي النورين لأنه تزوج ابنتي نبي واحد ولم يتفق ذلك لغيره رضي الله عنه، وشهد

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد: ٣/٥٣، الكامل لابن الأثير: ٣/١٨٤.

(٢) فتح الباري: ٧/٥٤، الإصابة: ٤/٢٢٢.

الخندق والحديبية وبايع عنه رسول الله ﷺ يومئذ بإحدى يديه، وشهد خبير، وعمرة القضاء، وحضر الفتح وهوازن والطائف ، وغزوة تبوك ، وجهز جيش العسرة، صحب رسول الله ﷺ فأحسن صحبته وتوفي عنه وهو عنه راض، وصحب أبا بكر فأحسن صحبته وتوفي وهو عنه راض، وصحب الفاروق فأحسن صحبته وتوفي وهو عنه راض، وكان رضي الله عنه ممّن جمع بين العلم والعمل، والصيام والتهجد والإنفاق والجهاد في سبيل الله وصلة الأرحام، وكان من الصادقين القائمين الصائمين المنفقين في سبيل الله (١) .

وقد وردت أحاديث كثيرة وفي السُّنَّة تضمنت ذكر فضائله رضي الله عنه وبعضها دال على أنه أفضل الخلق بعد الشيخين رضي الله عنهما ومن تلك الأحاديث :

[١] ما رواه الإمام البخاري بإسناده إلى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: «**كنا في زمن النبي ﷺ لا نعدل بأبي بكر أحداً، ثم عمر ثم عثمان ثم نترك أصحاب النبي ﷺ لا نفاضل بينهم**» (٢) .

[٢] روى الشيخان من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه : أن النبي ﷺ دخل حائطاً وأمرني بحفظ باب الحائط – البستان – فجاء رجل يستأذن فقال: «**ائذن له وبشره بالجنة**» ، فإذا أبو بكر، ثم جاء آخر يستأذن فقال: « **ائذن له وبشره بالجنة على بلوى تصيبه**» فإذا عثمان بن عفان (٣) .

[٣] وروى الإمام أحمد بإسناده إلى عبد الرحمن بن سمرة قال: جاء عثمان بن عفان إلى النبي ﷺ بألف دينار في ثوبه حين جهز رضي الله عنه جيش العسرة قال فصبها في حجر النبي ﷺ يقلبها بيده ويقول: « **ما ضر ابن عفان ما عمل بعد اليوم**» **يرددها مراراً** . (٤) .

---

(١) **انظر** : تذكرة الحفاظ للذهبي: ١ /٨-١٠ ، البداية والنهاية: ٧ /٢١٢-٢١٩ ، لوامع الأنوار البهية، السفاريني: ٢ /٣٢٨-٣٣٤ .

(٢) صحيح البخاري: ٢ /٢٩٧ .

(٣) المرجع السابق: ٢ /٢٩٦ .

(٤) المسند: ٥ /٦٣ ، الترمذي في سننه: ٥ /٢٨٩ .

قال العلامة ابن القيم ذاكراً صفة خروج النبي ﷺ إلى غزوة تبوك :

(ثم إن رسول الله ﷺ جد في سفره وأمر الناس بالجهاز وحض أهل الغنى على النفقة والحملان في سبيل الله فحمل رجال من أهل الغنى واحتسبوا وأنفق عثمان بن عفان في ذلك نفقة عظيمة لم ينفق أحد مثلها، كانت ثلاثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها وعدتها، وألف دينار عيناً)(١) ، ومن مناقبة رضي الله عنه إجماع الصحابة على خيريته رضي الله عنه، فإنه لما بُويع لم يبق في الشورى إلا هو وعلي والحكم عبد الرحمن بن عوف وبقي عبد الرحمن ثلاثة أيام بلياليها يشاور المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان ويشاور أمهات المؤمنين ويشاور أمراء الأمصار فإنهم كانوا بالمدينة حجوا مع عمر وشهدوا موته حتى قال عبد الرحمن إن لي ثلاثاً ما اغتمضت بنوم وبعد هذا كله وبعد أخذ المواثيق منهم على أن يبايع من بايعه أعلن النتيجة بعد هذا الاستفتاء حيث قوله إني رأيت الناس لا يعدلون بعثمان فبايعه علي وعبد الرحمن وسائر المسلمين بيعة رضاً واختيار.

إن الأدلة كثيرة جدًّا في بيان فضل عثمان وإقامة الحجة على من طعن في عثمان رضي الله عنه .

[ب] موقف الإباضية من علي رضي الله عنه ومعاوية وبعض الصحابة:

بعض الإباضية يتضح من كتابتهم البراءة من علي رضي الله عنه فإن ذلك واضح في كتاب كشف الغمة، فقد كتب المؤلف تحت عنوان فصل من كتاب الكفاية قوله: فإن قال ما تقولون في علي بن أبي طالب، قلنا له إن عليًّا مع المسلمين في منزلة البراءة وذكر أسباب - كلها كذب - توجب البراءة منه في زعم مؤلف هذا الكتاب منها حربه لأهل النهروان وهذا تحامل مذموم.

ومن الجدير بالذكر أن بعض الإباضية قد اعتدلوا في موقفهم تجاه علي رضي الله عنه

---

(١) زاد المعاد: ٣/٥٢٧ .

كما يبدو من كلامهم، ففي كتاب وفاء الضمانة بأداء الأمانة مدح وثناء لعلي وأورد الشيخ علي يحيى معمر فصلاً طويلاً بيّن فيه اعتقاد الإباضية في الصحابة بأنهم يقدرونهم حق قدرهم ويترضون عنهم ويسكتون عما جرى بينهم ونقل عن أبي إسحاق أظفيش في رده على الأستاذ محمد عقيل العلوي أنه قال له: (أما ما زعمت من شتم أهل الاستقامة لأبي الحسن علي وأبناءه ، فمحض اختلاق) (١) .

ونقل عن التعاريتي أيضاً مدحه للصحابة خصوصاً عليًّا وأبناءه وكذلك التذميري الإباضي. وأخيراً قال الشيخ علي يحيى معمر : (ولم يكن يوماً من الأصحاب شتم له أو طعن ، اللهم إلا من بعض الغلاة وهم أفذاذ لا يخلو منهم وسط ولا شعب) (٢) .

وهذه الحقيقة التي ذكرها الشيخ علي يحيى معمر – رحمه الله – تجعل شدته على صاحب كتاب الفرق في كتابه « الإباضية بين الفرق » في غير محلها فما الذي يمنع أن يكون نقل هؤلاء العلماء على أقل تقدير عن هؤلاء الأفذاذ الذين أشار إليهم في كتابه.

والورجلاني يعتبر على حد التعبير السابق ليحيى معمر من الغلاة المتشددين فهو يواصل في كتابه الدليل لأهل العقول تكفيره وشتمه لمعاوية رضي الله عنه ولعمرو بن العاص، بل قد قال زعيم الإباضية عبد الله بن إباض نفسه في كتاب لعبد الملك عن معاوية ويزيد وعثمان كما يرويه صاحب كشف الغمة (فإننا نشهد الله وملائكته أنا براء منهم وأعداء لهم بأيدينا وألسنتنا وقلوبنا نعيش على ذلك ما عشنا ونموت عليه إذا متنا ونبعث عليه إذا بعثنا نحاسب بذلك عند الله) (٣) .

---

(١) انظر : الضمانة (٣ / ٢٢) .
(٢) انظر : الإباضية بين الفرق (ص ٢٨٧) .
(٣) انظر : فرق معاصرة : (١ / ٩٥) .

كما يبدو من كلامهم، ففي كتاب وفاء الضمانة بأداء الأمانة مدح وثناء لعلي وأورد الشيخ علي يحيى معمر فصلاً طويلاً بيّن فيه اعتقاد الإباضية في الصحابة بأنهم يقدرونهم حق قدرهم ويترضون عنهم ويسكتون عما جرى بينهم ونقل عن أبي إسحاق أظفيش في رده على الأستاذ محمد عقيل العلوي أنه قال له: (أما ما زعمت من شتم أهل الاستقامة لأبي الحسن علي وأبناءه ، فمحض اختلاق)[١] .

ونقل عن التعاريتي أيضاً مدحه للصحابة خصوصاً عليًّا وأبناءه وكذلك التذميري الإباضي. وأخيراً قال الشيخ علي يحيى معمر : (ولم يكن يوماً من الأصحاب شتم له أو طعن ، اللهم إلا من بعض الغلاة وهم أفذاذ لا يخلو منهم وسط ولا شعب)[٢] .

وهذه الحقيقة التي ذكرها الشيخ علي يحيى معمر - رحمه الله - تجعل شدته على صاحب كتاب الفرق في كتابه « الإباضية بين الفرق » في غير محلها فما الذي يمنع أن يكون نقل هؤلاء العلماء على أقل تقدير عن هؤلاء الأفذاذ الذين أشار إليهم في كتابه.

والورجلاني يعتبر على حد التعبير السابق ليحيى معمر من الغلاة المتشددين فهو يواصل في كتابه الدليل لأهل العقول تكفيره وشتمه لمعاوية ﷺ ولعمرو بن العاص، بل قد قال زعيم الإباضية عبد الله بن إباض نفسه في كتاب لعبد الملك عن معاوية ويزيد وعثمان كما يرويه صاحب كشف الغمة (فإننا نشهد الله وملائكته أنا براء منهم وأعداء لهم بأيدينا وألسنتنا وقلوبنا نعيش على ذلك ما عشنا ونموت عليه إذا متنا ونبعث عليه إذا بعثنا نحاسب بذلك عند الله)[٣] .

---

(١) انظر : الضمانة (٣ / ٢٢) .
(٢) انظر : الإباضية بين الفرق (ص ٢٨٧) .
(٣) انظر : فرق معاصرة : (١ / ٩٥) .

وصاحب كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة يشتم الحسن والحسين رضي الله عنهم وأوجب البراءة منهما بسبب ولايتهما لأبيهما على ظلمه وغشمه كما يزعم وكذلك بسبب قتلهما عبد الرحمن بن ملجم وتسليمهما الإمامة لمعاوية وهي أسباب لا يعتقدها من عرف الصحابة الذين شهد الله ورسوله لهم بالسابقة والفضل ولكن انقطع عنهم العمل فأحب الله أن لا يقطع عنهم الأجر وصدق الشاعر حين قال :

وإذا أتتك مذمتي من ناقص فهي الشهادة لي بأني كامل

ونفس الموقف الذي وقفه الخوارج عموماً والورجلاني ومن تابعه من الإباضية أيضاً من الصحابة السابقين وقفوه أيضاً من طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وأوجب لهما الورجلاني النار فسبحان الله ما أجرأ أهل الأهواء والزيغ على شتم خيار الناس بعد نبيهم الذي نصروا الإسلام بأنفسهم وأموالهم وأولادهم ومات الرسول ﷺ وهو راض عنهم (١) .

[د] موقفنا من الصحابة رضي الله عنهم :

[١] علي بن أبي طالب رضي الله عنه :

أجمع أهل السُنَّة من السلف والخلف من أهل الفقه والأثر أن أبا السبطين أفضل الخلق بعد أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم أجمعين، واسمه رضي الله عنه علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشي الهاشمي ويكنى أبا تراب، وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف بن قصي ويقال إنها أول هاشمية ولدت هاشمياً وقد أسلمت وهاجرت .

وعليّ رضي الله عنه أحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وأحد الستة أصحاب الشورى وتوفي رسول الله ﷺ وهو عنه راض، وكان رضي الله عنه رابع الخلفاء الراشدين والأئمة

---

(١) انظر : فرق معاصرة (١ / ٩٥) .

المهديين المأمور بالاقتداء بهم، وكان ممن سبق إلى الإسلام ولم يتلعثم، وتربى في حجر النبي ﷺ وزوجه ابنته فاطمة رضي الله عنها وهاجر إلى المدينة وشهد بدراً والحديبية وسائر المشاهد غير تبوك لأن النبي ﷺ خلفه فيها على المدينة وأبلى ببدر وأُحد وبالخندق وبخيبر بلاءًا عظيماً ، وأغنى في تلك المشاهد وقام فيها المقام الكريم وكان لواء النبي ﷺ بيده في مواطن كثيرة ، وجاهد في الله حق جهاده ونهض بأعباء العلم والعمل والفتيا رضي الله عنه وأرضاه وكان رضي الله عنه من جملة من غسل النبي ﷺ وكفنه وولي دفنه (١) .

ولقد وردت الأحاديث الكثيرة ، والأخبار الشهيرة ، التي دلت على فضله رضي الله عنه ومنها :

﴿١﴾ ما رواه الشيخان من حديث سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر: « **لأعطين هذه الراية رجلاً يفتح الله على يديه يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله** » ، قال: فبات الناس يدوكون - أي يخوضون - ليلتهم أيهم يعطاها قال: فلما اصبح الناس غدوا على رسول الله ﷺ كلهم يرجو أن يعطاها فقال أين علي بن أبي طالب؟ ، فقالوا: هو يا رسول الله يشتكي عينيه ، قال: فأرسلوا إليه فأتي به فبصق رسول الله ﷺ في عينيه ودعا له فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع فأعطاه الراية فقال علي: يا رسول الله أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا فقال: « **انفذ على رِسْلك حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام ، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه ، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حُمْر النعم**» (٢) .

ومن مناقبه رضي الله عنه أن النبي ﷺ جعل محبته من علامة الإيمان وجعل بغضه علامة للنفاق، فقد روى مسلم بإسناده إلى علي رضي الله عنه قال: « والذي فلق الحبة

---

(١) **انظر**: عقيدة أهل السُنة والجماعة في الصحابة: ١ / ٢٧٥ .

(٢) صحيح البخاري: ٢ / ٢٩٩-٣٣٠، صحيح مسلم: ٤ / ١٨٨٢ .

وبرأ النسمة إنه لعهد النبي الأمي ﷺ إليَّ أن لا يحبني إلا مؤمن ولا يبغضني إلا منافق»[١] ففي هذا منقبة ظاهرة لأبي الحسن رضي الله عنه.

ومن مناقبه الدالة على فضله: دعاء النبي ﷺ بعد ذلك، فقد روى أبو عبد الله الحاكم بإسناده إلى علي رضي الله عنه قال: «بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن قال فقلت: يا رسول الله إني رجل شاب وأنه يرد علي من قضاء ما لا علم لي به قال فوضع يده على صدري وقال: «**اللهم ثبت لسانه وأهد قلبه**» فما شككت في القضاء أو في قضاء بعد[٢].

والأدلة كثيرة في بيان فضل علي رضي الله عنه التي تلجم أفواه الخوارج المارقين وكذلك بعض من زاغ من علماء الإباضية في النظرة لعلي رضي الله عنه وسائر الصحابة أجمعين.

[٢] طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه:

ومما يحزن القلب ويدمع العين ما ذكره الورجلاني في كتابه كشف الغمة، وكتابه الدليل لأهل العقول عن الصحابي الجليل طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه بأنه والزبير بن العوام رضي الله عنه من أصحاب النار، وقد علمت أن كثيراً من إخواننا البرابرة في الشمال الإفريقي وخصوصاً في بلادنا قد تأثروا بالمذهب الإباضي، فأحببت أن أهدي لهم هذه الحقائق الناصعة حتى يلقوا الله وقلوبهم سليمة طاهرة على أصحاب رسول الله ﷺ الطيبين الأخيار.

فطلحة بن عبيد الله: هو أبو محمد طلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عمرو ابن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب القرشي التيمي[٣]،

---

(١) صحيح مسلم: ١/١٠٦.

(٢) المستدرك للحاكم ٣/١٣٥، قال عقبة: صحيح الإسناد ولم يخرجاه واقره الذهبي، ولقد استفدت في حديثي عن الإباضية على مذكرات الفرق للدكتور العواجي.

(٣) الإصابة: ٢/٢٢٠، وانظر الاستيعاب لابن عبد البر علي حاشية الإصابة: ٢/٢١٠.

يجتمع مع النبي ﷺ في مرة بن كعب ومع أبي بكر الصديق في تيم بن مرة وعدد ما بينهم من الآباء سواء (١) ، وأمه رضي الله عنها الصعبة بنت الحضرمي امرأة من أهل اليمن وهي أخت العلاء الحضرمي (٢) ،أسلمت ولها صحبة وظفرت بشرف الهجرة وطلحة رضي الله عنه أحد العشرة الذين بشروا بالجنة، وأحد الثمانية الذين سبقوا إلى الإسلام وأحد الخمسة الذين أسلموا على يد أبي بكر الصديق رضي الله عنه وأحد الستة أصحاب الشورى، وكان رضي الله عنه في وقعة بدر قد وجهه رسول الله ﷺ وسعيد بن زيد يتجسسان خبر العير قبل خروجه ﷺ إلى بدر فلم يرجعا إلا وقد فرغ من موقعة بدر وضرب لهما رسول الله ﷺ بسهمهما وأجرهما (٣) .

وفضائله رضي الله عنه كثيرة مشهورة منها :

ما رواه البخاري بإسناده إلى قيس بن أبي حازم قال: « **رأيت يد طلحة شلاء وقي بها النبي ﷺ يوم أُحد** » (٤) .

هذا الحديث اشتمل على منقبة عظيمة خص بها طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه وهي أنه وقي رسول الله ﷺ بيده يوم أحد لما أراد بعض المشركين أن يضربه فاتقى طلحة الضربة بيده حتى أصابها شلل والشلل بطلان في اليد أو في الرجل من آفة تعتريها فالحديث فيه بيان فضيلة عظيمة لطلحة رضي الله عنه وأرضاه.

ومن مناقبة ما رواه أبو نعيم بإسناده إلى أن المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: «**كان أبو بكر إذا ذكر يوم أُحد قال: ذلك كله يوم طلحة**» (٥) .

ومما يدل على عظم مكانته وعلو منزلته أن النبي ﷺ شهد له بالجنة ضمن جماعة من فضلاء الصحابة ، فقد روى الترمذي بإسناده إلى عبد الرحمن بن

---

(١) فتح الباري: ٧ / ٨٢ .
(٢) الإصابة: ٢ / ٢٢٠ .
(٣) انظر : المستدرك: ٣ / ٣٦٩، ٤٣٨ .
(٤) صحيح البخاري: ٣ / ٢٣ .
(٥) حلية الأولياء: ١ / ٨٧ .

عوف قال: قال رسول الله ﷺ: «**أبو بكر في الجنة وعمر في الجنة وعثمان في الجنة وعلي في الجنة وطلحة في الجنة والزبير في الجنة وعبد الرحمن بن عوف في الجنة وسعد في الجنة وسعيد في الجنة وأبو عبيدة بن الجراح في الجنة**» ثم قال: وقد روي هذا الحديث عن عبد الرحمن بن حميد عن أبيه عن سعيد بن زيد عن النبي ﷺ نحو هذا.

هذا هو طلحة بن عبيد الله الذي ذكره الورجلاني الإباضي بسوء وجعله من أهل النار.

[٣] الزبير بن العوام رضي الله عنه :

هو أبو عبد الله الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب القرشي الأسدي [١] يجتمع مع النبي ﷺ في قصي وعدد ما بينهما من الآباء سواء [٢] وهو حواري رسول الله ﷺ وابن عمته، أمه صفية بنت عبد المطلب، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة وأحد الستة أصحاب الشورى قال عروة بن الزبير أسلم الزبير بن العوام وهو ابن ثمان سنين، وهاجر وهو ابن ثمان عشرة سنة، وكان عم الزبير يعلق الزبير في الحصير ويدخن عليه النار ويقول: ارجع إلى الكفر فيقول الزبير: لا أكفر أبداً.

وقال أيضاً: أسلم الزبير وهاجر إلى أرض الحبشة الهجرتين معاً ولم يتخلف عن غزوة غزاها رسول الله ﷺ [٣]، فهو رضي الله عنه من السابقين الأولين إلى الإسلام وشهد المشاهد كلها مع النبي ﷺ وقال رسول الله ﷺ: «**إن لكل نبي حوارياً، وإن حواري الزبير بن العوام**» [٤].

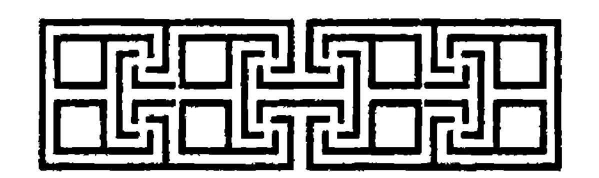
---

(١) الترمذي: ٥/ ٣١١.
(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد: ٣/ ١٠٠.
(٣) فتح الباري: ٧/ ٨٠.
(٤) المستدرك للحاكم: ٣/ ٣٦٠، انظر طبقات ابن سعد.

ومعنى الحواري :

هو الناصر المخلص ، فالحديث اشتمل على هذه المنقبة العظيمة التي تميز بها الزبير رضي الله عنه، ومناسبة الحديث عندما ندب رسول الله ﷺ الناس يوم الخندق « فانتدب الزبير فقال النبي ﷺ « **لكل نبي حواري وحواري الزبير** » [١] .

وقد ذكرت أنه من أهل الجنة في الحديث الذي ذكرته في فضائل طلحة وهذا رد مختصر مفيد في الدفاع عن الزبير رضي الله عنه ، وبيان فضله ومكانته، هذا موقف الإباضية من بعض الصحابة رضي الله عنهم منهم المتشدد ومنهم المعتدل فرددنا على المتشدد وبينا ضلاله وزيغه في شتمه لمن ذكرنا من الصحابة، ودعونا للمنصف بالمغفرة والرحمة والرضوان من الله تعالى .



---

(١) صحيح البخاري: ٢ / ٣٠٢.

المبحث الثالث

بعض عقائد الإباضية ومناقشتها

نود الإشارة في هذا المبحث إلى أن الإباضية لهم أفكار عقدية وافقوا فيها أهل السُنَّة والجماعة «ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه» وعقائد أخرى جانبوا فيها الصواب.

[١] ما يتعلق بصفات الله تعالى :

فإن مذهب الإباضية فيها أنهم انقسموا إلى فريقين: فريق نفى الصفات نفياً تاماً خوفاً من التشبه بزعمهم، وفريق منهم يرجعون الصفات إلى الذات فقالوا أن الله عالم بذاته وقادر بذاته وسميع بذاته إلى آخر الصفات، فالصفات عندهم عين الذات ، **قال أحمد بن النضر:**

وهو السميع بلا أداة تسمع ... جل المهيمن عن مقال مكيف
إلا بقدرة قادر وحداني ... أو أن ينال دراكه بمكان
وهو البصير بغير عين ركبت ... أو أن يحيط به صفات معبر
في الرأس بالأحضان واللحظات ... أو تعتريه هماهم الوسنان [١]

ويقول السالمي :

أسماؤه وصفات الذات ليس بغير ... وإنما استوى ملك ومقدرة له
الذات بل عينها فافهم ولا تحلا ... على كلها استيلاء وقد عدلا
هو على العرش والأشيا استوى ... كما يقال استوى سلطانهم فعلى
وإذا عدلت فهو استواء غير ما عقلا ... على البلاد فحاز السهل والجبلا [٢]

---

(١) كتاب الدعائم ص ٢٤ .

(٢) غاية المراد: ص ٧ .

وهذا في حقيقته نفي للصفات ولكنه نفي مغطى بحيلة إرجاعها إلى الذات وقد شنع الورجلاني منهم على الذين يثبتون الصفات بأنهم مشبهة كعباد الأوثان وأن مذهب أهل السُنَّة هو - حسب زعمه - تأويل الصفات، فاليد النعمة والقدرة والوجه الذات ومجيء الله مجيء أمره بفصل القضاء، لأن إثبات هذه الصفات لله هو عين التشبيه كما يزعم بعض الإباضية [1] .

والحاصل أن الإباضية مختلفون في إثبات صفات الله تعالى فإباضية المشرق يختلفون عن إباضية المغرب ذلك أن إباضية المشرق تعتقد أن صفات الله تعالى حادثه ، وإباضية المغرب تعتقد أنها قديمة، وبين الفريقين من التباعد في هذا ما لا يخفى.

ومعلوم لطلاب العلم أن هذا ليس هو مذهب أهل السُنَّة والجماعة الذين يثبتون الصفات لله كما وصف نفسه في كتابه الكريم ووصفه به رسول الله ﷺ من غير تشبيه ولا تعطيل ولا تحريف ولا تكييف ولا تمثيل ، ويقولون في كل صفة لله إنها معلومة والكيف مجهول والسؤال عنه بدعة وأن الله ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾ [الشورى: ١١].

وهذه الآية أساس واضح في إثبات الصفات لله ولم ير أهل السُنَّة أن إثبات الصفات يؤدي إلى التشبيه لمعرفتهم أن الاتفاق في التسمية لا يستلزم الاتفاق في الذات فالله سميع بصير والإنسان سميع بصير وبين الذاتين ما يعرفه كل عاقل من الفَرْق فمن تَصَوَّرَ التشبيه فقد جمع بين التشبيه والتعطيل [2] .

وإليك أخي القارئ الكريم معتقد أهل السُنَّة والجماعة في هذا الباب العظيم:

إنهم يؤمنون بما وردت به نصوص القرآن والسنة الصحيحة إثباتاً ونفياً فهم

---

(١) فرق معاصرة: ١ /٩٧.

(٢) **انظر**: منهج الدراسات لآيات الأسماء والصفات للشيخ محمد الأمين الشنقيطي: ٢٥

بذلك يسمون الله بما سمى به نفسه في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ ولا يزيدون على ذلك ولا ينقصون منه.

ويثبتون لله عز وجل ويصفونه بما وصف به نفسه في كتابه أو على لسان نبيه ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل وينفون عن الله ما نفاه عن نفسه في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ مع اعتقاد أن الله موصوف بكمال ضد ذلك الأمر المنفي.

وبذلك تكون سلكت منهج القرآن والسُّنَّة الصحيحة، فكل اسم أو صفة لله سبحانه وردت في الكتاب والسنة الصحيحة فهي من قبيل الإثبات فيجب بذلك إثباتها، وأما النفي فهو أن ينفي عن الله عز وجل كل ما يضاد كماله من أنواع العيوب والنقائص مع وجوب اعتقاد ثبوت كمال ضد ذلك المنفي [١].

وارتكز منهج أهل السنة والجماعة في هذا الباب على ثلاثة أسس رئيسية هي:

الأساس الأول: الإيمان بما وردت به نصوص القرآن والسنة الصحيحة من أسماء الله وصفاته إثباتاً ونفياً.

الأساس الثاني: تنزيه الله عز وجل أن يشبه شيء من صفاته شيئاً من المخلوقين.

الأساس الثالث: قطع الطمع عن إدراك كيفية اتصاف الله بتلك الصفات.

وهذه الأسس العظيمة، مهمة جداً لطالب العلم، وبها تنفتح أبواب مغلقة في معرفة أسماء الله وصفاته ومن خلالها يتميز المسلم الصادق المتبع لمنهج أهل السُّنَّة والجماعة عن أهل التمثيل، والله الهادي إلى صراطه المستقيم ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

---

(١) فرق معاصرة: ١/ ٩٩.

[٢] عقيدة الإباضية في استواء الله وعلوه:

وأما عقيدة الإباضية في استواء الله وعلوه: فإنهم يزعمون أن الله يستحيل أن يكون مختصاً بجهة ما، بل هو في كل مكان ولهذا فقد فسر الإباضية معنى استواء الله على عرشه باستواء أمره وقدرته ولطفه فوق خلقه، أو استواء ملك ومقدرة وغلبة، وإذا قيل لهم: لِمَ خص العرش بالاستيلاء والغلبة؟ ، أجابوا بجواب واهٍ قالوا لعظمته (•) ، وقد خرجوا بهذه التأويلات عن المنهج الشرعي إلى أعمال العقل بدون ضوابط اللغة بتكليف ظاهر مخالف للاعتقاد السليم والمنطق والفطرة [١] .

القول الصحيح في عقيدة الاستواء :

إن الله تعالى وصف نفسه بالعلو في السماء ووصفه بذلك محمد خاتم الأنبياء، وأجمع على ذلك جميع العلماء من الصحابة الأتقياء والأئمة الفقهاء، وتواترت الأخبار بذلك على وجه حصل به اليقين، وجمع الله عليه قلوب المسلمين وجعله مغروزاً في طباع الخلق أجمعين فتراهم عند نزول الكرب بهم يلحظون السماء بأعينهم ويرفعون نحوها للدعاء أيديهم، وينتظرون مجيء الفرج من ربهم وينطقون بذلك بألسنتهم لا ينكر ذلك إلا مبتدع غالٍ في بدعته، أو مفتون بتقليده واتباعه على ضلالته [٢] .

من الآيات الدالة على علو الله على خلقه:

قوله تعالى: ﴿ أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ ﴾ [الملك:١٦] وقال تعالى: ﴿ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾ [المعارج:٤] وقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾.

[الأنعام:١٨] .

(•) يعني : لعظم خلقة العرش فما دونه من باب أولى ... زعموا .

(١) إثبات صفة العلو للمقدسي: ٦٣.

(٢) توضيح الكافية الشافية: ٦٩.

وقول الرسول ﷺ : « **ارحم من في الأرض يرحمك من في السماء** » .

ونقل إجماع علماء أهل السُّنَّة والجماعة في عُلو الله على خلقه العلامة عبد الرحمن السعدي في كتابه توضيح الكافية الشافية .

وحديث معاوية بن الحكم السلمي دليل واضح أيضاً قال: كانت لي غنم بين أحد والجوانية أقربه قرب المدينة فيها جارية لي، فأطلقتها ذات يوم فإذا الذئب قد ذهب منها بشاة وأنا من بني آدم (آسَفُ كما يأسفون)، فرفعت يدي فصككتها فأتيت النبي ﷺ فذكرت له ذلك، فعظَّم ذلك، فقلت يا رسول الله: « أفلا أعتقها؟ قال: « **ادعها** » فدعوتها قال: فقال لها رسول الله ﷺ : « **أين الله ؟** » قالت في السماء ، قال : « **من أنا ؟** » فقالت: أنت رسول الله. قال رسول الله ﷺ : « **اعتقها فإنها مؤمنة** » [1] .

من أقوال العلماء :

قال ابن تيمية - رحمه الله -:

(إن القرآن والسنن المستفيضة المتواترة وكلام السابقين والتابعين بل سائر القرون الثلاثة مملوء بما فيه إثبات علو الله على عرشه بأنواع من الدلالات، ووجوه من الصفات وأصناف من العبارات، وتارة يخبر أنه خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش، وقد ذكر الاستواء على العرش في سبعة مواضع وتارة يخبر بعروج الأشياء وصعودها وارتفاعها وتارة يخبر بنزولها منه أو من عنده واستدل بآيات وأحاديث كثيرة في ذلك) [2] .

معنى كون الله في السماء:

أي أن الله تعالى على السماء ففي بمعنى على وليست للظرفية ، لأن السماء لا

---

(١) صحيح مسلم: كتاب المساجد: ١،٥٣٧ / ٣٨٢ .

(٢) مجموعة الرسائل والمسائل، لابن تيمية: ١ / ٢٠٠.

تحيط بالله أو أنه في العلو فالسماء بمعنى العلو وليس المراد بها السماء المبنية (١) .

وبيّن أهل السُنَّة أن علو الله وفوقيته على خلقه لا يتنافى مع وجود معيته ، وبينوا أن الله وصف نفسه بالمعية في آيات كثيرة وهي نوعان عامة وخاصة فالعامة كقوله تعالى : ﴿ **هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** ﴾ [الحديد : ٤] وقوله تعالى : ﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** ﴾ [المجادلة : ٧] قال تعالى : ﴿ **يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ** ﴾ [النساء : ١٠٨] وأما المعية الخاصة كقوله تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ** ﴾ [النحل : ١٢٨] ، وقوله تعالى : ﴿ **قَالَ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ** ﴾ [طه : ٤٦] وقوله تعالى : ﴿ **كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ** ﴾ [البقرة : ٢٤٩] وقوله تعالى : ﴿ **فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ** ﴾ [محمد : ٣٥] .

ولكل معية اختصاصاتها :

فإذا قيل : الله مع خلقه بطريقة العموم كان معنى ذلك علمه بهم وتدبيره لهم وقدرته عليهم، وهذا هو قول السلف في المعية العامة كما يتضح من أقوالهم .

وفي قوله تعالى : ﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ** ﴾ [المجادلة : ٧] ابتدأ الله عز وجل الآية بالعلم وختمها بالعلم، فعلمه عز وجل محيط بخلقه وهو على عرشه وهذا قول المسلمين (٢) .

---

(١) لمعة الاعتقاد الهادي إلى سبيل الرشاد لابن قدامة : ٦٨ .

(٢) انظر : الشريعة للآجري : ٢٨٧ .

والمعية الخاصة معناها : أنه معهم بالنصرة والتأييد والمعونة كقوله تعالى: ﴿ فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ ﴾ [محمد: ٣٥] ، في النصر لكم على عدوكم.

إثبات استواء الله على عرشه :

الأدلة من القرآن :

قال تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٤] وقال تعالى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا (٥٨) الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا ﴾ [الفرقان: ٥٨-٥٩] .

من أقوال السلف :

ذكر ابن تيمية - رحمه الله - في كتابه شرح حديث النزول :

أن مالك بن أنس سئل عن قول الرحمن على العرش استوى. فقال: الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وما أراك إلا ضالاً وأمر أن يخرج من المجلس.

وروي بإسناده الثابت عن عبد الله بن المبارك أنه قال: نعرف ربنا بأنه فوق سبع سمواته بائن عن خلقه، ولا نقول كما قالت الجهمية بأنه ها هنا، وأشار بيده إلى الأرض وأجمع السلف على إثبات استواء الله على عرشه فيجب إثباته من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل، وهو استواء حقيقي معناه العلو والاستقرار على وجه يليق بالله تعالى [١] .

---

(١) لمعة الاعتقاد الهادي إلى سبيل الرشاد: ٦٢ .

وهكذا قد بينا بإيجاز معتقد الإباضية في استواء الله وعلوه ثم رددنا عليه من الأدلة من الكتاب والسُنَّة وأقوال علماء أهل السُنَّة والجماعة.

[٣] معتقد الإباضية في باب رؤية الله عز وجل:

ذهبت الإباضية في باب رؤية الله تعالى إلى إنكار وقوعها لأن العقل - كما يزعمون - يحيل ذلك ويستبعده واستدلوا بقوله تعالى: ﴿ لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ ﴾[الأنعام:١٠٣] وأولوا معنى الآية تأويلاً خاطئاً على طريقة المعتزلة.

ومن أدلتهم قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ﴾[الأعراف:١٤٣]

واستدلوا من السُنَّة بحديث عائشة رضي الله عنها حين سئلت عن الرسول ﷺ هل رأى ربه ليلة الإسراء فأجابت بالنفي كما رواه صاحب وفاء الضمانة وقد أورد الربيع بن حبيب صاحب كتاب الجامع الصحيح أو مسند الربيع الذي هو عندهم بمنزلة صحيح البخاري ومسلم عند أهل السُنَّة ويعتبرونه أصح كتاب بعد القرآن الكريم كما يزعمون أورد عدة روايات عن بعض الصحابة تدل على إنكارهم رؤية الله تعالى (١).

والواقع أن كل استدلالاتهم التي شابهوا فيها المعتزلة إما استدلالات غير صحيحة الثبوت أو صحيحة ولكن أولوها على حسب هواهم في نفي الرؤية فإن الآية الأولى ليس فيها نفي الرؤية وإنما نفي الإحاطة والشمول، فالله يُرى ولكن من غير إحاطة به عز وجل.

وقوله لموسى ﴿لَن تَرَانِي﴾أي: في الدنيا وقد علق الله إمكان رؤيته تعالى بممكن وهو استقرار الجبل، وحديث عائشة رضي الله عنها إنما أرادت نفي أن يكون

---

(١) مسند الربيع بن حبيب: ٣/ ٣٥.

الرسول ﷺ رأى ربه في ليلة الإسراء وليس المقصود نفي الرؤية مطلقاً فهذا لم ترده أم المؤمنين ومن فهم النفي مطلقاً فهو سيئ الفهم جاهل بالنصوص (١) .

وخلاصة القول في هذه المسألة :أن رؤية الله تعالى عند السلف أمرٌ معلوم من الدين بالضرورة لا يماري فيها أحد منهم بعد ثبوتها في كتاب الله وسُنَّة نبيه ﷺ وفي أقوال الصحابة ﷺ وفي أقوال علماء السلف قاطبة رحمهم الله تعالى (٢) .

الأدلة على ثبوت الرؤية عند أهل السنة والجماعة :

أثبت الرؤية أهل السُنَّة والجماعة وخالف فيها الإباضية والمعتزلة والجهمية ومن تبعهم من الخوارج والإمامية.

الأدلة من القرآن :

قال تعالى: ﴿ **وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ** ﴾[القيامة:٢٢-٢٣] والنظر له عدة استعمالات بحسب صلاته وتعديته بنفسه: فإن عدي بفي كان معناه التفكر والاعتبار كقوله تعالى: ﴿ **أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ** ﴾[الأعراف:١٨٥] وإن عدي بإلى كان معناه المعاينة بالأبصار.

كقوله تعالى: ﴿ **انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ** ﴾[الأنعام: ٩٩] فكيف إذا أضيف إلى الوجه الذي هو محل البصر؟! ، فإضافة النظر إلى الوجه وتعديته بإلى الصريحة في نظر العين، وإخلاء الكلام عن قرينه تدل على خلافه برهان قاطع بأن الله أراد نظر العين إلى الرب جل جلاله وهذا قول المفسرين من أهل السُنَّة والحديث وهو قول ابن عمر،والحسن وابن عباس وعكرمة وغيرهم رحمهم الله(٣) .

وقوله تعالى: ﴿ **كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ** ﴾[المطففين:١٥] فإذا حجب الكفار في السخط دل ذلك على أن أولياءه يرونه في الرضا، وقد احتج

---

(١) فرق معاصرة: ١ / ١٠٠.

(٢) المرجع السابق: ٩٤.

(٣) تهذيب شرح الطحاوية، للدكتور صلاح الصاوي: ١٣١.

الإمام الشافعي بذلك وغيره من الأئمة على الرؤية لأهل الجنة قوله تعالى: ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس: ٢٦] والزيادة قد فسرها رسول الله ﷺ بأنها النظر إلى وجه الله عز وجل.

روى مسلم عن صهيب رضي الله عنه قال: قرأ رسول الله ﷺ: ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ قال: **«إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، نادى مناد، يا أهل الجنة، إن لكم عند الله وعداً يريد أن ينجزكموه، فيقولون ما هو؟ ألم يثقل موازيننا، ويبيض وجوهنا، ويدخلنا الجنة ويجرنا من النار؟ فيكشف الحجاب فينظرون إليه، فما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه وهي الزيادة»**.

الأدلة من السُنَّة:

روى أحاديث الرؤية نحو ثلاثين صحابياً، وهي متواترة ورواها أصحاب الصحاح والمسانيد والسُنن منها: حديث أبي هريرة رضي الله عنه «إن ناساً قالوا: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟»، فقال رسول الله ﷺ: **«هل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر؟»**، قالوا: لا يا رسول الله، قال: **«هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب؟»** قالوا: لا، قال: **«فإنكم ترون ربكم كذلك»**[1].

وروى جرير بن عبد الله البجلي: قال: «كنا جلوساً مع النبي ﷺ فنظر إلى القمر ليلة أربع عشرة فقال: **«إنكم سترون ربكم عياناً كما ترون هذا لا تضامون في رؤيته»**[2].

والأحاديث في هذا المقام كثيرة والتشبيه الذي في هذه الأحاديث إنما هو للرؤية وليس للمرئي، فهو تشبيه الرؤية لا تشبيه المرئي بالمرئي، هذه بعض أدلة

---

(١) رواه البخاري، كتاب الصلاة، باب ٤٥، حديث ٧٧٣.

(٢) المرجع السابق: باب ١٥، حديث: ٥٢٩.

أهل السُنَّة وهي قاطعة في إثبات الرؤية، ولا يلتفت إلى التأويلات الفاسدة فهذه هي التي خربت العقول والديار (١) .

[٤] من عقائد بعض الإباضية في كلام الله تعالى القول بخلق القرآن :

بل حكم بعض علمائهم كابن جميع والورجلاني أن من لم يقل بخلق القرآن فليس منهم.

وهذه المسألة نرجو من الله أن تكون قد ماتت من أذهان الناس، وقد عرف المسلمون أن القول بخلقه من أبطل الباطل إلا من بقي على القول بخلقه منهم وهم قلة شاذة بالنسبة لعامة المسلمين، وموقف السلف واضح فيها وهو موقف إمام السُنَّة أحمد بن حنبل رحمه الله وهو القول بأن القرآن كلام الله تعالى منه بدأ وإليه يعود ومن قذف الله الإيمان والنور في قلبه يعلم أن الله تعالى تكلم بالقرآن وبلغه جبريل إلى النبي ﷺ والكلام صفة لله تعالى (٢) .

والقرآن الكريم من كلام الله تعالى منزل غير مخلوق منه بدأ وإليه يعود، فهو كلام الله حروفه ومعانيه والدليل أنه من كلام الله قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦] والقرآن منزل من عند الله ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ [الفرقان: ١].

والقرآن غير مخلوق ، والدليل قوله تعالى: ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤] فجعل الأمر غير الخلق والقرآن من الأمر لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢] وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ﴾ [الطلاق: ٥٩] ولأن كلام الله صفة من صفاته وصفاته غير مخلوقة، ودليل أنه منه بدأ، أن الله أضافه إليه ، ولا يضاف الكلام إلا إلى من قاله مبتدئاً ، ودليل أنه إليه يعود أنه ورد في بعض الأحاديث أنه يرفع من المصاحف والصدور

(١) تهذيب الطحاوي، للصاوي: ١٣٣ .

(٢) الفرق مذكرة العواجي: ٩٥ .

في آخر الزمان [١] .

وقال ابن جرير الطبري - رحمه الله - في صريح السُنة:

« القرآن كلام الله وتنزيله إذ كان من معاني توحيده، فالصواب من القول في ذلك عندنا أنه كلام الله غير مخلوق » [٢] .

وقال الشيخ علاء الدين بن العطار - رحمه الله - :

« القرآن كلام الله وكتابه، وخطابه وتنزيله غير مخلوق، من قال بخلقه فقد كفر، إذ هو صفة من صفاته » [٣] .

ومما ينبغي الإشارة إليه هنا أن بعض الإباضية قد خرج عن القول بخلق القرآن كصاحب كتاب الأديان [٤] وكذا أبو النضر العماني [٥] وردا على من يقول بخلقه وبسطا الأدلة في ذلك، وبهذا يتضح أن الإباضية قد انقسموا في هذه القضية إلى فريقين.

[٥] مسألة القدر:

وقد اعتدل الإباضية في مسألة القدر ووافقوا أهل السُنَّة ، فاثبتوا القدر خيره وشره من الله تعالى، وأن الله خالق كل شيء وأن الإنسان فاعل لأفعاله الاختيارية مكتسب لها محاسب عليها وبهذا المعتقد صرح زعماؤهم كالنفوسي، والغيرابي والسالمي، وعلي يحيى معمر.

[٦] مسألة عذاب القبر:

وقد اختلف الإباضيون في إثبات عذاب القبر، فذهب قسم منهم إلى إنكاره

---

(١) لمعة الاعتقاد بتصرف: ٧٨-٧٩.

(٢) صريح السُنة للطبري: ١٨.

(٣) الاعتقاد الخالص من الشك لابن العطار: ٣٥.

(٤) كتاب الأديان: ١٠٤.

(٥) كتاب الدعائم لأبي نصر العماني: ٣١-٣٥.

موافقين بذلك سائر فرق الخوارج وذهب قسم آخر إلى إثباته.

قال النفوسي في متن النونية:

وأما عذاب القبر ثبت جابر ... وضعفه بعض الأئمة بالوهن

ومعتقد أهل السُنَّة هو القول بثبوت عذاب القبر ونعيمه كما صحت بذلك النصوص الكثيرة من الكتاب والسُنَّة، ومن أنكره فليس له دليل إلا مجرد الاستبعاد ومجرد الاستبعاد ليس بدليل. أما الإشارة إلى عذاب القبر في القرآن قوله تعالى: ﴿ **النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ** ﴾ [غافر: ٤٦] وقال تعالى: ﴿ **وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ [الطور: ٤٧] وهو محتمل لعذاب القبر وغيره في الدنيا، أو عذاب البرزخ، وهو أظهر لأن الكثير منهم مات ولم يعذب في الدنيا [١].

وفي الصحيحين عن ابن عباس أن النبي ﷺ مر بقبرين فقال: «**إنهما ليعذبا وما يعذبان في كبير، أما أحدهما فكان لا يستتر من البول وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة فدعا بجريدة رطبة فشقها نصفين وقال: لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا**» [٢].

أما سؤال منكر ونكير للميت في قبره فقد استفاضت به أيضاً النصوص:

روى البخاري عن أنس رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: « **إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه إنه يسمع قرع نعالهم، فيأتيه ملكان فيقعدانه فيقولان له: ما كنت تقول في هذا الرجل محمد؟، فأما المؤمن فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله، فيقول انظر إلى مقعدك في النار، أبدلك الله به مقعداً من الجنة فيراها جميعاً**» [٣].

---

(١) تهذيب شرح الطحاوية: ١٩٢.

(٢) البخاري: كتاب الوضوء، باب ٥٤ حديث: ٢١٣.

(٣) البخاري: كتاب الجنائز، باب ٦٦، حديث: ١٢٧٣.

والسؤال في القبر للبدن والروح معاً، وليس وحدها كما قال ابن حزم، فيجب الإيمان بذلك ولا يسأل عن كيفيته إذ ليس للعقل مدخل في ذلك لأنه لا عهد له به في هذه الدار، والشرع لا يأتي بما تحيله العقول ولكن قد يأتي بما تحار فيه فإعادة الروح للجسد ليست على الوجه المعهود في الدنيا (١) .

[٧] وجود الجنة والنار الآن:

يثبت الإباضيون وجود الجنة والنار الآن ويثبتون الحوض ويؤمنون بالملائكة والكتب المنزلة (٢)

[٨] الشفاعة:

وأما الشفاعة: فإن الإباضية يثبتونها ولكن لغير العصاة بل للمتقين وكأن المتقي في نظرهم أحوج إلى الشفاعة من المؤمن العاصي قال صاحب كتاب الأديان: والشفاعة حق للمتقين وليست للعاصين.

وقال السالمي:

وما الشفاعة إلا للتقي كما قد قال رب العلا فيها وقد فصلا (٣)

وذكر الربيع بين حبيب روايات عن الرسول ﷺ تدل في زعمه على هذا المعتقد، وقرر الحرثي في كتابه العقود الفضية تلك القضية (٤) .

ومذهب أهل السُّنَّة أن الرسول ﷺ يشفع في عصاة المؤمنين أن لا يدخلوا النار ، ويشفع فيمن دخلها أن يخرج منها بعد إذن الله ورضاه ، وثبت أن الله يقبل شفاعته في ذلك وشفاعة الصالحين في عباده بعضهم في بعض ، وقد قسم أهل السُّنَّة في كتبهم الشفاعة إلى أنواع ، مسترشدين في ذلك بالآثار النبوية

---

(١) تهذيب الطحاوية: ١٩٤.

(٢) المرجع السابق نفسه.

(٣) فرق معاصرة: ١/ ١٠٢.

(٤) المرجع السابق: ١/ ١٠٢.

الواردة في ذلك .

النوع الأول : الشفاعة العظمى : وهي خاصة بنبينا محمد ﷺ ذلك أنه إذا كانت القيامة وبلغ الكرب بالناس ما بلغ يهرعون إلى الأنبياء ليشفعوا لهم عند الله ليخلصهم مما هم فيه ويأتي للفصل بينهم، فيذكر كل نبي ذنبه، ويحيل إلى الآخر حتى إذا انتهوا إلى محمد ﷺ فإنه يذهب ويسجد تحت العرش، ثم يسأل الله الشفاعة في ذلك فيجيبه عز وجل لذلك ، ويأتي للفصل بين العباد .

النوع الثاني : شفاعته ﷺ في أقوام تساوت حسناتهم وسيئاتهم، فيشفع فيهم ليدخلوا الجنة .

النوع الثالث : شفاعته في أقوام قد أمر بهم إلى النار لئلا يدخلوها .

النوع الرابع : شفاعته ﷺ في رفع درجات من يدخل الجنة فيها فوق ما كان يقتضيه ثواب أعمالهم.

النوع الخامس : شفاعته في أقوام أن يدخلوا الجنة بغير حساب، ودليله حديث عكاشة بن محصن حين دعا له ﷺ أن يجعله من السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب (١) .

شفاعته في تخفيف العذاب عمن يستحقه، كشفاعته في عمه أبي طالب أن يخفف عنه عذابه، أما قوله تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر:٤٨] فالمراد لا تنفعهم في الخروج من النار كما تنفع عصاة الموحدين ذكره القرطبي، وشفاعته أن يؤذن لجميع المؤمنين في دخول الجنة، عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : «أنا أول شفيع في الجنة» (٢) شفاعته في أهل الكبائر من أمته عن أنس قال: قال ﷺ : «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي» (٣) .

---

(١) مسند الربيع بن حبيب، الجامع الصحيح: ٤ / ٣١، ٢٢٣ .

(٢) تهذيب الطحاوية: ٢٢٢، ٢٢٣.

(٣) صحيح مسلم: كتاب الإيمان: ٨٥٥ ، حديث: ٣٣٠-٣٣٣.

وهذه الشفاعة التي تشاركه فيها الملائكة والنبيون والمؤمنون وقد خالفت فيها الخوارج والمعتزلة.

[٩] الميزان:

وأما الميزان الذي جاءت به النصوص وثبت أن له كفتان حسيتان مشاهدتان توزن فيه أعمال العباد كما يوزَنُ العاملُ نفسُه فإن الإباضية تنكر هذا الوصف ويثبتون وزن الله للنيات والأعمال بمعنى تمييزه بين الحسن منها والسيئ وأن الله يفصل بين الناس في أمورهم ويقفون عند هذا الحد غير مثبتين ما جاءت به النصوص من وجود الموازين الحقيقية في يوم القيامة، وعلى الصفات التي جاءت في السُنَّة النبوية.

وأدلة أهل السُنَّة والجماعة واضحة في القرآن وسُنَّة النبي ﷺ قال تعالى: ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ﴾ [الأنبياء:٤٧].

وقال تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (٦) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (٧) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (٨) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴾ [القارعة:٦-٩]، وجمعت الموازين باعتبار تعددها أو باعتبار تنوع الأعمال الموزونة، وقد دلت السُنَّة على أن الميزان له كفتان حسيتان مشاهدتان جاء في حديث السجلات الذي رواه أحمد: «**فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة، فتطيش السجلات وتثقل البطاقة**» (١).

ووردت الأحاديث بوزن الأعمال نفسها عن أبي مالك الأشعري قال: قال ﷺ: «**الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان**».

وقال ﷺ: «**كلمتان خفيفتان على اللسان، حبيبتان إلى الرحمن، ثقيلتان في الميزان سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم**» (٢).

---

(١) رواه الترمذي، كتاب الإيمان، باب١٧، حديث:٢٦٣٩.

(٢) رواه مسلم: كتاب الطهارة، باب:١، حديث:١.

كما وردت أيضاً بأن العامل يوزن مع عمله ، روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ : **إنه ليؤتي بالرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة ، قال اقرءوا إن شئتم ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾** [الكهف : ١٠٥] ، وقال ﷺ عندما ضحك البعض من دقة ساقي ابن مسعود : « **والذي نفسي بيده لهما اثقل في الميزان من أحد** » [(١)] .

ولا وجه لاعتراض البعض بأن الأعمال أعراض لا تقبل الوزن، لأن الله عز وجل يقلب الأعراض أجساماً ، كما يؤتى بالموت – وهو عرض – في صورة كبش أملح فيذبح بين الجنة والنار وهذا جاء في الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ .

ما الحكمة من وزن الأعمال ؟ :

ولو لم يكن من الحكمة في وزن الأعمال إلا ظهور عدله سبحانه وتعالى لجميع عباده لكان ذلك كافياً، فإنه لا أحد أحب إليه العذر من الله عز وجل، من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين، فكيف ونحن على يقين أن وراء ذلك من الحكم ما لا اطلاع لنا عليه .

[١٠] الصراط :

قالت الإباضية : إنه ليس بجسر على ظهر جهنم وذهب بعضهم وهم قلة إلى إثبات الصراط بأنه جسر ممدود على متن جهنم ، حسبما نقله الدكتور صابر طعمة عن الجيطالي من علماء الإباضية ، وأهل السُنَّة يعتقدون أن الصراط جسر جهنم وأن العباد يمرون عليه سرعةً وبطئاً حسب أعمالهم ومنهم من تخطفه كلاليب النار فيهوي فيها [(٢)] .

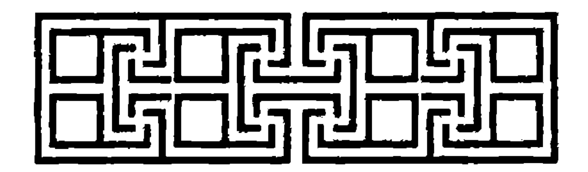
---

(١) فرق معاصرة : ١ / ١٠٢ .

(٢) مذكرة الفرق للعواجي : ٩٧ .

وقد بين شارح الطحاوية معتقد أهل السُنَّة في الصراط المذكور فقال ـ رحمه الله ـ :

« ونؤمن بالصراط، وهو جسر على جهنم ، إذا انتهى الناس بعد مفارقتهم الموقف إلى الظلمة التي دون الصراط، كما قالت عائشة رضي الله عنها : إن رسول الله ﷺ سُئل أين الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات؟ ، فقال : « **هم في الظلمة دون الجسر** » (١) .



(١) شرح الطحاوية: ٤٦٩ .

المبحث الرابع
حقيقة الإيمان وحكم مرتكب الكبيرة

ووافقت معظم الإباضية أهل السُّنَّة في حقيقة الإيمان من أنه قول باللسان واعتقاد بالجنان وعمل بالأركان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، وقد خالف بعضهم فذهب إلى أن الإيمان يزيد ولا ينقص وقد نقل الدكتور صابر طعمة الأدلة من كتبهم على هذا الرأي [١] .

وزيادة الإيمان ونقصه مسألة خالف فيها الإباضية سائر الخوارج الذين يرون أن الإيمان جملة واحدة لا يتبعض، وأن العبد يكفر ويذهب إيمانه بمجرد مواقعته للذنب ويسمونه كافراً وهو مخلد في النار في الآخرة، إلا أن الإباضية مع موافقتهم للسلف في الحكم ، لكنهم يسمون المذنب كافرا كفر نعمة ومنافقاً.

يقول أعوشت : فالكفر إذن عند الإباضية ينقسم إلى ما يلي:

﴿ ١ ﴾ كفر نعمة ويتمثل في المسلم الذي ضيع الفرائض الدينية أو ارتكب الكبائر أو جمع بينهما [٢] .

وفي الآخرة مخلدٌ في النار إذا مات من غير توبة، وكان الحال يقتضي أنهم لا يطلقون عليه كلمة الكفر ولا النفاق ولا يحكمون عليه بالخلود في النار، بل هو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته ونجد هنا أن الإباضية وافقوا أيضاً سائر الخوارج في الحكم على مرتكب الكبيرة بالخلود في النار إذا مات قبل التوبة بناء على اعتقاد إنفاذ الوعيد لا محالة واستدلوا بسائر أدلة الخوارج على كفر مرتكب الكبيرة وخلوده في النار وأهل السُنَّة لا يرون ذلك، بل يقولون: إذا مات المذنب قبل التوبة فأمره إلى الله وهو تحت المشيئة، ويقولون أيضا: أن إخلاف الوعد مذموم وإخلاف الوعيد كرم وتجاوز.

---

(١) فرق معاصرة: ١ /١٠٣.

(٢) دراسات إسلامية في أصول الإباضية ، بكر بن سعيد أعوشت : ٩٥.

وإليك أخي القارئ الكريم قول أهل السُنة والجماعة في مرتكب الكبيرة:

أما أهل السُنَّة والجماعة من سلف هذه الأمة الصالحين وخلفها المتبعين فإنهم مع قولهم بأن الأعمال جزء من مسمى الإيمان لا يرون في ارتكاب الكبائر ما يخرج المرء من الإيمان سوى الشرك بالله، فكان قولهم في مرتكب الكبيرة أنه مؤمن عاص أو فاسق، أو يقال: هو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته فلا يزيلون عنه اسم الإيمان بالكلية بذهاب بعضه، ولا يعطونه اسم الإيمان المطلق.

أما حكمه في الآخرة فيرون أنه:

إذا مات ولم يتب دخل مشيئة الله، إن الله شاء غفر له وأدخله الجنة دون عذاب، وإن شاء أدخله النار وعذبه بقدر ذنوبه. ثم أنه لا يخلد في النار كالكفار، بل لابد أن يخرج منها ويدخل الجنة هذا هو مجمل قول أهل السُنَّة في صاحب الكبيرة، وهذه بعض نصوص أئمة أهل السنة، التي عبروا فيها عن معتقدهم وقولهم في أصحاب الكبائر من أهل القبلة، نسوقها هنا لنقف على حقيقة قولهم في ذلك.

يقول إمام أهل السُنة أحمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ) في اعتقاده الذي ذكره اللالكائي:

«ولا يشهد على أحد من أهل القبلة بعمل يعمله بجنة ولا نار يرجو للصالح ويخاف عليه، ويخاف على المسيء المذنب، ويرجو له رحمة الله ... ومن لقي الله بذنب يجب له به النار تائباً غير مُصِرٍّ عليه فإن الله عز وجل يتوب عليه ويقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات، ومن لقيه وقد أقيم عليه حد ذلك في الدنيا فهو كفارة كما جاء الخبر عن رسول الله ﷺ، ومن لقية مصرًّا غير تائب من الذنوب التي استوجب بها العقوبة، فأمره إلى الله عز وجل إن شاء عذبه وإن شاء غفر له، ومن لقيه كافراً عذبه ولم يغفر له» (١).

(١) انظر: شرح أصول اعتقاد أهل السنة: ١/ ١٦٢.

ويقول الإمام الطحاوي (ت ٣٢١هـ) في عقيدته المشهورة : (ولا نكفر أحداً من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله [١] ، ولا نقول : لا يضر مع الإيمان ذنب لمن عمله، نرجو للمحسنين من المؤمنين أن يعفو عنهم، ويدخلهم الجنة برحمته، ولا نأمن عليهم ولا نشهد لهم بالجنة [٢] ، ونستغفر لمسيئهم، ونخاف عليهم ولا نقنطهم ... ولا يخرج العبد من الإيمان إلا بحجود ما أدخله فيه.

وأهل الكبائر من أمة محمد ﷺ في النار لا يخلدون إذا ماتوا وهم موحدون وأن لم يكونوا تائبين ، بعد أن لقوا الله عارفين مؤمنين، وهم تحت مشيئته وحكمه إن شاء غفر لهم وعفا عنهم بفضله كما ذكر عز وجل في كتابه : ﴿ **وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ** ﴾ [النساء :٤٨] ، وإن شاء عذبهم في النار بعدله ثم يخرجهم منها برحمته وشفاعة الشافعين من أهل طاعته ثم يبعثهم إلى جنته، وذلك بأن الله تعالى تولى أهل معرفته ولم يجعلهم كأهل نكرته الذين خابوا من هدايته، ولم ينالوا من ولايته ...) [٣] .

وأما الإمام الصابوني (٣٧٢-٤٤٩ هـ): (ويعتقد أهل السُنَّة أن المؤمن وإن أذنب ذنوباً كثيرة، صغائر كانت أو كبائر فإنه لا يكفر بها وإن خرج من الدنيا غير تائب منها ومات على التوحيد والإخلاص، فإن أمره إلى الله – عز وجل – أن شاء عفا عنه وأدخله الجنة يوم القيامة سالماً غانماً غير مبتلى بالنار، ولا معاقب على ما ارتكبه من الذنوب، واكتسبه ثم استصحبه إلى يوم القيامة من الآثام والأوزار وإن شاء عاقبه، وعذبه مدة بعذاب النار، وإذا عذبه لم يخلده فيها، بل أعتقه وأخرجه منها إلى دار القرار) [٤] .

---

(١) **الأولى أن يقال :** بكل ذنب كما نبه عليه ابن أبي العز في شرحه، لأن المراد مقابلة الخوارج والمعتزلة الذين يكفرون بكل ذنب من الكبائر، وأهل السُنة ليسوا كذلك وإن كانوا يكفرون ببعض الذنوب لورود النص فيها كترك الصلاة عند بعضهم على تفصيل في ذلك.

(٢) أي : استثنى أهل الجنة ا الذين جاءت النصوص فيهم مثل العشرة المبشرين بالجنة.

(٣) **انظر :** العقيدة الطحاوية : ١٩ ، ٢٠، ٢١، ٢٣، ٢٤ .

(٤) **انظر :** عقيدة السلف أصحاب الحديث : للصابوني : ٧١-٧٢ .

فهذه عقيدة أهل السُنَّة والجماعة في أصحاب الكبائر من أهل القبلة كما دونها أئمتهم على ضوء نصوص الكتاب والسنة، قولهم في ذلك واحد لا يختلف فيه أحد، كلهم متفقون عليه كما صرح بذلك من نقل إجماعهم واتفاقهم عليه من الآئمة. وهو قول يدل على عدل واعتدال واتزان، كل جزئية منه يدل عليها آية من كتاب الله أو سُنَّة عن رسول ﷺ(١).

قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَىٰ بِالأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ** ﴾ [البقرة:١٧٨] فخاطب الجميع باسم الإيمان مع أن فيهم من قد وجب عليه القصاص لارتكابه كبيرة القتل، فقال: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا** ﴾ وأثبت الأخوة بين القاتل وبين ولي الدم، فقال: ﴿ **فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ** ﴾ ولا شك في أن المراد بالأخوة الإيمانية المذكورة في قوله تعالى: ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ** ﴾ [الحجرات: ١٠] فدل ذلك على بقاء الإيمان مع كبيرة القتل، قال الإمام ابن الجوزي في الآية: ودل قوله ﴿ **مِنْ أَخِيهِ** ﴾ على أن القاتل لم يخرج عن الإسلام)(٢).

والدليل الثاني من القرآن الكريم: كقوله عز وجل: ﴿ **وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ** ﴾ [الحجرات:٩-١٠]، فسمى الجميع مؤمنين مع الاقتتال، وجعل الجميع إخوة، فدل على ذلك على أن الكبيرة لا تُخرج صاحبها من الإيمان، وقد استدل الإمام البخاري بهذه الآية فقال ﴿ **وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا** ﴾ قال: فسماهم المؤمنين، أي مع اقتتالهما (٣).

---

(١) وسطية أهل السُنة في الفرق، لشيخي الدكتور محمد باكريم: ٣٨٣.
(٢) انظر: زاد المسير في علم التفسير: ١/١٦٣.
(٣) انظر: فتح الباري: كتاب الإيمان: ١/٨٤.

ثم إن نصوص الكتاب والسُّنَّة ، والإجماع تدل على أن الزاني غير المحصن، والسارق والقاذف لا يقتل، بل يقام عليه الحد، فدل على أنه ليس بمرتد بارتكاب هذه الكبائر ولو كان كذلك لقُتل [١] .

أما قولهم بأنه إذا مات من غير توبة، فهو داخل تحت مشيئة الله أن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه، فيشهد له قوله عز وجل: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾ [النساء:٤٨] فجوّز أن يغفر كل ذنب سوى الشرك بالله بما في ذلك الكبائر. ويدل عليه قول المصطفى ﷺ في حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه: «بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا ولا تقتلوا أولادكم ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوا في معروف، فمن وفّى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب في الدنيا فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئا ثم ستره الله ، فهو إلى الله إن شاء عفا عنه، وإن شاء عاقبه» [٢] .

والحديث نص في دخول من مات على شئ من الكبائر، تحت المشيئة كما يقول أهل السُّنَّة .

وأما قول أهل السُّنَّة: إنه لا يخلد في النار إذا دخلها وأنه لابد أن يخرج منها ويدخل الجنة، فهو مأخوذ من مثل قوله ﷺ : «يدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، ثم يقول الله تعالى: أخرجوا من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان، فيخرجون منها قد اسودوا فيلقون في نهر الحياء - والحياة - شك مالك - أحد رواة الحديث - فينبتون كما تنبت الحبة في جانب السيل» [٣] .

فدل الحديث على خروج من في قلبه مثقال حبة من إيمان من النار وإدخالهم

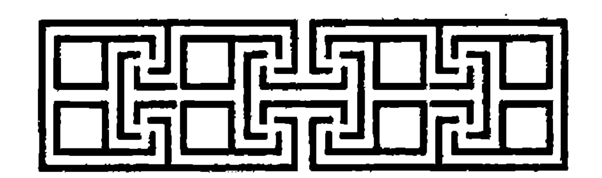
---

(١) وسطية أهل السُنة بين الفرق ، للدكتور محمد باكريم: ٣٨٥ .

(٢) فتح الباري: كتاب الإيمان: ١ / ٤ .

(٣) المرجع السابق: كتاب الإيمان: باب تفاضل أهل الإيمان في الأعمال: ١ / ٧٢ .

الجنة، ومعلوم أن أصحاب الكبائر مؤمنون، ومع كثير منهم مثقال أو مثاقيل من الإيمان ، فلا شك في خروجهم والحديث تضمن أيضاً الرد على المرجئة خاصة في قولهم: لا يضر مع الإيمان ذنب: إذ يثبت الحديث أن من المؤمنين من تضره المعاصي فيدخل النار، ثم يخرج منها، فخروجه دل على انه ليس بكافر، إنما هو مؤمن عذب بقدر ذنبه ثم أخرج إلى الجنة [١] .



(١) عقيدة أهل السُنة في الفرق: ٣٨٦.

المبحث الخامس

مسألة الإمامة والخلافة

وقد ذكر بعض العلماء عن الإباضية في مسألة الخلافة أن الإباضية يزعمون أنه قد يستغنى عن نصب الخليفة ولا تعود إليه حاجة إذا عرف كل واحد الحق الذي عليه للآخر، وهذا القول أكثر ما شهر عن المُحَكِّمَة والنجدات من الخوارج، وأما الإباضية فقد ذكر هذا القول عنهم ج، ج لوريمر في كتابه دليل الخليج [1].

ولكن بالرجوع إلى كتب الإباضية نجد أنهم ينفون هذا القول عنهم ويعتبرونه من مزاعم خصومهم عنهم وأن مذهبهم هو القول بوجوب نصب حاكم للناس، ومن قال غير هذا عنهم فهو جاهل بمذهبهم كما صرح بذلك علماؤهم كالسالمي وعلي يحيى معمر وغيرهما، قال السالمي: (والإمامة فرض بالكتاب والسنة والإجماع والاستدلال) [2].

وأما مذهب أهل السُنَّة فإنهم يرون وجوب نصب الحاكم وإن كانوا جماعة قليلة، فلو كانوا ثلاثة في سفر لوجب تأمير أحدهم كما دلت على ذلك النصوص الثابتة وأن من قال بالاستغناء عن نصب الحاكم فقد كابر عقله، وكذب نفسه ورد عليه الواقع من حال البشر وصار ما يقوله من نسج الخيال وأدلته على الاستغناء مردودة واهية.

والخوارج كافة ينظرون إلى الإمام نظرة حازمة هي إلى الريبة منه أقرب، ولهم شروط قاسية جداً قد لا تتوفر إلا في القليل النادر من الرجال، وإذا صدر منه أقل ذنب فإما أن يعتدل ويعلن توبته وإلا فالسيف جزاءه العاجل، وقد جوز الإباضية

(١) دليل الخليج لوريمر ٦/٣٣٠٣، وانظر: الفصل لابن حزم: ٤/٨٧ .

(٢) الإباضية بين الفرق، علي معمر: ٢٨٩، غاية المراد: ١٨ للسالمي .

كأهل السُنَّة صحة إمامة المفضول مع وجود الفاضل إذا تمت للمفضول الشروط المعلومة خلافاً لسائر الخوارج ، وجوز الإباضية التقية خلافاً لأكثر الخوارج، والله الهادي إلى الصراط المستقيم (١) .

أولا: الإمامة العظمي:

هذه هي مشكلة الخوارج الكبرى منذ نشأتهم وطوال عهد الدولة الأموية وزمن متقدم من عهد الدولة العباسية، شغلتهم قضية الإمامة عملياً، فجردوا السيوف ضد الحكام المخالفين لهم ناقمين عليهم سياستهم في الرعية من عدم تمكينهم من اختيار إمامهم بأنفسهم، ثم سياستهم الداخلية في الناس وشغلتهم فكرياً بتحديد شخصية الإمام وخصائصه ودوره في المجتمع، وكانوا يظهرون بمظهر الزاهد عن تولي الخلافة حينما يكون الأمر فيما بينهم وحرباً لا هوادة فيها ضد المخالفين لهم.

ثانيا: حكم الإمامة عند الخوارج:

الإمامة منصب خطير وضرورة اجتماعية إذ لا يمكن أن ينعم الناس بالأمن وتستقر الحياة إلا بحاكم يكون هو المرجع الأخير لحل الخلافات وحماية الأمة وقد أطبق على هذا جميع العقلاء.

أما بالنسبة للخوارج فقد انقسموا فيها إلى فريقين :

[١] الفرق الأول :

وهم عامة الخوارج، وهؤلاء يوجبون نصب الإمام والانضواء تحت رايته والقتال معه ما دام على الطريق الأمثل الذي ارتأوه له.

[٢] الفريق الثاني:

وهم المحكمة والنجدات قيل عنهم وهؤلاء يرون أنه قد يستغنى عن الإمام إذا

---

(١) فرق معاصرة للدكتور عواجي: ١/ ١٠٤-١٠٥

تناصف الناس فيما بينهم وإذا احتيج إليه فمن أي جنس كان ما دام كفء لتولي الإمامة [١] .

ومن مبرراتهم :

﴿ ١ ﴾ استنادهم إلى المبدأ القائل لا حكم إلا لله، والمعنى الحرفي لهذا المبدأ يشير صراحة إلى أنه لا ضرورة لوجود الحكومة مطلقاً.

﴿ ٢ ﴾ أن الحكم ليس من اختصاص البشر، بل تهيمن عليه قوة علوية.

﴿ ٣ ﴾ أن الضروري هو تطبيق أحكام الشريعة، فإذا تمكن الناس من تطبيقها بأنفسهم فلا حاجة إلى نصب الخليفة.

﴿ ٤ ﴾ ربما ينحصر وجود الإمام في بطانة قليلة وينعزل عن الأغلبية فيكون بعيداً عن تفهم مشاكل المسلمين فلا يبقى لوجوده فائدة.

﴿ ٥ ﴾ أن النبي ﷺ لم يشر صراحة ولا وضع شروطاً لوجود الخلفاء من بعده.

﴿ ٦ ﴾ أن الكتاب لم يبين حتمية وجود إمام ، وإنما أبان ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ [٢] .

هذه مبرراتهم، فهل بقي القائلون بالاستغناء عن نصب الإمام على مبدئهم؟ والجواب بالنفي، فإن المُحَكِّمَة حينما انفصلوا وَلَّوْا عليهم عبد الله بن وهب الراسبي، والنجدات حينما انفصلوا تزعمهم نجدة بن عامر، وأما تلك المبررات التي نسبت إلى من ذكرناهم فلا شك أنها مبررات واهية ولا تكفي للقول بالاستغناء عن نصب الخليفة، أما القول بعدم وجود الإنسان الكامل، فإنه لا يمنع من نصب الإمام حيث يختار أفضل الموجودين، ومن التصور الساذج القول بتناصف الناس فيما بينهم، وأما انعزال الإمام فإن مدار الأمر على التزامه بواجباته

---

(١) مقالات الأشعري: ١ / ٢٠٥ .

(٢) آراء الخوارج للطالبي: ١٢٥ .

الشرعية وعدم إيجاد الحجب بينه وبين رعيته، وذلك مناط الحكم بضرورة وجود الإمام شرعاً وعقلاً وقد ذهبت الحمرية والخلفية من الخوارج إلى القول بجواز وجود إمامين في وقت واحد(١) ، وهذا باطل ولا يتفق مع روح الإسلام وأهدافه، لأن ذلك يؤدي إلى المشاحنات والعداوة وتفريق كلمة المسلمين (٢) .

ثالثا: شروط الإمام عند الخوارج:

وضع الخوارج شروطاً قاسية لمن يتولي الإمامة ومنها :

[١] أن يكون شديد التمسك بالعقيدة الإسلامية مخلصاً في عبادته وتقواه حسب مفهومهم.

[٢] أن يكون قوياً في نفسه ذا عزم نافذ وتفكير ناضج وشجاعة وحزم.

[٣] أن يتم انتخابه برضى الجميع، لا يغني بعضهم عن بعض، ولا عبرة بالنسب أو الجنس، كما يقولونه ظاهراً دعاية لمذهبهم وفي باطنهم يملأهم التعصب، وكون الإمام ينتخب برضى أهل الحل والعقد، هذا مبدأ إسلامي لم يأت به الخوارج كما يقول بعض المستشرقين دعاية للخوارج.

ولم يلتفت الخوارج إلى ما صح من الأحاديث في اشتراط القرشية لتولي الخلافة وتقديم قريش فيها عند صلاحية أحدهم لها، ولم يشترط الشرع في الإمام أن يكون ليله قائماً ونهاره صائماً أو أنه لا يلم بأي معصية، أو أن يكون انتخابه برضى كل المسلمين من أقصاهم إلى أدناهم لا يغني بعضهم عن بعض في مبايعتهم له كما يزعمه الخوارج (٣) .

رابعا: محاسبة الإمام والخروج عليه عند الخوارج:

يعيش الإمام عند الخوارج بين فكي الأسد - عكس الشيعة - فالخوارج

---

(١) الملل والنحل للشهرستاني: ١ / ١٣٠ .

(٢) فرق معاصرة: (١ /١١٣) .

(٣) مدارج الكمال للسالمي: ١٧١ .

ينظرون إلى الإمام على أنه المثل الأعلى وينبغي أن يتصف بذلك قولاً وفعلاً، وبمجرد أقل خطأ ينبغي عليهم القيام في وجهه ومحاسبته فإما أن يعتدل وإما أن يعتزل، ومن غرائبهم ما يروى عن فرقة البيهسية منهم والعوفية فقد اعتبر هؤلاء كفر الإمام سبباً في كفر رعيته، فإذا تركته رعيته دون إنكار فإنهم يكفرون أيضاً (١) .

ولا شك أن هذا جهل بالشريعة الإسلامية وعلى هذا فما تراه من كثرة خروجهم على أئمتهم أو أئمة مخالفيهم يعتبر أمراً طبيعيًّا إزاء هذه الأحكام الخاطئة، وقد حث الإسلام على طاعة أولي الأمر والاجتماع تحت رايتهم إلا أن يظهروا كفراً بواحاً، فلا طاعة في معصية الخالق، وينبغي معالجة ذلك بأخف الضرر ولا يجوز الخروج عليهم ما داموا ملتزمين بالشريعة بأي حال (٢) .

خامساً: إمامة المرأة:

الإمامة مسئولية عظمى وعبء ثقيل يتطلب سعة الفكر وقوة البصيرة ويتطلب مزايا عديدة جعل الله معظمها في الرجال دون النساء، وقد اتفق جميع العقلاء على أن الخلافة لا يصلح لها النساء، ولكنا نجد فرقة من فرق الخوارج وهي الشبيبية تذهب إلى جواز تولي المرأة الإمامة العظمى مستدلين بفعل شبيب حينما تولت غزالة زوجته – وقيل أمه – بعده (٣) .

سادسا: أدلة أهل السُنة في وجوب الإمامة:

إن أهل السُنَّة والجماعة يرون أن الإمامة واجبة، وأنه لابد للمسلمين من إمام يقيم شعائر الدين وينصف المظلومين من الظالمين ويستدلون على ذلك بأدلة من الكتاب والسنة والإجماع والقواعد الشرعية (٤) .

---

(١) مقالات الأشعري: ١/ ١٩٤.

(٢) فرق معاصرة: ١/ ١١٥.

(٣) الفرق بين الفرق: ص ١١٠.

(٤) الإمامة العظمى عند أهل السُنة والجماعة للدكتور محمد عبد الله الدميجي: ٤٧.

الأدلة من القرآن :

﴿ ١ ﴾ قوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ..** ﴾ [النساء:٥٩] قال ابن كثير في الآية : (الظاهر – والله أعلم أن الآية عامة في جميع أولي الأمر من الأمراء والعلماء) [١] .

وهذا هو الراجح ووجه الاستدلال من هذه الآية: أنه سبحانه أوجب على المسلمين طاعة أولي الأمر منهم وهم الأئمة، والأمر بالطاعة دليل على وجوب نصب ولي الأمر، لأنه الله تعالى لا يأمر بطاعة من لا وجود له، ولا يفرض طاعة من وجوده مندوب، فالأمر بطاعته يقتضي الأمر بإيجاده فدل على أن إيجاد إمام للمسلمين واجب عليهم [٢] .

﴿ ٢ ﴾ **ومن الأدلة أيضاً :** قول الله تعالى مخاطبا الرسول ﷺ : ﴿ **فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ...** ﴾ [المائدة:٤٨] وقوله تعالى : ﴿ **وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ** ﴾ [المائدة:٤٩] .

فهذا الأمر من الله تعالى لرسوله ﷺ بأن المسلمين بما أنزل الله – أي بشرعه – وخطاب الرسول ﷺ خطاب لأمته ما لم يرد دليل يخصصه به، وهنا لم يرد دليل على التخصيص، فيكون خطاباً للمسلمين جميعاً بإقامة الحكم بما أنزل الله إلى يوم القيامة، ولا يعني إقامة الحكم والسلطان إلا إقامة الإمامة، لأن ذلك من وظائفها ولا يمكن القيام به على الوجه الأكمل إلا عن طريقها، فتكون جميع الآيات الآمرة بالحكم بما أنزل الله دليلاً على وجوب نصب إمام يتولى ذلك.

ومن الأدلة أيضًا : قول الله تعالى : ﴿ **لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ**

---

(١) تفسير ابن كثير: ٢ / ٣٠٣ .

(٢) المرجع السابق: ٤٧–٤٨ .

وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥] ، فمهمة الرسل عليهم السلام ومن أتى بعدهم من أتباعهم أن يقيموا العدل بين الناس على وفق ما في الكتاب المُنزل ، وان ينصروا ذلك بالقوة وهذا لا يتأتى لأتباع الرسل إلا بتنصيب إمام يقيم فيهم العدل، وينظم جيوشهم المناصرة .

ولهذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -:

(فالدين الحق لابد فيه من الكتاب الهادي والسيف الناصر، فالكتاب بيّن ما أمر الله به وما نهى عنه، والسيف ينصر ذلك ويؤيده) [١] .

ومن الأدلة القرآنية أيضاً جميع آيات الحدود والقصاص ونحوها من الأحكام التي يلزم القيام بها وجود الإمام.

الأدلة من السنة :

روي عن النبي ﷺ أحاديث كثيرة فيه دلالة على وجوب نصب الإمام ، **ومن هذه الأدلة ما يلي:**

﴿ ١ ﴾ ما رواه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «**من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية**»[٢] ، أي: بيعة الإمام ، وهذا واضح الدلالة على وجوب نصب الإمام لأنه إذا كانت البيعة واجبة في عنق المسلم، والبيعة لا تكون إلا لإمام فنصب الإمام واجب.

﴿ ٢ ﴾ ومنها أيضاً الحديث المشهور في السُنن عن العرباض بن سارية، عن النبي ﷺ أنه قال – من حديث طويل –: «**إنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور فأن كل بدعة ضلالة**»[٣] .

---

(١)منهاج السُنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية لابن تيمية: ١ /١٤٢.
(٢)رواه مسلم كتاب الإمارة، باب: وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء: ٣ /١٤٧٨.
(٣)رواه الترمذي، كتاب العلم، باب: ١٦جـ٥،٢٦٧٦ / ٤٤وقال: حسن صحيح.

وقد تواتر عن الصحابة رضوان الله عليهم أنهم بايعوا أبا بكر ﷺ بالخلافة بعد لحوق النبي ﷺ بالرفيق الأعلى، ثم استخلف أبو بكر عمر ﷺ، ثم استخلف عمر أحد الستة الذين اختاروا عثمان ﷺ، ثم بعد استشهاده بايعوا عليًّا بالخلافة، فهذه سنتهم ﷺ في الخلافة وعدم التهاون في منصبها فوجب الاقتداء بهم في ذلك بأمر النبي ﷺ .

من السنة الفعلية :

أن الرسول ﷺ أقام أول حكومة إسلامية في المدينة وصار ﷺ أول إمام لتلك الحكومة، فبعد أن هيأ الله لهذا الدين من ينصره ورسوله بدأ ﷺ في تشييد أركانها، فأصلح بين الأوس والخزرج من مشاكل وحروب طاحنة ثم آخى بين الأنصار والمهاجرين ونظم جيوش المجاهدين لنشر الدين والذود عن حماه، وقد أرسل الرسل والدعوات إلى ملوك الدول المجاورة يدعوهم إلى الإسلام، وعقد الاتفاقيات والمعاهدات مع اليهود وغيرهم وأبان أحكام الأسرى وما يتعلق بهم، وأحكام الحرب وأهل الذمة ، وأنشأ بيت مال المسلمين ، وأقام الحدود الشرعية والعقوبات إلى غير ذلك من مظاهر الدولة ووظائف الإمامة.

يقول الإمام الشاطبي - رحمه الله -:

(ثبت أن النبي ﷺ لم يمت حتى أتى ببيان جميع ما يحتاج إليه من أمر الدين والدنيا وهذا لا خلاف عليه من أهل السُنَّة) (١) .

ومن المعلوم أن قيام هذه الدولة وزعامته ﷺ لها لم يكن هدفاً له في ذاته، وإنما هو من مستلزمات هذا الدين الذي لا يتم إلا به كيف وقد عرضت عليه قريش من أول وهلة الملك عليها من دون تعب ولا جهاد وإنما يترك سب آلهتهم، فرفض ذلك رفضاً باتاً (٢) . وإنما كان هدفه الوحيد ﷺ القيام بتبليغ هذه الرسالة

---

(١) الاعتصام للإمام الشاطبي: ١ / ٤٩.

(٢) سيرة ابن هشام: ١ / ٢٩٣.

وحملها إلى الناس واتخاذ كافة الوسائل المؤدية إلى ذلك، ومن هذه الوسائل قيام الدولة الإسلامية فهي واجبة لهذا الغرض، ولأنها من مستلزمات هذا الدين .

يقول الأستاذ عبد القادر عودة رحمه الله : فالرسول ﷺ كوّن من المسلمين وحدة سياسية ، وألف منهم جميعاً دولة واحدة كان هو رئيسها وإمامها الأعظم وكان له وظيفتان.

الأولى : التبليغ عن الله .

الثانية : القيام على أمر الله وتوجيه سياسة الدولة في حدود الإسلام وقد انتهى عهد التبليغ بوفاة الرسول ﷺ وانقطاع الوحي، وإذا لم يكن بالناس حاجة إلى التبليغ وبعد وفاة الرسول ﷺ لوجود القرآن والسُنَّة ، فإنهم في أشد الحاجة إلى من يقوم على القرآن والسُنَّة ويسوسهم في حدود الإسلام بعد أن كوّن الرسول ﷺ منهم وحدة سياسية، واستن لهم رئاسة الدولة وإمامة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، بل إن التأسي بالرسول ﷺ وأتباع سُنَّته يقتضي من المسلمين جميعاً أن يكوّنوا من أنفسهم وحدة سياسية واحدة ، وأن يقيموا لهم دولة تجمعهم، وأن يقيموا على رأسها من يخلف الرسول ﷺ في إقامة الدين وتوجيه سياسة الدولة توجيهاً إسلامياً خالصاً [١] .

ثالثاً : الإجماع :

ومن أهم الأدلة على وجوب الإمامة الإجماع على ذلك من قبل الأمة وأول ذلك إجماع الصحابة رضوان الله عليهم على تعيين خليفة للنبي ﷺ بعد وفاته ، بل حتى قبل دفنه وتجهيزه [٢] .

قال الإمام الهيثمي - رحمه الله -:

اعلم أيضاً أن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعوا على أن نصب الإمام بعد

(١) الإسلام وأوضاعنا السياسية للأستاذ عبد القادر عودة: ١٢٧ .

(٢) انظر: الإمامة العظمى: ٥٤-٥٥ .

انقراض زمن النبوة واجب، بل جعلوه أهم الواجبات حيث اشتغلوا به عن دفن رسول الله ﷺ [١] .

وقد نقل الاجماع الإمام النووي، وأجمعوا على أنه يجب على المسلمين نصب خليفة [٢] .

ويقول ابن خُلدون : نصب الإمام واجب، وقد عُرِفَ وجوبه في الشرع بإجماع الصحابة والتابعين، لأن أصحاب رسول الله ﷺ عند وفاته بادروا إلى بيعة أبي بكر رضي الله عنه وتسليم النظر إليه في أمورهم، وكذا في كل عصر من الأعصار، واستقر ذلك إجماعاً دالاً على وجوب نصب الإمام [٣] .

رابعاً: القاعدة الشرعية (ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب):

ومن الأدلة على وجوب الإمامة القاعدة الشرعية القائلة بأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، وقد عُلِمَ أن الله سبحانه وتعالى أمر بأمور ليس في مقدور آحاد الناس القيام بها، ومن هذه الأمور إقامة الحدود وتجهيز الجيوش المجاهدة لنشر الإسلام، وإعلاء كلمة الله، وجباية الزكاة وصرفها في مصارفها المحددة وسد الثغور وحفظ حوزة المسلمين، ونشر العدل ودفع الظلم، وقطع المنازعات الواقعة بين العباد، إلى غير ذلك من الواجبات التي لا يستطيع أفراد الناس القيام بها، وإنما لابد من إيجاد سلطة وقوة لها حق الطاعة على الأفراد، تقوم بتنفيذ هذه الواجبات وهذه السلطة هي الإمامة.

خامساً: دفع أضرار الفوضى:

كما أن من الأدلة على وجوب الإمامة دفع أضرار الفوضى، لأن في عدم اتخاذ إمام معين من الأضرار والفوضى ما لا يعلمه إلا الله، ودفع الضرر وحماية

---

(١) الصواعق المحرقة في الرد على أهل البدع والزندقة، للشيخ أحمد بن حجر الهيثمي: ٧.

(٢) شرح النووي صحيح مسلم: ١٢/٢٠٥.

(٣) مقدمة ابن خلدون: ١٩١.

الضروريات - [الدين، والنفس، والعرض، والمال، والعقل] - واجب شرعاً، ومن مقاصد الشريعة حفظها، وهذا لا يتم إلا بإقامة إمام للمسلمين، فدل على وجوبه، قال الإمام أحمد رحمه الله في رواية محمد بن عوف بن سفيان الحمصي: (الفتنة إذا لم يكن إمام يقوم بأمر الناس) (١) .

ويقول ابن المبارك رحمه الله :

إن الجماعة حبل الله فاعتصموا ... في ديننا رحمة منه ودنيانا
بعروته الوثقى لمن دانا ... لولا الخليفة لم تأمن لنا سبل
كم يدفع الله بالسلطان مظلمة ... كان أضعفنا نهباً لقوانا (٢)

سادساً: الإمامة من الأمور التي تقتضيها الفطرة وعادات الناس:

ومن الأدلة أيضاً أن النزوع إلى تنصيب رئيس للجماعة أمر فطري، جبل الله الخلق عليه، حيث إن الإنسان مدني بالطبع - كما يقال - فهو لا يستطيع أن يعيش بمفرده وحيداً مستقلاً عن أخيه الإنسان الآخر، بل لابد أن يعيش مع الناس حتى تستقيم أمور حياته، وتتحقق أهدافه، ونتيجة لمخالطة الناس الآخرين قد تتعارض مصالحهم مع مصالحه، ويحدث الاحتكاك بينه وبينهم ويحصل التنازع، فلابد من أمير يختصم إليه الناس، ويرتضونه ليحكم في منازعتهم وخصوماتهم، ومن هنا كان تنصيب الإمام أمراً ضرورياً للمحافظة على حقوق الناس، ضمان استقرار الحياة (٣) فهذه أدلة أهل السُّنَّة والجماعة في وجوب نصب الإمام الذي يعمل على تنفيذ شرع الله تعالى.

---

(١) الأحكام السلطانية لأبي يعلى:١٩ ، والمسند من مسائل الإمام أحمد: .

(٢) انظر: الحلية لأبي نعيم:٨/١٦٤ .

(٣) الإمامة العظمى:٦٢-٦٣ ، ولقد اعتمدت في نقل أدلة أهل السنة في وجوب الإمامة على كتاب (الإمامة العظمى) المرجع السابق.

الفصل السادس

أهم الثورات الإباضية

في أواخر العصر الأموي وأوائل العصر العباسي

المبحث الأول

ثورات الإباضية في أواخر الخلافة الأموية (•)

أولاً: ثورات الحارث بن تليد وعبد الجبار بن قيس المرادي : (١)

كان عبد الرحمن بن حبيب أحد القادة البارزين في جيش كلثوم بن عياض وبعد أن هزم كلثوم، اتجه عبد الرحمن بن حبيب، وبلج بن بشر إلى الأندلس وأخذ عبد الرحمن يحاول السيطرة على بلاد الأندلس ولكن خاب أمله، بتوليه أبي الخطار بن ضرار والياً عليها من قبل حنظلة بن صفوان، فالتفت عبد الرحمن إلى أفريقية، ولا سيما بعد مقتل الخليفة الأموي الوليد بن يزيد سنة (١٢٦ هـ/ ٧٤٣م) ، فأراد أن يجعل ولاية إفريقية لنفسه، وذلك بعد أن ظن أن الخلافة الأموية قد انتهت وأن الفرصة قد حانت لتحقيق هدفه، فأعلنها ثورة في تونس على حنظلة بن صفوان، وكتب له أن يخلي إفريقية في مدة لا تتجاوز الثلاثة أيام، وأبلغ صاحب بيت المال ألا يعطيه ديناراً ولا درهماً إلا ما حل له من أرزاقه، ولما قرأ حنظلة الكتاب هم بقتاله ولكنه أحجم عن ذلك، لأنه كان ذا دين، وتقوى ويكره قتال المسلمين (٢) فخرج مع أصحابه من أهل الشام في جمادى

(•) جل الفصل السادس نقلته من كتاب الدكتور صالح مفتاح المزيني، وأثبت المراجع التي نقل منها.

(١) والظاهر أن عبد الجبار هو الإمام والحارث وزيره أو قاضيه، وهما أخوان لأم، أو ابنا خالة، وقبيلتهما هوارة. الباروني: مختصر تاريخ الإباضية: ٣٣ .

(٢) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها ١٤٨ .

الآخرة سنة (١٢٧ هـ/٧٤٤م) ، وذلك بعد أن دخل عبد الرحمن بن حبيب القيروان في جمادى الآخرة من العام الماضي وأراد عبد الرحمن بن حبيب أن يضفي صبغة شرعية على حكمه فاعترف بخلافة مروان بن محمد، وأظهر له الطاعة، وكاتبه ويذكر أن عبد الرحمن بن حبيب قد تقوَّل في كتابه على حنظلة، ونسب إليه أقوالاً كَذَبَ فيها ، فأرسل إليه مروان بولاية إفريقية والمغرب كلها والأندلس [١] .

ولما استولى عبد الرحمن بن حبيب على إفريقية اجتمع الإباضية في طرابلس وتداولوا فيمن يولونه الإمامة لينشئوا دولتهم وكان عبد الله بن مسعود التجيبي هو رئيس الإباضية في طرابلس، والشخصية البارزة فيهم لعلمه وتقواه، فاتجهت إليه الأنظار، وشخصته الإباضية للإمامة، ولما علم عبد الرحمن بن حبيب بما عزم عليه الإباضية في طرابلس، ولى أخاه إلياس بن حبيب على طرابلس [٢] وعندما قدم إلياس إلى طرابلس أخذ مسعود التجيبي وضرب عنقه [٣] ، ظناً منه أن في ذلك إرهاباً وكسراً لشوكتهم فثارت ثائرتهم وأخذوا يحتشدون للخروج على عبد الرحمن. ولكن عبد الرحمن بن حبيب أراد بداهة أن يقف في وجه هذه الثورة وذلك بعزل أخيه إلياس عن طرابلس، وولى عليها حميد بن عبد الله العكي، غير أن الإباضية لم ترضى بذلك بل كانت مصممة على الثأر لمقتل رئيسهم، فثاروا في طرابلس بزعامة عبد الجبار بن قيس المرادي والحارث بن تليد الحضرمي، وكانا يدينان بمذهب الإباضية ، وحاصر الإباضية حميد بن عبد الله في بعض قرى طرابلس وزاد من سوء حالته، وقوع الوباء في عسكره، فاضطر إلى مفاوضة الثوار وتم الاتفاق على أن يخرج هو ورجاله من طرابلس بأمان.

---

(١) الرقيق القيرواني: تاريخ إفريقية والمغرب: ١٢٩.

(٢) محمد علي دبور: المغرب الكبير: ٢/ ٤١٠.

(٣) الخلافة والخوراج في المغرب العربي، لرفعت فوزي: ١٢١.

ورغم هذا الاتفاق فإن عبد الجبار بن قيس أخذ أحد كبار أصحاب حميد بن عبد الله العكي، هو نصير بن راشد الأنصاري وقتله وذلك ثأراً لمقتل رئيس الإباضية عبد الله بن مسعود التجيبي في طرابلس ثم استولى الإباضيون على زناتة كلها، ونتيجة لذلك أراد عبد الرحمن بن حبيب أن يقضي على الإباضية في طرابلس فكتب إلى يزيد بن صفوان بولاية طرابلس وفي نفس الوقت أرسل مجاهد بن مسلمة الهواري، إلى هوارة ليحاول أن يستنصر هذه القبيلة وغيرها من القبائل، ويحول بينها وبين الاتصال بعبد الجبار، وقد أقام بين هذه القبائل أشهر ولاسيما بين الهواريين ، يدعوهم إلى مساندته ولكنه فشل في ذلك إذ طُرد ولحق بيزيد بن صفوان بطرابلس (١) .

وبعد أن أصيبت خطة عبد الرحمن السياسية بالفشل، لجأ إلى خطة جديدة للقضاء على هذه الثورة وهي استعمال العنف والشدة ضدهم فأرسل إلى طرابلس فرقة من جنوده تحت قيادة أحد قواده، وهو محمد بن مفروق وأمر يزيد بن صفوان أن يخرج معه لقتال الإباضية، فخرج ذلك الجيش تحت قيادة محمد بن مفروق ويرافقه يزيد بن صفوان، ومجاهد بن مسلمة للقضاء على الإباضية في طرابلس، وعندما تقابل هذا الجيش بجيش عبد الجبار بن قيس والحارس بن تليد بمكان من أرض هوارة، دارت الدائرة على جيش عبد الرحمن بن حبيب وانهزم هزيمة منكرة وقتل في هذه المعركة يزيد بن صفوان ومحمد بن مفروق وانهزم، مجاهد بن مسلمة إلى أرض هوارة (٢) .

ورغم الفشل المتكرر الذي حل بجيوش عبد الرحمن بن حبيب إلا أن ذلك لم يثبط من عزيمته ، بل أنه جمع جيشاً جديداً، ووضعه تحت قيادة عمر بن عثمان وأمره بالزحف إلى جيش عبد الجبار والحارث بن تليد إلا أنهما استوليا على

---

(١) فتوح مصر وأخبارها: ١٤٨-١٤٩ .

(٢) فتوح مصر وأخبارها: ١٤٨-١٤٩ .

طرابلس كلها ولم يكتف عبد الجبار والحارث بهذا النصر، بل تعقبا عمر بن عثمان الذي بلغ دغوغا [١] ولما شعر عمر بن عثمان بمطاردة جيش الحارث له اتجه نحو الصحراء، ثم تقدم إلى سرت فأدركته خيل الحارث فقتلت نفراً من أصحابه واحتوى الحارث على معسكره ونجا عمر على فرسه جريحاً [٢] .

ويذكر أنه بعد كل هذه الانتصارات التي حققها عبد الجبار بن قيس والحارث بن تليد، دب الخلاف بينهما فاقتتلا فقتل كل منهما صاحبه [٣] ، غير أن الأستاذ حمد علي دبور يرفض هذه الرواية ، ويرى خلاف ذلك إذ أنه يقول: (إن عبد الرحمن دس عليهما من يقتلهما ، فلما كانا ذات يوم وحدهما في دار الحكمة تقدم إليهما جماعة زعموا أنهم من ذوي الحاجات وقتلوهما وأدخلوا في كل منهما سيفاً وجعلوا مقبضه إلى جهة الأخر ليوهم الناس أنهما تنازعا فتقاتلا فقتل كل منهما صاحبه) [٤] .

غير أننا نرجح الرأي الأول [٥] وذلك لأنه ليس من المعقول أن تترك دار الحكمة بدون حراسة حتى يدخل جماعة على عبد الجبار والحارث ويقتلوهما دون أن يفطن بهم أحد.... وبالإضافة إلى ذلك فإن صاحب الجواهر المنتقاة ذكر أن بينهما خلافاً لم يعلم المحق منهما من المبطل [٦] ومعنى ذلك أنه كان خلاف وقتل كل منهما الأخر ولم يعرف المبطل من المحق ... وقد وصلت مسألة الحارث وعبد الجبار إلى أرض المشرق وكان بين أهل المشرق فيهما اختلاف وفرقة ، وفي أرض المغرب أشد من ذلك ، حتى كتب لهم أبو عبيدة مسلم وأبو داود بالكف

---

(١) **دغوغا**: ويذكر ابن خرداذبة: المسالك والممالك: ٨٦ أنه من المصنف إلي تورغ نحو الغرب أربعة وعشرون ميلاً، ثم إلي دغوغا عشرون ميلاً، ثم إلى ورداسا ثمانية عشر ميلاً.

(٢) فتوح مصر وأخبارها: ١٤٩.

(٣) المرجع السابق: ١٤٩.

(٤) المغرب الكبير: ٣ / ٢١٠.

(٥) الذي رجح الرأي الأول هو الدكتور / صالح مفتاح صاحب المرجع السابق.

(٦) الجواهر المنتقاة: ٨٧.

عن ذكرهما [١] .

ثانياً: إمامة إسماعيل بن زياد النفوسي:

وفي سنة ١٣٢هـ / ٧٤٩ م اختار إباضية طرابلس إمامًا جديداً هو إسماعيل بن زياد النفوسي[٢] الذي عظم شأنه وكثر أتباعه ونجح في الاستيلاء على مدينة قابس فخرج إليه عبد الرحمن بن حبيب حتى وصل إلى مدينة قابس وأرسل إليه فرقة من جيشه على رأسها ابن عمه شعيب بن عثمان، وتم اللقاء بين الطرفين وكان النصر في هذه المرة حليفاً لجيش شعيب بن عثمان الذي تمكن من قتل إسماعيل بن زياد النفوسي ووقع كثير من أصحابه في أسر جيش شعيب بن عثمان وهرب الباقون وعندما وصلت أنباء هذا النصر إلى عبد الرحمن بن حبيب نهض مسرعاً إلى سوق طرابلس ومعه الأسارى وكتب إلى عمر بن عثمان فقدم عليه بأرض سرت وقدم له الأسارى فضرب أعناقهم وصلبهم واستعمل على طرابلس عمر بن سويد المرادي وأمره أن ينفل [٣] .

وبذلك استعاد عبد الرحمن بن حبيب طرابلس وعمر سورها في العام الثاني [٤] وانتقل الناس إليها من كل مكان[٥] ، وعاد عبد الرحمن بن حبيب بعد قضائه على هذه الثورة إلى القيروان وظل عمر بن سويد المرادي والياً على طرابلس إلى أن ثار عليه البربر برئاسة عبد الأعلى بن السمح ١٤٠هـ /٧٥٧م حيث قبض على هذا الوالي وخيره بين البقاء مع الأمان والخروج فاختار الخروج وسافر إلى المشرق [٦] .

---

(١) السيرة وأخبار الأمة: ٧ .

(٢) طبقات الإباضية، اللدرجيني: ١٠ / ١١ .

(٣) العبر، لابن خلدون: ٦ / ٢٢٣ .

(٤) أحمد النائب الأنصاري، المنهل العذب: ١ / ٥١ .

(٥) البيان المغرب، لابن عذاري: ١ / ٦٣ .

(٦) ولاة طرابلس، للطاهر الزاوي: ٤٦ .

ثالثًا: ثورة أبي الخطاب الإباضي:

وعندما انهارت الدولة الأموية وحلت محلها الدولة العباسية فر بعض الأمراء الأمويين إلى إفريقية وبالإضافة إلى ذلك فإن عبد الرحمن بن حبيب لم يقدم الولاء والطاعة للخليفة العباسي الجديد أبي العباس السفاح ونتيجة لذلك أراد الخليفة العباسي أن يقضي على نفوذ عبد الرحمن بن حبيب ، فأرسل جيشًا إلى إفريقية تحت قيادة أبي عون عبد الملك بن يزيد ، وكان على مقدمة هذه الجيوش عامر بن إسماعيل ويرافقه أسطول بحري خرج من مدينة الإسكندرية تحت قيادة المثنى وكان قد سبق هذه الجيوش إلى أرض سرت بعض الدعاة العباسين وذلك لنشر الدعوة العباسية في بلاد المغرب ، ولما وصلت الجيوش العباسية إلى برقة توفي الخليفة أبو العباس السفاح في ذي الحجة سنة ١٣٦ هـ /٧٥٣ م مما أدى إلى استدعاء الدعاة الذين وصلوا إلى سرت والجيش الذي مكث في برقة لمدة أحد عشر شهرًا [١] .

وعندما تولى الخليفة الجديد أبو جعفر المنصور كتب إلى عبد الرحمن بن حبيب ، يأمره أن يقدم الولاء والطاعة للدولة العباسية ، فأجاب بن حبيب إلى ذلك فأقره أبو جعفر وبعث إليه بالخلع والأعلام السود ، فلبسها وأعلن الدعاء على المنابر للخليفة العباسي [٢] .

ووجه عبد الرحمن بن حبيب بعد ذلك إلى الخليفة العباسي بهدية ، فيها بزاة [٣] وكلاب وكتب له رسالة قال فيها : (إن إفريقية اليوم إسلامية كلها، وقد انقطع السبي منها فلا تسألني ما ليس من قبلي) فغضب الخليفة أبو جعفر من لهجة هذه الرسالة وكتب إلى عبد الرحمن بن حبيب يتوعده مما أثار غضب عبد الرحمن بن حبيب فجمع الناس وخطب فيهم قائلاً : إنني ظننت أن هذا الخائن

---

(١) الولاة والقضاة، للكندي: ١٠٣ .

(٢) تاريخ إفريقية، والمغرب: ١٣٣-١٣٤

(٣) بزاة : صقور ، ومفردها بازي .

يدعو إلى الحق حتى تبين لي خلاف ما بايعته عليه من إقامة العدل، وإني قد خلعته كما خلعت نعلي هذا وقذفه من رجله ثم دعا بخلع السواد [١] .

وقد استغل إلياس بن حبيب الخلاف الذي وقع بين أبي جعفر المنصور وعبد الرحمن بن حبيب ، فتأمر مع أخيه عبد الوارث على قتل عبد الرحمن بن حبيب وكان سبب تأمرهما عليه أنه كان يبعث أخاه إلياس إلى كل ثائر يخرج عليه فيقاتله حتى يظفر بالنصر فينسبه عبد الرحمن بن حبيب إلى ابنه حبيب ، ثم ولاه العهد .

ولهذا تأمر عليه أخوه وتولى إلياس الحكم من بعد أخيه عبد الرحمن غير أن إلياس لم يستقر في الحكم طويلاً حتى ثار عليه حبيب بن عبد الرحمن وتولى زمام الأمور وما كاد الأخير يستقر في القيروان حتى ثارت عليه ورفجومة [٢] التي لجأ إليها عبد الوارث وكانت هذه الثورة برئاسة عاصم الورفجومي إذ أن عاصم الورفجومي قائد هذه الثورة أرسل عبد الملك بن أبي الجعد لقتال حبيب بن عبد الرحمن الذي لم يصمد كثيراً في قتال ورفجومة حتى قتل في المحرم سنة (١٤٠هـ /٧٥٧ م) ، ورجع عبد الملك بعد ذلك في قبائل ورفجومة إلى القيروان واستولى عليها ، وبذلك ملكت ورفجومة إفريقية ، وعاملوا أهل قيروان بالعسف والظلم ، حتى تفرقوا في مختلف الأقاليم فراراً بأنفسهم ، وشاع خبرهم في الأفاق [٣] .

بالإضافة إلى ما ارتكبه ورفجومة من ظلم يذكر أنهم ربطوا دوابهم في المسجد وقتلوا كل من كان بالمدينة من قريش، وتذكر بعض الروايات أنه من

---

(١) البيان والمغرب : ١ / ٦٧ .

(٢) ورفجومة هي بطن من بطون البربر، تفزاوة بنولو الأكبر ومن أهم بطونها دجال، وطوويورغيس، وواتحبر وكبر طيط وما انجدل وسفتبت بنور فجوم من ميزغاش بن ولهاص بن يطوفت بن تفراو (ابن خلدون العبر: ٦ / ١٧٩-١٨٠).

(٣) الكامل في التاريخ لابن الأثير: ٤ / ٢٨١ .

خلال هذه الأحداث كان رجلاً من الإباضية في القيروان لقضاء بعض الحاجة فرأى بعض الورفجوميين قد أخذوا امرأة قهراً والناس ينظرون فأدخلوها الجامع واغتصبوها فما كان من الإباضي إلا أن ترك حاجته التي جاء من أجلها وخرج حتى أتى أبا الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري وأخبره بذلك فخرج وهو يقول: (لبيك اللهم لبيك) [١] .

أما روايات الإباضية: فتذكر أن امرأة من نساء القيروان كتبت بطاقة إلى أبي الخطاب تشكوا إليه جور ورفجومة وتقول له فيها: (أما بعد يا أمير المؤمنين فإن لي ابنة وقد بلغنا الخوف من ورفجومة والحوطة عليها أن حفرت حفرة تحت سريري ووضعتها فيها خشية أن يفسدوها كما فعلوا بأمثالها) [٢] .

ومهما اختلفت الروايات في هذه النقطة إلا أنها تجمع على الظلم الذي ارتكبته ورفجومة في القيروان ومن المرجح أن يكون ذلك سبباً مباشراً في استيلاء الإباضية على مدينة القيروان.

رابعاً: إمامة أبي الخطاب والاستيلاء على طرابلس:

وقد كان الإباضية بعد مقتل الحارث وعبد الجبار يجتمعون في الكتمان ويذكرون في عقد الإمامة فأجالوا النظر وأطالوا الفكر فيما بينهم فيمن يولونه أمرهم إن كانت لهم قوة على عدوهم وكانوا يجتمعون بموضع يقال له صياد غربي مدينة طرابلس وكانوا يظهرون أنهم يجتمعون في أمر أرض بين قوم أرادوا قسمتها وأظهروا ذلك وأعلنوه وقيل: إنهم كانوا يجتمعون في أمر رجل وزوجته اختصما بينما كانوا في واقع الأمر يجتمعون من أجل الإمامة [٣] .

وقد استمرت اجتماعاتهم حتى اتفقوا فيما بينهم على يوم معلوم وعلى أن

---

(١) تاريخ إفريقية والمغرب: ١٤١.

(٢) البيان والمغرب: ١ / ٧٠.

(٣) السيرة وأخبار الأمة: ٧.

يأتي كل واحد منهم بجماعة من رجال عشيرته وأتباعه مع سلاحهم وخرج معهم أبو الخطاب ولم يكن يعلم ما يريدونه وعندما وصلوا إلى مدينة صياد تكلم رجل فيهم وقال: (أليس قد أجتمع رأينا على ما قد علمتموه؟ فقالوا: بلى فأتموا أمركم فاجتمعت طائفة منهم على ناحية وتكلموا فيما بينهم ثم رجعوا فقالوا لأبي الخطاب: أبسط يدك لنبايعك على أن تحكم بيننا بكتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ وآثار الصالحين من عباده ، فقال لهم أبو الخطاب: استغفلتموني وما حسبت أن لهذا الأمر كان خروجي معكم [١] وكان أبو الخطاب هذا من حملة العلم الخمسة الذين وفدوا على البصرة والذي أشار إليه أستاذهم أبو عبيدة – عندما أرادوا الانصراف إلى بلاد المغرب – وذلك عندما سألوه عمن يولونه الإمامة إذا ما أنسوا في أنفسهم قوة [٢] .

ولما رأى أبو الخطاب إصرارهم على أن يولوه أمرهم، رضخ للأمر الواقع وقال لهم: لا أقبل أن أتحمل أمانتكم إلا على شرط، فقالوا له: كل شرط يجوز فنحن نعطيكه ونطيعك فقال لهم شرطي عليكم، ألا تذكروا في معسكري مسألة الحارث وعبد الجبار، خوفًا من أن يكون في جماعة المسلمين اختلاف وفرقة وقد حدثنا بعض أصحابنا أن مسألة الحارث وعبد الجبار اتصلت بالمشرق فكان بين أصحابنا وفي مسألتهم اختلاف وفرقة وفي أرض المغرب أشد من ذلك حتى كتب لهم أبو عبيدة مسلم وأبو داود بالكف عن ذكرهما [٣] .

وعندما وافقوه على شرطه بسط يده فبايعوه ، وكان ذلك في المحرم سنة (١٤٠ هـ /٧٥٧ م) في غربي مدينة طرابلس ثم اتفقوا على احتلال مدينة طرابلس وكانت خطتهم في احتلال هذه المدينة أن يحمل الرجال مع أسلحتهم

---

(١) السيرة وأخبار الأمة: ٧.

(٢) المرجع السابق نفسه .

(٣) طبقات الإباضية: ١٠-١١.

الجواليق لتربط أفواهها من أسفل ويحمل كل جمل رجلين ثم يدخلوا مدينة طرابلس، وكل من سيرى الجمال على هذه الهيئة لن يفطن إلى من فيها من الرجال ويظن أنها تحمل بضاعة وعندما يرى الإباضيون المقيمون بطرابلس دخول الجمال وانتشارها في المدينة يشهرون سلاحهم (١) .

وعندما التف البربر حول أبي الخطاب اتجه إلى مدينة طرابلس واستولى عليها وطرد منها الوالي العباسي عمر بن عثمان القرشي ، وولى عليها رحيمة عبد الله وعلى سرت عمر بن يمكتن. وفي صفر سنة ١٤١هـ/٧٥٨ م، توجه أبو الخطاب بمن كان معه إلى القيروان فخرج إليه عبد الملك بن أبي الجعد في جموعه وتم اللقاء بين الجيشين ودارت المعركة وكان النصر فيها لأبي الخطاب حيث قتل عبد الملك بن أبي الجعد ودخل أبو الخطاب مدينة القيروان حيث ولى عليها عبد الرحمن بن رستم (٢) وبذلك صارت طرابلس كلها من خليج سرت إلى قابس ومن البحر إلى الصحراء الكبرى منضوية تحت إمامة أبي الخطاب.

خامسا: موقف أبي جعفر المنصور من ثورة الخطاب :

وكان أبو جعفر المنصور حريصاً على دولته الناشئة فأعمل سيفاً في كل منافسيه وقد تم له في المشرق ما أراد فاتجه إلى المغرب وقد عزم أن يقضي على إمامة أبي الخطاب التي أصبحت أكبر خطرٍ يهدده وليسترد إفريقية لتكون وقاية لمصر، لأن في قيام دولة أبي الخطاب اتصالاً بمناوئ الدولة العباسية في مصر وهذا ما يؤدي إلى الثورة في مصر ضد الحكم العباسي ولابد أن يحذو الشام والعراق حذو مصر والمغرب، ولهذا صمم المنصور على إرسال قواته إلى المغرب للقضاء على ثورة أبي الخطاب، وقد شجعه على إرسال هذه القوات إلى المغرب وجود جماعة من جند إفريقية يشكون ما نزل بهم من ورفجومة ويستصرخونه. وكان

---

(١) المغرب الكبير: ٣/ ٢٠٩-٢١٠ .

(٢) ولاة طرابلس: ٤٧ .

من هؤلاء الوفد الذي أتى المنصور من إفريقية نافع بن أنعم والبهلول كما وفد عليه جميل السدراتي أحد جنود عبد الأعلى الخارجين عليه [(١)] .

ولهذا صمم أبو جعفر المنصور على القضاء على ثورة أبي الخطاب فما كان منه في تلك الأثناء إلا أن ولى محمد بن الأشعث على مصر وطلب منه إرسال جيش للقضاء على ثورة أبي الخطاب فأرسل هذا الوالي جيشاً بقيادة رجل من أكبر قواده وأشجع رجاله هو العوام بن عبد العزيز البجلي وكلفه بحرب أبي الخطاب ومهاجمة بلاده، وسار العوام إليه وكان أبو الخطاب يستعد لملاقاة جيش المنصور ولما تم له ذلك خرج بجيشه حتى أتى ورداسة في شرق طرابلس ووجه إلى العوام مالك بن سحران الهواري في طائفة من جيشه فالتقى بالعوام البجلي في منطقة سرت وهي أول بلاد الإمام أبي الخطاب ودارت معركة كبرى سقط فيها قتلى كثيرين من الجانبين غير أن مالك بن سحران كر على جيش العوام البجلي فهزمه وقتل عدداً كبيراً من أصحابه ورجع بن العوام إلى ابن الأشعث مهزوماً [(٢)] .

وعرف ابن الأشعث أن أبا الخطاب لا يؤثر فيه إلا جيش يحشد فيه كل ما استطاعه من جنده الشجعان ومع خيرة قواده، فجهز جيشاً أكبر من سابقه ويقدره بعض المؤرخين في ستة آلاف جندي لمقابلة الجيوش الإباضية وذلك في سنة ١٤٣هـ/ ٧٦٠م تحت قيادة أبي الأحوص العجلي. وأرسله إلى إفريقية، فزحف إليه أبو الخطاب بجموع الإباضية من البربر، والتقى الجيشان في مغمداش على شاطئ البحر، وتمكن أبو الخطاب من هزيمة جيش أبي الأحوص، حيث عاد إلى مصر، وانصرف أبو الخطاب إلى طرابلس، وأصبحت إفريقية كلها في يديه إلى أن وجه إليه المنصور محمد بن الأشعث ولم يرض ذلك الوضع أبا جعفر المنصور، وذلك خوفاً من ضياع النفوذ العباسي في المغرب، فولي إفريقية محمد

---

(١) العبر لابن خلدون: ٤/ ٤١٠ .

(٢) محمد بن علي دبور المرجع السابق: ٣/ ٨ـ ٩ .

ابن الأشعث الخزاعي، عامله على مصر، وأعد الخليفة جيشاً عدته أربعون ألف مقاتل يقودهم ثمانية وعشرون قائداً [١] منهم الأغلب بن سالم بن عقال التميمي والمحارب بن هلال الفارسي، والمخارق بن غفار الطائي، وأمرهم بالسمع والطاعة له، وإن حدث به حدث كان أميرهم الأغلب فإن حدثه حدث فالمخارق ومن بعده المحارب بن هلال، غير أن الأخير توفي قبل وصولهم إفريقية وعندما علم ابن الأشعث بقرب الموعد اتجه إلى إفريقية وعسكر بالجيزة وصلى بها يوم عيد الأضحى سنة ١٤٢ هـ/ ٧٥٩ م ثم توجه إلى الإسكندرية وذلك بعد أن استخلف محمد بن معاوية على مصر [٢] .

ولما علم أبو الخطاب خروج محمد بن الأشعث إليه جمع أصحابه من كل ناحية، ومضى في عدد عظيم فكثر جمعه وخافه ابن الأشعث لكثرة جموعه غير أنه في هذا الوقت تنازعت زناتة وهوارة بسبب قتيل من زناتة، فاتهمت زناتة أبا الخطاب بالميل إلى هوارة فتخلى عنه جماعة منهم، مما شجع ابن الأشعث وقوى من عزيمته [٣] . ثم سار أبو الخطاب في جيوشه وأنصاره حتى عسكر بسرت شرقي طرابلس، ينتظر وصول ابن الأشعث إليه، غير أن ابن الأشعث كان داهية محنكاً يتبين طريقه كل التبين قبل أن يسير، ويعلم كل العلم بعدوه قبل أن يشتبك به، فأرسل جواسيسه في سرت وعرفوا حقيقة جيش أبي الخطاب، ورجعوا إلى ابن الأشعث بأنباء ارتاع منها وساء أن يكون جيش أبي الخطاب متفوقاً في المعنويات والعدد [٤] .

فاتجه ابن الأشعث إلى خطة سياسية لكي يقضي على جيش أبي الخطاب، وعندما تحين الفرصة المناسبة فضبط أفواه السكك، حتى انقطع خبره عن أبي

---

(١) البيان المغرب: ١/ ٧٢ .

(٢) المرجع السابق نفسه.

(٣) محمد علي دبور، المرجع السابق: ٣/ ١١-١٢ .

(٤) محمد علي دبور: ٣/ ١١-١٢ .

الخطاب فرجع أبو الخطاب إلى طرابلس، ولكن عندما علم أبو الخطاب برجوع ابن الأشعث إلى سرت، خرج إليه حتى وصل ورداسة ولما قرب منه، ذكر ابن الأشعث لأصحابه أن خبراً أتاه من الخليفة المنصور بالرجوع إلى المشرق، فعاد إلى الخلف مسار ثلاثة أيام ببطء، فوصلت عيون أبي الخطاب وأخبرته بعودة ابن الأشعث فتفرق عنه كثير من أصحابه وكان ذلك في صفر سنة (١٤٤ هـ/ ٧٦١ م) فهاجمه ابن الأشعث ودارت معركة رهيبة بين الطرفين، ويجعلها بعض المؤرخين عند مدينة لبدة. وأحاطت فيه جيوش ابن الأشعث بأبي الخطاب فصمد أبو الخطاب، وظل يقاتل مع أصحابه حتى قتل هو وعدد كبير من جنده وهكذا استطاع ابن الأشعث بسياسته ودهائه أن ينتصر على أبي الخطاب، واحتز رأسه وأرسله إلى المنصور [١] .

ولما علم عبد الرحمن بن رستم بالقيروان وكان في طريقه إلى أبي الخطاب ما حل بأبي الخطاب وأصحابه، رجع إلى تاهرت وبنى هناك مدينة نزلها، أما ابن الأشعث فافتتح طرابلس واستعمل عليها المخارق بن غفار الطائي [٢] وظن ابن الأشعث أنه لا قوة هناك تهاجمه بعد انتصاره على أبي الخطاب ولكنه فوجئ برجل يدعى أبو هريرة الزناتي في ستة عشر ألفاً من زناتة وغيرها، فهجم عليهم ابن الأشعث وتمكن من هزيمتهم وذلك في ربيع الأول سنة ١٤٤ هـ/ ٧٦١ م [٣] .

ثم كتب ابن الأشعث إلى جعفر المنصور يخبره بتلك الانتصارات ثم أخذ يولي عماله على المغرب، بالإضافة إلى ذلك سير سنة (١٤٥ هـ / ٧٦٢ م) من مدينة القيروان جيشاً بقيادة أحد قواده إسماعيل بن عكرمة الخزاعي إلى مدينتي زويلة وودان ، حيث قام بقتل زعيم الإباضية بزويلة عبد الله بن حيان الإباضي وهكذا فرض ابن الأشعث سطوته وأذعنوا له بالطاعة .

---

(١) تاريخ الخياط: ٢ / ٦٤.

(٢) محمد علي دبور: المرجع السابق: ٢٣ /١٨.

(٣) البيان المغرب: ١ / ٧٢-٧٣ .

سادساً: ثورة أبي حاتم يعقوب بن لبيب الإباضي:

وفي سنة ١٥١ هـ /٧٦٨ مآلت ولاية إفريقية إلى عمرو بن حفص بن قبيصة وكان شجاعاً وبطلاً، وسبب توليه على إفريقية أن أبا جعفر المنصور لما بلغه قتل الأغلب بن سالم، وجهه إلى إفريقية في نحو خمسمائة فارس، فأقام بالقيروان مدة ثلاث سنين وأشهر من ولايته والأمور له مستقيمة، ثم سار بعد ذلك لبناء سور مدينة طبنة، لأنها تعتبر خط الدفاع الأول عن القيروان، ثم إن أمر الخوارج الصفرية قد استفحل فيها فخرج إليها ، وذلك بعد أن استخلف على القيروان أبا حازم حبيب بن حبيب المهلبي ولقد شعر الرستميون بالخطر الذي أصبح يتهدد دولتهم من جراء تحصين مدينة طبنة، فانتهز ابن رستم مع أصحابه في طرابلس فرصة خروج عمرو بن حفص إلى طبنة ودخلوا إفريقية من عسكر العباسيين وأعلنوها ثورة في طرابلس وولوا عليها أبا هاشم بن يعقوب [1] .

وكان والي طرابلس من قبل العباسيين في هذه الفترة هو الجند بن بشار الأسندي، فأرسل إليه عمرو بن حفص جيشاً قوامه خمسمائة فارس تحت قيادة أحد قواده، وهو أبو حازم بن سليمان، فطلب منهم أن يقدموا الولاء والطاعة لأبي جعفر المنصور ولكنهم رفضوا ذلك وقالوا له عليك لعنة الله وعلى أبي كافر معك . وكانوا يقصدون بذلك أبا جعفر المنصور، وعندما رفضوا تقديم الولاء والطاعة للخليفة العباسي تم اللقاء بين الطرفين ودارت معركة بينهم انتهت بقتل عدد كبير من جند العباسيين وهزيمتهم إلى مدينة قابس فحاصرهم أبو حاتم.

ثم بعث بجيوشه إلى طبنة حيث حاصروا بها عمرو بن حفص وكان على رأس هذه الجيوش أبو قرة اليعقوبي في أربعين ألفاً والمسور بن هاني الزناتي في عشرة آلاف وعبد الرحمن بن رستم في خمسة عشر ألفاً وعبد الملك بن سكر يد في ألفين وانضم إليهم عدد كبير من الخوارج وزناتة، ومع أن هدف المحاصرين كان

---

(١) الكامل لابن الأثير: ٥ / ٣١-٣٢ .

واحداً وهو قتال جند الخلافة إلا أنهم لم يكونوا متفقين أو متحدين في الخطة والعمل، بل كان كل منهم يعمل بمفرده عن الأخر ولهذا عندما أعمل عمرو بن حفص الحيلة في صرف جند أبي قرة عن حربه، انصرف بعض الآخرين وانهزم بعضهم ذلك أن عمرو بن حفص رأى كثرة البربر حوله فأراد أن يفرق كلمتهم ، وذلك عن طريق شراء بعضهم بالمال ، فبذل لأصحاب أبي قرة مالاً كثيراً مما أدى إلى تفرقهم (١) .

هذا كما بعث في نفس الوقت جيشاً إلى ابن رستم وهو بتهوده فما كان من عبد الرحمن بن رستم إلا أن انهزم أمامه إلى تاهرت فخافت الإباضية من حصار مدينة طبنة ثم سار أبو حاتم إلى القيروان وحاصرها ثمانية أشهر حتى أكل أهلها الميتة ولما اشتد الحصار على أهل القيروان خرج عمرو بن حفص من طبنة بعد أن استخلف عليها الهنأ بن غفار الطائي، واتجه إلى القيروان مما أدى بالمجتمعين على القيروان أن يفكوا حصارهم ويتجهوا لمقابلة جيوش عمرو بن حفص القادمة إلى القيروان ، فلما علم بهم اتجه إلى تونس. وفي هذه الأثناء خرج جميل بن صخر من القيروان بعد ما ترك حصارها أبو حاتم والتقى مع عمرو بن حفص وتوجها معاً إلى القيروان وكان لقاؤهما في مكان يقال له بئر السلامة (٢) .

وبعد أن رجع عمرو بن حفص إلى مدينة القيروان بدأ يستعد لملاقاة جيش أبو حاتم ولكنه رأى انه لا يستطيع مقاومة ذلك الجيش الذي بلغ تعداده حوالي مائة وثلاثين ألفاً فأخذ يجمع من الطعام ما يمكن جمعه ثم قام بحفر خندق حول المدينة، ثم أقبل أبو حاتم في جنوده حتى وصل إلى بحيرة المسروقين فنهض إليه عمرو بمن معه فقاتله أشد القتال غير أن الجند تكاثروا عليه مما أدى به إلى الانسحاب إلى مكان يدعى القنطاط فتابعه أبو حاتم حتى وصل إلى الخندق الذي

---

(١) البيان المغرب: ١ / ١٧٦ .

(٢) تاريخ إفريقية والمغرب: ١٤٤ .

أعده عمرو بن حفص وظل ابن حفص محاصراً داخل خندقه ، وطال الحصار على أهل المدينة ، ويذكر أنه عندما طال الحصار على عمرو بن حفص وصله بكتاب من زوجته خليدة بنت المعارك تخبره أن أمير المؤمنين استبطأه فبعث إليه يزيد بن حاتم في ستين ألفاً (١) .

ولما قتل عمرو بن حفص على يد الخوارج سنة ١٥٤هـ/ ٧٧٠ م جمع يزيد بن قبيسة جيشاً من الشام والعراق وخراسان وبلغ حوالي ستين ألف مقاتل وسار به إلى إفريقية للأخذ بثأر عمرو بن حفص وعندما علم أبو حاتم بمسيرة يزيد الذي كلفه الخليفة العباسي بالذهاب إلى إفريقية سار هو أيضاً إلى طرابلس للقائه وذلك بعد أن استخلف على القيروان عبد العزيز بن السمح المعافري وأمره بأن يأخذ سلاح الجند وأن لا يجتمع منهم اثنان في مكان واحد وأن يوجه إليه بهم واحداً واحد غير أنهم اجتمعوا واستوثق بعضهم بعضًا ألا يرضوا بهذا وقويت شوكتهم بقدوم يزيد ، وبينما كان أبو حاتم في طريقه إلى طرابلس بلغه خبر انتقاض بعض الأشخاص في القيروان وعلى رأسهم عمر بن عثمان القرشي والمخارق بن غفار فعاد أبو حاتم إلى القيروان ففر عمرو بن عثمان إلى تونس وذلك بعد قتال شديد بين الطرفين ثم مضى أبو حاتم بعد ذلك إلى طرابلس لمقابلة الجيش العباسي وفي هذا الأثناء انضم جيش يزيد إلى جميل بن صخر وأصحابه وهو في سرت . وأقاموا إلى أن لقيهم أبو حاتم.

غير أن أبا حاتم رأى أن يختار مكاناً يصعب منه على يزيد الانتصار فيه فما كان منه إلا أن لحق بجبال نفوسة فاتبعته عساكر يزيد فهزم فسار إليهم يزيد بنفسه وقاتله قتالاً شديداً ، وقتل أبو حاتم في ثلاثين ألفاً من أصحابه ، وعلى الرغم من المبالغة في هذا العدد إلا أنه يشير إلى مدى ما تكبده جيش أبو حاتم من خسائر في الأرواح ، ثم تتبع يزيد الفارين بالقتل طالباً بثأر عمرو بن حفص

(١) المرجع السابق: ١٤٤-١٤٥ .

ثم ارتحل إلى القيروان فدخلها في منتصف سنة (١٥٥هـ / ٧٧١ م) وذلك بعد أن استخلف على طرابلس سعيد بن شداد.

وكان عبد الرحمن بن حبيب بن عبد الرحمن الفهري، قد خرج مع أبي حاتم غير أنه بعد مقتل أبي حاتم لحق عبد الرحمن بكتامة فبعث يزيد المخارق إلى بني غفار الطائي في طلبه فحاصرهم ثمانية أشهر فغلب عليه وقتل جماعة ممن معه وفر هو إلى الأندلس. وفي هذه الأثناء كانت هوارة وزناتة في طرابلس تترقب فرصة للثورة فعندما ابتعد يزيد بجيوشه تَعقُبًّا لعبد الرحمن ثارت هوارة في شرق طرابلس واشتعل شرق طرابلس ناراً على العباسيين بقيادة شخص يدعى أبا يحيى بن قرياس وكان في هذه الأثناء عسكر ليزيد بن أبي حاتم بطرابلس بقيادة عبد الله بن السمط الكندي، التقوا على شاطئ البحر من أرض هوارة ودار القتال بين الطرفين مما أدى إلى انهزام أبي يحيى وقتل عامة اصحابه.

وفي سنة (١٧١ هـ/ ٧٨٧ م) توفي يزيد بن حاتم وتولى أمر إفريقية من بعده أخوه روح بن حاتم (١٧١-١٧٤ هـ / ٧٨٧-٧٩٠م) وكان والياً على السند وفي عهده استكانت القبائل المحلية للعرب وقبلوا دفع ما عليهم من إتاوات غير أنه توفي في رمضان من سنة (١٧٤هـ/ ٧٩٠م) وتعاقب على ولاية إفريقية من بعده عدد من الولاة منهم نصر بن حبيب المهلبي ثم من بعده الفضل بن روح بن حاتم ولاه الرشيد أمر إفريقية في المحرم سنة (١٧٧هـ / ٧٩٣م).

وفي السنة الثانية من ولايته (١٧٨ هـ / ٧٩٤ م) ثار عليه الجند بقيادة عبد الله بن عبد ربه الجارود إذ إنهم تمكنوا من قتل الفضل بن روح والاستيلاء على القيروان وذلك في شعبان من سنة (١٨٧ هـ/ ٧٩٤ م) وبدخول ابن الجارود مدينة القيروان في سنة (١٧٨ هـ) انتهى عهد الولاة المهلبين في إفريقية ، بعد أن كونوا فيها ما يشبه إمارة تابعة للخلافة منذ ولاية عمرو بن حفص سنة (١٥١ هـ) حتى مقتل الفضل بن روح ، وبزوال هذه الأسرة اضطربت المنطقة من

جديد (١) ، إذ أنه عندما تولى الجارود أمر إفريقية استبقى يحيى بن موسى عاملاً على طرابلس غير أن هارون الرشيد رفض تولية ابن الجارود وولى مكانه هرثمة بن أعين أحد كبار قادة الرشيد . فسار هرثمة بن أعين نحو إفريقية وعندما وصل إلى برقة بعث يقطين بن موسى إلى القيروان ليقنع ابن الجارود للخروج من إفريقية وبعث ليحيى بن موسى والي طرابلس يحثه على الإسهام في إقرار الأمر بإفريقية فاتجه يحيى بن موسى إلى القيروان ودفع لابن موسى بكتاب الرشيد فقال له ابن الجارود : أنا على السمع والطاعة وقد قرب مني العلاء بن سعيد ، فإن تركت القيروان . . . فأكون قد ضيعت بلاد أمير المؤمنين ولكن اخرج إلى العلاء فإن ظفر بي فشأنكم والثغور ، وإن ظفرت به انتظرت قدوم هرثمة . فأسلم إليه البلاد وسار إلى أمير المؤمنين (٢) .

وكان يقصد ابن الجارود إن ظفر بالعلاء منع هرثمة عن البلاد ولكن يحيى بن موسى أراد أن يفرق جيش ابن الجارود فخلا بأحد أصدقائه وهو ابن الفارسي الذي حاول إفساد جيش ابن الجارود غير أن ابن الجارود تمكن من قتل ابن الفارسي وهزم يحيى بن موسى حيث رجع إلى طرابلس (٣) .

وفي هذه الأثناء قدم جيش العلاء بن سعيد يريد القيروان ورأى ابن الجارود أنه لا طاقة له به فكتب إلى يحيى بن موسى أن يقدم إلى القيروان ليسلمها له فخرج يحيى بمن معه من طرابلس في المحرم من سنة ١٧٩ هـ / ٧٩٥ م فلما بلغ قابس إلتقى به عامة الجند من القيروان ومعهم النصر بن حفص بن عمر بن معاوية وخرج ابن الجارود من القيروان في مستهل صفر واستخلف عليها عبد الملك بن عباس اللطيفي فأقبل العلاء بن سعيد إليها فقتل جماعة من أصحاب الجارود فبعث إليه يحيى بن موسى أن يفرق جموعه إن كان في الطاعة فأمر العلاء بن

---

(١) ليبيا بين الماضي والحاضر، لحسن محمد سليمان: ١٥٢ .

(٢) تاريخ ليبيا الإسلامي، لعبد اللطيف البرغوثي: ١٥٢ .

(٣) الكامل في التاريخ لابن الأثير: ٥/٩٥-٩٦ .

سعيد كل من كان معه بأن ينصرفوا إلى مواقعهم فانصرفوا (١) .

ثم رحل العلاء بن سعيد من القيروان إلى طرابلس وكان ابن الجارود قد وصل إليها قبل وصول العلاء بن سعيد فلقي بها يقطين بن موسى فخرج معه سائراً يريد المشرق فالتقوا بهرثمة بن أعين بإجدابية فأرسلهما إلى منصور بن زياد ببرقة ثم رحلا إلى المشرق حتى وصلا إلى هارون الرشيد، وفي ربيع الأخير من سنة ١٧٩ هـ/ ٧٩٥م وصل هرثمة بن أعين إلى القيروان وعين سفيان بن المضاء بن أبي المهاجر والياً على طرابلس وعاد الهدوء إلى ولاية إفريقية هذا كما أعاد بناء سور مدينة طرابلس من جهة البحر (٢) .

ولما رأى هرثمة ما بالمغرب من كثرة الثوار استعفى الرشيد من ولايتها فأعفاه لسنتين ونصف من ولايته وولى عليها محمد بن مقاتل العكي.

فقدم ابن العكي إلى القيروان في أول رمضان سنة ١٨١ هـ/ ٧٩٧ م وكان سيىء الأخلاق والسيرة فاختلف عليه الجند ثم خرج عليه بتونس تمام بن تميم التميمي سنة ١٨٣ هـ / ٧٩٩ م واجتمع الناس عليه وساروا إلى القيروان ودخلوا على محمد بن مقاتل العكي فيها ولكن تمام آمنه على أن يخرج من إفريقية فسار إلى طرابلس (٣) .

ولما بلغ الخبر إلى إبراهيم بن الأغلب بمكان من الزاب انتفض لمحمد بن مقاتل، وسار بجموعة إلى القيروان فهرب تمام، وملك إبراهيم بن الأغلب القيروان واستقدم محمد بن مقاتل من طرابلس ، وأعاده إلى إمارته بالقيروان أخر سنة ١٨٣ هـ / ٧٩٩ م وظل بها إلى أن قامت دولة الأغالبة (٤) .

رأينا فيما سبق الفتن والثورات التي قام بها البربر من الخوارج والإباضية، غير أن الضربة الساحقة التي ألحقها يزيد بن حاتم بالإباضية تعد نهاية لنشاط الخوارج

---

(١) تاريخ إفريقية والمغرب: ٢٠-٢٠٢ .
(٢) البيان المغرب: ١ / ٨٨.
(٣) السلاوي: استقصاء: ١ / ١٢١ .
(٤) المنهل العذب، لأحمد النائب: ١ / ٦٠-٦١.

سعيد كل من كان معه بأن ينصرفوا إلى مواقعهم فانصرفوا (١) .

ثم رحل العلاء بن سعيد من القيروان إلى طرابلس وكان ابن الجارود قد وصل إليها قبل وصول العلاء بن سعيد فلقي بها يقطين بن موسى فخرج معه سائراً يريد المشرق فالتقوا بهرثمة بن أعين بإجدابية فأرسلهما إلى منصور بن زياد ببرقة ثم رحلا إلى المشرق حتى وصلا إلى هارون الرشيد، وفي ربيع الأخير من سنة ١٧٩ هـ/ ٧٩٥م وصل هرثمة بن أعين إلى القيروان وعين سفيان بن المضاء بن أبي المهاجر والياً على طرابلس وعاد الهدوء إلى ولاية إفريقية هذا كما أعاد بناء سور مدينة طرابلس من جهة البحر (٢) .

ولما رأى هرثمة ما بالمغرب من كثرة الثوار استعفى الرشيد من ولايتها فأعفاه لسنتين ونصف من ولايته وولى عليها محمد بن مقاتل العكي.

فقدم ابن العكي إلى القيروان في أول رمضان سنة ١٨١ هـ/ ٧٩٧ م وكان سيىء الأخلاق والسيرة فاختلف عليه الجند ثم خرج عليه بتونس تمام بن تميم التميمي سنة ١٨٣ هـ / ٧٩٩ م واجتمع الناس عليه وساروا إلى القيروان ودخلوا على محمد بن مقاتل العكي فيها ولكن تمام آمنه على أن يخرج من إفريقية فسار إلى طرابلس (٣) .

ولما بلغ الخبر إلى إبراهيم بن الأغلب بمكان من الزاب انتفض لمحمد بن مقاتل، وسار بجموعة إلى القيروان فهرب تمام، وملك إبراهيم بن الأغلب القيروان واستقدم محمد بن مقاتل من طرابلس، وأعاده إلى إمارته بالقيروان أخر سنة ١٨٣ هـ / ٧٩٩ م وظل بها إلى أن قامت دولة الأغالبة (٤) .

رأينا فيما سبق الفتن والثورات التي قام بها البربر من الخوارج والإباضية، غير أن الضربة الساحقة التي ألحقها يزيد بن حاتم بالإباضية تعد نهاية لنشاط الخوارج

---

(١) تاريخ إفريقية والمغرب: ٢٠-٢٠٢.
(٢) البيان المغرب: ١/ ٨٨.
(٣) السلاوي: استقصاء: ١/ ١٢١.
(٤) المنهل العذب، لأحمد النائب: ١/ ٦٠-٦١.

والإباضية في صورته الشاملة المنظمة، حقيقة أن حركاتهم لم تخبط بصورة نهائية في عهد يزيد لكنها كانت تفتقر إلى التنظيم والشمول ولذلك لم يجد أمراء آل المهلب في إفريقية عناء في قمعها وردعها، فثورة هوارة بزعامة أبي يحيى بن فرناس بنواحي طرابلس انتهت بكارثة لإباضية هوارة على يد عبد الله بن السمط الكندي، الذي قتل أبا يحيى وعامة أصحابه وحسبنا أنا لم نسمع عن أي نشاط للإباضية طوال حكم يزيد بن حاتم الذي أمتد حتى سنة ١٧٠ هـ / ٨٧٦ م ولذلك حُقَّ لابن عذاري ان يقول لقد دانت إفريقية ليزيد بن حاتم (١) .

أما الإباضية في نفوسة فقد استكانوا وغُلبوا على أمرهم، بعد فشل حركة أبي حاتم، وقبل ذلك كان إباضية زناتة قد بطش بهم ابن الأشعث سنة ١٤٤ هـ / ٧٦١ م ، وهكذا تصدعت حركات الإباضية في المغرب الأدنى، وإفريقية بينما نجح عبد الرحمن بن رستم بمؤازرة إباضية المغرب الأوسط في تأسيس دولة بتاهرت سنة ١٦١ هـ ٧٧٧ /م ، تلك الدولة التي امتد نفوذها فيما بعد لتضم إباضية المغرب جميعاً، بعد أن دانوا بالولاء والتبعية لأئمتها وأقامت دليلاً عملياً على نجاح ثورات الإباضية في تحقيق مراميها في تكوين دولة إباضية في المغرب.

وإلى جانب الدولة الرستمية، قامت دولة الأدارسة في المغرب الأقصى وخاف العباسيون على سلطانهم بإفريقية وخاصة أنه بدأ يتزعزع عقب وفاة الوالي القدير يزيد بن حاتم المهلبي سنة ١٧٠ هـ وإلى جانب تلك الدول تغلب البربر الصفرية على سلجماسة وهي أحدى مدن المغرب الأقصى الأمر الذي أدى إلى قيام دولة بني مدرار الخارجة على مذهب الصفرية. وكرد فعل لقيام هذه الدويلات التي تكاد أن تكون مستقلة استقلالاً تاماً عن الدولة العباسية، قامت دولة الأغالبة للوقوف في وجه هذه الدويلات وذلك سنة ١٨٤ هـ/ ٨٠٠ م وبقيام هذه الدولة دخلت البلاد في عهد جديد.

---

(١) المرجع السابق: ٨٥ .

الفصل السابع
دخول المذهب المالكي إلى ليبيا والشمال الأفريقي

توطئة :

بعد وفاة حملة العلم من التابعين في بلاد شمال إفريقيا، واستشهاد جُل علمائهم في الفتوحات الإسلامية لبلاد الأسبان وجزر البحر الأبيض المتوسط وغيرها شعر – أهالي شمال إفريقيا – بقلة العلم الشرعي، لذلك توجهوا صوب بلاد المشرق لطلب العلم و تحصيله، فاتصلوا بكبار المحدثين و الفقهاء، من أمثال: أبي حنيفة النعمان، ومالك بن أنس، وسفيان الثوري، وكان صاحب مذهب متبوع وغيرهم، ثم عادوا إلى بلادهم ونشروا علم هؤلاء الأئمة رحمهم الله، فكانت تلك هي البذرة الأولى لظهور المذاهب في المغرب.

[١] المذاهب غير المشتهرة : (١)

وبعض المذاهب دخلت القيروان، ولكنها سرعان ما اندثرت ولم يكثر الأخذون بها، مثل مذهب أبي عمر الأوزاعي(ت ١٥٧ هـ) وقد روى عنه بعض أهل القيروان، ومذهب سفيان الثوري (ت ١٦١ هـ) وقد روى عنه كثير من أهل القيروان، وسمعوا منه جامعيه الكبير والصغير، وكان بعضهم يميل إلى رأيه، ومذهب داود بن علي الأصبهاني الظاهري(ت ٢٧٥ هـ)، أدخله أبو جعفر بن خيرون، أما مذهب محمد بن إدريس الشافعي (ت ٢٠٤ هـ) ، فقد كان حظه بالقيروان – الشمال الإفريقي – أكثر من سابقيه حيث مال إليه مجموعة من أهلها.

وقد صنف بعض علماء القيروان في الرد على مذهب الشافعي كتباً منها:

---

(١) التوطئة والمبحث الأول منقولاً من كتاب مدرسة الحديث في القيروان.

كتاب (**الرد على الشافعي لمحمد بن سحنون ت ٢٥٦ هـ**) ، وكتاب (**الحجة في الرد على الشافعي فيما أغفل من كتاب الله وسُنَّة نبيه ﷺ ليحيى بن عمر ت٢٨٩ هـ**) وكتاب (**الرد على الشافعي لسعيد بن الحداد ٣٠٢هـ**)، أما اكثر المذاهب اتباعاً بالمنطقة فهما: مذهبا مالك وأبي حنيفة.

[٢] المذهب الحنفي:

يعتبر المذهب الحنفي أسبق المذاهب في الدخول إلى القيروان، وكان هو الغالب على أهلها قبل دخول المذهب المالكي، باعتباره مذهب الدولة الرسمي، ثم ضعف عندما أقبل الناس على مذهب مالك، إلا أنه عاد إلى الظهور بعد ذلك إلا أنه زال بعد ما ألزم المعز بن باديس (٤٠٧-٤٤٩ هـ) الناس بمذهب مالك حسماً لمادة الخلاف في المذاهب.

[٣] المذهب المالكي :

لقد تلقى أهل القيروان والشمال الإفريقي مذاهب السلف على يد الصحابة والتابعين، كما مر، وشاهدوا بأعينهم الفتن التي أدى إليها التأويل والبعد عن النصوص، ولذلك ما أن أدخل علي بن زياد (ت١٨٣) الموطأ إلى إفريقية وفسر لهم قول مالك، ولم يكونوا يعرفونه، حتى أقبلوا عليه إقبالاً منقطع النظير، لأنهم وجدوا فيه ضالتهم المنشودة لجمعه بين البساطة والأصالة، واعتماده على الحديث، فإن صاحب هذا المذهب يدرس في مدينة الرسول ﷺ، ويلتزم النص من الكتاب والسُنَّة ، ولا يأخذ إلا عن الثقات، وبرع في السُنَّة حتى سمي أمير المؤمنين في الحديث، وهو إلى جانب ذلك شديد الورع لا يفتي إلا بحذر شديد، وينفر من الرأي والتأويل [١] .

---

(١) مدرسة الحديث في القيروان، للأستاذ/ الحسين بن محمد شواط: ١/ ٨٩-٩٥ .

المبحث الأول

دخول الموطأ والاهتمام به في الشمال الإفريقي

يقول الأستاذ الحسين بن محمد شواط في ذلك:

ذاع أمر الإمام مالك، واشتهر بالاهتمام بالحديث الشريف، والأخذ عن ثقاة الرواة ووقوفه عند نصوص الكتاب والسُنَّة، وبعده عن الرأي وصونه للعلم بالبعد عن ذوي السلطان، وقد وافق ذلك ما في نفوس أهل الشمال الإفريقي من التعطش إلى السُنَّة والتزام الآثار، فتوافدوا عليه لسماع حديثه، والتأدب بشمائله التي توارثها أهل المدينة جيلاً بعد جيل منذ عهد النبي ﷺ.

وقد بدأت صلة القرويين بالإمام مالك قبل سنة ١٤٥ هـ، وذلك عن طريق الوفد الذي تكون من عبد الله بن فروح (ت ١٧٦ هـ)، والبهلول بن راشد (ت ١٨٣ هـ)، وعبد الله بن عمر بن غانم (ت ١٩٠ هـ)، وكان من حفاوة الإمام مالك بهم والعناية بأمرهم ما زاد في إقبال المغاربة عليه.

ثم نمت هذه الصلة، وخاصة بعد رحلة علي بن زياد (*) الذي فسر للأفارقة

(*) العلامة الفقيه الأستاذ علي بن زياد العبسي الطرابلسي سمع العلم من الإمام مالك والثوري، والليث بن سعد، وابن لهيعة، ولم يكن بإفريقية مثله... أخذ عنه البهلول بن راشد، والإمام سحنون، وشجرة بن عيسى وأسد بن الفرات، وكان يقول: إني لأدعو الله عز وجل لعلي بن زياد مع والدي لأنه أول من تعلمت العلم عليه... ولم يكن سحنون يقدم عليه أحداً من أهل إفريقية... وهو أول من أدخل موطأ مالك لإفريقية وفسر لهم قول مالك ولم يكونوا يعرفونه وهو معلم سحنون... وسأل سحنون شرحبيل قاضي طرابلس عن أصل علي بن زياد فقال: كشفنا عن أصله فإذا هو من العجم، وكان أوله من طرابلس، ثم سكن مدينة تونس وكان البهلول يفزع إليه في مشكلات العلم، قال سحنون، ما بلغ البهلول شسع علي بن زياد، ويقول: ما أنتجت إفريقية مثل علي بن زياد، وكان أهل العلم بالقيروان إذا اختلفوا في مسألة كتبوا بها إلى علي بن زياد يخبرهم من هو على صواب، وأرسل إليه أمير إفريقية ورسوله الخليفة يستشيرانه فيمن يلي القضاء فامتنع عن الذهاب إليهما، فحضروا إليه في منزله، فلما قيل له إنهما بالباب حول وجهه إلى الحائط، فدخلا عليه وسأله الوالي بلسان رسول الخليفة عمن يلي القضاء في إفريقية فحول وجهه إلى القبلة، وقال: ورب هذه القبلة ما أعرف بها أحداً يستوجب القضاء قوموا عني.

قول مالك وأصوله، وحدثهم بموطئه، فكان من يسمع منه من طلبة العلم بالقيروان يعجب بهذا الإمام، ويحرص على الرحلة إليه، لينال بذلك علو الإسناد وشرف الاستماع المباشر من الإمام.

[١] الرواة عن مالك من الأفارقة :

وقد رأيت (١) من الفائدة أن أبين هنا تلاميذ مالك من الأفارقة، سيما أنه لم يسبق أن وقع حصرهم حتى الآن فيما أعلم، ولما لهم من الأثر في نشر حديث مالك وفقهه في بلادهم.

ولقد ذكر الحافظ محمد بن الحارث الخشني (ت٣٦١هـ) أن عدد تلاميذ مالك من علماء الأفارقة يزيد على ثلاثين رجلاً، وتناقل المصنفون ، وبعد البحث والتتبع في مختلف المظان وجدت أن عددهم يصل إلى أربعة وأربعين راوياً ، منهم من بلغت شهرته الأفاق، ومنهم من لم تفدنا المصادر المتوفرة بغير اسمه (٢) .

رواية الموطأ من الأفارقة :

ويقول أيضاً : (لقد أدخل الموطأ إلى إفريقية ستة من أهلها براويتهم عن الإمام مالك، كما وجد فيها الموطأ بروايات أخرى، وفيما يلي أسماء الأفارقة والقيراونين وقد رتبته حسب أسبقية تحملهم للموطأ فيما ترجح لدي (٣) :

[١] علي بن زياد التونسي (ت ١٨٣هـ):

وهو محدث واسع الرواية مع علم في نقد الرجال وضبط الرواية، ونباهة في الفقه سمع بإفريقية والمشرق، وله أثر كبير في الحياة العلمية بإفريقية، وعليه

= بعث روح بني حاتم – وكان بالقيروان – في طلبه ليوليه القضاء فامتنع ورجع من فوره إلى تونس أراد يوماً أن يصلي بجامع القيروان فاتى إلى سارية، فأراد أن يكبر فارتعدت فرائصه خوفاً من الله، ثم تحامل على نفسه وكبر فتغير لونه وله مواقف محمودة في العلم والزهد والخوف من الله، قيل توفي سنة ١٨٢ عليه رحمه الله، (تاريخ الفتح العربي في ليبيا: ١٩٣-١٩٤-١٩٥).

(١) الذي رأى هو الحسين بن محمد بن شوّاط.

(٢) مدرسة الحديث في القيروان: ١ / ٢٦٠-٢٦١.

(٣) الذي ترجح عنده هو الحسين بن محمد بن شوّاط.

تعلم شيوخ القرويين، وهو مؤسس المدرسة المالكية في تلك الربوع، لأنه أول من ادخل الموطأ إلى إفريقية بروايته عن مالك، وفسر لأهلها قول مالك وأصوله، ولم يكونوا يعرفونها قبل ذلك.

[٢] عبد الله بن عمر بن غانم الرعيني (ت ١٩٠هـ):

وهو محدث فقيه تولى قضاء القيروان، وقد كان من طليعة المرتحلين إلى الإمام مالك وذلك قبل سنة ١٤٥ هـ .... وتحمله للموطأ عن الإمام مالك فهو ثابت.

[٣] أسد بن الفرات (ت ٢١٣ هـ):

سمع أسد الموطأ من علي بن زياد، ثم رحل إلى المشرق سنة ١٧٢ هـ وقد أخذ عن الإمام مالك الموطأ وغيره، وحدث به في العراق ، ثم عاد إلى إفريقية سنة ١٨١ هـ وسنترجم له بإذن الله في دولة الأغالبة .

[٤] محمد بن معاوية بن الحضرمي الطرابلسي ثم القيرواني :

محدث، فقيه، ثقة مشهور، وقد سمع منه القيروانيون ، ولم تذكر المصادر شيئاً من تواريخ وفاته ورحلته، وإنما ذكروا أنه: (كان له سن وإدراك)، وصرحوا بسماعه للموطأ، وذكر عياض عن المالكي أن موطأ محمد بن معاوية يمتاز على غيره من الموطآت باشتماله على جامع، وليس ذلك لأحد غيره من رواة الموطأ.

[٥] عيسى بن شجرة التونسي:

هذا العالم من الأفارقة الكثيرين الذين امحت أثارهم حيث لم توجد لهم ترجمة مستقلة مع أنه من رواة الموطأ كما ورد في تنوير الحوالك وغيره، وله سماع من الليث بن سعد(ت ١٧٥ هـ)، وعبد الله لهيعة (ت ١٧٤ هـ).

[٦] خلف بن جرير بن فضالة القروي:

فقيه محدث ثقة، سمع من معظم شيوخ عبد الله بن وهب (ت ١٩٧ هـ) وفي مقدمتهم الإمام مالك الذي أخذ عنه الموطأ [١] .

---

(١) مدرسة الحديث في القيروان: ١ /٢٦٧-٢٧١.

المبحث الثاني

ترجمة الإمام مالك بن أنس رحمه الله

[١] عصره :

يشبه عصر مالك عهد أبي حنيفة، إلا أنه أدرك من الدولة العباسية حظاً وافراً، فقد كانت ولادته في عهد الوليد بن عبد الملك الأموي، وكانت وفاته في عهد الرشيد العباسي، فعاصر دولة بني مروان في عنفوان شبابها، وشاهد تداعي الدولة الأموية، وقيام بني العباس على أنقاضها، ورأى مواقف المهدي من الزنادقة في العراق، و استنصاره بالعلماء للقضاء على عقيدتهم، وأدرك الحضارة العباسية في أوج عظمتها، وقد امتزجت في مبادئها الإسلامية الحضارات الفارسية، والهندية، والرومانية.

وتمثل حياته في العهد الأموي فترة تكوين عقله و تفكيره و آرائه خلال أربعين سنة و تمثل حياته بعد أن بلغ أشده في العهد العباسي فترة إنتاجه، والاستفادة من علمه، وتبادل ثمرات الفكر مع الصحاب وتكوين التلاميذ [١]).

[٢] نسبه :

هو أبو عبد الله مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر من قبيلة ذي أصبح اليمنية، ولد عام (٩٣ هـ)بالمدينة النورة، وتوفي بها عام (١٧٩ هـ).

[٣] صفاته :

كان الإمام طويلاً جسيماً، شديد البياض إلى الشقرة، عظيم الهامة، حسن الصورة، أصلع، أعين، أشم، أزرق العينين.

---

(١)التشريع والفقه في الإسلام، تاريخاً ومنهجاً ، للشيخ مناع القطان: ٢٨٣.

[٤] شيوخه :

وأكرمه الله بمدينة النبي ﷺ وتتلمذ على يد علمائها من التابعين وتذكر مصادر التاريخ أنه أخذ العلم عن تسعمائة شيخ : ثلاثمائة من التابعين، وستمائة من تابعيهم ونذكر أشهر شيوخه، ومن كان له الأثر الظاهر في حياته وحديثه وفقهه وهم : ابن هرمز ، ونافع مولى ابن عمر، وزيد بن أسلم، والزهري، وأبو الزناد، وعبد الرحمن بن القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق، وأيوب السختياني، وهشام بن عروة، ويحيى بن سعيد الأنصاري، وعامر بن عبدالله بن الزبير بن العوام، وغيرهم كثير من سادات التابعين.

[٥] تصنيفه للموطأ :

عزم الإمام مالك على تصنيف الموطأ، وقرر أن يقوم بجمع كتاب يحتوي أبوابه صحاح الأخبار وعمل أهل المدينة في أبواب الفقه، ثم أنه صنفه فى مدة طويلة، فعمل من كان في المدينة يومئذ من العلماء الموطآت، فقيل لمالك شغلت نفسك بعمل هذا الكتاب، وقد شركك فيه الناس، وعملوا أمثاله، فقال: ائتوني بما عملوا، فأتي بذلك فنظر فيه وقال: لتعلمن أنه لا يرتفع إلا ما أريد به وجه الله تعالى، قال ابن عبد البر: فكأنما ألقيت تلك الكتب بالآبار وما سمعت لشيٍ منها بعد ذلك بذكر، ولهذا لا يذكر الموطأ إلا ذكر معه مالك. وقد ذكر العلماء كتاب الموطأ بخير، وأثنوا عليه في كلامهم.

[٦] عقيدة الإمام مالك :

هي عقيدة أهل السُنَّة والجماعة ، استوحاها من كتاب الله تعالى ومن سُنَّة رسول الله ﷺ ، ومما عليه سلف الأمة من الصحابة والتابعين، وكان يقول: (من طلب الدين بالكلام تزندق، ومن طلب المال بالكيمياء أفلس ، ومن طلب غريب الحديث كذب)، ولقد علم الكثير مما عليه أهل الأهواء وكان من أعلم الناس بما اختلفوا فيه من ذلك دون أن يدخل عليه شيء مما قالوا بل كان من أشد الناس

عليهم، وكان من الكبار الذين حصنوا دين الأمة، وحارب من حاول أن يدخل على الدين ما لم يأمر به الله، وأذاع بين الناس العقيدة السليمة التي هي صراط الله المستقيم، وحذرهم سبيل الانحراف والأهواء، ﴿ **وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ** ﴾ [الأنعام:١٥٣] ، وله في أكثر أبواب العقيدة كلام يؤيد فيه عقيدة السلف ويبطل فيه عقيدة المبتدعين لا على طريقة المتكلمين ، بل على ما أتى به الكتاب المبين ، وكان أبعد الناس عن مذاهب المتكلمين ، وألزمهم بسنة السالفين من الصحابة والتابعين.

[٧] من حكمه القيمة:

ذكر الإمام مالك أصناف الناس في طلب العلم فقال: رجل علم فعمل به، فمثله في كتاب الله قوله تعالى: ﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ** ﴾ [فاطر:٢٨] ورجل علم به ولم يعمله فمثله في كتاب الله: ﴿ **الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى** ﴾ [البقرة: ١٥٩] ، ورجل علم علماً وعلمه، ولم يعمل به فمثله في كتاب الله: ﴿ **إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ** ﴾ [الفرقان: ٤٤] .

وقيل لمالك بن أنس رحمه الله: ما تقوله في طلب العلم؟ قال: حسن جميل. ولكن انظر الذي يلزمك من حين تصبح إلى حين تمسي فالزمه. وقال الإمام مالك: ليس العلم بكثرة الرواية، وإنما العلم نور يضعه الله في القلوب.

[٨] هيبة الإمام مالك :

جدير بمن يحمل علم الكتاب والسُّنَّة أن يكون عزيزاً في عيون الآخرين إن كان بالكتاب والسُّنَّة عاملاً مخلصاً لله دينه، وحري بمن كان في مكانة مالك أن يجعل الله له هيبة في نفوس الآخرين. قال سعيد بن أبي مريم: ما رأيت أشد هيبة من مالك لقد كانت هيبته أشد من هيبة السلطان. وقال الشافعي: (ما هبت أحداً قط هيبتي مالك بن أنس، حين نظرت إليه) [١] .

---

(١) **انظر** : الإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة لعبد الغني الدقر: ٢١-٣٣٩.

وكان سفيان الثوري في مجلسه، فلما رأى إجلال الناس له وإجلاله للعلم، أنشد قولة مصعب بن عبد الله في مالك :

يدعى الجواب فلا يراجع هيبة — والسائلون نواكس الأبصار
عز الوقار ونور سلطان التقى — فهو المهيب، وليس ذا سلطان [1]

والحق أن الله رفع قدر مالك، لهمته وإخلاصه في نشر كتاب الله، وحديث رسوله ﷺ ولسيرته المباركة.

[٩] وفاته:

مرض الإمام مالك، وشهد شهادة الحق في سكرات الموت ثم قال: لله الأمر من قبل ومن بعد. وكانت وفاته في حادي عشر ربيع الأول سنة تسع وسبعون ومئة لتمام اثنين وعشرين يوماً من مرضه رحمه الله رحمة واسعة [2].

ومما جعل المغاربة يهتمون بمذهبه ويقدمونه على غيره أمور كثيرة نذكرها في الصفحات القادمة إن شاء الله تعالى وهناك مسألتان تحتاجان إلى توضيح وهما أن التعصب للرجال أمر لا يقره الدين، بل يحرمه ويمنعه، فنحن لا ندعوا للتعصب وإنما ندعوا إلى التمسك بالكتاب والسنة وعقيدة أهل السُنَّة والجماعة إجمالاً وتفصيلاً.

والأمر الثاني يجب أن نحترم العلماء والدعاة وأصحاب الفضل والسبق ونعلم كذلك أن الطعن فيهم لا يقدم الأمة ولا يوحد صفوفها ضد عدوها، كما أن لحوم العلماء مسمومة وسُنَّة الله في هتك منتقصهم معلومة فإني أحذر المسلمين من الإفراط والتفريط وأدعوهم إلى التوسط والاعتدال.

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء: ٨/١١٣–١٣٠.
(٢) انظر: سير أعلام النبلاء: ٨/١١٣–١٣٠.

المبحث الثالث

أسباب انتشار المذهب المالكي في الشمال الإفريقي

عزا الباحثون انتشار المذهب المالكي في الشمال الإفريقي إلى عدة أسباب منها:

﴿ ١ ﴾ شخصية صاحب المذهب نفسه، لما عرف عنه من تمسكه بالسُنَّة ومحاربة البدعة، وتشبثه التام بآثار الصحابة والتابعين واستجماعه أدوات الإمامة .... مما دفع الناس للاقتداء بمنهجه وطريقته في فهم الكتاب والسُنَّة فما من مسألة عرضت عليه، إلا التمس لها حلاً في الكتاب والسُنَّة ، فإن لم يجد ذهب إلى القياس الصحيح، فإذا لم يجد اعتذر من الإفتاء والحكم، واكتفى بجملته المحببة لديه: لا أدري. وللاثر الوارد في شأن عالم المدينة، الذي حمله بعض العلماء عليه، وهو قوله ﷺ: «**يوشك أن يضرب الناس أكباد الإبل فيطلب العلم، فلا يجدون عالماً أعلم من عالم المدينة**» [١] .

قال سفيان بن عيينة: كنا نسمع أهل المدينة يقولون إنه مالك بن أنس[٢] .

فمالك كان عند العلماء ثقة مأموناً ثبتاً فقيهاً ورعاً حجة عالماً وهذه الصفات هي التي حببته إلى الشمال الأفريقي، واكسبته ثقتهم، لما رجع طلابه يصفون فضله وسعة علمه، واستقامته وسيرته، وجلال قدره، ولذلك كان طلبة العلم يقطعون إليه آلاف الأميال يسألونه، ويأخذون عنه، فاتفقت آراؤهم مع آرائه، وأصبح المثل الأعلى لطلابه الذين تتلمذوا على يديه.

﴿ ٢ ﴾ ومنهم من يرد ذلك إلى ملائمة مذهبه لطبيعة المغاربة، ذلك أن المذهب

---

(١) انظر: تفاصيل هذه النقطة في المدارك للقاضي عياض: ١/ ٦٨ .

(٢) انظر: التمهيد لابن عبد البر: ٦/ ٣٥ .

المالكي مذهب عملي يعتد الواقع، ويأخذ بأعراف الناس، وعاداتهم، ففقهه عملي أكثر منه نظري، يتمشى مع طبيعة الفطرة في بساطتها ووضوحها، دون تكليف وتعقيد، وأهل الشمال الإفريقي يميلون بطبعهم إلى البساطة والوضوح ويفرون من النظريات المتطرفة، والتأويلات البعيدة المتكلفة [١].

واختيار المغاربة إذن لمذهب مالك، هو اختيار مذهب أهل السُّنَّة، وفقه الصحابة والتابعين، وهذا كان له تأثير خاص في نفوس المغاربة، ومن ثم كان فقهائهم يبايعون الأمراء على كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ، وبالإضافة إلى أن المدينة مصدر العلوم الإسلامية كلها، فيها نشأت ونضجت، ثم عنها تفرعت إلى بقية الأقطار الإسلامية الأخرى، والمدينة كما نعلم لها في نفوس أهل الشمال الإفريقي مكانة خاصة.

﴿ ٣ ﴾ وبعضهم يرجع سبب انتشار مذهب الإمام مالك في الشمال الإفريقي، لموقف الإمام سحنون المالكي الذي وقف موقف الإمام أحمد في مسألة خلق القرآن وقف ضد أمراء الاغالبة مما جعل الناس يميلون إلى مذهب الإمام سحنون الذي يعتبر من علماء المالكية في الشمال الإفريقي.

﴿ ٤ ﴾ ومنهم من يرد ذلك إلى موقف بعض السلاطين: إذ يذكر بعض المؤرخين أن مالكاً سأل بعض الأندلسيين عن سيرة ملك الأندلس، فوصف له سيرته قائلاً: أنه يأكل الشعير ويلبس الصوف، ويجاهد في سبيل الله، فقال مالك: ليت الله زين حرمنا بمثله فوصل الخبر إلى ملك الأندلس فحمل الناس على مذهبه، وترك مذهب الأوزاعي.

وذهب ابن حزم - رحمه الله - إلى أن قوة السلطان كان لها أثر في نشر المذهب المالكي في الاندلس وهذا رأي لا يقبل على إطلاقه.

---

(١) محاضرات في تاريخ المذهب المالكي، للدكتور عمر الجيدي: ٣٠.

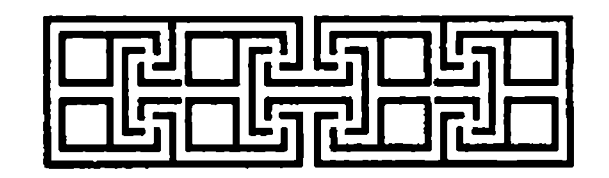
﴿ ٥ ﴾ تشابه البيئة في كل من الحجاز وبلاد المغرب وهذا الرأي ذهب إليه العلامة ابن خلدون الذي يرى أن البداوة كانت غالبة على أهل المغرب والأندلس ولم يكونوا يعانون الحضارة التي لأهل العراق، فكانوا إلى اهل الحجاز أميل لمناسبة البداوة، ولهذا لم يزل المذهب المالكي غضا عندهم ولم يأخذه تنقيح الحضارة وتهذيبها كما وقع في غيره من المذاهب [١] .

وهذا رأي مردود إذ لو صح السبب في أن البيئة تؤثر في اعتناق الناس لمذهب لحافظ المذهب المالكي على مكانته في الحجاز كما أن الأندلس ازدهرت فيها الحضارة ازدهاراً رائعاً جميلاً.

﴿ ٦ ﴾ وهناك سبب أخر يرى ابن خلدون – وهو محق في هذا – أنه كان عاملاً أساسياً في انتشار المذهب وهو: رحلة المغاربة إلى الحجاز غالباً [٢] .

﴿ ٧ ﴾ بعضهم ذهب لكون الأمويين في الأندلس والأدارسة في المغرب وغيرهم من أهل الشمال الإفريقي ضد تيار الخوارج الجارف لذلك عمل حكام هذين القطرين على ترسيخ مذهب مالك لإبطال مذهب الخوارج [٣] .

﴿ ٨ ﴾ قوة رجالات المذهب من الفقهاء فبقدر ما يكون أتباع المذهب أقوياء متضلعين في العلوم و لهم قدرة على استنباط الأحكام واستخراجها بقدر ما شاع المذهب وانتشر [٤] .



(١) مقدمة ابن خلدون: ٢٤٥.
(٢) المرجع السابق: ٢٤٥.
(٣) محاضرات في تاريخ المذهب المالكي: ٣٧–٣٨.
(٤) المرجع السابق.

المبحث الرابع
أصول مذهب الإمام مالك

عمد تلاميذ مالك إلى كتابة الموطأ واستخرجوا منه ما يصح أن يكون أصولاً لاستنباط الفروع، ويمكن إيجازها فيما يلي:

[١] القرآن الكريم:

كان مالك يرى أن القرآن الكريم قد اشتمل على كليات الشريعة، وأنه عمدة الدين، وآية الرسالة، ولم تكن نظرته إليه كنظرة الجدليين، فلم يخض فيما خاض فيه المتكلمون من أنه لفظ ومعنى، أو معنى فقط وهو عنده اللفظ والمعنى، كما هو إجماع من يعتد بهم من المسلمين، وروي أنه كان يقول: إن من يقول بأن القرآن مخلوق فهو زنديق يجب قتله، ولذا لم يعتبر الترجمة قرآناً يتلى تجوز به الصلاة، بل هي تفسير أو وجه من وجوه المعنى المعقول، وهو ياخذ بنص القرآن، وظاهره ومفهومه، ويعتبر العلة التي يأتي التنبيه عليها.

[٢] السُنّة:

ومالك من أئمة الحديث، كما أنه إمام في الفقه، ورجال الحديث يشهدون له بذلك، وهم يعتبرون سنده في بعض أحاديثه أصح الأسانيد، ويسميها المحدثون بالسلسلة الذهبية. ومع أن مالك يشدد في قبول الرواية إلا أنه كان يقبل المرسل من الأحاديث، ما دام رجاله ثقات، وفي موطئه كثير من المرسلات، ومن منقطع الإسناد ومن البلاغات التي يقول فيها مالك: بلغني أن رسول الله ﷺ قال كذا، وهذا يدل على أنه لم يلتزم الإسناد المتصل في أحاديثه كلها، وكان يكفيه أن يطمئن إلى صحة الحديث. وقد اختلفوا في تقديم القياس على خبر الواحد، والمشهور في ذلك أنه كان يقدم خبر الواحد على القياس .

[٣] عمل أهل المدينة :

ذهب مالك إلى أن المدينة هي دار الهجرة، وبها تنزل القرآن، وأقام رسول الله ﷺ وأقام صحابته، وأهل المدينة أعرف الناس بالتنزيل، ومما كان من بيان رسول الله ﷺ للوحي، وهذه ميزات ليست لغيرهم وعلى هذا فالحق لا يخرج عما يذهبون إليه فيكون عملهم حجة، يقدم على القياس وعلى خبر الواحد وفي كتاب الإمام مالك إلى الليث بن سعد : (إن الناس تبعٌ لأهل المدينة التي كانت إليها الهجرة وبها تنزل القرآن).

[٤] قول الصحابي :

ويرى مالك في مذهبه أنه إذ لم يرد حديث صحيح في المسألة عن النبي ﷺ فأن قول الصحابي إذا لم يعلم له مخالف، يكون حجة، وقد ضمن الموطأ العديد من أقوال الصحابة والتابعين، فالصحابة ﭫ أعلم بالتأويل وأعرف بالمقاصد، لأنهم حضروا التنزيل وسمعوا كلام رسول الله ﷺ، فقولهم أولى بالاخذ، يخص به العام، ويترك لأجله القياس. ولكن مالكاً يقدم عمل أهل المدينة على قول الصحابي، فقد روي في الموطأ أن عمر بن الخطاب «قرأ سجدة وهو على المنبر يوم الجمعة فنزل وسجد وسجد الناس معه ، ثم قرأها يوم الجمعة الأخرى فتهيأ الناس للسجود فقال : على رسلكم إن الله لم يكتبها علينا إلا أن نشاء، فلم يسجد، ومنعهم أن يسجدوا».

فعمر يجيز للإمام إذا شاء ان ينزل من على المنبر إذا قرأ سجدة ليسجد ، **ويعلق مالك عليه بقوله:** (ليس العمل على أن ينزل الإمام إذا قرأ السجدة من على المنبر فيسجد) وحين تتعدد أقوال الصحابة في المسألة الواحدة فإن مالكًا يختار منها ما يتفق مع عمل أهل المدينة.

يروى أن زيد بن ثابت قال: (الصلاة الوسطى صلاة الظهر) وإن علي بن أبي طالب وعبد الله بن عباس كانا يقولان : (الصلاة الوسطى : صلاة الصبح) ثم

يقول مالك وقول علي وابن عباس أحب ما سمعت ألي في ذلك .... كما روي عن عدد من الصحابة أن الصلاة الوسطى هى صلاة العصر .

[٥] المصالح المرسلة :

والعمل بالمصالح المرسلة أساس من الأسس التي اعتمد عليها مالك في مذهبه وهي : جلب منفعة أو دفع مضرة لم يشهد لها الشرع بإبطال ولا باعتبار معين، لأن تكاليف الشريعة ترجع إلي حفظ مقاصدها في الخلق، ضرورية كانت أم حاجية أو تحسينية والضرورية : هي التي لابد منها في قياس مصالح الدين والدنيا في الضروريات الخمسة الثابتة في الملل جميعاً وهي :

- حفظ الدين ، والنفس ، والعرض ، والمال ، والعقل .
- والحاجية : هي التي تؤدي إلى رفع الضيق والحرج والمشقة .
- والتحسينية : هي المتعلقة بمكارم الأخلاق : وكون هذه المعاني مقصودة عرف بأدلة كثيرة لا حصر لها من الكتاب والسنة مما يدل على مقاصد الشرع، ولذا ذهب مالك إلى أن هذه المصلحة تكون حجة .

واعتبر بعض الباحثين القول بالمصلحة من خصوصيات مذهب مالك وذكر الشاطبي في الاعتصام : أن مالكاً يذهب إلى اعتبارها، ويكثر من بناء الأحكام عليها ومن أمثلة عمل مالك بالمصالح المرسلة، ما قاله في الزعفران المغشوش إذا وجد بيد الذي غش ، حيث قال : أنه يتصدق به على المساكين قل أو كثر .

يقول الشاطبي ـ رحمه الله ـ : إنه يماثل إراقة عمر للبن المغشوش بالماء، ووجه ذلك التأديب للغاش، وهذا التأديب لا نص يشهد له، ولكن من باب الحكم على الخاصة لأجل العامة .

ومن ذلك إجازة بيعة المفضول مع وجود الأفضل إذا خيف إضطراب أمور الناس وعدم إقامة مصالحهم إذا لم يبايع المفضول عندئذ .

[٦] القياس:

حيث لا يوجد نص في كتاب أو سُنَّة ، أو قول صحابي ، أو إجماع من أهل المدينة فأن مالكاً كان يجتهد ويستعمل القياس في اجتهاد فقد جاء في الموطأ : سئل مالك عن الحائض تطهر فلا تجد ماء هل تتيمم؟ .

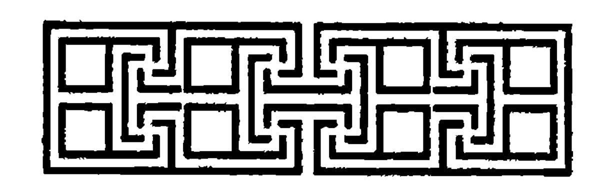
فمالك هنا يقيس الحائض حين تطهر على الجنب في التيمم، عند فقد الماء الذي ثبت بالنص القرآني في قوله تعالى: ﴿**أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا**﴾ [المائدة:٦] ولهذه المسألة نظائر في القياس عند مالك.

[٧] سد الذرائع :

الذرائع : جمع ذريعة ، عرفها القرافي في الفروق بأنها : هي الوسيلة إلى الشيء ، وعرفها الشاطبي في الموافقات بأنها : التذرع بفعل جائز إلى عمل غير جائز.

وعامة ما ورد في معناها يؤول إلى : ما كان ظاهره الإباحة ويتوصل به إلى فعل محظور والمراد بسد الذريعة، الحيلولة دونها، والمنع فيها، لأن ما يؤدي إلى المفسدة – وإن كان مباحاً – يكون مفسدة، فيجب الامتناع عنه، ودرء المفاسد مقدم على جلب المصالح.

وقد أكثر مالك إكثاراً شديداً من العمل بسد الذرائع حتى اعتبر بعض العلماء العمل بها من خصوصيات مذهبه، يقول الشاطبي في الاعتصام: وكان مالك رحمه الله شديد المبالغة في سد الذرائع (١) .



(١) التشريع والفقه في الإسلام، للشيخ مناع القطان: ٢٩١-٢٩٤ .

الفصل الثامن

دولة الأغالبة

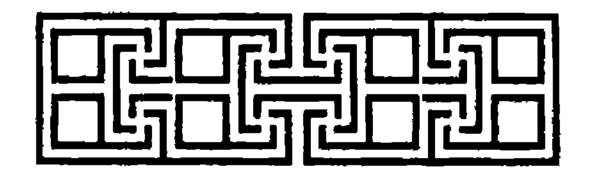
توطئة :

نظراً لكثرة الفتن والانتفاضات في إفريقية - كما تقدم - لم تجد حكومة الخلافة بدًّا من أن تعهد بحكم البلاد لعائلة من عرب إفريقية، تكفيهم مؤونة تلك الفتن التي طالما شغلتهم، ويكون لها حرية التصرف داخل البلاد، من التبعية لدولة الخلافة، فكان أن كلف الرشيد بهذه المهمة إبراهيم بن الأغلب بن سالم التميمي (١٨٤-١٩٦ هـ)، الذي كان يتمتع بشجاعة نادرة، وثقافة عالية، بالإضافة إلى معرفته بشئون إفريقية، فإن أباه الأغلب قد تولى حكم القيروان (١٤٨-١٥٠هـ) كما كان هو عاملاً على الزاب.

لقد دامت الدولة الأغلبية بإفريقية ما يزيد عن قرن من الزمان، يعتبر من أزهى عصور هذه البلاد في المجال العلمي، وفي مجال الحضارة والعمران والأمن والاستقرار، فقد تخلصت هذه الدولة من فتن الخوارج، حيث أسس الصفرية دولتهم بسجلماسة (١٤٠-٢٩٦هـ) وأسس الإباضية دولتهم بتيهرت الجديدة (١٦١-٢٩٧هـ) واهتمت كل من الدولتين بشئونها الداخلية، ومالتا إلى السلامة غالباً، إذا استثنينا بعض المحاولات الفاشلة التي لم تشكل خطراً على الأغالبة، إلا أن نوعاً آخر من الثورات عرفه العهد الأغلبي، وقد تمثل في الثورات المتتالية التي قام بها قادة الجند، الذين رأوا لأنفسهم حقاً في مشاطرة الأغالبة الحكم وكان منبت هذه الثورات في تونس غالباً، وأحياناً في طرابلس، وأخطرها ثورة عمران بن مجالد الربعي سنة ١٩٤هـ، وهو قائد إبراهيم بن الأغلب ووزيره، وقد تمكن من الاستيلاء على القيروان لمدة سنة كاملة قبل أن ينجح إبراهيم في إخماد ثورته، كما ثار على زيادة الله بن إبراهيم (٢٠١-٢٢٣هـ) كبير قادتهم

منصور بن نصر الطُّنبذي سنة ٢٠٩ هـ، وتمكن من السيطرة على معظم إفريقية واستولى قادة الجيش على المدن، ولم يتمكن زيادة الله من إعادة الأمور إلى نصابها إلا بعد أربعة أعوام سنة ٢١٣ هـ

وأما الثورات الأخرى فلم تكن ذات بال ، وبذلك تمكن أمراء الأغالبة من تمهيد البلاد، واهتموا بالغزو الخارجي ففتحوا صقلية (٢١٢هـ)ومالطة وسردينيا وسرقوسة (٢٦٤هـ)حتى وصلوا إلى روما، كما اعتنوا بالناحية العمرانية فأسسوا عدة مدن كالعباسية (١٨٥هـ)ورقادة (٢٦٣هـ)وبنوا المحارس والحصون وقصور الرباط ومراجل المياه [١] .



(١) مدرسة الحديث في القيروان: ١/٦٣-٦٤.

المبحث الأول
إبراهيم بن الأغلب

مؤسس الدولة الأغلبية هو إبراهيم بن الأغلب بن سالم بن عقال بن خفاجة التميمي، ووالده الأغلب الذي كان من جند مصر أصله من أهل مرو الروذ، بمعنى إنه كان من الجند الخراساني الذي وفد مع القوات العباسية إلى مصر، وأصبح من جندها (١) .

ودخل الأغلب إفريقية في قوات محمد بن الأشعث سنة ١٤٤هـ / ٧٦١ م ، وعهد إليه المنصور بولاية إفريقية في أواخر سنة ١٤٨هـأواخر ٧٦٥م ومات برمية سهم في سنة ١٥٠هـ، ٧٦٧م ، ولهذا عرف بـ الشهيد . وكان إبراهيم حين مات والده ابن عشر، وكان إبراهيم قد قضى صباه في الدرس والتحصيل بالفسطاط، وأنه كان يحضر مجالس فقيه مصر الأشهر الليث بن سعد ، وقد أعجب الليث بجد إبراهيم واجتهاده، وبما تميز به من الصفات حتى قال يوماً عنه : (ليكونن لهذا الفتي شأن) وعندما بلغ مبلغ الشباب دخل في جند مصر، وكان عليه أن يسير إلى المغرب مثل والده فشد رحاله إلى إفريقية تاركاً أهله بمصر (٢) .

وقال في ذلك شعراً ذاكراً فيه زوجته :

ما سرت ميلاً ولا جاوزت مرحلة ... ولا ذكرتك إلا بت مرتقبا

إلا وذكرك يثني دائماً عنقي ... أرعى النجوم كأن الموت معتنقي

وكان ماضي العزم، قوي الإرادة، صائب الرأي، شجاعاً مقداماً وعالماً وخطيباً، وشاع ذكره بين الناس، واتجهت إليه أنظارهم، وقد وقع عليه اختيار هارون

---

(١) تاريخ المغرب للدكتور سعد زغلول: ٢/٢٧-٢٨ .

(٢) المصدر السابق نفسه.

الرشيد فولاه الزاب . . . والزاب يطلق على عدة بلدان بجوار بسكرة، وكل منها يكون قرى متجاورة، فاضطلع بالأمر، وأحسن السيرة، ورضيته الكافة، واستقل بالولاية غير منازع وتوارثها بنوه خلفاً عن سلف وتولى ولاية إفريقيا بعد العكي بعد أن رفع أهالي إفريقيا رغبتهم إلى الرشيد في تعيين إبراهيم بن الأغلب فاستجاب الرشيد لهذه الرغبة وولى إبراهيم بن الأغلب، وقد اشترط إبراهيم لنفسه شروطاً أقره عليها الرشيد ونفذها له، **وهي ثلاثة شروط :**

أولاً : أن يستقل بإدارة شئون إفريقية الداخلية عن الخليفة.

ثانيا :،أن يتولى إمارة إفريقية ذريته من بعده (بطريق الوراثة) .

ثالثا : ألا يدفع الإعانة التي كانت تدفعها إفريقية لمصر، وقدرها مئة ألف دينار، واشترط على نفسه أن يدفع للخليفة خراجاً سنوياً قدره أربعون آلاف دينار، فوافقه الرشيد على ما طلب، وولاه أميراً على إفريقية في جمادى الآخرة سنة ١٨٤هـ وهو أول أمير من بني الأغلب على إفريقية، وأول من جعل إمارة إفريقية وراثية في ذريته في العهد الإسلامي.

بنى مدينة القصر سنة ١٨٥هـ على ثلاثة أميال من القيروان وسماها العباسية ولها الآن بقايا آثار تعرف بقصور الأغالبة، وفي هذه المدن كان سفيان بن أبي المهاجر عاملاً على طرابلس من مدة هرثمة فأقره إبراهيم بن الأغلب، ويظهر أن أهل طرابلس كانوا غير راضين عن سفيان بن أبي المهاجر فدبروا الثورة ضده وثاروا عليه سنة ١٨٩هـ بزعامة إبراهيم بن سفيان التميمي، وأخرجوه من داره وقتلوا أصحابه وأمنوه على أن يخرج من طرابلس فخرج [١] .

إبراهيم بن سفيان التميمي:

وولى أهل طرابلس عليهم إبراهيم بن سفيان التميمي، وما كان إبراهيم

---

(١) تاريخ الفتح العربي في ليبيا، الطاهر الزاوي: ٢٠٧.

الأغلب ليقر هذا العمل من أهل طرابلس فهاجم طرابلس واستولى عليها، وقبض على إبراهيم بن سفيان، فعاهده على الطاعة، فعفا عنه، وأقره على عمله بطرابلس [١] .

واستطاع إبراهيم بن الأغلب أن يقمع أهل الشر في الشمال الإفريقي ، وأن يضبط أهلها لمدة اثنتي عشرة سنة ، واشتهر بعدله وبحُسن سياسته ورفقه بالرعية .

وفاة إبراهيم بن الأغلب :

توفي في أواخر شوال سنة ١٩٦ هـأوائل يولية ٨١٢م وله من العمر ٥٦ (ستة وخمسون سنة) بعد ولاية استمرت أكثر من ١٢ سنة بدأت بعهد الرشيد إليه بإفريقية سنة ١٨٤هـ ٨٠٠م ، واستمرت بعد ذلك بإقرار الخليفة المأمون له في سنة ١٩٣ هـ ٨١٠م [٢] .

عبد الله بن إبراهيم الأغلب :

كنيته أبو العباس، ولاه والده على طرابلس سنة ١٩٦هـ، فثار به جندها فأخرجوه منها، ثم جمع لهم من انضم إليه من البربر وغيرهم، وأعاد الكرة عليهم فغلبهم واستولى على طرابلس، ولكن والده ما لبث أن عزله وولى بدله سفيان بن أبي المهاجر للمرة الثانية .

سفيان بن أبي المهاجر :

تولى ولاية طرابلس للمرة الثانية، إلا أنه في المرة الأولى كان معيناً من قبل هرثمة بن أعين، وكانت قبيلة هوارة البربرية قبيلة كبيرة الأفخاذ، ذات عدة وعداد وشوكة وقوة ومنعة، كانت منازلها مضروبة حول مدينة طرابلس، كانت

---

(١)المصدر السابق نفسه .

(٢)تاريخ المغرب العربي : ٢ / ٢٩.

تدين بالمذهب الإباضي وكانوا خاضعين لأبي المنصور صاحب جبل نفوسة الذي كان تابعاً لإمامة الإباضية بتيهرت وبعضها كان خاضعاً لحكم الأغالبة بمدينة طرابلس، وقد وقع بينهم وبين سفيان بن أبي المهاجر قتال وصراع وأصر الإباضية على نزع طرابلس وجَعْلها تابعة لصاحب جبل نفوسة ، فخرج إليهم سفيان بن أبي المهاجر بعسكره ، والتقى بجموعهم في وادي الرمل، فتغلبوا عليه ورجع الجند إلى طرابلس منهزمين ، فتبعه هوارة وحاصروا المدينة ثم اقتحموها فخربوها وهدموا أسوارها .

قال ابن خُلدون : (وتولى كبر ذلك منهم عياض ووهب وبلغ الخبر إبراهيم ابن الأغلب بتونس، فأرسل ابنه عبد الله في جيش كبير، فاسترد المدينة من هوارة وجدد السور . . .) ولم تهدأ ثائرة هوارة، وإزاء ما لاقوه من شدة عبد الله الأغلب فاستغاثوا بعبد الوهاب بن رستم إمام الإباضية بتيهرت، ولبى لهم طلبهم وحاصروا ابن الأغلب في المدنية وقد بذل كل جهده في الاحتفاظ بها، وفي أثناء الحصار قتل مهدي النفوسي .

وأثناء حصار عبد الله بن الأغلب في طرابلس بلغه وفاة أبيه إبراهيم فَصَالَحَ ابن رستم على أن تكون المدينة – داخل السور – والبحر لعبد الله الأغلب وخارج السور إلى سرت لعبد الوهاب بن رستم، وبهذا أصبحت جميع الأراضي الطرابلسية داخلة تحت حكم الإباضية ما عدا المدينة داخل السور قبضت تحت حكم عبد الله بن الأغلب [١] .

ولم يستقم أمر عبد الله بن الأغلب بعد أبيه لأنه كان سيء السلوك جائراً في الحكم، وقد وعظه بعض الأخيار من علماء زمانه فلم يتعظ، وكان المتكلم أمام الأمير عبد الله صالح إفريقيا وقتئذ حَفْصَ بنَ حميدٍ حيث قال : أيها الأمير اتق الله

(١) تاريخ الفتح العربي في ليبيا : ٢١٠-٢١١-٢١٢ .

في شبابك وارحم جمالك، واشفق على بدنك من النار، وطلب منه أن يخفف الضرائب على الرعية وأمره أن يأخذ فيهم بكتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ إلا أن الأمير أعرض صفحاً عن ذلك النصح الصادق فقال حفص عند رجوعه إلى مسكنه: قد يئسنا من المخلوق، فلا نيأس من الخالق، فاسألوا المولى وتضرعوا إليه في زوال ظلمه عن المسلمين فإن فتح في الدعاء، فقد أذن في الإجابة، وتوضئوا وساروا إلى مصلى دعوا الله بعد الصلاة أن يكف عن المسلمين جور أبي العباس، وأن يريحهم من أيامه فاستجاب الله دعاء الصالحين، وأصيب الأمير عبد الله بقرحة تحت إذنه لم يستطع أن يقاوم ضرها إلا لخمسة أيام فقط، كما غيرت لون بشرته البيضاء وكان من أجمل أهل زمانه حتي عندما كشفت عنه ثيابه للغسل، كان كأنه عبد أسود واعتبر الناس أن ذلك كان عقاباً من الله للأمير الظالم، وكانت وفاته سنة ٢٠١هـ من ستة ذي الحجة ٢٤ يونية ٨١٧م بعد ولاية لم تزد عن خمس سنوات إلا بشهرين [١].

قلت: والدعاء على الظلمة من المظلوم سلاح عظيم لو أحسن المسلمون استعماله، لفتحت لهم أبواب من الرحمة كثيرة، **قال الشاعر**:

اتهزأ بالدعاء وتزدريه ... سهام الليل لا تخطي ولكن
ولا تدري بما صنع الدعاء ... لها أجل وللأجل انقضاء

زيادة الله بن الأغلب:

هو زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب، وكنيته أبو محمد، وهو زيادة الله الأول اشتهر بكثرة الحروب ضد من شق عصا الطاعة عنه، تولى ولاية إفريقية في عهد المأمون بن الرشيد، وبويع له يوم الجمعة لسبع سنين بقين من ذي الحجة سنة ٢٠١هـ بعد وفاة أبيه بأيام، وجاءه التقليد من المأمون، وكان أعلم أهل بيته،

---

(١) تاريخ المغرب العربي: ٢/ ٤٢-٤٣.

فأحسن والده تربيته، وشغل مجلسه بالعلماء، فبرع في العربية وآدابها، وحظيت إفريقية في أيامه بحظ وافر من العمران حتى بلغ خراجها ثلاثة عشر ألف مليون من الدراهم، وقد ابتلي باللهو والإسراف في الملذات، فساءت سيرته مع جميع الناس حتى مع جنده فثاروا عليه في سنة ٢٠٢ هـ وهرب أخوه الأغلب إلى المشرق خوفاً منه.

وزيادة الله هذا هو الذي أسند قضاء إفريقية إلى أسد بن الفرات صاحب مالك ابن أنس، ولاه قيادة الجيش الذي أرسله لغزو صقلية، وفتحها سنة ٢٢٢هـ وفي صقلية يقول ابن حمديس:

ذكرت صقلية والهوى فإن كنت أخرجت من جنة
يهيج للنفس تذكارها فإني أحدث أخبارها

وضاق الناس ذرعاً باستهتار زيادة الله، وثارت عليه جميع النواحي، وتقلع حكمه عن إفريقية ما عدا طرابلس وقابس والقيروان فتمسكوا به ولم يقطعوا عنه الجباية، وكان يشعر بإسرافه في المعاصي فيسلي نفسه بقوله: (ما أبالي ما قدمت عليه يوم القيامة وفي صحيفتي أربع حسنات: بنيان جامع القيروان، وقنطرة أبي الربيع، وحصن مدينة سوسة، وولاية أحمد بن أبي محرز قضاء إفريقية) [1].

عفوه عن أعدائه:

وفي سنة ٢١٩هـ أعلن زيادة الله العفو عن كل من شارك في الخروج عليه في ذلك العام من أهل تونس وإفريقية فاستجاب له أهل المنطقة وركن الإقليم إلى الهدوء والسكينة، وكان من بين من استأمن عبد الرحمن وعلي ابنا أبي سلمة، وأبو العزاف وكانوا شعراء فصحاء، فمدحه عبد الرحمن بقصيدة ارتاح لها الأمير وعندما قام شاعر الأمير يعقوب بن يحيى، يحرضه على بني سلمة وأبي العزاف،

(١) تاريخ المغرب العربي في ليبيا: ٢١٤-٢١٥.

بأبيات يقول فيها :

تسمع أيها الملك المعان قوافي في معانيها البيان

يتم أمات من خضب العوالي وليس لشاعر أبداً أمان

لأن قوافي الأشعار تبقي على الأيام ما بقي الزمان

وقد يرجى لجرح السيف برء ولا برء لما جرح اللسان

فلم يلتفت إليه زيادة الله وأمضى لهم أمانهم [١] .

من شعر زيادة الله الذي وجهه إلى المأمون :

طلب الخليفة المأمون من زيادة الله أمراً فاستاء منه زيادة الله وأرسل:

أنا النار في أحجارها مستكنة فإن كنت ممن يقدح الزند فاقدح

أنا الليث يحمي غيله بزئيره فإن كنت كلباً حان موتك فانبح

أنا البحر في أمواجه وعبابه فإن كنت ممن يسبح البحر فاسبح

وعندما تنبه من سكره واستهول ما فعله فبعث في طلب الرسول، ولكن دون جدوى وحينئذ كتب خطاباً ثانياً يعتذر فيه عما قال [٢] .

أعماله :

صرف اهتمامه إلى إسناد المناصب إلى العلماء الأذكياء وإنشاء المصانع لصنع السفن في سوسة لاستئناف الفتوح في جنوب إيطاليا لم يكن زيادة الله ليغفل مراقبة الأحوال الجارية في البلاد الإيطالية فجهز جيوشاً للجهاد في صقلية وجنوب إيطاليا وفتح حصون صقلية وكانت لبني الأغلب من بعده صولات وجولات في تلك الديار الأوروبية ونشروا فيها الإسلام وأذلوا عُباد الصُّلبان، ونقلوا حضارة المسلمين إلى الذين انغمسوا في مستنقعات متعددة وصور مظلمة

---

(١) تاريخ المغرب العربي: ٢ / ٦٢.

(٢) المرجع السابق نفسه.

من الانحراف العقدي والانحلال الخلقي والانتكاس النفسي .

وفاته :

توفي زيادة الله يوم الثلاثاء الرابع عشر من رجب سنة ٢٢٣هـ، وعمره إحدى وخمسون سنة، ودامت ولايته إحدى وعشرين سنة وسبعة أشهر وثمانية أيام .

أولاً: الأغلب بن إبراهيم:

هو أخو زيادة الله الأول ، ولقبه أبو عقال ويقال له جزر . . تولى بعد أخيه زيادة الله ، وأبقى سفيان بن أبي المهاجر عاملاً على طرابلس وثارت عليه قبائل زواغة ولواته من بربر طرابلس وقتلوا سفيان بن أبي المهاجر عامله على طرابلس، وما زال بالثوار حتى تغلب عليهم، وكان حسن السيرة توفي ليلة الخميس لسبع بقين من ربيع الآخر سنة ٢٢٦هـ .

ثانياً: محمد بن الأغلب:

كنيته أبو العباس، ولي بعد أبيه أبي عقال، وهو الذي أسند قضاء إفريقية إلى الإمام سحنون سنة ٢٣٤هـ، وأسند قضاء طرابلس إلى شرحبيل وفي زمن غير معلوم أسند قضاؤها إلى أبي العباس بن بطريقة من أصحاب سحنون .

توفي محمد بن الأغلب لليلتين خلتا من المحرم سنة ٢٤٢هـ، ودامت ولايته خمس عشر سنة، وثمانية أشهر واثني عشر يوماً وعمره ست وثلاثون سنة .

ثالثاً: أحمد بن محمد بن الأغلب:

كنيته أبو إبراهيم، ولي إفريقية بعد وفاة أبيه سنة ٢٤٢هـ وكان حسن السيرة [1] .

رابعاً: عبد الله بن محمد الأغلب:

ولاه أخوه أحمد عاملاً على طرابلس، وفي سنة ٢٤٥ هـ ثارت برابرة طرابلس

---

(١) تاريخ الفتح العربي في ليبيا: ٢١٦-٢١٧.

على أحمد الأغلب، ومنعوا عنه العشور والصدقات التي كانوا يؤدونها وحاصروا أخاه عبد الله في طرابلس، فجلا عنها إلى لبدة وتحصن بها، وكاتب أخاه في القيروان، واتفقا على أن يرسل كل منهما جيشًا للإطباق على طرابلس من الشرق والغرب، وكان جيش القيروان بقيادة أخيهما زيادة الله، ووقع البربر بين جيشين، والتحم الفريقان في معركة كانت حامية دامية، فهزم البربر، وقتل منهم خلق كثير، وطاردتهم الخيل فقتلت من أدركته وأسر كثير منهم فضربت أعناقهم، واستولى على معسكراتهم فأذعن من أفلت منهم من الموت وقدم الطاعة.

وتوفي أحمد يوم الثلاثاء الثاني عشر من ذي القعدة سنة ٢٤٩ هـ وعمره ثمان وعشرون سنة ودامت ولايته سبع سنين، وعشرة أشهر وسبعة أيام.

خامساً: زيادة الله بن محمد الأغلب :

هو زيادة الله بن محمد الأغلب وهو زيادة الله الثاني تولى بعد أخيه أحمد وتوفي فيآخر ذي القعدة سنة ٢٥٠هـ ودامت ولايته عام وسبعة أيام ولم يكن له من الأعمال ما يستحق الذكر.

سادساً: محمد بن أحمد الأغلب :

هو أبو الغرانيق تولى بعد وفاة عمه زيادة الله، وكان جواداً إلى حد الإسراف، حسن السيرة ثم غلب عليه لهو الأمراء ولقب بأبي الغرانيق . . وهو نوع من الطيور - لشغفة بصيدها - فتح جزيرة مالطةسنة ٢٢٥هـ وأسر ملكها.

وعين محمد بن قهرب عاملاً على برقة . . وبنى حصوناً ومحارس كثيرة على ساحل البحر، على مسافة خمسة عشر يوماً من برقة إلى جهة الغرب وما زالت آثارها باقية إلى اليوم وقد احتفظت له الأيام بإطلاق اسمه على بئر شرقي اليهوديات بأرض سرت ما زالت تسمى أم الغرانيق، توفي فياليوم السابع من جمادى الأولى

سنة ٢٦١هـ ومدة ولايته عشر سنوات، وخمسة أشهر ونصف [١] .

سابعاً: ولاية إبراهيم بن الأغلب :

هو إبراهيم بن أحمد بن محمد الأغلب، وهو إبراهيم الأصغر، ولد يوم عيد الأضحى سنة ٢٣٠هـ، وتولى بعد أخيه أبي الغرانيق وكان أبو الغرانيق أوصى لابنة بالإمارة، وأن يكون أخوه إبراهيم وصياً عليه إلى أن يكبر، ولكن الناس طالبوا بإمارة إبراهيم لما عرفوا فيه من الحزم وحسن السيرة.

وفي أيام إبراهيم هذا غزا العباس بن أحمد بن طولون إفريقية لأخذها من الأغالبة، وقدذكر بعض المؤرخين أن برقة كانت سنة٢٦١هـ تابعة لأحمد بن طولون بمصر، وعليها محمد بن فرج الفرعاني عاملاً عليها من قبلة، فثار به أهلها في هذه السنة وأخرجوه منها ونقضوا عهد ابن طولون، فأرسل إليهم جيشاً مع غلامه لؤلؤ، وأمره بملاينتهم، فلم تفلح الملاينة، وأرسل إلى ابن طولون بخبرهم فأمره بالاشتداد عليهم، فضيق عليهم الحصار، ونصب عليهم المجانيق، فسلموا إليه، ودخل البلد، وقبض على جماعة من أهلها، وشرع في قتلهم، واستعمل عليهم أحد الموالي ورجع إلى مصر، وكان ذلك قبل خلاف العباس على أبيه.

وقد تقدم أن أبا الغرانيق بنى حصوناً ومحارس كثيرة على ساحل البحر على مسافة خمسة عشر يوماً من برقة الى جهة الغرب، ويفهم من هذا أن برقة كانت لأبي الغرانيق، وسيأتي أن ابن طولون افْتَكَّ برقة من ابن قهرب عامل الأغالبة فيها وهذا يتنافى مع أنها كانت تابعة لابن طولون اللهم إلا إذا كان يملك الجزء الشرقي من برقة فيما يلي الحدود المصرية ، وأن أبا الغرانيق كان يملك الجزء الغربي من برقة أجدابية وما ولاها .

---

(١) تاريخ الفتح العربي في ليبيا: ٢١٩-٢٣٠.

ثامناً : العباس بن أحمد بن طولون:

جاء العباس بن أحمد بن طولون من مصر سنة (٢٦٧ هـ) أيام إبراهيم بن الأغلب آنف الذكر إلى أفريقية لأخذها من الأغالبة .. ذلك أن العباس حصل بينه وبين والده أحمد ملك مصر نفور، وكان أبوه استخلفه على مصر لما توجه إلى حصار سيما بأنطاكية فانتهز فرصة غياب والده وأخذ ما في بيت مال مصر من الأموال، وما كان لأبيه من الآلات وغيرها ، وتوجه إلى برقة ، هذه رواية صاحب النجوم الزاهرة ونسب الواقعة إلى سنة (٢٦٥ هـ) .

وعندما وصل ابن طولون إلى برقة قاتل عامل الأغالبة ابن قهرب الذي فر إلى تونس، واستقر ابن طولون في برقة حتى رتب أموره وهيأ جنده وسار إلى طرابلس وكان ابن قهرب قد وصل إلى تونس وأخبر إبراهيم بن الأغلب بما حصل، فاستعد للقاء بن طولون، وجهز جيشاً من ألف وستمائة فارس خيلاً جرداً لا راجل معها بقيادة ابن قهرب وأدرك به طرابلس قبل أن يصلها ابن طولون، وجمع من جيشها وبربرها جيشاً وسبقه إلى لبدة .

ووصل ابن طولون في جيش جرار فالتقى به ابن قهرب شرقي لبدة بنحو ١٥كم وانجلت المعركة عن هزيمة ابن قهرب، وطاردته خيل ابن طولون إلى طرابلس فتحصن بها ولما مر ابن طولون بلبدة خرج إليه عاملها وأهلها وأكرموه ولكنه لم يرع حق هذا الإكرام، فأمر بنهبها فنهبت على غرة وقتل رجالها، وانتهكت حرماتها، وفي هذه المعركة .

يقول ابن طولون مفتخراً لظلمه للعباد:

لله دري إذ أعدوا على فرسي ... إلى اللقاء ونار الحرب تستعر

وفي يدي صارم أفري الرءوس به ... في حدة الموت لا يبقي ولا يذر

إن كنت سائلة عني وعن خبري ... فها أنا الليث والصمصامة الذكر

من آل طولون، أما إن سئلت فما فوقي لمفتخر بالجود مفتخر
لو كنت شاهدة كري بلبدة إذ بالسيف أضرب والهامات تبتدر
إذاً لشاهدت مني ما تناقله عني الأحاديث والأنباء والخبر

وحاصر ابن طولون طرابلس ثلاثة وأربعون يوماً لا يقدر منها على شيء ونصب عليها المجانيق، وقطع عليها السبل، وقد امتدت يد جند ابن طولون إلى البوادي الذين يسكنون خارج المدينة وكانوا من البربر الإباضية ومن أتباع إلياس أبي منصور النفوسي صاحب جبل نفوسة ، ونالوا من حرماتهم وأموالهم ، فاستغاثوا به من ظلم جيش ابن طولون .

تاسعاً : إلياس أبو منصور:

إلياس أبو منصور صاحب جبل نفوسة ورئيس الإباضية به، وهو من بلدة تندميرة، وكان غير خاضع لحكم الأغالبة، بل كان يدين بالطاعة لإمام الإباضية بتهيرت. وقد كتب إليه ابن طولون حينما كان يحاصر طرابلس: (أن أقبل بسمعك وطاعتك، وإلا وطئت بلدك بخيلي ورجلي، وأبحت حرمك). فرد عليه إلياس: (أما إنك أقرب الكفار مني وأحقهم بمجاهدتي، فقد بلغني من قبيح فعلك ما لا يسعني التخلف معه عن جهادك، وأنا على أثر رسالتي إليك). فجهز جيشاً من اثني عشر ألف مقاتل، والتقى بابن طولون في قصر حاتم سنة ٢٦٧ هـ فهزم ابن طولون، وتشتت شمله واستبيحت أمواله، وأخذ أهل طرابلس كل ما معه من مؤن وعتاد، ولم يأخذ البربر شيئاً من الغنائم، لأنهم يرون حرمة أموال الباغين الموحدين، ويستبيحون دمائهم ما داموا محاربين لهم، ولا يستبيحونها في حالة السلم. ورجع ابن طولون إلى المشرق مهيض الجناح محطم الآمال وأرسل إليه والده جيشاً في طلبه فتفرق عنه أصحابه ، وقبض عليه وأرسل إلى والده مقيداً.

وجاء إبراهيم بن الأغلب من تونس في جيش عظيم لملاقاة بن طولون فوجده قد انكسر جيشه ورجع إلىٰ المشرق. وبحث ابن الأغلب عن أموال ابن طولون فأخذها ممن وجدت عندهم وكان الجندي يبيع دنانير ابن طولون سراً بأي ثمن خوفاً من وجودها عنده.

وبعد أن انتهت حرب بن الأغلب مع ابن طولون، بقي ابن قهرب في طرابلس إلا أن البربر ما زالوا غير مطمئنين إلى حكم الأغالبة في طرابلس، وكان أكثر بواديها يدينون بالطاعة لحكم جبل نفوسة، فأعادوا الثورة على طرابلس سنة ٢٦٩ هـ وقتلوا ابن قهرب عامل الأغالبة واشترك في الثورة هوارة ولواته .

وقد أرسل إليهم إبراهيم بن الأغلب بن عبد الله في جيش، فتغلب عليهم وأمعن في قتلهم واستولى على طرابلس ولم يغير أحد باستيلاء البربر على طرابلس في هذه المرة وقد يفهم هذا من سياق الكلام،وأعادوا الثورة سنة ٢٨٠ هـ فهزموهم أيضاً. وفي رجب سنة ٢٨١ هـ، انتقل إبراهيم بن الأغلب إلى تونس للإقامة بها ولم ينس ابن الأغلب أعتداء ابن طولون عليه، فهو ما زال يفكر في الانتقام منه وقد اعتزم الأمر في غزوه في مصر وفي المحرم سنة ٢٨٣ هـ جهز جيشاً وخرج من تونس لعشر خلون من المحرم، فأقام برقادة إلى سبع بقين من صفر، ثم خرج يجمع من معه قاصداً غزو ابن طولون في مصر، ووصل إلى قابس في ربيع الأول، فاعترضته نفوسة في قصر مانو لتمنعه من الذهاب إلى ابن طولون.

ويبدو أن معارضة نفوسة لابن الأغلب ليست في مصلحتها في شيء، بل المصلحة في ذهابه لأنه سيذهب في جيش كبير يكلفه نفقات كبيرة، وهذا مما يضعف ابن الأغلب ويسهل على نفوسة الثورة عليه إن أرادوا ولذلك فقد عارض الفكرة كثيراً من أعيانهم منهم أفلح بن العباس، وسعد بن أبي يونس عامل قنطرارة – تيجي – ومعبد الجاوني، ولكن رجحت كفة الأكثرية وتجمعت جيوش البربر في قصر مانو، وهو قصر قديم على ساحل البحر بقرب قابس، وكانوا زهاء

عشرين ألفاً فهزمهم ابن الأغلب هزيمة منكرة، قال في الأزهار الرياضية : فتبعهم وقتلهم قتلاً ذريعاً، وتطارح منهم في البحر بشر كثير، وقتلهم فيه حتى غلبت حمرة الدم على الماء. ثم قال: وقد فل فيها حد سيوف نفوسة وفنيت فيها أبطالهم وأبقيت فيهم ثلمة عظيمة وهي المصيبة الكبرى التي تضعضع فيها ركن الإمامة بتيهرت إذ كانوا حصنها المنيع ولما ضعفوا أخذت في التقهقر وطمع الأعداء فيها حتى اضمحل أمرها، واستمر ابن الأغلب ماضياً في هدفه للانتقام من ابن طولون، فعرج على طرابلس، وكان بها ابن عمه أبو العباس محمد بن زيادة الله بن الأغلب فقتله وسبب ذلك أن المعتضد بالله العباسي كتب إلى إبراهيم يعنفه على أعماله في تونس وقال له إن لم تنته فسلم الأمر إلى محمد ابن عمك زيادة الله ، وقد رأى في هذا تهديداً له بابن عمه، فقتلة خوفاً أن يعزله المعتضد ويوليه مكانه: وسار ابراهيم في جيشه من طرابلس إلى تاورغه، وهناك قتل خمسة عشر رجلاً وأمر بطبخ رءؤسهم، وأظهر أنه يريد أكلها هو ومن معه فارتاع الجند لذلك، وقالوا إنه خولط في عقله ، فلما رأى ذلك خاف وانصرف الجند عنه فرجع إلى تونس.

وفي سنة (٢٨٩هـ) أرسل ابنه عبد الله لغزو إيطاليا، وبنى إبراهيم الحصون والمحارس على الساحل، حتى كانت النار توقد في سبته بالمغرب للإنذار بمجيء العدو، فتوقد في تلك الليلة بالإسكندرية وهو الذي أسند طرابلس إلى موسى بن عبد الرحمن أبي الأسود المعروف بالقطان، صحب محمد بن سحنون وسمع منه، وكان يحسن المسائل والتكلم في الرأى على مذهب مالك وأصحابه ، ولاه إبراهيم بن أحمد قضاء طرابلس فبقي وأذى ، فعزله وحبسه في الكنيسة دهراً ثم أطلقه .

وقد أصيب إبراهيم – بعد ستة أعوام من ولايته كان فيها مثال الاستقامة – بحالة عصبية جنونية أتى فيها أعمالاً لا تتفق مع العقل ولا مع الإنسانية، فكان

يكثر القتل في أقاربه، وأبنائه وأخواته وخدمه وأنصاره، فقد قتل ابنه بين يديه صبراً، وقتل ثمانية أخوة له ضربت أعناقهم بين يديه، وقد ولدت له بنات أخفتهن عنه أمه خوفاً عليهن من القتل، وربتهن من غير أن يشعر بوجودهن، حتى اجتمع عندها ست عشرة بنتا كأنهن البدور، وقد بان منه مرة انشراحاً في نفسه وهدوءاً في أعصابه، فرأت - لهذه المناسبة - أن تزيده سروراً وانشراحاً وظنت أن علمه بهؤلاء البنات خير وسيلة لذلك، فقالت له : يا سيدي لقد ربيت لك وصائف ملاحاً، وأحب أن تراهن فقال: نعم فأتت بهن له، وسمتهن له واحدة واحدة حتى عددتهن له، وبعد انتهاء المجلس أخذتهن معها وخرجت، وكان ثمن هذه المقابلة حياة هؤلاء الفتيات الستة عشرة ، فإن أمه ما كادت تغيب عنه ومعها البنات حتى قال لخادم له أسود - وكان بجواره - اذهب إليهن وائتني برءوسهن فبهت الخادم فراجعه فهدده بالقتل إن لم يفعل، فذهب الخادم بالخبر إلى أمه، فذهلت وكادت تصعق وأمرت الخادم أن يراجعه، فأفهمها ألا فائدة من المراجعة، فذهب إليهن الأسود وقتلهن الستة عشرة ، وأتى برءوسهن معلقة من شعورها، وطرحها بين يديه ولا ندري أي المجرمين أقسى من صاحبه قلباً: إبراهيم الذي قسا قلبه وتحجرت عواطفه ؟ أم ذلك الأسود الذي كان أقسى جلاد على أولئك الفتيات المظلومات؟ [١] .

قلت : وأفعال إبراهيم هذه تدل على جاهلية متأصلة في نفسه وأنه كان جباراً عنيداً ويذكرني بقول الله تعالى: ﴿ **وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ** ﴾ [النحل:٥٨-٥٩] .

توفي إبراهيم ليلة الثامن عشر من ذي القعدة سنة ٢٨٩ هـ وعمره اثنتان

---

(١) تاريخ الفتح العربي في ليبيا: ٢٢٧-٢٢٨.

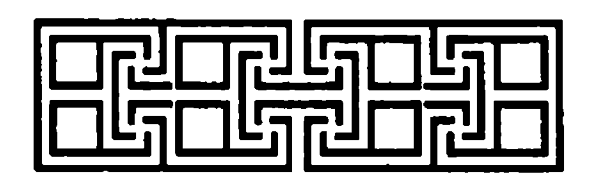
وأربعون سنة وكانت ولايته ٢٨ سنة وستة أشهر واثنا عشر يوماً [١] .

عاشراً: عبد الله بن إبراهيم الأغلب:

هو عبد الله الثاني، وكنيته أبو العباس، ولي بعد أبيه إبراهيم وكان شجاعاً عاقلاً، وفي سنة ٢٤٨ هـ - وفي حياة والده - خرج لمحاربة نفوسة، فقتل منهم كثيراً وأسر نحو ثلاثمائة، ولما رجع بهم إلى والده إبراهيم قتلهم عن أخرهم، وشق عن قلوبهم فأخرجها، وأخرج بعضها بيده ، ونظمت في حبال وعلقت على باب تونس.

قلت : وهذه الأفعال الشنيعة يرفضها الدين ولا تنسجم مع تعاليم الإسلام، وفيها انحراف شديد عن منهج الله، والله يعلم إنها لقسوة فظيعة.

وقتل عبد الله في شعبان سنة (٢٩٠هـ) غدر به الجند فقتلوه وهو نائم ويقال إن هذا الغدر بإيعاز من ابنه زيادة الله.



(١) المرجع السابق نفسه.

المبحث الثاني
العلامة الفقيه الزاهد
أبو حفص عبد الجبار بن خالد بن عمران السرتي

سمع من سحنون وأبي زكريا الحضري، وابن يجير، وحماد بن يحيي السجلماسي، وكان فقيهاً فاضلاً، زاهداً ثقة، طويل الصلاة وكان كثير الدعاء مجتهداً، ومن عقلاء الشمال الإفريقي وبلغ من العلم ما بلغه سحنون أو كاد إلا أن نفسه مالت للعبادة وفتح له فيها باب وكان كثير التلاوة للقرآن واشتغل بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وله في ذلك نوادر ومُلَح.

عبد الجبار مع شاب :

خرج عبد الجبار من داره يوم الجمعة إلى صلاة الجمعة فإذا شاب جميل له هيئة حسنة ولباس جميل، وقد اتبع صبية يمشي خلفها فلما رآها عبد الجبار شق عليه ذلك فاتكأ برجله على رجله الأخرى فقطع شسع نعله وصاح يا شاب؟ فالتفت إليه فمشى إليه عبد الجبار، فوقف الفتى وقال له: ما لك؟ ، قال قد كبر سني، وضعف بصري، وقد انقطع شسع نعلي فأصلحه لي؟ ، فأصلحه ثم نظر عبد الجبار إلى الصبية وقد أمسكت في مشيتها فأخذ من الشاب النعل، وأدخله في رجله وتمادى الشاب في أثر المرأة فقطع عبد الجبار شسع نعله مرة ثانية فقطعه، ثم صاح: يا شاب ! يا شاب ، وكانت لعبد الجبار مهابة عظيمة فعاد إليه الشاب، فقال له أصلح النعل يا مبارك، فأصلحه إصلاحاً شديداً أظنك ما أصلحته إلا وأنت مستعجل. فأخذه الشاب وأصلحه فعطف عبد الجبار عليه وقال: يا شاب أنا قطعت النعل المرة الأولى والثانية، وإنما فعلت ذلك إشفاقاً عليك ورحمة لك وخفت والله يا بني على هذا الشباب الصبيح من لهيب النار

وبكى عبد الجبار وبكى الشاب ثم قال له: جزاك الله خيراً فوالله لا عدت إلى ما كان مني أبداً، ثم صحب عبد الجبار إلى الجامع ثم تاب وحسنت توبته وإنابته وكان من فضلاء أهل وقته (١).

قلت: وللدعوة إلى الله أساليبها والموفق من وفقه الله، وما دخل الرفق في شيء إلا زانه.

أسلوبه في دعوة الأمراء إلى الخير:

ذكر صاحب المنهل العذب أن إبراهيم بن الأغلب طهر أولاده فمضى أهل العلم، والمشايخ، ومشايخ القيروان لتهنئته وكان ممن مضى إليه عبد الجبار بن خالد فلما أتى إلى الأمير أكبره وعظمه وسر برؤيته فأخرج إليه أولاده فدعا لهم وَبَرَّك عليهم ثم قال: أيها الأمير: هل علمت مقدار هذه النعمة التي أنعم الله عليك بها؟ أعطاك بنين مثل هؤلاء علمتهم كتاب الله، وأحييت بهم سنة رسول الله ﷺ، وقد بلغني عنك أنك بالغت فيما عملت من الطعام للأغنياء.

فقال له: أجل! فقال له عبد الجبار: لو استكملت هذه المرة بأن تذكر الفقراء؟ فقال صدقت: وبررت. ثم دعا بكيس فيه خمسمائة دينار، ودفعه إلى عبد الجبار وسأله أن يفرقه على الفقراء والمساكين؟، فأجابه عبد الجبار إلى ذلك فسر به الأمير وخرج معه إلى باب القصر، وقال: احملوا الشيخ على دابته. وقال: والله لا برحت حتى تركب فركب عبد الجبار والأمير قائم. فلما ركب واستوى دابته وأصلح الغلمان ثيابه وانصرف. التفت الأمير إلى كاتبه رجاء بن محمد فقال: يا رجاء رأيت ما أعقله وما أظرفه؟، أتعرف في رعيتي مثله؟ إنه قضى ذمامنا، وتعافى من طعامنا وأخرج مالنا فيما يرضينا.

---

(١) المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب: ١/٧٣-٧٦.

قلت: كما قال الشاعر القاضي الإمام الجرجاني:

ولم أبتذل في خدمة العلم مهجتي　　لأخدم من لقيت ولكن لأخدم
ولو أن أهل العلم صانوه صانهم　　ولو عظموه في النفوس لعظما

فتصدق عبد الجبار بالدنانير جميعاً على الفقراء والمساكين ولم يبق منها شيئاً.

من حكمه وأقواله:

كان يقول في الخلوة: كنت أخلو لأسلم، ثم صرت أخلو لأغنم، ثم صرت أخلو لأعلم، ثم صرت أخلو لأفهم، ثم صرت أخلو لأنعم.

ومن أقواله: من ترك رأيه، واتبع السُنن والآثار رجي له أن يلحق غداً بالأبرار، ومن اتبع رأيه وترك السُنن والآثار، خفت عليه غداً أن يكون مأواه النار، ومن قل كلامه قلت آثامه. ومن أقواله: الصوم عن الكلام أفضل من الصوم عن الطعام، ومن أقواله: من لزم لسانه؟ كثر في الدنيا والآخرة أمانه. وكان يقول: كل كلمة لم يتقدمها نظر، فالكلام فيها خطر، وإن كانت من أسباب النظر.

قلت: وحكمه لو شرحت لكتب فيها الكثير.

نظرته في بر الوالدين:

من البر ألا يمشي الرجل أمام والده ومن بره أن يمشي أمامه في الظلام، ومعنى ذلك أن كلامه عام مخصوص، فيمشي أمامه حيث الحاجة لذلك كظلام أو طين أو لص أو غير ذلك.

توفي سنة ٢٨١هـ ودفن بباب سلم وصلى عليه حمديس القطان، وكان عبد الجبار بن خالد وحمديس القطان يضرب بهما المثل في الفضل والدين بإفريقية [١].

---

(١) المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب: ١/ ٧٨-٧٩.

قلت : كما قال الشاعر القاضي الإمام الجرجاني :

ولم أبتذل في خدمة العلم مهجتي لأخدم من لقيت ولكن لأخدم

ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ولو عظموه في النفوس لعظما

فتصدق عبد الجبار بالدنانير جميعاً على الفقراء والمساكين ولم يبق منها شيئاً.

من حكمه وأقواله :

كان يقول في الخلوة: كنت أخلو لأسلم، ثم صرت أخلو لأغنم، ثم صرت أخلو لأعلم، ثم صرت أخلو لأفهم، ثم صرت أخلو لأنعم.

ومن أقواله: من ترك رأيه، واتبع السُنن والآثار رجي له أن يلحق غداً بالأبرار، ومن اتبع رأيه وترك السُنن والآثار ، خفت عليه غداً أن يكون مأواه النار، ومن قل كلامه قلت آثامه. ومن أقواله : الصوم عن الكلام أفضل من الصوم عن الطعام ، ومن أقواله: من لزم لسانه؟ كثر في الدنيا والآخرة أمانه .وكان يقول: كل كلمة لم يتقدمها نظر، فالكلام فيها خطر ، وإن كانت من أسباب النظر.

قلت: وحكمه لو شرحت لكتب فيها الكثير.

نظرته في بر الوالدين :

من البر ألا يمشي الرجل أمام والده ومن بره أن يمشي أمامه في الظلام، ومعنى ذلك أن كلامه عام مخصوص، فيمشي أمامه حيث الحاجة لذلك كظلام أو طين أو لص أو غير ذلك .

توفي سنة ٢٨١هـ ودفن بباب سلم وصلى عليه حمديس القطان، وكان عبد الجبار بن خالد وحمديس القطان يضرب بهما المثل في الفضل والدين بإفريقية [١] .

---

(١) المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب: ١ /٧٨-٧٩.

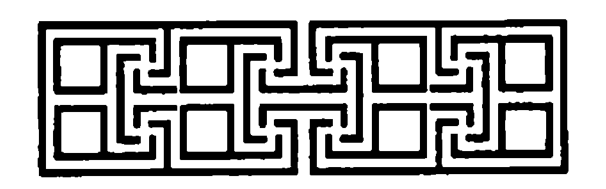
المبحث الثالث

ولاية زيادة الله بن عبد الله الأغلب

هو زيادة الله الثالث، وكنيته أبو مضر ولي الحكم بعد قتل أبيه في شعبان ٢٩٠هـ، واتخذ رقادة عاصمة لملكه، وعين أخاه أحمد عاملاً على طرابلس، ووقف في وجوه الثوار حتى تغلب عليهم، واقتصَّ من قتلة والده خوفاً من أن يقال إنه متواطئ معهم. وكان مسرفاً في اللهو والانغماس في الشهوات والملذات، واشتغل بما لا يفيد فكان ذلك سبباً في تغلب أعدائه عليه، وفي أيام زيادة الله هذا أراد الله زوال دولة الأغالبة فأصيبت في أيامه بالترف والانحلال . . وفي أيامه ظهر أبو عبد الله الداعي لدولة العبيديين وناصرته قبائل كتامة، فكان ما فيه زيادة الله من الانشغال واللهو والقعود عن واجبات الدولة من أقوى الأسباب التي مهدت لانتشار دعوة العبيديين وقد وقعت حروب بين الداعي وزيادة الله، كان أشدها واقعة الأربسي من أعمال الكاف بتونس وكانت الهزيمة فيها على زيادة الله، وقتل أكثر جنده، ولم يمكنه الصمود أمام هجمات الداعي، فجمع ماله وولده وهرب إلى مصر في ٢٦ من جمادى الآخرة سنة ٢٩٦هـ وترك إفريقية تندب حظها من إهماله وسوء أعماله، وأرسل إلى أخيه أحمد في طرابلس فأخذه معه إلى مصر، واحتل أبو عبد الله الشيعي رقادة غرة رجب ٢٩٦هـ واستولى على أكثر إفريقية، واستولى على مخلفات ابن الأغلب وكثير من الجواري على جانب كبير من الجمال، فسأل عمن كان يكفلهن فذكرت امرأة صالحة كانت لزيادة الله فأحضروها وأحسن إليها أمرها بحفظهن، ولم ينظر إلى واحدة منهن وأمر لهن بما يصلحهن هذا ما فعله أبو عبد الله الشيعي مع جواري ابن الأغلب.

أما عبد الله المهدي الزنديق زعيم الدولة العبيدية فإنه لما تسلم مقاليد الحكم

عرض جواري زيادة الله فاختار منهن كثيراً لنفسه ولولده وفرق ما بقي منهن على وجوه كتامة ، وكانت ولاية زيادة الله خمسة أعوام، وأحد عشر شهراً، وأربعة ايام، وبخروج زيادة الله من إفريقية انتهت دولة الأغالبة، وقد حكمت إفريقية مئة و إحدى عشرة سنة وثلاثة أشهر وتولى الحكم فيها أحد عشر أميراً، وأولهم مؤسسها إبراهيم بن الأغلب الأول، وأخرهم. زيادة الله الثالث، والملك لله يؤتيه من يشاء.



المبحث الرابع

أسد بن الفرات بن سنان [١]

من أشهر علماء دولة الأغالبة [٢]

مولى بني سليم أبو عبد الله (١٤٢-٢١٣ هـ على الصحيح) الفقيه المحدث، بلغ درجة الاجتهاد واسم الفقيه به ألصق رغم أن تلقيه للحديث كان أسبق وشيوخه فيه أكثر.

مولده ونشأته :

ولد أسد بحرَّان من ديار بكر سنة ١٤٢ هـ وقدم به والده إلى القيروان سنة ١٤٤هـ وكانت نشأته موزعة بينها وبين تونس، وقد حفظ القرآن في سن مبكرة إذ كان يُعلِّمُ القران وعمره أقل من ١٨ سنة.

طلبه للعلم ورحلته :

أخذ أسد بإفريقية عن علي بن زياد (ت ١٨٣هـ) حيث سمع الموطأ وتلقى عنه أصول مذهب مالك ثم رحل إلى المشرق سنة ١٧٢هـ، وعمره ثلاثون سنة، فأعاد سماع الموطأ على الإمام مالك، الذي لاحظ شغف أسد، وحرصه على الطلب فأمر بإدخاله مع المصريين - وهم الفوج الثاني - بعد أن كان يدخل مع بقية الناس في الفوج الثالث، أما الفوج الأول فهم أهل المدينة، ثم إن أسداً كأنه استقلَّ الموطأ فاستزاد مالكاً من السماع، فقال له : حسبك ما للناس، فخشي أسد أن يطول به الأمر ويفوته ما رغب فيه من لقي الرجال والرواية عنهم، فأكثر من

---

(١) لقد نقلت حرفياً سيرة أسد بن الفرات والإمام سحنون من مدرسة الحديث في القيروان، وأثبت المصادر والمراجع التي رجع إليها في بحثي كما هي.

(٢) راجع المدارك: ١/٤٦٥، وفيات الأعيان: ٣/١٨٢، سير أعلام النبلاء: ١٠/٢٢٥.

إلقاء المسائل على مالك حتى ضاق به وقال له: إذا أردت هذا فعليك بالعراق، فارتحل إلى العراق حيث لقي تلاميذ أبي حنيفة فتفقه منهم وتعلم أصول مذهبهم، كما كتب الحديث هناك عن هشيم، ويحيى بن أبي زائدة، وغيرهما كما سيأتي في شيوخه، ولم يكتفِ أسد في رحلته بالأخذ فقد حدث بالموطأ، سمعه منه أبو يوسف، ومحمد بن الحسن صاحبا أبي حنيفة، وقد لازم أسد محمد بن الحسن، فكان يسمع منه بالنهار مع الناس وجعل الليل لأسد وحده حتى أتى على ما أراد من السماع منه كما أنه زامله في رحلة الحج، واستفاد منه أثناءها استفادة كبرى [١].

وقد كتب أسد عن محمد بن الحسن مسائل عديدة بعد أن ناظره فيها على قياس مذهب مالك، كما ورد في الحلل وغيره. واستمر قيام أسد في رحلته هذه إلى العراق جامعاً بين طلب والفقه وأدائهما إلى سنة ١٧٩هـ حين وصل نبأ وفاة مالك إلى بغداد ورأى أسد إقبال الناس على كل من يحدث عن مالك، فسأل عن ذلك فقال له محمد بن الحسن: كان والله أمير المؤمنين في الآثار، قال عياض والشيرازي وغيرهما: فندم أسد على ما فاته من الأخذ عن مالك وجمع أمره على الانتقال إلى مذهبه، فقدم مصر وقال: إن كان فاتني لزوم مالك فلا يفوتني لزوم أصحابه [٢].

فرحل إلى مصر ولقي كبار أصحاب مالك بها مثل: عبد الله بن وهب، وأشهب، وعبد الله بن عبد الحكم، إلا أنه اختص بعبد الرحمن بن القاسم، الذي تجاوب معه فأعاد عليه المسائل التي كتبها عن محمد بن الحسن، ليجيبه عنها بقول مالك، فأجابه عن معظمها من حفظه، ولم يجزم في الجواب عن بعضها وقد بلغت ستين كتاباً، وهي المعروفة بالأسدية، ثم عاد أسد إلى

---

(١) المدارك: ١/٤٦٦، والرياض: ١/٢٨٥.

(٢) المدارك: ١/٤٦٦، طبقات الفقهاء: ١٥٥.

القيروان سنة ١٨١هـ [١] .

وقد حُقَّ لأسد بعد الرحلة العلمية الشاقة الحافلة بالفوائد والتي دامت عشر سنوات، تنقل فيها بين المدينه، ومكة وبغداد والكوفة والفسطاط في طلب العلم حق له أن يقول: ضربنا آباط الابل، واغتربنا في البلدان ولقينا العلماء وغيرنا إنما طلب العلم خلف كانون أبيه ووراء منسج أمه ويريدون أن يلحقوا بنا، كما قال المالكي وغيره [٢] .

شيوخه:

لقد كان أسد شغوفاً بطلب العلم حريصاً على لقي الرجال والراواية عنهم كما وصفته المصادر وكما أوضحته فيما تقدم، ولذلك كثر شيوخه كثرة ظاهرة، وفيما يلي أشهرهم:

- أبو بكر بن عياش (ت ١٩٤ هـ) محدث ثقة من العباد.
- أسد بن عمرو البجلي (ت ١٩٠ هـ) وهو فقيه محدث لا بأس به.
- أشهب بن عبد العزيز (ت ٢٠٤ هـ) محدث من الثقات.
- جرير بن عبد الحميد الضبي (ت ١٨٨ هـ) محدث من الثقات.
- عبد الرحمن بن القاسم العتقي (ت ١٩١ هـ) فقيه محدث ثقة مأمون من كبار أصحاب مالك.
- عبد الله بن وهب (ت ١٩٧ هـ) محدث حافظ فقيه من العباد.
- علي بن زياد التونسي (ت ١٨٣ هـ) فقيه بارع، ومحدث ثقة أول من أدخل الموطأ وجامع الثوري إلى إفريقية والمغرب.
- مالك بن أنس (ت ١٧٩ هـ) الإمام أمير المؤمنين في الحديث.

---

(١) الديباج: ٩٨، المدارك: ١/ ٤٨٠.
(٢) الرياض: ١/ ٢٦٧.

- محمد بن الحسن الشيباني ، أحد الفقهاء كان من بحور العلم في الفقه والحديث.
- هشيم بن بشير (ت ١٨٣ هـ) محدث ثقة ثبت [١] .
- يحيى بن زكريا بن أبي زائدة (ت ١٨٣ هـ) محدث ثقة متقن.
- يعقوب بن إبراهيم أبو يوسف القاضي (ت ١٨٢ هـ) صاحب أبي حنيفة من أتباع أهل الرأي للحديث.

وهكذا نلاحظ أن اغلب شيوخ أسد كانوا كبار المحدثين الثقات والفقهاء المتضلعين فلا عجب أن كان تلميذهم من بحور العلم.

علمه بالحديث والرجال :

إن المادة العلمية التى بين أيدينا تفيدنا أن أسداً كان من كبار المحدثين القرويين، وما تقدم عن طلبه للعلم يؤيد ذلك، إلا أن الباحثين لم يسبق لهم إبراز هذا الجانب، واكتفوا بالإشارة إلى علمه بالفقه ، حتى كادت تضيع شخصيته كمحدث، ولعل من أهم أسباب إغفالهم لهذا ما عرف عن أسد من الميل إلى المناظرة في الأحكام الشرعية، وإعمال الذهن وكثرة المساءلة كما مر، وكذلك لما جاء في بعض الكتب من وصفه بأنه حنفي المذهب، يميل إلى الرأي، هذا بالإضافة إلى عدم وجود من اعتنى بدراسة كافية في إبراز علم الحديث في إفريقية في هذه المرحلة.

ولكن الذي اتضح لي [٢] أن التكوين الحديثي أبرز من التكوين الفقهي في حياة أسد ، فقد ابتدأ حياته العلمية بسماع الموطأ من علي بن زياد (ت١٨٣ هـ) في سن مبكرة كما تقدم، ثم أعاد سماعه مباشرة من الإمام مالك، ولما رحل إلى

---

(١) انظر : المعالم: ٢ / ٥ ، اعلام ابن عاشور: ٢٦-٢٧.

(٢) الكلام لصاحب مدرسة الحديث في القيروان.

العراق كان في مستوى يؤهله لتدريس الحديث فأسمع بها الموطأ، وكتب الحديث عن أسد : ابن عمرو، وجرير بن عبد الحميد الضبي كما تقدم، وسمع منه هشيم اثني عشر ألف حديث، ومن يحيى بن زكريا بن أبي زائدة عشرين ألف حديث، وهؤلاء من المحدثين الأثبات كما تقدم، وكذلك فإن سماعه من محمد بن الحسن لم يقتصر على الفقه والرأي، فإن محمداً يُعد من كبار أهل الحديث كما يظهر من خلال شيوخه، ومن خلال كاتبي الآثار، والحجة في الرد على أهل المدينة بالإضافة إلى ما وصف به في المصادر من كثرة طلب الحديث واشتهار روايته للموطأ حتى اليوم (١) .

كما أن سماع أسد في مصر من أصحاب مالك يفترض أن يكون فيه حديث كثير، لأنهم من الرواة، وهذه الحصيلة الحديثية كافية لجعل أسد على قمة محدثي القيروان حيث أننا لا نكاد نعثر على من ظفر بمثل شيوخه، كثرة وحفظاً وإتقاناً وسعة في الرواية ومما يدل على علم أسد بالرجال وتتبعه للأسانيد قوله : أهل الكوفة إذا أرسلوا في الرواية عن عبد الله فهو ابن مسعود، وأهل المدينة إذ أرسلوا عن عبد الله فهو ابن عمر . كما في الرياض، وهذا الخبر وإن كان يتيماً في بابه إلا أنه يشعرنا بمدى إتقان أسد لإطلاقات القوم ، وما درجوا عليه في أسانيدهم من التسميات ولا شك أنه كان يُعلِّم ذلك لطلابه حتى أنتقل إلينا .

أما قلة الآثار في الأسدية : فلا يقدح في علم أسد بالحديث، لأن الأسدية ليست كل علم أسد، ثم أن تصنيفها قد خضع لظروف خاصة ، حيث كانت بدايتها مناظرات بينه وبين محمد بن الحسن، ثم سأل عنها ابن القاسم وأراد شيئاً محدداً وقول مالك فيها، وهو طلب معقول إذ ليس من اليسير على ابن القاسم وهو يجب عنها مشافهة من حفظه أن يستحضر دليل أكثر من ثلاثين ألف مسألة

---

(١) انظر : عن جانبه الحديثي مقدمة كتابه الآثار : ١٢ وما بعدها.

اشتملت عليه الأسدية [١] .

توثيقه :

أسد بن فرات إمام من أئمة المسلمين، بلغ درجة الاجتهاد واستفاضت شهرته، وشاعت إمامته، وقد وسمه الذهبي في سير أعلام النبلاء بقوله : (الأمام العلامة القاضي الأمير) [٢] .

وقال أبو العرب :

(كان ثقة لم يكن فيه شيء من البدع) وقال صاحب الشجرة : (الفقيه الحافظ، الراوية ، الثقة الأمين) .

أثره العلمي والحديثي في القيروان وتلاميذه :

عاد أسد إلى القيروان بعلم جم في الحديث والفقه وغيرهما، وجلس للتدريس بجامع عقبة، فأقبل عليه الطلاب ورحلوا إليه من أطراف إفريقية والمغرب والأندلس،واشتهر أمره، وظهر علمه،وارتفع قدره، وانتشرت إمامته، حتى أن الأسئلة كانت ترد عليه من خارج القيروان وكان ربما أجاب عنها كتابة) [٣] .

وقد أقبل حال عودته على رواية الموطأ وغيره من حديثه ولم يكتفي بمجرد الإسماع، بل كان له مجلس يفسر فيه الحديث كما يستفاد من عدة نصوص في المعالم، والرياض والمدارك وغيرها .

كما أخذ عنه الناس الأسدية وشاعت روايتها قبل ظهور المدونة ومن الكتب التي أدخلها أسد ورواها في القيروان سماع بن القاسم من مالك وكتاب المبسوط لمحمد بن الحسن، وحمل عنه معظم أهل المغرب مروياته حتى كانت كتبه تروى

---

(١) انظر : ط الفقهاء : ١٥٦، المدارك : ١ / ٤٦٩ .

(٢) سير أعلام النبلاء : ١٠ / ٢٢٥ .

(٣) الرياض : ١ / ٢٥٥ .

بالأندلس وكثر أصحابه حتى عدوا بالعشرات وأصبح عالم القيروان بلا منازع، قال محمد بن سحنون: (وحصلت له بتلك الكتب رئاسة في القيروان كما في الرياض والمدارك وغيرها).

وقد عرف أسد بنشره للسُنَّة ومنافحته عنها خارج حدود إفريقية فقد أرسل له أسد السُنَّة (ت ٢١٢ هـ) من مصر رسالة طويلة يشكره فيها على اتباع السُنَّة والذب عنها ويدعوه إلى نشرها، واتخاذ أتباع يقومون مقامه بعد وفاته وقد كانت هذه الرسالة تروى بالأندلس، ولا شك أنها كانت تروى بالقيروان من باب أولى، ولم يكن علم أسد قاصراً على رواية الحديث والفقه، بل كان يلقي التفسير أيضاً، إذ كان يسمع الطلاب تفسير المسيب بن شريك (ت ١٨٦ هـ) وله مجالس في ذلك ولا شك أن هذا الكتاب مما أدخله أسد معه لأن المسيب من شيوخه كما في طبقات أبي العرب وغيره [١].

ولم يكن أسد في دروسه يتقيد بكتب مذهب دون أخر، وإنما قام بنشر علم المذهبين لسعة علمه فيهما، فكثير من تلاميذه من المالكية والأحناف على السواء ومن أشهرهم الأمام سحنون بن سعيد، وأبو سنان زيد بن سنان الأسدي من المالكية، ومعمر بن منصور، ومحمد بن قادم، وسليمان بن عمران من الأحناف. وقد تقدم أنه كان له أثر علمي أثناء رحلته في المشرق حيث حدث في العراق بالموطأ وناظر بعض علمائها.

مذهبه وعقيدته:

لقد اختلف المصنفون في هذه المسألة فمنهم من اعتبره مدون مذهب مالك وناشره في المغرب، ومنهم من اعتبره إمام الأحناف في القيروان، وقد تبين لي بعد البحث والنظر أنه كان في البداية مالكياً، ثم انتقل إلى طريقة الأحناف في الفترة

---

(١) طبقات ابي العرب: ٥/١٦٤.

الطويلة التى بقيها في العراق، ثم عاد إلى المذهب المالكي بعد وفاة مالك، وأعاد صياغة مسائله لمحمد بن الحسن على فقه مالك بسؤاله لابن القاسم كما ألمحت إلى ذلك .

ثم بعد ذلك بلغ أسد درجة الاجتهاد، فلم يكن يلتزم رأي واحد من المذهبين، إنما يعمل ويفتي بما يوصله إليه اجتهاده بناء على الدليل، وأصدق كلمة قيلت فيه فيما بين يدي من المصادر هي قول المالكي [١] :

(والمشهور عن أسد أنه كان يلتزم من أقوال أهل المدينة وأهل العراق ما وافق الحق عنده، ويحق له ذلك لاستبحاره في العلوم، وبحثه عنها، وكثرة من لقي من العلماء والمحدثين)، ولذلك نجده ينشر علوم المذهبين فقد ورد في الرياض وغيره: (إن أسداً إذا سرد أقوال العراقيين، يقول مشايخ كانوا يجالسونه ممن يذهب مذهب أهل المدينة. أوقد القنديل الثاني يا أبا عبد الله) فيسرد أقوال المدنيين، وكان أسد من أكبر أسباب شيوع علم الأحناف في القيروان لكثرة ملازمته لأصحاب أبي حنيفة، فلم يسبق أن دخل القيروان من تضلع في مذهبهم مثله، وإن كانت بذور المذهب قد وجدت قديماً على يد عبد الله بن فروخ (ت ١٧٥ هـ) كما مر في التمهيد، ولذلك أقبل الأحناف على مجالسه وتتلمذوا عليه وعدوه إمامهم، خاصة وأن إعراض الناس عن الأسدية قد دفعه لإسماع كتب الأحناف بعد شيوع المدونة. وقد وردت عدة نصوص في الرياض والمعالم والمدارك تفيد أن أسداً كان يشير على من يستنصحه باتباع مذهب مالك [٢] .

أما من الناحية العقائدية فقد كان كما قال المالكي وغيره: (دينه ومذهبه السُنَّة يقول القرآن كلام الله ليس بمخلوق ، وكان يبدِّع من يقول غير ذلك ،وكان

---

(١) الرياض: ١ / ٢٦٣ .
(٢) **انظر** : مثلاً : المدارك٣ / ٩٧ ، سير أعلام النبلاء: ١٠ / ٢٢٥ .

يقول إن الله على العرش استوى بلا كيف، ويرى في الأخرة كيف يشاء لا كما يشاء العباد، ويكفر من يمنع ذلك).

أسد في القضاء وإمارة الجيش :

تولى أسد قضاء قيروان سنة ٢٠٣ هـ مشتركاً في ذلك مع أبي محرز القاضي (ت ٢١٤ هـ) وهما أول قاضيين اشتركا في هذا المنصب فسار في الناس بالعدل، واستمر فيه إلى سنة ٢١٢ هـ ، حين عُين أميراً على غزوة صقلية ففتح أكثرها وبنى فيها مسجداً وله بها مقامات مشهورة، وتوفي هناك سنة ٢١٣ هـ .

مؤلفاته :

له كتاب الأسدية : وهو مجموعة المسائل التي دونها عن محمد بن الحسن بعد أن ناظره فيها، ثم سأل عنها ابن القاسم فأجابه عن أغلبها بقول مالك من حفظه، وما لم يتأكد منقول مالك فيه، قال: أظن وأخال وهي ستون كتاباً، توجد منها أجزاء في مكتبة جامع القيروان [١] .

وقد أعاد سحنون سماعها على ابن القاسم وحذف منها أظن وأخال ونحوهما ورتبها وذيلها بالأثار وسميت المدونة فمال الناس إليها وهجروا الأسدية [٢] .

من حديثه :

أسد عن مالك عن سهيل عن أبي صالح عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: **«تفتح أبواب الجنة يوم الاثنين ويوم الخميس فيغفر لكل عبد لا يشرك بالله شيئاً إلا رجلاً كانت بينه وبين أخيه شحناء، فيقال :انظروا هذين حتي يصطلحا»**[٣] .

---

(١) انظر : المكتبة الأثرية : ٣٨ .

(٢) انظر : التعريف بالمدونة في المصنفات.

(٣) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه من طريق مالك بلفظه، باب النهي عن الشحناء : ٤ /١٩٨٧-٢٥٦٥، وأخرجه الترمذي بنحوه في كتاب البر، وجاء في ا لمتهاجر من: ٤ /٣٧٣ /٢٠٢٣ ، وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح ، وأخرجه أبو داود بنحوه في كتاب الأدب، باب فيمن يهجر أخاه : ٥ /٢١٦ /٤٩١٦ ، ويلتقي حديث الترمذي وأبي داود مع حديثنا في سهيل بن أبي صالح.

المبحث الخامس

سحنون بن سعيد بن حبيب التنوخي

أبو سعيد الإمام (١٦٠-٢٤٠هـ)

اسمه عبد السلام، ولقب بسحنون [١] وهو اسم طائر في المغرب، لحدة ذهنه وذكائه، أصله من عرب الشام، قدم به أبوه مع جند حمص. وهو إمام أهل إفريقية والمغرب بلا منازع، فقيه محدث قاض مُفْت حمل لواء أهل السنة والجماعة بتلك الربوع وقاوم البدع، ودون مذهب مالك ونشره مع زهد وورع وتعفف وكثرة صدقه ومعروف وهو أحد الآحاد. والإمام سحنون غلب عليه اسم الفقيه والتصق به، وأغفل الجانب الحديثي عنده رغم تضلعه فيه واهتمامه به وكثرة شيوخه فيه كما سيأتي.

طلبه العلم ورحلته :

أقبل سحنون على طلب العلم في سن مبكرة وسرعان ما نبغ فيه، وتوسم فيه شيوخه النجابة وإخلاص الطلب لله عز وجل، وقد سمع الحديث والفقه من جلة شيوخ عصره بالقيروان مثل معاوية الصمادحي المحدث (ت ١٩٩ هـ) والبهلول بن راشد (ت ١٨٣ هـ) الجامع بين الفقه والحديث وأسد بن فرات (ت ٢١٣ هـ) وابن غانم (ت ١٩٠هـ) وغيرهم، ورحل إلى تونس عدة مرات فسمع الموطأ من علي بن زياد، وتعلم عليه أصول مذهب مالك وكان يختلف إليه كلما وجد نفقة وكان البهلول بن راشد المحدث الزاهد التقي قد تفرس في سحنون الإخلاص،والحرص على الطلب فكتب إلى علي بن زياد كتاباً يوصيه فيه بسحنون،ومما جاء فيه :(إني إنما أكتب إليك في رجل يطلب العلم لله عز وجل).

---

(١) التمهيد: ١/ ٩٦، تاريخ المغرب العربي: ٢/ ٨٦.

قال المالكي : (فلما قرأه قال لسحنون أين نزلت؟ فأخبره، قال أخذ علي بن زياد الموطأ فأتى به إلى سحنون ليسمعه في موضعه الذي نزل به وقال إن أخي - يعني البهلول - كتب إلي يعلمني أنك إنما تطلب العلم لله تعالى [١] .

كما سمع بتونس الحديث من عبد الملك بن أبي كريمة المحدث، وأخذ الفقه عن أبي مسعود بن أشرس التونسي صاحب الإمام مالك. وبعد أن تلقى سحنون عن أكثر من اثني عشر شخصاً من كبار علماء إفريقية - كما سيأتي - رحل إلى المشرق للأخذ عن علمائه، ويلاحظ الباحث أن هناك اضطراباً في المصادر فيما يتعلق برحلة سحنون إلى الشرق، فأكثر المصادر على أنه ارتحل سنة ١٨٨ هـ وعاد سنة ١٩١ هـ وبعض من أورد هذا التاريخ أورد أيضاً عن سحنون أنه قال : (خرجت إلى ابن القاسم وأنا ابن خمس وعشرين سنة وقدمت إفريقية ابن ثلاثين سنة) [٢] .

وهذا لا يستقيم مع التواريخ المذكورة،ونظرا لثبوت عودة سحنون سنة١٩١هـ وهذه السنة التى توفي فيها ابن القاسم، وقد سمع منه فيها أهل أجدابية، كما صرح بعد ذلك سحنون نفسه، فإن تاريخ الخروج يكون غير ما ورد في المصادر، خاصة وقد ذكر عياض : أنه سمع ممن توفي قبل سنة ١٨٨ هـ فإذا جمعنا بين هذا القول وبين ما ورد عن سحنون من أن رحلته دامت خمس سنوات نقول بأن تاريخ خروجه كان سنة ١٨٦ هـ أو السنة التي تليها، وقد ورد عن محمد بن سحنون، وهو العالم بأحوال والده، أن سحنون ارتحل سنة ١٧٨ هـ ، في حياة مالك، كما ورد عن سحنون نفسه أنه قال : (كنت عند ابن القاسم وجوابات مالك ترد عليه) فقيل له : فما منعك من السماع منه؟ قال قلة الدراهم [٣] .

---

(١) الرياض : ١ / ٣٥٠ .
(٢) انظر مثلاً : المدارك : ١ /٥٨٧ ، الديباج : ١٦١ .
(٣) انظر : وفيات الأعيان : ٣ / ١٨٠ ، الديباج : ١٦٠ .

وبناء على هذا يكون لسحنون رحلتان إلى المشرق ، وكانت أولاهما سنة ١٧٨ هـ ولم يتجاوز فيها مصر لعدم وجود ما يكفيه من النفقة كما تقدم وكان عمره إذ ذاك ١٨ سنة، ولا نعلم الزمن الذي استغرقته هذه الرحلة ، ويستبعد أن تكون قد طالت، أما رحلته الثانية - والتي استمرت خمس سنوات - فكانت بين سنتي (١٨٦ - ١٩١ هـ) وقصد سحنون في رحلته مصر، فسمع بها من كبار المحدثين والفقهاء، ولقي كبار أصحاب مالك فقد أعاد سماع الموطأ على ابن القاسم، وابن وهب وسمع من ابن وهب جميع كتبه: الجامع وغيره، إلا المغازي فقد أخذها عنه إجازة، فكان بعد ذلك يقول: كادت تفوتني كتب ابن وهب، وبالله ما تشتري بكتاب منها الدنيا وما فيها وما عميت عن مسألة قط إلا وجدت فرجها في كتب ابن وهب [١] .

وسمع من أشهب حديثاً كثيراً أخرجه في المدونة عندما ذيلها بالآثار، كما أخذ عنه كتب الحج، وغيرها في الفقه، وسمع من غيرهما من شيوخ مصر، كما سيأتي في شيوخه، غير أن اختصاصه كان بابن القاسم: تفقه به وأعاد عليه سماع الأسدية، وكان لا يكاد يفارقه [٢] .

وبعد أن أدرك سحنون غرضه من أهل مصر رحل إلى الحجاز ورافق في رحلته أشهب وابن وهب وابن قاسم، وكانت سفرة علمية عجيبة، استفاد فيها سحنون من هؤلاء العلماء أيما استفادة، فقد كانوا يلقون العلم ويتحاورون فيه، وهم على دوابهم، فإذا نزلوا أمضى سحنون وقت نزوله في القراءة على ابن القاسم، فإذا جاء الليل قرنوا أقدامهم للصلاة قال سحنون عن هذه الرحلة: كنا نمشي بالنهار، ونلقي المسائل ونحن مشاة، وقال: فكنت إذا نزلت ذهبت إلى ابن القاسم أسأله من الكتب وأقرأ عليه إلى قرب وقت الرحيل. وقال فإذا كان الليل ونزلت الرفقة

---

(١) انظر مثلاً: الرياض: ١/ ٣٧٣، المكتبة الأثرية: ٣٤، ٣٩، ٤٠، مناقب أبي إسحاق: ٥٥ .

(٢) لا يكاد مصدر يخلو من الإشارة إلى ذلك، راجع المصادر المثبتة في أول ترجمة .

قام كل واحد إلى حزبه من الصلاة [١].

وسمع سحنون بالمدينة المنورة من جماعة من المحدثين والفقهاء، منهم أنس بن عياض الليثي، والمغيرة بن عبد الرحمن بن أبي ربيعة، وابن الماجشون وغيرهم كما سمع في مكة المكرمة من كبار المحدثين كسفيان بن عيينة له عنه من الحديث سماع سنتين وعبد الرحمن بن مهدي ووكيع وغيرهم، وسمع بالشام من محدثيها: الوليد بن مسلم وغيره كما سمع من جماعة من أهل الكوفة والبصرة، كأبي داود الطيالسي صاحب المسند، وحفص بن غياث القاضي وغيرهما، ولم تذكر المصادر دخوله إلى العراق فلعله التقى بهم في أحد الحرمين.

ولقد جمع سحنون في رحلته علماً عظيماً، واستقصى فيها جميع أثار مالك، وكبار الرواة حتى أنه قال لابنه محمد عندما أراد أن يرحل إلى المشرق: إنك تقدم طرابلس وكان فيها رجال مدنيون ومصريون بها الرواة، والمدينة وهي عش مالك ثم تقدم مكة فاجتهد جهدك فإن قدمت علي بلفظة خرجت من دماغ مالك ليس عند شيخك أصلها فاعلم أن شيخك كان مفرطاً [٢].

شيوخه:

لقد تعدد شيوخ سحنون والتقى من كل بلد بكبارها وأكثر شيوخه من أهل الحديث وقد عرف من شيوخه الأفارقة اثنا عشر رجلاً تسعة منهم من أهل القيروان وثلاثة من أهل تونس فأما القرويون منهم:

- أسد بن الفرات (ت ٢١٣ هـ) البهلول بن راشد (ت ١٨٣ هـ) عبد الله بن أبي حسان (ت ٢٢٦ هـ) وهو محدث فقيه لغوي من الرواة عن مالك، شقران بن علي (ت ١٨٦ هـ) كان عالماً بالفرائض وهو من الثقات، عنبسة بن خارجة

---

(١) انظر: الرياض: ١/٣٤٩، المدارك: ١/٥٨٨.

(٢) الرياض: ١/٣٥٣، المدارك: ٢/٥٢١، المعالم: ٢/٨٣، إلا أنه في الرياض عن سليمان بن سالم بدل محمد ابن سحنون.

(ت ٢١٠ هـ) وهو محدث فقيه من تلاميذ مالك وله عنه سماع مدون معاوية ابن الفصل الصمادحي (ت ١٩٩ هـ) وهو من ثقات محدثي القيروان معدود في شيوخها عبد الله بن عمر بن غانم (ت ١٩٠ هـ) محدث فقيه روى الموطأ عن مالك إبراهيم بن زرعة الرغيني (ت ٢١٢ هـ) وهو أندلسي نزل القيروان وعده أبو العرب من ثقات شيوخها، وحبيب أخو سحنون وهو من الثقات، جُلُ شيوخه من المحدثين ولقد لحق عبد الرحمن بن زياد وسمع عنه (١) .

■ **وأما أهل تونس فهم**: علي بن زياد (ت ١٨٣ هـ) وهو محدث، فقيه وكان أول من أدخل الموطأ وجامع الثوري إلى إفريقية أبو مسعود بن أشرس، وهو محدث فقيه، ثقة، سمع من مالك وعبد الله بن أبي كريمة (ت ٢١٠ هـ) وهو محدث ثقة، عابد (٢) .

■ **أما شيوخه من أهل المشرق**: فقد عثرت منهم على ثلاثة وعشرين رجلاً منتشرين في مختلف المصادر، وهم من كبار علماء زمانهم في الفقه والحديث.

[١] أشهب بن عبد العزيز القيسي (ت ٢٠٤ هـ) وهو فقيه محدث ثقة، وقد أكثر سحنون الرواية عنه في المدونة (٣) .

[٢] أنس بن عياض الليثي (ت ٢٠٠ هـ) وهو محدث ثقة روي عنه في المدونة.

[٣] أيوب بن سويد الحميري (ت ٢٠٢ وقيل ١٩٣ هـ) صدوق يخطئ.

[٤] حفص بن غياث (ت ١٩٤ أو ١٩٥ هـ) محدث فقية ثقة.

[٥] سعيد بن داود الزبيري (ت ٢٢٠ هـ) صدوق له مناكير.

[٦] سفيان بن عيينة (ت ١٩٨ هـ) أحد أئمة الحديث الثقات.

---

(١) أبو العرب: ٥/١٧٩، المعالم: ٢/١٠٤.

(٢) التهذيب: ٦/٤١٨، الرياض: ١/٣٢٣.

(٣) التقريب: ١/٨٠، الشجرة: ١/٥٩، وانظر المدونة: ٢/٢٢٨، ٣/٢.

[٧] سليمان بن داود الطيالسي (ت ٢٠٤ هـ) صاحب المسند، أحد الحفاظ الثقات.

[٨] شعيب بن الليث بن سعد (ت ١٩٩ هـ) محدث ثقة.

[٩] طليب بن كامل المرادي، وقيل عبد الله (ت ١٧٣ هـ) من كبار أصحاب مالك.

[١٠] عبد الرحمن بن القاسم (ت ١٩١ هـ) وهو أخص شيوخ سحنون كما تقدم.

[١١] عبد الرحمن بن مهدي (ت ١٩٨ هـ) ثقة ثبت عارف بالرجال والحديث.

[١٢] عبد الله بن الحكم (ت ٢١٤هـ) شيخ مصر في وقته،فقيه وَثَّقَهُ أبو زُرْعة.

[١٣] عبد الله بن نافع الصائغ (ت ٢٠٦ هـ) ثقة صحيح الكتاب.

[١٤] عبد الله بن وهب القرشي (ت ١٩٧ هـ) ثقة حافظ عابد، وقد اكثر سحنون عنه في المدونة.

[١٥] مطرف بن عبد الله اليساري (ت ٢٢٠ هـ) محدث فقيه ثقة.

[١٦] معن بن عيسى القزاز (ت ١٩٨ هـ) ثقة ثبت أثبت أصحاب مالك.

[١٧] المغيرة بن عبد الرحمن المخزومي (ت ١٨٦ أو ١٨٨ هـ) فقيه المدينة ومفتيها بعد مالك.

[١٨] وكيع بن الجراح (ت١٩٦ هـ) أحد الحفاظ الثقات وكان عابداً.

[١٩] الوليد بن مسلم (ت ١٩٤ هـ) محدث ثقة كثير الحديث يدلس.

[٢٠] يحيى بن سليم الطائفي (ت ١٩٣ هـ) محدث صدوق سيئ الحفظ.

[٢١] يزيد بن هارون الواسطي (ت ٢٠٦ هـ) ثقة متقن عابد.

[٢٢] يوسف بن عمرو الفارسي (ت ٢٠٥ هـ) صدوق صالح، فقيه مفت.

[٢٣] أبو إسماعيل وقيل أبو إسحاق الأزرق .

وقد وهم صاحب الأنساب حين عده من تلاميذ مالك وتبعه صاحب اللباب، وصاحب معجم البلدان، وكذا وهم في ذلك ابن حبان في الثقات والخليلي في الإرشاد [١] .

سحنون المحدث :

ان تدوين سحنون لمسائل المذهب المالكي وانتشارها عنه في آفاق إفريقية والمغرب والأندلس وحمله لواء المالكية في تلك الربوع، كل هذا جعل منه فقيهاً بالدرجة الأولى في أعين الناس، وأدى ذلك إلى غمط جانب الحديث حقه في شخصية سحنون، مع أنه جانب عظيم الأهمية وقد برع فيه سحنون في المشرق من ثلاثة وعشرين شيخاً كما تقدم - منهم واحد وعشرون من رجال الكتب الستة، وأكثرهم من كبار المحدثين الحفاظ الثقات، الذين أتقنوا رواية الحديث وعلم الرجال، وكان لذلك أبعد الاثر في شخصية سحنون وتكوينه الحديثي، وكذلك فان أكثر شيوخه القرويين من المحدثين والمشاركين في الحديث كما تقدم وقد كان المحدث الحافظ أبو العرب التميمي (٣٣٣ هـ) يعرف هذا الجانب عند سحنون ولذلك نجده عندما ذكر شيوخه فصل بين من لقيهم فى الفقه ومن لقيهم فى الحديث ومثل للفقهاء باثنين فقط بينما نجده يمثل للمحدثين من كبار الرواة [٢] .

لقد تعددت مرويات سحنون في الحديث فقد سمع الموطأ بأربع روايات:

رواية ابن زياد ورواية ابن القاسم ورواية ابن وهب كما تقدم وروايه ابن غانم كما سمع جامعي سفيان الثوري الكبير والأوسط من شيخيه علي بن زياد

---

(١) **انظر** : الأنساب اللباب، معجم البلدان، ثقات ابن حبان، الإرشاد في المواضع المثبتة أول الترجمة .

(٢) **انظر** : طبقات أبي العرب : (٥ / ١٨٤-١٨٥) .

وعنبسه بن خارجة الذين أدخلاهما الى القيروان وسمع جامع عبد الله بن وهب في الحديث وكان له عن سفيان بن عيينة سماع سنتين كما تقدم وسمع من أشهب رقائق الفضيل بن عياض [١] هذا عدا ما سمعه من بقية شيوخه من الأحاديث التي لم تجمع فى مصنفات.

إن عمل سحنون فى المدونة يعد من أبرز ما يدل على تمكنه من الحديث كما يدل على توجهه المبكر لهذا العلم، فإن من أهم أسباب حرص سحنون على إعادة سماع الأسدية من ابن القاسم خلوها من الآثار، وقد كان عازماً على تكميل هذا النقص قبل رحيله، ولذلك أقبل على رواة الحديث إقبالاً كبيراً، فلذلك عاد الى القيروان وبوب مسائل الأسدية وذيلها بالآثار إلا مسائل متفرقة بقيت على أصل اختلاطها وقد ورد فى بعض صفحات المدونة نقلاً عن القاضي عياض أن عدد أحاديث المدونة أربعة آلاف حديث. خرَّج منها أحد الباحثين (٥٥١) حديثاً ، وجاءت النتيجة ناطقة بإمامة سحنون في الحديث أيضاً إلى جانب إمامته في الفقه، حيث ذكر الباحث أن عدد (٣٨١) من هذه الأحاديث وردت في الصحيحين و (١٣١) حديثاً في درجة الحسن و ٧٠ ضعيفة ضعفاً منجبراً ، (٩ أحاديث ضعيفة جداً) ثم قال: لم أقف في المدونة على حديث موضوع [٢].

لقد كان الإمام سحنون حريصاً على سلامة السُنَّة من التحريف عاملاً على تنقيتها من الشوائب مقاوماً للتدليس لا يقبل الحديث يدون إسناد ، **ومن الأمثلة على ذلك ما يلي:**

■ قال سليمان بن سالم – وهو أحد كبار تلاميذ سحنون –: (كنت قاعداً قدام سحنون، وهو يقرأ كتاب الترغيب من جامع ابن وهب، فرددت عليه حديثاً

(١) ابن خير: ٢٦٩.

(٢) تخريج أحاديث المدونة، للدكتور ظاهر حمد الدريدي: ٢ / ١٠٨٦.

هو في كتابي ولم يكن في كتابه فقال لي: اقرأ الحديث، فلما قرأته أنكره وصاح علي وقال: من أين دخل هذا الحديث في كتابك؟ فأمسكت ولم أرد عليه، فكلمه محمد ولده وقال: أصلحك الله، الكتب تختلف، فقال لي: اطرح الحديث من كتابك فخططت عليه بالقلم وهو ينظر فقال: زد خطاً عليه، فطمسته كله.

رأى سحنون كتاباً مع أحد الطلبة فيه حديث يرويه حمد بن رزين القروي (ت٢٥٥هـ) عن عبد الله بن نافع، فأرسل إليه فلما جيء به قال له: أنت سمعت من ابن نافع؟، فقال: أصلحك الله إنما سمعت من ابن نافع الزبيري فقال له سحنون: لم دلست؟ ثم قال ماذا يخرج بعدي من العقارب [١].

وهكذا لم يرض سحنون إلا تقييد الاسم بالنسب المفرق بين الراويين ما داما قد اشتركا في الاسم، واسم الأب واعتبر عدم التقييد تدليساً.

■ سمع سحنون موسى بن معاوية الصامدحي (ت٢٢٥هـ) المحدث يقول: إن رسول الله ﷺ كان إذ قفل من حج أو عمرة فأشرف على المدينة أوضع راحلته وقال: أسرعوا بنا إلى بنات الأقوام.

فلم يرض سحنون روايته هكذا بدون إسناد، وخشي أن لا يكون لموسى فيه سند إلى النبي ﷺ فقال لتلميذه فرات ويحك اطلب لي هذا الحديث لموسى، قال فرات: فطلبه لموسى عن عيسى بن السبيعي بإسناده إلى النبي ﷺ [٢].

كما كان للإمام سحنون علم بالرجال ومصطلح الحديث وله كلام في التعديل وشروط الراوي ونحو ذلك ومن أمثلتها ما يلي:

تنبيهه على الأخذ عن الثقة بقوله:

يؤخذ هذا العلم من الموثوق بهم في دينهم الحسن مخبرهم.

---

(١) **انظر**: طبقات أبي العرب: ١١٩، المدارك: ١/ ٩٣.
(٢) **انظر**: الرياض: ١/ ٣٨٢.

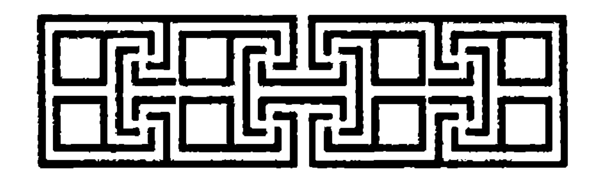
■ كان سحنون يعوّل في ضبط الراوي على ضبط الكتاب، أكثر من ضبط الصدر، حيث يقول من صحت كتبه صحت روايته ومن سقم كتابه سقمت روايته [١] .

■ وكان له كلام في الرواة فقد وثق ابن زياد الإفريقي، ومروان بن أبي شحمة وغيرهما، قال له أحد طلابه: ما سمعت يحيى بن سعيد القطان، ولا عبد الرحمن بن مهدي يحدثان عن عبد الرحمن بن زياد بن أنعم فقال سحنون: لم يصنعا شيئاً عبد الرحمن ثقة وقال عن مروان: رجل صالح ، إن قال سمعت أو رأيت فاقبل منه [٢] .

■ **وكان يقول فيمن جاء للسماع وأخذته غفوة ففاته بعض الحديث**: إذا جاء السماع وله قصده فهو جزئه ، وكان شديد الإقبال على الآثار نافراً من الرأي ومن أقواله في ذلك : إنما عزاؤنا في هذه الآثار.

فأما المسائل فالله أعلم بحقيقتها [٣] ، ويقول: إني لأخرج من الدنيا ولا يسألني الله عز وجل عن مسألة قلت فيها برأي [٤] .

وهكذا ندرك أن اهتمام الإمام سحنون بالحديث وعلومه لم يكن بأقل من اهتمامه بالفقه ولا نسلك قول الذهبي فيه: « لم يتوسع في الحديث كما توسع في الفروع » ، وإن كنا نعذره لعدم وقوفه على كثير مما يتعلق بشخصية سحنون كما هو واضح من خلال المعلومات التي ساقها في ترجمته .



---

(١) المرجع السابق: ١/ ٣٧٣

(٢) أبو العرب: ٢٩ .

(٣) جذوة المقتبس: ١٤١

(٤) الرياض: ١/ ٣٥٤

أثره العلمي والاجتماعي في القيروان وتلاميذه :

[أ] جلوسه للتفقيه والتحديث وملاحقته للمبتدعة:

لم يعرف تاريخ القيروان في الفترة التي ندرسها شخصية لها ما لسحنون من الأثر في الناحية العلمية بالقيروان خاصة، وبإفريقية والمغرب والأندلس بصفة عامة، فقد وجه اهتمام الناس في تلك الربوع إلى السُّنَّة وإلى علم مالك وقطع دابر المبتدعة من الإباضية والصفرية ومنهم من نشر ضلالتهم، فهو أول من فرق حلق أهل البدع وشرد أهل الأهواء من (المسجد) وكانوا فيه حلقاً من الصفرية والإباضية والمعتزلة، يتناظرون فيه، ويظهرون زيغهم، وعزلهم عن أن يكونوا أئمة الناس، أو معلمين بصبيانهم أو مؤذنين وأمرهم أن لا يجتمعوا .

فما إن عاد الإمام سحنون من رحلته بتلك العلوم الجمة حتى جلس للتعليم وبدأ ينشر مروياته في القيروان، وأخذها عنه جموع من مختلف بلاد المغرب والأندلس، فقد كان يسمع الموطأ برواياته المختلفة التي سمعها، وأخذ عنه الناس جامع ابن وهب، وحدث برقائق الفضيل بن عياض بروايته عن أشهب وقرئت عليه مغازي ابن وهب، وكتابه في الجهاد وكتاب الزهد، كما أسمع مدونته واهتم بنشرها، وأقبل الناس عليها لاشتمالها على الحديث وتركوا الأسدية، وأخذ عنه الناس كتابه في الزهد، ومختصره في المناسك وسمع كتاب مالك في النجوم وحساب مدار الزمان وغير ذلك من مروياته [١] .

وكان للإمام سحنون حلقة في بيته وحلقة في مسجده فإذا خرج إلى البادية لخدمة أرضه لحق به الطلاب، ومن قصده من الغرباء فأسمعهم هنالك أيضاً. كما أسمع بقصر زياد عندما اختفى فيه لما طلب في المحنة بخلق القرآن وبالجملة فقد كان دأب سحنون نشر العلم، لا يفتر عن ذلك يقضي معظم وقته في إسماع

---

(١)الرياض: ١ / ٢٥٩، ٣٦٨، ٣٧٥.

الطلبة والقراءة عليهم، أو سماع عرضهم، وكانت حلقته تصل أحيانا إلى أربعمائة طالب [١] .

وسرعان ما اشتهر أمره، وبان علمه وتقواه وورعه فقصده الناس من الآفاق، وصارت الرحلة إليه، وسلّم له بالإمامة علماء عصره، واتفقوا علي فضله وما اجتمع فيه من الخلال الحميدة، ونظراً للأثر العظيم لسحنون في الحياة العلمية بالقيروان فقد صار زمانه كأنه مبتدأ، وقد محا ما قبله، فكان سراج القيروان[٢] .

[ب] تلاميذه :

لقد تخرج علي يد سحنون أفواج عظيمة من العلماء زادوا على سبعمائة رجل من الرواة، بل ذكر الذهبي : أن عدد الرواة عن سحنون بلغ تسعمائة. أما من صحبه من العباد وغيرهم، فيعدون بالآلاف، حتى قيل ما بورك لأحد بعد النبي ﷺ في أصحابه ما بورك لسحنون في أصحابه، فإنهم كانوا في كل بلد أئمة. وقد دخل القيروان رجل من أصحاب الإمام أحمد بن حنبل - أغفل المالكي تسميته - والتقى في مناسبة بمجموعة كبيرة من أصحاب سحنون، فرآهم في بداية الليل أقبلوا على قراءة القرآن، ثم تناظروا في العلم، ثم قاموا إلى التهجد، فقال: أصحاب من هؤلاء؟ ، ومن علمهم العلم؟ ، والله ما رأيت أحداً قط أنبل من هؤلاء . . . والله لا يصحب هؤلاء رجلاً إلا نبّلوه وشرفوه ، فقيل له هؤلاء أصحاب سحنون [٣] .

وبالجملة فقد كثر تلاميذه وسرت بسببه روح جديدة في أنحاء إفريقية والمغرب والأندلس، وبهم شاع وتعمق علم أهل المدينة ، وزادت رواية الحديث انتشاراً. وليس من الممكن ذكر أسماء جميع تلاميذ الإمام سحنون فقد تقدم

---

(١) الإمام المازري: ح ج عبد الوهاب: ٢٤.

(٢) المعالم: ٢ / ٨٣.

(٣) الرياض: ١ / ٤٤٢، وانظر: الثناء على أصحاب سحنون في ازدهار الرياض: ٣ / ٢٥.

بيان كثرة عددهم وإن جيل القرن الثالث أغلبه تتلمذ عليه، كما أني أحصيت تلاميذه الأندلسيين من خلال المصادر الأندلسية والمغربية فوجدت أكثر من تسعين راوياً ولهذا سأكتفي بذكر نماذج لبعض من عرف منهم بحمل الحديث وروايته خاصة وإني قد أشرت إلى أثرهم العام، وكونهم أئمة في كل بلد:

■ عيسي بن مسكين (ت٢٩٥هـ) وهو محدث من الثقات قال فيه ابن الحارث حين وصف أصحاب سحنون: وابن مسكين أرواهم للكتب والحديث وأشدهم وقاراً وتصاوناً.

■ بكر بن حماد التاهرتي، نزيل القيروان (ت ٢٩٦هـ) وهو من علماء الحديث والرجال.

■ محمد بن سحنون (ت ٢٥٦ هـ) وهو من كبار العلماء بالفقه والحديث ووارث الإمامة عن أبيه.

■ محمد بن وضاح القرطبي (٢٨٦ أو ٢٧٦ هـ) صاحب المسند، وبه وبابن وضاح صارت الأندلس دار حديث [١].

[جـ] محنته:

تعرض الإمام سحنون للمحنة مرتين، ارتبطت كلتهما بإشعاعه العلمي:

الأولى: حين رفض الصلاة خلف القاضي المعتزلي ابن أبي الجواد، لأنه كان يقول بخلق القرآن، فأوغر صدر الأمير عليه فأمر بحلق رأسه وضربه خمسمائة سوط، إلا أن الله عافاه من ذلك حيث تدخل علي بن حميد الوزير، وقال للأمير: لا تفعل فإن العكي إنما هلك في ضربه للبهلول بن راشد فسلمه الله تعالى.

والمحنة الثانية : كانت عندما أعلن أحمد بن الأغلب (٢٣١-٢٣٢ هـ) القول بخلق القرآن، وطلب العلماء ليجبرهم على ذلك، ففر سحنون إلى قصر

---

(١) تاريخ ابن الفرحتي: ١/١٠٧.

زياد ثم جيء به إلى الامير، فلما نوقش في المسألة قال أما شيء ابتدائه من نفسي فلا، ولكني سمعت من تعلمت منه وأخذت عنه كلهم يقولون : القرآن كلام الله غير مخلوق، فقال ابن أبي الجواد : كَفَرَ، أقتله ودمه في عنقي [١] .

وبعد مداولات قرر الأمير حبسه في دار ومنعه من الفتوى والإسماع ونادى بذلك في القيروان وأمر الحرس بأخذ ثياب من يدخل عليه وقد ذكر أبو العرب أنه بقي سنة كاملة لا يفتي ولا يسمع، ولزم بيته ، ثم تمكن محمد بن الأغلب من استرداد ملكه من أخيه أحمد ، فعاود سحنون سيرته الأولى في نشر العلم .

[د] سحنون في منصب القضاء :[٢]

لقد درج العلماء المدنيون في القيروان على رفض الوظائف الحكومية والبعد عن السلطان وإن قبلوا شيئاً من ذلك اشترطوا لأنفسهم ما يضمن لهم القيام بالحق والعدل في وظائفهم، فلما عرض القضاء على سحنون رفضه واستمر الأمير يفاوضه في ذلك ويلح عليه سنة كاملة حتى وافق الأمير على جميع شروطه، وأطلق يديه من كل ما رغب كالبدء بأهل الأمير في رد المظالم ونحو ذلك فلم يجد سحنون بداً من الموافقة وذلك سنة (٢٢٤ هـ)واستمر فيه إلى أن مات سنة (٢٤٠هـ)ولم يأخذ عليه أجراً.

وقد قام في فترة قضائه بما لم يسبق إليه، وأضاف إلى مهمته القضائية كثيراً من الأمور التي كانت من اختصاص الأمراء والولاة كالنظر في الأسواق والحسبة، ونحو ذلك ومنع الفرق المبتدعة من نشر أفكارها كما أنه كان شديداً مع أقارب السلطان وحاشيته يقيم عليهم الحق ولا يخشى في الله لومة لائم فكانوا يشكونه للأمير، فيرسل إليه في الأمر ولكن سحنون لا يطاوعه فيما لا حق فيه، حتى إن

---

(١)المعالم: ٢ / ٩٤، المدارك: ١ / ٦١١، وانظر: المحن: ٤٤٦.

(٢)انظر : المحن: ٤٥٤.

الأمير ذات مرة غضب غضباً شديداً وقال: ما أدري هو علينا أم نحن عليه؟ ولكنه كان كثيراً ما يقول لمن يأتيه شاكياً: إن سحنون لم يركب لنا دابة، ولا عقل كمه بصُرَّة، فهو لا يخافنا. فلما أكثروا عليه، ولم يتمكن من عزله، عين معه قاضياً أخر، ولم يلبث سحنون بعد ذلك أن توفي.

[هـ] شدة نفوره من الفتوى وتحذيره منها:

كان سحنون شديد الورع، يحذر الفتوى فربما جلس السائل في انتظار الجواب أياماً طويلة، وكان يقول: أجرأ الناس على الفتيا أقلهم علماً، ويقول سرعة الجواب بالصواب أشد فتنة من فتنة المال، ولما عوتب في تأخير الأجوبة قال: أنا أحفظ مسائل فيها ثمانية أقوال من ثمانية أئمة فكيف ينبغي لي أن أعجل بالجواب حتى أتخير، فَلِمَ أُلام على حبس الجواب؟.

وانتظر رجل جواب مسألته ثلاثة أيام فلما طال عليه الأمر قال لسحنون في كلام دار بينهما: (وأنت - أصلحك الله لكل معضلة. فقال له: هيهات يا ابن أخي ليس بقولك أبذل لحمي ودمي للنار! ما أكثر ما لا أعرف، وكان يقول إني لا خرج من الدنيا ولا يسألني الله عز وجل عن مسألة قلت فيها برأي [١].

[و] بذله وكثرة صدقته:

كان سحنون كثير المعروف يتعهد أصحابه وينظر في احتياجاتهم، وقد يتصدق على الواحد منهم بالمبلغ الذي تجب فيه الزكاة، وقد كان له اثنتا عشرة ألف زيتونة، فلا ينتفع لنفسه بمحصول نصف شجرة، والنصف الأخر مع بقية الزيتون يخرجه للفقراء والمساكين [٢] أما معيشته فكانت في غاية البساطة والزهد، وهذا مشهور عنه مبسوط في المصادر.

---

(١) انظر: هذه الأقوال في الرياض: ١/ ٣٥٤،٣٥٥.

(٢) المعالم: ٣/ ١٨٣، وانظر عن كثرة صدقته ومعروفه: الرياض: ١/ ٣٦١، ٣٦٢.

[ز] مؤلفاته :

المدونة : وقد تقدم بعض خبرها خلال الحديث عن الفتاوى الأسدية .

وتعتبر المدونة أشهر مؤلفاته حيث اعتاد المصنفون نسبتها إليه، كما وأنه يوجد لديه كتابين آخرين هما: كتاب الزهد – وكتاب مختصر المناسك [١] .

[حـ] من حديثه :

أكثر سحنون في المداونة وأخرج له ابن عبد البر في التمهيد، وفي جامع بيان العلم وفضله كما أخرج له أبو العرب في كتاب المحن [٢] . ومن حديثه ما أخرجه في المدونة عن علي بن زياد عن سفيان الثوري عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن ابن عباس أنه قال: ألا أخبركم بوضوء الرسول ﷺ قال: « فدعا بماء فأراهم مرة، فجعل في يده اليمنى ثم صب بها على يده اليسرى فتوضأ مرة مرة » [٣] .

[ط] توثيقه والثناء عليه بالحفظ والورع وسعة العلم:

إن الإمام سحنون من أولئك المشاهير الذين استفاض خبر إمامتهم، وعرفه العام والخاص بسعة العلم وصدق الورع، وهذه الشهرة كافية في توثيقه ومع ذلك فقد لهج المصنفون بالثناء عليه، وتوثيقه وذكر فضائله وتبحره في العلم حتى ألف الناس في فضائله كما فعل الحافظان أبو العرب (ت ٣٣٣ هـ) ، والخشني (ت ٣٦١ هـ) [٤] .

قال أبو العرب : (كان ثقة حافظاً للعلم فقيهًا بالدين، اجتمعت فيه خلال قلما اجتمعت في غيره، الفقه البارع، الورع الصادق، والصرامة في الحق،

---

(١) المدارك: ١ / ٦٢٥ ، الرياض: ١ / ٣٧٤ .

(٢) انظر: المحن: ٢٧٦–٣١٠ .

(٣) انظر: جامع بيان العلم: ١ / ٥، ٥٠، ٥١، ٢ / ٣، ٧٩ .

(٤) انظر: الديباج: ١٦٠–٢٦٠ .

والزهادة في الدنيا، والتخشن في الملبس والمطعم، وَوَثَّقه الذهبي في سير الأعلام بقوله: الإمام العلامة فقيه المغرب.

وقال المالكي: انتشرت إمامته في المشرق والمغرب وسلم له الإمامة أهل عصره، وأجمعوا كلهم على فضله وتقدمه ، وقال أشهب : ما قدم إلينا من المغرب مثله.

وقال الشيرازي: انتهت الرئاسة إليه في العلم بالمغرب وعلمه وقوله المعول به.

وقال الحجوي: كان ثقةً حافظاً. وذكره ابن حبان في الثقات وأثنى عليه (١) .

وأراد السلطان أن يستفيد من سوء تفاهم وقع بين عون بن يوسف (ت ٢٣٩ هـ) وسحنون (ت ٢٤٠ هـ) ، فنادى عوناً وسأله عن سحنون فقال: سبحان الله مثلي يُسأل عن سحنون، والله إن سحنوناً لأفضل وأخير من أن يُسأل مثلي عنه (٢) .

وكان سليمان بن عمران - وهو حنفي المذهب - قد أشار بتولية سحنون القضاء وقال: ما ظننت أنه يشاور في سحنون، حججت فرأيت أهل مصر يتمنون كونه بين أظهرهم وما يستحق أحد القضاء وسحنون حي (٣) .

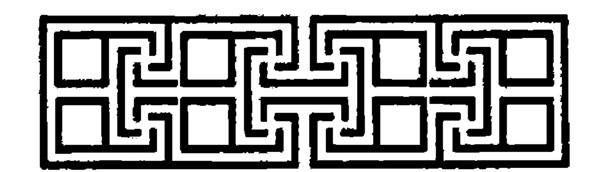
وكان شديد الحفظ ، قال عن نفسه: حفظت هذه الكتب حتى صارت في صدرى كأم القرآن. وقد أغرب صاحب الإرشاد حين قال: لم يرض أهل الحديث حفظه (٤) ، فإن المصنفين قد أثنوا على حفظه، ولم أعثر على من ذكر هذا القول رغم استقصائي لمصادر ترجمة سحنون، وقد عبر محقق كتاب الإرشاد أيضاً عن استغرابه مما ذكره الخليلي ثم قال: وقد اتفق جميع الأئمة على توثيقه.

---

(١) المدارك: ١/٥٨٨، وانظر: طبقات أبي العرب: ١٠١.
(٢) المدارك: ١/٣٢٨.
(٣) المعالم: ٢/٨٦، المدارك: ١/٥٩٦.
(٤) الإرشاد: ١/٢١٣.

[ي] وفاته:

وتوفي سحنون سنة ٢٤٠ هـ فارتجت القيروان لوفاته وشوهد مشايخ الأندلس ممن لم يره يضربون خدودهم كالنساء، يقولون: ليتنا تزودنا منك بنظرة، ورُثي بقصائد عديدة، وقد أقام سؤدد العلم في دار سحنون نحو ١٣٠ عام [١]، رحمه الله تعالى [٢].



---

(١) المدارك : ١ / ٦٢٦.

(٢) لقد اعتمدت في ترجمة سحنون على ما اختاره الشيخ حسين بن شواط صاحب كتاب مدرسة الحديث، واكتفيت بها وبما رجع إليه من مصادر ومراجع وما وصل إليه من نتائج.

المبحث السادس

نظام الحكم عند الأغالبة

كان نظام الحكم فردياً وراثياً منحصراً في بني أغلب وأهم وظائف الحكم هي :

[١] صاحب الخراج:

وأول من أنشأ هذه الوظيفة هو حسان بن النعمان أيام كان والياً عليها من قبل عبد الملك بن مروان سنة ٧٧ هـ ، ثم توسع فيها الأغالبة بما يتفق مع ثروة البلاد أيام حكمهم وهي من أكبر الوظائف خطراً، لأنها تتعلق بثروة البلاد .

[٢] صاحب البريد:

وهو بمثابة وزير المواصلات وسمي صاحب البريد دون أن يضاف إلى شيء أخر لأن للبريد محطات فيها خيل وبغال، وكلما وصل عامل البريد محطة غَيَّر دابته التي كان يركبها، بعد أن أجهدها في السير للوصول إلى المحطة التي بعدها في أقصر وقت ممكن ويضاف إلى صاحب البريد رئاسة المخبرين السريين .

[٣] صاحب الجيش:

وهو يقوم مقام وزير الحربية .

[٤] مقدم العمارة:

وهو بمثابة وزير البحرية وكان لدولة الأغالبة أسطول ضخم كبير، وكانت له الغلبة في البحر الأبيض المتوسط، على أسطول روما، وقد فتح صقلية وفالوربة وسردينيا، ومالطا وكان مؤلفاً من عدة سفن لأغراض مختلفة وقام بحراسة السواحل خير قيام .

[٥] العامـل :

وظيفة إدارية ينظر إلى المصلحة الوطنية من حيث الإدارة والتنظيم.

[٦] الحاجب :

هو مدير الشريفات وله نفوذ كبير فى القصر.

[٧] القضاء :

كان متمشياً مع أحكام الكتاب والسُنَّة والقياس ، والاجتهاد فيما لم يرد فيه نص وكان لا يتولاه إلا من توفرت فيه قوة الإدراك والتبحر فى العلم بعد استشارة أهل الحل والعقد فى البلاد وكان القضاء مستقلاً عن الإدارة الأميرية، ولا يتدخل الأمير في شئون القاضي وهو حر في أحكامه ويعين القاضي نواباً عنه في الأماكن البعيدة من محل عمله داخل المملكة.

[٨] الجند:

ينقسم الجند إلى ثلاثة أقسام :

الحرس الأميري : وهو المخصص لحراسة الأمير، وليس له عمل غير ذلك.

والجيش : وهو مركب من عدة عناصر من العرب والبربر، وغيرهم وهم مأجورون مرتزقة لا غاية لهم من عملهم إلا الحصول على الأجر، وما يقع في أيديهم من الغنائم، ولا يخلو من كان نيته الجهاد في سبيل في الله في حروب جنوب إيطاليا وجزر البحر الأبيض المتوسط، أما سلاح الجند، فكان القوس والرمح، والسيف، والكبش، والمنجنيق [١] .

هذه هي أهم الوظائف التي كانت تعتمد عليها دولة الأغالبة في تسيير دفة الحكم.

---

(١) تاريخ الفتح العربي في ليبيا: ٢٠٦-٢٠٧.

المبحث السابع
أهم أعمال دولة الأغالبة

أولاً: فتح صقلية:

[١] الأهمية الاستراتيجية لصقلية:

وتعتبر صقلية أكبر جزر البحر الأبيض المتوسط مساحة، وأغناها من حيث الموارد الاقتصادية، وأفضلها موقعاً، حيث إنها تقع بين ساحل إيطاليا الجنوبية وساحل إفريقية، وقربها الشديد من سواحل إفريقية من الجهة الجنوبية الغربية.

[٢] بدايات فتح صقلية:

كانت بدايات فتح صقلية في عهد عبد الله بن سعد ﷺ، ثم تابعه على ذلك معاوية بن حديج - رحمه الله - حيث أرسل عبد الله بن قيس الفزاري لغزوها، وغنم المسلمون في تلك الغزوة غنائم كثيرة من بينها أصنام من الذهب والفضة مكللة بالجوهر، ثم غزاها عقبة بن نافع - رحمه الله - بأهل مصر سنة ٤٩ هـ، ثم غزاها عطاء بن رافع الهذلي سنة ٨٣ هـ ثم غزاها عياش بن أخيل في ولاية موسى بن نصير، وغنم منها غنائم كثيرة، وتوالت عليها غزوات المسلمين بعد ذلك حتى كان آخر هذه الغزوات غزوة عبد الرحمن بن حبيب التي كانت في سنة ١٣٥ هـ.

[٣] أسباب فتح صقلية:

ومن تلك السنة ١٣٥ هـ توقفت حملات المسلمين على صقلية بسبب اشتغال ولاة إفريقية بالفتن الداخلية والفكرية منها والعنصرية!! حيث استغل البيزنطيون هذه الفرصة وأخذوا يحصنون بلادهم وسواحلهم ويعمرونها بالمعاقل والحصون وأصبحت لهم وحدات القوات البحرية تطوف بسواحل الجزيرة للذب

عنها حتى تجرأت سفنهم ذات يوم على مهاجمة السواحل الإفريقية، فكانت تلك الهجمات سببًا رئيسًا لتوحيد صفوف دولة الأغالبة.

يقول صاحب كتاب (تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس):

(وكان لهؤلاء العلماء المالكية أعظم الاثر في غلبة الروح الدينية والاتجاة نحو الزهد والرغبة في المرابطة بالثغور بقصد الجهاد في سبيل الله، بسبب تعرض السواحل الإفريقية لغارات الروم البحرية، واعتبر الرباط في هذه الثغور جهاداً في سبيل الله وقربة إليه، فنشأت الرباطات والقصور على سواحل إفريقية. وفي هذه الأربطة كان يقيم المتعبدون المجاهدون بقصد حراسة المسلمين والتعبد لله في آن واحد. وكان الخروج لغزو الروم في صقلية غاية ما يتمناه هؤلاء الصالحون.

ولاشك أن الأمير زيادة الله بن الأغلب قد نجح في استثارة هذا الشعور الديني السائد باختيار أسد بن الفرات القاضي قائداً للحملة على صقلية، والشعور الديني طاقة كبيرة لها وزنها وأهميتها في الفتوحات الإسلامية، وهو في نفس الوقت يخفي الأغراض الحقيقية لزيادة الله من وراء هذه الحملة ولذلك عين أسداً لهذه المهمة حتي يكسب الحملة نوعاً من الشرعية، فولاه قائداً على الجيش وأقره على القضاء مع القيادة، فخرج معه أشراف إفريقية من العرب والجند والبربر والأندلسيين وأهل العلم والبصر) [١].

ويقول أيضاً في الأسباب التي دفعت ببني الأغلب لتلك الحملة:

(التخلص من العناصر الثائرة في البلاد: عانى زيادة الله كثيراً من الثورات التي قام بها جنده عليه، وفتنهم المتعددة التي كادت تطيح بملك بني الأغلب).

[٤] بداية الحملة:

يبدو أن زيادة الله يسعى إلى ترغيب الناس في غزو صقلية، وإكساب الحملة

---

(١) انظر: تاريخ البحرية الإسلامية، في المغرب والأندلس، د/ السيد عبد العزيز سالم، ود/ احمد مختار العبادي ص٩٥-١٢١

طابعاً من الجهاد في سبيل الله، فعندما بلغه أن أسد بن الفرات أبدى رغبتة في الخروج في هذه الغزوة كواحد من المسلمين، ولاه أمر الجيش مع الاحتفاظ بالقضاء فأصبح أسد بن الفرات قاضياً أميراً.

يقول صاحب (تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس) :

(خرج أسد بن الفرات من القيروان في حشود قوامها عشرة آلاف من الرجالة وسبعمائة من الفرسان بأفراسهم، ومتوجهاً إلى سوسة ليركب منها إلى صقلية، وخرج معه وجوه أهل العلم وعدد كبير من الأهالي لتوديعه، واحتفل زيادة الله بذلك اليوم، فأمر ألا يبقى أحد من رجاله إلا شيعه، فركب أسد في جمع عظيم بين صهيل الخيول وقرع الطبول وارتفاع البنود.

وأقلع الأسطول الإسلامي من مدينة سوسة في يوم السبت ١٥ من شهر ربيع الأول سنة ٢١٢هـ (يونيو سنة ٨٢٧م) وكان يتكون من سبعين مركباً، وقيل مائة مركب، بالإضافة إلى مراكب أخرى فوصلت الأساطيل إلى بلدة مازر في يوم الثلاثاء أي بعد ثلاثة أيام من الإبحار من سوسة، ومازر هي أقرب مدن صقلية إلى سوسة.

ثم سار جيش المسلمين نحو سهل بلاطة ماراً بقلعة بلوط ثم قرى الرفش وقلعة الدب وقلعة الطواويس، ثم إلى أرض المعركة التي سميت باسم بلاطة نسبة إلى صاحب صقلية. وأقبل بلاطة في جيش عدته ١٥٠ألف مقاتل. فخطب أسد في الناس وهو يحمل اللواء وقال: هؤلاء عجم الساحل، هؤلاء عبيدكم، لا تهابوهم. ثم كبر المسلمون وحملوا مع قائدهم، وتمادت عزائم المسلمين حتى هزموا بلاطة وأصحابه وقتلوا منهم خلقاً كثيراً وغنموا ما معهم، وانسحب بلاطة إلى قصريانة، ثم غلبه الخوف من لقاء المسلمين، ففر من صقلية إلى قلورية بجنوبي إيطاليا، فقتل بها.

وبعد هذا الانتصار الحاسم، استعمل أسد على مازر أبا زاكي الكناني، ثم زحف إلى موضع على البحر يقال له كنيسة إيفيمية، ثم سار إلى كنيسة المسلقين، ثم حاصر سرقوسة نفسها من البر والبحر، وجاءته الأساطيل من إفريقية تحمل إليه الإمدادات وعند ذاك زحف إلى بلرم في جيش كثيف، فضيق القاضي أسد الحصار على سرقوسة وأحرق أسطول البيزنطيين. وفي هذه الأونة حل بالمسلمين وباء شديد هلك بسببه عدد كبير منهم، ومن جملتهم القاضي أسد ابن الفرات الذي توفي في شعبان سنة ٢١٣ هـ وقيل في رجب، فدفنه المسلمون في الموضع الذي كان يحاصر منه سرقوسة وقيل بين قطانية وقصريانة) (١) .

[٥] استكمال فتح صقلية زمن الأغالبة:

(اتخذ أبو فهر مدينة بلرم مقراً له لسهولة اتصالها البحرية بإفريقية من جهة، ولقربها من مسيني وجنوبي إيطاليا حيث يتهيأ للمسلمين توجيه الغارات منها على البيزنطيين من جهة ثانية. ومن بلرم أخذ أبو فهر يشن الغارات على قصريانة في سنتي ٢١٩-٢٢٠ هـ، ثم سير عسكراً بقيادة محمد بن سالم إلى مدينة طبرمين الواقعة في شرق الجزيرة، فغنم غنائم كثيرة، ولكن جماعة من جند أبي فهر تمردوا على ابن سالم وقتلوه، فولى زيادة الله مكانه الفضل بن يعقوب.

ويبدو أن زيادة الله الأغلبي احتاج لمساعدة أبي فهر في قمع بعض الثورات في المغرب، فنحَّاه عن ولاية صقلية، وسير مكانه أخاه أبا الأغلب إبراهيم والياً عليها وظل أبو الأغلب يبعث بسراياه للإغارة على مدن صقلية، وفي كل مرة كان المسلمون يعودون مظفرين غانمين، وقد تمكن المسلمون في إحدى غاراتهم على قصريانة من الاستيلاء عليها.

ثم تابع المسلمون في ولاية إبراهيم بن الأغلب انتصاراتهم على أهل صقلية

---

(١) **انظر** : كتاب تاريخ البحرية الإسلامية، في المغرب والأندلس ص ٩٥-١٢١

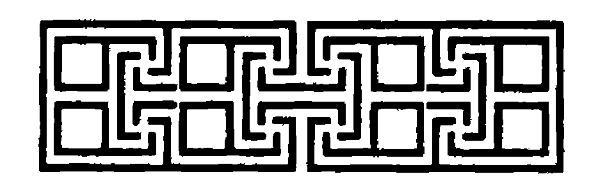
وفتوحاتهم في تلك الجزيرة، فاستولوا في سنة ٢٥٥ هـ على عدد كبير من حصونها، من بينها حصن البلوط، وحصن أبلاطنو، وقرلون، ومرو، وافتتح الأسطول الإسلامي إقليم قلورية بعد أن تغلب على أسطول البيزنطيين. وواصل المسلمون منذ سنة ٢٢٨ هـ انتصاراتهم على البيزنطيين في أقصى الشمال الشرقي لصقلية، فافتتحوا بقيادة الفضل بن جعفر الهمداني مدناً كثيرة بمساعدة أهل نابل، من بينها مدينة مسيني، ومسكان.

وفي سنة ٢٣٢ هـ حاصر الفضل بن يعقوب مدينة لنتيني واستولى عليها، كما افتتح المسلمون في هذه السنة طارنت الواقعة على خليج طارنت بجنوبي إيطاليا. وفي سنة ٢٣٤ هـ استولى المسلمون أيضاً على حصن رغوس وهدموه).

ثانياً: فتح مالطة:

تعتبر مالطة أهم جزر الأرخبيل المالطي مثل جزيرة غودش وكمونة ونموشة، باعتبارها أكبر هذه الجزر، بالإضافة إلى كونها جزيرة عامرة كثيرة الخيرات حسنة الموقع، حتى أنها اعتبرت هي وصقلية من المعالم الهامة في التاريخ البحري الإسلامي ومفتاح حوض البحر المتوسط الأوسط والغربي.

حيث تم افتتاح الأغالبة لمالطة في سنة ٢٥٥ هـ في إمارة أبي الغرانيق محمد بن أبي إبراهيم أحمد، وبفتحها تأكدت سيطرة المسلمين الكاملة على المضايق الواقعة بين صقلية وإفريقية [١]



(١) راجع: كتاب «تاريخ البحرية الإسلامية، في المغرب والأندلس» تأليف د/ السيد عبد العزيز سالم، د/ أحمد مختار العبادي: ٩٥ إلى ١٢١.

المبحث الثامن

أسباب سقوط دولة الأغالبة

﴿ ١ ﴾ الصراع على الحكم بين أبناء البيت الحاكم.

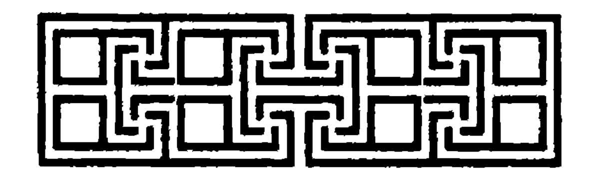
﴿ ٢ ﴾ تركيبة الجيش المبنية على المنفعة الذاتية للجنود.

﴿ ٣ ﴾ ظلم بعض الأمراء وإسرافهم في القتل.

﴿ ٤ ﴾ بغض العامة لأمراء الأغالبة نتيجة ظلمهم.

﴿ ٥ ﴾ انغماس الأمراء في الخمر والفساد والانحلال وانشغالهم به.

﴿ ٦ ﴾ ظهور دعوة عقدية في ريعان شبابها وكان دعاتها على جانب كبير من الغدر واستغلال الظروف المواتية ألا وهي الدعوة العبيدية الرافضية الباطنية.



الخلاصة

[١] إن الدولة الأموية قامت بجهود عظيمة لنشر الإسلام والجهاد في سبيله كما أن الأسرة الأموية ممتدة جذورها في خدمة الإسلام من زمن النبي ﷺ وبرز منها قادة في مجال الدعوة والجهاد والإمارة.

[٢] كان لرجال بني أمية قدرات متميزة في مجال الإدارة والسياسة والقيادة ولذلك استعان رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين بهم في الولايات والعمالات.

[٣] إن معاوية رضي الله عنه صحابي جليل وكاتب للوحي وتولى أعمالاً عظيمة في زمن الرسول ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان، فلا يجوز سبه، بل يجب حبه والدفاع عنه ويعتبره علماء أهل السُنَّة من أعظم ملوك المسلمين على الإطلاق.

[٤] إن رأي أهل السُنَّة ترك القتال في الفتنة والامتناع على الخروج عملاً بالأحاديث الصحيحة الثابتة عن النبي ﷺ في النهى عن الخروج على الحكام وإن جاروا وظلموا ما داموا مسلمين وعلى الصلاة محافظين ويشترط في الخروج أن يكون ظهر من الحكام كفر بواح مع وجود الاستطاعة في التغيير.

[٥] إن موقعة كربلاء التي قتل فيها الحسين رضي الله عنه كانت باب شر فتح على الأمة، وإن الحسين رضي الله عنه قتل مظلوماً شهيداً ولم يكن متولياً أمر الأمة وكان عام ٦١ هـ .

[٦] إن موقعة الحرة في المدينة وقعت عام ٦٣ هـ ولقد أنكر بعض الصحابة والتابعين خروج أهل المدينة على يزيد بن معاوية ورفض بعضهم خلعه، منهم عبد الله بن عمر ومحمد بن الحنفية.

[٧] إن قول مؤرخي الشيعة بان يزيد بن معاوية أرسل جيشاً إلى المدينة واستباحها ثلاثة أيام قولٌ باطلٌ لا يصمد أمام البحث التاريخي الموثق.

[٨] يرى أهل السُنَّة والجماعة أن يزيد كان ملكاً من ملوك المسلمين له حسنات وسيئات ولم يكن صحابيًا ولم يكن كافراً.

[٩] عادت سيرة الفتوحات التي في زمن عمر بن الخطاب ﷺ في خلافة الوليد بن عبد الملك وفتحت السند والأندلس في عصره.

[١٠] تولى الخلافة بعد الوليد سليمان بن عبد الملك، ومن حسناته العظيمة قبوله لنصيحة الفقيه العالم رجاء بن حيوة الكندي الذي اقترح على سليمان في مرض موته أن يولي عمر بن عبد العزيز، وكانت وصية لم يكن للشيطان فيها نصيب.

[١١] كان عهد عمر بن عبد العزيز عهد خير وبركة على الأمة قاطبة وقد مس عدله كل الأقاليم ولقد ساهم عمر بن عبد العزيز في تدعيم الإسلام في الشمال الإفريقي ويظهر ذلك جليًّا في بعثته للفقهاء العشرة.

[١٢] بعد وفاة عمر بن عبد العزيز تولى الخلافة يزيد بن عبد الملك فعزل إسماعيل بن أبي المهاجر عن ولاية إفريقية وعين يزيد بن أبي مسلم كاتب الحجاج وكان ظلوماً غشوماً متبعاً لسيرة الحجاج في أهل العراق، فنقم عليه البربر ولذلك قتلوه.

[١٣] كانت أول ثورة في إفريقية في الإسلام عام ١٢٣هـ بسبب الظلم والجور من الولاة واستفاد الخوارج من ذلك فوجدوا تربة خصبة لعقائدهم في الشمال الإفريقي وتزعم الثورات ضد الخلافة الأموية ميسرة المظغري الذي اعتنق مذهب الخوارج الصفرية وحرص على نشره في أوساط البربر.

[١٤] اندلعت في إفريقية ثورات لا نهاية لها انتهت في عهد يزيد بن حاتم ١٥٦هـ بسبب الفكر الخارجي وظلم الولاة وجهل القبائل في الشمال الإفريقي.

[١٥] بموت هشام بن عبد الملك تضعضع ملك بني أمية، وتولى وأدبر أمر الجهاد في سبيل الله واضطرب أمرهم جداً ، وإن كانت قد تأخرت أيامهم بعده نحو من سبع سنين.

[١٦] لقد كانت من عقائد الصفوية وهي فرقة من الخوارج استحلال أموال أهل السُنَّة واستباحة نسائهم وقتلهم، ولذلك لما كسرت شوكتهم في معركة القرن عام ١٢٤هـ على يدي حنظلة بن صفوان وسمع بذلك فقيه أهل مصر في زمانه الليث بن سعد قال: « ما غزوة كنت أحب أن أشهدها بعد غزوة بدر أحب إلي من غزوة القرن ».

[١٧] يعتبر عبد الرحمن بن حبيب أول متغلب على إفريقية، واستقل بها أيام حكمه عن بني أمية وكان ذلك عام ١٢٩هـ .

[١٨] في سنة ١٣٢هـ قتل مروان بن محمد، وانقرضت دولة بني أمية من المشرق، بعد أن ملكت إحدى وتسعين سنة وتسعة أشهر وخمسة أيام وتولى الملك فيها أربع عشرة خليفة وظهرت على أعقابها دولة بني

العباس والله يرث الأرض ومن عليها.

[١٩] تعتبر معركة الزاب من المعارك الفاصلة بين بني العباس وبني أمية وكانت في عام ١٣٢هـ .

[٢٠] لقد كان من أسباب سقوط دولة بني أمية هزائمهم المتلاحقة أمام جحافل العباسيين، وأسباب تتعلق ببني أمية والخلفاء منها: ضعف شخصية بعض الخلفاء، بذخ بعض الخلفاء وإسرافهم، تحكيم بعض الخلفاء أهواءهم في أمر قوادهم، ولاية العهد وما يترتب عليها من صراع، النزاع بين أفراد البيت الأموي على الخلافة.

[٢١] كانت هناك أسباب في سقوط الدولة تتعلق بالرعية منها: العصبية العربية، والنزاع بين العرب والموالي، قيام حركات المعارضة، الشيعة، الخوارج، الدعوة العباسية.

[٢٢] كانت هناك أسباب عامة منها، ازدياد الخطر البيزنطي، المشكلات الاقتصادية وكل العوامل والأسباب السابقة لا ينكر تأثيرها على إضعاف سلطان بني أمية إلا أن أبرز تلك العوامل هو الخلاف الذي دب بين أفراد البيت الأموي من أجل الخلافة.

[٢٣] اعتمد العباسيون سرية التنظيم في سعيهم للوصول إلى الحكم ومرت دولتهم بأربع مراحل وانتهت في عام ٦٥٦هـ .

[٢٤] أهم سمات العصر العباسي الأول، بناء مدينة السلام، ظهور الثورات المنحرفة.

[٢٥] كانت الثورة الراوندية، والمقنعية والخرمية ذات عقائد فاسدة عبرت عن الامتداد التاريخي لمعتقدات المزدكية التي أخذت عن المانوية والتي ظهرت في بلاد فارس من قبل الإسلام وكانت تعتقد بوجود إلهين النور والظلمة، ويبيحون النساء.

[٢٦] يمتد العصر العباسي الثاني من عام ٢٣٢هـإلى ٣٣٤هـومن أشهر سمات هذا العصر، ظهور النفوذ التركي وظهور منصب أمير الأمراء، ومقتل معظم خلفاء هذا العصر.

[٢٧] يمتد العصر العباسي الثالث من عام ٣٣٤ هـإلى نهاية عام ٤٤٧هـومن أوضح سمات هذا العصر: سيطرة الأسرة البويهيه على الحكم، استفحال سلطات الشيعة، وتكوين وظهور الإمارات المستقلة وظهور فتنة خلق القرآن.

[٢٨] استطاع عبد الرحمن الداخل أن يؤسس إمارة أموية في الأندلس امتدت من عام ١٣٨هـإلى عام ٣١٦هـ.

[٢٩] تعتبر بداية الخوارج على شكل جماعي له اتجاهه وآراؤه الخاصة بدءاً بالخروج على عليٍّ رضي الله عنه عام ٣٧هـ .

[٣٠] لقد وردت أحاديث صحيحة في ذم ووصف الخوارج تعين أهل السُنَّة على معرفتهم والحذر منهم وكشفهم، ولم يقصّر سلفنا الصالح في حربهم وذمهم وبيان انحرافهم عن الصراط المستقيم.

[٣١] لقد تشعبت الخوارج إلى فرق عدة بلغ بها بعض أهل العلم ممن كتب في

الملل والنحل إلى عشرين فرقة، وأهم هذه الفرق هي : المحكمة الأولى، والأزارقة، والنجدات والصُفرية.

[٣٢] لقد اختلف علماء الفرق في الحكم على الإباضية ويظهر أن الاباضية تخالف منهج أهل السُنَّة في بعض المسائل العقدية وتوافقهم في مسائل أخرى.

[٣٣] بعض علماء الإباضية أصاب الحقيقة في الحكم على الصحابة ﷺ والبعض الآخر انحرف عن المنهج المعتدل القويم.

[٣٤] خالف الإباضية منهج السلف في صفات الله وفي استواء الله على عرشه وفي باب رؤية الله عز وجل في الآخرة واختلفوا في كون القرآن مخلوق، ووافقوا أهل السُنَّة في باب القدر، واختلفوا في إثبات عذاب القبر وقالوا بإثبات الشفاعة للمتقي وهذا يخالف منهج أهل السُنَّة.

[٣٥] لقد شارك الإباضية في التاريخ السياسي للمغرب وقاموا بثورات في نهاية الخلافة الأموية وبداية العباسية من أشهرها، ثورة عبد الجبار بن قيس والحارث بن تليد، وإسماعيل بن زياد النفوسي.

[٣٦] كانت إمامة أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح على الإباضية في سنة ١٤٠هـ واستطاع أن يوسع نفوذ حكمه حتى وصل إلى خليج سرت غرباً وإلى قابس شرقاً ومن البحر إلى الصحراء الكبرى وأصبحت كل هذه الأراضي منضوية تحت حكم الإباضية.

[٣٧] أقلق أبو جعفر المنصور ظهور أبي الخطاب بن السمح في بلاد المغرب فقرر القضاء عليه مهما كلفه من خسائر واستطاع أبو جعفر المنصور أن

يقضي على أبي الخطاب في عام ١٤٤هـ وقاد جيوش الدولة العباسية محمد بن الأشعث والي مصر لحرب الخوارج.

[٣٨] استطاع يزيد بن قبيصة أن يقضي على ثورة أبي حاتم يعقوب بن لبيب الإباضي عام ١٥٥هـ وتعد هذه الضربة الساحقة التي ألحقها يزيد بالإباضية نهاية لنشاط الخوارج والإباضية في صورته الشاملة المنظمة إلا أنه بقيت ثورات طفيفة لم يجد أمراء آل المهلب عناء في قمعها وردعها.

[٣٩] استطاع عبد الرحمن بن رستم أن يكوّن دولة بتاهرت عام١٦١هـ وامتد نفوذها فيما بعد لتضم إباضية المغرب جميعاً واستطاع الخوارج الصفرية تكوين دولة في المغرب الأقصى في سلجماسة وهي التي تسمى بدولة بني مدرار.

[٤٠] دخل المذهب المالكي إلى الشمال الإفريقي عام ١٨٣ هـ على يد علي بن زياد وهو أول من أدخل الموطأ إلى إفريقية وفسر لهم قول مالك.

[٤١] يعتبر المذهب المالكي من المذاهب السُّنِّية المعتمدة وأصوله من أصول أهل السُّنَّة والجماعة.

[٤٢] يعتبر إبراهيم بن الأغلب بن سالم التميمي مؤسس دولة الأغالبة وكان ذلك عام١٨٤هـ وكان يتمتع بشجاعة نادرة، وثقافة عالية، بالإضافة إلى معرفة واسعة بشئون إفريقية.

[٤٣] يعتبر عصر الأغالبة من أفضل العصور في الشمال الإفريقي في المجال العلمي والحضاري والعمراني وفي مجال الأمن والاستقرار والفتوحات الإسلامية.

[٤٤] حكمت دولة الأغالبة إفريقية مئة وإحدى عشرة سنة وثلاثة أشهر وتولى الحكم فيها أحد عشر أميراً ، وقد جرت فيها سُنَّة الله في القضاء على الدول عندما ينغمس حكامها في الترف والفجور والانحلال، ويظلمون العباد ويكثرون الفساد.

[٤٥] كان أسد بن الفرات من أشهر علماء دولة الأغالبة اجتهد في طلب العلم وشد الرحال إلى الأمصار في زمانه لتلقي العلم وأخذه عن الفقهاء، فمكث في المدينة ومكة وبغداد والكوفة ومصر ورجع إلى القيروان معلماً ومحدثاً ومربياً وقاضياً ومجاهداً. توفي عام ٢١٣ هـ في غزوة صقلية.

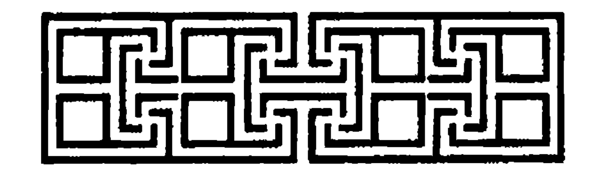
[٤٦] يعتبر الإمام سحنون بن سعيد التنوخي من علماء الشمال الإفريقي وظهر هذا العالم في عصر الأغالبة وبرز في علوم الفقه والحديث والفتوى والقضاء وكان سيفاً مسلطاً على المبتدعة وأهل المظالم ويضرب به المثل في الزهد والورع والإخلاص. توفي عام ٢٤٠هـ .

[٤٧] كان نظام الحكم فردياً في دولة الأغالبة وأهم وظائف الدولة هي: صاحب الخراج، صاحب البريد، صاحب الجيش، مقدم العمارة، الحاجب، القضاء، الجند.

[٤٨] إن أهم أعمال دولة الأغالبة هي: فتح صقلية وفتح مالطة، كسر شوكة الخوارج، تبني منهج أهل السُّنَّة والجماعة.

[٤٩] إن من أبرز أسباب سقوط دولة الأغالبة، الصراع على الحكم بين أبناء البيت الحاكم، تركيبة الجيش المبنية على المنفعة الذاتية للجنود، ظلم بعض الأمراء وإسرافهم في القتل، بُغْض العامة لأمراء الأغالبة نتيجة

ظلمهم، انغماس الأمراء في الخمر والفساد والانحلال وانشغالهم بذلك، ظهور دعوة عقدية في ريعان شبابها وكان دعاتها على جانب كبير من الغدر واستغلال الظروف المواتية تمثلت في الفكر الرافضي والباطني العبيدي.



المراجع والمصادر

[١] أجوبة ابن خلفون، لأبي يعقوب يوسف بن خلفون.

[٢] أعلام الفكر الإسلامي في تاريخ المغرب العربي، محمد الفاضل بن عاشور، مطبعة النجاح، تونس.

[٣] أسباب سقوط الدولة الأموية، لسعدي أبو حبيب، دار الفكر.

[٤] أنساب الأشراف للبلاذري، لأبي العباس أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البلاذري، تحقيق: ماكس شلوسنجر، القدس، مطبعة الجامعة، ١٩٣٨م.

[٥] أسد الغابة لمعرفة الصحابة، لأبي الحسن علي بن محمد الجزري، دار الفكر، طبعة ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.

[٦] إثبات صفة العلو، موفق الدين أبي محمد عبد الله بن أحمد المقدسي، حققه وعلق عليه د/ أحمد الغامدي، الناشر: مكتبة علوم القرآن، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م.

[٧] أيعيد التاريخ نفسه؟ ، محمد العبدة، المنتدى الإسلامي، ١٤١١هـ.

[٨] الفرق بين الفِرَق، للبغدادي، عبد القاهر بن طاهر البغدادي، تعليق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مكتبة محمد علي صبيح، مصر.

[٩] الملل والنحل للشهرستاني، لأبي الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني.

[١٠] التاريخ الأندلسي، د/ عبد الرحمن علي الحجي، دار القلم، دمشق، الطبعة الرابعة، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م.

[١١] التاريخ العباسي والفاطمي، للعبادي.

[١٢] التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع، لأبي الحسن محمد بن أحمد الملقي، مكتبة المثنى، بغداد، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م.

[١٣] النهاية في غريب الحديث والأثر، لمجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد الجزري، تحقيق: طاهر الزاوي، ومحمد الطنجي، نشر المكتبة الإسلامية بالرياض.

[١٤] الإباضية بين الفرق، لعلي يحيى معمر، وزارة التراث القومي والثقافة بسلطنة عُمان، الطبعة الثانية، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

[١٥] المستدرك بين الصحيحين، الحاكم أبو عبد الله محمد بن عبد الله، طبعة دائرة المعارف النظامية، حيدر آباد، نشر: دار الكتب العلمية.

[١٦] الضمانة لقطب الأئمة، محمد أطفيش.

[١٧] الدليل لأهل العقول، للورجلاني.

[١٨] الإمامة العظمى عند أهل السُّنَّة والجماعة، د/ محمد عبد الله الدميجي.

[١٩] الصواعق المحرقة في الرد على أهل البدع والزندقة، للشيخ أحمد بن حجر الهيثمي.

[٢٠] الجواهر المنتقاة في إتمام ما انحلّ به كتاب الطبقات، للدجيني، معهد المخطوطات، جامعة الدول العربية رقم ١٠٦٧.

[٢١] السيرة وأخبار الأمة في انتشار مذهب الإباضية في المغرب، جامعة الدول العربية للورجلاني، رقم ١٧٣٦.

[٢٢] العبر لابن خُلدون، بيروت، دار الكتب، ١٩٦٧م.

[٢٣] المنهل العذب تاريخ طرابلس الغرب، أحمد النائب الأنصاري، منشورات مكتبة الفرجاني.

[٢٤] البيان المغرب، لابن عذارى، بيروت، ١٣٤٨هـ/ ١٨٥١م.

[٢٥] الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى ، للسلاوي، دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٩٥٤م.

[٢٦] التشريع والفقه الإسلامي، تاريخاً ومنهجاً، للشيخ مناع القطان.

[٢٧] الإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة، لعبد الغني الدقر، دار القلم، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

[٢٨] التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر، تحقيق جماعة من العلماء، ط المغرب، ١٣٧٨هـ/ ١٤٠١هـ.

[٢٩] المدونة الكبرى، الإمام سحنون بن سعيد التنوخي، دار الفكر، دار صادر، بيروت، مطبعة السعادة، مصر.

[٣٠] الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، إبراهيم بن علي بن فرحون اليعمري، دار الكتب العلمية، بيروت.

[٣١] العواصم من القواصم، للقاضي أبي بكر بن العربي، تحقيق: محب الدين الخطيب، الطبعة الخامسة، مكتبة السُّنَّة، ١٤٠٨هـ.

[٣٢] الاستيعاب في معرفة الأصحاب، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر، تحقيق: علي محمد البجاوي ، مطبعة نهضة مصر.

[٣٣] الإصابة في تمييز الصحابة، شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن عبد الله بن محمد بن عبد البر، تحقيق: علي البجاوي، مطبعة النهضة مصر.

[٣٤] البداية والنهاية في التاريخ، إسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق ومراجعة: محمد عبد العزيز النجار، مكتبة الأصمعي، الرياض.

[٣٥] الطبقات الكبرى، محمد بن سعد كاتب الواقدي، طبع دار بيروت للطباعة والنشر.

[٣٦] الكامل في التاريخ ، لأبي الحسن علي بن أبي الكرم، محمد بن محمد الشيباني، دار صادر، بيروت.

[٣٧] المغرب الكبير، محمد علي دبور، دار إحياء الكتب العربية، الطبعة الأولى، ١٩٦٣م.

[٣٨] الخلافة والخوارج في المغرب العربي ، لرفعت فوزي عبد اللطيف، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م.

[٣٩] المحن ، الحافظ أبو العرب التميمي القيرواني، تحقيق: يحيى الجبوري، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١ ، ١٤٠٣هـ.

[٤٠] الشريعة للآجري، أبو بكر محمد بن حسين الآجري، حققه: حامد الفقي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط الأولى، ١٤٠٣هـ.

[٤١] الاعتقاد الخالص من الشك والانتقاد ، تأليف الإمام علاء الدين بن المعطار، حققه وعلق عليه، علي حسن عبد الحميد، الناشر: دار الكتب، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.

[٤٢] المنتقى من منهاج الاعتدال ، للحافظ أبي عبد الله محمد بن عثمان الذهبي، طبعة مكتبة دار البيان، حققه: محب الدين الخطيب.

[٤٣] الفتاوى ، لابن تيمية، أحمد عبد الحليم، جمع وترتيب: عبد الرحمن ابن محمد بن قاسم، نشر: مكتبة المعارف بالرياض.

[٤٤] التاريخ الإسلامي ، لمحمود شاكر المكتب الإسلامي، بيروت، دمشق.

[٤٥] تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس، د. السيد عبد العزيز سالم، د/ أحمد مختار العبادي، بيروت، ١٩٦٩م.

[٤٦] تاريخ الفتح العربي في ليبيا ، للطاهر أحمد الزاوي، دار التراث العربي، ليبيا، الطبعة الثالثة.

[٤٧] تهذيب التهذيب ، لأبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، طبع مجلس دائرة المعارف النظامية، الهند، الطبعة الأولى، ١٣٢٥هـ.

[٤٨] تاريخ الأمم والملوك ، لأبي جعفر محمد بن جرير، تحقيق: محمد أبي الفضل إبراهيم، دار سويدان، بيروت، لبنان.

[٤٩] تاريخ خليفة بن خياط ، لخليفة بن خياط، طبعة عام ١٩٦٧-١٩٦٨م.

[٥٠] تاريخ ليبيا الإسلامي ، عبد اللطيف البرغوثي، منشورات الجامعة الليبية، بيروت، ١٩٧٣م.

[٥١] تاريخ عصر الخلافة العباسية، ليوسف العشي، دار الفكر، سورية، دمشق.

[٥٢] تاريخ المغرب، د. سعد زغلول، مطبعة أطلس في القاهرة، ١٩٧٩م.

[٥٣] تذكرة الحفاظ، شمس الدين الذهبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

[٥٤] جامع الأصول في أحاديث الرسول، للإمام أبي السعادات مبارك بن محمد بن الأثير، تحقيق: محمد حامد، إدارة البحوث والإفتاء والدعوة والإرشاد.

[٥٥] جمهرة النسب ، لهشام الكلبي.

[٥٦] تقريب ا لتهذيب ، ابن حجر، تحقيق: عبد الوهاب عبد اللطيف، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٥هـ.

[٥٧] تاريخ إفريقية والمغرب ، ابن رشيق القيرواني، طبعة تونس، ١٩٦٧م.

[٥٨] جذوة المقتبس في ذكر ولاة طرابلس وولاة الأندلس وأسماء رواة الحديث والأدب وذوي النباهة والشعر ، لأبي عبد الله محمد بن فتوح، الناشر: مكتب نشر الثقافة، القاهرة، مطبعة السعادة مصر، ١٩٥٣م.

[٥٩] ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك ، للقاضي عياض بن موسى اليحصبي، طبعة وزارة الأوقاف بالمغرب.

[٦٠] الفصل في الملل و الأهواء والنحل ، لابن حزم ، لأبي محمد بن حزم الظاهري، مكتبة الخانجي، مصر.

[٦١] تاريخ الإسلام ، حسن إبراهيم حسن، دار الجيل، بيروت، الطبعة الثالثة عشرة، ١٤١١هـ/١٩٩١م.

[٦٢] جامع البيان والعلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله ، ابن عبد البر، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٨هـ.

[٦٣] دراسات إسلامية في أصول الإباضية ، بكر بن سعيد أعوشت.

[٦٤] دراسات إسلامية في تاريخ العرب ، عبد العزيز سالم.

[٦٥] رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم وعُبَّادهم ونُسَّاكهم ، لأبي عبد الله المالكي، نشره: حسين مؤنس، القاهرة ١٩٥١م.

[٦٦] زاد المعاد ، لابن القيم، مؤسسة الرسالة، الطبعة الخامسة عشرة، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، تحقيق: شُعيب وعبد القادر الأرناؤوط.

[٦٧] زاد المسير في علم التفسير، ابن الجوزي: أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي، تحقيق محمد بن عبد الرحمن عبد الله، الطبعة الأولى، نشر دار الفكر، بيروت، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م .

[٦٨] سير أعلام النبلاء، محمد أحمد بن عثمان الذهبي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

[٦٩] شرح العقيدة الطحاوية، للعلامة محمد بن علي بن محمد الأذرعي، خرج أحاديثها: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٣٩١هـ.

[٧٠] شرح النووي على صحيح مسلم، للإمام أبي زكريا/ يحيى بن شرف النووي، نشر وتوزيع: رئاسة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد.

[٧١] صريح السُّنَّة، محمد بن جري الطبري، تحقيق: بدر بن يوسف المعتوق، الطبعة الأولى، نشر دار الخلفاء، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

[٧٢] صحيح البخاري، بحاشية السندي، لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، دار إحياء الكتب العربية، لأصحابها مصطفى البابي وشركاه.

[٧٣] طلقات المعهد الرياضي في حلقات المذهب الإباضي، سالم بن حمود بن شامس السيابي، وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عُمان.

[٧٤] طبقات الإباضية، الدرجيني، معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية، رقم ٣٠٣.

[٧٥] طبقات الفقهاء، إبراهيم بن عليّ الشيرازي، أبو إسحاق، تحقيق: د. إحسان عباس، دار الرائد، بيروت، ط٢، ١٤٠١هـ.

[٧٦] طبقات أبي العرب – طبقات علماء إفريقية ، محمد بن أحمد بن تميم، تحقيق: محمد بن أبي شنب، الجزائر، ١٩١٥م، تصوير دار الكتب، لبنان.

[٧٧] عقيدة أهل السُّنَّة في الصحابة، د/ ناصر بن علي، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.

[٧٨] عقيدة السلف أصحاب الحديث ، للصابوني أبو إسماعيل عبد الرحمن بن إسماعيل، تحقيق: بدر البدر، الطبعة الأولى، نشر الدار السلفية، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

[٧٩] فتح الباري شرح صحيح البخاري، للإمام أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، المطبعة السلفية ومكتبتها، ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي.

[٨٠] فتوح مصر وأخبارها ، لابن عبد الحكم، دار التعاون للطبع والنشر، ١٩٦٨م/١٩٧٤م.

[٨١] ليبيا منذ الفتح العربي، د/ صالح مصطفى مفتاح، منشورات جامعة قار يونس، بنغازي، الطبعة الثانية، ١٩٩٤م.

[٨٢] ليبيا بين الماضي والحاضر، لحسن سليمان محمود القاهرة ١٩٦٢م.

[٨٣] لوامع الأنوار البهية ، محمد بن أحمد السفاريني، مكتبة الرشد، الرياض، طبعة أولى، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م.

[٨٤] مصنف ابن أبي شيبة، أبو بكر بن أبي شيبة، طبع الدار السلفية، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ، بومباي، الهند.

[٨٥] مصنف عبد الرزاق، لعبد الرزاق بن همام الصنعاني، تحقيق: حبيب

الرحمن الأعظمي، طبعة المكتب الإسلامي، بيروت الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ.

[٨٦] معجم البلدان ، لأبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي البغدادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

[٨٧] مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين ، لأبي الحسن الأشعري، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مكتبة النهضة المصرية.

[٨٨] مقدمة شرح أصول اعتقاد أهل السُّنَّة ، للالكائي.

[٨٩] مدرسة الحديث في القيروان ، الحسين بن محمد شواط، الدار العالمية للكتاب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.

[٩٠] معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان ، عبد الرحمن بن محمد الأنصاري، الدباغ، أكمله أبو القاسم بن عيسى بن ناجي، مكتبة الخانجي بمصر، المكتبة العتيقة، تونس، ط٢، ١٩٨٨م.

[٩١] شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، محمد بن مخلوف، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.

[٩٢] مناقب أبي إسحاق الجيشاني، لأبي القاسم اللبيدي، تحقيق: كلية الآداب، الجزائر.

[٩٣] محاضرات في تاريخ المذهب المالكي، د/ عمر الحيدي.

[٩٤] لمعة الاعتقاد والهادي إلى سبيل الرشاد، للإمام موفق الدين أبي محمد عبد الله أحمد بن قدامة، وشرح ابن عثيمين، الناشر: الدار السلفية، ط٢، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

[٩٥] منهج دراسات الأسماء والصفات، لمحمد الأمين الشنقيطي، الناشر الجامعة الإسلامية، الطبعة الثانية، ١٤٠١هـ.

[٩٦] مجموعة الرسائل والمسائل، لابن تيمية، المجموعة الثانية، تحقيق: محمد رشاد سالم، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤م.

[٩٧] منهاج السُنَّة النبوية، لشيخ الإسلام أحمد عبد الحليم بن تيمية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

[٩٨] ميزان الاعتدال في نقد الرجال، لأبي عبد الله بن محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق: دار المعرفة، بيروت، لبنان.

[٩٩] ملامح الانقلاب الإسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز، د/ عماد الدين خليل، مؤسسة الرسالة، الطبعة السابعة، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

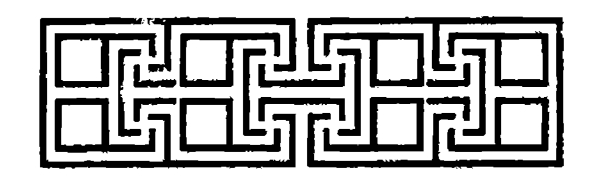
[١٠٠] محاضرات د/ محمد ضيف الله البطاينة، في الجامعة الإسلامية، ١٤١٤هـ.

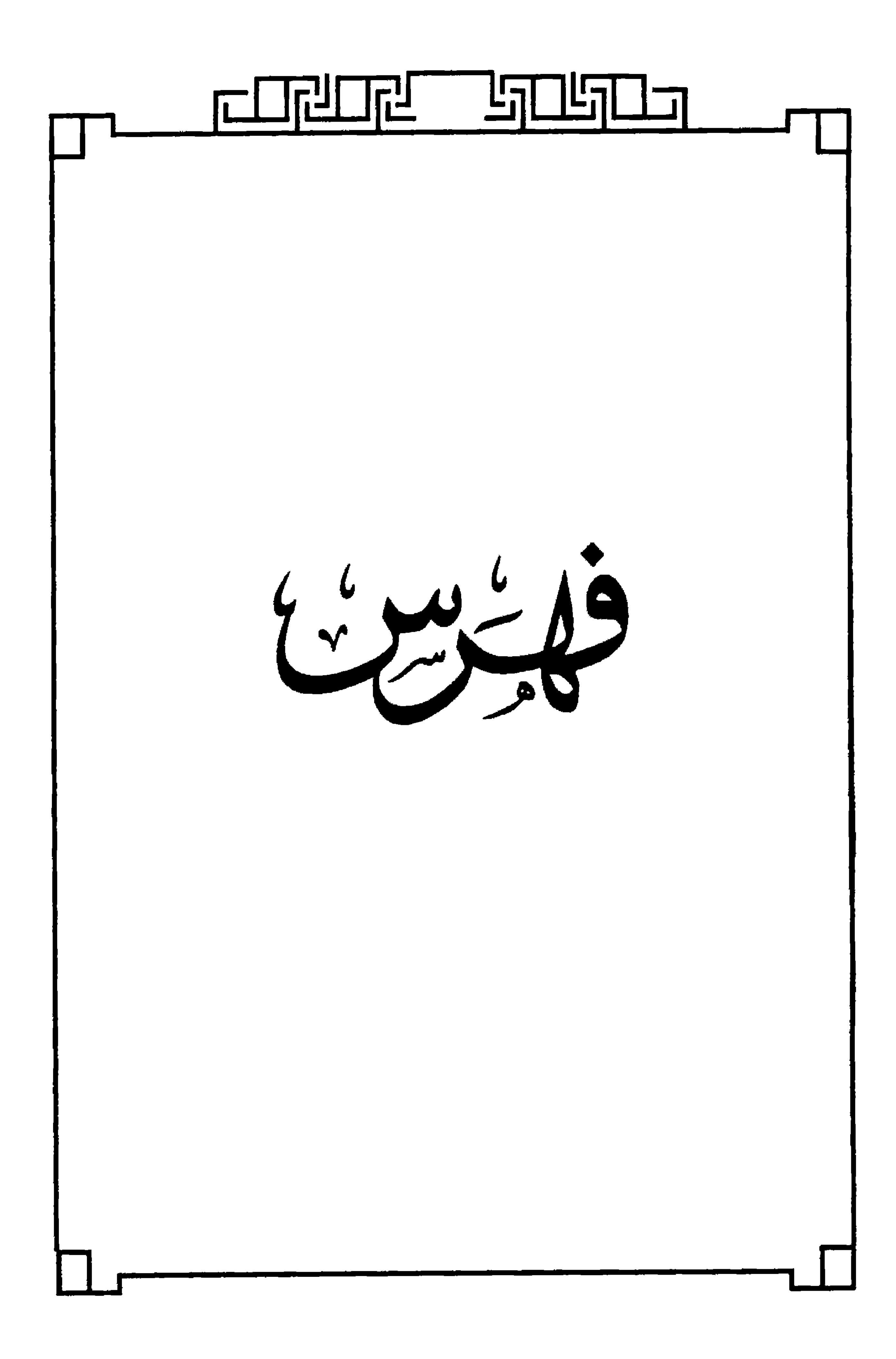
[١٠١] محاضرات الشيخ عبد العزيز ولي، الجامعة الإسلامية، ١٤١٤هـ.

[١٠٢] هدي الساري مقدمة فتح الباري، الحافظ ابن حجر العسقلاني، المطبعة السلفية، ومكتبتها.

[١٠٣] ولاة طرابلس، للطاهر الزاوي، بيروت، ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م.

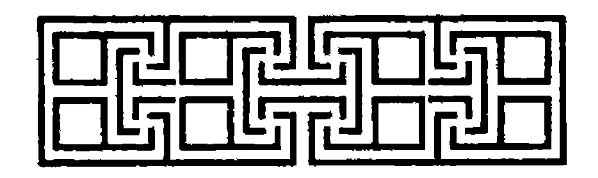
[١٠٤] وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أبو العباس أحمد بن محمد بن خلكان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٣٩٨هـ.




فهرس

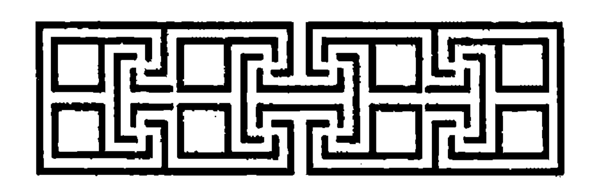
فهرس
حركة
الفتح الإسلامي
في الشمال الإفريقي

رقم الصفحة



فهرس
عصر الدولتين
الأموية والعباسية

رقم الصفحة



صفحات مشرقة من
التاريخ الإسلامي

الدكتور
علي محمد محمد الصلابي

دار الإيمان
إسكندرية

دار القمة
لتوزيع الكتاب والشريط الإسلامي
تليفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩ ت: ٥٤٤٦٤٩٦

صفحات مشرقة من

التاريخ الإسلامي

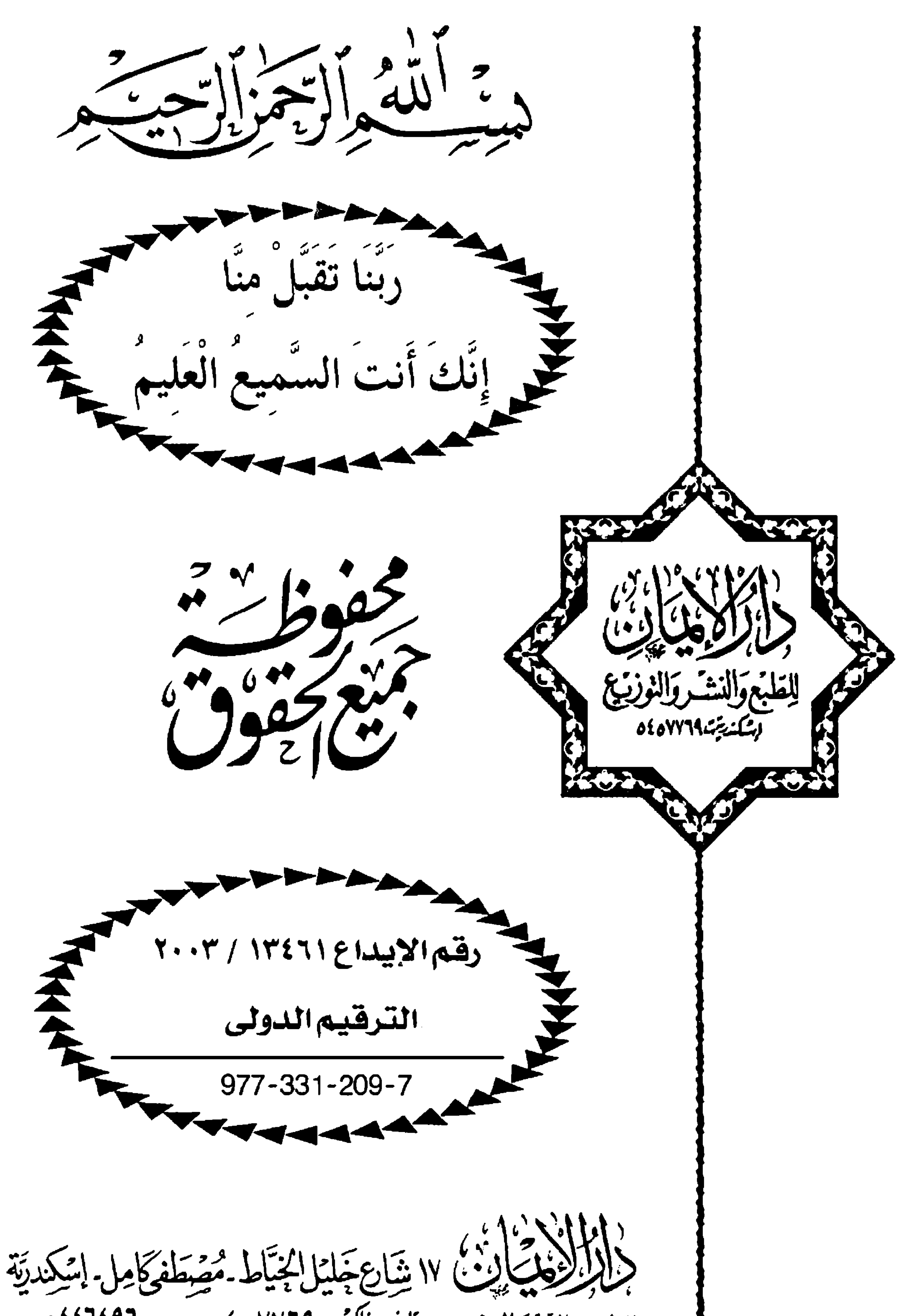
تأليف الدكتور

علي محمد محمد الصلابي

الجزء الثاني

دار القمة
لتوزيع الكتاب والشريط الإسلامي
فاكس: ٥٤٥١١٧٦٩ ت: ٥٢٢٢٠٠٢

دار الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع
إسكندرية ت ٥٤٥٧٧٦٩

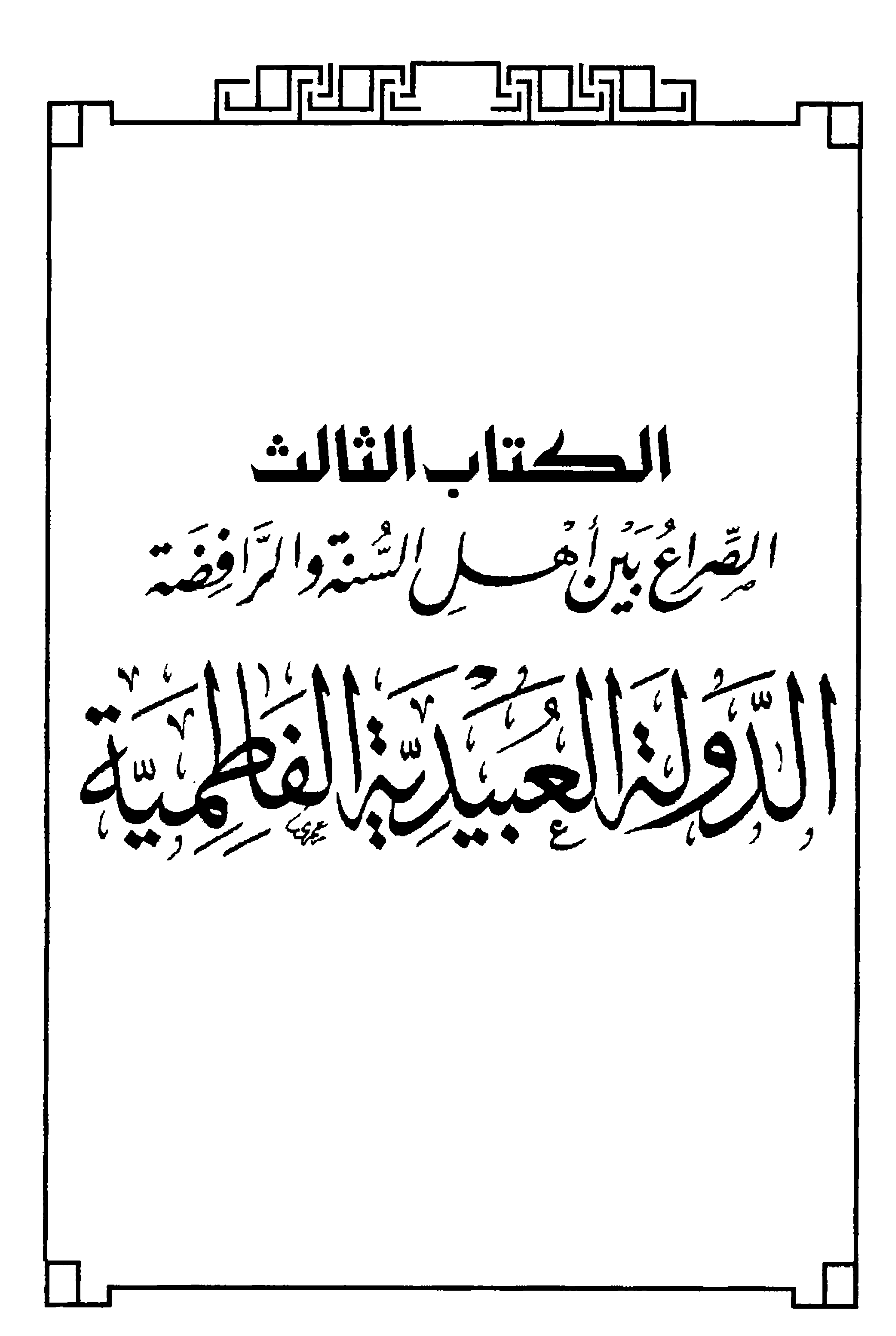


رقم الإيداع ١٣٤٦١ / ٢٠٠٣

الترقيم الدولى

977-331-209-7

دار الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع
١٧ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - إسكندرية
تليفون وفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩ ت: ٥٤٤٦٤٩٦



الكتاب الثالث

الصراع بين أهل السنة والرافضة

الدولة العبيدية الفاطمية

مُقدِّمة

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا ، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ** ﴾ .

[آل عمران: ١٠٢] .

﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا** ﴾ [النساء: ١] .

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا** ﴾ [الأحزاب: ٧٠ - ٧١] .

أما بعد :

يارب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك، وعظيم سلطانك، لك الحمد حتى ترضى ولك الحمد إذا رضيت.

هذا الكتاب الثالث[**صفحات من التاريخ الإسلامي في الشمال الإفريقي**] يتحدث عن الدولة[**العبيدية - الفاطمية** -] الرافضية منذ نشأتها وحتى سقوطها، ويتعرض للبحث في فرق الشيعة وخطرها على الأمة الإسلامية المجيدة، ويحاول أن يُسلط الأضواء على أسباب نجاح الدولة الباطنية في الشمال الإفريقي، ويبين حقيقة الصراع بين الرافضة وأهل السُّنَّة ، ويذكر أساليب الرافضة المتنوعة في محاربة أهل السُّنَّة ، وموقف أهل السُّنَّة من ذلك، ويتطرق إلى المجهودات العظيمة التي قام بها أهالي الشمال الإفريقي للقضاء على الدولة العبيدية ودور العلماء من أهل السُّنَّة في التعليم والتربية وحمل السلاح ضد الروافض.

ويسلط الأضواء على تأثير الدولة الصنهاجية في نشر معتقدات أهل السُّنَّة، وإزالة جذور الروافض من الشمال الإفريقي كله، وخصوصاً في زمن المعز بن باديس الصنهاجي وابنه تميم بن المعز، ويسرد الأحداث التي وقعت بين الدولة العبيدية في مصر والدولة الصنهاجية، ويشرح الأسباب التي كانت سبباً في سقوط الدولة الصنهاجية، وينتقل بالقارئ إلى الصراع بين الروافض في مصر وأهل السُّنَّة في العراق ليؤكد على معنى مهم، وهو أن تاريخ الشمال الإفريقي جزء من تاريخ الأمة يتأثر بالأحداث التي تقع في مصر والحجاز والشام والعراق وفي غيرها سلباً وإيجاباً، وأننا لا نستطيع أن نفصل تاريخ الأمة بعضه عن بعض، ويركز على فقه التمكين عند القائدين العظيمين نور الدين محمود، وصلاح الدين من خلال سيرتهم الجهادية المباركة، وعن جهود العلماء والمحدثين والمربين الذين ساهموا في ظهور جيل النصر والتمكين، ويحاول أن يفسر سُنن الله في المجتمعات والدول والشعوب من خلال التفسير التاريخي للأحداث، ويشير إلى أهمية معرفة سُنن الله، وكيفية التعامل معها من خلال الوقائع التاريخية وأهمية العلماء في قيادة الأمة نحو المجد والعزة والكرامة والحرص على الأخذ بالأسباب المادية والمعنوية التي يتحقق بها النصر على الأعداء ويتحدث عن أهمية سُنَّة التدرج في تغيير الشعوب وبناء الدول، ويعطي للتربية النبوية والقرآنية أهمية قصوى في تحقيق الأهداف العظمى للأمة سواء على مستوى القادة في أخلاقهم وعلمهم، وجهادهم أو مستوى الشعوب في استجابتها لكتاب ربها وسُنَّة نبيها وقيادتها المخلصة.

وهذا الجهد المتواضع لم يأت بجديد، وإنما هو جمع وترتيب ومحاولة للتحليل والتفسير للأحداث التاريخية في هذه الحقبة الزمنية التي وقعت في الشمال الإفريقي، والتي تأثرت بالمشرق الإسلامي في حركتها التاريخية، فإن كان خيراً فمن الله وحده، وإن أخطأت السبيل فأنا عنه راجع إن تبين لي ذلك، والمجال

مفتوح للنقد والرد والتعليق والتوجيه.

وهدفي من هذا الكتاب:

﴿ ١ ﴾ التأكيد على أن أصول المد الإسلامي في بلادنا أصول سنية لا شيعية ولا خارجية، وإنما ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه.

﴿ ٢ ﴾ تسهيل مبدأ الاعتبار والاتعاظ بمعرفة أحوال الدول وعوامل بنائها، وأسباب سقوطها، والنظر في سُنن الله في الآفاق وفي الأنفس والمجتمعات.

﴿ ٣ ﴾ الاهتمام بمعرفة عقيدة أهل السُّنَّة والجماعة، وتربية أبناء الأمة عليها وكشف معتقدات الروافض التي تخالف القرآن الكريم، وسُنَّة سيد المرسلين ﷺ وإجماع العلماء الراسخين.

﴿ ٤ ﴾ التعريف ببعض القادة الربانيين في المغرب، كالمعز بن باديس، وتميم بن المعز، وفي المشرق كنور الدين محمود، وصلاح الدين الأيوبي، حتى تستفيد من سيرتهم العطرة أجيال المسلمين التي تنشد النصر والتمكين لدين الله تعالى.

﴿ ٥ ﴾ إثراء المكتبة الإسلامية التاريخية بالأبحاث المنبثقة عن عقيدة صحيحة وتصور سليم بعيداً عن سموم المستشرقين، وأفكار العلمانيين الذين يسعون لقلب الحقائق التاريخية من أجل خدمة أهدافهم.

أما خطة الكتاب فقد قمت بتقسيمه إلى أربعة فصول:

الفصل الأول: الدولة الشيعية في الشمال الإفريقي:

ويشتمل على خمسة مباحث:

المبحث الأول: الشيعة في اللغة:

أولاً: تعريف الشيعة لغة واصطلاحاً.

ثانياً: تعريف الرافضة.

ثالثاً: سبب تسميتهم بهذا الاسم.

الفصل الثالث : الدولة الصنهاجية :

ويشتمل على ستة مباحث.

الفصل الرابع : أسباب سقوط الدولة العبيدية :

ويشتمل على ثلاثة مباحث :

المبحث الأول: أسباب سقوط الدولة العبيدية.

المبحث الثاني: نور الدين محمود.

- توحيد بلاد الشام والديار المصرية.
- وفاة نور الدين.

المبحث الثالث: صلاح الدين الأيوبي.

[أ] القاضي الفاضل.

- وفاته.

[ب] وفاة السلطان الناصر صلاح الدين.

[جـ] الملامح الرئيسية في شخصية صلاح الدين.

[د] من أروع المراثي في صلاح الدين.

[هـ] من أروع الرسائل في أخبار وفاة صلاح الدين.

ثم نتائج البحث.

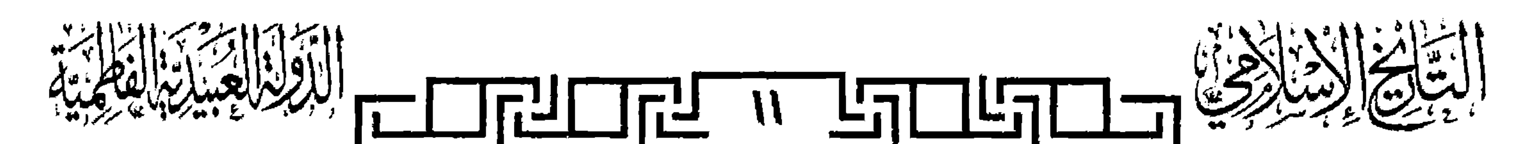
وأخيراً: أرجو من الله تعالى أن يكون عملاً خالصاً لوجهه الكريم، وأن يثيبني على كل حرف كتبته ويجعله في ميزان حسناتي، وأن يثيب إخواني الذين أعانوني بكافة ما يملكون من أجل إتمام هذا الكتاب.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

كتبه

علي محمد محمد الصلابي

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين



الفصل الأول
الدولة الشيعية في الشمال الإفريقي

المبحث الأول
الشيعة في اللغة

قال الجوهري - رحمة الله - :

« **شيعة الرجل**: أتباعه وأنصاره ، يقال: شايعه كما يقال: والاه من الولي.. وتشيع الرجل أي: ادعى دعوى الشيعة، وتشايع القوم صاروا شيعاً، وكلُّ قومٍ أمرهم واحد يَتْبَع بعضُهم رأي بعض فهم شِيَعٌ، وقوله تعالى: ﴿ **كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ** ﴾ [سبأ: ٥٤] أي بأمثالهم من الأمم الماضية [١] .

وجاء في المصباح المنير: « والشيعة الأتباع والأنصار، وكل قوم اجتمعوا على أمر فهم شيعة، ثم صارت الشيعة نبزاً – أي وصفاً – لجماعة مخصوصة والجمع شيع مثل سدرة وسدر، والأشياع جمع الجمع وشيعت رمضان بست من شوال أتبعته بها » [٢] .

فالشيعة : من حيث مدلولها اللغوي تعني: القوم والصحب والأتباع والأعوان، وقد ورد هذا المعنى فى بعض آيات القرآن الكريم كما في قوله تعالى: ﴿ **فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ هَذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ** ﴾ [القصص: ١٥] .

وقوله تعالى: ﴿ **وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لإِبْرَاهِيمَ** ﴾ [الصافات: ٨٣] .

فلفظ الشيعة في الآية الأولى تعني القوم، وفي الثانية: تشير إلى الأتباع الذين

---

(١) الصحاح للجواهري، ولسان العرب: « شيع ».

(٢) المصباح المنير :« شيع ».

يوافقون على الرأي والمنهج ويشاركون فيهما [١] .

أولاً : تعريف الشيعة اصطلاحاً :

كلمة « شيعة » اتخذت معنى اصطلاحياً مستقلاً حيث أطلقت على جماعة اعتقدوا أن الإمامة ليست من المصالح العامة التي ترجع إلى نظر الأمة، ويتعين القائم بها بتعيينهم، بل إنها ركن الدين وقاعدة الإسلام، ولا يجوز لنبي إغفالها ولا تفويضها إلى الأمة، بل يجب عليه أن يعين الإمام للأمة [٢] .

فقد قال أبو الحسن الأشعري في صدد ذكره للشيعة : « وإنما قيل لهم الشيعة : لأنهم شايعوا علياً رضي الله عنه، ويقدمونه على سائر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم » [٣] .

وقال عبد الرحمن بن خلدون : « اعلم أن الشيعة لغة هم الصحب والأتباع ويطلق في عرف الفقهاء والمتكلمين من الخلف والسلف على أتباع عليّ وبنيه رضي الله عنهم ومذهبهم جميعًا متفقين عليه أن الإمامة ليست من المصالح العامة التي تفوض نظر الأمة، بل يجب عليه تعيين الإمام لهم ويكون معصوماً من الكبائر والصغائر، وإن علياً رضي الله عنه هو الذي عينه صلوات الله وسلامه عليه بنصوص ينقلونها ويؤولونها على مقتضى مذهبهم لا يعرفها جهابذة السُّنَّة ولا نقلة الشريعة، بل أكثرها موضوع أو مطعون في طريقه أو بعيد عن تأويلاتهم الفاسدة » [٤] .

ثانياً : تعريف الرافضة :

الرفـض لغـة : الترك وقد رفضه يرفضه رفضاً .

قال الأصمعي : « سموا بذلك لتركهم زيد بن علي رضي الله عنه » [٥] . [٦] .

---

(١) المصباح المنير (جـ١ ـ ٣٢٩) .

(٢) انظر : مقدمة ابن خلدون، ص (١٩٦ ـ ١٩٧).

(٣) مقالات الإسلاميين (جـ١ / ٦٥).

(٤) مقدمة ابن خلدون؛ ص (١٦٩ ـ ١٩٧).

(٥) الصحاح للجوهري، (جـ٢ / ١٠٧٨)، لسان العرب (جـ٧ / ١٥٧) : « رفض » .

(٦) هو : زيد بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنهم .

فالرفض في اللغة معناه : الترك والتخلي عن الشيء.

وأما في الاصطلاح: هم قوم من الشيعة سموا بذلك، لأنهم تركوا زيد بن علي.

قال الأصمعي: «كانوا بايعوه ثم قالوا له: ابْرأ من الشيخين نقاتل معك، فأبى، وقال: كانا وزيرَيْ جدِّي فلا أبْرَأ منهما، فرَفَضُوه، وانْفَضُّوا عنه فسُموُا رافضة» (١) .

قال عبد الله بن أحمد رحمه الله: قلت لأبي: «من الرافضي ؟ قال: الذي يشتم ويسب أبا بكر وعمر» (٢) .

ثالثا: سبب تسميتهم بهذا الاسم :

عندما خرج زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ﷺ على هشام ابن عبد الملك كان في جيشه من يشتم أبا بكر وعمر فمنعهم، فرفضوه، ولم يبق معه إلا مئتا فارس، فقال لهم - أي زيد بن علي -: رفضتموني، قالوا: نعم، فبقي عليهم هذا الاسم (٣) ، وكان ذلك في سنة اثنتين وعشرين ومئة.

يقول ابن كثير - رحمة الله - في صدد بيانه ما حدث في هذه السنة :

« فيها كان مقتل زيد بن عليّ بن الحسين ابن عليّ بن أبي طالب، وكان سبب ذلك أنه لما أخذ البيعة ممن بايعه من أهل الكوفة أمرهم في أول هذه السُّنَّة بالخروج والتأهب له، فشرعوا في أخذ الأهبة لذلك، فانطلق رجل يُقال له سليمان بن سراقة إلى يوسف بن عمر نائب العراق فأخبره - وهو بالحيرة يومئذ - خبر زيد ابن علي هذا ومن معه من أهل الكوفة فبعث يوسف ابن عمر يتطلبه ويلح في طلبه، فلما علمت الشيعة ذلك اجتمعوا عند زيد بن علي فقالوا له : ما قولك - يرحمك الله - في أبي بكر وعمر ؟ فقال: غفر الله لهما ما سمعت

---

(١) لسان العرب (جـ٧/١٥٧) .

(٢) مناقب الإمام أحمد بن الجوزي، ص (١٦٥) .

(٣) اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، ص (٥٢) .

أحداً من أهل بيتي تبرأ منهما، وأنا لا أقول فيهما إلا خيراً، قالوا: فلم تطالب إذاً بدم أهل البيت؟ فقال: إنا كنا أحق الناس بهذا الأمر، ولكن القوم استأثروا علينا به ودفعونا عنه، ولم يبلغ ذلك عندنا بهم كفراً، وقد وُلُّوا فعدلوا وعملوا بالكتاب والسُّنَّة، قالوا: فلم تقاتل هؤلاء إذاً؟ قال: إن هؤلاء ليسوا كأولئك، إن هؤلاء ظلموا الناس وظلموا أنفسهم، وإني أدعو إلى كتاب الله وسُنَّة نبيه ﷺ وإحياء السُّنن وإماتة البدع، فإن تسمعوا يكن خيراً لكم ولي، وإن تأبوا فلست عليكم بوكيل، فرفضوه وانصرفوا عنه ونقضوا بيعته وتركوه، فلهذا سموا الرافضة من يومئذٍ»[1].

وبهذا يتبين سبب تسميتهم بالرافضة، لرفضهم زيد بن علي الذي منعهم من سب الشيخين رضي الله عنهما، وأصبحت كلمة الرافضة تطلق على كل من غلا في مذهب الشيعة وأجاز الطعن في الصحابة.

رابعا: بداية نشأة التشيع:

تذكر كتب التاريخ أن أول من زرع فكرة التشيع في الأمة رجل يهودي يُقال له عبد الله بن سبأ أظهر الإسلام للطعن فيه، وكان ذلك زمن الخليفة الراشد ذي النورين عثمان بن عفان رضي الله عنه، وتنقل ابن سبأ بين المدينة والبصرة والكوفة ومصر والشام، والتف حوله المفسدون والحاقدون من المنافقين والجهال بحقيقة الدين.

ونشط ابن سبأ المعروف بابن السوداء في بث فكرتين أساسيتين لأهدافه اليهودية هما:

الأولى: دعوته إلى اعتقاد رجعة النبي ﷺ وكان يقول: «عجباً ممن يزعم أن عيسى سيرجع ويكذب بأن محمداً سيرجع، وقد قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ**﴾ [القصص: ٨٥].

الثانية: دعوته إلى اعتقاد «أن لكل نبي وصياً وعلي وصي لمحمد، ومحمد

---

(١) البداية والنهاية (جـ٩ / ٣٧٠ - ٣٧١)

خاتم الأنبياء، وعلي خاتم الأوصياء، ومن أظلم ممن يمنع وصية رسول الله ﷺ ووثب على حق وصيته وتناول أمر الأمة».

وأرسل ابن سبأ أصحابه وأتباعه في الأمصار ليكتبوا ظلماً وزوراً وبهتاناً للطعن فى الولاة، وينسبوا ذلك لخليفة المسلمين وحثهم على الظهور بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حتى يلتف حولهم العوام، وزوروا رسائل نسبوها إلى عثمان رضي الله عنه للدس والوقيعة بين الأمة وخليفتها وولاتها.

وهيج الأمصار واستجاب أهل البصرة والكوفة ومصر لأهدافة القريبة، وكان من نتائج دسائسة قتل الخليفة الراشد عثمان رضي الله عنه بغير حق ظلماً وعدواناً.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - مبيناً أن ابن سبأ أول من أحدث الرفض والغلو المذموم ، قال: «وأصل الرفض من المنافقين والزنادقة فإنه ابتدعه ابن سبأ الزنديق وأظهر الغلو في علي بدعوى الإمامة والنص عليه وادعى العصمة له» (١) .

وذكر أيضاً: «أن ابن سبأ المنافق الزنديق أراد فساد دين الإسلام، وأراد أن يصنع بالمسلمين ما صنع بولس بالنصارى لكن لم يتأت له ما تأتى لبولس لضعف النصارى وعقلهم، فإن المسيح عليه السلام رُفِعَ ولم يتبعه خلق كثير يعلمون دينه ، ويقومون به علماً وعملاً، فلما ابتدع بولس ما ابتدع من الغلو في المسيح تبعه على ذلك طوائف أحبوا الغلو في المسيح، فقام أهل الحق فخالفوهم وأنكروا عليهم فقتلت الملوك بعضهم، وبعضهم اعتزلوا في الصوامع والأديرة، وهذه الأمة ولله الحمد لايزال فيها طائفة ظاهرة على الحق، فلا يتمكن ملحد ولا مبتدع من إفساده بغلو أو انتصار على الحق، ولكن يضل من يتبعه على ضلاله» (٢) .

ولوضوح خبثه وكيده وشدة حقده على الإسلام والمسلمين لم يذكره أحد من

---

(١) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية(جـ٤ / ٤٣٥) .

(٢) منهاج السنة(جـ٣ / ٢٦١) .

أهل الإيمان بخير، وإنما وصفوه بأنه أول من سن لأهل الخذلان النيل من أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ووصفوه بالخبث والكذب والنفاق والزندقة وبأنه ضال مضل.

ذكر ابن حجر من طريق أبي إسحاق الفزاري: أن سويد بن غفلة دخل على عليّ في إمارته، فقال إني مررت بنفر يذكرون أبا بكر وعمر ويرون أنك تضمر لهما مثل ذلك، فقال علي: ما لي ولهذا الخبيث الأسود، ثم قال: معاذ الله أن أضمر لهما إلا الحسن الجميل، ثم أرسل إلى عبد الله بن سبأ فسيره إلى المدائن، وقال: لا يساكنني في بلدة أبداً، ثم نهض إلى المنبر حتى اجتمع الناس، ثم أثنى على الشيخين ثناءً طويلاً، وقال في آخره: «ألا ولا يبلغني عن أحد يفضلني عليهما إلا جلدته حد المفتري» [١].

وتذكر بعض الروايات أن علياً رضي الله عنه هم بقتله ودعا بالسيف، فكلم فيه، فقال: لا يساكنني ببلد أنا فيه، قال: فسيره إلى المدائن [٢].

وذكر ابن عساكر بإسناده إلى أبي الجلاسي قال: سمعت علياً يقول لعبد الله السبئي: «ويلك والله ما أفضى إليّ بشيء كتمه أحد من الناس وقد سمعته يقول: إن بين يدي الساعة ثلاثين كذاباً وإنك لأحدهم» [٣].

فعلي رضي الله عنه حكم على ابن سبأ بأنه خبيث، وَهَمَّ بقتله ولما تراجع عن قتله نفاه إلى المدائن، وبين بأنه أحد الدجالين.

وقال الحافظ الذهبي في شأن ابن سبأ: «عبد الله بن سبأ من غلاة الزنادقة ضال مضل أحسب أن علياً حرقه بالنار، وزعم أن القرآن جزء من تسعة أجزاء وعلمه علي فنفاه عليّ بعد ما هم به» [٤].

---

(١) **انظر**: تلبيس إبليس لابن الجوزي ص (١٠٠-١٠١).

(٢) تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر (جـ ٣٤/٧).

(٣) المصدر السابق (جـ ٣٤/٦).

(٤) ميزان الاعتدال (٢/٤٢٦).

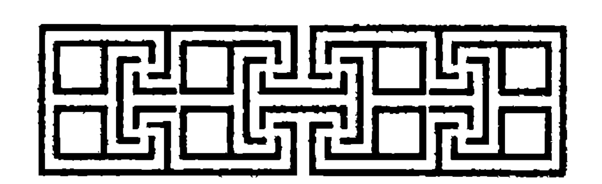
وقال الحافظ ابن حجر بعد أن أورد روايات في ذمه :

« وأخبار عبد الله بن سبأ شهيرة في التواريخ وليست له رواية ولله الحمد وله أتباع يُقال لهم السبئية يعتقدون إلهية علي بن أبي طالب، وقد أحرقهم علي بالنار في خلافته » (١) .

قلت : والحرق بالنار منهي عنه شرعاً ، كان يكفي قتلهم بالسيف .

وبذلك يتضح للقارئ الكريم أن ابن سبأ اليهودي هو أول من زرع فكرة التشيع وقال بالرجعة والوصية وتلقفها عنه أتباعه وبعض من قلَّتْ بضاعتهم من العلم والهدى (٢) .

والدارس للتاريخ يتضح له أن الأمة في هزاتها العنيفة يكون سببها رجال حاقدون على الإسلام، ويُتْقِنون دور التخفي بين أوساط المسلمين ولا يكلون ولا يملون من بذر ونشر أفكارهم الشيطانية المناهضة للعقيدة الإسلامية المنبثقة من كتاب الله وسُنَّة النبي ﷺ .



---

(١) لسان الميزان (٣/ ١٢٢، ١٢٣).

(٢) ابن سبأ حقيقة لا خيال (سعدي الهاشمي).

المبحث الثاني

التعريف بأهم فرق الشيعة

إن علماء الفرق صنفوا كتباً كثيرة في فرق الشيعة ورأيت في بحثي هذا أن أذكر أسماءها ولا أتعرض بالتفصيل منها إلا للباطنية لكونها حكمت الشمال الإفريقي، والاثنى عشرية لكونها لها دولة حالياً تقوم بنشر ودعم المذهب الشيعي، وللنصيرية لكونها تحكم سوريا منذ بداية السبعينات حتى الآن،**ومن فرق الشيعة التي ذكرها علماء الفرق:**

السبئية، والغرابية، والبياتية، والمغيرية، والهاشمية، والخطابية، والعلبائية والكيسانية، والزيدية الجاردوية، والسليمانية، والصالحية، والبترية، وبعض هذه الفرق غالت غلواً عظيماً والبعض الآخر أقل غلواً، ومن أراد الاستزادة فليراجع مقالات الإسلاميين لأبي الحسن الأشعري، والملل والنحل للشهرستاني، والفرق بين الفِرق، لأبي الطاهري البغداداي.

أولاً: النصيرية:

وتعتبر هذه الفرقة من غلاة الشيعة وينتسبون إلى محمد بن نصير النميري وقد انبثقت هذه الفرقة من الاثنى عشرية «الرافضة» وغالوا في علي بن أبي طالب رضي الله عنه حتى ألَّهُوه.

واشتهرت هذه الفرقة بحرب الإسلام والمسلمين وبمناصرة النصارى الحاقدين والوقوف مع التتار المفسدين، كما اشتهرت بالإلحاد في أسماء الله وآياته وتحريف كلام الله وكلام رسوله ﷺ عن مواضعه، وإليك ما قال شيخ الإسلام عن النصيرية في إجابته عن سؤال عنهم: «الحمد لله رب العالمين، هؤلاء القوم المتسمون بالنصيرية هم وسائر أصناف القرامطة الباطنية أكفر من اليهود والنصارى، بل

وأكفر من كثير من المشركين، وضررهم على أمة محمد ﷺ أعظم من ضرر الكفار المحاربين مثل كفار التتار والإفرنج وغيرهم، فإن هؤلاء يتظاهرون عند جُهال المسلمين بالتشيع وموالاة أهل البيت، وهم في الحقيقة لا يؤمنون بالله ولا برسوله ولا بكتابه، ولا بأمر ولا نهي، ولا ثواب ولا عقاب، ولا جنة ولا نار، ولا بأحد من المرسلين قبل محمد ﷺ ولا بملة من الملل السالفة، بل يأخذون كلام الله ورسوله المعروف عند علماء المسلمين، يتأولونه على أمور يفترونها يدعون أنها علم الباطن وليس لهم حد محدود فيما يدعونه من الإلحاد في أسماء الله تعالى وآياته وتحريف كلام الله تعالى ورسوله عن مواضعه » إلى أن قال: « ومن المعلوم عندنا أن السواحل الشامية إنما استولى عليها النصارى من جهتهم وهم دائماً مع كل عدو للمسلمين، فهم مع النصارى على المسلمين، ومن أعظم المصائب عندهم انتصار المسلمين على التتار، ومن أعظم أعيادهم إذا استولى - والعياذ بالله تعالى - النصارى على ثغور المسلمين .

فهؤلاء المعادون لله ورسوله كثروا حينئذٍ على السواحل وغيرها فاستولى النصارى على الساحل، ثم بسببهم استولوا على القدس الشريف وغيره، فإن أحوالهم السيئة كانت من أعظم الأسباب في ذلك، ثم لما أقام الله ملوك المسلمين المجاهدين في سبيل الله تعالى كـ: نور الدين الشهيد، وصلاح الدين وأتباعهما وفتحوا السواحل من النصارى، وممن كان بها منهم وفتحوا أيضاً أرض مصر، فإنهم كانوا مستولين عليها نحو مائتي سنة، واتفقوا هم والنصارى، فجاهدهم المسلمون حتى فتحوا البلاد... ثم إن التتار ما دخلوا بلاد الإسلام وقتلوا خليفة بغداد وغيره من ملوك المسلمين إلا بمعاونتهم ومؤازرتهم... ولهم ألقاب معروفة عند المسلمين تارةً يسمون « الملاحدة »وتارة يسمون « القرامطة »وتارةً يسمون « الباطنية »وتارة يسمون « الإسماعيلية »وتارةً يسمون « الخرمية »وتارة يسمون « المحمرة ».

وهذه الأسماء منها ما يعمهم ومنها ما يخص بعض أصنافهم ولا ريب أن جهاد هؤلاء وإقامة الحدود عليهم من أعظم الطاعات وأكبر الواجبات وهو أفضل من جهاد من لا يقاتل المسلمين من المشركين وأهل الكتاب فإن جهاد هؤلاء من جنس جهاد المرتدين، والصديق وسائر الصحابة ﷺ بدءوا بجهاد المرتدين قبل الكفار من أهل الكتاب ، فضرر هؤلاء على المسلمين أعظم من ضرر أولئك. ويجب على كل مسلم أن يقوم بذلك على حسب ما يقدر عليه من الواجب فلا يحل لأحد أن يكتم ما يعرفه عن أخبارهم، بل يفشيها ويظهرها ليعرف المسلمون حقيقة حالهم ولا يحل لأحد السكوت عن القيام عليهم بما أمر الله ورسوله... والمعاون على كف شرهم وهدايتهم بحسب الإمكان له من الأجر والثواب ما لا يعلمه إلا الله تعالى » (١) .

وهذه الفرقة الخبيثة سمت نفسها في العصر الحاضر بالعلويين وفي فترة الاحتلال الفرنسي لبلاد الشام وقفت هذه الفرقة مع النصارى الغزاة الحاقدين، وما خرج الاستعمار الفرنسي حتى مكنهم من سوريا وعندما تقلدوا أمور البلاد انتقموا من أهل السُّنَّة انتقاماً تشيب منه الولدان وتضع كل ذات حمل حملها من شدة التعذيب، وزهق النفوس، واغتصاب العفائف الحرائر من نساء أهل السُّنَّة ، والزج بهن وبالرجال في السجون، ولا يزال هؤلاء الحاقدون يتقلدون أمر عاصمة بلاد الشام، نسأل الله أن يعجل بأخذهم ويمكن لأهل دينه وشريعته.

وهم ينتشرون في جبال اللاذقية،وحماة وحمص في سوريا وفي لواء الإسكندرونة وطرطوس وأدنة ، أو أظنه «في تركيا حالياً » وفي كردستان وغيرها (٢) .

---

(١) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية (جـ ٣٥/١٤٩-١٥٩).

(٢) انظر : الموجز في الأديان والمذاهب لناصر العقل والقفاري ص (١٣٧).

ومن عقائدهم الفاسدة :

[١] **تأليه الإمام علي بن أبي طالب** ﷺ :ويعتقدون أنه يسكن السحاب، والرعد صوته، والبرق ضحكه ، وهم لهذا يعظمون السحاب ، ومنهم من يعتقد أن علياً يسكن في القمر أو الشمس.

[٢] **تناسخ الأرواح** :عقيدة من عقائدهم ، فالذين لا يعبدون علياً يولدون – في زعمهم – من جديد على شكل إبل أو حمير، أما المؤمن « وهو من يعبد علياً عندهم » فيتحول عندهم سبع مرات ، ثم يأخذ مكانه بين النجوم، ومن ينحرف منهم يولد من جديد، حتى يتطهر ويكفر عن سيئاته [١] .

وغير ذلك من العقائد الفاسدة.

ولهم أعياد يحتفلون بها يقدمون فيها النبيذ ويرتكبون الفواحش وهي: عيد الغطاس، والبربارا، وهما عيدان نصرانيان وعيد « النيروز » وهو مجوسي [٢] .

ويعتبرون هذه الديانة الفاسدة سر من الأسرار، ونساؤهم لا دين لهن مطلقاً، لأنهم يعتبروهن ضعيفات العقول لا يستطعن حفظ الأسرار، والرجل لا يطلع على سر دينه إلا بعد أن يبلغ التاسعة عشرة من عمره، فيلقن العقيدة النصيرية في جلسات خاصة ووسط مؤثرات شتى، وإرهاب فكري، وطقوس عجيبة، وتجد هذا فى كتاب « الباروكة السليمانية » لسليمان الأردني الذي كان نصيرياً ثم تنصر، فألف هذا الكتاب، ولا زال به أهله حتى أماتوه شر ميتة بإحراقه حياً [٣] .

والذي يجدر الانتباه له أن الدول النصرانية « أمريكا، بريطانيا، فرنسا . . إلخ » وإسرائيل يحرصون على طعن الأمة بهذه الخناجر المسمومة ، بتقويتها

---

(١)المصدر السابق، ص (١٣٨)

(٢)المصدر السابق، ص (١٣٩)

(٣)انظر: الموجز في الأديان والمذاهب لناصر العقل والقفازي، ص (١٤٠)

والوقوف معها حتى تصل إلى الحكم لعلمهم أن هذا المسلك من أفضل الوسائل في إضعاف أمة الإسلام ﴿ ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ﴾ .

[الأنفال : ٣٠] [١] .

ثانياً: الشيعة الاثنا عشرية :

ولهم أسماء كثيرة اشتهرت بين الناس منها : الإمامية لأنهم يقولون بوجوب الإمامة بالنص الظاهر والتعيين الصادق .

ويقول صاحب كتاب « أعيان الشيعة » إن هذا الاسم « لقب ينبذ به من يقدم علياً عليه السلام في الخلافة، وأكثر ما يستعمل للتشفي والانتقام » [٢] .

إلا أن الكليني الشيعي في كتابه الكافي وهو عمدة في مذهبهم بل أعظم كتاب عندهم ينزلونه منزلة صحيح البخاري عند أهل السنّة ساق ما يدل على أنهم راضون بهذا الاسم واللقب، ويكذبون على الله ويختلفون الإفك ويقولون إن الله خلع عليهم اسم الروافض [٣] والقوم اشتهروا بالوقاحة وعدم المبالاة بالافتراء على الله وعلى خلقه .

ومن الأسماء التي اشتهروا بها اسم « الاثنى عشرية » لقولهم واعتقادهم بإمامة اثنى عشر إماماً وهم على هذا الترتيب :

[١] أبو الحسن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه (ت ٤٠ هـ) .

[٢] الحسن بن عليّ بن أبى طالب رضي الله عنه (ت ٥٠ هـ) .

[٣] الحسين بن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه (ت ٦١ هـ) .

[٤] عليّ زين العابدين بن الحسين بن علي (ت ٩٥ هـ) .

---

(١) من أراد الزيادة عن النصيرية فليراجع تاريخ المذاهب الإسلامية لأبي زهرة العلويون، أو النصيرية للعسكري، فتاوى ابن تيمية، (جـ ٣٥) .

(٢) أعيان الشيعة لمحسن الأمين، (جـ ١ / ٢٠) .

(٣) فروع الكافي (جـ ٨ / ٢٨) حديث رقم (٦) من كتاب الروضة .

[٥] محمد الباقر بن علي (ت ١١٤هـ).

[٦] جعفر الصادق بن محمد (ت ١٤٨هـ).

[٧] موسى الكاظم بن جعفر (ت ١٨٣هـ).

[٨] علي بن موسى الرضا (ت ٢٠٣هـ).

[٩] أبو جعفر محمد بن علي « الجواد » (ت ٢٢٠هـ).

[١٠] أبو الحسن علي بن محمد « الهادي » (ت ٢٥٤هـ).

[١١] أبو محمد الحسن بن علي « العسكري » (ت ٢٦٠هـ).

[١٢] أبو القاسم محمد بن الحسن « المهدي » (ت ٢٥٦هـ) [١].

هؤلاء هم الأئمة الإثنا عشر عند الشيعة الإمامية، والشيعة الإثنا عشرية يعتقدون في هؤلاء الأئمة اعتقادات كلها غلو وإطراء وضعوها من عند أنفسهم ما أنزل الله بها من سلطان.

ومن معتقداتهم في أئمتهم: أنهم معصومون « من جميع الرذائل والفواحش ما ظهر منها وما بطن من سن الطفولة إلى الموت عمداً وسهواً، كما يجب أن يكونوا معصومين من السهو والخطأ والنسيان، لأن الأئمة حفظة الشرع والقوامون عليه حالهم من ذلك حال النبي » [٢].

ووصفوا أئمتهم بصفات جاوزوا فيها المنقول والمعقول، فعلى سبيل المثال ما ذكره الكليني في كتابه الكافي المسمى عندهم « أصول الكافي » حيث إنه عقد أبواباً أورد فيها أحاديث من إفكهم وزورهم كلها تضمنت غلوهم في أئمتهم.

وإليك بعض عناوين تلك الأبواب:

« باب أن الأئمة ولاة أمر الله وخزنة علمه » [٣]، « باب أن الأئمة هم أركان

---

(١) **انظر**: عقائد الإمامية لمحمد رضا المظفر، ص (٦٢ - ٦٣).

(٢) عقائد الإمامية لمحمد رضا المظفر، ص (٥١).

(٣) الأصول من الكافي (جـ ١ / ١٩٢).

الأرض» [١] ، «باب أن الأئمة عندهم جميع الكتب التي نزلت من عند الله عز وجل، وأنهم يعرفونها على اختلاف أدلتها» [٢] ، «باب أنه لم يجمع القرآن كله إلا الأئمة» [٣] ، «باب أن الأئمة يعلمون جميع العلوم التي خرجت إلى الملائكة والأنبياء والرسل» [٤] ، «باب أن الأئمة يعلمون متى يموتون وأنهم لا يموتون إلا باختيار منهم» [٥] ، «باب أن الأئمة يعلمون علم ما كان وما يكون وأنه لا يخفى عليهم شيء» [٦] ، «باب أن الله لم يعلم نبيه علماً إلا أمر أن يعلمه أمير المؤمنين وأنه شريكه في العلم» [٧] ، «باب أن الأئمة لو ستر عليهم لأخبروا كل امرئ بما له وعليه» [٨] ، «باب أن الإمام يعرف الإمام الذي يكون بعده» [٩] ، «باب في أن الأئمة إذا ظهر أمرهم حكموا بحكم داود وآل داود ولا يسألون البيئة» [١٠] ، «باب أنه ليس شيء من الحق في أيدي الناس إلا ما خرج من عند الأئمة وأن شيئاً لم يخرج من عندهم فهو باطل» [١١] .

وهكذا أخي القارئ:

تجد الغلو الممقوت عند علماء الاثنى عشرية فإذا راجعت «مرآة العقول» للمجلسي وجدته في مستنقع الغلو الآسن وقع حيث زعم أن عصمة الأئمة فوق عصمة الأنبياء، لأنهم أعلى درجة منهم [١٢] وأما إمامهم المعاصر، ومرجعهم الأعلى، وآيتهم العظمى، وهو ما يعرف بزعيم الثورة الإيرانية فيحتاج إلى شيءٍ من البيان والإيضاح لالتباس الأمر على شباب السُّنَّة ، بل حتى على بعض

---

(١) المصدر السابق(جـ ١ /١٩٦) .
(٢) المصدر السابق(جـ ١ /١٢٧) .
(٣) المصدر السابق(جـ ١ /٢٢٨) .
(٤) المصدر السابق(جـ ١ /٢٥٥) .
(٥) الأصول من الكافي(جـ ١ /٢٥٨) .
(٦) المصدر السابق(جـ / ٢٦٠١) .
(٧) المصدر السابق(جـ ١ /٢٦٣) .
(٨) المصدر السابق(جـ ١ /٢٦٤) .
(٩) المصدر السابق(جـ ١ /٢٧٦) .
(١٠) المصدر السابق(جـ ١ /٢٩٧) .
(١١) المصدر السابق(جـ ١ /٣٩٩) .
(١٢) **انظر** : مرآة العقول للمجلسي(جـ ٢ /٢٨٩) .

دعاتهم وبعض علمائهم الذين انخدعوا بشعارات الشيعة البراقة لكسب أهل السُّنَّة غير مبالين بعهود قطعوها ، ومواثيق ألزموا بها أنفسهم، بل غدروا بهم في إيران وقتلوهم وسجنوهم، وهدموا بيوتهم، فإذا رجعت كتاب «وجاء دور المجوس» (١) رأيت العجب العجاب في أعمالهم الشنيعة وأقوالهم القبيحة حيث إن الكاتب أجاد في كشفهم وفضحهم وبين عوراتهم ووسائلهم في التستر وعلاقتهم ببقية فرق الشيعة في قوفهم سداً منيعاً ضد أهل السُّنَّة .

إن الاثنى عشرية لم يحترموا عقلاً ولم يقدسوا شرعاً ولم يلتزموا نقلاً ولم يكرموا علماءهم ولا شيوخهم بعكس أهل السُّنَّة الذين أعطوا لهؤلاء الأئمة من الحق والتكريم وإنزالهم منزلتهم التي يستحقونها، ويعجبني في هذا المقام ما قاله الإمام الذهبي رحمه الله تعالى مبيناً عقيدة أهل السُّنَّة فيهم: «فمولانا الإمام علي»: من الخلفاء الراشدين المشهود لهم بالجنة ﷺ، نحبه أشد الحب، ولا ندعي عصمته، ولا عصمة أبي بكر الصديق، وأبناءه الحسن والحسين فسبطا رسول الله ﷺ وسيدا شباب أهل الجنة، ولو استخلفا لكانا أهلاً لذلك.

وزين العابدين: كبير القدر، من سادة العلماء العاملين يصلح للإمامة، وكذلك ابنه جعفر الباقر: سيد إمام فقيه يصلح للخلافة .

وكذلك ولده جعفر الصادق: كبير الشأن من أئمة العلم كان أولى بالأمر من أبي جعفر المنصور.

وكان ولده موسى: كبير القدر، جَيدُ العلم، أولى بالخلافة من هارون، وله نظراء في الشرف والفضل.

وابنه علي بن موسى الرضا: كبير الشأن له علم وبيان، ووقْعٌ في النفوس صيره المأمون ولي عهده لجلالته، فتوفي سنة ثلاث ومائتين

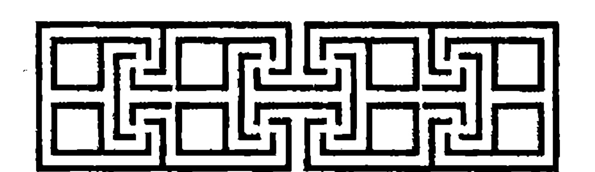
(١) اسم المؤلف : عبد الله محمد الغريب .

وابنه محمد الجواد: من سادة قومه، لم يبلغ رتبة آبائه في العلم والفقه.

وكذلك ولده الملقب بالهادي: شريف جليل.

وكذلك ابنه الحسن بن علي العسكري، رحمهم الله تعالى [١].

وأما الإمام الثاني عشر فقال فيه: «ومحمد هذا هو الذي يزعمون أنه الخلف الحجة وأنه صاحب الزمان، وأنه صاحب السرداب بسامراء، وأنه حي لا يموت حتى يخرج فيملأ الأرض عدلاً وقسطاً، كما ملئت ظلماً وجوراً، فوددنا ذلك - والله - وهم في انتظاره من أربعمائة وسبعين سنة [٢] ومن أحالك على غائب لم يُنْصِفْكَ، فكيف بمن أحال على مستحيل؟ والإنصاف عزيز، فنعوذ بالله من الجهل والهوى» [٣].



(١) سير أعلام النبلاء (جـ١٣/ ١٢٠-١٢١).
(٢) المراد زمان الذهبي المتوفى سنة ٧٤٨ هـ.
(٣) سير أعلام النبلاء (جـ١٣/ ١٢٠).

استمرار الإثنى عشرية في العصر الحاضر

الإمام الشيعي في العصر الحاضر ودولته التي أقامها

تفاعل العالم الإسلامي مع المد الشيعي بعد وصوله إلى مقاليد الحكم في إيران، وإزاحة الشاة المخلوع، واستطاعت وسائل إعلام الاثنى عشرية أن تخدع كثيراً من المسلمين في طرحهم المعاصر، وساندتها أجهزة الإعلام الغربي، وأجاد الإمام الخميني في تمثيل الدور الماكر فتعاطف كتّاب وصحفيون ودعاة محسوبون على أهل السنَّة في تمجيد الخميني ووصفه بأنه من المجددين، بل يسير في موكب المصلحين من أمثال شيخ الإسلام ابن تيمية ومحمد بن عبد الوهاب، وعبد الحميد بن باديس، ومحمد بن علي السنوسي وحسن البنا..

وبما أن تلك المقالات والكتابات أصبحت في ذاكرة التاريخ ، وتكون سبباً في تضييع الحقائق لأجيال المسلمين رأيت من النصح للأمة وأبنائها أن أبين أن الخميني امتداد لمدرسة الاثنى عشرية الشيعية ، ذات العقائد الفاسدة والمنحرفة عن هدى الله ، وأن ثورته وجمهوريته الإسلامية المزعومة جيء بها لتكون خنجراً مسموماً لكل محاولة جادة لتطبيق الإسلام الصحيح ، بل أتيحت للثورة الإيرانية الفرصة أمام العالم لتشويه الإسلام الصافي النقي ، الذي جاء به محمد ابن عبد الله ﷺ .

ولكون الدولة الإيرانية امتدت في العالم الإسلامي ناشرة للعقائد الفاسدة في إفريقيا وآسيا وجمهوريات الاتحاد السوفيتي والشمال الإفريقي، وأوربا وأستراليا وأمريكا، وتأثر بها كثير من عوام المسلمين الذين لا يملكون فهماً ولا علماً ولا إطلاعاً بحقيقة أمرهم، ومرمى أهدافهم، ورأيت من المناسب أن أبين عقائد هذا القديس المزعوم «الخميني ومن جاء بعده»، حتى نحذر الأجيال من هذه المدرسة الشيطانية التي نخرت بنيان الأمة، ولاتزال تنخر بدون كلل ولا ملل.

ومن عقائد الإمام الخميني الفاسدة ما ذكره في كتابه الحكومة الإسلامية:

«وأن من ضروريات مذهبنا أن لأئمتنا مقاماً لا يبلغه ملك مقرب، ولا نبي مرسل، وقد ورد عنهم: أن لنا مع الله حالات لا يسعها ملك مقرب ولا نبي مرسل» [(١)].

فهذا اعتراف واضح في كونه يفضل أئمة الاثنى عشرية على الأنبياء والرسل، وهذا مذهب غلاة الروافض في حكم كبار أئمة السُّنَّة.

يقول عبد القاهر البغدادي (ت ٤٢٩ هـ): «وزعمت الغلاة من الروافض أن الأئمة أفضل من الأنبياء ونعلم أن هذا باطل» [(٢)].

يقول القاضي عياض (ت ٥٤٤ هـ): «وكذلك نقطع بتكفير غلاة الروافض في قولهم أن الأئمة أفضل من الأنبياء» [(٣)].

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية (ت ٧٢٨ هـ): «والرافضة تجعل الأئمة الاثنى عشرية أفضل من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار وغلاتهم يقولون إنهم أفضل من الأنبياء» [(٤)].

ويقول محمد بن عبد الوهاب: «ومن اعتقد في غير الأنبياء كونه أفضل منهم أو مساوياً لهم فقد كفر،وقد نقل على ذلك الإجماع غير واحد من العلماء»[(٥)].

إن الخميني مرجعه في المعتقد والتصور الشيعي، شيوخه الذين سبقوه ووضعوا هذا المنهج المنحرف فهو يعظم ويقدس كتاب الكافي للكليني والاحتجاج للطبرسي وغيرها، وترحم في كتبه على المجوسي حسين النوري

---

(١) الحكومة الإسلامية للخميني ص(٥٢).

(٢) أصول الدين، ص(٢٩٨).

(٣) الشفا، جـ٢ / ٢٩٠.

(٤) منهاج السنة جـ١ / ١٧٧.

(٥) الرد على الرافضة ص(٢٩).

الطبرسي صاحب كتاب «فصل الخطاب في إثبات تحريف كتاب رب الأرباب» وتجده يوثق كتاباً حوى «دعاء علي على صنمي قريش» وهما أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، وفيه وصف الشيخين اللذيْن حرفا كتابك [١] وله تفسير باطني في بعض الآيات مثلاً في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا**﴾ .

[النساء: ٥٨].

فقد أمر الله الرسول ﷺ برد الأمانة أي الإمامة إلى أهلها وهو أمير المؤمنين عليّ وعليه هو أن يردها إلى من يليه وهكذا..» [٢] .

وأما اعتقاده في الصحابة: فإن معتقد الاثنى عشرية لا ولاية إلا بالبراءة من أعدائهم وهم أبو بكر وعمر رضي الله عنهما ومن اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

فالخميني يرى مشروعية التبرؤ من هؤلاء الأخيار والتولي للاثنى عشر في الصلاة، فيذكر أن المصلي يشرع له أن يقول في سجوده: «الإسلام ديني ومحمد نبيي وعلي والحسن والحسين - تعدهم إلى آخرهم - أئمتي بهم أتولى ومن أعدائهم أتبرأ» [٣] .

ويطعن في الصحابة لمخالفتهم النص المزعوم على إمامة علي يقول: وفي غدير خم في حجة الوداع عينه - يعني علياً - النبى ﷺ حاكماً من بعده، ومن حينها بدأ الخلاف يدب إلى نفوس القوم» [٤] .

وكتابه الحكومة الإسلامية وغيرها من كتبه مليئة بالانحراف عن الصراط المستقيم فالخميني لا يختلف في اعتقاده عن الرافضة إن لم يكن أشد غلواً وشططاً، ونشط الخميني قبل وفاته محاولاً بسط سلطان الشيعة على شعبه

---

(١) مسألة التقريب بين أهل السنة والشيعة (جـ ٢ / ٢٣٧).

(٢) مسألة التقريب بين أهل السنة والشيعة (جـ ٢ / ٢٣٧) واستفدت من هذا الكتاب في هذا الفصل.

(٣) الخميني «تحرير الوسيلة» (جـ ١ / ١٦٩).

(٤) الحكومة الإسلامية ص (١٣١).

بالقوة، وقامت دولته بتصدير الثورة كما يقولون، واعتمدت الشيعة على المراوغة والكذب والتضليل، وهؤلاء الجدد لا يختلفون عن شيعة الأمس في المراوغة والكيد، وفي الغلو أيضاً.

ويعتمدون على مبدأ التُقية في جلب الناس حولهم،**وإليك ما قاله الخميني لأتباعه في أحد خطاباته :** «لا تبعدوا الناس عنكم الواحد تلو الآخر، لا تكيلوا التهم لهم بالوهابية تارة، وبالكفر تارة أخرى، فمن يبقى حولكم إذا عمدتم إلى ممارسة هذا الأسلوب [١] .

ولهذا أمر الخميني الحجاج الإيرانيين بأن يصلوا مع أهل السُّنَّة تقية منهم وخداعاً للناس، كما كان يفعل قادة الشيعة، حينما كانوا يصلون خلف أهل السُّنَّة أحياناً ثم يعيدون صلاتهم بعد ذلك، كما صرح بهذا أحد علماء الشيعة المعاصرين، ولقد بلغ الحقد الشيعي على المسلمين، وخصوصاً أهل السُّنَّة في عصرنا الحاضر إلى حد الاستهتار بدماء المسلمين وأعراضهم وتهديد أمنهم في بيوتهم، ولعل ما فعلوه في مكة في حج١٤٠٧هـ أقوى شاهد على حقدهم ونظرتهم للمخالفين لهم، حينما تظاهر في حرم الله بمكة ما يقرب من مئة وخمسين ألفاً منهم، وهجموا يريدون الكعبة، وتجمعوا في مظاهرات غوغائية، وكانوا يهدفون إلى تحقيق مخطط رهيب رافعين شعاراتهم وصور زعيمهم الخميني، وتقدموا رجالاً ونساءً يريدون الحرم، لولا أن الله تعالى بفضله ومنهّ أفشل مخططهم وحيل بينهم وبين دخول الحرم واشتبكوا مع المسلمين والجنود وبقية الحجاج في مذبحة عظيمة، وأوعزوا إلى أتباعهم وعملائهم في حج عام ١٤٠٩هـ بعمل متفجرات حول الحرم المكي الشريف فييوم ٧ من ذي الحجة وراح ضحيتها حجاج أبرياء جاءوا لأداء فريضة الحج» [٢] .

---

(١) فرق معاصرة للعواجي جـ ١ / ٢٦٢) .

(٢) فرق معاصرة للعواجي جـ ١ / ٢٦٣) .

وأما عن تعذيبهم لأهل السُنَّة في إيران فذكر عبد الله محمد الغريب في كتابه أهل السُنَّة في إيران أنواعاً وأشكالاً وأهوالاً من التعذيب والتنكيل والقتل والاغتصاب، **وإليك بعض أساليب الاضطهاد والتعذيب والتقتيل التي اتخذها أولئك الأشرار تجاه أهل السُنَّة في إيران :**

﴿ ١ ﴾ ربط الأرجل بالحبال وضربها بالأسلاك.

﴿ ٢ ﴾ ربط الأيدي من وراء، ووضع المسجون في زاوية من السجن، وصب الماء أو النفط تحته، فعلوا هذا مع عدد من المسلمين.

﴿ ٣ ﴾ ربط المسجون وضربه في المواضع المختلفة من جسده من عشر إلى مائة وخمسين ضربة، فإن مات فذلك، وإلا استمروا على هذا الحالة مدة خمسة عشر يوماً.

﴿ ٤ ﴾ يضعون المسجون في الإصطبل ويتركونه إلى أن يموت.

﴿ ٥ ﴾ ومن أنواع التعذيب سلخ جلد الرأس وثقبها وثقب العين بالمثقب وإحراق الأسير حياً وتقطيع الأعضاء وقلع الأظفار (١).

وهذا قليل من كثير إنهم يبغضون الصحابة ويشككون في القرآن ويطعنون في السُنَّة ، فماذا ننتظر منهم ؟!.

هل يمكن التقريب بين أهل السُنة والشيعة ؟! :

إن كل محاولات التقريب بين السُنَّة والشيعة باءت بالفشل لأن الخلاف بيننا وبينهم في الأصول وليس في الفروع ، ولن يجتمع السُنَّة والشيعة إلا إذا تخلى أحد الطرفين عن معتقده.

فأي علماء يرون التقريب مع أهل الشيعة ، عندما يُشتم أهل السُنَّة الصحابة ويعتقدون معتقداتهم الباطلة، وهذا ما خرج به الشيخ الدكتور مصطفى

---

(١) أهل السنة في إيران. ص (٥٤).

السباعي من تجربته في هذا الموضوع مع أحد شيوخ الشيعة، واسمه عبد الحسين شرف الدين الموسوي حيث إن الدكتور السباعي كان متحمساً لفكرة التقريب واتصل بسياسيين وأدباء وتجار، وأعطوه عهوداً وكلاماً معسولاً وعلى رأسهم الشيخ الشيعي عبد الحسين الذي كان متحمساً ومؤمناً بها، وإذا بالشيخ الموسوي يخرج كتاباً في أبي هريرة ﷺ مليء بالسباب والشتائم، بل انتهى فيه إلى القول: «بأن أبا هريرة ﷺ كان منافقاً كافراً، وأن الرسول قد أخبر عنه بأنه من أهل النار» [١].

يقول السباعي: «لقد عجبت من موقف عبد الحسين في كلامه، وفي كتابه معاً، ذلك الموقف الذي لا يدل على رغبة صادقة في التقارب ونسيان الماضي[٢].

وإن أهداف الشيعة من مسألة التقريب: أن يفُتح لهم مجال لنشر عقائدهم في ديار السُّنَّة، وأن يستمروا في طعن الصحابة الكرام، وأن يسكت أهل السُّنَّة عن بيان الحق وإن سمع الروافض صوت الحق يعلو ماجوا وهاجوا قائلين إن الوحدة الإسلامية في خطر.

تجربة الشيخ موسى جار الله:

إن موسى جار الله من تركستان فازاني روسي، وصل إلى منصب شيخ مشايخ روسيا، كان في نهاية العهد القيصري، وبداية الحكم السوفيتي الملحد صاحب الكلمة الأولى والأخيرة في أمور مسلمي روسيا الذين كانوا يزيدون عن الثلاثين مليون نسمة، ثم هَبَّ عليه إعصار الشيوعية فأصبح بعيداً عن دياره وأهله، له تأليف ورسائل وكتب، تنقل بين الهند والحجاز ومصر والعراق وإيران، قال عن نفسه: «كان بوسعي أن أغدو كاتب روسيا الأول وأحد زعماء الطليعة فيها لو أنني تخليت عن إيماني، ولكنني آثرت أن أشتري الآخرة بالدنيا...» [٣].

(١) السنّة ومكانتها في التشريع للسباعي (ص ٩).
(٢) المصدر السابق (ص ١٠).
(٣) مسألة التقريب بين أهل السنة والشيعة (جـ٢/ ٢٠١).

وهذا العالم الجليل مُلم بلغات متعددة منها الفارسية، والتركية، والترية، والروسية، وتضلع في اللغَة العربية، وتعلم أصولها وصرفها ونحوها وبيانها وقريضها، فلا تكاد تذكر أمامه مادة من مواد اللغة إلا أجابك على الفور عما إذا كانت وردت في القرآن أم لا، وكم مرة وردت وفي أي سورة، لأنه مستظهر أتم الاستظهار (١) .

فحاول هذا العالم الجليل أن يجمع شمل الأمة، وأن يوحد أهل السُّنَّة والشيعة وبذل جهوداً في هذا الجانب عظيمة، فبدأ بدراسة كتب الشيعة وطالعها باهتمام كما يذكر أنه طالع «أصول الكافي وفروعه» و«من لا يحضره الفقيه» وكتاب «الوافي» و «مرآة العقول» و «بحار الأنوار» و «غاية المرام» وكتباً كثيرة غير هذه الكتب (٢) .

ثم زار ديار الشيعة، وعاش فيها أكثر من سبعة أشهر يزور معابدها ومشاهدها ومدارسها، ويحضر محافلها وحفلاتها في العزاء والمآتم، ويحضر حلقات الدروس في البيوت والمساجد وصحونها، والمدارس وحجرتها، وأقام بالنجف أيام المحرم، ورأى كل ما تأتي به الشيعة أيام العزاء ويوم عاشوراء.

وخرج هذا العالم الجليل بنتيجة علمية عملية وهي أن كتب الشيعة قد أجمعت على أمور لا تتحملها الأمة، واتفقت على أشياء كثيرة لا يرتضيها الأئمة ولا تقتضيها مصلحة الإسلام، وتناقض أكثر مصالح الأمة، ثم هي جازفت في مسائل كثيرة منكرة مستبعدة ما كان ينبغي وجودها في كتب الشيعة، ولا يظن بالأئمة اعتقادها (٣) ، ولا يتحملها العقل والأدب ودعوى الائتلاف وليست إلا كيراً ينفخ في ضرم العداء. وكلمة التوحيد توجب اليوم على

---

(١) مجلة المجمع العلمي العربي (جـ٤ /٢٦٦).

(٢) مسألة التقريب بين أهل السنة والشيعة (جـ٢ /٢٠١).

(٣) الوشيعة في نقد الشيعة. ص (٢٠).

مجتهدي الشيعة نزاع تلك العقائد من الكتب لتجتث جذورها من القلوب.. وإلا فإن الكلمات هراء وأثر المؤتمرات عداء [١].

فرأى الشيخ ببصيرته النافذة وعلمه الغزير أن نقد عقائد الشيعة هو أول مرحلة من تأليف قلوب الأمة لا تأليف بدونها [٢].

وقد امتلأ الشيخ حسرة وألماً مما رآه من منكرات في كتب الشيعة وواقعها، وكان أول مساعيه في التقريب لقاؤه مع شيخ الشيعة محسن الأمين في طهران، وجرى بينهما بعض الحديث، ثم قدم له الشيخ موسى ورقة صغيرة كتب فيها ما يلي:

﴿ ١ ﴾ أرى المساجد في بلاد الشيعة متروكة مهملة وصلاة الجمعة فيها غير قائمة، والأوقات غير مرعية، والجمعة متروكة تماماً، وأرى المشاهد والقبور عندكم معبودة ما أسباب كل هذا؟

﴿ ٢ ﴾ لم أر فيكم لا بين الأولاد، ولا بين الطلبة، ولا بين العلماء من يحفظ القرآن، ولا من يقيم تلاوته، ولا من يجيد قراءته، أرى القرآن عندكم مهجوراً، ما سبب سقوط البلاد إلى هذا الدرك الأسفل من الهجر والإهمال، أليس عليكم أن تهتموا بإقامة القرآن الكريم في مكاتبكم ومدارسكم ومساجدكم؟

﴿ ٣ ﴾ أرى ابتذال النساء وحرمات الإسلام في شوارع مدنكم بلغ حدًّا لا يمكن أن يراه الإنسان في غير بلادكم.

وكان تاريخ تلك الرسالة ٢٦ / ٨ / ١٩٣٤م ثم أرسل رسالة إلى علماء النجف، وأرسل رسالة نفسها إلى علماء الكاظمية.

فكتب فيها: «أقدم هذه المسائل لأساتذة النجف الأشرف بيد الاحترام، بأمل

---

(١) مسألة التقريب بين أهل السنة والشيعة (جـ ٢ / ٢٠٣).

(٢) الوشيعة في نقد الشيعة. ص (١٧).

الاستفادة، بقلب سليم صادق، كله رغبة في تأليف قلوب عالمي الإسلام [١] الشيعة الإمامية الطائفة المحقة - يعني على زعمهم -[٢] وعامة أهل السُّنَّة والجماعة راجياً إجابة الأساتذة جميعاً أو فرادى، كل ببيانه البليغ، بتوقيع يده مؤكداً بخاتمه ومهره»، ثم أورد في الرسالة ما في كتب الشيعة من أمور منكرة مشيراً إلى أرقام الصفحات في كل ما يذكره ،**فذكر عدة قضايا خطيرة في كتب الشيعة تحول بين الأمة والائتلاف مثل**:

[١] تكفير الصحابة.

[٢] اللعنات على العصر الأول.

[٣] تحريف القرآن الكريم.

[٤] حكومات الدول الإسلامية وقضاتها وكل علمائها طواغيت في كتب الشيعة.

[٥] كل الفرق الإسلامية كافرة ملعونة خالدة في النار إلا الشيعة.

[٦] الجهاد في كتب الشيعة مع غير الإمام المفترض طاعته حرام مثل حرمة الميتة وحرمة الخنزير، ولا شهيد إلا الشيعة، والشيعي شهيد ولو مات على فراشه، والذين يقاتلون في سبيل الله من غير الشيعة فالويل يتعجلون.

ثم قال الشيخ بعدما نقل شواهد هذه المسائل من كتب الشيعة المعتمدة مخاطباً شيوخ الشيعة: هذه ست من المسائل، عقيدة الشيعة فيها يقين، فهل يبقى في توحيد كلمة المسلمين في عالم الإسلام أمل وهذه عقيدة الشيعة؟.

وهل يبقى بعد هذه المسألة، بعد هذه العقيدة، لكلمة التوحيد في قلوب أهليها من أثر، وهل يمكن أن يكون للأمم الإسلامية، ولهم هذه العقيدة في سبيل غلبة الإسلام في مستقبل الأيام من سعي؟ .

---

(١) انظر: مسألة التقريب بين أهل السنة والشيعة(جـ ١ [illegible] ٢) .

(٢) الوشيعة في نقد الشيعة. ص(١٧) .

وذكر غير ذلك من المسائل في انحراف الشيعة ثم قال : « فتفضلوا أيها الأساتذة السادة بالإفادة حتى يتوحد الإسلام وتجتمع كلمة المسلمين حول كتاب الله المبين » فانتظر الشيخ سنة وزيادة، ولم يسمع جواباً من أحد إلا من كبير مجتهدي الشيعة بالبصرة، وما كان إلا طعناً في العصر الأول، وكان طعنه أشد من كتب الشيعة، ثم كتب الشيخ موسى جار الله كتابه القيم وسماه « الوشيعه في نقد عقائد الشيعة » ويقول: إنني أدافع بذلك عن شرف الأمة وحرمة الدين، وأقضي به حقوق العصر الأول عليّ وعلى كل الأمة (١) .

وتوفي هذا الشيخ الجليل بمصر سنة **١٣٦٩ هـ** فعليه من الله الرحمة والرضوان وجمعنا به من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

وتعمدت هذا الإطناب لخطورة الدعوة الشيعية في العصر الحديث، حيث إنها تحالفت مع النصيرية في سوريا، ومع حزب أمل الشيعي في لبنان، وتحالفت سراً مع اليهود والنصارى للقضاء على هذه الأمة العظيمة، كما أني طالعت اهتمامهم البالغ بالشمال الإفريقي وغربه وحرصهم على إيصال نفوذهم إليه، والعمل على إرجاع ركامهم القديم.

ونجحوا في المغرب، وجندوا شباباً في الجزائر، وأثروا في تونس، وتحالفوا مع ليبيا في أهدافهم الاستراتيجية في حرب العراق.

بل تأكد وجود مجموعات لا يُستهان بها من أبناء الشمال الإفريقي في إيران للتتلمذ على شيوخهم والرجوع بأفكارهم المسمومة إلى بلاد الفاتحين العظام مراعين في ذلك السرية والتدرج ودقة التنظيم.

واستغلوا الأحداث الدامية في الجزائر بين الحكومة وإخواننا المسلمين، فأظهر الإعلام الإيراني عطفه وتأييده للحركة الإسلامية في الجزائر، فتأثر كثير من

---

(١) الوشيعة في نقد الشيعة ، (ص ٣٩) . من أفضل ما قرأت في هذا: مسألة التقريب رسالة جامعية اسمها مسألة التقريب بين أهل السنة والشيعة.

إخواننا بهذا الإعلام المزيف الماكر الخادع.

ومن أراد من أبناء الصحوة أن يوسع مداركه وثقافته في هذا الباب فيراجع ما كتبه الشيخ سعيد حوى – رحمة الله – «الخمينية شذوذ في العقائد والمواقف» وما كتبه أحمد عبد العزيز الحمدان «ما يجب أن يعرفه المسلم عن عقائد الروافض الإمامية».

﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ (٤٤) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ · [القلم: ٤٤ ـ ٤٥].

ثالثاً: الشيعة الإسماعلية:

بعد موت الإمام جعفر بن محمد الصادق افترقت الشيعة إلى فرقتين: –

فرقة: ساقت الإمامية إلى ابنه موسى الكاظم، وهؤلاء هم الشيعة الاثنى عشرية.

وفرقة: نفت عنه الإمامة، وقالت: إن الإمام بعد جعفر، هو ابنه إسماعيل، وهذه الفرقة عرفت بالشيعة الإسماعيلية.

قال عبد القاهر البغدادي في شأن الإسماعيلية: «وهؤلاء ساقوا الإمامة إلى جعفر وزعموا أن الإمام بعده ابنه إسماعيل» [1].

وقال الشهرستاني: «الإسماعيلية امتازت عن الموسوية وعن الاثنى عشرية بإثبات الإمامة لإسماعيل بن جعفر وهو ابنه الأكبر المنصوص عليه في بدء الأمر».

قالوا: ولم يتزوج الصادق رضي الله عنه على أمة ـ أم إسماعيل ـ بواحدة من النساء، ولا تسرى بجارية كسُنَّة رسول الله ﷺ في حق خديجة ﵂، وكسُنَّة

---

(١) الفرَق بين الفرَق ص(٢٦).

علي رضي الله عنه في حق فاطمة رضي الله عنها [١] .

فالإسماعيلية إحدى فرق الشيعة : وهي تنسب إلى إسماعيل بن جعفر الصادق، ولهم ألقاب كثيرة عرفوا بها غير لقب «الإسماعيلية» منها الباطنية!، وإنما أطلق عليهم هذا اللقب لقولهم بأن لكل ظاهر باطناً، ولكل تنزيل تأويلاً، ويطلق عليهم القرامطة والمزدكية، وقد عرفوا بهذين اللقبين في بلاد العراق، ويطلق عليهم في خراسان التعليمية والملحدة ، وهم لا يحبون أن يعرفوا بهذه الأسماء، وإنما يقولون: نحن الإسماعيلية لأنا تميزنا عن فرق الشيعة بهذا الاسم [٢] .

[أ] خطر المذهب الباطني على الأمة:

اعلم أخي الكريم : أن المذهب الباطني من الأسباب التي أضعفت الأمة، وأنهكت قواها، لقد أدخل أهله عقائد فاسدة مبنية على الفلسفة القديمة، والأصول الإلحادية، فخدعوا ضعاف العقول، والذين لا حظ لهم من المنهج الرباني القويم، وتحالفوا مع النصارى والتتار ضد الإسلام والمسلمين. وعندما قوت شوكتهم وأقاموا دولة البحرين فعلوا ما تقشعر منه الجلود، وتشيب منه الرءوس من قتل وسفك ونهب واغتصاب.

بل تجرءوا على حجيج بيت الله الحرام، ففعل أبو طاهر الجنابي بالحجيج أفاعيل قبيحة، فدفن منهم في بئر زمزم الكثير، ودفن كثيراً منهم في أماكنهم من الحرم، وفي المسجد الحرام.

وعندما أقاموا دولتهم في الشمال الإفريقي أظهروا عقائدهم الفاسدة، وقتلوا العلماء، وأذلوا أهل السُّنَّة ، وهذا ما سوف تعرفه، لأنه من صميم البحث.

---

(١) الملل والنحل (١ / ١٩١) .

(٢) المصدر السابق (١ / ١٩٢) .

إن العلامة البغدادي أوجز عداوة الفرق الباطنية للإسلام والمسلمين فقال:

« اعلموا أسعدكم الله أن ضرر الباطنية على فرق المسلمين أعظم من ضرر اليهود والنصارى والمجوس ، بل وأعظم من الدهرية وسائر أصناف الكفرة عليهم، بل أعظم من ضرر الدجال الذي يظهر آخر الزمان، لأن الذين ضلوا عن الدين بدعوة الباطنية من وقت ظهور دعوتهم إلى يومنا أكثر من الذين يضلون بالدجال من وقت ظهوره، لأن فتنة الدجال لا تزيد مدتها عن أربعين يوماً، وفضائح الباطنية أكثر من عدد الرمل والقطر » [١] .

وذكر ابن كثير أعمالهم التي قادها أبو طاهر الجنابي الباطني حين وصل مكة فقال: « فانتهب أموالهم واستباح قتالهم، فقتل في رحاب مكة وشعابها ، وفي المسجد الحرام وفي جوف الكعبة من الحجاج خلقاً كثيراً، وجلس أميرهم أبو طاهر لعنه الله على باب الكعبة والرجال تصرع حوله، والسيوف تعمل في الناس في المسجد الحرام، في الشهر الحرام ، في يوم التروية الذي هو من أشرف الأيام وهو يقول »:

أنـــا الله وبـــالله أنـــــا   أنـا أخلــق الخلــق وأفنيـهـم أنا

فكان الناس يفرون منهم، فيتعلقون بأستار الكعبة، فلا يجدي ذلك عنهم شيئاً، بل يقتلون، وهم كذلك ويطوفون فيقتلون وهم في الطواف.. إلى أن قال: « فلما قضى القرمطي لعنه الله أمره، وفعل ما فعل بالحجيج من الأفاعيل القبيحة أمر أن تدفن القتلى في بئر زمزم، ودفن كثيراً منهم في أماكنهم من الحرم وفي المسجد الحرام، وهدم قبة زمزم، وأمر بقلع باب الكعبة، ونزع كسوتها عنها وشققها بين أصحابه.. » [٢] ، وقد حدد بعض العلماء عدد من قتل بثلاثة عشر ألف نسمة وقيل: زهاء ثلاثين ألفاً [٣] وكان ذلك سنة ٣١٧ هـ .

---

(١) الفرق بين الفرق ص (٣٨٢).

(٢) البداية والنهاية (جـ ١١ / ١٦٠).

(٣) كشف أسرار الباطنية ص (٣٩) ، سير أعلام النبلاء (١٥ / ٣٢١).

وأما متى ظهر مذهب الباطنية فاختلف العلماء في ذلك فبعضهم قال سنة **٢٠٥هـ**، والبعض الآخر يرى **سنة ٢٥٠ هـ**، ونتيجة السرية المفروضة على أتباع المذهب يتعذر التحديد الدقيق لزمن ظهورهم وإن كانت أقوال العلماء تترجح ما بين سنة **(٢٠٠ هـ - إلى ٢٥٠هـ)** أي بعد انتشار الإسلام وإعزاز أهله، وانطفاء نار المجوسية واندحار اليهودية، واندثار الأصنام الوثنية، وانهزام الأمة الصليبية، فأكل الحسد قلوب الخارجين عن الإسلام من هذه الأمم المنهزمة ، وبدءوا يخططون في الخفاء بطريقة ينفسون فيها عن أحقادهم للطعن في الإسلام وأهله، ورفع راية الشيطان وحزبه، **فاتخذوا لهذا الهدف الدنيء عدة أقنعة تستروا بها لتحقيق ما يهدفون إليه منها :**

﴿ ١ ﴾ اعتمادهم على تأويل النصوص تأويلات تنافي ما يقرره الإسلام ويأمر به.

﴿ ٢ ﴾ إظهار مذهب التشيع لعلمهم بأن مذهب التشيع يحتمل كلامهم، إذ لم يجدوا مدخلاً إلى الإسلام إلا من جهة إظهار التشيع والانتساب إلى المذهب الشيعي، وقد تم تأسيس هذا المذهب فيما يذكره الغزالي كما يلي: «تم في اجتماع لقوم من أولاد المجوس والمزدكية من الثنوية الملحدين، وطائفة كبيرة من ملاحدة الفلاسفة المتقدمين - زاد الديلمي - وبقايا الخرمية واليهود ، جمعهم نادو شنو[١] في حيلة يدفعون بها الإسلام» وقالوا إن محمداً غلب علينا، وأبطل ديننا، واتفق له من الأعوان ما لا نقدر على مقابلتهم، ولا مطمع لنا في نزع ما في أيدي المسلمين من المملكة بالسيف والحرب، لقوة شوكتهم وكثرة جنودهم، وكذلك لا مطمع لنا فيهم من قبيل المناظرة لما فيهم من العلماء والفضلاء والمتكلمين والمحققين، فلم يبق إلا اللجوء إلى الحيل والدسائس، ثم اتفقوا على وضع حيل وخطط مدروسة يسيرون عليها لتحقيق أهدافهم.

---

(١)**انظر** : فضائح الباطنية ص **(١٨-٢٠)** بيان مذهب الباطنية وبطلانه ص **(١٩)**

ومن وسائلهم في تحقيق الأهداف : الدخول على المسلمين عن طريق التشيع، وعلى مذهب الرافضة، وإن كان هؤلاء الباطنيون يعتبرون الروافض أيضاً على ضلال، إلا أنهم رأوهم - على حد ما ذكر الغزالي - أقل الناس عقولاً، وأسخفهم رأياً ، وألينهم عريكة لقبول المحالات وأطوعهم للتصديق بالأكاذيب المزخرفات [١] ، وأكثر الناس قبولاً لما يُلقى عليهم من الروايات الواهية الكاذبة، فتستروا بالانتساب إليهم ظاهراً للوصول إلى إضعاف الناس، فكان ظاهرهم الرفض، وباطنهم الكفر المحض «كما ذكر الغزالي [٢] ! أو كما قال بعض العلماء: إن الإمامية دهليز الباطنية.... وهذا هو التفسير المعقول لما نلاحظ من التقارب الشديد بين الباطنية والرافضة [٣] .

وقال ابن كثير في حوادث سنة (٢٧٨هـ) : وفيها تحركت القرامطه ، وهي فرقة من الزنادقة الملاحدة أتباع الفلاسفة من الفرس الذين يعتقدون بنبوة زارادشت ومزدك ، وكانوا يبيحون المحرمات ، ثم هم بعد ذلك أتباع كل ناعق إلى باطل ، وأكثر ما ينقادون من جهة الرافضة ويدخلون إلى الباطل من جهتهم، لأنهم أقل الناس عقولاً ويقال لهم الإسماعيلية ، لانتسابهم إلى إسماعيل الأعرج بن جعفر الصادق [٤] .

[ب] عقائد الباطنية الفاسدة :

إن المتتبع لأخبار الباطنية وفرقهم ومذاهبهم يلاحظ تناقضاً واضحاً، ويرجع ذلك إلى أهل هذه الفرقة الباطنية الخبيثة إذ أرادوا ذلك لكي تتضارب الأقوال فيهم عند الناس، وبذلك ينفون ما يريدون، ويثبتون ما يريدون وأصل مذهبهم

---

(١) فضائح الباطنية ص(١٩) .
(٢) المصدر السابق ص(٣٧) .
(٣) انظر: فرق معاصرة للعواجي(جـ١، ص ٢٨٠) .
(٤) البداية والنهاية(جـ ١١/ ٦١) .

كله مبني على الكذب والحيل والخداع ، كما أن مذهبهم لا يقوم إلا على هذا التلون الكثير، ولذلك قال الغزالي : « والذي قدمناه في جملة مذهبهم يقتضي – لا محالة – أن يكون النقل عنهم مختلفاً مضطرباً، فإنهم لا يخاطبون الخلق بمسلك واحد، بل غرضهم الاستتباع والاحتيال، فلذلك تختلف كلماتهم ويتفاوت نقل المذهب عنهم » (١) .

ولذلك يتضح للدارس أن عقائد الباطنية عبارة عن مجموعات من أفكار منحرفة من مذاهب متفرقة، كلها تخبط واضطراب واختلاف، وأحياناً يستدلون بأحاديث موضوعة ويحرفون الآيات عن مدلولها ومرادها .

وترجع عقائدهم إلى عدة نقاط منها :

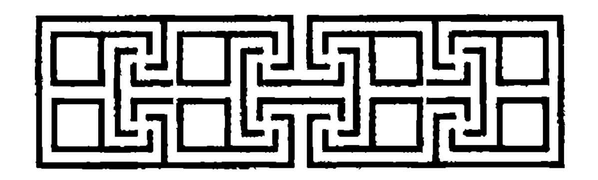
﴿ ١ ﴾ إنكار وجود الله .

﴿ ٢ ﴾ جحد أسمائه وصفاته .

﴿ ٣ ﴾ تحريف شرائع النبيين والمرسلين .

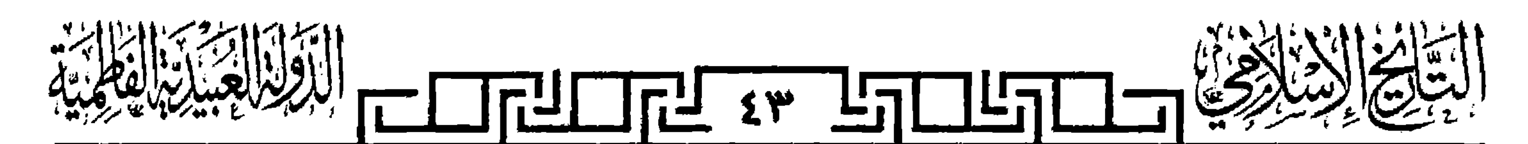
﴿ ٤ ﴾ ويسترشدون في ذلك كله بالتشيع لآل البيت أو بزعمهم التجديد والتقدم ولهم مقدرة عجيبة في وضع الشعارات والأكاذيب .

والموضوع أوسع من ذلك، ومن الكتب النافعة في هذا الباب فضائح الباطنية للغزالي ، وفرق معاصرة للعواجي .



---

(١) فضائح الباطنية ص(٣٨) .



المبحث الثالث

داعية الباطنية في الشمال الإفريقي

أبو عبد الله الشيعي

وقع الاختيار على اليمن لكي تكون مركزاً لدعوة الشيعة الإسماعيلية لبعدها عن أنظار الدولة العباسية، ومن هناك بدءوا في إعداد القوة العسكرية السرية التي هي عدتهم في المستقبل، وتسلم القيادة في اليمن رجل يدعى رستم بن حوشب الذي استطاع أن يستقطب بعض الفرس المعادين للمسلمين ، إلا أن ابن حوشب رأى أن أرض المغرب خصبة للبذور الشيعية، فأرسل من اليمن رجلين من أنصاره هما « سفيان والحلواني » إلى طرابلس وتونس لنشر المذهب الشيعي واستطاعوا أن يتوغلوا بأفكارهم في قبائل البرانس ذات القوة والشكيمة والعدة والعتاد، والتي تتطلع إلى إقامة دولة في المغرب على نهج الأدارسة في المغرب الأقصى، والأغالبة الذين عاصمتهم تونس.

ومن بين الذين اختارهم ابن حوشب في اليمن: أبو عبد الله الشيعي حسن ابن أحمد بن محمد بن زكريا الشيعي من أهل صنعاء، وكان قد وقع اختيار ابن حوشب على هذا الرجل لما لمس فيه من صفات قيادية بارزة من علم وذكاء ومقدرة في التعامل مع الناس، ويعتبر أبو عبد الله الشيعي اليماني الصنعاني المؤسس الفعلي لدولة العبيديين الرافضة الإسماعيلية في المغرب، فأرسله ابن حوشب بعد موت الحلواني وأبي سفيان الداعيتين بالمغرب، وقال له: «إن أرض كتامة في بلاد المغرب قد حرثها الحلواني وسفيان، وقد ماتا وليس لك غيرها فبادر فإنها موطأة ممهدة لك» (١) .

---

(١) **انظر:** موسوعة المغرب العربي (جـ٢ / ٥٧) للدكتور عبد الفتاح الغنيني.

وفي ما بين ٢٨٨هـ إلى ٢٨٩هـ وصل أبو عبد الله الشيعي الرجل الداهية المراوغ الماكر صاحب الحيل العجيبة إلى مكة، وبحث عن وفود المغاربة التي جاءت للحج واستطاع أن يتعرف على حجيج كتامة، وتقرب إليهم بما أظهره لهم من زهد وفقه وعلم وتمكن هذا الداعية من قلوب الشيوخ الكتاميين ورجع معهم موهماً إليهم أنه يريد مصر لتعليم الأولاد القرآن، وعرضوا عليه الذهاب معهم إلى المغرب، فأظهر عدم الرغبة، ثم بسياسته الماكرة لبى طلبهم ونزل في القيروان ليبحث عن مواطن الضعف في دولة الأغالبة، ويجمع المعلومات لمعرفة أقوى القبائل، وما هي الوسائل النافعة للدخول في بلاد المغرب ، وبعد أن أيقن أن أقوى القبائل في المغرب هي الكتامية قرر الذهاب إلى بلدة تسمى «إيكجان» وهي بلدة في جبل وعر، وعرف أنها منازل قبيلة «سكتاتة» التي هي بطن من بطون كتامة [١] ونهج في حياته نهج المعلم المؤدب الورع، وسلك سلوك الزهد والعفاف حتى تملك قلوبهم، واشتهر صيته، وأقبلت عليه القبائل البربرية وتصدى لتعليمهم وتفقيههم المذهب الشيعي، ثم دخل في الأمور السياسية ونظام الحكم ودور الإسلام في الحكم بالشورى، وفضل العلويين وأحقيتهم في الحكم.

وبسبب الظلم الذي مارسته دولة الأغالبة على الناس ، استجابت بعض القبائل للداعية الشيعي الذي رأوا فيه المخلص وبدأ الصدام مع الأغالبة، وانتقل أبو عبد الله الشيعي إلى حصن منيع في جبال الأوراس في بلدة «تازروت» ومن هناك كان يوجه الضربات المتتالية لدولة الأغلبة، واعتمد في ذلك على فضح الأغالبة ونشر ظلمهم وبيان أن حكمهم خارج عن الإسلام وشريعة الرحمن، وأثار الأحقاد القديمة بين الدولة الأغلبية وبعض القبائل، وأعطى عهوداً ومواثيق لرجال وزعماء

---

(١) المصدر السابق (جـ٢/٥٦).

كتامة أن المستقبل والدولة والتمكن لهم، فخضعت له القبائل وتوالت المدن في السقوط وغنم غنائم واشتد حماس أتباعه، وساعده على ذلك انحلال وضعف دولة الأغالبة وانغماسهم في الترف، وتذمر الناس من الأمراء ومن ظلمهم، وأظهر أبو عبد الله من الحزم والشجاعة والمقدرة السياسية والكفاءة العسكرية ما جعله ثقة لمن حوله من القادة والجنود، فأعطاه ذلك شعوراً بأن الوقت حان لكشف دعوته بأن يدعو للرضى من آل البيت النبوي الذي سيظهر عن قريب وتولى أمور الحكم.

واستطاع أبو عبد الله الشيعي أن يستولي على جميع النقط الحربية ما بين حصنه في جبال الأوراس حتى عاصمة الأغالبة.

وفي أوائل جمادى الأولى **عام ٢٩٦ هـ / ٩٠٩م** سقطت مدينة الأريس في يد قوات أبي عبد الله الشيعي، وهذه المدينة هي مفتاح دخول القيروان العاصمة السياسية للبلاد، فعجل زيادة الله الأخير بالرحيل إلى مصر في **جمادى الآخرة عام ٢٩٦هـ**، ودخل عبد الله الشيعي القيروان [١].

وأعلن عبد الله إثر هذا النصر الحاسم على الأغالبة أن الإمام الحقيقي للمسلمين هو عبيد الله المهدي وأنه قريباً سيصل إلى بلاد المغرب ويظهر العدل والمساواة، فانضم إليه بعض قواد الأغالبة، وأصبح جيشه مائتي ألف مقاتل لكي يدافعوا عن المذهب الشيعي الإسماعيلي والدولة الجديدة، ومعلوم من دراسة التاريخ أن الانتصارات تستحوذ على عوام الناس ويظنون أن المنتصر على حق، ومع الإشاعة الشيعية القوية والانتصارات الملموسة وإيمان الناس بالمهدي المنتظر أصبح الناس قادة وجنوداً لا رأي لهم، ولا عقل، بل مثل الآلات في التنفيذ، وحاول أبو عبد الله الشيعي أن يعتمد في نشر مذهبه بالدعاية والمناظرة لإقناع

---

(١) موسوعة المغرب العربي (جـ٢ / ٦٠).

علماء السُنَّة والجماعة من أمثال عثمان بن سعيد الحداد، إلا أنه أسقط في يديه عندما أقاموا الحجة عليه وعلى دعاته، ولذلك اضطر أخو عبد الله الشيعي «أبو العباس» أن يستخدم القوة لقلع مذهب أهل السُنَّة والجماعة من عاصمة الشمال الإفريقي فمارس مع علماء أهل السُنَّة أصناف العنف والشدة والتعذيب وضربوا الفقهاء بالسياط وقطعوا ألسنة بعضهم، وضربوا الرقاب وقطعوا أجزاء الجسم إلى عدة أجزاء، وصلبوا الفقهاء، وصادروا الأموال، وبطحوا الناس على ظهورهم وأمروا عبيدهم بأن يدوسوهم بالأقدام.

واشتد الصراع المذهبي، وهز الدولة الوليدة فتدخل الداهية أبو عبد الله الشيعي ومنع المناظرة والمجادلة حسماً للصراع وعزل أخاه عن ولاية القيروان.

ونجح أبو عبد الله الشيعي في تثبيت دعائم الحكم في القيروان بواسطة زعماء قبيلة كتامة وخصوصاً سيدهم ومطاعهم «غزوية بن يوسف» وأخيه وبقية قومه، وأرسل إلى عبيد الله المهدي وابنه القاسم للمجيء إلى القيروان وشد عبيد الله من الشام رحاله «من مدينة سلمية» إلى مصر، ثم برقة، ثم طرابلس متخفياً في ثياب التجار، ولفقت قصص عجيبة في نجاته من ولاة الدولة العباسية، ووقع في أسر بني مدرار أمراء سجلماسة [١].

واستطاع أبو عبد الله الشيعي الصنعاني في ٢٩٧ هـ / ٩١٠م أن يجهز جيشاً ضخماً حطم به دولة بني مدرار وخلص عبيد الله المهدي وابنه من السجن، وفي طريق عودته مر الجيش بتاهرت وأزال دولة بني رستم في عام ٢٩٧ هـ / ٩١٠م وأصبح الغرب الأوسط إلى تلمسان دولة عبيدية.

وتولى عبيد الله المهدي الذي أعلن قيام الدولة الفاطمية التي نسبها إلى فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ لخداع الناس وتضليلهم.

وبدأت الدولة الفاطمية المزعومة تسعى للقضاء على الخلافة العباسية خصوصاً

(١) موسوعة المغرب العربي (جـ٢/٦٥).

بعد أن تمكنوا من القضاء على دولة بني مدرار في سجلماسة ودولة رستم في تاهرت ودولة الأغالبة في إفريقية « تونس ».

وكانت بيعة عبيد الله المهدي في القيروان عام ٢٩٧هـ / ٩١٠م وانتهت ولاية أبي عبد الله الشيعي بعد أن دامت عشر سنوات على قول بعض المؤرخين (١).

وكطبيعة الثورات تخلص عبيد الله المهدي من أبي عبد الله الشيعي وأخيه أبي العباس وغزوية بن يوسف بمؤمرات متتالية وكل من كان من أنصارهم.

وهذا ملاحظ أيضاً في دراسة التاريخ القديم والحديث، وهو أن الأصدقاء والرفقاء الذين لا تقوى لهم، وإنما تجمعهم مصالح ومبادئ فاسدة يُصَفُّون بعضهم بعضاً، وهذا حدث في الثورة الفرنسية ١٨٧٩م، والثورة الجزائرية، والثورة السورية، والمصرية، والليبية، والعراقية، وهكذا قديماً وحديثاً.

وظهر لي أن ذلك سُنَّة من سُنن الله الجارية في المجتمعات « من أعان ظالماً سلطه الله عليه » ﴿ **وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** ﴾.

[الأنعام: ١٢٩].

وذكر المؤرخون أن الخلاف الذي وقع بين عبيد الله المهدي، وأبي عبد الله الشيعي على الأموال التي استأثر بها النزق الكاذب عبيد الله المهدي وبعضهم يرى أن أبا عبد الله الشيعي شك في عبيد الله المهدي بأنه ليس المهدي المنتظر.

وصاحب موسوعة المغرب العربي الدكتور عبد الفتاح مقلد الغنيمي ذكر السببين (٢) ولم يرجح ثم إنه دافع عن نسب العبيديين وأنه في رأيه يرجع إلى فاطمة الزهراء، وشن حملة على من طعن في نسب العبيديين ونسبهم إلى اليهود، أو إلى المجوس، واتهمهم أنهم موالين للخلافة العباسية في بغداد أو الأموية في الأندلس وأن الخلافتين شنتا حملة شعواء على النسب العبيدي.

---

(١) ، (٢) انظر: المرجع السابق ص(٧٠).

وأقول :

إن ابن كثير رحمه الله الذي نقل أقوال العلماء في البداية والنهاية في الطعن في النسب العبيدي أقوى حجة،وأمتن سنداً، وأعرف بحقائق الدول ومؤسسيها، وعرف بالصدق والأمانة العلمية المتناهية، وكلامه واضح في البداية والنهاية، وأما ابن الأثير فلم يجزم ومال إلى إثبات النسب بدون تصريح وذلك في «الكامل في التاريخ» (١) وهو معروف بميوله الشيعية، وابن تيمية في الفتاوى يؤكد ويصرح على عدم ثبات النسب الفاطمي، وإليك شهادة المؤرخ القدير ابن خلكان حيث قال «والمحققون ينكرون دعواه في النسب، وَيَنُصُّون على أن هؤلاء المنتسبين بالفاطميين أدعياء، وأنهم من أصل يهودي من سلمية بالشام، وأن والده لقب بالقدّاح، لأنه كان كحالاً يقدح العيون، وقد هلك عبيد الله **سنة ٣٢٢هـ**، وتمكن حفيده المعز من الاستيلاء على مصر، واستمر ملك العبيديين نحو قرنين من الزمان إلى أن قضى عليهم بطل الإسلام صلاح الدين الأيوبي في **سنة (٥٦٧ هـ)** وأزال منها كل آثار العبيدين، وقطع شرورهم عن الناس وأراح الله العباد منهم» (٢).

وعلى كل حال فأعمالهم وعقائدهم تدل على أن أبناء المسلمين من السلالة النبوية الشريفة وعلماءهم الأبرار الأطهار وفقهاءهم الأخيار براء من هذه الأقوال الشنيعة، والأفعال القبيحة، وأنا شخصياً أميل إلى أن أبا عبد الله الشيعي اتضح له أن عبيد الله المهدي رجل طامع في الملك والجاه، ومستبد ويسعى لمجده وشعر أبو عبيد الله ببعده عن مكانته فعمل على الخلاص منه، فحاول إقناع من حوله بأنه ليس هذا هو الذي يحدثهم عنه، إلا أن عبيد الله المهدي كان أسرع منه فتخلص الأخير من خصومه، وأما عن نسبه فالحق الواضح البين أن عبيد الله المهدي دعيّ في نسبه، ولا صلة له بأهل البيت، وهذا ما سينبرهن عليه في ترجمته إن شاء الله.

---

(١) **انظر**: الكامل في التاريخ (جـ٥/١١) وما بعدها.

(٢) فرق معاصرة (جـ١/٢٨٩).



المبحث الرابع

عبيد الله المهدي الخليفة الشيعي الرافضي الأول

(٢٩٧هـ - ٣٢٢هـ / ٩١٠م - ٩٣٤م)

ذكر الإمام الذهبي ترجمة لعبيد الله المهدي في سير أعلام النبلاء فقال «عبيد الله أبو محمد أول مَنْ قام مِنَ الخلفاء الخوارج العُبيدية الباطنية الذين قلبوا الإسلام، وأعلنوا بالرفض، وأبطنوا مذهب الإسماعيلية وبثوا الدُّعاة يستغوون الجبليةَ والجهلة» [١].

وذكر ما قيل عنه في نسبه ثم قال: والمحققون على أنه دَعِيٌّ بحيث إنَّ المُعزَّ منهم لما سأله السيد ابن طَبَاطَبَا عن نسبه، قال غداً أخرجه لك، ثم أصبح وقد ألقى عُرَمَة من الذهب، ثم جَذبَ نِصْف سَيفه من غمده، فقال: هذا نسبي، وأمرهُمْ بنهب الذَّهب، وقال: هذا حَسبي [٢] أما مفتي الديار الليبية رحمه الله الشيخ طاهر الزاوي فقد قال في ترجمة عبيد الله المهدي: «هو مؤسس الدولة العبيدية وأول حاكم فيها، وهو عراقي الأصل، ولد في الكوفة سنة (٢٦٠هـ)، واختبأ في بلدة سَلَمِيةً بؤرة الإسماعيلية الباطنية في شمال الشام. ومن يوم أن ولد إلى أن استقر في سَلَمِيةً كان يعرف باسم سعيد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن ميمون القداح».

وفى منطقة سَلَمِيةً مقر الإسماعيلية مات علي بن حسن بن أحمد بن محمد ابن إسماعيل بن جعفر الصادق، وأقام له الإسماعيلية مزارات سرية، وقرروا نقل الإمامة من ذرية إسماعيل بن جعفر الصادق إلى ابنهم بالنكاح الروحي [٣] ثم قال: «هذا أصل عبيد الله المهدي، وهذا أصل العبيدين المنسوبين إليه».

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (جـ ١٥/ ١٤١).
(٢) المصدر السابق (جـ ١٥/ ١٤٢).
(٣) تاريخ الفتح العربي في ليبيا ص (٢٥٣).

وقد خالفهم في نسبتهم إلى إسماعيل بن جعفر الصادق جميع المسلمين في المغرب وفي كل مكان، وفي مقدمة الذين أنكروا عليهم هذا النسب الأشراف العلويون، وإنما هم منسوبون إلى سعيد بن أحمد القداح الذي ادعوا أنه ابن إسماعيل بن جعفر الصادق من طريق النكاح الروحي الذي ذكرنا آنفاً.

وبعد أن تخلص عبيد الله المهدي من خصومه أراد أن ينشر مذهبه في القيروان، ومن ثَمَّ الشمال الإفريقي، ولكن طلائع علماء أهل السُّنَّة والجماعة نابذوه العداء، وأقنعوا الناس بأن دولة العبيدي كفرية بعيدة عن الشريعة الإسلامية، وحدثت بين العبيدين وأهل السُّنَّة حروب طاحنة ، فانتقل عبيد الله المهدي إلى المهدية بعد أن بذل في بنائها وتحصينها أموالاً طائلة، إلا أن شعور الاستقرار والاطمئنان جانب العبيديين في الشمال الإفريقي لضراوة المقاومة التي قادها علماء أهل السُّنَّة ضدهم، فأخضع المدن بقوة السلاح وفكر في الانتقال إلى مصر، وأرسل عدة حملات إليها إلا أنها فشلت أمام جيوش العباسيين التي قادها «مؤنس الخادم».

وكانت أشد هذه الحملات خطراً على مصر الحملة التي كانت في عام(٣٢١هـ) ، واستطاع العباسيون صد هذه الحملة بفضل جهود «محمد الإخشيدي» [١] .

واستمر عبيد الله في حكمه إلى أن هلك في عام ٣٢٢هـ وله اثنتان وستون سنة، وكانت دولته خمساً وعشرين سنة وأشهر [٢] .

وبهذا نلحظ : أن قبائل المصاميد وكتامة التفت حول الدعوة العبيدية لظنهم أنه هو المهدي المنتظر، ونجد في التاريخ الإسلامي كثيراً من الثورات والدول التي قامت واعتمدت على هذا المعتقد. فرأيت من المناسب والمهم في بناء السياج العقيدي الصحيح على أصول أهل السُّنَّة والجماعة في هذه المسألة

---

(١) موسوعة تاريخ المغرب(جـ ٢ /٧٦) .

(٢) انظر: سير أعلام النبلاء(جـ ١٥ /١٥١) .

أن أبين معتقد أهل السُّنَّة في قضية المهدي المنتظر حتى يسهل على الناس كشف الدجالين الأفاكين وسأجعل معتقد أهل السُّنَّة في المهدي عقب انتهاء ترجمة العبيدي.

نجد أن عبيد الله المهدي اعتمد على ادعائه على هذه الدعوي حتى بعد أن استطاع أبو عبد الله الشيعي أن يزعزع ثقة البرابرة فيه ذهب إليه كبير كتامة وقال لعبيد الله المهدي قد شككنا فيك، فائت بآية، فأجاب بأجوبة، قَبِلهَا عَقْلُهُ وقال إنكم تيقنتم ، واليقين لا يزول إلا بيقين لا بشك.

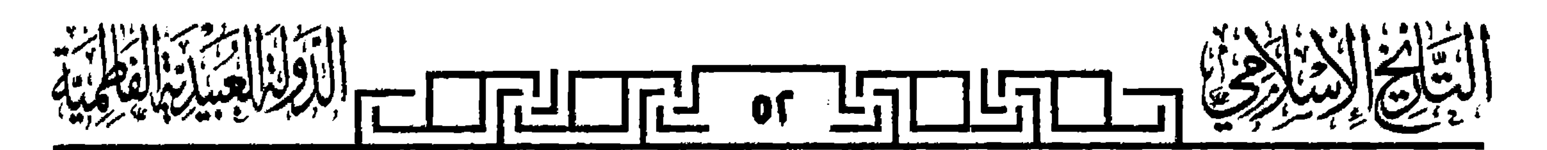
وكانت المسائل التشكيكية في المهدي التي طرحها أبو عبد الله الشيعي على زعماء كتامة من أن الإمام يعلم الأمور قبل وقوعها، وهذا قد دخل معه بولدين. ونص أن الأمر في الصغير بعده ، ومات الولد بعد عشرين يوماً، فلما سأل كبير زعماء كتامة عبيد الله المهدي عن الطفل قال عبيد الله المهدي: إن الطفل لم يمت، وإنه أمَامُك، وإنما الأئمة ينتقلون، وقد انتقل لإصلاح جهة أخرى، قال كبير زعماء كتامة آمنت.

وقال أبو عبد الله الشيعي: إن الإمام لا يلبس الحرير والذهب وهذا قد لبسهما. وليس له أن يطأ إلا ما تحقق أمره، وهذا قد وطئ نساء زيادة الله التغلبي يعني عبيد الله المهدي، فلما سأل كبير كتامة عبيد الله المهدي فأجاب أنا نائب الشرع أحللّ لنفسي ما أريد، وكل الأموال، وزيادة الله كان عاصياً (١) .

والمقصود في نقلي هذا اعتماد الدجالين على استخفاف عقول الناس وتغريرهم لجهلهم، واعتمادهم على معتقدات في الأئمة من تعظيم آل البيت والإيمان بالمهدي المنتظر، وغير ذلك، فالمقام مناسب لبيان عقيدة أهل السُّنَّة في المهدي المنتظر.

---

(١) انظر : سير أعلام النبلاء (جـ ١٥/ ١٤٦).



المبحث الخامس

عقيدة أهل السنة والجماعة في المهدي

بينت الأحاديث الصحيحة أن الله تعالى يُخْرِجُ في آخر الزمان رجلاً من أهل البيت يؤيد الله به الدين، يملك سبع سنين يملأ الأرض عدلاً وسلاماً، كما مُلئت جوراً وظلماً ، تنعم الأمة في عهده نعمة لم تنعمها قط، وتُخرج الأرض نباتها، وتمطر السماء قطرها، ويُعطى المال بغير عدد.

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: « في زمانه تكون الثمار كثيرة،والزرُّوع غزيرة، والمال وافر والسلطان قاهر، والدين قائم، والعدو راغم، والخير في أيامه دائم »(١).

اسمه وصفته :

وهذا الرجل اسمه كاسم رسول الله ﷺ، واسم أبيه، كاسم أبي النبي ﷺ فيكون اسمه محمد أو أحمد بن عبد لله ، وهو من ذرية فاطمة بنت رسول الله ﷺ ثم من ولد الحسن بن علي رضي الله عنه .

قال ابن كثير رحمه الله في المهدي: « وهو محمد بن عبد الله العلوي الفاطمي الحسيني رضي الله عنه » (٢) . **وصفته الواردة :** « أنه أجلى الجبهة، أقنى الأنف » (٣) .

مكان خروجه :

يكون ظهور المهدي من قبل المشرق، فقد جاء في الحديث عن ثوبان رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «**يقتل عند كنزكم ثلاثة : كلهم ابن خليفة ، ثم تطلع الرايات السود من قبل المشرق ، فيقتلونكم قتلاً لم يقتله قوم**». ثم ذكر شيئاً لا أحفظه... فقال: «**فإذا رأيتموه، فبايعوه ، ولو حبواً على الثلج ، فإنه**

---

(١) النهاية، الفتن والملاحم، (جـ ١ / ٣١) ، تحقيق د/ طه زيني.

(٢) النهاية، الفتن والملاحم (جـ ١ / ٢٩).

(٣) **الأجلي**: الخفيف شعر ما بين النزعتين من الصدغين، والذي انحسر الشعر عن جبهته.

خليفة الله المهدي» [١] .

قال ابن كثير - رحمه الله -: « والمراد بالكنز المذكور في هذا السياق كنز الكعبة، يقتتل عنده ليأخذه ثلاثة من أولاد الخلفاء، حتى يكون آخر الزمان، فيخرج المهدي، ويكون ظهوره من بلاد المشرق » لا من سرداب سامراء، كما يزعم جهلة الرافضة من أنه موجود فيه إلى الآن، وهم ينتظرون خروجه في آخر الزمان، فإن هذا نوع من الهذيان، وقسط كبير من الخذلان شديد من الشيطان، إذ لا دليل على ذلك، ولا برهان، لا من كتاب ولا من سُنَّة ، ولا معقول صحيح، ولا استحسان. . . . إلى أن قال: « ويؤيد بناس من أهل المشرق ينصرونه، ويقيمون سلطانه، ويشيدون أركانه، وتكون راياتهم سودٌ أيضاً وهو زيٌّ عليه الوقار، لأن راية رسول الله ﷺ كانت سوداء يقال لها: العقاب » .

إلى أن قال: « والمقصود أن المهدي الممدوح الموعود بوجوده في آخر الزمان يكون أصل ظهوره وخروجه من ناحية المشرق، ويبايع له عند البيت، كما دلت على ذلك بعض الأحاديث » [٢] .

وذكر الإمام البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « **كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم؟**» [٣] .

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة**» إلى أن قال: «**فينزل عيسى ابن مريم ، فيقول أميرهم: تعال صل بنا فيقول: لا ، إن بعضكم على بعض أمراء تكرمة الله هذه الأمة**» [٤] .

---

(١) أخرجه ابن ماجه، كتاب الفتن، باب خروج المهدي (جـ٢/١٣٦٧)، ومستدرك الحاكم (٤/٤٦٤) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي. جل مبحث المهدي المنتظر اختصرته من كتاب أشرط الساعة، وهو رسالة ماجستير ليوسف الوابل.
(٢) النهاية، الفتن والملاحم (جـ١/٣١).
(٣) صحيح البخاري ، كتاب أحاديث الأنبياء، نزول عيسى ابن مريم عليه السلام (جـ٦/٤٩١) مع الفتح.
(٤) صحيح مسلم ، كتاب الإيمان، باب نزول عيسى عليه السلام (جـ٢/١٩٣) مع شرح النووي.

والأحاديث التي وردت في الصحيحين تدل على أمرين :

أحدهما : أنه عند نزول عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام من السماء يكون المتولي لإمرة المسلمين رجل منهم .

والثاني : أن حضور أميرهم للصلاة، وصلاته للمسلمين، وطلبه من عيسى عليه السلام عند نزوله أن يتقدم ليصلي لهم يدلّ على صلاح هذا الأمير وهُداه .

وجاءت الأحاديث في السُنن والمسانيد وغيرها مفسرة لهذه الأحاديث التي في الصحيحين، ودالة على أن ذلك الرجل الصالح يسمىً : محمد بن عبد الله، ويقال له المهدي، والسُنَّة يفسر بعضها بعضاً .

[١] فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **منا الذي يصلي عيسى ابن مريم خلفه** » (١) .

[٢] وعن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **ينزل عيسى ابن مريم، فيقول أميرهم المهدي : تعال صلِّ بنا ، فيقول : لا ، إن بعضهم أمير بعض ، تكرمة الله هذه الأمة** » (٢) .

[٣] وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **المهدي مني أجلى الجبهة ، أقنى الأنف ، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً يملك سبع سنين** » (٣) .

أولاً: تواتر أحاديث المهدي :

﴿ ١ ﴾ **قال الشوكاني**: « الأحاديث في تواتر ما جاء في المهدي المنتظر التي أمكن الوقوف عليها منها خمسون حديثاً، فيها الصحيح والحسن والضعيف والمنجبر، وهي متواترة في جميع الاصطلاحات المحررة في الأصول، وأما

---

(١) رواه أبو نعيم في « أخبار المهدي » صححه الشيخ الألباني رحمه الله في صحيح الجامع الصغير (٥ / ٧١٧٠) .
(٢) المنار المنيف« لابن القيم »، ص (١٤٧-١٤٨) .
(٣) سنن أبي داود، كتاب المهدي، (جـ ١١ / ٣٧٥) رقم (٤٢٦٥) .

الآثار عن الصحابة المصرحة بالمهدي، فهي كثيرة أيضاً، لها حكم الرفع، إذ لا مجال للاجتهاد في مثل ذلك »[١] .

﴿ ٢ ﴾ **قال صديق حسن خان:** « الأحاديث الواردة في المهدي على اختلاف رواياتها كثيرة جداً، تبلغ حد التواتر المعنوي، وهي في السُنن وغيرها من دواوين الإسلام من المعاجم والمسانيد »[٢] .

﴿ ٣ ﴾ **وقال الشيخ محمد بن جعفر الكتاني:** « والحاصل أن الأحاديث الواردة في المهدي المنتظر متواترة ، وكذا الواردة في الدَّجاَّل، وفي نزول سيدنا عيسى ابن مريم عليه السلام »[٣] .

وأما العلماء الذين صنفوا كتباً في المهدي بالإضافة إلى كتب الحديث المشهورة، كالسُنن الأربعة، والمسانيد، « مسند أحمد »، و« مسند البزار »، و« مسند أبي يعلى »، و« مسند الحارث بن أبي أسامة »، و« مستدرك الحاكم »، و« مصنف ابن أبي شيبة »، و« صحيح ابن خزيمة »، وغيرها من المصنفات[٤] التي ذكرت فيها أحاديث المهدي فإن طائفة من العلماء أفردوا في المهدي المنتظر مؤلفات ذكروا فيها جمعاً كبيراً من الأحاديث الواردة فيه.

ثانياً: المنكرون لأحاديث المهدي والرد عليهم :

ومما يؤسف له أن طائفة من الكُتَّاب من أمثال الشيخ محمد رشيد رضا، في تفسير المنار وصف أحاديث المهدي بالتناقض والبطُلان، وأن المهدي ليس إلا أسطورة اخترعتها الشيعة، ثم دخلت كتب أهل السُّنَّة[٥] .

---

(١) التوضيح في تواتر ما جاء في المهدي المنتظر والدجال والمسيح.

(٢) الإذاعة لما كان وما يكون بين يدي الساعة ص (١١٢) .

(٣) نظم المتناثر من الحديث المتواتر، ص (١٤٧) .

(٤) عقيدة أهل السنة والأثر في المهدي المنتظر للعباد، ص (١٦٦-١٦٨) .

(٥) تفسير المنار (جـ ٥ / ٤٩٩-٥٠٤) .

وممن أنكر أحاديث المهدي صاحب «دائرة معارف القرن العشرين»[١] محمد فريد وجدي، وسار على نفس الخط أحمد أمين في كتابه ضُحى الإسلام.

ويبدو أن هؤلاء الكُتّاب تأثروا بما ذكره المؤرخ ابن خلدون من تضعيفه لأحاديث المهدي، مع العلم أن ابن خلدون ليس من فرسان هذا الميدان حتى يُقبل قوله في التصحيح والتضعيف، ومع هذا فقد قال ـ بعد أن استعرض كثيراً من أحاديث المهدي وطعن في كثير من أسانيدها: ـ «فهذه جملة الأحاديث التي خرَّجها الأئمة في شأن المهدي، وخروجه آخر الزمان، وهي ـ كما رأيت ـ لم يخلص منها من النقد إلا القليل أو الأقل منه»[٢].

قال يوسف الوابل في أشراط الساعة تعليقاً على قول ابن خُلدون:

«ونقول: لو صح حديث واحد، لكفى به حجة في شأن المهدي، كيف والأحاديث فيه صحيحة متواترة»[٣].

قال الشيخ أحمد شاكر رداً على ابن خُلدون:

«إن ابن خُلدون لم يحسن قول المحدثين» الجرح مقدَّم على التعديل ولو اطلع على أقوالهم وفقهها، ما قال شيئاً مما قال، وقد يكون قرأ وعرف، ولكنه أراد تضعيف أحاديث المهدي بما غلب عليه من الرأي السياسي في عصره[٤] ثم بين أن ما كتبه ابن خلدون في هذا الفصل عن المهدي مملوء بالأغاليط في أسماء الرجال ونقل العلل، واعتذر عنه بأن ذلك قد يكون من الناسخين، وإهمال المصحَّحين.

وما ذهب إليه محمد رشيد رضا وابن خلدون ومحمد فريد ـ رحمهم الله ـ ليس صواباً.

---

(١) دائرة المعارف القرن العشرين(جـ ١٠ / ٤٨٠).
(٢) مقدمة ابن خلدون(جـ ١ / ٥٧٤).
(٣) أشراط الساعة للوابل، ص(٢٦٧).
(٤) تعليق أحمد شاكر على مسند الإمام أحمد(جـ ٥ / ١٩٧-١٩٨).

وإنما الحجة في كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ والروايات المذكورة في خروج المهدي صحيحة متواترة تواتراً معنوياً، وهذا يكفي، وأما كون الأحاديث قد دخلها كثير من الإسرائيليات، وأن بعضها من وضع الشيعة وغيرهم من أهل العصبيات، فهذا صحيح، ولكن أئمة الحديث بينوا الصحيح من غيره، وصنفوا الكتب في الموضوعات وبيان الروايات الضعيفة، ووضعوا قواعد دقيقة في الحكم على الرجال، حتى لم يبق صاحب بدعة أو كذب إلا وأظهروا أمره، فحفظ الله لسُنَّة من عبث العابثين وتحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وهذا من حفظ الله لهذا الدين.

وإذا كانت هناك روايات موضوعة في المهدي تعصباً فإن ذلك لا يجعلنا نترك ما صح من الروايات فيه، والروايات الصحيحة جاء فيها ذكر صفته واسمه واسم أبيه، فإذا عينَّ إنسان شخصاً، وزعم أنه هو المهدي، دون أن يساعده على ذلك ما جاء من الأحاديث الصحيحة، فإن ذلك لا يؤدي إلى إنكار المهدي على ما في الحديث، ثم إن المهدي الحقيقي لا يحتاج إلى أن يدعو له أحد، بل يظهره الله في الناس إذا شاء، ويعرفونه بعلامات تدل عليه.

وأما دعوى التعارض، فقد نشأت عن الروايات التي لم تصح، وأما الأحاديث الصحيحة، فلا تعارض فيها والحمد لله.

وأيضًا: فإن خلاف الشيعة مع أهل السُّنَّة لا يعُتدُّ به، والحَكَم العدل هو الكتاب والسُّنَّة الصحيحة، وأما خرافات الشيعة وأباطيلهم، فلا يجوز أن تكون معتمدة يُردُّ بها ما ثبت من حديث رسول الله ﷺ [1].

قال العلامة ابن القيم في كلامه عن المهدي: «وأما الرافضة الإمامية، فلهم قول رابع، وهو: أن المهدي هو محمد بن الحسن العسكري المنتظر، من ولد

---

(١) انظر: أشراط الساعة، ص (٢٦٧)

الحسين بن علي لا من ولد الحسن، الحاضر في الأمصار الغائب عن الأبصار، الذي يورث العصا، ويختم الفضا، دخل سرداب سامراء طفلاً صغيراً من أكثر من خمسمائة سنة ، فلم تره بعد ذلك عين ، ولم يُحَسَّ فيه بخبر ولا أثر ، وهم ينتظرونه كل يوم !! ويقفون بالخيل على باب السرداب ويصيحون به أن يخرج إليهم: اخرج يا مولانا! اخرج يا مولانا ! ، ثم يرجعون بالخيبة والحرمان، فهذا دأبهم ودأبه، ولقد أحسن من قال:

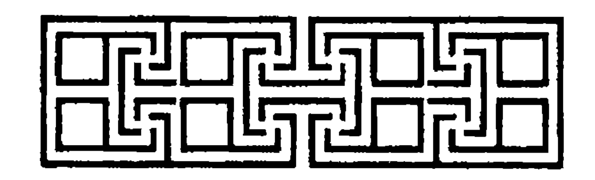
ما آن للسرداب أن يلد الذي كلَّمتموهُ بجهلكم ما آنا ؟
فعلى عقولكم العفاء فإنكم ثلثتم العنقاء والغيلانا

ولقد أصبح هؤلاء عاراً على بني آدم ، وضحكة يسخر منها كل عاقل» [1] .

وإلى هنا يكفي الإيضاح في بيان حقيقة المهدي عند أهل السُّنَّة والجماعة، وبذلك يتضح للقارئ الكريم الميزان الصحيح في دعوة كل مدعي للمهدية.

إن من أسباب الكارثة الكبرى التي وقعت في قبائل الشمال الإفريقي :

هي جهلهم بحقائق الأمور المستنبطة من الكتاب والسُّنَّة، ولذلك سهل على أبي عبد الله الشيعي أن يقود القبائل الكتامية إلى معتقداته الباطنية الرافضية الفاسدة.



---

(١) انظر : المنار المنيف، ص (١٥٢-١٥٣).

الفصل الثاني

الصراع بين الدولة العبيدية وأهالي الشمال الإفريقي

المبحث الأول

ثورة قبيلة هوارة في طرابلس

بعد أن احتل عبيد الله المهدي طرابلس عين ماكنون بن ضبارة اللحياني الكتامي والياً عليها، وثارت قبيلة هوارة على والي طرابلس لعدم استقرار الأمور، وحاولت أن تستفيد من فرصة العهد الجديد الذي لم تستقر فيه الأحوال في الشمال الإفريقي.

وانضمت قبائل من زناتة ولماية وغيرها من القبائل البربرية إلى قبيلة هوارة وقاد هذه الثورة ضد العبيدين في طرابلس أبو هارون الهواري، وحاصروا طرابلس واحتمى ماكنون بسور المدينة.

وأنجده عبيد الله المهدي بجيش بقيادة تمام بن معارك «أبازاكي - وهو ابن أخي ماكنون».

واستطاعت جيوش العبيديين أن تقضي على هذه الثورة الوليدة في مهدها.

وأوعز عبيد الله المهدي إلى ماكنون بن ضبارة للتخلص من تمام بن معارك بزعمه أنه يتآمر عليه فقتل العم ابن أخيه تمام في غرة ذي الحجة سنة ٢٩٨هـ وشعر ماكنون بأمان واستقرار، فتطاول في الحكم وسمح لبني قومه من كتامة بالتعدي على أموال الناس والاستهانة بأعراضهم والتدخل في أمورهم، فثار به أهل طرابلس سنة ٣٠٠هـ وأخرجوه منها، فلحق بالمهدي برقادة وقتل أهل طرابلس من كان فيها من أنصار ماكنون الكتاميين، وأغلقوا أسوار المدينة، فأرسل عبيد الله المهدي أسطولاً بحريًا استطاع الأسطول الطرابلسي أن يحرقه وأن يقتل

من فيه، فأرسل عبيد الله ابنه أبو القاسم بجيش عرمرم بطريق البر فاعترضت له هوارة، إلا أنه استطاع أن يهزمها ووصل إلى أسوار المدينة وضرب عليها حصاراً أفنى ما بقي من أقوات الناس في المدينة حتى أكلوا الميتة، ولم يستطع ابن إسحاق أن يواصل المقاومة وتفاوض أعيان طرابلس مع أبي القاسم الشيعي وطلبوا منه الأمان فأمنهم بشرط أن يسلموا محمد ابن إسحاق، ومحمد بن نصر، ورجلاً آخر يقال له: الحرحجة فقبلوا ذلك وسلموهم إليه، ودخل طرابلس وأرهق أهلها بغرامة مالية قدرها ثلاثمائة ألف دينار، وتخلص أبو القاسم الشيعي من الأغالبة الذين كانوا في المدينة مدعياً أنهم هم الذين حرضوا على الفتنة.

وتولى جباية مال الغرامة رجل يُقال له الخليل بن إسحاق من أبناء جند طرابلس.

وجابي مال الغرامة هو الذي أتم بناء جامع طرابلس الكبير أيام العبيدين وبنى منارته، وقد قتل على يد ابن كيداد اليفرني لما استولى على القيروان سنة ٣٢٢هـ.

وبعد أن استقرت الحال في طرابلس قفل أبو القاسم الرافضي إلى رقادة وطاف بالرجال الثلاثة الذين تسلمهم من طرابلس في شوارع القيروان على الجمال تشهيراً بهم ثم قتلهم [١].

ويتضح من هذه الثورة المبكرة ضد العبيديين أن أهل طرابلس وقفوا في مواجهة الفكر الشيعي والمد الرافضي والمعتقد الباطني الذي تكفلت دولة بني عبيد بنشره في الشمال الإفريقي.

---

(١) انظر: تاريخ الفتح العربي في ليبيا، ص(٢٤٦-٢٤٧).

المبحث الثاني

زحف العبيدين على برقة

فلما استقر أمر طرابلس أرسل عبيد الله جيوشه نحو برقة بقيادة حباسة بن يوسف الكتامي، وكان قاسياً شديداً نزعت الرحمة من قلبه، فتوجه في **عام** ٣٠١هـ نحو سرت، لأنها لازالت تحت حكم الأغالبة فدخلها بدون حرب، وهجرها من كان فيها من جنود العباسيين والأغالبة، ثم تقدم حباسة إلى أجدابية فهجرها من كان فيها من العباسيين والأغالبة، وطلب أهلها الأمان فأمنهم ودخلها بدون قتال، واحتل مدينة برقة وكانت جيوش العبيديين تتدافع نحو حباسة بدون انقطاع.

وكان حباسة هذا لا يفي بوعد، وكلما دخل مدينة قتل أهلها وأخذ أموالهم وسبى نساءهم، ومن فظاعة أعماله التي ذكرتها كتب التاريخ ما فعله بمجموعة من الناس كانوا يلعبون بالحمام في برقة فأمر بهم فأجلسهم حول النار، وأمر بلحومهم أن تقطع وتشوى، ثم أمر بهم فألقوا في النار، إن هذه الأعمال الوحشية تدل على عداوة العبيديين لكل من له رائحة سنُية، وربما يتقربون بها إلى الله على زعمهم الفاسد.

ومن أعماله الشنيعة ما قام بإعلانه في برقة: من أراد العطاء فليأت إلينا، فحضر إليه من الغد ألف رجل، فأمر بهم فقتلوا جميعاً، ثم وضع جثثهم بعضاً على بعض، وجيء له بكرسي فوضع على الجثث وجلس عليه، وأمر بالوجهاء من أهل البلد فدخلوا عليه فحبسهم وأهانهم، وقد مات منهم أناس من هول ما رأوا، وقال لهم: إن لم تأتوني غداً بمائة ألف مثقال قتلتكم جميعاً، فأحضروها له.

وانتقم من حارث ونزار ابني جمال المزاتي في نفر من أبناء عمومتهم في مدينة

برقة، وباع نساءهم وأخذ جميع أموالهم وخيراتهم وقد اغتم أهالي برقة من هذه الأفعال الشنيعة والأعمال القبيحة فأرسلوا إلى عبيد الله المهدي، فاعتذر الملعون وحلف يميناً كاذبة أنه ما أمر بشيء من ذلك، وكتب إلى حباسة أن يرحل عن برقة فرحل إلى جهة مصر، وأتى أموراً أقبح مما كان يفعله في برقة (١) .

وفي سنة ٣٠٢هـ تقدمت جيوش أبي القاسم الرافضي إلى الإسكندرية ولم ينل ما أراده ورجع مهزوماً ، وسبب ذلك أن أبا القاسم أرسل قصيدة إلى بغداد يفخر فيها ببيته وبما وصل إليه ملكهم فرد عليه الصولي بقصيدة على وزنها ومنها :

فلو كانت الدنيا مثالاً لطائر　　　لكان لكم منه بما حزتم الذنب

فغضب من هذا البيت وقال: « والله لا أزال حتى أملك صدر الطائر ورأسه إن قدرت أو أهلك دونه » (٢) .

ثورة أهل برقة على العبيدين :

وفي هذه السنة٣٠٢هـ انتقم أهل برقة من العبيديين فقتلوا عاملهم وكثيراً من رجال كتامة، فأرسل المهدي جيوشهسنة ٣٠٣هـ لتأديبهم والانتقام مهم، وقاد هذه الجيوش أبو مديني ابن فروخ اللهيفي وحاصر مدينة برقة ثمانية عشر شهراً ودخلهاسنة ٣٠٤هـ عنوة، فقتل أكثر أهلها، وأحرق دورها، وهتك أعراض نساءها ، وبعث بالأسرى إلى عبيد الله الذي أمر بقتلهم ، وبقي أبو مديني ببرقة إلى أن مات بهاسنة ٣٠٦هـ (٣) .

وفي سنة ٣٠٤هـ حارب العبيديون أهل صقلية وغزوا مصر فيذي القعدة سنة ٣٠٦هـ واستولوا على الإسكندرية وأكثر الصعيد ولم يستقروا بل رجعوا.

---

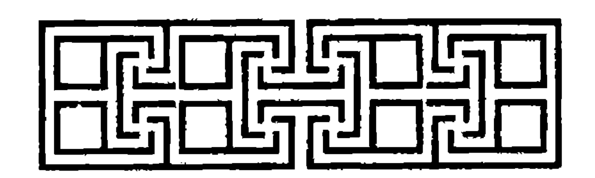
(١) انظر : تاريخ الفتح العربي في ليبيا، صـ(٢٤٧) .

(٢) المصدر السابق، صـ(٢٤٨)

(٣) انظر : تاريخ الفتح العربي في ليبيا، صـ(٢٤٨)

وفي سنة (٣٠٨هـ) تم بناء المهدية وانتقل إليها المهدي وفي سنة ٣١٠هـ خرجت نفوسة على عبيد الله وقدموا عليهم أبابطة ، فقوي شأنه وعظمت شوكته وكان مذهبهم إباضي ، فأرسل إليهم عبيد الله جيشاً بقيادة علي بن سليمان الداعي ، فانهزم جيش العبيديين وفر علي إلى طرابلس ، ثم أعاد الكرة على نفوسة وحاصروها.

وعُيِّن محمد بن عمر النفطي قاضياً على طرابلس، واستطاعت الدولة العبيدية أن تفرض نفوذها بقوة السلاح على إفريقية، وطرابلس، وبرقة، وجزيرة صقلية في حكم عبيد الله المهدي .



المبحث الثالث

خروج أبي يزيد الخارجي على العبيدين

هو مخلد بن كيداد اليفرني بن سعد الله، بن مغيث بن كرمان بن مخلد بن عثمان بن يفرن، ويفرن هذا أخو مغراو الذي تنسب إليه قبيلة مغراوة، وأمه أم ولد واسمها سيكة، وهي من بلاد السودان التي كان يتردد عليها والده للتجارة فاتخذها جارية له [١] .

وعاش أبو يزيد فقيراً وطلب المذهب الخارجي فتتلمذ على النكارية[٢] ، وكان في أ ول أمره معلم لتحفيظ القرآن الكريم، وقضى معظم وقته في التعليم وظهر في بداية أمره بمظهر الزهاد، فكان يركب حماراً ينتقل به بين القبائل والجبال فلقب بصاحب الحمار، وتذكر بعض كتب التاريخ أنه لما قاد الثورة ضد العبيدين كانت سنه تقارب التسعين، واستغل العداء بين زناتة والعبيدين وما مارسته دولة الروافض من أخذ الضرائب حتى فاقوا في ظلمهم الأغالبة واشتدت معارضة البرابرة بعد أن أعلن الروافض لعن الشيخين «أبي بكر وعمر رضي الله عنهما» على المنابر وفي المنتديات والحلقات وفي خطب الجمعة، فبدأ أبو يزيد في إعداد العدة في منطقة الجريد وأشعل الشمال الإفريقي بحروب طاحنة، وكانت بداية ثورته في زمن عبيد الله إلا أن الأخير هلك قبل القضاء عليه، وثار أبو يزيد على محمد ابن عبيد الله في جهات طرابلس وتابعه كثير من البربر من شدة جور محمد بن عبيد الله المهدي لأهل السُّنَّة ، وظلمه لهم، وتعذيبه إياهم، ورأى علماء أهل السُّنَّة الوقوف مع أبي يزيد ضد بني عبيد وقالوا: هم أهل القبلة أي أصحاب أبي

---

(١) انظر: تاريخ الفتح العربي في ليبيا، ص (٢٤٨).

(٢) المصدر السابق ص (٢٤٩).

يزيد وأولئك ليسوا من أهل القبلة، وهم بنو عدو الله [١]، وسمى أبو يزيد نفسه شيخ المؤمنين، وكان يضمر لأهل السُّنَّة أشد العداوة، لأنه كان نكاريًّا [٢] يستحل أموال أهل السُّنَّة ونساءهم، فانتهز كراهية أهل السُّنَّة لمحمد بن عبيد الله وأخفى عليهم عقيدته وأظهر لهم صداقته، ولما رأى القدرة من نفسه غدر بأهل السُّنَّة وخلى بينهم وبين محمد بن عبيد الله يقتلهم ويستبيح نساءهم ويغتصب أموالهم، ولولا أنه خاف أن يقال عنه قتل حلفائه وأعوانه فينفض الناس من حوله لفعل بأهل السُّنَّة الأعاجيب.

ومع ذلك فقد فُضِحَ أمره وانفض الناس من حوله وكان أبو يزيد الخارجي قاسي القلب، جباراً عنيداً، قال الشيخ طاهر الزاوي: «تدل أفعاله على نبذ الأديان[•]، وعدم احترام الإنسانية دخل القيروان بعد أن خرب البلاد، وقتل الرجال، وسبى النساء وشق فروجهنّ، وبقر بطون الحوامل، والتجأ الناس إلى القيروان حفاة عُراة، ومات كثير منهم عطشاً وجوعاً، وشكا إليه بعض الناس ما حل بالبلاد من الخراب، فقال لهم في سخرية واستهزاء: «وما يكون لو خربت مكة والبيت المقدس» [٣].

وهكذا إذا غابت العقيدة السليمة، وغاب التصور الصحيح،والمنهج الرباني يصبح الإنسان وحشاً مفترساً في حروبه لا منهج يلزمه، ولا عقل يمنعه،ولا شرع يوجهه.

إن عقيدة أبا يزيد الخارجي الفاسدة جعلته جباراً عنيداً وغادراً ومفسداً لا يراعي عهداً ولا ذمة لأحد، وهذا دليل على انطماس الفطرة، وانغماسه في وحول المستنقعات النتنة البعيدة عن نور الوحيين «كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ».

---

(١) سير أعلام النبلاء (جـ ١٥/ ١٥٥).

(٢) النكارية فرقة من فرق الخوارج.

(•) ليس هناك أديان، وإنما هناك شرائع، وأما الدين فواحد فقط منذ آدم عليه السلام وإلى محمد ﷺ وهو دين الإسلام «التوحيد».

(٣) انظر: تاريخ الفتح العربي في ليبيا، ص (٢٥١).

واستطاع العبيديون الروافض القضاء على ثورة أبي يزيد في زمن إسماعيل بن محمد المهدي الملقب «بالمنصور» حيث استطاع المنصور أن يوقع بجيوش أبي يزيد خسائر فادحة في الأموال والرجال وتابعه حتى تمكن منه بعد جهد جهيد وظفر به مثخناً بجراحه ومات متأثراً بها، فسلخ المنصور جلده وحشاه تبناً وصلبه [(١)].

وقال العبيديون في هذا الموقف شعراً نظمه على بن محمد الأيادي الشاعر:

فارتقى الملعون من خيفته ... في ذرى أعيط عال مُصعد
في ذرى حلقاء ملساء على ... ذلك المعقل ليست بصدد
معقل من فوقه الله ومن ... تحته المنصور في جيش مُعد
فارتقى المنصور بالسيف له ... يوم طعن كشآبيب البرد
فإذا مخلد في كف الردى ... موثق الجيد بحبل من مسد
فأبى الله سوى إعجاله ... وعذاب الله للجسم أهد
فنفى عنه أيدما دنساً ... كان قد أسرف فيه ومرد
كأديم التيس لما لم يطب ... ريحه جرد منه فانجرد
وحشاه سالخوه وسعفاً ... مالياً ما بين كعب وكند
ثم رقاه على مستحصد ... باسق أجرد ما فيه أود

وبقي مصلوباً حتى تمزق جلده وأذرته الرياح، وكان ذلك في المحرم سنة ٣٣٦هـ، وواصل ابنه الثورة مطالباً بثأر أبيه، فأرسل إليه المنصور قائده زيزي ابن مناد [(٢)] فقتله، وانتهى أمر أبي يزيد الخارجي وابنه.

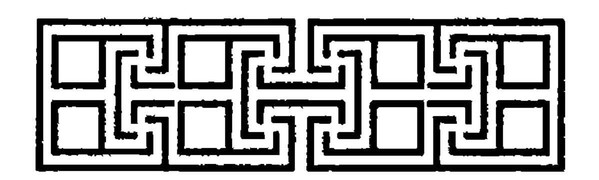
لم تكن ثورة أبي يزيد ذات خطة واضحة، ولم تكن لها أهداف لتكوين دولة، حيث إنه استطاع بجيوشه أن يكبل العبيديين خسائر فادحة، وينتزع منهم

---

(١) سير أعلام النبلاء (جـ ١٥/ ١٥٧).
(٢) انظر: تاريخ الفتح العربي في ليبيا، ص (٢٥١).

المُلك ويحاصرهم في المهدية، ومع هذا وقف حائراً فأساء السيرة مع كثير من القبائل، ففقدت الثقة فيه وانفضت من حوله، وإنما الواضح في ثورته الانتقام وسفك الدماء من مخالفيه بطريقة وحشية همجية تدل على قلب حقود لكل من يخالفه، واستغرقت هذه الثورة النارية أربعة عشر عاماً انشغلت بها دولة العبيدين الروافض.

ولعل هذا من سُنَّة الله في تسليط بعض الظالمين على بعض، حيث قتل الألوف من أتباع الطرفين وفقد الأمن والأمان في الشمال الإفريقي.



المبحث الرابع

القائم بأمر الله الخليفة الثاني الرافضي

أبو القاسم نزار بن عبيد الله

(٣٢٢ـ٣٣٤هـ، ٩٣٤ـ٩٤٥م)

هو أبو القاسم محمد بن المهدي بن عبيد الله، ولد في سلمية سنة ثمان وسبعين ومائتين ، بويع له بخلافة الروافض في سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة

وكان مهيباً شجاعاً قليل الخير، فاسد العقيدة، خرج عليه في سنة اثنتين وثلاثمائة أبو يزيد مخلد بن كَيداد البربرى الخارجي، وجرت بينهما ملاحم وحروب، وحصره مخلد بالمهدية، وضيق عليه واستولى على بلاده ثم وسوس القائم، واختلط وزال عقله وكان شيطاناً مريداً يتزندق فأظهر سب الأنبياء، وكان أتباعه يصيحون العنُوا الغار وما حوى. وأباد عدداً من العلماء، وكان يراسل فرامطة البحرين، ويأمر بإحراق المساجد والمصاحف.

واستغل أبو يزيد الخارجي كفر أبي القاسم وألب عليه إباضية المغرب وجموع القبائل وفقهاء وزهاد القيروان، وكاد أن يتملك أبو يزيد المغرب بأجمعه وركزت ألويته عند جامع القيروان فيها: لا إله إلا الله لا حكم إلا لله، وعلمان أصفرن فيهما: نصر من الله وفتح قريب، وعلم لأبي يزيد فيه: اللهم انصر وليك على من سَبَّ نبيك [١].

وكان القائم العبيدي يقذف الصحابة علناً ويطعن في النبي ﷺ حتى إنه أمر بتعليق رءوس كباش على الحوانيت، وكُتبَ عليها إنها رءوس الصحابة، وبسبب

---

(١) سير أعلام النبلاء (جـ١٥/١٥٢-١٥٦).

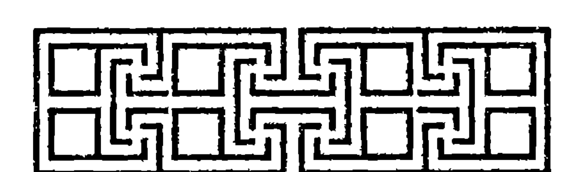
كفرهم وطغيانهم .

قال الشاعر في بني عبيد:

الماكر الغادر الغاوي لشيعته ... شرُّ الزنادقة من صحب وتُبَّاع

العابدين إذاً عجلا يخاطبهم ... بسحر هاروت من كفر وإبداع

لو قيل للروم أنتم مثلهم لبكوا ... أو لليهود لسدوا صمخ أسماع [١]



(١) المصدر السابق (جـ١٥/١٥٦) .

المبحث الخامس

الخليفة الشيعي الرافضي الثالث في الشمال الإفريقي

المنصور بنصر الله أبو الطاهر إسماعيل

(٣٣٤-٣٤١هـ / ٩٤٥-٩٥٢م)

هو أبو الطاهر إسماعيل بن القائم المهدي، العُبيدي الباطني صاحب المغرب.

تولى خلافة الروافض بعد أبيه، وهو الذي قضى على ثورة أبي يزيد الخارجي النكاري.

قال عنه الذهبي: «وكان بطلاً شجاعاً، رابط الجأش فصيحاً مُفوهاً يرتجل الخُطب، وفيه إسلامٌ في الجملة وعقل بخلاف أبيه الزنديق» (١).

قلت: وقول الذهبي وفيه إسلام في الجملة فيه نظر.

وذكر الذهبي شيئاً في كرمه فقال: «وقد جمع مرة من أولاد جنده ورعيته عشرة آلاف صبي، وكساهم كُسوة فاخرة، وعَمَلَ لهم وليمة لم يُسمع قط بمثلها، وختنهم جميعاً، وكان يهب للواحد منهم المائة دينار والخمسين دينار على أقدارهم»، ومن محاسنه أنه ولى محمد بن أبي المنظور الأنصاري قضاء القيروان، وكان من كبار أصحاب الحديث، ولقد لقي إسماعيل القاضي، والحارث بن أبي أسامة، فقال: بشرط أن لا آخُذ رزقاً ولا أركب دابة، فولاه يتألف الرعية، فأحضر إليه يهودي قد سَبَّ فبطحه، وضربه إلى أن مات تحت الضرب لعلمه أنه لو رفع إلى المنصور لا يقتله فضربه القاضي مظهراً ضرب الأدب حتى قتله (٢).

توفي في سنة إحدى وأربعين ومائة، بسبب برد وريح عظيمة أصابته مع جنوده وحاشيته عندما كان يتنزه.

وكان يتودد إلى رعيته واقتصر على إظهار التشيع، وقام بعده المعز ولده (٣).

---

(١) سير أعلام النبلاء (جـ ١٥/ ١٥٧).

(٢) سير أعلام النبلاء (جـ ١٥/ ١٥٨).

(٣) المصدر السابق (جـ١٥/ ١٥٩).

المبحث السادس

المعز لدين الله أبو تميم معد

(ذي القعدة ٣٤١ ـ ربيع ٣٦٥ هـ)

هو معد بن إسماعيل المنصور، وكنيته أبو تميم، ولد بالمهدية في ١١ من رمضان سنة ٣١٩هـ وعهد له والده بالخلافة بعده وجلس على سرير الملك من ذي الحجة سنة ٣٤١هـ ، وهو الخليفة العبيدي الرابع الذي حكم الشمال الإفريقي.

واستطاع أن يمد نفوذه على معظم الشمال شرقاً وغرباً، ففي سنة ٣٤٢هـ ولي باسيل الصقلي عاملاً على سرت، وولي على إجدابية ابن كافي الكتامي، وولى على برقة وأعمالها أفلح الناسب. وتوسعت أملاكه في صقلية سنة ٣٥٤هـ ، وفي أيامه دخل اليهود إفريقية، وأصبحت حدود مملكته إلى حدود مصر، ومن ثم استطاع أن يتابع أحوال الحكام والأمراء في مصر عن كثب، وأصبحت نفسه تسول له الاستيلاء على مصر، وبموت كافور الإخشيدي في سنة ٣٥٥هـ اضطربت الديار المصرية، فاقتنص المعز الفرصة ولم يجعلها تمر مر السحاب، فعزم ودبر وأقدم على حفر الآبار والقصور فيما بين القيروان إلى حدود مصر، وحشد الجيوش العظيمة، وجمع الأموال الجزيلة، واختار جوهر الصقلي قائداً لتلك الجيوش التي كانت تزيد عن مائة ألف، وأمر المعز كل أمرائه وولاته أن يسمعوا ويطيعوا ويترجلوا في ركاب جوهر الصقلي وتحركت الجيوش العبيدية لنقل المذهب الباطني إلى مصر ليتخلص من الأزمات والثورات والصراعات العنيفة التي قادها علماء أهل السُّنَّة في خمس عقود متتالية في الشمال الإفريقي، رافضين المذهب الباطني معلنين عقائد أهل السُّنَّة والجماعة، فاستفاد المعز من ضعف الحكم الإخشيدي التابع للدولة العباسية في مصر، فرمى بسهامه المسمومة إليها، ودفع إليها جيوشه المحمومة طالباً من أعوانه وشياطينه أن يقضوا

على الخلافة العباسية الأبية ذات التوجهات السنية.

وقد حاول المعز أن يضم الأندلس السنية إلا أن رجالها البواسل منعوه من أن يصل إلى هدفه، وفي جمادى الآخرة سنة ٣٥٨هـ استطاعت جيوش المعز دخول مصر بقيادة خادمه جوهر الصقلي الذي لم يجد أي عناء في ضمها لأملاك العبيديين وجوهر الصقلي هذا هو الذي بنى الأزهر الذي تم بناءه سنة ٣٦١هـ ليكون منبراً من منابر العبيديين الروافض في بث معتقداتهم الباطلة وأفكارهم الفاسدة ثم تحول بفضل الله ثم جهود صلاح الدين الأيوبي الذي قضى على العبيديين في مصر إلى قلعة من قلاع أهل السُّنَّة ، ودخلت جيوش العبيديين إلى دمشق سنة ٣٥٨هـ بقيادة جعفر بن خلاف أحد قواد العبيديين (١) . (٢) .

رحلة المعز إلى مصر :

وبعد أن مهدت مصر للمعز العبيدي جهز جيوشه وحاشيته وأهله وأمواله وسار مفارقاً شمال إفريقيا إلى مصر، ليتولى أمرها، فأسند زعامة الشمال الإفريقي إلى الأمير الصنهاجي بلكين ابن زيري وضم المعز إلى مصر كلاً من طرابلس وسرت وبرقة ، **وكان معه شاعره الملحد الذي غالى في مدح المعز محمد بن هانئ الأندلسي الذي قال:**

فكأنما أنت النبي محمد ... وكأنما أنصارك الأنصار
ما شئت أنت لا ما شاءت الأقدار ... فاحكم فأنت الواحد القهار
هذا الذي تجدي شفاعته غداً ... حقاً وتُخمد أن تراه النار

ومن شعره في المعز:

النور أنت وكل نور ظلمة ... والفوق أنت وكل فوق دون
فارزق عبادك فضل شفاعة ... واقرب بهم زُلفى فأنت مكين

---

(١) **انظر**: تاريخ الفتح العربي في ليبيا، ص (٢٦٣).

(٢) خُطب على منابر دمشق للعبيديين عام (٣٥٨هـ) ، واستقر لهم الحال بها عام (٣٦٠هـ) .

ومنه:

تدعوه منتقماً عزيزاً قادراً ... غفاراً موبقة الذنوب صفوحاً
أقسمت لولا أن دُعيت خليفة ... لدُعيت من بعد المسيح مسيحاً
شهدت بمفخرك السموات العلا ... وتنزل القرآن فيك مديحاً

ومنه:

وعلمت من مكنون سر الله ما ... لم يؤت في الملكوت ميكائيلا
لو كان آتى الخلق ما أوتيته ... لم يخلق التشبيه والتأويلا

وكان المعز وكذلك أجداده يستمعون إلى مثل هذه الكفريات ولا ينكرونها ويقرونهم عليها وكانت بداية رحلة المعز نحو مصر في ٣٦٢ هـ .

وقتل الملحد الكافر ابن هانىء في برقة «مقبرة الملاحدة» في رجب سنة ٣٦٢هـ ، وهو في الثانية والأربعين من عمره ووجدوا جثته مرمية رمي الكلاب على ساحل بحر برقة.

وتأسف المعز على قتله وقال: هذا الرجل كنا نرجو أن نفاخر به شعراء المشرق فلم يُقَدَّر لنا ذلك (١) ، واستمر المعز في سيره، حتى قارب الحدود المصرية، ووصل الإسكندرية يوم ٢٣ من شعبان سنة ٣٦٢هـ واستقبلته وفود عظيمة من أعيان القادة والزعماء والحكام في مصر.

وامتد ملك المعز من سبتة بالمغرب إلى مكة بالمشرق يأتمر بأوامره سكان سواحل المحيط الأطلنطي.

وبقي المعز في مصر سنتين ونصف، وتوفي بالقاهرة في السابع من ربيع الأول سنة ٣٦٥هـ ، ودامت ولايته بإفريقية ومصر ثلاثاً وعشرين سنة (٢) .

---

(١) **انظر**: تاريخ الفتح العربي في ليبيا، ص (٣٦٢) .
(٢) المصدر السابق ص (٣٦٢) .

قال الشيخ طاهر الزاوي رحمه الله : «ودامت دولة الفاطميين ٢٦٠ سنة، منها اثنتان وخمسون سنة بالمغرب، ومائتان وثمان سنوات بمصر، وعدد خلفائها أربع عشر خليفة، أولهم عبيد الله المهدي، وآخرهم العاضد الذي توفي بمصر يوم عاشوراء سنة ٥٦٧هـ وبموته انقرضت دولة الفاطميين من المشرق والمغرب والمُلك لله وحده يؤتيه من يشاء وينزعه ممن يشاء» [١] .

قال الذهبي رحمه الله : «ظهر في هذا الوقت الرفض، وأبدى صفحته وشمخ بأنفه في مصر والشام والحجاز والمغرب بالدولة العُبيدية، وبالعراق والجزيرة والعجم بني بُويَه، وكان الخليفة المطيع ضعيف الرتبة مع بني بُوية وضعف بدنه ثم أصابه فالج [•] ، وخَرَسٌ فعزلوه وأقاموا ابنه الطائع لله ، وله السكة والخطبة ، وقليلٌ من الأمور فكانت مملكة المعز أعظم وأمكن» [٢] .

وكان المعز شاعراً فمن شعره :

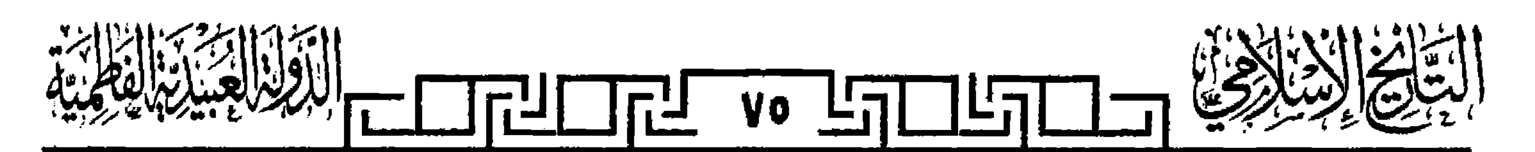
لله ما صنعت بنا ... تلك المحاجر في المعاجر [٣]
أمضى وأقضى في النفوس ... من الخناجر في الحناجر
ولقد تعبتُ ببينكم ... تَعب المهاجر في الهواجر [٤]

وقال الذهبي رحمه الله في المعز:

«وعاش ستًّا وأربعين سنة وكان مولده بالمهدية ودفن بالمعزية بالقاهرة في عام خمسة وستين وثلاثمائة» [٥] .

---

(١) **انظر** : تاريخ الفتح العربي في ليبيا، ص (٢٦٢).
(٢) سير أعلام النبلاء (جـ ١٥ / ١٦٤).
(•) **فالج** : شلل .
(٣) **المعاجر** : وهو ثوب تلفه المرأة على استدارة رأسها .
(٤) سير أعلام النبلاء (جـ ١٥ / ١٦٣-١٦٤).
(٥) سير أعلام النبلاء (جـ ١٥ / ١٦٦).



المبحث السابع

جرائم العبيديين في الشمال الإفريقي

لقد ارتكب الباطنيون الروافض الشيعة في أهالي الشمال الإفريقي من أهل السُّنَّة ما تشيب منه الولدان ولا تصدقه العقول، وأنزلوا غضبهم وصبوا سخطهم على العلماء خاصة:

﴿ ١ ﴾ فعندما ادعى عبيد الله الرسالة أحضر فقيهين من فقهاء القيروان وهو جالس على كرسي ملكه وأوعز إلى أحد خدمه، فقال للشيخين: «أتشهدا أن هذا رسول الله ؟ فقالا بلفظ واحد: والله لو جاءنا هذا والشمس عن يمينه والقمر عن يساره يقولان: إنه رسول الله ، ما قلنا ذلك. فأمر بذبحهما »[١] وهذا الشيخان المغربيان هما ابن هذيل وابن البردون.

قال الذهبي عن ابن بردون: «هو الإمام الشهيد المفتي، أبو إسحاق، إبراهيم ابن البَرْذُون الضبي مولاهم الإفريقي المالكي، تلميذ أبي عثمان الحداد»[٢].

وطلب منه لما جرِّد للقتل: أترجع عن مذهبك ؟ قال: أعن الإسلام أرجع ؟

وقيل في سنة تسع وتسعين ومائتين[٣] إن عبيد الله المهدي الزنديق لم يدَّعِ الرسالة فحسب، بل سمح لأتباعه أن يغرقوا في كفرهم حتى ألَّهُوه فقد كانت أيمانهم المغلظة: «وحق عالم الغيب والشهادة، مولانا الذي برقادة». ومن أكفر ممن ادعى معرفة الغيب والغيب لا يعلمه إلا الله، وهذا الأمر من خصوصيات الألوهية، فمن ادعاه لغير الله يقع في الشرك والكفر العظيم، قال تعالى: **﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا**

---

(١) سير أعلام النبلاء (جـ ١٤/ ٢١٧).

(٢) المصدر السابق (جـ ١٤/ ٢١٥).

(٣) سير أعلام النبلاء (جـ ١٥/ ٢١٥).

وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ .

[الأنعام: ٥٩].

﴿ قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ .

[النمل: ٦٥].

كما أن الحلف لا يكون بمخلوق وإنما يكون بالخالق، قال رسول الله ﷺ: «**من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت**» وجاءت الأحاديث بالنهي عن الحلف بالآباء [١] .

﴿ ٢ ﴾ لقد كان شعراء الدولة العبيدية يمدحون خلفاءهم إلى درجة الكفر البواح وينشرونها بين الناس، وقد ظهر لك في شعر ابن هانئ الأندلسي في مدحه للمعز وكان أحد شعرائهم مدح عبيد الله فقال:

حلّ برقادة المسيح ... حل بها آدم ونوح

حل بها الله ذو المعالي ... فكل شيء سواه رايح [٢]

كما شبه شعراؤهم المهدية بمكة المكرمة وقصر المهدي بالكعبة.

هي المهدية الحرم المُوقى ... كما بتهامة البلد الحرام

وإن لثم الحجيج الركن أضحى ... لنا بعراص قصركم التثام [٣]

﴿ ٣ ﴾ شنوا حرباً نفسية على أهل السُنَّة وذلك بتعليق رءوس الأكباش والحمير على أبواب الحوانيت والدواب وكتبوا عليها أسماء الصحابة ﷺ (لعنهم الله أنى يؤفكون) وأظهروا سب الصحابة ﷺ، وطعنوا فيهم وزعموا أنهم ارتدوا بعد النبي ﷺ وخصصوا دعاة للنداء بذلك في الأسواق.

---

(١) انظر: كتاب التوحيد لمحمد بن عبد الوهاب ص (٩٠).
(٢) مدرسة الحديث في القيروان (جـ ١ / ٧٢).
(٣) البيان المغرب (جـ ١ / ١٨٤).

ومن ذكر الصحابة بخير أو فضل بعضهم على علي رضي الله عنه قُتِلَ أو سُجِنَ [١].

﴿٤﴾ عمل العبيديون على إزالة آثار بعض من تقدمهم من الخلفاء السُّنيين، ولذلك أصدر عبيد الله أمراً بإزالة أسماء الحكام الذين بنوا الحصون والمساجد، وجعل اسمه بديلاً منهم، واستولى هذا الرافضي الخبيث على أموال الأحباس وسلاح الحصون، وطرد العبَّاد والمرابطين بقصر زياد الأغلبي وجعله مخزناً للسلاح [٢].

﴿٥﴾ حرص العبيديون على منع التجمعات خوفاً من الثورة والخروج عليهم، ولذلك جعلوا بوقاً يضربونه في أول الليل فمن وجد بعد ذلك ضرب عنقه، كما أنهم كانوا يفرقون الناس الذين يجتمعون على جنازة من يموت من العلماء [٣].

وهذا الفعل لا يزال مستمراً في الأنظمة القمعية البوليسية التي لا تري إلا ما يراه حكامها وطاغوتها وفرعونها: ﴿**مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ**﴾ [غافر: ٢٩].

﴿٦﴾ أتلفوا مصنفات أهل السُّنَّة، ومنعوا الناس من تداولها كما فعلوا بكتب أبي محمد بن أبي هاشم التُّجيبي (ت٣٤٦هـ) توفي وترك سبعة قناطير كتب، كلها بخط يده، فرفعت إلى سلطان بني عبيد فأخذها «ومنع الناس منها كيداً للإسلام وبغضاً فيه» [٤].

﴿٧﴾ حرّموا على الفقهاء الفتوى بمذهب الإمام مالك، واعتبروا ذلك جريمة يعاقب عليها بالضرب والسجن أو القتل أحياناً، ويعقب ذلك نوع من الإرهاب النفسي، حيث يدار بالمقتول في أسواق القيروان وينادى عليه «هذا جزاء من يذهب مذهب مالك»، ولم يبيحوا الفتوى إلا لمن كان على مذهبهم كما فعلوا

---

(١) مدرسة الحديث في القيروان (جـ١/٧٣).

(٢) **انظر**: رياض النفوس (جـ٢/٥٦).

(٣) **انظر**: رياض النفوس (جـ٢/٢٩) وجل هذا المبحث من كتاب الحديث في القيروان مع تصرف واضح.

(٤) المصدر السابق (جـ٢/٤٢٣).

بالفقيه المعروف بالهزلي «أبو عبد الله محمد بن العباس بن الوليد» المتوفى في عام تسعة وعشرين وثلاثمائة [١] .

﴿ ٨ ﴾ منعوا علماء أهل السُّنَّة من التدريس في المساجد، ونشر العلم، والاجتماع بالطلاب، فكانت كتب السُّنَّة لا تقرأ إلا في البيوت خوفاً من بني عبيد فكان أبو محمد بن أبي زيد، وأبو محمد بن التبان وغيرهما، يأتيان إلى أبي بكر بن اللباد، شيخ السُّنَّة بالقيروان في خفية، ويجعلان الكتب في أوساطهما حتى تبتل بالعرق خوفاً من بني عبيد [٢] .

وهذا المسلك لا زالت الدول القمعية في العالم الإسلامي تمارسه ضدَّ شعوبها فبعضها تمنع هذا الأمر كليًّا، وبعضها تسمح ببعض أمور الدين التي لا تصطدم مع مصالح الدول الكبرى.

﴿ ٩ ﴾ اجبروا الناس على الدخول في دعوتهم فمن أجاب تركوه، وربما ولوه بعض المناصب، ومن رفض قُتِلَ، كما فعلوا عقب أول جمعة خطبها عبيد الله بالقيروان، وقعت بين الدولة العبيدية وأهل القيروان مقتلة عظيمة، فأمر الشيعي بالكف عن العوام، وافتعل مناظرات صورية، فدارت على علماء السُّنَّة محن عظيمة، وقتل منهم عدة آلاف بسبب تمسكهم بإسلامهم ودفاعهم المستميت عن السُّنَّة ، قال القابسي: «إن الذين ماتوا في دار البحر - سجن العبيديين - بالمهدية من حين دخل عبيد الله إلى الآن أربعة آلاف رجل في العذاب، ما بين عالم وعابد ورجل صالح» [٣] هذا عدا من كانوا يقتلون دون سجن ويمثل بهم في شوارع القيروان، فأثر ذلك على سير الحياة العلمية، وقد خمل ذكر كثير من العلماء الذين آثروا اعتزال الفتنة، مثل أبي محمد الورداني [٤] ومع ذلك فإن

---

(١) المصدر السابق (جـ٢ / ٥٦) .

(٢) انظر : مدرسة الحديث بالقيروان (جـ/٧٦) .

(٣) المصدر السابق (جـ١ / ٧٤) .

(٤) المصدر السابق (جـ/٧٥) .

هذه المنحة لم تزد أهل الشمال الإفريقي إلا عزيمة وصبراً واحتساباً وتمسكاً بأصول أهل السُّنَّة والجماعة [١] .

﴿١٠﴾ عطلوا الشرائع، وأسقطوا الفرائض عمّن تبع دعوتهم ، حيث يقع إدخالهم إلى داموس ويدخل عليهم عبيد الله لابساً فرواً مقلوباً، داباً على يديه ورجليه، فيقول لهم: «بَحْ» ثم يخرجهم ويفسر لهم هذا العمل بقوله: «فأما دخولي على يدي ورجلي فإنما أردت بذلك أن أعلمكم أنكم مثل البهائم لا شيء، لا وضوء، ولا صلاة، ولا زكاة، ولا أي فرض من الفروض، وسقط جميع ذلك عنكم، وأما لباس الفرو مقلوباً فإنما أردت أن أعلمكم أنكم قلبتم الدين، وأما قولي لكم بَحْ، فإنما أردت أن أعلمكم أن الأشياء كلها مباحة لكم من الزنى وشرب الخمر . . . » [٢] .

ويعجبني في هذا المقام ما قاله شاعر أهل السُنَّة في الشمال الإفريقي أبو القاسم الفزاري في هجاء بني عبيد:

عبدو ملوكهم وظنوا أنهم ... نالوا لهم سبل النجاة عموما
وتمكن الشيطان من خطواتهم ... فأراهم عوج الضلال قويما
رغبوا عن الصديق والفاروق ... في أحكامهم لا سلموا تسليما
واستبدلوا بهما ابن أسود نابحاً ... وأبا قدرة واللعين تميما
تبعوا كلاب جهنم وتأخروا ... عمن أصارهم الإله نجوما
يا ليت شعري من هم إن جهلوا ... دنيا، ومن هم إن عددت صميما
أمن اليهود ؟ أم النصارى؟ أم هم ... دهرية جعلوا الحديث قديما
أم هم من الصابين أم من عصبة ... عبدوا النجوم وأكثروا التنجيما

---

(١) المصدر السابق(جـ/٧٥) .
(٢) رياض النفوس(ج٢ / ٥٠٤) .

أم هم زنادقة معطلة رأوا أن لا عذاب غداً ولا تنعيما ؟
أم عصبة ثَنَوِيَّة قد عظموا النورين عن ظُلماتهم تعظيما ؟
من كل مذهب فرقة معلومة أخذوا بفرع وأدعوه أروما [١]

وستأتي قصيدته الرائية التي هجا فيها بني عبيد ، وكيف نجّاه الله منهم بإذن الله تعالى .

﴿ ١١ ﴾ زادوا في الأذان : « حي على خير العمل »، وأسقطوا من أذان الفجر « الصلاة خير من النوم »، ومنعوا الناس من قيام رمضان، وليس شيء أشد على بني عبيد من هذه الصلاة، ومنعوا صلاة الضُّحى، وقدموا صلاة الظهر لفتنة الناس، أما خطبة الجمعة فقد أظهروا فيها سب الصحابة وضروباً من الكفر، فتركها الناس، وأقفرت المساجد في زمانهم، وكان بعض أئمتهم يصلون إلى رقادة فلما انتقل عُبيد الله إلى المهدية صلوا إليها [٢] وكثيراً ما يجبرون الناس على الفطر قبل رؤية هلال شوال [٣] بل قتلوا من أفتى بأن لا فطر إلا مع رؤية الهلال كما فعلوا بالفقيه محمد ابن الحُبُلي قاضي مدينة برقة .

قال الذهبي رحمه الله في ترجمته :

«الإمام الشهيد قاضي مدينة برقة، محمد ابن الحُبُلي» .

أتاه أمير برقة ، فقال: غداً العيد ، قال: حتى نرى الهلال، ولا أفطر الناس، وأتقلَّد إثمهم، فقال: بهذا جاء كتاب المنصور ـ وكان هذا من رأي العبيدية يفطِّرون بالحساب، ولا يعتبرون رؤية ـ فلم يُر هلال، فأصبح الأمير بالطبول والبنود وأهبة العيد، فقال القاضي: لا أخرج ولا أصلي، فأمر الأمير رجلاً خطب. وكتب بما جرى إلى المنصور، فطلب القاضي إليه، فأحضر، فقال له: « تَنَصَّلْ،

---

(١) رياض النفوس (جـ٢ / ٤٩٤ - ٤٩٥) .
(٢) ، (٣) **انظر** : مدرسة القيروان (جـ ١ / ٧٣) .

وأعفو عنك، فامتنع، فأمر به ، فعُلِّقَ في الشمس إلى أن مات، وكان يستغيث من العطش، فلم يُسقَ، ثم صلبوه على خشبة، فلعنة الله على الظالمين (١) .

﴿ ١٢﴾ من جرائم عبيد الله الكثيرة أن خَيْلَهُ دخلت المسجد، فقيل لأصحابها: كيف تدخلون المسجد ؟ فقالوا: إن أرواثها وأبوالها طاهرة، لأنها خيل المهدي، فأنكر عليهم قيّم المسجد، فذهبوا به إلى المهدي فقتله، يقول ابن عذارى: وامتحن عبيد الله في آخر حياته بعلة قبيحة: دود في آخر مخرجه يأكل أحشاءه فلم يزل به حتى هلك (٢) .

إن إجيال المسلمين الذين يقرءون تاريخ العبيديين لا يعلمون إلا ما كتب لهم عن التاريخ السياسي لهذه الدولة، ذهب فلان وخلفه فلان، وأنها دولة تحب العلم وتنشره، والمقصود نشر كتب الفلاسفة ولكن لا أحد يذكر - عدا الذين ترجموا للعلماء - بطش هؤلاء الأوغاد الظلمة بالعلماء من أهل السُّنَّة ، بل إن الطلبة الذين يدرسون التاريخ الإسلامي يذكرون معد بن إسماعيل الملقب بالمعز، يذكرونه وكأنه بطل من أبطال التاريخ (٣) .

وهذا كله نتيجة لغياب التفسير العقدي الإسلامي لتاريخنا، بل إن المؤرخين الذين كتبوا لنا التاريخ تأثروا بمدارس الاستشراق أو بالفكر الشيعي، أو بذلت لهم أموال لطمس الحقائق التي لا بد من بيانها للأجيال الصاعدة لتعرف عدوها من صديقها، ولتعرف أن الأفكار لا تموت وإنما تتغير الأشكال والوجوه والمسوح، وأن هؤلاء الملاعين من أعداء الإسلام لا يزالون يعملون سراً وإعلاناً ليلاً ونهاراً للقضاء على العقيدة البيضاء الناصعة التي تلقفتها جموع أهل السُّنَّة والجماعة من الحبيب المصطفى ﷺ وأصحابة الغر الميامين الطاهرين الطيبين رضي الله عنهم أجمعين.

---

(١) الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، (جـ١٥ / ٣٧٤) .
(٢) أيعيد التاريخ نفسه ؟ ، محمد العبادة ، (ص ٣٩) .
(٣) أيعيد التاريخ نفسه ؟ ، محمد العبادة ، (ص ٤٠) .

المبحث الثامن
موقف علماء أهل السُنة وأساليب المقاومة

لقد قاوم علماء أهل السُّنَّة المد العبيدي الرافضي بكافة الأساليب المتاحة لهم من حجة وتعليم ودعوة وحمل للسلاح ضد الطغاة الظالمين ، وتمحورت طرقهم في عدة أساليب منها :

﴿ ١ ﴾ صمود العلماء والفقهاء ضد أعمال العبيديين وتحملهم للأذى والسجن والقتل مما ساهم في تثبيت عوام المسلمين على عقيدة أهل السُّنَّة ، وقد عمل العبيديون على إخلاء الساحة من العلماء بالترغيب وضمهم في دعوتهم أو بالترهيب حتى يسقط العامة.

﴿ ٢ ﴾ قاطع العلماء جميع مؤسسات الدولة العبيدية فلا يختصمون إلى قضائهم، ولا يصلون وراء أئمتهم، ولا يأتون مهنئين، ولا معزيين، ولا يتوارثون معهم، ولا يصلون على موتاهم، ولا يناكحونهم (١) .

وبرز في هذا العمل الجليل العلامة الفقيه أبو يوسف جلبة بن حمود بن عبد الرحمن الذي قاطع العبيديين علانية في أول خطبة لبني عبيد في جامع القيروان فعندما سمع ما لا يجوز سماعه قام قائماً وكشف عن رأسه حتى رآه الناس ومشى إلى آخر باب في الجامع ، جامع القيروان ، والناس ينظرون إليه حتى خرج من الباب وهو يقول: قطعوها قطعهم الله، فمن حينئذٍ ترك العلماء حضور جمعتهم وهو أول من نبه على ذلك (٢) .

﴿ ٣ ﴾ حصن علماء أهل السُّنَّة أهل الشمال الإفريقي بالفتاوى التي أوضحت

---

(١) انظر : مدرسة أهل الحديث في القيروان (جـ١ /٧٨) .
(٢) انظر : رياض النفوس للمالكي ، (جـ٢ /٤٣) .

كفر بني عبيد، وأنهم ليسوا من أهل القبلة، كما كفروا من دخل في دعوتهم راضياً، ومن خطب لهم في دعوتهم، وقد انتشرت هذه الفتاوى، وعرفها الخاص والعام، فكانت حاجزاً منيعاً بين العوام، وبين التردي في دعوة الرافضة [١] ومن أشهر هؤلاء العلماء الذين حصنوا الأمة بمنهج أهل السُّنَّة والجماعة في الشمال الإفريقي في تلك الفترة الحرجة الشيخ أبو إسحاق السبائي رحمه الله، والذي رأى أن الخوارج من أهل القبلة فاجتهد في الوقوف معهم ضد الكفرة العبيديين.

قال الشيخ الفقيه أبو بكر بن عبد الرحمن الخولاني :

« خرج الشيخ أبو إسحاق السبائي - رحمه الله تعالى - مع شيوخ إفريقية إلى حرب بني عدو الله مع أبي يزيد فكان أبو إسحاق يقول - ويشير بيده إلى عسكر أبي يزيد هؤلاء من أهل القبلة وهؤلاء ليسوا من أهل القبلة - يريد عسكر بني عدو الله - فعلينا أن نخرج مع هذا الذي من أهل القبلة لقتال من » هو « على غير القبلة - وهم بنو عدو الله - فإن ظفرنا » بهم « لم ندخل تحت طاعة أبي يزيد، لأنه خارجي، والله عز وجل يسلط عليه إماماً عادلاً فيخرجه من بين أظهرنا ويقطع أمره عنا.

والذين خرجوا معه من الفقهاء والعباد: أبو العرب ابن تميم، وأبو عبد الملك مروان بن نصروان، وأبو الفضل المسمى، وأبو سليمان ربيع القطان [٢] .

وكان ربيع القطان أول من شرع في الدعوى إلى الجهاد ضد العبيديين وندب الناس وحضهم عليه.

ولما حضرت صلاة الجمعة طلع « الإمام » على المنبر، وهو أحمد بن محمد بن أبي الوليد وخطب خطبة أبلغ فيها، وحرض الناس على الجهاد وأعلمهم بما

---

(١) رياض النفوس للمالكي (جـ٢ ، ٣٤٠) .
(٢) المرجع السابق (جـ٢ / ٣٤٣) .

«لهم» فيه من الثواب، وتلا هذه الآية: ﴿**لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ**﴾ [النساء: ٩٥].

يا أيها الناس جاهدوا من كفر «بالله» وزعم أنه رب من دون الله تعالى وغيَّر أحكام الله عز وجل، وسب نبيه وأصحاب نبيه وأزواج نبيه.

فبكى الناس بكاءً شديداً، وقال في خطبته: «اللهم إن هذا القرمطي الكافر المعروف بابن عبيد الله المدعي الربوبية من دون الله، جاحدٌ لنعمك، كافرٌ بربوبيتك طاعنٌ على أنبيائك ورسلك، مكذبٌ لمحمد ﷺ نبيك وخيرتك من خلقك، سابٌّ لأصحاب نبيك وأزواج نبيك، أمهات المؤمنين، سافكٌ لدماء أمته، منتهكٌ لمحارم أهل ملته، افتراء عليك، واغتراراً بحلمك، اللهمَّ فالعنه لعناً وبيلاً، واخزه خزياً طويلاً، واغضب عليه بكرة وأصيلاً، وأصله جهنم وساءت مصيراً، بعد أن تجعله في دنياه عبرة للسائلين، وأحاديث في الغابرين، وأهلك اللهم شيعته، وشتت كلمته، وفرق جماعته، واكسر شوكته، واشف صدور قوم مؤمنين، ونزل فصلى الجمعة ركعتين وسلم، وقال: ألا إن الخروج غداً يوم السبت إن شاء الله» (١).

وركب ربيع القطان فرسه وعليه آلة الحرب، وفي عنقه المصحف، وحوله جمع من الناس من أهل القيروان متأهبون معدون لجهاد أعداء الله، وعليهم آلة الحرب فنظر إليهم القطان، فسر بهم وقال: الحمد لله الذي أحياني حتى أدركت عصابة من المؤمنين اجتمعوا لجهاد أعدائك، وإعزاز دينك، يا رب بأي عمل وبأي سبب وصلت إلى هذا؟ ثم أخذ في البكاء حتى جرت دموعه على لحيته، ثم قال لهم: لو رآكم محمد رسول الله ﷺ لَسُرَّ بكم، وقال في موطن آخر بعد أن أنصت الناس: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً**

(١) رياض النفوس للمالكي (جـ٢ /٣٤٣، ٣٤٤).

واعلموا أن الله مع المتقين﴾ [التوبة: ١٢٣]، ثم قال: ﴿ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدءوكم أول مرة أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين (١٣) قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين (١٤) ويذهب غيظ قلوبهم ويتوب الله على من يشاء والله عليم حكيم﴾ [التوبة: ١٣ - ١٥].

ثم أشار بيده وقال: اذكروا الله يذكركم، فكبر الناس، ومشى حتى بلغ الجامع ودخل في قتال أعداء الله، حتى قتل سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة مقبلاً غير مدبر (١) واستشهد معه فضلاء وأئمة وعُبَّاد صالحون.

قاطع العلماء من استجاب وداهن العبيديين من الفقهاء وإن لم يدخل في دعوتهم، ولذلك أفتى العلماء بطرح كتب أبي القاسم البَرَاذِعي (٢).

﴿ ٥ ﴾ فتح العلماء والفقهاء بيوتهم للناس لفضح معتقدات الباطنية العبيدية، وكان أبو إسحاق السبائي يفتح داره ويأخذ في ذم العبيديين والتحذير منهم، وكان يُكثر من ذكر فضائل الصحابة والثناء عليهم، ولانتشار أمر العبيديين وكانت داره كالمسجد لكثرة من يقصدها من الطلبة، وكذلك أحمد بن نصر الهواري، وأحمد بن يزيد الدباغ، واضطروا لذلك بعد منعهم العبيديون من التدريس في المساجد، واجتهد العلماء سراً في تعميق عقائد أهل السُّنَّة وأصولهم وفقههم في قلوب أهل الشمال الإفريقي (٣).

وهكذا الدعاة الربانيون والفقهاء العاملون مهما ضيق الطغاة والظلمة العتاة فإنهم لا بد أن يجدوا سبيلاً لتعليم الناس ودعوتهم إلى الرشاد.

﴿ ٦ ﴾ اجتهد علماء أهل السُّنَّة في غرس منهج أهل السُّنَّة في أبناء الكتاميين

---

(١) رياض النفوس للمالكي (جـ٢ /٣٤٣، ٣٤٤).

(٢) مدرسة الحديث في القيروان (جـ١ /٧٨).

(٣) انظر: مدرسة الحديث (جـ٢ / ٧٩).

والصنهاجيين والبرابرة الموالين للعبيديين وذلك ما قام به العلامة أبو إسحاق الجبنياني وغيره، فإنهم كانوا يعلمون الأولاد الصغار أبناء حملة الدعوة العبيدية بحيل لطيفة وكانوا لا يأخذون منهم أجراً، ترغيباً لهم في الإقبال عليهم، فكان من علمهم أبو إسحاق الجبنياني فيما بعد من أهل السُّنَّة والجماعة (١) .

ويظهر من هذا أن الاهتمام بأبناء السياسيين والمفكرين العلمانيين ووزراء الدول ومسئولي وموظفي الدولة في كل قطر ضرورة دعوية شرعية وحركية نحو إقامة شرع الله، والتمكين لدينه، وأما العداء وقطع الطرق والوسائل للوصول إلى أوكار العلمانيين ونزع أبنائهم من صولة الشياطين فأمر لا يليق بأصحاب الدعوة من أهل السُّنَّة والجماعة.

﴿ ٧ ﴾ ومن وسائل علماء السُّنَّة في الذب عن عقائد السلف وسيلة المناظرة والجدل وإفحام الخصم أمام عوام الناس، وممن سجلت لنا كتب التاريخ مآثره النيرة في هذا المضمار العلامة الفقية العالم الرباني أبو بكر القمودي الذي ناظر أبا العباس الشيعي مناظرة أفحمه فيها (٢) .

وإبراهيم بن محمد الضبي، وكان رجلاً صالحاً فقيهاً بارعاً في العلم وقتله بنو عبيد ظلماً وزوراً.

وبرز في المناظرة أبو محمد عبد الله بن التبان ، إلا أن أبا عثمان سعيد بن محمد الحداد كان أقدرهم في هذا الباب، فقد كانت له: « مقامات كريمة ومواقف محمودة في الدفاع عن الإسلام والذب عن السُّنَّة ».

أشهر مناظرات الإمام أبو عثمان سعيد بن الحداد :

دعاه عبيد الله المهدي وبين له عبيد الله حديث « غدير خم » : « من كنت مولاه فعلي مولاه». وهو حديث صحيح، فعطف عبيد الله « لعنة الله عليه » فقال لأبي

---

(١) المصدر السابق(جـ٢ / ٨٠) .

(٢) انظر : مدرسة الحديث(جـ/ ٨٠) .

عثمان فما للناس لا يكونون عبيدنا؟ ، فقال له أبو عثمان : أعز الله السيد لم يرد ولاية الرق، وإنما أراد ولاية في الدين، قال: فقال الله عز وجل: ﴿**مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ (٧٩) وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ**﴾ .

[آل عمران: ٧٩ ـ ٨٠].

فما لم يجعله الله عز وجل لنبي لم يجعله لغير نبي، وعلي لم يكن نبياً، وإنما كان وزير النبي ﷺ، فقال عبيد الله له: «انصرف لا ينالك أحد»، ويذكر أن أبا عبد الله الشيعي قال له يوماً: القرآن يقرّ أن محمداً ليس بخاتم النبيين.

فقال له: في قوله: ﴿**وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ**﴾ [الأحزاب: ٤٠].

فقال له سعد: هذه الواو ليست من واوات الابتداء، وإنما هي من واوات العطف كقوله عز وجل: ﴿**هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾ [الحديد: ٣]. فهل (من) أحد يوصف بهذه الصفات غير الله عز وجل؟، وتكلم (عنده) يوماً فغضب من كلامه رجل من كتامة يعرف بأبي موسى شيخ المشايخ وقام إليه بالرمح فمنعه أبو عبد الله من ذلك، ثم عطف على أبي عثمان فقال له: يا شيخ لا تغضب أتدري إذا غضب هذا (الشيخ) كم يغضب لغضبه اثنا عشر ألف سيف.

فقال أبو عثمان: ولكني (أنا) يغضب لغضبي (الله) الواحد القهار «الذى أهلك عاداً وثمود وأصحاب الرس وقروناً بين ذلك كثيراً» [١]، وقد جمع الله للشيخ سعد الحداد جهارة الصوت وفخامة المنطق وفصاحة اللسان وصواب

---

(١) انظر: رياض النفوس (جـ٢ / ٦٠).

المعاني، وكان عالماً باللغة والنحو، وإذا لحن في لفظة استغفر الله عز وجل، وكان إذا تكلف الشعر أجاده.

وذات مرة خرج لمناظرة الشيعي «أبو عبد الله» فخرج معه أهله وولده وهم يبكون فقال لهم: لا تفعلوا لا يكون إلا خيراً،حسبي من له خرجت ، وعن دينه ذببت .

فلما دخل على الشيعي في قصر إبراهيم بن أحمد فكان حوله جماعة من أصحابه وجماعة مما ينسب إليهم العلم سلم ثم جلس، فقال أبو عبد الله الشيعي لإبراهيم بن يونس ـ وقد قيل له: إن هذا الشيخ كان قاضياً على هذه المدينة ـ بأي شيء كنت تقضي؟

فقال له إبراهيم : بالكتاب والسُّنَّة .

فقال له أبو عبد الله : فما السُّنَّة ؟ .

فقال (له) إبراهيم : السُّنَّة السُّنَّة .

قال أبو عثمان: فلما سمعته على قوله «السُّنَّة... السُّنَّة».

قلت لأبي عبد الله: المجلس مشترك أو خاص؟.

فقال : مشترك.

فقال أبو عثمان: أصل السُّنَّة في كلام العرب !. المثال الذي يتمثل عليه، قال الشاعر:

تُرِيكَ سنة وجه غير مقرفة ... مأساء ليس بها خال ولا ندب

أي صورة وجه ومثاله.

والسُّنَّة محصورة في ثلاث:

الائتمار بما أمر الله به رسوله ﷺ، والانتهاء عما نهى عنه، والائتساء به فيما فعل.

قال الشيعي: فإن اختلف عليك فيما نقل إليك عن النبي ﷺ وجاءت به السُّنَّة من طرق؟.

فقلت له: أنظر إلى أصح الخبرين نقلاً فآخذ بأصحهما، وأطلب الدليل على موضع الحق في أحد الحديثين، ويكون الأمر في ذلك كشهود عدول اختلفوا في شهادة، فلا بد من طلب الدليل على موضع الحق من الشهادتين.

فقال الشيعي: فلو استووا في الثبات؟.

فقلت له: يكون أحدهما ناسخاً والآخر منسوخاً.

قال: فمن أين قلتم بالقياس؟.

فقلت له: قلنا ذلك من كتاب الله عز وجل.

قال: فأين تجد ذلك؟.

قلت: قال الله عز وجل في كتابه العزيز: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ** ﴾ [المائدة: ٩٥].

فالصيد معلومة عينه، والجزاء الذي أمرنا أن نمثله بالصيد (المعلومة) عينه ليس بمنصوص فعلمنا بذلك أن الله تعالى إنما أمرنا أن نمثل ما لم ينص ذكر عينه: بالقياس والاجتهاد، ومنه قول الله عز وجل: ﴿ **يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ** ﴾.
[المائدة: ٩٥].

فلم يكله إلى حاكم واحد بل جعلهما اثنين: ليقيسا ويجتهدا، فقال أبو عبد الله الشيعي: ومَنْ ذوا عدل؟ وأومأ «ذوا عدل» إنما هم قوم مخصوصون بنص الآية.

قال: فقلت: هم الذين قال الله عز وجل فيهم في آية المراجعة: ﴿ **وَأَشْهِدُوا**

ذوي عدل منكم﴾ [الطلاق : ٢]. ومثل ذلك في تثبيت القياس قوله عز وجل : **﴿ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم . . .﴾** . [النساء : ٨٣]. والاستنباط غير منصوص.

ثم عطف (أبو عبد الله الشيعي) على موسى القطان فقال له : أين وجدتم حد الخمر في كتاب الله تعالى؟ .

فقال له موسى : قال النبي ﷺ : « **من شربها فاضربوه بالأردية، ثم إن عاد فاضربوه بالأيدي، ثم إن عاد فاضربوه بالجريد** » .

فقال له أبو عبد الله على النكير منه : أين هذا؟ أقول لك أين وجدتم حد الخمر في كتاب الله تعالى، تقول : اضربوه بالأردية والأيدي ثم بالجريد؟ .

قال أبو عثمان : فقلت له : إنما حد قياساً على حد القاذف « لأنه إذا شرب سكر، وإذا سكر هذي، وإذا هذي افترى، فوجب عليه ما يئول أمره إليه وهو حد القاذف » [١] .

فقال لموسى القطان : أو لم يقل النبي صلى الله علي . . . » .

وأعلمكم بحلال الله وحرامه معاذ ، وأرأفكم أبو بكر ، وأشدكم في دين الله عمر» رضي الله عنهم أجمعين.

فقال له الشيعي : وكيف يكون أشدهم في دين الله، وقد هرب بالراية يوم حنين؟ .

فقال له موسى : ما سمعنا بهذا ولا نعرفه : قال أبو عثمان : فقلت له : تحيز إلى فئة كما أنزل الله تعالى، قال الله عز وجل : **﴿إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة﴾** . [الأنفال : ١٦].

---

(١) **انظر** : رياض النفوس (جـ ٢ / ٧٩) .

(فمن تحيز إلى فئة) كما أمر الله عز وجل فليس بفار .

فمال الشيعي بوجهه إلى بعض أصحابه فقال : أتسمع ما قال الشيخ، قال : انحاز إلى فئة كما أمر الله سبحانه .

فقال مجيباً - وهو يشير بيده - وأي فئة أكثر من رسول الله ﷺ وقد كان حاضراً ولم يتحيز وكأنه تخافت في كلامه ويسمع من يليه .

فقلت : جاء عنه ﷺ أنه قال : «**عمر فئة فمن تحيز إلى عمر فقد تحيز إلى فئة**»، فسكت الشيعي [١] .

وسأل أبو عبد الله الشيعي أبا عثمان الحداد فقال : أفلا أوجب قول الله تعالى عند من سمعه : ﴿ **وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ** ﴾[آل عمران : ١٤٤]. انقلاب أصحاب محمد ﷺ .

فقال له أبو عثمان : « لا »، لأن معناه أفإن مات أو قتل أفتنقلبون على أعقابكم لأن معنى « أفإن مات » : استفهام ومعنى « انقلبتم » : أفتنقلبون والاستفهامان إذا جاءا في قصة واحدة اجتزئ بأحدهما عن الآخر، وهذا الاستفهام إنما هو في معنى التقرير بأن لا تنقلبوا على أعقابكم .

فقال له : فهل تجد في كتاب الله عز وجل نظيراً يكون لهذا دليلاً ؟ .

فقال له : نعم . قول الله عز وجل : ﴿ **أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ** ﴾[الأنبياء : ٣٤]، أي إنك إن مت فهم لا يخلدون، فلما التقى استفهامان أجزأ ذكر أحدهما عن الآخر، فكان لفظ الاستفهام من ذلك مراداً به التقرير : « بأنهم لا يخلدون » [٢] .

وهكذا كان أبو عثمان سعد الحداد في دفاعه ومناظرته لأجل نصر عقائد أهل السُّنَّة والجماعة .

---

(١) **انظر** : رياض النفوس (جـ٢ / ٨٠).

(٢) المصدر السابق (جـ٢ / ٨٣).

ولما توفي رثاه الشعراء فقال فيه سهل بن إبراهيم الوراق:

وقالوا قضى نحبا وذاق منية ... فيالك من خطب يحل عُرى الصبر

وكم مارق عادى سعيداً وسبه ... وضاق به ذرعاً وبداه بالهجر

يود بقلب ذاب همًّا وغصة ... لو أن أبا عثمان في ظُلَم القبر

وأن امرءاً منكم تمنى وفاته ... وليس له عذر ففي واسع العذر

فليت الذي أمسى شجى في حلوقهم ... يمد له حبل الحياة إلى الحشر

أليس لسان المسلمين وسيفهم ... إذا كادهم أهم الضلال والكفر

أليس هلال الأرض بل شمس دجنها ... وبدر دجاها حين أمسيت بلا بدر

يجيب وما غاصت دقائق فكره ... جواباً عتيداً في أدق من السحر [١]

هذه بعض الأساليب والطرق والمناظرات التي قام بها علماء أهل السُّنَّة في الذود والدفاع عن عقائد المسلمين، فعليهم من الله الرحمة والرضوان على ما أبلوا وأقاموا به من جهاد ودعوة وفداء.

﴿ ٨ ﴾ قام شعراء أهل السُّنَّة بدور مجيد، وجهاد حميد في الدفاع عن الإسلام والهجوم على بني عبيد بالسنان والقوافي التي كانت على بني عبيد أشد من السيوف القواطع، وتبوأ مركز الصدارة في هذا الباب الشاعر المجيد أبو القاسم الزاري ، ومن أشهر ما قال قصيدته الرائية التي انتشرت في الآفاق والبلدان التي قال فيها:

عجبت لفتنة أعمت وعمت ... يقوم بها دعي أو كفور

تزلزلت المدائن والبوادي ... لها وتلونت منها الدهور

---

(١) المصدر السابق(جـ٢ / ١١٥) .

وضــاقت كل أرض ذات عــرض ولـم تغن المعــاقل والقــصـور
فنجى القــيروان وســاكنيــهـا إلـه دافعٌ عـنـهــا قــديم
أحــاد بأهلهــا علمــاً وخُــبـراً ومــيــزا مــا أكنتــه الصــدور
وجللـهم بـعــافــيـــة وأمن وأسـبـل فـوقـهـا سـتـر سـتيـر
وأثبت جلة العلمــاء فـيــهــا بحــار لا تعــد لا بحــورُ
ومنهــا ســادة العلمــاء قـدمــا إذا عُــدُّوا وليس لهم نظيــر
وفـيـهـا القـوم عـبـاد خـيـارا فـقــد طاب الأوائل والأخــير
هم افــتكوا سـبــايا كل أرض وفـادوا مـا اسـتبـد به المغـير
كـفـيناهم عظائمـهـا جـمـيعـاً فــزالت عنهم تلك الشــرور
وسكنـاً قلوباً خــافــقــات أمــات عــروقــهــا ضــر ضـريرُ
وأوينـا وآســينـا وكـنـا لهم أهلاً وأكـثــرهم شطيــر
فــبــات طعــامنا لهم طعــامــاً هناك ودُورنا للقــــوم دورُ
وكــان لـنـا ثـواب الله ذُخــراً وقــام بشكـرنا منهم شكـور
ولولا القــيــروان وســاكنوها لغــاب طعــامــهم والمخ ريرُ [١]

ثم مضى في القصيدة إلى أن قال:

وليس لنا كـمـا لهم حـصـون ولا جــبـل أعــاليـه وعــورُ
ولا ســور أحــاط بنا ولكـن لنا من حـفـظ رب العـرش سُـورُ
ولا نـأوي إلـى بحـــــر وإنــا إذا قـضى القـضـا تُنحَى البحُـورُ
ولـكنـا إلـى القـــرآن نـأوي وفي أيماننا البـيـض الذكــور

---

(١) المصدر السابق (جـ٢ / ٤٩٣).

عـقـائق كـالبـوارق مـرهفـات — بهـا تحـمي الحـرائم والثـغـور

وسُـمـر في أعـاليـهن شـهـب — بهـا ظـمـأ، مـواردها النحـورُ

إلى أن قال:

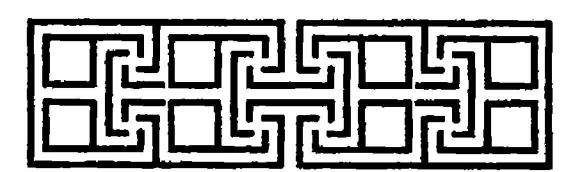
وإنا بعـد من خـوف وأمن — نُحب إذا تشـعـشت الأمـور

رسـول الله والصـديق حـبـاً — به تُرجَى السـعـادة والحـبـورُ

وبعـدهمـا نحب القـوم طُراً — ومـا اختلفـوا فـربهم غـفـورُ

ألا بأبي وخـالصـتي وأمي — مـحـمـد البـشـير لنا النذيرُ

سـأهدي مـا حـيـيتُ له ثناء — مع الركبـان ينجد أو يغـور [(١)]



(١) انظر: رياض النفوس (جـ٢/ ٤٩٤).

الفصل الثالث

الدولة الصنهاجية

استمال خلفاء الدولة العبيدية القبائل البربرية الصنهاجية واستبدلوها بدلاً من القبائل الكتامية وأسندوا إليها الأمور المهمة في الدولة، وارتفع نجم الصنهاجيين في زمن عائلة بني زيري الصنهاجية التي استطاعت أن تثخن في ثورة أبي يزيد الخارجي، فأهدى العبيديون للصنهاجيين حكم إفريقية والمغرب، ومؤسس الدولة الصنهاجية هو أبو الفتوح يوسف بن زيري بن مناد الصنهاجي (٣٦٢ - ٣٧٣ هـ) الذي افتتح سنوات حكمه بقمع الثائرين وتمهيد البلاد.

المبحث الأول

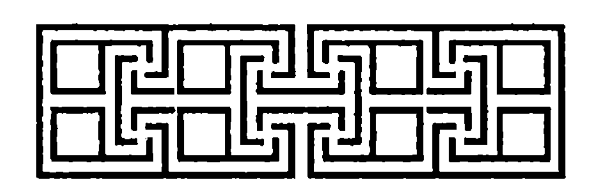
أبو الفتوح يوسف بُلكين بن زيري بن مناد بن منقوش الصنهاجي

(٣٦٢-٣٧٣هـ/ ٩٧٢-٩٨٣م)

أصبح يوسف بلكيني بن زيري والياً أو أميراً لكل بلاد إفريقية، وهو أول حاكم لبلاد المغرب من أصل بربري بعد الفتح الإسلامي، وكان متفانياً في خدمة العبيديين وتوسيع أملاكهم، واشتد الصراع العنيف بين قبائل صنهاجة وقبائل زناتة، واستعمل الحاكم الصنهاجي أبو الفتوح القوة والعنف والشدة للقضاء على سيادة قبائل زناتة، واستطاعت الدولة الأموية في الأندلس أن تستفيد من هذا الصراع وتوجه ضربة موفقة للدولة العبيدية فدعمت قبائل زناتة بكل ما تملك حتى استطاعت أن تقف في وجه الصنهاجيين التابعين للعبيديين وكانت سياسة الصنهاجيين مبنية على العنف والقوة مع الزناتيين فلم يسعوا لكسب ودهم أو مهادنتهم واستغلت الدولة الأموية هذا الصراع حتى فصلت المغرب الأقصى عن

سيادة بني زيري [١] .

وأظهر الأمير بلكين نشاطاً واسعاً وعملاً دءوباً ، وكان محافظاً على تبعيته للعبيديين وولائه للمذهب الإسماعيلي الباطني ، إلا أنه لم يتشدد هو والأمراء الذين جاءوا بعده بمطالبة الناس بالتشيع، فانفسح المجال نسبياً أمام علماء أهل السُّنَّة لنشر السُنَّة وبدأت الحياة العلمية تعود إلى المساجد والكتاتيب شيئاً فشيئاً، غير أن تلك المظاهر الرسمية من التبعية لحكام مصر والدعوة لهم على المنابر كانت تقلق العلماء وأسهمت في إيجاد هوة عميقة بينهم وبين حكام بني زيري، فمضوا في محاربة هؤلاء الحكام الذين لم يكونوا متحمسين للدعوة الإسماعيلية، والتف أهل الشمال الإفريقي حول علمائهم، وواصلوا مقاطعة الدولة، غير أن هؤلاء الحكام لم يستطيعوا الإعلان بموافقة علماء أهل السُنَّة خوفاً على سلطانهم، وأحسن أهل القيروان بذلك فراح علماؤهم يعملون جاهدين على نشر السُنَّة وآراء السلف، فعجت حلقات العلماء بطلاب العلم في القيروان من جديد، وكثرت المؤلفات في بيان دين الإسلام الصحيح وكان التخلص النهائي من أتباع العُبيديين، وانتصار أهل السُنَّة على الروافض في الشمال الإفريقي على عهد الأمير السُني والسيف القاطع والطود المنيف الأمير المعز بن باديس .



---

(١) موسوعة المغرب العربي (جـ٢ / ٢٤ – ٣٠) .

المبحث الثاني

المعز بن باديس الصنهاجي

(٤٠٦-٤٤٩ هـ)

قال عنه الذهبي: «صاحب إفريقية، المعز بن باديس بن منصور بن بُلُكِّين بن زيري بن مناد الحميري، الصنهاجي، المغربي، شرف الدولة ابن أمير المغرب» [١] .

نودي به أميراً يوم السبت الثالث من ذي الحجة سنة ٤٠٦هـ بعد وفاة أبيه بثلاثة أيام [٢] .

استطاع بعض فقهاء المالكية أن يصلوا إلى ديوان الحكم في دولة صنهاجة وأثروا في بعض الوزراء والأمراء ـ الذين كان لهم الفضل بعد الله في تخفيف ضغط الدولة على علماء أهل السُنة.

وأخص بالذكر العلامة أبو الحسن الزجال الذي اجتهد على الأمير المعز بن باديس في تربيته على منهج أهل السُنَّة والجماعة، وأعطت هذه التربية ثمارها بعدما تولى المعز إفريقية، وكان عمل العلامة أبو الحسن في السر بدون أن يعلم به أحد من الشيعة الذين كانت الدولة دولتهم، وكان هذا العالم فاضلاً ذا خلق ودين وعقيدة سليمة، ومبغض للمذهب الإسماعيلي الشيعي.

واستطاع أن يزرع التعاليم الصحيحة في نفسية وعقلية وفكر المعز بن باديس الذي تم على يديه القضاء على مذهب الشيعة الإسماعيلية في الشمال الإفريقي.

وهذا درس لنا نحن الدعاة في الاهتمام برجالات الدولة وأبنائهم من أصحاب

---

(١) سير أعلام النبلاء (١٨/ ١٤٠).

(٢) تاريخ الفتح العربي في ليبيا (٢٨٦).

المناهج العلمانية والبعيدة عن هدي المولى عز وجل، وليكن شعار العاملين في هذا المجال قوله تعالى: ﴿ **وَلْيَتَلَطَّفْ وَلا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا (١٩) إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا** ﴾ [الكهف: ١٩ - ٢٠].

وقد وصف المؤرخون المعز بن باديس بأوصاف في غاية الروعة والجمال، فقال فيه الذهبي: «وكان ملكاً مهيباً، وسرياً شجاعاً، عالي الهمة، مُحباً للعلم، كثير البذل، مدحه الشعراء، وكان مذهب الإمام أبي حنيفة قد كثر بإفريقية فحمل أهل بلاده على مذهب مالك حسماً لمادة الخلاف، وكان يرجع إلى الإسلام، فخلع طاعة العبيدية، وخطب للقائم بأمر الله العباسي، فبعث إليه المستنصر يتهدده، فلم يخفه» (١).

ورد المعز بن باديس على خطاب المستنصر الذي هدده فيه وقال له:

هلا اقتفيت آثار آبائك في الطاعة والولاء، في كلام طويل، فأجابه المعز: إن آبائي وأجدادي كانوا ملوك المغرب قبل أن يتملكه أسلافك ولهم عليهم من الخدم أعظم من التقديم ولو أخروهم لتقدموا بأسيافهم (٢).

وبينت لنا كتب التاريخ أن المعز تدرج في عدائه للإسماعيلية ولحكام مصر، وظهر لك في عام ٤٣٥ هـ عندما وسع قاعدة أهل السُنَّة في جيشه وديوانه ودولته فبدأ في حملات التطهير للمعتقدات الكفرية ولمن يتلذذ بسب أصحاب رسول الله ﷺ فأوعز للعامة ولجنوده بقتل من يظهر الشتم والسب لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما فسارعت العامة في كل الشمال الإفريقي للتخلص من بقايا العبيديين ليصفي الشمال الإفريقي من المعتقدات الفاسدة الدخيلة عليه.

وأشاد العلماء والفقهاء بهذا العمل الجليل الذي أشرف على تنفيذه المعز بن باديس رحمه الله وذكر الشعراء قوافي وأشعاراً في مدح المعز ودونوا تلك البداية،

---

(١) سير أعلام النبلاء (جـ١٨ / ١٤٠).

(٢) تاريخ الفتح العربي في ليبيا، لطاهر الزواوي (ص٢٨٩).

فقال القاسم بن مروان في تلك الحوادث:

وسوف يقتلون بكل أرض ... كما قتلوا بأرض القيروان

وقال آخر:

يا معز الدين عش في رفعة ... وسرور واغتباط وجذل

أنت أرضيت النبي المصطفى ... وعتيقاً في الملاعين السفل

وجعلت القتل فيهم سنة ... بأقاصي الأرض في كل الدول [(١)]

استمر المعز بن باديس في التقرب إلى العامة وعلمائهم وفقهائهم من أهل السُنَّة وواصل السير في تخطيطه للانفصال الكلي عن العبيديين في مصر، فجعل المذهب المالكي هو المذهب الرسمي لدولته، وأعلن انضمامه للخلافة العباسية، وغيرّ الأعلام إلى العباسيين وشعاراتهم وأحرق أعلام العبيديين وشعاراتهم، وأمر بسبك الدراهم والدنانير التي كانت عليها أسماء العبيديين والتي استمر الناس يتعاملون بها ١٤٥ سنة وأمر بضرب سكة أخرى كتب على أحد وجهيها: «لا إله إلا الله محمد رسول الله»، وكتب على الآخر: ﴿**وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾ [آل عمران: ٨٥].

وقضى المعز بن باديس على كل المذاهب المخالفة لأهل السُنَّة من الصفرية والنكارية والمعتزلة والإباضية.

وفي سنة ٤٤٣ هـ انضمت برقة كلها إلى المعز بن باديس بعد أن أعلن أميرها جبارة بن مختار الطاعة له.

وكان أول من قاد حملة التطهير على الإسماعيلية في طرابلس وحارب تقاليدهم الباطلة ودعوتهم المضللة هو العلامة علي بن محمد المنتصر وكنيته أبو

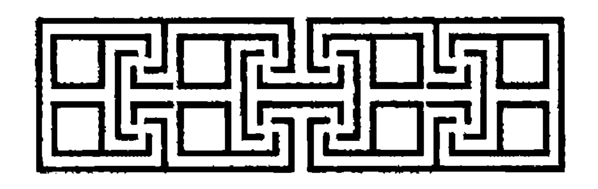
---

(١) تاريخ الفتح العربي في ليبيا، لطاهر الزواي (ص ٢٨٩).

الحسن [١] المتوفى عام ٤٣٢هـ .

واشتاط الحقد الباطني وتفجرت براكين الغضب في نفوسهم وقرروا الانتقام من قائد أهل السُنَّة في الشمال الإفريقي ومن أهله الذين فرحوا بعودة بلادهم لحظيرة أهل السُنَّة فانعقد في القاهرة مجلس رافضي باطني إسماعيلي بقيادة الخليفة العبيدي وخرجوا برأي شيطاني مفاده رمي الدولة السنية الصنهاجية الزيرية بقبائل بني سليم وبني هلال، فإن انتصرت الدولة الصنهاجية تكون الدولة العبيدية قد تخلصت من هذه القبائل المتعبة، وإن انتصر بنو سليم وبنو هلال يكونوا بذلك انتقموا من عدوهم اللدود المعز باديس، وكان الذي تبنى هذه الفكرة الوزير العبيدي أبو محمد الحسن ابن علي اليازوري الذي شرع في إغراء القبائل المقيمة على ضفاف النيل وأمدهم بالمال والسلاح والكراع وأباح لهم برقة والقيروان، وكل ما يكون تحت أيديهم، واتصل العبيديون بالمعارضين للمعز وأمدوهم بما يملكون من مال وسلاح وعتاد.

وبدأت حلقة الصراع العنيف بين المعز بن باديس والقبائل العربية المدعومة من الروافض العبيديين.



(١) تاريخ الفتح العربي في ليبيا، لطاهر الزواوي (ص ٢٩٠، ٢٩١).



المبحث الثالث

زحف بني هلال وبني سليم وغيرهما من القبائل إلى الشمال الإفريقي

تمهيد :

كانت قبائل بني هلال وبني سليم تسكن الجزيرة العربية وكانت مضاربها متوزعة حول المدينة النبوية ومكة والطائف ونجد، واستطاع القرامطة أن يستغلوهم في حروبهم ضد الخلافة العباسية والدولة العبيدية، وتأثر بعض زعماء هذه القبائل بأفكار وعقائد القرامطة، ولم يكن تأثرهم عميقاً وإنما كانت له أسباب اقتصادية ونزعة تمردية على الانقياد للدولة العباسية، وفي قتال القرامطة مع العبيديين لعبت هذه القبائل دوراً بارزاً في الشام وكانت لها شوكة ومنعة وعدة وعتاد.

فاستطاع الأمير العبيدي في مصر أن يجلبهم ويقربهم له بالعطايا والهدايا والأموال، واستجابت لطرح الخليفة العبيدي الذي كان حريصاً على وجود العنصر العربي في دولته، وأعطتهم الدولة العبيدية أراضي خصبة على ضفاف النيل، وأعطت القبائل ولائها للدولة العبيدية، وتبنت شعارات الدولة الباطنية لجهلها وبُعْدها عن فهم حقيقة دينها، وأخلصت للخليفة العبيدي الذي قرر الانتقام من المعز بن باديس بهذه القبائل ذات الشوكة والشكيمة والمنعة والدراية بالحروب، وخصوصاً أن الدولة العبيدية كانت لا تستطيع إرسال جيوشها بسبب انشغالها بالقرامطة، ومشروعاتها بالشام والمشرق عموماً، ولأن طوائف من جيشها من نفس جنس المغاربة، بل من قادتها من هو من نفس قبيلة المعز بن باديس، ولا سيما أن الدولة أهملت هؤلاء القادة والجنود منذ أيام العزيز والخليفة العبيدي.

وكانت القبائل العربية التي في صعيد مصر - بعضها يرجع للفتح الإسلامي - قد ازدادت بعد تركهم للجزيرة العربية ومجيئهم إلى مصر في زمن العزيز العبيدي.

واشتهرت تلك القبائل في صعيد مصر بفعل القلاقل وإشاعة الاضطراب والفوضى في البلاد، فكانت هذه المرة فرصة ذهبية للتخلص منها والانتقام من عدو الدولة وقهره والتشفي منه.

وينسب للمستنصر قوله: «والله لأرمينّه بجيوش لا أتحمل فيها مشقة»، فدعا العرب وأباح لهم مجاز النيل إلى المغرب، وكانت ممنوعة عنها قبل ذلك، فعبر منهم خلق عظيم [١].

واجتمع الأمير المستنصر العبيدي مع زعماء القبائل العربية ومنّاهم بالمساعدة المالية والمعنوية وأعطاهم خيولاً وسلاحاً وعتاداً ومالاً وكل ما يساعدهم في تحقيق أهدافه الشريرة وأباح لهم إفريقية يفعلون فيها ما يشاءون، وقال لهم: «لقد أعطيناكم إفريقية وملك ابن باديس فلا تفتقرن بعدها» [٢].

وعندما تحركت جموع العرب في ٤٤٢ هـ - ١٠٥٠ م أرسل الوزير العبيدي الحاقد إلى المعز بن باديس رسالة قائلاً له: «أما بعد، فقد أرسلنا إليكم خيولاً فحولاً، وحملنا عليهم رجالاً كهولاً، ليقضي الله أمراً كان مفعولاً» [٣].

فسيطرت هذه القبائل على برقة بدون مقاومة تذكر، وكانت برقة قد تمردت على العبيديين أيام الحاكم، وأعلنت الطاعة للمعز أيام المستنصر، وأحرقت المنابر التي كان يخطب فيها للعبيديين، وأحرقت إلى طرابلس وضواحي تونس، وكان تعداد هذه القبائل المهاجمة على الشمال الإفريقي أربعمائة ألف، ولحقتها أفواج تترى.

---

(١) ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها، د. عبد المنعم ماجد (ص ٢٢٣).

(٢) **انظر**: تاريخ الفتح العربي، (ص ٢٩٤).

(٣) ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها، د. عبد المنعم ماجد (ص ٢٢٤).

ويذكر بعض المؤرخين أن العدد الكلي وصل إلى مليون نسمة على مراحل متعددة، وعندما استقرت هذه القبائل في برقة أرسلت أحد شيوخها وهو مؤنس بن يحيى ابن مرداس من رياح أحد بطون بني هلال لينزل ضيفاً على المعز، فعجب مؤنس من النعيم والأبهة التي كانت للمعز بن باديس، فأكرمه المعز وأحسن في ضيافته، وعرض عليه المعز أن يتخذ من بني عمه رياح جنداً له، فأشار عليه مؤنس بألا يفعل معللاً ذلك بعدم انقيادهم واختلاف كلمتهم فلم يقتنع المعز بما قاله مؤنس.

وقال مؤنس للمعز : إنهم قوم لا طاقة لك بهم .

فقال له المعز : هم دون ذلك، فاعتبرها مؤنس إهانة للعرب، وظن المعز أن مؤنساً لا يريد أن يكون لغيره سلطان على قومه، وصارحه بذلك.

فلما رجع مؤنس إلى قومه رغبهم ووصف لهم من خيرات إفريقية وأبهة المعز ما رغبهم في الإسراع بالرحيل، فانسابوا في أرض إفريقية في جموع لا يدرك أولها ولا ينتهي آخرها (١) .

ومن أشهر القبائل العربية التي زحفت على ملك المعز بن باديس بنو سليم بن منصور، وبنو هلال بن عامر وهم من مضر وكانت قبائل زغبة والأثيح، وعدي، ورياح من الهلاليين من بني عامر بن صعصعة وبني هاشم بن معاوية بن بكر، وهذه القبائل مضرية عدنانية.

وقبيلة كهلان وهي قحطانية، وقبائل أخرى كثيرة غير مشهورة.

وعندما رحلت بنو رياح والأثيح وبنو عدي إلى إفريقية يريدون اللحاق بالقيروان، قال لهم مؤنس: ليس هذا برأي والأمر يحتاج إلى تدبير، فقالوا له: وماذا تصنع؟ فقال: ائتوني ببساط فأتوه به، فبسطه وقال لهم: من يدخل إلى وسط البساط من غير أن يمشي عليه؟ فقالوا: ومن يقدر على ذلك؟ فقال: أنا،

---

(١) انظر : تاريخ الفتح العربي ، (ص ٢٩٥) .

فطوى وقال: هكذا فاصنعوا ببلاد المغرب، املكوها شيئاً فشيئاً حتى لا يبقى عليكم إلا القيروان فاتوها فإنكم تملكونها، **فقال له رافع بن حماد ـ وهو أحد رؤساء العرب ـ** : صدقت يا مؤنس، والله إنك لشيخ العرب وأميرها، فقد قدمناك على أنفسنا، فلسنا نقطع أمراً دونك:

وقد اقترعوا على البلاد فخرج لنبي سليم شرقيها: برقة وما حولها، وخرج لبني هلال غربيها: طرابلس وقابس، وانضم بنو جشم إلى بني هلال.

وكان في العرب كثير من غير بني هلال وبني سليم من فزارة وأشجع من بطون غطفان، وجشم بن معاوية بن بكر بن هوزان، وسلول بن مرة بن صعصعة بن معاوية، والمعقل من بطون اليمنية، وكلهم مندرجون في بني هلال وفي الأثيح على الخصوص، لأن الرياسة كانت عندهم للأثيح وهلال فأدحلوا فيهم.

وكانت الأثيح من الهلاليين أوفر عدداً، وأكثر بطوناً، وكان التقدم لهم في حملتهم، وكان منهم الضحاك، وعياض، ومقدم، والعاصم، ولطيف، ودريد، وكرفة، وغيرهم حسبما يظهر في نسبهم.

وكان لهم القوة، وكانوا أحياء غزيرة من جملة الهلاليين الداخلين لإفريقية [١] ومن أشراف رجالات العرب: حسن بن سرحان، وأخوه بدر، وفضل ابن ناهض، وهؤلاء من دريد بن الأثيح.

ومنهم ماضي بن مقرب، وسلامة بن رزق في بني كبير، في بطون كرفة، من الأثيح. وذياب بن غانم، وينسبونه في بني ثور، وموسى بن يحيى، وينسبونه في مرداس رياح، لا مرداس سليم. وهو من بني صقر، بطن من مرداس رياح. ومنهم زيد بن زيدان، وينسبونه في الضحاك، وفارس بن أبي الغيث، وأخوه عامر، والفضل بن أبي علي، ونسبهم في مرداس وكل هؤلاء يذكرون في أشعارهم [٢] .

---

(١)، (٢) **انظر** : تاريخ الفتح العربي، (ص٢٩٧) .

المبحث الرابع
الصدام المسلح بين المعز بن باديس والقبائل العربية

ذكر ابن الأثير دخول العرب إلى إفريقية في حوادث عام ٤٤٢ هـ إلى أن قال: « ثم قدم أمراء العرب إلى المعز بن باديس فأكرمهم وبذل لهم شيئاً كثيراً، فلما خرجوا من عنده لم يجازوه بما فعل من الإحسان، بل شنوا الغارات، وقطعوا الطريق، وأفسدوا الزروع، وقطعوا الثمار، وحاصروا المدن، فضاق بالناس الأمر، وساءت أحوالهم، وانقطعت أسفارهم، ونزل بإفريقية بلاء لم ينزل بها مثله قط، فحينئذٍ احتفل المعز، وجمع عساكره، فكانوا ثلاثين ألف فارس ومثلها رجّالة، وسار حتى حيل بينه وبين القيروان ثلاثة أيام وكانت عدة العرب ثلاثة آلاف فارس » « والصحيح أنهم كانوا على قدر جيش المعز على قول صاحب موسوعة المغرب العربي » فلما رأت العرب عساكر صنهاجة والعبيد مع المعز هالهم ذلك، وعظم عليهم، فقال لهم موسى بن يحيى: ما هذا يوم فرار؟ فقالوا: أين نطعَنُ هؤلاء وقد لبسوا الكزاغندات والمغافر؟ قال في أعينهم، فسمى ذلك اليوم يوم العين، والتحم القتال، واشتدت الحرب، فاتفقت صنهاجة على الهزيمة، وترك المعز مع العبيد حتى يرى فعلهم، ويقتل أكثرهم، فعند ذلك يرجعون على العرب، فانهزمت صنهاجة، وثبت العبيد مع المعز، فكثر القتل فيهم، فقتل منهم خلق كثير، وأرادت صنهاجة الرجوع على العرب، فلم يمكنهم ذلك، واستمرت الهزيمة، وقتل من صنهاجة أمة عظيمة، ودخل المعز القيروان مهزوماً، على كثرة من معه وأخذ العرب الخيل والخيام وما فيها من مال وغيره [(١)].

وقد وصفت كتب التاريخ هذه الواقعة بأبشع ما توصف به الحروب من فظاعة

---

(١) الكامل في التاريخ (جـ٦ /١٥٣).

القتل وكثرة القتلى، نتيجة لصمود كل من الجيشين للآخر في سبيل دحر خصمه والقضاء عليه، وقال الشاعر العربي علي بن رزق الرياحي أبياتاً في هذه المعركة يصف فيها ما دار بينهم وبين المعز:

وإن ابن باديس لأحزم مالك ... ولكن لعمري ما لديه رجال
ثلاثة آلاف لنا غلبت له ... ثلاثين ألفاً إن ذا لنكال [١]

ولما كان يوم النحر من هذه السنة (٤٤٢ هـ) جمع المعز سبعة وعشرين ألف فارس، وهجم على العرب على حين غرة وهم في صلاة العيد، فركبت العرب خيولهم وهجمت على جيوش المعز فهزمتهم وأثخنتهم قتلى، ثم جمع المعز وخرج بنفسه في صنهاجة وزناتة في جمع كثير، وهاجم العرب في منازلهم، واحتدم القتال وتبارز الشجعان فانكسرت شوكة صنهاجة وولت زناتة الأدبار، وثبت المعز فيمن معه من عبيده ثباتاً عظيماً لم يسمع بمثله وتناقلته الركبان، ثم انهزم وعاد إلى المنصورية وأحصى من قتل من رجال المعز فكانوا ثلاثة آلاف وثلاثمائة، ثم أقبلت العرب حتى استقرت بمصلى القيروان ووقعت حروب طاحنة مع المعز قتل من المنصورية ورقادة خلق كثير، فلما دخلوا استطالت عليهم العامة، ووقعت بينهم حرب كان سببها فتنة بين إنسان عربي وآخر عامي، وكانت الغلبة للعرب وفي سنة ٤٤٦ هـ أشار المعز على الرعية بالانتقال إلى المهدية لعجزه عن حمايتهم من العرب [٢] .

بعد أن رتب أمور العاصمة الزيرية الجديدة ونقل لها كافة وظائف الدولة انتقل المعز إلى المهدية ٤٤٩ هـ فتلقاه ابنه تميم ومشى بين يديه واستولى العرب على القيروان وهدموا حصونها وقصورها وقطعوا الثمار، وخربوا الأنهار، وكانت الوقائع والمعارك والحروب التي خاضها المعز مع العرب درساً قاسياً له، أقنعته بألا

---

(١) تاريخ الفتح العربي، (ص ٢٩٩).
(٢) الكامل في التاريخ، (جـ٦ /١٥٤).

طاقة له بالعرب ، أيقن أن العبيديين مكروا به مكراً عظيماً ، وكان من أسباب الهزائم المتلاحقة التي لحقت بالمعز قوة العرب وشجاعتهم ، وخذلان جنوده من البرابرة الذين لا زالوا يعظمون الخلافة العبيدية ، حيث خذلوه في أكثر من موقع ، وتقريب المعز لعبيده مما أوغر نفوس صنهاجة وزناتة عليه .

وعندما استقر المعز في المهدية فوض أمر الدولة وشئون الحكم لابنه تميم الذي آنس فيه والده حسن التصرف وأصالة الرأي .

وبقي هذا المجاهد العظيم في ضيافة ابنه إلى أن توفاه الله سنة ٤٥٣ هـ [١] .

ويشهد التاريخ الإسلامي لهذا القائد الإسلامي البربري أن له الفضل بعد الله في القضاء على عقائد الباطنية الإسماعيلية في الشمال الإفريقي وكان درعاً حصيناً لمنهج أهل السُنَّة والجماعة ودافع عنه ، واحترم علماء أهل السُنَّة وقدمهم في دولته وكلفه ذلك ثمناً باهظاً من قِبل أعدائه .

كما يشهد التاريخ للمعز بن باديس وأتباعه من البرابرة أنهم تبنوا منهج أهل السُنَّة والجماعة، وربطوا شمالهم الإفريقي بالخلافة الشرعية العباسية في بغداد ويشهد التاريخ أن المعز أصبح علماً من أعلام المسلمين ورمزاً من رموزهم ودخل تاريخهم من أوسع أبوابه مسجلاً أعمالاً عظيمة ونرجو من الله أن تكون في ميزان حسناته يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلبٍ سليم .

ذكر ابن الأثير في أحداث سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة وفاة المعز بن باديس وولاية ابن المعز فقال : «في هذه السُنَّة توفي المعز بن باديس، صاحب إفريقية، من مرض أصابه، وهو ضعف الكبد، وكانت مدة ملكه سبعاً وأربعين سنة، وكان عمره لما ملك إحدى عشرة سنة، وقيل ثماني سنوات وستة أشهر» .

وكان رقيق القلب، خاشعاً، متجنباً لسفك الدماء إلا في حد، حليماً، يتجاوز

---

(١) تاريخ الفتح العربي في ليبيا ، طاهر الزاوي ،(ص ٣٠٠) .

عن الذنوب العظام، حسن الصحبة مع عبيده وأصحابه، مكرماً لأهل العلم، كثير العطاء لهم، كريماً، وهب مرة ألف دينار للمستنصر الزناتي وكان عنده وقد جاءه هذا المال، فاستكثره، فأمر به فأفرغ بين يديه، ثم وهبه له، فقيل له: لم أمرت بإخراجه من أوعيته؟ قال: لئلا يقال لو رآه ما سمحت نفسه به، وكان له شعر حسن.

ولما مات رثاه الشعراء، فمنهم أبو الحسن بن رشيق فقال:

لكل حي وإن طال المدي هُلُكُ ... لا عز مملكة يبقى، ولا ملك
ولى المعز على أعقابه فرمى ... أو كاد ينهدُّ من أركانه الفلك
فقيداً وأبقى في خزائنه ... هام الملوك، وما أدراك ما ملكوا
ما كان إلا حساماً سله قدر ... على الذين بغوا في الأرض وانهمكوا
كأنه لم يخض للموت بحر وغي ... خضر البحار، إذا قيست به، بركُ
ولم يُجدْ بقناطير مقنطرة ... قد أرخت باسمه إبريزها السكك
روح المعز وروح الشمس قد قبضا ... فانظر بأي ضياء يصعد الفلك [1]

---

(١) تاريخ الفتح العربي، (ص ٢١٤).

المبحث الخامس

أبناء وأحفاد المُعز

أو لاً: تميم بن المُعز:

ولد بالمنصورية في الثالث من رجب سنة ٤٢٢هـ ، وولاه أبوه على المهدية سنة ٤٤٥هـ ، ثم أسندت إليه ولاية إفريقية من والده المعز ، وسار في الناس بسيرة حسنة، وقرب أهل العلم وكان شجاع القلب، ذا همة عالية، وسياسة، ودهاء، استطاع أن يستعيد المدن التي سلبت من والده، واستمال زعماء العرب بالمال والعطايا، وصاهرهم وامتزج معهم، وجعل منهم جنوداً لدولته بكياسة وفطانة وسياسة نادرة، واستطاع أن يضم مدينة سوسة في عام ٤٥٥ هـ بعد أن قضى على منافسه حمو بن مليك، وعفا عن أهلها وحقن دماءهم بعد أن قضى على المقاومة المسلحة التي واجهته (١) .

وفي سنة ٤٥٧ هـ أراد الناصر بن علناس الحمادي زعيم الدولة الحمادية احتلال المهدية والقضاء على ملك تميم وجهز جيشه من صنهاجة وزناتة وبني هلال، فاستدرج تميم بن المعز القبائل العربية للوقوف بجانبه، وأعطاهم السلاح والمال والعتاد، واستطاع أن يقضي على جيش الناصر، وقتل منهم ٢٤ ألفاً، وترك الغنائم والأموال للعرب التي استغنت بذلك، وقال تميم: يقبحُ بي أن آخذ سلب ابن عمي فأرضى العرب بذلك (٢) .

وفي سنة ٤٨٤ هـ ضم تميم مدينة قابس بعد أن تولى أمرها عمرو بن المعز، وكان قبل عمرو رجل يسمى قاضي بن إبراهيم بن بلمونة، وكان ضمه لقابس بالجيوش الجرارة فقال له أصحابه: يا مولانا لما كان فيها قاضي توانيت عنه

---

(١) الكامل لابن الأثير(جـ٦ / ٢٣٤) .

(٢) المرجع السابق نفسه(جـ٢ / ٢٤٣) .

وتركته، فلما وليها أخوك جردت إليه العساكر، فقال: لما كان فيها غلام من عبيدنا كان زواله سهلاً علينا، وأما اليوم وابن المعز بالمهدية، وابن المعز بقابس فهذا لا يمكن السكوت عليه.

وفي فتحها يقول ابن خطيب سوسة القصيدة المشهورة التي أولها:

ضحك الزمان، وكان يلقى عابساً ... لما فتحت بحد سيفك قابساً
الله يعلم ما حويت ثمارها ... إلا وكان أبوك قبل الغارسا
من كان في زُرق الأسنة خاطباً ... كانت له قلل البلاد عرائساً
فابشر تميم بن المعز بفتكة ... تركتك من أكناف قابس قابساً
ولّوا فكم تركوا هناك مصانعاً ... ومقاصراً ومخالداً، ومجالساً
فكأنها قلبٌ، وهن وساوسُ ... جاء اليقين، فذاد عنه وساوساً [1]

وفي سنة ٤٩٣ هـ استطاع تميم أن يضم مدينة صفاقس وأن ينتزعها بالقوة من حاكمها المتمرد حمو بن فلفل البرغواطي [2].

ويعتبر عصر تميم أزهى من عصر والده فيما بعد دخول القبائل العربية.

وكان يضرب به المثل في الجود والشجاعة والكرم والعطاء، قال فيه ابن كثير: «من خيار الملوك حلماً وكرماً، وإحساناً، ملك ستًّا وأربعين سنة وعمر تسعاً وتسعين سنة، ترك من البنين أنهد من مائة، ومن البنات ستين بنتاً، وملك بعده ولده يحيى، **ومن أحسن ما مدح به الأمير تميم قول الشاعر:**

أصحُّ وأعلى ما سمعناه في الندا ... من الخبر المروي منذ قديم
أحاديث ترويها السيول عن الحيا ... عن البحر عن كف الأمير تميم [3]

---

(١) الكامل في التاريخ (جـ٦/٣٦٧).
(٢) تاريخ الفتح العربي (ص ٣٠٢).
(٣) البداية والنهاية (جـ٢/١٨١).

وكان عالماً فاضلاً، وشاعراً رقيق العاطفة، ومن شعره:

فإما الملوك في شرف وعز على التاج في أعلى السرير
وإما الموت بين ظُبا العوالي فلستُ بخالد أبد الدهور [١]

وقال ابن الأثير- رحمه الله -

«كان شهماً شجاعاً، ذكيًّا، وله معرفة حسنة، وكان حليماً، كثير العفو عن الجرائم العظيمة، وله شعر حسن، فمنه أنه وقعت حرب بين طائفتين من العرب، وهم عدي، ورياح، فقتل رجل من رياح، ثم اصطلحوا، وأهدروا دمه، وكان صلُحهم مما يضر به وببلاده، فقال أبياتاً يحرض على الطلب بدمه، وهي:

متى كانت دماؤكم تُطَل أما فيكم بثأرٍ مستقلُّ
أغانمُ ثم سالمُ إن فشلتم فما كانت أوائلكم تُذلُّ
ونمتم عن طلاب الثأر حتى كأن العز فيكم مُضمَحِلُّ
وما كسرتم فيه العوالي ولا بيض تُفَل، ولا تُسلُّ

فعمد أخوة المقتول فقتلوا أميراً من عدي، واشتد بينهم القتال، وكثرت القتلى، حتى أخرجوا بني عدي من إفريقية [٢].

ومن أقواله التي صارت مثلاً في إفريقية «أسرار الملوك لا تذاع».

وانطوت صفحة حياته في عام ٥٠١ هـ بعد أن عادت للدولة الزيرية هيبتها.

ثانياً: يحيى بن تميم بن المعز بن باديس:

عهد إليه أبوه بالولاية في حياته في السادس عشر من ذي الحجة سنة ٤٩٧ هـ، واستقل بالأمر يوم وفاة أبيه، وعمره ثلاث وأربعون سنة وستة أشهر وعشرون يوماً فكان موفقاً [٣].

---

(١) تاريخ الفتح العربي في ليبيا، (ص ٣٠٢).
(٢) الكامل (جـ٦/ ٤٨٥).
(٣) المصدر السابق.

ولما استقر في الملك جهز أسطولاً إلى جزيرة جربة، وسببها أن أهلها يقطعون الطريق ويأخذون التجار، فحاصرها وضيق عليها، فدخلوا تحت حكمه، والتزموا ترك الفساد، وضمنوا صلاح الطريق (١) .

وكان مهتمًّا بعلم الأخبار وأيام الناس والطب وكان مغرمًا بالكيمياء ، وحاول ثلاثة من الباطنية قتله فدخلوا عليه زاعمين أن لهم دراية بالكيمياء إلا أن الله نجاه منهم.

قال الذهبي: «وقد وقف ليحيى ثلاثة غرباء، وزعموا أنهم يعلمون الكيمياء فأحضرهم ليتفرج وأخلاهم، وعنده قائد عسكره إبراهيم، والشريف أبو الحسن، فسل أحدهم سكيناً، وضرب الملك، فما صنع شيئاً ورفسه الملك فدحرجه، ودخل مجلساً وأغلقه، وقتل الآخر الشريف، وشد إبراهيم بسيفه عليهم، ودخل المماليك، وقتلوا الثلاثة، وكانوا باطنية، أظن الآمر العبيُدي ندبهم لذلك» (٢) .

وكان عنده جماعة من الشعراء قصدوه ومدحوه، وخلدوا مديحه في دواوينهم، ومن جملة شعرائه أبو الصلت ابن عبد العزيز أمية بن أبي الصلت الشاعر الذي عاش في كنفه بعد أن جاب البلدان، وله في يحيى مدائح كثيرة أجاد فيها وأحسن، ومن جملة ما قاله من مديحه قصيدة:

فارغب بنفسك إلا عن ندى ووغى ... فالمجدُ أجمع بين البأس والجود
كدأب يحيى الذي أحييت مواهبه ... ميتَ الرجاء بإنجاز المواعيد
معطي الصوارم والهيف النواعم ... والجرد الصلادم والبزل الجلاعيد
أشم أشوس مضروب بسرادقه ... على أشم بفرع النجم معقود
إذ بدا بسرير الملك محتبياً ... رأيت يوسف في محراب داود

---

(١) **انظر** : التذكار ، (ص ٣٩) .

(٢) سير أعلام النبلاء (جـ١٩/ ٤١٤) .

إلى أن قال:

هذي موارد يحيى غيرُ ناضبة ... وذا الطريق إليها غير مسدود
حكم سيوفك فيما أنت طالبه ... فالسيوف قضاء غير مردود[١]

وتوفي الأمير يحيى سنة ٥٠٩ هـ متأثراً بمرض أصابه بعد الاعتداء من قبل الباطنيين الذين حاولوا قتله ولازمه المرض إلى أن توفي[٢] وقال ابن الأثير: كانت وفاته يوم عيد الأضحى فجأة، وكان عمره اثنتين وخمسين سنة وخمسة عشر يوماً، وكانت ولايته ثماني سنين وخمسة أشهر وخمسة وعشرين يوماً، وخلف ثلاثين ولداً، فقال عبد الجبار بن محمد بن حمديس الصقلي يرثيه ويهنئ ابنه علياً بالملك:

فقال:

ما أغمد الغضب إلا جرد الذكر ... ولا اختفى قمر حتى بدا قمر
بموت يحيى أميت الناس كلهم إن ... حتى إذا ما عليٌّ جاءهم نُشِروا
يبعثوا بسرور من تملكه ... وعينها من أبيه دمعها همرُ
شقت جيوب المعالي بالأسى فبكت ... في كل أفق عليه الأنجم الزهرُ
وقل لابن تميم حزن مادهما ... فكر حزنٍ عظيمٍ فيه محتقرُ
قام الدليلُ ويحيى لا حياة له ... ن المنية لا تبقي ولا تذر[٣]

ثالثاً: الأمير علي بن يحيى بن تميم بن المعز:

ولد يوم ١٥ من صفر سنة ٤٩٩ هـ وولاه والده على صفاقس وتولى الحكم بعد وفاة والده.

---

(١) وفيات الأعيان، (جـ٦ / ٢١٥).
(٢) ابن عذاري (جـ١ / ٣٠٦).
(٣) الكامل (جـ٦ / ٥٢٤).

وبعد عامين من حكمه جهز علي أسطولاً في البحر وأرسله إلى مدينة قابس وضرب عليها حصاراً، وذكر ابن الأثير السبب في ذلك فقال: «وسبب ذلك أن صاحبها رافع بن مكن الدهماني أنشأ مركباً بساحلها ليحمل التجار في البحر، وكان ذلك آخر أيام الأمير يحيى، فلم ينكر يحيى ذلك، جرياً على عادته في المداراة، فلما ولي علي الأمر بعد أبيه، أنف من ذلك وقال: لا يكون لأحد من أهل إفريقية أن يناوئني في إجراء المراكب في البحر بالتجار، فلما خاف رافع أن يمنعه علي، التجأ إلى اللعين رجار حاكم صقليه حتى ينصره ويعينه على إجراء مركبه في البحر، وأنفذ في الحال أسطولاً إلى قابس، فاجتازوا بالمهدية، فحينئذٍ تحقق علي اتفاقهما، وكان يكذبه».

فلما جاز أسطول رجار بالمهدية أخرج علي أسطوله في أثره، فوصل إلى قابس، فلما رأى صاحب أسطول الفرنج المسلمين لم يخرج مركبه، فعاد أسطول الفرنج، وبقي أسطول علي يحصر رافعاً بقابس مضيقاً عليه، ثم عادوا إلى المهدية [1].

وبعد ذلك أراد رافع أن يحاصر المهدية وجمع شتات الأعراب وجهز جنوداً وزعم أنه يريد الدخول في طاعة الأمير علي إلا أن الأمير لم تنطل عليه الحيلة وحاربه وكسر شوكة رافع حتى تدخل بعض الأعيان من العرب وغيرهم للصلح بين الطرفين [2].

وشعر الأمير علي بن يحيى بخطورة زعيم صقلية «رجار» عليه فأصدر أوامره بتجديد الأسطول وإعداد العدة لدحر قوات رجار البحرية، وكاتب المرابطين بمراكش في الاجتماع معهم على الدخول إلى صقلية، فكف رجار عن شره [3] وتوفي الأمير علي بن يحيى بن تميم، صاحب إفريقية، في العشر الأخير من ربيع

---

(١)، (٢)، (٣) الكامل (جـ٦ / ٥٢٤).

الآخر ،وكانت حروبه وأعماله تدل على علو همته، ولما توفي ولي الملك بعده ابنه الحسن، بعهد أبيه،وقام بأمر دولته صندل الخصي، لأنه كان عمره حينئذٍ اثنتي عشرة سنة لا يستطيع أن يستقل بتدبير الملك، فقام صندل بالأمر خير قيام، فلم تطل أيامه حتى توفي، فوقع الخلاف بين أصحابه وقواده، كل منهم يقول أنا المقدم على الجميع، وبيدي الحل والعقد، فلم يزالوا كذلك إلى أن فوض أمور دولته إلى قائد من أصحاب أبيه يقال له: أبو عزيز موفق، فصلحت الأمور (١) .

رابعاً: الأمير الحسن بن علي بن يحيى بن تميم:

ولد بسوسة سنة ٥٠٢ هـ، وتولى بعد وفاة أبيه وجرت في أيامه وقائع وأمور يطول شرحها، وضعفت دولته وأصبحت هدفاً للنصارى الحاقدين، ورأوا أن الفرصة قد حانت لاحتلال مدن جنوب البحر المتوسط وإذلال المسلمين، واستطاع رجار الصقلي احتلال طرابلس وبعدها المهدية.

وخرج الحسن بن علي من المهدية وهو يقول: «سلامة المسلمين أحب إلي من الملك والقصر».

وأراد الذهاب إلى العبيديين في مصر ثم تنحى عن هذه الفكرة وراسل ابن عمه زعيم الدولة الحمادية في المغرب الأوسط إلا أن ابن عمه حبسه في إقامة جبرية خوفاً من أن يتصل بخليفة الموحدين عبد المؤمن بن علي، واستطاع الحسن بن علي أن يتصل بخليفة الموحدين ودخل تحت سلطانه وعملا على تحرير أراضي المسلمين والمدن الساحلية من كل وجود للنصارى راضياً بخلافة الموحدين، وتضاربت الأقوال في سنة وفاته إلا أنه بالتأكيد كانت بعد سنة ٥٥٥ هـ أثناء ذهابه لعاصمة الموحدين حيث عاجلته المنية وهو في شد الرحال إليها.

وبسقوط المهدية في قبضة النصارى الحاقدين بقيادة رجار الصقلي سنة ٥٤٣ هـ

---

(١) انظر : موسوعة المغرب العربي (٤ / ٨٢ ، ٨٣).

انتهت دولة بني زيري بعد أن دام ملكها على أرض إفريقية والمغرب الأوسط نحو مئة وثمانين عاماً (١٨٠سنة) منذ زمن مؤسسها الأول بلكين ٣٦٢ هـ إلى الحسن ابن علي عام ٥٤٣هـ ، وقبل الدخول في أسباب سقوط الدولة الزيرية خصوصاً والدولة العبيدية عموماً نبين ما حدث لطرابلس الغرب من هجوم شرس غادر من قبل النصارى وما مر من أحداث في تلك الفترة.

[أ] والي طرابلس في زمن الأمير الحسن بن علي الصنهاجي :

وهو محمد بن خزرون بن خليفة بن ورو.. ولي طرابلس بعد شاه ملك وقرب منه شيوخ بني مطروح لما لهم من الزعامة والرئاسة والمكانة والنفوذ في طرابلس، وأسند إليهم رئاسة الجند وتدبير الأمور وأصبح لا يصدر إلا عن رأيهم وخلع يد الطاعة من الحسن بن علي، وامتنعوا عن دفع الأموال إليه وأعلنوا طاعتهم للعبيديين في مصر.

[ب] رجار يهاجم طرابلس:

وفي سنة ٥٣٧ هـ هاجم رجار طرابلس وحاصرها بأسطوله ونقبوا أسوار المدينة فدافع أهلها عنها دفاعاً مستميتاً واستنجدوا بسكان الضواحي من العرب وغيرهم فأنجدوهم، ولم يتمكن رجار من دخول المدينة فرجع إلى صقلية خائباً، وغنم الطرابلسيون منه بعض الأسلحة، وبقي ابن خزرون مستقلاً بطرابلس يدبر ويرتب وينظم شئونها ويدين بالطاعة للعبيديين في مصر [١] .

[جـ] المجاعة في طرابلس:

في سنة ٥٤٠ هـ تعرضت طرابلس لمجاعة كبيرة فاضطر بعض السكان إلى ترك البلاد والجلاء عنها، وكان محمد بن خزرون عنيفاً شديداً على سكان البلاد قاسياً في حكمه ضايق الناس في معيشتهم فضاقوا به ذرعاً وهو لا يزداد إلا

(١) تاريخ الفتح العربي في ليبيا (ص ٣٠٥) .

تعسفاً.

وكان بنو مطروح في مقدمة وجهاء طرابلس ومن زعمائهم وكانوا معينين لمحمد ابن خزرون، ولكنهم نقموا عليه أعماله وحاولوا أن يخففوا من وطأته فجمعوا الناس وخرجوا عليه وأبعدوه هو وشيعته من المدينة وكان رجار حاكم صقلية يتابع هذا التنازع، فاستغل الظروف، واستفاد من وقوع كارثة المجاعة وثورة السكان على ابن خزرون وطرده من المدينة، فأراد الانتقام لهزيمته الأولى فأرسل جيوشه وأساطيله وهاجم بهم طرابلس فدخلها بدون مقاومة واحتلها بدون متاعب عام ٥٤١ هـ.

وبانتهاء محمد بن خزرون انتهى حكم بني خزرون في طرابلس.

وأصبح قائد أسطول رجار «جرجي بن مخائيل الأنطاكي» الذي تعلم في الشام ورافق تميم بن المعز حاكماً على طرابلس وطلبوا منه الأمان فأمنهم، وشرط لهم ألا يلزمهم بما يخالف دينهم.

وهذه هي المرة الأولى التي يستولي فيها النصارى الحاقدين على طرابلس، أما المحاولة التي كانت سنة ٥٣٧ هـ فلم يستطيعوا الاستيلاء عليها [١].

وحاول رجار أن يسيطر على أهل طرابلس بأهلها فأسند لهم رجار ولاية طرابلس، وعين يوسف بن زيري قاضياً، وكنيته أبو الحجاج، وحكم رافع بن مطروح اثنتي عشرة سنة وهو يدين لرجار بالطاعة.

وفي تصوري أن رضاه بالعمل تحت راية النصارى مضطراً إليها اضطراراً خارجاً عن إرادته، واجتهد الشيخ في تقليل المضار ودفع عن المسلمين ما أمكنه من ضرر مع انقياده لرجار في صقلية.

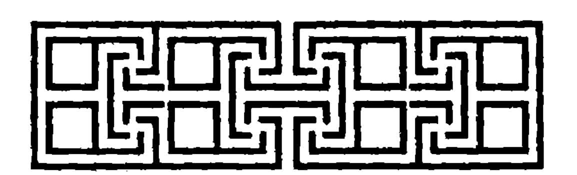
ولما هلك رجار سنة ٥٤٨ هـ بعد أن ملك ما بين المهدية وطرابلس ما عدا قابس

(١) تاريخ الفتح العربي في ليبيا (ص ٣٠٧).

خلفة في الحكم ابنه غاليالم وسمى نفسه رجار الثاني، فقويت شوكته في الشمال الإفريقي، ودخلت قابس في طاعته، وكان شديد الوطأة على المسملين، فملوا حكمه ، وسئمت نفوسهم تحت حكمه وتشجعوا مع ظهور دعوة الموحدين في إفريقية وقربهم من المهدية.

وبدأت الثورة المسلحة ضد غاليالم في صفاقس، وانتشرت في البلاد الساحلية، ووصلت إلى نواحي طرابلس، وقد خاف غاليالم أن يتصل الطرابلسيون بالثورة فأحدث فتنة بين الأهالي لتلهيهم عن التفكير في الثورة، وعن الاتصال بالموحدين وطلب من أهالي طرابلس أن يشتموا الموحدين، فامتنع أهل طرابلس ولجئوا إلى القاضي أبي الحجاج، وكلفوه بأن يفهم غاليالم بأن طلبه هذا يخالف الدين وتمكن القاضي من إقناعه فأعفاهم من طعن الموحدين وشتمهم.

ودفعت معاملة غاليالم الطرابلسيين للثورة ضده بسبب ظلمه وتعسفه فقاد رافع ابن مطروح الثورة ضده وتحررت طرابلس عام ٥٥٣ هـ من حكم النصارى، وأصبح رافع بن مطروح حاكماً على طرابلس لما له من جاه ومكانة عند أهل طرابلس، ومع امتداد دعوة الموحدين في الشمال الإفريقي دخلت طرابلس في طاعة عبد المؤمن بن علي زعيم الموحدين ، وكان ذلك في عام (٥٥٥ هـ) [١] .



---

(١) تاريخ الفتح العربي في ليبيا (ص ٣٠٧)

المبحث السادس

أسباب سقوط الدولة الزيرية في الشمال الإفريقي

﴿ ١ ﴾ عجز الدولة الزيرية في توحيد الشمال الإفريقي كله، لظهور بعض القبائل المناهضة للصنهاجيين مثل قبائل زناتة التي تحالفت مع الدولة الأموية في الأندلس.

﴿ ٢ ﴾ الانقسام الداخلي الذي حدث للعائلة الزيرية وترتب على ذلك ظهور الدولة الحمادية في المغرب الأوسط.

﴿ ٣ ﴾ الصراع المسلح الذي استمر عشرات السنين بين الصنهاجيين والزناتيين والكتاميين مما أضعف الدولة أمام التحديات الخارجية.

﴿ ٤ ﴾ المكر الباطني بالدولة الزيرية وتمثل ذلك في محاولة اغتيال سلاطينهم وإرسال قبائل بني هلال وبني سليم للانتقام من المعز بن باديس سلطان الدولة الزيرية في زمانه.

﴿ ٥ ﴾ انفصال بعض المدن عن عاصمة الدولة الزيرية بسبب الزحف العربي المدعوم بالحقد الباطني ومحاولة سلاطين الدولة الزيرية إرجاع هذه المدن المنفصلة مما كلف الدولة الزيرية جهداً ووقتاً ودماءً وأرواحاً من أجل إرجاع تونس وتخليصها من بني خراسان وصفاقس وتخليصها من البراغواطي وفاس وتخليصها من بني جامع.

﴿ ٦ ﴾ الغزو الصليبي القادم من وراء البحر الأبيض المتوسط، وصراع الدولة الزيرية مع جحافل الغزو الوحشية القادمة من أوربا، بدأ ذلك الغزو النصراني الحاقد بعد أن استولت قوات النورمان على جزيرة صقلية عام ٤٨٤ هـ فاحتلوا جزيرة جربة عام ٥٢٩ هـ، وزحفوا على فاس ٥٤٢ هـ،

وأنهكت الصراعات الداخلية التي حدثت بين العرب وزناته وبني حماد قوة الدولة الزيرية مما جعل الحملات الصليبية تستسهل مهمتها في القضاء على الدولة الصنهاجية الزيرية، وتم لها ذلك بسقوط المهدية عام ٥٤٣ هـ .

﴿ ٧ ﴾ هجرة العلماء والفقهاء من القيروان والمهدية إلى المغرب الأوسط والمغرب الأقصى .

﴿ ٨ ﴾ تعرضت التجارة والصناعة والزراعة لهزات عنيفة نتيجة الاضطرابات والصراعات الداخلية مما جعل الناس تهاجر إلى الأندلس وصقلية والمشرق الإسلامي .

حكام بني زيري في القيروان والمهدية :

﴿ ١ ﴾ بلكين بن زيري بن مناد بن منقوش الصنهاجي (٣٦٢ – ٣٧٤ هـ، ٩٧٣ – ٩٨٤ م) .

﴿ ٢ ﴾ المنصور بن بلكين بن زيري (٣٨٦ – ٣٨٦ هـ، ٩٨٤ – ٩٩٦ م) .

﴿ ٣ ﴾ باديس بن المنصور بن بلكين (٣٨٦ – ٤٠٦ هـ، ٩٩٦ – ١٠١٥ م) .

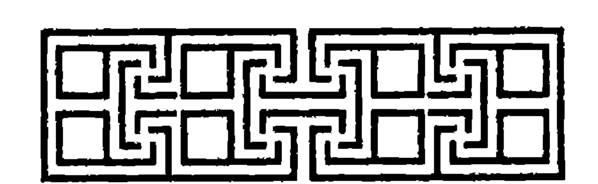
﴿ ٤ ﴾ المعز بن باديس بن المنصور (٤٠٦ – ٤٥٣ هـ، ١٠١٥ – ١٠٦٢ م) .

﴿ ٥ ﴾ تميم بن المعز بن باديس (٤٥٣ – ٥٠١ هـ، ١٠٦٢ – ١١٠٧ م) .

﴿ ٦ ﴾ يحيى بن تميم بن المعز بن باديس (٥٠١ – ٥٠٩ هـ، ١١٠٧ – ١١١٦ م) .

﴿ ٧ ﴾ علي بن يحيى بن تميم (٥٠٩ – ٥١٥ هـ، ١١١٦ – ١١٢١ م) .

﴿ ٨ ﴾ الحسن بن علي بن يحيى (٥١٥ – ٥٤٣ هـ، ١١٢١ – ١١٤٨ م) .



الفصل الرابع

سقوط الدولة العُبيدية

المبحث الأول

من أسباب سقوط الدولة العبيدية وانحدار المد الباطني والتغلغل النصراني الصليبي

﴿ ١ ﴾ مقاومة المغاربة الباسلة للمد العبيدي الباطني بقيادة العلماء والفقهاء والمحدثين مما جعل زعماء الدولة العبيدية يقررون نقل ملكهم وزعامتهم إلى مصر.

﴿ ٢ ﴾ ظهور القائد الإسلامي المغربي البربري المعز بن باديس الذي أعلن انفصاله السياسي والعسكري والعقدي عن الدولة العبيدية في مصر.

﴿ ٣ ﴾ صراع الدولة العبيدية مع القرامطة في الشام من أجل الأطماع الدنيوية الأرضية.

﴿ ٤ ﴾ استعانة العبيديين بالنصارى الأوربيين للوقوف ضد تقدم السلاجقة في بلاد الشام، ثم غدر النصارى بالعبيديين بعد مجيئهم وخذلانهم للدولة العبيدية في مصر.

﴿ ٥ ﴾ رفض المصريين للمذهب العبيدي الباطني والعمل الجاد من قبل العلماء والفقهاء وأبناء الشعب المصري في نخر الدولة العبيدية الباطنية.

﴿ ٦ ﴾ رجوع الدولة العباسية إلى التمسك بالكتاب و السُنَّة والدعوة إليها، وكانت من أوائل بدايات الرجوع ما قام به الخليفة القادر باللهعام ٤٠٨ هـ حيث استتاب فقهاء المعتزلة فأظهروا الرجوع وتبرءوا من الاعتزال والرفض والمقالات

المخالفة للإسلام [١].

وامتثل السلطان محمود بن سبكتكين أمر أمير المؤمنين في ذلك واستن بسنته في عقوبة المعتزلة والرافضة والإسماعيلية، وأبعد جميع طوائف أهل البدع ونفاهم عن ديارهم كما أحرق كتب الفلسفة [٢] وحسر المجاهد محمود الغزنوي المد الباطني الرافضي الإسماعيلي في بلاد الهند وبلاد أفغانستان.

قال فيه ابن كثير في ترجمته: « الملك الكبير، المجاهد الغازي أبو القاسم صاحب بلاد غزنه وما والاها، فتح فتوحات كثيرة في بلاد الهند، لم يتفق لغيره من الملوك لا قبله ولا بعده، وغنم مغانم كثيرة، وكان مع هذا في غاية الديانة وكراهة المعاصي وأهلها، كان يحب العلماء والمحدثين، ويحب أهل الخير والدين» [٣].

وعندما حاول العبيديون في مصر إغراءه بالهدايا كي يقيم الدعاية لهم في بلاده، أحرق كتبهم وهداياهم [٤]، وقتل التاهرتي «مندوبهم للدعوة، وأهدى بغلته إلى القاضي أبي منصور محمد بن محمد الأزدي، وقال: كان يركبها رأس الملحدين، فليركبها رأس الموحدين [٥] واستطاع هذا الملك السني الميمون أن يكسر شوكة الإسماعيلية والمبتدعة في بلاده فجزاه الله خيراً وتوفي هذا الملك المجاهد عام ٤٢١ هـ واستمرت دولته في غزنة فترة طويلة، وكان حفيده مثله في سيرته الميمونة، واستمر الغزنويون يحكمون الهند بمذهب أهل السُنَّة إلى القرن الثالث عشر الهجري حين تحكم الإنجليز ونقلوا السلطة إلى الهنادكة بعد رحليهم» [٦].

﴿ ٧ ﴾ ظهر السلاجقة السنيون في بلاد خراسان وامتد نفوذهم إلى عاصمة

---

(١) الكامل (جـ٩ /٣٠٥).
(٢)، (٣) البداية والنهاية (جـ١٢ / ٢٨ ، ٣٢).
(٤) **انظر**: البداية والنهاية (جـ١٢ /٣٢ ، ٤٣)، وأيعيد التاريخ نفسه ؟، (ص ٦٦، ٦٨)والروضتين، (ص ٣١).
(٥)، (٦) أيعيد التاريخ نفسه ؟، (ص ٦٦).

الخلافة واستطاعوا أن يقضوا على البويهيين عام ٤٤٨ هـ وبذلك سقطت دولة البويهيين الشيعية وقضى السلاجقة على فتنة البساسيري الشرير، وفي عام ٤٤٨ هـ أزيل ما كان على أبواب المساجد من سب الصحابة، وأمر رئيس الرؤساء بقتل شيخ الروافض أبي عبد الله الجلاب لغلوه في الرفض [١].

وعي عهد ألب أرسلان زعيم السلاجقة عاد للأمة عزها المفقود، ورجعت لهم الانتصارات الكبيرة على النصارى، وعمل ألب أرسلان على تخليص حلب وديار الشام من الهيمنة العبيدية وإرجاعها للخلافة العباسية، وفي عام ٤٦٢ هـ رجعت مكة إلى السيادة العباسية، وانخلعت من التبعية العبيدية، وأعطى السلطان ألب أرسلان لمحمد بن أبي هاشم حاكم مكة ثلاثين ألف دينار [٢].

وفي زمن وزارة نظام الملك «الحسن بن علي» اهتمت الدولة السلجوقية بتولية الأمور القيادية في الدولة للقواد والأمراء الذين فيهم خلق ودين وشجاعة، ونشروا علوم أهل السُّنَّة، قال المؤرخ أبو شامة: «فلما ملك السلجوقية جددوا من هيبة الخلافة ما كان قد درس لا سيما في وزارة نظام الملك، فإنه أعاد الناموس والهيبة إلى أحسن حالاتها» [٣].

وهذا الوزير الصالح «نظام الملك» الحسن بن علي «هو الذي شجع بناء المدارس للطلبة، ففي عام ٤٥٩ هـ فرغ من عمارة المدرسة النظامية في بغداد، وأسس المدارس في نيسابور وغيرها من البلدان، وقد سرى هذا الاتجاه في بناء المدارس السنية إلى مصر، وهي تحت النفوذ العبيدي الباطني فقد أنشأ أبو الحسن علي بن السلار وزير الظافر سنة ٥٤٤ هـ مدرسة وجعل رياستها للحافظ السلفي، وكانت المدرسة الوحيدة للشافعية في الإسكندرية، كما أنشئت المدرسة العوفية ٥٣٢ هـ

---

(١) البداية والنهاية (جـ ١٢ /٤٣)

(٢) أيعيد التاريخ نفسه ؟ (ص ٦٨)

(٣) الروضتين في أخبار الدولتين (٣١)

وعلى رأسها الفقيه المالكي أبي الطاهر بن عوف، ومن أغراض هاتين المدرستين الوقوف في وجه المذهب الشيعي والدعوة للمذهب السني » [١] .

قال المؤرخ أبو شامة عن نظام الملك: « كان عالماً فقيهاً ديناً خيراً متواضعاً عادلاً، يحب أهل الدين ، وأما صدقاته وأوقافه فلا حد لها، ومدارسه في العالم مشهورة لم تخل بلد منها ، حتى جزيرة ابن عمرو التي هي في زاوية من الأرض بنى فيها مدرسة كبيرة حسنة، وكان يحافظ على أوقات الصلوات محافظة لا يتقدمه فيها المتفرغون للعبادة » [٢] قتل – رحمه الله – بيدي الغدر والخيانة الباطنية قرب نهاوند في اليوم العاشر من رمضان عام ٤٨٥ هـ [٣] .

﴿ ٨ ﴾ نشط علماء المدرسة الشافعية وعلى رأسهم الإمام الجويني أبو المعالي إمام الحرمين الذي اهتم بمشاكل عصره وكتب كتابه المعروف « غياث الأمم في التياث الظلم » في السياسة الشرعية التى تبحث في مشكلات المسلمين الواقعية، ومن تلاميذ الإمام الجويني النابغين: أبو حامد الغزالي والكيا الهراسي، وقد ألف الغزالي كتابه « إحياء علوم الدين » وفي نيته أن هذا من أسباب إصلاح أحوال المسلمين،ولكن يؤخذ على الكتاب حشوه بالأحاديث الضعيفة والموضوعة، والقصص غير المعقولة من شطحات الصوفية، والكلام الفاسد من الفلاسفة، ومع ذلك ففي كتابه نظرات إصلاحية من خلال إصلاح النوايا والقلوب، وكانت بحوث الغزالي في النفوس البشرية عميقة أثرت تأثيراً كبيراً في واقع المسلمين [٤] .

وكان قبل الإمام الجويني الإمام الماوردي الذي حاول أن يمهد الطريق لإمام الحرمين فكتب « الأحكام السلطانية » لمعالجة مشكلة الحكم وكتب « أدب الدنيا

---

(١) أيعيد التاريخ نفسه ؟ (ص ٦٩) .
(٢) الروضتين في أخبار الدولتين (جـ/١ ، ٥) .
(٣) البداية والنهاية (جـ١٢ / ١٥٠) .
(٤) أيعيد التاريخ نفسه ؟ (ص ٧٠ – ٧٣) .

والدين» لمعالجة مشكلة دقيقة في حياة المسلمين وهي: كيف نجمع بين الدين والدنيا في توازن شرعي؟.

إن علماء المدرسة الشافعية السنية من أمثال أبي إسحاق الشيرازي وتلاميذهم ساهموا في اندحار الرفض والمذاهب الباطنية [١].

﴿ ٩ ﴾ ظهور العلماء العاملين المخلصين المنتسبين للمدرسة الحنبلية في مدارس بغداد الذين تربى علماء الأمة، وطلاب العلم على أيديهم كالشيخ أبي الوفاء بن عقيل، والشيخ أبي الفرج ابن الجوزي الإمام الحافظ الواعظ وكان لهم تأثير في رجوع الناس إلى الدين على أصول سنية، وكان لمدرسة أبي سعيد المخرمي الحنبلي دور بارز في تعليم الأمة وتربيتها وخصوصاً بعد أن تولى أمرها العالم الرباني عبد القادر الجيلاني، فكان كبار علماء بلاد الشام يرحلون إلى بغداد لدراسة الفقه الحنبلي وللاتصال بهذه المدرسة التربوية الفقهية العقيدية، وممن تربوا في هذه المدرسة الحافظ عبد الغني المقدسي الذي دخل بغداد سنة ٥٦٠ هـ مع الموفق ابن قدامة وأكرمهم الشيخ عبد القادر الجيلاني غاية الإكرام [٢].

وهؤلاء المقادسة أبو عمر وأخوه الموفق، وابن خالهم عبد الغني والشيخ العماد كانوا لا ينقطعون عن غزاة يخرج فيها الملك الناصر صلاح الدين إلى بلاد الإفرنج، وقد حضروا معه فتح القدس [٣] وكان لهؤلاء العلماء تأثير عظيم في نفوس المسلمين ودفعهم نحو الجهاد والاستشهاد في سبيل العقيدة ومحاربة العقائد الباطنية الإلحادية العبيدية الإسماعيلية وكشف مخططاتهم وأساليبهم الماكرة.

وكان الواعظ الفقيه الحنبلي الدمشقي علي بن إبراهيم بن نجا، من تلاميذ المدرسة الحنبلية في بغداد، وانضم إلى صلاح الدين، وأصبحت له حظوة عنده، وهو الذي ساعد صلاح الدين في كشف مؤامرة عبيدية انتقامية للقضاء على

---

(١)، (٢)، (٣) أيعيد التاريخ نفسه؟ (ص ٧٠ – ٧٣).

أهل السُنَّة في مصر وإرجاع الدولة العبيدية [(١)] .

وفرح الناس ببلاد الشام بعودة السُنَّة ، قال أبو المظفر الجوزي: «كان الشيخ العماد يحضر مجلسي دائماً ويقول صلاح الدين: يوسف فتح الساحل، وأظهر الإسلام وأنت يوسف أحييت السُنَّة بالشام» [(٢)] .

وكان العماد المقدسي رحمه الله يجلس من الفجر إلى بعد العشاء يعلم الناس القرآن والأحكام ويشرح لهم الإسلام، لقد ساهمت مدرسة الحنابلة السنية في محاربة الجهل، ودحر الرفض، وإحياء السُنة، وإذكاء جذوة الجهاد في نفوس المسلمين.

﴿ ١٠ ﴾ الحملات المتتابعة التي قام بها حكام السلاجقة لاقتلاع جذور الباطنية وإليك ما قام به هؤلاء الأمراء من خدمة جليلة للعالم الإسلامي.

ففي سنة ٤٣٦ هـ قام سلطان بلاد ما وراء النهر بغراخان بحملة مباركة للقضاء على طائفة الإسماعيلية، وبدأ بالقضاء على من دخل بلاده من دعاة العبيديين الذين أرسلتهم الخلافة العبيدية في مصر، فقتلهم كلهم وكتب إلى سائر البلاد بقتل من فيها، وسلمت تلك البلاد منهم [(٣)] بقتل الباطنية، فقام أهل أصبهان بقتل من عندهم يقودهم في ذلك الفقيه الشافعي السني مسعود بن محمد الخجندي.

وفي سنة ٥٠٠ هـ قتل السلطان محمد بن ملكشاه السلجوقي مقتلة عظيمة منهم، وأجلاهم عن قلعة أصبهان بعد حصارها وبعد مخادعة ومخاتلة منهم، وقتل صاحبها ابن غطاش [(٤)] .

---

(١) أيعيد التاريخ نفسه ؟(ص ٧٠ - ٧٣)

(٢) سير أعلام النبلاء(جـ٢٢ ، ٥٠)

(٣) أيعيد التاريخ نفسه ؟(ص ٧٤ - ٧٥)

(٤) الكامل (جـ١٠ / ٤٣٠)

وفي سنة ٥٢٣ هـ حاول الإسماعيلية تسليم دمشق للصليبيين مقابل أن يسلمهم الصليبيون مدينة صور واكتشف أمير دمشق هذه المؤامرة الشنيعة «بوري بن طغتكين» فقتل متولي الإسماعيلية المزوقاني ونادى في البلد بقتل الباطنية فقتل منهم ستة آلاف وكان ذلك في شهر رمضان [١] .

وفي حوادث سنة (٥١١ هـ) قال ابن الأثير:

« علم السلطان محمد » السلجوقي «أن مصالح العباد والبلاد منوطة بمحو آثارهم وإخراب ديارهم وملك حصونهم وقلاعهم وكان في أيامه المقدم عليهم والقيم بأمرهم الحسن بن الصباح الرازي صاحب قلعة ألموت ، وكانت أيامه قد طالت، فقد ملك القلعة ما يقارب ستاً وعشرين سنة وكان المجاورون له في أقبح صورة من كثرة غزاته لهم وقتله رجالهم، فسير السلطان له العساكر بقيادة أنوشكتين ، فملك عدة قلاع منهم، ثم سار إلى قلعة ألموت ، وحاصرهم أشهراً وهم يراوغون لأخذ الأمان وترك القلعة، واستمر هذا القائد في حصارهم، ثم جاء الخبر بوفاة السلطان محمد فتفرق عنه العساكر ولم تفتح القلعة [٢] ، وفي عهد السلطان سنجر (٥٢١هـ) أوقع بالباطنية في «قلعة ألموت» وقتل منهم خلقاً كثيراً » .

إن محو آثار هؤلاء المجرمين أثخنت الدولة العبيدية وساهم في إضعاف المد الباطني في العالم الإسلامي وانحساره .

إن أعمال السلاجقة في تتبع آثار الباطنية لا يستطيع أحد أن يجزيهم عن أعمالهم الجليلة التي خدمت الأمة الإسلامية إلا الكريم المنان الرزاق الفتاح الغفور الرحيم .

---

(١) محمد كرد علي ، خطط الشام (جـ٢ /٣) نقلاً عن كتاب : أيعيد التاريخ نفسه ؟ .

(٢) أيعيد التاريخ نفسه ؟ (ص ٧٥، ٨١).

﴿ ١١ ﴾ ظهور أمراء ربانيين أصحاب ديانة وتقوى ودراية بالحروب وحب للشهادة، وأخص بالذكر الأمير الرباني والقائد الميداني الذي بدأ بجهاد الصليبيين وأعاد الثقة إلى نفوس المسلمين، ووحد مدن الجزيرة والموصل، وبدأ في الزحف على النصارى ينتزع منهم ما أخذوا من الحصون والمدن بقوة الإيمان ومضي الفرسان « الأمير عماد الدين زنكي » الذي استطاع تخليص حلب من يد النصارى في عام ٥٢٢ هـ ،وفي سنة ٥٣٢ هـ جاء الروم بجيش عظيم ومعهم الفرنجة فتحالف عماد الدين زنكي مع سلطان ابن منقذ الكناني حتى ردوا النصارى على أعقابهم خاسرين.

وفي سنة ٥٣٤ هـ جهز زنكي حملاته على الإفرنج، وصبر المسلمين صبراً لم يسمع بمثله إلا ما يحكى عن ليلة الهرير « القادسية » ، ونصر الله المسلمين وهرب ملوك الإفرنج .

وكانت من أعظم أعماله فتح « الرها » في سنة ٥٣٩ هـ وعادت هذه المدينة إلى حكم الإسلام وهي من أشرف المدن عند النصارى ، وسقطت بعدها الحصون القريبة وأخلى ديار الجزيرة من حكم الفرنج وشرهم [١] .

ولم يستطع زنكي إتمام هذه المرحلة، فقد قتل وهو يحاصر قلعة « جعبر » التي تقع على نهر الفرات في إقليم الجزيرة، وكان رحمه الله من خيار الملوك وأحسنهم سيرة، وكان شجاعاً مقداماً حازماً مدحته الشعراء في أعماله، وتوفي عام ٥٤١ هـ مقتولاً .

ومما مدحه من الشعراء في أعماله ما قام به الأمير زنكي في رد ملك الروم عندما زحف على شيزر .

---

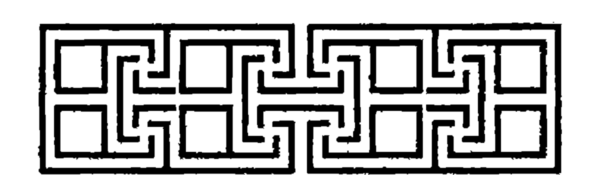
(١) أيعيد التاريخ نفسه ؟(ص ٧٥ ، ٨١) .

حيث قال المسلم بن خضر بن قسيم الحموي من قصيدة أولها:

بعزمك أيها الملك العظيم تذل لك الصعاب وتستقيم

ومنها:

ألم تر أن كلب الروم لما تبين أن الملك الرحيم
فجاء يطبق الفلوات خيلاً كأن الجحفل الليلُ البهيمُ
وقد نزل الزمان على رضاه ودان لخطبه الخطب العظيم
فحين رميته بك في خميس تيقن أن ذلك لا يدوم
وأبصر في المفاضة منك جيشاً فأحرب لا يسير ولا يقيم
كأنك في العجاج شهاب نور توقد وهو شيطان رجيم
أراد بقاء مُهجته فولّى وليس سوى الحمام له حميم (١)



(١) الكامل(جـ٧ / ٢١ ، ٢٢) .

المبحث الثاني

نور الدين محمود

تولى أمور الدولة الزنكية بعد وفاة عماد الدين زنكي ابنه نور الدين، الذي نشأ مع والده في العراق ثم الموصل وبلاد الشام. وبعد وفاة والده قام مقامه وأظهر السُنَّة في حلب وغير البدعة وقمع الرافضة، وبنى المدارس وأوقف الأوقاف وأظهر العدل، وكان كثير المطالعة للكتب الدينية متبعاً للآثار النبوية، مواظباً على الصلوات في الجماعات، عاكفاً على تلاوة القرآن، عفيف البطن والفرج، مقتصداً في الإنفاق، متحرياً في المطاعم والملابس، لم تسمع منه كلمة فحش[١] .

وقال ابن الأثير- رحمه الله -:

« طالعت تواريخ الملوك المتقدمين قبل الإسلام وبعده إلى يومنا هذا فلم أر بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز أحسن سيرة منه »[٢] .

ومن زهده وتقواه أنه كان لا يأكل ولا يلبس إلا من ملك كان له اشتراه من سهمه من الغنيمة، ومن الأموال المرصدة لمصالح المسلمين، وقد شكت إليه زوجته الضائقة وزيادة النفقة فاحمر وجهه وقال: « من أين أعطيها ما يكفيها والله لا أخوض نار جهنم في هواها، ثم قال: لي بمدينة حمص ثلاثة دكاكين ملكاً، وقد وهبتها إياها فلتأخذها »[٣] .

وقال ابن الأثير- رحمه الله -: « وكان يصلي كثيراً من الليل ويدعو ويستغفر ولا يزال كذلك إلى أن يركب ».

جمع الشجاعة والخشوع لربه ... ما أحسن المحراب في المحراب[٤]

---

(١) الروضتين في أخبار الدولتين (جـ١ / ٥) .

(٢)، (٣)، (٤) الكامل (جـ٧ / ٢٤٢) .

وكان عارفاً بالفقه على مذهب أبي حنيفة، وليس عنده تعصب، بل الإنصاف سجيته في كل شيء، وعلى الحقيقة فهو الذي جدد للملوك اتباع سُنة العدل والإنصاف، وترك المحرمات من المأكل والمشرب والملبس، فإنهم كانوا قبل ذلك كالجاهلية همة أحدهم بطنه وفرجه، لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً، وأما عدله فإنه كان أحسن الملوك سيرة، فلم يترك في بلاده ضريبة ولا مكساً ولا غشاً، بل منعها رحمه الله جميعاً في بلاد الشام والجزيرة ومصر [١].

ومن عدله أنه بنى داراً للعدل، وكان سبب بنائها أن أمراءه وقواد جيوشه تعدوا على من يجاورهم، فكثرت الشكاوى إلى القاضي كمال الدين، فأنصف بعضهم ولم يتجرأ على القائد أسد الدين شيركوه، فلما سمع نور الدين بذلك بنى هذه الدار وأحس أسد الدين بهذا فقال لنوابه: « والله لئن أحضرت إلى دار العدل بسبب أحدكم لأصلبنه، فامضوا إلى كل من بينكم وبينه منازعة فأرضوه وافصلوا الحال معه، فقالوا: إذا فعلنا هذا فإن الناس يشتطون في الطلب، فقال: خروج أملاكي عن يدي اسهل علي من أن يراني نور الدين بعين ظالم، وكان نور الدين يجلس في هذه الدار يومين في الأسبوع، فلما علم ما حصل مع أسد الدين شيركوه سجد لله شكراً ».

وكان فعاله في بلاد الإسلام من المصالح كثيرة، فقد بنى أسوار مدن الشام جميعها وأحكم بناءها، وبنى المدارس بحلب وحماة ودمشق وكان أهل الدين عنده في أعلى محل. وكان أمراؤه يحسدونهم على ذلك، فقد ذكر أحد الأمراء الشيخ قطب الدين النيسابوري أمام نور الدين فقال له السلطان: يا هذا الذي تتكلم عليه فله حسنة تغفر كل زلة وهي العلم والدين، وأما أنت وأصحابك ففيكم أضعاف ما ذكرت، وليست لكم حسنة تغفرها، وأنا أحمل سيئاتكم مع

---

(١) **انظر**: الروضتين (جـ١ / ٦).

عدم حسناتكم، أفلا أحمل سيئة هذا - إن صحت - مع وجود حسناته، على أنني والله لا أصدقك فيما تقول، وإن عدت وذكرته بسوء لأؤدبنك (١) .

ومن عفته وتقواه أن ما كان يُهدى إليه من هدايا الملوك لا يتصرف في شيء منه لا قليل ولا كثير، بل يخرجه إلى مجلس القاضي، ويحصل ثمنه ويصرفه في عمارة المساجد المهجورة (٢) ، وكان نور الدين رحمه الله يتقبل النقد بصدر رحب مهما بلغت شدته، ومن ذلك ما فعله الواعظ أبو عثمان المنتخب بن أبي محمد الواسطي - كان من صالحي زمانه - تناول نقداً للدولة الزنكية في أخذها الضرائب والمكوس في حضور نور الدين نفسه ، فحذره وخوفه مما هو فيه ، **وقال لنور الدين هذه القصيدة:**

مثل وقوفك أيها المغرور ... يوم القيامة والسماء تمور
إن قيل نور الدين رحت مسلماً ... فاحذر بأن تبقى ومالك نور
أنهيت عن شرب الخمور وأنت في ... كأس المظالم طائش مخمور
عطلّت كاسات المدام تعففاً ... وعليك كاسات الحرام تدور
ماذا تقول إذا وقفت إلى البلى ... فرداً وجاءك منكرٌ ونكير
وتعلقت فيك الخصوم وأنت في ... يوم الحساب مسلسل مجرور
وتفرقت عنك الجنود وأنت في ... ضيق القبور موسد مقبور
وودت أنك ما وليت ولاية ... يوماً ولا قال الأنام أمير
وبقيت بعد العز رهن حفُيرة ... في عالم الموت وأنت حقير
وحسرت عرياناً حزيناً باكياً ... قلقاً ومالك في الأنام مجير

---

(١) الروضتين في أخبار الدولتين (جـ١ / ٨ ، ٩) .
(٢) أيعيد التاريخ نفسه ؟ (ص ٨٣) .

أرضيت أن تحيا وقلبك دراس عافي الخراب وجسمك المعمور
أرضيت أن يحظى سواك بقربه أبداً وأنت معذب مهجور
مهد لنفسك حجة تنجو بها يوم المعاد يوم تبدو العور

فلما سمع نور الدين هذه الأبيات بكي بكاءً شديداً، وأمر بوضع المكوس والضرائب في سائر البلاد [١].

وكتب إلى الناس ليكون منهم في حل مما كان أخذ منهم، ويقول لهم: إنما صرف ذلك في قتال أعدائكم من الكفرة والذب عن بلادكم ونسائكم وأولادكم وكتب بذلك إلى سائر ممالكه وبلدان سلطانه، وأمر الوعاظ أن يستحلوا له من التجار، وكان يقول في سجوده: اللهم ارحم المكاس العشار الظالم محمود الكلب [٢].

وكان رحمه الله يحارب روح التزلف والنفاق للمسئولين، فمن ذلك أنه منع خطباء المساجد الذين يبالغون في الدعاء له ويصفونه بالعبارات الرنانة التي تعودوا أن يتقربوا بها إلى قلوب السلاطين، فطلب إلى خالد بن محمد بن نصر القيسراني أن يوقف ذلك، وأن يكتب له صيغة دعاء بسيط تطابق الواقع بأحواله وأفعاله، فكتب له الصيغة التالية:

« اللهم أصلح عبدك الفقير إلى رحمتك، الخاضع لهيبتك، المعتصم بقوتك، المجاهد في سبيلك، المرابط لأعداء دينك: أبا القاسم محمود بن زنكي بن آق سنقر ناصر أمير المؤمنين ».

فقرأ نور الدين نسخة الدعاء وعلق عليها العبارة التالية: « مقصودي ألا يكذب على المنبر، أنا بخلاف كل ما يقال أأفرح بما لا أعمل؟! قلة عقل عظيم، الذي كتبت هو جيد اكتب به نسخاً حتى نسيره إلى جميع البلاد » ثم أضاف:

---

(١) **انظر**: البداية والنهاية (١٢/٣٠٢).
(٢) **انظر**: د. حسين مؤنس، نور الدين محمود (ص ٤٠٠، ٤٠١).

« ثم يبدأ بالدعاء : اللهم أره الحق حقاً ، اللهم أسعده ، اللهم انصره ، اللهم فقهه... من هذا الجنس » (١) .

وعندما طلب من نور الدين أن يسمح للأمراء أن يعلموا بنوع من السياسة لأن المفسدين وقطاع الطرق قد كثروا ويحتاج إلى نوع من السياسة، ومثل هذا لايجيء إلا بقتل وصلب وضرب، وإذا أخذ مال إنسان في البرية من يجيء ليشهد له ؟.

فلما وصل الكتاب إلى نور الدين قلبه وكتب على ظهره: « إن الله تعالى يخلق الخلق وهو أعلم بمصلحتهم، وإن مصلحتهم تحصل فيما شرعه على وجه الكمال، ولو علم أن على الشريعة زيادة في المصلحة لشرعه لنا، فما لنا حاجة إلى زيادة على ما شرعه الله تعالى، فمن زاد فقد زعم أن الشريعة ناقصة فهو يكملها بزيادته، وهذا من الجرأة على الله وشرعه، والعقول المظلمة لا تهدي فالله سبحانه وتعالى يهدينا إلى الكتاب وإلى الصراط المستقيم، وكان الذي طلب من السلطان نور الدين الشيخ عمر الملا بطلب من الأمراء ، فلما وصل رد السلطان إلى الشيخ عمر جمع أهل الموصل وقرأ عليهم الكتاب وقال: « انظروا في كتاب الزاهد إلى الملك ، وكتاب الملك إلى الزاهد » (٢) .

هذا الذي ذكرت بعض سيرة السلطان نور الدين محمود ليعلم القارئ أن الذي يكرمه الله بنصره وتأييده لابد أن يكون ربانياً موصولاً بالله تعالى.

وكانت سياسة دولة نور الدين محمود لها أهداف رسمتها وسعت سعياً حثيثاً لتحقيقها ، ومن أهم تلك الأهداف تلك الأهداف الواضحة المعالم:

أولاً: إعداد الشعب إسلامياً وتطهير الحياة الدينية والثقافية من التيارات الفكرية المنحرفة كالباطنية وآثار الفلسفة اليونانية، والممارسات العبيدية

(١) المصدر السابق (ص ٤٤٠ ، ٤٠١).
(٢) ابن القاضي شهبة ، الكواكب الدرية (ص ٢٥ ، ٢٦).

للعبادات والشعائر، ولهذا الهدف النبيل عمدت الدولة إلى بناء المدارس ودور القرآن ودور الحديث، واستقدمت مشاهير العلماء وفرغتهم للدعوة والتعليم والتربية، وخاصة الذين تخرجوا من المدرستين التربويتين الغزالية والقادرية وانصبت الخطة التعليمية التربوية في زمن السلطان نور الدين محمود على صياغة الجماهير المسلمة بما يتفق مع أهداف الإسلام على أسس عقدية واضحة المعالم، وكانت محاضن هذا الإعداد في المدارس والمساجد، وكان في دمشق وحدها أكثر من مائة مسجد وركزت تلك الانطلاقة العلمية التربوية على بث روح الإسلام ذات المفاهيم السنية والطريقة النبوية، واستهدفت تجفيف وحسر التعاليم والمذاهب الإسماعيلية والفلسفية التي تركت آثاراً عميقة في عقائد السكان وعاداتهم ومواقفهم السياسية والاجتماعية، و التي من أجلها وصفهم ابن جبير بأنهم لا إسلام لهم، وأنهم أهل أهواء وبدع إلا من رحم الله، ومنعت الدولة الزنكية كل المظاهر العبيدية في البلدان التي ضمتها إلى أملاكها، فمنعت من الأذان «حي على خير العمل» والتظاهر بسب الصحابة ، وأنكرت ذلك إنكاراً شديداً ، ووقف علماء أهل السُنَّة مع الدولة كجنود لها مخلصين، وعظم الخطب على طائفة الإسماعيلية الباطنية العبيدية وأهل التشيع عموماً، وضاقت صدورهم وهاجوا وماجوا، ثم سكتوا وأحجموا للخوف من سطوة الدولة الزنكية السنية [١] وكان الفقيه الشافعي قطب الدين محمود، وكذلك ابن الشيخ أبي النجيب الأكبر البغدادي كان من أعمدة الدولة الزنكية ، وانضم إلى الدولة النورية من أصبهان شرف الدين عبد المؤمن بن شوردة .

وأوضح السلطان نور الدين سياسة الدولة التعليمية بقوله: « ما أردنا ببناء المدارس إلا نشر العلم ودحض البدع من هذه البلدة وإظهار الدين» .

---

(١) **انظر** : بدر الدين بن قاضي شهبة ، الكواكب الدرية ، تحقيق : محمود زايد ، بيروت ، دار الكتاب الجديدة ١٩٧١م .

وتبارى الوزراء والقادة والأغنياء والرجال والنساء في إنفاق أموالهم في بناء المدارس والمؤسسات التعليمية وتوفير الفرصة لأفراد الأمة لدخولها والاستفادة منها .

وكانت جماهير المسلمين العريضة من العمال والمزراعين والتجار مستهدفة من قبل الدولة الزنكية، فلم تترك إرشادهم وتوجيههم فزرعت في نفوسهم العقيدة والأخلاق والقيم، وكان للتصرف المعتدل بقيادة الشيخ عبد القادر الجيلاني أثر واضح في نفوس الجماهير، واستفادت الدولة الزنكية من الحركة الصوفية الإصلاحية القادرية، فأقامت لهم الأربطة والزوايا، واحترمت شيوخهم واستقدمتهم وهذبت الجماهير وزكتهم وفق خطة الدولة المرسومة، واهتمت الدولة بالإعداد العسكري إلى جانب التعليم والإرشاد والتربية، ودربت كافة أتباعها تدريباً عسكرياً وبثت روح الجهاد في صفوفهم .

وكان التدريب يقوم على دعامتين :

[١] الإعداد المعنوي والروحي .

[٢] ثم التدريب العسكري وألف زعيم الدولة الزنكية السلطان نور الدين محمود كتاباً في الجهاد .

وتكاملت جهود العلماء والفقهاء والمربين والقادة والزعماء في داخل مؤسسات الدولة المتعددة، وسعت في تحقيق برامج الدولة النورية السنية .

وبسبب هذا التكامل والوفاق أصبحت الدولة النورية قطباً جذاباً لكافة العلماء والشيوخ فهاجروا إليها من كافة بقاع العالم الإسلامي، وانضووا تحت لوائها الإسلامي المجيد، وتجاوز عددهم الآلاف، واستفادت الدولة منهم وفق برامجها وتذكر كتب التاريخ أسماء الآلاف من المدارس ودور القرآن والحديث والأربطة والزوايا التي تضافرت فيها الجهود المذكورة، وأصبحت الدولة الزنكية بقيادة السلطان نور الدين تشرف على كافة الخطط والبرامج المرسومة التي بدأت تعطي ثمارها بتغيير البنية القديمة لبلاد الشام، ونشأ جيل التغيير الفعلي،

وسيطرت الروح الإسلامية لدى هيئات المجتمع وأفراده، ووجهت نشاطاتهم في جميع ميادين الحياة القائمة، وأصبح التغيير تغير أمة، وتحققت سُنة الله الجارية فيهم (١) ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ....** ﴾ [الرعد: ١١].

ثانياً: استطاعت الدولة الزنكية أن تصبغ الإدارة بالصبغة الإسلامية وأن تدمج القيادات السياسية والفكرية بالمفاهيم والأحكام الشرعية.

فكان رجال نور الدين ومعاونوه وقادة جيشه على مستوى راق من العلم والأخلاق، ومن أمثلة ذلك وزيره أبو الفضل محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزوري، فقد كان فقيهاً أصولياً شغل مناصب مختلفة ، منها السفارة والوزارة وناظر الأوقاف وناظر المالية والقضاء، واستمر على ذلك حتى قيادة صلاح الدين (٢) .

ومنهم عبد الله بن محمد بن أبي عصرون الذي شغل منصب قاضي دمشق وناظر الأوقاف (٣) وكذلك كان صلاح الدين فقيهاً درس الفقه الشافعي، وسمع الحديث من أبي طاهر السلفي وغيره، روى الحديث عنه أناس مثل يونس بن محمد الفرقي والعماد الكاتب وغيرهم، ويقال: إنه كان يحفظ القرآن و« التنبيه » في الفقه و« الحماسة » في الشعر (٤) .

ومثله وزيره الشهير وكاتبه ومستشاره القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي والذي قال صلاح الدين عنه: لم أفتح البلاد بسيفي وإنما برأي القاضي الفاضل، وكان القاضي الفاضل يجمع إلى حكنته السياسية ورعاً فائقاً، فكان كثير الصيام والصلاة وقراءة القرآن، وكان متواضعاً يكُثر عيادة المرضى والإحسان للفقراء، لقد أظهر هذا الرعيل من صنوف المهارات في التخطيط والتنفيذ وحشد مقدرات

---

(١) **انظر** : هكذا ظهر جيل صلاح الدين ، (ص ٢١٥ – ٢١٧) .

(٢) **انظر** : السبكي ، طبقات الشافعية (جـ٦ ، ١٨٨) .

(٣) **انظر** : السبكي ، طبقات الشافعية (جـ٤ ، ٢٣٧) .

(٤) المصدر السابق (جـ٧ / ٣٤) .

الأمة وتنظيمها ما هيأها لمجابهة التحديات في الداخل والخارج .

ومن أمثلة المهارات والمزايا ما يلي :

الأولى : تكامل القيادات الفكرية والسياسية، فقد أدركت هذه القيادات خطورة الارتجال أو انفراد فريق من القيادات الفكرية دون الآخر، واعتمدت في القرارات التي تتخذها على آراء العلماء والمختصين، فكان لدى نور الدين مجلس دوري يلتقي فيه القادة والعسكريون مع العلماء المختصين حيث يحتل العلماء المختصون المنزلة الأولى فيه (١) .

الثانية : اعتماد الشورى وعدم الانفراد باتخاذ القرارات، ولقد تميزت إدارة نور الدين بالشورى، وتبادل الآراء في كل أمور الدولة، فكان له مجلس فقهاء يتألف من ممثلي سائر المذاهب والصوفية، يبحث في الإدارة والميزانية، فإذا بحث أمراً يخص الأمة جميعها، أو كان ذا علاقة بالأموال المرصودة لصالح المسلمين جمع أعضاء هذا المجلس وشاورهم فيه، وسأل كل عضو ما عنده من الفقه، ولا يتعدى الرأي الذي يتفق عليه، ومن ذلك ما حدث في قلعة دمشق في (١٩ صفر عام ٥٥٤ هـ ١١ يوليو سنة ١١٤٩ م) حين عقد نور الدين مجلساً دعا إليه القضاة وكبار رجال الدولة ونفراً من الأعيان وشهود العدالة للنظر في الأوقاف المرصودة للجامع الأموي، وكان شيوخ الجامع فيما مضى قد أدخلوا في أوقاف الجامع عقارات وأعياناً أخرى داخلة في المنافع العامة، فأحب نور الدين أن يفصل هذه عن تلك، لكي يستخدم أموال المنافع في التحصينات العسكرية في الثغور وبناء سور دمشق لصيانة المسلمين وأموالهم، لأن هذا من «أهم المصالح» عند نور الدين، وأقر المجلس رأياً يخالف ما أراده نور الدين ولم يأذنوا له بصرف «فواضل الأوقاف في عمارة الأسوار وعمل الخندق للمصلحة المتوجهة على المسلمين،

---

(١) هكذا ظهر جيل صلاح الدين ، (ص ٢٢٥) .

وأجازوا له أن يأخذ قرضاً من هذه الفواضل يستخدمه في تلك المصلحة على أن يرده من بيت المال، ومع شدة حاجة نور الدين إلى المال لمطالب الحرب وأعمال الدفاع في ذلك الحين فإنه قبل رأي المجلس بنفس راضية، ولم يمس أوقاف الجامع الكثيرة احتراماً للرأي وتكريماً للدين ورجاله» [١].

الثالثة: من الميزات التي ميزت تلك الإدارة هي غلبة المصلحة العامة على الانفعالات والمصالح الشخصية في معالجة المشكلات التي قد تثور بين الأقران.

الرابعة: التفاني في أداء الواجب المقدس بتعاون وتآخ إسلامي رفيع ابتغاء مرضاة الله، وكان تعلقهم بالدين والشرع شيء يدل على تربية عالية ومن حبهم لدينهم جعل الأمراء والحكام والسلاطين يتخيرون أسماء تدل على ذلك: عماد الدين، سيف الدين، معين الدين، نور الدين، صلاح الدين، أسد الدين، نجم الدين، وزين الدين، وكان البويهيون الشيعة من حبهم للدنيا يسمون: عضد الدولة بهاء الدولة، صمام الدولة.

وكان أمراء وحكام الدولة النورية يحبون الموت في سبيل الله في ساحات الوغى، وإذا تعذر ذلك كتبوا في وصيتهم أن يدفنوا في المدينة النبوية، فعل ذلك جمال الدين الموصلي، وأسد الدين شيركوه، وأخوه نجم الدين والد صلاح الدين [٢].

توحيد بلاد الشام والديار المصرية:

كانت سياسة نور الدين محمود الرشيدة تسعى لتوحيد المسلمين تحت قيادة واحدة ومنهج أصيل فاستطاع أن يضم دمشق مع حلب والرها وغيرها من المدن الإسلامية التي حررها المسلمون بقوة السيف وحب الشهادة، وبدأ نور الدين في زحفه على حصون النصارى ومدنهم الواقعة بين مصر والشام، وكانت رغبة نور

---

(١) د. حسين مؤنس، نور الدين محمود (ص ٤٠٤ - ٤٠٥).

(٢) البداية والنهاية (جـ١٢ / ٢٧٢).

الدين في تخليص بلاد مصر من العبيديين الباطنيين الحاقدين حلفاء النصارى أمنية غالية ومطلباً شرعياً رفيعاً فأرسل إلى مصر علماء وفقهاء ووعاظ لدعوة الناس، وتهيئة الرأي العام للفتح السني المجيد، وتخليص البلاد من نتن الروافض البغيض، ومن أشهر العلماء الذين قاموا بهذا الدور محمد بن الموفق الخبوشاني الذي دخل مصر في عام ٥٦٠ هـ وبدأ يبشر بالإسلام الصحيح، ويلعن العبيديين، ويصفهم بالزندقة واليهودية، وتطاير الركبان بأخباره في أنحاء العالم الإسلامي [١].

وكانت الدولة النورية السنية تتحين الفرصة للدخول العسكري إلى مصر وجاءت الفرصة المناسبة عندما اختلف حكام مصر العبيديين فيما بينهم من أجل مصالحهم الدنيوية، فاستنجد الوزير شاور بنور الدين محمود، والقائد ضرغام بن ثعلبة بالصليبيين.

واحتدم الصراع ومر بمراحل حتى استطاع أسد الدين شيركوه الذي أرسله نور الدين إلى مصر أن يُحْكم قبضته، واستقر الأمر لنور الدين في عام ٥٦٤ هـ عندما تولى أمر مصر صلاح الدين بعد عمه أسد الدين، وتدرج صلاح الدين في القضاء على الدولة العبيدية في مصر، وإعادة السُنَّة فيها ووحد الصفوف الإسلامية لفتح بيت المقدس.

وفاة نور الدين محمود - رحمه الله - :

في عام ٥٦٩ هـ [٢] انتقل إلى رحمة الله السلطان السُني الغيور المخلص المجاهد مميت البدعة ومحيي السُنَّة وهازم النصارى وناصر الدين السلطان نور الدين محمود بعد جهاد عظيم، وعمل جليل، وتفان نادر، وخدمة للدين، وتقدم تلميذه المخلص الذي تربى على يديه واختاره لقيادة الجيوش السلطان صلاح الدين الأيوبي.

---

(١) انظر : هكذا ظهر جيل صلاح الدين (ص ٢٦٢).

(٢) البداية والنهاية (جـ١٢ / ٣٩٧).

المبحث الثالث

صلاح الدين الأيوبي محرر القدس ومزيل دولة العبيديين من مصر

ولد السلطان يوسف بن أيوب سنة ٥٣٢ هـ بقلعة تكريت في العراق، وكان والده أيوب بن شادي والياً عليها، ثم انتقل الوالد إلى الموصل ومعه أخوه أسد الدين شيركوه، وتربى الشبل الأيوبي في كنف والده وعمه المجاهدين، وبدأ يترقى في كتائب المجاهدين، وانتدب لمرافقة عمه أسد الدين عندما أرسل نور الدين محمود إلى مصر، وتسلم منصب وزارة التفويض بعد وفاة عمه في نهاية الدولة العبيدية، وبدأ في إرجاع مصر للخلافة السنية العباسية متدرجاً في تنفيذ هدفه النبيل، والذي اشتاقت إليه نفوس المسلمين، فعزل قضاة مصر الروافض العبيديين، وأسند أمر القضاء إلى عبد الملك بن درباس الشافعي، وقطع الأذان بـ «حي على خير العمل» وأقام الخطبة للخليفة العباسي بعد أن انقطعت الخطبة للعباسيين بمصر ٢٠٨ سنة، وبشر نور الدين محمود الخليفة العباسي بذلك، وفرح الناس، وقضى صلاح الدين على كل المحاولات الفاشلة لإرجاع مصر للخلافة العبيدية، وأحسن إلى الرعايا إحساناً كثيراً.

وقال العماد الأصبهاني في رجوع مصر للخلافة العباسية أبياتاً شعرية رائعة ، بعد وفاة العاضد العبيدي وزوال ملكه ودولته من مصر :

توفي العاضد الدعي مما	يفتح ذو بدعة بمصر فما
وعصر فرعونها انقضى وغدا	يوسفها في الأمور محتكما
قد طفئت جمرة الغواة وقد	داخ من الشرك كل ما اضطرما
وصار شملُ الصلاح ملتئمًا	بها وعقدُ السداد منتظما

لما غدا مشعراً شعار بني العباس حقاً والباطل اكتتما
وبات داعي التوحيد منتظراً ومن دعاة الإشراك منتقما
وظل أهل الضلال في ظلل داحية من عبائة وعمى
وارتكس الجاهلون في ظلم لما أضاءت منابرُ العلما
وعاد بالمستضيء معتلياً ببناء حقٍّ بعدما كان منهدما
أعيدت الدولة التي اضطهدت وانتصر الدين بعدما كان اهتفما
واهتزَّ عطف الإسلام من جلل وافتر يغر الإسلام وابتسما
واستبشرت أوجه الهدى فرحاً فليقرع الكفر سنة ندما
عاد حريم الأعداء منتهك الهوى وفي الطغاة منقسما
قصور أهل القصور أخربها عامر بيتٍ من الكمال سما
أزعج بعد السكوت ساكنها ومات ذلاً وأنفهُ رغما [(١)]

وكان سقوط الدولة العبيدية سنة ٥٦٧ هـ، وقال ابن كثير في ذلك: «قد كانت مدة ملك الفاطميين مائتين سنة وكسراً، فصاروا كأمس الذاهب: ﴿ **كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا** ﴾ [هود: ٩٥].

وكان أول من ملك منهم المهدي، وكان من سلمية حداداً سمه عبيد، وكان يهودياً، فدخل بلاد المغرب وتسمى بعبيد الله، وادعى أنه شريف علوي فاطمي، وقال عن نفسه إنه المهدي، كما ذكر ذلك غير واحد من العلماء والأئمة بعد الأربعمائة والمقصود أن هذا الدعي الكذاب راج له ما افتراه في تلك البلاد، وآزره جماعة من الجهلة، وصارت له دولة وصولة، ثم تمكن إلى أن بنى مدينة سماها المهدية نسبة إليه، وصار ملكاً مطاعاً، يظهر الرفض وينطوي على الكفر المحض، ثم كان من بعده ابنه القائم محمد، ثم ابنه المنصور إسماعيل، ثم ابنه معد، وهو أول من دخل ديار مصر منهم، وبنيت له القاهرة المعزية والقصران، ثم ابنه العزيز

(١) البداية والنهاية (جـ١٢ / ٢٨٤).

نزار، ثم ابنه الحاكم المنصور، ثم ابن الطاهر علي، ثم ابنه المستنصر معد، ثم ابنه المستعلي أحمد، ثم ابنه الآمر منصور، ثم ابن عمه الحافظ عبد المجيد، ثم ابنه الظافر إسماعيل، ثم الفائز عيسى، ثم ابن عمه العاضد عبد الله وهو آخرهم، فجملتهم أربعة عشر ملكاً، مدتهم مائتان ونيف وثمانون سنة، وكذلك عدد بني أمية أربعة عشر أيضاً ولكن مدتهم نيفاً وثمانين سنة إلى أن قال»...

وقد كان الفاطميون أغنى الخلفاء وأكثرهم مالاً، وكانوا من أغنى الخلفاء وأجبرهم وأظلمهم، وأنجس الملوك سيرة، وأخبثهم سريرة، وظهرت في دولتهم البدع والمنكرات وكثر أهل الفساد، وقل عندهم الصالحون من العلماء والعباد، وكثرت بأرض الشام النصيرية والدرزية والحشيشية، وتغلب الفرنج على سواحل الشام بكامله، حتى أخذوا القدس ونابلس وعجلون والغور وبلاد غزة وعسقلان وكرك والشوبك وطبرية وبانياس وصور وعكا وصيدا وبيروت وصفد، وكل هذه البلاد كان الصحابة قد فتحوها وصارت دار إسلام، وأخذوا من أموال المسلمين ما لا يحد ولا يوصف ، وكادوا أن يتغلبوا على دمشق ولكن الله سلم ، وحين زالت أيامهم وانتقض إبرامهم أعاد الله عز وجل هذه البلاد كلها إلى المسلمين بحوله وقوته وجوده ورحمته (١) .

وقد مدح علماء أهل السُنَّة وفقهاؤهم وحكامهم هذا الفعل الجميل لصلاح الدين ، ألا وهو القضاء على دولة العبيديين الرافضية الباطنية ، **وأكثر الشعراء القصائد في مدح صلاح الدين فقال بعضهم:**

أبدتم من بلى دولة الكفر من ... بني عبيد بمصر إن هذا هو الفضل

زنادقة شيعية باطنية مجوس ... وما في الصالحين لهم أصل

يُسرُّون كفراً يظهرون تشيعاً ... ليستروا سابور عمهم الجهل (٢) .

(١) البداية والنهاية (جـ ١٢ / ٢٨٧) .

(٢) البداية والنهاية (جـ ١٢ / ٢٨٨) .

إن نور الدين محمود كان يرى إزالة الدولة العبيدية هدفاً إستراتيجيًّا للقضاء على الوجود النصراني، والنفوذ الباطني في بلاد الشام، ولذلك حرص على إعادة مصر للحكم الإسلامي الصحيح، فوضع الخطط اللازمة وأعد الجيوش المطلوبة وعين الأمراء ذوي الكفاءة المنشودة، فتمم الله له ما أراد على يد جنديه المخلص صلاح الدين الذي نفذ سياسة نور الدين الحكيمة الرشيدة.

وبعد أن استقرت أمور البلاد والعباد في بلاد مصر، وأُزيلت البدعة، وأُحييت السُّنَّة، وأميتت الفتنة، وانتقل نور الدين إلى ربه الغفور الرحيم، آل الأمر إلى صلاح الدين بعد فتن استطاع أن يقضي عليها، ووحد بلاد الشام ومصر تحت زعامته الفتية، وشرع في تنفيذ الأهداف المرسومة للدولة النورية.

وكان من أهداف نور الدين العظيمة تحرير ديار المسلمين من النصارى وتحرير بيت المقدس، حتى إنه هيأ منبراً عظيماً لهذه الغاية، ولكنه مات قبل تحقيق هذا الهدف الغالي الذي ادخره الله لصلاح الدين، فعزم صلاح الدين على مواصلة حركة الجهاد المقدس، وفك الحصون والمدن من النصارى بالقوة بخطة واضحة محكمة، فانتصر على الفرنجة في موقعة «مرج العيون» سنة ٥٧٥ هـ وموقعة «بانياس» وأسر رؤساءهم ودمر حصن الأحزان في صفد، وما زال يناوش الفرنجة وينتزع منهم الحصون حصناً بعد حصن حتى تجمع عنده جيش كبير في سهل حطين، حيث كانت الموقعة الكبرى التي كسرت عظام الصليبيين ومهدت لفتح القدس، وقد أسر وقتل معظم من حضرها من الفرنجة: «فمن شاهد القتلى قال: ما هناك أسير، ومن عاين الأسرى قال: ما هنالك من قتيل، ومنذ استولى الفرنج على ساحل الشام ما شفى للمسلمين كيوم حطين غليل» [(١)].

وكان من الأسرى صاحب الكرك «أرناط» الذى كان يؤذي الحجاج سب رسول

(١) انظر: الروضتين (٢/ ٧٨).

الله ﷺ ، وكان قد وصل صلاح الدين ذلك فنذر لله ليقتلنه بنفسه حمية لدينه وحباً لرسوله ﷺ فقتله صلاح الدين بنفسه ووفى بنذره وخلص المسلمين من شره.

وكانت موقعة حطين سنة ٥٨٣ هـوركب الصليبيين النصارى غم وهم وحزن ورعب وزحفت جيوش الناصر صلاح الدين تحرر مدن المسلمين، وتذل النصارى الحاقدين، وتخلص أسرى المسلمين من الأسر الذي طال أمده، وأرسل السلطان صلاح الدين أعيان الفرنج ومن لم يقتل من رءوسهم، وبصليبهم الذي كانوا يحملونه في حروبهم ويزعمون أن المسيح عليه السلام صلب عليه والمسمى عندهم صليب الصلبوت بصحبة القاضي ابن أبي عصرون إلى دمشق لِيُودَعَ في قلعتها، فدخل الصليب منكساً وكان يوماً مشهوداً.

وسار السلطان إلى قلاع النصارى ومدنهم فحرر قلعة طبرية، ثم خلص عكا من النصارى وفك أسرى المسلمين منها وكانوا أربعة آلاف مسلم ثم صيدا وبيروت ثم عسقلان ونابلس ثم بيسان وأرض الغور، فملك ذلك كله.

وأمر السلطان جيوشه أن ترتاح في هذه الأماكن وتستعد لفتح القدس وطار في الناس الخبر، وعلموا عزم السلطان على ذلك فقصده العلماء والصالحون من أماكن عديدة تطوعاً، وجاءوا إليه كجنود في خدمته الميمونة [١].

وحين وبدأت بشائر التحرير بزحف جيوش صلاح الدين نحو بيت المقدس وصلته رسالة من أحد المأسورين في القدس فيها أبيات على لسان المسجد الأقصى:

يا أيها الملك الذي ... لمعالم الصلبان نكس
جاءت إليك ظلامة ... تسعى من البيت المقدس
كل المساجد طهرت ... وأنا على شرفي منجس [٢]

---

(١) انظر: الروضتين (٢/ ٧٨).
(٢) انظر: صلاح الدين بطل حطين، لعبد الله علوان (ص ٧٥).

وبعد اشتداد الحصار على النصارى طلبوا الأمان ونزل حاكم الرملة بلبان بن بيرزان يترقق للسلطان وذل ذلاً عظيماً، فأجابهم صلاح الدين ودخل المسلمون القدس ووفوا بالصلح المضروب مع النصارى، وشرعوا في تنظيف المسجد الأقصى مما كان فيه من الصلبان والرهبان والخنازير، وأعيد غسلها بماء الورد والمسك الفاخر، وأبرزت للناظرين، وقد كانت مستورة مخبوءة عن الزائرين، ووضع الصليب عن قبتها وعادت إلى حرمتها، وامتن السلطان صلاح الدين على بنات الملوك ومن معهن من النساء والصبيان والرجال، ووقعت المسامحة في كثير منهم وشفع في أناس كثيرين فعفا عنهم ، وفرق السلطان جميع ما قبض منهم من الذهب في العسكر، ولم يأخذ منه شيئاً مما يقتنى ويدخر ، وكان رحمه الله كريماً مقداماً شجاعاً حليماً (١) وكان ذلك في عام ٥٨٣ هـ من شهر رجب وذكر ابن كثير رحمه الله أول خطبة ألقيت في بيت المقدس فقال: «لما تطهر بيت المقدس مما كان فيه من الصلبان والنواقيس والرهبان والقسس، ودخله أهل الإيمان، ونودي بالأذان وقرئ القرآن ووحد الرحمن، وكانت أول جمعة أقيمت في اليوم الرابع من شعبان، بعد يوم الفتح بثمان، (٢) فصف المنبر إلى جانب المحراب ، وبسطت البسط وعلقت القناديل وتلي التنزيل، وجاء الحق وبطلت الأباطيل، وصفت السجادات وكثرت السجدات وأقيمت الصلوات، وأذن المؤذنون، وخرس القسيسون، وزال البؤس، وطابت النفوس، وأقبلت السعود، وأدبرت النحوس، وعُبِد الله الأحد الذي: ﴿**لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ**﴾ [الإخلاص: ٣ - ٤]. وكبره الراكع والساجد، والقائم والقاعد، وامتلأ الجامع وسالت لرقة القلوب المدامع، ولما أذن المؤذنون للصلاة قبل الزوال كادت القلوب تطير من

---

(١) **انظر** : صلاح الدين بطل حطين ، لعبد الله علوان (ص ٧٥) .

(٢) دخل صلاح الدين – رحمه الله – وجيشه بيت المقدس يوم الجمعة (٢٧ رجب ٥٨٣ هـ) ولم يتمكنوا من صلاة الجمعة في ذلك اليوم بالمسجد الأقصى ، وذلك لانشغالهم بتطهيره من رجس الصليبيين .

الفرح في ذلك الحال، ولم يكن عيَّن خطيب فبرز من السلطان المرسوم الصلاحي وهو في قبة الصخرة أن يكون القاضي محيي الدين بن الزكي اليوم خطيباً، فلبس الخلعة السوداء وخطب للناس خطبة سنية فصيحة بليغة، وذكر فيها شرف بيت المقدس، وما ورد فيه من الفضائل والترغيبات، وما فيه من الدلائل والأمارات، وقد أورد الشيخ أبو شامة الخطبة في الروضتين بطولها وكان أول ما قال: ﴿ **فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ [الأنعام: ٤٥].

ثم أورد تحميدات القرآن كلها، ثم قال: « الحمد لله معز الإسلام بنصره، ومذل الشرك بقهره، ومصرف الأمور بأمره، ومزيد النعم بشكره، ومستدرج الكافرين بمكره، الذي قدر الأيام دولاً بعدله من طله وهطله « الندى والمطر » الذي أظهر دينه على الدين كله، القاهر فوق عبادة فلا يمانع، والظاهر على خليقته فلا ينازع، والآمر بما يشاء فلا يراجع، والحاكم بما يريد فلا يدافع، أحمده على إظفاره وإظهاره، وإعزازه لأوليائه ونصرة أنصاره، حمد من استشعر الحمد باطن سِرِّه وظاهر إجهاره وأشهد أن لا إله إلا الله وحدة لا شريك له الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، شهادة من طهر بالتوحيد قلبه، وأرضى به ربه، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله رافع الشكر وداحض الشرك، ورافض الإفك، الذي أُسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وعرج به منه إلى السموات العلى، إلى سدرة المنتهى: ﴿ **عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ** ﴾ ، ﴿ **مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ** ﴾ [النجم: ١٥ ـ ١٧]. وعلى خليفته الصديق السابق إلى الإيمان، وعلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أول من رفع عن هذا البيت شعار الصلبان، وعلى أمير المؤمنين عثمان بن عفان ذي النورين جامع القرآن، وعلى أمير المؤمنين عليّ ابن أبي طالب مزلزل الشرك، ومكسر الأصنام، وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان » [١] .

---

(١) البداية والنهاية (جـ١٢ / ٣٤٦) .

واستمر في خطبته الرفيعة المنيعة الممزوجة بالعاطفة الجياشة والمشاعر والأحاسيس المحبوسة إلى أن قال: فطوبى لكم من جيش ظهرت على أيديكم المعجزات النبوية، والوقعات البدرية، والعزمات الصديقية، والفتوحات العمرية، والجيوش العثمانية والفتكات العلوية جددتم للإسلام أيام القادسية والوقعات اليرموكية والمنازلات الخيبرية، والهجمات الخالدية، فجزاكم الله عن نبيكم أفضل الجزاء، وشكر لكم ما بذلتموه من مهجكم في مقارعة الأعداء، وتقبل الله منكم ما تقربتم إليه من مهراق الدماء، وأثابكم الجنة فهي دار السعداء، فاقدروا ـ رحمكم الله ـ هذه النعمة حق قدرها، وقوموا إلى الله بواجب شكرها فله النعمة بتخصيصكم بهذه النعمة وترشيحكم لهذه الخدمة [١] .. إلى آخر ما جاء في الخطبة.

وبعد أن تم هذا الفتح العظيم توافد إلى السلطان الشعراء والعلماء والكتاب والمؤرخون ينثرون أمامه من بلاغة الشعر، وحكم المقال ما قد ملأ الكتب الطوال.

وإليك ما قاله الشاعر العالم أبو الحسن بن علي الجويني:

جند السماء لهذا الملك أعوان	من شك فيهم فهذا الفتح برهان
هذي الفتوح فتوح الأنبياء وما	لها سوى الشكر بالأفعال أثمان
أضحت ملوك الفرنج الصيدُ في يده	صيداً وما ضعفوا يوماً وما هانوا
تسهون عاماً بلاد الله تصرخ	والإسلام أنصاره صم وعميانُ
فالآن لبى صلاح الدين دعوتهم	بأمر من هو للمعوان معوان
إذ طوى الله ديوان العباد فما	يُطوى لأجر صلاح الدين ديوان [٢]

---

(١) انظر: صلاح الدين بطل حطين(ص ٧٨) .

(٢) انظر: صلاح الدين بطل حطين(ص ٧٨، ٧٩) .

وقال محمد بن سعد نقيب الأشراف بالديار المصرية:

أترى مناماً ما بعيني أبصر ... القدس تفتح والفرنجة تُكسَرُ
ومليكهم في القيد مصفود ولم ... يُر قبل ذلك لهم مليك يؤسر
فُتح الشام وطُهر القدسُ الذي ... هو في القيامة للأنام المحشر
يا يوسف الصديق أنت لفتحها ... فاروقها عمرُ الإمام الأطهرُ
ولأنت عثمان الشريعة بعده ... ولأنت في نصر النبوة حيدر [1]

وكانت بنود الصلح التي تمت بين صلاح الدين والنصارى «أن يسمح لهم بالخروج لمدة أربعين يوماً [2]، يدفع الرجل منهم عشرة دنانير، والمرأة خمسة، والولد اثنين، ومن لم يستطع ذلك فهو أسير» [3].

إلا أن السلطان صلاح الدين تجاوز بند المعاهدة وعامل الصليبيين معاملة عطف ورحمة وإحسان، ليعطي للبغاة المعتدين، والملوك المستبدين الظالمين والصليبية الحاقدة على الإسلام والمسلمين النموذج الطيب، والقدرة الصالحة في السماحة والعدل والعفو عند المقدرة.

فأعطى للنصارى العاجزين الذين تركهم أمراؤهم ولم يجدوا من يعينهم أعطاهم أموالاً ودواباً لتحمل أثقالهم إلى ما يريدون.

وكانت إحدى نساء ملك من ملوك الروم قد ترهبنت واستأذنت للذهاب إلى زوجها والمكث معه ،فأذن لها وسيرها إلى زوجها السجين للبقاء معه بقلعة نابلس واجتمعت مجموعة من النساء وتوسلن للسلطان في أزواجهن وأبنائهن، فرق لهن، وأمر بالإفراج عنهم، وفتح للعجزة والفقراء باب الخروج بدون دفع جزية، وذكر كتاب الغرب من أمثال «استيفن سن» استانلي لين بول «الشي الكثير في بر وإحسان صلاح الدين بالنصارى» وأذن السلطان صلاح الدين لرجال الدين

---

(١) انظر : صلاح الدين بطل حطين (ص ٧٩) .
(٢) يعني خلال أربعين يومًا .
(٣) انظر : صلاح الدين بطل حطين (ص ٧٩) .

والناس كافة أن يحملوا معهم ما شاءوا من المتاع والأموال، فأخذوا ما شاءوا دون أن يعترضهم معترض، تاركين ما لا قبل لهم بحمله ، فابتاعه المسلمون منهم.

وكان أحد البطارقة قد خرج بأمواله وذخائره، وكانت كثيرة جداً لم يصرفها في فداء الفقراء والمساكين، فقيل للسلطان: «لم لا تصادر هذا فيما يحمل، وتستعمله فيما تُقَوِّي به أمر المسلمين ؟» فقال لهم السلطان: «لا آخذ منه غير الدنانير العشرة ، ولا أغدر به» (١) .

أما معاملة النصارى الحاقدين للمسلمين عندما انتزعوها من أيدينا في عام (٤٩٢هـ) **فإليك ما قاله «مل» المؤرخ الإنجليزي:** «كان المسلمون يُقتَلون في الشوارع والبيوت، ولم يكن للقدس من ملجأ يلجأ إليه من نتائج النصر، فقد فر بعض القوم من الذبح فألقى بنفسه من أعلى الأسوار، وانزوى البعض الآخر في القصور والأبراج وحتى في المساجد، غير أن هذا كله لم يخفهم عن اعين المسيحيين الذين كانوا يتبعونهم أينما ساروا ثم يقول: «وقد اندفع المشاة والفرسان وراء الهاربين، فلم يسمع في وسط هذا الجمع المكتظ إلا نزعات الموت وسكراته، ومشى أولئك المنتصرون فوق آكام من الجثث الهامدة وراء أولئك الذين يبحثون عن ملجأ أو مأوى».

فهذا صلاح الدين المسلم السني الرباني يقدم للأجيال الإنسانية دروساً في غاية الروعة والجمال نحتت في صفحات تاريخ البشرية لتدل على عظمة هذا الدين الذي أخرج للوجود مثل نور الدين محمود، وصلاح الدين الأيوبي، فعليهم من الله المغفرة والرحمة والرضوان ، **قال الشاعر:**

ملكنا فكان العدل منا سجية ... فلما ملكتم سال بالدم أبطح
وحللتم قتل الأسارى وطالما ... غدونا على الأسرى نمن ونصفح
فحسبكم هذا التفاوت بيننا ... وكل إناء بالذي فيه ينضح

---

(١) **انظر** : صلاح الدين بطل حطين (ص ٨٣) .

إني وصلت في دراساتي للشخصيات الإسلامية أنه ما ظهر قائد رباني وحقق انتصارات ميدانية وأزاح شعارات كفرية إلا كان خلفه علماء وفقهاء يوجهونه ويرشدونه نحو الرأي السديد، وهذا ما حدث لصلاح الدين حيث كان اهتمامه بالعلماء والفقهاء عظيماً، إلا أن هناك عالم وفقيه وأديب له أثر واضح في حياته لا بد من التعريف به ألا وهو.

[أ] القاضي الفاضل :

قال الذهبي في ترجمته : «المولى الإمام العلامة البليغ، القاضي الفاضل محيي الدين، يمين المملكة، سيد الفصحاء، أبو علي عبد الرحيم بن علي بن الحسن بن أحمد بن المفرج، اللخمي، الشامي العسقلاني المولد، المصري الدار، الكاتب، صاحبُ ديوان الإنشاء الصلاحي، ولد سنة ٥٢٩ هـ» (١).

قال عنه العماد الأصبهاني : «قضى سعيداً، ولم يبُق عملاً صالحاً إلا قدَّمه، ولا عهداً في الجنة إلا أحكمه، ولا عقد بِرٍّ إلا أبرمه، فإن صنائعه في الرقاب، وأوقافه متجاوزة الحساب، لا سيما أوقافه لفكاك الأسرى، وأعان المالكية والشافعية بالمدرسة، والأيتام بالكتاب، كان للحقوق قاضياً، وفي الحقائق ماضياً، والسلطان له مطيع، وما افتتح الأقاليم إلا بأقاليد آرائه، ومقاليد غناه وغنائه، وكنت من حسناته محسوباً، وإلى آلائه منسوباً، وكانت كتائبه كتائب النصر، ويراعته رائعة الدهر، وبراعته بارية للبر، وعبارته نافثة في عقد السحر، وبلاغته للدولة مجمّلة وللمملكة مُكمِّلَة ، وللعصر الصلاحي علي سائر الأعصار مفضلة، نسخ أساليب القدماء بما قدَّمه من الأساليب وأعربه من الإبداع، ما ألفيته كرر دعاء في مكاتبه ، ولا ردد لفظاً في مخاطبة إلى أن قال: فإلى من بعده الوفادة؟ وممن الإفادة، وفيمن السيادة؟ ولمن السعادة؟» (٢).

---

(١) انظر : سير أعلام النبلاء (جـ٢١ /٣٣٨ ، ٣٣٩).

(٢) انظر : سير أعلام النبلاء (جـ٢١ / ٣٤٠).

ومَدَحَه الشعراء على حسن تدبيره وآرائه النافذة ، وقدرته على حل المعضلات التي تتعرض لها دولة صلاح الدين، واجتهاده في الصيام والقيام وحبه للعلم ، وتواضعه وحلمه وجوده وكرمه وإنفاقه وجهاده ، **فقال فيه هبة الله ابن سيناء الملك :**

وأتت سعادته إلى أبوابه ... لا كالذي يسعى إلى أبوابها
فلتفتخر الدنيا بسائس ملكها ... منه ودارس علمها وكتابها
صوامها قوامها علامها ... عمالها بذالها وهّابها[1]

ركن إليه السلطان صلاح الدين ركوناً تاماً، وتقدم عنده كثيراً.

وكان رحمه الله ذا غرام بالكتابة وبالكتب أيضاً، اشتهر بالدين والعفاف، والتقى، والمواظبة على أوراد الليل والصيام والتلاوة، فلما تملك أسد الدين مصر، أحضره فأعجب به، ثم استخلصه صلاح الدين لنفسه، وكان قليل اللذات، كثير الحسنات، دائم التهجد، يشتغل بالتفسير والأدب، وكان قليل النحو، لكنه له دربة قوية، وكان متقللاً في طعامه ومنكحه وملبسه، ولباسه البياض، وكان يكثر من تشييع الجنائز، وعيادة المرضى، وله معروف في السر والعلانية، ضعيف البنية رقيق الصورة [2] .

قال في حقه السلطان صلاح الدين: «لا تظنوا أني ملكت البلاد بسيوفكم، بل بقلم الفاضل» [3] .

وقال في مدحه العماد الأصبهاني:

عاينت طود سكينة ورأيت ... الشمس فضيلة ووردت بحر فواضل
ورأيت سحبان البلاغة ساحباً ... ببيانه ذيل الفخار لوائل

---

(١) انظر : سير أعلام النبلاء (جـ٢١ / ٣٤١) .
(٢) انظر : سير أعلام النبلاء (جـ٢١ / ٣٤٣) .
(٣) النجوم الزاهرة (٦ / ١٥٧) .

حلفُ الحصافة والفصاحة والسماحة والحماسة والتقى والنائل
بحر من الفضل الغزير خضمه طامي العباب وما له من ساحل
في كفه قلم يعجل جريه ما كان من أجل ورزق عاجل
أبصرت قُساً في الفصاحة معجزاً فعرفت أني في فهَّة باقلِ [١]

وعندما طلب القاضي الفاضل من السلطان صلاح الدين أن يعين بدله عماد الدين الأصبهاني ليحل تراجم الأعاجم، فقال له صلاح الدين: ما لي عنك مندوحة، أنت كاتبي ووزيري، وقد رأيت على وجهك البركة فإذا استكتبت غيرك تحدث الناس [٢] واتفقا أن يقوم عماد الدين الأصبهاني بدل القاضي عندما يغيب القاضي الفاضل.

قال صاحب النجوم الزاهرة:

وفضل الفاضل وبلاغته أشهر من أن يذكر ومن شعره قوله:

وإذا السعادة لاحظتك عيونها نم فالمخاوف كلهن أمان
واصْطَدْ بها العنقاء فهي حبائل واقتد بها الجوزاء فهي عنان [٣]

إن القاضي الفاضل رحمه الله كان موضع ثقة صلاح الدين ومحل أسراره واستشارته فلا يقطع أمراً دونه [٤]، فكان يستشره في المهمات الكبيرة خاصة، بل كان يقول العماد الأصبهاني الكاتب عنه: «سلطانه مطاع والسلطان له مطيع، وهو صاحب القريحة الوقادة والبصيرة النفاذة» [٥].

وهو الذي كتب لصلاح الدين وهو محاصر لعكا يخوفه من الذنوب، ويحذره

---

(١) النجوم الزاهرة (٦/ ٧٣، ٧٤).
(٢) النجوم الزاهرة (٦/ ٧٤).
(٣) النجوم الزاهرة (٦/ ٧٥).
(٤) البداية والنهاية (جـ١٢/ ٣٤٠).
(٥) الروضتين (جـ٢/ ٢٤١).

من أن يظلم الجنود أحداً فيكون سبباً للهزيمة .

يقول ابن كثير رحمه الله في ذلك: «وكان القاضي الفاضل بمصر يدير الممالك بها، ويجهز للسلطان ما يحتاج إليه من الأموال، وعمل الأسطول والكتب السلطانية، فمنها كتاب يذكر فيه أن سبب هذا التطويل في الحصار كثرة الذنوب، وارتكاب المحارم بين الناس، فإن الله لا ينال ما عنده إلا بطاعته، ولا يفرج الشدائد إلا بالرجوع إليه، وامتثال أمره، فكيف لا يطول الحصار، والمعاصي في كل مكان فاشية، وقد صعد إلى الله منها ما يتوقع بعده الاستعاذة منه، ومنها كتاب يقول فيه إنما أُتينا من قبل أنفسنا، ولو صدقنا لعجل الله لنا عواقب صدقنا، ولو أطعناه لما عاقبنا بعدونا، ولو فعلنا ما نقدر عليه من أمره، لفعل لنا ما لا نقدر عليه إلا به، فلا يختصم أحد إلا نفسه وعمله، ولا يرج إلا ربه، ولا يغتر بكثرة العساكر والأعوان، ولا فلان الذي يعتمد عليه أن يقاتل ولا فلان، فكل هذه مشاغل عن الله ليس النصر بها، وإنما النصر من عند الله، ولا نأمن من أن يكلنا الله إليها، والنصر به واللطف منه، ونستغفر الله تعالى من ذنوبنا، فلولا أنها تسد طريق دائنا لكان جواب دعائنا قد نزل، وفيض دموع الخاشعين قد غسل، ولكن في الطريق عائق، خار الله لمولانا في القضاء السابق واللاحق، إلى أن قال ابن كثير فيه: «وقد أورد الشيخ شهاب الدين صاحب الروضتين ها هنا كتباً عدة من الفاضل إلى السلطان صلاح الدين، فيها فصاحة وبلاغة ومواعظ وتحضيض على الجهاد، فرحمه الله من إنسان ما أفصحه، ومن وزير ما كان أنصحه، ومن عقل ما كان أرجحه» (١) .

وبأمثال هؤلاء ينصر الله دينه ويسدد رمي أوليائه، وقد أكرم الله تعالى صلاح الدين بهذا العالم الجليل الأديب الفقيه الوزير الناصح الزاهد التقي الورع المنفق صاحب الدعوة المستجابة .

---

(١) **انظر** : البداية والنهاية (جـ١٢ / ٣٦١) .

وفـاتـه :

في سنة ٥٩٦ هـلبى القاضي الفاضل نداء ربه عندما كان أحوج ما كان إلى الموت عند تولي الإقبال وإقبال الإدبار، وهذا يدل على أن لله به عناية [١] .

وذكر صاحب النجوم الزاهرة أنه كان بين الملك العادل أبي بكر بن أيوب والفاضل وحشة فلما بلغ الفاضل مجيء العادل إلى مصر دعا الله أن يقبضه إليه فمات قبل دخول العادل، فعندما كان العادل داخلاً من باب النصر، كانت جنازة القاضي الفاضل خارجة من زويلة [٢] .

[ب] وفاة السلطان الناصر صلاح الدين :

عندما وقفت على ترجمة صلاح الدين رحمه الله، ووصلت إلى آخر لحظات حياته ذرفت عيوني بالدموع، واهتز قلبي بالخشوع، لهذا البطل العملاق الذي كان للإسلام ردءًا وحرزاً وكهفاً من كيد الكفرة اللئام، وكانت وفاته في عام ٥٨٩ هـوتذكر كتب التاريخ أن أهل دمشق لم يصابوا بمثل مصابه، وود كل منهم لو فداه بأولاده وأحبابه وأصحابه، فعندما كان يقرأ عليه القرآن وهو في سكرات الموت مر القارئ على قوله تعالي: ﴿ **هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ** ﴾[الحشر: ٢٢].

فقال صلاح الدين - رحمه الله -:

وهو كذلك صحيح. فلما أذن الصبح جاء القاضي الفاضل فدخل عليه وهو في آخر رمق، فلما قرأ القارئ: ﴿ **لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ** ﴾[التوبة: ١٢٩]. تبسم وتهلل وجهه وأسلم روحه إلى ربه سبحانه، ومات رحمه الله وجعل الجنة مثواه ، وكان له من العمر سبع وخمسون سنة، ثم أخذوا في تجهيزه وحضر

---

(١)**انظر** : سير أعلام النبلاء (جـ٢١ / ٣٤٣)

(٢)**انظر** : النجوم الزاهرة (جـ٦ / ١٥٧)

جميع أولاده وأهله، وكان الذي تولى غسله خطيب البلد الفقيه الدولعي، وكان الذي أحضر الكفن ومؤنة التجهيز القاضي الفاضل من صلب ماله الحلال، وأمَّ الناس عليه القاضي ابن الزكي، ثم دفن في داره بالقلعة المنصورة في دمشق، ونزل ابنه الأفضل في لحده ودفنه وهو يومئذٍ سلطان الشام، ويقال إنه دفن معه سيفه الذي كان يحضر به الجهاد، وذلك عن أمر القاضي الفاضل، وتفاءلوا بأن يكون معه يوم القيامة يتوكأ عليه، حتى يدخل الجنة إن شاء الله (١).

لقد وقع نبأ صلاح الدين على المسلمين جميعًا وقع الصاعقة للصدمة الفادحة، والمصاب الجلل وهذا القاضي ابن شداد يصف لنا ذلك المشهد المريع إذ يقول: «وكان يوم موته يوماً لم يُصب الإسلام والمسلمون بمثله بعد فقد الخلفاء الراشدين ﷺ وغشي القلعة والمُلك والدنيا وحشة لا يعلمها إلا الله تعال، وبالله لقد كنت أسمع الناس أنهم يتمنون فدا من يعز عليهم بنفوسهم، وكنت أتوهم أن هذا على ضرب من التجوز والتخرص إلى ذلك اليوم، فإني علمت من نفسي ومن غيري أنه لو قُبِل الفداء لفدي بالأنفس» (٢).

لقد كان صلاح الدين رحمه الله قائداً ربانياً تربى في أجواء علمية رسخت في زمن نور الدين محمود، واستمرت في عهده فأخرجت هذا الأنموذج الرفيع الذي أعاد الله به للأمة عزتها وقوتها.

[جـ] الملامح الرئيسية في شخصية صلاح الدين:

أولاً: تقريبه للعلماء وحبهم واحترامهم واستشارتهم وإعطائهم المكانة اللائقة بهم، وإحياء المدارس والعلم، وحضور السلطان مجالس العلم، بل إن السلطان صلاح الدين يذهب إلى الإسكندرية مصطحباً معه ولديه علي وعثمان لحضور مجلس الحافظ السلفي، وترقى العالم كمال الدين الشهرزوري إلى مرتبة

---

(١) **انظر** : البداية والنهاية (جـ١٢/ ٥) .

(٢) **انظر** : النجوم الزاهرة (٦ / ٥٢) .

الوزارة، ومن مستشاري صلاح الدين العالم الواعظ ابن نجا الحنبلي، ووزيره القاضي الفاضل من أكابر الكتاب محبًا للعلم وأهله،ومنهم نجم الدين الخبوشاني، والفقيه الشافعي، وهو الذي شجع صلاح الدين على إنهاء الدولة العبيدية وقطع الخطبة لهم(•)،بنى له صلاح الدين مدرسة وفوض تدريسها إليه، ومن الفقهاء الأمراء الفقيه الهكاري: «وكان جندياً شجاعاً كريماً، تفقه على الشيخ أبي القاسم البرزي واتصل بالأمير أسد الدين شيركوه، وكان يخاطب صلاح الدين بما لا يقدر عليه غيره، توفي وصلاح الدين محاصر لعكا» (١) .

وكان إذا زاره عالم اهتم به جداً، ولا يتركه حتى يزوده بالمال والأمتعة له ولجيرانه وأقربائه.

إن هذه الانتصارات العظيمة لا تكون إلا بوجود مثل هذا التلاحم والتعاطف بين الأمراء والعلماء، وقال القاضي ابن شداد: «وكان يجلس للعدل في كل يوم اثنين وخميس في مجلس عام يحضره الفقهاء والقضاة، وكان يفعل ذلك سفراً وحضراً» (٢) وكان آل المقدسي الذين سكنوا حي الصالحية في دمشق أبو عمر محمد ابن أحمد بن قدامة وأخوه وابن خالهم الحافظ عبد الغني والشيخ العماد، كانوا لا ينقطعون عن غزاة يخرج صلاح الدين فيها، وقد حضروا معه فتح القدس والسواحل وغيرها (٣) .

إن القادة الذين يحترمون العلماء والفقهاء في حقيقة عملهم هذا قد أخذوا بسُنة من سُنن التمكين والنصر والغلبة على الأعداء.

إن الذين يهاجمون علماء الأمة ومفكريها وساستها ومربيها وفقهاءها

(•) جاء الأمر من نور الدين محمود إلى صلاح الدين بقطع الخطبة عن الخليفة الفاطمي العاضد، وسهّل الله عز وجل هذا الأمر لصلاح الدين حيث توفى العاضد بعد وقت قصير من وصول أمر نور الدين.

(١) وفيات الأعيان (جـ٣/٤٩٧) .

(٢) أيعيد التاريخ نفسه ؟(٩٤) .

(٣) انظر : البداية والنهاية(جـ١٣/ ٣٩) .

ومحدثيها وحركييها يخدمون المخططات اليهودية والنصرانية والطاغوتية والاستخبارية سواء شعروا بذلك أم لا، والذين لا يزالون يطعنون في علماء الأمة بفعلهم هذا يكونون ، **قد ابتعدوا عن منهج أهل السُنَّة والجماعة الذي يقول :**

« وعلماء السلف من السابقين ومن بعدهم من التابعين أهل الخير والأثر، وأهل الفقه والنظر لا يذكرون إلا بالجميل،ومن ذكرهم بسوء فهو على غير السبيل » (١) .

ولقد رأيت أقواماً يستهزئون بالعلماء والفقهاء والمحدثين والدعاة، بل بعضهم كفر بعض قادات الحركات الإسلامية بدون بينة، بل بجهل وعناد و استخفاف، وبعضهم يتلذذ بغيبة العلماء والطعن فيهم، وينشر ذلك على المنابر وفي الصحف، ولو أتيحت له الإذاعة لهذا الغرض لطار فرحاً، وما يدري المسكين أن لحوم العلماء مسمومة، وعادة الله في هتك منتقصيهم معلومة، وما يدري هذا المتعالم أن الاعتبار في الحكم على الأشخاص بكثرة الفضائل، قال ابن القيم رحمه الله: « ومن له علم بالشرع والواقع يعلم قطعاً أن الرجل الجليل الذي له في الإسلام قدم صالح وآثار حسنة وهو من الإسلام وأهله بمكان قد تكون منه الهفوة والزلة هو فيها معذور، بل مأجور لاجتهاده، فلا يحوز أن يتُبع فيها، ولا يجوز أن تهدر مكانته وإمامته في قلوب المسلمين » (٢) .

إن تاريخ الأمة الإسلامية المجيد يبين لنا أهمية احترام العلماء والدعاة وتقديمهم في إعزاز هذا الدين. فعلى العاملين لإعادة ماضينا المجيد وعزنا التليد أن يعملوا على إعادة دور العلماء والفقهاء، وإلزام الناس باحترامهم، ومنع العملاء المندسين في صفوفنا للطعن في علمائنا بالأقوال المزخرفة والأساليب الملتوية للضحك على شبابنا حتى لا يفلحوا في دنيا ولا في آخره.

---

(١) شرح الطحاوية (جـ٢ / ٧٤٠)

(٢) أعلام الموقعين (جـ٣ / ٢٨٤)

ثانياً : ومن الملامح الواضحة في شخصية صلاح الذين شغفه بالجهاد، قال القاضي ابن شداد: «وكان رحمه الله شديد المواظبة على الجهاد، عظيم الاهتمام به، ولو حلف حالف أنه ما أنفق بعد خروجه إلى الجهاد ديناراً ولا درهماً إلا في الجهاد، وفي الإرفاد لصدق، وبر في يمينه، ولقد كان الجهاد قد استولى عل قلبه وسائر جوانحه استيلاءً عظيماً، بحيث ما كان له حديث إلا فيه، ولا نظر إلا في آلته، ولا اهتمام إلا برجاله، ولا ميل إلا إلى من يذكره، ويحث عليه، ولقد هجر في محبته «الجهاد» أهله وولده ووطنه وسكنه، وقنع بالدين وبالسكون في ظل خيمة تهب بها الرياح يمنة ويسرة، وكان الرجل إذا أراد أن يتقرب إليه يحثه على الجهاد، وقد سرنا مع السلطان على الساحل نطلب عكا وكان الزمان شتاء عظيماً، والبحر هائجاً وموجه كالجبال، وكنت حديث عهد برؤية البحر فعظم عندي، واستخففت رأي من يركب البحر، بينما أنا في ذلك إذ التفت إليّ وقال في نفسه: إنه متى يسر الله تعالى فتح بقية الساحل قسمت البلاد، وأوصيت وودعت وركبت هذا البحر إلى جزائرهم أتبعهم فيها حتى لا أبقي على وجه الأرض من يكفر بالله أو أموت، فعظم وقع هذا الكلام عندي وحكيت له ما خطر لي، فانظر إلى هذه الطوية ما أطهرها وإلى هذه النفس ما أشجعها وأجسرها، اللهم إنك تعلم أنه بذل جهده في نصرة دينك رجاء رحمتك فارحمه، وأما صبره فلقد رأيته بمرج عكا وهو على غاية من مرض اعتراه بسبب كثرة دماميل كانت ظهرت عليه من وسطه إلى ركبته بحيث لا يستطيع الجلوس، وكان مع ذلك يركب من بكرة النهار إلى صلاة الظهر، وهو صابر على شدة الألم ويقول: «إذا ركبت يزول عني الألم حتى أنزل» [١].

إن في زماننا هذا اندفاع عظيم نحو ساحات الوغى، والشاهد على ذلك ما

---

(١) الروضتين (جـ٢ / ٢٢١-٢٢٢)

حدث في أفغانستان، وما نسمعه من تضحيات عظيمة في الأرض المحتلة، إلا أن في بعض بلاد المسلمين من أشرف على الحركات الجهادية أخوة لنا تنقصهم خبرات كثيرة من فهم لسنن الله في تغيير الشعوب والمجتمعات، والأهم من ذلك معرفتهم في دين الله ضعيفة، وخصوصاً في السياسة الشرعية وأحكام الدماء والأعراض والأنفس، والتدرج في تربية الشعوب حتى تتهيأ لتصبح مجاهدة وشرعوا في إصدار الفتاوى والأحكام التي قرءوها من كتب تخدم غرضهم واهتموا بتربية الشباب عليها، واقحموا أتباعهم في معارك خاسرة ضد حكوماتهم في صراع عنيف ينتهي بقتل بعضهم، وسجن آخرين منهم ومن غيرهم، وتشريد العوائل الأخيار من المسلمين، وتسببوا في تعطيل مشاريع دعوية تربوية وفعلهم هذا فيه تجاوز من عدة أمور:

أولاً: إن الجهاد حق الأمة وليس حق أفراد أو جماعات وتقرره الأمة بواسطة أهل الحل والعقد من الفقهاء والعلماء الذين تختارهم، ويسبق هذا مجهود تربوي وعلمي وفقهي في أوساط الشعب لتعريفهم بحقيقة دينهم، واستفاضة البيان، ويكون ذلك تحت إشراف العلماء والفقهاء، فإن كان الشعب الذي نتكلم عنه لا يوجد فيه علماء وفقهاء فلا بد من دفع مجموعة من أبنائه للتفرغ لطلب العلم وأخذه من أهله ، ممن شهدت لهم الأمة أنهم أهلٌ لذلك حتى يتهيئوا للإشراف على هذا العمل الجليل، حتى تجد الأمة من ترجع إليه في مشاكلها العظيمة، ويأخذ بيدها نحو تحكيم شرع الله بسُنة الله في التدرج، وخصوصاً في عصرنا هذا الذي تموج فيه الفتن.

فالأمور العظيمة كالجهاد في سبيل الله تعالى مردها إلى أهل العلم والبصيرة النافذة قال تعالى: ﴿ **وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً** ﴾ [النساء: ٨٣].لا إلى من قضى عمره في

الهندسة المعمارية أو الصناعية ، أو قضى عمره في دراسات الجراحات الطبية أو غيرها من الفنون، ثم قرأ بعض الكتب فحفظها وفهمها على حسب فهمه المحدود وشن حرباً على العلماء والفقهاء والحركات الإسلامية صاحبة الفهم الشامل، التي أشرف على تأسيسها وحركتها علماء ودعاة وفقهاء شهدت لهم الأمة بعلمهم وإخلاصهم وصدقهم، ولا الرجوع إلى من عاش في متابعة الجرائد والإذاعات وتتبع سقطات الدعاة، وتتملذ على كتب حرب العصابات مثل ماوتسي تنج في الصين ، وجيفارا في أمريكا اللاتينية ، والبعد عن قيادتنا العظيمة أمثال نور الدين وصلاح الدين وقبل هؤلاء سيد المرسلين ﷺ وأصحابه الميامين الطيبين وأراد أن يدفع بشباب الأمة نحو أهدافه التي رسمها .

قال الشيخ العلامة ابن سعدي ـ رحمه الله ـ في تفسيره للآية المذكورة:

« هذا تأديب من الله لعباده على فعلهم هذا غير اللائق، وأنه ينبغي لهم إذا جاءهم أمر من الأمور المهمة والمصالح العامة ما يتعلق بالأمن وسرور المؤمنين،أو الخوف الذي فيه مصيبة عليهم أن يتثبتوا ولا يستعجلوا بإشاعة ذلك الخبر، بل يردونه إلى الرسول ﷺ وإلى أولي الأمر وهم أهل الرأي والعلم والنصح والعقل والرزانة ،الذين يعرفون الأمور ويعرفون المصالح وضدها، فإن رأوا ما فيه مصلحة، أو فيه مصلحة ولكن مضرته أكبر من مصلحته لم يذيعوه ولهذا قال ﴿ **لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ** ﴾ أي :يستخبرون بفكرهم وآرائهم السديدة وعلومهم الرشيدة » .

وفي هذا دليل لقاعدة مهمة وهي : إذا حصل بحث في أمر من الأمور ينبغي أن يوكل إلى من هو أهل لذلك، ويُجْعل إلى أهله، ولا يتقدم بين أيديهم فإنه أقرب للصواب، وأحرى للسلامة من الخطأ.

وفيه النهي عن العجلة والتسرع لنشر الأمور من حين سماعها، والأمر بالتأمل قبل الكلام، و النظر فيه هل هو مصلحة فيقدم عليه الإنسان أم لا فيحجم عنه [١] .

---

(١) تفسير السعدي (جـ٢ / ٥٤ ، ٥٥) .

إن قضايا الجهاد والسياسة الشرعية ما كان يفتي فيها إلا العلماء الراسخون في المعرفة والعلم والفقه والذين أصبحت لهم دراية بمقاصد الشريعة، والموازنة بين المصالح والمفاسد، والأدلة التفصيلية ولا يمكن لشباب في مقتبل العمر ضاعت أوقاتهم في القيل والقال، ولم يجلسوا في حلقات العلم ويأخذوه عن شيوخه أن يفتوا في أمور الجهاد التي تزهق فيها الأرواح، وتنفق فيها الأموال ويعتدى فيها على الأعراض.

بعد الدرس العميق لسيرة المصلح الجهادي صلاح الدين يتبين لنا أن الذين كانوا يفتون في زمانه هم العلماء الذين فهموا الشريعة ومقاصدها، واستوعبوا الموازنة بين المصالح والمفاسد، وواقعهم الذي عاشوا فيه، وتفننوا في معرفة المصالح والمفاسد.

وأنصح إخواني أبناء المسلمين أن لا يغترُّوا بمن أوتى جدلاً باللسان ولم يُشهد له بأنه من أهل الفتوى، وأن لا يأخذ الإنسان دينه إلا ممن شهدت لهم الأمة بالعلم وعرفوا بالحرص عليه وتعلموا على أيدي العلماء، وصبروا على أخذ العلم، لأن الدين وفهمه عظمك ولحمك ودمك، فانظر عمن تأخذ دينك فلا تأخذه من النكرات الذين أخذوا بعض ثقافاتهم من الصحف والأوراق والكتب واعتزوا بعقولهم وتفاخروا بنفوسهم.

إن العلم الشرعي علم يؤخذ بالتلقي فلا يجدي الأخذ من الكتب فقط، بل الاقتصار في التلقي على الأخذ من الكتب بلية من البلايا، وكذا اجتماع الشباب والطلبة على التدارس دون أخذ عن شيخ عالم عامل.

يقول الإمام الشافعي ـ رحمه الله ـ:

«من تفقه من بطون الكتب ضيع الأحكام» [١].

---

(١) ابن جماعة تذكرة السامع (ص ٨٧).

وكان بعض السلف يقولون: «من أعظم البلية تشيخ الصحيفة»[١].

إن علماء الأمة على مر العصور والأزمان لا يرفعون فوق رءوسهم الرايات ولا يدعون إلى شعارات، ولا يطالبون الناس بالانتماء إليهم، إنما يطالبون الناس بالانتماء إلى سُنة سيد المرسلين ﷺ، وإياك أخي أن تكون مثل الخوارج الذين تركوا أهل العلم والفضل من الصحابة، وتابعوا الأعراب الذين لا يُجيدون إلا الخطابات الحماسية، وتأجيج العاطفة، فاحرص على الموثوق في دينه وعلمه: «فإن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم»[٢]. [•].

إن جيل صلاح الدين قادة وجنوداً جماعات وأفراداً، فهموا معنى قيمة العلم وممن يؤخذ، وأعطوا الفتوى لأصحابها، وتسلم العلماء الربانيون سياسة الأمة فقطعوا بها المراحل، وتدافع الجميع نحو مرضاة الله وزراء وقواد وسلاطين وعوام، فأصبح شغفهم بالعلم والعلماء واضحاً معلوماً، وحرصهم على الجهاد وتفجير طاقاته شيئاً ملموساً من سيرتهم، إن الجهاد حق الأمة وليس حق الأفراد، وتقرره الأمة بالالتفاف حول أهل الحل والعقد الذين تقدمهم الأمة، وليس مجموعة من الأفراد يطعنون في من يخالفهم.

ثانياً: من السمات الشخصية في صلاح الدين حرصه على العدل. وكان الأمراء والوزراء من قبل يتسلطون على الناس في أموالهم وأراضيهم، والملوك يسمحون لهم بذلك إرضاءً لهم وحتى تبقى طاعتهم.

ثالثاً: زهده في الدنيا ولذلك لم يخلف أموالاً ولا أملاكاً لجوده وكرمه وإحسانه إلى أمرائه وغيرهم، وحتى إلى أعدائه، وكان متقللاً في ملبسه ومأكله، ومركبه، وكان لا يلبس إلا القطن والكتان والصوف.

---

(١) ابن جماعة تذكرة السامع (ص ٨٧).

(٢) مقدمة صحيح مسلم (جـ١ / ١٤).

(•) هذه مقولة ابن سيرين وقد ردَّدها الشافعي من بعده – رحمهما الله –.

رابعاً: كان مهتماً بالعلوم في اللغة والأدب وأيام الناس، وكان يحفظ ديوان الحماسة لأبي تمام.

خامساً: كان مواظباً على الصلوات في أوقاتها في الجماعة يقال: إنه لم تفته الجماعة في صلاة قبل وفاته بدهر طويل، حتى ولا في مرض موته، كان يدخل الإمام فيصلي به، وكان يتجشم القيام مع ضعفه.

سادساً: كان رقيق القلب سريع الدمعة عند سماع القرآن الكريم، والحديث الشريف.

سابعاً: كان ضحوك الوجه كثير البشر، لا يتضجر من خير يفعله، شديد المصابرة على الخيرات والطاعات.

فرحمة الله على أمثاله وأعلى ذكره في الصالحين.

[د] من أروع المراثي في صلاح الدين الأيوبي رحمه الله :

قال العماد الأصبهاني رحمه الله : «دخلنا عليه ليلة الأحد للعيادة ومرضه في زيادة، وفي كل يوم تضعف القلوب وتتضاعف الكروب، ثم انتقل من دار الفناء إلى دار البقاء إلى أن قال العماد الأصبهاني مرثيته المشهورة.

شمل الهدى والملك عم شتاته ... والدهر ساء وأقلعت حسناته
بالله أين الناصر الملك الذي ... لله خالصة صفت نياته
أين الذي مذ لم يذل مخشية ... مرجوة رهباته وهباتُهُ
أين الذي كانت له طاعتنا ... مبذولة ولربه طاعاته
أين الذي ما زال سلطاناً لنا ... يُرجى نداهُ وتتقى سطواته
أين الذي شرف الزمان بفضله ... وسمت على الفضلاء تشريفاته
لا تحسبون مات شخصاً واحداً ... قد غم كل العالمين مماته
ملك عن الإسلام كان محامياً ... أبداً لماذا أسلمته حُماتُه
قد أظلمت مذ غاب عنا دوره ... لما خلت من بدره داراته

دُفِنَ السماح فليس تنشر بعدما | أودى إلى يوم النشور رفاته
الدين بعد أبي المظفر يوسف | محفوفة بوروده حافاته
مَنْ لليتامى والأرامل راحُم | متعطف مفضوضة صدقاته
لو كان في عصر النبي لأنزلت | في ذكره من ذكره آياته
بكت الصوارم والصواهل إذ خلت | من سلها وركوبها عزماته
يا وحشة الإسلام حين تمكنت | من كل قلب مؤمن روعاته
يا داعياً للدين حين تمكنت | منه الذئاب وأسلمته رُعاته
ما كان ضرك لو أقمت مراعياً | ديناً تولى منذ رحلت ولاتُهُ
فارقت مُلكاً غير باق مُتعباً | ووصلت مُلكاً باقياً راحاتُهُ [١]
من للثغور وقد عداها حفظه | من للجهاد ولم تعد عاداته
ما كان أسرع عصره لما انقضى | فكأنما سنواته ساعاته
فعلى صلاح الدين يوسف دائماً | رضوان رب العالمين بل صلواته [٢]

[هـ] من أروع الرسائل في أخبار وفاة صلاح الدين :

قال صاحب النجوم الزاهرة: وفي ساعة موت السلطان صلاح الدين كتب القاضي الفاضل إلى ولده الملك الظاهر صاحب حلب بطاقة مضمونها :

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب : ٢١].

﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ [الحج : ١].

كتبتُ إلى مولانا السلطان الملك الظاهر، أحسن الله عزاءه وجبر مُصابه، وجعل فيه الخلف للملك المرحوم، وقد زلزل المسلمون زلزالاً عظيماً، وقد حفرت الدموع

---

(١) النجوم الزاهرة(جـ٦ / ٦٠ ، ٦١) .

(٢) صلاح الدين بطل حطين ومحرر القدس(ص ١٠٢) .

المهاجر، وبلغت القلوب الحناجر، وقد قبلت أباك ومخدمي وداعاً لا تلاقي بعده، وقد قبلت وجهه عني وعنك، وأسلمته إلى الله مغلوب الحيلة، ضعيف القوة، راضياً عن الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وبالباب من الجنود المجندة، والأسلحة المغمدة، ما لا يدفع البلاء ، ولا يرد القضاء ، وتدمع العين ويخشع القلب، ولا نقول إلا ما يُرضي الرب، وإنا عليك يا يوسف لمحزنون، وأما الوصايا فما يحتاج إليها، والآراء فقد شغلني المُصاب عنها، وأما لائح الأمر فإنه إن وقع اتفاق فما وعدتم إلا شخصه الكريم، وإن كان غير ذلك فالمصائب المستقبلية أهونها موته، وهو الهول العظيم والسلام (١) .

فرحمة الله على صلاح الدين ومن قبله من السابقين ، ومن بعده من المسلمين الذين أخذوا بسنن التمكين.

قد يتساءل القارئ لماذا هذا الإطناب في سيرة صلاح الدين ونور الدين :

وجوابي على ذلك أن الدولة العُبيدية لها أسباب مباشرة في السقوط وأسباب غير مباشرة، وإن في رأيي أن من أهم الأسباب في زوال الدولة العُبيدية : جهود القائدين العظيمين نور الدين محمود، وصلاح الدين، ولذلك أطنبت في سيرتهم العطرة وإيضاح أهم أسباب النصر التي التزاموا بها وأخذوا بها، وإظهار الجهود العلمية والتربوية والفقهية التي قام بها العلماء في عصرهم وعصر من سبقهم، ليصل القارئ الكريم أن صلاح الدين ونور الدين لا يأتيان فجأة دون تمهيدات وإرهاصات وجهود تبذل من قبل أفراد الأمة وجماعاتها وعلمائها ودعاتها، وليعلم القارئ أن التغيير لا يحدث في الأمة إلا إذا سبقة حرص جماعي على الأخذ به، وعلى أهمية معرفة أسباب النصر وعوامل الهزيمة وأهمية مزج

---

(١) النجوم الزاهرة (٦ ، ٥٢ ، ٥٣) .

الإخلاص في النية بالصواب في التفكير والعمل لا غنى لأحدهما عن الآخر.

وبهذا أكون قد انتهيت من كتابة الدولة العبيدية في الشمال الإفريقي.

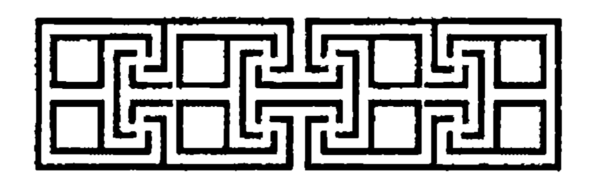
فإن أصبت فمن الله وحده، وإن أخطأت فمن نفسي وتقصيري.

أسأل الله أن يكون علمي خالصًا لوجهه الكريم ، وأن تنتفع به أجيال المسلمين .

كتبه

علي محمد محمد الصلابي

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين



نتائج البحث

[١] عندما تكون الأمة قوية يعمدُ أعداؤها إلى لباس ثوب الدين ليسهل لهم تفتيتها ونخرها من الداخل وخصوصاً اليهود ويتفننون في رفع الشعارات المزيفة والكاذبة لخداع عوام المسلمين، وهذا ما فعله الزنديق اليهودي الحاقد عبد الله بن سبأ وهو أول من بذر بذرة الرافضة في الأمة باسم التشيع ومناصرة أهل بيت النبوة.

[٢] إن أهل البيت رضوان الله عليهم وخصوصاً علماءهم ابتداءً من الإمام علي ﷺ يعتبرون من علماء أهل السُّنَّة والجماعة، وحاربوا بكل ما يملكون أهل البدع والابتداع في الأمة.

[٣] إن زيد بن على خذله أهل الرفض لكونه امتنع عن سب الشيخين ﷺ وهذا يدل على حقد الروافض للصحابة الكرام.

[٤] إن التشيع كثرت فرقه وانتشرت في بقاع الأرض وأصبحت له دول تحمي أتباعها ومن المعلوم أن الأفكار لا تموت في الغالب وإنما يتغير أشكالها ولباسها وفق ما يحتاجه أهل كل مكان وزمان، ولذلك فإن بيان فرقهم التى لا زالت منتشرة وغيرت أسماءها جهاد يحبه الله ورسوله.

[٥] إن من أخطر فرق الشيعة في الوقت الحاضر النصيرية التي تحالفت في الماضي مع النصارى لاحتلال ديار الشام، وكانوا يحزنون إذا انتصر المسلمون ويفرحون إذا هزم المسلمون ولا زالت تحالفاتهم مع النصارى واليهود مستمرة ولهم دولة في سوريا أذاقوا أهل السُّنَّة فيها الويلات من قتل وسجن وتعذيب وتشريد.

[٦] ومن أخطر الفرق المعاصرة الاثنا عشرية التي أقامت دولة في إيران، وتتدرج

في نشر أفكارها على مستوى العالم أجمع، ولا نستغرب إذا استمر أهل السُّنَّة في نومهم العميق أن يضموا الإمارات العربية وقطر والبحرين وجزءاً من العراق والسعودية، ويرون هذا التوسع جهاداً وديناً وقربة لله.

[٧] إن الإسماعيلية أتقنت تنظيمها ووفرت له كافة الأسباب ـ التي تنقل التنظيم إلى حكم دولة ـ من أسباب عسكرية، وأمور مادية، واختيار كفاءات عالية لها المقدرة على التخطيط والتنفيذ.

[٨] إن القيادة الإسماعيلية اختارت مكاناً مليئاً بالظلم وفيه صراع عنيف بين القبائل والدولة العباسية، وأرسلت دعاتها على مراحل حتى جاء دور الماكر الخادع أبي عبد الله الشيعي الذي تدل كتب التاريخ أنه رجل دولة له مقدرات عسكرية وفكرية وظفها في تحقيق أهدافه، وعندما استطاع أن يعرف مواطن القوة في المجتمع المغربي ومواطن الضعف شرع في الأخذ بأسباب القوة وإنهاك دولة الأغالبة وزيادة ضعفها مما ساعده على إسقاطها عام ٢٩٧ هـ .

[٩] كان الناس في زمن مجيء أبي عبد الله الشيعي مهيئين للتغيير ويبحثون عن بديل ويسعون لإزالة الظلم وتولدت نفرة عظيمة بين الأمراء والشعب في الشمال الإفريقي.

[١٠] إن عبيد الله المهدي عندما تقلد أمور الحكم عمل على تصفية أتباعه المخلصين الذين أسسوا دولته، وهذا شيء ملاحظ في تاريخ البشرية، وهو ما يسمى بأن الثورة تأكل أبناءها، وأقول: إن هذا الأمر يدخل في سُنَّة الله الجارية: من أعان ظالماً سلطه الله عليه، وما انتقام الرئيس العراقي من وزيره وعامله وصهره عنا ببعيد ، بل جل الثورات تتعرض لهذه التصفيات.

[١١] إن عبيد الله استفاد من معتقد المسلمين في المهدي المنتظر وزين الأمر

وزخرفه حتى أقنع كثيراً من الناس بأنه هو المقصود.

[١٢] إن علماء أهل السُّنَّة دائماً وأبداً عندما تشتد الظلمة ويغيب الإسلام يقومون بدورهم الريادي في إحياء الأمة، ولو كلفهم ذلك نفوسهم وأموالهم وأهاليهم.

[١٣] إن تربية الأمة على معتقد أهل السُّنَّة والجماعة هو السياج العقدي والفكري والنفسي الذي يحميها من الدعوات الضالة المضلة.

[١٤] إن أهالي طرابلس قاوموا المد الرافضي والمعتقد الباطني، ودخلوا في قتال عنيف مع بني عبيد وفي نهاية المطاف إنقاد أهل طرابلس بالقوة والسلاح لدولة العبيديين.

[١٥] لقد فعل العبيديون في أهالي برقة ما تقشعر منه الأبدان وتشيب منه الرءوس، وثار أهل برقة ضدهم ، ولكنهم أخمدوا بالتنكيل والتعذيب والقتل وسبي النساء.

[١٦] استطاع أبو يزيد الخارجي أن يهز كيان الدولة العبيدية وكاد أن يقضي عليها إلا أنه لم يحقق ذلك، لأن عقليته لم تكن عقلية رجل دولة، ولم تكن له خطة واضحة الأهداف كما أنه غدر بحلفائه مما أفقد ثقة الناس فيه.

[١٧] إن علماء أهل السُّنَّة اجتهدوا في مناصرتهم لأبي يزيد الخارجي إذ رأوا أنه أخف الضررين والدرس العميق الذي تخرج به هو شدة الحذر في مثل هذه التحالفات وتقدير المصالح والمفاسد وخصوصاً عند أهل البدع الاعتقادية والأحزاب العلمانية، فالمسلم كيس فطن ولا يلدغ من جحر مرتين.

[١٨] من أسباب نجاح ثورة أبي يزيد أن القائم بأمر الله الخليفة العبيدي سب

الأنبياء وأظهر كفره، فاستغل أبو يزيد ذلك وألب إباضية المغرب وجموع القبائل وفقهاء وزهاد القيروان عليه.

[١٩] أظهر الخليفة المنصور العبيدي الإسلام وقدم الفقهاء والعلماء ورفع الظلم عنهم حتى سكنت البلاد وقضى على الخارجين عليه.

[٢٠] إن أهالي الشمال الإفريقي طويلوا النفس لا يرضون بغير منهج أهل السُّنَّة ولهم استعداد أن يقدموا الغالي والرخيص في سبيل هذه العقيدة الصحيحة، لذلك اضطر خلفاء العبيديين أن يفكروا في الانتقال إلى مصر والتخلص من الثوارت والاضطرابات.

[٢١] أصبحت الدولة العبيدية راعية الفكر الباطني في العالم الإسلامي، وتمده بالمال والسلاح وبكل ما يحتاجه، لتقويته ضد أهل السُّنَّة فتم التعاون بين القرامطة والعبيديين إلا أنهم اختصموا واختلفوا على الدنيا.

[٢٢] اتخذت الدولة العبيدية أساليب متنوعة في القضاء على عقيدة أهل السُّنَّة وكلها لم تحقق هدفها.

[٢٣] قاوم علماء أهل السُّنَّة المد العبيدي الرافضي بكافة الأساليب المتاحة لهم من حجة وتعليم ودعوة وحمل سلاح ضد الطغاة الظالمين وتحملوا القتل والسجن والتعذيب.

[٢٤] استهدف علماء أهل السُّنَّة في دعوتهم الأمراء الصنهاجيين ونجحوا في إرشادهم وتعليمهم وأخص بالذكر الفقيه أبا الحسن الزجال.

[٢٥] كان الاهتمام بالمعز بن باديس مكسباً عظيماً لأهل السُنة، وكان المعز بن باديس حكيماً في تدرجه للانفصال عن الدولة العبيدية الباطنية، إذ شجع العلماء والفقهاء من أهل السُّنَّة في دعوتهم، وضايق الروافض، بل استدرجهم لمعارك طاحنة للقضاء عليهم بالسيف.

[٢٦] إن الدولة الصنهاجية البربرية الزيرية تحولت في زمن المعز إلى دولة سنية وهذه بداية ضعف الدولة العبيدية، بل من أسباب سقوطها.

[٢٧] إن إلغاء المذاهب السنية وإلزام الناس على الالتزام بمذهب واحد ضيق قاعدة الدفاع في الشمال الإفريقي، وكان الأولى للمعز أن يتبنى التيارات السنية كافة كما فعل نور الدين محمود مع كونه حنفي، إلا أنه قدر وقدم بقية المذاهب السنية، وكما فعل صلاح الدين رغم كونه شافعيًّا.

[٢٨] لقد كانت سُنة الله واضحة في آجال الملوك والحكام، وكذلك قوة الأفكار التي تحميها الدول، وكم من تغيير حدث من أحفاد وأبناء من هم أعداء لمنهج أهل السُنة.

[٢٩] مكرت الدولة العبيدية بالمعز بن باديس بإرسالها القبائل العربية للشمال الإفريقي، وكان من أسباب انهزام المعز الصراع العنيف بين صنهاجة وكتامة وزناته، وتركيب الجيش وارتكازه على العبيد الذين لم يتحصلوا على قسط وافر من التربية الإيمانية.

[٣٠] يعتبر عصر تميم بن المعز أفضل من والده، إذ استطاع أن يضم المدن التي انفصلت إلى دولته وأن يجند القبائل العربية في جيشه وأن يهزم بني عمه أصحاب الدولة الحمادية واستمر على نهج أبيه والدعوة إليه.

[٣١] يعتبر عصر يحيى بن تميم من أقوى العصور الزيرية خصوصاً في مجال البحر، وشن الحروب على النصارى، وإرسال الحملات الجهادية في حوض البحر المتوسط، كما أن التجارة ازدهرت ازدهاراً عظيماً انعكس على الرعايا، واستطاع أن يسوس العرب بسياسة حكيمة.

[٣٢] في عصر الأمير علي بن يحيى بدأت الأطماع النصرانية تظهر للعيان، وتحركت أساطيل النصارى من صقلية للمناوشات في البحر المتوسط.

[٣٣] سقطت المهدية عاصمة الزيريين في عام ٥٤٣ هـ في أيدي « رجار » النصراني حكام صقلية ، وكذلك طرابلس ومدن الساحل في الشمال الإفريقي.

[٣٤] استطاع الموحدون أن يطهروا الشمال الإفريقي من النصارى وأن يحافظوا على وحدة البلاد السياسية من المغرب الأقصى إلى الحدود المصرية.

[٣٥] كان لسقوط الدولة الزيرية أسباب كثيرة من أهمها الصراع الداخلي بين صنهاجة وزناتة وكتامة، وتوسع الصراع بدخول العرب حلبة الصراع مما أضعف الدولة في نواحيها العسكرية والتجارية والسياسية وغيرها، وجعل العلماء والفقهاء يهاجرون إلى المشرق أو الأندلس أو المغرب الأقصى.

[٣٦] حكمت الدولة الزيرية ١٨٠ سنة هجرية ثم انتهت وأصبحت كالأمس الغابر : ﴿ **لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلا يَسْتَئْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ** ﴾ [يونس: ٤٩]. وهذا يفيدنا عبرة واتعاظاً.

[٣٧] إن كان العبيديون نجحوا في إضعاف المعز بن باديس ودولته فإن الله سلط عليهم إخوان المعز في العقيدة نور الدين محمود، وصلاح الدين الأيوبي للقضاء على ملك العبيديين.

[٣٨] تكاتفت جهود الأمة لمحاربة المد الباطني الإسماعيلي، وظهر ذلك جلياً فيما قام به السلطان محمود الغزنوي في بلاد الهند والسلطان ألب أرسلان السلجوقي في بلاد الشام، من حرب العبيديين وكان الغزنويون والسلاجقة سُنِّيين في معتقدهم.

[٣٩] برز في الدولة السلجوقية الوزير نظام الملك « الحسن بن علي » وكان ذا صلاح وتقوى وهمة في إحياء السُّنَّة وإماتة البدعة، فوضع خطة طويلة المدى متعددة المراحل ترمي لإخراج أجيال متفقهة في الدين مستعدة للتضحية في سبيله، فأسس المدارس في ديار المسلمين في نيسابور

والعراق والشام، وامتدت إلى مصر، وشجع العلماء والفقهاء على التعليم والدعوة وتفقيه الناس، ووفر للعلماء والطلاب كافة سبل الراحة، وكان من أشهر العلماء في هذه المرحلة العصيبة أبو المعالي الجويني، والإمام الغزالي وقبلهم الماوردي، وأبو إسحاق الشيرازي فعملوا جادين على محاربة الرفض وإحياء السُنن وهؤلاء زعماء المدرسة الشافعية، السنية التي كان لها دور ملموس في فترة نهوض الأمة من كبوتها وتهيئتها لفتوحات نور الدين محمود، وصلاح الدين.

[٤٠] ظهور علماء المدرسة الحنبلية السنية أمثال «أبو الوفاء بن عقيل وأبو الفرج الجوزي» وتفرغهم لتعليم الناس وتربيتهم، وكان لمدرسة أبي سعيد المخرمي الحنبلي دور ملموس في هذه الجهود، وخصوصاً بعد أن تولى أمر هذه المدرسة الداعية الرباني والعالم الجليل عبد القادر الجيلاني الذي تربى على يديه كثير من علماء الشام في بغداد.

[٤١] بعد أن بذلت جهود تربوية عظيمة من أشهر روادها «الإمام الغزالي» وعبد القادر الجيلاني، وبذلت جهود علمية لا يُستهان بها من أشهرها ما قامت به المدرسة الحنبلية الشافعية تولد جيل واضحة أهدافه، عالية همه، وظهر في هذا الجيل الجديد قادة ربانيون من أمثال عماد الدين زنكي الذي بدأ في انتزاع أراضي المسلمين من النصارى والحاقدين وحلفائهم الباطنية الملاعين.

[٤٢] كان عصر نور الدين زمن تغيير للأمة وكانت معالم وملامح التمكين ظاهرة من عدل شامل، وحب للمصلحة العليا وتفانٍ في أداء الواجب وتكامل بين أبناء الأمة، وانصهروا جميعاً في تحقيق الأهداف العليا.

[٤٣] رأت الدولة الزنكية أن لا قوة للأمة إلا باتحاد العراق مع الشام فبدأت الدولة الفتية في توحيد أقطارها الإسلامية، ورأت بمنظورها البعيد أن لا

عزة للأمة ولا قضاء على النصارى إلا بالقضاء على دولة الرافضة العبيدية، فأعدوا للأمر عدته، واستطاع نور الدين أن يسقط الدولة العبيدية، ويوحد جبهة القتال الشامية المصرية عام ٥٦٤ هـ، وكان ذلك على يد أحد أعوانه المخلصين صلاح الدين الأيوبي.

ويظهر لقارئ التاريخ أن الأمة لا تستطيع أن ترد هجمات النصارى إلا إذا اتحد الشام مع مصر ويكون ما خلفها من ديار المسلمين ردءاً لهما.

وأما دور الأمة الهجومي لاستمرار عجلة الجهاد والتوغل في أوربا لا يكون لها ذلك إلا إذا انضم الشمال الإفريقي مع بلاد الشام والديار المصرية.

[٤٤] أجادت الدولة الزنكية في إقامة شبكات أمنية على مستوى أملاكها تتبع كل التنظيمات البدعية التي تعمل على إسقاط الدولة السنية الزنكية الفتية، فكانت الدولة الزنكية تهتم بتتبع أقليات النصارى في ديارها، وخنق أتباع العبيديين وجعلهم تحت أعين الدولة. ولذلك فإن الحركات الإسلامية السنية التي تسعى للوصول للحكم من أجل تحكيم شرع الله عليها أن تهتم بمكاتبها الأمنية وتطورها بما يليق مع مستوى المرحلة التي تمر بها حتى تستطيع أن تحجم دور الجيوب الداخلية في الأمة «تنظيمات بدعية أو علمانية أو نصرانية أو يهودية» وإتقان هذا الجانب من أهم أسباب التمكين.

[٤٥] إن الدولة النورية الزنكية ما كانت تسند أمورها القيادية إلا لجنودها وقادتها المخلصين لفكرتها، ولذلك بعد ما مات نور الدين محمود التقط الراية صلاح الدين، واستمر في تحقيق الأهداف المرسومة.

إن من الأخطاء القاتلة التي تمر بها الأمة أحياناً أن تتعلق بالأشخاص فإن ماتوا ضعفت وإن انحرفوا انحرفت، ولذلك يجب على الدعاة أن يجعلوا الأمة تتعلق بالمنهج حتى تستطيع أن تستمر في أداء وظيفتها الرسالية.

[٤٦] لا بد للأمة التي تسعى لإزالة الدول الكفرية والأحكام الجاهلية أن يمتزج فيها الجانب العلمي التربوي في الاستعداد العسكري الجهادي، وأن تكون القيادة العليا لأصحاب العلم الربانيين. ومن ظن أن الأمة بالقوة العسكرية وحدها ترجع مجدها فقد أخطأ السبيل، وما أفغانستان عنا ببعيد، ومن ظن أن الجانب العاطفي الجياش وحده يقوي الأمة فقد خالفه الصواب، وما ديار الجزائر عنا ببعيد، ومن ظن أن الجانب العلمي وحده أو السياسي وحده هو الحل العلمي فقد جانبه الصواب، وإنما الحل في الأخذ بالإسلام جملة، فالإعداد لا بد أن يشمل كافة المجالات التي يتناولها الإسلام من دولة ووطن أو حكومة وأمة، أو خلق وقوة أو رحمة وعدالة، أو ثقافة أو قانون، أو علم وقضاء أو مادة وثروة أو كسب وغنى، أو جهاد ودعوة، أو جيش وفكرة كما هو عقيدة صادقة وعبادة صحيحة سواء بسواء. وهذا الذي اهتم به جيل التمكين في زمن نور الدين محمود وصلاح الدين.

[٤٧] إن صلاح الدين الأيوبي تدرج في القضاء على الدولة العبيدية ورضي بأن يتولى وزارة التفويض وبدأ في تقليص الوجود العبيدي وإظهار التوجه السني، ولم يستعجل النتائج، ولا بد من مراعاة سُنة التدرج في تغيير الشعوب وإزالة الدول، كما أنه لا بد من الاهتمام بالتخصص في أمور الدولة ومن التفنن في توزيع الأدوار حتى يتكامل العاملون لتحقيق أهدافهم.

[٤٨] إن صلاح الدين أمضى سلاح العفو عند المقدرة مع خصومه ، فكان له أثر بالغ في كسب النفوس ومداواة الأمراض، وتوحيد الصفوف والقضاء على الفتن الداخلية، فالعفو عند المقدرة عندما يكون في محله يقوي الدولة ويجذب القلوب ويقضي على الخصوم.

[٤٩] عندما تمكن صلاح الدين من توحيد الجبهة الداخلية تحرك بجيوشه الجرارة لتطهير الشام من الصليبيين، وكان تحركه الميمون وفق خطة عسكرية محكمة، بدأ في انتزاع الحصون والمدن القريبة من مصر، واستدرج النصارى إلى مواقع اختارتها أركان حرب صلاح الدين ألا هو «حطين» ووجه ضربته المباركة في حطين التي كانت مفتاح القدس.

[٥٠] إن أخلاق القادة الرفيعة تظهر في الفتوحات العظيمة، ولقد ضرب صلاح الدين أروع الأمثلة في الأخلاق والعفة والكرم والصفح في فتحه للقدس، حتى إن ملوك النصارى ومؤرخيهم تأثروا بهذه الأفعال الجميلة والأيادي الجزيلة والفضل ما شهدت به الأعداء.

[٥١] إن القيادة الفكرية والعلمية لم تكن في يد صلاح الدين، وإنما كانت مرتكزة عند العلماء والفقهاء، وبرز من أعوان صلاح الدين القاضي الفاضل الذي أخذ بيد صلاح الدين نحو تطبيق شرع الله، فعندما تكون القيادة الفعلية في الأمة للعلماء الربانيين والقادة العسكريين الذين ينقادون لأحكام الله يكون النصر حليفهم ويمكن الله لهم ما داموا على نهجه سائرين.

[٥٢] إن الأمة تتفاعل مع قيادتها العلمية التي تنزل الأفكار في دنيا الناس وتعيش بها وتلتف الأمة حولها وتقدم لقادتها كل ما تملك، أما إذا كان القادة أصحاب كلام لا فعال وعقيدتهم ميتة لاتحيي قلباً، ولا تدفع شخصاً، وجلسوا للتنظير والقيل والقال، فإن الأمة تتمزق وتنشطر وتتفرق، ويعم الشتات، وهذا ملاحظ من سيرة نور الدين محمود الذي أقام الإسلام على نفسه، ونزل بنفسه ساحات الوغى ، وكذلك في سيرة صلاح الدين وتلاميذه.

[٥٣] مهما استطال الظلم وامتد وتوسع فلا بد من نهاية له سواء تمثل في فرد أو

في دولة، وهذه النهاية خاضعة لتقدير الله وفق سنته وقانونه في استدراج الظالمين والانتقام منهم وجعلهم عبرة لغيرهم فأين حكام العبيديين وأين ملكهم ودولتهم.

[٥٤] إن الجهاد عندما تقوم به الأمة كلها بقيادة أهل الحل والعقد يؤتى أكله بعد حين وعندما يتصدى لقيادة الجهاد جهال وأنصاف علماء وشباب متحمسون تكون النتائج وخيمة.

[٥٥] إني أعتبر ما قام به صلاح الدين ونور الدين من أعمال مجيدة ثمرة لجهود علماء وفقهاء ومربين بذلوا جهوداً عظيمة أخرجت هذا الجيل الذي قضى على دولة العبيديين وكسر شوكة النصارى في حطين، وطهر المسجد الأقصى من أسر الحاقدين.

[٥٦] إن الاهتمام بصفات القادة الربانيين والعلماء العاملين يفيد الأمة في تربيتها الطويلة وإعدادها الجاد لعودة صولتها وجولتها في دنيا الوجود على منهج قويم وتوجيه سليم.

[٥٧] إن هذا المجهود المتواضع قابل للنقد والتوجيه وما هي إلا محاولة متواضعة وبيني وبين الناقد قول الشاعر:

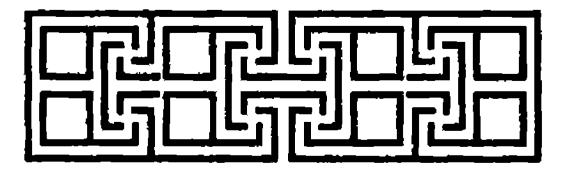
إن تجد عيباً فسدّ الخللا ... جلّ من لا عيب فيه وعلا

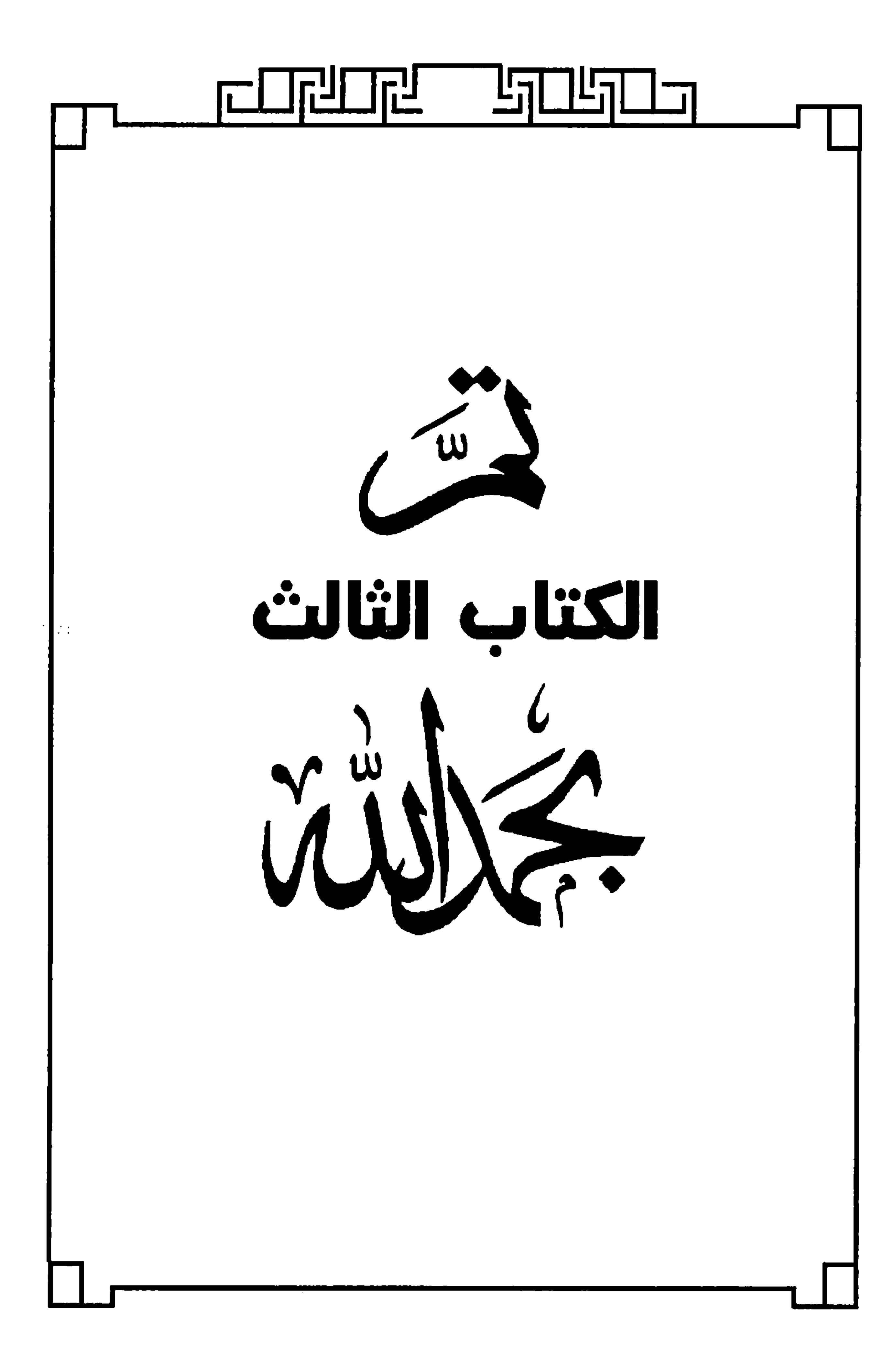
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

كتبه

علي محمد محمد الصلابي

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين




تم
الكتاب الثالث
بحمد الله

الكتاب الرابع

دولة المرابطين

مُقدِّمة

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا ، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ .

[آل عمران ١٠٢]

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾ [النساء: ١] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً ﴾[الأحزاب: ٧٠-٧١] .

وبعد :

فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى ، وخير الهدي هدي محمد ﷺ ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة .

أما بعد :

يارب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك، وعظيم سلطانك، لك الحمد حتى ترضى ولك الحمد إذا رضيت.

هذا الكتاب الرابع **[صفحات من التاريخ الإسلامي في الشمال الإفريقي]** ، يتحدث عن **[دولة المرابطين السُنية]** منذ نشأتها وحتى سقوطها ، ويتعرض لسُنن الله في بناء الدول وإحياء الشعوب ، فيعطي نبذة تاريخية عن أصول القبائل التي قامت عليها دولة المرابطين ، فيتكلم عن مواطنها ومواقعها وحياتها الإجتماعية والسياسية والاقتصاية والدينية قبل دخول الإمام عبد الله بن ياسين

في قلب الصحراء الكبرى لدعوة قبائل صنهاجة إلى الإسلام ، وكيف تعامل ذلك الإمام مع تلك القبائل وجعل منها أمة تحمل الإسلام عقيدة ودعوة ومنهجًا ، كما يسلط هذا الكتاب الأضواء على زعماء دولة المرابطين من أمثال : الأمير يحيى بن إبراهيم ، والأمير أبي بكر بن عمر ، ويوسف بن تاشفين ويتكلم عن خط سير المرابطين في توحيد المغرب الأقصى ، وتوغلهم الدعوي في جنوب المغرب نحو غانا ومالي ، وغيرها من دول إفريقيا ،**ويتحدث عن** دفاع المرابطين عن مسلمي الأندلس وأسباب ضعف المسلمين هناك ، وعن أثر تحكيم شرع الله في مجتمع المرابطين ، وعن سياستهم الداخلية والخارجية ، وكيف أعطوا حقوق الرعية من خلال دستور دولتهم السُنية ، وما موقف الرعية من دولة المرابطين ؟ .

ويتحدث عن علاقة دولة المرابطين بالخلافة العباسية ، ودولة بني حماد وملوك الطوائف والإسبان والنصارى ، ويعطي نبذة مختصرة عن أنظمة الدولة المرابطية ، كنظام الحكم والإدارة ، والنظام القضائي والنظام العسكري ، والنظام المالي ، ويدافع عن دولة المرابطين ويبين مآثرها الحضارية من أعمال معمارية وحياة أدبية علمية وفقهية وتاريخية وجغرافية وطبية ، ويجد القارئ الكريم في ثنايا هذا البحث تركيزًا على معرفة سُنن الله وكيفية التعامل معها من خلال الوقائع التاريخية ، وأهمية العلماء في قيادة الأمة نحو المجد والعزة والكرامة ، وكيف حرصوا على الأخذ بالأسباب المادية والمعنوية التي حققت النصر على الأعداء ، **ويتحدث عن** أهمية سُنة التدرج في تغيير الشعوب وبناء الدول ، ويعطي للتربية القرآنية أهمية قصوى في تحقيق الأهداف العظمى للأمة سواء على مستوى القادة في أخلاقهم وعلمهم وجهادهم ، أو مستوى الشعوب في استجابتها لكتاب ربها وسُنَّة نبيها ﷺ وقيادته المخلصة .

وهذا الجهد المتواضع حاول أن يُسلط الأضواء على فقه التمكين من خلال التحليل والتفسير للأحداث التي وقعت في دولة المرابطين .

والهدف من هذا الكتاب :

﴿ ١ ﴾ التعريف بزعماء دولة المرابطين من أمثال : عبد الله بن ياسين ، ويحيى بن إبراهيم ، وأبي بكر بن عمر، ويوسف بن تاشفين، وأبي عمران الفاسي .

﴿ ٢ ﴾ إظهار معانٍ في فقه التمكين من خلال المنظور التاريخي لدولة المرابطين ، فيوضح مراحل التمكين التي مرت بها الحركة المرابطية إلى أن وصلت إلى الدولة ، وما الأسباب التي اتخذوها والشروط التي حققوها ، وما الأهداف التي نفذوها لما وصلوا إلى الحكم .

﴿ ٣ ﴾ تسهيل مبدأ الاعتبار والاتعاظ بمعرفة أحوال الدول وعوامل بنائها وأسباب سقوطها،والنظر في سُنن الله في الآفاق،وفي الأنفس والمجتمعات .

﴿ ٤ ﴾ الاهتمام بمعرفة عقيدة أهل السُنَّة والجماعة ، وتربية أبناء الأمة عليها ، وكيف كان اهتمام المرابطين بهذه العقيدة التي استمدوها من كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ .

﴿ ٥ ﴾ إثراء المكتبة الإسلامية التاريخية بالأبحاث المنبثقة عن عقيدة صحيحة وتصور سليم بعيد عن سموم المستشرقين ، وأفكار العلمانيين الذين يسعون لقلب الحقائق التاريخية من أجل خدمة أهدافهم .

أما خطة الكتاب : فقد قمت بتقسيمه إلى خمسة فصول :

الفصل الأول : بناء دولة المرابطين :

ويشتمل على ستة مباحث :

المبحث الأول:الجذور التاريخية للمرابطين .

المبحث الثاني:الأمير يحيى بن إبراهيم .

المبحث الثالث:أبو عمران الفاسي .

المبحث الرابع: الزعيم الديني لدولة المرابطين عبد الله بن ياسين .

المبحث الخامس: المراحل التي مر بها ابن ياسين لبناء الدولة .

المبحث السادس: مرحلة التمكين .

الفصل الثاني : المرابطون ودفاعهم عن مسلمي الأندلس :

ويشتمل على تسعة مباحث :

المبحث الأول: الصراع بين طليطلة وقرطبة .

المبحث الثاني: أسباب ضعف المسلمين في الأندلس .

المبحث الثالث: العالم في زمن ظهور دولة المرابطين .

المبحث الرابع: أثر الحكم بما أنزل الله على مجتمع المرابطين .

المبحث الخامس: الأندلس بعد الزلاقة .

المبحث السادس: الفتاوى في جواز ضم الأندلس .

المبحث السابع: العبور الثالث للأمير يوسف بن تاشفين .

المبحث الثامن : الجواز الرابع .

المبحث التاسع: آثار الابتعاد عن تحكيم شرع الله .

الفصل الثالث : السياسة الداخلية والخارجية في دولة المرابطين .

ويشتمل على ستة مباحث :

المبحث الأول: حقوق الرعية في دولة المرابطين .

المبحث الثاني: موقف الرعية من دولة المرابطين .

المبحث الثالث: موقف المرابطين من الخلافة العباسية .

المبحث الرابع: علاقة الأمير يوسف مع بني حماد .

المبحث الخامس: علاقة المرابطين مع ملوك الطوائف .

المبحث السادس: علاقة المرابطين مع الإسبان النصارى .

الفصل الرابع : سياسة المرابطين في دولتهم المجيدة :

ويشتمل على خمسة مباحث :

المبحث الأول : نظام الحكم والإدارة .

المبحث الثاني: النظام القضائي .

المبحث الثالث: النظم العسكرية .

المبحث الرابع: النظام المالي .

الفصل الخامس : أهم أعمال دولة المرابطين الحضارية :

ويشتمل على سبعة مباحث :

المبحث الأول: الآثار المعمارية في المغرب والأندلس .

المبحث الثاني: الحياة الأدبية والعلمية في دولة المرابطين .

المبحث الثالث: من مشاهير علماء دولة المرابطين .

المبحث الرابع: علوم اللغة في زمن المرابطين .

المبحث الخامس: علوم التاريخ والجغرافيا .

المبحث السادس: علوم الطب في عصر المرابطين .

المبحث السابع: أسباب السقوط .

- نتائج البحث .

وأخيراً :

أرجو من الله تعالى أن يكون عملاً خالصًا لوجهه الكريم ، وأن يثيبني على كل حرف كتبته ويجعله في ميزان حسناتي ، وأن يثيب إخواني الذين أعانوني

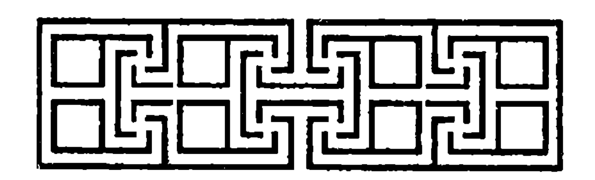
بكافة ما يملكون من أجل إتمام هذا الكتاب .

سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

كتبه

علي محمد محمد الصلابي

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين



الفصل الأول
بناء دولة المرابطين

المبحث الأول
الجذور التاريخية للمرابطين

تمهيد :

تعتبر قبائل صنهاجة أقوى قبائل البربر و أشدها و أمنعها، واشتهرت بقوة شكيمتها وكثرة رجالها الذين ملؤا الشمال الإفريقي و سكنوا جباله، وسهوله وخصوصاً من المغرب الأوسط إلى المغرب الأقصي.

واعتبر بعض المؤرخين أن قبائل صنهاجة مثلث شعباً انضوت تحت لوائه أكثر من سبعين قبيلة بربرية، ومن أهم هذه القبائل وأشهرها لمتونة، وجدالة، ولمطة، ومسوفة ، وهي التي تكونت منها دولة المرابطين السنية. وبعض المؤرخين يجعل القبائل الصنهاجية لها أصل من حمير بن سبأ أي: أن أصلهم يمانيون.

والبعض الآخر يذهب إلى أنهم برابرة لا علاقة لهم بالعرب [١] .

[١] تسمية الملثمين :

اشتهرت القبائل الصنهاجية في التاريخ باسم المثلمين، وأصبح اللثام شعاراً عرفوا به إلى أن تسموا بالمرابطين، ويري بعض المؤرخين أن المثلمين ينتسبون إلى قبيلة لمتونة إحدي بطون صنهاجة وكانت لمتونة تتولي رئاسة سائر قبائل مسوفة، ومسراته، ومداسة، وجدالة، ولمطة، وغيرها، ثم آلت الرئاسة إلى قبيلة جدالة

---

(١) انظر : دولة المرابطين في المغرب والأندلس ، د . سعدون عباس(ص ١٢ ، ١٣) .

علي عهد الأمير يحيي بن إبراهيم الجدالي [١] .

ويبدو أن إطلاق اسم الملثمين في بدايته كان خاصًّا بقبيلة لمتونة ثم توسع وأصبح شعاراً لكل من حالف لمتونة ودخل تحت اسم سيادتها.

[٢] سبب تسميتهم:

وأما سبب تسميتهم فقد وردت أقوال كثيرة في سبب تسميتهم بذلك، منها: أن أجدادهم من حمير كانوا يتلثمون لشدة الحر، ويذهب إلى هذا الرأي من ظن أن أصل قبائل صنهاجة يرجع إلى الهجرات القديمة من المشرق لأسباب متعددة، منها اقتصادية وسياسية.

ومنها : أنهم آمنوا بالرسول ﷺ وكانوا قلة ، فاضطروا للهرب لما غلبهم أهل الكفر ، فتلثموا بقصد التمويه ، وقيل إن طائفة منهم أغارت علي عدو لهم فخالفهم إلى مواطنهم وهي خالية إلا من النساء والأطفال والشيوخ ، فأمر الشيوخُ النساءَ بأن يرتدين لباس الحرب ويتلثمن، ففر الأعداء وهكذا اتخذوا اللثام سُنة مُلْتَزَمَه ، وارتقي عندهم إلى مستوي رفيع في حياتهم وأعرافهم ومما قيل في اللثام:

قوم لهم العلا في حمير ... وإن انتموا صنهاجة فهمُ همُ
لما حَوَوْا إحْرَازَ كُلَّ فضيلة ... غلبَ الحياءُ عليهمُ فتلثموا [٢]

[٣] موطن الملثمين:

سكن الملثمون الصحراء الكبري الممتدة من غدامس شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً، ومن جبال درن شمالاً إلى أواسط الصحراء الكبري جنوباً.

ولم تكن هذه الأماكن والمواطن تجري بها أنهار دائمة وكانت قليلة الأمطار

---

(١) **انظر** : تاريخ المغرب والأندلس في عصر المرابطين ، د . حمدي عبد المنعم (ص ٢٧) .
(٢) **انظر** : وفيات الأعيان (جـ٧ / ١٣٠) .

وأحياناً تحبس عنها الأمطار لسنوات عديدة ، فيتعرض سكانها للمجاعة فيرتحلون لطلب الماء والكلأ، فتفرقوا حول الواحات الصغيرة في تلك الصحاري الممتدة الأطراف، وكونوا قري بدائية تتماشى مع ظروف حياتهم الرعوية (١) .

[٤] حياتهم الاقتصادية:

توزع الملثمون حول الواحات بحثاً عن المياه وعملوا في الزراعة وخاصة زراعة الشعير الذي ينبت في الأرض الفقيرة ويكفيه قليل من الماء، وقد ازدهرت زراعته في منطقة أزكي التي تسكنها قبيلة لمتونة.

وكان النخيل من أهم أشجارهم، وكانت مدينة سجلماسة من أهم واحات الصحراء عمراناً بشجر النخيل واستفاد الملثمون من ظل أشجار النخيل فزرعوا البطيخ والقرع والقثاء ، وشهدت بعض الواحات زراعة الذرة ، وازدهرت في واحة سلجماسة زراعة القطن، وقصب السكر، وكانت وسيلة الزراعة في تلك الواحات الصحراوية المحراث البدائي الذي تجره الجمال.

وكانت تلك القبائل تهتم بتربية الحيوانات للحصول علي القوت ، ولكي يستعملوها في تنقلاتهم ، ومن أهم الحيوانات التي اهتموا بها الإبل ، والتي كانوا يشربون ألبانها ويأكلون لحومها ويستفيدون من أوبارها وجلودها لصناعة العباءات والألبسة والنعال ، وسقف البيوت الصغيرة .

وكذلك اهتموا بتربية البغال والحمير لاستخدامها في النقل المحلي (٢) .

واهتموا بتربية المواشي من بقر وغنم وماعز لاستعمال ألبانها ولحومها في غذائهم، وجلودها وأصوافها في لباسهم، واهتموا بتربية النحل للحصول علي العسل والشمع، وقد مارسوا الصيد وخاصة صيد البقر الوحشي.

---

(١) **انظر** : دولة المرابطين في المغرب والأندلس (ص ١٣) .

(٢) **انظر** : دولة المرابطين (ص ١٥) .

وازدهرت الصناعات المحلية للاكتفاء الذاتي، وتطورت في الكم والنوع الصناعات المنزلية وكذلك الأدوات الحربية التي ازدهرت بسبب الحروب المستمرة بين الملثمين وجيرانهم الوثنيين من السودان وغانا، واهتموا بصناعة السروج ولجم الخيل، وازدهرت الصناعات الغذائية فاستخرجوا الزيت من ثمر الفرتي وذلك بعصر قشره، واستعملوه في طهي الطعام وإنارة السرج ليلاً، وكانوا يمزجونه بالرمل ويطلون به أسطح المنازل فيخفف من شدة الحر ، ويمنع تسرب الماء، واشتهرت مدينة تارودانت بصناعة قصب السكر، والمنسوجات والألبسة من الصوف والقطن والوبر، وكانوا يصنعون من ثمار القرع أواني يضعون فيها الملح والبهارات .

ومن أهم المعادن في بلاد الملثمين ، الملح ويكثر في أوليل وتغاري والأخيرة تضم معظم مناجمه وهي علي شكل ألواح يقطعها العبيد وتحملها الجمال إلى بلاد السودان وغانا، وكان الحمل الواحد يُباع في السودان بعشرة مثاقيل من الذهب، أما في مالي فكان يُباع بعشرين مثقالاً، وربما ارتفع إلى الثلاثين، كان للملح أهمية في حياتهم الاقتصادية، إذ كانوا يقطعونه قطعاً صغيرة يقايضون به كالذهب والفضة ، وكان الفائض من إنتاجهم الزراعي والصناعي يُصدر إلى خارج بلادهم (١) .

[٥] أهمية موقع الملثمين :

كانت بلاد الملثمين الممر الوحيد بين الأندلس وأواسط افريقية فكانت تسلكه القوافل على ثلاث طرق ، فالطريق الأول وهو الطريق الساحلي على المحيط الاطلسي ينطلق من أغادير مارا بنواكشوط حتى مصب نهر السنغال يقابله طريق داخلي غير بعيد عنه لجهة الشرق هو طريق تارودانت أويل أما الطريق الثاني وهو

---

(١) **انظر** : دولة المرابطين(ص ١٦) .

الأوسط فيمتد من أواسط المغرب إلى قلب الصحراء حتى بلدان مالي والنيجر يبدأ هذا الطريق من سجلماسة ويمر باسكي حتى ود غشت في بلاد النيجر.

والطريق الثالث والأخير وهو طريق الصحراء يمتد من السودان الغربي إلى أواسط الصحراء شرقا ولا تخلوا هذه الطرق من صعوبات طبيعية كتحرك الرمال يمحى معالمها وتتعرض القوافل المارة بها إلى مخاطر لا يحمد عقباها ولذلك احتاجت هذه القوافل للقُصَّاص من الملثمين لكي يقودوا القوافل في تلك الصحارى حتى تصل إلى بر أمانها مقابل مبالغ مالية على المجهود الرائع العظيم.

ونشطت حركة التجارة بين افريقية الغربية وبلاد المغرب والأندلس بسبب الدور الريادي الذي قامت به قبائل لمتونه ومسوفه وجداله التي كونت حلقة الاتصال الناجحة والمستمرة للأطراف المشاركة وكثرت الأسواق التجارية التي تعرض فيها بضائع بلاد الأندلس وبلاد المغرب الأقصى وبلاد السودان الغربي حتى يتم التبادل بالتقايض أو بالذهب والفضة على حسب الاتفاق بين المتبايعين من أشهر تلك الأسواق التي اشتهرت في تاريخ البلاد اوغشت أغمات أسيلا [١].

[٦] الحياة الاجتماعية في بلاد الملثمين:

وأدى ازدهار التجارة في بلاد الملثمين إلى ظهور طبقة من الأثرياء تجمعت لديهم أموال عظيمة بسبب نشاطهم التجاري، وعلى رأس هذه الطبقة الأمراء الذين استأثروا بالحكم وحافظوا على مصالحهم، وكانت هذه الطبقة مستعدة لمقاومة من يهدد مصالحها ويحاول انتزاع مكانتها ووجاهتها، مستخدمين من أجل هذه الأهداف الأساليب المشروعة والمحرمة، ويساندهم في ذلك الفقهاء المحليون الذين ارتبطت مصالحهم بهم، وأصبحت أطماعهم والسعي لتحقيقها فوق أحكام الله.

---

(١) انظر: دولة المرابطين (ص ١٨).

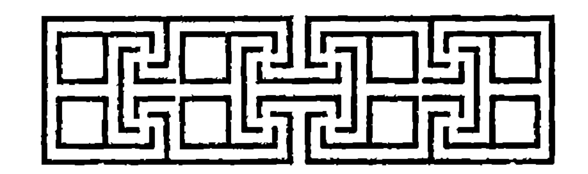
واحتكرت هذه الطبقة الأراضي الزراعية في الواحات وكذلك مناجم الملح وقطعان الماشية أي جميع مصادر الثروة وكانت تبنى بيوتها بطريقة تدل على ترفعها عن سائر الناس ومعلوم لدى الدارسين والباحثين في تاريخ المجتمعات البشرية انه عندما تظهر طبقة ذات غناء مفرط ينتج عنه ظهور طبقة من الفقراء المدقعين وهذا ما حدث في المجتمع الملثم حيث نجد أن عامة الناس أصابهم الفقر واضطروا إلى الاشتغال برعي المواشي وبالعمل في الاراضي الزراعية ويؤدون الضرائب للأمراء والأعيان الذين استغلوهم استغلاً مشيناً ، وكانت طبقة الفقراء تتعرض للمجاعة في سنوات الجفاف ، وكانت منازلهم من أغصان الأشجار مغطاة بالجلود كالأكواخ.

وظهرت في المجتمع الملثم كثرة العبيد الذين استخدموا وسخروا للعمل في مناجم الملح ، وجلهم كانوا أسرى في الحروب التي نشبت بين الملثمين والوثنيين وارتفع شأن العبيد فيما بعد فكانوا فرقة خاصة في جيش المرابطين واشتهرت المرأة الملثمة بالجمال وهي سمراء اللون وبعض نساء الطبقة العليا كانت لهن منزلة رفيعة فاقت منزلة الرجال في بعض الأحيان.

و انتشرت عادات خبيثة في المجتمع الملثم يتنافى مع تعاليم الإسلام ، بل هي عادات غارقة في مستنقعات جاهلية ، ومن أبشع هذه العادات السيئة الزواج بأكثر من أربعة حرائر ، وعادة الزنا ، ومصادقة الرجل للمرأة المتزوجة بعلم زوجها وحضوره ، وغابت العقيدة الإسلامية الصحيحة عن ذلك المجتمع واضطربت تصوراته ، وانحرف عن الصراط المستقيم بعدما كان أجداد هذا المجتمع قد امنوا بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد ﷺ نبيا ورسولاً ، ونبذوا ديانتهم المجوسية القديمة بل كان أجداد هذا المجتمع دعاة إلى الله ورفعوا لواء الجهاد وخاضوا حروبا في سبيل إعلاء كلمة الإسلام الخالدة التي وصلتهم بعد فتح الأندلس.

واشتهر من ملوك الملثمين بحرصهم على نشر الإسلام وكسر شوكة من يعاديه الملك تيولوثان بن تيكلان اللمتونى ، الذي حارب القبائل الوثنية ونشر بينها الإسلام بعد وفاته (سنة ٢٢٢هـ) خلفه حفيده الذي دام حكمه حتى وفاته (عام ٢٨٧ هـ) فخلفه ابن تميم الذي قتل (عام ٣٠٦ هـ ٩٢٠م) على يد مشايخ صنهاجة .

وبعد ذلك افترقت كلمة الملثمين وضاعت كثير من تعاليم الدين واستمر شتاتهم مدة (١٢٠ سنة) إلى أن قام بالأمر الأمير محمد بن تيفاوت اللمتونى [١] الذي وحدهم وقد استشهد هذا الأمير بعد ثلاث سنوات من حكمه على يد الوثنين وقام بالأمر بعده صهره الأمير يحيى بن إبراهيم الجدالى الذي قاد قومه نحو دين الله بعد رجوعه من حجته ورحلته المشهورة .



(١) **انظر** : ابن أبي زرع ، روض القرطاس ، (ص ٧٤٦) نقلاً عن دولة المرابطين (ص ١٩)

المبحث الثاني
الأمير يحيى أبن إبراهيم الزعيم السياسي

كان الأمير يحي بن إسماعيل سيداً مطاعاً في قومه لما عرف عنه من شجاعة وكرم وجود ومقدرة قيادية عالية واشتهر برجاحة عقلة ونفاذ بصيرته وسداد رأيه وحرصه على هداية قومه.

خرج هذا الأمير الجليل من ديار الملثمين قاصدا بيت الله الحرام لأداء فريضة الحج تاركاً الحكم لابنه إبراهيم عام ٤٢٧ هـ ١٠٣٥/م [١] .

وكانت العادة أن يقترن الحاج بطلب العلم وبعد أداء الفريضة انطلق الحاج يحيى يبحث عن المعرفة في مدارس المغرب الفقهية طالباً العالم لرواء روحه الظمأى إلى نور المعرفة الإسلامية التي اندثرت معالمها في بلاده ورمت به أقدار الله في حلقة إمام المغرب في زمانه في مدينة القيروان «الإمام أبو عمران الفاسي» الذي تعلقت نفس الأمير يحيى بتعاليمه وفقه وعرض نفسه على الإمام أبى عمران الفاسى الذي وردت زعامة المدرسة المالكية التي انتصرت على الهيمنة الإسماعيلية العبيدية الباطنية الرافضية واستردت حريتها كاملة بعد جهادهم المرير الذي أصبح معلما من معالم أهل السُّنَّة في الشمال الإفريقي.

وأعجب الشيخ أبو عمران بالأمير يحيى لما لمسة من حبه للخير وحرصه على التعليم ، وتحدث إليه الأمير عن سوء الأحوال الاجتماعية في بلاده وجهل قبائلها بأصول الدين وفروع الشريعة ، وطلب من أبي عمران أن يبعث معه أحد طلبته ليعلم قومه أصول الفقه والشريعة الإسلامية [٢] .

---

(١) **انظر** : دولة المرابطين (ص ١٩) .

(٢) **انظر** : تاريخ المغرب والأندلس في عصر المرابطين (ص ٣٨) .

وتذكر بعض كتب التاريخ أن أبا عمران الفاسي هو الذي وضع الخطوط الأولى مع الزعيم يحيى بن إبراهيم لقيام دولة صحراوية سنية في المغرب على أسس دينية صحيحة كي تستطيع القضاء على الفوضى السياسية والدينية التي كان المغرب يتخبط فيها منذ سنوات عديدة وفى ذلك يقول صاحب كتاب: «بعض مشاهير أعيان فاس في القديم» : «ولما اجتمع أبو عمران مع يحيى بن إبراهيم ندبه إلى قتال برغواطة وقتال زناتة على ما صدر منهم من الظلم واستنزل رؤسائهم من الولاية فوعده يحيى بالنهوض إلى ذلك» (١) .

وكان يحيى بن إبراهيم حريصاً على اخذ فقيه وعالم معه إلى قومه ورأى أبو عمران الفاسي من أجل تحقيق الأهداف التي رسموها انه لابد من المرور بمراحل ضرورية في بناء الدولة المنشودة من مرحلة التعريف بالمنهج وتكوين أفراده وتربيتهم عليه وتنفيذ السياسة المرسومة بعد التكوين للوصول إلى مرحلة القوة والتمكين.

فأحال أبو عمران أمير الملثمين على تلميذ له في بلاد السوس في أقصى المغرب وهو الفقيه وجاج بن زلوا اللمطي ، الذي كان يقيم في رباط هناك بمدينة نفيس يسمى دار المرابطين ، ومن هذا الرباط أرسل وجاج صحبة هذا الأمير الفقيه عبد الله ا بن ياسين الجازولي ليفقه هؤلاء الصحراويين في أمور دينهم.

وكان يحيى بن إبراهيم بجانب تفكيره في إخراج قومه من الظلمات إلى النور يفكر في إنقاذ قومه من الهيمنة الزناتية الظالمة التي كانت قبائل صهناجة الملثمة تعانى من جورها وقسوتها وإذلالها وإهانتها.

لقد رأى الأمير يحيى أن طريق عزة قومه في تمسكهم بالإسلام الصحيح وقد لاحظ الأمير يحيى بن إبراهيم أن كل من حركوا القبائل البربرية وهيأها لإنشاء

---

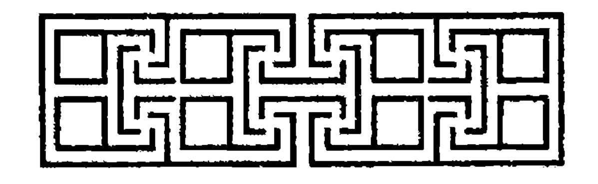
(١) انظر : في تاريخ المغرب والأندلس ، د . أحمد العبادي ، (ص ٢٧١) .

الدولة كانوا جميعاً من المتحمسين من علماء الدين، أو أصحاب الدعوات الدينية ، سواء كانت خارجية بدعية أو اسماعلية كفرية ، أو إدريسية مالكية ، من أمثال أبي الخطاب بن عبد الأعلى بن السمح المعا فرى الخارجي ، وأبي عبد الله الشيعي الباطني وإدريس بن عبد الله بن الحسن بن على بن أبى طالب حتى برغواطة ذات الديانة الشركية المجوسية اليهودية ، تزعمها رجل يدعي انه من أهل العلم وهو ميسرة الفقير ، وحتى قبيلة غمارة تزعمها صالح البرغواطي الذي زعم أنه صالح المؤمنين الذي ورد ذكره في القرآن [١] .

لهذه الجولة الأخيرة التي مرت في ذاكرته حرص على الاهتمام بالشيخ عبد الله ياسين الرجل الفقيه العالم السني ليعلم قومه ويزكيهم ويفقهم.

كما كان الأمير يحيى بن إبراهيم يخشى من خطر الجنوب ويهتم بدعوة القبائل الوثنية للإسلام.

وبدأ الأمير يحيى في شق طريقة المليء بالأشواك من اجل إنقاذ قومه وإعزازهم في الدنيا والآخرة ورجع إلى أهله وعشيرته ومعه الرجل الرباني الفقيه المالكي والمربي الصبور والزعيم الديني الإمام عبد الله بن ياسين وقبل الدخول في سيرته نترجم للإمام السني المالكي سيد القيروان في زمانه.



(١) **انظر** : معالم تاريخ المغرب والأندلس ، د . حسين مؤنس(ص ١٦٠) .



المبحث الثالث

أبو عمران الفاسي

مهندس الخطوط العريضة لدولة المرابطين (٣٦٨هـ - ٤٣٠هـ)

ذكر القاضي عياض في ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك ترجمة أبي عمران الفاسي فقال: «هو موسى بن عيسى بن حجاج بن الخير الرفجومي، ورفجوم فخذ من زناتة من هوارة واصله من فاس وبيته بها بيت مشهور يُعرفون ببني أبي حاج ولهم عقب وفيهم نباهة إلى الآن» (١).

[١] شيوخه:

تفقه بالقيروان عند أبي الحسن القاسي وسمع بها من أبى بكر الدويلي وعلى بن احمد اللواتي السوسي ورحل إلى قرطبة فتفقه بها عند أبي محمد الاصيلي وسمع الحديث من أبي عثمان سعيد بن نصر وعبد الوارث بي سفيان واحمد بن قاسم وغيرهم ثم رحل إلى المشرق فحج ودخل العراق فسمع من أبي الفتح بن أبي الفوارس وأبي الحسن علي بن إبراهيم المستملي وأبي الحسن الخضر وغيرهم من العراقيين (٢) ودرس الأصول على القاضي أبي بكر الباقلاني، وسمع بالحجاز من أبى الحسن بن أبي فراس وأبي القاسم السقطي وبمصر من أبي الحسن ابن أبي جدار واحمد بن نور القاضي ثم رجع إلى القيروان وسكنها وأصبح سيدها المطاع واقبل عليه طلاب العلم من كل صوب وطارت فتاويه في المشرق والمغرب واعتنى الناس بقوله (٣).

---

(١)، (٢) ترتيب المدارك، الطبعة المغربية، (جـ٧ / ٢٤٣/ ٢٤٤)

(٣) **انظر**: مدرسة الحديث في القيروان(جـ٢ / ٧٦٥ - ٧٦٦)

[٢] أثره وتلاميذه:

ابتدأ نشاطه العلمي سنة ٤٠٢ هـ حين عاد من المشرق فقد جلس للطلبة في المسجد وفي داره أيضا وسرعان ما عرف قدره واشتهرت إمامته وطار ذكره الأفاق وقد خلف الإمام الفاسي المتوفى سنة ٤٠٣ هـ في نشر علوم السُّنَّة في افريقية ورئاسة العالم بها ورحل إليه الناس من الأقطار لسماع مروياته ونقلها لمن لم يستطع الاجتماع به [١] .

وكان يجلس في حلقتة العلمية من بعد صلاة الصبح إلى صلاة الظهر يحدثهم ويملي عليهم ويقرأ لهم ، « فلا يتكلم بشيء إلا كتب عنه إلى أن مات » [٢] .

وكان يحدث بصحيح البُخاري و« التاريخ الكبير » له أيضا و« تصحيف المحدثين » للدار قطني، وكان يحدث كذلك بمصنفاته في الحديث والرجال والفقه وقد انتشرت روايتها في الأندلس أيضا عن طريق تلاميذه من أهلها [٣] .

وكان متضلعاً في كلام الرواة جرحاً وتعديلا ومعرفة سبرهم ووفياتهم وغير ذلك.

وكان العامة من أهل القيروان خصوصاً يرجعون إليه فيما يلم بهم ويستفتونه.

كما كان الموفدون في مهمات سياسية إلى القيروان يسألونه ويستفتونه ويستفيدون من علمه.

وكان له اهتمام بالبلاد البعيدة ويرسل إليها من يقوم بنشر العلم كما حدث في اهتمامه بصحراء المغرب وما نتج عن ذلك من الاهتمام من قيام دولة المرابطين في تلك المناطق النائية [٤] .

وقد تتلمذ عليه عدد كبير من الناس من أهل افريقية والمغرب والأندلس وصقلية قال الذهبي: « تخرج بهذا الإمام خلق من الفقهاء والعلماء » [٥] .

---

(١)- (٤)**انظر** : مدرسة الحديث في القيروان (جـ٢ / ٧٦٥ ، ٧٦٦) .

(٥)سير أعلام النبلاء (جـ١٧ / ٥٤٦) .

[٣] **ثناء العلماء عليه:**

قال تلميذه حاتم الطرابلسي: «لقيته بالقيروان في رحلتي سنة ٤٠٢ هـ وكان من أحفظ الناس وأعلمهم وكان جمع حفظ المذهب المالكي ، وحفظ حديث النبي ﷺ والمعرفة بمعانيه وكان يقرىء بالسبعة ويجودها مع المعرفة بالرجال والمعدلين منهم والمجرحين (١) .

وقال الذهبي : «الإمام الأكبر العلامة عالم القيروان ... احد الأعلام.... تخرج على يديه خلق من الفقهاء والعلماء» (٢) .

وقال أبو بكر الباقلاني لأبي عمران الفاسي : «لو اجتمعت في مدرستي أنت وعبد الوهاب بن نصر ـ وكان إذ ذاك بالموصل ـ لاجتمع فيها علم مالك : أنت تحفظه وهو ينصره لو رآكما مالك لسر بكما» (٣) .

[٤] **شعره :**

عندما كتب محمد بن علي الطيني أبياتا من الشعر وأرسلها إلى أبي عمران الفاسي بمناسبة العزم على الذهاب إلى بيت الله الحرام، أجابه أبي عمران الفاسي بهذه الأبيات :

حياك ربك من خل أخي ثقة ... وصان نفسك بالتكريم مولاها

من كل عم وشان لا يوافقها ... فهو العليم بما يبديها مولاها

ولا أضاع لها الرحمن حرمتها ... وقولها أن تسر ودعتك الله

فالله يجمعنا من بعد أوبتنا ... ويؤتنا من وجوه البر أسناها (٤)

هذه ترجمة موجزة لواضع الخطوط العريضة لدولة المرابطين.

وتوفى – رحمه الله – سنة ثلاثين وأربعمائة من الهجرة .

---

(١) ترتيب المدارك (جـ٧ / ٢٤٦) المطبعة المغربية .

(٢) سير أعلام النبلاء (جـ١٧ / ٥٤٥-٥٤٦) .

(٣) ترتيب المدارك (جـ٧ / ٢٤٦) .

(٤) المصدر السابق (جـ٧ / ٥٢) .

المبحث الرابع

الزعيم الديني لدولة المرابطين

عبد الله بن ياسين

هو عبد الله بن ياسين بن مكوك بن سير بن علي الجزولي أصله من قرية تماماناوت في صحراء غانة [١].

درس على فقيه السوس وجاج بن زلوا ثم رحل إلى الأندلس في عهد ملوك الطوائف وأقام بها سبع سنين [٢] واجتهد في تحصيل العلوم الإنسانية ثم أصبح خير طلاب الفقيه وجاج بن زلوا فعندما طلب أبو عمران الفاسي من تلميذه وجاج بن زلوا أن يرسل مع يحيى بن إبراهيم فقيهاً عالماً ديناً تقياً مربياً فاضلاً وقع الاختيار على عبد الله بن ياسين الصنهاجي الذي كان عالماً بتقاليد قومه وأعرافهم وبيئتهم وأحوالهم.

ودخل عبد الله بن ياسين مع يحيى بن إبراهيم في مضارب ومواطن ومساكن الملثمين من قبيلة جداله في عام ٤٣٠هـ-١٠٣٨م فاستقبله أهلها واستمعوا له وأخذ يعلمهم فكان تعليمه باللغة العربية لطلبة العلم والإرشاد الديني وللعامة بلهجة أهل الصحراء البربرية.

لاقى عبد الله بن ياسين كثيراً من الصعوبات فقد وجد أكثر الملثمين لا يصلون ولا يعرفون من الإسلام إلا اسمه، وعُمِّي الجهل عليهم، وانحرفوا عن معالم العقيدة الصحيحة، وتلوثت أخلاقهم وأحكام دينهم واصطدمت تعاليمه بمصالح الأمراء والأشراف، فثاروا عليه وكادوا أن يقتلوه، إلا أنه ترك قبيلة جدالة

---

(١) دولة المرابطين، (ص٢١)، نقلاً عن البكري المغرب، (ص ١٦٥).

(٢) ابن الخطيب، الحلل، (ص ١٩١).

وانتقل إلى قبيلة لمتونة ومن ثم اختار رباطه المشهور على مصب نهر السنغال بعد انتشار صيته وتعلق الناس به فهرعوا إليه ليربيهم وينظمهم ويعلمهم.

ومن خلال كتب التاريخ نستطيع أن نقول : أن عبد الله بن ياسين رحمه الله نجح في رسالته الدعوية لأسباب مهمة يجب أن يعرفها الدعاة إلى الله إلا وهي ما وهبه الله من صفات فطرية وما اكتسبه في حياته من صفات عقلية وحركية.

[أ] ومن أهم الصفات الفطرية التي ظهرت لي من سيرته:

(١) **الذكاء :** فكان رحمة الله - عميق الفهم صاحب حجة يقيم الدليل على خصومه من الفقهاء والمحليين الذين تحالفوا مع الأمراء والأعيان للقضاء عليه أو طرده.

واختياره لمكان انسب لتربية إتباعه وتعليمهم يدل على ذكائه وبعد نظره ويظهر ذلك في حروبه التي خاضها لتوحيد القبائل الصنهاجية ثم انتقاله للقضاء على المخالفين له في المنهج والمعتقد والتصور.

(٢) **الشجاعة:** حيث انه دخل الصحراء داعياً إلى الله تعالى مع إن غيره من تلاميذ أبي عمران الفاسي اعتذروا وكذلك من تلاميذ وجاج بن زلوا.

وامتاز بشجاعة وصلابة عظيمة في دعوته وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر وفي جهاده حتى استشهد في أحدى معاركه ضد أعدائه.

فكان شجاعاً عظيم الاحتمال ومارس أفضل الشجاعة ألا وهي الصراحة في الحق وكتمان السر إذ انه قد خطط مع يحيى بن إبراهيم المراحل التعليمية ولم يتسرب منها شيء لأعدائه حتى أخذت حيز التنفيذ والشجاعة في الحق في ميادين القتال بالنسبة للمسلم تدل على قوة عقيدته وسلامتها من غبش التصور وانحراف المنهج ومن المعلوم أن صفاء العقيدة يرفع الهمة وينمي الشجاعة ويلهب المشاعر ويذكي الروح ويربط الفؤاد وينور العقل ويوسع المدارك والعاملون في الدعوة إلى الله ينبغي عليهم أن يكونوا شجعاناً فهي منه وإليه.

قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ ﴾ [آل عمران: ١٧٣ - ١٧٤].

وحامل دين الله لا ينبغي أن يستكين ولا يجبن ولا يخور عزمه لأنه صاحب رسالة مقدسة من عند العليم الحكيم سار على نهجها رسل الله من قبل فنصرهم الله وانتقم من عدوهم.

قال الشاعر:

أن نفساً ترتضي الإسلام ديناً ... ثم ترضى بعده أن تستكينا

أو ترى الإسلام في ارض مهيناً ... ثم تهوى العيش نفسا لن تكونا

في عداد المسلمين العظماء [١] .

وكم نحن محتاجون إلى شجاعة الدعاة إلى الله من أمثال الفقيه عبد الله بن ياسين لندك بها الباطل ونزيل بها المنكرات الظاهرة وندمغ الشبهات الخادعة بالنورين كتاب الله وسُنة رسوله ﷺ .

قال الشاعر :

وإذا اضطررت إلى الجدال ولم تجد ... لك مهرباً وتلاقت الصفان

فاجعل كتاب الله درعاً سابغاً ... والشرع سيفك وابد في الميدان

والسُّنَّة البيضاء دونك جنة ... ركب جواد العزم في الجولان

واثبت بصبرك تحت ألوية الهدى ... فالصبر أوثق عدة الإنسان

واطعن برمح الحق كل معاند ... لله در الفارس الطعان

واحمل بسيف الصدق حملة مخلص ... متجرد لله غير جبان [٢]

---

(١) انظر : الصفات اللازمة للدعاة ، أحمد القطان ، جاسم المهلهل (ص ٢٠).

(٢) نونية أبي عبد الله القحطاني (ص ٣٩).

وكم نحن محتاجون للدعاة الذين يتوغلون في مواطن القبائل التي ابتعدت عن إسلامها ودينها وإيمانها ليقودها من جديد إلى دعم حركة الإسلام المعاصرة التي استهدفها كل النصارى واليهود والملاحدة الحاقدين.

[٣] **المهابة**: ومن الصفات التي ظهرت لي في سيرة عبد الله بن ياسين أنه كان مهيباً قوياً شديداً فمن الأدلة على قوته البد نية خوضه الحروب بنفسه وتقدمه في ميدان الفروسية بل جعل من منهجه الذي ربى عليه أصحابه في هذا الجانب قوله تعالى: ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ** ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وفسر الرسول ﷺ القوة في هذه الآية بالرمي بقوله: «**ألا أن القوة الرمي**» [١] والرماية أن لم تخرج من ساعد قوي ومتين فهي لن تحقق الهدف المطلوب وفي السُّنَّة نجد أن القوة البد نية لاقت حظاً وافراً فالرسول ﷺ هو أقوى الأقوياء وكان يشجع أصحابه ﷺ على اكتساب هذه الصفة بل ربما كان يباريهم ويصارعهم ويسابقهم وكما تحدثنا السيرة عن ذلك ويروى مرة انه تسابق مع عائشة ﵂ فسبقها مرة ثم سبقته مرة وكذلك تحدثنا السيرة عن مصارعته ﷺ لأحد المشركين فصرعه.

ومر ﷺ على صبيان يرمون بالسهام فأخذ يرمي معهم ويشجعهم ويزكى فيهم روح البطولة والشجاعة والقوة ويقول: «**ارموا فأن أباكم إسماعيل كان راميا**» [٢].

وهذه الآية والأحاديث الفعلية كانت منهج عبد الله بن ياسين وأصحابه ولذلك تظهر لنا صلابة وقوة أتباعه في ميادين القتال.

ومفهوم القرين للقوة عام يشمل كل أنواع القوة قال السعدي: رحمه الله في

---

(١) رواه مسلم رقم (٩١٠).

(٢) رواه البخاري فتح الباري (جـ٦ /٤٣١).

تفسيره في قوله تعالى : ﴿ مَا استطعتم من قوة ﴾ أي « كل ما تقدرون عليه من القوة العقلية والبد نية وأنواع الأسلحة ونحو ذلك » .

دخل في ذلك أنواع الصناعات التي تعمل فيها أصناف الأسلحة والآلات من المدافع والرشاشات والبنادق والطيارات الجوية والمراكب البرية والبحرية والقلاع والخنادق وآلات الدفاع والرأي والسياسة التي بها يتقدم المسلمون ويندفع عنهم بها شر أعدائهم وتعلم الرمي والشجاعة والتدبير (١) .

لقد جمع عبد الله بن ياسين ـ رحمه الله ـ من القوة الفكرية أنواعا متعددة من قوة الإدراك وقوة الصبر وقوة العلم وقوة التلقي وغيرها من القوى .

ومن هنا يتضح لنا حاجة العاملين في الحركة الإسلامية إلى هاتين القوتين البدنية والعقلية وجميع أنواع القوى الفكرية لتوظيفها في الدعوة إلى الله (٢) .

ولقد أشار القرآن الكريم إلى قيمة القوة العقلية والفكرية والى القوة البدنية في بناء أمة مجاهدة تحفز للنهوض بعبء النضال في سبيل عقيدتها وحريتها وكان من صفات قائدها أن الله أعطاه ومن عليه بهاتين القوتين البد نية والعقلية قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ﴾ [البقرة : ٢٤٧] . فبسطة العلم إشارة إلى القوة العقلية وبسطة الجسم إشارة إلى القوة البد نية .

قال الشيخ حسن البنا ـ رحمه الله ـ في الأصل الأول من الأصول العشرين :

« أن القوة تشمل قوة الإنسان التي تجعله قوياً في بدنه وعقله وعليه أن يباشر الأسباب التي تجعله قوياً أما قوة نفسية فبالإيمان وإما قوة بدنه فبالرياضة والفروسية ونحوها أما قوة عقله فبالعلم » (٣) .

والإنسان الذي وهبه الله القوة العقلية والفكرية والبد نية لا ينسى دائماً ،

---

(١) ، (٢) **انظر** : الصفات اللازمة للدعاة (ص٢٢) .

(٣) **انظر** : رسالة التعاليم ، (ص ١٠) .

وابدأ قوة القوى العزيز الذي أمده بكل خير وصلاح وفلاح وما سوى الله فهي قوة ضئيلة هزيلة مهما أوتيت من وسائل البطش والقوة والتنكيل فهي بمثابة خيوط العنكبوت: ﴿ وإنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ .
[العنكبوت: ٤١] (١) .

قال سيد قطب ـ رحمه الله ـ في ظلاله:

«وان أصحاب الدعوات الذين يتعرضون للفتنة والأذى والإغراء والإغواء لجديرون أن يقفوا أمام هذه الحقيقة الضخمة ولا ينسوها لحظة وهم يواجهون القوى المختلفة المعادية التي تحاول سحقهم وأبادتهم فكلها خيوط عنكبوت في حساب العقيدة الصحيحة» (٢) .

[٤] **الأمانة:** ومن الصفات الفطرية التي تميز بها الزعيم الديني لدولة المرابطين؛ الأمانة، فحين وجد الفقيه عبد الله بن ياسين أن القلوب التفت حوله وأصبح الأمر الناهي في قبائل الملثمين لم ينافس الأمير يحيى بن إبراهيم في منصبه بل نجده لم يتجاوز حدوده ولم يتدخل في سلطات الأمير يحيى مع مقدرته على إزاحته وإبعاده من الطريق ليتبوأ الزعامة السياسية والدينية معاً وهذا يدل على أمانة الداعية الفقيه عبد الله بن ياسين والأمانة صفة مهمة للعاملين في الحركة الإسلامية فهي ذات أنوار تشع على من حول الدعاة إلى الله فتجذبهم للانخراط في ميادين العمل الإسلامي الواسعة، والمحتاجة لكل جهد وشخص مخلص لهذا الدين.

والأمانة تحتاج إلى أشخاص أقوياء لحملها ومفهوم الأمانة في القرآن واسع جداً.

---

(١) **انظر**: الصفات اللازمة للدعاة (ص٢٢)، نقلاً عن طريق الدعوة في الظلال .
(٢) **انظر**: الظلال لسيد قطب، نقلاً عن الصفات اللازمة لأصحاب الدعوات (ص٢٢) .

وقد وصف الله المؤمنين الذين نالوا الفلاح في الدنيا والآخرة وورثوا جنة الفردوس بصفات منها الأمانة.

قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴾ [المؤمنين: ٨].

يقول سيد قطب ـ رحمه الله ـ في تفسير هذه الآية:

«وراعون لأماناتهم وعهدهم أفراد، وراعون لعهدهم وأماناتهم جماعة، والأمانات كثيرة في عنق الفرد وفي عنق الجماعة، والجماعة المسلمة مسؤولة عن أمانتها العامة وعن عهدها مع الله تعالى، وما يترتب على العهد من تبعات، والنص يحمل التعبير ويدعه ويشمل كل أمانة وكل عهد، ويصف المؤمنين بأنهم لأماناتهم وعهدهم راعون فهي صفة دائمة لهم في كل حين وما تستقيم حياة الجماعة إلا أن تؤدى فيها الأمانات وترعى فيها العهود» [(١)].

فعبد الله بن ياسين ـ رحمه الله ـ اتصف بالأمانة فعظم شأنه في نظر اتباعه وفي تاريخ المسلمين لأنه كان أميناً في نفسه ومع أخوته، وحمل أمانة الإسلام وبذل كل ما في وسعه وتحرك بمنهج الله في دنيا الناس لتحكيم شرع الله فأكسبته هذه الصفة في نفوس الناس قبولاً.

[**٥**] **الحياء**: والصفة الخامسة التي جبل عليه عبد الله بن ياسين الحياء الذي هو شعبة من شعب الإيمان ويظهر ذلك جلياً عندما طلب شيخه منه الذهاب مع يحيى بن إبراهيم للدعوة فلم يعارض ولم يناقش بل استجاب لشيخه كما نلاحظ ذلك في سيرته مع يحيى بن إبراهيم الذي تملك قلبه حب عبد الله بن ياسين واسر فؤاده بإحسانه وكرمه وحرصه على دعوة الناس لدين الله فعندما عرض الأمير يحيى على عبد الله بن ياسين رباطاً في ضفاف نهر السنغال أجابه عبد الله بن ياسين الذي كان عازماً على ترك جدالة ولمتونة لما أصابه من عنتهم

---

(١) في ظلال القرآن(ص ٢٤٥٦).

وظلمهم وجورهم في بداية دعوته لهم وعرف العلماء الحياء فقال : « اصل الاستحياء الانقباض عن الأشياء والامتناع منه خوفاً من مواقعة القبيح » (١) .

وقال الجنيد: « إن الحياء يتولد من مشاهدة النعم ورؤية التقصير » (٢) .

فالحياء من المعاني والصفات الرائعة التي يتصف بها النبلاء والشرفاء من الناس وكان الرسول ﷺ اشد الناس حياءً وقد وصفه الصحابي الجليل أبو سعيد الخدري ﷺ بقوله : « كان رسول الله ﷺ اشد حياءً من العذراء في خدرها ، فإذا رأى شيئاً يكرهه عرفناه من وجهه » (٣) .

وقال رسول الله : ﷺ :« **الحياء لا يأتي إلا بخير** » (٤) ، ومن الحياء غض البصر وخفض الجناح وعدم رفع الصوت إلا في وجه الباطل.

فعلى العاملين في الدعوة إلى الله أن يلازموا هذه الصفة الجميلة.

فالحياء المطلوب في صفة الداعية والذي تدعوا إليه الشريعة وتحث عليه هو الذي يمنع صاحبه من ارتكاب المعاصي والوقوع في الآثام وفي نفس الوقت يحث صاحبه على العمل الدءوب للإسلام ومناصرة الحق والذود عنه والوقوف أمام الباطل بشتى أنواعه.

قال رسول الله ﷺ : « **الإيمان بضع وسبعون شعبة أفضلها قول لا اله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من شعب الإيمان** » (٥) .

أن هذا الخلق الكريم والصفة الفاضلة لابد منها في أخلاق الدعاة والربانين ولا يمنعهم هذا الخلق أن يفرطوا في معالي الأمور والصعود على سلم الفضائل والوصول إلى الغايات النبيلة من تفقه في الدين وتعلم العلم والحرص عليه.

---

(١) ،(٢) الصفات اللازمة لحياة الدعاة(ص ٢٦ ، ٢٧) .

(٣) البخاري فتح الباري(جـ١٢ /١٥١) .

(٤) رواه البخاري(٦١١٧) .

(٥) رواه مسلم رقم(٣٥) .

فعن عائشة رضي الله عنها قالت: «**نعم النساء نساء الأنصار لم يمنعهن الحياء من التفقه في الدين**».

[٦] **الحلم**: والصفة السادسة من الصفات الفطرية التي يلاحظها الباحث في حياة الفقيه عبد الله بن ياسين هي صفة الحلم فنجده عندما تمكن من قبائل جدالة ولمتونة التي حاربت دعوته عفا عنها وأحسن إليها، وكل من انصاع وانقاد لأحكام الله من المخالفين والمحاربين له عفا عنه.

والحلم كما هو معلوم سيد الأخلاق، فالحليم هو الذي يتحمل أسباب الغضب فيصبر ويتأنى ولا يثور.

ومن هنا ينبغي على الداعية أن يملأ صدره بالحلم لان طريق الدعوة محفوفة بالمكار ه والمتاعب والإيذاء والبطش والسخرية وهذه كلها عقبات تزدحم في وجه الداعية والدعاة إلى الله [١].

ولقد ضرب الله لنا في كتابه العزيز نماذج من حلم رسله وسعة صدورهم على ما لاقوه من إيذاء وابتلاء من قومهم قال تعالى عن هود عليه السلام: ﴿ **قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٦٦) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٦٧) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ (٦٨)** ﴾ [الأعراف: ٦٦ - ٦٨].

صورت لنا هذه الآيات مقدار الحلم الذي يتصف به هود عليه السلام وسعة صدره، حيث لم يعبأ بهذا السباب وبهذه السخرية والشتائم، ولم يطش لها حلمه، بل قابل هذه الشتائم وهذه السخرية بدعوة التوحيد، ووضح له مهمة رسالته، وأخيرا نصحهم بالحسنى وانه أمين على ذلك.

---

(١) انظر: الصفات اللازمة للدعاة إلى الله، (ص ٣٠)

أما رسول الله ﷺ فكان حلمه يفوق حد التصور وخصوصاً إذا علمنا أن حلمه كان مع القدرة على البطش ورد الفعل بأنكى واعتي فقد روى انس بن مالك ﵁ قال: «كنت امشي مع رسول الله ﷺ وعليه برد نجراني غليظ الحاشية فأدركه أعرابي فجذبه من رداءه جذبة شديدة، حتى نظرت إلى صفحة عنق رسول الله ﷺ وقد أثرت به حاشية الرداء من شدة جذبته، ثم قال: يا محمد مر لي من مال الله الذي عندك فالتفت إليه فضحك ثم أمر له بعطاء» (١).

أن الدعاة إلى الله الذين يسعون لإقامة شرع الله على منهج النبوة الخالدة لمحتاجون لهذه الصفة الرفيعة في حركتهم الدائبة والمستمرة وان كتب التاريخ الإسلامي تبين لنا طلائع الفتح والتمكين دائماً وأبدا تكون هذه الصفة بارزة في صفوفهم.

[٨] **الجاذبية الفطرية**: وهذه الصفة بارزة للعيان ففي شخصية الفقيه عبد الله بن ياسين وبها جذب قلوب أبناء الصنهاجيين بدون تكلف وهي من أقوى العناصر التي تكونت منها شخصية الفقيه بن ياسين.

لقد استطاع أن يملك قلوب من جالسوه وسمعوا حديثه من أمثال يحيى بن إبراهيم ويحيى بن عمر وغيرهم من قادة الصنهاجيين وشيوخهم ولاشك ما ذكرناه من هذه الصفات المهمة في شخصية الداعية هي من العطايا العظيمة التي يهبها الله لفئة من عباده الذين اخلصوا القول والعمل.

وكان قول الله تعالى متمثلاً فيهم: ﴿ **قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣)** ﴾

[الأنعام: ١٦٢ - ١٦٣].

---

(١) أخرجه البخاري فتح (٧/ ٦٣)، الحديث (٣١٤٩)

[ب] من الصفات المكتسبة في شخصية الفقيه ابن ياسين :

[١] الصدق:

وظهر ذلك في أقواله وأفعاله ومخالطته للناس فكان صادقاً في دعوته وفي عرضها وفي مخاطبته للناس ولا يهاب أحدا ولا يخشى في الله لومة لائم ولا همزة هماز ولا لمزة لمّاز.

ولمس الناس صدقه في أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر ، وفي حربه للبدع ، وفي تعليمه للناس وجهاده في سبيل الله ، فتأثر به أتباعه غاية التأثر.

وحثنا القرآن الكريم على التخلق بهذه الصفة فقال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ** ﴾ [التوبة: ١١٩].

وقال تعالى: ﴿ **وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ** ﴾ [الأحزاب: ٣٥].

وكانت التوجيهات النبوية الكريمة للصحابة رضوان الله عليهم تحثهم على الصدق فعن بن مسعود ﵁ عن النبي ﷺ انه قال: «**إن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة ، وإن الرجل ليصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً**»(١).

ويعتبر الصدق من أهم الصفات للمنتسبين للعمل الإسلامي والقائمين بإرشاد الناس إلى دين الله فليعلم ذلك كل داعية وليعِ تماماً أن دعوته جاءت بالصدق كما قال تعالى: ﴿ **وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ** (٣٣) ﴾.

[الزمر: ٣٣].

وقد شهد المؤرخين حتى الذين طعنوا في دولة المرابطين على صدق زعيمها عبد الله بن ياسين في قبائل الملثمين بصدقه في دعوته.

---

(١) أخرجه البخاري فتح (٣١/١٢١) ، الحديث (٢٠٩٤).

[٢] ضبط النفس والابتعاد عن التهور والانفعال :

ويظهر ذلك جلياً في شخصية بن ياسين عندما باشر الأمير يحيى بن عمر اللمتوني القتال وامضي الحرب بنفسه فأدبه بن ياسين وضربه بالسوط عشرين مرة وبين له إن ذلك خطأ لان الأمير لا يقاتل ، إنما يقف يحرض الناس ويقوي نفوسهم فأن حياة الأمير حياة عسكره وموته فناء جيشه.

واعتبر عبد الله بن ياسين إن إقدام الأمير عمر بن يحيى على القتال فيه تهور وعدم ضبط النفس.

كما يدل على ضبط نفس الفقيه بن ياسين وابتعاده عن التهور أنه لم يعلن الجهاد حتى أعد عدته واستكمل أمره وأخذ بمراحله ، وربى رجاله ولذلك عندما خاض جهاده كان موفقاً منصوراً ، ولم تستطع القوة المعارضة له أن تقضي عليه [١] .

إن الداعية يتعرض أثناء قيامه بعمله الإصلاحي إلى الكثير من الجدل والتحدي فعليه أن يتحلى بالصبر وضبط النفس لان طريق الدعوة كما هو معروف طريق طويل ويحتاج إلى صبر حتى الوصول إلى نهايته.

فعملية ضبط النفس وعدم التهور والإسراع في تهدئة الجو مطلوب من الداعية قبل التورط فيما لا تحمد عقباه.

إن ضبط النفس يتم بموازين محددة تقي صاحبها من مغبة انسياقه وراء ما يصور له خياله ويراه في نظره هو الأسلم فعندئذ يغضب ويندفع ويتعجل الأمور فيتورط ولقد ذكر القرآن قصة تعطي هذه المعاني وتصورها لنا تصويراً كائناً نلمسه ونشاهده فتلك قصة الملأ من بني إسرائيل : ﴿ **إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ** ﴾[البقرة: ٢٤٦].

---

(١) انظر : روض القرطاس (ص ٧٩ – ٨٠).

وفي هذه القصة عبر وعظات فأن اشد الناس حماسة واندفاعاً وتهوراً قد يكون اشد الناس جزعاً وانهياراً وهزيمة ونقضاً للعهد : ﴿ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٢٤٦) ﴾ [البقرة : ٢٤٦] .

وهكذا نكثوا عهدهم وتفلتوا من الطاعة ونكصوا عن التكاليف ، هذا شأن المتهورين المتسرعين الذين لا يقدرون الظروف ولا يحسبون الصحيح ولا يعرفون قيمة التكاليف الملقاة على عاتقهم [١] .

ورحم الله الشيخ حسن البنا حيث يقول :

« أيها الأخوان المسلمون وبخاصة المتحمسون المتعجلون منكم اسمعوها مني كلمة عالية داوية من فوق هذا المنبر في مؤتمركم الجامع - إن طريقكم هذه مرسومة خطواته موضوعة حدوده ولست مخالفاً لهذه الحدود التي اقتنعت كل الاقتناع بأنها أسلم طريق للوصول فمن أراد أن يستعجل ثمرة قبل نضجها أو يقطف زهرة قبل أوانها فلست معه في ذلك بحال وخير له أن ينصرف عن هذه الدعوة إلى غيرها من الدعوات . . . أَلْجِموا نزوات العواطف بنظرات العقول وأنيروا أشعة العقول بلهب العواطف والزموا الخيال صدق الحقيقة والواقع ، واكتشفوا الحقائق في أضواء الخيال الزاهية البراقة ولا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة ولا تصادموا نواميس الكون فأنها غلابة واستخدموها وحولوا تيارها واستعينوا ببعضها على بعض ، وترقبوا ساعة النصر وما هي منكم ببعيد » [٢] .

فينبغي على العاملين في الحركة الإسلامية أن يدركوا هذا جيداً ويتفهموا أصول العمل ويدركوا الواقع الذي يحيط بهم وينبذوا المجازفات الفاشلة إن واقعنا

---

(١) **انظر** : الصفات اللازمة للدعاة (ص ٤٤) .
(٢) مجموعة الرسائل ، لحسن البنا (ص ١٨٠) .

المعاصر يحتاج إلى ضبط النفس وعدم التهور للعاملين في الدعوة إلى الله عز وجل.

[٣] الإرادة القوية :

لقد شهد المؤرخين وغيرهم أن ابن ياسين ـ رحمه الله ـ كان ذا همة وعزيمة لا تهزها الجبال آمن بسمو دعوته وقدسية فكرته وعزم على أن يعيش لها ويموت في سبيلها ، وأدرك أن الأمانة التي يحملها ودخل بها الصحراء الكبرى تبعتها عظيمة فعليه أن يصبر في عزيمة قوية وإيمان ثابت ويقين لا يدخله تردد ولا شك.

فداوم على العمل الجاد واخذ بقوة وعزم ومثابرة ، حتى تحقق إعزاز دين الله في تلك الصحاري القاحلة القفرة الخالية من العلماء والفقهاء ، فأصبحت بفضل الله ثم بجهده وجهاده مليئة بالدعاة والفقهاء والعلماء والمجاهدين.

فينبغي علينا ونحن في طريق الدعوة سائرين أن نأخذ أمر الدعوة بقوة وإرادة قوية وعزيمة ماضية وهمة متطلعة للمعالي ونترك حياة الرخاء واللين والدعة ونقتدي بسيد الدعاة الرسول ﷺ في عزمه وقوة إرادته ، وجمال صبره ، وشدة تحمله ، وعظم حمله.

[جـ] الصفات العقلية التي ظهرت في شخصية ابن ياسين:

[١] القدرة على الفهم والاستيعاب:

استطاع ابن ياسين أن يفهم ويستوعب المناهج العلمية التي كانت في زمانه من فقه وحديث ولغة وأصول وغيرها حتى تأهل لان يكون أهلاً لحمل الرسالة التي كلفها بها شيوخه كما انجلى لي قدرته على فهم واقعه الذي يريد تغييره وحدد أوليات المرحلة التي هو فيها وشرع في إصلاحها كما انه استوعب الظروف السياسية في زمانه واستطاع أن يستفيد منها لدعوته.

فينبغي على العاملين في الدعوة الإسلامية أن يكون لهم وعي سياسي بواقعهم

وخبرة بالأساليب الحركية والتنظيمية ومهارة في التخطيط المنظم المتزن حتى نستطيع أن نواجه العداون الشرس الموجه لأمتنا الإسلامية ونتصدى له بأسلوب كله حكمة وحنكة.

ومن هنا يتوجب على الأخ الداعية أن تكون عنده قدرة على الفهم والتجاوب وسرعة التنفيذ وان يتسلح بالمعرفة التامة وأن يفهم دعوته حق الفهم كي يستطيع أن يبلغها حق التبليغ قال عمر رضي الله عنه: «لست بالخب ولا الخب يخدعني».

[٢] النظرة الثاقبة والقدرة على الوصول للقرار الحاسم دون تردد:

ويظهر ذلك في سيرة الفقيه عبد الله بن ياسين عندما طلب فقهاء سجلماسة درعه في عام ٤٤٧ هـ منه القدوم ليخلصهم من الحكام الطغاة الظلمة من زناتة المغراويين ومن أميرهم مسعود بن أنودين فجمع بن ياسين شيوخ قومه وقرأ عليهم رسالة الفقهاء سلجماسة فأشاروا عليه بمد يد العون لهم وقالوا له: «أيها الشيخ الفقيه هذا ما يلزمنا فسر على بركة الله»، فأخذ قراره الحاسم وتحركت جموع المرابطين في شهر صفر سنة ٤٤٧ هـ إلى بلاد درعة واشتبكت مع المغراويين الذين انهزموا أمام المرابطين وتشتت جموعهم ودخل ابن ياسين سلجماسة وأصلح أحوالها وقدم عليها عاملاً من أتباعه وجعل فيها حامية من جنوده ورجع إلى الصحراء (١).

فعلى العاملين في الدعوة الإسلامية الاتصاف بصفة النظر الثاقب وسرعة اتخاذ القرار الحاسم دون اى تردد ودون أي ريب لأن الداعية الرباني ينظر بنور الله وهذا النور الإلهى إذا حل في قلب المؤمن يولد فيه البصيرة الثاقبة التي يعرف بها الحقائق ويزن بها الأمور، ويدرك بها الصعاب (٢).

﴿ **يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ** ﴾ [النور: ٣٥].

---

(١) تاريخ المغرب والأندلس في عصر المرابطين، حمدي عبد المنعم (ص٤٢).

(٢) **انظر**: الصفات اللازمة للدعاة إلى الله (ص ٦٣).

[د] الصفات الحركية التي ظهرت للباحثين في شخصية بن ياسين:

[١] الشعور بالمسؤولية :

وبدأ الشعور بالمسئولية في حياة بن ياسين منذ أن رغب في التحصيل والتزود بالعلم والاستعداد للدعوة وازداد ظهور ذلك في شخصيته عندما دخل مع الأمير يحيى بن إبراهيم في قبائل الملثمين حيث تولد في أعماقه شعورا بمسئولية الدعوة في هذه الأمة الجاهلة من قبائل الصنهاجة وكان شعوراً جرى في عروقه جريان الدم فأحس بعظمة التكليف وأعباء المسؤولية فقام بأدائها خير أداء .

إن الأمة الإسلامية في هذه الفترة بمسيس الحاجة إلى العناصر التي تتحرك ذاتيا نحو مسئوليتها ، وبحاجة إلى عناصر تتقد نفوسها شعوراً وإحساسًا بواجباتها الإسلامية ، وبحاجة إلى عناصر يغلى فيها الشعور بهذا الدين ، وهي تريد عناصر لا يهدأ تفكيرها للعمل لهذا الدين ساعة من ليلٍ أو نهار .

فالشعور بالمسؤولية أمر لابد منه لكل داعية نذر نفسه لله ولرسوله ولدينه ، وعليه أن يتحرك في هذه الحياة بمقدار ما يحمله من مسؤولية ، لان حياة الداعية هي التحرك للإسلام لا القعود ولا الهمود [١] .

وقد أحسن الشيخ الدكتور يوسف القرضاوى عندما قال :

قُلت الحيلة هي التحرك ... لا السكون ولا الهمود
وهي الجهاد وهل يجاهد ... من تعلق بالقعود
وهي التلذذ بالمتاعب ... لا التلذذ بالركود
هي أن تزود عن الحياض ... وأيُ حُر لا يزُود

---

(١) انظر : الصفات اللازمة للدعاة إلى الله (ص ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣) .

هي أن تحس بأن كأس الذل من ماء صديد
هي أن تعيش خليفة في الأرض شأنك أن تسود (١)

[٢] **النظام والدقة** :

وظهرت صفة النظام والدقة في شخصية الفقيه ابن ياسين عندما تكاثر عدد المريدين في رباطة الذي اتخذه قريباً من نهر السنغال حيث وضع شروطاً في قبول كل جديد كي يحفظ صفو جماعته من المقربين فكان ينتقي أطهر الملثمين نفساً وأوفرهم قوة وأقدرهم على تحمل المشاق ومن توفرت فيه الشروط واجتاز التجربة بنجاح يتولى تعليمة وتثقيفه من قرآن وسُنة وحديث وأحكام الدين (٢) .

وأصبح رباطه قمة في النظام والدقة واختار لإدارته أحد الأمراء وفي الأمور المهمة كان شورى بين الجماعة الإسلامية المرابطة (٣) .

أن ديننا الإسلامي حثنا على النظام في كل شئ ومن التطبيقات العملية نأخذ مثال السفر حيث أمر الإسلام الركب إذا كانوا ثلاثة أن يأمروا عليهم أميرًا ، حتى لا يختلفوا في الطريق وتتبعثر جهودهم وخصوصاً إن السفر كما قال الرسول ﷺ قطعة من العذاب فعملية التنظيم واختيار الأمير لا شك أنها عملية تريح المسافرين من أعباء كثيرة قال ﷺ : «**إذا خرج ثلاثة في سفر فليأمروا أحدهم**» (٤) ، فلا بد من تعويد النفس وضبطها على النظام فالمسلم لا يتربى تربية منظمة إلا إذا كان في جماعة منظمة ذات ارتباط ودقة في كل شئ كما أن هذه الجماعة لها هدف جماعي يتحقق بتعاون الفرد وانصهاره في بوتقة الطاعة والنظام (٥) .

---

(١) المصدر السابق (ص ٧٣) .
(٢) ، (٣) دولة المرابطين (ص ٢٧) .
(٤) مسلم ، كتاب المساجد ، باب من أحق بالإمامة (١ / ٤٦٤) رقم (٦٧٢)
(٥) **انظر** : الصفات اللازمة للدعاة (ص ٧٥) .

[٣] **القدرة على التعامل مع الناس:**

تميزت شخصية الفقيه بن ياسين في تعامله مع أصناف الناس من أمراء وأعوان وتجار وغيرهم من طبقات المجتمع الصنهاجي كان - رحمه الله - رقيق الشعور جيَّاش العاطفة يقظ القلب بعيد الآمال كبير المطامح في الإصلاح وكان كل همه أن ينتفع الناس بعلمه ودعوته ولذلك اختلط بالناس ودرس أخلاقهم وطبيعتهم عن كثب وكان في خطابه للناس متحلياً بمكارم الأخلاق بعيداً عن التجريح والإساءة.

واتخذ من القرآن منهجاً في أسلوبه ودعوته متمثلاً بقوله تعالى: ﴿ **ادْعُ إِلَىٰ سبيل ربِّك بالْحكْمة والْموْعظة الْحسنة وجادلْهم بالَّتي هي أحْسنُ** ﴾ .

[النحل: ١٢٥].

وقد وصف نبيه الكريم ﷺ: ﴿ **فبما رحْمةٍ مّن اللَّه لنت لهُمْ ولوْ كُنت فظًّا غليظ الْقلْب لانفضُّوا منْ حوْلك** ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. فليقتد الداعي المسلم برسول الله ﷺ، وليكن شأنه وديدنه لمن يدعوهم، ويتحمل صدور أي آذى منهم.

[٤] **الاستعداد للبذل والتضحية بكل شيء:**

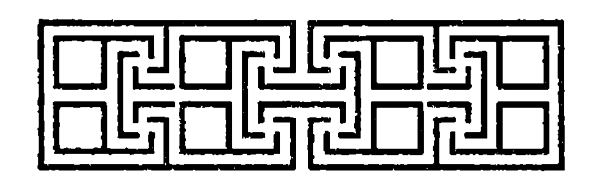
نجد أن الفقيه عبد الله بن ياسين -رحمه الله- بذل نفسه وماله ووقته وحياته وكل شئ في سبيل الغاية التي خرج من اجلها إلى قبائل صنهاجة وقد أيقن هذا الداعية الرباني انه ليس في الدنيا جهاد بلا تضحية معه .

إن المسلم عندما يبذل ما في وسعه من أجل دينه ورضا ربه يرجو بذلك أعظم الدرجات عند الله والفوز والخلود والنعيم المقيم في الجنة وأعظم من ذلك إحلال رضوان الله عليه قال الله تعالى: ﴿ **الَّذين آمنُوا وهاجرُوا وجاهدُوا في سبيل اللَّه بأمْوالهمْ وأنفُسهمْ أعْظمُ درجةً عند اللَّه وأُولَٰئك هُمُ الْفائزُون (٢٠) يُبشّرُهُمْ ربُّهُم برحْمةٍ مّنْهُ ورضْوانٍ وجنّاتٍ لّهُمْ فيها نعيمٌ مُّقيمٌ (٢١)** ﴾ [التوبة: ٢٠ - ٢١].

إن الذين ضحوا وبذلوا وجاهدا استطاعوا أن يغيروا مجرى التاريخ ؛ ويبدلوا أفكار ومبادئ البشر الأرضية ؛ بمبادئ سامية ربانية.

فينبغي على العاملين في مجال الدعوة الإسلامية أن يجردوا أنفسهم من الهوى وينفضوا أنفسهم من كل بهرج وزينة وان يبذلوا المال برضاء وسخاء ويبذلوا الصحة والعافية والسير المضني لرفع دعوة الله ، وإذا دعت الحاجة إلى بذل الروح فلا يضنون بها بل يجعلونها رخيصة بجانب مغفرته ورحمته ورضوانه وجنته [(١)].

وقد تعمدت الإسهاب في ذكر الصفات اللازمة في الشخصية ، التي تريد أن تربي أمة ؛ وتنشأ شعباً ؛ وتبني دولة ؛ لعل الله ينفعنا بالدراسة التحليلية للشخصيات الربانية التي ظهرت في أمتنا العظيمة.



(١) **انظر** : الصفات اللازمة للدعاة إلى الله ،(ص ٧٤ وما بعدها) .

المبحث الخامس
المراحل التي مر بها ابن ياسين في دعوته

نستطيع أن نقرر من الاستقراء التاريخي أنه مر بعدة مراحل قبل أن تقوم دولة المرابطين وبعد المراحل عاصرها فأشرف عليها وبعضها الأخر قام بها إتباعه المخلصون .

أما المراحل التي مرت بها دولة المرابطين قبل قيامها فهي مرحلة التعليم والتكوين وجزء من التنفيذ أما بقية المعارك فقام بها تلاميذه المخلصين من أمثال بكر بن عمر ويوسف ابن تاشفين وأما صاحب الفضل بعد الله تعالى في مرحلة التمكين والتوسيع والانتشار الفعلي فهو يوسف ابن تاشفين منقذ الأندلس من الضياع ومبيد الحركات الكفرية البدعية من الوجود .

[أ] مرحلة التعريف:

قام ابن ياسين فهذه المرحلة بتعريف الناس بالعقيدة الإسلامية الصحيحة موضحًا لهم أركان الإيمان الستة: «الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم والأخر وقضاءه وقدره» على أصول منهج أهل السُنَّة والجماعة واهتم بتنقية العقيد الإسلامية من اللوثات الشركية والوثنية التي خالطت عقائد الملثمين في تلك الفترة.

واهتم بتعليم الناس الصلاة والزكاة وأحكام الصيام حيث وجدهم لا يعرفون من الإسلام إلا اسمه وحارب العادات السيئة التي تصطدم مع ثوابت الدين من زنا وزواج بأكثر من أربع ، وغير ذلك من الأعراف والتقاليد الممزوجة بالجهل والتخلف والضلال وبذل جهداً في بيان أصول الإسلام للناس وحاول جاهداً أن يربطهم بالكتاب والسُنَّة وإجماع الأمة أوضح للناس ضرورة الالتزام بالسُنَّة ، وأنها

هي المبينة للقرآن الكريم بل هي شرح وتفسير للقرآن العظيم وعمل على تفسير نصوص الدين بأسلوب يناسب عقول الملثمين ، وأزال الشبهات التي تعلقت بأذهان الناس من قبائل صنهاجة ، وكان همه جمع الناس على الإسلام ومبادئه والعمل به على العموم ، ودعا الناس جميعاً إلى محبة إعمال الخير وكراهية كل أنواع الشر.

ونستطيع أن نقول أن هذه المرحلة في دعوة ابن ياسين كانت انطلاقاً من قوله تعالى: ﴿ **كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون** ﴿١٥١﴾ ﴾ [البقرة: ١٥١].

وهذه الآية حدد الله بها وظيفة النبي ﷺ وواجبة وكذلك الدعاة من أمته من بعده.

حيث نجد الداعية الفقيه ابن ياسين ، سلك في دعوته هذه الأمور أو الوظائف أو الواجبات إلا وهي:

﴿١﴾ تبليغ وحي الله إلى الناس وذلك في قوله تعالى ﴿ **يتلو عليكم آياتنا** ﴾.

﴿٢﴾ تزكية نفوس الناس وتطهيرها وتنميتها بالخيرات والبركات في الدنيا والآخرة بحيث يصير الإنسان في الدنيا مستحقاً للأوصاف المحمودة وفي الآخرة الأجر والمثوبة وذلك في قوله ـ سبحانه وتعالي ﴿ **ويزكيكم** ﴾.

فالداعية إلى الله يطهر نفوس الناس بوحي الله وينمي أرواحهم وأقوالهم وأبدانهم ويرتفع بهم إلى المستوى الذي يليق بكرامة الإنسان الذي كرمه ربه وفضله على كثير ممن خلق.

﴿٣﴾ التعليم تعليم الناس العلم النافع أى: القرآن والحكمة وذلك في قوله سبحانه من هذه الآية ﴿ **ويعلمكم الكتاب والحكمة** ﴾.

فهو واجب النبي ﷺ وواجب الدعاة إلى الله إلى يوم الدين و« الكتاب هو

القرآن الكريم وهو هدى للناس كل الناس إذ ما من خير للبشرية في دينها ودنياها إلا أمر به القرآن وما من شيء من هذا وذاك إلا أشتمل عليه القرآن ﴿ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ﴾ [الأنعام : ٣٨] و﴿ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [يوسف : ١١١] و ﴿ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى ﴾ [النحل : ٨٩] .

وقد سمي القرآن الكريم قرآنا من بين كتب الله لأنه جمع ثمرة هذه الكتب كلها بل جمع المعارف والعلوم كلها إذ القرآن من معانيه الجمع والإثبات .

والحكمة هي :

إصابة الحق بالعلم والعقل : ولها معان فهي من الله سبحانه : معرفة الأشياء وإيجادها على غاية ما يكون الإحكام ومن الإنسان معرفة الموجودات والعلم بها وفعل الخيرات و« الكتاب والحكمة » بهذه المعاني هما تنوير الأذهان بما تفتقر إليه من هدايات في عالمي الغيب والشهادة وكم كانت قبائل صنهاجة محتاجة لهذه الهدايات التي أصلحت اعتقادها وتصورها ومنهجها وأصبحت قبائل تحمل أهم رسالة ودعوة ربانية بفضل الله عليها ثم بجهود المخلصين من أمثال الفقيه بن ياسين .

﴿ ٤ ﴾ واجتهد بن ياسين ـ رحمه الله ـ في نقل الناس من ضلال الباطل إلى طريق الحق ومن ظلام الجهل إلى نور العلم مسترشداً بقول الله تعالى : ﴿ **وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ** ﴾ أي يبصركم بحاضركم ويرسم اسلم طريق لمستقبلكم .

وكان اثر التربية القرآنية واضحاً في شخصية بن ياسين ـ رحمه الله ـ حيث نجده في تبليغ رسالات الله لا يداهن ولا يجامل بل يأخذ بكافة الأخلاق الشرعية ويتوكل على الله في الصدع بكلمة الحق وكأن بين عينيه قوله تعالى : ﴿ **الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا** (٣٩) ﴾

[الأحزاب : ٣٩] .

وكان يشعر في قرارة نفسه بالإثم والمعصية إن قعد وكتم ما علّمه الله سبحانه وتعالى وهذا من أثر القرآن في نفسه حيث قال تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ (١٥٩)** ﴾[البقرة - ١٥٩] .

والآية واضحة في بيان أن من عرف الحق فقد وجب عليه أن يبينه للناس ومن لم يفعل فقد أثم.

إننا محتاجون بأن نتربى على آيات الله لنفهمها ثم لننطلق في دنيا الناس عاملين بها ابتغاء مرضاة الله وطمعًا في ثوابه ورغبة في جنته وخوفًا من عقابه وشفقة من ناره.

نعى الله تعالى في كتابه العزيز على أهل الكتاب عدم بيانهم لأحكام الله للناس وكتمانها مقابل ثمن قليل من متاع الدنيا.

فقال تعالى: ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ (١٨٧)** ﴾ .

[آل عمران : ١٨٧] .

وهكذا يا أخي الكريم نجد القرآن الكريم في تربيته للدعاة إليه يرغبهم ويرهبهم فتنطلق القلوب تسعى للمثوبة والدرجات العلى، لأن ما عند الله خير وأبقى.

كما نجد الأحاديث النبوية التي تربى عليها ابن ياسين وتلاميذه مشجعة لهم في السعي الدءوب من أجل إكمال مرحلة التعريف بنجاح.

فان السُنَّة النبوية المطهرة شارحة القرآن قد فاضت بالأحاديث في هذا المجال.

روى الإمام البخاري بسنده عن عبد الله بنْ عباس رضي الله عنهما في باب تعريف النبي ﷺ وفد عبد قيس على أن يحفظوا الإيمان والعلم ويخبروا من وراءهم قال مالك ابن الحويرث وهو من بنى عبد القيس قال لنا النبي ﷺ: «**ارجعوا إلى أهليكم**

فعلموهم » .

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « قال النبي ﷺ لما قدم إليه وفد عبد القيس : « **من الوفد أو من القوم ؟** » قالوا : ربيعة فقال : « **مرحباً بالقوم أو الوفد ، غير خزايا ولا ندامى** » ، قالوا : إنا نأتيك من شقة بعيدة وبيننا وبينك هذا الحي من كفار مضر ولا نستطيع أن نأتيك إلا في شهر حرام فمرنا بأمر نخبر به من وراءنا ندخل به الجنة ، فأمرهم بأربع ونهاهم عن أربع : أمرهم بالأيمان بالله – عز وجل – وحده قال : « **هل تدرون ما الإيمان بالله وحده ؟** » ، قالوا الله ورسوله أعلم .

قال : « **شهادة أن لا اله إلا الله وأن محمد رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وتعطوا الخُمس من المغنم** » .

ونهاهم عن الدباء والحنتم و المزفت قال شعبة : ربما قال : « النقير » وربما قال : « المقير » قال : « **احفظوه واخبروه من ورائكم** » [١] .

وهذا الحديث النبوي الشريف نهج للقوم لمعرفة أصول الدعوة في مرحلة التعريف ومعالجة الأمراض بالمجتمع حيث كانت عادة شرب الخمر قد انتشرت في ربوع هؤلاء القوم انتشار النار في الهشيم ولذلك نهاهم رسول الله ﷺ عن الدباء والحنتم والمزفت التي كانت عبارة عن أوان لشرب الخمر ومن مثل هذا الحديث يستلهم الدعاة اولويات مرحلة التعريف في الدعوة إلى الله تعالى وغيره من الأحاديث الكثيرة والإرشادات النبوية الكريمة .

استمر الفقيه ابن ياسين في تعريف الناس بأصول دينهم وأحكامه والأخلاق التي تطلبها الشريعة وحارب التقاليد والأعراف السيئة بكل شجاعة وجرأة .

إلا أن الله تعالى ابتلاه بقوم غلاظ قساة القلوب فاصطدمت دعوة المصلح الفقيه بأطماعهم فتعرض للتضييق والشدة والعسف من بعض وجهاء قبائل

---

(١) مسلم ، كتاب الإيمان ، باب الأمر بالإيمان بالله تعالى ورسوله (١ / ٤٦ رقم ١٧)

صنهاجة من قبيلة جدالة وحاولوا قتله إلا أن الله نجاه منهم.

فأشار الأمير المخلص والتلميذ الوفي يحيى بن إبراهيم على ابن ياسين أن يذهبوا إلى جزيرة في حوض السنغال ليتربى الأتباع فيها ابتغاء مرضاة الله والدار الآخرة.

وقال له: إن الجزيرة إذا حسر البحر دخلنا إليها على أقدامنا، وإذا ملأ دخلنا في الزوارق وفيها الحلال المحض الذي لا تشك فيه من الشجر البرية وصيد البر والبحر ومن أصناف الطير والوحوش والحوت (١).

وبذلك يكون ابن ياسين ـ رحمه الله ـ ترك ديار الملثمين واختار جزيرة في حوض نهر السنغال للمرابطة وتربية المريدين على كتاب الله وسُنة رسوله ﷺ بعد أن ترك صدى ودوياً لدعوته في ديار الملثمين وبذلك قرر ابن ياسين أن ينتقل إلى مرحلة التكوين مختاراً مكاناً مناسباً لهذه المرحلة المهمة في تاريخ دولة المرابطين بعد أن نجح في مرحلة التعريف في إبلاغ الدعوة والتعريف بها لهم.

[ب] مرحلة التكوين عند الفقيه ابن ياسين:

تمهيد:

اشتهر في تاريخ المرابطين ما يُسمى برباط ابن ياسين وقبل أن نتعرض لرباط ابن ياسين الذي اتخذه في مرحلة التكوين أرى من باب الفائدة للقارىء الكريم أن يأخذ فكرة مختصرة عن معنى الرباط في الإسلام.

الرباط:

الرباط حصن حربي يُقام في الثغور المواجهة للعدو للذود عن ديار المسلمين، وهذه التسمية مقتبسة من القرآن الكريم والسُنَّة النبوية المطهرة.

(١) انظر: دولة المرابطين (ص ٢٣).

أما القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ ﴾ [الأنفال : ٦٠] .

ومن قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٢٠٠) ﴾ [آل عمران : ٢٠٠]

وفي الحديث النبوي في البخاري جاء فضل الرباط في سبيل الله تعالى عن سهل ابن سعد الساعدي ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: « **رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها ، وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها ، والروحة يروحه العبد في سبيل الله أو الغدوة خير من الدنيا وما عليها** » [١] .

وأصبحت كلمة مرابط تطلق على الشخص الذي خرج إلى الثغور للدفاع عن المسلمين ضد أعدائهم وأطلق المسلمون على الثغر ، أي المحل الذي يقيمون فيه اسم الرباط .

ويحتوى الرباط على برج مراقبة وحصن صغير وقد أقام الولاة الثغور كثير من هذه الربط لحماية حدود الدولة الإسلامية على مر التاريخ ، فكان في بلاد ما وراء النهر عشرة ألاف رباط ، وكذلك في سهول الجزيرة الفراتية ، وكانت سواحل المغرب المطلة على البحر المتوسط عرضة لغارات البيزنطيين أكثر من غيرها فأقيمت فيها الربط وشحنت بالمجاهدين للدفاع عنها حتى أن عقبة بن نافع الفهري عندما أراد بناء مدينة القيروان بلغت الحماسة برجاله فاقترحوا عليه أقامتها على الساحل للمرابطة فيها ، وقالوا له : قربها من البحر ليكون أهلها من المرابطين » [٢] .

---

(١) رواه البخاري ، كتاب الجهاد والسير(جـ٣ / ٢٩٥) ، حديث رقم(٢٨٩٢) .

(٢) انظر : المالكي رياض النفوس ،(ص ٦) .

وقد توسعت الربط في عهد العباسين الدولة العباسية وبنى الوالي العباسي هرثمة ابن أعين أول رباط في افريقية عام (١٧٩هـ-٧٩٥م)[١] ، وتوسع الاغالبة في هذا المجال توسعاً عظيماً وأقام الوالي زيادة الله الاغلبي رباط سوسة عام ٢٠٦هـ ٨٢٢م.

وكان الأغالبة يسمون هذا الربط بالقصور والمحاريث ، وقد انتشرت من الإسكندرية إلى المحيط الاطلسي وكان أهالى الشمال الإفريقي يلجئون إليها إذا داهمهم الغزاة وقد قاومت هذه الثغور أساطيل وجيوش البيزنطيين الذين عجزوا رغم تفوقهم البحري عن احتلال الساحل الافريقى ، وقد التزم المقيمون في هذه الثغور بالاهتمام بالفروسية والتدريب عليها خاصة بالإضافة إلى كافة التدريبات الجهادية الأخرى التي أهلتهم للقيام بمهماتهم على أكمل وجه من الذود عن حياض المسلمين والجهاد في سبيل الله.

وإلى جانب المهمات الجهادية التي قامت بها الثغور فقد اهتمت بالناحية العلمية فمع انتشارها أخذت التعاليم الإسلامية تنتشر من خلالها وقد قام فقهاء أهل السُّنَّة والجماعة في تلك الثغور من فقهاء المالكية بدور ريادي عظيم في وجه التيارات الفكرية والمذهبية ، التي عصفت بالمشرق وكانت الربط والثغور والقلاع والحصون هي المنطلق لنشر ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه من عقيدة وعبادة وأخلاق ومعاملة ، وأصبحت الثغور في الشمال الافريقى مدارس علمية تدرس أمور الدين من فقه وحديث وتفسير وأصول وغيرها وكانت حياة أهل الثغور تقوم على أساس من التعاون بين أفرادها لتحقيق حياة إسلامية مثالية ، وكان الأفراد يجمعون المؤن بأنفسهم عن طريق الصيد البرى والبحري حسب موقع الرباط وكذلك يقومون بإعداد الطعام وكل ما تتطلبه عمليات التموين من

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية ، مادة رياض (ص ١٩).

زراعة وصناعة آلاتها بالإضافة إلى صناعة الأسلحة [١] .

وإما من ناحية العبادة فالجماعة التي التزمت بالرباط مؤمنة بربها وبرسالة الإسلام فكانت العبادة تقتصر على الصلوات الخمس جماعة وقد وضعت عقوبات لمن تأخر عنها.

وفي أوقات السلم كانوا يحفظون القران وتفسيره وكل ما يمت إلى الدين بصلة ويقومون بالمهمات التي تتعلق بحياة الرباط وبما أن التبشير بهذا الدين والدعوة إليه من أهم واجبا تهم فكانوا يخرجون إلى القبائل لهدايتها وترغيبها في الإسلام وتربيتها عليه وقد أدت الثغور في الشمال الإفريقي خدمات جليلة للإسلام وللمسلمين فقد عصمت أهل المغرب إلى حد كبير من الفتن التي سادت المشرق ، وكان لمنهج أهل السُّنَّة والجماعة شوكة وحماة وعلماء وفقهاء في تلك الربوع من عالمنا الإسلامي ، و تميز أهل الثغور عن غيرهم بالزهد والتقشف والتفاني في سبيل الله ، ولا يبتغي أهلها من الناس من وراء ذلك جزاء ولا شكوراً وإنما لسان حالهم إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريراً [٢] .

[١] رباط عبد الله بن ياسين :

أقام الفقيه الرباني المربي المجاهد ابن ياسين رباطه في الحوض الأدنى لنهر السنغال وموقعه يدل على أهداف ابن ياسين التي أعد لها ، فهو يقع قريبًا من مملكة غانة الوثنية ، لذلك فهو مهدد دائمًا بالأعداء ، ولابد للجماعة المقيمة فيه من الجهاد ، وهو غير بعيد عن ديار الملثمين ، فيستند إليهم في حالات الخطر ، وتشكل تلك الديا ر موردًا بشريًا لا ينضب لمن يريد الانضمام إليه ، وهذا يفسر كثرة عدد رجال .

دخل ابن ياسين الجزيرة التي في الحوض الأدنى لنهر السنغال عام (٤٣٣هـ /

(١) انظر : دولة المرابطين (ص ٢٤ ، ٢٥).

(٢) المصدر السابق ، (ص ٢٧).

١٠٤٠م) ، ومعه أتباعه المخلصون ثم بدأ الانضمام إلى جماعته من أبناء الملثمين وتكاثر عددهم حتى بلغ الألف رجل ، ولما كثر أتباعه وضع ابن ياسين شروطًا رآها لازمة لكي لا يتأثر تنظيم رباطه الجديد ومرحلته التي بدأ الشروع فيها ، فكان ينتقي أطهر الملثمين نفسًا وأوفرهم قوة وأقدرهم على تحمل المشاق ، كان يطلب منهم أن يتخلوا عن تقاليدهم وأعرافهم وتصوراتهم التي تخالف الإسلام ويدخلوا الإسلام بقلوب صافية ونفوس طاهرة ، وهمم عالية تسعى لتحكيم شرع الله على وجه المعمورة [١] .

وعمل جاهدًا على تحكيم شرع الله على الأفراد وفي مجتمعه الجديد ، وكان يرى أن من فاتته صلاة من عمره عليه أن يقضيها ، وهي مسألة فقهية اختلف علماء الأمة فيها ، فمنهم من يكتفي بالتوبة النصوح ، ومنهم من يطلب قضاء ما فات .

وكان ابن ياسين يهتم اهتمامًا بالغًا بالفقهاء والعلماء ويرفعهم إلى مراتب عالية حيث التف حوله مجموعة من الفقهاء والعلماء ليساعدوه على تربية الناس وتعليمهم وتأهيلهم للمرحلة القادمة ، وكان لا يمنعه الحياء من طرد من لا يراه مناسبًا لهدفه المنشود .

وكان أهل الرباط في قمة من الصفاء الروحي ويعيشون حياة مثالية في رباطهم ، فيتعاونون على قوتهم اليومي معتمدين على ما توفره لهم جزيرتهم من الصيد البحري ، يقنعون بالقليل من الطعام ويرتدون الخشن من الثياب [٢] .

كان رباط السنغال الذي أسسه الداعية الرباني ابن ياسين منارة يشع نورها وخيرها وعلمها في تلك الصحاري القاحلة ، فأصبح قطبًا جذابًا عاملاً على

---

(١) ، (٢) **انظر** : دولة المرابطين(ص ٢٧ ، ٢٨) .

جذب أبناء قبائل صنهاجية إليه ، ووفر الأمن والاستقرار في تلك الديار الصحراوية البعيدة فأصبحت القوافل تمر بأمن وسلام دون أن يتعرض لها أحد بسوء ، وقد أدى ذلك إلى ازدهار التجارة .

وتميز ذلك الرباط بحسن إدارته وتنظيمه وتشكيله مما ساعد على قوة النواة الأولى لدولة المربطين حيث تشكل مجلس الشورى جماعة للحل والعقد تطورت مع مر الأيام ؛ وأصبحت مرجعية عليا للملثمين .

[٢] أصول المنهجية العلمية والفقهية عند الفقيه ابن ياسين التي ربى عليها أتباعه :

يعتبر الفقيه ابن ياسين من علماء أهل السُنَّة والجماعة ، مالكي المذهب ، استمد أصول فهمه من أصول المالكية التي كانت ولا زالت ضاربة بجذورها في قلوب أهالي الشمال الإفريقي ، إلا أنه كانت له اجتهاداته الحركية والتنظيمية التي أملتها عليه طبيعة دعوته التي عاشها وتحرك بها ، وبذلك نستطيع أن نقول عنه بأنه فقيه مالكي حركي ، ويرى علماء المالكية الذين تتلمذ ابن ياسين على كتبهم وفقههم ، أن المذهب المالكي له أصول في الاستنباط واستخراج الأدلة الشرعية ، ومن هذه الأدلة :

المصدر الأول : القرآن الكريم :

كان الإمام مالك يرى أن القرآن قد اشتمل على كليات الشريعة ، وأنه عمدة الدين ، وآية الرسالة ، ولم تكن نظرته إليه كنظرة الجدليين ، فابتعد عن نظر المتكلمين ، هل القرآن لفظ ومعنى أو معنى فقط ، وهو عنده اللفظ والمعنى ، كما هو إجماع من يعتد بهم من المسلمين ، وروى أنه كان يقول : إن من يقول بأن القرآن مخلوق فهو زنديق يجب قتله ، ولذا لم يعتبر الترجمة قرآنًا يُتلى تجوز به الصلاة ، بل هي تفسير أو وجه من وجوه المعنى المعقول ، وهو يأخذ بنص

القرآن ، وظاهره ومفهومه ، ويعتبر العلة التي يأتي التنبيه عليها [١] .

إن القرآن الكريم هو المرجعية العليا لابن ياسين وأتباعه ، وكان موقفهم الإذعان والتسليم لكل ما جاء فيه ، ومما يتعلق بالعقائد أو العبادات أو الأخلاق أو المعاملات ، فالقرآن الكريم لم يفرق بينها ، فكلها تتضمن كلمات الله الهادية إلى أقوم سبيل ، الداعية إلى كل هدى ورشد ، والمحذرة من كل ضلالة وغي ، فكان وأتباعه على بينة من ربهم وبصيرة من دينهم فلم تتحير عقولهم أو ترتاب قلوبهم أو يتردد عزمهم في أي تصور أو معتقد أو خلق أرشد إليه القرآن ، لإيمانهم العميق بقوله تعالى : ﴿ **لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (٤٢)** ﴾ [فصلت : ٤٣] .

وكان تدبر ابن ياسين وفقهاء المرابطين للقرآن الكريم معينًا لهم على استنباط الأحكام الشرعية .

قال تعالى :﴿ **كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ (٢٩)** ﴾ [ص : ٢٩] .

وقال تعالى :﴿ **أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا (٨٢)** ﴾ [النساء : ٨٢] .

وقال عز وجل : ﴿ **أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (٢٤)** ﴾ .

[محمد : ٢٤] .

لقد فهم المرابطون أن القرآن الكريم لم ينزل ليُتلى على الأموات ، بل نزل ليحكم الأحياء ، وأنه لم ينزله الله تعالى إلا من أجل اتباعه والعمل به ، وبذلك

---

(١) **انظر** : تاريخ التشريع ، مناع القطان (ص ٢٩١) .

ينال المتبع والعامل به رحمة الله تعالى : ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ ﴾ [الأنعام : ١٥٥] .

إن الله تعالى حدد في كتابه أهداف القرآن الكريم في الحياة والمجتمع في عبارات أبين من الشمس في رابعة النهار ، فقال تعالى : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ﴾ [النساء : ١٠٥] .

وقال تعالى : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ ﴾ [المائدة : ١٥ ، ١٦] .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ ﴾ [الإسراء: ٩ - ١٠].

إن من أسباب قوة المرابطين وتوفيق الله لهم تمسكهم بكتاب الله .

المصدر الثاني : السُّنَّة النبوية :

اعتمد المرابطون وخصوصاً فقيههم الأكبر ابن ياسين على السُّنَّة النبوية في استنباط الأحكام الشرعية وألزموا أنفسهم وغيرهم بمنهج الله تعالى .

والسُّنَّة عند المرابطين هي: المنهج النبوي المفصل في تعاليم الإسلام وتطبيقه وتربية الأمة عليه، والذي يتجسد فيه قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

ويتمثل ذلك في أقواله ﷺ وأفعاله وتقريراته .

فالقرآن: هو الدستور الذي يحوي الأصول والقواعد الأساسية للإسلام عقائده وعباداته، وأخلاقه، ومعاملاته، وآدابه.

والسُنَّة: هي البيان النظري والتطبيق العملي للقرآن في ذلك كله.

ورأى علماء المرابطين وجوب اتباع الرسول ﷺ في أقواله وأفعاله وتقريراته مستندين بقوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ** ﴾ . [النساء ٥٩].

وجعل طاعته لله تعالى: ﴿ **مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ** ﴾ [النساء: ٨٠].

وجعل سبحانه وتعالى طاعته الاهتداء: ﴿ **وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا** ﴾ [النور: ٥٤].

وجعل سبحانه وتعالى اتباع النبي ﷺ دليلاً على محبة الله ومغفرته: ﴿ **قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ** ﴾ [آل عمران: ٣١].

وأمرهم باتباعه فيما أمر ونهى:

﴿ **وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا** ﴾ [الحشر: ٧].

وأمرهم بالاستجابة لدعوته، واعتبر ما يدعوهم إليه هو الحياة: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ** ﴾ [الأنفال: ٢٤].

ولم يجعل لمؤمن ولا مؤمنة خياراً في قبول حكمه: ﴿ **وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا (٣٦)** ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وأقسم على نفي الإيمان عمن أعرض عن تحكيمه، أو لم يقبل حكمه راضياً مسلّماً: ﴿ **فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٦٥)** ﴾ [النساء: ٦٥].

وجعل سبحانه وتعالى قبول حكمه أو التولي عنه المحك الذي يميز الإيمان من

النفاق . قال تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [النور: ٤٧ - ٤٨].

﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [النور: ٥١].

وحث على الاقتداء بالنبي ﷺ : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ [الأحزاب: ٢١].

ودلت أحاديث كثيرة على وجوب اتباع النبي ﷺ، ولذلك سعى المرابطون لتحقيقها في حياتهم، ومن ذلك ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه أنه قال: «**كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى**»، قيل: ومن يأبى يا رسول الله؟ قال: «**من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى**»[1].

ومن ذلك ما رواه العرباض بن سارية قال :

وعظنا رسول الله ﷺ موعظة وجلت منها القلوب، وذرفت منها العيون، فقلنا يا رسول الله، كأنها موعظة مُودِّع: فأوصنا، قال: «**أوصيكم بتقوى الله، والسمع والطاعة، وإن تأمر عليكم عبد، وإنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسُنتي وسُنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمر، فإن كل بدعة ضلالة**»[2].

إن قبائل صنهاجة الذين عرفوا بالملثمين ثم أطلق عليهم اسم المرابطين ظهرت آثار التزامهم بسُنة النبي ﷺ في كافة مناشط حياتهم في التعلم والتزكية والجهاد والسياسة وغيرها من الأمور التي كونوا بها دولتهم المعروفة.

---

(١) أخرجه البخاري (٧٢٨٠).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧) والترمذي (٢٦٧٦).

المصدر الثالث: عمل أهل المدينة:

الذي اهتمت به المدرسة المالكية المغربية السنية عموماً عمل أهل المدينة حيث إنها دار الهجرة، وبها تنزل القرآن، وأقام رسول الله ﷺ ومعه أصحابه بها، وأهل المدينة اعرف الناس بالتنزيل، وبما كان من بيان رسول الله ﷺ، على هذا رأى المالكيون أن عملهم بالاقتداء بعلماء أهل المدينة في أقوالهم وأفعالهم حجة، وقدموا ذلك على القياس، وعلى خبر الواحد، وفي كتاب الإمام مالك إلى الليث ابن سعد الفقيه المصري: « إن الناس تبع لأهل المدينة ، التي إليها كانت الهجرة، وبها تنزل القرآن » [(١)].

وسار فقهاء الدولة المرابطية وعلى رأسهم الفقيه عبد الله بن ياسين على هذا الطريق ولم يغيروا أو يبدولوا أو يرضوا بغيره حولاً .

المصدر الرابع: قول الصحابي:

جعل المالكية قول الصحابي الذي لا يعرف له مخالف حجة، واعتمدوا في ذلك على ما ذكر الإمام مالك في «الموطأ»حيث اعتمد في كثير من فتاويه على العديد من أقوال الصحابة الذي هم أعلم بالتأويل وأعرف بالمقاصد .

وحين تتعدد أقوال الصحابة في المسألة الواحدة يختار علماء المالكية من أقوالهم ما يتفق مع عمل أهل المدينة.

المصدر الخامس: المصالح المرسلة:

اعتبر المالكية المصالح المرسلة دليلاً شرعياً ومارسوها ممارسة عملية في الحياة وأصلوا لها أصولاً في جلب المنفعة، ودفع المفسدة وقاسوا بهذه القواعد الأمور التي لم يشهد لها الشرع بإبطال ولا باعتبار معين، لأن تكاليف الشريعة ترجع إلى حفظ مقاصدها في الخلق، والمقاصد إما ضرورية أو حاجية، أو تحسينية.

---

(١) **انظر** : تاريخ التشريع الإسلامي ، (ص ٢٩١ – ٢٩٢) .

والضرورية: هي التي لا بد منها في قيام مصالح الدين والدنيا في الضروريات الخمس في الملل جميعًا وهي: حفظ الدين والنفس، والنسل، والمال والعقل.

والحاجية: هي التي تودي إلى رفع الضيق والحرج والمشقة.

والتحسينية: هي المتعلقة بمكارم الأخلاق وكون هذه المعاني مقصودة عرف بأدلة كثيرة لا حصر لها من الكتاب والسُّنَّة، مما يدل على مقاصد الشرع، ولذا ذهب المالكية إلى أن المصلحة تكون حجة ويعتبر بعض الباحثين القول بالمصلحة من خصوصيات مذهب المالكية.

المصدر السادس: القياس:

وهو من أصول المنهجية العلمية التي سار عليها ابن ياسين وربى عليها أتباعه.

المصدر السابع: سد الذرائع:

سار عليه ابن ياسين في منهجه العلمي في تأصيل أصول فقه مذهبه، وسار على نهج فقهاء المالكية في الاقتداء بالإمام مالك ـ رحمه الله ـ الذي أكثر إكثاراً شديداً من العمل بسد الذرائع حتى اعتبر بعض العلماء العمل بها من خصوصيات مذهبه حتى وصفه الشاطبي بأنه كان شديد المبالغة في سد الذرائع (١).

[جـ] مرحلة التنفيذ التي قام بها ابن ياسين:

بعد أن قطع ابن ياسين بأصحابه وأتباعه مرحلة التكوين العقدي والفقهي والحركي والتنظيمي والتربوي، وأصبح معه رجال يعتمد عليهم في تبليغ دعوة الله على فهم صحيح لكتاب الله، وفقه واسع لسُنَّة نبيه ﷺ، ورغبهم في ثواب الله تعالى، وطلب مرضاته، وخوّفهم من عقابه، وتمكن حب الاتباع من قائدهم العالم الفقيه، بدأ ابن ياسين بإرسال البعوث إلى القبائل، لترغيب الناس في

---

(١) انظر: التشريع والفقه في الإسلام، مناع القطان، (ص ٢٩٤).

الإسلام، فلبى مجموعة من أشراف صنهاجة هذه الدعوة المحكمة والتفوا حوله.

ثم أمر ابن ياسين أتباعه وتلاميذه أن يذهب كل منهم إلى قبيلته أو عشيرته يدعوهم إلى العمل بأحكام الله وسُنَّة نبيه ﷺ، فلما لم يجدوا استجابة من أقوامهم، خرج إليهم بنفسه، فجمع أشياخ القبائل، ووعظهم وحذرهم عقاب الله، واستمر في ذلك سبعة أيام، فلم يزدادوا إلا فسقاً، فلما يئس منهم أعلن الجهاد عليهم (١).

تحركت جموع المرابطين أولاً صوب قبيلة جدالة، حيث اشتبكوا معها في معركة شرسة وأوقعوا بها الهزيمة، وقتلوا منها خلقاً كثيراً، وانقاد الباقون لأحكام الإسلام، ثم سار ابن ياسين إلى قبيلة لمتونة فقاتلهم وانتصر عليهم، ودخلوا في طاعة ابن ياسين، وبايعوه على إقامة الكتاب والسُنَّة، ثم مضى إلى قبيلة مسوفة التي دخلت تحت لوائه وبايعوه على ما بايعته قبائل جدالة ولمتونة، فلما شهدت قبائل صنهاجة هذه الأحداث بادرت إلى مبايعة ابن ياسين على بذل الطاعة له، وقلدتها كثير من القبائل الصحراوية في ذلك (٢).

ووضع ابن ياسين خطة شاملة تركزت على توزيع النابغين من تلاميذه على القبائل التي دخلت في دعوته ليعلموها القرآن وشرائع الإسلام، وبدأ ابن ياسين في تخطيط الدولة التي شرع لتأسيسها على أسس شرعية ربانية، وفي ظني أن الذي أسس الدولة المرابطية فعلياً ونفذ أحكامها الشرعية هو يوسف بن تاشفين، وهذا ما يتضح من خلال دراسة هذه الدولة البهية، ولما توفي الأمير يحيى بن إبراهيم الجدالي، قدم ابن ياسين مكانه يحيى بن عمر اللمتوني وكان من أهل الدين والفضل، كما كان منقاداً في جميع أموره لإمامه ابن ياسين (٣).

---

(١) **انظر** : ابن أبي زرع ، روض القرطاس (ص ٨٥) .

(٢) **انظر** : تاريخ المغرب والأندلس ، د . حمدي عبد المنعم (ص ٤١) .

(٣) **انظر** : دولة المرابطين (ص ٣١) .

وبذلك أصبحت القبائل الصنهاجية في المغرب الأقصى لها قيادة دينية وسياسية ومجالس شورى تدير دفتها وحركتها فتطلعت لتوحيد المغرب الأقصى كله وإزالة كل عائق يمنعها من تحكيم شرع ربها.

[أ] الوضع السياسي في المغرب الأقصى عند ظهور المرابطين:

كان المغرب الأقصى في أوائل القرن الخامس الهجري في محنة سياسية ودينية حيث ظهرت دعوات منحرفة عن الإسلام وحقيقته وجوهره الأصيل، واستطاعت بعض الدعوات البدعية الكفرية أن تشكل كياناً سياسياً تحتمي به وأصبح المغرب الأقصى شبيهاً بالأندلس في زمن ملوك الطوائف، وكانت الطوائف التي سادت المغرب قبيل وصول المرابطين تتكون من أربع شوكات قوية لها وزنها في المغرب الأقصى.

أولاً: قبائل غمارة في الشمال.

ثانياً: قبائل برغواطة في المغرب.

ثالثاً: قبائل زناتة وكانت تكوّن نطاقًا حول الطوائف السابقة ولا سيما برغواطة.

رابعاً: طوائف الشيعة والرافضة والوثنيين في الجنوب.

[١] الطائفة الأولى قبائل غمارة:

كانت تسكن جبال الريف الممتدة من ناحية البحر المتوسط من سبتة وطنجة غرباً، إلى وادي نكور بالقرب من المزمة أو الحُسَيْمة الحالية شرقاً، وتمتد بلادهم جنوباً إلى قرب فاس، وكانت غمارة بطناً من بطون مصمودة وظهر فيها مشعوذون، وقصدتهم الخوارج للمنعة في جبالهم، ووصفهم المؤرخون من أمثال ابن خلدون وغيره: بأنهم «عريقون في الجاهلية، بل الجهالة، والبعد عن الشرائع بالبداوة والانتباذ عن مواطن الخير، وتنبأ فيهم إنسان يعرف حاميم بن مَنّ الله، ولقب بالمفتري، وفي رواية أخرى بالمقتدي - ولعلها هي الأصل ثم حرفت إلى

المفتري - والجبل الذي تنبأ فيه ينسب إليه، وهو جبل على مقربة من تطوان، وأجابه بشر كثير من غمارة وأقروا بنبوته، ووضع لهم شريعة استهواهم برخصها، فرض لهم الصلاة صلاتين عند طلوع الشمس وعند غروبها، ووضع لهم قرآناً بلسانهم «أي البربري»، ومن تعاليمه أنه أحل لهم أكل أنثى الخنزير، وأسقط عنهم الحج والطهر والوضوء، وحرم عليهم الحوت حتى يُذكى، وحرم بيض كل طائر... إلخ» [١] .

وقد قتل هذا المشعوذ الزنديق في النصف الأول من القرن الرابع الهجري في طنجة في حروبه مع قبائل مصمودة الساحلية على حد قول البكري وابن خلدون، أو في حروبه مع جيوش الخليفة الأموي عبد الرحمن الناصر على حد قول صاحب «الاستبصار»، وصاحب «مفاخر البربر» [٢] .

واستمرت البدع الكفرية بالرغم من موت المتنبئ المشعوذ ، وظهر أحد أبنائه ويدعى عيسى ، وكان مبجلاً في قومه ، وكانت قبائل غمارة غارقة في الإباحية بين النساء والرجال، وكان رجالهم يربون شعورهم كالنساء ويتخذونها ضفائر ويطيبونها ويتعممون بها... إلخ [٣] .

[٢] الطائفة البرغواطية:

كونت هذه الطائفة الكافرة دولة لها في القرن الثاني للهجرة في إقليم تامسنا أو ما يُسمى اليوم بالشاوية [٤] وكانت دولتهم تمتد من الرباط الحالية وتمتد إلى ثغر فضالة الذي كان قاعدة لأسطولها، وتنتهي عند بلدة أزمور عند مصب وادي أم الربيع.

---

(١) **انظر** : الاستبصار في عجائب الأمصار ، لمؤلف مجهول ، (ص ١٩٠)
(٢) **انظر** : كتب الاستبصار ، (ص ١٩١ -١٩٢) ، ومفاخر البربر ، (ص ٧٧)
(٣) **انظر** : في تاريخ المغرب والأندلس ، د . العبادي (ص ٢٧٨) .
(٤) المصدر السابق (ص ٢٧٩) .

ونجد أن المؤرخين اختلفوا حول اسم برغواطة ، فبعضهم يرى بأنه لم يكن اسماً لقبيلة معينة يجمعها أصل واحد أو أب واحد، بل كان اسماً لأخلاط من البربر اجتمعوا على شخص يهودي الأصل، ادعى النبوة، اسمه صالح بن طريف ابن شمعون البرباطي، نسبة إلى وادي البرباط في جنوب الأندلس فصارت كلمة برباطي تُطلق على كل من اعتنق ديانته، ثم حرفت إلى برغواطي (١) .

ويرى ابن خلدون بأن برغواطة قبيلة من المصامدة وأن ملوكها كانوا من مصامدة المغرب (٢) .

ومن عقائد هذه الطائفة الضالة اعتقادهم بأن صالح بن طريف هو المقصود بقوله تعالى في سورة التحريم: ﴿ **وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ** ﴾ [التحريم: ٤]. وزعم زعيمهم أنه المهدي الأكبر الذي يخرج في آخر الزمان لقتال المسيح الدجال، وأن عيسى ابن مريم يكون من أصحابه ويصلي خلفه.

وشرع لأتباعه صوم رجب والأكل في رمضان، وفي الوضوء غسل السرة والخاصرتين بالإضافة إلى طريقة الوضوء عند المسلمين، وفرض عليهم خمس صلوات في النهار وخمس صلوات في الليل، وبعض صلواتهم إيماء بلا سجود، وبعضها على كيفية صلاة المسلمين، وعند ابتداء الصلاة يضع الفرد إحدى يديه على الأخرى، ويقول بالبربرية ابسمن باكش، وتفسيره باسم الله، ثم مقر ياكش، أي الله أكبر، ويقولون في تسليمهم بالبربرية أيحن ياكش، ووردام ياكش الله أحد لا مثيل له، وضع صالح بن طريف قرآناً باللغة البربرية في ثمانين سورة أكثرها منسوب إلى أسماء النبيين ، أولها سورة أيوب وآخرها سورة يونس .

---

(١) انظر : في تاريخ المغرب والأندلس ، د . العبادي (ص ٢٧٩) .
(٢) ابن خلدون ، العبر (جـ٢ / ٢١٠) .

وأباح لهم تزوج النساء فوق الأربع، وأباح لهم الطلاق، وحرم عليهم زواج بنت العم، وزواج المسلمات، كذلك شرع قتل السارق، ورجم الزاني، ونفي الكاذب، وحرم رأس كل حيوان، وحرم ذبح الديك، والحوت أي السمك، ولا يؤكل إلا أن يذكى «أي يذبح» والبيض عندهم حرام ، وليس عندهم آذان ولا إقامة ، وهم يكتفون في معرفة الأوقات بصياح الديوك ، ولذلك حرموها إلى غير ذلك من التعاليم الشيطانية ، وإلى حد كبير تشبه ديانة حاميم المفتري في غمارة (١) .

لقد كانت تعاليم هذه الدولة الكفرية متأثرة بتعاليم اليهود المنحرفة، وكذلك ببعض التعاليم الإسلامية حيث يمكننا أن نقول إنها ديانة مشوهة للإسلام تعمل للقضاء عليه. وكانت هذه الدولة عند أهل السُّنَّة والجماعة منحرفين مارقين عن الدين الحنيف، ولهذا فرضوا قتالهم واستحلوا دماءهم.

واستمرت هذه الدعوة الكفرية منذ سنة ١٢٥هـفي خلافة هشام بن عبد الملك إلى ظهور أهل السُّنَّة المرابطين الملثمين الذين قضوا عليهم قضاءً مبرماً، وقد ذكرت كتب التاريخ إن حكام المغرب قبل مجيء المرابطين، كالأدارسة والأمويين والزناتيين قد قاتلوا برغواطة وأنزلوا بها هزائم منكرة وخسائر فادحة.

لقد قاسى المغرب الأقصى محنة كبيرة بسبب هذه الدولة الكفرية والطائفية البدعية وكان خطرها أشد وأقوى مما تصوره كتب التاريخ (٢) .

[٣] الطائفة الثالثة وهي الدولة الزناتية:

وهي تتكون من قبائل مكناسة ومغراوة وبني يفرن وغيرها من القبائل الزناتية التي حكمت المغرب سنين بعد زوال نفوذ الأدارسة حيث قامت بدور إيجابي في

---

(١) نص على ذلك التشابه صاحب كتاب مفاخر البربر ، (ص ٧٧)انظر : في تاريخ المغرب والأندلس (ص ٢٨١).

(٢)في المغرب والأندلس ، (ص ٢٨٧).

حرب الدول البرغواطية، إلا أن حكام هذه الدولة اشتهروا بالجور والظلم والتعسف في آخر زمانهم [١] .

[٤] **الطائفة الرابعة طوائف الشيعة والوثنيين :**

كان محلهم جنوب المغرب في أقصى بلاد السوس، وكانوا عبارة عن أقليات مبعثرة.

أما الشيعة فقد انتشروا في مدينة تارودانت ونواحيها وكانوا دعاة للفكر الشيعي الرافضي، وبعضهم يرجع جذورهم وأصول فكرتهم للدولة العبيدية الرافضية التي جاء ذكرها في صفحات من التاريخ الإسلامي في الشمال الإفريقي «الدولة العبيدية الرافضية» لقد كان الصراع عنيفاً بين الشيعة وبين أهل السُّنَّة في كل ناحية وضاحية ومكان في المغرب كله، وتوج جهاد أهل السُّنَّة بالقضاء على الدولة العبيدية إلا أن بقايا جذورهم أزالها المرابطون بقوتهم السنية الميمونة، أما الوثنيون فكانوا يسكنون الأطلس الكبير في جبل وعر، وكان الوثنيون يعبدون الكبش، ويبدو أنهم تأثروا بديانات مصرية قديمة كانت تعبد الكبش في زمن الفراعنة ويسمونه الإله خنوم، فكأن طقوس هؤلاء الوثنيين وعباداتهم من رواسب مؤثرات مصرية قديمة [٢] .

لقد اتضح لي في دراستي التاريخية لبلاد المغرب أنها كانت تعاني من تفكك سياسي وتكونت دول طائفية على مناهج منحرفة عن دين رب البرية، وكانت شعوب تلك الديار قد غرقت في وحل الجهل، ومستنقعات الانحراف وفساد التصور، وضياع الأخلاق، وكثرة الظلم، وانتشار العسف والجور وكان علماء وفقهاء المرابطين على علم ودراية، وقد وضعوا في خطتهم الجهادية توحيد المغرب الأقصى والقضاء على الدولة الطائفية الكفرية، وإزالة الظلم والجور والتعسف.

---

(١) في المغرب والأندلس ،(ص ٢٨٩) .

(٢) في المغرب والأندلس ،(ص٢٩١) .

وعملوا على توحيد الديار المغربية وتربيتها على منهج سني مالكي، ومحاربة المناهج الكفرية، والقضاء على المذاهب البدعية من خوارج ومعتزلة وروافض ومنعها من الانتشار أو أن يكون لها وجود.

[هـ] الشروع في توحيد المغرب الأقصى :

في عام (٤٤٧ هـ - ١٠٥٥م) اجتمع فقهاء سجلماسة ودرعة وكتبوا إلى ابن ياسين يرغبونه في الوصول إليهم ليخلص بلادهم مما تعانيه من الحكام الطغاة الظلمة زناتة المغراويين وأميرهم مسعود بن واندين، فجمع ابن ياسين شيوخ قومه وقرأ عليهم رسالة فقهاء سجلماسة، فأشاروا عليه بمد يد المعونة لهم، قالوا له: «أيها الشيخ الفقيه هذا ما يلزمنا فسر بنا على بركة الله» (١) .

فخرجت جموع المرابطين في شهر صفر سنة ٤٤٧ هـ إلى بلاد درعة، فتصدى لهم الأمير مسعود بن واندين بالقتال، وانتهت المعركة بهزيمة المغراويين ومصرع مسعود وتشتت جيشه وأسرع ابن ياسين بدخول سلجماسة، وأصلح أحوالها، وقدم عليها عاملاً من لمتونة وحامية مرابطية ثم عاد إلى الصحراء (٢) .

وفي عام (٤٤٨هـ-١٠٥٦م) توفي الأمير يحيى بن عمر اللمتوني فعين عبد الله بن ياسين أخاه أبا بكر بن عمر مكانه للقيادة، ثم تأهب أبو بكر لغزو بلاد السوس ففي ربيع الثاني سنة ٤٤٨ هـ سار المرابطون صوب بلاد السوس، واختار أبو بكر بن عمر ابن عمه يوسف بن تاشفين ليتولى القيادة على مقدمه الجيش المرابطي، وكان ذلك أول ظهور ليوسف بن تاشفين مؤسس دولة المرابطين وقائد مرحلة التمكين وتمكنوا من احتلال اروادنت، وقضوا على الروافض والوثنيين، كما قاتلوا اليهود المنتشرين في تلك النواحي فأعادوا بذلك تلك المناطق إلى مذهب أهل السُّنَّة والجماعة (٣) .

---

(١)، (٢) **انظر** : موسوعة المغرب العربي (٢/ ١٢٨).

(٣) في المغرب والأندلس (ص ٢٩٣).

وسار المرابطون إلى مدينة أغمات، وكان أميرها يومئذ لقوط بن يوسف بن علي المغراوي وحاصرها واضطر لقوط إلى الفرار عندما أيقن عبث المقاومة، فخرج يتملس النجاة في أهله وحشمه تحت جناح الظلام، ودخل المرابطون أغمات عام (٤٤٩هـ-١٠٥٧م) وأقاموا فيها ما يقارب من الشهرين، وتحركوا حركات حربية محكمة للقضاء على فلول المغراويين، واستطاعوا قتل أمير أغمات وتزوج أبو بكر ابن عمر من زينب النفراوية زوجة لقوط المغراوي.

ثم سار أبو بكر بن عمر في جموع المرابطين إلى أرض برغواطة وكان أميرهم يومئذ أبو حفص بن عبد الله بن أبي غفير بن محمد بن معاذ، ونشبت بين المرابطين والبرغواطيين وقائع ومعارك حامية الوطيس أصيب فيها العالم الرباني والمقاتل الميداني والفقيه الموجه ابن ياسين بجراح أودت بحياته إلى الشهادة نحسبه كذلك، ولا نزكي على الله أحداً حمل على إثر تلك الجراح إلى مقر القيادة في معسكر المرابطين، وقبل خروج روحه جمع رؤساء وشيوخ المرابطين وحثهم على الثبات في القتال، وحذرهم من عواقب التفرقة والتحاسد في طلب الرياسة، ولم يلبث أن فارق الحياة [1] ، فعلى أمثال هؤلاء الرحمة والمغفرة والرضوان من الرحيم الواحد المنان، واتفق رأي المرابطين على اختيار أبي بكر بن عمر للرياسة مكان ابن ياسين، وأجمع شيوخ المرابطين على مبايعة أبي بكر، فجمع بين الزعامتين الدينية والسياسية ، بينما يؤكد كل من القاضي عياض وابن خلدون أن المرابطين اتفقوا فيما بينهم على تقديم الشيخ سليمان بن حدو، ليرجعوا إليه في مشاكلهم وقضايا دينهم، وتولى القائد الجديد الزعامة بهمة عالية وشجاعة فائقة، واستعداد للتضحية والفداء من أجل إحياء دين الله على منهج النبوة، وطمس المعالم الكفرية للدولة البرغواطية، فأمر بتعبئة جيوشه

---

(١) تاريخ المغرب والأندلس (ص ٤٤) .

المجاهدة وخرج للقتال واستئصال الكفر من بلاد المغرب، فأثخن في جنود الدولة البرغواطية، وفرق جموعهم، وكسر شوكتهم، وأعلنوا الطاعة والولاء للدولة المجاهدة الجديدة، ثم قصد أبو بكر مدينة أغمات، فمكث بها حتى شهر صفر سنة (٤٥٢هـ-١٠٦٠م) ثم تابع سيره في بلاد المغرب، يفتح البلدان والقرى وحصون الجبال، ففتح سائر بلاد زناتة، وفتح مكناسة، وحاصر مدينة لواتة ودخلها عنوة في شهر ربيع الثاني ٤٥٢هـ، ثم عاد إلى أغمات التي اتخذها قاعدة عسكرية للمرابطين ومقراً للأمير وأخوته، وعندما امتلأت المدينة اتجه أبو بكر إلى اختيار عاصمة جديدة، فوقع على موضع مدينة مراكش الحالية، وشرع في بناءها، فأتاه رسول من الصحراء يخبره بإغارة قبيلة جدالة على قبيلة لمتونة، فعين ابن عمه يوسف وأسرع من أجل الإصلاح بين القبائل المتنازعة، وقسم الجيش إلى فريقين، نصفه مع يوسف الذي شرع في تأديب القبائل المغربية المتمردة من مغراوة وزناتة وبني يفرن وغيرهم ووقع اختياره على أربعة من القواد هم: محمد بن تميم الجدالي، وعمر بن سليمان المسوفي ومدرك التلكاني، وسير بن أبي بكر اللمتوني، وعقد لكل منهم على خمس آلاف من قبيلته، وسيرهم لتأديب تلك القبائل المتمردة، وسار في أثرهم فغزا قبائل المغرب قبيلة بعد قبيلة وبلداً بعد بلد ، وكان بعضهم يفرون وبعضهم يقاتلونه، والبعض الآخر يدخلون في طاعته.

واستمر في توحيد بلاد المغرب وسنرى جهوده الجهادية في سيرته الميمونة.

أما أبو بكر فقد استطاع تأمين الأمن في الصحراء، وأزال الخلاف القائم بين لمتونة وجدالة، وتوسع في جهاد قبائل السود الوثنية لتدخل في دين الله حيث صاول وجاول وقاتل الزنوج لتأمين حدود دولة المرابطين الجديدة بعد دعوة الزنوج للدخول في الإسلام.

وبعد أن حقق أبو بكر بن عمر نجاحات هائلة في مهمته الدعوية ، رجع إلى

المغرب الأقصى بجيوشه فأكرمهم يوسف بن تاشفين إكراماً يليق بالقائد الرباني أبو بكر بن عمر، واختار أبو بكر يوسف نائباً عنه على حكم المغرب الأقصى، وأمره بالعدل والرفق بالمسلمين ثم ودعه إلى الصحراء وقد زوده يوسف بطائفة عظيمة من الهدايا الجليلة، من المال والخيل والبغال والأسلحة المحلاة بالذهب، والجواري والثياب الفاخرة والمؤن والدواب، وهناك استأنف الجهاد والغزو حتى قتل في إحدى غزواته في سنة (٤٨٠هـ-١٠٨٧م) [١] .

قال ابن كثير - رحمه الله - في «البداية والنهاية» -عنه أي عن أبي بكر بن عمر- : «اتفق له من الناموس ما لم يتفق لغيره من ملوك، كان يركب معه إذا سار لقتال عدو خمسمائة ألف مقاتل، كلهم يعتقد طاعته، وكان يقيم الحدود ويحفظ محارم الإسلام، ويحوط الدين ويسير في الناس سيرة شرعية ، مع صحة اعتقاد ودينه، وموالاة الدولة العباسية، أصابته نشابة في بعض غزواته في حلقه فقتلته» [٢] .

لقد كان أبو بكر بن عمر من أعظم قادة المرابطين، وأتقاهم وأكثرهم ورعاً وديناً وحباً للشهادة في سبيل الله، وساهم في توحيد بلاد المغرب، ونشر الإسلام في الصحارى القاحلة وحدود السنغال والنيجر، وجاهد القبائل الوثنية حتى خضعت وانقادت للإسلام والمسلمين، ودخل من الزنوج أعداد كبيرة في الإسلام وساهموا في بناء دولة المرابطين الفتية، وشاركوا في الجهاد في بلاد الأندلس وصنعوا مع إخوانهم المسلمين في دولة المرابطين حضارة متميزة .

[و] تأملات في مسيرة ابن ياسين الجهادية :

لقد سار ابن ياسين في دعوته لقبائل الملثمين الصنهاجية سيرة حسنة نقية، وتدرج بهم من مرحلة التعريف إلى التكوين ثم التنفيذ حيث شرع في قتال

---

(١) ،(٢) البداية والنهاية (١٢/١٤٣) .

القبائل التي لم تحترم أو تقدس حرمات الله، وأزال المنكرات، واعتبر ذلك جهاداً في سبيل الله.

وقد لاحظت أن إعلان الجهاد على القبائل التي تفشت فيها المنكرات جاء بعد إعداد وشورى من أهل الحل والعقد، وبعد أن أصبحت لهم شوكة قوية وإمام مطاع، ومجلس من العلماء والفقهاء يقلبون أمور السلم والحرب.

ويكفي هؤلاء الأبطال على صحة جهادهم ما رواه مسلم في «صحيحه» عن النبي ﷺ: **«ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون، وأصحاب يأخذون بسُنَّته ويقتدون بأمره، ثم إنه تخلف خلوف يقولون ما لا يفعلون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبةُ خردل»** [1].

إن حركة المرابطين كانت موفقة حيث استطاعت أن تنسق مع علماء وفقهاء سلجماسة لإسقاط الدولة الزناتية التي تفشى فيها الظلم والجور والعسف، فعندما رأوا من أنفسهم الاستطاعة والمقدرة على إزالة الظلم، ورأوا أن تحقق المصلحة كان أرجح، سارع الفقهاء والعلماء بالموافقة على مقترح ابن ياسين، وتدفقت جيوش المرابطين، وتعاونت مع المستضعفين، وطهرت البلاد من هيمنة العابثين، ونشرت العدل بين المسلمين، ورفعت الضرائب والمكوس عن المظلومين، وفي نظري أن نجاح حركة المرابطين كان بتوفيق الله، ثم إن القيادة الفعلية للعلماء والفقهاء ومجلس الشورى الذي يمثل أهل الحل والعقد ممن شهدت لهم جموع المرابطين بأنهم أهل لذلك كانت حساباتهم دقيقة، وفتاويهم موزونة، ومعاركهم مدروسة.

أما قتالهم لبرغواطة، وغمارة، ذات المعتقدات الكُفرية والانحرافات العقدية

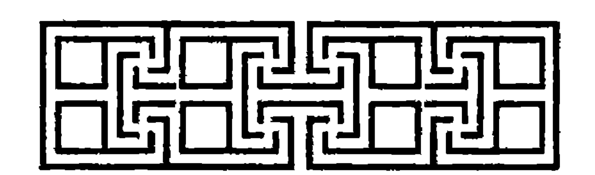
---

(١) صحيح مسلم رقم (٥٠، جـ١ / ٧٠)

فهذا يعتبر من أعظم أعمالهم الجهادية عندما وقفوا لإزالة الدولة الشركية واقتلعوها من جذورها، وبدلت بأصول سنية زكية بهية.

كما لاحظت أن للعلماء شبكة عملية للاتصال والتشاور ووضع الخطط اللازمة لإحياء الإسلام في الشمال الإفريقي، حيث نجد أن الإمام أبا عمران الفاسي هو الذي وضع الخطوط العريضة والإرشادات النافعة لدولة المرابطين ، ثم وجه الأمير يحيى بن إبراهيم إلى موقع من مواقع حلقة الاتصال الواسعة بين العلماء ليرسل قائد تلك الجهة وهو ابن وجاج مع الأمير يحيى أحد الأفراد الذي يتوسم فيهم ذكاءً ونجابةً وصلاحاً وتفوقاً للدعوة في قبائل صنهاجة ، وكان اختيار ابن وجاج في محله .

كما أن علماء سلجماسة كانوا ضمن شبكة من شبكات التعاون بين فقهاء أهل السُّنَّة ، فهم الذين شجعوا جيوش المرابطين لتوحيد الديار المغربية تحت لواء دولة سُنِّية .



المبحث السادس

مرحلة التمكين والتوسع لدولة المرابطين

القائد الرباني يوسف بن تاشفين

(٤٠٠-٥٠٠/١٠٠٩هـ-١١٠٦م)

تمهيد :

قد علمت بأهم المراحل في فقه الدعوه إلى الله التي مر بها الإمام ابن ياسين حيث نجده نجح نجاحاً عظيماً في تنفيذ مرحلة التعريف والتكوين والتنفيذ واستشهد في مرحلة التنفيذ وتولى القيادة في هذه المرحلة أبو بكر بن عمر الذي سار على نفس المنهج الذي رسمه ابن ياسين.

واستمر في فتح مدن المغرب إلا أنه ترك نصف جيش المرابطين لابن عمه يوسف ودخل بالباقي نحو الجنوب داعياً ومجاهداً ومصلحاً واستمر في فتوحاته حتى استشهد - رحمه الله - وتولى الأمر بالكلية القائد الرباني ابن تاشفين الذي أنهى مرحلة التنفيذ وانتقل إلى مرحلة التمكين.

[أ] نسبه :

يوسف بن تاشفين بن إبراهيم اللمتوني الصنهاجي وأمه بنت عم أبيه فاطمة بنت سير بن يحيى بن وجاج بن وارتقين. وكانت قبيلته قد سيطرت بسيادتها وقيادتها على صنهاجة، واحتفظت بالرئاسة منذ أن جعلها الإمام ابن ياسين فيها بعد وفاة الأمير يحيى بن إبراهيم الجدالي فنما عزيزاً كريماً في قومه.

قال عنه المؤرخون من أمثال أشياخ: «خلق الزعامة» [١].

ملك له الشرف العلي من حمير ... وإن اتهموا صنهاجة فهم هم [٢]

(١) الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، (ص ٦٥).
(٢) وفيات الأعيان (جـ٧ / ١٣٠).

كان يوسف أسمر اللون نقيه، معتدل القامة، نحيف الجسم، خفيف العارضين، رقيق الصوت، أكحل العينين، أقنى الأنف، له وفرة تبلغ شحمة الأذن، مقرون الحاجين، أجعد الشعر [١] .

كان يجمع بين جمال الطلعة وجمال الجسم، وبين أبدع المواهب، كان بطلاً شجاعاً، نجداً حاذقاً، جواداً كريماً، زاهداً في زينة الدنيا، عادلاً متورعاً، متقشفاً لباسه الصوف، وطعامه خبز الشعير ولحوم الإبل وألبانها [٢] كان عزيز النفس كثير الخوف من الله .

كان يحب الصفح والعفو عن الذنوب مهما كبرت ما عدا الذين يرتكبون الخيانة في حق الدين ، فلا مجال للعفو عنهم [٣] .

ربته الأحداث وصاغت من شخصيته قائداً فذاً وبرهنت الأيام على أن له مقدرة على فهم واقعة قادراً على النهوض بقومه وشعبه وجيشه نحو حياة إسلامية حضارية أفضل .

تلقى يوسف تعاليمه الأولى في قلب الصحراء من أفواه المحدثين والفقهاء، ونما وترعرع وتربى على تعاليم الإمام الفقيه ابن ياسين، ونبغ في فنون رجال الحرب، وفي السياسة الشرعية التي تتلمذ على الفقهاء فيها، وقام بها خير قيام، وسنرى ذلك بإذن الله في بحثنا هذا.

تذكر كتب التاريخ أنه تزوج زينب النفروية بعد أن طلقها ابن عمه أبو بكر ابن عمر عندما عزم على السفر إلى الصحراء للجهاد والدعوة والإصلاح، فقال لها : أنت أمرأة جميلة بضة، لا طاقة لك على حرارة الصحراء، وإني مطلقك فإذا انقضت عدتك فانكحي ابن عمي يوسف بن تاشفين، وتزوجها يوسف بعد تمام

---

(١) دولة المرابطين(ص ٣٦) .

(٢) انظر : الروض القرطاس(ص ٨٧) .

(٣) دولة المرابطين(ص ٣٦) .

عدتها، وكانت زينب بنت إسحاق مشهورة بالجمال والرئاسة بارعة الحسن حازمة لبيبة ذات عقل رصين ورأي سديد ومعرفة بإدارة الأمور، فكانت نعم الزوجة المعينة لزوجها وقد مدحت كتب التاريخ هذه المرأة واعتبرتها من خيرة نساء دولة المرابطين، وتوفيت (عام ٤٦٤هـ-١٠٧١م).

وتزوج الأمير يوسف من سيدة أندلسية تدعى قمر ، ولا تذكر كتب التاريخ عنها شيئاً ، ويقال: هي التي أنجبت الأمير علي ولي العهد، وأمير الأندلس والمغرب بعد والده.

وتزوج يوسف امرأة تسمى عائشة وأنجبت له الأمير محمد الذي نسب إليها فصار يدعى محمد بن عائشة، ورزق يوسف مجموعة من الذكور والإناث بكرهم تميم الذي توفي غداة معركة الزلاقة وكان والياً على سبتة، وعلي الذي تولى الإمارة بعده، وإبراهيم ومحمد الذي كان أحد القادة البارزين في جيش والده وأما بناته فهما: كونة ورقية [١] .

[ب] المراحل العسكرية التي مر بها يوسف في الجيش المرابطين:

﴿ ١ ﴾ (٤٤٨ _ ٤٥٢ هـ / ١٠٥٦ _ ١٠٦٠م):

كان في هذه المرحلة مجرد قائد من قواد المرابطين يتلقى الأوامر وينفذها بكل نجاح، وكانت هذه المرحلة غنية بالتجارب والخبرات التي شحذت ذهنه وأهلته للمرحلة التالية ، فكأنها كانت ممارسة للسلطة، والاطلاع على خفاياها دون تحمل المسئولية، استطاع بعدها تسلم الإمارة والقيام بكل الأوامر التي وكلت إليه بكل همة ونشاط دون تردد، وقاد المرابطين إلى النصر في ميادين الجهاد والعزة والكرامة والشرف.

وظهر نجم يوسف للمرابطين في معركة الواحات ٤٤٨هـ-١٠٥٦مالتي كان

---

(١) دولة المرابطين (ص ٣٨).

فيها قائداً لمقدمة جيش المرابطين المهاجم، وبعد فتح مدينة سجلماسة عينه الأمير أبو بكر والياً عليها فأظهر مهارة إدارية في تنظيمها، ثم غزا بلاد جزولة وفتح ماسة ثم سار إلى تارودانت قاعدة بلاد السوس وفتحها، وكان بها طائفة من الشيعة البجليين نسبة إلى مؤسسها علي بن عبد الله البجلي، وقتل المرابطون أولئك الشيعة وتحول من بقي منهم على قيد الحياة إلى السُنة .

ثم جاء دور أغمات ، كانت مدينة مزدهرة حضارياً إذ كانت إحدى مراكز النصرانية القديمة ومقراً للبربر المتهودين، كان يحكمها الأمير لقوط بن يوسف بن علي المغراوي.

تلقى يوسف التعليمات من الأمير أبي بكر بالزحف نحوها ومهاجمتها ودكها، ودخل المرابطون المدينة ٤٤٩هـ-١٠٥٧م.

وسار المرابطون وفي جملتهم يوسف نحو دولة براغوطة «الدولة الكافرة الملحدة» ونشبت المعارك بين الفريقين، وأصيب خلالها الإمام ابن ياسين بجراح بالغة توفي على أثرها كما علمت في ٤٥١ هـ-١٠٥٩م.

كان استشهاد الإمام الفقيه عبد الله بن ياسين البداية الأولى في دفع يوسف إلى رئاسة الدولة الناشئة.

إذ أن جانب الإمامة يغلب على جانب الإمارة في عهد الإمام ابن ياسين، وبعد وفاته تولى أبو بكر بن عمر، فرجح جانب الإمارة على جانب الإمامة وأخذت الدولة الناشئة تتحول إلى طابع سياسي جديد ومرت بها ظروف تتطلب رجالاً من طراز يوسف بن تاشفين.

وعندما دخل أبو بكر بن عمر بجيوشه إلى الصحراء وأناب ابن عمه يوسف على المغرب ظهرت خلالها مواهب يوسف العسكرية والإدارية والتنظيمية والحركية والدعوية، وسلم الناس بزعامته وبدأ في تأسيس دولته بالحزم والعلم والجد والمثابرة والبذل والعطاء.

وعندما رجع أبو بكر من الصحراء جمع أشياخ المرابطين من لمتونة وأعيان الدولة، والكتاب والشهود، وأشهدهم على نفسه بالتخلي ليوسف عن الإمارة، وعلل الأمير أبو بكر هذا التنازل لابن عمه يوسف لدينه وفضله وشجاعته وحزمه ونجدته وعدله وورعه وسداد رأيه ويمن نقيبته، وأوصاه الوصية التالية: «يا يوسف إني قد وليتك هذا الأمر وإني مسئول عنه فاتق الله في المسلمين وأعتقني وأعتق نفسك من النار، ولا تضيع من أمر رعيتك شيئاً فإنك مسئول عنهم، والله تعالى يصلحك ويمدك ويوفقك للعمل الصالح والعدل في رعيتك وهو خليفتي عليك وعليهم» (١).

ويحلو لبعض الكتاب من المؤرخين أن يفسر هذا الإيثار والتنازل عن الملك بأن أبا بكر خشي من سطوة يوسف الذي أظهر له عدم استعداده عن التنازل عن الملك وسيرة الرجلين من الصلاح والتقوى تنافي ادعائهم الباطل.

﴿ ٢ ﴾ فتح المغرب الأقصى الشمالي ٤٥٤هـ ـ ٤٧٧هـ :

قام يوسف بن تاشفين نحو المغرب الشمالي لينتزعه من أيدي الزناتيين واستخدام من أجل تحقيق هذا الهدف المنشود إرسال الجيوش للقضاء على جيوش المخالفين مستفيداً من الخلافات السياسية بين قادة المدن، فحالف بعضها من أجل قتال الباقي، واستطاع أن يدخل مدينة فاس صلحًا عام ٤٥٥هـ ، ثم تمرد أهلها عليه إلا أنه ا ستطاع إخماد كافة الثورات التي قامت ضد المرابطين بجهاده، وكفاحه المستمر، حتى تم له فتح جميع البلاد من الريف إلى طنجة عام ٤٦٠هـ / ١٠٦٧م .

وأعاد فتح فاس عنوة بحصار ضربه عليها بجيش قوامه مئة ألف جندي عام ٤٦٢هـ / ١٠٦٩م ، فقضى على شوكة مغراوة وبني يفرن وسائر زناتة، ونظم

---

(١) انظر : روض القرطاس ،(ص ٨٦) .

المساجد والفنادق وأصلح الأسواق، وخرج من فاس عام ٤٦٣هـ إلى بلاد ملوية وفتحها واستولى على حصون وطاط من بلاد طنجة [١] .

﴿ ٣ ﴾ لقب الإمارة :

بعد هذه الانتصارات الناجحة استدعى شيوخ وأمراء المغرب من قبائل زناتة ومصمودة وغمارة، وأكرمهم وبذل لهم العطاء وأحسن إليهم، وبايعوه على الإمارة وخرج بهم يطوف في أقاليم المغرب يتابع الأمراء ويحاسب الولاة وينشر العدل ويرفع المظالم فهابته النفوس، واقتنعت أنها أمام رجل دولة عبقري فذ.

وبعد أن رجع من تلك الجولة التفقدية الإصلاحية سار بجيوشه عام (٤٦٥هـ / ١١٧٢م) لغزو الدمنة من بلاد طنجة وفتح جبل علودان وفي عام (٤٦٧هـ / ١٠٧٤م) استولى على جبل غياثة وبني مكود وبني رهينة من أحواز تازا وجعلها حداً فاصلاً بينه وبين زناتة الهاربة إلى الشرق، وأبعد عن المغرب كل من ظن فيه أنه من أهل العصيان، فأصبح خالصاً له مرتاحاً إلى طاعته مطمئناً إلى خلوده إلى السكينة والهدوء غير تواق للثورة عليه.

وأصبحت منطقة تازا ثغراً منيعاً بينه وبين زناتة ولذلك اعتبر المؤرخون عام (٤٦٧هـ / ١٠٧٤م) فاصلاً في تاريخ الدولة المرابطية إذ بسط يوسف نفوذه على سائر المغرب الأقصى والشمالي باستثناء طنجة وسبتة.

وسير يوسف بن تاشفين إلى طنجة جيشاً من اثني عشر ألف فارس مرابطي وعشرين ألفاً من سائر القبائل، وأسند قيادته إلى صالح بن عمران عام ٤٧٠هـ وعندما اقتربت جيوش المرابطين من طنجة برز إليهم الحاجب بن سكوت على رأس جيس وهو شيخ يناهز التسعين، وانتصر المرابطون وفتحوا طنجة وقتل في تلك المعارك الحاجب بن سكوت [٢] وبعد فتح طنجة استأنف الأمير يوسف

---

(١) روض القرطاس (ص ٩١) ، العبر (٦ / ١٨٥) .

(٢) انظر : دولة المرابطين (ص ٥٠) .

توسعه نحو الشرق لمطاردة زناتة التي لجأت إلى تلمسان، وكان هدفه القضاء على أي مقاومة تهدد دولة المرابطين في المستقبل، وبدأت عمليات الهجوم الوقائي التي استطاعت أن تحقق أهدافها وتهزم جيش تلمسان المعادي وتأسر قائده معلي بن يعلي المغراوي الذي قتل على الفور، ورجعت كتائب المرابطين إلى مراكش ، ثم عاد يوسف نحو الريف، وغزا تلك الأراضي وضم مدينة تكرور ولم تعمر بعد ذلك.

ثم رجع بجيوشه نحو وهران وتنس وجبال وانشريش ووادي الشلف حتى دخل مدينة الجزائر وتوقف عند حدود مملكة بجاية التي يحكمها بنو حماد فرع من صنهاجة.

وبنى يوسف في مدينة الجزائر جامعاً لا يزال إلى اليوم ويعرف بالجامع الكبير.

وعاد إلى مراكش عام ٤٧٥هـ / ١٠٨١م وبذلك توحد المغرب الأقصى بعد جهاد استمر ثلاثين عاماً، وأصبحت دولة المرابطين في مرحلة التمكين الفعلية، وفي عام ٤٧٦هـ /١٠٨٣م وجه الأمير يوسف ابنه المعز في جيش إلى سبتة لفتحها إذ كانت المدينة الوحيدة التي لم تخضع له، كان يحكمها بعد وفاة الحاجب سكوت ابنه ضياء الدولة يحيي، فحاصرها المعز براً وبحراً ودارت معركة بحرية كانت طاحنه ، وفي نهاية المطاف استطاع المرابطون أن يفتحوا سبتة، وقتل ضياء الدولة بعد أن ألقى القبض عليه، وكان ذلك عام ٤٧٧هـ / ١٠٨٤م(١) ، بعد هذه الجولة الجهادية الموفقة تم توحيد المغرب الأقصى بكافة نواحيه بعد عمل جاد مستمر، وأصبحت الدولة المرابطية قوى لا يُستهان بها تُشكل خطراً على النصارى في الأندلس، وملجأ وحصناً أميناً للمسلمين في الأندلس، حيث إن النصارى استفحل خطرهم في الأندلس، حيث قامت دويلات في كل مدينة

---

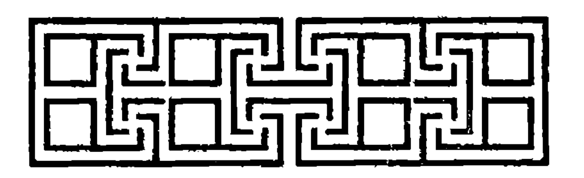
(١) انظر : الاستقصار (١ / ١١١) ، وانظر : دولة المرابطين (ص ٥٣) .

وصلت إلى ثلاث وعشرين دويلة تناحرت فيما بينها، وعرف حكامها بملوك الطوائف وتلقبوا بالألقاب الخلافية كالمأمون والمعتمد والمستعين والمعتصم والمتوكل إلى غير ذلك من الألقاب، ووصف هذه الحالة المشينة الشاعر أبو علي الحسن بن رشيق:

مما يزهدني في أرض أندلس | سماع مقتدر فيها ومعتضد
ألقاب مملكة في غير موضعها | كالهر يحكي انتفاضاً صولة الأسد

لقد آلت أوضاع الأندلس إلى السوء، وأصبحت لا حول لها ولا قوة مما شجع النصارى على توجيه ضربات إلى المسلمين، وقد شنوا حرباً لا هوادة فيها نابعة من شعورهم العدائي للعرب والمسلمين، وتهدف إلى طردهم من إسبانيا، وبدأت هذه الحرب بدافع الحقد الصليبي وأضافوا إليها مع مرور الأيام عامل القومية وأطلقوا عليها حرب الاسترداد [1].

ولم تكن للمقاومة الإسلامية في الأندلس القدرة على إيقاف المد الصليبي الزاحف للخلاص من المسلمين، فاضطر أهل الأندلس إلى طلب العون من المرابطين.



(١) **انظر**: دولة المرابطين (ص٥٩).

الفصل الثاني

المرابطون ودفاعهم عن مسلمي الأندلس

تمهيد :

استطاع عبد الرحمن الداخل أن يؤسس إمارة أموية في الأندلس سنة ١٣٨هـ ، وبدأ عصر الخلافة الأموية في الأندلس سنة (٣١٦هـ / ٩٢٩م) عندما أعلنها عبد الرحمن الناصر، الذي اشتهر بالحزم والذكاء والعدل، والعقل والشجاعة وحبه للإصلاح وحرصه عليه.

ووحد الأندلس بالقوة والسياسة وأعاد وحدتها وقوتها ومكانتها ، حارب المتمردين من حكام الشمال الإسباني وأخضعهم لشروطه .

وكان سبب إعلانه الخلافة في الأندلس ضعف الخلافة العباسية، وظهور الدولة العبُيدية في الشمال الإفريقي، فأعلن الخلافة، وتلقب بأمير المؤمنين الناصر لدين الله [(١)] وفي عام ٤٠٠هـ /١٠٠٩م بدأ ظهور عصر الطوائف في الأندلس، الذي دام حتى عام ٤٨٤هـ / ١٠٩١م .

وكان ذلك بسبب سقوط الخلافة الأموية التي نخرتها الأطماع والأحقاد والصراعات الداخلية على الحكم، وسعي بعض الشخصيات للمجد الشخصي متناسياً في ذلك مصالح الأمة وضرورة وحدتها لتقف صفاً واحداً أمام أعدائها.

لقد انقسمت الأندلس إلى دويلات واتخذ حكامها ألقابهم تبعاً لحجم دويلاتهم فإحدهم: ملك أو أمير، والٍ أو قاض.

ونظراً لاختلاف القوى والرياسات، فقد أخذ القوي يبطش بالأضعف،

---

(١) انظر : في تاريخ المغرب والأندلس ، د . أحمد العبادي ،(ص ١٦٨ إلى ١٧٠)

والأضعف يدرأ الخطر بالتحالف مع جاره القوي، وأحياناً يستنجد بأمراء النصارى مقابل ثمن باهظ.

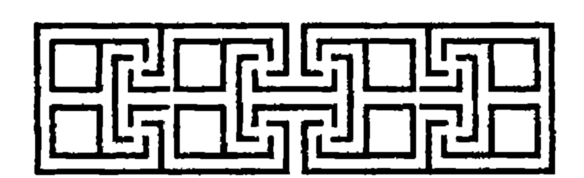
وتكونت من هذه الدويلات العديدة أربع دول رئيسية :

﴿١﴾ في جنوب الأندلس، حكم الأدارسة الإفريقيون أو بنو حمود أصحاب مالقة ، وحالفهم أمير غرناطة وقرمونة، وألبيرة وجيان وأستجة ، فضلاً عن حكمهم مليلة وطنجة وسبتة في شمال المغرب.

﴿٢﴾ بنو عباد أمراء إشبيلية، أقوى ملوك الطوائف، ومن حلفائهم بنو جهور في قرطبة، وبنو الأفطس أصحاب بطليوس في جنوب وغرب الأندلس.

﴿٣﴾ بنو ذي النون أمراء طليطلة، الذين حكموا أواسط إسبانية، والذين وقفوا في وجه بني عباد، وكلفهم ذلك دفع جزية لملك قشتالة النصراني التماساً لعونه ضد خصومهم.

﴿٤﴾ بنو عامر في بلنسية ومرسية الذي حكموا في شرقي إسبانية، وطبقاً لظروفهم، فقد كانوا يحالفون الأدارسة تارة أو بني عباد، أو بني ذي النون تارة أخرى.. بسط بنو عامر نفوذهم على الثغور الممتدة من مرية حتى مصب نهر أبرة سنة ١٠٥١م [١] .



(١) **انظر** : الزلاقة ، شوقي أبو خليل(ص ١٢) .

المبحث الأول
الصراع بين طليطلة وقرطبة

عندما تولى المأمون يحي بن ذي النون عام ١٠٤٣م، إمارة طليطلة اغتنم عون حليفه القوي عبد العزيز بن أبي عامر، واستأجر الفرسان النصارى من القشتاليين ليبطش بمحمد بن جهور أمير قرطبة، فتدخل بنو عباد أصحاب إشبيلية، وبنو الأفطس أصحاب بطليوس للوقوف ضد صاحب طليطلة الذي كان يهددهم جمعياً، وسار أمراء لبلة وولبة وجزيرة شلطيش إلى الانضمام إلى الحلف الذي تزعمه صاحب لبلة عبد العزيز اليحصبي ليعقد محالفة مع قرطبة.

تحرك الجميع تطبيقاً لهذا التحالف لإنجاد قرطبة، فانتهز ابن عباد أمير إشبيلية هذه الفرصة واكتفى بإرسال خمسمائة فارس إلى ابن جهور، وزحف في جيش قوي على لبلة، وولبة وجزيرة شليطش وأكسونية واستولى عليها، ثم فتح قرمونة سنة ١٠٥٣م طالت الحرب بين طليطلة وقرطبة، ودامت أعواماً، وكانت سجالاً، وأراد المأمون صاحب طليطلة حسم الموقف، فأوقع بقوات قرطبة وحليفاتها هزيمة شديدة، واستطاع الوصول إلى قرطبة فحاصرها، فبادرت إشبيلية إلى إغاثتها، فأرسل ابن عباد ابنه محمداً على رأس جيش قوي فيه وزيره أبو بكر محمد بن عمار الموصوف برجاحة عقله وشدة ذكاءه وزودهما بخطة وأوامر سرية خاصة.

واستطاع جيش ابن عباد أن يفك الحصار على قرطبة واضطر الطليطليون لرفع الحصار وارتدوا عنها، وخرج القرطبيون ليطاردوا أعداءهم فأتموا بذلك هزيمة الطليطليين [١].

ونفذت خطة ابن عباد السرية وكان محتواها دخول قرطبة عندما يخرج منها

---

(١) انظر: الزلاقة، (ص ١٤).

أهلها خلف الطليطليين، ودخلتها قوات ابن عباد دون معارضة، واحتلت مراكزها الحصينة قبل أن يفطن القرطبيون إلى أن من جاء لنصرتهم غدر بهم، وبذلك سقطت دولة بني جهور في قرطبة ولم يمض على قيامها ثلاثون عاماً في محنة محزنة وخيانة فظيعة، وأصبح ابن عباد أمير إشبيلية التي نمت نمواً سريعاً وبخاصة بعد أن حالفه العامريون أمراء قسطلون ومربيطر وشاطبة المرية ودانية، فحاول التحالف مع صهره زوج ابنته عبد الملك المظفر حاكم بلنسية الذي رفض ذلك محتجاً بأن وقوف العامريين إلى جانب إشبيلية يجعل إقدامه على هذا التحالف خطراً على بلنسية، فما كان من المأمون إلا أن عقد حلفاً مع فرديناند الأول صاحب قشتالة.

وهجمت القوات المشتركة المتحالفة «قوات المأمون وفرديناند الأول» على بلنسية، فسقطت ولاية بلنسية كلها في يد المأمون في تشرين الأول سنة ١٠٦٥م عاد بعدها إلى طليطلة ليجهز قواته مع فرديناند سنة (١٠٧٠م) ، فهرب أخوه ألفونسو إلى المأمون صاحب طليطلة والتجأ أخوه الثاني جارسية إلى المعتمد ابن عباد صاحب إشبيلية، وفي سنة (٤٦١هـ / ١٠٦٩م) وتوفي المعتضد بن عباد أمير إشبيلية ، فخلفه ابنه الملقب بالمعتمد على الله، ولم يكن أمام الأمير الجديد ما يخشاه إلا أمير طليطلة الذي ملك بلنسية في الوقت نفسه، أما بقية ملوك الطوائف فقد انكسرت شوكتهم وتزعزع كيانهم في حروبهم الداخلية ومن غزوات النصارى المتتابعة عليها.

واستطاع المأمون حاكم طليطلة أن يتوسع ويحقق انتصارات واسعة سنة ١٠٧٣م على مرسية وأريولة وعدة مدن أخرى، وبهذا أصبح الأمير الأقوى الذي يسيطر على أواسط إسبانية كلها، وبخاصة بعد أن فاز ألفونسو بحكم قشتالة بعد وفاة «شانجة» وتحالف مع المأمون الذي رعاه وحماه عند محنته وتعاهد الأميران على أن يرتبطا معاً برباط الصداقة الوثيق.

وأصبح أمير إشبيلية في خوف من توسع أمير طليطلة الذي فجأ المعتمد بتحالفه مع بني هود أصحاب سرقسطة وبني الأفطس أصحاب بطليوس وهاجم خصمه من ثلاث جهات لكي يحكم تسديد الضربة إلى قرطبة، فسقطت دون مقاومة تذكر سنة ٤٦٨هـ ، ولكن المأمون توفي بعد دخولها بأيام قلائل فرجع جنده عنها إلى طليطلة، واسترد ابن عباد قرطبة، وبقيت إشبيليية تحت ابن عباد حتى دخلها عليه المرابطون سنة ٤٧٤هـ .

وأرسل ابن عباد سفيره ووزيره البارع ابن عمار إلى عاصمة قشتالة يومئذٍ وتحالف مع ألفونسو، وتعهد بها ملك قشتالة بمعاونة أمير إشبيلية بالجند والمرتزقة ضد جميع المسلمين، ويتعهد ابن عباد مقابل ذلك أن يدفع إلى ملك قشتالة جزية كبيرة، وتعهد بألا يتعرض مشروع ألفونسو في افتتاح طليطلة، وهكذا ضحى ابن عباد بمعقل المسلمين إسبانية المسلمة، لكي يفوز ببسط سيادته على الإمارات التي لم تخضع له بعد، وهي إمارات غرناطة وبطليموس وسرقسطة (١) .

واستفاد ألفونسو من هذه الاتفاقية وأعلنها حرباً لا هوادة فيها على طليطلة التي حمته من مطاردة أخيه سانشو ونسي الأمير الطموح للتوسع كل عهوده ومواثيقه وشرع في غدره بمن أحسن إليه.

وتحرك المعتمد بن عباد بجيشه نحو غرناطة ليضمها إلى سلطانه وكان حاكمها عبد الله بلكين بن باديس، وكان ابن هود أمير سرقسطة يرى الخطر يشتد عليه يوماً فيوماً من سانشو الأول ملك أرجون، فلم يستطع إنجاد طليطلة سوى أمير بطليوس يحيى بن الأفطس الملقب بالمنصور، فجمع قواته وسار إلى لقاء ألفونسو، ولكن ألفونسو الذي كان قد أثخن في ولاية طليطلة، حتى صيرها قفراً بلقعاً، شعر باقتراب المنصور، فانسحب ولكنه كرر الرجعة في العام التالي فعاث في

---

(١) انظر : الزلاقة ، (ص ١٧) .

بسائط طليطلة وخربها مرة أخرى، وزحف المتعمد على بطليوس، وبهذا استطاع أن يحول دون معاونة بني الأفطس لطليطلة حيث القادر بن ذي النون، ولم يستطع أمير سرقسطة من بني هود «المؤتمن» معاونة القادر معاونة قوية ، خشية أن تقع سرقسطة ذاتها فريسة لابن عباد أو النصارى، وهو في جهاد ضد أرجون وبرشلونة، واستمرت الحرب أعواماً، وألفونسو يفسد في بلاد المسلمين «طليطلة» ومن حولها فساداً.

وفي السابع والعشرين من المحرم سنة ٤٧٨هـ الخامس والعشرين من أيار «مايو» سنة ١٠٨٥م استطاع أن يدخل طليطلة «عاصمة القوط القديمة» ودخلت طليطلة بذلك إلى حظيرة النصرانية بعد أن حكمها المسلمون ثلاثمائة واثنين وسبعين عاماً، واتخذها ملك قشتالة حاضرة ملكه من ذلك الحين، وأصبحت بذلك عاصمة إسبانية النصرانية.

وهكذا انتهت دولة ذي النون في طليطلة لتستمر في بلنسية [١].

تأثر المسلمون بسقوط طليطلة تأثراً عميقاً على كافة الساحة الإسلامية في الأندلس، وتفجرت قريحة الشعراء في استثارة الهمم والتحريض على الجهاد، والتحذير من تفاقم الخطر، ومما قيل في قول عبد الله بن فرج اليحصبي المشهور بابن عسال الطليطلي:

يا أهل أندلس حشو مطيتكم ... فما المقام بها إلا من الغلط

الثوب ينسل من أطرافه وأرى ... ثوب الجزيرة منسولاً من الوسط

ونحن بين عدو لا يفارقنا ... كيف الحياة مع الحيات في سفط [٢]

---

(١) انظر: الزلاقة (ص ١٨).

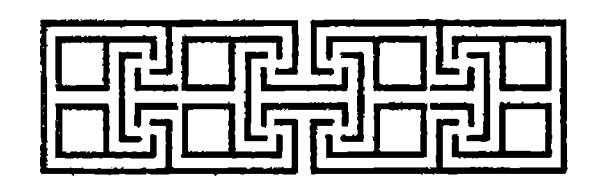
(٢) وفيات الأعيان (جـ ٥ / ٢٨).

ومن ذلك أيضاً:

يا أهل أندلس ردوا المعار فما ... في العرف عارية إلى مردات
ألم تروا بيدق الكفار فرزنه ... وشاهنا آخر الأبيات شهمات [١]

لقد كانت روما تقف بكل ما تملك من قوة معنوية ومادية خلف ألفونسو وجنوده للقضاء على المسلمين، وأسبغوا على قتال المسلمين صفة الحرب الصليبية المقدسة وأصبح البابوات لهم دور في توجيهها.

وندم المعتمد بن عباد على فعلته خصوصاً عندما رأى ألفونسو يتوسع في ضم ممالك المسلمين إليه، وأيقن أن الدائرة عليه قادمة، واجتمع أمراء المسلمين عندما رأوا أن شبح السقوط ماثلاً أمام أعينهم فاتحدوا لأول مرة واجتمعت كلمتهم على أن يضعوا حداً لفتوح ألفونسو وإذا كانت قواتهم مجتمعة لا تكفي لرد عدوانه، فقد اتفقت كلمتهم على الاستنجاد بالمرابطين في إفريقية واستدعائهم إلى الأندلس، علماً بأن ملوك الأندلس كانت ترهب الفرنج بإظهار موالاتهم لملك المغرب يوسف بن تاشفين، وكانت له شهرة تطايرت في الآفاق لما حققه من ضم دول إلى دولته وقضائه عليها ، اشتهر بين الناس أن لأبطال الملثمين في المعارك ضربات بالسيوف تقد الفارس وطعنات تنظم الكلى، فكان لهم بذلك ناموس ورعب في قلوب المنتدبين لقتالهم [٢] .



---

(١) **انظر** : الزلاقة (ص ١٩) .
(٢) وفيات الأعيان (جـ٧ / ١١٤) .

المبحث الثاني

أسباب ضعف المسلمين في الأندلس وقوة النصارى

أولاً: ضعف العقيدة الإسلامية والانحراف عن المنهج الرباني وهذا السبب هو الأساسي.

ثانياً: موالاة النصارى والثقة بهم والتحالف معهم:

حيث نجد أن تاريخ الأندلس مليء بالتحالف مع النصارى إلى أن بلغ ذروة رهيبة واضطرب بسبب ذلك مفهوم الولاء والبراء، والحب في الله والبغض في الله، بل هذه المعاني كادت تندثر.

إن الأمة حين تخالف أمر ربها وتنحرف عن طريقه، فلا بد أن يحل بها سخطه وتستوفي أسباب نقمته.

قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٥٧)** ﴾. [المائدة: ٥٧].

وقوله عز وجل: ﴿ **لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ** ﴾ [آل عمران: ٢٨].

وقوله تعالى: ﴿ **لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ** ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وقد أبان رسول الله ﷺ طريق الأمة في الولاء والبراء، فقال: «**أوثق عرى الإيمان الموالاة في الله، والمعاداة في الله، والحب في الله، والبغض في الله**»[1].

---

(١) أخرجه أحمد في مسند (جـ٤ /٢٨٦).

ويقول ﷺ فيما يرويه عن ربه ـ عز وجل ـ: «**من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب**» [١].

فإذا كان هذا كله مسطراً في كتاب ربها وسُنَّة نبيها وتخالفه ، فلا بد أن تُرى فيها سُنَّة الله التي لا تتغير ولا تتبدل.

فحين تجد أن المعتضد بن عباد يذهب إلى ملك قشتالة ويطلب منه الصلح ويدفع له المال، نراه جاهداً في حرب أمراء الطوائف واستئصالهم، أما كان الأفضل له أن يتحد مع إخوانه أمراء الطوائف وفي ذلك مصلحة له ولهم وللأندلس عامة، وللإسلام وأهله، ولكنك لا تجني من الشوك العنب [٢].

بل ضعف مفهوم الولاء والبراء حتى إن بعض حكام المسلمين استوزروا وزراء نصارى ويهود يصرفون أمور دولة الإسلام، فهل يؤمن الذئب على الغنم!! [٣].

ثالثاً: السبب الثالث الانغماس في الشهوات والركون إلى الدعة والترف وعدم إعداد الأمة للجهاد:

إن الأمة التي تركن إلى الدعة والترف واللهو، وهي غالبة قاهرة يجب أن تُعد غير مستحقة للريادة والقيادة، فما بالك بأمة تغرق في اللهو والدعة والترف، وهي لا تدري إن كان العدو قد كسر حصنها واجتاحها ، أم أنه لا يزال ينتظر تلك اللحظات؟!.

يقول المؤرخ النصراني كوندي: « العرب هُزموا عندما نسوا فضائلهم التي جاءوا بها، وأصبحوا على قلب متقلب يميل إلى الخفة والمرح، والاسترسال بالشهوات» [٤].

---

(١) البخاري ، فتح الباري ، كتاب الرقائق ، باب (٣٨ ، رقم ٦٥٠١) .
(٢) انظر : تاريخ الأندلس ، (ص ٣٩٠) ، د . عبد الرحمن الحجي .
(٣) سقوط الأندلس ، د . ناصر العمر ، (ص ٢٤) .
(٤) مصرع غرناطة ، (ص ٩٣) .

إن المؤرخين رأوا: « أن الأندلسيين ألقوا بأنفسهم في أحضان النعيم، ناموا في ظل ظليل من الغنى الواسع والحياة العابثة والمجون، وما يرضي الأهواء من ألوان الترف الفاجر، فذهبت أخلاقهم كما ماتت فيهم حمية آبائهم البواسل، وغدا التهتك والخلاعة والإغراق في المجون، واهتمام النساء بمظاهر التبرج والزينة بالذهب واللآلي ، من أبرز المميزات أيام الاضمحلال لقد استناموا للشهوات والسهرات الماجنة، والجواري الشاديات، وإن شعباً يهوي إلى هذا الدرك من الانحلال والميوعة ، لا يستطيع أن يصمد رجاله لحرب أو جهاد » (١) .

دخل المسلمون الأندلس وأصبحوا ساداتها عندما كان نشيد طارق في العبور « الله أكبر » وبقوا فيها زمناً، حين كان يحكمها أمثال عبد الرحمن الداخل عندما قُدم إليه الخمر ليشرب قال إني محتاج لما يزيد في عقلي لا ما ينقصه » (٢) .

يقول الدكتور عبد الرحمن الحجي عن الفاتحين الأوائل للأندلس:

« كانت غيرة هؤلاء المجاهدين شديدة على إسلامهم، فدوه بالنفس وهي عندهم له رخصية، فهو أغلى من حياتهم أشربت نفوسهم حُبَّه، غدا تصورهم وفكرهم ونورهم وربيع حياتهم » (٣) .

وضاعت ممالك الأندلس من يدي المسلمين عندما كان نشيد أحفاد الفاتحين:

ووزن العود وهات القدحا ... راقت الخمرة والورد صحا

وعند قصد الإفرنج بلنسية لغزوها عام ٤٥٦ هـ خرج أهلها للقائهم بثياب الزينة فكانت وقعة بطرنة التي قال فيها الشاعر أبو إسحاق بن معلي :

لبسوا الحديد إلى الوغى ولبستم ... حلل الحرير عليكم ألواناً
ما كان أقبحهم وأحسنكم بها ... لو لم يكن ببطرنة ما كانا (٤)

---

(١) مصرع غرناطة ، (ص ٩٣) .
(٢) سقوط الأندلس (ص ٢٧) .
(٣) **انظر** : التاريخ الأندلس ، (ص ٢١١) .
(٤) **انظر** : النصر والهزيمة (ص١٢٢) .

ضعف المسلمون في الأندلس وسلب كثير من ديارهم لما تنافس الولاة والحكام من أجل إسعاد زوجاتهم وجواريهم بالباطل.

وإليك ما فعله المعتمد مع إحدى زوجاته : اشتهت زوجة المتعمد بن عباد أن تمشي في الطين وتحمل القرب فأمر المعتمد بن عباد أن ينشر المسك على الكافور والزعفران وتحمل قرباً من طيب المسك وتخوض فيه تحقيقاً لشهواتها !!.

ولكن الله المعز المذل ، أراد أن تنقلب الأمور على المعتمد، فيؤخذ أسيراً في أغمات وتبقى بناته يغزلن للناس يتكسبن ، **وفي ذلك يقول المعتمد وهو شاعر مجيد :**

فيما مضى كنت بالأعياد مسروراً ... فساءك العيد في أغمات مأسوراً
ترى بناتك في الأطمار جائعة ... يغزلن للناس ما يملكن قطميراً
برزن نحوك للتسليم خاشعة ... أبصارهن حسيرات مكاسيرا
يطأن في الطين والأقدام حافية ... كأنها لم تطأ مسكاً وكافوراً
من بات بعدك في ملك يسرُّ به ... فإنما بات بالأحلام مغروراً [(١)]

وصدق الحبيب ﷺ المؤتي جوامع الكلم إذ يقول: «**إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد، سلط الله عليكم ذُلاً، لا ينزعه عنكم حتى ترجعوا إلى دينكم**» [(٢)] .

رابعاً: إلغاء الخلافة الأموية وبداية عهد الطوائف:

لا شك أن بداية الانهيار الفعلي في الأندلس بزوال الخلافة الأموية ونشأ على أثر ذلك عهد السنوات العصاب، كانت كلمة الأمة واحدة وخليفتهم واحد فأصبحت الأمة كما قال الشاعر:

---

(١) نفح الطيب ، (جـ٤ / ٢٧٣ ، ٢٧٤) .
(٢) أخرجه أبو داود ، كتاب البيوع ، باب (٥٦ ، ت / ٥٤ م) .

مما يزهدني في أرض أندلس أسماء معتمد فيها ومعتضد
ألقاب مملكة في غير موضعها كالهر يحكي انتفاخاً صولة الأسد [١]

وكما قال الآخر:

وتفرقوا شيعاً فكل محلة فيها أمير المؤمنين ومنبر

ولم يكن حكام الأندلس أهلاً لقيادة الأمة في عمومهم، واسمع إلى ابن حزم وهو يقول عن هؤلاء الحكام : «والله لو علموا أن في عبادة الصلبان تمشية أمورهم لبادروا إليها ، فنحن نراهم يستمدون النصارى فيمكنونهم من حرب المسلمين، لعن الله جميعهم وسلط عليهم سيفاً من سيوفه» [٢] .

ويقول الدكتور عبد الرحمن الحجي عن هؤلاء الحكام:

«وهكذا وجدت في الأندلس أوضاع يحكمها أمراء اتصف عدد منهم بصفات الأثرة والغدر، هانت لديهم معه مصالح الأمة، وتُركت دون مصالحهم الذاتية، باعوا أمتهم للعدو المتربص ثمناً لبقائهم في السلُطة، ولقد أصاب الأمة من الضياع بقدر ما ضيعوا من الحظ الخلُقي السليم، انحرف هؤلاء المسئولون عن النهج الحنيف ، الذي به كانت الأندلس وحضارته».

خامساً: الاختلاف والتفرق بين المسلمين:

كان الاختلاف والتفرق سمة من سمات عصر ملوك الطوائف، وكان بعضهم يستعدي النصارى على إخوانه ويعقدون مع النصارى عهوداً وأحلافاً ضد إخوانهم في العقيدة، ومن أجل شهوة السلطة تراق على أرض الأندلس دماء المصلين، **حتى قال ابن المرابط واصفاً حال المسلمين:**

---

(١) سقوط الأندلس ،(ص ٣١) .

(٢) التاريخ الأندلسي ، د . عبد الرحمن الحجي ،(ص ٣٢٥) .

ما بال شمل المسلمين مبددُ فيها وشمل الضد غير مبدد
ماذا اعتذاركم غداً لنبيكم وطريق هذا الغدر غير ممهد
إن قال لم فرّطتم في أمتي وتركتموهم للعدو المعتدي
تالله لو أن العقوبة لم تخف كفى الحيا من وجه ذاك السيد (١)

ولما سقطت طليطلة كان من العجيب أن بعض ملوك الطوائف وقفوا جامدين لا يتحركون لنجدة طليطلة وكأن الأمر لا يعنيهم فاغرين أفواههم جبناً وغفلة وتفاهة، بل إن عدداً منهم كان يرتمي على أعتاب ألفونسو ملك النصارى طالباً عونه أو عارضاً له الخضوع، بذلة تأباها النفوس المسلمة، تغافلوا على أن ألفونسو لا يفرق بين طليطلة وغيرها من القواعد الأندلسية، لكن العجب يزول إذا تذكرنا نزعتهم الأنانية والعصبية (٢) .

سادساً: تخلي بعض العلماء عن القيام بواجبهم:

لا شك أن حياة الأمة في حياة علمائها فهم تاجها ومنارتها وهم روحها ومادة حياتها، فكلما كان علماء الأمة ربانيين كان أمر الأمة في طريقة نحو العزة والرفعة والكرامة، وكلما ابتعد العلماء عن الربانية وتثاقلت نفوسهم إلى الأرض وحرصوا على مصالحهم الذاتية خبا نور الأمة، ودب في الأمة الضعف والجهالة.

« فحين كانت الأمة تغرق في الأندلس بسبب الاجتياح النصراني المتلاطم، انصرف عدد من العلماء إلى العناية المبالغة بالفقه المذهبي وفروعه ونسوا وتناسوا واقع الأمة وآلامها » (٣) .

وبعض هؤلاء هم ممن قال فيهم ابن حزم رحمه الله: « ولا يغرنك الفُساق والمنتسبون إلى الفقه، اللابسون جلود الضأن على قلوب السباع، المزينون لأهل

(١) سقوط الأندلس، د. ناصر العمر، (ص ٣٣) .
(٢) سقوط الأندلس، د. ناصر العمر، (ص ٣٤) .
(٣) سقوط الأندلس، د. ناصر العمر، (ص ٣٥) .

الشر شرهم، الناصرون لهم على فسقهم » [١] .

ولا ننسى دور العلماء الربانيين الذين قاموا بجمع شتات الأمة الممزق، وبذلوا وسعهم في ذلك من أمثال أبي الوليد الباجي، وأبي محمد بن حزم، وأبي إسحاق الإلبيري وغيرهم، عليهم رحمة الله وبركاته .

سابعاً: عدم سماع ملوك الطوائف لنصح العلماء:

لقد بذل مجموعة من العلماء جهداً مشكوراً لتوحيد صفوف المسلمين وتصدى أبو الوليد الباجي لهذه المهمة بنفسه بعد عودته من المشرق الإسلامي، « فرفع صوته بالاحتساب، ومشى بين ملوك أهل الجزيرة لصلة ما انبت من تلك الأسباب، فقام مقام مؤمن آل فرعون، ولكنه لم يصادف أسماعاً واعية، لأنه نفخ في عظام ناخرة، وعطف على أطلال داثرة، بيد أنه كلما وفد على ملك منهم في ظاهر أمره لقيه بالترحيب، وأجزل حظه في التنافس والتقريب، وهو في باطن يستجهل نزعته ويستثقل طلعته، وما كان أفطن الفقيه رحمه الله بأمورهم وأعلمه بتدبيرهم، لكنه كان يرجو حالاً تثوب، ومذنباً يتوب » [٢] .

لم يكن حكام الأندلس أهلاً لقيادة الأمة، ولم تنفعهم نصائح العلماء حتى حلت بهم مصيبة وكارثة ألا وهي سقوط طليطلة .

ثامناً: مؤتمرات النصارى ومخططاتهم:

استطاع النصارى أن يضعوا برامج محكمة للقضاء على ملوك الطوائف ومن ثم على المسلمين عموماً وكان من أكبر المجرمين من ملوك النصارى الذي أشرف على هذه المخططات وسهر على تنفيذها فرنادو ملك قشتالة .

---

(١) مجموع رسائل ابن حزم (جـ٣ / ١٧٣) .

(٢) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، الشنتريني ، القسم الثاني (ص ٩٥) .

تاسعاً : وحدة كلمة النصارى :

في الوقت الذي كان المسلمون في الأندلس يعانون من التفرق والشتات، كان النصارى في وحدة كلمة وتراص صفٍّ في مواجهة أمة الإسلام في الأندلس.

عاشراً: غدر النصارى ونقضهم للعهود:

لم يكن النصارى عباد الصليب محلاً للعهود وأهلاً للوفاء إلا القليل النادر فهم تبع لمصالحهم وأهوائهم وهي التي تحكم وفاءهم ونقضهم [1] .

قال تعالى : ﴿ **وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١٤)** ﴾ [المائدة: ١٤].

لقد سطر النصارى في الأندلس تاريخاً مليئاً بالدماء وهتك الأعراض، وقتل النفوس وسبي النساء.

قال تعالى: ﴿ **لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ (١٠)** ﴾ . [التوبة: ١٤].

وقال تعالى: ﴿ **وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ** ﴾ . [البقرة: ١٢٠].

لقد استمات النصارى في حربهم للمسلمين ، فمارسوا كافة الأساليب المعوجة من أجل تحقيق أهدافهم الشيطانية.

الحادي عشر: التخاذل عن نصرة من يحتاج إلى نصرة :

لقد كانت أحاديث الرسول ﷺ في تلك المرحلة معطلة كأنهم لم يسمعوا قول رسول الله ﷺ : «**المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه**» [2] .

---

(١) سقوط الأندلس ، (ص ٤٠) .

(٢) أخرجه البخاري ، كتاب المظالم ، رقم (٢٤٤٢) ، مع الفتح (جـ٥ / ١١٦) .

وقوله ﷺ : «**المؤمن للمؤمن كالبنيان ، يشد بعضه بعضاً**» (١) .

لقد تخاذل ملوك الطوائف عن نصرة من يستحق النصرة، وإليك ما حدث في طليطلة.

يقول الدكتور عبد الرحمن الحجي عن سقوط طليطلة وموقف حكام الطوائف:

«قام حاكم بطليوس عمر بن محمد الأفطس الملقب بالمتوكل على الله ببعض واجبه تجاه طليطلة في محنتها، التي لو أدى بقية ملوك الطوائف ما يجب عليهم لما لاقت هذا المصير، ولحَمَوْها وحموا أنفسهم، كان بعضهم لا هم له إلا تحقيق مصلحته وإشباع أنانيته ، وكأن الأندلس وجدت لمنفعته وليتربع على كرسي حكم، مهما كان قصير العمل ذليل المكان مهزوز القواعد» (٢) .

فهذه مجموعة من الأسباب التي أدت إلى الحالة التعيسة التي آلت إليها الأندلس. وعندي أن من أعظم الأسباب في خذلان الأمة ابتعادها عن منهج ربها وضياع عقيدتها وتربيتها على الرفاهية والدعة ، وترك الجهاد في سبيل الله. ولذلك عندما تربى المرابطون على معاني الجهاد في سبيل الله ومنهج أهل السُّنَّة وفقهم الله لإقامة دينه وإعزاز سُنة نبيه ونصرة إخوانهم في الدين.

إن الجهاد من أعظم الدروس فلما وجد في الأندلس بقيت الأمة في عزة ومنعة ومهابة، ولما فقد أصبحت الأمة مطمعًا لكل جبار عنيد أو متكبر لا يؤمن بيوم الحساب ، قال رسول الله ﷺ : «**رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد**» (٣) .

وقال ﷺ : «**لغدوة في سبيل الله أو روحة ، خير من الدنيا وما فيها**» (٤) .

---

(١) البخاري مع الفتح ، كتاب المظالم رقم (٢٤٤٦ ، جـ٥ / ١١٧)

(٢) **انظر** : التاريخ الأندلسي .

(٣) الترمذي ، باب الإيمان ، باب (٨) رقم (٢٦١٦)

(٤) البخاري مع الفتح رقم (٢٧٩٢ ، جـ٦ / ١٧)

المبحث الثالث

العالم في زمن ظهور دولة المرابطين

كانت أوروبا يتحكم فيها الإقطاعيون في حالة همجية بعيدة عن التحضر ، ومعالم الحضارة والمدينة.

وكان العالم الإسلامي مجزأ عند قيام دولة المرابطين، فظهر ملوك الطوائف في بلاد الأندلس، واستطاع السلاجقة أن يطهروا العراق من بني بوية، والعبيديون حكموا مصر، وبنو حماد في المغرب الأوسط، والمعز بن باديس وأحفاده في المهدية.

وتوسع المرابطون وشملت دولتهم أجزاء شاسعة من شمالي إفريقية « جزء من الجزائر والريف في المغرب » وضربت جذورها في الصحراء حتى نهر النيجر والسنغال، فرفعوا راية الإسلام في تلك الأماكن البعيدة.

وكان المشرق الإسلامي في ظروف سياسية حرجة وصعبة قاسية حيث أمر الخلافة في بغداد مهتز، والخليفة معرض للخطر، ولا يملك من أمر الخلافة شيئاً وإنما هو رمز تحكم فيه البويهيون، ومن بعدهم السلاجقة، أما العبيديون في مصر فتحالفوا مع الإفرنج من أجل مصالحهم وأطماعهم، فكان أمر المسلمين في غاية الخطورة حتى قيض الله لأهل المشرق نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي الذين قاما بدور عظيم في القضاء على النصارى والعبيديين ودحرهم، وفي هذه الظروف الصعبة والعصيبة ، شاء الله أن تخرج دولة المرابطين السنية لتكون سداً منيعاً ضد أطماع النصارى في الأندلس، ولتحمي الشمال الإفريقي من غاراتهم وأطماعهم إنه تدبير العزيز العليم.

لقد أكرم الله تعالى المرابطين وجنودهم بالدفاع والذود عن الإسلام والمسلمين وعن أعراضهم وأموالهم وعقائدهم التي لا تقدر بثمن.

وأعز الله الأمة بهم في زمن عصيب ورفع الله بهم لواء الإسلام في المغرب والأندلس.

واستطاعوا بجهودهم الجهادية أن ينقذوا إخوانهم في الدين من ظلم النصارى وحقدهم الدفين، ويكبلوهم هزائم عسكرية أصبحت نبراساً للأمة على مر العصور ومر الدهور.

أولاً: تكالب النصارى على المسلمين وأطماع ألفونسو التوسعية:

بعد سقوط طليطلة بيد ألفونسو، بدا له أن كل شيء ممكن وعمل على توحيد جهود النصارى، واتفقوا على سحق دولة الإسلام في الأندلس، معتقدين أن قدرتهم تكفيهم لأداء هذه المهمة المقدسة لديهم.

وترك النصارى خصوماتهم الداخلية، وتوحدت مدنهم، وكونوا جيشاً ضخماً واحتلوا مدينة «قورية» من بني الأفطس، ووصلوا إلى ضواحي إشبيلية، وأحرقوا قراها وحقولها وسارت فرقة من الفرسان إلى شذونة، ثم اخترقت جزيرة طريف قرب مضيق جبل طارق، كما حاصر القشتاليون بمعاونة جند من الأرجونيين والقطلونيين الذي وضعهم ألفونسو السادس تحت قيادته قلعة سرقسطة الحصينة التي يضع سقوطها منطقة الأبير «ابرة» في يد النصارى حتماً، وتصبح الشواطئ الإسبانية المطلة على البحر الأبيض المتوسط عرضة لغاراتهم، يقول المؤرخ يوسف أشباخ: «وأثخن النصارى في ولاية سرقسطة كلها بالنار والسيف، ولم يكن يردهم في الحرب أي اعتبار إنساني مادام الأمر متعلقاً بأعداء الدين، كما يعتقدون، ولكن الحصون الإسلامية قاومتهم مقاومة شديدة، وتلقى المؤتمن بن هود وعداً لوصول المدد السريع من إخوانه المسلمين في جنوب الجزيرة، بيد أن النصارى شددوا الضغط على سرقسطة يوماً بعد يوم، وخشي المسلمون سقوط المعقل المنيع، بعد أن أصبحت قواتهم وأحوالهم في حالة يرثى لها، فقد كانت حتماً دون قوى النصارى، فتطلعوا إلى عون من الخارج، فاتجهت أبصارهم إلى

قوة المرابطين المجاهدة في المغرب الأقصى» [١] .

وأصبح ألفونسو اللعين يضغط على ممالك المسلمين الكبرى المجاورة له أي مملكتي بطليوس وإشبيلية فأرسل إلى المتوكل بن الأفطس صاحب بطليوس يطلب منه أن يسلم إليه القلاع والحصون المجاورة لحدوده مع تأدية الجزية، وضعف مسلمو الأندلس أمام هذه الضربات الماكرة، وأصبح سقوط الممالك قاب قوسين أو أدنى، وظل حكام الممالك منغمسين بملذاتهم وفسادهم، يحاربون أنفسهمْ ويحالفون النصارى ضد إخوانهم، ويؤدون لهم الجزية مقابل بقائهم على عروشهم التي تزعزعت أمام ضرباتهم، واستخدام ملوك الطوائف المرتزقة من النصارى لحماية أنفسهم بعد أن فقدوا الأمل في شعوبهم ورعاياهم بسبب ظلمهم وجورهم وتعسفهم، وجعل الله بين أمراء الطوائف من التنافس والتدابر والتقاطع والتحاسد والغيرة ما لم يجعله بين الضرائر المترفات والعشائر المتغايرات، فلم تصل لهم في الله يد، ولا نشأ على التعاضد عزم [٢] ، لذلك انهارت الروح المعنوية للشعب الأندلسي بعدما رأى من أمرائه التخاذل والخيانة حتى كاد هذا الشعب الصابر يفقد القدرة على القتال بما كان يرهقه حكامه من الضرائب للتنعم بالعيش الرغيد ودفع الجزية للنصارى، وأصبح بين حاكم مبتز وعدو متربص، فقد ارتقى عرش إسبانيا النصرانية ألفونس السادس بن فرديناند الذي كان يرغب في احتلال الجزيرة الإيبرية وعادت حرب الاسترداد قوية على يده، وقد بدأ أعماله الحربية بمدينة طليطلة فحاصرها سبع سنوات حتى سقطت بيده في ٢٥ أيار ١٠٨٥م مستهل صفر ٤٧٨هـ ، وقد أحدث سقوطها دوياً هائلاً في العالم الإسلامي الغربي، وبات المسلمون في حال من الضياع التام [٣] لا يعرفون كيف يتصرفون وبدأوا بمغادرة المناطق المتاخمة لألفونس، وأصبحت مملكة

---

(١) **انظر** : الزلاقة (ص٣٢) .

(٢) **انظر** : أعلام الأعلام ، تحقيق د . عبادي (ص ٢٤١) .

(٣) دولة المرابطين (ص ٦١) .

طليطلة خالية من السكان الذين هجروها إلى بطليوس هرباً من الاضطهاد وحفاظاً على دينهم، ورأى ألفونس أن زمام الأندلس أصبح في يده، فضاعف غاراته على جميع البلاد وتساقطت المدن والقرى بين يدي اللعين الحقود وأرسل إلى المتوكل بن الأفطس صاحب بطليوس يطلب إليه تسليم بعض الحصون، والقلاع المتاخمة لحدوده مع تأدية الجزية، ويتوعده بشر العواقب إذا رفض، فرد المتوكل بشجاعة ونبل معلناً تحديه، وفي هذه الرسالة معانٍ عميقة وفهم دقيق للموقف الحرج الذي أصبح فيه المسلمون حيث قال المتوكل... » ولو علم ـ أي ألفونس ـ إن لله جنوداً أعز بهم كلمة الإسلام وأظهر بهم دين نبينا محمد ﷺ وأعزه على الكافرين... وأما تعييرك للمسلمين فيما وهى من أحوالهم فبالذنوب المركوبة، ولو اتفقت كلمتنا مع سائرنا من الأملاك سترى أي مصاب أذقناك كما كان أبوك يتجرعه... وبالأمس كانت قطعية المنصور على سلفك أهدى ابنته إليه مع الذخائر التي كانت تفد كل عام عليه » [١] .

وأرسل المتوكل قاضيه العالم الفقيه أبا الوليد الباجي ليطوف على حواضر الأندلس يدعو إلى لم الشعث وتوحيد الكلمة، ومدافعة العدو، ولكن مهمة القاضي لم تكلل بالنجاح لأن ضعف الأمراء، وانهيار مقومات الدولة، وتخاذل الشعب فرضت على الحكام استرضاء العدو، عندئذٍ كتب المتوكل إلى الأمير يوسف بن تاشفين [٢] ويصور له محنة الأندلس ويستنصره [٣] ، «لما كان نور الهدى أيدك الله دليلك، وسبيل الخير سبيلك، ووضحت في الصلاح معالمك، ووقفت على الجهاد عزائم، وصح العلم بأنك لدعوة الإسلام أعز ناصر، وعلى غزو الشرك أقدر قادر، وجب أن تستدعي لما عضل الداء، وتستغاث لما أحاط بالجزيرة

---

(١) دولة المرابطين (ص ٦٢) .
(٢) تاريخ ابن الكردبوس (ص ٨٨) ، عن كتاب دولة المرابطين (ص ٦٢) .
(٣) د . عدنان ، دولة الإسلام في الأندلس ودول الطوائف ، (ص ٩١ ، ٩٢) .

من البلاء، فقد كانت طوائف العدو المطيف بأنحائها عند إفراط تسلطها واعتدائها وشدة كلفها واستشرائها تلاطف بالاحتيال، وتستنزل بالأموال، ويخرج لها عن كل ذخيره، وتسترضي بكل خطيرة، ولم يزل دأبها التشكك والعناد، ودأبها الإذعان والانقياد حتى نفذ المطارف والتلاد، وأتى على الظاهر والباطن النفاد، وأيقنوا الآن بضعف المنن، وقويت أطماعهم في افتتاح المدن، واضطرمت في كل جهة نارهم، ورويت من دماء المسلمين أسنتهم وشفارهم، ومن أخطئ القتل منهم فإنما هم بأيديهم أسارى وسبايا، يمتحنونهم بأنواع المحن والبلايا ، وقد هموا بما أرادوه من التوثب، وأشرفوا على ما أملوه من التغلب ، فيا لله ويا للمسلمين أيسطوا هكذا بالحق الإفك، ويغلب التوحيد الشرك، ويظهر على الإيمان الكفرُ، ولا يكشف هذه البلية النصر، ألا ناصر لهذا المهتضم؟ ألا حامي لما استبيح من الحرم؟، وإنا لله على ما لحق عرشه من ثل، وعزه من ذل، فإنها الرزية التي ليس فيها عزاء ، والبلية التي ليس مثلها بلاء، ومن قبل هذا ما كنت خاطبتك ـ أعزك الله ـ بالنازلة في مدينة قورية أعادها الله وإنها مؤيدة للجزيرة بالخلاء ومن فيها من المسلمين بالجلاء، ثم مازال التخاذل يتزايد، والتدابر يتساند حتى تخلصت القضية وتضاعفت البلية وتحصلت في يد العدو مدينة سرية، وعليها قلعة تجاوزت حد القلاع في الحصانة والامتناع.

وهي من المدينة كنقطة دائرية تدركها من جميع نواحيها، ويستوي في الأرض بها قاصيها ودانيها، وما هو إلا نفس خافت وزمر داهق استولى عليه عدو مشترك وطاغية منافق، إن لم تبادروا بجماعتكم عجالاً، وتتداركها ركباناً ورجالاً، وتنفروا نحوها خفافاً وثقالاً، وما أحضكم على الجهاد بما في كتاب الله فإنكم له أتلى، ولا بما في حديث رسول الله ﷺ إنكم إلى معرفته أهدى، وكتابي إليكم هذا يحمله الشيخ الفقيه الواعظ يفصلها ويشرحها، ومشتمل على نكتة وهو يبينها ويوضحها، فإنه لما توجه نحوك احتساباً، وتكلف المشقة

إليك طالباً ثواباً، عولت على بيانه ووثقت بفصاحة لسانة والسلام [١] .

ثانياً: ألفونس والمعتمد بن عباد:

لقد وقع المتعمد بن عباد في أخطاء كثيرة حيث تعاهد مع ألفونس ضد أخوانه المسلمين في طليطلة مقابل أن يسمح له ألفونسو بأخذ ممالك ممن حوله إلا أن النصارى كما علمت لا عهود لهم ولا مواثيق، فأراد ألفونس أن يجد مبرراً لضرب الحصار على إشبيلية واحتلال قرطبة، فطلب من المعتمد حصوناً وقرى الموت أحب إليه من تسليمها ، ومارس ألفونس مع المعتمد أنواعاً من الإذلال والتجني لتخرج المتعمد عن طوره ويلغي الاتفاقية الهزيلة بين الطرفين ويجد ألفونس والنصارى ما يبرر أفعاله الانتقامية والوحشية.

فطلب ألفونس من المعتمد أن يسمح لزوجته القمطجية أن تلد في جامع قرطبة بناءً على نصيحة الأساقفة، لأن الطرف الغربي كان موقع كنيسة قرطبة القديمة، وسأله أن تنزل بالزهراء مدينة الخليفة الناصر، لتكون ولادتها بين طيب نسيم الزهراء وفضيلة موضع الكنيسة المزعوم [٢] وأرسل إليه بعثة من خمسمائة فارس برئاسة اليهودي ابن ساليب لأخذ الجزية، وتجرأ السفير وقل أدبه إن كان له أدب، وخرج على العرف الدبلوماسي، وأغلظ في القول للمعتمد وقال :« لا تعتقدوني بسيطاً لأقبل مثل هذه العملة المزيفة لا آخذ إلا الذهب الصافي، السنة القادمة ستكون مدناً» [٣] فأخذت المعتمد النخوة الإسلامية وصلب اليهودي، وقتل البعثة، وبذلك يكون ألفونسو قد تحصل على ما يريده وكان ألفونسو متجهاً لحصار قرطبة فلما وصل خبر البعثة أقسم بألهته ليغزون المعتمد في إشبيلية، وحرك جيوشه نحو غرب الأندلس فدمر كل القرى والتخوم التي في

---

(١)، (٢) دولة المرابطين (ص ٦٣ ، ٦٤).

(٣) المصدر السابق (ص ٦٦).

طريقة نحو إشبيلية، وخرج في جيش من طريق آخر ليدمر ويخرب ويقتل ويحرق ويسفك ويسبي،حتى وصل إلى جزيرة طريف أقصى جنوب الأندلس على المضيق، وأدخل قوائم فرسه في البحر قائلاً : « هذا آخر بلاد الأندلس قد وطئته » (١) .

ومن هنا أرسل إلى الأمير يوسف بن تاشفين: «أما بعد فلا خفاء على ذي عينين أنك أمير المسلمين بل الملة الإسلامية، كما أنا أمير الملة النصرانية، ولم يخف عليك ما عليه رءوساكم بالأندلس من التخاذل والتواكل، والإهمال للرعية والإخلاد إلى الراحة، وأنا أسومهم الخسف، فأخرب الديار وأهتك الأستار، وأقتل الشبان وآسر الولدان، ولا عذر لك في التخلف عن نصرتهم إن أمكنك معرفة هذا، وأنتم تعتقدون أن الله تعالى فرض على واحد منكم عشرة منا، وأن قتلاكم في الجنة وقتلانا في النار، ونحن نعتقد أن الله أظفرنا بكم وأعاننا عليكم، ولا تقدرون دفاعاً ولا تستطيعون امتناعاً، وبلغنا عنك وأنك في الاحتفال عن نية الاستقبال فلا يدري أكان الجبن يطغى بك أم التكذيب بما أنزل عليك، فإن كنت لا تستطيع الجواز فابعث إليَّ ما عندك من المراكب نجوز إليك، أناظرك في أحب البقاع إليك فإن غلبتني فتلك نعمة جلبت إليك، ونعمة شملت بين يديك، وإن غلبتك كانت لي اليد العليا عليك واستكملت الإمارة، والله يتم الإرادة» (٢) .

فكان رد يوسف بن تاشفين ـ رحمه الله ـ على ظهر الكتاب ذاته: «الجواب ما ترى لا ما تسمع ، إن شاء الله تعالى » ، وأردف:

ولا كتب إلا المشرفين والقنا رسل إلا الخميس العرمرم(٣)

وعاد ألفونس المغرور المتكبر إلى إشبيلية حيث التقى بجيشه الآخر أمام قصر المعتمد بن عباد بضفة النهر، وحاصر المدينة ثلاثة أيام، وكتب إلى المعتمد يسأله

---

(١) المصدر السابق(ص ٦٦) .

(٢) المصدر السابق(ص ٦٦) .

(٣) تاريخ ابن الكردبوس ،(ص ٩١) .

أن يرسل إليه مروحة لطرد الذباب ، ولم يتحمل المعتمد هذه الإهانة فرد: «قرأت كتابك وفهمت خيلاءك وإعجابك وسأنظر إليك في مراوح من الجلود اللمطية تروح منك ولا تروح عليك» [١].

ترك ألفونس إشبيلية وسار نحو سرقسطة وحاصرها، كانت شبه ضائعة تنتظر مصيرها المؤلم وصاحبها ابن هود لا يستطيع الدفاع كثيراً، ثم أخذ بلنسية وأعطاها القادر بن ذي النون صاحب طليطلة السابق، وهاجم مملكة المرية ووصل القشتاليون إلى نابار قرب غرناطة كان الخطر على الأندلس شديداً وقلة الشجاعة وانهيار الروح المعنوية تثبط العزائم، إذ إن ثمانين قشتالياً هزموا أربعمئة من المرية [٢].

ثالثاً: اجتماع علماء قرطبة:

أمام هذا الضياع المفزع الذي وصلت إليه ممالك الأندلس اجتمع علماء وفقهاء وزعماء قرطبة للتشاور فيما يجب عمله لإنقاذ مدينتهم، ووصل رأيهم بعد تبادل الآراء والأفكار إلى استدعاء المرابطين.

ورأى المعتمد أن هذا الرأي فيه صواب ونفاذ بصيرة، فجد في تقوية جيشه ورمم الحصون والقلاع، وقرر أن يطلب النجدة من إخوانه المسلمين، وتشاور في الأمر مع ابنه الرشيد وزعماء إشبيلية الذين أشاروا عليه بمهادنة ألفونس والرضوخ لشروطه، ولكن هذا الرأي لم يجد هوى في نفس المعتمد الذي خلا بابنه الرشيد وكان ولي عهده وقال له: «أنا في هذه الأندلس غريب بين بحر مظلم وعدو مجرم، وليس لنا ولي ولا ناصر إلا الله، وإن إخواننا وجيراننا ملوك الأندلس ليس فيهم نفع، ولا يرجى منهم نصرة، ولا حيلة إن نزل بنا مصاب أو نالنا عدو ثقيل وهو اللعين أذفونش فقد أخذ طليطلة وعادت دار كفر وها هو قد رفع رأسه إلينا».

وإن نزل علينا طليطلة ما يرفع عنا حتى يأخذ إشبيلية، ونرى من الرأي أن

---

(١) الرياض المعطار ، (ص ٨٠) للحميري .
(٢) تاريخ ابن الكردبوس (ص ٨٩) ، نقلاً عن دولة المرابطين (ص ٦٦) .

نبعث إلى هذه الصحراء وملك العدوة نستدعيه للجواز إلينا، ليدافع عنا الكلب اللعين إذ لا قدرة لنا على ذلك بأنفسنا، فقد تلف لجاؤنا وتدبرت بل تبردت أجنادنا وبغضتنا العامة والخاصة [١] فأجابه الرشيد يا أبت أتدخل علينا في أندلسنا من يسلبنا ملكنا ويبدد شملنا؟ فقال: أي بني والله لا يسمع عني أبداً إني أعدت الأندلس دار كفر ولا تركتها للنصارى فتقوم عليَّ اللعنة من على منابر المسلمين مثل ما قامت على غيري، والله خرُز الجمال عندي خير من خُرز الخنازير [٢].

ولما انتشر رأي المعتمد بن عباد في الأندلس حذره ملوك الطوائف من ذلك وقالوا له: «الملك عقيم والسيفان لا يجتمعان في غمد واحد»، وعارض بشدة طلب العون من المرابطين عبد الله بن سكوت والي مالقة الذي كان يرى أن المرابطين أشد خطراً من النصارى، ويجب الاعتماد على القوة الذاتية للأندلسيين [٣] فأجابهم المعتمد: «رعي الجمال خير من رعي الخنازير»[٤] وأضاف: إن دهينا من مداخلة الأضداد لنا فأهون الشرين أمر الملثمين» [٥].

وقال للذين لاموه على هذا الرأي: يا قوم إني في أمري على حالين: حالة يقين وحالة شك، ولابد لي من أحدهما، أما حالة الشك فإني إن استندت إلى ابن تاشفين أو إلى الأذفونش ففي الممكن أن يفيا لي ويبقيا عليَّ، ويمكن أن لا يفعلا فهذه الحالة شك.

وأما حالة اليقين فإني إن استندت إلى ابن تاشفين فإني أرضي الله، وإن استندت إلى الأذفونش أسخطت الله تعالى، فإذا كانت حالة الشك فيها عارضة فلأي شئ أدع ما يرضي الله وآتي ما يسخطه؟ حينئذٍ قصر أصحابه عن لومه [٦].

ولما عزم على طلب النصرة من المرابطين اتصل المعتمد بالمتوكل بن الأفطس

---

(١)، (٢) دولة المرابطين (ص ٦٨).
(٣) المصدر السابق (ص ٦٩)
(٤)، (٥) وفيات الأعيان (٧/١١٥).
(٦) نفح الطيب (٦/٩١)

صاحب بطليوس، وعبد الله بن بلقين الصنهاجي صاحب غرناطة، وطلب منهما أن يرسل كل منهما قاضي مدينته حتى يكونوا وفداً إلى المرابطين لمقابلة الأمير يوسف بن تاشفين، وتشكلت البعثة من قاضي قرطبة ابن أدهم، وقاضي بطليموس ابن مقانا وقاضي غرناطة ابن القليعي ومعهم وزير المعتمد أبي بكر بن زيدون وأسند المعتمد إلى القضاة وعظ الأمير يوسف وترغيبه في الجهاد، وأسند إلى وزيره إبرام العقود، وحملت البعثة معها رسالة مكتوبة من المعتمد إلى الأمير يوسف مؤرخة (٤٧٩هـ) ، وهذا نصها:

«بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً إلى حضرة الإمام أمير المسلمين وناصر الدين محيي دعوة الخليفة، الإمام أبي يعقوب يوسف بن تاشفين، القائم بعظيم أكبارها، الشاكر لأجلالها المعظم لما عظم الله من كريم مقدارها، اللائذ بحرامها المنقطع إلى سمو مجدها المستجير بالله وبطولها محمد عباد سلام كريم يخص الحضرة المعظمة السامية ورحمة الله تعالى وبركاته».

كتب المنقطع إلى كريم سلطانها من إشبيلية في غرة جمادى الأولى (٤٧٩هـ / ١٠٨٦م) وإنه أيد الله أمير المسلمين ونصر به الدين، فإنا نحن العرب في هذه الأندلس قد تلفت قبائلنا، وتفرق جمعنا، وتغيرت أنسابنا بقطع المادة عنا مع ضيعتنا ، فصرنا شعوباً لا قبائل وأشتاتاً لا قرابة ولا عشائر، فقل نصرنا، وكثر شماتنا، وتولى علينا هذا العدو المجرم اللعين أذفونش وأناخ علينا بطليطلة ووطئها بقدمه، وأسر المسلمين، وأخذ البلاد والقلاع والحصون، ونحن أهل هذه الأندلس ليس لأحد منا طاقة على نصرة جاره ولا أخيه، ولو شاءوا لفعلوا إلا أن الهواء والماء منعهم من ذلك، وقد ساءت الأحوال، وانقطعت الآمال، وأنت أيدك الله سيد حمير، ومليكها الأكبر، وأميرها وزعيمها، نزعت بهمتي إليك واستنصرت بالله ثم بك، واستغثت بحرمكم لتجوز بجهاد هذا العدو الكافر وتحيون شريعة

الإسلام وتدينون على دين محمد ﷺ، ولكم عند الله الثواب الكريم على حضرتكم السامية السلام ورحمة الله وبركاته ، ولا حول ولا قوى إلا بالله العلي العظيم [١] .

وأرسلت وفود شعبية من الشيوخ والعلماء رسائل تحث الأمير على إنقاذ الأندلس ، وتأثر المرابطون لمصاب إخوانهم في الدين، وعرض أميرهم قضية مسلمي الأندلس على أهل الحل والعقد عنده، وأجمعوا على نصرة دينهم وإعزاز كلمة التوحيد، وكان وزير يوسف ومستشاره أندلسي الأصل اسمه عبد الرحمن ابن أسباط ، فنصحه المستشار بأن يطلب من المعتمد بن عباد الجزيرة الخضراء لكي تكون آمنة لعبور الجيش، ولحماية خطوط التموين، وقال له : إن الأمر لله تعالى ولكم، وواجب على كل مسلم إغاثة أخيه المسلم والانتصار له، اقتنع الأمير يوسف برأي وزيره في طلب الجزيرة الخضراء ليجعل فيها أثقال جيشه وأجناده ويكون الجواز بيده متى شاء ، وقال الأمير يوسف لعبد الرحمن صدقت يا عبد الرحمن لقد نبهتني على شيء لم يخطر ببالي، اكتب إليه بذلك .

وكتب ابن أسباط إلى المعتمد بن عباد الكتاب التالي نصه:

« بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم من أمير المسلمين وناصر الدين معين دعوة أمير المؤمنين، إلى الأمير أكرم المؤيد بنصرة الله تعالى المعتمد على الله أبي القاسم محمد بن عباد أدام الله كرامته بتقواه، ووفقه لما يرضاه، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أما بعد فإنه وصل خطابك الكريم، فوقفنا على ما تضمنه الله من استدعائنا لنصرتك، وما ذكرته من كربتك، وما كان من قلة حماية جيرانك، فنحن يمين لشمالك ومبادرون لنصرتك وحمايتك، وواجب علينا في الشرع وفي كتاب الله تعالى، وإنه لا

---

(١) دولة المرابطين(ص ٧١) .

يمكننا الجواز إلا أن تسلم لنا الجزيرة الخضراء تكون لنا لكي يكون جوازنا إليك على أيدينا متى شئنا، فإن رأيت ذلك فاشهد على نفسك بذلك وابعث إلينا بعقودها ونحن في إثر خطابك إن شاء الله تعالى».

أطلع المعتمد ابنه الرشيد على خطاب الأمير يوسف فقال له: يا أبت ألا تنظر إلى ما طلب؟ ، فقال له المعتمد: يا بني هذا قليل في حق نصرة المسلمين، ثم جمع المعتمد القاضي والفقهاء، وكتب عقد هبة الجزيرة الخضراء للأمير يوسف، وتسليمها له بحضورهم، وكان يحكمها يزيد الراضي بن المعتمد، فبعث إليه أمره بإخلائها وتسليمها للمرابطين لتكون رهن بتصرف الأمير يوسف (١) ، وبعد موافقة المعتمد تجهز يوسف لتلبية نداء إخوانه في العقيدة راغباً في الأجر والمثوبة من الله بتأدية فريضة الجهاد، وكتب أماناً لأهل الأندلس ألا يتعرض لأحد منهم في بلده وقال: «أنا أول منتدب لنصرة هذا الدين لا يتولى الأمر أحد إلا أنا بنفسي» ، وأعلن النفير العام في قوات المرابطين، فأقبلت من مراكش ومن الصحراء وبلاد الزاب ومن مختلف نواحي المغرب يتوافدون على قيادتهم الربانية، وجهزت السفن لتحمل هذه القوات وكان أول من نفذ أمر العبور قائد المرابطين النابغ داود بن عائشة وتمركز في الجزيرة الخضراء، وتتابعت كتائب المرابطين، وكانت معهم الجمال الكثيرة، وقد أثار وجودها دهشة الأندلسيين، لأنهم لم يكونوا يعرفونها من قبل، وقد أثر وجودها على الخيل فأخذت تجمح لدى رؤيتها.

ولما تكامل الجيش المرابطي بساحل الجزيرة الخضراء ركب الأمير يوسف ومعه قادة من خيرة قادة المرابطين وصلحائهم، ولما ركب واستوى على السفينة رفع يديه نحو السماء مناجياً: «اللهم إن كنت تعلم أن في جوازنا هذا إصلاحاً

---

(١) دولة المرابطين (ص ٧٤)، مذكرات الأمير عبد الله صاحب غرناطة (ص ١٠٢، ١٠٣).

للمسلمين فسهل علينا هذا البحر حتى نعبره ، وإن كان غير ذلك فصعبه حتى لا نجوزه » (١) .

وسهل الله عبورهم، وكان ذلك يوم الخميس بعد الزوال منتصف ربيع الأول ٤٧٩هـ حزيران ١٠٨٦م وصلى الأمير يوسف بالجزيرة الخضراء صلاة الظهر، وقام أهل الجزيرة بضيافة المرابطين، وظهر فرحهم وسرورهم على وجوههم، وبدأ الأمير يوسف في تحصين الجزيرة الخضراء، ورمم أسوارها وما تصدع من أبراجها، وشحنها بالأسلحة والأطعمة وكلف مجموعة من جنوده بحراستها ثم ساروا نحو إشبيلية (٢) .

سارع المعتمد مع قادة قومه وشيوخ مدينته وفقهاء بلاده لاستقبال أمير المرابطين، ولما التقى بيوسف تعانقًا طويلاً بمودة وحب وإخلاص وأخوة في الدين، وتذاكرا نعم الله عليهما، وتواصيا بالصبر والجهاد في سبيل نصرة دين المسلمين، وكان المعتمد محملاً بالهدايا، وأصدر أوامره لعمال البلاد بجلب الأرزاق لضيافة الجيش المرابطي، وكان المعتمد كريماً جواداً باذلاً للخير.

واستعرض المعتمد الجيش المرابطي فرأى « عسكراً نقياً ومنظراً بهياً » (٣) .

وواصل الأمير يوسف سيره نحو إشبيلية حيث كان يستقبل بالترحاب مع جيشه المرابطي على امتداد الطريق حتى وصل حاضرة المعتمد، فأقام بها ثلاثة أيام للاستراحة ثم قال للمعتمد : « إنما جئت ناوياً جهاد العدو حيثما كان توجهت » (٤) .

وأثناء مقام الأمير يوسف في إشبيلية بعث الأمير يوسف إلى ملوك الأندلس يستنفرهم للجهاد (٥) ، فكان أول من لبى الدعوة عبد الله بن بلقين الصنهاجي

---

(١) الأندلس في عهد المرابطين(ص ٧٩) .

(٢) دولة المرابطين(ص ٧٥) .

(٣) **انظر** : الحلل ،(ص ٧٩) .

(٤) دولة المرابطين(ص ٧٩) .

(٥) مذكرات الأمير عبد الله بن رير(ص ١٠٤) .

صاحب غرناطة الذي خرج إليه بأمواله ورجاله، وأخوه تميم صاحب مالقة، وأرسل ابن صمادح ابنه معز الدولة في فرقة من جيشه، وسار الأمير الرباني والقائد الميداني نحو بطليوس، فاستقبلهم صاحبها المتوكل بن الأفطس على ثلاث مراحل من المدينة [١] وقدم لهم الهدايا والضيافة وعلف الدواب وظهر منه جود وكرم، وأقام الأمير أيام عدة حتى يصل باقي المتطوعين إلا أن أكثرهم لم يصل لانشغالهم بمدافعة النصارى، فتابع سيره الجهادي حتى حط رحاله عند سهل الزلاقة [٢] وكان يبعد عن بطليوس ثمانية أميال.

ونظم يوسف بن تاشفين جيشه، فجعل الأندلسيين جيشاً، مستقلاً بذاته وأسند قيادته إلى المعتمد بن عباد الذي تولى المقدمة، وأسندت الميمنة إلى المتوكل بن الأفطس، وجعل أهل شرق الأندلس على الميسرة، وباقي أهل الأندلس في الساقة.

أما الجيش المرابطي فتولى داود بن عائشة قيادة فرسانه، وأما سير بن أبي بكر فتولى قيادة الحشم، وبقية المرابطين مع حرس الأمير يوسف بن تاشفين إلى جانب قيادته للجيش الإسلامي ، وعسكر المرابطون خلف الأندلسيون تفصل بينهم ربوة بقصد التمويه، وكان تعداد جيش المرابطين والأندلسيين أكثر من ٢٤ ألف جندي [٣] وتضاربت الروايات في ذلك.

وكان ألفونسو مشغولاً بمحاصرة سرقسطة ، ولما وصله الخبر السعيد ارتبك وجزع، وطلب من المستعين بن هود حاكم سرقسطة أن يدفع له مالاً مقابل فك الحصار، فامتنع ابن هود لما علمه من وصول المرابطين وقرر ألا يساعد ألفونسو بأي مال يستعين به على قتال المسلمين.

---

(١) دولة المرابطين (ص ٨٠) .

(٢) وفيات الأعيان (جـ٥ / ٢٩) .

(٣) دولة المرابطين (ص ٨١) .

واضطر ألفونسو لرفع الحصار، ورجع مسرعاً إلى طليطلة وأعلن الاستنفار العام، وحل نزاعه وخلافه مع بعض أمراء النصارى، وأرسل إلى من وراء جبال ألبرتات فأتته أفواج عديدة من النصارى متطاوعة من أجل الحرب المقدسة، وجند ألفونسو كل من يستطيع حمل السلاح صغيراً أو كبيراً، ونظم جيشه وقسمه إلى قسمين كبيرين، أسند قيادة الجيش الأول إلى ابن عمه الكونت غرسيا وروديك، وما لبث غرسيا أن انسحب قبل بدء المعركة أثر خلاف مع ألفونس الذي أبقى ردريك في القيادة ، واحتفظ بقيادة الجيش الثاني وعين على جناحيه سانتشور أميرز والكونت برنجار ريموند وتولى هو القلب[١] وكان جيش ألفونسو يعتمد على الفرسان كمجموعة، وكان الفارس يلبس الزرد والدروع التي تغطيه من الرأس إلى القدم كأنه حصن من الحديد يتحرك لتزداد شجاعته وجرأته.

ولما استعرض جيشه نفخ فيه الشيطان غروره وكبريائه، وقال قولة تدل على تجذر كفره وعتوه وفساد معتقده حيث قال: «بهذا الجيش ألقى محمداً وآل محمد والأنس والجن والملائكة» [٢] .

وكانت جموع الرهبان والقيسيين أمام جيش ألفونسو الملعون يرفعون الإنجيل والصلبان لإذكاء الحماس الديني في نفوس الجنود الذين بلغ عددهم أكثر من ستين ألفاً» [٣] .

وخرج ألفونسو بجيشه نحو بطليوس، وكتب إلى المعتمد بن عباد كتاباً جاء فيه: «إن صاحبكم يوسف قد أتانا من بلاده وخاض البحار، وأنا أكفيه العناء فيما بقي ولا أكلفكم تعباً، وأمضي إليكم وألقاكم في بلادكم رفقاً بكم وتوفيراً عليكم» [٤] .

وقصد ألفونسو بذلك أن تكون المعركة خارج بلاده فإذا انهزم ولحقوا به يكون

---

(١) انظر : الحلل (ص ٣٤) .
(٢) انظر : الأندلس في عهد المرابطين (ص ٨٣) .
(٣) انظر : الكامل ، (جـ٦ /٣٠٣) .
(٤) الروض المعطار ، (ص ٨٨) ، نفح الطيب (٦/ ٩٦) .

مسيرهم في أرضهم ولا بد من الاستعداد لاكتساح بلاده، وبذلك تنجو من التدمير، وإذا انتصر حدث ذلك في أرض أعدائه.

وصل ألفونسو إلى بطحاء الزلاقة وخيم على بعد ثلاثة أميال من الجيش المسلم يفصل بينهما نهر بطليوس يشرب منه المتحاربون (١).

لقد انزعج ألفونسو من مجيء المرابطين انزعاجاً كبيراً، حيث شعر بعودة الروح المعنوية إلى أهالي الأندلس الذين كان يسومهم سوء العذاب، يقتل رجالهم ويسبي نساءهم، ويأخذ منهم الجزية، ويحتقرهم ويزدريهم، ويتلاعب بمصيرهم وينتظر الفرصة لاستئصالهم من الأندلس، لتعم النصرانية في سائر البلاد، ويرتفع الصليب على أعناق العباد، و إذا بالمرابطين يربكون مخططاته ويبددون أحلامه.

لذلك أراد ألفونسو أن يوجه ضربة قاصمة لمن كان السبب في استدعاء المرابطين وخصوصاً للفارس المغوار المعتمد بن عباد وقرينه المتوكل بن الأفطس، وكان يرى أن نصره يعتمد على تكبيل القوة الداخلية في الأندلس بالهزائم المتتالية والمتلاحقة.

أما المرابطون بعد ذلك سيرجعون إلى وطنهم الأصلي المغرب، وبالقضاء على الأندلس سيسهل القضاء على المرابطين بسبب جهلهم بالطبيعة الجغرافية للبلاد.

ومما ساعد ألفونسو على أن يعيش في تلك الأحلام فتور معظم أهل الأندلس بسبب ترفهم ونعيمهم وجبنهم وحبهم للحياة وهروبهم من الشهادة، كما أن أسباب الهزيمة نخرت في ذلك المجتمع المتهالك.

أما المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية والمتوكل بن الأفطس صاحب بطليوس فقد قررا امتشاق الحسام، فمن ظفر عاش سعيداً ومن مات كان شهيداً (٢).

---

(١) ابن الكردبوس (ص ٩٣)، روض القرطاس (ص ٩٤)، نقلاً عن دولة المرابطين (ص ٨٤).
(٢) **انظر**: دولة المرابطين، د. [illegible] عباس (ص [illegible]).

وأما المرابطون الذين تربوا على تعاليم الإسلام وأصول أهل السُنَّة والجماعة ما وصلوا إلى ما وصلوا إليه إلا بعد تربية عميقة، وتكوين فريد وإيمان راسخ ساهم علماء وفقهاء المالكية في ذلك، وعلى رأسهم الفقيه الشهيد ابن ياسين فقد مروا بمراحل صقلتهم وحروب زكتهم، وأصبحوا متشوقين إلى الاستشهاد معتمدين على رب العباد، آخذين بأسباب النصر المعنوية والمادية.

وكان رأي المرابطين أن المعركة في الأندلس مصيرية للأمة الإسلامية وبذلك لا يمكن الاعتماد على شعب مهزوم وقع في أسر المعاصي والذنوب.

وكما أن انتصارهم في الأندلس يرعب أعداءهم وخصومهم في المغرب ، ويتم بنصرهم إنقاذ الإسلام والحضارة في ذلك البلد البعيد عن العالم الإسلامي.

كان ألفونسو يقود حرباً صليبية شرسة ضد المسلمين، ودعمته الكنيسة في روما بالجنود والعتاد والأموال، ورغبت بلدان الإفرنجة بالوقوف مع ألفونسو في حربه المقدسة ضد المسلمين.

إن الجانب المادي عند النصارى كان أعلى بكثير مما عند المرابطين، ولكن الجانب المعنوي عند المرابطين لا حدود له.

وأرسل يوسف بن تاشفين إلى ألفونس كتاباً يعرض عليه الدخول في الإسلام أو دفع الجزية أو الحرب ومما جاء في كتاب الأمير: «بلغنا يا أذفونش أنك نحوت الاجتماع بنا وتمنيت أن تكون لك فلك تعبر البحر عليها إلينا، فقد جزناه إليك، وجمع الله في هذه العرصة بيننا وبينك، وترى عاقبة ادعائك ﴿**وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ**﴾ [1] [غافر : ٥٠] .

ولما قرأ ألفونسو الكتاب زاد غضبه وذهب بعقله وقال: «أبمثل هذه المخاطبة يخاطبني وأنا وأبي نغرم الجزية لأهل ملته منذ ثمانين سنة؟» [2] وقال لرسول

---

(١) وفيات الأعيان (٧/١١٦) .

(٢) دولة المرابطين (ص٧٨) .

الأمير يوسف: «قل للأمير لا تتعب نفسك أنا أصل إليك» [١]، وإننا سنلتقي في ساحة المعركة [٢]، ومعنى ذلك أن ألفونسو اختار الحرب، وحاول ألفونسو حامي حمى النصرانية في إسبانيا أن يخدع المسلمين ويمكر بهم، فكتب إلى الأمير يوسف في تحديد يوم المعركة فكتب إليه: «أن بعد غد الجمعة لا نحب مقابلتكم فيه لأنه عيدكم، وبعد السبت يوم عيد اليهود، وهم كثير في محلتنا، وبعده الأحد عيدنا، فنحترم هذه الأعياد، ويكون اللقاء يوم الاثنين» فكان جواب الأمير يوسف: «اتركوا اللعين وما أحب» [٣] فاعترض المعتمد وقال للأمير يوسف: «إنها حيلة منه وخديعة إنما يريد غدرنا فلا تطمئن إليه، وقصده الفتك بنا يوم الجمعة فليكن الناس على استعداد له يوم الجمعة كل النهار» [٤].

واستعد المسلمون لرصد تحركات النصارى وكان حدس المعتمد صائباً صحيحاً ورصدوا تحرك العدو نحوهم.

وانقض الجيش الذي يقوده رودريك بمنتهى العنف على معسكر المسلمين من الأندلسيين فتصدى فرسان المرابطين الذين يقودهم داود بن عائشة الذين أرسلهم يوسف بن تاشفين على عجل لدعم الأندلسيين، وصمد المرابطون أمام هجوم النصارى، واضطر النصارى إلى الارتداد إلى خط دفاعهم الثاني وظهرت من داود ابن عائشة وجنوده كفاءة قتالية لم يعرف لها مثيل، واختار الله من المرابطين شهداء، واحتدم الصراع، وزحف ألفونسو ببقية جيشه، وأقرن زحفه بصياح هائل أفزع قلوب الأندلسيين قبل خوضهم المعركة، ولاذوا بالفرار ووجدوا أنفسهم أمام أسوار بطليوس للاحتماء بها، ولم يصمد منهم إلا فارس الأندلسيين وقومه «المعتمد بن عباد وأهل إشبيلية» وأبلى بلاءً عظيماً وعقرت تحته ثلاثة أفراس، وأصيب بجروح بليغة، واستمرت المعركة الرهيبة، وصمد المعتمد مع

---

(١) روض القرطاس (ص ٩٤).
(٢) الأندلس في عصر المرابطين (ص ٨٢).
(٣) الحلل الموشية، (ص ٣٦).
(٤) أعمال الأعلام، تحقيق العبادي (ص ٢٤٢).

داود بن عائشة حتى فلت السيوف، وتكسرت الرماح، وصبر المسلمون في المعركة صبراً عظيماً سجل في صفحات المجد والعزة والكرامة في تاريخنا المجيد.

وبدأت قوة المسلمين تضعف وتتقهقر أمام ضربات النصارى الحاقدة، وأيقن ألفونسو ببلوغ النصر معتقداً أن هذه هي قوة المسلمين المقاتلة التي ظهر الإعياء عليها، وأخذت موقف المدافعة، ولم يستغرق ألفونسو طويلاً في أحلامه حتى وثب جيش من المرابطين إلى ميدان المعركة أرسله الأمير يوسف بقياده سير بن أبي بكر على رأس الحشم لمساندة القوات الإسلامية، فتقوت بذلك معنوياتهم في معركة مالت إلى هزيمتهم، وزحف الأمير يوسف بحرسه المرابطي، وقام بعملية التفاف سريعة باغت فيها معسكر العدو من الخلف، ووصل إلى خيامه وأحرقها وأباد حراسها، ولم ينج منهم إلا القليل، وكانت طبول المرابطين تدق بعنف فترتج منها الأرض، ورغاء الجمال يتصاعد إلى السماء فبث الذعر في نفوس الأعداء وهلعت قلوبهم [١]، وذهل ألفونسو عندما رأى بعض حرس معسكره فارين، وأتته الأخبار من داخل العسكر باستيلاء المرابطين عليه، وإنه خسر حوالي عشرة آلاف قتيل[٢] ووجد ألفونسو نفسه محاصراً من المسلمين فاضطر للقتال متقهقراً نحو معسكره المحروق، ولكن يوسف لم يترك له الفرصة لالتقاط الأنفاس، فانقض عليه كالسيل، وقاتل ألفونسو عند ذلك قتال المستميت، وكان الأمير يوسف يبث الحماس في نفوس المسلمين قائلاً: يا معشر المسلمين اصبروا الجهاد أعداد الله الكافرين ومن رزق منكم الشهادة فله الجنة ومن سلم فقد فاز بالأجر العظيم والغنيمة» وكان رحمه الله يقاتل في مقدمة الصفوف وهو ابن التاسعة والسبعين، وكأن العناية الإلهية كانت تحمية [٣] وكان فقهاء المسلمين وصالحيهم يوعظون

---

(١) الحلل (ص ٤٢).
(٢) ابن الكردبوس (ص ٩٣).
(٣) الأندلس في عهد المرابطين (ص ٨٥).

الجنود ويشجعونهم على مصابرة أعداء الدين، وفي هذا الجو الرهيب من القتال الذي دام بضع ساعات وسقط فيه آلاف القتلى، وغمر الدم ساحة المعركة عندما دفع الأمير حرسه الخاص من السودان إلى القتال، فترجل منهم أربعة آلاف كانوا مسلحين بدروق اللمط وسيوف الهند ونزاريق الزان [١] .

اندفعوا في المعركة اندفاع الأسود فحطموا مقاومة النصرانية، وتكسرت شوكتهم وانقض أسد من أسود المسلمين على ألفونسو وطعنه في فخذه، ولاذ النصارى بالفرار، وتمنى ألفونسو الموت على العيش ولجأ مع خمسمائة فارس من فرسانه إلى تل قريب ينتظر الظلام لينجو من سيوف المرابطين [٢] .

ومنع يوسف جنوده من اللحاق بهم، وكانت مناسبة لألفونسو الذي تابع سيره مع الظلام إلى طليلطة، وصل إليها مغموماً حزيناً كسيراً جريحاً بعد أن فقد خيرة رجاله وجنوده وقادة جيشه.

وفقد ألفونسو في الزلاقة القسم الأعظم من جيشه، وأمر يوسف بضم رءوس القتلى من النصارى فعمل المسلمون منها مآذن يؤذنون عليها، واستشهد في تلك المعركة الخالدة جماعة من العلماء والفقهاء، قلما يجود الزمان بمثلهم منهم قاضي مراكش عبد الملك المصمودي، والفقيه الناسك أبو العباس أحمد بن رميلة القرطبي [٣] وجمع المسلمون الأسلاب والغنائم التي تركها النصارى وراءهم في ساحة المعركة، وآثر الأمير يوسف بها ملوك الأندلس، وقد عرّفهم أن هدفه الجهاد في سبيل الله ونصرة الإسلام [٤] .

وأرسل الأمير يوسف إلى المغرب أخبار النصر المبين وهذا نص خطابه: «أما بعد حمداً لله المتكفل بنصر أهل دينه الذي ارتضاه، والصلاة والسلام على سيدنا

---

(١) الروض المعطار، (ص ٩٢).
(٢) ملوك الطوائف، (ص ٣١٤).
(٣) الروض المعطار، (ص ٩٥).
(٤) المصدر السابق نفسه.

محمد أفضل وأكرم خلقه، فإن العدو الطاغية لما قربنا من حماه وتوافقنا بإزائه بلغناه الدعوة، وخيرناه بين الإسلام والجزية والحرب، فاختار الحرب، فوقع الاتفاق بيننا وبينه على الملاقاة يوم الاثنين ١٥ رجب وقال: الجمعة عيد المسلمين والسبت عيد اليهود وفي عسكرنا منهم خلق كثير، والأحد عيدنا نحن، فافترقنا على ذلك، وأضمر اللعين خلاف ما شرطناه وعلمناه أنهم أهل خدع ونقض عهود فأخذنا أهبة الحرب لهم، وجعلنا عليهم العيون ليرفعوا إلينا أحوالهم فأتتنا الأنباء في سحر يوم الجمعة ١٢ رجب أن العدو قد قصد بجيوشه نحو المسلمين، يرى أنه قد اغتنم فرصته في ذلك الحين، فنبذت إليه أبطال المسلمين، وفرسان المجاهدين فتغشته قبل أن يتغشاها، وتعدته قبل أن يتعداها، وانقضت جيوش المسلمين على جيوشهم كانقضاض العقاب على عقيرته، ووثبت عليهم وثوب الأسد على فريسته، وقصدنا برايته السعيدة المنصورة في سائر المشاهد المشتهرة المنتشرة، ونظروا إلى مراكبنا المنتظمة المظفرة، وأغشتهم بروق الصفاح وأظلتهم سحائب الرماح ونزلت بحوافر خيولهم رعود الطبول بذلك الفياح، فالتحم النصارى بطاغيتهم ألفونسو ، وحملوا على المسلمين حملة منكرة فتلقاهم المرابطون بنيات خالصة وهمم عالية، فعصفت ريح الحرب وركبت دائم السيوف والرماح، بالطعن والضرب، وطاحت المهج وأقبلت سيل الدماء في هرج، ونزل من سماء الله على أوليائه النصر العزيز والفرج».

وولى ألفونسو مطعوناً في إحدى ركبتيه طعنة أفقدته إحدى ساقيه في ٥٠٠ فارس من ثمانين ألف فارس ومائتي ألف راجل قادهم الله إلى المصارع والحتف العاجل، وتخلص إلى جبل هنالك ونظر النهب والنيران في محلته من كل جانب وهو من أعلى الجبل ينظرها شذراً، ويحيد عنها صبراً، ولا يستطيع عنها دفعاً . لا لها نصراً، فأخذ يدعو بالثبور والويل، ويرجو النجاة في ظلام الليل، وأمير المسلمين بحمد الله قد ثبتت في وسط المعركة مراكبه المظفرة، تحت ظلال بنو ،

المنتشرة منصوراً لجهاد الأعداء ، ويشكر الله تعالى على ما منحه من نيل السؤال والمراد، فقد سرح الغارات في محلاتهم تهدم بناءها، وتصطلم ذخائرها وأسبابها، وتريه رأي العين دمارها ونهبها، وألفونسو ينظر إليها نظر المغشي عليه، ويعض غيظاً وأسفاً على أنامل كفيه، فتتابعت البهرجة الفرار، رؤساء الأندلس المهزومين نحو بطليوس والفار، فتراجعوا حذراً من العار، ولم يثبت منهم غير زعيم الرؤساء والقواد، أبو القاسم المعتمد بن عباد، فأتى أمير المسلمين وهو مهيض الجناح، مريض عنه وجراح، فهنأه بالفتح الجليل، وتسلل ألفونسو تحت الظلام فاراً لا يهدي ولا ينام ومات من الخمسمائة فارس الذين كانوا معه بالطريق أربعمائة فلم يدخل طليلطة إلا مائة فارس والحمد لله على ذلك كثيراً.

وكانت هذه النعمة العظيمة والمنة الجسيمة يوم الجمعة (١٢ رجب ٤٧٩هـ /٢٣ شهر أكتوبر ١٠٨٦م) العجمي [١].

وأرسل المعتمد إلى ابنه الرشيد في إشبيلية يزف إليه البشرى بالنصر، وكان الناس بانتظار الأنباء على أحر من الجمر، وقد حمل الرسالة الحمام الزاجل وهي مقتضبة إذ لا تتعدى السطرين، هذا نصها : « اعلم أنه التقت جموع المسلمين بالطاغية ألفونس اللعين ففتح الله للمسلمين وهزم على أيديهم المشركين ، والحمد لله رب العالمين، فاعلم بذلك من قبلك إخواننا المسلمين والسلام » وقرئت الرسالة بمسجد إشبيلية فعمها السرور، ثم توالت الكتب تفيض بأخبار النصر منها إنشاء الكاتب ابن عبد الله بن عبد البر النمري وفيه يحدد تاريخ المعركة وسيرها وما أظهره ألفونس من الغدر والآخرة للصالحين [٢].

وأصبح يوم الزلاقة عند المغاربة والأندلسيين مثل يوم القادسية واليرموك : « يوم لم يسمع بمثله من القادسية واليرموك، فياله من فتح ما كان أعظمه يوم كبير ما

---

(١) انظر : الحلل المواشية ، (ص ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧) .

(٢) المصدر السابق (ص ٤٧) .

كان أكرمه، فيوم الزلاقة ثبتت قدم الدين بعد زلاقها وعادت ظلمة الحق إلى إشراقها».

نتائج معركة الزلاقة :

كانت لمعركة الزلاقة نتائج مهمة من أهمها :

[١] رفع الروح المعنوية لأهل الأندلس وخصوصا بعد أن أنقذ الله بها سقوط سرقسطة من سقوط محتم، وأزاح عن ملوك الطوائف وأمرائها كابوس النصارى ومتطلباتهم التي لا تنتهي من الجزية وغيرها.

[٢] سقوط هيبة ملوك الطوائف أمام رعاياهم خاصة وأنهم قد هُزموا في بدء المعركة ولولا أن أكرمهم الله بالمرابطين لضاعت الأندلس.

[٣] امتناع الرعية من دفع الضرائب المخالفة لتعاليم الإسلام وتعلقهم بالمرابطين.

[٤] مهدت الزلاقة إلى إسقاط دول الطوائف فيما بعد على يد منقذيهم.

[٥] ظهور نجم يوسف بن تاشفين والمرابطين في العالم أجمع.

[٦] انصياع قبائل المغرب التي كانت مترددة في ولائها وتتنظر فرصة الوثوب على المرابطين، وبذلك تكون نتيجة معركة الزلاقة أن جعلت تلك القبائل تخلد إلى السكينة وأعلنت ولائها التام.

[٧] عمت الأفراح أرجاء العالم الإسلامي في شرقه وغربه ، واعتقت الرقاب ؛ وسر العلماء والفقهاء بهذا النبأ السعيد .

[٨] أصيب نصارى الأسبان بهزيمة تعيسة أثرت في نفوسهم وتحطمت آمالهم في الاستيلاء على أراضي المسلمين في الأندلس وإبعادهم.

[٩] جعلت النصارى يرتبون أمورهم ويوحدون صفوفهم ويتنازلون عن صراعاتهم الداخلية.

وغير ذلك من النتائج المهمة التي غيرت مجرى تاريخ الأندلس وبلاد المغرب.

بعد أن رتب الأمير يوسف أموره بعد معركة الزلاقة عاد إلى إشبيلية، ودعا رؤساء الأندلس إلى اجتماع عام، وطلب منهم الاتفاق والاتحاد ضد عدوهم المشترك الذي نخر فيهم بسبب اختلافهم ، فأجابه الجميع بقبول وصيته وتحقيق رغبته. وترك ثلاثة آلاف جندي مرابطي للدفاع عن ثغور الأندلس بقيادة سير بن أبي بكر [1].

رابعاً: رجوع الأمير يوسف إلى المغرب:

لقد عدد المؤرخون أسباب رجوع يوسف إلى المغرب وهو لم يجنِ ثمرة الانتصار بعد إلى أسباب منها :

[١] وفاة ابنه الأمير أبي بكر الذي استخلفه على سبتة وكان مريضاً.

[٢] اضطراب الحدود الشرقية بسبب تحالف بني حماد مع عرب بني هلال وحاولوا غزو المناطق الحدودية التابعة للدولة المرابطية.

[٣] أراد أن يتفقد الولاة والحكام الذين تركهم في المدن والقرى، وينظر في أمور الرعية.

[٤] أراد أن يخرج من إلحاح مسلمي الأندلس الذين طلبوا منه تعقب ألفونسو وجنوده حيث إنه رأى أن قواته لا تستطيع أن تسيطر على كل الأندلس لاتساع أرضيها.

[٥] خشي من إبراهيم بن أبي بكر بن عمر الذي زعم أنه له حق شرعي في استخلاف والده المجاهد الكبير.

إن نظرتي للتاريخ الإسلامي تؤكد لي معنى عظيماً في حياة أمتنا ، ألا وهو أن المعارك الفاصلة في تاريخها المجيد؛ لا تكون إلا لقوم أقاموا الشريعة على مستوى الشعب والجيش والقادة ، وهذا المعنى واضح في سيرة المرابطين الذين تدرجوا في

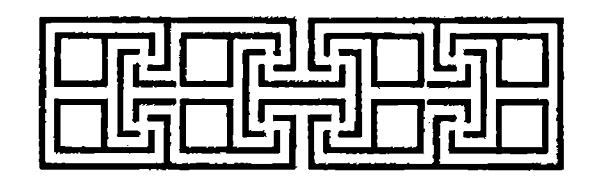
---

(١) **انظر** : الحلل المواشية (ص ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧) .

مراحلهم ، وأقاموا شرع ربهم على أنفسهم .

ولهذا أرى أن من أقوى الأسباب على الإطلاق في نصر الله للمرابطين :

هو تمسكهم وتحكيمهم للقرآن والسُّنَّة على مستوى شعبهم ودولتهم وجيشهم وقائدهم ، ولذلك يهمنا كثيراً أن نبين أثر تحكيم شرع الله في الأمم والشعوب والجيوش والأفراد .



المبحث الرابع

أثر الحكم بما أنزل الله على مجتمع المرابطين

تمهيد :

إن التأمل في كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ وفي حياة الأمم والشعوب تعطي العبد معرفة أصيلة بأثر سُنن الله في الأنفس والكون والآفاق وأوضح مكان لسُنن الله وقوانينه كتاب الله تعالى ، قال تعالى : ﴿ **يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** (٢٦) ﴾ [النساء : ٢٦] .

وسُنن الله تتضح بالدراسة فيما صح عن رسول الله ﷺ بالمطالعة في سُنَّته ﷺ فقد كان يقتنص الفرص والأحداث ليدل أصحابه على شيء من السُنن ، ومن ذلك أنا ناقته ﷺ « العضباء » كانت لا تُسبق، فحدث مرة أن سبقها أعرابي على قعود له، فشق ذلك على أصحاب النبي ﷺ، فقال لهم ﷺ كاشفاً عن سُنَّة من سُنن الله : « **حق على الله أن لا يرتفع شيء من الدنيا إلا وضعه** »[1] .

وقد أرشدنا كتاب الله إلى تتبع آثار السُنن في الأمكنة بالسعي والسَّيْر، وفي الأزمنة من التاريخ والسير.

قال تعالى : ﴿ **قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ** (١٣٧) **هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ** (١٣٨) ﴾ .

[آل عمران : ١٣٧ - ١٣٨] .

وأرشدنا القرآن الكريم إلى معرفة السُنن بالنظر والتفكر قال تعالى : ﴿ **قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ** (١٠١) **فَهَلْ**

---

(١) أخرجه البخاري ، كتاب الجهاد والسير ، باب ناقة رسول الله ﷺ (جـ٦ / ٨٦) حديث رقم (٢٨٧٢) .

يَنتَظِرُونَ إِلاَّ مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ (١٠٢) ﴾.
[يونس: ١٠١ - ١٠٢].

ومن خلال آيات القرآن يظهر لنا أن السُّنن الإلهية تختص بخصائص:

أولاً: أنها قدر سابق:

قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا (٣٨) ﴾ [الأحزاب: ٣٨].

أي أن حكم الله تعالى وأمره الذي يقدره كائن لا محالة، وواقع لا حيد عنه، ولا معدل، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

ثانياً: أنها لا تتحول ولا تتبدل:

قال تعالى: ﴿ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلاَّ قَلِيلاً (٦٠) مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً (٦١) ﴾ [الأحزاب: ٦٠ - ٦٢].

وقال: ﴿ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا (٢٢) سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً (٢٣) ﴾ [الفتح: ٢٢ - ٢٣] [١].

ثالثاً: أنها ماضية لا تتوقف:

قال تعالى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الأَوَّلِينَ (٣٨) ﴾ [الأنفال: ٣٨].

رابعاً: أنها لا تخالف ولا تنفع مخالفتها:

قال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ

---

(١) لقد استفدت من كتاب الحكم والتحاكم في خطاب الوحي، للشيخ / عبد العزيز مصطفى كامل في بيان أثر الحكم بما أنزل الله.

كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثارا في الأرض فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون (٨٢) فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون (٨٣) فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين (٨٤) فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنت الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون (٨٥) ﴾ [غافر: ٨٢ - ٨٥].

خامساً: لا ينتفع بها المعاندون، ولكن يتعظ بها المتقون:

﴿ قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين (١٣٧) هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين (١٣٨) ﴾ [آل عمران: ١٣٧ - ١٣٨].

سادساً: أنها تسري على البر والفاجر:

فالمؤمنون - والأنبياء أعلاهم قدراً - تسري عليهم سُنن الله، ولله سُنن جارية تتعلق بالآثار المترتبة على من امتثل شرع الله أو أعرض عنه، وبما أن المرابطين التزموا بشرع الله في كافة شئونهم ومروا بمراحل طبيعية في حياة الدول فإن أثر حكم الله فيهم واضح بيّن.

وللحكم بما أنزل الله آثار دنيوية وأخرى أخروية، أما الآثار الدنيوية التي ظهرت لي في دراستي لشعوب الملثمين التي قامت بهم دولة المرابطين، أمور منها:

أولاً: الاستخلاف والتمكين:

حيث نجد أن المرابطين منذ زعيمهم عبد الله بن ياسين حرصوا على إقامة شرع الله في أنفسهم وأهليهم، وأخلصوا لله تحاكمهم في سرهم وعلانيتهم، فالله سبحانه وتعالى قواهم وشد أزرهم حتى استخلفهم في الأرض، وأقام المرابطون شريعة الله في الأرض التي حكموها، فمكن لهم المولى عز وجل الملك ووطأ لهم السلطان.

وهذه سُنَّة ربانية نافذة لا تتبدل في الشعوب والأمم التي تسعى جاهدة وجادة لإقامة شرع الله تعالى.

والمتأمل في القرآن الكريم يجد هذه السُنَّة ماضية في الأفراد والشعوب والأمم، فيوسف عليه السلام استخلف في الأرض بعد أن ابتُلي، فأبلى وظهر منه أنه كان من المخلَصين، وعندما قال له الملك: ﴿ **إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ** ﴾ [يوسف: ٥٤]، عرف أنه قد جاء أوان الاستخلاف، فاستعد لتبعته ونهض لحمل رسالته فقال: ﴿ **قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ (٥٥)** ﴾ [يوسف: ٥٥]، وصار بهذا من أهل التمكين: ﴿ **وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦)** ﴾ [يوسف: ٥٦].

وقد بين الله تعالى تحقق سُنَّة التمكين في بني إسرائيل، قال تعالى: ﴿ **وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ (٦)** ﴾.

[القصص: ٥ - ٦].

وكان بعد وراثة الأرض والاستخلاف فيها أن منّ الله عليهم بالتمكين إنفاذاً لمشيئة السابقة، قال تعالى: ﴿ **وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ (٦)** ﴾[القصص: ٥ - ٦].

وبذلك تتضح هذه السُنَّة في القرآن الكريم كما هي ملموسة في واقع الأمم والشعوب.

وقد خاطب الله تعالى المؤمنين من هذه الأمة، واعداً إياهم بما وعد به المؤمنين قبلهم، فقال سبحانه في سورة النور: ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ** ﴾[النور: ٥٥]. أي بدلاً عن الكفار

﴿ **كما استخلف الذين من قبلهم** ﴾ من بني إسرائيل [١] فإذا حقق الناس الإيمان وتحاكموا إلى شريعة الرحمن، فستأتيهم ثمرة ذلك وأثره الباقي ﴿ **وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم** ﴾ فتحقيق التحاكم إلى الدين يتحقق به الاستخلاف، وتحقيق الحكم به يوصل إلى الدين.

وهذا ما رأيته في دراستي للدولة السنية التي أقامها المرابطون.

ثانياً: الأمن والاستقرار :

كانت بلاد المغرب قبل وصول المرابطين دويلات متنازعة فيما بينها، بل بعض هذه الدويلات لها معتقدات تخرجها عن الملة، كما أن قبائل الملثمين كانت متناحرة فيما بينها، وصراعهم مع الزنوج لم يستقر مما ولد لهم الخوف والإزعاج الشديد.

وبعد أن أكرم الله المرابطين بتوحيد قبائل صنهاجة، وساروا في جهادهم المجيد سيرة حسنة، وتوحد المغرب الأقصى كله، يسر الله لهم الأمن والاستقرار في تلك الربوع التي حكم فيها شرع الله.

حيث نجد أن دولة المرابطين بعد أن استخلفت ومكن الله لها أعطاها دواعي الأمن وأسباب الاستقرار حتى تُحافظ على مكانتها، وهذه سُنَّة جارية ماضية، ضمن اللهُ لأهل الإيمان والعمل بشرعه وحكمه أن يُيسر لهم الأمل الذي ينشدون في أنفسهم وواقعهم، فبيده سبحانه مقاليد الأمور، وتصريف الأقدار، وهو مقلب القلوب، والله يهب الأمن المطلق لمن استقام على التوحيد وتطهر من الشرك بأنواعه.

قال تعالى : ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ (٨٢)** ﴾ [الأنعام: ٨٢]. فنفوسهم في أمن من المخاوف ومن العذاب والشقاء إذا خلصت لله من الشرك صغيره وكبيره، إن تحكيم شرع الله فيه راحة للنفوس لكونها تمس عدل الله ورحمته وحكمته. إن الله تعال بعد أن وعد

---

(١) انظر : تفسير الجلالين، (ص ٤٦٦).

المؤمنين بالاستخلاف ثم التمكين لم يحرمهم بعد ذلك من الأمن والطمأنينة والبعد عن الخوف والفزع. قال تعالى: ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا** ﴾ [النور: ٥٥]. وإن تحقيق العبودية لله ونبذ الشرك بأنواعه يحقق الأمن في النفوس على مستوى الأفراد والشعوب.

وهذا ما حدث لقيادات المرابطين وشعبهم الذي انقاد لمنهج رب العالمين.

ثالثاً: النصر والفتح:

إن المرابطين حرصوا على نصرة دين الله بكل ما يملكون، وتحققت فيهم سُنَّة الله في نصرته لمن ينصره، لأن الله ضمن لمن استقام على شرعه أن ينصره على أعدائه بعزته وقوته، قال تعالى: ﴿ **وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (٤١)** ﴾ [الحج: ٤٠ - ٤١].

يقول سيد قطب رحمه الله: «وما حدث قط في تاريخ البشرية أن استقامت جماعة من هدي الله إلا منحها القوة والمنعة والسيادة في نهاية المطاف وأعدها لحمل أمانة الخلافة في الأرض وتصريف الحياة... إن الكثيرين ليشفقون من اتباع شريعة الله والسير على هداه، يشفقون من عداوة أعداء الله ومكرهم، ويشفقون من تألب الخصوم عليهم، ويشفقون من المضايقات الاقتصادية وغير الاقتصادية، وإن هي إلا أوهام كأوهام قريش يوم قالت لرسول الله ﷺ: ﴿ **إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا** ﴾ [القصص: ٥٧]»[1].

فلما اتبعت هدى الله سيطرت على مشارق الأرض ومغاربها في ربع قرن، أو

---

(١) في ظلال القرآن (جـ٤ / ٢٧٠٤).

أقل من الزمان [١] ، إن الله تعالى أيَّد المرابطين على الأعداء ومنَّ عليهم بالفتح؛ فَتْحُ الأراضي وإخضاعها لحُكم الله تعالى، وفَتْحُ القلوب وهدايتها لدين الإسلام.

إن المرابطين عندما استجابوا وانقادوا لشريعة الله جَلَبَتْ لهم الفتح، واستنزلت لهم نصر الله . إن الحكام والشعوب الإسلامية التي تبتعد عن شريعة الله تذل نفسها في الدنيا والآخرة.

إن مسئولية الحكام والقضاة والعلماء في الدعوة إلى تحكيم شرع الله مسئولية عظيمة ؛ يسألون عنها يوم القيامة أمام الله.

قال ابن تيمية - رحمه الله -:

«إذا حكم ولاة الأمر بغير ما أنزل الله، وقع بأسهم بينهم...وهذا من أعظم أسباب تغير الدول كما جري هذا مرة بعد مرة في زماننا وغير زماننا ومن أراد الله سعادته جعله يعتبر بما أصاب غيره، فيسلك مسلك من أيده الله ونصره، ويجتنب مسلك من خذله الله وأهانه، فإن الله يقول في كتابه ﴿ **وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ (٤١)** ﴾[الحج: ٤٠ - ٤١].

فقد وعد الله بنصر من ينصره، ونصره هو نصر كتابه ودينه ورسوله، لا نصر من يحكم بغير ما أنزل الله ويتكلم بما لا يعلم [٢] .

رابعاً: العز والشرف:

إن عز المرابطين وشرفهم العظيم الذي سطر في كتب التاريخ يرجع إلى تمسكهم بكتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ، إن من يعتز بالانتساب لكتاب الله الذي به تشرف الأمة، وبه يعلو ذكرها وضع رجله على الطريق الصحيح وأصاب سُنَّة الله الجارية في إعزاز وتشريف من يتمسك بكتابه وسُنة رسوله ﷺ ، قال تعالى:

---

(١) مجموع الفتاوى (جـ٣٥/٣٨٨).

(٢) **انظر** : تفسير ابن كثير (جـ٣ / ١٧٠).

﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٠) ﴾ [الأنبياء: ١٠].

قال ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير هذه الآية: فيه شرفكم [١]، فهذه الأمة لا تستمد الشرف والعزة إلا من استمساكها بأحكام الإسلام، كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «إنا كنا أذل قوم، فأعزنا الله بالإسلام، فمهما نطلب العز بغير ما أعزنا الله أذلنا الله» [٢]، فعمر رضي الله عنه كشف لنا بكلماته عن حقيقة الارتباط بين حال الأمة عزاً وذُلاً، مع موقفها من الشريعة إقبالاً وإدباراً، فما عزت في يوم بغير دين الله، ولا ذلت في يوم إلا بالانحراف عنه.

قال تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ [فاطر: ١٠]. يعني من طلب العزة فليعتز بطاعة الله عز وجل [٣].

وقال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾. [المنافقون: ٨].

إنني عندما مررت بسيرة الإمام ابن ياسين ذكرت وصفه بأنه ذو مهابة عظيمة في نفوس أتباعه ونال شرفاً وعزة في قومه.

وعندما مررت بسيرة الإمام أبي بكر بن عمر، ذكرت أنه إذا ركب للجهاد ركب معه ٥٠٠ ألف من قومه يجاهدون معه.

وعندما ذكرت بسيرة الأمير يوسف بن تاشفين ذكرت وصف له كأنه خُلِقَ للزعامة، ورأيت في سيرة هؤلاء الأبطال عزاً وشرفاً نالوه بالاستعلاء على شهوة النفس وبالاستعلاء على القيد والذل، كان استعلاؤهم على الخضوع الخانع لغير الله واضحاً في سيرتهم العطرة، كانت حياتهم خضوع لله وخشوع، وخشية لله وتقوى ومراقبة لله في السراء والضراء، وهذا هو سر عزهم وشرفهم في تاريخنا

---

(١) **انظر**: تفسير ابن كثير (جـ٣/ ١٧٠).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك في الإيمان (جـ١/ ٦٢)

(٣) ابن كثير (جـ٣/ ٥٢٦).

الإسلامي المجيد، لقد عاش المرابطون في بركة من العيش، ورغد من الحياة الطيبة التي وصلوا إليها بإقامة دين الله.

قال تعالى: ﴿ **وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٦)** ﴾ [الأعراف: ٩٦].

خامساً: انتشار الفضائل وانزواء الرذائل:

لقد انتشرت الفضائل في عصر المرابطين وانحسرت الرذائل فخرج جيل فيه نبل وكرم وشجاعة وعطاء وتضحية من أجل العقيدة والشريعة متطلعاً إلى ما عند الله من الثواب، يخشى من عقاب الله لقد استجاب ذلك المجتمع بشعبه ودولته وحكامه إلى ما يحييه يخشى من عقاب الله لقد استجاب ذلك المجتمع بشعبه ودولته وحكامه إلى ما يحييه من الإيمان والقرآن وسُنة سيد الأنام عليه أفضل الصلاة والسلام.

إن آثار تحكيم شرع الله في الشعوب التي نفذت أوامر الله، ونواهيه ظاهرة بيّنة لدارس التاريخ، وإن تلك الآثار الطيبة التي أصابت دولة المرابطين لهي سنن من سنن الله الجارية والماضية والتي ولا تتبدل ولا تتغير فأي شعب يسعى لهذا المطلب الجليل والعمل العظيم يصل إليه ولو بعد حين ويرى آثار ذلك التحكيم على أفراده ودولته وحكامه.

إن الغرض من الأبحاث التاريخية الإسلامية الاستفادة الجادة من أولئك الذين سبقونا بالإيمان في جهادهم وعلمهم وتربيتهم وسعيهم الدءوب لتحكيم شرع الله، وأخذهم بسنن التمكين، وفقه ومراعاة التدرج والمرحلية، والانتقاء من الشعب والارتقاء بهم نحو الكمالات الإسلامية المنشودة، إن الانتصارات العظيمة في تاريخ أمتنا يجريها الله تعالى على يدي من أخلص لربه ودينه، وأقام شرعه، وزكى نفسه، ولهذا لم يأت فتح الزلاقة من فراغ، لقد جاهد المرابطون في الأندلس وحققوا نصراً عظيماً وفتحاً مبيناً في معركة الزلاقة وأنقذ الله بهم المسلمين.

المبحث الخامس

الأندلس بعد الزلاقة

بعد رجوع يوسف بن تاشفين إلى المغرب للأسباب التي ذكرتها تولى قيادة المرابطين القائد الميداني سير بن أبي بكر الذي واصل غاراته الناجحة مع أمير بطليوس على أواسط البرتغال الحالية مما يلي تاجة وقد أثخنت قواته مع قوات المرابطين في تلك البقاع.

كما وجه المعتمد بن عباد ضربات موفقة بقيادته على عدة مدن حول طليطلة ثم اتجه نحو أرض مرسية، حيث استقرت جموع الفرسان النصارى بقيادة الكنبيطور في أحد الحصون القريبة التي تشن غاراتها على مدن المسلمين وخاصة مدينة المرية إلا إن المعتمد انهزم واضطر أن يلتجئ إلى قلعة لورقة في كنف واليها محمد بن ليون ثم توجه نحو قرطبة تاركاً مرسية لمصيرها.

وبدأت قوات النصارى تتجمع حول ألفونسو الذي أربك مدن شرق الأندلس متخذين من حصن لييط المنيع الواقع على مسيرة يوم من لورقة مركزاً لشن الغارات على أراضي المسلمين.

فلم يمض عام واحد على هزيمة ألفونسو حتى عاد نشاطه وجيشه ونقل مقر العمليات إلى شرق الأندلس الذي خيمت عليه الفرقة السياسية.

بعكس غرب الأندلس الذي كانت تحكمه مملكتان قويتان هما مملكة إشبيلية وبطليوس تعضدهما فرقة من المرابطين قوامها ثلاثة آلاف رجل على رأسها القائد العظيم سير بن أبي بكر [١].

تأذى أهل غرب الأندلس من النصارى الحاقدين فتوافدت وفودهم على الأمير

---

(١) تاريخ المغرب والأندلس (ص ٦٢).

يوسف وخصوصاً أهل بلنسية ومرسية ولورقة يصفون للأمير يوسف ما نزل بهم على أيدي النصارى الذي يتحكمون في حصن لييط.

وعبر المعتمد المجاز إلى المغرب وطلب من يوسف العبور، فاستجاب يوسف لرغبته، تَمَّ جواز يوسف إلى الجزيرة الخضراء في ربيع الأول سنة (٤٨١هـ / ١٠٨٨م) ومن هناك كتب الأمير يوسف إلى جميع أمراء الأندلس يدعوهم إلى الجهاد، ثم تحرك الأمير يوسف إلى مالقة في صحبة أميرها تميم بن بلقين، كما لحق الأمير عبد الله بن بلقين صاحب غرناطة، والمعتصم بن صمادح، فضلاً إلى المعتمد بن عباد، بالإضافة إلى أمراء مرسية وشقورة وبسطة وجيان ولم يختلف من ملوك الطوائف سوى ابن الأفطس صاحب بطليوس، وتوجهت تلك الجموع لضرب الحصار على حصن لييط الذي كان يسكنه ألف فارس واثني عشر ألفاً من المشاة من جنود النصارى الحاقدين أصحاب النزعة الصليبية الانتقامية، واستبسل النصارى في الدفاع عن الحصن وكانوا يخرجون ليلاً للانقضاض على المسلمين وإلحاق الخسائر بهم.

واستمر الحصار بدون جدوى، وظهرت صراعات ملوك الطوائف فيما بينهم ووصلت للأمير يوسف الذي ساءه ذلك كثيراً.

وشكى المعتمد بن عباد للأمير يوسف خروج ابن رشيق صاحب مرسية عن الطاعة ودفعه الأموال لألفونسو السادس تقرباً إليه، وظهرت المشاكل بين أبناء بلكين عبد الله وتميم للأمير يوسف، وكأن لا عمل له إلا حل المشاكل والمنازعات بين الأطراف المتنازعة.

وتضايق الأمير يوسف من خيانة ابن رشيق الذي دفع أموالاً طائلة لألفونسو وعرض الأمر على الفقهاء والعلماء الذين أفتوه بإزاحته من حكمه وتسليمه للمعتمد واستغاث ابن رشيق بالأمير يوسف الذي أجابه بأنها أحكام الدين ولا

يستطيع مخالفتها [١] .

وأمر القائد سير بن أبي بكر باعتقاله وتسليمه للمعتمد مشترطاً عليه إبقاؤه حياً [٢] .

وكانت لفتوى الفقهاء عند قادة المرابطين مكانة عظيمة يضعونها فوق كل اعتبار.

وفرّ جيش ابن رشيق من المعركة، ومنع الزاد عن جيش المرابطين ومن معه من الأندلسيين الذين يحاصرون الحصن، فارتفعت الأسعار، ووقع الغلاء واضطربت الأحوال، وعندما علم ألفونسو بالخلافات التي وقعت حشد جيشاً من أجل فك الحصار في معركة خاسرة غير مأمونة النتائج ، خاصة بعد الذي رآه من حكام الأندلس وتآمرهم واتصالهم بالعدو، ورجع الأمير يوسف إلى لورقة وترك أربعة آلاف مرابطي بقيادة داود بن عائشة للمحافظة على منطقة مرسية وبعث بجنود إلى بلنسية بقيادة محمد بن تاشفين [٣] .

واستطاع ألفونسو الوصول للحصن وأخرج من نجا من الموت، ورأى أن لا فائدة من الاحتفاظ بالحصن لأنه يتطلب حماية كبيرة معرضة لمصير سابقاتها فقرر إخلاءه وتدميره واسترجع ابن عباد الحصن بعد أن أصبح أطلالاً.

لقد أيقن الأمير يوسف أن أمراء الأندلس لا يصلحون للحكم ولا يعتمد عليهم في جهاد، وبعد رجوع الأمير يوسف في عام ٤٨٢هـ / ١٨٤٩م عرض الأمر على الفقهاء والعلماء فأفتوا له بضم الأندلس للمغرب.

وكان فقهاء وعلماء الأندلس يؤيدون ذلك، وكذلك فقهاء وعلماء المغرب والمشرق، وأرسل الإمام الغزالي وأبو بكر الطرطوشي [٤] فتوى تؤيد عمله الجليل

---

(١) مذكرات الأمير عبد الله ،(ص ١١٢) .

(٢) **انظر** : دولة المرابطين ،(ص ١٠٨) .

(٣) ،(٤) ابن خلدون ، العبر(جـ٦ ، ص ١٨٧) .

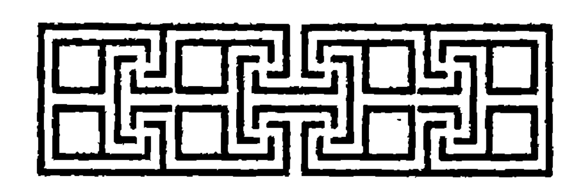
من أجل توحيد صفوف المسلمين.

وطلب القضاة والفقهاء من يوسف أن يرجع ويوحد البلاد بالقوة، لتدخل تحت الخلافة الإسلامية في بغداد.

لقد كان ملوك الطوائف يهتمون بمصالحهم الخاصة لا ينظرون إلى عزة أمتهم حتى وصفهم ابن حزم بقوله: «لو وجدوا في اعتناق النصرانية وسيلة لتحقيق أهوائهم ومصالحهم لما ترددوا» (١) .

وكان المسلمون في الأندلس يتمنون أن ينضموا إلى دولة المرابطين وعبر عن ذلك فقهاؤهم وعلماؤهم وبرز الفقيه القاضي ابن القلاعي «قاضي غرناطة» الذي توطدت العلاقة بينه وبين يوسف بن تاشفين منذ ذهاب أول بعثة إلى المغرب لطلب النجدة إذ كان أحد أعضائها وكان يرى في الأمير يوسف صلاحاً وعدلاً وحزماً.

حاول الأمير عبد الله ابن ملك غرناطة أن يتخلص منه فاعتقله ثم اضطر إلى إطلاق سراحه، فهرب إلى قرطبة ومن هناك اتصل بالأمير يوسف وأطلعه على خفايا من الأمور، وأفتى بخلع ملوك الطوائف وتفاعل مسلمو الأندلس مع هذه الفتوى الموفقة (٢) .



(١) محمد بن عبد الله عنان، دول الطوائف، (ص ٤٠٦) نقلاً عن رسالة ابن حزم.

(٢) دولة المرابطين (ص ١١٣)

المبحث السادس

فتوى في جواز ضم الأندلس بالقوة والقضاء على ملوك الطوائف

أرسل الإمام أبو بكر بن العربي المالكي إلى الإمام الغزالي كتاباً يشرح فيه موقف ملوك الطوائف بالأندلس من حركة يوسف بن تاشفين الجهادية، ويطلب منه فتيا في ذلك، قال الإمام أبو بكر بن العربي: «وكان أشهر من لقينا من العلماء في الآفاق، ومن سارت بذكره الرفاق، ولطول باعه في العلم ورحب ذراعه، الإمام أبو حامد بن محمد الطوسي الغزالي، فاستدعينا منه فتيا وكتاباً، واختصرت لفظ الفتيا لوقت ضاق عن تقييدها لكن أنبه على معناها وهو: في علم الإمام ما ذكر في وصف خلال أمير المسلمين وناصر الدين أبي يعقوب يوسف بن تاشفين أمير المغربيين الأندلس والعدوة، وما أوضحت لديه من إعزاز الدين، والذب عن المسلمين، وهو حميري النسب ومعه المرابطون، وقد وقفوا أنفسهم على الجهاد، وقد كانت جزيرة الأندلس قد تملكها من تاريخ ابتداء الفتنه سنة أربعمائة، عدة ثوار تسوروا على البلاد، فضعف أهلها عن مدافعتهم، وتلقبوا بألقاب الخلفاء وخطبوا لأنفسهم، وضربوا النقود بأسمائهم، وأثاروا الفتنة بينهم لرغبة كل واحد منهم في الاستيلاء على صاحبه، واستبانوا الفساق من الأرقاء والصنائع الطلقاء في محاربة بعضهم بعضاً، واستنجدوا بالنصارى عندما اعتقد كل واحد منهم أنه أحق من صاحبه، وعند ذهاب شوكة المسلمين، وحينما انكشف للنصارى ضعف المسلمين، وعلموا المداخل والمخارج إلى بلاد المسلمين، طلبوا المعاقل وأخذوا بالحرب كثيراً منها من غير مؤونة ولا مشقة، ثم لجأ الباقي من المسلمين إلى المرابطين واستصرخوهم فلباهم أمير المسلمين ووصل إلى البحر، فاستاء بعض الرؤساء وفاء للمشركين، وحقداً على المسلمين في

استدعائهم له، ووصل الأمير إلى غرب الأندلس فمنحه الله نصراً ، وألحم الكفار السيف، ثم عاود الجواز في العام الثالث من هذا الفتح فتهيبه العدو، وتحصن منه، ولم يخرج للقائه مع تثاقل الرؤساء عنه، وعثر لأحدهم على خطاب يشجع العدو على اللقاء، واستولى عل من قدر عليه من الرؤساء من البلاد والمعاقل، وبقيت طائفة من رؤساء الثغر الشرقي من جزيرة الأندلس، حالفوا النصارى أو صاروا معهم إلباً، ودعاهم أمير المسلمين إلى الجهاد، والدخول في بيعة الجمهور، فقالوا لا جهاد إلا مع إمام من قريش، ولست به، أو مع نائب عن الإمام، وما أنت ذلك، فقال: أنا خادم الإمام العباسي، فقالوا له: أظهر لنا تقديمه إليك، فقال: أو ليست الخطبة في جميع بلادي له؟ فقالوا ذلك احتيال. ومردوا على النفاق، فهل يجب قتالهم؟ ، وإذا ظفر بهم كيف الحكم في أموالهم؟ ، وهل على المسلم حرج في قتالهم؟ ، وهل على الإمام العباسي أن يبعث بمنشور يتضمن تقديمه له على جهادهم، فإنهم إنما خرجوا عليه بأن الأمير خادمه، وهو يخطب له على أكثر من ألفي منبر، وتضرب السكة باسمه إلى غير ذلك، ومتى وصف نفسه قال: لست مستبداً، وإنما خادم أمير المؤمنين المستظهر، وهذا أشهر أن يؤكد بالتحلية، وأظهر من أن يجدد بالتزكية».

فللشيخ الإمام الأجل الزاهد الأوحد أبي حامد أتم الأجر، وأعم الشكر في الإنعام بالمراجعة في هذا السؤال إن شاء الله تعالى [1].

أولاً: فتوى الإمام الغزالي - رحمه الله - في موقف كل من يوسف بن تاشفين وملوك الطوائف والخلافة العباسية؟.

فأجاب الإمام الغزالي رحمه الله: «لقد سمعت من لسانه وهو الموثوق به الذي يستغنى بشهادته عن غيره وعن طبقة من ثقاة المغرب الفقهاء وغيرهم، من

---

(١) انظر: دراسات في تاريخ المغرب، د. أحمد العبادي، (ص ٤٧٩ – ٤٨٠).

سيرة هذا الأمير أكثر الله في الأمراء أمثاله ما أوجب الدعاء لأمثاله، ولقد أصاب الحق في إظهار الشعار الإمامي المستظهري ، حرس الله على المستظهرين ظلاله، وهذا هو الواجب على كل ملك استولى على قطر من أقطار المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، فعليهم تزيين منابرهم بالدعاء للإمام الحق، وإن لم يكن بلغهم صريح التقليد من الإمام، أو تأخر عنهم ذلك لعائق، وإذا نادى الملك المستولي بشعار الخلافة العباسية، وجب على كل الرعايا والرؤساء الإذعان والانقياد، ولزمهم السمع والطاعة، وعليهم أن يعتقدوا أن طاعته هي طاعة الإمام، ومخالفته هي مخالفة الإمام، وكل من تمرد واستعصى وسل يده عن الطاعة، فحكمه حكم الباغي وقد قال تعالى: ﴿ **وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ** ﴾ [الحجرات: ٩]. والفيئة إلى أمر الله بالرجوع إلى السلطان العادل المتمسك بولاء الإمام الحق ، المنتسب إلى الخلافة العباسية ، فكل متمرد على الحق فإنه مردود بالسيف إلى الحق، فيجب على الأمير وأشياعه قتال هؤلاء المتمردة عن طاعته ، لاسيما وقد استنجدوا بالنصارى المشركين وأوليائهم، وهم أعداء الله في مقابلة المسلمين الذين هم أولياء الله، فمن أعظم القربات قتالهم إلى أن يعودوا إلى طاعة الأمير العادل المتمسك بطاعة الخلافة العباسية ويتركوا المخالفة، وجب الكف عنهم، وإذا قاتلوا، لم يجز أن يتتبع مدبرهم، ولا أن يُذففَ (١) على جريحهم بل متى سقطت شوكتهم وانهزموا، وجب الكف عنهم، أعني عن المسلمين منهم دون النصارى الذين لا يبقى لهم عهد من التشاغل بقتل المسلمين، وأما ما يظفر به من أموالهم فمردود عليهم أو على وريثهم، وما يؤخذ من نسائهم وذراريهم في القتال مهدرة لا ضمان فيها، وحكمهم في الجملة في البغي على

---

(١) **لا يُذَفَّف** : أي لا يجهز .

الأمير المتمسك بطاعة الخلافة، والمستولي على المنابر والبلاد بقوة الشوكة حكم الباغي على نائب الإمام، فإنه وإن تأخر عنه صريح التقليد لاعتراض العوائق المانعة من وصول المنشور بالتقليد فهو نائب بحكم قرينة الحال، إذ يجب على الإمام المصر أن يأذن لكل إمام عادل استولى على قطر من أقطار الأرض، في أن يخطب عليه، وينادي بشعاره ويحمل الخلق على العدل والنصفة، ولا ينبغي أن يظن بالإمام توقف في الرضا بذلك والإذن فيه».

وإن توقف في كتبه المنشور، فالكتب قد يعوق عن إنشائها وإيصالها المعاذير، وأما الإذن والرضا بعدما ظهر حال الأمير في العدل والسياسة وابتغاء المصلحة للتفويض والتعيين فلا رخصة في تركه، وقد ظهر حال هذا الأمير بالاستفاضة ظهوراً لا يشك فيه، وإن لم يكن أن إيصال الكتاب وإنشائه عائق، وكانت هذه الفتنة لا تنطفئ إلا بأن يصل إليهم صريح الإذن والتقليد بمنشور مقرون بما جرت العادة بمثله في تقليد الأمراء، فيجب على حضرة الخلافة بذل ذلك .

فإن الإمام الحق عاقلة أهل الإسلام، ولا يحل له أن يترك في أقطار الأرض فتنة ثائرة إلا ويسعى في إطفائها بكل ممكن. قال عمر ﷺ: «**لو تركت جرباء على ضفة الفرات، لم تطل بالهناء، فأنا المسئول عنها يوم القيامة**» قال سليمان بن عبد الملك يوماً وقد أحدق به الناس: «قد كثر الناس» فقال عمر بن عبد العزيز: «خصماؤك يا أمير المؤمنين» يعني أنك مسئول عن كل واحد منهم إن ضيعت حق الله فيهم أو أقمته. فلا رخصة في التوقيف عن إطفاء الفتنة في قرية تحوي عشرة، فكيف في أقاليم وأقاليم إلا أن يعوق عن ذلك عائق، ويمنع منه مانع، والمواقف القدسية الإمامية المستظهرية حرس الله جلالها أبصر بها، ونحن نعلم أن لا نستجيز التوقف عن إطفاء هذه الفتنه إلا لعذر ظاهر وجب على أهل المغرب أن لا يعتقدوا في حضرة الخلافة إلا ذلك، فإن المسافة إذا بعدت وتخللها المارقون عن ربقة الحق، ولم يبعد أن يقتضي الرأي الشريف صيانة الأوامر الشريفة عن أن تمد

إليها أعين الدولة فضلاً عن أيديهم، وأما من يستجيز التوقف فيها عن غير عذر عن التقليد لأمير قد ظهرت شوكته وعرفت سياسته، وتناطقت الألسن بعدله، ولم يعرف في ذلك القطر من يجري مجراه، ويسد في هذا الحال مسده، فهذا اعتقاد فساد في حضرة الخلافة حاشاها من أن تنسب إلى قصور، أو تقصر في نصرة أهل العدل المتمسكين بخدمتها ، والمعتصمين بعروتها، والقائمين في أقطار الأرض بإنفاذ شعائرها وأوامرها المعلومة بقرائن الأحوال، فهذا حكم كل أمير عادل في أقطار الأرض، وحكم من بغي عليهم، والله أعلم [١] .

يتضح لي من فتوى الإمام الغزالي أن رأيه في قتال يوسف بن تاشفين لملوك الطوائف مبني على كون أولئك الملوك من البُغاة والخارجين عن سلطة الدولة المرابطية ، التابعة للخلافة الإسلامية .

وبهذا يتضح أن الفقهاء والعلماء رأوا ضرورة ضم الأندلس لقيادة المغرب الأقصى بعد أن فرط أمراء الأندلس في أمور الشرع ومصالح الرعية وحالفوا النصارى ضد إخوانهم المسلمين.

ولا شك في أن ما فعله الأمير يوسف ضد ملوك الطوائف صحيح من الناحية الشرعية والاستراتجية العسكرية والمنطلقات السياسية .

بل في رأيي أن وجود ملوك الطوائف مفسدة عظيمة ، والسعي لإزالتهم خطوة نحو توحيد الصفوف ونجد كُتاباً من الغرب وأذيالاً لهم من أبناء المسلمين يصفون ما فعله الأمير يوسف ضد ملوك الطوائف بأنه خروج عن الإنسانية، ودليلاً على الهمجية ، حسب وجهة نظرهم المشوّشة ، وتصورهم المغلوط، أما بالنسبة للمؤرخ المسلم فإن ما قام به يوسف يعتبر عملاً عظيماً قدمه للأمة، وحفظ به الإسلام في الأندلس من انهيار محقق، وضبط الأمور بعزم وحزم بعد

---

(١) **انظر** : دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ، د . أحمد عبادي ، (ص ٤٨٤) .

فوضى وضياع وخنوع واستسلام مارسه ملوك الطوائف دون اهتمام بدين أو شعب أو عقيدة.

لقد تميز يوسف بن تاشفين بوفائه التام للعهود، وابتعاده عن الأطماع الدنيوية، وحرصه على إعزاز الدين، وإزاحة العوائق التي تحول دون وحدة المسلمين، ولذلك أقدم على الخطوة المباركة من أجل توحيد الأندلس، وضمها تحت قبضة دولته الميمونة التابعة للخلافة العباسية السنية.

إن كثيراً من الحكام المعاصرين المتسترين بالدين، والذين يحالفون النصارى الحاقدين واليهود الماكرين وأشياعهم وأتباعهم الكافرين واجب على الدولة الإسلامية السنية الفتية أن تعمل على تخليص المسلمين من قبضتهم وتضمها إليها، وتسعى من أجل تحقيق ذلك بكافة الأمور الشرعية المعروفة.

وإذا تعذر وجود دولة سُنية لها هموم إسلامية وتطلعات شرعية فعلى الحركات الإسلامية أن توحد صفوفها للوصول إلى هذا الهدف المنشود، ومن ثم السعي لتوحيد الأمة تحت دولة إسلامية تقوم على عقيدة التوحيد، وتحكمها شريعة الرب المجيد وإذا ما وصلت أي حركة معاصرة إلى ذلك الهدف المذكور تجد نفسها تحتاج إلى فتاوى شرعية وتجارب لتستأنس بها في مسيرتها المباركة ولذلك أرى من الفائدة العميمة والخبرة الرشيدة دراسة الدول الإسلامية التي قامت، واجتهاداتهم في الحروب، وتربيتهم للشعوب، لنسترشد بها ولنطورها على حسب متطلبات المرحلة التي تمر بها.

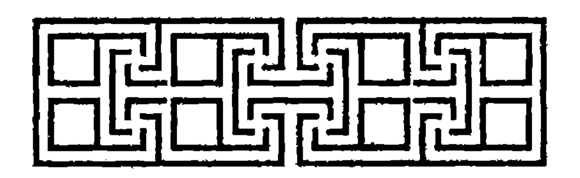
ولذلك نجد أن الأمم عموماً عندما تعد طلائع قيادية تهتم بدراسة الشعوب والحركات التحررية، والثوارت الإنسانية لتكون رصيداً لأولئك الذين يعدون ويربون على قيادة أمتهم في المستقبل المنظور.

إن العقلية الضيقة المتحجرة عندما تكون في سدة القيادة لا تستطيع أن ترتقي

بجنودها، وتجد نفسها تصطدم اصطداماً عنيفاً مع مستجدات الحياة ومشاكلها المعقدة.

إن تجارب التاريخ الإسلامي تُكسب الطلائع القيادية للحركة الإسلامية المعاصرة خبرات مهمة في مجال البناء والحركة ، والتنظيم والتكوين ، والتنفيذ والتمكين.

إن دروس التاريخ تعلمنا أن العلماء الربانيين ، والفقهاء العاملين لهم مكانة في نفوس شعوبهم، ومهابة عند حكامهم، ولفتاويهم شأن عظيم في شئون الحكم والدول والحروب وعزل الملوك وتولية غيرهم.... إلخ.



المبحث السابع
العبور الثالث للأمير يوسف بن تاشفين للأندلس

بعد طلب العلماء والفقهاء من الأندلس والمغرب والمشرق من الأمير يوسف أن يضم الأندلس إلى دولة المرابطين الفتية التابعة للخلافة العباسية السنية، عبر الأمير يوسف بقوة ضخمة عبرت من سبتة إلى الجزيرة الخضراء وسار على رأس جيشه إلى طليطلة وأرسل فرق من جيشه نحو مختلف المدن، وسار بنفسه نحو مدينة غرناطة.

واستطاع أن يفتح غرناطة بعد شهرين من حصارها واعتقل أميرها، عبد الله بن بلكين الصنهاجي الذي تحالف مع النصارى من أجل أملاكه، ثم أرسله أسيراً إلى المغرب، واستقر في أغمات بالقرب من مراكش [١].

وحاول المعتمد بن عباد والأفطس أن يثنيا الأمير يوسف عن عزمه، ولكنه رفض مقابلتهما وأيقنوا أن زوالهم قريب.

وألقى المرابطون القبض على تميم بن بلكين والي مالقة وأرسل إلى إفريقية، ثم رجع الأمير يوسف إلى سبتة وتولى القيادة السياسية والعسكرية القائد المحنك سير بن أبي بكر، وبدأ الأمير يوسف في إرسال الجيوش من المغرب إلى الأندلس للقضاء الكلي على ملوك الطوائف، وأصحبت القوة المرابطية في الأندلس قوة ضاربة لا يستطيع أحد الصمود أمامها.

وقسم الأمير يوسف جيوش المرابطين إلى أربعة أقسام:

﴿١﴾ جيش بقيادة سير بن أبي بكر توجه إلى إشبيلية.

﴿٢﴾ وجيش سار إلى قرطبة بقيادة أبي عبد الله بن الحاج وواليها، آنذاك، ولد

---

(١) انظر: معركة الزلاقة، (ص ٦٢).

المعتمد الفتح أبو النصر.

﴿ ٣ ﴾ وسار جرور اللمتوني إلى أرض رندة بجيش ثالث، وفيها ولد آخر للمعتمد وهو يزيد الراضي بالله.

﴿ ٤ ﴾ وسار أبو زكريا بن واسندوا إلى المرية التي فيها المعتصم بن صمادح، صديق المعتمد الحميم.

وبقي يوسف بن تاشفين في سبتة على رأس جيش احتياطي لكي يقوم عند الحاجة بإنجاد هذا الجيش أو ذاك [١].

وسقطت قرطبة في يد المرابطين في صفر(٤٨٤هـ / ١٠٩١م) بعد مقاومة عنيفة من أبناء المعتمد اللذين قتلا «المأمون ويزيد الراضي» ووصل المرابطون إلى ضواحي طليطلة مهددين ملوك النصارى، واستولوا على قلعة رباح التي فتحت الطريق أمامهم إلى قشتالة، واشتد الخوف بالمعتمد بن عباد الذي أرسل إلى ألفونسو يستنجده ضد المرابطين، وعقد الخطر المشترك أواصر الصداقة بينهم.

وسقطت قرمونة بعد حصار قصير في ربيع الأول (٤٨٤هـ/ ١٠٩١م)، وأصبح أمير إشبيلية في خطر عظيم، وجاءته إمدادات النصارى التي أرسلها ألفونسو بقيادة الكونت جومز، وعدتها أربعون ألف رجل مترجل، وعشرون ألف فارس، ووصلت إلى مقربة من قرطبة وتصدى لهم القائد الشجاع إبراهيم بن إسحاق في جند الشجعان، ونشبت بين الفريقين معركة حاسمة، أصاب فيها المرابطون بالرغم من خسائرهم نصراً كبيراً مبيناً، وغدت إشبيلية بعد فرار النصارى تحت رحمة المرابطين، وكانوا قد ضربوا حولها الحصار، وكان سير ابن أبي بكر يقود الجيش المحاصر، وفتحت إشبيلية عنوة في رجب ٤٨٤هـ/ ١٠٩١م وكانت خاتمة المعتمد بن عباد مأساة حزينة، وكانت عبرة لتقلب الدهر، وذلك

---

(١) انظر : معركة الزلاقة ، (ص ٦٢) .

أن الرجل الذي لبث زهاء ربع قرن يضع يديه على مصاير إسبانية، والذي كان يحكم سواد النصف الجنوبي لشبه الجزيرة، والذي يرجع إليه سبب استيلاء ألفونسو السادس على طليطلة، والذي استدعى المرابطين إلى الأندلس، اختتم حياته الحافلة بالأحداث في غمرة البؤس والحزن في أغمات المغرب فقد قبض عليه به سقوط إشبيلية، وعلى نسائه وأبنائه وبناته ـ وهم نحو مائة ـ وأرسلوا إلى مراكش [١] وفي طريقة تألم المتعمد من قيدة وضيقة وثقله فقال :

تبدلت من ظل عزّ البنود ... بذل الحديد وثقل القيود

وكان حديدي سناناً ذليقاً ... وعضباً رقيقاً صقيل الحديد

وقد صار ذاك وذا أدهما ... يعض بساقي عض الأسود

لقد أطنب الشعراء والمؤرخون وأهل الأدب في سيرة المعتمد بن عباد وسبب ذلك أمور كثيرة وأهمها في نظري أن قضيته غريبة، وشخصيته عجيبة، ومرّ بأمور رهيبة وكانت سيرته مليئة بالمتناقضات فهو الذي قال: «رعي الإبل ولا رعي الخنازير» وهو الذي استعان بالنصارى، وأجلب خليهم ورجالهم ضد المسلمين، وسيرته تبين لنا سُنن الله في إعزاز من يشاء وإذلال من يشاء، وإعطاء الملك لمن يشاء ونزعه ممن يشاء .

قال تعالى: ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦) ﴾ .

[آل عمران: ٢٦].

وتوفي المعتمد بن عبادّ في أغماتسنة ٤٨٨هـ رحمه الله تعالى .

ومن النادر الغريب أنه نودي في جنازته بالصلاة على الغريب، بعد عظم

(١) انظر : معركة الزلاقة (ص ٦٤) .

سلطانه وجلالة شأنه، فتبارك من له البقاء والعزة والكبرياء [١].

من شعر المعتمد بن عباد:

دخل عليه ولده أبو هاشم والقيود قد عضت بساقيه فخاطب قيده فقال:

قيدى، أما تعلمني مُسلمًا ... أبيت أن تشفق أو ترحما

دمي شرابٌ، واللحم قد ... أكلته ولا تهشم الأعظُما

يُبصرني فيك أبو هاشم ... فينثني، والقلب قد هُشما

ارحم أخياتٍ له مثله ... جرّعتهن السُّم والعَلقما

وقال ذات مرة بعد أن أحيط به في إحدى معاركه:

لما تماسكت الدموع ... وتَنْهنه القلبُ الصديع

قالوا الخضوعُ سياسة ... فيبدُ منك لهم خُضوع

والذ من طعم الخُضُوع ... على فمي السّمُّ النقيع

أتسلبْ عني الدنُّا ... ملكي وتُسلمْ القلبَ الضُّلوع

قد رُمتُ يومِ نزالهم ... أن لا تحصنني الدروع

وبرزت ليس سوى القميص ... عن الحشى شيء دَفُوع

أجلي تأخر، لم يكنْ ... بهواي ذُلي والخُضوع

ما سرت قطُّ إلى القتال ... وكان في أملي الرجوع

شيم الأولى إنا منهم ... والأصل تتبعه الفُروعْ [٢]

ولما توفي في أغمات رثاه الشعراء بقصائد معبرة عن المشاعر الإنسانية الدفينة وممن رثاه شاعره المخلص أبو بحر عبد الصمد بقصيدة طويلة أجاد

---

(١) وفيات الأعيان (جـ٥ / ٣٧).

(٢) التاريخ الإسلامي، للذهبي، حوادث ووفيات، مجلد (٤٨١ - ٤٩٠ هـ)، (ص ٢٧١).

فيها. وأولها:

ملك الملوك، أسامع فأنادي ... أم قد عدتك عن السماع عوادي

لما نقلت عن القصور ولم تكن ... فيها كما قد كنت في الأعياد

أقبلت في الثرى لك خاضعاً ... وجعلت قبرك موضع الإنشاد [١]

لقد كانت محنة المعتمد بن عباد عظيمة، وتعاطف معه كثير من المؤرخين والأدباء والشعراء، واتهموا يوسف بن تاشفين بالقسوة والغلطة وأنه صحرواي بدوي نزعت الرحمة من قلبه، واستدلوا أنه ذو نزعة توسعية دنيوية، ولذلك أنزل العقوبة المؤلمة على من استطاع من ملوك الأندلس وتخلص منهم.

والواقع يقول: إن ابن تاشفين لم يطمع في الأندلس، وتردد كثيراً قبل العبور، وعفَّ عن الغنائم بعد الزلاقة وتركها للمعتمد ولأمراء الأندلس، ولم يأخذ منها شيئاً، وكانت عودته، ثم عاد في الجواز الثاني بسبب اختلافات ملوك الطوائف الهزلي، وتحالف بعضهم مع ملوك النصارى، ولما اشتد الخطب أهل الأندلس وأفتى العلماء بخلع ملوك الطوائف حرصاً على سلامة الدين والعقيدة قرر الأمير يوسف أن يضع حداً لمهزلة ملوك الطوائف لقد آن «من أجل الشريعة والمصلحة العظمى للأمة» لهذه الدويلات الهزيلة الضعيفة المتناحرة المتحالف بعضها مع الأعداء أن تنتهي، **وكما قال الشاعر محمود غنيم:**

من عالج الباب العصي فلم يلن ... ليديه، حطَّم جانب المصراع

فقد شغله هؤلاء الأمراء المتفرقون عن الجهاد والفتوحات والمرابطة في سبيل الله لضعفهم وفرقتهم، فلقوا جزاء خيانتهم وفرقتهم، وابن تاشفين خص الأمراء وحدهم بشدته وعقابه وعفا عن الشعب المسلم، لأن التناقض جلي بين الشعب الذي تعلق بالمرابطين وبالأمير يوسف لعدله وحزمه وجهاده، والذي حرص على

(١) وفيات الأعيان (جـ٥ / ٣٧).

رفع المظالم والضرائب والمكوس عن كاهل الشعب الذي طلب من ملوكه الاتحاد في وجه النصارى، وبين الأمراء والملوك الذين آثروا التفرق والخلاف، حباً في الحكم، وحفاظاً على مصالحهم الشخصية.

وهذا الذي قام به الأمير يوسف، وإزاحة الملوك من أعظم حسناته ومآثره الخالدة في تاريخه المجيد الذي تعتز به أمتنا العريقة ، وبسقوط إشبيلية تزعزعت باقي المدن والحصون، وأصبحت غرناطة ومالقة وجيان وقرطبة وإشبيلية والمرية تحت حكم المرابطين في وقت لم يتجاوز ثمانية عشر شهراً.

ولما سقطت المرية بيد داود بن عائشة، هذا القائد المجاهد المرابط في سبيل الله المنصور بإسلامه ودينه وصفاء عقيدته وحفظه للعهود، واصل سيره الموفق مع جنوده البواسل، وافتتح مربيطر وبلنسية وشنتمرية ولم تغن أمراءهم معاونة الكمبيادور وفرسانه، فبلنسية كان بها يحيى بن ذي النون «القادر»، وعلى الرغم من أنه كان منضوياً تحت حماية ملك قشتالة، وقد خفت لإنجاده فرقة كبيرة منهم، وقوة من المرتزقة المسلمين من مرسية بقيادة ابن طاهر على الرغم من كل هذا سقطت بلنسية بيد المرابطين أصحاب الأيادي المتوضئة، والقلوب الطاهرة، والضربات الفتاكة لكل جبار عنيد.

واستمر داود بن عائشة في فتح حصون وقلاع مدن شرق إسبانية تحفه العناية الإلهية، وتنزل عليه الفتوحات الربانية ويخط للمغاربة وللأمة الإسلامية تاريخاً مجيداً باقياً على مر العصور والأزمان، واضحة معالم العقيدة والإيمان في نحته وكتبه بماء الذهب الصافي.

أما القائد الرباني والفارس الميداني سير بن أبي بكر فكان جهاده الميمون في غرب الأندلس حيث زحف إلى بطليوس وأميرها يومئذٍ محمد بن الأفطس «المتوكل» بعد أن فتح إشبيلية كما سلف، فاستولى على شلب ويابرة، ثم فتح بطليوس في صفر ٤٨٧هـ-آذار (مارس ١٠٩٤م).

وفي الوقت الذي سقطت بطليوس، استطاع المرابطون أن يفتحوا جزر البليار، التي كان واليها يومئذٍ من بني شهيد أتباع أمراء بلنسية ودانية، وأحسن المرابطون صنعاً بفتح الجزر الشرقية «بليار» في الوقت الملائم، فقد كانت منعزلة تعيش تحت هيمنة الأسطول النصراني، وقد تم الفتح على يد القائد البحري ابن تافرطست.

وبذلك أصبحت إسبانيا المسلمة تحت قبضة دولة المرابطين الفتية سنة ٤٨٧هـ/١٠٩٤م ونستثني من ذلك ولاية سرقسطة التي كان واليها أحمد بن هود «المستعين بالله» الذي أبلى بلاءً حسناً في جهاد النصارى وظهرت فيه شهامة ورجولة أقنعت الأمير يوسف على إبقائه في ملكه، وتحالف ابن هود مع إخوانه في العقيدة ضد أعدائهم في الدين، وكان سداً منيعاً في الثغور الشمالية وقد كلف النصارى خسائر هائلة في الأموال والأرواح.

واستطاع النصارى أن يحتلوا مدينة «بلنسية» عام ٤٨٧هـ بقيادة القائد النصراني الكمبيادور الذي أمن قاضيها «ابن جحاف» ثم أحرقه بالنار، وعمل المرابطون على إرجاع بلنسية والحصون التي وقعت في يد النصارى، وتمكنوا من تحرير بلنسية عام ٤٩٥هـ.

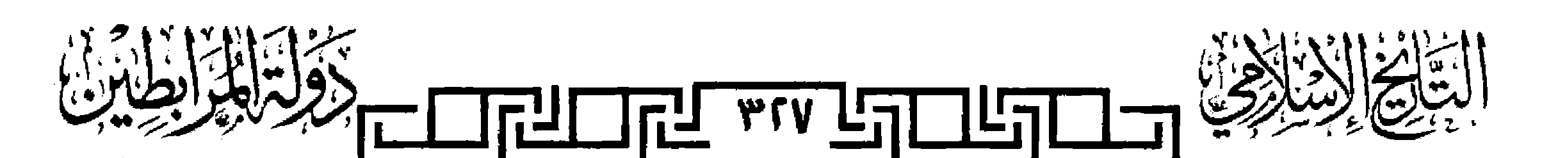
والجدير بالذكر أن بابا الفاتيكان أفتى لأهل إسبانيا ومن حولهم من الإفرنج أن قتالهم في الأندلس ضد المسلمين جهاداً مقدساً ولذلك لم يشارك الإسبان في حروب النصارى الصليبية في شرق العالم الإسلامي في هذه الفترة.

لقد كانت سياسة الإسبان في حروبهم للمسلمين صليبية النزعة، همجية الخُلق، خالية من الأخلاق، ممزوجة بالغدر بعيدة عن العلم والحضارة.

وكانت سياسة المرابطين في حروبهم وجهادهم مبنية على نشر الإسلام ومكارم الأخلاق في أطر حضارية نابعة من مشكاة الوحيين كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ[1].

---

(١) انظر: معركة الزلاقة، (ص ٦٨).



المبحث الثامن
الجواز الرابع للأمير يوسف في الأندلس

لما أصبحت إسبانية المسلمة تحت حكم المرابطين بما في ذلك سرقسطة التي حكمها بنو هود، عبر أبو يعقوب يوسف بن تاشفين العبور الرابع سنة ٤٩٦هـ/١١٠٣م بعد استرداد بلنسية بعام واحد، يبتغي تنظيم شئونها، وليطلع على حسن سير الإدارة، ودعا القادة والولاة وزعماء الأندلس، وشيوخ القبائل المغربية التي تدين بالطاعة له إلى الاجتماع في قرطبة، وعين ولده الأصغر عليًّا «أبا الحسن» وليًّا للعهد، فقد ظهرت مواهبه ونجابته ورجاحة عقله ولمس والده فيه الخصال اللازمة لحكم شعوب وأمم كثيرة [١].

أولاً: نص ولاية العهد للأمير علي بن يوسف:

عهد الأمير يوسف إلى كاتبه الفقيه أبي محمد بن عبد الغفور أن يكتب نص ولاية العهد وكان مشهوراً ببلاغته، وهذا هو النص: «الحمد لله الذي رحم عباده بالاستخلاف، وجعل الإمامة سبب الائتلاف، وصلى الله على سيدنا محمد نبيه الكريم الذي ألف القلوب المتنافرة، وأذل لتواضعه عزة الملوك الجبابرة».

أما بعد:

فإن أمير المسلمين وناصر الدين أبا يعقوب بن تاشفين لما استرعاه على كثير من عباده المؤمنين، خاف أن يسأله الله غداً عما استرعاه كيف تركه هملاً لم يستنب فيه سواه، وقد أمر الله بالوصية فيما دون هذه العظيمة [٢]، وجعلها من آكد الأشياء الكريمة، كيف في هذه الأمور العائدة في المصلحة الخاصة والجمهور، إن

(١) انظر: معركة الزلاقة (ص ١٧).
(٢) يعني الموت.

أمير المسلمين بما لزمه من هذه الوظيفة وحضه الله بها من النظر في الأمور الدينية الشريفة، قد أعزّ الله رماحه وأحد سلاحه، فوجد ابنه الأمير الأجل أبا الحسن أكثرها ارتياحاً إلى المعالي واهتزازاً، وأكرمها سجية وأنفسها اعتزازاً، فاستنابه فيما استرعى، ودعاه لما كان إليه ودعا، بعد استشارة أهل الرأي على القرب والنأي، فرضوه لما رضيه واصطفوه لما اصطفاه، ورأوه أهلاً أن يسترعى فيما استرعاه، فأحضر مشترطاً عليه الشروط الجامعة بينهما وبين المشروط قبل، وأجاب حين دُعي، بعد استخارة الله الذي بيده الخيرة والاستعانة بحول الله الذي من آمن به شكره، وبعد ذلك مواعظ ووصية بلغت النصيحة مرامي قصية، يقول في ختامه شروطها وتوثيق ربوطها، كتب شهادته على النائب والمستنيب من رضي إمامتها على البعيد والقريب وعلم علماً يقيناً بما وصاه في هذا الترتيب وذلك في عام ٤٩٥هـ/١١٠١م (١).

[أ] وأوصى يوسف بن تاشفين ابنه عليّا ، بما يلي :

ألا يعين في مناصب الحكام والقضاة في الولايات والحصون والمدن إلا المر طين من قبيلة لمتونة.

وأن يحتفظ في الأندلس بجيش دائم حسن الأجر من المرابطين، قوامه سبعة عشر ألف فارس، يطعمون على حساب الدولة ، ويوزعون كما يأتي: أربعة آلاف في ولاية سرقسطة، وسبعة آلاف في إشبيلية، وثلاثه آلاف في غرناطة، وألف في قرطبة، والباقي قدره ألفان يحتلون قلاع الحصون كحامية، ويحسن أن يعهد إلى مسلمي الأندلس بحراسة الحدود النصرانية ومحاربة النصارى، فهم لهم معرفة أوسع وخبرة أكبر على مقاتلة النصارى من المغاربة، وأن يعمل على تشجيع الأندلسيين على روح الجهاد وأن يكافئ المتفوقين في الحرب منهم بالخيل

---

(١) الزلاقة (ص ٧١ – ٧٢) ، انظر : ابن الخطيب ، الإحاطة (٢/ ٥١٩ – ٥٢٠) .

والسلاح والثياب والمال.

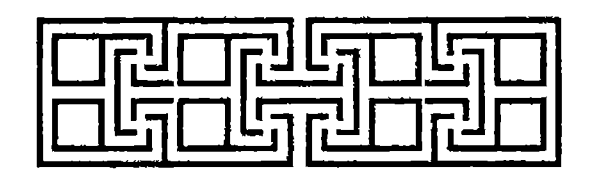
ونصح أبو يعقوب ابنه أن يعامل أهل الأندلس وخصوصاً قرطبة بالرفق واللين، وأن يقوي علاقته الأخوية مع بني هود الذين هم طليعة الأندلسيين في محاربة النصارى، ولما انتهى يوسف بن تاشفين من تنظيم شئون الأندلس وقسمها إلى ست ولايات هي إشبيلية، غرناطة، قرطبة، بلنسية، مرسية، وسرقسطة، عاد ابن تاشفين إلى مراكش.

[ب] لقد مرت سياسة المرابطين في الأندلس بمراحل ثلاث :

﴿ ١ ﴾ مرحلة التدخل من أجل الجهاد وإنقاذ المسلمين، وقد انتهت بانسحاب المرابطين بمجرد انتصار الزلاقة.

﴿ ٢ ﴾ مرحلة الحذر من ملوك الطوائف، بعد أن ظل وضعهم وضع التنافر والتحاسد والتباعد، ولم يفكروا في الاندماج في دولة واحدة، بل فضل بعضهم التقرب إلى الأعداء للكيد ببعضهم.

﴿ ٣ ﴾ مرحلة ضم الأندلس إلى المغرب، فوضعوا حداً لمهزلة ملوك الطوائف.



المبحث التاسع

آثار الابتعاد عن تحكيم شرع الله على ملوك الطوائف

﴿ ١ ﴾ إن الابتعاد عن تحكيم شرع الله تعالى يجلب للأفراد والأمة تعاسة وضنكاً في الدنيا، وهلاكاً وعذاباً في الآخرة، وإن آثار الابتعاد عن شرع الله لتبدو على الحياة في وجهتها الدينية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية.

قال تعالى: ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور: ٦٣].

لقد كان في ممارسة ملوك الطوائف للحكم البعيد عن شرع الله آثار على الأمة فنجد الإنسان المنغمس في حياة المادة والجاهلية مصاب بالقلق والحيرة والخوف والجبن يحسب كل صيحة عليه، يخشى من النصارى ولا يستطيع أن يقف أمامهم وقفة عز وشموخ واستعلاء، وإذا تشجع في المعركة من المعارك ضعف قلبه أمام الأعداء من أثر المعاصي على قلبه، وأصبح في ضنك من العيش ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ [طه: ١٢٤].

﴿ ٢ ﴾ أما الآثار على الأمة الأندلسية فقد أصيبت بالتبلد وفقد الإحساس بالذات ومات ضميرها الروحي، فلا أمر بمعروف تأمر به ولا نهي عن منكر تنهى عنه، وأصابهم ما أصاب بنو إسرائيل عندما تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

قال تعالى: ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٧٩) ﴾ [المائدة: ٧٨ - ٧٩].

فإن أي أمة لا تعظم شرع الله أمراً ونهياً فإنها تسقط كما سقط بنو إسرائيل، قال رسول الله ﷺ: «**كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ، ولتأخذن على يد الظالم ، ولتأطرنه على الحق أطراً ، ولتقصرنه على الحق قصراً ، أو ليضربن الله بقلوب بعضكم بعضاً ، ثم ليلعننكم كما لعنهم**» [١] .

إن ملوك الأندلس تحققت فيهم سُنة الله الماضية بسبب تغير النفوس من الطاعة والانقياد إلى المخالفة والتمرد على أحكام الله: ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ** ﴾ [الأنفال: ٥٣].

كما أن المجتمعات التي ترضخ تحت الحكام الذين تباعدوا عن شرع الله تذل وتهان حتى تقوم أمام من خالف أمر الله وتطلب العون من إخوانهم في العقيدة لإرجاع حكم الله في مجتمعاتهم.

﴿ ٣ ﴾ إن ملوك الأندلس انعكس انحرافهم على شعب الأندلس كله، وفرط أهل الأندلس في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وانعكس ذلك في حركة الفتوحات الإسلامية التي توقفت، ولذلك حرمت شعوب كثيرة من سعادتها في الدنيا والآخرة بسبب تضييع الأمانة والرسالة والدعوة إلى هذا الدين، لقد قست قلوب ملوك الطوائف وكثير من أتباعهم إلا من رحم الله ، وتركوا الحق وانقادوا لضلال، وابتلوا بالنفاق وفضحهم الله بذلك وحرموا التوفيق والرجوع للصواب، وخف دينهم وضعف إيمانهم، بسبب بطرهم للحق وغمطهم لحقوق الناس وابتعادهم عن شرع الله تعالى.

﴿ ٤ ﴾ لقد كانت ممالك الأندلس مليئة بالاعتداءات على الأنفس والأموال والأعراض، وتعطلت أحكام الله فيما بينهم، ونشبت حروب وفتن وبلايا تولدت على أثرها عداوة وبغضاء لم تزل عنهم حتى بعد زوالهم.

---

(١) أبو داود كتاب الملاحم باب الأمر بالمعروف ، رقم الحديث (٤٦٧٠) .

﴿ ٥ ﴾ بسبب الابتعاد عن كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ سهلت مهمة النصارى في الأندلس فأصبحت شوكتهم تقوى وتحصلوا على مكاسب كبيرة ، وغاب نصر الله عن ملوك الطوائف وأهل الأندلس، وحرموا من التمكين ، وأصبحوا في خوف وفزع من أعدائهم ، وبعض المدن تبتلى بالجوع بسبب حصار النصارى لهم وكم قتل النصارى من المسلمين وكم سبوا من نسائهم .

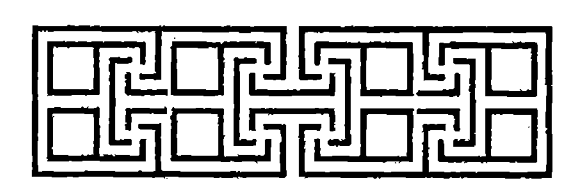
﴿ ٦ ﴾ إن الابتعاد عن شرع الله في الأندلس ترتب عليه انتقاص الأرض وضياع الملك، وتسلط الكفار وتوالي المصائب .

﴿ ٧ ﴾ إن من سُنن الله تعالي المستخرجة من حقائق الدين والتاريخ أنه إذا عُصي الله تعالى ممن يعرفونه سلَّط عليهم من لا يعرفونه، ولذلك سلط الله النصارى على المسلمين في الأندلس، وعندما تحرك الفقهاء والعلماء وبعض الملوك واستنصروا إخوانهم في الدين، والتفوا حول دولة الشريعة نصرهم الله على أعدائهم، ثم خلص الله أهل الأندلس من ملوك الطوائف الظالمين وأبدلهم بأمراء عادلين، منقادين لشريعة رب العالمين .

﴿ ٨ ﴾ إن الذنوب التي يهلك الله بها القرون ويعذب بها الأمم قسمان :

الأول : معاندة الرسل والكفر بما جاءوا به .

وثانيهما : كفر النعم بالبطر والأشر، وغمط الحق واحتقار الناس وظلم الضعفاء ومحاباة الأقوياء، والإسراف في الفسق والفجور، والغرور بالغنى والثروة، فهذا كله من الكفر بنعمة الله، واستعمالها في غير ما يرضيه من نفع الناس والعدل العام، والنوع الثاني من الذنوب هو الذي مارسه ملوك الأندلس وأمراؤهم وأتقنوه إتقاناً عجيباً .



الفصل الثالث

السياسة الداخلية والخارجية في دولة المرابطين

المبحث الأول

حقوق الرعية في دولة المرابطين

إن الله تعالى جعل بين الحاكم والمحكوم حقوقاً وواجبات متبادلة وبينت الشريعة الغراء هذه الحقوق المتبادلة فمن أهم حقوق الرعية على الراعي:

أولاً: العمل على الإبقاء على عقيدة الأمة صافية نقية:

وذلك عن طريق حفظ الدين على أصوله المستقرة، وما أجمع عليه سلف الأمة، فهذا هو أهم الأمور التي تلزم ولاة الأمر تجاه الرعية[١] وأهم هذه الأصول: التمسك بالكتاب والسُنة وإجماع القرون المفضلة الأولى، وفي دراستي التاريخية لدولة المرابطين وجدت أن حكامها ساروا على هذا المنهج الذي رسمه شيوخهم الذين سبقوهم، ولذلك توحدت دولة المرابطين، وكان لذلك المسلك سبب في حماية الأمة من التفرق في الدين إلى دروب الأهواء والضلالات وكان حماية ووقاية للحاكم والمحكوم في دولة المرابطين على السواء من الزيغ عن السبيل، قال تعالى: ﴿ **وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا** ﴾ [آل عمران: ١٠٣]. أي: تمسكوا بدين الله الذي أمركم به، وعهده الذي عهده إليكم، في كتابه إليكم من الألفة والاجتماع على كلمة الحق والتسليم لأمر الله»[٢] لقد كان يوسف بن تاشفين ومن سبقه من حكام دولة المرابطين على منهج الفرقة الناجية وسبيل أهل السُنَّة والجماعة، لا سبل أهل الزيغ والتفريق التي نهى عنها في قوله:

---

(١) الأحكام السلطانية للماوردي، (ص ٢٢).

(٢) تفسير الطبري (جـ٧/ ٧٠).

﴿ ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم (١٠٥) يوم تبيض وجوه وتسود وجوه ﴾ [آل عمران: ١٠٥ - ١٠٦].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «يعني تبيض وجوه أهل السُّنَّة والجماعة، وتسود وجوه أهل الفرقة والزيغ»[١] لقد قام يوسف بن تاشفين بحماية أصول أهل السُّنَّة والجماعة بتشجع العلماء والفقهاء وبنشرها وحمل الناس عليها واستخدام في ذلك سلطانه وصلاحياته الشرعية[٢].

ثانياً: توحيد المغرب تحت راية الخلافة الإسلامية:

قام يوسف بن تاشفين بتوحيد المغرب الأقصى تحت راية الخلافة الإسلامية واستعمل من أجل هذا الهدف كافة الأسباب المشروعة سواء بإصلاح ذات البين بين القبائل المتناحرة، أو باستعمال القوة مع من استعصى عن الإجابة، وكان يسعى سعياً حثيثاً للقضاء على الشرور في بلاده، ويعمل على إغلاق أبوابها أولاً بأول وسبيله في ذلك: «تنفيذ الأحكام بين المتشاجرين، وقطع الخصام بين المتنازعين حتى تعم النصفة، فلا يتعدى ظالم ولا يضعف مظلوم»[٣].

ثالثاً: العمل على حماية الأمة من المفسدين والمحاربين:

حيث استطاع أمير المسلمين يوسف بن تاشفين أن يأمن السبل في بلاده وأن يبسط الأمن ويقمع الأخطار التي هددت دولته من المارقين ونظم طرق الأسفار ومسارب التجارات.

وقد عد علماء الإسلام تأمين السبل والطرق حقاً من حقوق الرعية التي سيسأل عنها كل راع، فذكروا أن الإمام يلزمه: «حماية بيضة الإسلام والذب عن الحُرم، ليتصرف الناس في معايشهم وينتشروا في أسفارهم آمنين على أنفسهم

---

(١) تفسير ابن كثير (جـ١ / ٣٦٩).
(٢) انظر: الحكم والتحاكم، (ج٢ / ٥١٤).
(٣) الأحكام السلطانية للماوردي، (ص ٢٢).

وأموالهم [١] ولا شك أن تأمين السبل دليلاً بارزاً على انتصار الدين وتمكينه، فإنه ﷺ لما دَعا عدي بن حاتم إلى الإسلام، وعده ـ إن طالت به الحياة ـ أن يرى طرق المسلمين آمنة، وسبلهم محفوظة لما يؤول إليه الأمر من قوة المسلمين بعد ضعفهم، فقد روى البخاري في صحيحه عن عدي بن حاتم قال: «بينما أنا عند النبي ﷺ إذ أتاه رجل فشكا إليه الفاقة، ثم أتاه آخر فشكا إليه قطع السبيل، فقال: «**يا عدي هل رأيت الحيرة**»؟ ، قلت: لم أرها، وقد أنبئت عنها ، قال: «**فإن طالت بك حياة لترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة ، لا تخاف أحد إلا الله...**»وفيه أن عدياً رضي الله عنه قال بعدها: «فرأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلا الله» [٢] .

رابعاً: العمل على حماية الأمة من أعدائها في الخارج :

قام الأمير يوسف بن تاشفين ـ رحمه الله ـ بأعمال عظيمة حماية لدولته وشعبه من كل عدو يحاول أن يعتدي، واتخذ كافة الأسباب المتاحة من أجل تحقيق هذا العمل المنشود من تحصين الثغور بالعدة المانعة والقوة الدافعة حتى لا يظفر الأعداء بثغرة ينتهكون بها محرماً ويسفكون دماً لمسلم أو معاهد» .

وقضى على كل محاولات أعداء دولته من البرغواطيين والمغورة والحماديين ، الذين حاولوا ضم أراضي من دولته ، وقضى على دويلات الكفر والإلحاد وألزم الحماديين احترامه بالقوة .

خامساً: حفظ ما وضعت الشريعة لأجله :

فقام بإقامة الحدود، حتى تصان محارم الله عن الانتهاك وتحفظ حقوق العباد من أي إتلاف أو استهلاك ونفذ في رعيته قوله تعالى: ﴿ **وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ** ﴾[النساء: ٥٨] .

---

(١) **انظر** : الأحكام السلطانية ، للماوردي ، (ص ٢٧).

(٢) أخرجه البخاري ، كتاب المناقب ، باب علامة النبوة (جـ٦ / ٧٠٦)، رقم الحديث (٣٥٩٥).

سادساً: إعداد الأمة إعداداً جهادياً :

ومسيرة المرابطين منذ خروجهم من رباط عبد الله بن ياسين تدل على أنهم قوم مجاهدون، وقام قادتهم بجهاد الوثنيين واستمر يوسف بن تاشفين في قتال أهل الردة وغلاة المبتدعة وتوحيد القبائل الخارجة عن نطاق الدولة، وقام بواجبه في جهاد الكفرة المعاندين للإسلام حتى أسلموا أو دخلوا في ذمة المسلمين قياماً بحق الله تعالى في ظهور دينه على الدين كله» (١) .

سابعاً: القيام على تحصيل الصدقات وأموال الزكاة والخراج والفيء :

حيث قام الأمير يوسف بالإشراف على جباية وصرف الزكاة في مصارفها الشرعية من غير حيف ولا عسف، فكانت من مصادر دولة المرابطين الزكاة والخراج والفيء وغيرها، فكان الأمير يوسف لا يأخذ الضرائب والمكوس، بل أسقطها وإنما يأخذ المال من حله، ويضعه في حقه، ولا يمنعه من مستحقه (٢) .

ثامناً: تحري الأمانة في اختيار المناصب :

حرص الأمير يوسف أن يختار الأمناء والأكفاء وأسند إليهم الولايات وقيادات الجنود ومناصب القضاة، وحرص على أن يولي كل عمل من أعمال المسلمين، أصلح من يجده لذلك العمل، واختار وانتخب أحسن وأنفع العناصر لدولته السنية من أجل أن يقوم بواجبه نحو رعيته .

تاسعاً: الإشراف المباشر على شئون الدولة :

اعتاد الأمير يوسف أن يُشرف بنفسه على أمور رعيته، ويتابع ولاته ويزورهم في مواطنهم ويستمع للناس، وما كان يعتمد على التفويض وحده ، خوفاً من الله تعالى الذي قال في كتابه: ﴿ **يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ** ﴾

---

(١) **انظر** : الأحكام السلطانية ، للماوردي (ص ٢٣) .

(٢) **انظر** : السياسة الشرعية ، لابن تيمية (ص ٢٩) .

[ص: ٢٦]، وقد عد الإمام الماردي هذا الأمر من حقوق الرعية على الوالي، وذكر أنه يلزمه: «أن يباشر بنفسه مشارفة الأمور وتصفح الأحوال، لينهض بسياسة الأمة وحراسة الملة، ولا يعول على التفويض تشاغلاً بلذة أو عبادة فقد يخون الأمين ويغش الناصح...» (١).

كان الأمير يوسف يراقب ولاته مراقبة شديدة ولا يتردد في تبديلهم وعزلهم إذا أساءوا، وكان يضع مصلحة الرعية في المقام الأول عند تعيين الولاة ويوصيهم بها خيراً، وقد جاء في كتابه إلى عبد الله بن فاطمة: «فاتخذ الحق إمامك، وارفع لدعوة المظلوم حجابك، ولا تسد في وجه المضطهد بابك، ووطن للرعية أحاطها الله أكنافك، وابذل لها إنصافك، والحرج من كل ما يحيف عليها ويؤذيها، ومن سدد عليها من عمالك زيادة، أو خرق في أمرها عادة، أوغيَّرَ رسماً، أو بدل حكماً، أو أخذ لنفسه منها درهماً ظلماً فاعزله من عمله، وعاقبه في بدنه، وألزمه في رد ما أخذ متعدياً إلى أهله، واجعله نكالاً لغيره حتى لا يقدم منهم أحد على مثل فعله» (٢).

وكان الأمير يوسف يخطر أهل الولاية بتعيين الوالي الجديد فكتب إلى أهل سبتة بشأن الأمير يحيى بن أبي بكر: «ونحن وراء اختياره والفحص عن أخباره، فإذا وصل إليكم كتابنا فالتزموا له السمع والطاعة، والنصح والمتابعة جهد الاستطاعة» (٣) بالإضافة إلى ذلك كان الأمير يوسف كثير الطواف في مملكته للإشراف على تنفيذ أوامره وتعليماته من قبل الولاة (٤) والاطلاع على أحوال الرعية والنظر في أمورها.

---

(١) السياسية الشرعية، (ص ٢٩). (٢) دولة المرابطين، (ص ٢٦).

(٣) المرجع السابق، (ص ١٦٦).

(٤) الأندلس في عهد المرابطين. استفدت في مباحث أثر حكم الله على دولة المرابطين، وأثر ترك حكم الله والواجبات السياسية التي قام بها الأمير يوسف في كتاب الحكم والتحاكم في خطاب الوحي، للمؤلف عبد العزيز مصطفى كامل.

المبحث الثاني

موقف الرعية في دولة المرابطين

لقد استوفت الرعية في دولة المرابطين حقوقها الشرعية، فكان طبيعياً جداً أن تؤدي واجباتها إلى حكامها وولاتها وأهم هذه الواجبات التي أدتها.

أولاً: الطاعة:

كان مسلموا المغرب في زمن دولة المرابطين يتقربون إلى الله تعالى بطاعة أميرهم والانقياد له في كل معروف، ويرون هذا الطاعة حقاً ثابتاً لحكامهم بنص القرآن وصريح السُنَّة وصحيحها.

قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ** ﴾ [النساء: ٥٩].

وفي مجتمع المرابطين كان الشريعة فوق الجميع يخضع لها الحاكم والمحكوم، ولهذا فإن طاعة الحكام كانت عندهم مقيدة دائماً بطاعة الله ورسوله.

قال ﷺ: «**لا طاعة في المعصية، إنما الطاعة في المعروف**»[١].

ثانياً: النصرة:

كان المسلمون تحت قيادة أمراء المرابطين يعاضدون وينصرون أمراءهم في أمور دينهم وجهادهم لعدوهم عاملين بقوله تعالى: ﴿ **وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ** ﴾. [المائدة: ٢].

وكانوا يكرمون من يقيم شرع الله من حكامهم، ويدافعون وينافحون عنه ويكرمونه ويجلونه لقوله ﷺ: «**إن من إجلال الله تعالى: إكرام ذي الشيبة**

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأحكام، باب السمع والطاعة، حديث (٧١٤٥).

المسلم، وحامل القرآن غير الغالي فيه والجافي عنه، وإكرام ذي السلطان المقسط» [١] .

ثالثاً: النصح :

قامت هذه الدولة الميمونة المباركة على النصح المتبادل بين الحاكم والمحكومين، ونجد أن أحد الوزراء يطلب من الأمير يوسف عدم جواز البحر في جهاده ضد النصارى حتى يسلم المعتمد بن عباد له الجزيرة الخضراء، فيسمع الأمير يوسف هذه النصيحة وينفذها في أرض الواقع، وامتنع عن جواز البحر حتى تحصل على تلك الجزيرة التي أفادته في جهاده كثيراً ، لقد كانت قيادات المرابطين تستمع للنصح في تواضع جم ، واستعداد نفسي رفيع يدل على عمق التربية العميقة التي تحصلوا عليها.

إن الإسلام أوجب على الرعية أن تناصح ولاة أمرها، وقد جاء الأمر بذلك في حديث جوامع الكلم لرسول الله ﷺ إذ يقول:«**الدين النصيحة**» ـ ثلاثاً ـ ، قال الصحابة: لمن يا رسول الله؟ قال:« **لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم**» [٢] .

ومعنى النصيحة لهم في هذا الحديث: « معاونتهم على الحق وطاعتهم فيه وتذكيرهم به وتنبيههم في رفق ولطف، ومجانبة الوثوب عليهم، والدعاء لهم بالتوفيق» [٣] .

وقال ﷺ :«**ثلاث لا يُغل عليهن قلب امرئ مسلم : إخلاص العمل لله، والنصح لأئمة المسلمين، ولزوم جماعتهم**» [٤] .

---

(١) رواه أبو داود كتاب الأدب ، باب تنزيل الناس منازلهم(٢٣ / ٤٨٢٢) .

(٢) رواه مسلم في كتاب الإيمان ، باب : بيان أن الدين النصيحة(٢٣ / ٥٥) .

(٣) جامع العلوم والحكم ، لابن رجب (ص ٧٩) .

(٤) **انظر** : صحيح ابن ماجة ، للشيخ الألباني – رحمه الله –(جـ٢ ، ١٨٢ رقم ١٤٨) .

لقد أكرم الله حكام المرابطين ببطانة آمرة بالمعروف وناهية عن المنكر مرشدة للصواب، ناصحة للراعي والرعية لا تخشى إلا الله.

رابعاً: التقويم:

كان المسلمون الذين ارتبطوا بدولة المرابطين لا يجدون حرجاً ولا مانعاً في إيصال ما يرونه من النصح والإرشاد؛ وتقويم الأخطاء التي يقع فيها الحكام؛ أثناء اجتهاداتهم في شئون الحياة.

وهذا المبدأ قد استقر في مفهوم الصحابة منذ بداية دعوة الإسلام، فهذا الصديق رضي الله عنه عندما تولى الخلافة، قام في الصحابة خطيباً، فقال: «أيها الناس إني قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعيونني، وإن أسأت فقوموني، الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى أرجع عليه حقه إن شاء الله، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله، لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا خذلهم الله بذل، ولا تشيع الفاحشة في قوم إلا عمهم الله بالبلاء أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله، فلا طاعة لي عليكم، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله» [١].

وكان عمر رضي الله عنه لا يكتفي بإنصاف الناس من نفسه، حتى ينصفهم من عُماله وولاته، يسأل الرعية عمن أساء منهم، وكان يقول: «إني لم أبعث عمالي ليضربوا أبشاركم وليشتموا أعراضكم ويأخذوا أموالكم، ولكني استعملتهم ليعلموكم كتاب ربكم وسُنة نبيكم، فمن ظلمه عامله بمظلمة فلا إذن له علي، ليرفعها إليَّ حتى أقصه منه» [٢].

إن علاقة الحاكم بالمحكوم في الإسلام غرضها الأول: إعلاء كلمة الله وإعزاز دينه ولمصلحة الراعي والرعية.

---

(١) البداية والنهاية (جـ١ /٣٠٦).

(٢) الطبقات الكبرى، محمد بن سعد (جـ٨ /٢٢٢)

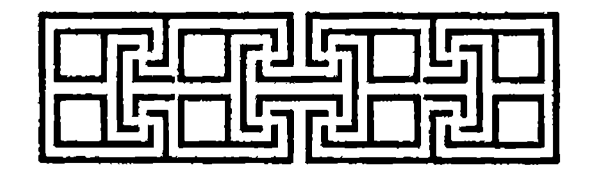
ثانياً: فهي بعيدة كل البعد عن من يجعلون في مرتبة من لا يسألون فيها عما يفعلون، وبين من يحقرون ويمتهنون حكامهم بدون وجه حق، إن الحاكم في الإسلام له احترامه وحقوقه المستمدة من كتاب الله وسُنة رسوله ﷺ، وكذلك للمحكوم حقوقه المستمدة من أصل عقيدة الإسلام، لذلك نجد النصح والنقد والتقويم بين الحاكم والمحكوم في تاريخ الإسلام على مر العصور والأزمان، فإذا تأملت في الدول التي سارت على شرع المولى عز وجل ، وجدت هذه المعالم واضحة.

وهذا يوسف بن تاشفين عندما دخل في بلاد الأندلس للجهاد في سبيل الله فأرسل إلى أهل المرية من ممالك الأندلس، وذكر لهم أن جماعة أفتوه بجواز طلب العون اقتداء بعمر بن الخطاب رضي الله عنه فرد قاضي المرية «أبو عبد الله بن الفراء» على الأمير يوسف رداً فيه نقد وتقويم ونصح، فلم يتعرض ذلك القاضي لعقوبة، بل استمع إلى نصحه وإرشاده وما رآه حقًا، وكان هذا القاضي من الدين والورع بمكان، وهذا نص الجواب الذي أرسله إلى الأمير يوسف: «أما بعد ما ذكره أمير المسلمين من اقتضاء المعونة وتأخيري عن ذلك ، وأن أبا الوليد الباجي وجميع القضاة والفقهاء بالعدُوة والأندلس أفتوا بأن عمر بن الخطاب رضي الله عنه اقتضاها، وكان صاحب رسول الله ﷺ وضجيعه في قبره، ولا يشك في عدله، فليس أمير المسلمين بصاحب رسول الله ﷺ ولا بضجيعه في قبره، ولا من لا يشك في عدله ، فإن كان الفقهاء والقضاة أنزلوك بمنزلته في العدل فالله سائلهم عن تقلدهم فيك، وما اقتضاها عمر حتى دخل مسجد رسول الله ﷺ وحلف أن ليس عنده درهم واحد من بيت مال المسلمين ينفقه عليهم، فلتدخل المسجد الجامع هناك بحضرة أهل العلم، وتحلف أن ليس عندك درهم واحد، ولا في بيت مال المسلمين، وحينئذٍ تستوجب ذلك، والسلام» (١) .

---

(١) وفيات الأعيان(جـ٧ / ١١٩) .

ومحل الشاهد من هذه الرسالة هو النقد والتقويم المستمر في حياة الأمة بين علمائها وأمرائها بدون ظلم وجور واعتداء من الطرفين على بعضهما البعض، وبذلك تنطلق حضارة الأمة بآفاقها المتنوعة لتحدث تغييراً حضارياً في دنيا الناس، مبني على النصح والتناصح ، والنقد والتقويم ، كما حدث في دولة المرابطين السنية .



المبحث الثالث

موقف المرابطين من الخلافة العباسية

رأى المرابطون أن مبايعة الخليفة العباسي واجبة، ولذلك أعطوا بيعتهم له لكونهم مالكيين سنيين، فاعترفوا بالخلافة العباسية واتخذوا السواد شعاراً لهم، ونقشوا اسم الخليفة العباسي على نقودهم منذ منتصف القرن الخامس الهجري، وبعد أن بسط الأمير يوسف سيادته على الأندلس طلب منه الفقهاء أن تكون ولايته من الخليفة لتجب طاعته على الكافة، ونزولاً عند رغبتهم اتصل بالخليفة العباسي أحمد المستظهر بالله ٤٨٧ ـ ٥١٢هـ /١١١٨م ، وأرسل إليه بعثة من عبد الله بن محمد بن العربي الإمام المعروف، وزودها بهدية ثمينة وبكتاب يذكر فيه ما فتح الله على يده من البلاد في المغرب والأندلس، وما أحرزه من نصر للمسلمين، وعز للإسلام، ويطلب في النهاية تقليداً بولاية البلاد التي بسط نفوذه عليها، وأدت البعثة مهمتها بنجاح فتلطفت في القول وأحسنت الإبلاغ وعادت إلى المغرب بتقليد الخليفة وعهده للأمير يوسف بن تاشفين الذي سر بذلك سروراً عظيماً [١].

لقد كانت دولة المرابطين من الناحية العملية تستطيع أن تستغني عن الخلافة العباسية الضعيفة حيث إن السلطان لا يملك من السلطة إلا اسمه، بل كان الأمير يوسف أكثر قوة منه يملك ويحكم، ولكن حبهم لشريعة الإسلام وحرصهم على تنفيذ أحكام الله في أسوأ الظروف جعلهم يتقيدون بذلك، لقد كانت توجيهات القرآن الكريم في وجوب لزوم الجماعة وذم التفرق واضحة المعالم بالنسبة إليهم ولقد كانت أحاديث رسول الله ﷺ في هذا المضمار هي التي

---

(١) دولة المرابطين (ص ١٥٧) .

أرشدتهم للانضمام للخلافة العباسية الضعيفة ، قال تعالى: ﴿ ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم (١٠٥) يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون (١٠٦) وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون (١٠٧) ﴾[آل عمران: ١٠٥ ـ ١٠٧].

لقد ذكر ابن جرير بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما: قوله ﴿ ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا ﴾ونحو هذا في القرآن أمر الله جل ثناؤه المؤمنين بالجماعة، فنهاهم عن الاختلاف والفرقة، وأخبرهم إنما هلك من كان قبلهم بالمراء والخصومات في دين الله» [(١)] .

والأحاديث في هذا الشأن كثيرة فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**من فارق الجماعة شبراً فكأنما خلع ربقة الإسلام من عنقه**» [(٢)] .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من فارق الجماعة، فإنه يموت ميتة جاهلية**» [(٣)] .

والمراد بميتة الجاهلية وهي بكسرالميم حالة الموت كموت أهل الجاهلية على ضلال، وليس له أمام مطاع، لأنهم كانوا لا يعرفون ذلك، وليس المراد أنه يموت كافراً، بل يموت عاصياً، لقد ذهب علماء المرابطين إلى أن الجماعة المقصودة في الحديث جماعة المسلمين إذا اجتمعوا على أمير، موافق للكتاب والسنَّة [(٤)] .

هذا في نظري سبب دخول المرابطين تحت الخلافة العباسية، وأما ما ذكره

---

(١) جامع البيان (جـ٤ / ٣٩).
(٢) البخاري ، فتح الباري (جـ١٣ / ٧).
(٣) **انظر** : الشيخ الألباني – رحمه الله – في السلسلة الصحيحة (جـ / ٩٨٤).
(٤) **انظر** : وجوب لزوم الجماعة وترك التفرق ، د . جمال أحمد (ص ٩٧).

المؤرخون أن من أسباب ذلك بعدهم عن العباسيين، ولذلك كانوا لا يخشونهم خاصة بعد أن تطرق إليهم الفساد، ودب الضعف فيهم، وهى لا تشكل أي خطر عليهم، فإني استبعد ذلك حيث أن سياسة قادة المرابطين تقاد بالشرع، وليس العكس، فهم إسلاميون سياسيون، وليسوا سياسيين إسلاميين في علاقاتهم الخارجية وشئون دولتهم الداخلية وارتباطاتهم الدولية.

أو لاً: الخطاب الذي رفعه الفقيه ابن العربي إلى الخليفة المستظهر بالله :

«٤٨٧ - ٥١٢ هـ» يلتمس فيه تقليداً يخول يوسف بن تاشفين حكم بلاد المغرب والأندلس: بسم الله الرحمن الرحيم عليه توكلي:

أسعد الله الدنيا وأهلها بدوام أنوار المواقف المقدسة النبوية الإمامية المستظهرية، وضاعف مددها، ولا أرى المسلمين أمدها بغرائب مجد تبدعها، وفرائض تشرعها الخلافة، ومستأنف سعود تحرس جنابها، ولا زالت الأيام التي هي لأيامها غرر، وفي إكليل الخلافة درر، وللدهر تمائم، وفي المحل غمائم، والحمد لله الذي جعل المواقف المقدسة النبوية الإمامية المستظهرية شرائط السواد، وخصها بالمجد المؤثل المطول بالانتساب، كابراً عن كابر إلى أعلى خندف [١] فهي أعلاها عماداً وأوراها في مواقف الفضل زناداً، أرومة الرسالة وجرثومة الخلافة، إليها ينزع هاشم، وعنها أخذت المكارم، مفاخر شهد لها الكتاب المنزل، وعهد بتخليدها مخبراً عن الوحي في آله وعقبه النبي المرسل، قد آمنت بعصمة الله من الغير، وتحققت أواخرها على السنن أولها في هداية البشر بحسن السير، أوزعنا الله الشكر على ما منّ به من توقيفنا للتمسك بعراها الوثيقة والإهداء بهداها إلى واضح الطريقة، فهم في الدين أمتنا ويوم الدين وسليتنا، استعملنا الله من طاعته وطاعتهم بما يؤدي إلى مرضاته ومرضاتهم، إنه الموفق الهادي لا رب غيره.

---

(١) **خندف**: هي امرأة إلياس بن معز أحد جدود العرب، وقد عرف بنوه بها: نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، (ص ٣٤٨).

وأن الخادم بالأدعية المنقلبة للمواقف المقدسة النبوية الإمامية المستظهرية، ألهمه الله منها لما يسمع فيرفع بمنه لما علم بموجب الشرع أن بيعة الإمام العادل من أركان الديانة، ومما يتعين ما يحتمل من رعاية الأمانة.

هاجر إلى ذلك بنفسه وبابنه المسترق القن من أقصى المغرب، معتقداً أن علمه أفضل القرب والرغائب، واحتمل برد الهواء وظمأ الهواجر، واقتحم دون ذلك مسالك بلغت فيها القلوب الحناجر، ولم يثنه بحر يزخر، ولا قفر يذعر ويحتسب في ذلك أثره، ويرجو أن يقبل الله يوم الجزاء عشره، إلى أن انتهى هو وابنه إلى مدينة السلام لا زالت محروسة من غِيرَ الأيام، عاصمة لمن التجأ إليه من مهتضمي الأنام.

ولم يزل الخادم بالأدعية المتقبلة بحول الله يتوسل بهجرته، ويتقرب بخلوص علانيته وسريرته، ويسأل تشريف رقاعه بملاحظاتها، والنظر من انقطاعه، رغبة في الحظ الجسيم، إلى أن وصل إلى المجلس السامي وخدم البساط العالي، زاده الله تعظيماً وتشريفاً، وأنهى أغراض وفادته ومقاصد إدارته، فنفذت الأوامر الشريفة، أدام الله سموها وتشريفها واصطفى على الجميع ستر سلطانها، وكنف إحسانها بقبول وسائله، وإلحاح مطالبه، وإضافة الإحسان عليه.

ولما بسط له في الأمل، وكان هو وابنه في محل الكرامة والجذل، بدأ بعرض ما هو عليه ناصر الدين، وجامع كلمة المسلمين، القائم بدعوة مولانا أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين، الأمير أبو يعقوب يوسف بن تاشفين المتحرك بالجهاد المتجهز إلى المسلمين باستئصال فئة العناد، ولمة الفساد، قام بدعوة الإمامة العباسية والناس أشياع وقد غلب عليهم قوم دعوا إلى أنفسهم ليسوا من الرهط الكريم، ولا من شعبة الطاهر الصميم، فنبه جميع من كان في أفق قيامه بالدعوة الإمامية العباسية، وقاتل من توقف عنها منذ أربعين عاماً إلى أن صار جميع من في جهة المغارب على سعتها وامتدادها له طاعة، واجتمعت

بحمد الله على دعوته الموفقة الجماعة، فيخطب الآن للخلافة، بسط الله أنوارها، وأعلا منارها على أكثر من ألفي منبراً وخمسمائة منبراً، فإن طاعته ضاعفها الله من أول بلاد الإفرنج استأصل الله شأفتهم، ودمر جملتهم إلى آخر بلاد السوس مما يلي بلاد غانة وهى بلاد معادن الذهب، والمسافة بين الحدين المذكورين مسيرة خمسة أشهر، وله وقائع في جميع أصناف الشرك من الإفرنج وغيرهم قد فللت غربهم، وقللت حزبهم، وألفت جموعه حربهم، وهو مستمر على مجاهدتهم، ومضايقتهم في كل أفق، وعلى كل الطرق، وقد استرجع كثيراً من المعاقل التي استباحها الروم من أمور المسلمين، وسبت أهلها قبل حصول تلك الجهات في حكم سلطانه، وكانت ثغور المسلمين بها مستضامة، وقد أعادها جده بحمد الله إلى أولها، واحترمت لحرمة المسلمين والإسلام وعز سلطانه وهذا دأبه، وهجيراه الذي لا عمل له سواه.

وعدة جيوشه إذا جمعها لحركته ستون ألف فارس وكان أمله مواصلة الخدمة والتشريف بإنهاء أعماله، والإعلام بمناقل أحواله وأفعاله وباحتماله على حماية دين المسلمين وإقباله على مجاهدة المشركين، إلا أن الحائل المانع دون ذلك لإشفاته، ولم يزل محافظاً على ما هو عليه من إقامة الدعوة السعيدة والاعتراف بجمل النعم الوافدة العديدة بفضل الله، ولقد وصل إلى ديار المشرق في هذا العام قاضي من قضاة المغرب يعرف بابن القاسم، وذكر من حال هذا الأمير ما يؤكد ما ذكرته، ويؤيد ما شرحته ، وأشاع القاضي المذكور ذلك بمكة، وصل الله تشريفها وتعظيمها، وذكر لي أن الروم على شفا جرف من تضييقه عليهم، وحصاره لهم، وقد تكرر إعلام الخادم بذلك لما تلزمه من طاعة أولي الأمر لاسيما هذا الأمير، وقد حظي بفضائل منها الدين المتين، والعدل المستبين، وطاعة الإمام، ابتدأ جهاده بالمحاربة على إظهار دعوته، وجميع المسلمين على طاعته والارتباط بحماية ثغور المسلمين، وهو ممن يقسم بالسوية، ويعدل في الرعية ووالله ما في طاعته مع

سعتها دان منه، ولا ناء عنه من البلاد ما يجري فيه على أحد من المسلمين رسم مكس، وسبل المسلمين آمنة، ونقوده من الذهب والفضة سليمة من الشوب، مطرزة باسم الخلافة، ضاعف الله تعظيمها وجلالها.

هذه حقيقة حاله، والله يعلم إني ما أسهبت ولا لغوت، بل لعلي قد أغفلت أو قصرت، ولمولانا أمير المؤمنين المستظهر بالله، صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين، والطول العميم في الأمر، تشريفه بقبول تأميله، وفي الإشارة إليه بما يقوي أمره، ويشد أزره ويؤيد سلطانه ويعلي شأنه مجرياً له على السُنن الكريم، والطول العميم، فوالله ما في الأمراء ولا في شيع النصحاء الأولياء من يجوز في الولاء وصحة الانتماء سبقه، ولا يلبس من النصيحة من الخلافة المقدسة المبنيةعلى طريق النبوية، ما يصل بده ويقوي أيده ويشد عضده بمنه وطول.

وضراعة الخادم بالأدعية المتقبلة لنفسه ولابنه المسترق القن بعد الامتنان بإباحة الصدر لهما إلى الوطن، فقد بعد عنه سبعة أعوام، وأقاما في الجناب الخضب الظليل والكنف الرحب المأهول مدة عامين، يستدران النعم الحافلة جملاً بعد جمل، ويكرعان في المشارب الجمة العذبة عللاً بعد نهل، فلله الهام الشريفة التي مسحت على شكيتها من عدوان الأيام بيد شيم الكرام، فأزاحت عنهما جميع الشكايات والآلام.... لا أعدم الله مولانا الإمام المستظهر بالله أمير المؤمنين، صلوات الله عليه وعلى آبائه المنتخبين مبرة تتضاعف بها المعالي وسعادة تحرز أسنى الآمال، وكفاية يستمد بها حرية الأيام والليالي، فذلك بيده وغيره معجزة، وهو المنعم الجواد، وكل خير من طوله مستفاد، لا شريك له، ولا توفيق إلا به والحمد لله حق حمده، وصلواته على سيد المرسلين رسوله وعبده وعلى آله الطيبين، وعترته المنتخبين الراشدين، آباء أمير المؤمنين صلوات الله عليهم أجمعين إلى يوم الدين، وحسبي الله ونعم الوكيل» [1].

---

[1] دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، د. أحمد العبادي (ص ٤٧٦)

إذا تأملنا في الرسالة المذكورة فإنها تدلنا على طابع رسائل الحكام في فترة المرابطين، وتدلنا على حسن اختيار دولة المرابطين لممثليها عند الخلافة العباسية حيث إنها اختارت عالماً فقيهاً ذا دراية وخبرة كبيرة في مخاطبة الحكام والخلفاء، وبذلك نجحت تلك الوفادة وحققت أهدافها، ورجعت تحمل معها ثمارها.

ثانياً: رد الخلافة العباسية على طلب دولة المرابطين:

لا شك أن الخلافة العباسية دخلها سرور عظيم وكسبت مكسباً معنوياً كبيراً ولذلك حرص الخليفة على أن يرد بنفسه على خطاب ابن تاشفين حيث كتب سبعة وثلاثين سطراً جاء فيها: «عرضت هذه القصة بمفاوز العز والعصمة، ومواقف الإمامة المطهرة المكرمة، زاد الله جلالها، وسبوغ ظلالها، فخرجت المراسم الشريفة بأن ذلك الولي الذي أضحى بحبل الإخلاص معتصماً، ولشرطه ملتزماً، وإلى أداء فروضه مسابقاً، وكل فعله فيما هو بصدده للتوفيق من الولاء، طويل نجاده، إذ كان من غدا بالدين تمسكه، وفي الزيادة عنه مسلكه، حقيقاً بأن يستتب صلاح النظام على يده، ويستشف من يومه حسن العقبى في من يليه من الكفار، وإتيان ما يقضي عليهم بالاجتياح والبوار، اتباعه لقوله تعالى: ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ ﴾ [التوبة: ١٢٣].

فهذا هو الواجب اعتماده الذي يقوم به الشرع، وأن يؤلف شمل من في جملته من الأنجاد على الطاعة الإمامية التي هي العروة الوثقى والذخر الأبقى واستقراه قوله تعالى العمل به، والبدار إلى التشبث بسببه: ﴿ أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ [النساء: ٥٩].

وليكن دأبه الجهاد فيما يكسب عند الله الزلفى ويمنحه من رضاه القسم الأكمل الأوفى: ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ (٣٠) ﴾.

[آل عمران: ٣٠].

وأن يختص رافعها وولده بالإرعاء الذي يضفى عليهما برده، ويصفوا لهما وُدَّه ، وليظهر عليهما من المهاجرة جميل الأثر، ويؤول أمرهما فيما يرجو أنهما إلى استقامة النظام وضم النشر، فليقابل الأمر الأسنى في ذلك بامتثال واحتذاء مطاع المثال إن شاء الله » (١) .

لقد استطاعت دولة المرابطين أن تكون سنداً قوياً معنوياً للخلافة العباسية السنية وبذلك تكون نفذت أوامر ربها واسترشدت بتوجيهات نبيها، فأصابها بركة ذلك من سمعتها العالمية في ديار المسلمين، وأصبحت جزاءاً من الخلافة العباسية التي اكتفت منها بالطاعة المعنوية، وبذلك تحصل أمراء المرابطين من اعتراف الخلافة العباسية بدولتهم حيث إن المرابطين كانوا يعتقدون اعتقاداً راسخاً أنه لن يعتبر ملكهم مشروعاً إلا إذا باركته الإمامة القرشية العباسية .

واختلف المؤرخون في زمن اتصال المرابطين بالخلافة العباسية فابن الأثير يقول:

إن أول اتصال بين المرابطين والعباسيين قد حدث عقب انتصار الزلاقة واستيلاء يوسف على الأندلس ويتفق مع ابن الأثير في هذا الرأي كل من ابن خلدون والقلقشندي والذهبي (٢) .

وأنا أميل إلى: أن اتصال المرابطين كان قبل ذلك بكثير حيث إن واضع الخطوط العريضة لدولة المرابطين الفقيه « أبو عمران الفاسي القيرواني من أتباع الخلافة العباسية وكل الفقهاء الذين من مدرسته سنيون مالكيون، وبذلك يكون زعماء المرابطين ساروا على نفس التعاليم السنية المالكية » .

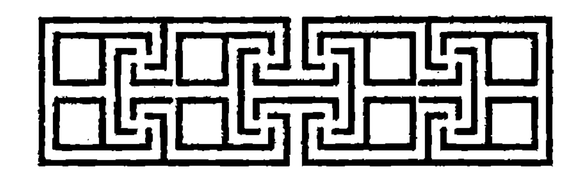
ونجد أن نقود المرابطين قد نقش عليها أسماء الخلفاء العباسيين منذ عام ٤٥٠هـ أي منذ عهد الأمير أبي بكر بن عمران، وظل اسم الخليفة العباسي يذكر مقروناً

---

(١) دارسات في تاريخ المغرب (ص ٤٧٨) .

(٢) تاريخ المغرب والأندلس ، د . حمدي عبد المنعم (ص ٢٣٧) .

باسم أبي بكر بن عمران إلى أن توفي في عام ٤٨٠هـ وخلفه يوسف بن تاشفين فذكر اسمه على السكة مع اسم الخليفة العباسي، وهذا يدل على صلة المرابطين بالعباسيين قبل الزلاقة، ولا شك أن كتابة اسم الخليفة على عملة المرابطين تم بعد اتصالهم بالخليفة العباسي، وبعد أن تلقوا منه إجابة بقبول طاعتهم وتقليداً بولايتهم [1] .



(١) تاريخ المغرب والأندلس (ص ٢٣٦) .

المبحث الرابع
علاقات الأمير يوسف مع بني حماد

حرص الأمير يوسف على علاقة حسن الجوار مع دولة بني حماد الصنهاجية التي تقع في شرق دولة المرابطين، وكان الحماديون يتحينون الفرصة لضم أطراف من مملكة المرابطين، وتم لهم ذلك عندما عبر الأمير يوسف الأندلس عام ٤٧٩هـ، فتحالفوا مع عرب بني هلال وغزوا المغرب الأوسط وعادوا إلى بلادهم محملين بالغنائم، وسكت يوسف عن الانتقام منهم وصالحهم، ولم يرغب في الدخول في حرب معهم مع وجود أسبابها حقناً لدماء المسلمين وحفظاً لشوكتهم وقوتهم.

وعندما توفي الناصر بن علناس الحمادي في عام ٤٨١هـ بعث الأمير يوسف بكتاب تعزية إلى ولده وخليفته المنصور مما يدل على نيات يوسف السليمة تجاه بني حماد، واستمرت حالة السلم بين الفريقين أكثر من عشر سنوات ثم نشب خلاف بين والي تلمسان المرابطي تاشفين بن تنغمير وحكام بني حماد فهاجم الأمير يوسف واستطاع بحكمته وسياسته أن يحقن دماء المسلمين، وعزل حاكم تلمسان تاشفين وعين مكانه الأمير مزدلي، وبعد أن ضم الأمير يوسف الأندلس أضحت مملكة بجاية ملاذاً للفارين من الأندلس، ومع ذلك لم يحرك الأمير يوسف ساكناً تجاه عمل بني حماد وبقي الأمر كذلك حتى وفاته [١].

لقد كان للتوجه السُني في دولة الحماديين أثر في تخفيف الصراع مع المرابطين، كما أن لصلة القرابة الصنهاجية سبب آخر، وإلا ما كانت تستطيع دولة الحماديين أن تقاوم جيوش المرابطين الفتية، وفي نظري أن بقاء دولة الحماديين كانت من الأسباب التي أضعفت الدولة الزيرية الصنهاجية ، وسببت توتراً وارتباكاً لدولة المرابطين ، ولو ضمت لدولة المرابطين لكان أفيد للإسلام والمسلمين وللمغرب الأوسط والأقصى.

---

(١) دولة المرابطين (ص ١٥٨) .

المبحث الخامس

علاقة المرابطين مع ملوك الطوائف

مرت علاقة المرابطين مع ملوك الطوائف بمراحل متعددة، وهي: المسالمة، التحالف، القتال.

أولاً: مرحلة المسالمة:

لما وصلت دولة المرابطين ذروة قوتها وحطت بجيوشها وأساطيلها على سهل البحر المتوسط ارتعد ملوك الطوائف، وأصابهم الخوف وركبهم الهم، وأصبحوا بين قبضتين قويتين بين النصارى الذين يمكن مداراتهم بالأموال وبالتنازل عن بعض الحصون بين المرابطين الذين عرفوا بجهادهم واستعلائهم على متاع الدنيا، وحبهم للشهادة ورفع المظالم عن العباد، وقد وصلهم ظلم ملوك الأندلس، وقد اشتهر جنود المرابطين بصيت عظيم في تحقيق النصر في المعارك، وبأس شديد في القتال مما أدخل الرعب في قلوب ملوك الطوائف، فعقدوا اجتماعاً للتشاور في أمر الخطر القادم من الجنوب، واستقر رأيهم أن يكتبوا للأمير يوسف يسألونه الإعراض عنهم وأنهم تحت طاعته، وهذا نص الكتاب: «أما بعد فإنك إن أعرضت عنا نسبت إلى كرم ولم تنسب إلى عجز، وإن أجبنا داعيك نسبنا إلى عقل ولم ننسب إلى وهن، وقد اخترنا لأنفسنا أجمل نسبنا فاختر لنفسك أكرم نسبتك، فإنك بالمحل الذي لا يجب أن تسبق فيه إلى مكرمة، وإن في استبقائك ذوي البيوت ما شئت من دوام لأمرك وثبوت والسلام» [1].

وأرسلوا مع حامل الكتاب هدايا وتحفاً نفيسة.

وبعد أن تشاور الأمير يوسف مع مستشاريه رأي أن يسالمهم ويرضى بما قدموا

---

(١) دولة المرابطين (ص ١٥٩).

له من طاعة، ورد عليهم بهذا الكتاب جاء فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم من يوسف ابن تاشفين سلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، تحية من سالمكم وسلم عليكم وحكمه التأييد والنصر فيما حكم عليكم ، وإنكم مما في أيديكم من الملك في أوسع إباحة مخصوصين منا أكرم إيثار وسماحة، فاستديموا وفاءنا بوفائكم واستصلحوا إخاءنا بإصلاح إخائكم ، والله ولي التوفيق لنا ولكم والسلام».

وقد قرن الأمير يوسف الكتاب بالتحف وبدرق اللمط التي لا توجد إلا في ديار المرابطين، ولما وصل كتابه إلى ملوك الطوائف فرحوا بذلك، وتقوت نفوسهم على قتال الإسبان، وأحب أهل الأندلس دولة المرابطين حكامهم ومحكوميهم [١] .

ثانياً: مرحلة التحالف :

وبعد سقوط طليطلة في يد الإسبان النصارى عام ٤٧٨هـ اضطر ملوك الطوائف أن يطلبوا النجدة من الأمير يوسف الذي لبى نداءهم، وكان سبباً في إيقاف زحف النصارى على ممالك الأندلس، وانتصر على ألفونسو في معركة الزلاقة المشهورة.

وبعد أن احتك الأمير يوسف بملوك الطوائف ووقف على خيانتهم وتحالفهم مع النصارى واتصالهم بأعداء المسلمين انتقلت العلاقة من التحالف إلى العداوة.

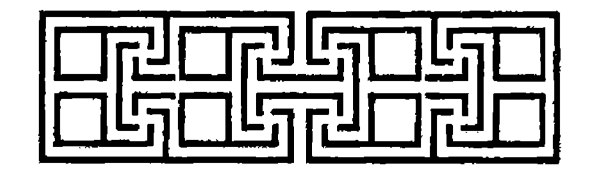
ثالثاً: مرحلة العداوة:

حيث استعرت نار الحرب بين المرابطين وملوك الطوائف انتهت بضم كافة ممالك الأندلس لدولة المرابطين إلا سرقسطة التي حكمها أحمد بن هود ، والذي كان كالشوكة في حلق النصارى ، فقد قاومهم زمناً طويلاً، وتراجع النصارى أمام صمود بني هود البطولي، وأظهر بنو هود مقدرة فائقة على قتال النصارى ،

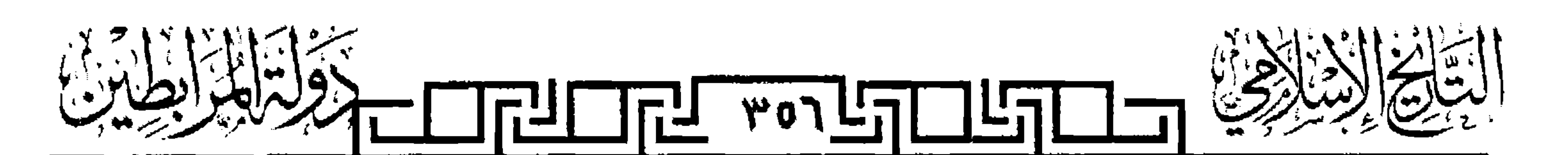
---

(١) دولة المرابطين(ص ١٦٠) .

مما جعل المرابطين يحترمونهم، وتوطدت العلاقات الودية بين الأمير يوسف والأمير أحمد بن هود الذي كان وفياً في عهوده ومخلصاً في جهاده وحريصاً على أمته، ورضي المرابطون ببقاء أحمد بن هود حاكماً تابعاً لهم وبذلك أصبحت الأندلس ولاية تابعة لدولة المرابطين، وتوارت العناصر والزعامات الهزيلة وانهار سلطان العصبيات الطائفية [١] .



(١) انظر : الأندلس في عصر المرابطين (ص ١١٢) .



المبحث السادس
علاقة المرابطين مع الإسبان والنصارى

كانت علاقة المرابطين مع نصارى الإسبان عدائية بصورة دائمة إذ لم يتخللها أي اتصال ودي خصوصاً في زمن الأمير يوسف بن تاشفين، والاتصال الوحيد الذي حدث عن طريق الرسائل بين الأمير يوسف وألفونسو أثناء قيام هذا الأخير بحملته العدائية على مملكة المعتمد، ووصوله إلى مضيق جبل طارق إذ أرسل إلى الأمير يوسف رسالة تفيض تهديداً ووعيداً، ويذكر فيها حالة ملوك الطوائف. وكان جواب الأمير يوسف مختصراً: الجواب ما ترى لا ما تسمع إن شاء الله تعالى وأردف:

ولا كتب إلا المشرفية والقنا ... ولا رسل إلا الخميس العرمرم [١]

واستمر جهاد المرابطين للنصارى الذين امتنعوا عن دخول الإسلام ورفضوا دفع الجزية وحملوا السيف ضد المسلمين، أما الذين دفعوا الجزية وعاشوا داخل دولة المرابطين فكانت أحكام الإسلام في أهل الذمة تحفهم وتحفظ حقوقهم.

أولاً: عاملتهم دولة المرابطين معاملة أهل الذمة:

فكانت عليهم واجبات في دولة المسلمين منها:

﴿١﴾ التزام الجزية، وإجراء أحكام أهل الذمة عليهم.

﴿٢﴾ ترك ما فيه ضرر على المسلمين في أنفسهم وأموالهم كالتعدي على المسلمين بضرب أو نهب.

﴿٣﴾ تحاشي ما فيه غضاضة على المسلمين، كذكر الإسلام أو القرآن، أو الرسول ﷺ بما لاينبغي.

---

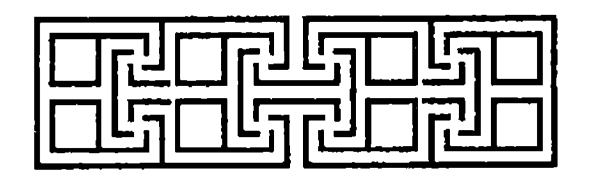
(١) دولة المرابطين (ص ٦٦).

﴿٤﴾ تجنب ما فيه إظهار منكر، كشرب الخمر في الأماكن العامة للمسلمين.

﴿٥﴾ التميز عن المسلمين بعلامة خاصة يُعرفون بها، كأن تكون في اللباس أو غيره [١].

ثانياً: حقوقهم في دولة المسلمين:

الكف عنهم والحماية لهم، ليكونوا بالكف آمنين، وبالحماية محروسين [٢] روى نافع عن ابن عمر قال: «احفظوني في ذمتي» [٣] والأحكام فيما يتعلق بأهل الذمة كثيرة يرجع إليها في كتب الفقه المختصة.



---

(١) **انظر**: المغني لابن قدامة (جـ١٠/٦٠٦، ٦١٨).

(٢) الأحكام السلطانية للماوردي، (ص ١٤٣).

(٣) المصدر السابق نفسه.

الفصل الرابع

سياسة المرابطين في دولتهم المجيدة

المبحث الأول

نظم الحكم والإدارة في دولة المرابطين

أولاً: النظام الإداري:

[١] نظام إمارة المسلمين :

كان النظام السائد في إمارة المسلمين عند المرابطين يعتمد على اختيار الأمير وفق فقه الشورى، وكانوا حريصين على تطبيق قول الله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣٨) ﴾ .

[الشورى: ٣٨].

وكان زعماء المرابطين يتشاورون في الوسائل التي تعين على تمكين الحق وإظهار الصواب، ونشر الصلاح بين العباد، واقتدوا بالقرآن الكريم في توجيهه للرسول ﷺ : ﴿ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

«أي لا يصدنك ما كان منهم من خطأ رأيهم فيما بدا منهم يوم أحد عن أن تستعين برأيهم في مواقع أخرى، فإنما كان قد حصل فلتة تغفر وعثرة تُقال وشاورهم في أمر الحرب وأمثاله مما يجري فيه المشاورة» (١) .

وقد دلت الآية على أن الشورى قد أمر بها الرسول ﷺ في مهمات الأمة ومصالحها كالحرب ونحوها، وذلك في أمر التشريع، لأن أمر التشريع إن كان فيه

---

(١) انظر : تفسير أبي السعود (جـ١ / ٥٥٨)

وحي فلا محيد عنه، وهي توجيه لكل ولاة الأمر بعده أن يشاوروا عن أمر الدين والدنيا، وما ليس فيه نص واضح، وهي تشمل هنا المشاورة في شئون الأمة ومصالحها [١] .

وكان مذهبهم في الشورى مذهب المالكية وليس الخصوص ، قال ابن خويز منداد: «واجب على الولاة مشاورة العلماء فيما لا يعلمون، وفيما يشكل من أمور الدين، ووجوه الجيش فيما يتعلق بالحرب، ووجوه الناس فيما يتعلق بالمصالح ، ووجوه الكتاب والوزراء والعمال فيما يتعلق بمصالح البلاد وعمارتها» [٢] .

وأشار ابن العربي إلى وجوبها بأنها سبب الصواب، فقال: «والشورى مسار العقل وسبب الصواب» ، ويشير إلى أننا مأمورون بتحري الصواب في مصالح الأمة وما يتوقف على الواجب فهو واجب [٣] .

ويذهب ابن عطية أيضاً إلى الوجوب، بل يؤكد هذا الوجوب فيقول:

«الشورى من قواعد الشريعة وعزائم الأحكام، ومن لا يستشير أهل العلم فعزله واجب، وهذا ما لا اختلاف فيه» [٤] .

لقد كان نظام الشورى هو الأساس الذي اعتمده المرابطون في نظام حكمهم في بداية دولة المرابطين قبل يوسف بن تاشفين، فقد كان المرابطون يختارون بكامل الحرية رئيسهم الذي يتم تعيينه بعد عقد مجلس من زعماء القبائل والولاة والعلماء والفقهاء يشارك فيه شيوخ المرابطين وأعيانهم، بهذه الطريقة تم اختيار عبد الله بن ياسين، الذي لم يحرص على استمرار الإمارة في أسرته، كما أنه لم يباشر أي ضغط على المرابطين في اختيار يحيى بن عمر ثم أبي بكر بن عمر، بل كانت وصيته الأخيرة للمرابطين قوله: «إياكم والمخالفة والتحاسد على

---

(١) **انظر** : تفسير القرطبي (جـ٤ /٢٠٥) .
(٢) المصدر السابق ، (جـ٤ / ٢٠٥)
(٣) ابن العربي .
(٤) ابن أبي زرع القرطاس ، (ص ٩٠)

الرياسة فإن الله يؤتي ملكه من يشاء، ويستخلف في أرضه من أحب من عباده، ولقد ذهبت عنكم فانظروا من تقدمونه منكم، يقوم بأمركم ويقود جيوشكم، ويغزو عدوكم، ويقسم بينكم فيئكم، ويأخذ زكاتكم وأعشاركم»[١].

من هذه الوصية يتبين أن الزعيم الأول للمرابطين، لم يكن يرى طريقة الحكم الوراثي، أما يوسف بن تاشفين فقد كان يخشى أن يعود الأمر فوضى بعده وأن تنفصم عرى هذه الوحدة، وتنتهي هذه الدعوة التي عمل جاهداً على تبليغها زهاء نصف قرن، لذلك رأى يوسف أن يعين والياً للعهد يستخلفه بعد موته، وهكذا حدث انحراف في اختيار الحاكم عند المرابطين من الشورى إلى النظام الوراثي منذ أن اختار يوسف بن تاشفين ابنه علياً ولياً لولاية العهد، وكان اجتهاد يوسف بن تاشفين في هذا التعديل الخطير يعتمد على رأيه أن اجتهاده ذلك يحفظ وحدة بلاده ودولته، ويقضي على التنافس من أجل الحكم ورأي مصلحة بلاده وشعبه تقتضي اختيار ابنه.

كان من الطبيعي أن يمهد لفكرته في اختيار ولي العهد، ولذلك شاور كل من يهمه الأمر حول هذا الاختيار، ولهذا بادر بمشاورة الفقهاء والقضاة وزعماء القبائل وأفراد الأسرة المرابطية وكبار رجال الدولة في سنة (٤٩٥هـ/١١٠١م)، وناقشهم في المبررات التي دفعته إلى اختياره، فوافقه الجميع على ما اعتزم عليه، وعلى أثر ذلك قرئ مرسوم البيعة الذي يتضمن الأسباب التي حملته على هذا الاختيار، والشروط الواجب توافرها فيه، والمبادئ التي ينبغي أن يسير عليها، وهذا المرسوم كتبه الوزير الفقيه أبو محمد بن عبد الغفور، وكان من أعلام البلاغة في ذلك العصر»[٢].

---

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) **انظر**: الحلل الموشية (ص ٥٦، ٥٧).

ونستخلص من نص الوثيقة التي ذكرتها فيما مضى: أن يوسف بن تاشفين اتبع مبدأين في اختياره ولده أبي الحسن علي ولياً لعهده:

أولهما: مبدأ الاختيار:

فقد أشارت الوثيقة التي ذكرتها إلى أن يوسف قد اختار من بين أولاده من هو أصلح لقيادة تلك الدولة المترامية الأطراف: «فوجد ابنه الأمير الأجل أبا الحسن أكثرها ارتياحاً إلى المعالي واهتزازاً، وأكرمها سجية وأنفسها اعتزازاً، فاستنابه فيما استرعى ودعاه لما كان إليه دعا» (١).

ثانيهما: مبدأ الشورى:

فقد أخذ يوسف به، وتمسك بما جاء في القرآن الكريم وما جاء على لسان نبيه ﷺ وما سار عليه الخلفاء الراشدون: «ودعاه لما كان إليه دعا، بعد استشارة أهل الرأي على القرب والنأي» (٢).

كما أشار مرسوم البيعة إلى أنها كانت مشروطة ببعض الشروط اشترطها الأمير يوسف على ابنه، وأهم تلك الشروط التمسك بالمبادئ التي دعا إليها الإمام عبد الله ابن ياسين من إعلان الجهاد على أعداء الإسلام، واحترام الفقهاء والقضاة والعلماء، والعمل على إقامة العدل بين الرعية، وبالإضافة إلى بعض الأمور التي تتعلق بضمان أمن الدولة من وضع سبعة عشر ألف فارس بالأندلس موزعة على أقطار معلومة، يكون منها بإشبيلية سبعة آلاف فارس وبقرطبة ألف فارس وباقي العدد على ثغور المسلمين للذب والمرابطية في الحصون المعاينة للعدو (٣).

وفي عام ٤٦٩هـ دخل يوسف بن تاشفين قرطبة، وجمع كبار رجال الدولة وأمراء لمتونة وأشياخ البلاد، وقادة الرأي والفقهاء والعلماء والقضاة، وتلا عليهم

---

(١)، (٢) **انظر**: الحلل الموشية (ص ٥٦، ٥٧).

(٣) تاريخ المغرب والأندلس (ص ٢٥١).

عقد البيعة لابنه علي الذي سبقت الإشارة إليه، وضمنه الأسباب التي حملته على اختياره ولياً للعهد، ثم أخذ البيعة له من جميع الحاضرين، وأقسم هؤلاء يمين الطاعة والولاء، ثم وقعوا على عقد البيعة، وقام على أثر ذلك، فأقسم أمام الحاضرين بالتزام شروط العقد وترسم السياسة التي رسمها أبوه، ثم أشهد الكتاب ووقع على الوثيقة [1] .

[أ] وفاة الأمير يوسف :

ثم عاد يوسف بن تاشفين إلى المغرب، حيث مرض مرضه الأخير الذي استمر زهاء عامين وشهرين، وانتهى بوفاته عن مئة عام حافلة بالجهاد والدعوة وإعزاز دين الله، وكانت سنة وفاته (٥٠٠هـ / سبتمبر ١١٠٦م) وكان ولي العهد يقوم أثناء مرض أبيه بتصريف أمور الحكم نيابة عن أبيه، ونجح نجاحاً كبيراً في إدارة دفة الحكم لدولة المرابطين، وكانت آخر وصية من يوسف لابنه في مستهل سنة ٥٠٠هـ أوصى ولده وولي عهده بعده أبا الحسن علياً بثلاث وصايا :

أولها: « ألا يهيج أهل جبل درن ومن ورائه من المصامدة وأهل القبلة » .

والثانية: « أن يهادن بني هود بالأندلس وأن يتركهم حائلين بينه وبين الروم » .

والثالثة: « يقبل مِن مَن أحسن من أهل قرطبة ويتجاوز عن مسيئهم » [2] .

[ب] لقب أمير المسلمين:

كان زعماء المرابطين يطلقون على أنفسهم لقب الأمراء، وظل المرابطون يطلقون لقب الأمراء، وظل المرابطون يطلقون لقب الأمير على كل زعيم يتولى أمرهم ابتداءً من عهد أمير لمتونة أبي زكريا يحيى بن عمر اللمتوني، فتلقب به يحيى كما تلقب به أخوه أبو بكر بن عمر بعد وفاته، وعندما تولى يوسف بن

---

(١) تاريخ المغرب والأندلس (ص ٢٥١) .
(٢) ابن أبي الزرع (ص ١٠٣) .

تاشفين زعامة المرابطين منذ ٤٦٤هـ ظل يتلقب بالإمارة إلى سقوط أبي بكر بن عمر شهيداً في أحد المعارك في سنة (٤٨٠هـ /١٠٨٧م)، وعندئذٍ أصبح يوسف الزعيم الأوحد للمرابطين، واجتمع إليه أشياخ قبيلته وعرضوا عليه أن يتلقب بأمير المؤمنين، لأن حقه أكبر من أن يلقب بالأمير فرفض ذلك قائلاً: «حاش أن أسمى بهذا الاسم إنما يتسمى به خلفاء بني العباس لكونهم من تلك السلالة الكريمة وأنا رجلهم والقائم بدعوتهم» (١)، ولكنهم قالوا له: أن لا بد له من اسم يمتاز به على سائر الأمراء واقترحوا عليه لقب أمير المسلمين وناصر الدين، وأصبح العمل جارياً به عند سائر المرابطين، وقد صدرت الكتب تحمل هذا اللقب بعد وفاة أبي بكر بن عمر على القول الأرجح وهذا نص الكتاب الذي أرسله إلى الولاة والقادة والعلماء: «بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً: من أمير المسلمين وناصر الدين يوسف ابن تاشفين إلى الأشياخ والأعيان والكافة أهل فلانة أدام الله كرامتهم بتقواه ووفقهم برضاه، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أما بعد حمد الله أهل الحمد والشكر، وميسر اليسر وواهب النصر، والصلاة على محمد المبعوث بنور الفرقان والذكر، وأنا كتبناه إليكم من حضرتنا العلية بمراكش حرسها الله، وأنه لما مَنّ الله علينا بالفتح الجسيم وأسبغ علينا من أنعمه الظاهرة والباطنة وهدانا وهداكم إلى شريعة محمد المصطفى نبينا الكريم صلى الله عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم رأينا أن نخصص أنفسنا بهذا الاسم لنمتاز به على سائر أمراء القبائل، وهو أمير المسلمين وناصر الدين، فمن خطب الخطبة العلية السامية فليخطبها بهذا الاسم إن شاء الله تعالى، والله ولي العدل بمنه وكرمه والسلام» (٢).

---

(١) دولة المرابطين (ص ١٦٢)

(٢) دولة المرابطين (ص ١٦٢، ١٦٣)

ويرى بعض المؤرخين من أمثال أبي زرع في «روض القرطاس» إلى أن الأمير يوسف تلقب بأمير المسلمين في يوم الزلاقة ، ولم يكن يُدعى به من قبل، وإن ملوك وأمراء الأندلس وكانوا ثلاثة عشر ملكاً بايعوه وسلموا عليه باسم أمير المسلمين وهو أول من سمي به من ملوك المغرب .

وقد تأثر شعب النيجر بشكل خاص بالمرابطين وأطلق على حكامه لقب أمير المسلمين وكانوا مالكيين في المذهب ويرجع ذلك إلى أن المرابطين هم الذين نشروا الإسلام في تلك الربوع النائية (١) .

[جـ] نائب الأمير :

كان اتساع مملكة المرابطين سبباً في اتخاذ نواب ينوبون عنه حيث كان من المستحيل على أمير المسلمين أن يشرف وحده على تلك الدولة المترامية الأطراف، فعين بعض النواب المقربين إليه، فعين نائباً على شئون الأندلس ونواباً على إقليم المغرب، وكان يراعي في اختيار النائب أن يكون أقرب الناس إلى أمير المسلمين، وأن يتوفر فيه حسن الإدارة والكفاية العسكرية ويعتبر ممثلاً أولياً لأمير المسلمين ويستمد نائب الأمير سلطته من الأمير شخصياً، وكان ولي العهد نائباً للأمير، وتولى نيابة الأندلس، وكانت قرطبة هي المفضلة لإقامة ولي العهد لمكانتها السامية في نفوس الأندلسيين، وأول نائب عينه الأمير يوسف على الأندلس القائد سير بن أبي بكر اللمتوني، ثم بدلَّ به ابنه أبا الطاهر تميم بن يوسف، وتلي نيابة الأندلس من حيث الأهمية نيابة فاس بالمغرب وكان النائب يستقر فيها عندما كان الأمير يوسف يعود إلى مراكش كي لا تحدث ازدواجية في السلطة (٢) .

---

(١) دولة المرابطين (ص ١٦٢ - ١٦٣).

(٢) حركات النظام السياسي والحربي عند المرابطين (ص ٦٥)

كانت مهمة النائب بالدرجة الأولى عسكرية إذ كان عليه أن يخوض الحروب ويقمع الفتن وحركات التمرد يعاونه قادة كبار من لمتونة [١] .

وكان من سياسة يوسف بن تاشفين مع نوابه مراقبتهم ولا يتيح لهم الاستقرار في مناصبهم لعهود طويلة حتى لا يعملوا على الاستقلال، فكان النواب دائماً معرضين للنقل من ولاية إلى أخرى.

وكانت نائب أمير المسلمين يتخذ لنفسه كتابًا يقومون عنه بالمكاتبات أو تسند إليهم بعض الأعمال الإدارية، وممن ظهر من كتّاب نواب المسلمين علي بن يوسف في الأندلس الكاتب الأديب أبو عبد الله محمد بن أبي الخصال كاتب الأمير محمد بن الحاج، وأبو بكر بن الصائغ كاتب الأمير أبي بكر بن إبراهيم، والزبير بن عمر اللمتوني كاتب تاشفين بن علي، وكانت حياة كل نائب من نواب أمير المسلمين صورة مصغرة من حياة هذا الأمير فكانوا يتخذون القصور والخدم والفقهاء والأعوان [٢] .

[د] تولية الولاة :

كان الأمير يوسف يعين الولاة على الأقاليم من لمتونة بشكل خاص وصنهاجة بشكل عام فولى أمراء قومه الأقاليم، فقبل ضم الأندلس كان سير بن أبي بكر على مدائن مكناسة وبلاد مكلالة وبلاد فزاز، وولي عمر بن سليمان المسوفي مدينة فاس وأحوازها، وداود بن عائشة سلجماسة ودرعة، وتميم بن يوسف مدينة أغمات ومراكش وبلاد السوس وسائر بلاد المصامدة وتدلا وتامسنا ، وبعد ضم الأندلس عين يوسف بن تاشفين القائد سير بن أبي بكر حاكماً على الأندلس، وفوض له تعيين والياً على كل بلد يفتحه ويكون من لمتونة.

---

(١) مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، المجلد (١١) ، (جـ٢ /٢٧) ، تحت عنوان الثغر الأعلى في عهد المرابطين د . حسين مؤنس .

(٢) تاريخ المغرب والأندلس في عصر المرابطين (ص ٢٦٣)

وكان الولاة يخضعون مباشرة لنائب الأمير، ومنح الأمير يوسف سلطات واسعة منها حق التصرف في عزل وتعيين من دونهم من الولاة المحليين، ومن يليهم من رجال السلطة ، وكذلك القيام بتحركات عسكرية داخل مناطق نفوذهم، وكان الأمير يوسف وابنه من بعده يراقبون ولاتهم مراقبة شديدة، ويجري تبديلهم وعزلهم إذا أساءوا، وكانوا يضعون مصالح الرعية في المقام الأول عند تعيين الولاة [١] .

[هـ] نظام الوزارة:

كان الأمير يوسف بعيداً كل البعد عن اتخاذ الألقاب والألفاظ والاهتمام بالمناصب، فلم يتخذ وزراء بالمعنى المتعارف عليه، ولم يمنح لقب وزير لأي شخص إلا أنه اتخذ لنفسه أعواناً يرجع إلى مشورتهم، وكتاباً يشرفون على ديوان الرسائل أو الإنشاء، وكانت لديه هيئة استشارية تشترك فيها طائفة من الفقهاء، والأعيان والكتاب يلازمونه في قصره وتنقلاته يبدون آراءهم في المشاكل المطروحة للبحث وتبقى الكلمة الفاصلة للأمير. أما في الأمور المهمة فكان يجمع زعماء المرابطين وأبناء عمومته من لمتونة للتداول واتخاذ الآراء، وكان الاتصال بالأمير عن طريق الأعوان من السهولة بمكان، وساعد على ذلك ما امتاز به الأمير من زهد في الدنيا وتطلع للآخرة وحب للبساطة، وميل للتواضع.

ويذهب الأمير يوسف في مذهبه إلى أن الشورى معلمة وغير ملزمة وله في ذلك أدلة حيث ذهب بعض المفسرين إلى أن الشورى غير ملزمة مستندين في ذلك إلى قوله تعالى: ﴿ **فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ** ﴾ [آل عمران : ١٥٩] .

ذهب الإمام الطبري ـ رحمه الله ـ إلى القول: «إذا صح عزمك بتثبيتنا إياك وتسديدنا لك فيما نابك وحزبك من أمر دينك ودنياك، فامض لما أمرناك به، وافق

---

(١) دولة المرابطين (ص ١٦٥) .

ذلك آراء أصحابك وما أشاروا به عليك أو خالفها، وتوكل فيما تأتي من أمورك على ربك، فثق به في كل ذلك، وارض بقضائه في جميعه دون آراء سائر خلقه ومعونتهم» [١] .

ويرى بعض العلماء : أن رأي الشورى ولو أنه غير ملزم لكنه ينير الطريق أمام الحاكم [٢] .

وأضاف العلاقة أبو الأعلى المودودي في قضية الشورى هل هي معلمة أو ملزمة بعداً آخر وهو طبيعة المجتمع وما يسوده من أخلاق حيث يقول: «ما وجدت حكماً قاطعاً في هذا الباب في أحاديث الرسول ﷺ، غير أن العلماء قد استنبطوا من عمل الصحابة في عهد الخلافة الراشدة أن رئيس الدولة هو المسئول الحقيقي عن شئون الدولة، وعليه أن يسيرها بمشاورة أهل الحل والعقد، ولكنه ليس مقيداً بأن يعمل بما يتفقون عليه كلهم أو أكثرهم من الآراء وبكلمة أخرى أنه يتمتع بحق الاعتراض على آرائهم».

ولكن هذا الرأي في صورته المجملة كثيراً ما يسبب سوء الفهم بالقياس إلى أحوالهم وأوساطهم الحاضرة، ولا ينظرون إلى ذلك الزمان ولا الوسط الذي قد أخذنا هذا الرأي من أعمال الأمة فيه، فما كان أهل الحل والعقد في عهد الخلافة الراشدة منقسمون إلى أحزاب متفرقة، بل كانوا كلما دعوا للمشاورة يأتون المجلس بقلوب ملؤها الإخلاص.. ثم يوازن الخليفة بين الحجج الموافقة والمعارضة ويعرض عليهم ما عنده من الدلائل، ويبين رأيه، وكان هذا الرأي في عامة الأحوال رأياً يسلم به أعضاء المجلس كلهم...» ثم قال: «لم نعثر في تاريخ الخلافة الراشدة كله على مثال واحد نرى فيه أهل تفريق جميل بين المجتمع

---

(١) تفسير الطبري(جـ٧ /٣٤٦) .

(٢) د. عبد الحميد متولي، مبدأ الشورى في الإسلام(ص ٥٢)

الإسلامي في حاضرنا وبين المجتمع الإسلامي القائم على أسس دولة القرآن التي تربي المسلم على خشية الله فلا ينحرف عن الجادة».

وربما كان يوسف بن تاشفين وأمراء المرابطين محقين في أخذهم بالرأي القائل بأن الشورى معلمة للأمير وليست ملزمة، ولهم أدلة كثيرة للتدليل على هذا المبدأ.

إلا أنني أرى الفائدة الكبرى والاستفادة العظمى في زمننا هذا الأخذ بالرأي القائل بأنها ملزمة، **والقائلون بهذا القول لهم أدلتهم منها**:

أن الشورى ملزمة للحاكم طالما أنها مؤيدة بالشرع والعقل، فيقول ابن تيمية: «وإذا استشارهم فإن بين له بعضهم ما يجب أتباعه من كتاب أو سنة رسوله أو إجماع المسلمين، فعليه اتباع ذلك، ولا طاعة لأحد في خلاف ذلك، وإن كان عظيماً في الدين والدنيا، لقوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ** ﴾ [النساء: ٥٩] (١).

ولو كانت الشورى غير ملزمة، لكان بإمكان النبي ﷺ أن يجنب الجماعة المسلمة تلك التجربة المريرة التي تعرضت لها في غزوة أحد ـ لو أنه قضى برأيه في خطة المعركة، مستنداً إلى رؤياه . . . ولم يستشر أصحابه، أو لو أنه رجع عن الرأي عندما سنحت له فرصة الرجوع . . . ولكنه ـ وهو يقدر النتائج كلها ـ أنفذ الشورى . . . ثم يجيء الأمر الإلهي له بالشورى ـ بعد المعركة ـ تثبياً للمبدأ في مواجهة نتائجه المريرة» (٢)، وبهذه الأدلة التي ذكرتها نسترشد بهذا المبدأ في مسيرتنا الحركية والدعوية والتنظيمية التي تسعى لإعادة الإسلام كنظام شامل يتناول مظاهر الحياة جميعاً، ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريباً.

---

(١) أبو الأعلى المودودي، نظرية الإسلام وهديه في السياسة والقانون (ص ٢٧٣ - ٢٧٤).

(٢) السياسية الشرعية، لابن تيمية (ص ١٨١، ١٨٢).

[و] ديوان الرسائل والمكتبات عند المرابطين:

كان المرابطون يهتمون بديوان الإنشاء، ولذلك حرصوا على أن يتولاه رجال من أشهر الأدباء في تلك الفترة جلهم أندلسيون، واهتم الأمير يوسف بجلب الأدباء والبلغاء والفقهاء لهذا العمل ، واستفاد من كتاب ملوك الطوائف وتوسع ديوان الرسائل مع امتداد رقعة دولة المرابطين، وانتفع المرابطون انتفاعاً عظيماً بخبرة الأندلسيين أصحاب الحضارة والأدب، وأقبل المغاربة على ثقافة الأندلس ينهلون منها في تواضع المستفيدين، وحدث تنافس بين الكتاب، وحاولوا أن يثبتوا جدارتهم في هذا الفن، وأصبح ديوان الأمير يوسف متألقاً بالحضارة.

وقام ابنه علي بتطوير ديوان الرسائل وجلب له كتاباً في غاية البلاغة ودقة الأسلوب وجمال التعبير ومما دفع الأمير علياً على تطوير دولته تربيته الرفيعة وذكاءه الوقاد واهتمامه بكتاب ملوك الطوائف وتقريبهم إليه في زمانه، فشعر بحاجته إلى طائفة مثقفة تفهم لغة الوفود، وتجيد فنون الكتابة، ومن أشهر أولئك الكتاب والأدباء والبلغاء، محمد بن سليمان الكلاعي المتوفى عام ٥٠٨هـ، وصفه ابن خاقان في « القلائد » بقوله: « غرة في جبين الملك، ودرة لا تصلح إلا لذلك السلك، باهت به الأيام، وتاهت في يمينه الأقلام، واشتملت عليه الدول اشتمال الكمام على النور، وانسربت إليه أماني انسراب الماء إلى الغور » (١) .

ويقول عنه ابن الصيرفي: « الوزير الكاتب الناظم الناشر، القائم بعمود الكتابة، والحامل للواء البلاغة، والسابق الذي لا يشق غباره، ولا تخمد أبداً أنواره، اجتمع له براعة النثر، وجزالة النظم، رقيق النسيج حصيف المتن رقعته وما شيت في العين واليد » (٢) .

وكذلك انضم إلى البلاط المرابطي أبو محمد عبد المجيد بن عبدون المتوفى

---

(١) قلائد العقبان (ص ١٠٤) .

(٢) المركش ، عن ابن الصيرفي في المعجب (ص ١٦٤) .

سنة ٥٢٠هـ ، وأبو القاسم محمد بن عبد الله بن الجد الفهري المتوفى في عام ٥١٥هـ ، وابن أبي الخصال الغافقي المتوفى ٥٤٠هـ ، وأبو زكريا بن محمد بن يوسف الأنصاري الغرناطي المتوفى سنة ٥٧٠هـ في غرناطة، وأحمد بن أبي جعفر بن محمد بن عطية القضاعي الذي نكبه عبد المؤمن بن علي خليفة الموحدين، وغير هؤلاء كثير من الأدباء والكتاب الذي عملوا في خدمة دولة المرابطين زمن أمير المسلمين علي بن يوسف [1] ولا ننسى أن الوزارة في زمن علي بن يوسف تطورت تطوراً ملحوظاً ، وأصبح الوزير بمنزلة السمع والبصر واللسان والقلب بالنسبة لأمير المسلمين، وفي الأمثال: نعم الظهير الوزير.

كان الحكم في دولة المرابطين قائم على أسس عسكرية، فأمير المسلمين هو قائد الجيش الأعلى، ومعاونوه هم قواد الجيش، لهذا كان من الطبيعي أن يتسم منصب الوزير بالطابع العسكري كذلك، ولكن لما كان الأمر يتطلب من الوزير أيضاً، كتابة الوثائق والمراسيم وصياغتها ،**فقد وجد في دولة المرابطين صنفان من الوزراء:**

﴿ ١ ﴾ وزراء عسكريون من قادة الجيش وهم من قرابة السلطان عادة أو من قبائل لمتونة وصنهاجة التي قامت على أكتافهم دولة المرابطين.

﴿ ٢ ﴾ وزراء كتاب وهم من الفقهاء.

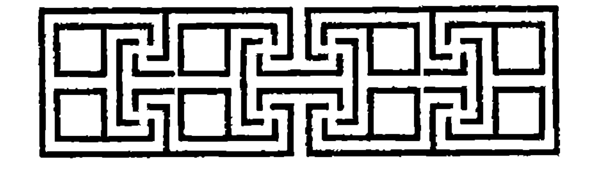
وكان المغاربة يطلقون كلمة فقيه على العالم بالأحكام الشرعية إلا أن أهل المشرق أصبح ذلك المصطلح عندهم يطلق على دارس الفقه عموماً من الطلبة.

وتوسع الأمير علي بن يوسف في اتخاذ الوزراء والمستشارين من الفقهاء وكبار العلماء، وكان من أخص وزرائه الفقيه مالك بن وهيب الإشبيلي الذي شارك في جميع العلوم، ونظم الشعر، وكتب مؤلفات في الفلسفة والتاريخ، وهذا الفقيه

---

(١) **انظر** : تاريخ المغرب والأندلس ، للدكتور حمدي عبد المنعم (ص٢٧٠ ، ٢٧١) .

هو الذي أشار على سلطان المرابطين علي بن يوسف بقتل محمد بن تومرت زعيم دولة الموحدين فيما بعد، حيث تفرس فيه حدة نفسه وذكاء خاطره، واتساع عبارته، فأشار على أمير المسلمين بقتله أو اعتقاله، قبل أن يستفحل خطره، لأنه رجل مفسد ولا يسمع كلامه أحد إلا مال إليه، غير أن علي بن يوسف توقف في قتله واعتقاله، وأبي ذلك عليه دينه، لعدم ثبوت التهمة عليه، وقد صح ما تفرسه مالك بن وهيب، إذ أنه على يد هذا المدعي المهدية الكذاب ابن تومرت قامت دولة الموحدين التي قضت على دولة المرابطين في المغرب والأندلس (١) .



(١) انظر : تاريخ المغرب والأندلس ، للدكتور حمدي عبد المنعم ، (ص ٣٦٨)

المبحث الثاني

النظام القضائي في دولة المرابطين

تمهيد :

للقضاء مكانه عظيمة ومنزلة شريفة، وفاصل بين الناس في خصوماتهم ، وحاسم للتداعي، وقاطع للتنازع، وكان العرب في جاهليتهم يعرفون منزلة القضاء ويختارون له اهله ويطلقون عليهم الحكام، واهتم المسلمون بهذا الأمر ومارسه رسول الله ﷺ في زمانه، وسار الخلفاء من بعده على دربه، وأصبح القضاء بعد رسول الله ﷺ في عداد الوظائف الداخلية تحت الخلافة، وتطور القضاء مع تطور دولة الإسلام فكان الخليفة يتخذ قاضياً في حاضرة الخلافة وقضاة آخرين في الولايات والأمصار.

كان القضاء في الأمصار أول الأمر مضافاً إلى الولاة حتى كانت خلافة عمر بن الخطاب فجعله مستقلاً عن نظر الوالي، عين له من يتفرد بالنظر فيه ومع استقلال القضاء عن نظر الوالي، فإن تقليد القضاء في الولايات كان يتم في الغالب عن طريق الولاة بتفويض الخليفة لهم، أما في العاصمة فكان الخليفة هو الذي يعين القاضي إلى أن جاء الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور الذي انحرف بالقضاء نحو مركزية الدولة، وأخضع المؤسسات القضائية لرقابته المستمرة، وجعل تقليد القضاة على قضاء الأمصار من قبله، وتابعه على ذلك خلفاء بني العباس، إلى أن استحدث منصب قاضي القضاة في فترة تالية، فتولى قاضي القضاة النظر في مؤهلات المرشحين للقضاء ومراقبة الكفاءة المهنية للقضاة في عاصمة الخلافة وخارجها [١] واهتمت كل الدول التابعة للخلافة بتطوير نظامها القضائي

---

(١) تاريخ الحضارة العربية والإسلامية ، د . محمد بطاينة (ص ٧٩) .

وخصوصاً المرابطين الذين حرصوا على إقامة العدل ونشره في ربوع بلادهم، فكان لمنصب القضاة أهمية كبيرة، ولذلك حرص أمراء المرابطين على تعيين القضاة ممن برزوا في العلم والفقه وتميزوا بالمقدرة على تولي هذه المناصب في دولتهم دون الاستناد على العصبية القبلية، حتى أصبح أكثر القضاة من غير قبيلة صنهاجة وهي سياسة حكيمة اتبعها الأمير يوسف رغبة في تحقيق العدالة وتطبيق تعاليم الإسلام.

وقد منحهم رتبة عالية في الدولة حتى كثرت أموالهم، واتسعت مكاسبهم، وكانوا يستمدون نفوذهم من سلطة الدولة نفسها، يحكمون وفق المذهب المالكي، ويقوم بتنفيذ أحكامهم الولاة والحكام المحليين، وقد شارك القضاة في معارك الجهاد في الأندلس، واستشهد بعضهم في معركة الزلاقة منهم القاضي عبد الملك المصمودي قاضي مراكش [١] .

وكانت السلطة القضائية تتمتع باستقلال كبير عن السلطة التنفيذية، وكان تعيين القاضي يصدر بمرسوم عن أمير المسلمين، وكذلك عزله، وكان لأهل البلدان التابعة لدولة المرابطين حق الترشيح لمن يرونه مناسباً لمنصب القضاء في بلدهم.

وإذا أراد أمير المسلمين عزل قاضٍ في بلد معين فعليه أن يوضح الأسباب لأهل ذلك البلد.

[أ] منصب قاضي الجماعة في الأندلس :

يعتبر منصب قاضي الجماعة من أرفع المناصب القضائية في الأندلس، كان صاحبه يشرف على القضاء في جميع أنحاء الأندلس، ومن المرجح أن هذا المنصب الخطير كان لا يتولاه إلا كل من يثبت كفاءة عالية في أمور القضاء،

---

(١) دولة المرابطين (ص ١٦٦) .

وكان قاضي الجماعة في الأندلس يتمتع بسلطات واسعة، ومنهم أبو القاسم أحمد بن محمد بن علي بن محمد بن عبد العزيز التغلبي الذي وجهه الأمير يوسف بن تاشفين إلى اتباع الحق في الأحكام دون أن يخاف في الله لومة لائم، فكتب له: «ولا تُبالِ برغم راغم وتشفق من ملامة لائم، فآس بين الناس في عدلك ومجلسك حتى لا يطمع قوي في حيفك ولا ييأس ضعيف في عدلك، ولا يكن عندك أقوى من الضعيف حتى تأخذ الحق له، ولا أضعف من القوي حتى تأخذ الحق منه...»[1].

ومن أشهر من تولى منصب قضاء الجماعة في الأندلس في عصر علي بن يوسف أبو الوليد محمد بن محمد بن أحمد بن رشيد المالكي وأبو عبد الله محمد بن أحمد بن خلف إبراهيم التجيبي المعروف بابن الحاج[2].

[ب] وقاضي الجماعة في المغرب:

كانت رئاسة القضاء في المغرب في زمن دولة المرابطين تسند إلى قاضي الجماعة بمراكش، الذي كان يُسمى بقاضي قضاة المغرب أو بقاضي الحضرة، وكان على من هذا يتولى هذا المنصب أن يكون من المقربين إلى قلب أمير المسلمين بستفتيه في كل ما يعرض له من شئون ، ومن أشهر من تولى هذا المنصب: أبو محمد عبد الله بن محمد ابن إبراهيم بن قاسم بن منصور اللخمي، وأبو الحسن علي بن عبد الرحمن المعروف بابن أبي حقون، وأبو سعيد خلوف بن خلف الله.

لقد قطع المرابطون في تنظيم القضاء شوطاً أبعد من مجرد تقسيم قضاء الأندلس والمغرب وجعل زعامة القضاء في كل منهما لقاضي القضاة، أحدهما

---

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة (جـ٢ /١٠٦) ابن بسام .
(٢) تاريخ المرابطين (ص ٢٨٧) .

يختص بالأندلس والآخر بالمغرب، بل إن المرابطين اتخذوا فقيهاً له السلطة العليا على قضاء المغرب والأندلس على السواء ومن المرجح أن زعامة القضاء في العدوتين كانت أحياناً من نصيب قاضي مراكش أو قاضي سبتة أو طنجة، وأحياناً أخرى لقاضي الجماعة بقرطبة (١) .

[جـ] مجلس الشورى القضائي:

كان للقاضي في صحبته مجموعة من فقهاء البلد التي تولى قضاءها ليشاورهم قبل أن يصدر الأحكام وكان قاضي المدينة يتولى اختيار هؤلاء الفقهاء من أهل مدينته، ممن يعرفون بالورع والتقوى والتبحر في الفقه والعلوم الدينية، ويحدد ابن عبدون هؤلاء الفقهاء المشاورين بأربعة: اثنين يشتركان في مجلس القاضي، واثنين يقعدان في المسجد الجامع (٢) .

[د] القضاء العسكري:

عرفت دولة المرابطين ما يمكن تسميته بالقضاء العسكري، وكان يمارسه قضاة مختصون بحل مشاكل الجند في مواضع خاصة بالمعسكرات، كما كانوا يشتركون في القتال لحث الجند وتشجيعهم على القتال، وكان هؤلاء القضاة يسمون بقضاة المحلة أو قضاة الجند، وممن ذكرهم التاريخ في من تولوا منصب القضاء العسكري: عبد الرحيم بن إسماعيل الذي عين قاضياً في معسكر أمير المسلمين علي بن يوسف بمدينة سلا (٣) .

[هـ] قضاء الذميين في دولة المرابطين:

أما بالنسبة لأهل الذمة في الأندلس، فقد كان رجال الدين النصارى واليهود يتولون القضاء لهم، دون أن يتدخل فيهم قضاة المسلمين، أجاز الفقهاء تقليد

(١) تاريخ المغرب والأندلس، (ص ٢٨٨) .
(٢) المصدر السابق، (ص ٢٨٩) .
(٣) تاريخ المغرب والأندلس، (ص ٢٩١) .

الذمي القضاء لأهل الذمة، وفي الأندلس خصص المسلمون لأهل الذمة قاضياً يعرف بقاضي النصارى أو قاضي العجم، أما إذا كانت الخصومة بين ذمي ومسلم فإن قضاة المسلمين يتولون الفصل بينهم، وفي هذا الصدد يشير أشياخ إلى أن النصارى كانوا «يتمتعون بحرية الشعائر ويحتفظون ببعض القوانين القوطية ولهم أساقفتهم وقضاتهم» (١) .

[و] شجون وأحزان وآلام وآمال :

إن السعي لإقامة دولة الإسلام في أي بقعة من بقاع العالم يحتاج للطلائع التي تسعى لهذا الهدف العظيم فيحتاج إلى معرفة فقه الأخذ بأسباب التمكين في كافة الأصعدة ومختلف الميادين.

وإذا نظرنا في النظم القضائية التي لا بد منها في أي دولة دينية أو علمانية وسألنا أنفسنا ما حظ الحركات الإسلامية من هذا الفقه؟ وما هي الخطط التي وضعت لإيجاد هذه النظم القضائية الشرعية التي لا بد منها في أسلمة الدولة؟ وما هي الوسائل التي اتخذتها؟ وهل بدأنا في إيجاد الكوادر التي تجمع فقه الشريعة والنظم المعاصرة بحيث تستطيع أن تقدم نموذجاً لقدرة الإسلام على مواكبة التطور والتقدم بمفهومه الصحيح المنبثق من عقيدة الأمة ودينها وشريعتها لكانت الإجابة محزنة.

إن السعي لتحقيق هذه الجزئية من الجزئيات المطلوبة في إقامة الدولة يحتاج من العاملين في هذه الميادين إلى جهد مضنٍ وسهر متواصل، وتصميم أكيد على الوصول للهدف، وسعي دءوب ممزوج بالدموع والعرق والدماء، وهمم لا تعرف الوهن، وعزائم تنخر في هياكل الجاهلية ليدخل من خلال تلك الثقوب نور الإيمان وهدي القرآن لينتشر رويداً زاحفاً على الظلام والضلال والظلم والكفران،

---

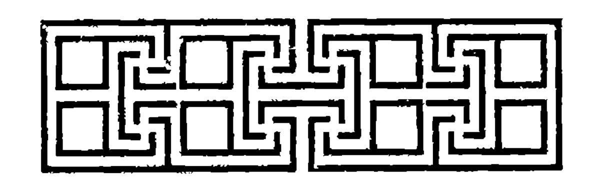
(١) **انظر** : تاريخ الأندلس ، لأشياخ (ص ٨٢) .

وإعادة دولة الإسلام في أثوابها الزاهية، وتيجانها الناصعة، وعدلها المنتظر، وآفاقها الواسعة، ووظائفها المتعددة من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونصرة المستضعفين ومقارعة الظالمين، وفتح أبواب الجهاد وشراء سلعة الجنة بالمهج والأنفس والأرواح ثمناً لها. إن أصحاب تلك الأهداف السامية والنبيلة لا بد لهم من أن يتميزوا في حياتهم عن غيرهم ، فإن الآمال العظيمة لا يصل إليها إلا أصحاب النفوس الكبيرة:

وإذا كانت النفوس كباراً تعبت من مرادها الأجسام

إن تحديات الحركات الإسلامية كثيرة جداً فعليها أن تستعين بخالقها على تحقيق أهدافها وعليها أن تكثر العمل وتقلل من الجدل، وتهتم بالرواحل وتترك المثبطين، وتصعد بأبنائها على كافة المجالات والأصعدة وتهتم بتربيتهم وتزكيتهم وتفجير طاقاتهم وتوجيهها حتى تسد الثغرات المتعددة، وعليها أن تحرص على أقوات أبنائها وتشغلهم بالنافع المفيد للأمة ولهم.

إن تحريك الشعوب الإسلامية نحو التغيير لإقامة شرع الله مقيد بسُنن الله في المجتمعات والدول الأشخاص، وسُنن الله لا تجامل ولا ترحم ولا تتغير ولا تتبدل، فعلينا أن نفقه سُنن الله لنحسن التعامل معها ونأخذ بها في خطواتنا لإقامة دولة الإسلام ونشر شريعة الرحمن.





المبحث الثالث

النظم العسكرية

أولاً: صفات المجاهدين في سبيل الله:

تمهيد :

إن الجهاد في سبيل الله عظيم الكلفة والمشقة على النفس البشرية قال تعالى: ﴿ **كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ** ﴾ .

[البقرة: ٢١٦].

ولذلك لا يستطيع أن يقوم بالجهاد الإسلامي على أصوله الصحيحة إلا من رزقه الله صفات تجعله أهلاً للقيام بهذه العبادة الكريمة.

والأصل العظيم الذي تنبثق منه كل صفات المجاهدين سواء كانوا قادة أو جنوداً، أو صفات الجيش كله هو الإيمان بالله العلي العظيم الذي بقوته تقوى صفات المجاهدين وبضعف تلك الصفات الرفيعة في القادة والأفراد والجيش على حد سواء، ولذا قال ابن تيمية رحمه الله: «وإذا كان أولياء الله هم المؤمنين المتقين فبحسب إيمان العبد وتقواه ولايته لله تعالى، فمن كان أكمل إيماناً وتقوى، وكان أكمل ولاية لله، فالناس متفاضلون في ولاية الله عز وجل بسبب تفاضلهم في الإيمان والتقوى» [١] .

والذي يكون إيمانه أكمل يحقق عبوديته لله أكثر، فيكون وقته كله عبادة وصبراً وعلماً وتذكراً وتقوى وإحساناً وإخلاصاً واعتزازاً بدينه[٢] قال تعالى: ﴿ **أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي**

---

(١) الفتاوى (جـ١١/ ١٧٥) .

(٢) **انظر** : الجهاد في سبيل الله ، د . عبد الله القادري (جـ٢ / ٥)

الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب (٩) قل يا عباد الذين آمنوا اتقوا ربكم للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة وأرض الله واسعة إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب (١٠) قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين (١١) وأمرت لأن أكون أول المسلمين (١٢) ﴾ [الزمر: ٩ - ١٢].

إن زعماء المرابطين في تاريخهم المجيد حرصوا على تربية شعبهم المجاهد على صفات المجاهدين سواء على مستوى الأفراد أو القادة أو الجيش أو الشعب.

[أ] صفات القائد العسكري عند المرابطين :

إذا نظرنا في سيرة قادة المجاهدين في دولة المرابطين نجد أن خيار قادتهم تميزوا بصفات أهلتهم لقيادة الجيوش وتحقيق النصر وإلحاق الهزائم بالأعداء ، ومن أشهر أولئك القادة الذين تميزوا بصفاتهم القيادة أبو بكر بن عمر، ويحيى بن عمر، ويوسف بن تاشفين، وأبو محمد مزدلي، وسير بن أبي بكر، وأبو عبد الله محمد ابن الحاج، وداود بن عائشة، وعبد الله بن فاطمة وغيرهم كثير.

نلاحظ أنهم تميزوا بأمور أهمها :

[١] الإكثار من طاعة الله إعداد النفس لتحمل المشاق:

حيث تربوا على حسن صلتهم بربهم الذي يمدهم بالعون بقدر ما يحققون له العبودية فكان لهم حظ من القرآن والصيام والقيام وحسن الصلة والإنفاق في سبيل الله، وكان لتربية عبد الله بن ياسين لهم في رباطه أكثر كبير لازمهم على طول حياتهم، فكان في مرحلة التكوين يربي أتباعه على الذكر والتوكل على الله والصبر على الأذى في سبيل الله ، وكان يعلمهم أساليب إتعاب النفس في ذات الله حتى تستطيع أن تتحمل المشاق في سبيله، وكان منهجه في ترسيخ هذه المعاني في نفوس أتباعه القرآن الكريم :

﴿ يا أيها المزمل (١) قم الليل إلا قليلا (٢) نصفه أو انقص منه قليلا (٣) أو زد

عليه ورتل القرآن ترتيلا (٤) إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا (٥) إن ناشئة الليل هي أشد وطئا وأقوم قيلا (٦) إن لك في النهار سبحا طويلا (٧) واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا (٨) رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا (٩) واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا (١٠)﴾ [المزمل: ١ - ١٠].

ويقول سيد قطب رحمه الله في ظلاله «في ترسيخ هذه المعاني في نفوس الدعاة»: إن الذي يعيش لنفسه قد يعيش مستريحاً ولكنه يعيش صغيراً ويموت صغيراً، فأما الكبير الذي يحمل العبء فماله والنوم، وماله والراحة، وماله والفراش الدافئ، والعيش الهادئ، والمتاع المريح، ولقد عرف رسول الله ﷺ حقيقة الأمير وقدره، فقال لخديجة رضي الله عنها وهي تدعوه أن يطمئن وينام: «مضى عهد النوم يا خديجة» أجل مضى عهد النوم وما عاد منذ اليوم إلا السهر والتعب والجهاد الطويل الشاق»[1].

لقد كان قادة المرابطين في تربيتهم الرشيدة جادين بعيدين عن الهزل واللهو واللعب وتميز فيهم أبو بكر بن عمر ويوسف بن تاشفين، فكان لهما السبق على أتباعهم في كل مجال من المجالات التي تعتبر من ضرورات القائد الناجح.

[٢] القدوة الحسنة للجنود:

حيث نجد أن قادة المرابطين يقودون المعارك بأنفسهم فقتل عبد الله بن ياسين في ساحات الوغى، ويحيى بن عمر كذلك وأبو بكر بن عمر جهاده في الصحراء الكبرى. كما كان يوسف بن تاشفين يقود الحرس الخاص الذي أعده لانتزاع النصر من الأعداء في الساعات الحرجة، ويندفع بجواده في ميادين الجهاد عندما يشتد وطيس المعركة. وضربوا أمثلة رائعة في إيمانهم وعملهم الصالح وشجاعتهم وكرمهم الفياض وحزمهم وإيثارهم وإقدامهم.

---

(١) انظر: في ظلال القرآن جـ٦/ ٣٧٤٤)

[٣] حرصوا على تزكية وتطهير جنودهم والارتقاء بهم طاعة الله :

إن بُعد الجنود عن التعليم والتربية والتطهير يكون سبباً في قسوة قلوبهم وانغماسهم في الآثام والذنوب ومن ثَم الهزيمة.

قال تعالى: ﴿ **لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (١٦٤)** ﴾.

[آل عمران: ١٦٤].

وقال تعالى: ﴿ **هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٢)** ﴾ [الجمعة: ٢].

يقول سيد قطب ـ رحمه الله ـ :

«ويزكيهم ويطهرهم ويرفعهم وينقيهم يطهر قلوبهم وتصوراتهم ومشاعرهم، ويطهر بيوتهم وأعراضهم وصلاتهم، ويطهر حياتهم ومجتمعهم وأنظمتهم، ويطهرهم من أرجاس الشرك والوثنية والخرافة والأسطورة، وما تبثه في الحياة من مراسم وشعائر وعادات وتقاليد هابطة بالإنسان وبمعنى إنسانيته، ويطهرهم من دنس الحياة الجاهلية وما تلوث به المشاعر والشعائر والتقاليد والقيم والمفاهيم»[١].

[٤] الخبرة بأمور الحرب والقوة فيها:

وظهر ذلك في قادة المرابطين في جهادهم من أجل توحيد المغرب الأقصى كله والقضاء على دولة برغواطة الملحدة، وما خاضوه من حروب ومعارك ظهرت فيها خبرتهم الحربية ومقدرتهم على تنفيذ أساليب الكر والفر، وظهرت خبرة القائد الأعلى يوسف بن تاشفين في معركة الزلاقة التي أكسبت أركان خبرات عميقة ساعدتهم في جهادهم من أجل ضم الأندلس لدولتهم الفتية تحت راية الإسلام

---

(١) في ظلال القرآن (جـ١ / ٥٠٧).

بمنهجه السني القويم، والقضاء على الخطر النصراني في الأندلس.

وفي القرآن الكريم نجد إشارة لطيفة تبين صفات القائد العسكرية وهما: العلم والقوة كما قال تعالى:

﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٤٧) ﴾.

[البقرة: ٢٤٧].

وقد ظهر علمه وخبرته في اختبار جنده ومعرفة الصالح منهم للجهاد وغير الصالح، وبرزت قوته في صموده وصبره ومصابرته ونجاحه في جهاده.

قال سيد قطب - رحمه الله -:

«وفي ثنايا هذه التجربة تكمن عبرة القيادة الصالحة الحازمة المؤمنة، وكلها واضحة في قيادة طالوت، تبرز فيها خبرته بالنفوس وعدم اغتراره بالحماسة الظاهرة وعدم التفاته للتجربة الأولى، ومحاولته اختبار الطاعة والعزيمة في نفوس جنوده قبل المعركة، وفصله للذين ضعفوا وتركهم وراءه ثم - وهذا هو الأهم - عدم تخاذله وقد تضاءل جنوده تجربة بعد تجربة، ولم يثبت معه في النهاية إلا تلك الفئة المختارة، فخاض بها المعركة ثقة منه بقوة الإيمان الخالص ووعد الصادقين المؤمنين» [(١)].

[٥] البعد عن طلب القيادة وابتغاء الرئاسة:

وظهر لي هذا المعني في شخصية الأمير المجاهد الزاهد أبي بكر بن عمر فعندما لمس من ابن عمه مقدرة علي القيادة أسند الأمر إليه، ودخل متوغلاً في الصحراء

---

(١) دولة المرابطين(ص ٧٥).

الكبري من أجل الدعوة والجهاد حتي أكرمه الله بالشهادة، وكان أمراء المرابطين يرون الإمارة قربة وعبادة يتقربون بها إلى الله لنصر دينه وتحقيق مصالح عباده وليست مغنماً من جاه أو منصب أو مال.

[٦] إسناد الأمور إلى أهلها:

وهذه الصفة ظهرت لي في سيرة يوسف بن تاشفين في تعينه للولاة والقادة والفقهاء، وما كان ليمتنع عن عزل من قصر في عمله ويعين من هو أفضل منه.

[٧] تربية الجندي علي التسليم المطلق لله لا لشخص القائد:

وكان أمراء المرابطين يضربون أروع الأمثلة في زرع هذه المعاني في نفوس المجاهدين فهذا أمير المسلمين رفع يديه نحو السماء مناجياً المولى عز وجل: «اللهم إن كنت تعلم أن في جوازنا هذا إصلاحاً للمسلمين فسهل علينا هذا البحر حتى نعبره، وإن كان غير ذلك فصعبه حتى لا نجوزه» (١).

وفي وسط معركة الزلاقة وهو يبث الحماس في نفوس المجاهدين: «يا معشر المسلمين اصبروا لجهاد أعداد الله الكافرين ومن رزق منكم الشهادة فله الجنة، ومن سلم فقد فاز بالأجر العظيم والغنيمة» (٢)وهكذا القائد المسلم هو الذي يربي جنوده بالمواقف على تحقيق العبودية الخالصة لله.

ولهذا لما قتل عبد الله بن ياسين لم يتأثر المرابطون وقتل يحيى بن عمر ومن بعده أبو بكر بن عمر وما زادهم ذلك إلا إيماناً وتسليماً، وهذا يدل على حسن تربيتهم للمجاهدين وتعلقهم وتسليمهم لله لا للأشخاص، أما تربية اليوم في جيوش المسلمين شبيهة بالفرعونية حيث يربي القائد جنوده على طاعته المطلقة في الخير والشر كما يربيهم على الخضوع الكامل لشخصه.

ووصف الشيخ محمد الغزالي ـ رحمه الله ـ هذه التربية فقال: «إن الذي

---

(١)، (٢) دولة المرابطين (ص ٧٥).

يدرس المجتمعات الفاسدة ويتغلغل في بحث عللها، والذي يتتبع أعمال الأدعياء وطلاب الزعامة، ويستقصي وسائلهم الملتوية في تسخير الجماهير للوصول إلى القمة، والذي يلحظ النهضات الكبرى وكيف يدركها الفشل فجأة لأنهم أصيبوا برجال يحبون الظهور، فلا يرحبون بالنصر إلا إذا جاء عن طريقهم وحدهم، أما إذا جاء غيرهم فهو البلاء المبين» (١) .

وقال سعد جمعة: «والفرق بين الإسلام والنظم المعاصرة أن الولاء في الإسلام هو لله وحده، بينما الولاء في النظم الأخرى المنعوتة بالتقدمية، هو للطاغية، أو الدكتاتور أو الحزب الحاكم أو الجيش العقائدي أو الإيدلوجية المتسلطة، ولذا فهو ولاء إكراه وضغط فكري وقهر بوليسي، لا ولاء الخير والمحبة والمودة والتقوى والأخوة» (٢) .

وكم نحن محتاجون إلى منهج الإسلام الصحيح في غرس الربانية والتسليم المطلق لله لا للأشخاص.

[٨] الحرص علي قاعدة الشوري:

كان لأمير المسلمين في دولة المرابطين ونائبه مجلسٌ حربيٌّ يضم قواد الفرق العسكرية المختلفة لدراسة الخطط الحربية، وتلقي الأوامر والتعليمات من القائد الأعلى والتشاور في أمور الجهاد والبلاد والعباد، واتصف قادة المرابطين بحرصهم على إقامة مبدأ الشورى فيما بينهم.

فكان قرار الجهاد ضد النصارى في الأندلس بعد شورى شارك فيها الشيوخ والقادة والعلماء والفقهاء، وكان قرار ضم ممالك الطوائف بعد شورى كذلك واشتهر الأمير يوسف بمشاورة ذوي الرأي من علماء الشريعة الإسلامية وذوي الخبرة فيما يعرض له من أمور.

---

(١) الإسلام والاستبداد السياسي (ص ٣٥) . (٢) الله أو الدمار، (ص ١٨١) .

[٩] الحرص على تحقيق الأهداف والضبط الإداري وقوة التأثير:

ظهرت هذه الصفات في شخصية يوسف بن تاشفين الذي أظهر مهارة إدارية عندما فتح مدينة سجلماسة واستطاع أن يحقق أهداف المرابطين بعد جهاد دام ربع قرن جنى بعدها المرابطون ثمرة أتعابهم وبسطوا سيطرتهم على المغرب الأقصى، ونشر الأمن في ربوعه، واستطاع يوسف بحسن سيرته وعدله أن يؤثر بقوة الحق الذي التزمه على قبائل المصامدة وزناتة وغمارة وغيرها.

[١٠] الشجاعة والكرم:

وظهرت هاتان الصفتان في قادة المرابطين في جهادهم في الأندلس فبعد معركة الزلاقة عفّ الأمير يوسف وجنوده عن الغنائم وتركوها لملوك الطوائف مع كونهم بذلوا من الدماء والنفوس في تلك المعركة ما لا يعلمه إلا الله، فدل فعلهم ذلك على شجاعتهم وكرمهم.

[١١] التصرف الحكيم السريع أمام المفاجآت:

وظهرت لي هذه الصفة عندما تدخل الحماديون من الحدود الشرقية واعتدوا على دولة المرابطين من أطرافها جرد المرابطون لهم جيشاً وردوهم إلى حدودهم وعقدوا معاهدة أمن وسلام، وعندما أخطأ والي تلمسان المرابطي وشن هجوماً على بني حماد بدون إذن من القيادة العليا عزل ذلك القائد وعين مكانه من هو أفضل منه وتراضوا مع بني حماد، وعندما تأكد الأمير يوسف من خيانة ملوك الطوائف أسر بعضهم وقتل بعضهم، وضرب الحصار على ممالكهم حتى أسقطها جميعاً، وساعده على تحقيق تلك الأهداف قادة عظام اتصفوا بصفات عظيمة انعكست على جنود المرابطين.

هذه بعض الصفات التي حرص المرابطون على غرسها في قياداتهم وزعمائهم فكانت خيراً وبركة على تلك الدولة السنية الفتية.

[ب] المنهج التربوي لجيش المرابطين :

اهتم المرابطون بتربية جنودهم تربية جهادية اهتموا بجميع جوانبها الروحية والنفسية والفكرية والجسدية، وقد تميزت تربيتهم الروحية بربط المجاهد بالجنة والاشتياق إليها، فشهدت المعارك التي خاضوها ضد أعدائهم على حبهم للموت كحب خصومهم النصارى للحياة.

وغرس علماء المرابطين في نفوس جنودهم عقيدة الإيمان بالقدر، فأصبح الفارس منهم ينطلق كالسهم في صفوف الأعداء يضرب ذات اليمين وذات الشمال لا يخشى إلا الله تعالى مؤمناً بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تدل على تعميق هذا المفهوم في نفوس المجاهدين.

■ قال تعالى :
﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [الزمر: ٤٢].

■ وقال تعالى :
﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (٥١) ﴾

[التوبة : ٥١].

■ وقال ﷺ : «إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات بكتب رزقه وأجله وعمله، وشقي أو سعيد...» (١).

وكانت وسائل المرابطين في تقوية الجانب الروحي في جنودهم وشعبهم المقاتل تعتمد على إحياء شعيرة الصلاة، والصيام، والزكاة، والحج، وتلاوة القرآن،

(١) رواه البخاري رقم (٣٠٣٦).

والذكر. وأما وسائلهم في التربية النفسية فتعتمد على جهود العلماء والفقهاء الذين يقومون بتزكيتهم وإيضاح حقيقة النفس والكون والحياة وغرض الإنسان وهدفه في هذه الدنيا.

وكانوا يرون أن أهم أسباب تربية النفوس أن تستعد دائماً للجهاد وأن تتربى على خشونة العيش والطعام والشراب وقلة النوم لتنمية فضيلة الصبر في نفوسهم.

[جـ] أبرز الجوانب التربوية في جيش المرابطين:

[١] الأخوة الإسلامية :

كانت من أسباب قوة الجيش المرابطي سريان روح الأخوة بين جميع فصائل الجيش، وامتلأت قلوبهم ونفوسهم بهذا المعنى السامي الذي كان سبباً في تذويب النعرات الإقليمية والعرقية، وجيوشهم تتكون من الزنوج، ومن قبائل صنهاجة المتفرقة ومن العرب ومن مسلمي الإسبان وكل هذه الفصائل المتعددة والمتنوعة كونت أمة واحدة.

قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٠) ﴾ [الحجرات : ١٠] .

قال تعالى: ﴿ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

لقد تحلى جيش المرابطين بهذه الصفة الربانية العظيمة فقوت رابطة المجاهدين وجعلتهم صفاً وحداً كالبنيان المرصوص في مواجهة الأعداء.

[٢] التواصي بالحق والتواصي بالصبر:

فعندما أصيب عبد الله بن ياسين بجراح بالغة وحمل على أثرها إلى معسكره جمع رؤساء وشيوخ المرابطين وحثهم على الثبات في القتال، وحذرهم من

عواقب التفرقة والتحاسد في طلب الرئاسة وما لبث أن فارق الحياة [١] .

وهكذا جند الله المجاهدين لا يتباطئون في مناصحة بعضهم بعضاً ، لعلمهم بأن في هذا التباطؤ هلاكهم جميعاً الذي وصفه لهم الرسول ﷺ في حديث النعمان ابن بشير رضي الله عنهما فقال: «**مثل القائم في حدود الله والواقع فيها ، كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها ، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا الماء مروا على من فوقهم فقالوا : لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا ، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا**» [٢] .

إن مفهوم الجندية الإسلامية يترعرع في بيئات التناصح والتواصي بالحق والتواصي بالصبر.

[٣] إصلاح ذات البين :

حرص المرابطون على نبذ الشقاق والقضاء على الخلاف وعلى رأب الصدع وإصلاح ذات البين، لعلمهم أن فساد ذات البين يقضي على جند الجهاد أكثر مما يقضي عليهم عدوهم الخارجي مهما قويت شوكته وكثر جنده، فاتخذوا أسلوب الحكمة واللين والرفق من أجل تحقيق هذا الهدف المنشود، وإذا خرجت فئة تستمرئ الشقاق أو تعمل على إيجاده جردوا لها الجيوش وأخضوعها بالقوة، وهذا ما قام به الأمير أبو بكر بن عمر عندما تمردت بعض قبائل الصحراء على مبادئ المرابطين واشتبكوا مع بعض القبائل الأخرى في قتال فخرج إليهم بجيشه الكثيف وأصلح ذات البين مستعملاً في ذلك القوة، ومن أجل الضرورة وإصلاح ذات البين أذن النبي ﷺ لمن أراد أن يستعمل الكذب الذي لا يحل حراماً ولا يحرم حلالاً ولا سيما إذا كان من باب التورية والتعريض كما في حديث أم

---

(١) تاريخ المغرب والأندلس (ص ٤٤) .

(٢) البخاري رقم (٢٤٩٣) ، فتح الباري (جـ٥ / ١٣٢)

كلثوم بنت عقبة أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليس الكاذب الذي يصلح بين الناس فينمي خيراً أو يقول خيراً» (١).

وجعل النبي ﷺ إصلاح ذات البين أفضل من الصلاة والصيام والصدقة وحذر النبي ﷺ من فساد ذات البين، قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بأفضل درجة من الصيام والصلاة والصدقة؟»، قالوا بلى يا رسول الله، قال: «إصلاح ذات البين، وفساد ذات البين الحالقة» (٢).

[٤] نصر الحق والثبات عليه:

لما أرسل فقهاء سجلماسة ودرعة إلى الفقيه ابن ياسين، يرغبونه في الوصول إليهم ليخلص بلادهم مما تعانيه من الحكام الطغاة الظلمة زناتة المغراويين وأميرهم مسعود بن وانودين، فجمع ابن ياسين شيوخ قومه وقرأ عليهم رسالة فقهاء سجلماسة فأشاروا عليه بمد يد المعونة لهم، وقالوا له: «أيها الشيخ الفقيه هذا ما يلزمنا فسر بنا على بركة الله تعالى» (٣).

ولما طلب ملوك الطوائف العون من المرابطين لنصرتهم على النصارى لبوا نداء الحق: لقد كان جيش المرابطين حريصاً على نصرة الحق وإحقاقه والقتال عليه.

لقد حرص المرابطون على أن يشملهم قول رسول الله ﷺ: «لا يزال من أمتي أمة قائمة بأمر الله، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم، حتى يأتيهم أمر الله وهم على ذلك» (٤)، وقوله ﷺ: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين، ولا تزال عصابة من المسلمين يقاتلون على الحق ظاهرين على من ناوأهم إلى يوم القيامة» (٥).

---

(١) البخاري رقم (٢٦٩٢)، فتح الباري (جـ٥ / ٢٩٩).
(٢) رواه الترمذي (جـ/٦٣٣).
(٣) رواه الترمذي (ج/٦٦٣).
(٤) تاريخ المغرب والأندلس (ص٤٢).
(٥) البخاري رقم (٣٦٤١)، فتح الباري (جـ٦ / ٦٣٢).

إن صفة نصر الحق والثبات عليه والقتال عليه ليست دعوى تقال أو شعار يرفع على مستوى الجماعات أو الدول أو الطوائف وإنما حقيقة لها دلالتها الواقعية في حياة الناس. وأي جماعة أو دولة تفقد صفة الفقه في الدين ونصر الحق أو إحداهما فليست أهلاً لأن تكون هي الطائفة المنصورة.

وأي خلل يقع في أي جماعة فلا بد أن يكون مصدره فقد إحدى الصفتين أو فقدهما معاً أو ضعف في إحداهما أو فيهما معاً [١].

إن دولة المرابطين في جيلها الريادي حققت صفة الفقه في الدين متمثلاً في فقهائها العظام فاستحقت أن تكون من الطائفة المنصورة التي حالفها نصر الله وتوفيقه وعندما ضعفت تلك الصفات آل أمرها إلى طائفة مغلوبة، بل زالت من الوجود.

[د] عناصر جيوش المرابطين :

[١] الملثمون أو المرابطون :

كانوا هم النواة الأولى التي تكون منها الجيش المرابطي، وقد قامت الدولة على أكتافهم، وقد اشتهر هؤلاء الملثمون بقوة بأسهم في الحرب، وكانوا أثبت من الجبال الرواسي في المعارك، ومهما تفوق عليهم عدوهم في العدد فلا يتقهقرون، ولقد حققوا انتصارات رائعة في معاركهم في المغرب الأقصى أو في معارك الجهاد في الأندلس.

[٢] العرب :

وشكلوا فرقة أصبحت من أهم فرق الجيش المرابطي وشاركوا في معارك الأندلس، وتنتمي بعض العناصر العربية إلى عرب الأندلس الذين استقروا في المغرب في عصر الأدارسة، ويرجع البعض الآخر إلى قبائل بني هلال التي انخرطت في سلك جيش

---

(١) الجهاد في سبيل الله (جـ٢ / ٩٥) .

المرابطين، وشاركوا في معارك الجهاد ومن أشهر تلك المعارك معركة كنسويجرة يقول ابن الكردبوس: «فجر ابن تاشفين عسكراً جراراً من مرابطين وعرب وأندلس الشرق والغرب، وقدم عليهم قائده محمد بن الحاج، فالتقوا بكنثرة فكانت بينهم جولات وحملات إلى أن زلزل الله أقدام المشركين، وولوا مدبرين..» (١).

كما شاركوا في معركة إقليش فيقول ابن القطان: «واستشهد في هذه الموقعة -أي إقليش- الإمام الجزولي، وكان رجل صدق، وجماعة من الأعيان والعربان...» (٢).

[٣] الحرس الخاص :

كانت قوى الحرس الخاص تتألف من أشجع الجند من مختلف الولايات، ويشترط في قبولهم أن يكونوا من ذوي القوام الحسن والشجاعة الفائقة والقوة والبراعة، يقول أشياخ: «جمع يوسف بن تاشفين من تجار الرقيق من أقليم غانا، عدداً كبيراً من العبيد واختار منهم أمهرهم وزودهم بالسلاح والخيل، ودربهم على جميع فنون القتال، وأنشأ حرسه الخاص الأسود من ألفي رجل، وأنشأ على هذا النمط حرساً خاصاً من الأندلسيين يتألف من فتيان من النصارى المعاهدين، وكان يوسف يحبوهم بعطفه وصلاته وينعم على من امتاز منهم بالإخلاص والشجاعة بمختلف الهبات من الخيل والثياب والسلاح والعبيد» (٣).

وبين الدكتور سعدون عباس نصر الله أن النصارى في جيش المرابطين اعتنقوا الإسلام (٤)، وأصبح الحرس الخاص ركناً أساسياً من أركان الجيش المرابطي، ولاسيما أن علي بن يوسف ضم إليه الكثير من أسرى الحروب وشارك هذا الحرس

---

(١) الاكتفاء (ص ١٠٧، ١٠٨).

(٢) نظم الجمان (ص٩-١٠)، انظر: الثغر الأعلى، الأندلس (ص ١٢٩).

(٣) تاريخ الأندلس، لأشباخ (ص ٤٧٩، ٤٨٠).

(٤) دولة المرابطين (ص ١٧٠).

الخاص في حراسة معاقل المغرب، بل حتى في حروب الدولة ضد الموحدين (١) .

[٤] الحشم :

كانت فرق الحشم من أهم فرق الجيش المرابطي وكانت تتكون من زناتة والمصامدة وكانت هذه الفرق تتقدم عادة الجيوش المرابطية في القتال (٢) .

[هـ] فنون القتال :

لما تولى الأمير يوسف مقاليد حكم المرابطين عمد إلى إصلاح نظام تسليح الجيش وطريقة إعداده للقتال ففي البدء كانت أسلحتهم يدوية ويعتمدون على الإبل، وهذه الأسلحة تصلح لحرب الصحراء، أما حرب المدن والحصون فإنها تتطلب وسائل وأسلحة تتلائم مع الوضع الجديد الناشئ عن حرب الحصار، ولهذا ابتكر الأمير يوسف الخطة العسكرية المعروفة بالتقري، وخطة التقري تعتمد على توجيه الجيوش إلى بلاد معينة للقتال مع جيوشها في معارك فاصلة لا لحصار المدن (٣) .

وسلح الجيش بكل أنواع الأسلحة المعروفة من مغربية وأندلسية ونصرانية وكان سلاح كل فرقة من الجيش يتناسب مع تركيبها ووضعها القتالي فمشاة الصف الأول يتسلحون بالقنا الطوال وبدروق اللمط.

وكان للأمير يوسف الفضل في تنظيم جيش المرابطين ومعرفة الرجال ومواهبهم الفذة وقد أعادوا إلى الأذهان تاريخ الفتوحات الأولى للإسلام، لقد كانت حركة المرابطين مقنعة للعالم في زمانها بأن الإسلام قادر في كل زمان ومكان على إنجاب القادة الأفذاذ ، أمثال سير بن أبي بكر، وداود بن عائشة، وابن فاطمة، وابن ميمون ومزدلي وغيرهم، وعلى رأس الجميع القائد الرباني الذي أنقذ الله به

---

(١) ، (٢) تاريخ المغرب في عصر المرابطين (ص ٢٩٨) .

(٣) دولة المرابطين (٤٤) .

الإسلام في الأندلس والمغرب يوسف بن تاشفين.

كان الأمير يوسف أثناء المعارك يرتب جيشه وفق نظام خماسي: المقدمة ويحتلها الجنود المشاة ووحدة الفرسان الخفيفة، والجناحان الميمنة والميسرة، حملة القسي والنبال وأكثرهم من أهل الثغور، والقلب يتمركز فيه الفرسان المرابطون المزودون بالأسلحة الثقيلة والخفيفة، والمؤخرة ويقودها الأمير بنفسه وتتألف من صفوة الجنود والحرس، وكان لكل قسم من هذه الأقسام قائده الخاص، ويجتمع قادة الوحدات قبيل المعركة على شكل مجلس حربي لتلقي الأوامر والتعليمات من القائد الأعلى يوسف (١).

وتطورت فنون القتال عند المرابطين، وأهدى ابن الصيرفي إلى الأمير تاشفين بن علي قصيدة احتوت على فنون الحرب والقتال فقال:

أهديك من أدب السياسة ما به ... كانت ملوك الفرس قبلك تولع

لأنني أدري بها ولكنها ... ذكرى تحض المؤمنين وتنفع

خندق عليك إذا ضربت محلة ... سيان تتبع ظاهراً أو تتبع

حارب من يخشى عقابك بالذي ... يخشى وهو في جود كفك يطمع

قبل التهارش عبئ جيشك مفسحاً ... حيث التمكن والمجال الأوسع

إياك تعبئة الجيوش مضيقاً ... والخيل تفحص بالرجال وتمزع

حصن حواشيها ولكن في قابها ... واجعل أمامك منهم من يشجع

واحذر كمين الروم عند لقائها ... وأمض كمينك خلفها إذا تدفع

لا تبقين خلفك عندما ... تلقي العدو فشره متوقع

واصدمه أول وهلة لا ترتدع ... بدءاً تقدم فالنكوص يضعضع (٢)

---

(١) المرجع السابق، (ص ٧٢).

(٢) تاريخ المغرب والأندلس (ص ٣٠٠).

ونستطيع أن نستخرج بعض فنون الحرب التي أوصى بها الشاعر في قصيدته للأمير تاشفين بن علي:

﴿ ١ ﴾ ضرورة حفر الخنادق حول المدن لحمايتها من أي خطر خارجي.

﴿ ٢ ﴾ ضرورة تعبئة الجيوش وتنظيمها قبل المعركة بوقت كاف لكي تدخل هذه الجيوش إلى المعركة ، وهي على أهبة الاستعداد ، وحتى لا يأخذها العدو على غرة .

﴿ ٣ ﴾ ضرورة وضع أقوى الفرق العسكرية في جناحي الجيش، وفي المقدمة، بينما يقود القائد العام للجيش المعركة من قلب جنده.

﴿ ٤ ﴾ ضرورة نصب الكمائن خلف خطوط العدو.

﴿ ٥ ﴾ عدم القتال وظهورهم إلى الماء، لأن في ذلك هلكة لجيوشهم .

﴿ ٦ ﴾ ضرورة إحداث عنصر المفاجأة في بداية المعركة، عن طريق الصدام مع العدو، مع ضرورة التقدم وعدم التقهقر.

هذه بعض الفنون العسكرية التي طبقت في دولة المرابطين.

وكان المرابطون في بداية أمرهم قليلي الخبرة بفن الحصار لاعتمادهم على قوات الفرسان المستعدة دائماً للهجوم إلا أنهم بعد فترات من جهادهم استطاعوا أن يتقنوا فن الحصار، وتجلى ذلك بوضوح خلال حصارهم لقلعة شنتيرين الحصينة، وتمكنهم من التغلب عليها، كما ظهرت براعتهم في هذا الفن أثناء الحصار الذي فرضته الجيوش الإسلامية على مدينة غرناطة لحمايتها من ألفونسو المحارب خلال غزوته الكبرى للأندلس التي كان يهدف من ورائها تلبية دعوة النصارى المعاهدين في مدينة غرناطة إلى نصرتهم.

وضرب المرابطون الحصار، وكان موفقاً وحقق نتائجه المطلوبة.

وكما أتقن فن ضرب الحصار، فقد تفوقوا أيضاً في فن التخلص من الحصار،

كما حدث في تخلصهم من الحصار الذي ضربه الموحدون على مراكش عام ٥٢٤هـ ودام ما يقرب من أربعين يوماً، ثم تمكنوا وأوقعوا بالوحدين هزيمة منكرة عند البحيرة (١).

واهتم المرابطون بجميع الأسلحة المعروفة في زمانهم من نشاب وسهام ورماح وسيوف ودروع ورعادات ومزاريق ودرق لمطية والأطاس.

[و] الأسطول :

ومع توسع المرابطين في المغرب الأقصى ودخولهم معظم مدنها ولم تبق إلا طنجة وسبتة، شعر الأمير يوسف بأهمية الأسطول البحري لما وصلت دولته إلى شواطئ البحر الأبيض، وبعد القضاء على دولة برغواطة صاحبة الأسطول البحري بدأ يوسف يهتم بتطوير أسطوله، واستفاد من خبرات أهل الأندلس في ذلك، وأصبح أسطول المرابطين يتقدم نحو الهيمنة على البحر المتوسط، وأثمرت جهود يوسف في الاهتمام بالأسطول في زمن ابنه علي.

وأصبح أسطول المرابطين بفضل الله تعالى، ثم قادته الكبار، وعلى رأسهم أبو عبد الله بن ميمون قوة ضاربة، هددت النصارى في جنوب البحر المتوسط، ونفَّس الله به كربات مسلمي الشمال الإفريقي، وحقق أسطول المرابطين انتصارات تجاوزت كل تقدير وحسبان (٢).

[ز] استيلاء المرابطين على جزر البليار :

كانت جزيرة البليار خاضعة لمجاهد العامري صاحب دانية الذي استقل بملكها سنة ٤٠٥هـ، وولى عليها بعض الولاة، ولما قتل مجاهد في سنة ٤٣٦هـ تولى ابنه علي الذي وقع في أسر بني هود عام ٤٦٨هـ ومات في سرقسطة سجيناً عام ٤٧٤هـ، وكانت جزيرة ميورقة تابعة لجزر البليار وكان بها مبشر بن سليمان

---

(١)، (٢) تاريخ المغرب والأندلس (ص ٣١١).

الذي أعلن استقلاله بميورقة، وأما مدينة دانية فضمها المقتدر بن هود إلى سرقسطة، ولما ضم المرابطون ممالك الطوائف تركوا مبشر بن سليمان صاحب البليار حراً تقديراً لجهوده التي بذلها لصد النصارى، وما اشتهر به من غيرة على مصالح المسلمين، وقدرته الفذة في حماية ملكه من غارات النصارى المتتابعة فضلاً عن كونه أقر العدل وأرضى الرعية، وهكذا أصبح مبشر يحكم الجزائر الشرقية في عهد يوسف بن تاشفين وفي السنوات الأولى من حكم علي بن يوسف إلى عام ٥٠٨هـ.

وعندما تحالف النصارى من أمراء فرنسا والبرتغال وإسبانيا وقرروا القضاء على جزر مبشر بن سليمان خرجوا له في خمسمائة سفينة وضربوا على جزيرة ميورقة حصاراً عنيفاً وراسل مبشر أمير المسلمين علي بن يوسف لنجدته ونصرة المسلمين، وتوفي مبشر بن سليمان أثناء الحصار وقام بعده قريبه الربيع بن سليمان بن ليون وسقطت ميورقة عام ٥٠٨هـ وقتل النصارى من المسلمين وسبوا نساء المسلمين وعاثوا في الأرض فساداً ونهباً وتخريباً.

وعندما اقترب أسطول المرابطين بقيادة القائد البحري ابن «تافرطاست» وجد النصارى قد رحلوا وتركوها كأن لم تكن بالأمس وفي الحال شرع ابن تافرطاست في تعمير الجزيرة وأعاد إليها الفارين من سكانها، وكان قد لجأ منهم إلى الجبال جموع غفيرة، وبذلك أصبحت تلك الجزر تابعة لدولة المرابطين الفتية.

وكان لإسطول المرابطين الفضل بعد الله في التصدي لأطماع النورمانديين في مدن الشمال الإفريقي. وكان لإسطول المرابطين جهاد مشكور في سواحل أوربا الجنوبية مما عزز من هيبة المسلمين في نفوس النصارى الحاقدين فأغار على سواحل جليقية وقطونية وإيطاليا والإمبراطورية البيزنطية [١].

---

(١) تاريخ المغرب والأندلس، (ص ٣١١).

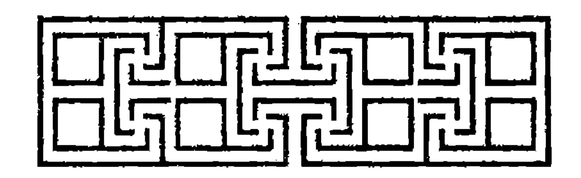
ومن أشهر قادة الأسطول المرابطي أبو عبد الله بن ميمون وتوارث أبناؤه من بعده قيادة أساطيل المرابطين ولعبت أسرة بني ميمون دوراً رياديا في حماية ثغور المسلمين والذود عن حوزتهم وأعراضهم وأموالهم وعقيدتهم.

[حـ] موانئ أسطول المرابطين :

كانت المرية من أكبر موانئ الأسطول المرابطي في الأندلس، وكان بهم قسم كبير من أسطول المرابطين بقيادة أمير البحر أبي عبد الله محمد بن ميمون، وكان بالمرية دار صناعة للسفن، ثم تأتي بعد المرية مدينة دانية التي تعتبر مقر قيادة الأسطول المرابطي في الأندلس.

وكانت موانئ أسطول المرابطين تنتشر على شواطئ سواحل المغرب والأندلس، ومن أشهرها طنجة، وبجاية وإشبيلية والجزيرة الخضراء، وجزر البليار [١] .

إن الشمال الإفريقي لا عزة لشعوبه ولا كرامة إلا بالتمسك بالمنهج الرباني وتربية شعوبه على الانقياد لمنهجه الرشيد، ويحتاج ذلك لعلماء ربانيين وقادة سياسيين يعرفون قيمة دينهم، ويؤمنون بمنهج ربهم، ويستعدون لجهاد عدوهم ويهتمون بإحياء روح الجهاد، ويغرسون معاني الشهادة في شعوبهم حتى تتدفق دماء الإسلام من جديد في شرايينهم، ليعملوا على إرجاع الأندلس المفقود ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريباً.



---

(١) المصدر السابق (ص ١١٢)

المبحث الرابع

النظام المالي في عصر المرابطين

حرص المرابطون في دولتهم على إسقاط الضرائب غير المشروعة عن كاهل شعوبهم التي فرضها الزناتيون في المغرب وملوك الطوائف في الأندلس، وكذلك المكوس والرسوم والضرائب في جبل طارق، ولم يفرض المرابطون في دولتهم رسم مكس أو معونة خراج لا في حاضرة ولا في بادية، واتبعوا نظاماً مالياً يقوم على قواعد الإسلام، وكان هذا النظام ظاهر المعالم في زمن الأمير يوسف بن تاشفين الذي التزم بالكتاب والسُّنَّة في جمع الأموال وتوزيعها، فاعتمد على الزكاة والعشر والجزية وأخماس الغنائم، وجب بذلك من الأموال على الوجه الشرعي ما لم يجبه أحد، وترك في خزائنه مبلغ ثلاثة عشر ألف ربع من الورق وخمساً وأربعين ألفاً من دنانير الذهب [١] ، وأما في عصر علي بن يوسف فاختلف الأمر وفرض الضرائب على بعض السلع، وفرض ضريبة جديدة على مدن الأندلس الهامة، وكان يخصص داخلها لإقامة أسوار جديدة وترميم الأسوار القديمة، وكان سبب فرض هذه الضريبة دخول ألفونسو المحارب للأندلس غازياً عام ٥١٩هـ فاضطر لتحصين المدن وترميم الأسوار وتقوية الجيوش ففرض ضرائب تساعده في تسديد هذه النفقات التي لا غنى عنها.

أولاً: العملة:

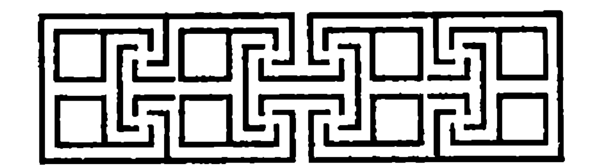
كانت العملة الرئيسية لدولة المرابطين هي الدينار الذهبي الذي كان عماد الاقتصاد في الدولة، وظلت هذه العملة المرابطية الذهبية مستخدمة لعدة قرون حتى بعد سقوط الدولة المرابطية. كما استخدم المرابطون العملة الفضية المعروفة

---

(١) دولة المرابطين (ص ١٧٩).

بالدرهم الفضي، لتسهيل المعاملات التجارية.

وانتشرت دور سك العملة في مختلف أجزاء الدولة سواء في المغرب أو في الأندلس ، مثل أغمات ، تلمسان، سجلماسة، فاس ، مراكش، سبتة، مكناسة ، طنجة ، شاطبة إشبيلية ، دانية وغرناطة ، قرطبة ، مالقة ، مرسية ، سرقطة ، وغيره [١] .



(١) تاريخ المغرب والأندلس(ص ٣٢٠) .

الفصل الخامس

أهم أعمال دولة المرابطين الحضارية

المبحث الأول

الآثار المعمارية في المغرب والأندلس

إن دولة المرابطين تركت آثاراً معمارية بارزة ظلت باقية على مر الدهور وكر العصور لترشيد الأجيال المتعاقبة على سمو حضارة المرابطين المعمارية ومن أعظم هذه الآثار على الإطلاق:

[١] جامع القرويين:

من أهم المساجد الجامعة في بلاد المغرب وأكثرها شهرة لكونه جامعة إسلامية عريقة ضاربة بجذورها في أعماق التاريخ، وكانت هذه الجامعة تقارع الأزهر الشريف في العلم وتخريج الدعاة والعلماء والفقهاء.

ولقد مر جامع القرويين بثلاثة أدوار:

الأول : عند تأسيسه سنة (٢٥٤هـ/٨٥٩م)

والثاني : عند الزيادة فيه سنة (٣٤٥هـ /٩٥٦م)

والثالث: عندما زيدت مساحته في عصر علي بن يوسف سنة ٥٣٠هـ/ ١١٣٥م

وتولى مشروع زيادة مسجد القرويين وتوسيعه القاضي أبو عبد الله محمد بن داود بسبب ضيق المسجد بالناس واضطرارهم للصلاة في الشوارع والأسواق في يوم الجمعة، وحرص على أن يكون المال من أوقاف مساجد المسلمين، وأشرف القاضي أبو عبد الله بنفسه على هذا المشروع الحضاري العظيم وكان تمام التوسعة عام (٥٢٨هـ) .

ولقد تخرجت من جامع القرويين على مر العصور وكر الدهور أفواج عديدة

من فقهاء الأمة وعلماء الملة ودعاة الشريعة والمجاهدين الأبرار والقادة العظام، وكان لمسجد القرويين عند المرابطين مكانة عظيمة في نفوسهم.

وتذكر كتب التاريخ أن منبر جامع القرويين من أجمل منابر الإسلام، وتدل على روعة المغاربة في اختياراتهم الذوقية الرفيعة [1].

[٢] **المسجد بتلمسان:**

وكان مقراً لنشر علوم الإسلام وتربية المسلمين على معاني القرآن، وتم بناء هذا المسجد عام ٥٣٠هـفي إمارة علي بن يوسف، وكانت هندسته المعمارية في غاية الجمال ودقة الإتقان، ورأى بعض المؤرخين أن البنية المعمارية لمسجد تلمسان فيها لمسات أندلسية وفنون معمارية قرطبية، بل بعضهم يرى أن عرفاء مسجد تلمسان قلدوا جامع قرطبة تقليداً مباشراً في لوحتي الرخام اللتين تكسوان إزار واجهة المحراب بتلمسان، وكذلك سقف المسجد الخشبي شبيه بسطح مسجد قرطبة، وكذلك البلاط شبيهاً به أيضاً.

والذي يظهر أن دولة المرابطين انصهرت في بوتقتها حضارة المغاربة والأندلسيين والأفارقة فتجد تلك المعالم الحضارية المختلفة في كافة بقاع دولة المرابطين، ولا ينكر تأثير المعالم الحضارية المعمارية الأندلسية في كافة مدن الدولة.

[٣] **الآثار الحربية:**

اهتم المرابطون بالحصون والقلاع ولذلك انتشرت في المدن والثغور.

وزاد اهتمامهم بالتحصينات العسكرية في زمن علي بن يوسف الذي أكثر من الأسوار والقلاع والحصون للدفاع عن دولته في المغرب من الحركات السياسية والثورات العدائية المناهضة لدولة المرابطين، وواصل الأمير علي اهتمامه بهذا الأمر

---

(١) تاريخ المغرب والأندلس، (ص ٣٦٦).

كذلك في الأندلس.

ومن أروع آثار المرابطين الحضارية الحربية أسوار مراكش حيث بدأ الأمير علي بن يوسف في بناء سور المدينة ٥٢٠هـ وكمل بناء السورعام ٥٢٢هـ [١].

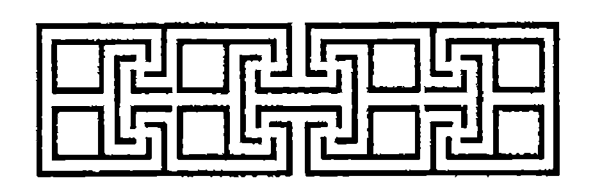
وانتشرت فكرة بناء الأسوار في الأندلس، وفرضت الدولة على رعاياها ضريبة تنفق على هذا الهدف الاستراتيجي الجهادي الدفاعي.

ومن أشهر الأسوار التي بنيت أو أعيد ترميمها في الأندلس، أسوار المرية وأسوار قرطبة التي امتازت بأبراجها المستطيلة الضخمة المتقاربة، وأسوار إشبيلية من جهة نهر الوادي الكبير، وبنى المرابطون في المناطق الوعرة حصوناً بالحجر، وشحنوها بالجنود والأقوات لكي تصمد للحصار مدة طويلة.

وكان عدد جنود الحصون والقلاع ما يعادل ٢٠٠ فارس و٥٠٠ راكب في كل حصن.

ومن أشهر قلاع المرابطين في الأندلس قلعة منقوط التي تقع على بساتين مرسية، ومن أشهر قلاع المرابطين في المغرب تاسغيموت التي تقع على بعد ثلاثة كيلو مترات جنوب شرق مراكش وعلى بعد نحو عشرة كيلو مترات شرق أغمات على سطح هضبة أطرافها ذات أجراف وعرة شديدة الانحراف يصعب على الغازين ارتقاؤها، وأسوارها تمتد على حافة الهضبة نفسها.

إن قلاع المرابطين وحصونهم تدل على أن فن العمارة في زمانهم تأثر بالغ التأثر بفن العمارة الأندلسي [٢].



(١) تاريخ المغرب والأندلس (ص ٣٧٢)

(٢) **انظر**: تاريخ المغرب (ص ٣٧٧)

المبحث الثاني

الحياة الأدبية والعلمية في دولة المرابطين

[١] الحركة الأدبية :

ازدهرت الحركة الأدبية في دولة المرابطين في عهد الأمير علي بن يوسف الذي اهتم بالشعر والأدب، وشجع الشعراء والأدباء فتوافدوا على بلاطه من أهل الأندلس، ومن الذين مدحوا الأمير علي بن يوسف الشاعر الكبير أبو العباس أحمد ابن عبد الله القيسي المعروف بالأعمى التطيلي حيث قال :

يا علي العلاء في كل يوم ... وما أنت للملك بالسائس
يا ربيع البلاد يا غيمة العالم ... من بين مؤتل وموال
يا قريع الأيام عن كل مجد ... يا سليل الأذواء والأقيال
لك من تاشفين أو من أبي ... يعقوب ذكر مكارم وفعال (١)

وكان الشعراء يقصدون ولي عهد الدولة في زمن الأمير علي بن يوسف لمدح ابنه تاشفين، ومن أشهرهم الشاعر أبو بكر يحيى بن محمد بن يوسف، كما حظي الشعراء في عصر علي بن يوسف بمكانة عظيمة لدى الأسرة الحاكمة وكبار القادة وعمال الدولة على الأقاليم المختلفة :

وكان الأمير عبد الله بن مزدلي موضع اهتمام الشعراء منهم ابن عطية الذي قال فيه :

ضاءت بنور إيابك الأيام ... واعتز تحت لوائك الإسلام (٢)

---

(١) الأعمى التطيلي، الديوان (ص ١٠٤).

(٢) قلائد العقيان، لابن خاقان (ص ٢١٠).

ومن قبل مدح الشعراء والده الذي قال فيه أبو عامر بن أرقم:

أنت الأمير الذي للمجد همته ... وللمسالك يحميها وللدول
لمزدلي لواء كان يرفعه ... مناسب كالضحا والشمس في الحمل
يا أيها الملك المرهب صولته ... وارتجى غوثه في الحادث الجلل[1]

ووصل المديح إلى الفقهاء والعلماء لمكانتهم العالية في دولة المرابطين فهذا الأعمى التطيلي يمدح القاضي الفقيه ابن أحمد قاضي الجماعة بقوله:

إليك ابن حمدين وإن بعد المدى ... وأن غربت بي عنك إحدى المغارب
صبابة ودلم يكدر جمامة ... مرور الليالي وازدحام الشوائب
وذكر عساها أن تكون مهزة ... ترى على أعقابه كل شاغب
بأيه ما كان الهوى متقارباً ... وخطوى فيه ليس بالمتقارب[2]

ولا ننسى أن أعداء المرابطين من الشعراء قاموا بالتندر بالمرابطين، وبفقهاء دولتهم، وممن اشتهر بالهجاء والتندر في هذا العصر الشاعر أبو بكر يحيى بن سهل اليكي، الذي هجا المرابطين من ذلك قوله:

في كل من ربط اللثام دناءة ... ولو أنه يعلو على كيوان
ما الفخر عندهم سوى أن ينقلوا ... من بطن زانية لظهر حصان
المنتمون لحمير لكنهم ... وضعوا القرون مواضع التيجان
لا تطلبن مرابطاً ذا عفة ... واطلب شعاع النار في الغدران[3]

وازدهر في عصر المرابطين لون آخر من ألوان الشعر أعني الطبيعة، فقد شهد هذا العصر ظهور عدد كبير من الشعراء الذين نبغوا في هذا الفن الشعري، نذكر

---

(١) المصدر السابق (ص ١٣٣).
(٢) الأعمى التطيلي، الديوان (ص ٤، ٥).
(٣) تاريخ المغرب (ص ٤٨٦).

منهم ابن سارة الشنتريني، وابن الزقاق، وابن خفاجة البلنسي، وعبد الحق بن عطية ، من ذلك قول الشنتريني الشاعر يصف البركة :

لله مسجورة في شكل ناظرة ... من الأزهر أهداب لها وطف
فيها سلاحف ألهاني تقصمها ... في مائها ولها من عرمض لحف
تنافر الشط إلا حين يحضرها ... برد الشتاء فتستدلي وتنصرف
كأنها حين يبديها تصرفها ... جيش النصارى على أكتافها الجحف (١)

وهذا أبو الحسن علي بن عطية بن الزقاق يصف فرساً أغر :

وأغر مصقول الأديم تخاله ... برقاً إذا جمع العتاق رهان
يطأ الثرى متبختراً فكأنه ... من لحظ من في متنه نشوان
فكأن بدر التم فوق سراته ... حسناً وبين جفونه كيوان (٢)

وهذا أبو جعفر بن سلام المعافري يصف في شعره الثلج :

ولم أر مثل الثلج في حسن منظر ... تقر به عين وتشنعه نفس
فنار بلا نور يضيء له سنا ... وقطر بلا ماء يقلبه اللمس
ترى الأرض منه في مثال زجاجة ... كأن كئوس الماء يجمعه كأس (٣)

وهذا شاعر آخر يصف لنا قوساً :

يا رب مائسة الأعطاف مخطفه ... إذا دنا نزعها فالعيش منتزح
ظلت ترن فظل النزع يعطفها ... كما ترنم نشوان به قزح
وقد تألف نصل السهم مندفعاً ... عنها قفل كوكب يرمي به قزح (٤)

---

(١) قلائد العقبان (ص ٢٧١) .
(٢) المطرب من أشعار أهل المغرب ، لابن دحية (ص ١٠٦)
(٣) تاريخ المغرب (ص ٣٨٨) .
(٤) المصدر السابق نفسه .

وهذا ابن خفاجة يصف الربيع وهو ممن عاصر الأمير علي بن يوسف :

أذن الغمام بديمة وعقار فأمزج لجينا منهما بنضار
وأربع على حكم الربيع بأجرع هزج الندامى مصفح الأطيار
وكمامة حدر الصباح قناعها عن صفحة تندى من الأزهار
في أبطح رضعت ثغور أقاحه أخلاف كل غمامة مدرار
نثرت بحجر الروض فيه يد الصبا دور الندى ودارهم النوار
وقد ارتدى غصن النقى وتقلدت حلى الحباب سوالف الأنهار
فحللت حيث الماء صفحة ضاحك جذل وحيث الشطر بدء عذار
والروح تنفض بكرة لمم الربا والطل ينضج أوجه الأشجار [1]

لقد ازدهر الشعر والأدب في عصر الأمير علي بن يوسف ازدهاراً عظيماً شهدت بذلك قصائد شعراء المرابطين التي سجلت في ذاكرة التاريخ الخالدة.

وما قيل عن انحطاط الشعر والأدب في عصر المرابطين أكذوبة استشراقية بان زيفها أمام حقائق التاريخ التي لا تجامل ولا تعرف التحايل.

ولا ننسى شيوع فن الموشحات والأزجال في عصر المرابطين، يقول ابن خلدون عن نشأة فن الموشحات: «وأما أهل الأندلس، فلما كثر الشعر في قطرهم وتهذبت مناحيه وفنونه وبلغ التنميق فيه الغاية، استحدث المتأخرون منهم فناً يسمونه بالموشح ينظمونه أسماطاً وأغصاناً يكثرون منها ومن أعاريضها المختلفة ويسمون المتعدد منها بيتاً واحداً ويلتزمون عند قوافي تلك الأغصان وأوزانها متتالية فيما بعد إلى آخر القطعة، وأكثر ما تنتهي عندهم إلى سبعة أبيات، ويشمل كل بيت على أغصان عددها بحسب الأغراض والمذاهب وينسبون فيها

---

(١) ابن خفاقة ، الديوان (ص ٢٩٠ - ٢٩١)

ويمدحون كما يفعل في القصائد وتجاوزا في ذلك إلى الغاية واستطرفه الناس جملة الخاصة والكافة لسهولة تناوله وقرب طريقة» [١] .

ومن أشهر وشاحي عصر المرابطين الأعمى التطيلي، ومن موشحاته:

دمع مسفوح وضلوع حرار ماء ونار   ما اجتمعا إلا لأمر كبار

بئس لعمري ما أراد العذول   عمر قصير وعناء طويل

يا زفرات نطقت عن غليل   ويا دموع قد أعانت مسيل [٢]

وأما نشأة الزجل فقال ابن خلدون عنه: «أنه لما شاع فن التوشيح في أهل الأندلس وأخذ به الجمهور لسلاسته وتنميق كلامه وترصيع أجزائه، نسجت العامة من أهل الأمصار على منواله، ونظموا في طريقته بلغتهم الحضرية من غير أن يلتزموا فيها إعراباً، واستحدثوا فناً سموه بالزجل، والتزموا النظم فيه على مناحيهم إلى هذا العهد، فجاءوا فيه بالغرائب واتسع فيه للبلاغة مجال بحسب لغتهم المستعجمة» [٣] .

ويعتبر أبو بكر بن قزمان القرطبي أول من ابتكر الزجل.

ومن أشهر أزجاله ما كان في مدح القاضي أحمد بن الحاج قوله:

وصل المظلوم لحق وانتصف غني ومسكين يحضر الإنكار والإقرار ويقع الفصل فالحين اجتمع فيه الثلاثة الورع والعلم والدين فيزول الحق إذا زال ويدوم الحق إذا دام [٤] .

هذه نبذة مختصرة عن بعض فنون الأدب التي ازدهرت وترعرعت في ظل دولة المرابطين.

---

(١) ابن خلدون، المقدمة (ص ٤٣٦).

(٢) ابن خلدون، المقدمة (ص ٤٤١).

(٣) الزجل في الأندلس، لعبد العزيز الأهواني، (ص ٢٠١).

(٤) المصدر السابق نفسه.

المبحث الثالث

من مشاهير علماء دولة المرابطين

كانت دولة المرابطين مبنية على أسس شرعية ولذلك اهتمت بالعلماء والفقهاء الذين لا دوام لدولة أن تحكم بشرع الله بدونهم ، ولذلك كثر المحدثون والفقهاء ، نذكر منهم :

أولاً : أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشيد الجد : (ت ٥٢٠هـ).

هو الإمام العلامة شيخ المالكية، قاضي الجماعة بقرطبة أبو الوليد .

[أ] شيوخه :

من أشهر شيوخه الذين تتلمذ عليهم أبو جعفر أحمد بن رزق، وأبو مروان بن سراج، ومحمد بن خيرة، ومحمد بن فرج الطلاعي، والحافظ أبو علي وأبو العباس ابن دلهات .

قال ابن بشكوال فيه: « كان فقيهاً عالماً، حافظاً للفقه مقدماً فيه على جميع أهل عصره، عارفاً بالفتوى ، بصيراً بأقوال أئمة المالكية ، نافذاً في علم الفرائض والأصول، من أهل الرياسة في العلم، والبراعة والفهم، مع الدين والفضل، والوقار والحلم، والسمت الحسن، والهدي الصالح، ومن تصانيفه كتاب « المقدمات » لأوائل كتب المدونة، وكتاب « البيان والتحصيل لما في المستخرجة من التوجيه والتعليل »، واختصار « المبسوطة »، واختصار « مشكل الآثار » للطحاوي، سمعنا عليه بعضها، وسار في القضاء بأحسن سيرة وأقوم طريقة، ثم استعفى منه، فأعفي، ونشر كتبه، وكان الناس يُعولون عليه ويلجأون إليه، وكان حسن الخلق، سهل اللقاء، كثير النفع لخاصته جميل العشرة لهم، باراً بهم » [١] .

---

(١) سير أعلام النبلاء جـ١٩ / ٥٠٢ .

[ب] أشهر فتاوى ابن رشيد :

ومن أشهر فتاوى ابن رشيد الجد ، ما أفتاه في شأن المعاهدين من النصارى في بلاد الأندلس بإبعادهم وتغريبهم لغدرهم بالمسلمين ومساعدتهم لألفونسو المحارب [١] ، عاش هذا العالم الجليل سبعين عام ومات في ذي القعدة سنة عشرين وخمسمائة، وصلى عليه ابنه أبو القاسم، وروى عنه أبو الوليد بن الدباغ فقال: « كان أفقه أهل الأندلس، وصنف شرح العبية، فبلغ فيه الغاية » [٢] .

ثانياً: الشهيد القاضي الفقيه أبو علي الصدفي:

هو العالم الفقيه القاضي المحدث الحسين بن محمد بن سكُرة .

[أ] شيوخه :

روى عن أبي الوليد الباجي، ومحمد بن سعدون القروي، وحج سنة إحدى وثمانين ، ودخل مصر على أبي إسحاق الحبّال، وقد منعه المستنصر العبيدي الرافضي من التحديث.

قال: فأول ما فاتحته الكلام أجابني على غير سؤالي، حذراً أن أكون مدسوساً عليه، حتى بسطته وأعلمته أنني من أهل الأندلس أريد الحج، فأجاز لي لفظاً، وامتنع من غير ذلك.

رحل للعراق، فسمع بالبصرة من جعفر بن محمد بن الفضل العباداني، وعبد الملك بن شغبة، وبالأنبار: الخطيب أبا الحسن علي بن محمد بن محمد الأقطع، وببغداد: علي بن الحسن بن قُريش بن الحسن صاحب ابن الصلت الأهوازي، وعام بن الحسن الأديب، وأبا عبد الله الحميدي.

وتفقه ببغداد على: أبي بكر الشاشي، وأخذ بالشام عن الفقيه نصر المقدسي،

---

(١) تاريخ المغرب (ص ٢٣١)
(٢) سير أعلام النبلاء (جـ١٩ / ٥٠٢)

ورجع إلى بلاده في سنة تسعين بعلم كثير، وأسانيد شاهقة، واستوطن مُرسية، وجلس للإسماع بجامعها.

ورحل الناس إليه، وكان عالماً بالحديث وطرقه عارفاً بعلله ورجاله، بصيراً بالجرح والتعديل، مليح الخط، جيد الضبط، كثير الكتابة، حافظاً لمصنفات الحديث، ذاكراً لمتونها وأسانيدها، وكان قائماً على« الصحيحين » من « جامع » أبي عيسى الترمذي، ولي قضاء مُرْسِيّة، ثم استعفي عنه فأعفي، وأقبل على نشر العلم وتأليفه، وكان صالحاً ديناً، عاملاً بعلمه، حليماً متواضعاً، وخرج القاضي عياض شيوخه وذكر أنه أخذ عن مائة وستين شيخاً، وأنه جالس نحو أربعين شيخاً من الصالحين والفضلاء وأنه أكره على القضاء فوليه، ثم اختفى حتى أعفي منه.

وتصدر في زمن علي بن يوسف في نشر الكتاب والسُّنَّة في مرسية بالأندلس وتوافد عليه الطلاب من كل حدب وصوب لينهلوا من علمه الجم الغزير ونفع الله به المسلمين في تملك الأقطار.

[ب] وفاته :

استشهد أبو علي الصدفي في وقعة قُتُنْدَة بثغر الأندلس، لست بقين من ربيع الأول، وهو من أبناء الستين، وكانت هذه الوقعة على المسلمين وكان عيش أبي علي من كسب بضاعة مع ثقات إخوانه [١] .

انظر رحمك الله إلى هذا الطود الشامخ، والجبل الراسخ، والبحر الزاخر في حب لطلب العلم ونشره، والدعوة إلى دينه والدفاع عنه، وحبه للجهاد والرباط، وحرصه على أكل الحلال، والتحري في لقمة العيش، والاستعلاء على الدنيا وزخرفها الكاذب ، ويا ترى كم نفس أحياها خبر استشهاد هذا العالم الفقيه

---

(١) سير أعلام النبلاء(جـ١٩/ ٣٧٨) .

الزاهد وكان ـ رحمه الله ـ يتذوق الشعر الذي فيه الذود عن سُنَّة سيد المرسلين ويكتبه لتلاميذه منه ما قاله أبو عبد الله محمد بن علي الصوري لنفسه:

قل لمن أنكر الحديث وأضحى ... عائباً أهله ومن يدعيه

أبعلم تقول هذا؟ أين لي ... أم بجهل فالجهلُ خُلُقُ السفيه

أيُعاب الذين هم حفظوا الدّين ... من الترهات والتمويه؟

وإلى قولهم وما قد رَوَوْه ... راجعُ كلّ عالم وفقيه [١]

ثالثاً: القاضي الفقيه أبو بكر بن العربي:

من أعظم فقهاء الأندلس في عصر المرابطين، هو القاضي أبو بكر، محمد بن عبد الله بن محمد المعافري الأندلسي، الإشبيلي، الإمام العلامة، المتبحر في العلوم.

ولد عام (٤٦٨هـ /١٠٧٦م) وتأدب ببلده، وقرأ القراءات، ثم رحل إلى مصر، والشام وبغداد ومكة كان يأخذ عن علماء كل بلد يرحل إليه حتى أتقن الفقه، والأصول وقيد الحديث، واتسع في الرواية، وأتقن مسائل الخلاف، وتبحر في التفسير، وبرع في الأدب والشعر، وعاد إلى بلده إشبيلية بعلم كثير، لم يأت به أحد قبله ممن كانت له رحلة إلى المشرق [٢].

[أ] **مكانته العلمية:**

قال الشيخ صديق حسن خان عن ابن العربي: «إمام في الأصول والفروع، سمع ودرس الفقه والأصول وجلس للوعظ والتفسير، وصنف في غير فن، والتزم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى أوذي في ذلك بذهاب كتبه وماله فأحسن الصبر على ذلك كله» [٣].

---

(١) تاريخ الإسلام للذهبي، وفيات عام (٥١١ - ٥٢٠) (ص ٣٦٩)

(٢)، (٣) انظر: أحكام القرآن في المقدمة.

قال عنه القاضي عياض، وهو ممن أخذوا عنه: «استقصى ببلده فنفع الله به أهلها لصرامته، وشدة نفوذ أحكامه، وكانت له في الظالمين سيرة مرهوبة، وتؤثر عنه في قضائه أحكام غريبة ، ثم صرف عن القضاء، وأقبل على نشر العلم وبثه» (١) .

قال عنه الشيخ أحمد بن محمد المقري: «علم الأعلام، الطاهر الأثواب، الباهر الأبواب، الذي أنسى ذكاء إياس، وترك التقليد للقياس، وأنتج الفرع من الأصل، وغدا في الإسلام أمضى من النصل» (٢) .

[ب] مؤلفاته :

قضى أربعين سنة في الإملاء والتدريس، وفي بث ما حصله من العلوم، وصنف رحمه الله في فنون متعددة منها: علوم القرآن، والحديث، و«مشكل القرآن والحديث»، وأصول الدين، وكتب الزهد، وأصول الفقه، وكتب الفقه، والجدل والخلاف، واللغة والنحو والتاريخ، ومن أشهر المؤلفات التي انتفع بها المسلمون «العواصم من القواصم»، «عارضة الأحوذي في شرح الترمذي»، «أحكام القرآن»، «القبس في شرح موطأ ابن أنس»، «المسالك على موطأ مالك»، «الإنصاف في مسائل الخلاف»، «أعيان الأعيان»، «المحصول في أصول الفقه»، «قانون التأويل» (٣) .

كان الإمام ابن العربي يصول ويجول بفقهه في بلاد الأندلس ينور طرق الظلام بعلمه، ويقضي على الشبهات بحججه، ويدمغ البدع المنتشرة بصبره وحلمه ودعوته، وكان من أعمدة دولة المرابطين في نشر الكتاب والسُّنَّة وتفقيه الناس وتربيتهم على مبادئ الإسلام وأخلاق الإيمان ودرجات الإحسان.

---

(١) انظر : أحكام القرآن في المقدمة .
(٢) انظر : العواصم من القواصم (ص ١٣) .
(٣) انظر : ترجمته في كتاب العواصم من القواصم .

وله فوائد علمية سجلها في كتبه وانتفع بها طلاب العلم من بعده منها :

﴿١﴾ **قوله**: قال علماء الحديث - ما من رجل يطلب الحديث إلا كان على وجهه نضرة، لقوله ﷺ: «نضر الله امرأ سمع مقالتي فوعاها فأداها كما سمعها...».

قال: وهذا دعاء منه ﷺ لحملة علمه، لا بد بفضل الله تعالى من نيل بركته.

﴿٢﴾ **ومنه قوله**: كنت بمكة في سنة ٤٨٩هـ وكنت أشرب من ماء زمزم كثيراً، وكلما شربته نويت العلم والإيمان، فنويت العلم والإيمان، ففتح الله لي ببركته في المقدار الذي يسره لي من العلم، ونسيت أن أشرب للعمل، ويا ليتني شربته لهما حتى يفتح الله لي فيهما، ولم يقدر فكان صفوي للعلم أكثر منه للعمل [١].

وفاته :

أتاه أجله «بمغلية» قرب مدينة «فاس» في ربيع الأول سنة ٥٤٣هـ، ودفن في فاس خارج بابِ المحروف على مسيرة يوم من فاس غرباً منها [٢].

رابعاً: القاضي الفقيه عياض:

هو القاضي أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض بن عمرو بن موسى اليحصبي السبتي، كان إمام وقته في الحديث وعلومه والنحو واللغة وكلام العرب وأيامهم وأنسابهم وصنف التصانيف المفيدة، ولد في سبتة في عام ٤٧٦هـ وتتملذ على شيوخها ومن أشهرهم: القاضي أبو عبد الله بن عيسى، والخطيب أبو القاسم والفقيه إسحاق بن الفاسي، وإبراهيم بن جعفر اللواتي، وإبراهيم بن

---

(١) انظر: العواصم من القواصم (ص ١٦).
(٢) وفيات الأعيان (جـ٣ ٤٨٣).

أحمد القيسي، وأبو بكر القاسم بن عبد الرحمن الكومي وغيرهم كثير [١] .

[أ] رحلته إلى الأندلس :

كان خروجه للأندلس من بيتهيوم الثلاثاء منتصف جمادى الأولى ٥٠٧هـ ، وكان عمره إذ ذاك واحداً وثلاثين عاماً، ومن أشهر شيوخه الذين تتلمذ عليهم في قرطبة أبو محمد عبد الرحمن بن محمد المشهور بابن عتاب القرطبي وقاضي الجماعة أبو عبد الله بن الحاج، والفقيه أبو جعفر بن رزق، وأبو مروان عبد الملك بن سراج، وأبو الوليد بن رشيد الجد، وأبو محمد عبد الله بن أحمد بن سعد الأندلسي الإشبيلي وأبو علي الصدفي.

وتحصل على علوم غزيرة وتصدى للتعليم والتدريس، وعين في القضاء، ونبغ فيه واشتهر بعلمه وعبادته وعدله وجوده، وكانت مؤلفات القاضي عياض أكثرها في الحديث الشريف، ثم فى التاريخ والطبقات ثم في الفقه، ثم في القرآن [٢] .

[ب] مؤلفاته:

﴿١﴾ «الشفاء بتعريف حقوق المصطفى»، وموضوعه في السيرة النبوية والعقيدة والأصول والتفسير والحديث.

﴿٢﴾ «مشارق الأنوار على صحيح الآثار»، وموضوعه تفسير غريب الحديث في الصحاح الثلاثة: «موطأ مالك» و«صحيحي البخاري ومسلم»، فضبط أسماء الرجال والألفاظ ونبَّه على مواضع الأوهام والتصحيفات .

وفي هذا الكتاب قال الشاعر :

مشارق أنوار تبدت بسبتة   عجب كون المشارق بالمغرب

---

(١) المغرب والأندلس ، د . مصطفى الشكعة(ص١٢٤) .

(٢) المغرب والأندلس ، د . مصطفى الشكعة(ص ١٢٥ ، ١٣٦) .

فأجابه آخر بقوله:

ومـا شـرف الأوطان إلا رجـالهـا ... وإلا فـلا فـضل لِتُـرب على تُرْب

﴿ ٣ ﴾ كتاب «الإكمال»، أكمل به كتاب «المعلم بفوائد كتاب مسلم» لشيخه المازري الفقيه المالكي المحدث المتوفي سنة ٥٣٦ هـ.

﴿ ٤ ﴾كتاب «منهاج العوارف إلى روح المعارف» وهو في شرح مشكل الحديث.

﴿ ٥ ﴾ كتاب «الإلماع إلى معرفة أصول الراوية وتقييد السماع» في مصطلح الحديث.

﴿ ٦ ﴾كتاب «بغية الرائد فيما في حديث أم زرع من الفوائد».

﴿ ٧ ﴾كتاب «التنبيهات المستنبطة على الكتب المدونة» في الفقه وجمع في هذا الكتاب فوائد وغرائب.

﴿ ٨ ﴾ كتاب «الإعلام بحدود قواعد الإسلام» في العقيدة.

﴿ ٩ ﴾كتاب «الخطب» يحتوي على خمسين خطبة من خطب الجمع.

﴿ ١٠ ﴾ كتاب «جامع التاريخ» في التاريخ والطبقات.

﴿ ١١ ﴾كتاب «تاريخ سبتة» وهو مسودة.

﴿ ١٢ ﴾ «ترتيب المدارك وتقريب المسالك في معرفة أعلام مذهب الإمام مالك».

﴿ ١٣ ﴾ الغنيمة وذكر فيه شيوخه وترجم لهم.

﴿ ١٤ ﴾ «المقاصد الحسان فيما يلزم الإنسان».

﴿ ١٥ ﴾ «غنيـة الكتـاب وبغـيـة ا لطالب»، في الأدب والإنشـاء وغـيـرها من المخطوطات والكتب التي تدل على سمو منزلته وسلامة منهجه.

لقد برع القاضي عياض في أمور عدة منها: القضاء والفقه والحديث واللغة والأدب، وكان شاعراً مجيداً وله موهبة رائعة تدل على قدرته على نظم الشعر، ومن أبرع ما قاله القاضي عياض من القصائد تلك التي أنشدها وهو يودع قرطبة

في عام (٥٠٨ هـ) :

أقـوال وقـد جـدَّ ارتحـالي وغـرَّدت ... حُـداتي وَزُمَّتْ للفـراق ركـائبي
وقد غمضتْ من كثرة الدمع يستحثُّها ... وداعي للأحبـاب لا للحبـائب
رعى الله جيـراناً بقـرطبـة العُـلا ... وسقى ربأُها بالعهـاد السواكب
وحيَّـا زمـاناً بينهم قـد ألفتـه ... طليق المُحيَّـا مُسْتـلان الجوانب
إخـواننا بالله فيـهـا تذكـروا ... معـهـاد جار أو مودة صاحب
غـدوْتُ بهم من برهم واحتفـائهم ... كـأني في أهلي وبين أقـاربي (١)

ومن أشعاره الإخوانية التي وصف فيه ليلة جمعت من أصحابه كل ذي مكانة وفضل وجاه :

سَـمَحَ الزمـانُ بليلةٍ ... غـراءَ جـامعة السـرورْ
أجنـتْ أكـفُّ جُناتِهـا ... قَطفَ الأمـاني والحبـور
مـا فضَّ طينُ ختـامهـا ... فيمـا تقـدم من دهور
دارت على فلك السعـود ... بمثل أشبـاه البـدور
مـا إن ترى إلا أمـيـراً ... حـاز إرثاً عن أميـر
تـخَـذُوا القلوب أسـرة ... وثَوَوْا بهـا عِوض السرير
فـعليـهم وقف العـلاءُ ... وإن تُدووِلَت الأمـور (٢)

لقد اهتم الأمير علي بن يوسف بالقاضي عياض لما كان شاباً وظهر ذكاؤه واشتهر صيته ، فأكرمته دولة المرابطين وهيأت له الأجواء للمزيد من التحصيل التفقه في الدين .

---

(١) المغرب والأندلس ، د . مصطفى الشكعة (ص ١٣٦ ، ١٤٦) .
(٢) المغرب والأندلس ، د . مصطفى الشكعة (ص ١٤٩) .

وكان القاضي عياض لا يحب كثرة الأسفار والارتحال، ويلاحظ المتتبع لسيرته وحياته أنه كان قليل الارتحال بالقياس إلى معاصريه وأترابه من العلماء والفقهاء والمحدثين، وكانت له نظرية عجيبة في ذم السفر وبيان أضراره وعيوبه نظمه في الشعر، وخالفه كثير من العلماء في نظرته المتفردة وإليك الأبيات التي ذكرها في ذم السفر:

تقعدَّ عن الاسفار إن كنت طالباً ... نجاةً ففي الأسفار سبعُ عوائق
تشوفُ إخوانٍ وفقدُ أحبةٍ ... وأعظمها يا صاح سكُنى الفنادق
وكثرةُ إيحاشٍ وقلةُ مؤنسٍ ... وتبذيرُ أموالٍ وخيفةُ سارق
فقدْ كان ذا دهراً تقادم عهده ... وأعقبه دهر شديدُ المضايق
فهذا مقالي والسلام كما بدا ... وجرِّب ففي التجريب علمُ الحقائق (١)

وهذه فسلفة غريبة في الأسفار أخالف القاضي عياض - رحمه الله - فيها إلا أنني أقول إن الإنسان في أسفاره العلمية أو التجارية عندما يقضي مآربه عليه أن ينتقل إلى غيرها حتى يحقق أهدافه ويرجع إلى وطنه وقومه غانماً سالماً مفيداً لأهله وشعبه ، **وقد ذكر العلماء في الأسفار فوائد فقال الشافعي رحمه الله:**

تغرب عن الأوطان في طلب العلى ... وسافر ففي الأسفار خمسُ فوائد
تفرج همٍّ واكتسابُ معيشةٍ ... وعلمُ وآداب وصحبةُ ماجدٍ (٢)

وقال الإمام الشافعي في الاغتراب أيضاً:

ما في المقام لذي عَقْلٍ وذي أدبِ ... من راحة فَدَعِ الأوطان واغتربِ
سافر تجد عوضاً عمن تفارقه ... وانصبْ فإن لذيدَ العيش في النصب
إني رأيت وقوف الماء يفسده ... إن ساح طاب وإن لم يجرِ لم يطبِ

---

(١) انظر : النبوغ المغربي ، عبد الله كنون (جـ٣/ ١٣١) .
(٢) ديوان الشافعي (ص٥٧) .

والأسدُ لولا فراقُ الأرض ما افترست ... والسهمُ لولا فراقُ القوسِ لم يُصب
والشمسُ لو وقفت في الفلك دائمة ... لملها الناسُ من عُجم ومن عرب [١]

وكان ممن عاصر القاضي عياض العلامة الشيخ يعلى أبو دبل وكان له رأي يخالف رأي القاضي عياض في السفر نظمه في هذه الأبيات:

سافر لتكسب في الأسفار فائدة ... فَرُبَّ فائدةٍ تُلقى مع السفر
ولا تُقم بمكان لا تُصيبُ به ... نصحاً ولو كنت بين الظل والشجر
فإن «موسى» كليم الله أعوزهُ ... علم تكسَّبَهُ في صحبة الخضر [٢]

ومن شعره في الأشواق ما نظمه من أبيات واصفاً فيها شوقه وحنينه لزيارة المدينة المنورة فقال:

يا دار خير المرسلين ومن به ... هدى الأنام وخُصَّ بالآياتِ
عندي لأجلك لوعة وصبابة ... وتشوقٌ متوقدُ الجمرات
وعليَّ عهدٌ إن ملأت محاجري ... من تلكم الجدران والعرصات
لأعفرنَّ مصونَ شيبي بينها ... من كثرة التقبيل والرَّشقات
لولا العوادي والأعادي زرتها ... أبداً ولو سعيا على الوجنات [٣]
لكن سأهدي من جميل تحية ... لقطين تلك الدار والحُجُراتِ
أذكر من المسك المفتق نفحةً ... تغشاه بالآصال والبُكرات
وتخصه بزواكي الصلوات ... ونَوامي التسليم والبركات [٤]

وله أبيات يصف فيها نفسه وشوقه إلى وطنه قالها في مدينة «داي» ببلاد المغرب سنة ٥٤١هـ وكان قد ناهز الخامسة والستين من العمر، وكان مرغماً على

---

(١) ديوان الشافعي (ص٣٤).
(٢) المغرب والأندلس، (ص١٥٠).
(٣) انظر: المغرب والأندلس (ص١٥٠).
(٤) أزهار الرياض (جـ٤/ ١٨٠).

البقاء فيها ممنوعاً من الرجوع إلى بلاده في زمن دولة الموحدين.

يعلم الله وأنا أمر على هذه الأبيات التي فجرت الأحزان في نفسي، وألهبت مشاعري وهيجت الأشواق إلى مدينتي «بنغازي» ومنطقتي «الحدائق» ، وذكرتني ببلادي العزيزة ليبيا قد تملكتني دموع الشوق إلى مسقط رأسي ، التي طالت مدة غيابي عنه أكثر من أربعة عشر عاماً نصفها مسجوناً في بلادي ، والنصف الآخر قضيتها متنقلاً بين البلدان ، ولم تكن تهمتي التي كلفتني هذه العقوبة القاسية التي احتسبها عند الله إلا أن رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً ورسولاً ﷺ .

إن أبيات القاضي عياض في غربته أضفت علي وأنا أترجم حياته مسحة من الحزن ولوعة من الأسى وإحساساً بالحنين إلى أهلي ووطني، وأحبتي وإخواني، فقال القاضي ـ رحمه الله ـ وهو يحاور حمامة مرت به:

أقمرية الأدواح بالله طارحِي ... أخا شجي بالنوح أو بغناء

فقد أرقتني من هديلك رنة ... تهيج من شوقي ومن بُرحائي

لعلك مثلي يا حمامُ فإنني ... غريب «بداي» قد بُليتَ بداءِ

فكم من فلاةٍ بين «داي» و«سبتة» ... وخَرق بعيد الخافقين قواءِ

تصفقُ فيه للرياح خوافقٌ ... كما ضعضْعتني زفرةُ الصعداء

يذكرني سحُّ المياه بأرضها ... دموعاً أريقتْ يوم بنتُ ورائي

ويعجبني في سهلها وحزونها ... خَمائل أشجارِ ترف لِرائي

لعلَّ الذي كان التفرق حكمهُ ... سيجمع مناً الشمل بعد تنائي [١]

---

(١) انظر : المغرب والأندلس(ص١٥٠) .

عياض والقضاة :

رجع القاضي عياض إلى سبتة بعد أن أتم ما أراد من علوم من الأندلس ، وكان دخوله لمدينته الحبيبة إلى نفسه عام (٥٠٨ هـ) وفرح أهل سبتة بابنهم البار، وتصدر للتعليم والتدريس بعد أن امتحنه علماء مدينة سبتة في الفقه المالكي، وأصبح من أهل مجلس الشورى، وكان ذلك في الثانية والثلاثين من عمره أو يزيد قليلاً، وكانت تلك المرحلة سبباً في إعداده ليتسنم سدة القضاء الشريفة الرفيعة في بتة [١] .

ولما كان عياض في التاسعة والثلاثين من عمره تولى القضاء، وكان ذلك عام ٥١٥هـ ، وظل متربعاً على كرسي القضاء في بلده سبتة ستة عشر عاماً فسار فيها أحسن سيرة وكان محمود الطريقة مشكور الحالة، أقام جميع الحدود على ضروبها، واختلاف أنواعها، وبنى الزيادة الغربية في جامع سبتة التي كمل بها جماله وترك في بلده آثاراً محمودة [٢] .

ويبدو أن بعض الأمراء لم يعجبهم حزم وعدالة القاضي عياض، كما خافوا من كثرة أتباعه وانتشار صيته ومحبة الناس له، فلذلك عزموا على نقله إلى غرناطة ولم يذكروا سبباً مقنعاً، مما جعل الفقيه أبو الحسن بن هارون المالقي يمدح القاضي عياضاً في أبيات سجلتها ذاكرة التاريخ :

ظلموا عياضاً وهو يَحْلُمُ عنهم ... والظلمُ بين العالمين قديمُ
جعلوا مكانَ الراءِ عيناً في اسمه ... كي يكتموه فإنه معلوم
لولاه ما فاحتْ بطائحُ سبتة ... والروض حول فنائِها معدوم [٣]

---

(١) انظر : المغرب والأندلس ،(ص١٥٠)
(٢) انظر : أزهار الرياض(جـ٣ / ١٠)
(٣) انظر : المغرب والأندلس(ص١٦٢)

وانتقل القاضي عياض إلى غرناطة ممتثلاً لأمر الأمير فهب أهل غرناطة لاستقباله كما يستقبل الفاتحون ، وبالله إنه لحق فاتح للعقول ومنور للقلوب ومطهر للنفوس بعلمه العزير، وخلقه المتواضع وسيرته العطرة .

وسار في الناس سيرة العدل، ورفع الظلم، وإحقاق الحقوق دون خوف من أمير أو وزير، ونشط وضاق به ذرعاً من تعرضت مصالحه للخطر، ولا يستطيع الحصول عليها إلا بالظلم، وأسفرت مكايد الأشرار في غرناطة عن عزل القاضي النزيه في عام ٥٣٢هـ ، ورجع إلى بلده ليكون بعيداً عن القضاء قريباً للطلاب العلم وحلقاته وقصده الناس وانتفع به العباد ونشر نور الكتاب والسنة في البلاد، واستمر على تلك الحالة الدعوية سبع سنين، وفي أواخر دولة المرابطين عام ٥٣٩هـ دعي ليتولى قضاء سبتة من جديد، وهو في الثالثة والستين من عمره، وكان شيخاً جليلاً وعاملاً عظيماً، وقاضياً حكيماً، وأباً رحيماً، فابتهج الناس لعودته وسار فيهم سابق سيرته، وما مضت شهور قليلة حتى سقطت دولة المرابطين على يد دولة الموحدين البدعية فاضطر القاضي الجليل إلى خوض الحياة السياسية والحربية [١] .

[د] معارك السياسة والحرب:

إن ظهور دولة الموحدين على يد المبتدع الكبير محمد بن تومرت كانت من أسباب سقوط دولة المرابطين، فطبيعي جداً أن يخوض حرباً ضد دولة الموحدين، وتولى قيادة جيوش الموحدين عبد المؤمن بن علي الذي استطاع بجيشه أن يحتل مدن المغرب مثل فاس ومراكش وغيرها.

ورأى القاضي عياض أن المصلحة العليا لمدينة سبتة وأهلها أن يبايع عبد المؤمن حفاظاً على الأعراض والأموال، وتجنيب المدينة من الدمار الشامل وقبل

---

(١) المصدر السابق نفسه .

أمير الموحدين تلك البيعة الإضطرارية ، وما أن قام محمد بن هود بثورته على الموحدين حتى استجاب أهل سبتة لذلك بزعامة القاضي عياض، وقام السبتيون بقتل عامل الموحدين وأصحابه، وسار القاضي عياض إلى يحيى بن علي المسوفي المعروف بابن غانية في قرطبة وبايعه، وكان متمسكاً بدعوة المرابطين وطلب منه أن يعين والياً على سبتة فبعث معه يحيى بن أبي بكر الصحراوي وأصبحت بذلك مدينة سبتة خارجة عن دولة الموحدين وعادت إلى حكم المرابطين.

إلا أن جيوش الموحدين استطاعت إخضاع مدينة سبتة وأهلها وأعادوا البيعة من جديد للموحدين الذين قبلوا ذلك واشترطوا إبعاد القاضي عياض عن مدينته إلى مراكش، وقيل: تدلا إلى أن توفاه الله تعالى.

إن موقف القاضي عياض كان منسجماً مع عقيدته وعلمه ودعوته في محاربته للموحدين الذين اعتقدوا عصمة إمامهم محمد بن تومرت وغير ذلك من العقائد البدعية التي سنفصلها بإذن الله تعالى عند كلامنا عن الموحدين.

إن القاضي عياض ليس من أهل السُنَّة وحسب، ولكنه فقيه أهل السُنَّة آنذاك على الإطلاق، وهو كذلك يرى وجوب الوقوف أمام دعوة ابن تومرت، وينبغي التخلص منها متى حانت أول فرصة، وإن يكن قد بايع فالبيعة آنذاك كانت حفاظاً على سلامة بلدته وأهلها. أما وقد لاحت الفرصة بخروج بعض المدن على سلطان الموحدين القائم على بدعة الإمامة المعصومة، أما وقد جرت الريح بما لا تشتهي السفن فإن من العقل الاستسلام ثم المبايعة وله حكم المضطر في ذلك.

وإن سلطان الموحدين عبد المؤمن كان على مقدرة عجيبة من الدهاء والمكر، ولذلك رأى لمصلحة دولته أن يضع الفقهاء والعلماء الذين يشك في ولائهم له في مراكش، ومنعهم من العودة إلى بلادهم، أو يضعهم في مدن أخرى ليخدموا مخططات الدولة الناشئة [١] .

---

(١) سير أعلام النبلاء (ج٢٠/٢١٧) .

[و] وفاة القاضي عياض :

توفي رحمه الله في منفاه بعيداً عن وطنه في عام ٥٤٤هـ ودفن في مراكش [١] فعليه من الله الرحمة والمغفرة والرضوان على ما قدمه للإسلام.

هؤلاء بعض العلماء الذين كان لهم سبق ومكانة في دولة المرابطين وانتفع الناس بعلمهم وفقههم، ترجمت لهم ترجمة متواضعة، كما برز في علوم الفقه والحديث كثير من العلماء والمحدثين في عصر دولة المرابطين منهم: أبو الحسن علي بن عبد الرحمن المعروف بابن أبي حقوق وله مختصر في أصول الفقه سماه «بالمقتضب الأشفى من أصول المستصفى» ومنهم أبو محمد عبد الله بن علي بن عبد الله بن خلف بن أحمد بن عمر اللخمي، ويعرف بالرشاطي، وكانت له عناية بالحديث والرجال والرواة والتواريخ، وله كتاب سماه «اقتباس الأنوار، والتماس الأزهار في أنساب الصحابة ورواة الآثار»، ومنهم أيضاً أبو عبد الله بن محمد بن حسين بن أحمد بن محمد الأنصاري، وأبو جعفر أحمد بن عبد الصمد بن أبي عبيدة بن محمد الخزرجي، وقد ألف كتاباً في أحكام الرسول ﷺ سماه «آفاق الشموس وأعلاق النفوس»، وكتاباً آخر سماه «مقاطع الصلبان ومراتع رياض أهل الإيمان»، وأبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن عطية المحاربي وله كتاب يُسمى «بالوجيز في التفسير»، وكذلك برز في عصر علي بن يوسف من الفقهاء وعلماء الحديث: أبو عبد الله محمد بن حسين بن أحمد بن سعيد بن يربوع بن سليمان، وأبو الوليد يوسف بن عبد العزيز بن يوسف بن عمر المعروف بابن الدباغ، وأبو عبد الله محمد ابن أحمد ابن خلف بن إبراهيم التجيبي المعروف بابن الحاج قاضي الجماعة بقرطبة.

---

(١) المصدر السابق نفسه.

المبحث الرابع
علوم اللغة في زمن المرابطين

ونبغ في علوم اللغة في عصر علي بن يوسف عدد كبير من العلماء المبرزين في النحو وعلوم اللغة نذكر منهم: أبا محمد، عبد الله بن محمد بن السيد البطليوسي النحوي ت ٥٢١هـ، وكان حجة في علمه عالماً متبحراً في النحو وعلوم اللغة، وكان الناس يجتمعون إليه ويقرءون عليه، ومن تواليفه كتاب «الاقتضاب في شرح أدب الكتاب» وكتاب «التنبيه على الأسباب الموجبة لاختلاف الأمة»، وكتاب آخر في شرح الموطأ وبالإضافة إلى ذلك كان شاعراً مطبوعاً فمن نظمه قوله:

أخو العلم حي خالد بعد موته ... وأوصاله تحت التراب رميم

وذو جهل ميت وهو ماشٍ على الثرى ... يظن من الأحياء وهو عديم

ومن أئمة اللغويين وأعلامهم في عصر علي بن يوسف: أبو الحسن علي بن أحمد بن خلف الأنصاري النحوي، وقد كان من أهل المعرفة بالآداب واللغة، متقدماً في علم القراءات، وأبو محمد بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن محمد بن أحمد بن عبد الله النحوي المعروف بابن اللجاش، وكان عالماً متبحراً في النحو، وأبو العباس أحمد بن عبد الجليل بن عبد الله المعروف بالتدميري ت٥٥٥ هـ ومن تواليفه «نظم القرطين وضم أشعار السقطين» وجمع فيه أشعار «الكامل» للمبرد و«النوادر» لأبي علي البغدادي، كما له كتاب «التوطئة في العربية» وله شرح على كتاب الفصيح لثعلب، وله في شرح أبيات جمل الزجاجي كتاب سماه «شفاء الصدور»، وكتاب «الفوائد والفرائد»، ومنهم أبو العباس أحمد بن عبد العزيز بن هشام بن غزوان القري، وكان من أهل المعرفة بالنحو واللغة والعروض، وله أرجوزة مزدوجة في قراءة نافع وثانية في قراءة ابن كثير، ومن تواليفه كتاب «فوائد الإفصاح عن شواهد الإيضاح» [١].

---

(١) تاريخ المغرب والأندلس (ص٣٩٨، ٣٩٩، ٤٠٠).

المبحث الخامس

علوم التاريخ والجغرافيا في عصر المرابطين

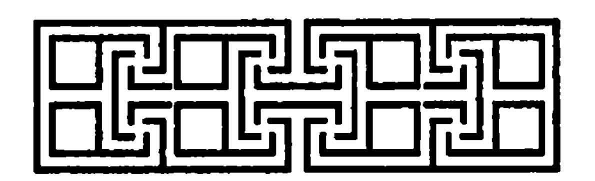
ظهر في عصر المرابطين عدد كبير من أعلام الرواية والكتابة التاريخية نذكر في مقدمتهم:

أبو زكريا بن يحيى بن محمد بن يوسف الأنصاري الغرناطي المعروف بابن الصيرفي كان من أعلام عصر علي بن يوسف في البلاغة والأدب والتاريخ، كتب بغرناطة عن الأمير تاشفين بن علي بن يوسف أيام أن كان والياً على الأندلس، وألف في تاريخ الأندلس في العصر المرابطي كتاباً سماه «الأنوار الجلية في تاريخ الدولة المرابطية»، وكتاباً آخر سماه «قصص الأنباء وسياسة الرؤساء» وهما مؤلفان لم يصلا إلينا مع الأسف، ولم يصل إلينا من مؤلفاته الأول سوى شذور نقلها المتأخرون مثل ابن الخطيب وخاصة روايته عن غزوة ألفونسو المحارب للأندلس سنة ٥١٩هـ/ ١١٢٥م، وقد توفي ابن الصيرفي بغرناطة في سنة ٥٧٠هـ ، وهناك أيضاً أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني ت ٥٤٢هـ صاحب كتاب «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة» وهذا الكتاب موسوعة أدبية تاريخية يتضمن تراث القرن الخامس الهجري ١١١٠م ، وأبو عبد الله محمد بن خلف بن الحسن بن إسماعيل الصدفي، ويعرف بابن علقمة، وهو من أهل مدينة بلنسية سماه «البيان الواضح في الملم الفادح» وتوفي ابن علقمة، وهو من أهل مدينة بلنسية سماه «البيان الواضح في الملم الفادح» وتوفي ابن علقمة عام ٥٠٩هـ /١١١٤م ، وأبو طالب عبد الجبار عبد الله بن أحمد ابن أصبغ، وله كتاب يسمى «عيون الإمامة ونواظر السياسة»، وأبو عامر محمد بن أحمد بن عامر البلوي المعروف بالسالمي، وقد ألف كتاباً في التاريخ سماه «درر القلائد وغرر الفوائد»، وأبو نصر الفتح ابن

محمد القيسي الإشبيلي، والمعروف بالفتح بن خاقان، ومن تواليفه كتاب « قلائد العقيان في محاسن الأعيان »، وكتاب « مطمع الأنفس ومسرح التأنس » وكتاب « رواية المحاسن وغاية المحاسن » وأبو القاسم خلف بن عبد الملك ويعرف بابن بشكوال، وكان من أعلام المؤرخين في عصر المرابطين، وأشهر تواليفه كتابه المعروف « بالصلة »، الذي جعله تتمة لكتاب ابن الفرضي في تاريخ علماء الأندلس، ومن تواليفه أيضاً كتاب « الغوامض والمبهمات » في اثني عشر جزءاً وكتاب « المحاسن والفضائل في معرفة العلماء الأفاضل » في أحد وعشرين جزءاً وقد توفي ابن بشكوال في رمضان ٥٧٨ هـ .

وفي مجال الجغرافية : نبغ عدد من كبار جغرافي الأندلس والمغرب عصر المرابطين نذكر منهم : الشريف أبو عبد الله محمد الإدريسي، صاحب كتاب « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق »، وقد ألف الإدريسي لرجار الثاني صاحب صقلية، ولذا يعرف هذا الكتاب في كتب الجغرافية العربية باسم الرجاري.

ومن جغرافي عصر المرابطين عبد الله بن إبراهيم بن وزمر الحجاري صاحب كتاب « المسهب في غرائب المغرب » ، وقد اتخذ بنو سعيد كتابه أساساً لكتابهم المعروف باسم « المغرب في حلى الغرب » [١] .



(١) تاريخ المغرب والأندلس (ص ٤٠١ ، ٢٠٤ ، ٤٠٣) .

المبحث السادس

علوم الطب في عصر المرابطين

تقدمت العلوم الطبية والصيدلانية في عصر المرابطين تقدماً يشهد له الأسماء والأعلام التي تألقت في حضارة الأندلس والمغرب، وأشهرها ابن زهر وهو اسم طبيب أندلسي من أعظم أطباء الإسلام، ممن تركوا بصماتهم واضحة في تاريخ الحضارة الإنسانية جمعاء، وينتسب أبو مروان عبد الملك بن زهر إلى أسرة أندلسية لمعت في ميدان الطب والعلوم الطبعيية والكيميائية عميدها الأكبر إلى أسرة أندلسية لمعت في ميدان الطب والعلوم الطبعيية والكيميائية عميدها الأكبر هو أبو مروان عبد الملك ابن الفقيه محمد بن مروان بن الأزهر الأيادي الإشبيلي، وكان والده الفقيه محمد بن مروان من جلة الفقهاء المتميزين في علم الحديث في إشبيلية، وقد رحل أبو مروان في شبابه إلى المشرق وسمع في القيروان ومصر، وتتملذ على أيدي علماء المشرق في الطب، ورجع إلى الأندلس، وأصبح من أشهر علماء الطب فيها توفي في إشبيلية، وورثه في علم الطب ابنه أبو العلاء الذي تبوأ مكانة عظيمة في دولة المرابطين، ومن تواليفه «الخواص» وكتاب «الأدوية المفردة» وكتاب «الإيضاح بشواهد الافتضاح» في الرد على ابن رضوان فيما رده على حنين بن إسحاق في كتاب المدخل إلى الطب، وكتاب «النكت الطبية» وكتاب «الطرر» ومقالة في تركيب الأدوية، وتوفي أبو العلاء في قرطبة ٥٢٥هـ وحمل إلى إشبيلية ودفن بها، وأمر الأمير علي بن يوسف بجمع كتبه ونسخها، وتم ذلك عام ٥٢٦هـ، وورث ابنه أبو مروان من والده صناعة علوم الطب، ونبغ في هذا المجال، ولم يكن في زمانه من يماثله أو ينافسه، وكان له حظوة لدى أمراء المرابطين، فقد صنف للأمير أبي إسحاق إبراهيم بن يوسف بن تاشفين كتاباً سماه «الاقتصاد في صلاح الأجساد»، ومن تواليفه أيضاً كتاب

«التيسير في المداواة والتدبير» وقد ألفه القاضي أبو الوليد بن رشد وهذا الكتاب يعد من أعظم مراجع الطب في العصور الوسطى، وله أيضاً كتاب «الأغذية»، ومقالة في علل الكلى، ورسالة في علتي البرص والبهق، وتوفي هذا العالم في عام ٥٥٧هـ في إشبيلية.

ومن الأطباء الذين برعوا في عصر علي بن يوسف: أبو عامر محمد بن أحمد ابن عامر البلوي، وله في الطب كتاب سماه «الشفا» وأبو الحسن علي بن عبد الرحمن بن سعيد السعدي وغيرهم.

ومما يؤكد اهتمام دولة المرابطين بالطب وجود منصب يعرف برئيس الصناعة الطبية وهو منصب هام يقابل ما نطلق عليه اليوم اسم وزير الصحة، إذ كان فيما يبدو المسئول الأول أمام الأمير في صناعة الطب وما يتعلق بها من الأدوية والعقاقير [١].

أمراء دولة المرابطين:

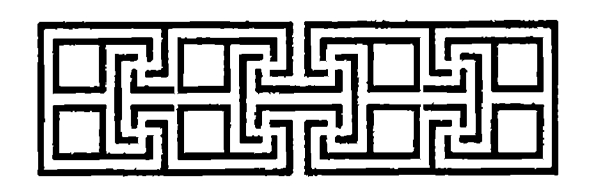
[١] أبو بكر عمر اللمتوني ٤٤٨ ـ ٤٨٠ هـ / ١٠٥٦ ـ ١٠٧٨ م.

[٢] يوسف بن تاشفين ٤٨٠ ـ ٥٠٠ هـ / ١٠٧٨ ـ ١١٠٦ م.

[٣] علي بن يوسف بن تاشفين ٥٠٠ ـ ٥٣٧ هـ / ١١٠٦ ـ ١١٤٢ م.

[٤] تاشفين بن علي ٥٣٧ ـ ٥٤٠ هـ / ١١٤٢ ـ ١١٤٥ م.

[٥] إبراهيم بن تاشفين بن علي ٥٤٠هـ / ١١٤٥م.



---

(١) تاريخ المغرب والأندلس (ص ٤٠٧، ٤٠٨، ٤٠٩).

المبحث السابع

أسباب سقوط دولة المرابطين

﴿ ١ ﴾ ظهور روح الدعة والانغماس في الملذات والشهوات عند حكام المرابطين وأمرائهم في أواخر عصر علي بن يوسف، وكان للمجتمع الأندلسي تأثير لا ينكر في قادة وأمراء وحكام دولة المرابطين الذين استجابوا لنزوات شهواتهم وانغمسوا في الحياة الدنيا، فتحقق قول الله تعالى: ﴿ **وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً** (١٦) ﴾.

[الإسراء: ١٦] [(١)].

يقول سيد قطب رحمه الله: « والمترفون في كل أمة هم طبقة الكبراء الناعمين الذين يجدون المال، ويجدون الخدم، ويجدون الراحة، فينعمون بالدعة والراحة، وبالسيادة حتى تترهل نفوسهم وتأسن، وترتع في الفسق والمجانة وتستهتر بالقيم والمقدسات والكرامات، وتلغ في الأرض والحرمات، وهم إذا لم يجدوا مَنْ يَضْرِبُ على أيديهم عاثوا في الأرض فساداً، ونشروا الفاحشة في الأمة وأشاعوها، وأرخصوا القيم العليا التي لا تعيش الشعوب إلا بها ولها، ومن ثم تتحلل الأمة وتسترخي، وتفقد حيويتها وعناصر قوتها وأسباب بقائها فتهلك وتطوى صفحتها.. ».

والآية تقرر سُنَّة الله هذه في إهلاك من انغمس في الشهوات وأسرف في الملذات وتحلل من القيم والأخلاق ولازم الفسق والانحلال والفساد.

﴿ ٢ ﴾ ظهور السفور والاختلاط بين النساء والرجال، وبدأت دولة المرابطين في آخر عهد الأمير علي بن يوسف تفقد طهرها وصفاءها الذي اتصف به جيلهم

---

(١) تاريخ المغرب والأندلس (ص ٤٠٧، ٤٠٨، ٤٠٩).

الأول، مما جعل الرعية المسلمة تتذمر من هذا الانحراف والفساد وتستجيب لدعوة محمد بن تومرت الذي أظهر نفسه للناس بالزاهد والناسك والآمر بالمعروف والناهي عن المنكر.

﴿ ٣ ﴾ انحراف نظام الحكم عن نظام الشورى إلى الوراثي الذي سبب نزاعاً عنيفاً على منصب ولاية العهد بين أولاد علي بن يوسف، كما تطلع مجموعة من الأمراء إلى منصب الأمير علي ونازعوه في سلطانه مما سبب تمزقاً داخلياً، ففقدت الدولة المرابطية وحدتها الأولى، وكثرت الجيوب الداخلية في كيان الدولة، وتفجرت ثوارت عنيفة في قرطبة، وفي فاس وغيرها ساهمت في إضعاف الوحدة السياسية وإسقاط هيبة الدولة المرابطية.

﴿ ٤ ﴾ الضيق الفكري الذي أصاب فقهاء المرابطين وحجرهم على أفكار الناس ومحاربة إلزامهم بفروع مذهب الإمام مالك وحده، وعملوا على منع بقية المذاهب السنية تعصباً لمذهبهم، وكان لفقهاء المالكية نفوذ كبير مما جعلهم يوسعون تعصبهم وتحجرهم الفكري.

ويرى بعض المؤرخين أن التعصب الأعمى عند فقهاء المرابطين في زمن الأمير علي بن يوسف ، كان السبب الأول في سقوط دولة المرابطين [١] ، لقد أسهم فقهاء المالكية في دولة المرابطين بقسط وافر في تذمر الرعايا ، وإضعاف شأن الإمارة ، لقد استغل بعض الفقهاء نفوذهم من أجل جمع المال وبناء الدور، وامتلاك الأرض، وعاشوا حياة البذخ والرفاهية المفرطة ، وكان ذلك سبباً في إيجاد ردة فعل عنيفة عند أفراد المجتمع المرابطي، وانبرى الشعراء في تصوير حال الفقهاء في تلك الفترة ، قال أبو جعفر أحمد بن محمد المعروف بابن البني :

---

(١) الزلاقة بقيادة يوسف بن تاشفين (ص ٩٨) .

أهل الرياء لبستم ناموسكم ... كالذئب أدلج في الظلام العاتم
فملكتم الدنيا بمذهب مالك ... وقسمتم الأموال بابن القاسم
وركبتم شهب الدواب بأشهب ... وبأصبغ صبغت لكم في العالم [١]

ومن أهم العوامل التي أسقطت دولة المرابطين: فقدها لكثير من قياداتها وعلماءها العظام أمثال سير بن أبي بكر، ومحمد بن مزدلي ومحمد بن فاطمة ومحمد بن الحاج وأبي إسحاق بن دانية، وأبي بكر بن واسينو فمن لم يستشهد من كبار رجال الدولة أدركه الموت الطبيعي، ولم يستطع ذلك الجيل أن يغرس المبادئ والقيم التي حملها في الجيل الذي بعده، فاختلفت قدرات الجيل الذي بعدهم واستعداداتهم، وهذا درس مهم لأبناء الحركات الإسلامية في أهمية توريث التجارب والخبرات المتنوعة والمتعددة للأجيال المتلاحقة [٢] .

﴿ ٦ ﴾ ومن أهم العوامل التي أنهكت دولة المرابطين، أنها مرت بأزمة اقتصادية حادة، نتيجة لانحباس المطر عدة سنوات، وحلول الجفاف والقحط بالأندلس والمغرب، وزاد من حدة الأزمة الاقتصادية أن أسراب الجراد هاجمت ما بقي من الأخضر على وجه البلاد مما هيأ الظروف لانتشار مختلف الأوبئة بين كثير من السكان ووقعت هذه الأزمة في الفترة الواقعة ما بين أعوام (٥٢٤هـ - ٥٣٠م) [٣] .

﴿ ٧ ﴾ ومن أهم الأسباب الرئيسية في زوال دولة المرابطين - في نظري - صدامها المسلح مع جيوش الموحدين، ورأيت أن أفراد له مبحثاً مستقلاً [٤] ويكون ذلك عند دراسة دولة الموحدين إن شاء الله.

---

(١) ،(٢) **انظر** : سقوط دولة الموحدين ، للدكتور / مراجع الغناي (ص٣١) .
(٣) ،(٤) نفس المرجع السابق .

نتائج البحث

[١] إن في معظم القبائل في العالم الإسلامي رجال لهم عقول راجحة وبعد نظر وتقدير للأمور، وفي أغلب الأحيان يتولى أمر القبيلة أرجح الناس عقلاً وأكثرهم جوداً، وأعظمهم شجاعة، وأخلصهم لأهله وعشيرته، شخصية الأمير يحيى بن إبراهيم الجدالي خير دليل على ما قلت، ولذلك من الدروس العميقة من هذا البحث هو أهمية دور زعماء القبائل في دعوة قبائلهم وعشائرهم، وإيجاد الحماية اللازمة للدعاة إلى الله في أواسط القبائل، فعلى الحركات الإسلامية العاملة أن توثق علاقتها مع هذه الشريحة من المجتمع، وتحرص على دعوتها للإسلام لتنصهر في الدعوة الربانية التي تبذل جهدها لتحكيم شرع الله تعالى.

[٢] إن أبا عمران الفاسي العالم الرباني والفقيه المالكي سيد الفقهاء في القيروان في زمانه يعتبر هو واضع الخطوط العريضة لدولة المرابطين وكان ـ رحمه الله ـ يميز بين العمل العلني في الدعوة وفقهها وتعليم الناس، وبين العمل السري لإقامة دولة سنية، وكان رحمه الله على اتصال بفقهاء أهل السُّنَّة في مدن وقرى الشمال الإفريقي، ولذلك لما تعرف أبو عمران الفاسي على الأمير الصنهاجي يحيى بن إبراهيم، وعلم بأحوال قومه وحاجتهم لمنهج الإسلام ومن يربيهم على ذلك، اتصل بأخيه الشيخ وجاج بن زلوا اللمطي فقيه المالكية بالسوس الأقصى، وكان فقيهاً صالحاً يقيم بمدينة ملكوس، وأطلعه على المهمة التي جاء من أجلها الأمير يحيى، فاختار لهذه المهمة تلميذه الذكي الفقيه العابد الألمعي عبد الله ابن ياسين الجزولي صاحب العلوم المتنوعة والشخصية الجاذبة التي تجري

في دمائها صفات الدعاة المتعددة ، وسار رحمه الله وفق خطة محكمة بصبر وحلم وشجاعة في قبائل الملثمين.

[٣] كانت مرحلة التعريف التي نفذها الإمام عبد الله بن ياسين في قبائل جزولة ولمتونة وغيرها من أصعب المراحل، وكادت تودي بحياته واستطاع أن يحارب مظاهر الشرك والجهل في مجتمع صنهاجة الصحراوى، وأن يتحمل الكثير من أجل تعليمهم الإسلام وأركان الإيمان ومقامات الإحسان.

[٤] ثم كانت مرحلة التكوين واختار الإمام عبد الله بن ياسين رباطه على مصب نهر السنغال بعيداً عن نفوذ الأمراء وأصحاب الجاه والأموال، وشكَّل نخبة صفوية ألزمها بلوائح تنظيمية ومبادئ سلوكية واجتهد في تربيتها وشكل منها مجلس الشورى.

[٥] وفي مرحلة التنفيذ بعد أن أصبحت للإمام ابن ياسين شوكة وقوة ومنعة استطاع أن يقضي على قوة الشر في قبائل لمتونة وجذولة وغيرها، وأن يوحدها على منهج الإسلام وعقيدة الرحمن ودعوة الإيمان.

[٦] كانت تربية عبد الله بن ياسين لاتباعه رفيعة المستوى غرست في نفوسهم حب الشهادة، والتلذذ بمتاعب الجهاد والحرص على هداية الناس واختار لأتباعه اسماً يدل على الرابطة السامية التي ربطت هذه المجموع التي كانت متناحرة وأصبحت متآخية متعاونة ألا وهو «المرابطون».

أصبح فقهاء المغرب الأقصى والأحرار المتطلعون لتحكيم شرع الله في مدنهم يتصلون بالمرابطين، ويطلبون منهم مساعدتهم لأزالة الظلم الواقع عليهم من حكام زناتة، وبالفعل لبى المرابطون هذا النداء وتحركت جيوشهم القوية لإزالة المظالم ونشر العدل، والقضاء على دولة برغواطة الملحدة، وعلى بقايا الروافض، وأصبحت جبهاتهم متعددة نحو السنغال

والنيجر ونحو فاس ومكناس وطنجة، وحققوا انتصارات رفيعة ودخلت أمم من الزنوج والوثنيين في الإسلام.

[٨] استمر الإمام ابن ياسين يقود معارك التوحيد للمغرب الأقصى من أجل إقامة دولة سنية، واستشهد في تلك المعارك بعد أن ترك خلفه رجالاً آمنوا بسمو دعوتهم وقدسية فكرتهم وروعة أهدافهم.

[٩] تولى قيادة المرابطين بعده الإمام أبو بكر بن عمر الذي تميز بزهده وعبادته وبساطته وحبه للجهاد والاستشهاد، وكان إذا ركب للجهاد ركب معه ٥٠٠ ألف مقاتل من المرابطين، فوضع هذا القائد الخطوط الأولى لدولة المرابطين وأناب ابن عمه على المغرب، وتحرك بجيش عظيم نحو الصحاري القاحلة لنشر الإسلام في النيجر والسنغال ومالي، وأبلي بلاءً عظيماً، ودخلت أمم وشعوب وقبائل لا يحصيها إلا خالقها في دين الفطرة ودعوة الإسلام الخالدة، ثم رجع إلى ابن عمه الأمير يوسف بن تاشفين في المغرب وجده قد حقق فتوحات عظيمة، ووحد البلاد وقضى على الفساد، وأزال الظلم ونشر العدل، فتنازل عن الإمارة لابن عمه يوسف بعد أن أوصاه بتقوى الله وذكره قدومه على الله، ثم ودعه، ودخل في الصحراء الكبرى بجيشه الداعي إلى رضوان الله وصراطه المستقيم وأكرمه الله بالشهادة في قلب الصحراء الكبرى.

[١٠] تولى أمر المرابطين الأمير يوسف بن تاشفين فنظم المدن وأرسى نظم الحكم وخطط للدولة المرابطية، فشرع في إنشاء دواوينها ومجالسها وإدراتها وجيوشها ووضع الأمراء والفقهاء والقضاة على المدن والقرى، وأشرف على تنفيذ أحكام الله، وأثبتت الأيام والحروب والمحن التي مر بها على أنه قائد عسكري وسياسي من الطراز الأول وأحبه المرابطون والتفوا حوله وتطايرت الركبان في نشر سيرته وعدله وأحبه المسلمون.

[١١] أصاب المسلمين في الأندلس أضرار جسيمة بسبب خنوع ملوك الطوائف للنصارى وضعفهم في الحكم، مما عرض ممالك الأندلس لأطماع النصارى الحاقدين الذين جاسوا خلال الديار في الأندلس يقتلون ويذبحون ويسبون وأصبحت ممالك الأندلس الإسلامية تتساقط في أيديهم مدينة بعد مدينة وقرية إثر قرية، وحصن خلف حصن، وركب المسلمين فزع عظيم فاضطر ملوك الطوائف أن يطلبوا الغوث والنصر من الأمير الرباني والقائد الميداني يوسف بن تاشفين، وكان قرار حكام الأندلس في استدعاء يوسف حكيماً وتبناه الملك المعتمد بن عبّاد بكل ما يملك من حجة وقوة، ولما قالوا للمعتمد سيضم الأمير يوسف إليه الأندلس، فقال قولته المشهورة التي أصبحت مثلاً رائعاً على العصور وكر الدهرو تتعلم منه الأجيال الوفاء لدينها والولاء لعقيدتها حيث قال: «رعي الإبل ولا رعي الخنازير»، وقال المعتمد لابنه إن استدعاء الأمير يوسف أمر يرضي الله تعالى، ولن أكون أبداً سبباً في ضياع ديار المسلمين.

[١٢] استجاب الأمير يوسف لدعوة إخوانه في العقيدة وعرض الأمر على أهل شورته وتحصل على موافقة العلماء والفقهاء ورجال الدول المرابطية، وحرك كتائب المرابطين بفرسانها الشجعان وجنودها الأبطال وعبر المضيق، وقاد الأمير يوسف كتائب المسلمين في الأندلس، ووضع مع أركان جيشه خطة محكمة للقضاء على جيش ألفونسو النصراني وسطر المرابطون في تاريخ أمتنا ملاحم العقيدة والفداء في معركة الزلاقة، وانتصر المسلمون وانهزم النصارى وحفظ الله الإسلام في الأندلس لقرون بعد تلك المعركة التاريخية، وبعد هذا النصر الرائع والنفيس الذي حققه المرابطون ورفعوا به راية الإسلام في سماء الأندلس رجع الأمير يوسف إلى المغرب وترك الغنائم لملوك الأندلس الذين اختلفوا بعد ذلك وكادوا أن يضيعوا الإسلام

من جديد في تلك الديار فطلب فقهاء الأندلس من الأمير يوسف ضم الأندلس لحكم المرابطين، وشجعه علماء المغرب وتحصل على فتاوى من علماء المشرق من أمثال أبي بكر الطرطوشي في مصر، وأبي حامد الغزالي في العراق.

[١٣] استطاع يوسف بن تاشفين أن يفتح مدن الأندلس، وأن يضم الممالك إلى دولة المرابطين، وأسر بعض ملوك الأندلس الذين ثبت تعاونهم مع النصارى ووضعهم في المغرب إلى أن توفاهم الله، وبذلك قضى على مهزلة ملوك الطوائف.

[١٤] حاول المستشرقون أن يلطخوا دولة المرابطين وخصوصاً الأمير يوسف إلا أنهم اصطدموا بحقائق التاريخ الناصعة التي دلت على عظمة الأمير يوسف ودولته الميمونة وحاول المستشرق رينهارت دوزي أن يشوه دولة المرابطين ويصفها بالبربرية والتخلف، ويصف السلطان علي بن يوسف بالرجل التافه، ويمدح ملوك الطوائف في الأندلس الذين تحالفوا مع النصارى للقضاء على الإسلام والمسلمين، وشنّ حملة مسعورة على جهاد المرابطين الذين حققوا وحدة صفوف المسلمين، وهزموا أعداءهم النصارى، وخلصوا المسلمين من هؤلاء الملوك الضعفاء ، لقد شتم دوزي المستشرق الأمير يوسف ووصفه هو وابنه بأنهم تافهون، وأنا لا أستغرب من دوزي المستشرق أن يفقد توازنه ويخرج عن نهج المؤرخين النزهاء ، لقد كان المستشرق دوزي ملحداً زنديقاً عدواً للإسلام والمسلمين، كيف تريده أن يتحمل شعارات المرابطين الدالة على سمو عقيدتهم وطهارة منهجهم، وكأني بالمستشرق دوزي وهو يقلب الدينار المرابطي والمكتوب على وجهيه «لا إله إلا الله محمد رسول الله» ﴿ **وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٨٥)** ﴾[آل عمران : ٨٥].

وقد اشتاط غضباً وفقد عقله وغرق في كفره، فأباح لنفسه الكذب والافتراء والزور ليهدئ من روعه وانفعاله كيف يكون تافهاً من يوحد المغرب الأقصى ويضم إليه الأندلس ويقضي على ملوك الطوائف؟ لقد وصف المؤرخون المنصفون الأمير يوسف بأنه كان حازماً ضابطاً للنفس ماضي العزيمة عالي الهمة تحركه عقيدته الإسلامية وشريعته الربانية، أما دولة المرابطين فقد أثبت التاريخ أنها دولة حضارة وعلم وثقافة، وأما ما قام به أعداؤهم في وصفها بالتخلف الحضاري والتعصب المذهبي فهو قول باطل لا تسعفه الأدلة عارٍ من الحقائق، وما كان دافع خصومهم من الموحدين والأندلسيين الذين حملوا عليهم حملة ظالمة إلا من باب التعصب الديني أو المذهبي، أو كراهية سياسية أو قومية حاولوا النيل من دولة المرابطين السنية، وتابع أولئك الأقوام الذين مضوا بعض المستشرقين المحدثين أمثال المتعالم الحاقد الهولندي راينهارت دوزي وتابعه على ذلك نفر من المعاصرين أمثال ارشيبالد لويس في كتابه «القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط».

[١٥] يعتبر ضم الأندلس إلى دولة المرابطين من أعظم أعمال الأمير يوسف بن تاشفين الجهادية.

[١٦] كانت نظرة دولة المرابطين إلى الخلافة الإسلامية ا لعباسية في بغداد صائبة صحية لكونها منبثقة من منهج أهل السُنَّة والجماعة، ولذلك بايعوا الخليفة العباسي ورفعوا أعلامه وشعاره ودعوا له على منابرهم.

[١٧] كانت علاقة الدولة المرابطية بالخلافة العبيدية في مصر عدائية لاختلاف العقائد والمناهج والمذاهب، ولذلك حرص المرابطون على اقتلاع بقايا الرفض والتشيع من دولتهم.

[١٨] كانت علاقة دولة المرابطين بالدولة الزيرية الصنهاجية ذات أبعاد

استراتيجية تعاونية، بسبب وحدة المنهج والمعتقد والمذهب والقرابة التي بين زعماء الدولتين، ولذلك نجد تنسيقاً في البحر المتوسط للإغارة على أساطيل النصارى، ونجد دعماً اقتصادياً من دولة تميم بن المعز الزيري لدولة المرابطين عندما خاضوا جهادهم المقدس ضد النصارى.

[١٩] أما علاقة بني حماد بالمرابطين فهي محفوفة بالتخوف من الطرفين، حيث نجد أن لبني حماد أطماعاً توسعية تستهدف أطرافاً من دولة المرابطين كما نجد أن المعارضين الأندلسيين للمرابطين استقروا في حماية بني حماد، إلا أن سياسة الأمير يوسف مع بني حماد تميزت بالحكمة وبعد النظر والابتعاد عن الصدام مراعياً في ذلك أموراً عديدة منها قرابتهم واتحادهم في المنهج والمعتقد والمذهب.

[٢٠] كانت علاقة المرابطين مع ملوك النصارى عدائية، أما مع أهل الذمة فكانت محكومة بحكم الشريعة فيهم، فقامت على العدل والإنصاف.

[٢١] كانت الأندلس مليئة بالشعراء والأدباء والفقهاء، إلا أن الولاء والبراء ضاع مفهومه عند كثير من ملوكهم.

[٢٢] استطاع الأندلسيون أن يثروا دولة المرابطين بالشعراء والأدباء، وأن يأثروا في كثير من جوانبها المعمارية والفنية والثقافية.

[٢٣] الحضارة الإسلامية في زمن دولة المرابطين امتزجت بالعناصر الإفريقية والعربية والأندلسية مما جعلها متميزة في كثير من جوانبها الحضارية.

[٢٤] كان في زمن المرابطين علماء وفقهاء ، لا زال أثرهم في الأمة سارياً إلى يومنا هذا ، من أمثال الفقيه القاضي أبو بكر بن العربي، وأبو الوليد ابن رشد، والقاضي عياض ، والمحدث الفقيه أبو علي الصدفي ، وغيرهم كثير.

[٢٥] وكان النظام العسكري والقضائي والإداري والمالي مواكباً لعصره، منضبطاً بأحكام الإسلام في دولة المرابطين.

[٢٦] استطاع أسطول المرابطين أن يحقق الأمن والأمان لمسلمي الشمال الإفريقي، وأن يكبل النصارى في جنوب البحر المتوسط خسائر هائلة.

[٢٧] إن اهتمام الأمير علي بن يوسف بالزهد والعبادة وتسليمه لأمور الملك في آخر أيامة للأمراء خطأ عظيم كلف دولة المرابطين متاعب عظيمة، ومن أعظم الأخطاء التي وقع فيها الأمير علي عدم أخذه بنصيحة وزيره الفقيه مالك بن وهيب الإشبيلي الذي أشار على الأمير علي بقتل محمد بن تومرت الكذّاب زعيم الموحدين وقال للأمير: «هذا رجل مفسد لا تؤمن غائلته ، ولا يسمع كلامه أحد إلا مال إليه، وإن وقع في بلاد المصامدة صار علينا منه شر كبير».

إلا أن الأمير علي بن يوسف رفض قتله، فلما يئس مما أراده من قتل ابن تومرت، أشار عليه بسجنه حتى يموت، فقال أمير المسلمين نسجنه، ولم يتعين لنا عليه حق؟ وهل السجن إلا أخو القتل، ولكن نأمره يخرج عنا من البلد وليتوجه حيث شاء [١] .

[٢٨] إن من أعظم أسباب سقوط الدولة الذنوب والمعاصي وارتكاب الكبائر والمظالم.

[٢٩] في زمن أمير المسلمين يوسف بن تاشفين كانت مقومات النصر متجسدة في دولته، ومن أبين وأهم ما ظهر لي في هذا البحث من مقومات النصر من أهمها، أولاً: الإعداد قبل المعركة، ثانياً: معرفة قوة العدو وإمكاناته ، التوجيه المعنوي، التعمية على العدو، والتحام القيادة مع الشعب، متانة

(١) موسوعة المغربي العربي(جـ٢ / ١٨٨ ، ٢٨٩) .

العقيدة ووضوحها، القيادة المثلى، عدم القتال لدنيا ، الحكمة في اتخاذ القرارات، صفات المجاهدين الخلقية والروحية، مما مهدت لهم طريق النصر.

[٣٠] من أخطر ما تمر به الدول والحركات عدم قدرتها على توريث أفكارها ومناهجها وعقيدتها للجيل الذي بعدها.

[٣١] إن الاستهانة بالخصوم تؤدي إلى انهزام المستهزئ وانتصار المستهزأ به.

[٣٢] كان لنفوذ المرابطين في بلاد الأندلس أثر واضح المعالم في الحروب الصليبية في الشام، إذ إن دخولهم الأندلس منع الممالك الصليبية التي كانت تتجه إلى بلاد الشام، بل إن ظهورهم في تلك المرحلة التاريخية في المغرب والأندلس قد حال دون اشتراك القوى الأوربية بكل ثقلها في الحروب الصليبية في الشرق، وبذلك قدم المرابطون خدمات عظيمة وجليلة للشرق الإسلامي [١].

[٣٣] كانت حضارة المرابطين في الأندلس والغرب مقصداً لأبناء العلم من الأوروبيين الذين توالوا وتوافدوا على الأندلس لتلقي العلوم والصناعات، بل إن بعض ملوكهم أرسل بعثات لدراسة نظام الدولة والحكم وآداب السلوك، وكل ما يؤدي إلى سير الأمور في الدولة والسير بها في مضمار الحضارة والتقدم.

[٣٤] تركت دولة المرابطين التي لم يصل عمرها الزمني إلى مئة عام وهي فترة قصيرة في عمر الدول آثاراً واضحة جلية في جميع مجالات، بل إن تلك المآثر الحضارية تعدت حدود دولة المرابطين إلى أرجاء أخرى من العالم الإسلامي.

---

(١) موسوعة المغرب العربي (جـ٢ /١٨٨ - ١٨٩)

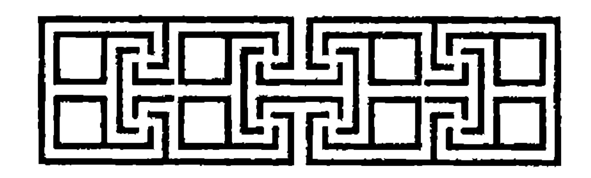
[٣٥] إن ظهور دولة الموحدين وانقضاضها بعنف على دولة المرابطين تسبب في ضعف النواحي الحضارية والثقافية والسياسية والعسكرية عند المغاربة عموماً، وفتحت مجالاً لملوك النصارى للقضاء على الإسلام في الأندلس فيما بعد.

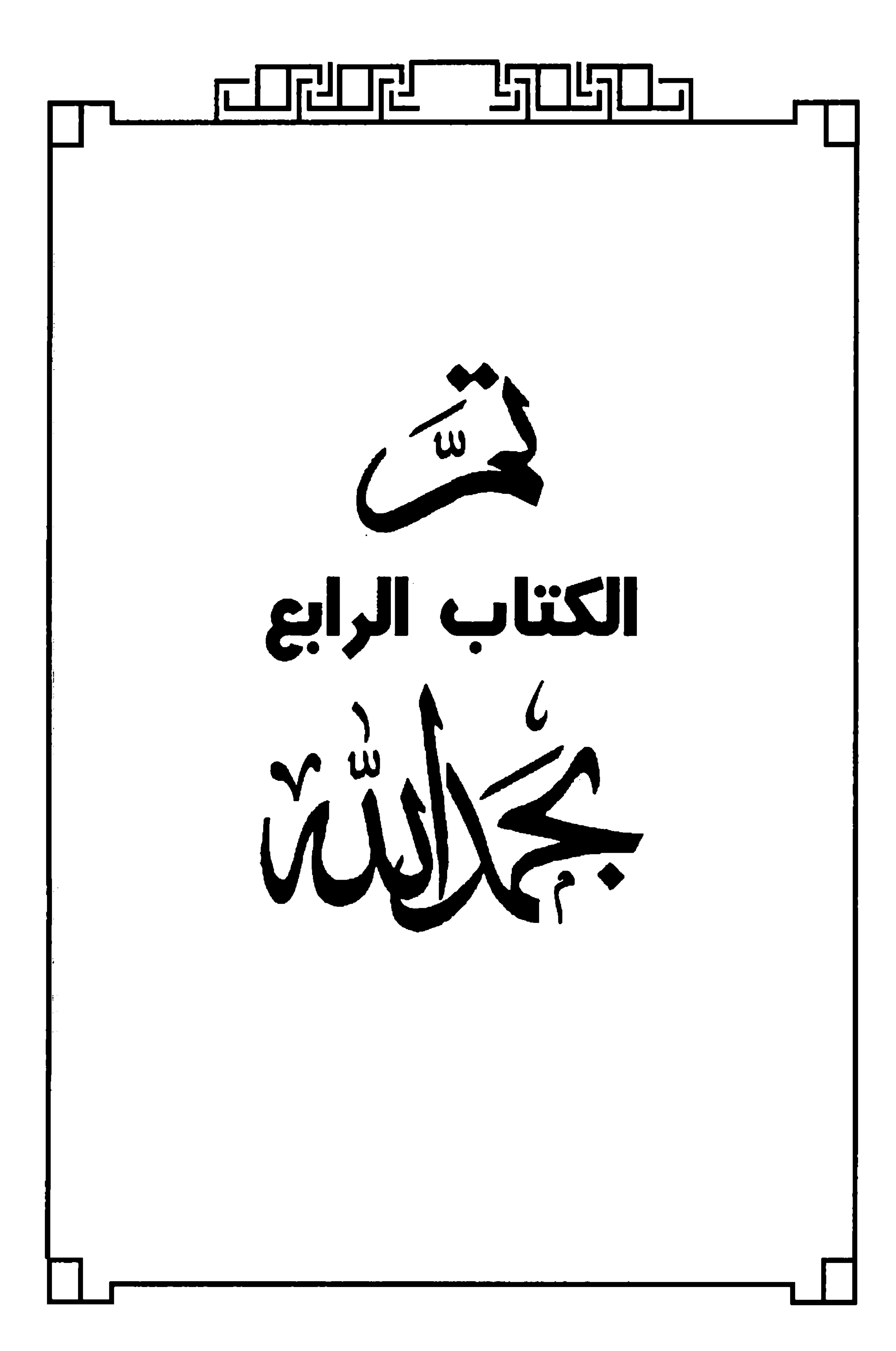
[٣٦] سُنَّة الله جارية في إعزاز من يشاء وإذلال من يشاء، ونزع الملك ممن يشاء وإعطائه لمن يشاء.

كتبه

علي محمد محمد الصلابي

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين




تم
الكتاب الرابع
بحمد الله



الكتاب الخامس

دولة الموحدين

سقوط الأندلس الإسلامية ومحاكم التفتيش البربرية

مُقَدِّمَة

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ .

[آل عمران: ١٠٢].

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء: ١].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧١) ﴾ .

[الأحزاب: ٧٠ - ٧١].

أما بعد :

يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك ، وعظيم سلطانك ، لك الحمد حتى ترضى ، ولك الحمد إذا رضيت.

هذا الكتاب الخامس **[صفحات من التاريخ الإسلامي في الشمال الإفريقي]** يتحدث عن **[دولة الموحدين]** ، فيعطي صورة واضحة عن مؤسس الدولة محمد ابن تومرت ويوضح عقيدته المنحرفة والأُسس الفكرية التي عليها دعوته الباطلة ، ويبين أعماله الظالمة والجائرة ، ويقف على حقيقة الصراع مع دولة المرابطين ، ويتكلم عن بواعث القتال وسفك الدماء ، وهتك الأعراض عند الموحدين ، ويسلط الضوء على المراحل التي مرت بها دعوة ابن تومرت والأسباب التي اتخذها للوصول إلى أهدافه ويشير إلى أهمية تحصين الأمة بعقائد أهل السُّنَّة

والجماعة حتي تسلم من العقائد الفاسدة والدعوات الباطلة والمناهج المنحرفة، ويعطي نبذة مختصرة عن سلاطين الموحدين ابتداء من عبد المؤمن بن على الذي سقطت على يديه دولة المرابطين ووحدالشمال الإفريقي بقوة السلاح والذي وضع معالم سياسية لدولة الموحدين سار أبناؤه وأحفاده عليها من بعده ، ويتكلم عن المعارك الفاصلة في تاريخ الموحدين مثل معركة الأرك التي قادها أبو يوسف يعقوب المنصور في عام (٥٩١ هـ) فيتعرض لوصف حي للمعركة وأسباب انتصار المسلمين فيها والنتائج التي ترتبت عليها ويثني على المجهودات العظيمة التي بذلها السلطان يعقوب المنصور من أجل إصلاح عقائد الموحدين والاقتراب بهم من منهج أهل السُنَّة والجماعة ويتحدث عن طلب صلاح الدين الأيوبي من السلطان يعقوب المنصور بإمداده بالسفن والمعدات الحربية ، ويذكر الأسباب الَّتي منعت السلطان يعقوب من تلبية طلب صلاح الدين والوقوف معه في جهاده ضد النصارى.

ويسلط الأضواء على الثورات التي في الأندلس والمغرب الأقصى والأوسط والأدنى ضد دولة الموحدين وكيف تعامل الموحدون مع هذه الثورات وما هي أسبابها وما هي الآثار التي تركتها تلك الثورات في الشمال الإفريقي.

ويقف وقفات متأملة مع أسباب سقوط دولة الموحدين، فيشير إلى السُنن الإلهية والأسباب القريبة والبعيدة التي ساهمت في سقوطها.

ويتحدث عن الدويلات في الأندلس والشمال الإفريقي، فيتكلم عن مملكة غرناطة وأسباب صمودها ضد النصارى ودور المرينيين حكام المغرب الأقصى في الوقوف مع مسلمي الأندلس ويتعرض لسقوط غرناطة ومحاكم التفتيش ويقف عند الأسباب التي ساهمت في ضياع الأندلس ويتكلم عن دولة بني مرين في المغرب الأقصى ومنهجها التي قامت عليه ومحاولاتها المستمرة لتوحيد الشمال الإفريقي ويتحدث عن أسباب سقوطها وكيف تولى الوطاسيون الحكم بعدهم

ثم كيف انتزعه السعديون منهم ويثني على أعمال السلطان عبد الملك السعدي الذي حقق نصراً عزيزاً على نصارى البرتغال في معركة وادي المخازن بالمغرب الأقصى في عام (٩٨٦هـ) ، والذي استشهد في المعركة وتولى أخوه أبو العباس أحمد المنصور القيادة من بعده ويمضي بالقارئ الكريم إلى فترة انهيار الدولة السعدية ليقف على أسباب سقوطها ويتعرض لدولة بني عبد الواد في المغرب الأوسط ويتحدث عن تنظيمهم الإداري وأسباب بقائهم لمدة ثلاثة قرون ويقف على أسباب سقوطها وكيف جاء العثمانيون المجاهدون وانتزعوا المغرب الأوسط من قبضة الإسبان الغزاة.

ويتحدث عن الدولة الحفصية في إفريقية وأسباب قيامها ونظام ولاية العهد عندهم وعلاقة الدولة الحفصية بطرابلس الغرب ، ويقف على أسباب سقوط الدولةالحفصية ، وكيف جاء العثمانيون المجاهدون وحرروا طرابلس من فرسان ما يُسمى بالقديس يوحنا.

إن هذا الجهد المتواضع لم يأت بجديد وإنما هو جمع وترتيب ومحاولة للتحليل والتفسير للأحداث التاريخية التي وقعت في تلك الحقبة الزمنية، فإن كان خيراً فمن الله وحده وإن أخطأت السبيل فأنا عنه راجع إن تبين لي ذلك والمجال مفتوح للنقد والرد والتعليق والتوجيه.

وهدفي من الكتاب :

[١] بيان خطورة الدعوات التي بنيت على أسس فكرية منحرفة ، وعقدية فاسدة.

[٢] أهمية تحصين الأمة وأجيالها بعقيدة أهل السُنَّة والجماعة وتربية أبنائها عليها ، حتي يسهل للأمة معرفة المعتقدات الباطلة والمناهج المنحرفة التي تخالف القرآن الكريم وسُنَّة سيد المرسلين ﷺ ، وإجماع العلماء الراسخين.

[٣] تسهيل مبدأ الاعتبار والاتعاظ بمعرفة أحوال الدول وعوامل بنائها، وأسباب

سقوطها ، والنظر في سنن الله في الآفاق وفي الأنفس والمجتمعات .

[٤] التعريف ببعض العلماء العاملين والفقهاء الراسخين الذين سقطوا شهداء في ساحات الجهاد ضد النصارى الحاقدين .

[٥] إثراء المكتبة الإسلامية التاريخية بالأبحاث المنبثقة عن عقيدة صحيحة ، وتصور سليم بعيدة عن سموم المستشرقين ، وأفكار العلمانيين الذين يسعون لقلب الحقائق التاريخية من أجل أهدافهم .

[٦] كشف المغالطات التاريخية التي أضفت على المفسدين ثوب الإصلاح وجعلتهم من زعماء الأمة ومن قادتها العظام .

[٧] بيان أن حركات الإصلاح التي تستحق التقدير والاحترام من الأمة ؛ هي التي سارت وتسير على منهج أهل السُنَّة والجماعة في العقائد والعبادات والأخلاق والمعاملات .

[٨] بيان أن الذين كفَّروا المسلمين ، وسفكوا دماءهم وهتكوا أعراضهم قادةٌ في الفساد والدمار والإجرام .

هذا وقد قمت بتقسيم الكتاب إلى ثلاثة فصول :

الفصل الأول : محمد بن تومرت :

ويشتمل على خمسة مباحث:

المبحث الأول: اسمه ونسبه ورحلاته في طلب العلم .

المبحث الثاني: البعد التاريخي عند ابن تومرت.

المبحث الثالث: مسيرة العودة وخطواته الحركية.

المبحث الرابع: الأسس الفكرية والعقدية لدعوة ابن تومرت.

المبحث الخامس: المنهج التربوي والسياسي عند ابن تومرت.

الفصل الثاني : ويشتمل على أربعة مباحث:

المبحث الأول: عبد المؤمن بن علي .

المبحث الثاني: أبو يعقوب يوسف.

المبحث الثالث: أبو يوسف يعقوب المنصور.

المبحث الرابع: الخليفة الموحدي أبو محمد عبد الله الناصر .

الفصل الثالث: الأندلس والشمال الإفريقي بعد سقوط دولة الموحدين:

ويشتمل على أربعة مباحث:

المبحث الأول: مملكة غرناطة.

المبحث الثاني: دولة بني مرين .

المبحث الثالث: دولة بني عبد الواد.

المبحث الرابع: الدولة الحفصية.

ثم الخلاصة :

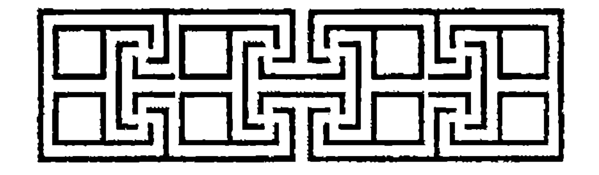
وأخيراً: أرجو من الله تعالى أن يكون عملاً خالصاً لوجهه الكريم وأن يثيبني على كل حرف كتبته، ويجعله في ميزان حسناتي ، وأن يثيب إخواني الذين أعانوني بكافة ما يملكون من أجل إتمام هذا الكتاب .

إنه ولي ذلك والقادر عليه ، سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

كتبه

علي محمد محمد الصلابي

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين



الفصل الأول

محمد بن تومرت

المبحث الأول

اسمه ونسبه، ورحلاته في طلب العلم وشيوخه

[أ] اسمه ونسبه :

اختلف المؤرخون في تحديد نسب ابن تومرت فبعضهم قال: إنه عربي، وينتهي نسبه إلى الرسول ﷺ عن طريق ابنته فاطمة من زوجها عليّ، والبعض الآخر يجعل نسبه بربرياً صرفاً. والبعض الآخر يجعله نسباً مختلطاً بين البربر والعرب هذا وإن كان ابن تومرت والموحدون من بعده يصرون على أن المهدي عربي النسب، قرشي الأصل من صلب الرسول ﷺ [١] .

والمتتبع لتاريخ ابن تومرت يدرك أنه لم يظهر ادعاءه النسب القرشي دفعه واحدة بل إنه تدرج في هذا الأمر، حتي يضمن قبول الناس له، فبعد أن اطمأن لقبول دعوته، وإلي تمكنه من أتباعه، أخذ يشوقهم إلى المهدي ونسبه ، فلما قبلوا هذا الأمر ، ادعى ذلك الأمر لنفسه.

ويذهب ابن خلدون إلى إثبات أن نسبه يرجع إلى الرسول ﷺ ، حيث قال: (وأما إنكارهم نسبه في أهل البيت فلا تعضده حجة لهم، مع أنه إن ثبت أنه ادعاه وانتسب إليه ، فلا دليل يقوم على بطلانه ؛ لأن الناس مصدقون في أنسابهم» [٢] .

---

(١) انظر : سقوط دولة الموحدين ، د . مراجع عقيلة(ص ٣٦)

(٢) ابن خلدون ، المقدمة(ص ٢٦) .

وقول ابن خلدون فيه نظر؛ لأن المؤرخين الأثبات والثقات أثبتوا أن محمد بن تومرت لا يتورع عن الكذب والدجل من أجل الوصول إلى أهدافه (١) .

ووافق ابن خلدون من المعاصرين الدكتور عبد المجيد النجار (٢) في صحة نسب ابن تومرت إلى بيت النبي ﷺ وادعي أن صحة هذا النسب تبقي قائمة من حيث الإمكان التاريخي والجغرافي والعقلي.

ويرى محمد بن عبد الله عنان من المعاصرين أن هذا الادعاء ما هو إلا نحلة باطلة، وثوباً مستعاراً قصد وراءها ابن تومرت أن يدعم بها صفة المهدي الذي انتحلها أيضاً شعاراً لإمامته ورياسته (٣) .

والذي يظهر من البحث العلمي النزيه ، أن محمد بن تومرت ادعى النسب القرشي الهاشمي كوسيلة لكسب الأنصار لدعوته الناشئة ، **والذي قادنا إلى هذا الاستنتاج ما يلي:**

[١] أنه لم يشتهر بين المؤرخين لا سيما علماء الأنساب منهم أن ابن تومرت يعود إلى أصل عربي ، وإنما معظم الذين قالوا بهذا من مؤرخي الدولة الموحدية الذين سجلوا تاريخها بوحي من سلاطينها وأمرائها، أو بتأثر بدعوة ابن تومرت (٤) .

[٢] أن هذا الادعاء كان مألوفاً عند أصحاب المطامح الدينية والسياسية في بلاد المغرب كما لا حظنا في دراسة الدولة العبيدية الرافضية.

[٣] ويضاف إلى ما سبق أن انتساب ابن تومرت إلى الأصل العربي لم يكن معروفاً عند أتباعه إلا بعد ادعى ذلك لحاجة في نفسه (٥) .

---

(١) **انظر** : الذهبي ، سير أعلام النبلاء (١٩/ ٥٣٣٩) .

(٢) **انظر** : تجربة الإصلاح في حركة ابن تومرت ، د . عبد المجيد (ص ٥٦) .

(٣) **انظر** : عصر المرابطين والموحدين (ص ٥٥٧) .

(٤) من هؤلاء المؤرخين ، أبو بكر الصنهاجي المعروف بالبيذق ، وابن القطان ، وغيرهم .

(٥) **انظر** : مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود ، العدد السادس (ص ٥٥٨) .

أما تاريخ ميلاده :

فقد ذكر المؤرخون عدة روايات تدل على اضطرابهم في تحيد سنة الولادة، فمنهم من قال :٤٧٣هـ [١] ومنهم من قال :٤٨٥هـ [٢] ومنهم من قال :٤٦٩هـ ، ورجح الدكتور عبد المجيد النجار أنه ولد سنة ٤٧٣هـ [٣] .

ولم تعط المصادر التاريخية نبذة موسعة عن أسرته ، وإنما وردت الأخبار التي تدل الباحث على أن أسرته كانت من أواسط القوم غير بارزة الجاه والثروة وكانت على مكانة دينية حيث يقول ابن خلدون : « وكان أهل بيته أهل نسك ورباط » [٤] ، كما أنها كانت تحافظ على العلاقات الأسرية الحميمة بين أفرادها كما يبدو من شوق والد ابن تومرت وأخويه عيسى وعبد العزيز وأخته زينب إليه لما طالت غيبته بالمشرق،ثم احتضانه ومؤازرته بعد عودته من تلك الغيبة » [٥] .

وعندما كان طفلاً تلقى دراسته الأولية بالكتاتيب في قريته، فتعلم القرآن حفظاً ورسماً وقراءة على عادة المغاربة كما وصفها ابن خلدون في قوله: (أما أهل المغرب فمذهبهم في الولدان الاقتصار على تعليم القرآن فقط، وأخذ هم أثناء الدراسة بالرسم ومسائله واختلاف حملة القرآن فيه. . .إلى أن يجاوزوا حد البلوغ إلى الشبيبة [٦] .

وربما قبل رحلته إلى المشرق تعلم العربية وأدبها وشيئاً من الفقه، لقد ظهر اهتمامه وشغفه بالعلم منذ شبابه قال ابن خلدون : « وشب محمد هذا قارئاً للعلم، وكان يسمى « آسفو » ومعناه الضياء لكثرة ما كان يسرج في القناديل

---

(١) **انظر** : سقوط دولة الموحدين(ص ٣٦) .

(٢) **انظر** : وفيات الأعيان لابن خلكان(٥ /٥٢) .

(٣) **انظر** : تجربة الإصلاح في حركة المهدي ابن تومرت(ص ٥٧) .

(٤) ابن خلدون ، العبر(٦ /٢٢٦) .

(٥) ابن خلدون ، المقدمة(ص ٥٠٦) .

(٦) ابن خلدون ، المقدمة(ص ٥٠٦) .

بالمساجد لملازمتها» [١] .

[ب] رحلته في طلب العلم:

تاقت نفسه للمزيد من العلوم الشرعية، فقصد المشرق الإسلامي لينهل من منابع العلم، ومصادر المعارف،ومهد الحضارات ما يفيده في تحقيق أهدافه التي يرنو إليها.

فبدأت رحلته في عام ٥٠٠هـ، فحج وشرع في طلب العلم، ودامت رحلته خمسة عشر عاماً كان لها الأثر المباشر في تشكيل شخصيته والتأثير في آرائه وأفكاره.

ومكث في العواصم الإسلامية من أجل التعلم والتتلمذ على العلماء في كل من بغداد، والإسكندرية والحجاز، وكان قبل الرحلة المغربية سافر إلى الأندلس حيث نزل بقرطبة [٢] ودرس بها على القاضي أبي جعفر حمدين بن محمد بن حمدين إلا أن الأقامة في قرطبة لم تدم طويلاً بل كانت محطة للعبور [٣] .

ومن الأندلس توجه المهدي إلى تونس بحراً ونزل بالمهدية حيث درس بها على أبي عبد الله المازري، ثم قصد مصر عن طريق جزيرة جربة حيث أقام بها بعض أيام [٤] .

ثم توجه إلى الديار المصرية وتلقى دروساً وأخذ علماً من الشيخ أبى بكر الطرطوشي ولم يمكث طويلاً في مصر حيث فضل الذهاب إلى الحجاز لحج البيت الحرام أداء الفريضة [٥] وتوجه من الحجاز نحو العراق ومكث بها ما يزيد على

---

(١) تاريخ ابن خلدون (٦ / ٢٢٦).

(٢) البيان المغرب (١ / ٤٣٥).

(٣) نفس المصدر السابق (١ / ٤٣٥).

(٤) **انظر** : تجربة الإصلاح لابن تومرت (ص٥٩).

(٥) **انظر** : ابن خلدون (٦ / ٢٢٦).

عشر سنوات وهناك تبحر في علم الكلام وعقائد الاعتزال، والأشاعرة وأخذ من كل ما يخدم فكرته طرفاً قال ابن خلدون: ودخل العراق، ولقي جلة العلماء يومئذ وفحول النظار، وأفاد علماً واسعاً [١] .

ومن أشهر شيوخه في بلاد المشرق الإسلامي: الغزالي، وآلكيا الهراسي، والمبارك بن عبد الجبار، وأبو بكر الشاشي.

وكان الإمام الغزالي (ت ٥٠٥هـ) مبرزاً في علم أصول الدين والتصوف ومتبحراً في علم الكلام ووقع في أغلاط وأخطاء، قال الذهبي عن كتابه الإحياء: (أما الإحياء ففيه من الأحاديث الباطلة جملة، وفيه خير كثير لولا ما فيه من آداب ورسوم، وزهد من طرائق الحكماء ومنحرفي الصوفية نسأل الله علماً نافعاً.

تدري ما العلم النافع؟ هو ما نزل به القرآن وفسره الرسول ﷺ قولاً وفعلاً، ولم يأت نهي عنه قال ﷺ: « **من رغب عن سُنَّتي فليس مني** » [٢] .

فعليك يا أخي بتدبر كتاب الله وبإدمان النظر في الصحيحين، وسنن النسائي، ورياض النووي، وأذكاره، تفلح وتنجح. وإياك وآراء عباد الفلاسفة، ووظائف أهل الرياضيات، وجوع الرهبان وخطاب طيش رءوس أصحاب الخلوات، فكل الخير في متابعة الحنيفية السمحة، فواغوثاه بالله، اللهم اهدنا إلى صراطك المستقيم، نعم» ولم ينس الذهبي أن يوفي الإمام الغزالي حقه قائلاً: «فرحم الله الإمام أبا حامد فأين مثله في علومه وفضائله؟ ولكن لا ندعي عصمة من الغلط والخطأ، ولا تقليد في الأصول» [٣] .

وقال الشيخ الطرطوشي [٤] **في رسالة له إلى ابن مظفر:** (فأما ما ذكرت

---

(١) ابن خلدون، العبر (٦/٢٢٦).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب النكاح رقم (٥٠٦٣)، ومسلم رقم (١٤٠١).

(٣) سير أعلام النبلاء (١٩/٣٤٠، ٣٤٦).

(٤) توفي عام (٥٢١هـ).

من أبي حامد فقد رأيته، وكلمته فرأيته جليلاً من أهل العلم واجتمع فيه العقل والفهم، ومارس العلوم طول عمره، وفاق على ذلك معظم زمانه، ثم بدا له العدول عن طريق العلماء، ودخل في غمار العمال ثم تصوف وهجر العلوم وأهلها، ودخل في علوم الخواطر، وأرباب القلوب، ووساوس الشيطان، ثم شابها بآراء الفلاسفة، ورموز الحلاج، وجعل يطعن على الفقهاء والمتكلمين، ولقد كاد أن ينسلخ من الدين، فلما عمل «الأحياء» عمد يتكلم في علوم الأحوال، ومرامز الصوفية، وكان غير أنيس بها، ولا خبير بمعرفتها، فسقط على أم رأسه، وشحن كتابه بالموضوعات» [١] .

وأما شيخ الإسلام، ابن تيمية فقد أثني على كتاب الإحياء قائلاً بأن غالبه جيد وأن فيه فوائد كثيرة لكنه أشار إلى أن فيه بعض مواد مذمومة وفا سدة من كلام الفلاسفة تتعلق بالتوحيد والنبوة والمعاد، وأضاف أن بعض أئمة الدين أنكر على أبي حامد هذا الذي في كتبه وقالوا أمرضه الشفا ـ يعني شفاء ابن سينا في الفلسفة ـ وقال: «وفي الإحياء أحاديث وآثار ضعيفة بل موضوعه كثيرة. وفيه أشياء من أغاليط الصوفية وترهاتهم ،وفيه مع ذلك كلام المشايخ الصوفية العارفين المستقيمين في أعمال القلوب الموافق للكتاب والسُنة وما هو أكثر مما يرد منه» [٢] .

وقد كان يتعرض دائماً لآراء الغزالى في أكثر كتبه ، وينقد ما جاء فيها بأسلوب هادىء علمي وغالباً ما كان يختم الكلام عنه بأنه مات على أحسن أحواله بعد أن كان في أواخر عمره مقبلاً على كتب الحديث ، وأنه قد مات وصحيح البخاري على صدره [٣] .

---

(١) سير أعلام النبلاء (١٩ / ٣٤١) .

(٢) درء تعارض العقل والنقل (٦ / ٢١٠) .

(٣) فتاوى ابن تيمية (١٠ / ٥٥١-٥٥٢) ، (٦ / ٥٥) .

إن بعض الكتاب عرضوا الغزالي كعالم قد تتلمذ على يديه ابن تومرت وأن الغزالي كان ينزع منزع التحرر العقلي ويشجب الجمود على التقليد[١] وإن ابن تومرت تأثر به ، وكان ابن تومرت رجلاً متحرراً من الجمود والتقليد ومتنوراً في أطروحته التغييرية.

ولا بد من بيان إن الغزالي كان مضطرباً في منهجه العقدي ولم تكن مسائل العقائد التي طرحها منسجمة مع أصول منهج أهل السُنَّة والجماعة، وأن ابن تومرت تأثر به واستفاد منه في بعض المسائل ووظفها لأهدافه السياسية.

وأما شيخه أبو علي بن محمد الملقب بعماد الدين، والمعروف بالكيا الهراسي (ت ٥٠٤هـ/ ١١١٠م)، فقد كان عالماً في الفقه والأصول والخلافيات والتفسير، وله في التفسير كتاب (أحكام القرآن).

وأما المبارك بن عبد الجبار (ت٥٠٠هـ/١١٠٦م) فقد كان محدثاً مكثراً، إلا أن ابن تومرت لم يطل تتلمذه عليه حيث توفي في نفس السَّنة التي قدم فيها إلى بغداد.

وأما أبو بكر الشاشي (ت٥٠٧هـ)، فقد كان عالماً في أصول الدين وأصول الفقه، كما كان في الفقه رأس الأئمة الشافعية بالعراق، وألف في المذهب كتابه «المستظهري»[٢] وكان من شيوخه أيضاً أبو بكر محمد بن الوليد الطرطوشي (ت٥٢١هـ) الذي أخذ عنه ابن تومرت العلم في الإسكندرية، وكان متميزاً في الفقه، ومتمكناً في السياسة الشرعية التي ألف فيها كتاب «سراج الملوك»، كما كان الطرطوشي مهتماً بنشر السُنَّة ومحاربة البدعة وألف كتابه «الحوادث والبدع».

لقد استطاع ابن تومرت أن يستفيد من رحلته المشرقية وأن يتحصل على

---

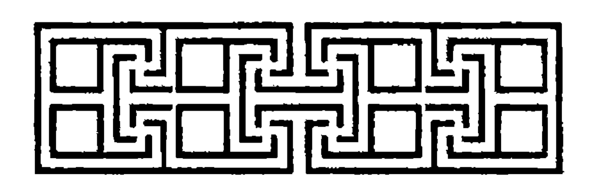
(١) انظر : تجربة الإصالح في حركة ابن تومرت(ص٦١) .

(٢) انظر : تجربة الإصلاح في حركة ابن تومرت(ص ٦١) .

علوم متنوعة تجمع بين العلوم العقلية ، فضبط الأصول ، وعلم الكلام وعقائد الأشاعرة وتأثر بالمعتزلة وغيرذلك من العلوم [١] .

ورأى عن كثب أقطاب المدارس الفكرية من الأشاعرة والمعتزلة والشيعة وغيرها من المذاهب وحضر مناقشتهم وندواتهم واطلع على فلسفتهم وروح حركاتهم وبذلك تبلورت آراؤه وأفكاره.

وساعدته رحلاته المغربية والمشرقية على الوقوف على أحوال العالم الإسلامي، واستوعب أسباب الانهيار والتدهور التي تعانيها دول إمارات بلاد المغرب.وكان ذلك من الأسباب القوية التي دفعت به إلى الطموح في القضاء على أنظمة الحكم الموجودة في المغرب، والتخطيط لإقامة دولة موحدية قوية لا في بلاد المغرب وحدها، بل والعالم الإسلامي كله [٢] .



(١) المصدر السابق نفسه (ص ٦٢).
(٢) **انظر** : سقوط الموحدين (ص ٣٧ ، ٣٨).

المبحث الثاني

البعد التاريخي عند محمد بن تومرت

نظر ابن تومرت في المدارس الفكرية الرئيسية التي وجدت في بلاد المغرب قبله ، وخصوصاً تلك المدارس والأفكار والمذاهب التي كان لها ثقل مذهبي وسياسي تحميه دولة وشوكة وقوة والتي أكسبت تلك الاتجاهات هيبة ومكانة عند الناس، مما ساعد على شيوعها وانتشارها في مناطق متعددة في الشمال الإفريقي وأهم تلك الاتجاهات والأفكار التي قامت على أسس تحميها دوله في بلاد المغرب والتي استقى منها ابن تومرت أفكاره وزاد عليها .

[١] الاتجاه السني ويمثله دولتا الأغالبه والمرابطين والدولة الزيرية الصنهاجية في اخر عمرها:

وقد أسس دولة الأغالبة في المغرب الأدنى إبراهيم بن الأغلب بن سالم التميمي ، الذي عينه الخليفة العباسي هارون الرشيد (١٧١-١٩٣هـ) سنة١٨٤هـ على ولاية إفريقية ، ثم ما لبث أن عرض على الرشيد الاستقلال الجزئى على الخلافة العباسية ،والاكتفاء بالتبعية الاسمية مقابل دفعه للخلافة العباسية مبلغاً من المال في كل سنة، فوافق له الرشيد على هذا الطلب . وقد توالى على عرش دولة الأغالبة عدد من الأمراء كان آخرهم زيادة الله بن عبد الله بن الأغلب (٢٩٠-٢٩٦هـ) حيث حصل في فترة حكمه انقسام داخلي بين الأغالبة أنفسهم، مما ساعد الدولة العبيدية على القضاء على دولتهم سنة ٢٩٦هـ وقد عمل الأغالبة ـ حين مدة حكمهم ـ على توطيد المذهب السني ونشره في البلاد التي خضعت لنفوذهم في بلاد المغرب ، وصقلية، كما عملوا أيضاً على نشر الحضارة الإسلامية في تلك الديار [١] ، أما دولة المرابطين (٤٥١-٥٤١هـ) فقد قامت في

---

(١) انظر : الأغالبة سياستهم الخارجية (ص٤٤) ، للأستاذ / محمود إسماعيل .

جنوب بلاد المغرب الأقصي بزعامة الفقيه عبد الله بن ياسين ، والأمير يحيى بن إبراهيم الجدالي ثم يحيى بن عمر اللمتوني وتوسعت حتي ضمت المغرب كله والأندلس في عصر القائد الأمير يوسف بن تاشفين وكانت دولة المرابطين على أسس إسلامية سليمة، حيث نهجت نهج أهل السُّنَّة والجماعة، ولم تتأثر بأي نزعة دينية أخرى، وكان من أهم الأسس التي تبنتها «الجهاد في سبيل الله الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتزام أحكام الدين في فروض الزكاة والأعشار وسائر أمور الدولة [1] ، وكان من مآثرهم العظيمة جهادهم ضد النصاري في الأندلس وتحقيق نصرهم على النصارى في معركة الزلاقة بقيادة المجاهد الكبير يوسف بن تاشفين ، وجهادهم في بلاد السنغال والنيجر وجنوب الصحراء الكبرى بقيادة الأمير الرباني العابد الزاهد المجاهد أبي بكر بن عمر الذي استشهد في قلب الصحراء الكبرى (٤٨٠هـ).

وفي مستهل القرن السادس الهجري بدأ الضعف ينتاب دولة المرابطين لاسيما بعد ظهور دعوة ابن تومرت في بلاد المغرب الأقصى، ثم ما لبث الموحدون أن قضوا عليها حينما دخلوا مدينة مراكش وقتلوا السلطان إسحاق بن علي بن يوسف بن تاشفين (٥٣٩-٥٤١هـ) [2] وبهذا تمكن الموحدون من أن يقيموا دولتهم على أنقاض دولة المرابطين في المغرب والأندلس [3] ، وبالإضافة إلى هاتين الدولتين السنيتين، فإن الدولة الزيرية الصنهاجية قد نهجت النهج السُّنِّي في آخر عمرها ،وذلك حينما أعلن المعز بن باديس (٤٠٦-٤٥٣هـ) انفصاله عن الدولة العبيدية في سنة ٤٤٠هـ حيث خلع طاعتهم، وأخذ بمذهب أهل السُّنَّة ، كما لعن الرافضة وقتل من وجده في دياره منهم ، ثم ما لبث أن دعا للخليفة

---

(١) **انظر** : قيام دولة المرابطين ، لحسن محمود (ص ١٦٦) .

(٢) **انظر** : البيان المغرب (٣/ ٢٣) .

(٣) **انظر** : مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود العدد السادس (ص ٥٤١) .

العباسي القائم بأمر الله (٤٢٢-٤٦٧هـ) [١] وبهذا تحول اتجاه هذه الدولة إلى الاتجاه السني، بعد أن كان اتجاهها رافضياً [٢] .

ولقد فصلت في تاريخ دولة الأغالبة في كتابي الثاني (صفحات من التاريخ الإسلامي لله الشمال الإفريقي)، وتكلمت عن الدولة العبيدية الرافضية وكيف قضى عليها سيف السُّنَّة ومزيل البدعة المعز بن باديس في كتابي الثالث (صفحات من التاريخ الإسلامي في الشمال الإفريقي) وتحدثت عن دولة المرابطين وفقه التمكين عن قادتها العظام في كتابي الرابع (صفحات من التاريخ الإسلامي في الشمال الإفريقي) .

[٢] الاتجاه الخارجي: ويمثله دولتا المدراريين (١٤٠ـ ٣٣٧هـ) والرستميين (١٤٤ـ٢٩٦هـ).

وقد قامت دولة بني مدرار في سجلماسة جنوب المغرب الأقصى سنة ١٤٠هـ، على يد عيسى بن يزيدالمكناسي والذي كان يدين بالمذهب الصفري أحد الاتجاهات الرئيسية عند الخوارج ، حيث بسطت هذه الدولة سلطانها على منطقة سجلماسة جنوب بلاد المغرب الأقصى [٣] .

وفي سنة ١٥٥هـقتل أهل سجلماسة زعيمهم عيسى المكناسي لمآخذ أخذوها عليه، ثم ولوا بعده أبا القاسم سمعون بت واسول الملقب بمدرار (١٥٥-١٦٧هـ) وقد تولى على عرش الدلة أبناؤه وأحفاده من بعده حيث تذبذبوا في ولائهم المذهبي والسياسي، فمنهم من خطب للعباسيين، ومنهم من خطب للعبيديين، فلما تولى محمد بن ميمون بن مدرار (٣٣٢ - ٣٤٧هـ) أعلن خروجه على المذهب الخارجي، وأخذ بالمذهب السني، لكن العبيديين قضوا عليه حينما

---

(١) **انظر** : ابن خلدون (٦ / ١٥٩) .

(٢) نفس المصدر السابق .

(٣) **انظر** : دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ، د . أحمد العبادي (ص ٤٦) .

هاجم جوهر الصقلي سجلماسة سنة ٣٤٧هـ وبوفاته انتهت دولة بني مدرار. أما دولة الرستميين، والتي تنهج المذهب الإباضي، فقد أسسها في بلاد المغرب الأوسط عبد الرحمن بن رستم (١٤٤-١٧١هـ) سنة١٤٤هـ حيث اتخذ مدينة تاهرت حاضرة له (١).

ولما توفي عبد الرحمن بن رستم سنة١٧١هـ ترك الأمر شورى، بين سبعة من رجال الدولة الرستمية، وقد اختلف هؤلاء السبعة، فبينما رأى بعضهم مبايعة ابنه عبد الوهاب، رأى آخرون (٢) مبايعة مسعود الأندلسي أحد السبعة الذين ترك عبد الرحمن الأمر فيهم، لكن مسعوداً تنازل لعبد الوهاب، بعد أن كادت الفتن تعصف بالدولة (٣) وقد استمرت هذه الدولة تحكم بلاد المغرب،حتى قضى العبيديون على آخر أمرائها ، وهو اليقظان بن أبي اليقظان (٢٩٢-٢٩٦هـ وذلك سنة ٢٩٦هـ) (٤)، لكن سقوط هذه الدولة لا يعني سقوط المذهب الخارجي في بلاد المغرب ، فقد استمر وجود هذا المذهب هناك حتي بعد سقوط تلك الدولة (٥).

[٣] الاتجاه الرافضي وتمثله دولة العبيديين :

وهذا الاتجاه كان آخر المذاهب الفكرية دخولاً لبلاد المغرب عن طريق الدولة العبيدية التي نشرت هذا المذهب هناك، ولم تقم في بلاد المغرب الأدنى إلا في سنة (٢٩٦هـ).

وبالرغم من كون الدولة العبيدية قد تمكنت من القضاء على الأغالبة، والرستميين، والمدراريين، والأدارسة فاستطاعت بذلك -إلى حد ما- أن تبسط سلطانها السياسي على معظم أقاليم بلاد المغرب ، إلا أنها لم تتمكن من فرض مذهبها الديني على أهالي تلك الديار؛ وذلك لأن الناس لم يتقبلوا أفكار

---

(١) **انظر** : المغرب الكبير (٣/٥٨٣). (٢) المصدر السابق (٢/٥٥٢-٥٥٣)

(٣) **انظر** : الأزهار الرياضية للباروني (٢/٩٩٠). (٤) انظر المغرب الكبير (٢/٥٦٥)

(٥) **انظر** : دراسات في تاريخ المغرب والأندلس د . أحمد العبادي (ص ٤٨).

العبيديين لما فيها من غلو وشطط لم يألفه سكان تلك الديار؛ بل إنهم تطلعوا إلى خلافة سنية جديدة قامت في الأندلس هي الخلافة الأموية بالأندلس (١) كما أن أهل السُنَّة قاموا بمقاومة المد الرافضي العبيدي بكل ما يملكون وهذا مما جعل الروافض يرحلون إلى مصر عام ٣٦٢هـ .

[٤] الاتجاه الاعتزالي: ويمثله دولة الأدارسة بالمغرب الأقصى (١٧٢ ـ ٣١٣هـ) :

أقام هذه الدولة إدريس بن عبد الله الحسن سنة١٧٢هـ ، رذلك حينما آوته قبيلة أوربة البربرية، حيث امتدت حدود دولة الأدراسة من المحيط الأطلسي غرباً إلى تلمسان ووهران شرقاً (٢) .

ولما توفي إدريس بن عبد الله سنة١٧٧هـ بقي الأمر في سلالته حتي قضى على دولتهم العبيديون عام٣١٣هـ (٣)، وكان الأدارسة يطمحون إلى توحيد العالم الإسلامي تحت قيادتهم مستندين في ذلك إلى أصلهم الشريف (٤) ، وقرب نسبهم للرسول ﷺ ولكنهم لم يظهروا شيئاً من التشيع كما يبدو هذا من خلال استقراء تاريخ تلك الدولة.

أما تبني دولة الأدارسة للمذهب الاعتزالي، فالذي يبدوا هو أن زعماء هذه الدولة لا سيما القدماء منهم وجدوا أن المذهب قد انتشر في بلاد المغرب الأقصى خاصة بين أفراد قبيلة أوربة التي ساعدت إدريس الأول في إقامة دولته، ولهذا لم يجدوا مناصاً من إظهار موافقتهم الظاهرية لهذا الفكر ليبقى في دولتهم بعد قيامها مراعاة منهم لزعماء قبيلة أوربة الذين تبنوه وعملوا على نشره، لكن الأدارسة لم يظهروا حماساً لجعله مذهباً رسمياً لدولتهم (٥) .

---

(١) المصدر السابق نفسه (ص ٥٥) .

(٢) **انظر** : دراسات في تاريخ المغرب (ص ٥٠) .

(٣) تاريخ المغرب الكبير (٢/٤٨٦) .

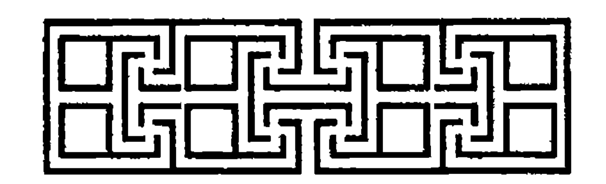
(٤) دراسات في تاريخ المغرب والأندلس للعبادي (ص٥١) .

(٥) مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود (ص ٥٤٦) العدد السادس .

سنلاحظ من خلال دراستنا التحليلية أن محمد بن تومرت استفاد من جميع المذاهب السابقة وزاد عليها مما يخدم ميوله ويحقق أهدافه ولذلك جاءت الأسس وقضاياها التي تطرحها وتناقشها وتعمل على تثبيتها ونشرها.

ولم يكن ابن تومرت رجل فكر بحت فقط، ولا كان رجل سياسة فقط؛ بل إنه في الحقيقة جمع في شخصه رجل الدين ورجل العلم ورجل السياسة ، فهو في دينه، ذهب في عبادته وتقشفه إلى درجة التصوف وهو في علمه، متبحر ودفع بالعلم وتشجيع العلماء والحركة العلمية في عهد الدولة الموحدية وآتى هذا الغرس نتاجه في عهد يوسف بن عبد المؤمن ، ويعقوب بن يوسف ويعتبر رجل السياسة ؛ لأنه هو الأول والوحيد الذي خطط لقيام دولة الموحدين ومهد لها سبيل القيام ووضع لها الأسس التي قامت عليها [(١)] .

إن ابن تومرت لم يتأثر بمدرسة واحدة من مدارس الفكر التي كانت تعيش في زمانه ، بل تأثر بمدارس فكرية متعددة وأخذ من المذاهب الفقهية والفكرية ما يتواءم مع شخصيته ومعتقداته ويحقق أهدافه ، وسنرى ذلك في مبحث مستقل بإذن الله تعالى .



(١) **انظر** : سقوط دولة الموحدين (ص ٣٨) .

المبحث الثالث

مسيرة العودة وخطواته الحركية

في عام ٥١٠هـ [١] شرع محمد بن تومرت في رحلته للعودة إلى الشمال الإفريقي واستغرقت مدة عودته حتى وصل إلى مسقط رأسه أربع سنوات، وكان خلالها يتوقف بكل القرى والمدن التي يمر بها وينشط في نشر العلم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ويتحمل المصاعب والمشاق ويشكل خلايا تابعه له في بعض المدن، فتحرك من مكة إلى مصر ومكث في الإسكندرية وأخرج منها بسبب أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر وقصد طرابلس بحراً حيث بقي مدة يعلم الناس العقيدة على الطريقة الأشعرية، ثم انتقل إلى المهدية بتونس واتخذ أحد مساجدها مقراً يدرس به مركزاً على علم الأصول وأحدث اضطراباً في المدينة بسبب أسلوبه في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ثم اضطر للخروج إلى المنستير ثم إلى مدينة تونس وكان في الطريق يختار بعض رفقائه المخلصين وتوجه بهم نحو قسنطينة، ثم بجاية التي وصلهاسنة٥١١هـ وأقام بها مدة واشتهر بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وناظر الفقهاء وظهر عليهم [٢] .

وفي مدينة ملالة التقى ابن تومرت بعبد المؤمن بن علي الذي كان متجهاً إلى الشرق لطلب العلم برفقة عمه يعلو فاستطاع أن يصرفه عن وجهته ويقنعه بملازمته وقد لمح ابن تومرت في عبد المؤمن بن عليّ علامات الذكاء وصفات النبوغ وملامح الفطنة وأخبر ابن تومرت تلميذه بحقيقة ما ينوي القيام به [٣] فبايعه على مؤازرته في الشدة والرخاء والأمن والخوف والعسر واليسر والمنشط والمكره.

---

(١) روض القرطاس(ص ١٢٠) .

(٢) انظر : تجربة الإصلاح في تجربة المهدي ابن تومرت(ص ٦٣) .

(٣) انظر : المغرب الكبير(٢/ ٧٧٤ ، ٧٧٥) .

لقد نسجت حول لقاء الرجلين رواية يغلب عليها طابع الخيال والدعاية من أجل ترسيخ مكانتهما في نفوس الأتباع، فالرواية تقول: إن الدلائل والإشارات كانت تبشر بقرب ظهور عبد المؤمن الذي على يديه يتحقق النصر، أن صفاته موجودة في كتاب يمتلكه ابن تومرت يسمى الجفر وأنه رأى فيه أنه لا يتم هذا الأمر إلا على يد رجل هجاء اسمه (ع بدم و م ن) ويجاوز وقته المئة الخامسة وتستمر الرواية في سرد قصة اللقاء الأسطورية بينهما وكيف استطاع ابن تومرت أن يتعرف على عبد المؤمن ويبشر بقدومه .

وكتاب الجفر هذا يقصد به جلد المعز الذي كتب فيه ، وهذا الكتاب يزعم الإمامية أن جعفراً الصادق رحمه الله كتب لهم كل ما يحتاجون إليه، وكل ما سيقع ويكون إلى يوم القيامة، وكان مكتوباً عنده في جلد ماعز، فكتبه عنه،هارون ابن سعيد العجلي رأس الزيدية ، وسماه الجفر باسم الجلد الذي كتب فيه، وهذا زعم باطل، فإن جعفراً الصادق كجده أمير المؤمنين لا يعلم الغيب، وقال تعالى: ﴿ **قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ** (٦٥) ﴾ [النمل: ٦٥].

وقال تعالى:﴿ **وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ** (٥٩) ﴾ [الأنعام: ٥٩].

إن كتاب الجفر لا تصح نسبته إلى جعفر الصادق رحمه الله، الذين نسبوه إليه من أجهل الناس بمعرفة المنقولات والأحاديث والآثار، والتمييز بين صحيحها وضعيفها، وعمدتهم في المنقولات التواريخ المنقطعة الإسناد، كثير منها من وضع من عرف بالكذب والاختلاف، كأبي مخنف لوط، وهشام بن محمد السائب، وأمثالهما، وغير خاف على طلبة العلم أن ما لا يعلم إلا من طريق النقل

لا يمكن الحكم بثبوته إلا بالرواية الصحيحة السند، فإذا لم توجد، فلا يسوغ لنا شرعاً وعقلاً أن نقول بثبوته (١).

إن ابن تومرت لم يكن أول من قام بعملية الاستدلال بالحروف، ويظهر للباحث أنه أخذها من بعض الفرق الباطنية خلال إقامته بالمشرق، فقد كانت الباطنية تهتم اهتماماً كبيراً بمثل هذه الأمور (٢).

لقد تقاربت أفكار عبد المؤمن مع شيخه وخصوصاً ما يتعلق بالخروج على السلطان ونضجت أفكاره بعد أن لازم ابن تومرت، وأخذا يعملان سوياً من أجل تقويض دولة المرابطين (٣).

ومن الذين انضموا إلى ابن تومرت ولعبوا دوراً هاماً في دعوته عبد الله الونشريسي الذي كان على درجة كبيرة من الثقافة. وقد اتفق معه ابن تومرت على أن يتستر على ما هو عليه من العلم والفصاحة عن الناس، ويظهر العجز والغباء والتعري من الفضائل مما يشتهر به عند الناس على أن يدوم على أخذ العلم في السرثم يفصح عن ذلك دفعه واحدة عندما يطلب منه ابن تومرت ذلك فيكون بمثابة المعجزة فيصدقه الناس ويزداد إيمانهم بدعوته، فقام الونشريسي بذلك وأتقن الخداع والمكر والحيل والكذب والدجل على الناس (٤).

واستمر ابن تومرت في تنقله إلى المدن ووصل إلى فاس، واستمر في إلقاء دروسه فيها حتى عام (٥١٤هـ) وكان خلال هذه المدة ملتزماً ببرنامجه الذي وضعه لنفسه، والذي كان من ضمن أهدافه العمل على تقريب أشخاص من ذوي القوةالجسمانية قليلي التجربة، إضافة لاستمراره في الأمر بالمعروف والنهي

---

(١) انظر : مجلة المنار (٤/٦٠) لمحمد رشيد رضا.

(٢) انظر : دولة المرابطين (ص١٠١).

(٣) انظر : دولة المرابطين، للمؤلف / سلامة محمد (ص ١٠٢).

(٤) انظر : خلكان (٥/٤٨).

عن المنكر مما أفضي إلى طرده من فاس، فتوجه إلى مراكش [١] مقر حكم المرابطين. وخلال رحلته إليها كان ينبه عبد المؤمن بن علي للمواقع ذات الأهمية الإستراتيجية [٢] ويدل ذلك على أنه كان يخطط لحرب طويلة الأمد ضد المرابطين.

ودخل ابن تومرت مدينة مراكش في عام ٥١٤هـ في زي الزهاد وعلى عادته خرج مع تلاميذه إلى أسواق مراكش يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر دون إذن أمير المسلمين، أو إذن أحد قضاته أو وزرائه؛ لأنه شاهد في مراكش من المفاسد ما لم يره في مدينة ثانية [٣] وصدف أن أخت أمير المسلمين حاسرة قناعها فوبخها فشكته إلى أخيها، ثم ذهب ابن تومرت إلى مسجد علي بن يوسف في صلاة الجمعة فوجد أمير المسلمين جالساً وحوله الوزراء وقوفاً، فاستنكر عليهم ذلك وعاب عليهم لبس النقاب، وخاطب علياً قائلاً: «الخلافة لله، وليس لك يا علي بن يوسف» [٤].

ولما كثر نشاط ابن تومرت في مدينة مراكش خاصة في مجال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والطعن في أمير المسلمين علي بن يوسف استدعاه على للاطلاع على حقيقة أمره، فلما حضر بين يديه استطاع ابن تومرت أن يقنعه بأنه زاهد وليس له أي مطمع دنيوي، وإنما يقوم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لتفشي المفاسد والبدع في ملك أمير المسلمين الذي هو مكلف بإزالتها، والعمل على إحياء السُّنَّة، وكان يتحدث بأسلوب مؤثر وقع في نفس أمير المسلمين فذرفت دموعه على وجنتيه [٥].

---

(١) **انظر**: البيذق أخبار المهدي ابن تومرت (ص ٢١ - ٢٦).
(٢) **انظر**: دولة المرابطين، للمؤلف / سلامة محمد (ص ١٠٣).
(٣) تاريخ الإسلام السياسي، حسن إبراهيم حسن (٤ / ٢٨٢).
(٤) **انظر**: دولة المرابطين، للمؤلف / سلامة محمد (ص ١٠٣).
(٥) **انظر**: دولة المرابطين، لسلامة محمد سليمان، (ص ١٠٤).

ولم تعم فصاحة وأسلوب ابن تومرت المؤثر أمير المسلمين علي بن يوسف عن خطورة دعوته فدعا العلماء من كل صوب لمناظرته لمعرفة حقيقة هذا الرجل، فإن كان على حق اتبع وإن كان على جهل أدب (١) .

وكانت المناظرة فرصة لا تعوض لابن تومرت ؛ لأنها ستتيح له إبراز ما لديه من علم ، وإظهار علماء مراكش بمظهر العاجزين أمام سطوع حجته. وهي أيضاً وسيلة دعائية ممتازة لدعوته؛ لأن ما ستسفر عنه ستتناقله الألسن، وستطير أخبار هذه المناظرة ونتيجتها في الآفاق ، فهي بحق بطاقة تعريف جيدة لداعية مغمور.

وسيدفع الفضول كثيرين من الحضور وأفراد الرعية إلى مقابلة الداعية الجديد للاستفسار عن حقيقة دعوته، وعن بعض القضايا التي أثيرت في المناقشة مما يتيح له فرصة ممتازة لتوضيح فكره، وهذا ما يسعى إليه لضم أعداد جديدة إلى صفوفه.

وقبل بدء المناظرة في مجلس أمير المسلمين على الغاص بالعلماء والأعيان، قدم علماء الدولة المرابطية ـ الذين كانوا يجهلون علم الأصول والجدل ـ عنهم قاضي المرية محمد بن أسود ليمثلهم في هذه المناظرة.

وأخذ ابن تومرت يسخر كل كلمه في المناظرة لتصور فساد الأوضاع في الدولة المرابطية، فأوضح أن الخمور تباع جهاراً نهاراً، وأن الخنازير تمشي في الشوارع وأن أموال اليتامى تؤكل، ويبين أن الذي يتحمل المسئولية هم حاشية أمير المسلمين لإخفائهم تلك الأوضاع عنه (٢) .

وبعد أن كشف عن سوء الأوضاع أراد أن يثبت عجز علماء مراكش عن مجاراته في العلم، فطرح عليهم بعض الأسئلة التي لم يستطيعوا الإجابة عليها. فلما رأى عجزهم عن الإجابة بدأ يوضح ما عجزوا عنه بأسلوب أخاذ، يسخر له

---

(١) **انظر** : دولة المرابطين ، سلامة محمد (ص ١٠٤) .

(٢) **انظر** : ابن خلكان (٥ / ٤٦) .

كل ثقافته وفصاحته، وهكذا انتهت المناظرة لصالح ابن تومرت [١] .

لقد تنبه الفقيه مالك بن وهيب الأندلسي إلى أن ابن تومرت ليس طلب آخرة وإنما هو طالب دنيا ، وأشار على الأمير علي بن يوسف بقتله ليكتفي شره؛ لأنه إذا وقع في بلاد المصامدة ألبهم على المرابطين. ولكن وزيراً علي بن يوسف ينتان بن عمر، وسير بن وربيل، أقنعا أمير المسلمين علي بن يوسف بعدم الأخذ برأي مالك ابن وهيب.

وألح مالك بن وهيب على أمير المسلمين بتخليده في السجن إذا لم يقتله، وقال له: «اجعل عليه كبلاً كي لا تسمع له طبلاً» فوافقه على ذلك [٢] . وحال ينتان مرة ثانية دون الأخذ برأي مالك بن وهيب والذي خاطب أمير المسلمين قائلاً: «يا أمير المسلمين ، هذا وهن في حق الملك أن تلتفت لهذا الرجل الضعيف ، فخل سبيله إنه رجل لا يملك سد جوعه». لقد أصابت كلمات الوزير ينتان عزة نفس أمير المسلمين فاستصغر شأنه ، وأمر بإطلاق سراحه على شرط أن يخرج من بلاد أمير المسلمين [٣] .

وتوجه ابن تومرت إلى مقبرة ابن حيدروس، بالقرب من مراكش وبنى فيها خيمته وكان ذلك الاختيار يدل على ذكاء خارق، فهو إيماءة لأمير المسلمين بأنه رجل يريد الآخرة فيقطع بذلك دابر كل وشاية عليه من المناوئين له. كما أن اختيار هذا المكان سيدفع الكثير من الفضوليين إلى القدوم إليه للاستفسار عن أحوال هذا العابد الذي نبذ الحياة وزخرفها وارتضى الحياة بين الأموات فيبث أفكاره بينهم فمن اقتنع ضمه إليه.

والمقبرة من ناحية أخرى مكان مناسب وهادىء ، وبعيد عن الأعين، فيتحدث

---

(١) انظر : دولة المرابطين ، سلامة محمد(ص ١٠٥) .

(٢) انظر : وفيات الأعيان(٥/ ٤٩ ، ٥٠) .

(٣) انظر : دولة المرابطين (ص ١٠٦) .

هناك بما يشاء إلى تلاميذه، وفعلاً توافد عليه الطلاب حتى كثر جمعه.

إن ابن تومرت لكي يضمن لدعوته النجاح والانتشار سلك الخطوات التالية:

﴿ ١ ﴾ إظهار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتقمصه لأساليب وشخصيات المصلحين ، فقد انتحل ابن تومرت صفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبدأ بهذا النهج منذ وقت مبكر وذلك حينما كان بمكة بعد عودته من العراق حيث استغل تجمع المسلمين فيها، فأخذ يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر حتى ناله شيء من الأذى بسبب ذلك [١] .

ويبدو أن ابن تومرت كان يهدف من وراء إظهاره للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى تحقيق غرضين:

الأول منهما : هو لفت أنظار الناس إليه من البلاد التي مر بها حتى يعد من المصلحين.

أما الثاني : فهو تكوين بعض الخلايا السرية في تلك البلاد من الأفراد الذين يعجبون بمنهجه، ذلك ليكونوا دعاة إلى أفكار ه ومبادئه، وقد نجح في ذلك حيث يذكر البيذق أنه كان لابن تومرت بمصر واحد وخمسون رجلاً من أهلها «وكانوا له مثل أعضائه وجسده ، سامعين لقوله ، مجيبين لأمره ، مؤمنين به. ولما اطمئن بذلك اختار لهم الإقامة هناك...» [٢] .

إن ابن تومرت لما وصل إلى بلاد المغرب انتقل من الجانب التنظيري في دعوته، إلى الجانب العلمي حيث جد في تكوين قاعدة لدعوته، وكانت وسيلته المعلنة في ذلك هي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وإقامة حلقات للتدريس ينشر من خلالها أفكاره ليستقطب ذلك من يتقبلها من تلاميذه.

---

(١) **انظر** : وفيات الأعيان (٥/٤٩ ، ٥٠).

(٢) **انظر** : مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود ، العدد السادس (ص ٥٤٩).

ويبدو أن جراة ابن تومرت في الكلام، وتظاهره بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إلى جانب كونه يتوجه في دعوته إلى التجمعات الشعبية العامة كانت من العوامل القوية لنجاح دعوته في هذه المرحلة (١) حيث يذكر تلميذه البيذق، أنه ما أن حل ببلاد المغرب الأدنى حتى اجتمع حوله المؤيدون والأنصار، فاختار بعضهم ممن يتوسم فيهم القبول المطلق لدعوته ومخايل الذكاء والنجابه ، وتوجه بهم إلى بلاد المغرب الأقصى.

كانت هذه الخطوة الأولى التى نهجها ابن تومرت لنشر دعوته، من خلال تتبعنالهذه الخطوة ندرك أن ابن تومرت قد نهج عدداً من السبل حتى يظهر دعوته للناس ويجمع حوله المؤيدين والأنصار ، **ومن هذه السبل ما يلى:**

[أ] أنه تدرج في إظهار دعوته، كما ألبسها الصبغة الإصلاحية، وهي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

[ب] أنه خاطب بها الجهال والسذج من الناس ، الذين لا يدركون حقيقة ما فيها من انحراف عن منهج أهل السُنَّة والجماعة ، حيث توجه بها إلى قوم صيام عن جميع العلوم كما يقول المراكشي (٢) .

[جـ] أنه كان يبالغ في إنكار المنكر على الحكام الذين يمر بديارهم كما فعل مع العزيز بن المنصور بن الناصر بن علناس بن حماد صاحب بجاية (٣)، ومع علي بن يوسف بن تاشفين زعيم دولة المرابطين وذلك لكي يكسب بهذه الجرأة مكانة عند الناس.

[د] مما يلحظ على ابن تومرت أثناء هذه المرحلة من دعوته أنه بالرغم من تظاهره بالتقى والصلاح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، إلا أنه كان لا

---

(١) **انظر** : الدعوة الموحدية بالمغرب ، عبد الله علام (ص ٨٥) .

(٢) المعجب (ص ٢٧٠) .

(٣) ابن خلدون (٦/ ٢٢٧) .

يتورع عن الكذب حتى أثناء قيامه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، حيث يذكر البيذق أنه كان إذا خشي بطشاً وهو يأمر بالمعروف خلط في كلامه حتى ينسب إلى الجنون [١] وهذا النهج منهج كثير من الفرق الباطنية حيث يلجئون إلى الكذب وإلى العبارات الموهمة حتى لا تنكشف حقائقهم [٢] .

يقول ابن العماد: « جره إقدامه وجرأته على حب الرياسة والظهور وارتكاب المحظور ودعوى الكذب والزور من أنه حسني وهو هرغي بربري وأنه معصوم وهو بالإجماع مخصوم ... » [٣] .

﴿ ٢ ﴾ وكانت الخطوة الثانية التي نهجها ابن تومرت في بداية دعوته، أنه جد في تكوين قاعدة مؤمنة بالمبادىء التي يدعو إليها حيث أعد أفرادها إعداداً خاصاً،وذلك لكي يكونوا قاعدة شعبية لدعوته ثم لدولته، وقد بدأ بهذا النهج منذ مستهل دعوته حيث تمكن من تكوين خلية في بلاد مصر قوامها واحد وخمسون رجلاً [٤] ، ولما انتقل إلى المغرب زاد من جهوده في هذا الميدان حيث أنشأ حلقات للتدريس كان يبث أفكاره من خلالها ولكي يؤصل تلك الأفكار في أذهان أتباعه ، ألَّف لهم كتاباً في العقيدة يتضمن الخطوط العريضة لأصول دعوته ، حيث طالبهم بحفظه [٥] .

وإلى جانب اهتمامه بتكوين القاعدة الشعبية، فإنه كان يحتمي بشوكة بعض القبائل البربرية حتى يضمن لنفسه الأمان، ولدعوته الانتشار في ظل حماية تلك القبائل، فهو حينما وصل إلى بجاية بعد عودته من مصر خشي من بطش

---

(١) أخبار المهدي ابن تومرت (ص ٢٢) .

(٢) **انظر** : مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود العدد السادس (ص ٥٥٠) .

(٣) شذرات الذهب (٤ / ٧٠) .

(٤) **انظر** : مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود ، العدد الخامس (ص ٥٤٩) .

(٥) ابن القطان ، نظم الجمان (ص ٤٦) .

الحماديين فلجأ إلى قبيلة بنورياكل - إحدى قبائل صنهاجة - فآووه وأجاروه ومنعوا الحماديين من النيل منه [١] ، ولما انتقل إلى بلاد المغرب الأقصى وخاف من سطوة المرابطين ذهب إلى بلاد هرغة حيث نزل على قومه وقبيلته مصمودة فاحتمى بشوكتيهما من المرابطين، كما توفر له عندهم الجو المناسب لمواصلة الدعوة.

هكذا تمكن ابن تومرت من تكوين قاعدة شعبية قوية لدعوته ، وقد كانت هذه القاعدة في غاية التلاحم والتفاهم مع القيادة ، مما أدى إلى إعجاب الناس بها ومن ثم تقبلهم لمبادئها [٢] .

• ﴿ ٣ ﴾ ومن الخطوات التي سلكها ابن تومرت تحديد موقفه من دولة المرابطين والتي كانت تبسط سلطانها السياسي على بلاد المغرب، وقد جاء عمله بهذه الخطوة إذا ما قورن بالخطوتين السابقتين، وذلك لأن ابن تومرت لم يرد أن يحدد موقفه من دولة المرابطين، إلا بعد أن يشيع بين الناس ذكره، ويكون قاعدة شعبية يتكيء عليها في ساعات الخطر، فلما اطمأن إلى وجود هذه القاعدة، وإلى أنه لم يصبح نكرة عند كثير من الناس، أعلن رأيه في دولة المرابطين، متخذاً الأمر بالمعروف ستاراً لتحقيق غايته وطريقاً لإظهار مفاسد دولة المرابطين فبدأ بالطعن في عقيدة المرابطين ووصفهم بالتجسيم والكفر والنفاق كما قال لأتباعه بأن غزوهم ومقاومتهم أوجب من حرب النصارى والمجوس [٣] .

وعندما أدرك ابن تومرت المخاطر التي تهدده من قبل المرابطين، لا سيما أن دعوته قد وصلت إلى مرحلة الظهور والجهر بالأهداف، فقرر الانتقال بلاد السوس مسقط رأسه حيث نزل على قومه وقبيلته مصمودة سنة ٥١٥هـ وذلك لضمان

---

(١) ابن خلدون(٦ / ٢٢٧) .

(٢) انظر : مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود العدد السادس(ص ٥٥١) .

(٣) البيذق ، أخبار المهدي ابن تومرت(ص ٩) .

الحماية اللازمة لدعوته ضد خطر دولة المرابطين وفي بلاد السوس أسس ابن تومرت مسجداً يجتمع به مع تلاميذه وزعماء قبيلته، حيث التف حوله الكثير من المؤيدين والأنصار، فاختار منهم نخبة لتكون قاعدة لدعوته ضد خطر دولة المرابطين [١] .

وحيث شرع في تدريسهم على شكل حلقات ودروس منظمة، وكان يؤصل في نفوس أتباعه موقفه من دولة المرابطين من خلال تلك الحلقات والدروس وبهذا استطاع أن يوجد حاجزاً قوياً بين كثير من تلاميذه ودولةالمرابطين، وهذا بلا شك مما يساعد على تهيئة كثير من الموحدين للتصدي للمرابطين ، ومقاومتهم وهو ما كان يهدف إليه ابن تومرت.

ولما شعر ابن تومرت بقبول دعوته في أوساط الهرغيين أراد توسيع نفوذه على القبائل المجاورة، فانتدب مجموعة من تلاميذه لدعوتهم وأوصاهم باتباع أسلوب اللين والمداراة مع من سيدعونه، لأن أسلوب العنف الذي كان مجدياً في الحواضر الكبرى أمثال: فاس، ومراكش، والهدية، لا يجدي عند القبائل ذات الأنفة وعزة النفس، والتي لا تبالي بمقابلة العنف بالعنف، فهم بحاجة لمداراة ورفق لكسبهم وهذه الخطوة تدل على دهاء ومقدرة ابن تومرت الذي كان خبيراً بطبائع الجماعات التي يبث بينها دعوته، فكان يتخذ لكل فئة أسلوباً مناسباً لها، لعلمه أن الأمزجة والعادات تختلف باختلاف البيئات وهذا لا يفطن إليه إلا من أوتي حظاً وافراً من الفطنة والدهاء ونجح ابن تومرت في تشويق الكثير من أفراد القبائل للرحيل إلى ابن تومرت عن طريق وصفهم لأخلاقة وسجاياه فكان يتلقفهم ابن تومرت ويضمهم إلى صفوفه [٢] .

---

(١) **انظر** : ابن خلدون(٦/ ٢٢٨) .

(٢) **انظر** : دولة المرابطين ، للمؤلف سلامة محمد(ص ١٠٩) .

ورسخ دعاة ابن تومرت في أذهان القبائل بأن الفساد والظلم والجور، لا تُزال إلا بالمهدي لذا فالإيمان به واجب ، ومن يشك فيه فهو كافر، وأن هذا الوقت وقته وأنه سيفتح المشرق والمغرب، ويملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً (١) .

ولما اقتنع ابن تومرت بأن جهوده قد أثمرت، وأن نفوس أتباعه قد تشربت بفكرة المهدية، قرر أن يعلن بأنه هو المهدي المنتظر. فبعد أن جمع أصحابه قام فيهم خطيباً موضحاً لهم أن جميع صفات المهدي متوفرة فيه، فبادر إليه العشرة الملازمين له فبايعوه على الوقوف بجانبه في العسر واليسر، وتتابع بعد ذلك عليه البربر مبايعين على نصرته وبذل مهجتهم دونه ولما كملت بيعته لقبوه المهدي القائم بأمر الله،وكان قبل ذلك يلقب بالإمام (٢) وكان تاريخ هذه البيعه على الراجح في جبل إيجليز (٣) في عام (٥١٨هـ - ١١٢٤م) وهو العام الذي انتقل فيه إلى تينمل؛ لأنه لا يعقل أن يعلن مهديته الكاذبة فور وصوله إلى إيجليز بل الأمر كان يحتاج إلى وقت، وهذا ما حدث فعلاً إذ استمر يروج هو ودعاته لهذه الفكرة فلما تقبلها القوم أعلن مهديته الزائفة.

لقد كان على مقدرة عظيمة من القدرة على التخطيط وكانت خطواته محكمة نحو تأسيس قواعد دولة الموحدين وساعده نجاحه ما كان يتسم به كثير من أفراد القبائل البربرية من سذاجة وجهالة، فضلاًعما كان يتمتع به ابن تومرت من ذكاء، وعلم وقدرة فائقة على التنظيم والتأثير (٤) .

لقد ركب الحرام، فسفك الدماء، وهتك الأعراض، وغصب الأموال من أجل أهدافه المنحرفة وكان من شعره الذي يردده على أصحابه قبل خروجه بالمغرب:

---

(١) **انظر** : الكامل لابن الأثير (٦ / ٥٦٢) .

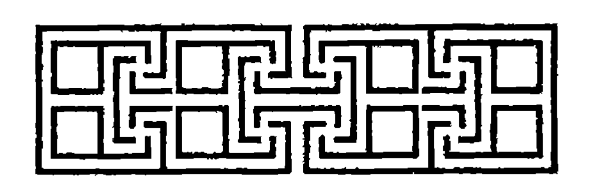
(٢) ابن خلدون (٦ /٢٢٨) .

(٣) **انظر** : دولة المرابطين (ص ١١١) .

(٤) **انظر** : مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود ، العدد السادس (ص ٥٥٤) .

دَعْني ففي النفس أشياء مخبأة — لألبسن لها درعًا وجلبابًا
كيما أطهر دين الله من دنس — وأوجب الفضل للسادات إيجابا [١]
تالله لو ظفرت كفي بمطلبها — ما كنت عن ضرب أعناق الورى آبى [٢]

إن ابن تومرت بعد مبايعته بالمهدية نظم جبهته الداخلية بعناية فائقة ، فقسم أتباعه إلى طبقات حسب أسبقيتهم إلى بيعته، وسمي الأتباع بشكل عام بالموحدين تعريضاً بالمرابطين والذين اتهمهم بالتجسيم وهم براء منه ، وبعد أن فرغ من تثبيت ركائزه اللازمة لدولته المستقبلية رأى أنه من غير المناسب بقاؤه في جبل إيجليز لقربه من العاصمة المرابطية فانتقل إلى تينمل [٣] في قلب جبال الأطلس الكبير عام (٥١٨هـ - ١١٢٤م) ، واتخذه قاعدة لدولته الناشئة، ولقد بقي فيها حتى وفاته عام (٥٢٤ هـ - ١١٢٩م) [٤] .



---

(١) **انظر** : الذهبي ، سير أعلام النبلاء(١٩ /٥٥٢) .
(٢) **انظر** : دولة المرابطين ، للمؤلف سلامة محمد(ص١١١) .
(٣) نفس المصدر السابق(ص ١١٢) .
(٤) نفس المصدر السابق(ص ١١٢) .

المبحث الرابع
الأسس الفكرية والعقدية لدعوة ابن تومرت

أن الأسس الفكرية والعقدية لحركة ابن تومرت بعيدة عن الإسلام الصحيح ولا تتفق مع منهج أهل السُنَّة والجماعة الذي كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه .

ومن أظهر الانحرافات الفكرية في دعوة ابن تومرت :

أولاً : أنه ادعى المهدية وقال بأنه هو المهدي الذي وعد الرسول ﷺ بخروجه في آخر الزمان، حيث قال في خطبته حين مبايعته إماماً للموحدين سنة٥١٥هـ : (الحمد لله الفاعل لما يريد القاضي بما يشاء لا راد لأمره ولا معقب لحكمه، وصلى الله على سيدنا محمد المبشر بالمهدي الذي يملأ الأرض قسطا وعدلاً كما ملئت جوراً يبعثه الله إذا نسخ الحق بالباطل وأزيل العدل بالجور مكانه بالمغرب الأقصى واسمه اسم النبي ونسبه نسب النبي » (١) .

ولم يكتف ابن تومرت بهذا الإجراء بل إنه أكد لهم هذا الاتجاه الفكري في مؤلفاته التي طالب أتباعه بحفظها، والعمل بما جاء بها، ومما جاء بها عن قضية المهدي قوله : (إن العدل ارتفع، وإن الجور عم وإن الرؤساء الجهال استولوا على الدنيا، وإن الملوك الصم البكم استولوا على الدنيا، وإن الدجالين استولوا على الدنيا، وإن الباطل لا يرفعه إلا المهدي، وإن الحق لا يقومْ إلا بالمهدي، وإن المهدي معلوم في العرب، والعجم، والبدو والحضر، وإن العلم به ثابت في كل مكان وفي كل أوان . . .) (٢) .

وبعد أن قرر ابن تومرت مبدأ ظهور المهدي، عدد صفاته بقوله : (إنه فرد

---

(١) نظم الجمان لابن القطان(ص ٧٥) .
(٢) انظر : أعز ما يطلب لابن تومرت(ص ٢٥٧) .

زمانه صادق في قوله، وإنه يملأها بالعدل - يعني الأرض - ثم ذكر بعد ذلك المهام التي سيقوم بها المهدي حيث بيَّنها بقوله: «وإنه يعني المهدي - معصوم فيما دعا إليه من الحق لا يجوز عليها الخطأ وإنه لا يكابر، ولا يضاد، ولا يدافع ولا يعاند، ولا يخالف ولا ينازع... وأنه صادق في قوله، وأنه يقطع الجبابرة والدجاجلة، وإنه يفتح الدنيا شرقها وغربها، وأنه يملؤها بالعدل كما ملئت بالجور...» [١].

هكذا كان رأى ابن تومرت في المهدي، كما يصور ذلك تراثه الفكري، ويلاحظ هنا كيف تجرأ ابن تومرت فكذب على الله ورسوله حينما حدد مكان ظهور المهدي بالمغرب الأقصى مع أن الأحاديث الصحيحة الواردة في المهدي لم تشر إلى ذلك.

إن الأحاديث الصحيحة بينت أنه يخرج في آخر الزمان رجل من أهل البيت يؤيد الله به الدين، يملك سبع سنين يملأ الأرض عدلاً وسلاماً كما ملئت جوراً وظلماً، تنعم الأمة في عهده نعمة لم تنعمها قط، وتخرج الأرض نباتها، وتمطر السماء مطرها، ويعطى المال بغير عدد.

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: «في زمانه تكون الثمار كثيرة، والزروع غزيرة والمال وافر والسلطان قاهر، والدين قائم، والعدو راغم والخير أيامه دائم» [٢].

لقد بينت الأحاديث الصحيحة اسمه وصفته ومكان خروجه:

[أ] اسمه وصفته:

وهذا الرجل اسمه كاسم رسول الله ﷺ، واسم أبيه، كاسم أبي النبي ﷺ فيكون اسمه محمد - أو أحمد - بن عبد الله، وهو من ذرية فاطمة بنت رسول الله ﷺ، ثم من ولد الحسن بن علي.

---

(١) ابن تومرت أعز ما يطلب (ص ٢٥٦، ٢٥٧).

(٢) النهاية، الفتن والملاحم (١/٣١)، تحقيق د. طه زيني.

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ في المهدي:

« وهو محمد بن عبد الله العلوي الفاطمي الحسني رضي الله عنه » [١] .

وصفته الواردة: « أنه أجلى الجبهة ، أقنى الأنف » [٢] .

[ب] مكان خروجه :

يكون ظهور المهدي من قبل المشرق، فقد جاء في الحديث عن ثوبان ، قال رسول الله ﷺ : « **يقتتل عند كنزكم ثلاثة. كلهم ابن خليفة، ثم تطلع الرايات السود من قبل المشرق، فيقتلونكم قتلاً لم يقتله قوم** . . (ثم ذكر شيئاً لا أحفظه) فقال . . . **فإذا رأيتموه، فبايعوا، ولو حبواً على الثلج، فإنه خليفة الله المهدي** . . . » [٣] .

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ :

(والمراد بالكنز المذكور في هذا السياق كنز الكعبة، يقتتل عنده ليأخذه ثلاثة من أولاد الخلفاء، حتى يكون آخر الزمان، فيخرج المهدي، ويكون ظهوره من بلاد المشرق « لا من سرداب سامراء » كما يزعم جهلة الرافضة من أنه موجود فيه إلى الآن، وهم ينتظرون خروجه في آخر الزمان،فإن هذا نوع من الهذيان، وقسط كبير من الخذلان شديد من الشيطان، إذلا دليل على ذلك، ولا برهان لا من كتاب، ولا من سُنة، ولا معقول صحيح ولا استحسان . .إلى أن قال:« ويؤيد بناس من أهل المشرق ينصرونه، ويقيمون سلطانه، ويشيدون أركانه، وتكون راياتهم سوداً « أيضاً » وهو زي عليه الوقار » لأن راية رسول الله ﷺ كانت سوداء يقال لها: « العقاب » إلى أن قال :(والمقصود أن المهدي الممدوح الموعود بوجوده في آخر الزمان يكون أصل ظهوره وخروجه من ناحية المشرق، ويبايع له عند

---

(١) النهاية ، الفتن والملاحم(١ / ٢٩) .

(٢) **الأجلى** : الخفيف شعر ما بين النزعتين من الصدغين ، والذي انحسر الشعر عن جبهته .

(٣) أخرجه ابن ماجة، كتاب الفتن ، باب خروج المهدي(٢ / ١٣٦٧) .

البيت، كما دلت على ذلك بعض الأحاديث...) [١].

[١] وذكر الإمام البخاري في صحيحه عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وأمامكم منكم ؟!**» [٢].

[٢] وعن جابر بن عبد الله ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة» إلى أن قال: «فينزل عيسى ابن مريم، فيقول أميرهم: تعال صل بنا. فيقول: لا، إن بعضكم على بعض أمراء، تكرمة الله لهذه الأمة»** [٣].

والأحاديث التي وردت في الصحيحين تدل على أمرين:

أحدهما: أنه عند نزول عيسى ابن مريم ﷺ من السماء يكون المتولي لإمرة المسلمين رجل منهم.

والثاني: أن حضور أميرهم للصلاة، وصلاته بالمسلمين، وطلبه من عيسى عليه السلام عند نزوله أن يتقدم ليصلي لهم يدل على صلاح هذا الأمير وهداه.

وجاءت الأحاديث في المسانيد وغيرها مفسرة لهذه الأحاديث التي في الصحيحين، ودالة على أن ذلك الرجل الصالح يسمى: محمد بن عبد الله، ويقال له المهدي، والسنه يفسر بعضها بعضاً.

[١] فعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**منا الذي يصلي عيسى ابن مريم خلفه**» [٤].

[٢] وعن جابر ﷺ قال: قال رسول ﷺ: «**ينزل عيسى ابن مريم، فيقول**

---

(١) النهاية في الفتن والملاحم (١ / ٣١).

(٢) صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب نزول عيسى عليه السلام (٦ / ٤٩١)، مع الفتح، حديث رقم (٣٤٤٩).

(٣) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب نزول عيسى عليه السلام (٢ / ١٩٣).

(٤) رواه أبو نعيم في « أخبار المهدى »، صححه الألباني – رحمه الله – صحيح الجامع الصغير (٥ / ٧١٧٠)

أميرهم المهدي: تعال صل بنا، فيقول: لا، إن بعضهم أمير بعض، تكرمة الله لهذه الأمة » (١) .

[٣] وعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**المهدي مني أجلى الجبهة، أقنى الأنف، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً، كما ملئت ظلماً وجوراً يملك سبع سنين..**» (٢) .

ولقد تكلم العلماء في أحاديث المهدي :

[١] **قال الشوكاني:** « الأحاديث في تواتر ما جاء في المهدي المنتظر التي أمكن الوقوف عليها منها خمسون حديثاً، فيها الصحيح والحسن والضعيف والمنجبر، وهي متواترة في جميع الاصلاحات المحررة في الأصول، وأما الآثار عن الصحابة المصرحة بالمهدي، فهي كثيرة أيضاً لها حكم الرفع إذ لا مجال للاجتهاد في مثل ذلك.. » (٣) .

[٢] **وقال صديق حسن خان:** « الأحاديث الواردة في المهدي على اختلاف رواياتها كثيرة جداً، تبلغ حد التوتر المعنوي، وهي في السنن وغيرها من دواوين الإسلام ومن المعاجم والمسانيد » (٤) .

[٣] **وقال الشيخ محمد جعفر الكتاني:** «والحاصل أن الأحاديث الواردة في المهدي المنتظر متواترة، وكذا الواردة في الدجال وفي نزول سيدنا عيسى ابن مريم عليه السلام » (٥) .

وأما العلماء الذين صنفوا كتباً في المهدي، بالإضافة إلى كتب الحديث

---

(١) المنار المنيف لابن القيم(١٤٧-١٤٨) .

(٢) سنن أبي داود، كتاب المهدي(١١ / ٣٧٥) ، رقم(٤٢٦٥) .

(٣) التوضيح في تواتر ما جاء في المهدي المنتظر والدجال والمسيح .

(٤) الإذاعة لما كان وما يكون بين يدي الساعة(ص ١١٢) .

(٥) نظم المتناثر في الحديث المتواتر(ص ١٤٧) .

المشهورة، كالسُنن الأربعة، والمسانيد، مسند أحمد، مسند البزار، ومسند أبي يعلى، ومسند الحارث بن أبي أسامة، ومستدرك الحاكم، ومصنف بن أبي شيبة، وصحيح ابن خزيمة، وغيرها من المصنفات [١] التي ذكرت فيها أحاديث المهدي فإن طائفة من العلماء أفردوا في المهدي المنتظر مؤلفات ذكروا فيها جمعاً كبيراً من الأحاديث الواردة فيه. مما يؤسف له أن طائفة من الكتاب من أمثال الشيخ الكريم محمد رشيد رضا في تفسير المنار وصف أحاديث المهدي بالتناقض والبطلان وأن المهدي ليس ألا أسطورة اخترعتها الشيعة، ثم دخلت كتب أهل السُنَّة [٢] وممن أنكر أحاديث المهدي صاحب «دائرة معارف القرن العشرين» [٣] محمد فريد وجدي وسار على نفس الخط أحمد أمين في كتابه ضحى الإسلام.

ويبدو أن هؤلاء الكتاب تأثروا بما ذكره المؤرخ ابن خلدون من تضعيفه لأحاديث المهدي، مع العلم أن ابن خلدون ليس من فرسان هذا الميدان حتى يقبل قوله في التضعيف والتصحيح، ومع هذا فقد قال بعد أن استعرض كثيراً من أحاديث المهدي وطعن في كثير من أسانيدها: «فهذه جملة الأحاديث التي خرجها الأئمة في شأن المهدي، وخروجه آخر الزمان، وهي - كما رأيت - لم يخلص منها من النقد إلا القليل أو الأقل منه [٤].

قال يوسف الوابل في أشراط الساعة تعليقاً على قول ابن خلدون:

«ونقول: لو صح حديث واحد، اكفى به حجة في شأن المهدي، كيف والأحاديث فيه صحيحة متواترة» [٥].

---

(١) انظر: عقيدة أهل السُنَّة والأثر في المهدي المنتظر (ص ١٦٦ - ١٦٨).
(٢) تفسير المنار (٩/ ٤٩٩ - ٥٠٤).
(٣) دائرة المعارف القرن العشرين (١٠/ ٤٨٠).
(٤) مقدمة ابن خلدون (١/ ٥٧٤).
(٥) أشراط الساعة للوابل (ص ٢٦٧).

قال الشيخ أحمد شاكر رداً على ابن خلدون: « إن ابن خلدون لم يحسن قول المحدثين » الجرح مقدم على التعديل ولو اطلع على أقوالهم وفقههم ، ما قال شيئاً مما قال، وقد يكون قرأ وعرف ولكنه أراد تضعيف أحاديث المهدي بما غلب عليه من الرأي السياسي في عصره » [١] ثم بين أن ما كتبه ابن خلدون في هذا الفصل عن المهدي مليء بالأغاليط في أسماء الرجال ونقل العدل، واعتذر عنه بأن ذلك قد يكون من الناسخين، وإهمال المصححين وما ذهب إليه محمد رشيد رضا وابن خلدون ومحمد فريد رحمهم الله ليس صواباً وإنما الحجة في كتاب الله وسُنة رسوله ﷺ والروايات المذكورة في خروج المهدي صحيحة متواتراً تواتراً معنوياً وهذا يكفي، وأما كون الأحاديث قد دخلها كثير من الإسرائيليات، وأن بعضها من وضع الشيعة وغيرهم من أهل العصبيات، فهذا صحيح ولكن أئمة الحديث قد بينوا الصحيح من غيره، وصنفوا الكتب في الموضوعات وبيان الروايات الضعيفة، ووضعوا قواعد دقيقة في الحكم على الرجال، حتى لم يبق صاحب بدعة أو كذب إلا وأظهروا أمره، فحفظ الله السُنَّة من عبث العابثين وتحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وهذا من حفظ الله لهذا الدين.

وإذا كانت هناك روايات موضوعة في المهدي تعصباً فإن ذلك لا يجعلنا نترك ما صح من الروايات فيه، والروايات الصحيحة جاء فيها ذكر صفته واسمه واسم أبيه فإذا عين إنسان شخصاً، وزعم أنه هو المهدي، دون أن يساعده على ذلك ما جاء من الأحاديث الصحيحة فإن ذلك لا يؤدي إلى إنكار المهدي على ما في الحديث ، ثم إن المهدي الحقيقي لا يحتاج إلى أن يدعو له أحد ، بل يظهره الله إلى الناس إذا شاء ، ويعرفونه بعلامات تدل عليه.

وأما دعوى التعارض، فقد نشأت عن الروايات التي لا تصح ، وأما الأحاديث

---

(١) تعليق : أحمد شاكر على مسند الإمام أحمد (٥ /١٩٧ ، ١٩٨) .

الصحيحة، فلا تعارض فيها والحمد لله .

وأيضاً، فإن خلاف الشيعة مع أهل السُنَّة لا يعتد به ، والحكم العدل هو الكتاب والسُنة الصحيحة، وأما خرافات الشيعة وأباطيلهم، فلا يجوز أن تكون عمدة يرد بها ما ثبت من حديث الرسول ﷺ [1] .

قال العلامة ابن القيم - رحمه الله - في كلامه عن المهدي :

« وأما الرافضة الإمامية، فلهم قول رابع، وهو أن المهدي هو محمد بن الحسن العسكري المنتظر، من ولد الحسين بن علي لا من ولد الحسن الحاضر في الأمصار الغائب عن الأبصار، الذي يورث العصا،ويختم الفضا، دخل سرداب سامراء طفلاً صغيراً من أكثر من خمسمائة سنة، فلم تره بعد ذلك عين، ولم يحس فيه بخبر ولا أثر، وهم ينتظرونه كل يوم ويقفون بالخيل على باب السرداب ويصيحون به أن يخرج إليهم: اخرج يا مولانا ! اخرج يامولانا ! ثم يرجعون بالخيبة والحرمان، فهذا دأبهم ودأبه، ولقد أحسن من قال:

ما آن للسرداب أن تلد الذي كلمتموه بجهلكم ما آنا ؟

فعلى عقولكم العفاءُ فإنكم ثلثتم العنقاء والغيلانا

ولقد أصبح هؤلاء عاراً على بني آدم، وضحكة يسخر منهم كل عاقل) [2] .

وبذلك يتضح لطالب الحق حقيقة المهدي المنتظر ويعرف الميزان الصحيح لكل من يدعى المهدية ، إن ابن تومرت في دعواه بأنه المهدي المنتظر انحرف عن المنهج الإسلامي الصحيح.

لقد جعل ابن تومرت من المهدية عقيدة الزم بها أتباعه، وأضاف إلى هذا المعتقد الذي ادعاه لنفسه أمر العصمة حيث قال عن نفسه: بأنه المهدي المعصوم، ثم أشاع ذلك بين أتباعه حتى أصبحوا يطلقون عليه لفظ المعصوم ، دون حرج أو

---

(١) انظر : أشراط الساعة (ص ٢٦٧) .

(٢) انظر : المنار المنيف (ص ١٥٢ ، ١٥٣) .

تردد، وقد أكد هذا الأمر في مؤلفاته التي انتشرت بينهم إذا جاء فيها: «ويجب أن يكون الإمام معصوماً من الباطل ليهدم الباطل، كما يجب أن يكون معصوماً من الضلال.. ولا بد أن يكون الأمام معصوماً من هذه النتن وأن يكون معصوماً من الجور؛ لأن الجائر لا يهدم الجور بل يثبته... وأن يكون معصوماً من الكذب؛ لأن الكذب لا يهدم الكذب بل يثبته، وأن يكون معصوماً من الباطل.. ولا يصح الاتفاق إلا باستناد الأمور إلى أولى الأمر وهو الإمام المعصوم من الباطل والظلم» (١).

كما قال بعصمة الإمام من الزلل والفساد حيث قال:

«لا يقوم بحقوق الله إلا العدل الرضا المعصوم من الفساد» (٢)وهكذا نرى كيف أن القول بالعصمة للأئمة أصبحت اتجاهاً قويا من اتجاهات دعوة ابن تومرت الفكرية، وقد تمكن من تأصل هذا الأمر عند أتباعه حتى أطلقوا عليه لقب المعصوم، وأصبح هذا اللقب من أشهر ألقاب ابن تومرت لدرجة أنهم كانوا يطلقونه عليه دون ذكر لاسمه بسبب اشتهاره به (٣).

وقد حاول ابن تومرت أن يتدرج في إظهار هذا في بادىء أمره، فبدأ أولاً بالتلميح لهم، ثم صرح بدعوى العصمة لنفسه، وأنه المهدي المعصوم، وروي في ذلك أحاديث كثيرة ولم يتورع عن الكذب في دعواه أنّها تتمثل فيه، لقد سلك مع أتباعه مسلك التدرج فأقنعهم بنسبه العربي الهاشمي، ثم بالمهدية ثم بالعصمة.

والعصمة عند أهل السُّنَّة والجماعة لم تثبت إلا للأنبياء والرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ فيما يبلغون عن الله من شرع ولم يقولوا بها لسواهم حتى لكبار

---

(١) **انظر**: أعز ما يطلب (ص ٢٤٥ – ٢٤٦).

(٢) أعز ما يطلب (ص ٢٤٦).

(٣) **انظر**: مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود، العدد السادس.

الصحابة الذين خصهم الله بالفضل كأبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وغيرهم رضي الله عنهم [١].

إن ابن تومرت بهذا النهج يكون وافق الرافضة الاثنى عشرية الذين قالوا بالعصمة لأئمتهم حيث يقولون بوجوب عصمتهم من الكبائر والصغائر والنسيان [٢] كما قالوا: إن الإمام كالنبي يجب أن يكون معصوماً من جميع الرذائل والفواحش ما ظهر منها وما بطن من سن الطفولة إلى الموت عمداً وسهواً، كما يجب أن يكون معصوماً من السهو والخطأ والنسيان» [٣] وهكذا نرى كيف غالى ابن تومرت في القول بالعصمة لنفسه، وهذا بلا شك انحراف عقدي خطير « لأن من جعل بعد الرسول معصومًا يجب الإيمان بكل ما يقوله، فقد أعطاه معنى النبوة وإن لم يعطه لفظها » [٤].

ولكي يؤصل هذا الادعاء الكاذب عند أتباعه، ألف لهم كتاب « أعز ما يطلب » [٥] وأمرهم بقراءته بل حفظه، هذا بلا شك مما أصل فكر ابن تومرت ومحبته في نفوس أصحابه.

ولقد أخطأ الدكتور عبد المجيد النجار عندما قال (وما قال به - أي محمد بن تومرت - من عصمة الإمام يخالف أيضاً العصمة عند الشيعة، بل هو أقرب إلى أن يكون صيغة مبالغاً فيها للشروط التي يشترطها أهل السُنَّة في الإمام» [٦] ولقد ذكرت شروط أهل السُنَّة في الإمامة في الكتاب الثاني من « صفحات من التاريخ الإسلامي في الشمال الإفريقي».

إن عقيدة العصمة والمهدية التي غرسها ابن تومرت في أصحابه سهلت له

---

(١) **انظر**: النبوة والأنبياء، للصابوني (ص ٥٥، ٥٦).
(٢) **انظر**: الملل والنحل، للشهرستاني (١/ ١٩٥).
(٣) **انظر**: عقائد الإمامية، محمد رضا ظافر (ص ٧٢).
(٤)، (٥) **انظر**: مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود (ص ٥٦٠).
(٦) تجربة الإصلاح عند ابن تومرت (ص ١٢٧).

القضاء على خصومه ودفع قبائل المصامدة ومن حالفها إلى مقاتلة المرابطين.

ثانياً : لقد تأثر ابن تومرت بمذهب المعتزلة حيث قال ببعض آرائهم ، وحيث سمى مرتكب الكبيرة بالفاسق ، ولم يسمه بالمؤمن أو الكافر ، وهذا قريب من مذهب المعتزلة (١) .

كما وافقهم في الصفات عن الله ـ سبحانه ـ حيث قال حينما تحدث عن صفات الله : « واشتغلوا بتعليم التوحيد فإنه أسس دينكم، حتى تنفوا عن الخالق الشبيه،والشريك، والنقائص، والآفاق، والحدود والجهات، ولا تجعلوه سبحانه في مكان ولا في جهة فإنه تعالى موجود قبل الأمكنة والجهات فمن جعله في جهة ومكان فقد جسمه ومن جسمه فقد جعله مخلوقاً ومن جعله مخلوقاً فهو كعابد وثن» (٢) لقد تبنى ابن تومرت مذهب المعتزلة في الأسماء والصفات حيث نفى كل ما عساه أن يوهم الشبه والمثلية لله سبحانه حتى ولو كان ذلك من الأسماء والصفات الثابتة لله في الكتاب والسُنة ، ولهذا سمى أصحابه بالموحدين (٣)؛ لأنهم في رأيه هم الذين يوحدون الله لنفيهم الصفات عن الله سبحانه وتعالى كما كان يسمي أتباعه بالمؤمنين ، ويقول لهم: ما على وجه الأرض من يؤمن إيمانكم» (٤) .

كما نهج ابن تومرت نهج الأشاعرة في تأويل بعض صفات الله ـ سبحانه وتعالى ـ حيث يذكر ابن خلدون أن ابن تومرت هو الذي حمل أهل المغرب على القول بالتأويل والأخذ بالمذهب الأشعري في كافة العقائد، كما ذكر المراكشي أن ابن تومرت ضمن تصانيفه مذهب الأشاعرة في كثير من المسائل، حيث كان

---

(١) **انظر** : سير أعلام النبلاء للذهبي (١٩/ ٥٤٨) .
(٢) **انظر** : أعز ما يطلب ، (ص ٢٠٤) .
(٣) **انظر** : عقد بيعة بولاية العهد في مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة ، مجلد (١٢) (سنة ١٩٥٠م) ، (ص٤٩) ، حسين مؤنس .
(٤) **انظر** : المراكشي المعجب ، (ص٢٧٦) .

« . . . جل ما يدعو إليه علم الاعتقاد على طريقة الأشعرية . . . » [١] أما المقريزي فيرى أن ابن تومرت تعلم المذهب الأشعري أثناء وجوده في بلاد العراق، فلما عاد إلى بلاد المغرب، وأخذ بتعليم أصحابه علمهم المذهب الأشعري، فكان ذلك سبباً في انتشار هذا المذهب في بلاد المغرب [٢] .

إن ابن تومرت من كبار الدعاة إلى مذهب الأشعري؛ بل أخذ أكثر المسائل إلا أنه في إثبات الصفات، فإنه وافق المعتزلة في نفيها وفي مسائل قليلة غيرها [٣] .

لقد وظف ابن تومرت المدارس الكلامية في العقائد لخدمة أهدافه السياسية ولذلك نجده يهاجم المرابطين الذين ساروا على منهج أهل السُنَّة والجماعة واتهمهم بالتجسيم والكفر؛ لأنهم في زعمه يضيفون صفات بشرية ومادية على ذات الله .

واستطاع ابن تومرت عن طريق هذا المنفذ، أن يظهر المرابطين كمجسمة كفار في أعين رعيتهم، مما دفع الكثيرين من هذه الرعية؛ لأن تنفض يدها منهم وتبتعد عنهم، كما أنه اتهم من يخضع لهم ويدين بالطاعة لهم بموافقتهم على الكفر، ومن ثم يحل للموحدين قتاله ومعاملته معاملة الكفار وأن هذا المبدأ جعل الموحدين يؤمنون بأنهم يعملون على نشر مبدأ حق ، ويكافحون الكفر وطواغيته، وأن معتقدهم يبيح لهم دماء أعدائهم وأموالهم، وأن الموت في سبيل ذلك شهادة ترفع شهيدهم إلى جنان الله الخالدة ، فاجتمعت للموحدين قوتان، هما الروح المعنوية العالية والدافع المادي. فانطلقوا كالإعصار يحطمون أعداءهم وينشرون مبادئهم [٤] .

إن الدكتور عبد المجيد النجار في كتابه تجربة الإصلاح في حركة المهدي ابن

---

(١) المراكشي المعجب (ص ٢٧٦) .

(٢) **انظر** : مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود ، العدد السادس (ص ٥٦٤) .

(٣) **انظر** : سقوط دولة الموحدين (ص ٣٩) .

(٤) **انظر** : سقوط دولة الموحدين (ص ٣٩ ، ٤٠) .

تومرت والذي نشره المعهد العالي للفكر الإسلامي والذي قدم له الدكتور طه العلواني يثني على المنهج العقدي لابن تومرت ويلمز من طرف خفي منهج المرابطين الذين ساروا على منهج أهل السُنَّة والجماعة حيث يقول: (وفي المجال العقدي حققت دعوة المهدي الهدف المرسوم، حيث أقلع أهل المغرب عن الفهم الذي كان يعتمد إمرار النصوص على ظواهرها، واعتنقوا فهماً جديداً يقوم على تأويل تلك النصوص بما يحقق التنزيه الكامل لله تعالى في ذاته وصفاته وأفعاله، ولذلك وجدت الأشعرية طريقها إلى السيطرة المطلقة على المغرب منذ قيام الدولة الموحدية بسبب موافقة التقرير العقدي لابن تومرت في أغلبه للمذهب الأشعري، وقد قامت رسائله المبسطة الموجزة في العقيدة، وخاصة رسالة المرشدة بالدور الكبير في ذلك حيث أصبحت مقرراً للحفظ والدراسة في كثير من مناطق المغرب على مر الأيام » [1] .

لقد استعمل الموحدون القوة في فرض عقائدهم المختلطة على الشمال الإفريقي واقتدوا بالمعتزلة في زمن المأمون العباسي في فرضهم على الناس عقائدهم تحت شعار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

لقد سئل ابن تيمية عن المرشدة كيف كان أصلها وتأليفها ؟، وهل تجوز قراءتها أم لا ؟ .

فقال: الحمد لله رب العالمين. أصل هذه: أنه وضعها أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن تومرت: الذي لقب بالمهدي، وكان قد ظهر في المغرب في أوائل المائة الخامسة من نحو مائتي سنة ، وكان قد دخل إلى بلاد العراق ، وتعلم طرفاً من العلم. وكان فيه طرف من الزهد والعبادة.

ولما رجع إلى المغرب صعد إلى جبال المغرب، إلى قوم من البربر وغيرهم: جهالاً

---

(١) تجربة الإصلاح عند ابن تومرت ، (ص ١٣٨) .

لا يعرفون من دين الإسلام إلا اليسير فعلمهم الصلاة والزكاة والصيام وغير ذلك من شرائع الإسلام واخترع لهم أنواعاً من المخاريف، ليدعوهم بها إلى الدين، فصار يجيء إلى المقابر يدفن بها أقواماً ويواطئهم على أن يكلموه إذا دعاهم، ويشهدوا له بما طلبه منهم، مثل أن يشهدوا له بأنه المهدي، الذي بشر به رسول الله ﷺ الذي يواطيء اسمه اسمه، واسم أبيه وأنه يملأ الأرض قسطاً وعدلاً، كما ملئت جوراً وظلماً، وأن من اتبعه أفلح، ومن خالفه خسر،ونحو ذلك من الكلام، فإذا اعتقد أولئك البربر أن الموتى يكلمونه ويشهدون له بذلك، عظم اعتقادهم فيه وطاعتهم لأمره. ثم إن أولئك المغمورين يهدم عليهم القبور ليموتوا، ولا يظهروا أمره، واعتقد أن دماء أولئك مباحة بدون هذا، وأنه يجوز له اظهار هذا الباطل ليقوم أولئك الجهال بنصره واتباعه. وقد ذكر عنه أهل المغرب وأهل المشرق الذين ذكروا أخباره من هذه الحكايات أنواعاً وهي مشهورة عند من يعرف حاله عنه...[1]. واستحل دماء ألوف مؤلفة من أهل المغرب المالكية، الذين كانوا أهل الكتاب والسُنة على مذهب مالك وأهل المدينة. يقرءون القرآن والحديث: كالصحيحين، والموطأ وغير ذلك والفقه مذهب أهل المدينة فزعم أنهم مشبهة مجسمة ولم يكونوا من أهل هذه المقالة، ولا يعرف عن أحد من أصحاب مالك القول بالتشبيه والتجسيم.

واستحل أيضاً أموالهم وغير ذلك من المحرمات بهذا التأويل ونحوه من جنس ما كانت تستحله الجهمية المعطلة ـ كالفلاسفة والمعتزلة وسائر نفاة الصفات ـ الذين فعلوا ذلك مع أهل السُنَّة والجماعة...

ومذهب السلف وأئمتها أن يوصف الله بما وصف به نفسه وبما وصفة به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكيف ولا تمثيل، فلا ينفون عن الله

---

(١) انظر: الفتاوى (١١/٤٧٧).

ما أثبته لنفسه، ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه، بل يعلمون أن الله ليس كمثله شيء. لا في ذاته ولا في صفاته، ولا في أفعاله فكما أن ذاته لا تشبه الذوات، فصفاته لا تشبه الصفات.

والله تعالى بعث الرسل فوصفوه بإثبات مفصل، ونفي مجمل، وأعداء الرسل: الجهمية والفلاسفة ونحوهم وصفوه بنفي مفصل وإثبات مجمل، فإن الله سبحانه وتعالى أخبر في كتابه بإنه: بكل شيء عليم وأنه على كل شيء قدير وأنه حي قيوم، وأنه عزيز حكيم، وأنه غفور رحيم، وأنه سميع بصير، وأنه يحب المتقين والمحسنين والصابرين، وأنه لا يحب الفساد، ولا يرضى لعباده الكفر، وأنه رضي عن المؤمنين ورضوا عنه، وأنه يغضب على الكفار ويلعنهم، وأنه إليه يصعد الكلم الطيب، والعمل الصالح يرفعه، وأنه كلم موسى تكليماً، وأن القرآن نزل به الروح الأمين، من الله على نبيه محمد ﷺ كما قال: ﴿ **نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤)** ﴾ [الشعراء: ١٩٣ – ١٩٤].

وقال تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣) ﴾.

[القيامة: ٢٢ – ٢٣].

وقد ثبت في صحيح مسلم عن صهيب عن النبي ﷺ أنه قال: « **إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، نادى مناد: ياأهل الجنة إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه: فيقولون: ماهو؟ ألم يبيض وجوهنا ويثقل موازيننا، ويدخلنا الجنة ويجرنا من النار، قال فيكشف الحجاب، فينظرون إليه، فما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه، وهي الزيادة** »، وقد استفاض عن النبي ﷺ في الصحاح أنه قال: « **إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر، لا تضامون في رؤيته** » و « أن الناس قالوا: يارسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال: « **هل تضامون في رؤية الشمس صحوا ليس دونها**

حجاب » ؟ قالوا: لا. قال: « **فإنكم سترون ربكم كما ترون الشمس والقمر** » فشبه ﷺ الرؤية ولم يشبه المرئي فإن العباد لا يحيطون بالله علما، ولا تدركه أبصارهم. كما قال تعالى: ﴿ **لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ** ﴾.

[الأنعام:١٠٣].

وقد قال غير واحد: من السلف والعلماء إن « الإدراك » هو الأحاطة فالعباد يرون الله تعالى عيانا ولا يحيطون به. فهذا وأمثاله مما أخبر الله به ورسوله.

وقال تعالى في النفي: ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** ﴾[الشورى:١١] ﴿ **فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا** ﴾ [البقرة:٢٢] وقال تعالى: ﴿ **هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا** ﴾ [مريم: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿ **وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤)** ﴾ [الإخلاص: ٤] فيبين في هذه الآيات أن الله لا كُفواً له، ولا ند له، ولا مثل له ولا سمي له، فمن قال: إن علم الله كعلمي، أو قدرته كقدرتي أو كلامه مثل كلامي، أو إرادته ومحبته ورضاه وغضبه مثل إرادتي ومحبتي ورضائي، أو استواؤه على العرش كاستوائي، أو نزوله كنزولي، أو إتيانه كإتيانى، ونحو ذلك فهذا قد شبه الله ومثله بخلقه. تعالى الله عما يقولون، وهو ضال خبيث مبطل بل كافر.

ومن قال: إن الله ليس له علم، ولا قدرة ولا كلام، ولا مشيئة، ولا سمع ولا بصر، ولا محبة ولا رضى، ولا غضب، ولا استواء ولا إتيان ولا نزول فقد عطل أسماء الله الحسنى وصفاته العلى، وألحد في أسماء الله وآياته وهو ضال خبيث مبطل بل كافر، بل مذهب الأئمة والسلف إثبات الصفات ونفي التشبيه بالمخلوقات، إثبات بلا تشبيه وتنزيه بلا تعطيل، كما قال نعيم بن حماد الخزاعي شيخ البخاري من شبه الله بخلقه فقد كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر، وليس ما وصف به نفسه ولا رسوله تشبيهاً.

ومما يبين ذلك: أن الله تعالى أخبرنا أن في الجنة ماء ولبناً وخمراً وعسلاً

ولحماً وفاكهة وحريراً وذهباً وفضة وغير ذلك. وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء فإذا كانت المخلوقات في الجنة توافق المخلوقات في الدنيا في الأسماء، والحقائق ليست مثل الحقائق، فكيف يكون الخالق مثل المخلوق إذا وافقه في الاسم؟! .

والله تعالى قد أخبر أنه سميع بصير، وأخبر عن الإنسان إنه سميع بصير، وليس هذا مثل هذا، وأخبر أنه حي، وعن بعض عباده أنه حي، وليس هذا مثل هذا، وأخبر أنه رءوف رحيم، وأخبر عن نبيه أنه رءوف رحيم، وليس هذا مثل هذا، وأخبر أنه عليم حليم ، وأخبر عن بعض عباده بأنه عليم حليم، وليس هذا مثل هذا، وسمى نفسه الملك، وسمى بعض عباده الملك، وليس هذا مثل هذا وهذا كثير في الكتاب والسُنة، فكان سلف الأمة وأئمتها كأئمة المذاهب مثل أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد وغيرهم، على هذا: إثبات بلا تشبيه وتنزيه بلا تعطيل لا يقولون بقول أهل التعطيل، نفاه الصفات، ولا بقول أهل التمثيل المشبهة للخالق بالمخلوق، فهذه طريقة الرسل ومن آمن بهم وأما المخالفون للرسل - صلوات الله وسلامه عليهم - من المتفلسفة وأشباههم - فيصفون الرب تعالى «بالصفات السلبية» ليس كذا، ليس كذا، ولا يصفونه بشيء من صفات الإثبات، بل بالسلب الذي يوصف به المعدوم فيبقى ما ذكروه مطابقاً للمعدوم، فلا يبقى فرق بين ما يثبتونه وبين المعدوم وهم يقولون: إنه موجود ليس بمعدوم، فيثبتونه من وجه ، ويجحدونه من وجه آخر، ويقولون: إنه وجود مطلق، لا يتميز بصفة.

وقد علم الناس أن المطلق لا يكون موجوداً، فإنه ليس في الأمور الموجودة ما هو مطلق لا يتعين، ولا يتميز عن غيره ، وأنما يكون ذلك فيما يقدره المرء في نفسه، فيقدر أمراً مطلقاً، وإن كان لا حقيقة له في الخارج، فصار هؤلاء المتفلسفة الجهمية المعطلون لا يجعلون الخالق سبحانه وتعالى موجوداً مبايناً

لخلقه، بل إما أن يجعلوه مطلقاً في ذهن الناس، أو يجعلوه حالاً في المخلوقات، أو يقولون : هو عين وجود المخلوقات، ومعلوم أن الله كان قبل أن يخلق المخلوقات، وخلقها فلم يدخل فيها، فليس في مخلوقاته شيء من ذاته، ولا في ذاته شيء من مخلوقاته، وعلى ذلك دل الكتاب والسُنة، واتفق عليه سلف الأمة وأئمتها، فالجهمية المعطلة نفاة الصفات من المتفلسفة والمعتزلة وغيرهم ـ الذين امتحنوا المسلمين، كما تقدم ـ كانوا على هذا الضلال، فلما أظهر الله تعالى أهل السُنَّة والجماعة، ونصرهم . بقي هذا النفي في نفوس كثير من أتباعهم، فصاروا يظهرون تارة مع الرافضة القرامطة الباطنية، وتارة مع الجهمية الاتحادية وتارة يوافقونهم على أنه وجود مطلق، ولا يزيدون على ذلك.

وصاحب المرشدة كانت هذه عقيدته كما صرح بذلك في كتاب له كبير شرح فيه مذهبه في ذلك ذكر فيه أن وجود الله تعالى وجود مطلق، كما يقول ذلك ابن سينا وابن سبعين وأمثالهم.

ولهذا لم يذكر في «مرشدته» الاعتقاد الذي يذكره أئمة العلم والدين من أهل السُنَّة والجماعة أهل الحديث والفقه والتصوف والكلام وغيرهم من أتباع الأئمة الأربعة وغيرهم، كما يذكره أئمة الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية، وأهل الكلام! من الكلابية والأشعرية والكرامية وغيرهم، ومشائخ التصوف والزهد، وعلماء أهل الحديث فإن هؤلاء كلهم متفقون على أن الله تعالى حي عالم بعلم، قادر بقدرة ؛ كما قال تعالى: ﴿ **وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ** ﴾ [البقرة:٢٥٥].

وقال تعالى: ﴿ **لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ** ﴾ [النساء : ١٦٦].

وقال تعالى : ﴿ **أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً** ﴾. [فصلت:١٥].

وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه كان يعلم أصحابه الاستخارة في الأمور كلها،

كما يعلمهم السورة من القرآن يقول:

«إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة. ثم ليقل: اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر - ويسميه باسمه - خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري، فاقدره لي، ويسره لي، ثم بارك لي فيه، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي، وعاقبة أمري، فاصرفه عني واصرفني عنه: واقدر لي الخير حيث كان، ثم رضني به» .

والأئمة الأربعة وسائر من ذكر متفقون على أن الله تعالى يرى في الآخرة، وأن القرآن كلام الله .

فصاحب «المرشدة» لم يذكر فيها شيئاً من الإثبات الذي عليه طوائف أهل السُنَّة والجماعة، ولا ذكر فيها الإيمان برسالة النبي ﷺ، ولا باليوم الآخر وما أخبر به النبي ﷺ من أمر الجنة والنار والبعث والحساب وفتنة القبر والحوض وشفاعة النبي ﷺ في أهل الكبائر. فإن هذه الأصول كلها متفق عليها بين أهل السُنَّة والجماعة. ومن عادات علمائهم أنهم يذكرون ذلك في العقائد المختصرة؛ بل اقتصر فيها على ما يوافق أصله وهو القول بأن الله وجود مطلق، وهو قول المتفلسفة والجهمية والشيعة ونحوهم، وهو قول قد اتفقت طوائف أهل السُنَّة والجماعة وأهل المذاهب الأربعة وغيرهم على إبطاله.

فذكر فيها ما تقوله نفاة الصفات، ولم يذكر فيها صفة واحدة لله تعالى ثبوتية، وزعم في أولها أنه قد وجب على كل مكلف أن يعلم ذلك، وقد اتفقت الأئمة على أن الواجب على المسلمين ما أوجبه الله، وليس لأحد أن يوجب على المسلمين ما لم يوجبه الله ورسوله، والكلام الذي ذكره بعضه قد ذكره الله ورسوله فيجب التصديق به، وبعضه لم يذكره الله ولا رسوله ولا أحد من

السلف والأئمة فلا يجب على الناس أن يقولوا ما لم يوجب الله عليهم. وقد يقول الرجل كلمة وتكون حقاً، لكن لا يجب على كل الناس أن يقولوها، وليس له أن يوجب على الناس أن يقولوها فكيف إذا كانت الكلمة تتضمن باطلاً؟.

وما ذكره من النفي يتضمن حقاً وباطلاً، فالحق يجب اتباعه والباطل يجب اجتنابه، وقد بسطنا الكلام (١) على ذلك في كتاب كبير وذكرنا سبب تسميته لأصحابه بالموحدين، فإن هذا مما أنكره المسلمون إذ جميع أمة محمد ﷺ موحدون ، ولا يخلد في النار من أهل التوحيد أحد و (التوحيد) هو ما بينه الله تعالى في كتابه، وعلى لسان رسوله ﷺ ، كقوله تعالى: ﴿ **قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤)** ﴾ [الإخلاص] وهذه السورة تعدل ثلث القرآن، وقوله: ﴿ **قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ (٤) وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦)** ﴾[الكافرون] ، وقال تعالى: ﴿ **فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ** ﴾ [محمد: ١٩] ، وقال تعالى: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ (٢٥)** ﴾ .

[الأنبياء: ٢٥].

فنفاة الجهمية من المعتزلة وغيرهم سموا نفي الصفات توحيداً ، فمن قال: إن القرآن كلام الله وليس بمخلوق. أو إن الله يرى في الآخرة أو قال: «**أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك**» لم يكن موحداً عندهم، بل يسمونه مشبها مجسماً، وصاحب «المرشدة» لقب أصحابه موحدين ، اتباعا لهؤلاء الذين ابتدعوا توحيداً ما أنزله الله به من سلطان ، وألحدوا في التوحيد الذي أنزل الله به القرآن.

---

(١) الذي بسط الكلام العلامة ابن تيمية .

وقال أيضاً في قدرة الله تعالى : إنه قادر على ما يشاء وهذا يوافق قول الفلاسفة وعلى الأسواري وغيره من المتكلمين الذين يقولون : إنه لا يقدر على غير ما فعل، ومذهب المسلمين أن الله على كل شيء قدير، سواء شاءه أو لم يشأه. كما قال تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا ﴾[الأنعام:٦٥].

وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ «أنه لما نزل قوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ قال : أعوذ بوجهك ﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ قال : هاتان أهون.

قالوا : فهو يقدر الله عليهما وهو لا يشاء أن يفعلهما، بل قد أجار الله هذه الأمة على لسان نبيها أن لا يسلط عليهم عدواً من غيرهم فيجتاحهم، أو يهلكهم بسُنة عامة. وقد قال تعالى : ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ ③ بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ ④ ﴾ [القيامة:٣، ٤]، فالله قادر على ذلك، وهو لا يشاؤه، وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ﴾ [السجدة: ١٣]. وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ [هود: ١١٨] ، فالله قادر على ذلك ، فلو شاءه لفعله بقدرته ، وهو لا يشاؤه وقد شرحنا ما ذكره فيها كلمة وبيَّنا ما فيها من صواب وخطأ ، ولفظ مجمل في كتاب آخر.

فالعالم الذي يعلم حقائق ما فيها ويعرف ما جاء به الكتاب والسُنة لا يضره ذلك، فإنه يعطي كل ذي حق حقه، ولا حاجة لأحد أن يعدل عما جاء في الكتاب والسُّنَّة، واتفق عليه سلف الأمة وأئمتها إلى ما أحدثه بعض الناس مما قد يتضمن خلاف ذلك، أو يوقع الناس في ذلك، وليس لأحد أن يضع الناس عقيدة ولا عبادة من عنده ؛ بل عليه أن يتبع ولا يبتدع، ويقتدي ولا يبتدي، فإن الله سبحانه بعث محمداً ﷺ بالهدى ودين الحق ، ليظهره على الدين كله ، وكفى

بالله شهيداً .

وقال له: ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ [يوسف : ١٠٨] ، وقال تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣] ، والنبي ﷺ علم المسلمين ما يحتاجون إليه في دينهم.

فيأخذ المسلمون جميع دينهم من الاعتقادات والعبادات وغير ذلك من كتاب الله وسُنة رسوله وما اتفق عليه سلف الأمة وأئمتها ، وليس ذلك مخالفاً للعقل الصريح فإن ما خالف العقل فهو باطل، وليس في الكتاب والسُنة والإجماع باطل، ولكن فيه ألفاظ قد لا يفهمها بعض الناس، أو يفهمون منها معنى باطلاً ، فالآفةمنهم لا من الكتاب والسُنة، فإن الله تعالى قال: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل:٨٩] [١] وهذا رد علمي رصين على المرشده التي وضعها ابن تومرت لأصحابه يبين للقارىء فساد ابن تومرت في منهج العقائد وبعده عن القرآن والسُنَّة واعتماده لمناهج المتكلمين من المعتزلة والأشاعرة وكان رد العلامة ابن تيمية مليئاً بالحجج الساطعة والبراهين القاطعة والأدلة الدامغة ، كيفَ لا وهو ينهل من كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ وطريق السلف الصالح ، إن فحول علماء الكلام وأئمة هذه المناهج من أمثال أبي الحسن الأشعري (٣٣٠هـ)، وأبي حامد الغزالي (٥٠٥هـ)، والفخر الرازي (٦٠٦هـ)، وإمام الحرمين (٤٧٨هـ) رجعوا إلى مذهب أهل السُنَّة والجماعة في آخر حياتهم ، ونبذوا علم الكلام وراء ظهورهم .

[أ] **أبو الحسن الأشعري :**

وهذا العالم الجليل ترك منهج الاعتزال وشرع في الرد على باطله يقول في

---

(١) **انظر** : الفتاوى (١١ / ٤٧٦ إلى ٤٩١) .

كتابه الإبانة : (فإن قال قائل قد أنكرتم قول المعتزلة والقدرية والجهمية والحرورية والرافضة والمرجئة، فعرِّفونا قولكم الذي به تقولون ، وديانتكم التي بها تدينون، قيل له قولنا الذي نقول به، وديانتنا التي ندين بها التمسك بكتاب ربنا عز وجل وسُنة نبينا ﷺ وما روي عن الصحابة والتابعين، وأئمة الحديث، ونحن بذلك، معصمون، بما كان يقول به أبو عبد الله أحمد بن حنبل نضر الله وجهه، ورفع درجته، وأجزل مثوبته نحن قائلون، ولما خالف قوله مجانبون » [1] .

[ب] إمام الحرمين الجويني :

(لقد خضت البحر الخضم ، وتركت أهل الإسلام وعلومهم وخضت في الذي نهوني عنه ، والآن إن لم يتداركني ربي برحمته فالويل لفلان ، وها أنا أموت على عقيدة أمي . . .) [2] .

[جـ] الإمام الغزالي:

(إن الصحابة ﭫ كانوا محتاجين إلى محاجة اليهود والنصارى في إثبات نبوة محمد ﷺ ، فما زادوا على أدلة القرآن شيئاً وما ركبوا ظهر اللجاج في وضع المقاييس العقلية ، وترتيب المقدمات كل ذلك لعلمهم بأن ذلك مثار الفتن، ومنبع التشويش، ومن لا يقنعه أدلة القرآن، لا يقمعه إلا السيف والسنان فما بعد بيان الله بيان) [3] .

[د] وأما الفخر الرازي :

فقد قال في وصيته: (ولقد اختبرت الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية فما رأيت فيها فائدة تساوي الفائدة التي وجدتها في القرآن العظيم، لأنه يسعى في تسليم العظمة والجلال بالكلية لله تعالى ويمنع من التعمق في إيراد المعارضات

---

(١) الإبانة لأبي الحسن الأشعري (ص١٧) .
(٢) انظر : الحموية لابن تيمية (ص ٧) .
(٣) إلجام العوام من علم الكلام (ص ٨٩ ، ٩٠) .

والمناقضات... فلهذا أقول: كل ما ثبت بالدلائل الظاهرة من وجود وجوده، ووحدته وبراءته عن الشركاء في القدم والأزلية، والتدبير والفعالية، فذلك هو الذي أقول به وألقى الله تعالى به.. والذي لم يكن كذلك أقول ديني متابعة محمد سيد المرسلين...) [١].

وقد أملى الرازي في هذه المرحلة من حياته، والتي أحس فيها بالندم والتوبة:

نهاية إقدام العقول عقال ... وأكثر سعي العالمين ضلال
وأرواحنا في وحشة من جسومنا ... وحاصل دنيانا أذىً ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا ... سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا [٢]

كذلك قال:

لقد طفت في تلك المعاهد كلها ... وسيرت طرفي بين تلك المعالم
فلم أر إلا واضعًا كف حائر ... على ذقن أو قارعًا سن نادم[٣]

إن ابن تومرت استخدم في حربه ضد المرابطين أساليب متعددة، منها: رميهم ظلماً وزوراً بالتجسيم وجعل عقائد مختلطة من الاعتزال والأشاعرة، والرافضة أساساً اعقيدة دولة الموحدين الجديدة، **وأصبح فيما بعد من أعلام مدرسة الأشاعرة لسببين:**

﴿ ١ ﴾ لأنه هو الذي فتح الباب في بلاد المغرب لدخول التأويل الكلامي ، ولم يقتصر الأمر على هذا بل تبنى - بصفته إمامًا مطاعًا - هذا الجانب ، فكان لسلطته الدور الأكبر في انحسار مذهب السلف ، وفشو مذاهب المتكلمين .

﴿ ٢ ﴾ تأليفه للمرشدة، وقد تكلمنا عنها وهي مستقاة من مذهب الأشاعرة، ولم يقتصر الأمر على هذا بل كان يفرض هذه العقيدة على الناس، بحيث تدرس

---

(١) **انظر** : القائد لتصحيح العقائد (ص ٧٤) .
(٢)، (٣) **انظر** : إيثار الحق على الخلق (ص ٨) .

للعوام ، مما جعلها تشتهر بسرعة .

وفيما عدا ذلك فابن تومرت يبدو أقرب ما يكون إلى مذهب المعتزلة، ومذهب الشيعة وقد كان أحد أتباعه لما كتب تاريخ ابن تومرت لا يسميه إلا الإمام المعصوم، وليس قربه من هؤلاء بأقل من قربه من الأشاعرة؛ بل أخذ من الخوارج لا سيما في التساهل في الدماء ومقاومة السلطان الجائر حتى جعله ضرباً من الجهاد في سبيل الله، كما أخذ برأيهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغيرها، وقد أدرك هذا التأثر علماء المرابطين كما يذكر ابن الخطيب (١) .

إن دعوة ابن تومرت قد تأثرت بآراء كثير من الفرق والمذاهب فهي ليست أشعرية بحتة، وليست معتزلية تقوم على الأدلة العقلية وحدها، وليست خارجية كما ظنها علماء المرابطين، وهي أيضاً ليست رافضية في كل اتجاهاتها، بل هي مزيج مضطرب من أغلب الفرق والمذاهب الإسلامية ولهذا فإنه يبدو من المقبول أن يطلق عليها العقيدة التومرتية، وذلك لتميزها عن كل المذاهب السابقة بمنهج مستقل (٢) .

ومما لا شك فيه أن الخليط التومرتي في الأفكار والعقيدة ، كان له أثره بعد ذلك على بلاد المغرب، وخصوصاً بعد أن أصبح لهذه الأفكار كيان سياسي يحميها وأصبح له نفوذه على معظم بلاد المغرب .

وقد تحدث المؤرخ المغربي السلاوي عن هذا الأمر بقوله:

« . . . وأما حالهم - يعني أهل المغرب - في الأصول والاعتقادات فبعد أن طهرهم الله من نزعة الخارجية أولاً والرافضية ثانياً على مذهب أهل السُّنَّة والجماعة مقلدين للجمهور من السلف في الإيمان بالمتشابه وعدم التعرض له بالتأويل مع التنزيه عن الظاهر. . . واستمر الحال على ذلك مدة إلى أن ظهر

(١) ،(٢) **انظر** : الدعوة الموحدية ، لعبد الله علام(ص ١٥١) .

محمد بن تومرت مهدي الموحدين في صدر المائة السادسة » [١] .

لقد اشتط ابن تومرت وانحرف عن المنهج الصحيح من أجل تحقيق أهدافه ولذلك نجده كفر من لم يؤمن بما يقول، ويعتنق ما يدعو إليه، واستباح دمه حتى ولو كان من أتباعه كما قال بكفر دولة المرابطين ووجوب جهادها، ولتأصيل هذا المبدأ في نفوس أصحابه فقد صرح به في أكثر من مناسبة، كما ضمنه كتبه التي ألفها لهم، ورسائله التي كان يبعثها إلى الموحدين حيثما كانوا، حيث جاء في إحدى رسائله أن المرابطين قد عملوا « ... على إهلاك الحرث والنسل، والاعتداء على الناس في أخذ أموالهم، وخراب ديارهم، وفساد بلادهم، وسفك دمائهم واستباحوا أكل أموال الناس بالباطل، وأخذ أموال اليتامى والأرامل... » [٢] .

ويذكر المراكشي أنه لما توجه جيش الموحدين إلى قتال المرابطين سنة ٥١٧ هـ أوصى أفراد ذلك الجيش بقوله: « إقصدوا هؤلاء المارقين المبدلين الذين يسمون بالمرابطين ، فادعوهم إلى إماتة المنكر وإحياء المعروف وإزالة البدع والإضرار بالإمام المهدي المعصوم، فإن أجابوكم فهم إخوانكم، وإن لم يفعلوا فقاتلوهم فقد أباحت لكم السُنَّة قتالهم... » [٣] .

وبالإضافة إلى هذه التهم الواضحة الصريحة التي قال بها ابن تومرت ضد دولة المرابطين، فإن القارىء لكتاب « أعز ما يطلب » يدرك أن ابن تومرت قد شحنه بالافتراءات والدعاوي الباطلة ضدهم؛ بل إنه قد أفرد فصولاً خاصة منه لهذا الغرض [٤] .

وقد تنبه المرابطون لهذه التهم الموجهة ضدهم ، فأخذوا بالتصدي لها حيث

---

(١) السلاوي (١ / ١٢٦ ١٢٧) .

(٢) أعز ما يطلب (ص ٢٦) .

(٣) المعجب (ص ٢٨٢) .

(٤) من هذه الفصل على سبيل المثال « باب في بيان طوائف الملثمين والمجسمين » .

بينوا للناس كذب تلك التهم التي ألصقها بهم ابن تومرت، وأنها مخالفة للحقيقة، ولكن هذا العمل لم يثن ابن تومرت عن حربه الدعائية؛ بل إنه كثف جهوده في هذا الميدان، ومما جاء في إحدى رسائلة التي يوجهها لهذا الغرض: « واعلموا وفقكم الله - يعني أتباعه - أن المجسمين والمكابرين وكل من نسب إلى العلم ، أشد في الصد عن سبيل الله من إبليس اللعين ، فلا تلتفتوا إلى ما يقولونه فإنه كذب وبهتان وافتراء على الله ورسوله ».

كان هذا هو توجيه ابن تومرت لأتباعه في حملته الإعلامية الكاذبة ضد دولة المرابطين السنية التي أقامت كيانها على مذهب أهل السُنَّة والجماعة والدعوة إلى الله والجهاد في سبيله على هدي من سُنة رسول الله ﷺ ، فقد طعن في عقيدتهم ووصفهم بأنهم مجسمون وكفار لا تجوز طاعتهم، ولا الولاء لهم، بل يجب جهادهم، ولهذا قاتل الموحدين، قتال المسلمين للكفار حسب اعتقادهم، وما ذلك إلا بسبب أن ابن تومرت قد نحى في حربه للمرابطين منحى فكرياً عقدياً غالى فيه حتى أصبح العداء للمرابطين اتجاهاً فكرياً واضحاً عند ابن تومرت وأتباعه المخلصن لدعوته، ومما لا شك فيه أن هذا الاتجاه الذي حدده ابن تومرت من دولة المرابطين، قد أثر على معنوياتها، ثم على كيانها السياسي وذلك لأن كثيراً من الناس قد تبنوه، ومن ثم انبروا للعمل على هذه الدولة، والسعي إلى إسقاطها لتقوم دولة ابن تومرت على أنقاضها [١] .

وتساهل ابن تومرت في إراقة الدماء دونما مسوغ شرعي، حيث كان لا يتردد في ذلك، حينما يرى أنه يخدم دعوته، أو يحقق من مطامحه مهما كانت التضحيات المقدمة لهذا الغرض، وقد تأصل هذا العمل عند ابن تومرت حيث ألبسه لباساً دينياً حتى أصبح اتجاهاً دعوياً واضحاً في دعوته،ومن نماذج عمله في

---

(١) انظر : الدعوة الموحدية بالمغرب (ص١٨١) .

هذا الميدان ما ذكره ابن القطان - أحد تلاميذ ابن تومرت - أنه كان يعظ تلاميذه وأنصاره في كل وقت « ... ومن لم يحضر أدب فإن تمادى قتل، وكل من لم يحفظ حزبه عزر بالسياط، وكل من يتلكأ يتأدب بما أدب به ضرب بالسوط بالمرة والمرتين و فإن ظهر منه عناد وترك امتثال الأوامر قتل ومن داهن . .قتل».

كما ذكر كل من البيذق [١] وابن القطان [٢] ، وغيرهما من المؤرخين [٣] أن ابن تومرت كان يقوم بما يسمى بعملية التمييز لأتباعه حيث يقتل كل من يشك في ولائه لدعوته، وقد ذكر لنا البيذق وصفاً لعملية التمييز التي قام بها ابن تومرت قبل موقعة البحيرة سنة٥٢٤هـ حيث قال: «فأمر بالميز فكان البشير [٤] يخرج بالمخالفين المنافقين والخبثاء من الموحدين، حتى امتاز الخبيث من الطيب ورأى الناس الحق عياناً، وازداد الذين آمنوا إيماناً وذاق الظالمون النار، فظنوا أنهم مواقعوها، وما لهم عنها من محيص... فمات يومئذ من الناس خمس قبائل...» [٥] . وكانت مخادعة ابن تومرت للناس في قضية التمييز باتفاق مع الونشريسي حيث طلب منه ابن تومرت أن يخفي علمه وحفظه للقرآن ويظهر أمام القبائل كأنه مجنون يسيل لعابه على وجهه.

قال الذهبي: «فلما كان عام تسعة عشر وخمسمائة ، خرج يوماً فقال: تعلمون أن البشير - يريد الونشريسي - رجل أمي، ولا يثبت على دابة، فقد جعله الله مبشراً لكم، مطلعاً على أسراركم، وهو آيه لكم، قد حفظ القرآن، وتعلم الركوب، وقال: اقرأ الختمة في أربعة أيام، وركب حصاناً وساقه، فبهتوا، وعدوها آيه لغباوتهم، فقام خطيباً، تلا: ﴿ **لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ** ﴾[الأنفال: ٣٧] ،

---

(١) **انظر** : أخبار المهدي ، تحقيق عبد الحميد حاجيان (ص ٧١ ، ٧٢) .

(٢) نظم الجمان (ص ١٠٢ ، ١٠٤) .

(٣) كابن الأثير ، وابن خلدون ، وابن العماد ، والسلاوي .

(٤) هو عبد الله بن محسن الونشريسي .

(٥) **انظر** : مجلة جامعة الإمام ، محمد بن سعود ، العدد السادس (ص ٥٦٨) .

وتلا ﴿ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾[آل عمران: ١١٠] ، فهذا البشير مطلع على الأنفس، ملهم، ونبيكم ﷺ يقول: « **إن في هذه الأمة محدثين، وإن عمر منهم**» (١) ، وقد صحبنا أقوام أطلعه الله على سرهم، ولابد من النظر في أمرهم، وتيمم العدل فيهم، ثم نودي في جبال المصامدة: من كان مطيعاً للإمام، فليأت، فأقبلوا يهرعون،فكانوا يعرضون على البشير، فيخرج قوماً على يمينه ويعدهم من أهل الجنة، وقوماً على يساره، فيقول هؤلاء شاكون في الأمر، وكان يؤتى بالرجل منهم، فيقول: هذا تائب ردوه على اليمين تاب البارحة، فيعترف بما قال، واتفقت له فيهم عجائب،حتى كان يطلق أهل اليسار، وهم يعلمون أن مآلهم إلى القتل ، فلا يفر منهم أحد ، وإذا تجمع منهم عدة ، قتلهم قراباتهم حتى يقتل الأخ أخاه..» (٢) .

قال شعيب الأناؤوط في استدلال ابن تومرت بحديث رسول الله ﷺ : « **إن في هذه الأمة محدثين، وإن عمر منهم** » في الونشريسي بأنه مُلهم: (واستشهاد ابن تومرت بالحديث في غير محله، وهو دال على سوء طويته، وجراءته على الله ورسوله، فإن البشير الونشريسي قد باع نفسه من الشيطان، وصار يستلهم منه الحيل الماكرة، والأساليب الخبيثة لإضلال الناس وإفسادهم إرضاءً لسيده ابن تومرت الذي اتخذه مطية لأطماعه، وتحصيل مرامه، فهو من أبعد الناس عن منزلة التحديث الجليلة التي اختص بها أمير المؤمنين عمر.....) (٣) .

ويبدو أن الذي دفع ابن تومرت للقيام بعمليات التمييز هو تراجع عدد كبير من الداخلين في دعوته عنها، وذلك بسبب ما تحمله من غلو وشطط، فقام بهذه العملية للتخلص من الذين يشك في إخلاصهم خشية أن يقوى رد الفعل المضاد

---

(١) البخاري (٧ / ٤٢) رقم (٣٦٨٩) .
(٢) سير أعلام النبلاء (١٩ / ٥٤٦) .
(٣) الذهبي ، سير أعلام النبلاء (١٩ / ٥٤٦) .

لدعوته [١] ولما حل ابن تومرت تينمل، آواه أهلها وأعلنوا طاعتهم له، لكنهم كانوا كثيري العدد وافري العدة ، وفي منعة بسبب حصانة مدينتهم، فأمرهم ابن تومرت بأن يحضروا إلى المسجد بغير سلاح فلما فعلوا ذلك عدة مرات أمر بعض أتباعه المقربين أن يقتلوهم ففعلوا، ثم دخلوا المدينة وقتلوا منها عدداً كبيراً من الرجال حتى بلغ عدد الذين قتلوا بهذا الحادثة خمسة عشر ألف رجل [٢] ولكي لا تحدث هذه الأعمال رد فعل عند أتباعه ، أو تلقى معارضةعند الناس، فإنه كان يظهر بشيئ من الخوارق والمعجزات حتى يؤصل في نفوس الناس شرعية ما يقوم به ، ويدعو إليه ، فقد ذكرالمؤرخون أنه كان يتواطأ مع بعض أصحابه على أن يدفنهم في المقابر وهم أحياء حيث يترك لهم مكاناً للتنفس ، ويأمرهم بأن يكلموه إذا دعاهم ، ويشهدوا له بما يطلبه منهم كأن يشهدوا بأنه المهدي الذي بشر به رسول الله ﷺ ، وأنه هو الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً ،كما ملئت جوراً وظلماً وأن من اتبعه أفلح، ومن خلفه خسر، وحينما يسمع أتباعه أن الموتى يكلمونه ، ويشهدون له بصحة ما يدعو إليه ، ويعظم اعتقادهم فيه ، وتتأكد طاعتهم له ، أما أولئك المقبورون فإنه بعد أن ينهوا المهمة التي من أجلها قبروا يستبيح دماءهم ، حيث يهدم عليهم قبورهم حتى يموتوا لكي لا يفشو سره بعد ذلك [٣] .

هذه صور وأمثلة للأعمال التي قام بها ابن تومرت واستحل بها دماء الناس المعصومة بغير حقها، حتى ولو كانوا من أنصاره أو المقربين إليه ، ولا شك أن هذا العمل يعد في نظر الإسلام كبيرة من كبائر الذنوب ، حتى ولو كان المقتول شخصاً واحداً ، فكيف يجوز لابن تومرت أن يقدم على هذه الأعمال المتنافية مع

---

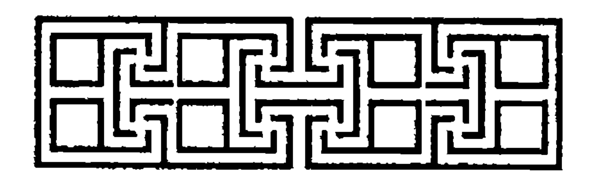
(١) **انظر** : الدعوة الموحدية ، لعبد الله علام(ص ١٩١ ، ١٩٢) .

(٢) **انظر** : الكامل في التاريخ ، لابن الأثير(٦/ ٥٦٣) .

(٣) **انظر** : الفتاوى(١١/ ٤٧٧) .

الشرع الحنيف وهو يحسب نفسه داعيه إلى الله ؛ بل مهدياً معصوماً ؟!! [١] .

وإني لأستغرب من الدكتور عبد المجيد النجار في تسمية كتابه « تجربة الإصلاح في حركة المهدي ابن تومرت » وكان الأولى به أن يسميها « تجربة الإفساد والتدمير في حركة المهدي ابن تومرت » ، ومن العجب أن المعهد العالي للفكر الإسلامي جعل كتاب الدكتور عبد المجيد النجار من ضمن سلسلة حركات الإصلاح ومناهج التغير !! ، وهذا يدل على غياب المنهج الصحيح لتقويم أعمال القادة والدول والشعوب والحركات .



(١) انظر : مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود ، العدد السادس (ص ٥٦٩) ، لقد استفدت من مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود ، العدد السادس في مبحث الأسس الفكرية والعقدية لدعوة ابن تومرت .

المبحث الخامس

المنهج التربوي والسياسي عند ابن تومرت

أولاً: المنهج التربوي :

جعل ابن تومرت منهجية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أصلاً في دعوته،ولذلك اجتهد في محاربة المنكرات التي انتشرت بين عوام الناس بكل ما يملك من قوة، ووجه سهامه نحو الفقهاء والعلماء للتقليل من هيبتهم، وإضعافهم ليتسنى له أن ينشر عقيدته المختلطة، ويؤصل ما يريد من الأحكام والأقوال على النهج الذي يخدم أهدافه ولذلك نجده عندما استقر في منطقة السوس ينهج وجهتين رئيسيتين :

[١] التربية العقيدية الروحية:

استغل ابن تومرت جعل أتباعه من البدو والأميين الذين لا يستطيعون أن يفهموا الشريعة من أصولها المعتمدة وكتب لهم شيئاً في العقائد والعبادات بعضها باللسان البربري وبنى مكاناً للعبادة، ولتعلم الطلبة على منهجه الذي رسمه وتربيتهم عليه .

قال ابن خلدون: (فنزل على قومه وذلك سنة عشرة وخمسمائة ، وبنى رابطة للعبادة، فاجتمعت إليه الطلبة والقبائل يعلمهم المرشدة في التوحيد باللسان البربري) [(١)] .

وألزم أتباعه بحفظ شيء من القرآن والحديث النبوي تعلم المرشدة واستيعاب حقائق التوحيد بمذهب علم الكلام، وتحقيق أحكام العبادة وكان يوزع أصحابه في حلقات كل عشرة يكون مسئولاً عليهم أحد الطلبة النابهين، ونهج منهج

---

(١) ابن خلدون(٦ / ٢٢٧ ، ٢٢٨) .

الشدة في التعليم والتربية وأحدث أحكاماً تبلغ إلى الضرب بالسياط لمن يظهر منه التهاون في حضور الأوقات أو في حفظ ما يطلب منه حفظه [١].

وكان هذا المنهج يسود جميع أفراد المجتمع الجديد أما من برز في العلم من أصحابه فألف لهم كتباً ورسائل خاصة وهي كتب ورسائل خصص معظمها للاستدلال العقلي على العقيدة التي جمعها من مذاهب شتى وفرق عدة.

واهتم بالجانب الروحي واعتمد في تربيته لأصحابه على التزهيد في متاع الدنيا، والترغيب في الآخرة، والإعداد للجهاد في سبيل الله طلباً للشهادة، مما خاطب به أتباعه في ذلك قوله: «ولا تنازعوا ولا تغتروا بالدنيا فإنها وكل من عليها فان واحذروا من مكرها وتقلب أحوالها.. وتزودوا منها إلى دار الآخرة واستعدوا منها بالعمل الصالح تفوزوا بذلك عند الله فوزاً عظيماً...) [٢].

[٢] التربية الاجتماعية:

وبعد أن حرص على بناء الأفراد علمياً وروحياً شرع في بناء المجتمع الجديد على أسس من التعاون والتناصر والتآخي وجعل أهل جبال أطلس في تينملل الأنصار ومن جاءهم من غيرهم المهاجرين وقعد قواعد في هذا المجتمع للتآخي لعقاب من يتعداها وربط المجتمع الجديد بوشائج القربى بين القبائل المختلفة بطريق المؤاخاه بينها أو بطريق المصاهرة المتبادلة وخاطب قيادة مجتمعه الجديد بقوله:(ما في الأرض من يؤمن إيمانكم، وأنتم العصابة الذين عنى النبي ﷺ بقوله: «لا يزال أهل المغرب ظاهرين» [٣] وأنتم تفتحون الروم وتقتلون الدجال، منكم الذي يؤم بعيسى، وحدثهم بجزئيات اتفق وقوع أكثرها، فعظمت فتنة القوم به..) [٤].

---

(١) **انظر**: نظم الجمان لابن القطان (ص ٢٦، ٢٧).

(٢) ابن تومرت: رسالة إلى الموحدين (ص ٩) نقلاً عن كتاب عبد المجيد النجار (ص ١٦٦).

(٣) **انظر**: فتح الباري (١٣/ ٢٩٥) الطبعة السلفية.

(٤) **انظر**: سير أعلام النبلاء (١٩/ ٥٤٩).

ويصف الأمير عزيز في كتابه (أخبار القيروان) المجتمع الموحدي (لهم تودد وأدب وبشاشة، ويلبسون الثياب القصيرة الرخيصة ولا يخلون يوماً من طراد ومثاقفة ونضال . . .) [١] .

ويصف ابن خلكان محمد بن تومرت فيقول: « قبره بالجبل معظم، مات كهلاً ، وكان أسمر ربعة، عظيم الهامة، حديد النظر مهيباً، وآثاره تغني عن أخباره، قدم في الثرى، وهامة في الثريا، ونفس ترى إراقة ماء الحياة دون إراقة ماء المحيا، أغفل المرابطين ربطه وحله، حتى دب دبيب الفلق في الغسق، وكان قوته من غزل أخته رغيفاً بزيت، أو قليل سمن، لم ينتقل عن ذلك حين كثرت عليه الدنيا، رأى أصحابه يوماً، وقد مالت نفوسهم إلى كثرة ما غنموه، فأمر بإحراق جميعه ، وقال :من أراد الدنيا، فهذا له عندي، ومن كان يبغي الآخرة، فجزاؤه عند الله ، وكان يتمثل كثيراً:

تجرد من الدنيا فإنك إنما ... خرجت إلى الدنيا وأنت مجرد[٢]

ثانيا: المنهج السياسي:

حرص ابن تومرت بعد رجوعه أن يسلك طريق النصح والإرشاد والوعظ ،ولذلك اتصل بالأمراء وولاة الأمر في المدن والعواصم يعظهم ويرشدهم ويبين لهم مواقع الانحراف والفساد ويحملهم المسئولية في ذلك، ويحثهم على القيام بالأمر الواجب من محاربة المنكر ونشر المعروف وتوج أمره بنصح أمير المسلمين علي بن يوسف ونبهه إلى انتشار المنكرات ووعظه وأغلظ له القول وقال له: (إنما أنا رجل فقير أطلب الآخرة ولست بطالب دنيا ولا حاجة لي بها ، غير أني آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر، وأنت أولى من يفعل ذلك، فإنك المسئول عنه، وقد وجب عليك إحياء السُنّة وإماتة البدعة، وقد ظهرت بمملكتك

---

(١) انظر : سير أعلام النبلاء (١٩ / ٥٤٩) .

(٢) وفيات الأعيان (٥ / ٥٤) .

المنكرات، وفشت البدع، وقد أمرك الله بتغييرها وإحياء السُنَّة بها إذ لك القدرة على ذلك وأنت المأخوذ به والمسئول عنه) (١) .

وبعد أن غادر مراكش بمدة يسيرة بادر بأن « خلع مبايعة علي بن يوسف من أعناق تابعيه وأصحابه ، وأعلن الجميع بخلعه » (٢) ، وانتهج ابن تومرت سياسة واضحة المعالم للقضاء على النظام القائم وبناء نظام جديد وكانت خطته تسير في سبل ثلاثة ، حملة نقدية للمرابطين، وإقامة تنظيم سياسي، وتعبئة نفسية للأنصار:

[٢] الحملة النقدية ضد المرابطين :

جعل ابن تومرت من أهدافه شن هجوم على حكام المرابطين، ومحاولاً فسخ ولاء القبائل للمرابطين فسخاً نهائياً وترسيخ ولائهم له: « فكل من أطاعهم في معصية الله وأعانهم على ظلمهم في سفك دماء المسلمين وأخذ أموالهم، وكل من أعانهم من القبائل فادعوهم إلى التوبة والإنابة والرجوع إلى الكتاب والسُنة وترك معونة المجسمين والمرتدين والمعتدين، فإن قبلوا منكم ورجعوا إلى السُنَّة وأعانوكم على جهاد الكفرة فخلوا سبيلهم وهم إخوانكم في دين الله وسُنة رسوله، وإن عاندوا الحق وأصروا على معونة أهل الباطل والفساد فاقتلوهم حيث وجدتموهم » (٣) ، وشن حرباً نفسية على حكام وأمراء وأتباع المرابطين في رسالته إليهم « إلى القوم الذين استزلهم الشيطان، وغضب عليهم الرحمان، الفئة الباغية، والشرذمة الطاغية لمتونة ، أما بعد قد أمرناكم بما نأمر به أنفسنا من تقوى الله العظيم، ولزوم طاعته،وأن الدنيا مخلوقة للفناء والجنة لمن اتقى، والعذاب لمن عصى، وقد وجبت لنا عليكم حقوق بوجوب السُّنَّة، فإن أديتموها

---

(١) تاريخ الدولتين للزركشي (١٢١)
(٢) نظم الجمان لابن القطان (ص ٢٩)
(٣) رسالة إلى الاتباع لابن تومرت (ص ٢)

كنتم في عافية، وإلا فنستعين بالله على قتالكم حتى نمحو آثاركم، ونكدر دياركم، ويرجع العامر خالياً ، والجديد بالياً،وكتابنا هذا إليكم إعذاراً، وقد أعذر من أنذر ، والسلام عليكم سلام السُنَّة لا سلام الرضى » [١] .

وهكذا شرع ابن تومرت في توجيه حملة نقدية إلي دولة المرابطين ووسع نطاقها واستهدف بها كافة الناس من أهل المغرب موالين أو معادين وحاول أن يعزل الحكام عن عامة الناس بفضح سياستهم، وتضخيم أخطائهم، تنفيراً للنفوس منهم وتمهيداً لنزع ولائهم ثم لمعاداتهم وإمعانا منه في تهجينهم وتشويه صورتهم اخترع الألقاب المشينة ورماهم بها كـ (المجسمون) و (الزراجنة) تشبيهاً لهم بطائر أسود البطن أبيض الريش يسمى الزرجان؛ لأنهم بيض الثياب سود القلوب، و (الحشم) لا تخاذهم اللثام كما يتخذه الحشم [٢] .

[٢] التنظيم السياسي :

وضع ابن تومرت لدولته الجديدة تشكيلاً سياسياً بحيث يضم وينظم ويرتب جميع أفراد الدولة حتى يضمن ويعمق ولاءهم للدعوة ويمكن مراقبتهم والإشراف عليهم ولذلك نظم ابن تومرت أتباعه في طبقات متباينة في عددها، مختلفة في واجباتها الملقاة على عاتقها. وقد بلغت طبقات الموحدين التي صنفوا بموجبها أربع عشرة طبقة .

كانت الطبقات الثلاثة الأولى، أهم هذه الطبقات، من حيث انتماء أكبر رجال الموحدين إليها، من مشائخ القبائل وزعماء المصامدة وكبار الشخصيات، الذين تتوفر لهم الكفاءات العقلية والقدرات العسكرية، وكانت أهم واجبات هذه الطبقات هي معالجة أمور الموحدين وتيسير دفة الحكم. أما الطبقات الأخرى فكانت واجباتها عسكرية وعلمية ودينية [٣] .

---

(١) رسالة لابن تومرت ضمن الحلل الموشية لابن الخط .

(٢)**انظر** : نظم الجمان لابن القطان (ص ٨٥).

(٣)سقوط دولة الموحدين (ص ٤٠).

وقد جعل الدكتور عبد المجيد النجار هذه الطبقات في أربعة أجهزة أساسية وبين مهماتها التي أنيطت بعهدتها :

الجهـــاز الأول : جهاز سياسي، ويشتمل على المجالس الثلاثة المتقدمة الذكر: مجلس العشرة، ومجلس الخمسين، ومجلس السبعين.

الجهاز الثاني: جهاز علمي ثقافي، يشتمل على طبقة الطلبة، وهم الذين بلغوا درجة مرموقة من العلم، وطبقة الحفاظ وهم صغار الطلبة.

الجهاز الثالث: جهاز عسكري، ويشتمل على طبقة الجند وطبقة الرماة والغزاة.

والجهاز الرابع: جهاز شعبي، يضم مجموعة من القبائل وهي : هرغة، وأهل تينمل، وجدميوه، وجنفيسة، وهنتاتة، وأهل القبائل [١] قال ابن الخطيب : (لكل صنف من هذه الأصناف رتبة لا يتعداها غيرهم لا في سفر ولا في حضر، لا ينزل كل صنف إلا في موضعه لا يتعداه، فانضبط مراده» [٢] .

لقد عالجت هذه الأجهزة المشاكل المطروحة على الجماعة الجديدة معالجة تقوم على التخصص ضماناً للمزيد من النجاح واجتنابا للعفوية والفوضى،وقد كانت المهام الكبرى المطروحة على هذه الجماعة مهام ثلاثة: مهمة سياسية تتعلق برسم المسار السياسي للجماعة الناشئة، وهي التي تكفل بها الجهاز الأول. ومهمة تربوية تتعلق بنشر المبادىء العقدية التي قامت عليها الدعوة، وهي التي تكفل بها الجهاز الثاني، ومهمة دفاعية تتعلق بحماية الجماعة والعمل على نموها وامتدادها وهي التي تكفل بها الجهاز الثالث.

ويبدو أن الجهاز الرابع وضع لحصر الأتباع وإحكام ارتباطهم، وربما قام بمهمة دفاعية أو دعائية، فيكون بدور ما نسميه بالمنظمات الشعبية المرتبطة بالدولة.

---

(١) **انظر** : تجربة الإصلاح في حركة المهدي ، ابن تومرت (ص ١٢٠ ، ١٢١) .
(٢) الحلل الموشية لابن الخطيب (ص ٨٠) .

وقد لخص ابن الخطيب هذه الأدوار والمهام المتكاملة في قوله: «أهل الجماعة للتفاوض والمشورة.. وأهل خمسين وسبعين والحفاظ والطلبة لحمل العلم والتلقي، وسائر القبائل لمدافعة العدو» (١).

لقد كانت الآفاق السياسية واضحة المعالم في فكر محمد بن تومرت ولذلك أسس بديلاً سياسياً اجتماعياً تربوياً ليحل محل النظام السياسي والاجتماعي والتربوي في دولة المرابطين (٢).

لقد أظهر ابن تومرت في منهجه السياسي ملكة تنظيمية كبرى، وقبض بيد من حديد على أنصاره، فأعطى مجلس العشرة سلطاناً كبيراً وحكمهم في الناس، وجعل مجلس الخمسين كلهم رؤساء القبائل، وسيطر بواسطتهم على القبائل، وجعل الجميع عيوناً له بعضهم على بعض، يوافونه بكل صغيرة أو كبيرة مما يقع حوله أو يصلهم من أنباء مما جعل ابن تومرت مطلعاً على أمور مجتمعه الجديد وأصبح مطلعاً ومرهوباً في جماعة كبيرة من المصامدة تطيعه طاعة عمياء حقا،وتخاف منه خوفاً شديداً...) (٣).

[٣] تعبئة الأنصار:

كانت مهمة ابن تومرت صعبة جداً حيث إنه استهدف دولة عرفت بجهادها في الصحراء الكبرى وفي إسبانيا وكان لها الفضل بعد الله في توحيد المغرب الأقصى مع الأندلس واشتهر حكامها بالصلاح والعدل والجهاد وحب الخير لعموم الأمة (٤)، ولذلك حرص على تعبئة أنصاره وإقناعهم على درب الحق، وأن خصمهم على درب الباطل واعتمد في تعبئته لأنصاره على:

---

(١) نفس المصدر السابق (ص ١٢٢).

(٢) **انظر**: تجربة الإصلاح في حركة المهدي، ابن تومرت (ص ١٢٢).

(٣) **انظر**: معالم تاريخ المغرب والأندلس د. حسين مؤنس (ص ١٨١).

(٤) يعني دولة المرابطين.

[أ] غرس الثقة في نفوسهم وبأنهم على الحق:

ولذلك خاطبهم بقوله: (ما على وجه الأرض من مؤمن إيمانكم، وأنتم العصابة المعنيون بقوله ﷺ: « **لا تزال طائفة بالمغرب ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله، وأنتم الذين يفتح الله بكم فارس والروم، ويقتل الدجال، ومنكم الأمير الذي يصلي بعيسى ابن مريم، ولا يزال الأمر فيكم إلى قيام الساعة...** ») (١).

وحرص ابن تومرت على رد كل ما يوقع في نفوس أصحابه من الوهن من طعون المرابطين الموجهة إلى هذه الدعوة التي أصبحوا من أنصارها، فكان لا يكل ولا يمل في تنفيذ كل ما وجهه المرابطين من حملة مضادة ضد دعوته البدعية وقاد ابن تومرت حملة دعائية مضادة، ومن ذلك ما خاطب به أصحابه قائلاً: « واعلموا وفقكم الله أن المجسمين والمكارين وكل من نسب إلى العلم أشد في الصد عن سبيل الله من إبليس اللعين، فلا تلتفتوا إلى ما يقولونه، فإنه كذب وبهتان وافتراء على الله ورسوله، وما نسبوكم إليه من الخلاف لله والرسول فذلك خب وغش للمسلمين وخيانة لله ورسوله... فانتبهوا وفقكم الله على الافتراء لهذه الحيل التي يحتالون بها على عيشهم ودنياهم حتى حملهم ذلك على الافتراء على الله ورسوله، حتى عكسوا الحقائق وقلبوها وحرفوا الكلام عن موضعه، ونسبوا من دعا إلى التوبة والتوحيد واتباع السُنَّة إلى الخلاف وسموه مخالفاً ببغيهم.. » (٢).

لقد استطاع ابن تومرت أن يقنع أتباعه وأنصاره بأنهم الطائفة المنصورة والتي تقيم أمر الله وتجاهد في سبيله وشحن بذلك النفوس، وأقنع العقل، وأخذ خطوة أخرى لتعزيز مكانته وبسط هيمنته على أتباعه وزعم بأنه المهدي المنتظر والإمام المعصوم.

---

(١) المعجب للمراكشي (ص ٢٥٦، ٢٥٧).

(٢) رسالة إلى الأتباع (ص ٤) وأيضاً رسالة المنظمة (ص ١٠٨).

[ب] الثقة بالإمام :

وسلك مسالك متعددة من أجل إقناع أصحابه وأتباعه بأنه المهدي المعصوم، فحرص على الظهور بمظهر الاستقامة والتدين والإخلاص، فزهد في متاع الدنيا من مأكل وملبس ومسكن، ثم جعل ثقة أنصار به ذات اتجاه عقدي بحيث تمنع نفوس الأتباع من الضعف والتراجع أمام أوامره وتوجيهاته، فأقنعهم بأنه الإمام المنتظر والمهدي المعصوم وبأن نسبه يرجع ضارباً في أعماقه في آل البيت المطهر، وبذلك استطاع بهذه التعاليم المتعلقة بالإمامة أن يرسخ ثقة أتباعه به ، وأن يضمن ولاءهم الدائم وطاعتهم المطلقة [١] ، ولم ينس أن يحرك نفوس المصامدة للتطلع إلى إنشاء دولة لهم، فهم معظم سكان المغرب الأقص، وهم قبائل ضخمة ذات قوة وعدد،تمتد من شمال المغرب الأقصى إلى جنوبه، ولا ينقصها إلا توحيد الصفوف والقيادة السليمة، وأقنعهم بأنهم القيادة المثلى لهذه القبائل [٢] .

[٤] المنهج العسكري:

وبعد أن نظم صفوفه وأحكم تنظيمه، أصدر إنذاره وتهديده إلى المرابطين: «قد أمرناكم بما نأمر به أنفسنا من تقوى الله العظيم ولزوم طاعته، وأن الدنيا مخلوقة للفناء، والجنة لمن اتقى، والعذاب لمن عصى، وقد وجبت لنا عليكم حقوق بوجوب السُنَّة ، فإن أديتموها كنتم في عافية، وإلا فنستعين بالله على قتالكم. . . » [٣] .

وكانت هذه الخطوة تمهيداً منه نحو قتال المرابطين ، وحرصاً على ترسيخ عقيدة الجهاد وحببه لجنوده، وأقنعهم بأن جهاد المرابطين فرض عليهم، كما فرض على الصحابة جهاد الكفرة «فالدين الذي جاهدوا عليه هو الدين لا يحول ولا

---

(١) تجربة الإصلاح في حركة ابن تومرت (ص ١٢٧) .

(٢) انظر : معالم في تاريخ المغرب ، د . حسين مؤنس (ص ١٧٧) .

(٣) الحلل لابن الخطيب (ص ٨١) .

يزول، حتى ينفخ في الصور، والسُنَّة التي قاتلوا عليها هي لا تتبدل ولا تتغير حتى يرث الله الأرض ومن عليها.. فجهاد الكفرة الملحدين قد تعين على كل من يؤمن بالله واليوم الآخر لا عذر لأحد في تركه ولا حجه له عند الله ، فإنهم سعوا في هدم الدين ، وإماتة السُنة» [١] .

ولما بذل ابن تومرت جهده في إعداد أصحابه إعداداً عقدياً جعل يعد العدة المادية، فجعل يجمع المقاتلين متخيراً الأقوياء الصادقين وتخلص من كل من شك فيه في صفوفه ومن أعلي جبال الأطلس واصل ابن تومرت حملته الإعلانية التشويهية على المرابطين واصفاً إياهم بأقذع الأوصاف فاضطر الأمير علي بن يوسف أن يسل الحسام لإخماد تلك الفتنة ، فوجه إليه وزيره ينتان بن عمر على رأس جيش كبير للقضاء عليه إلا أن ذلك الجيش رجع بدون قتال واستغل ابن تومرت ذلك وجعلها منة من الله عليهم ، وما فعله ينتان في حقيقته هروب و خوف من لقاء الموحدين وتعاظم خطر ابن تومرت واستمر علي بن يوسف في إرسال الحملات تلو الحملات لا ستئصال شأفته ولكن جميعها كان مصيرها الفشل والهزيمة ومن هذه الحملات حملة أبي إسحاق إبراهيم الذي وجهه إليه على رأس جيش كبير ولكنه انهزم أمام ابن تومرت دون قتال وتعقبتهم القوات الموحدية وقتلت أعداداً كبيرة منهم وغنموا حملتهم، وقد اغتم أمير المسلمين لهزيمة جيشه، وبادر بإرسال حملة أخرى بقيادة الأمير سير بن مزدلي اللمتوني الذي أضاف هو أيضاً هزيمة إلى سجل الهزائم المرابطية على يد الموحدين [٢] .

وكان ابن تومرت يبشر أصحابه بالغنائم والنصر قبل نشوب المعارك فيقول لهم: «انظروا إلى أعدائكم، واعلموا أن كل ما جاءوا به من خيل وعدة، إنما هو هدية من الله تعالى لكم ، على غربتكم وفقركم، فأعطاكم وأغناكم» [٣] وكان

---

(١) الرسالة المنظمة (ص ١٠٥) .

(٢) **انظر** : دولة المرابطين ، تاليف سلامة محمد سلمان (ص ١١٣) .

(٣) تاريخ المغرب والأندلس في عصر المرابطين ، د . حمدي عبد المنعم (ص ١٠١) .

ينزل في المعارك بنفسه ويبدو أن ابن تومرت لم تكن تعوزه الخبرة العسكرية، فقد تمرس بالقتال في الميدان وتعرض في كثير من الأحيان إلى السقوط في خضم المعركة، كما تعرض إلى جراحات السيوف وكثيراً ما كان يشير على عسكره بقواعد حربية ناجحة مثل سلوك المراقي العالية، وحمل العدو على الصعود دون أن يهبط عسكره إلى الوطاء، والأمر باتخاذ الأبراج العالية للمراقبة.

ولكي يكون ابن تومرت وعسكره في منعة من مباغتة الجيش المرابطي اتخذ عاصمة له مقراً منيعاً هو مدينة تينملل التي قال ابن الخطيب في وصف منعتها: «لا يعلم مدينة أحصن منها، لا يدخلها الفارس إلا من شرقها، وهو الطريق إليها من مراكش، المصنوعة في نفس الجبل، تحت راكبها حافات وفوقه حافات، وفيها مواضع مصنوعة من الخشب، إذا أزيلت منها خشبة لم يمر عليها أحد»(١).

لقد كانت لتلك الانتصارات المتوالية التي حققها الموحدون أثرها الكبير في ذيوع عقيدة المهدي وظن كثير من الناس بأنه ابن تومرت وبذلك كثر أتباعه، وعظمت ثقته بنفسه وقوته، فأرسل علي بن يوسف أمير المسلمين رسالة كلها تهديد ووعيد، فيما يلي نصها: « من القائم بدين الله العامل بسُنة رسول الله محمد بن عبد الله وفقه الله، إلى المغرور بدنياه علي بن يوسف، أما بعد فإنا ما وجدنا لأكثركم من عهد، وإن وجدنا أكثركم لفاسقين، لم تخشو عقوبة رب العالمين، ولم تتفكروا فيمن حولكم من الظالمين، الذين غووا فأصبحوا نادمين، فتبعهم الناس أجمعين، فإذا هم أخسر الخاسرين، وقد أمرني الله بإدحاض حجة الظالمين، ودعاء الناس إلى اليقين، ونسأل من الله أجر المحسنين لا تغتروا فإن المسلمين إليكم قادمون، لقتال من زاغ وجنف وكفر بنعمة الله، وقد جاء في التنزيل أنكم لستم بمؤمنين ولا تؤمنون بلا إله إلا الله، وأنها كلمة تقولونها عند

---

(١) انظر: تجربة الإصلاح في حركة ابن تومرت (ص ١٢٩).

الخوف والتعجب وتارك واحدة السُنَّة كتاركها كلها، من أجل ذلك دماؤكم حلال ومالكم فيء وقد بينا لكم وأوضحنا السبيل وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينفلب ينقلبون، والسلام على من اتبع الهدى وخشي الرحمن» [١] لقد كانت هذه الرسالة بمثابة إعلان حرب بين الموحدين والمرابطين .

إن الذي يستوقف الباحث هو كثرة هزائم المرابطين على يد الموحدين على الرغم من أن قادة جيوش المرابطين كانوا من أفضل قادة الدولة، وفي الوقت الذي كانت فيه الجيوش المرابطية تصد أعتى وأقوى الجيوش النصرانية في الأندلس، وتعبث بين الفينة والفينة في أحواز طليطلة وتتجاوزها في بعض الأحيان نحو الشمال والشرق والغرب .

يبدو أن هناك عدة عوامل أسهمت في صنع هذه الهزائم ، منها الإستراتيجية العسكرية التي اتبعها ابن تومرت في قتاله مع المرابطين، وقد ساعدته وعورة أرضه على عدم مواجهة أعداد كبيرة من جيوش المرابطين دفعة واحدة . كما أن الجيوش المهاجمة عادة تحتاج إلى وقت للتأقلم على ساحة المعركة الجديدة ، بينما كان ابن تومرت وأتباعه يقاتلون على أرض خبروها وعرفوا مسالكها، وهذا عامل مهم من عوامل نصر الجيوش، والأهم من ذلك أن أتباع ابن تومرت كانوا يقاتلون بمعنويات عالية بعد أن بايعوا ابن تومرت على أنه المهدي في الوقت الذي كانت فيه معنويات الجند المرابطي منهارة فكانوا ينهزمون دون قتال لغلبة التردد عليهم وعدم وضوح الهدف ، فالجندي المرابطي كان في حيرة فهو يقاتل مسلمين من أبناء جلدته، وهويسمع كل يوم بأن القبائل تتوافد على ابن تومرت وتبايعه، بعد ما شاعت الأخبار عما يتمتع به من علم وزهد وتقشف وأنه هو المهدي. كل

---

(١) أخبار المهدي ابن تومرت للبيذق (ص ١١١)

هذه الأمور كانت تجعل من الجندي المرابطي مضطرب النفس متردداً في إقدامه على قتال ابن تومرت ولذلك كان يفضل الفرار على الصدام (١) .

وازدات ثقة ابن تومرت بنفسه بعد تحقيقة تلك الانتصارات، فبادر بإرسال رسالة إلى المرابطين يعرض عليهم الدخول في طاعته وإما القتال مهدداً ومتوعداً من عدم الانقياد له، ومما جاء فيها: «إلى القوم الذين استزلهم الشيطان، وغضب عليهم الرحمن، الفئة الباغية، والشرذمة الطاغية اللمتونية أما بعد: فقد أمرناكم بما نأمر به أنفسنا من تقوى الله العظيم ولزوم طاعته، وأن الدنيا مخلوقة للفناء، والجنة لمن اتقى، والعذاب لمن عصى، وقد وجبت لنا عليكم حقوق بوجوب السُنَّة فإن أديتموها كنتم في عافية وإلا فنستعين بالله عليكم على قتالكم حتى نمحو آثاركم إعذار وإنذار، وقد أعذر من أنذر والسلام عليكم سلام السُنَّة لا سلام الرضى) (٢) .

وتعتبر هذه الرسالة مؤشراً على انتقال ابن تومرت من دور الدفاع إلى دور الهجوم، وقد ارتكزت إستراتيجيته في هذه المرحلة على استنزاف قوى الدولة المرابطية باستخدام أسلوب حرب العصابات وتجنب الدخول معها في معارك فاصلة ، فأخذت جيوش ابن تومرت تروح وتغدو على محلات المرابطين القريبة من مقره مكبدة إياها خسائر فادحة.

وقبل أن يعطي ابن تومرت الأمر لجيوشه بالانقضاض على المرابطين للاستيلاء على عاصمتهم مراكش أراد أن يطهر صفوفه من بعض الأشخاص الذين يشك في ولائهم له فأوعز في عام٥١٩هـ/ ١١٢٥م لصديقه الحميم الونشريسي ، الذي كان يظهر البلاهة بينما هو عالم يظهر ما لديه من علم دفعة واحدة ليكون ذلك بمثابة المعجزة لا بن تومرت وكان الونشريسي باتفاق مع ابن تومرت قد حفظ

---

(١) انظر : دولة المرابطين (١١٤) .

(٢) انظر : دولة المرابطين (١١٥) .

أسماء من شعر أنهم يشكون في مهدية ابن تومرت، وكان أيضاً ابن تومرت قد طلب من القبائل تزويده بأسماء المشاغبين إلى الونشريسي فحفظها. وبعد صلاة الفجر تقدم الونشريسي (الكاذب) وأعلن أنه جاءه البارحة ملكان وشقا قلبه وغسلاه وحشواه علماً وحكمة، فاختبره القوم فعجبوا من شدة حفظه ثم شهد لابن تومرت بالمهدية . ثم قال اعرض علي أصحابك حتى أميز أهل الجنة من أهل النار، وقد أنزل الله تعالى ملائكته إلى البئر التي في المكان الفلاني يشهدون بصدقي، وكان بالمهدية قد وضع فيها رجالاً لهذا الغرض فسار المهدي وأتباعه إلى ذلك البئر، وبعد أن وقف على رأسها قال: «ياملائكة الله إن عبد الله الونشريسي قد زعم كيت وكيت» فقال من فيها صدق، فصدقه الناس، ثم أمر بطمر البئر بحجة أنها مقدسة. وواضح أن طمره للبئر كان بسبب خوفه من أن يفضحوا أمره مما سيكون له أسوأ الأثر على دعوته وكشف زيفها.

ونادى ابن تومرت في أهل الجبل للحضور للتمييز، فأخذ الونشريسي يعمد إلى الرجال الذين يخاف من ناحيتهم ويضعهم على يساره فيقول هؤلاء من أهل النار ويضع إلى يمينه الغمر [١]، فيقول هذا من أهل الجنة. ثم أمر القبائل بقتل الأفراد الذين قيل إنهم من أهل النار وكان عددهم حسب بعض الروايات سبعين ألفاً، فلما فرغ من ذلك أمن ابن تومرت على نفسه وأصحابه واستقام أمره [٢].

وعلم ابن تومرت أن الباقين من أهل وأقارب المقتولين لا تطيب قلوبهم بذلك، فجمعهم وبشرهم بانتقال مراكش إليهم واغتنام أموال المرابطين، فسرهم ذلك وسلاهم على أهلهم، ثم ندبهم إلى قتال المرابطين وتحول موقف الموحدين من الدفاع إلى الهجوم وبعد سلسلة من الحملات الناجحة التي قام بها ابن تومرت على معاقل المرابطين أراد أن يحسم الأمر بإسقاط عاصمة المرابطين مراكش.

---

(١) **الغمر** : هو غير المجرب.

(٢) **انظر** : ابن خلكان (٦ / ٥٢-٥٣).

وتضطرب الروايات حول تحديد تاريخ هذا الزحف، وسبب ذلك يعود أن المعركة الفاصلة بين الطرفين جاءت بعد سلسلة معارك دامية. فالوصول إلى أسوار مراكش لم يكن بسهولة بل كلف الموحدين اختراق كل الخطوط الدفاعية التي أقامها المرابطين وحصنوها بالقلاع ، على أي حال صمم ابن تومرت على القضاء على المرابطين لإسقاط عاصمتهم مراكش، فأخذ يستدعي القبائل إلى تينملل ليحشدهم ويوجههم إلى ذلك الهدف المنشود.

وتوافدت القبائل على ابن تومرت وقد استعدت للقتال وتجمع منهم نحو أربعين ألفاً منهم الفرسان والغالب رجالة ، وقدم عليهم الونشريسي ووجههم نحو مراكش فبدءوا بالزحف نحوها عام٥٢١هـ/١١٢٧م وقبل وصولهم إلى أسوار مراكش خاضوا معارك عديدة مع المرابطين كانت جميعها لصالحهم .

وضرب الموحدون الحصار حول مدينة مراكش مدة أربعين يوماً على أرجح الروايات [١] ، وطوال فترة الحصار كانت تدور رحى معارك ضارية بين المرابطين المدافعين عن عاصمتهم والموحدين الذين كانوا يتمتعون بروح معنوية عالية لكثرة انتصاراتهم على المرابطين.

ومن المعارك الحاسمة التي دارت خلال فترة الحصار الموقعة التي خرج فيها أمير المسلمين علي بن يوسف لفك الحصار عن عاصمته ولكنه لم يوفق وتشتت شمل جيشه ، وفرت مجموعة من جنده عندما لم تسعها أبواب مراكش لشدة مطاردة الموحدين لها حتى وصلوا وادي أم الربيع. لقد أخذت الغيرة القائد عبد الله بن همشك الذي كان مع أصحابه الأندلسيين المائة محصوراً داخل المدينة، فخاطب أمير المسلمين قائلاً: (ما نعير إلا بالمقام تحت الحصار) . فأوضح إليه أمير المسلمين أن قتال المصامدة ليس مثل قتال النصارى، فأكد إليه ابن همشك بأنه يعرفهم

---

(١) **انظر** : دولة المرابطين (ص ١١٨) .

لوجود نخبة منهم في الأندلس، وبين لأمير المسلمين أنه ما زال يملك العدد الكافي من الجند وخاصة الرماة، وان البقاء على هذا الحال لا يكون إلا مع قلة العدد ، ثم عرض رغبته عليه بأن يعطيه ثلاثمائة فارس ليخرج بهم فسمح له ، وقبل خوضه للمعركة أراد أن يعدل أسلحة جنده ، لتتلائم مع طبيعة المعركة المقبلة، فرأى أن يقصروا رماحهم، ثم برز للموحدين فما انتصف النهار حتى دخل بثلاثمائة رأس من رءوس المصامدة فارتفعت معنويات الجند وصمموا على تخليص مدينتهم من الحصار (١) وأرسل أمير المسلمين علي بن يوسف رسائله إلى سائر ولاته وقواده طالباً المدد والعون، فجاءت إليه النجدات من كل صوب، وكان أعظمها المدد القادم من سجلماسة بقيادة واليها وانودين بن سير، وخرج علي بن يوسف من المدينة وانضمت إليه النجدات، وقدم أبو محمد بن سير قائداً عاماً للقوات المرابطية، وقيل قدم الزبير بن علي بن يوسف (٢) .

وقبل بدء القتال دارت أحاديث كان الغرض الأساسي منها تحطيم نفسية الخصم قبل مقارعته بالسنان. فبادر الموحدون بإرسال رسالة إلى المرابطين يطلبون منهم الاعتراف بمهدية ابن تومرت والانصياع إليه، فرد أمير المسلمين عليهم محذراً إياهم من عاقبة مفارقة الجماعة، وهكذا لم يستجب أي طرف لآخر.

وأخذ الونشريسي القائد العام للقوات الموحدية وعبد المؤمن إمام الصلاة لهم بتنظيم القوات الموحدية لخوض المعركة الفاصلة ، وما هي إلا مدة وجيزة حتى اشتبك الطرفان في معركة مروعة استمرت من الصباح حتى الغروب قتل فيها في بداية النهار الونشريسي، فخلفه عبد المؤمن في قيادة الجيش. ولما رأى المصامدة كثرة المرابطين وقوتهم أسندوا ظهورهم إلى بستان هناك، والبستان عندهم يسمى

---

(١) انظر : دولة المرابطين (ص ١١٩) .
(٢) انظر : عصر المرابطين والموحدين ، لعنان (ص ١٨٨) .

البحيرة [١] وما أن جن الليل حتى قتل معظم المصامدة وفر عبد المؤمن بنفر يسير لا يتجاوز الأربعمائة ما بين فارس وراجل، وبعد انتهاء المعركة بحث الموحدون عن جثة الونشريسي بين جثث القتلى فلم يعثروا عليها لأن عبد المؤمن كان قد واراها فوراً فأشاعوا فيما بينهم أنه رفع إلى السماء [٢] .

وتابع عبد المؤمن مع من نجا من القتال سيره نحو تينمل. وعندما وصل إلى هيلانة [٣] استعاد أنفاسه وحشد جنوده وأعاد الكرة على مراكش فهزم أيضاً وقتل من أتباعه نحواً من اثني عشر ألفاً فعاد أدراجه مع خمسين رجلاً من أتباعه إلى تينملل وكان البيذق قد سبق عبد المؤمن إلى ابن تومرت وأخبره بخبر الفاجعة التي حلت بهم في البحيرة، فسأله ابن تومرت عن عبد المؤمن، فقال: هو حي، فرد معزياً الأمر باق، وأوصاهم بعدم الجزع.

واستثمر المرابطون فوزهم في البحيرة وأسرعوا بإرسال أربعة جيوش بقيادة أربعة من مشاهير قوادهم وهم: سير بن ورابيل، ومسعود بن وزتيغ، ويحيى بن سير ويحيى بن كانجان إلى تينملل للقضاء على الموحدين في معقلهم الحصين. وتقابل الطرفان بموقع يقال له أبكر متاع بني كوربيت، إلا أنه لم يحدث قتال بينهما . ويعلل البيذق [٤] ذلك بأن المرابطين قد حلت في قلوبهم الرهبة من جموع الموحدين التي تدفقت عليهم النجدات من هنتانة وكنفيسة ومزالة فرجعوا إلى مراكش.

وعلى الرغم من ذلك فقد ترددت أصداء هزيمة البحيرة بين قبائل الموحدين فزلزلت ثقتهم بابن تومرت، فالمهدي مؤيد من السماء فكيف يهزم من كان خليفه الله ... وترتب على هذا التساؤل إعادة المهدي وعلى الرغم من كل

---

(١) انظر : الكامل في التاريخ (٦ / ٥٦٥) .
(٢) ابن خلكان (٥ / ٥٣)
(٣) اسم قبيلة بربرية كانت تسكن بالقرب من مراكش .
(٤) أخبار المهدي بن تومرت (ص ٣٩ - ٤١) .

الجهود التي بذلها ابن تومرت لإقناعهم بأن قتلاهم في الجنة، فقد بقيت رواسب الشك في مهديته تساور نفوسهم. عندها لجأ ابن تومرت إلى أسلوب المكر والخداع حتى يعيد الثقة بدعوته وقيادته ومهديته. فاتفق مع مجموعة من أتباعه على أن يدفنهم أحياء وجعل لكل واحد منهم متنفساً في قبره وأوصاهم بأن يقولوا إذا سئلوا: «قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً من مضاعفات الثواب على لمتونة وعلو الدرجات التي نلنا بالشهادة فجدوا في قتال عدوكم فإن ما دعاكم إليه الإمام المهدي صاحبكم حق»، ووعدهم إذا نفذوا ذلك بأن يخرجهم ويجعل لهم منزلة رفيعة . ولما ذهب أكثر الليل اجتمع بأشياخ الموحدين وأوضح لهم بأنهم حزب الله وأنصار دينه وطالبهم بالجد في قتال أعدائهم ، وطلب منهم إن كانوا في شك مما يقول أن يذهبوا سوياً إلى قبور قتلاهم في معاركهم مع المرابطين ليحدثوهم بما لقوا من خير ونعيم، وذهب معهم إلى مكان إحدى المعارك التي نشبت مع المرابطين وسقط فيها عدد كبير من الموحدين، والتي يوجد فيها ذلك النفر الذين دفنهم أحياء ولقنهم ما يقولون . ولما وصل رفع صوته في المقبرة قائلاً: يا معشر الشهداء خبرونا ما لقيتم من الله عز وجل. فقالوا: وجدنا ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على بال بشر إضافة إلى ما لقنهم إياه ابن تومرت، عندها ذهل الناس وعادت ثقتهم بالمهدي، وبدلاً من أن يخرج المدفونين قام بإغلاق المنافس التي كان قد تركها لهم فماتوا من فورهم؛لأنه خشي أن يخرجوا فيذيعون سره فيفتضح أمره فتكون كارثة عليه [1] .

ورأى ابن تومرت في قرارة نفسه أن الهزائم التي منيت بها قواته ما هي إلا نذير شؤم للإطاحة بكل مخططاته التي كرَّس حياته من أجلها ليقيم دولته المنشودة، فتفاعلت هذه الأحداث في نفسه لتوريثه المرض الذي أودى بحياته

---

(١) انظر : دولة المرابطين (ص ١٢٢) .

بعد فترة وجيزة.

وتكاد تجمع معظم المصادرعلى أن وفاته كانت عام٥٢٤هـ ، ١١٣٠م [(١)] وتذكر المصادرالموحدية أنه لما شعر بدنو أجله استدعى أصحابه المسمين بالجماعة، وأهل الخمسين، فلما حضروا أخذ يعظهم واعداً إياهم بالنصر على المرابطين، ومحذراً إياهم من الفرقة والتناحر، وأمر عليهم عبد المؤمن، وطلب منهم السمع والطاعة له ما دام مطيعاً لربه [(٢)] .

وبهذه المواعظ ودع ابن تومرت أصحابه معلماً إياهم بأنه راحل إلى ربه في هذه السنة. ولما اشتد عليه مرضه قدم عبد المؤمن بن علي للصلاة وأمره بإخفاء وفاته حتى تجتمع كلمة الموحدين على أمير، وأن يتكفل بغسله ودفنه بجامع تينملل.

وعندما توفي ابن تومرت كفنه عبد المؤمن بن علي وصلى عليه، ودفنه سراً بمسجده كما أوصاه، وقد كتم أصحابه وفاته مدة ثلاثة أعوام ولم يعلنوها إلا في عام ٥٢٧هـ/ ١١٣٢م بعد أن اتفقت كلمتهم على عبد المؤمن بن علي [(٣)] .

وهكذا انتهت حياة ابن تومرت ومصير دعوته مجهول بسبب ما حاق بأتباعه من هزيمة نكراء في موقعة البحيرة، ولكنه قد نجح في ترسيخ دعوته في قلوب أتباعه حتى صدقوه وآمنوا بمهديته، وأطاعوه ولو في قتل أبناءهم، وهذا ما حصل فعلاً في عملية التمييز التي تقشعر لهولها الأبدان حيث قتلت كل قبيلة بعض فلذات أكبادها دون تردد أو حيرة.

لقد كان ابن تومرت شخصية فريدة في التاريخ لما امتاز به من صفات المكر والدهاء واستغلاله كل الفرص، واستخدامه كل الأساليب من أجل تحقيق حلمه بإقامة دولة يكون هو زعيماً ومرشداً روحياً لها، وليدفع بقبيلته مصمودة إلى مركز الصدارة بعد أن سلبتها لمتونة ذلك الشرف.

---

(١) ، (٢) انظر : دولة المرابطين (ص ١٢٢) .

(٣) انظر : المغرب الكبير (٢ / ٧٨١) .

واجتمعت في شخصية ابن تومرت صفات قلما تجتمع في شخصية قيادية في ذلك الوقت. فقد كان على قسط وافر من العلم ، وقد ساعده ذلك على الاستفادة من كل الأفكار المطروحة في العالم الإسلامي لينتقي منها ما يلائم دعوته الجديدة ويساعد على تقوية مركزه بين أتباعه. كما مكنه تكوينه العلمي من أن يرد على أي انتقاد أو اتهام يوجه ضده من قبل الخصوم ، فيساعد في ذلك فصاحة لسان وسحر بيان وضعف حجج الخصوم، لقد استطاع أن يجمع القلوب حوله وأملى عليها ما يريد فانقادت له مبهورة.

لقد ساعد ابن تومرت في تحقيق أهدافه سذاجة المجتمع وجهله وما عشعشت في ذهنه من الأساطير وانحرافات حتى عاد غريباً عن منهل الإسلام الصافي، فعلى الرغم من الجهود الكبيرة للمرابطين لإفهام هؤلاء أمور دينهم فقد بقي قطاع كبير منهم متمسكاً بعلائق الجاهلية مما أوقعه فريسة سهلة لمخططات ابن تومرت فأملى عليهم تعاليمه البعيدة كل البعد عن منهج السُنَّة والجماعة فتقبلوها دون نقد أو تمحيص، وقدموا أرواحهم دفاعاً عنها بعد أن أوهمهم أنه المهدي المنظر الذي يملأ الأرض عدلاً بعد ما ملئت جوراً.

ومن افتراءات ابن تومرت أنه ادعى أنه مأمور بنوع من الوحي والإلهام وأن من لم يؤمن بمهديته فهو كافر وألف عقيدة أوجب حفظها على أتباعه[١]، وأحدث في أذان الصبح (أصبح ولله الحمد)، وتطاول وادعى أنه يعلم الغيب[٢] .

إن دعوة تقوم على الخداع والزيف وتذكيها العصبية القبلية لا يمكن أن تستمر فترة طويلة دون اكتشاف حقيقتها؛ لقد وصفه بحق لفيف من المؤرخين بأنه منتحل ومبتدع، وانبرى له شيخ الأسلام ابن تيمية لهدم عقيدته بمعاول الحق

---

(١) **انظر** : دولة المرابطين (ص ١٢٤) .

(٢) **انظر** : عصر المرابطين والموحدين لعنان (ص ٢١٦)

والحجج والبراهين وقد بينت ذلك [١] .

وأكبر دليل على فساد عقيدته وزيف مهديته أنه ما كاد يمضي على وفاته قرن من الزمان حتى خرج أحد خلفائه الملقب بالمأمون على الملأ معلناً في مدينة مراكش من فوق منبر مسجدها بطلان عقيدة المهدي ابن تومرت لارتكازها على الزيف والخداع، كما أسقطه من السكه ومن الخطبة، وقال: لا ندعوه بالمهدي، وكتب بذلك إلى الآفاق [٢] وبناء على هذا الإعلان حذف اسم «المهدي» من السكة الموحدية واستعيض عنه بـ «القرآن حجة الله» في المركز، وفي الهامش نقش اسم «خليفة الموحدين المأمون» [٣] إن عقيدة أهل السُنَّة والجماعة الضاربة في أعماق أهالي الشمال الإفريقي حطمت كل الأفكار الخارجية والرافضية والاعتزالية والتومرتية بصلابتها وقوتها ﴿ **فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ** ﴾ [الرعد:١٧].

إن حركة ابن تومرت حركة تدميرية عملت على هدم أركان دولة المرابطين، تلك الدولة التي قامت على تعاليم الإسلام النقية، واتخذت من جهاد النصارى في الأندلس هدفاً أسمى لوجودها، فما أفزعهم من مقر حكمهم في مراكش إلى الأندلس سوى الغيرة على الإسلام عندما أخذت معاقل المسلمين تتهاوى تحت مطارق الفونسو السادس وبذلك أخروا سقوط الأندلس بيد النصارى عدة قرون.

ولكن ما إن بدأت ثورة المهدي ابن تومرت حتى أخذت تشغلهم بعض الشئ عن واجبهم المقدس في الأندلس، فأخذ أمير المسلمين يستصرخ قواده العظام من الأندلس أمثال تاشفين بن علي لمقارعة الموحدين، وأدى ذلك إلى ازدياد ضغط النصارى على المسلمين في الأندلس، وبدءوا يلتهمون المدن الأندلسية الواحدة

---

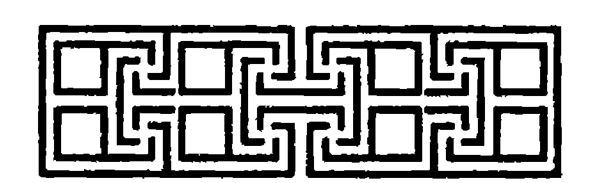
(١) انظر : الفتاوى(١١/ ٤٩٢) .

(٢) انظر : دولة المرابطين(١٢٥) .

(٣) مسكوكات المرابطين والموحدين في شمال إفريقيا والأندلس(ص ١٩١) رسالة ماجستير .

بعد الأخرى، في هذا الوقت استطاع ابن تومرت بواسطة المؤمنين بمهديته أن يطيحوا بدولة المرابطين، فأثلج ذلك قلوب النصارى الذين أدركوا أن الخلاص من الوجود الإسلامي في الأندلس أضحى وشيكاً [١].

إن رجال الإصلاح في تاريخنا الإسلامي هم الذين ساروا على منهج أهل السُنَّة والجماعة في العقائد والعبادات والأخلاق والمعاملات، أما الذين كذبوا وسفكوا الدماء وهتكوا الأعراض، وكفروا المسلمين الأولى بنا أن نطلق عليهم رجال التدمير والإفساد، وإنها لمغالطة تاريخية خيانة للأمانة العلمية عندما نضفي على المفسدين ثوب الإصلاح ونجعلهم من زعماء الأمة ومن قادتها العظام. إن حركات الإصلاح في التاريخ الإسلامي هي التي التزمت بكتاب ربها وسُنَّة نبيها واستوعبت فقه التمكين وأخذت بأسبابه ، وحرصت على تنفيذ شروطه جديرة بالدراسة الواعية من أجل إخراج فقهاً للعاملين في مجال الدعوة الإسلامية، وإنها لكفيلة بربط الحاضر بالماضي وجديرة بإثراء واقعنا بفقه بناء الدول وأسباب النهوض وعوامل السقوط وكيفية الأخذ بأسباب النجاح واتقاء المزالق.



(١) **انظر** : دولة المرابطين (١٢٦) ، لقد استفدت من كتاب تجربة الإصلاح في حركة المهدي ابن تومرت للأستاذ / عبد المجيد النجار ، ودولة المرابطين للأستاذ سلامة محمد سلمان الهرفي في مبحث المنهج التربوي والسياسي والعسكري عند ابن تومرت وغيرهما من المراجع وهذا للأمانة العلمية .

الفصل الثاني

عبد المؤمن بن علي وأبناؤه وأحفاده

المبحث الأول

عبد المؤمن بن علي

أولاً: اسمه ونسبه :

عبد المؤمن بن علي بن علوي، سلطان المغرب الذي يلقب بأمير المؤمنين، الكومي، القيسي، المغربي. ولد بأعمال تلمسان. وكان أبوه يصنع الفخار (١) .

قيل: إنه قال: أعني عبد المؤمن: إنما نحن من قيس بن غيلان بن مضر بن نزار، والكومية علينا حق الولادة ، والمنشأ فيهم، وهم أخوالي (٢) .

وكان الخطباء إذا دعوا له بعد ابن تومرت، قالوا: قسيمه في النسب الكريم، وكان مولده سبع وثمانين وأربعمائة (٣) وصفه الذهبي فقال: (وكان أبيض جميلاً، ذا جسم عمم (٤) ، تعلوه حمرة ، أسود الشعر، معتدل القامة، جهوري الصوت، فصيحاً جزل المنطق، لا يراه أحد إلا أحبه بديهة، وكان في كبره شيخاً وقوراً، أبيض الشعر، كث اللحية، واضح بياض الأسنان، وكان عظيم الهامة، طويل القعدة، شثن الكف، أشهل العين.

[أ] لقاؤه بمحمد بن تومرت :

عندما رجع ابن تومرت إلى إفريقية هو ورفيقه الشيخ عمر الهنتاني صادف عبد المؤمن، فحدثه وانسه، وقال: إلى أين تسافر؟ قال: اطلب العلم. قال: قد

---

(١) انظر : سير أعلام النبلاء (٢٠ / ٣٦٦) .
(٢) نفس المصدر (٢٠ / ٣٦٦) .
(٣) نفس المصدر (٢٠ / ٣٦٧) .
(٤) عِظَمُ الخلق في الناس وغيرهم .

وجدت طلبتك. ففقهه، وصحبه،وأحبه وأفضى إليه بأسراره لما رأى فيه من سمات النبل [١] وكان ابن تومرت يمدحه بهذه الأبيات:

تكاملت فيك أوصاف خُصِصت بها   فكلنا بك مسرور ومغتبطُ
السن ضاحكة والكف مانحة   والنفس واسعة والوجه منبسط [٢]

وكان ابن تومرت يقول لأصحابه: صاحبكم هذا غلاب الدول، لقد كان ابن تومرت يعمل على أن يكون عبد المؤمن صورة حقيقية له ولذلك أعده الإعداد اللازم للقيادة والزعامة والرياسة، وعلمه ودربه وأمر أتباعه بإطاعة عبد المؤمن في كل ما يقول وأن يقتدوا به في كل ما يفعله، وكان عبد المؤمن له من الاستعداد الفطري بحيث يستطيع أن يتقن كل ما يقال له من تعليم وتدريب، فعرف كيف ينهض وينظم الدولة ويسير بها خطوات ناجحة لكي تتبوأ دولة الموحدين الزعامة والسياسة في عالم المغرب والأندلس [٣] .

[ب] بيعته :

بايع أصحاب ابن تومرت المقربون عبد المؤمن بن علي في شهر رمضان ٥٢٤هـ وقد أطلق المؤرخون على هذه البيعة ، البيعة الخاصة ؛ لأن موت ابن تومرت ظل في طي الخفاء أكثر من سنتين ثم بايع الموحدون عبد المؤمن البيعة العامة قيل في ٢٠ ربيع الأول سنة ٥٢٦هـ وقيل ٥٢٧هـ وذلك بجامع تينملل. وقد اختار الموحدون عبد المؤمن لزعامتهم؛ لما عرفوه من اختصاص ابن تومرت له وتقريبه إليه وإطرائه لصفاته وتقديمه إياه في الصلاة، وإلى ما لمسوه من فضله وعلمه ودينه وقوة عزيمته وحسن سياسة ورجاحة عقله وشجاعته [٤] .

---

(١) انظر : سير أعلام النبلاء (٢٠/٣٦٧ ، ٣٦٨) .
(٢) انظر : النجوم الزاهرة (٥/٣٦٣) .
(٣) انظر : موسوعة المغرب العربي للغنيمي (٣/٢٠٣ ، ٢٠٤) .
(٤) انظر : تاريخ الإسلام ، د . حسن إبراهيم (٤/٢٠٨) .

وقد ذكر الذهبي خطبة ابن تومرت قبل وفاته أشار فيها إلى توليه عبد المؤمن من بعده: (استدعي ابن تومرت قبل موته الرجال المسمِّين بالجماعة وأهل الخمسين والثلاثة عمر أرتاج، وعمر إينتي، وعبد الله بن سليمان، فحمد الله - سبحانه، وله الحمد - من عليكم أيتها الطائفة بتأييده، وخصكم بحقيقة توحيده، وقيض لكم من الأبطال، فهداكم الله به ونصركم، وجمعكم بعد الفرقة، ورفع عنكم سلطان هؤلاء المارقين، وسيورثكم أرضهم وديارهم، ذلك بما كسبت أيديهم، فجددوا لله خالص نياتكم، وأروه من الشكر قولاً وفعلاً مما يزكي به سعيكم واحذروا الفرقة وكونوا يداً واحدة على عدوكم، فإنكم إن فعلتم ذلك هابكم الناس وأسرعوا في طاعتكم، وإن لم تفعلوا شملكم الذل، واحتقركم العامة وعليكم بمزج الرأفة بالغلظة، واللين بالعنف، وقد اخترنا لكم رجلاً منكم، وجعلناه بعد أن بلوناه، فرأيناه ثبتاً في دينه، متبصراً في أمره، وهو هذا - وأشار إلى عبد المؤمن - فاسمعوا له ما أطاع ربه فإن بدل ففي الموحدين بركة وخير، والأمر أمر الله يقلده من يشاء. فبايع القوم عبد المؤمن، ودعا لهم ابن تومرت) [١].

وقال ابن خلكان : [٢] ما استخلفه بل أشار إليه، وما قاله الذهبي نقله عن عبد الواحد المراكشي [٣].

كما أن هناك سبباً آخر جعل زعماء الموحدين يبايعون عبد المؤمن ألا وهو أن عبد المؤمن، كومي وليس من المصامدة وهذا يجعل حداً لتطلع زعماء القبائل إلى هذه الخلافة، وبالتالي ستقضي على الخلافات التي كان وقوعها محتملاً بين قبائل المصامدة في سبيل الزعامة.

---

(١) انظر : سير أعلام النبلاء (٢٠/٣٦٩)
(٢) انظر : وفيات الأعيان (٣/٢٣٩)
(٣) انظر : المعجب (ص ٢٨٥، ٢٨٧)

وما أن أعلنت طبقة الجماعة، وفاة ابن تومرت وبيعتها لعبد المؤمن بن علي حتى قامت بقية الطبقات له بالبيعة ولم يكن له من خلافة الموحدين إلا الاسم، أما الإدارة الفعلية والإشراف الكامل، فقد كانت للطبقات المختلفة حسب اختصاص كل منها ولذلك لم يستطع باديء الأمر، أن يستبد بأمر من الأمور ولا أن يبت في حكم من الأحكام إلا بموافقة ذوي الشأن وكان الموحدون الأولون يدركون ذلك ويحرصون عليه ، فهم لم يتركوا لعبد المؤمن العنان لأن يستبد بهم، ولا أتاحوا له الفرصة لأن ينفرد في قرارات الحكم بل نجدهم يناقشون وينتقدون أعمال عبد المؤمن ويتجرءون عليه وقد وصل الحال ببعضهم أن قتل أخا عبد المؤمن، لما جاء لزيارة أخيه الخليفة وجلس في المكان المخصص له. فما كان منه إلا غضب لنفسه واعتبر ذلك إهانة له، فثار بأخي عبد المؤمن الخليفة وقتله. ولما غضب عبد المؤمن وأراد الاقتصاص من قاتل أخيه، وقف الموحدون في وجهه ومنعوه من ذلك (١) .

ويروي البيذق هذا الحادث ضمن أخبار سنة ست وثلاثين وخمسمائة (٥٣٦هـ) فيقول: «وفيها جاء إبراهيم إلى الخليفة أمير المؤمنين بالتوحيد وأعطاه الخليفة الخيل والعبيد والخباء. وأنزله في موضع محمد بن بكر بن بيكيت. فتغابر إبراهيم أخو له أبو حفص وأبو الحسن يوكوت بن واكاك وقالا له: ألم يقل المهدي : بأن الجماعة وصبيانهم عبيدهم كل من في الدنيا. فصمت ذلك الخليفة..) (٢) .

لقد أسرها عبد المؤمن في نفسه وشرع في أخذ الخطوات التي آلت للقضاء على نظام الطبقات الذي وضعه ابن تومرت ووضع نظاماً جديداً يكرس الولاء لشخصه وأسرته وسنرى ذلك بإذن الله ، ويبدو أن عبد المؤمن لا يعتقد اعتقاداً

---

(١) **انظر** : سقوط الموحدين (ص ٥١ ، ٥٢) .

(٢) أخبار المهدي للبيذق (ص ٩٣) .

راسخاً في عصمة ابن تومرت ومهديته وإلا فكيف يتجرأ على نسف ما وضعه ابن تومرت بعد أن مهد لذلك وجعل الزمن جزءاً من هدفه. لقد كان الظلم في تعاليم ابن تومرت واضحاً فهذا خليفة الموحدين يقتل أخاه ويمنع الأخذ بالقصاص من القاتل بحجة أن القاتل من أهل الجماعة، و كل من في الأرض عبيد لهم، لا شك أن ذلك الحدث أثر في عبد المؤمن بن علي .

ثانياً: قتال عبد المؤمن للمرابطين وتوحيد المغرب :

في ظروف حالكة منذرة بالفتنة تولى عبد المؤمن بن علي قيادة الموحدين وكانت مهمته عسيرة وصعبة، فقد كان عليه أن يعيد الثقة إلى نفوس الموحدين وأن يعيد تنظيم صفوفهم تمهيداً للمعركة المقبلة، ولهذا السبب شغل طوال الشهور الأولى من خلافته في رأب الصدع، وتأليف القلوب وتعبئتها لمدافعة المرابطين، فلما تم له ذلك اعتزم مواصلة الجهاد ضد المرابطين، فكانت أولى غزواته كخليفة على حد ما رواه ابن أبي زرع موجهة إلى مدينة مراكش فقد هاجمها أياماً ثم ارتحل عنها (١) ، غير أن ابن القطان (٢) وابن خلدون يتفقان على أن أول غزواته هي غزوته لتادلة في وادي درعة، وفيها خرج عبد المؤمن من تينملل في شهر ربيع الأول سنة٥٢٦هـ في جيش ضخم قوامه ثلاثون ألف مقاتل، فسار أولاً نحو حصن تازاجورت وكانت تدافع عنه حامية مرابطية بدر بن ولكوط وقيل يحيى بن مريم الزرجاني (٣) ، فتمكن عبد المؤمن من اقتحام الحصن وقتل واليه وقتل معه نحو عشرين ألفاً من المرابطين، وهو رقم مبالغ فيه فليس من المعقول أن يضم أحد الحصون المرابطية عدداً من المدافعين يتجاوز العشرين ألف مقاتل، وهذا الرقم من الصعب تصديقه إذا أخذنا بالاعتبار كثرة عدد القلاع والحصون المرابطية في المغرب فضلاً عن انشغالهم بالجهاد ضد النصارى في الأندلس.

---

(١) ،(٢) ،(٣) **انظر** : تاريخ المغرب والأندلس ، د . مهدي عبد المنعم(ص ١١١) .

رحل عبد المؤمن عن تازاجورت بعد أن سبى ميمونة بنت ينتان بن عمر أرملة والي الحصن المذكور وصحبها معه إلى تينملل، حيث ظلت أسيرة لديه حتى افتديت فيما بعد، بمن كان في تلمسان من أسرى الموحدين، ثم سار عبد المؤمن إلى درعة واستولى عليه، كما استولى في نفس العام ٥٢٦هـ على حصن هزرجة، فقد اقتحمه وأحرقه وقتل معظم حاميته، ومنها سار إلى بلدة جثجال وأضرم فيها النيران وقتل أهلها، ثم سار إلى بلدة أخلاحال ، وكان أهلها قد قتلوا أحد أصحاب ابن تومرت وامرأته في يوم العيد، فجمع عبد المؤمن أهلها وقتل منهم ما يزيد على ثلاثمائة رجل ، وفي نفس العام استولى الموحدون على حصن جلاوة افتتحه الشيخ أبو حفص عمرو بن يحيي الهنتاتي أحد أصحاب ابن تومرت العشرة ومعه بعض وجوه الموحدين ، وكان أهل الحصن قد جرحوا ابن تومرت في إحدى غزواته، فدخله الموحدون عنوة وقتلوا كل من فيه، وفي هذا العام أيضاً افتتح الموحدون حصن تاسيغيموث أمنع حصون المرابطين ، وكان قد تولى بناءه ميمون بن ياسين، كما كانت تقوم على حراسته حامية ، من هزرجة قوامها مائتي وجمسمائة راجل ، فلما يئس الموحدون من فتحه لمناعته لجأوا إلى الحيلة فداخلوا بعض أفراده من حامية الحصن وتواطئوا معهم على فتحه ، فاقتحموه ليلاً ، وقتلوا أبا بكر بن واصول اللمطي واليه المرابطي ومن معه من المرابطين، ونقلوا أبواب الحصن الحديدية إلى تينملل حيث ركبت على باب الفخارين [١] .

ثم عاد عبد المؤمن إلى تينملل، وكانت قد وقعت خلال غيبته حادثة خطيرة، إن دلت على شيء فإنما تدل على أن الطموح إلى الرئاسة كان ما يزال يضطرم في نفوس بعض منافسي عبد المؤمن وأن الرغبة في القيادة والتطلع إلى الزعامة كانت لا تزال في نفوس أقرب المقربين إلى عبد المؤمن وأعنى بهم أصحاب

---

(١) انظر : تاريخ المغرب والأندلس (ص ١١٣ ، ١١٤) .

ابن تومرت العشرة وتتلخص هذه الحادثة في إقدام عبد الله بن ملوية أحد أصحاب ابن تومرت العشرة، على شق عصا الطاعة على عبد المؤمن بن علي أثناء غيابه تينملل غازياً، وإعلانه الطاعة لأمير المسلمين علي بن يوسف الذي لم يتردد في إعلان رضاه عن عبد الله بن ملوية ، ووضع تحت تصرفه قوة عسكرية مرابطية لمهاجمة تينملل، فسار ابن ملوية بتلك القوة إلى موضع يسمى تامد غوست قاعدة قبيلة جنفيسة بهدف استمالتها إلى جانبه ثم يزحف بقواته المجتمعة إلى تينملل، غير أن عبد الله بن وسيدرن أحد زعماء جنفيسة المقيمين في تينملل جمع شيوخ جنفيسة وأعلنوا تمسكهم بالعهد الذي قطعوه لابن تومرت، ونعوا إلى ابن عبد المؤمن تلك الخيانة وفي الحال قام أبو سعيد يخلف بن الحسن آتيكي أحد أهل خمسين ومعه غلامه، وسارا إلى محلة ابن ملوية وقتلاه، وحملا جثته إلى تينملل حيث صلبت، ولما عاد عبد المؤمن وعلم بما حدث شكر لجنفيسة إخلاصها وقسم الغنائم عليها [١] .

ويبدو أن عبد الله بن ملوية لم يكن متطلعاً للزعامة وإنما أراد الرجوع إلى الحق والتوبة وخصوصاً وهو أحد العشرة الذين يعرفون الكثير من الكذب وباطل وظلم وجور ابن تومرت بدون مسوغ شرعي ، ولذلك أعلن طاعته لأمير المسلمين علي ابن يوسف .

وفي عام٥٢٦هـحدث أمر عظيم يحمل في طياته مغزى عظيماً ومبشراً بقرب أفول عهد المرابطين، فقد انضم القائد المرابطي المشهور الفلاكي[٢]ومعه طائفة من جنده إلى الموحدين، وكان الفلاكي من أهل إشبيلية وكان في بداية أمره شقيا وقاطع طريق، ثم تاب فعفا عنه والي إشبيلية، وقدمه على الرماة والرجالة، ثم انتقل إلى خدمة أمير المسلمين علي بن يوسف، الذي قدمه على فرقة من جند

---

(١) انظر : تاريخ المغرب في الأندلس (ص ١١٤)

(٢) انظر : دولة المرابطين (ص ١٢٧)

المرابطين ووجهه إلى السوس لمدافعة الموحدين، فجد في محاربتهم وأظهر بطولة وشجاعة نادرتين، ثم لم تلبث العلاقات بينه وبين أمير المسلمين أن ساءت فانضم إلى الموحدين، وأخذ يهاجم الحصون المرابطية الواقعة في منطقة السوس، ويفعل بها مثلما كان يفعل في الحصون الموحدين من قبل،وظل في خدمة الموحدين إلى أن ارتد بعد ذلك عن الطاعة وعاد إلى طاعة المرابطين وفي عام ٥٢٨هـقتل قائد المرابطين إبراهيم بن يوسف بن تاشفين واستطاع الموحدون فتح مدينة تارودنت أعظم معاقل المرابطين في بلاد السوس.

وفي عام ٥٢٩هـسار عبد المؤمن لغزو بني بيغز وظل عبد المؤمن يحاصرهم نحو أربعين يوماً، فلما يئس من إخضاعهم رفع الحصار وعاد إلى تينملل واستمرالصراع من عام ٥٣١هـ، ٥٣٢هـوفي هذا العام ٥٣٢هـتحرك عبد المؤمن من تينملل إلى جبل غياثة، فعسكر بجرائده على مقربة من المقرمدة عند وادي أبي حلوا، كما انضمت إليه قوة عسكرية يتولى قيادتها عبد الله بن يحيي بن أبي بكر بن تيفلويت، فعسكر بالقرب من محلة سير، وفي نفس الوقت حشدت زناتة الموالية للمرابطين خمسة آلاف فارس يتقدمهم يحيي بن فانو غير أن زيري بن ماخوخ أحد شيوخ زناتة لم يلبث أن أعلن انضمامه إلى الموحدين، وراسل عبد المؤمن بن علي وطلب منه عسكراً لمهاجمة عسكر المغرب الذي يقوده عبد الله بن يحيي بن أبي بكر، فأمده بقوة موحدية، أغاربها علي محلات عسكر المغرب، والحق بهم خسائر فادحة. وفي نفس الوقت توفي القائد يحيي بن فانو قائد العسكر الزناتي الموالي للموابطين، فأسند الأمير سير القيادة إلى القوة الزناتية لمحمد بن يحيي ابن القائد المتوفي، الذي واصل سيره بقوات أبيه حتى نزل على مقربة من وجدة. وكانت الأنباء قد وصلت إلى سير ابن علي بأن عبد المؤمن يريد بلاد غمارة، فوضع له سير ألفي فارس في طريقه ليمنعه من تحقيق هدفه، واستمرت هذه القوات المرابطية ما يقرب من الشهرين تتناوب حراسة الطريق

ومراقبة تحركات عبد المؤمن، وفي أثناء ذلك راسل زيري بن ماخوخ ذويه من زناتة واتفق معهم على أن يخذلوا المرابطين في المعركة المقبلة بين المرابطين والموحدين فأرسل عبد المؤمن سرية من جنده مع زيري بن ماخوخ ، خرجت من جبل غياثة إلى محلة زناتة، وهاجمتها، ونشبت بين الفريقين معركة انهزمت فيها زناتة [١] .

وفي عام (٥٣٣هـ) تحرك عبد المؤمن بن علي من تينملل، ونزل في بلد ملول من منانة في أراضي حاحة، فزحف إليه الأمير تاشفين بن علي بن يوسف ولي عهد المرابطين من مراكش ومعه الروبرتير قائد فرقة الجند للمرابطين ، ونزل تاشفين بقواته في تاحكوط في حاحة، كان علي بن يوسف قد قتل عدداً من أعيان قبيلة منانة، وكان ذلك سبباً في دخولها في طاعة الموحدين ولكنها ارتدت عن الطاعة ثلاث مرات، فأقام عبد المؤمن في بني ملول شهراً وثلاثة أيام، وهو يشن عليهم الغارات، ثم تركهم وسار بعد ذلك إلى قبيلة بني وجدرزران ثم بني سوار من منانة الجبل، وكان أبو بكر بن علي بن يوسف قد قتل أشياخهم وأعيانهم لدخولهم في طاعة الموحدين ثم سار عبد المؤمن إلى أجر فرجان، فتبعه تاشفين ابن علي في قواته وسد عليه الطريق، فنشبت في أجر فرجان معركة عنيفة بين الفريقين، هزم فيها تاشفين ، وتكررت هزيمته ثلاث مرات إلى أن فر بنفسه إلى جهة الميزتانوت،فاستولى الموحدون على أسلابه من السلاح والثياب والدواب والعبيد وفي هذه اللحظات وصلت قوة مرابطية من مراكش مدداً لتاشفين ولكنها وصلت بعد فوات الأوان أي بعد هزيمة تاشفين، فطمعت في انتزاع الغنائم من الموحدين، فلما علم عبد المؤمن بذلك لجأ إلى الحيلة فأمر برصد الكمائن في مضايق الجبل وقدم الغنائم بين يديه اجتذاباً للقوة المرابطية التي كانت من قبيلة

---

(١) انظر : تاريخ المغرب والأندلس (ص ١١٧) .

جزولة وأمر الكمائن بالاندفاع نحوهم إذا ما سمعوا قرع الطبول. نجحت خطة عبد المؤمن بن علي نجاحاً تجاوز كل تقدير في الحسبان، فقد هاجمت جزولة ساقة الغنيمة وقتلت بعض حراسها، فلما تواسطوا مواضع الكمائن، دقت الطبول فجأة، فاندفعت الكمائن صوب جزولة فأبادوهم عن آخرهم واستولوا على أسلحتهم ودوابهم وما إن تم لعبد المؤمن ذلك حتى تراجع صوب بلاد جنفيسة.

وفي عام ٥٣٤هـ، خرج الأمير تاشفين بجيش ضخم من لمتونة وزناتة لقتال الموحدين، وانضمت إليه فرقة بقيادة الروبرتير، وتمكن المرابطون من حصارهم في موقع يقال له تيزغور ما يقرب من شهرين، وشددوا عليهم الحصار، وقطعوا عنهم الميرة، حتى اضطر الموحدون إلى أكل حيواناتهم، ثم نشبت بين الفريقين معركة عنيفة رجحت في بدايتها كفة المرابطين، ولكنها انتهت بهزيمتهم وانسحاب تاشفين إلى مراكش حاملاً معه الروبرتير جريحاً.

وفي عام (٥٣٥هـ) (١١٤٠-١١٤١م)، خرج الجيش المرابطي من مراكش بقيادة الروبرتير، فاشتبك مع الموحدين بقيادة الخليفة عبد المؤمن بن علي في مكان يسمى امسيميصي يقع في أرض كدميوه شمال تينملل وقيل: إن اللقاء حدث بجبل خدميره، ولا يذكر البيذق، نشوب معركة بين الجانبين، وإنما يؤكد أن كل فريق عاد إلى بلاده، بينما يؤكد ابن عذاري حدوث قتال بين قوتي المرابطين والموحدين، وأن المعركة انتهت بهزيمة المرابطين وعودة الروبرتير جريحاً إلى مراكش. ثم عاد الروبرتير إلى الخروج بقوات لمتونة، واشتبكت قواته مع قوات عبد المؤمن بموضع يسمى اكظرور، فهزم المرابطون، وارتد الروبرتير جريحاً إلى مراكش، وعاد عبد المؤمن إلى تينملل (١).

واصل عبد المؤمن بن علي صراعه ضد المرابطين، فخرج في قواته نفس العام

(١) انظر: تاريخ المغرب والأندلس (ص ١٢٠)

٥٣٥هـ ـ وحاصر حصن تينلين، وكان يدفع عنه واليه المرابطي يركين بن وبدرن، واستمر يحاصر الحصن ثلاثة أيام، اضطر بعدها إلى فك الحصار والاتجاه نحو بلاد السوس، وذلك عندما علم بتحرك قوات المرابطين بقيادة الروبرتير صوب تينلين، ومع ذلك فقد تمكن عبد المؤمن من فتح بعض حصون المرابطين في السوس من بينها ايرمناد، وتاسلولت وتيونوين وايجلي وغيرهم، وفي نفس الوقت هاجم الروبوتير محلة تيغيغايين الموحدية، وسبى نساءها وأخذهن معه إلى مراكش.

أما عبد المؤمن فقد عاد من غزوته في أرض السوس وكان من جملة سباياه فيها «تما كونت» ابنة ينتان ابن عمر أحد وزراء علي بن يوسف، التي رجته أن يعفوا عنها ويطلق سراحها،وذكرته بشفاعة أبيها ينتان بن عمر في ابن تومرت، عندما كان ماراً بمراكش، وحاول الفقهاء تحريض أمير المسلمين على التنكل به، فلم يتردد عبد المؤمن في قبول رجائها وأمر على الفور بإطلاق سراح جميع النساء وأرسلهن إلى مراكش معززات مكرمات ، فأعجب علي بن يوسف بصنيع عبد المؤمن وأمر بدوره بإطلاق سراح سبايا تيغيغايين وأرسلهن آمنات مكرمات إلى تينملل ، رأى عبد المؤمن بعد تلك الانتصارات التي أحرزها الموحدون على المرابطين أن ينقل مسرح الصراع إلى قلب دولة المرابطين مستهدفاً القضاء عليها وإسقاطها، وشرع في تنفيذ تلك الخطة في بداية ٥٣٥هـ ، ويورد البيذق وكان شاهد عيان لأحداث هذه الفترة وصفاً دقيقاً لحملة عبد المؤمن الكبرى ضد المرابطين فيذكر أنه خرج من تينملل في حشود ضخمة متجهاً نحو الشمال الشرقي، فنزل بموضع يسمى وانزال ثم زحف إلى أشبار وتقع جنوب شرقي مراكش ثم غادرها إلى تاساوات فدمنات بعد أن بلغه خروج تاشفين بن علي في إثره وأنه نزل بأشبار وتابع سيره نحو دمنات مروراً ببلدة يمللو القريبة منها، ثم تابع الموحدون زحفهم نحو «واويزغت» دون أن يشتبكوا مع المرابطين في معركة حاسمة باستثناء موقعة محلية حدثت في تيزي ودارت فها الدائرة على المرابطين.

ثم تقدم الموحدون إلى « داي » فولى حاكمها المرابطي علي بن ساقطر الأدبار وأرغم أهلها على بذل الطاعة للموحدين وواصل الموحدون زحفهم صوب « تازاكات » ولم تلبث هذه البلدة أن سقطت في أيديهم وتبعتها قلعة واوما، ثم آزرو التي تقاعس حاكمها في الدفاع عنها فدخلها الموحدون، واتخذها عبد المؤمن قاعدة لقيادته ، ووجه منها عدداً من الحملات لإخضاع المناطق المجاورة، وفي نفس الوقت أرسل بعض أشياخ الموحدين إلى تينملل يبشرون أهلها بانتصارات عبد المؤمن.

وهكذا دخل أهل فازاز جميعاً في طاعة الموحدين وأقام عبد المؤمن فترة في آزرو حيث تزوج من إحدى نسائها. واصل عبد المؤمن زحفه، فخرج من آزرو حيث اعترضته قوة مرابطية على طريق مكناسة، ففتك بها وأباد معظمها، واستولى على كميات كبيرة من المؤن والعتاد، ثم هاجم قواعد المرابطين في غريس الواقعة جنوبي آزرو، وتمكن من بسط نفوذه على جميع المناطق الواقعة جنوبي آزرو، وعندئذ اتجه نحو سجلماسة،فبادر واليها أبو بكر بن صارة بالدخول في طاعة الموحدين . وفي أوائل عام ٥٣٦هـ قامت سرية موحدية على رأسها عبد الرحمن بن زكو بمهاجمة مدينة صفروي واقتحمتها، وتابع ابن زكو زحفه إلى الشمال الشرقي نحو الفلاج الواقعة شمال شرقي صفروي. وفي هذه الأثناء غادر تاشفين بن علي مدينة فاس إلى جبل العرض فعسكر به، ثم بعث الروبرتير في قوة إلى الفلاج لا ستنقاذها، فخرج إليه الموحدون بقيادة يحيي آغوال، فنشبت بينهما معركة عنيفة هزم فيها الموحدون وقتل قائدهم يحيي، واحتز رأسه وأرسل بها إلى فاس ثم تقدم الموحدون نحو أرض غياثة الواقعة شرقي فاس، وضربوا محلتهم على سفح جبل عفوا ، بينما عسكر المرابطين في موضع يسمي النواظر يقع على مقربة من جبل عفوا .

ولم يمض وقت قصير حتى حل فصل الشتاء وكان قاسياً تعرضت فيه المنطقة

خلال أسابيع لعواصف عاتية وسيول مدمرة اكتسحت السهول والقرى والوديان وقاسى بسببها العسكران أيما عناء وشدة، إلا أن وقعها على المرابطين كان أشد وأنكى، حيث تساقطت الخيام، وعامت أوتادها لرخاوة الأرض، وغرقت الدور وهلك عدد كبير من عسكر المرابطين بسبب البرد القارس وقلة الأقوات والوقود في كل من المعسكرين وبلغ الحطب عند تاشفين ديناراً للرطل. ومع حلول فصل الربيع استأنف الموحدون زحفهم فكان أول موضع قصده عبد المؤمن هو قلعة الولجة من حصون المنطقة المعروفة باسم لكاي وتقع إلى الشمال من فاس. وفي نفس الوقت تقدم تاشفين بن علي ومعه الروبرتير في إثر الموحدين، فاضطر الموحدون إلى ترك أرض لكاي إلى أرض بني غمارة من بطون صنهاجة، وكانوا قد أظهروا ولاءهم للموحدين ودخلوا في طاعتهم. وعندئذ سار تاشفين والروبرتير إلى أرض بني تاودا ونزلوا بها، وأصبح العسكران كفرسي رهان، كلما تقدم الموحدون فسار وراءهم المرابطون، ثم خرج الروبرتير واشتبك مع الموحدين في معركة عنيفة في موضع يقال له « تازغدرا » أسفرت عن قتل عدد من القوتين، ارتد الروبرتير على إثرها إلى بني تاودا بينما سار الموحدون إلى « تاغزوت » ومنها إلى بني مزكلدة، ثم إلى ايلانة ثم إلى أيجن. وفي أيجن مرض الشيخ أبو حفص عمر علي بن أزناج أحد جماعة العشرة، فلما شعر بدنو أجله وعظ أشياخ الموحدين ونصحهم بالتزام الصبر والتمسك والإخلاص لمبادىء ابن تومرت، وطاعة عبد المؤمن، ثم توفي في مساء نفس اليوم ودفن في موضع يسمى « يجدار نمضى »، ثم واصل الموحدون سيرهم في الريف، مروراً بتامقريت ووادي لو أرض بني سعيد. ومن ورائهم الروبرتير يتعقبهم إلى أن وصل إلى مدينة تطوان، في الوقت الذى وصلت قوات الموحدين إلى قلعة باديس المطلة على البحر المتوسط، ومكنت نفوذها في تلك النواحي، وواصلت من هنالك تقدمها إلى ثغر المزمة ومنها إلى جبل تمسامان، حيث وجه عبد المؤمن قائده عبد الرحمن بن زكو في

قوة من الموحدين لغزو مليلة، فاقتحمها وظفر بغنائم وفيرة ثم رحل الموحدون إلى ندرومه من بلاد كوميه، قبيلة عبد المؤمن ومنها واصلوا تقدمهم شرقا إلى تاجرا مسقط رأس عبد المؤمن ، **وفي هذه البلدة وجه عبد المؤمن ثلاث حملات** :

الأولى : بقيادة عبد الرحمن بن زكو، وجهتها ثغر وهران، تمكنت من اقتحامه والاستيلاء عليه .

والثانية : بقيادة الشيخ أبي إبراهيم إسماعيل، وكانت وجهتها قبائل بني وانوان .

والثالثة : بقيادة يوسف بن واندوين وسارت إلى جبل مديونة من أحواز تلمسان، فخرج إليها المرابطون من تلمسان بقيادة أبي بكر بن الجوهر، ومحمد ابن يحيي بن فانو، ونشبت بين الفريقين معركة عنيفة في وادي الزينون، انهزم فيها المرابطون وقتل القائدان ابن الجوهر وابن فانو، وهكذا واصل الموحدون سلسلة انتصاراتهم، على قوى المرابطين وإن كانت كلفتهم كثيراً طوال حياة أمير المسلمين على ابن يوسف لمحبة الناس له وعظم هيبته في نفوس المرابطين، ثم جاءت وفاته سنة ٥٣٧هـ بداية لنهاية دولة المرابطين [١] ، وتولى الحكم بعده تاشفين الذي كان متفرغاً في حياة والده لقتال الموحدين، لذلك خف الضغط على الموحدين لانشغال تاشفين عنهم بعض الوقت بشئون الحكم الداخلية وبالمحافظة على هيبة المرابطين في الأندلس ومما زاد الأمر سوءاً أن النورمان أدركوا حرج الدولة المرابطية في ذلك الوقت، وداهموا سبتة بأسطول يتألف من نحو مائة وخمسين سفينة حربية في عام (٥٣٨هـ) فتصدى لهم الأسطول المرابطي بقيادة عليّ بن ميمون وأنزل بهم هزيمة نكراء.

وفي هذا الوقت أيضاً حدث خلاف بين لمتونة ومسوفة من قبائل المرابطين

---

(١) **انظر** : تاريخ المغرب والأندلس في عصر المرابطين (ص ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤) .

فانضمت مسوفة إلى الموحدين. وفي عام (٥٣٩هـ/ ١١٤٤م) تمكن عبد المؤمن ابن عليّ من قتل القائد المرابطي الروبرتير ودخل تلمسان وفي ٢٧ رمضان من نفس العام قتل تاشفين ودخل الموحدون وهران، وفي (١٤ ذي القعدة ٥٤٠هـ) دخل الموحدون فاس، وفي (١٨ شوال) تمكنوا من دخول مراكش [١].

وهكذا نجح الموحدون في إسقاط دولة المرابطين بعد سلسلة طويلة من الصراع المرير استخدم فيه الطرفان مختلف الخطط ضد بعضهما البعض.

ولكن خطط الموحدين كانت أحكم من خطط المرابطين، فقد اعتمد الموحدون أسلوب الحرب الطويلة مستخدمين أسلوب حرب العصابات فقضوا على اقتصاديات دولة المرابطين. كما شجع هذا الوضع الإسبان النصارى على تشديد الضغط على المرابطين لتحويل المعركة لصالحهم وقد صور صاحب الحلل الموشية [٢] ذلك بقوله: (وتأججت نار الفتنة بالمغرب ، وبسبب هذه الفتنة اتصلت الحرب، وغلت الأسعار وتوالت الفتن ، وعم الجدب وقلت المجابي وكثر على أهل الإسلام المحن بالعدوتين ، ووجه كثير من حماة الأندلس إلى العدوة ونقل إليها كثير من أسلحتها وعددها فكان ذلك أعظم فساد حل بالأندلس واحتيل عليهم وألح النصارى بالضرب على جهات بلاد الأندلس ، حين علموا عجز الإمارة بالمغرب عن الدفاع لما فيه من الفتن حتى تغلبوا على كثير من بلادها، وكان الإسلام بها عزيزاً والكفر مقهوراً والجزية مرفوعة منذ ملكها يوسف بن تاشفين إلى زمان خروج المهدي فساءت الأحوال وكثرت الشدائد والأهوال)[٣].

وبعد دخول الموحدين مراكش أصبح عبد المؤمن سيد المغرب الأقصى كله، فكان لا بد من توطيد أركان دولته الجديدة في الأندلس والمغرب الأدنى والأوسط.

---

(١) **انظر** : المغرب الكبير (٢ / ٧٨٣ - ٧٨٦)

(٢) مؤلفه مجهول .

(٣) الحلل الموشية (ص ١٢)

ثالثاً: اهتمام الموحدين بالأندلس:

بعد أن احتل عبد المؤمن علي مدينة فاس وحاصر مراكش تلقى من أهل سبتة بيعتهم له، فولى عليهم يوسف بن مخلوف الهنتاتي ولكن أهل سبتة انتفضوا على يوسف بن مخلوف وقتلوه هو ومن معه من الموحدين، وجاز القاضي عياض واليهم السابق إلى يحيي بن علي بن غانية المسوفي والي الأندلس، فلقيه بالجزيرة الخضراء وطلب منه والياً على سبتة، فأرسل معه يحيي بن أبي بكر المعروف بالصحراوي فقام بأمر سبتة وشكل حلفاً مع القبائل الخارجة عن الموحدين من أمثال برغواطة ودلكالة، فاضطر عبد المؤمن إلى قتال هؤلاء الخارجين عليه، فاستطاع أن ينكل فيهم بالقتل والأسر والسبي حتى انقادوا لطاعته ، ثم عاد إلى مراكش وتقدم الصحراوي بطلب العفو عنه ، فعفا عبد المؤمن عنه، وراجع أهل سبتة طاعتهم، وكذلك أهل سلا الذين كانوا خرجوا عليه [١] .

وبعد هذه المعارك الطاحنة في المغرب الأقصى استتب الأمر لعبد المؤمن فوجه نظره إلى الأندلس ، وكانت كثير من مدنها قد استغلت الصراع بين المرابطين والموحدين فأعلنت ثوراتها وانفصالها عن المرابطين وزادت عنفاً هذه الثورات بعد وفاة تاشفين ابن علي عام ٥٣٩هـ وكان علي بن عيسى بن ميمون من بين هؤلاء الثوار، فاستقل بقادس ودخل في طاعة الموحدين، وخطب أول خطبة لهم في قادس سنة ٥٤٠هـ كذلك قام أحمد بن قيس الصوفي الثائر في مرتلة، فلما استولى أبو محمد سدراى على جاز ابن قيس إلى عبد المؤمن بمراكش عام ٥٤١هـ ورغبه في احتلال الأندلس وضمها إلى دولة الموحدين فسير عبد المؤمن معه جيشاً بقيادة براز ابن محمد المسوفي، في شعبان ٥٤١هـ ، ثم أمده بجيش آخر بقيادة موسى بن سعيد وجيش آخر بقيادة عمر بن صالح الصنهاجي . فلما عبروا

---

(١) انظر : المغرب الكبير (٢/ ٧٨٨) .

الزقاق ونزلوا بالأندلس، هاجموا أبا القمر بن عزوز بشريش ورندة، فدخل في طاعة الموحدين، ثم قصدوا لبلة وأخضعوا يوسف بن أحمد البطروجي، ثم مضوا إلى مرتلة، فدخلوها وافتتحوا بعد ذلك شلب، وقصدوا باجة وبطليوس، فدخل أبو محمد سدراي ابن وزير في طاعتهم، كما انضوت إشبيلية في سنة ٥٤١هـ تحت لوائهم بعد أن اقتحموها براً وبحراً، ثم دخلوا مالقة في هذه السنة. غير أن يوسف البطروجي لم يلبث أن نكث بطاعته للموحدين، وحول الدعوة عنهم، كما ارتد عن طاعتهم ابن قيس في شلب، وعلي بن عيسى بن ميمون في قادس، ومحمد بن علي بن الحجام في بطليوس، بينما بقي أبو القمر بن عزوز على طاعتهم في شريش ورندة.

اضطرت أحداث الأندلس عبد المؤمن إلى إرسال جيش إليها يقوده يوسف بن سليمان،فنزل يوسف بإشبيلية التي اتخذها الموحدين حاضرة لهم في الأندلس، وتمكن يوسف من بسط نفوذ الموحدين على بطليوس وشنتمرية قادس وشلب ولبلة، ثم دخلت قرطبة وجيان في طاعة الموحدين سنة (٥٤٣هـ) ولم تبدأ سنة ٥٤٥هـ حتى كان رؤساء الأندلس الذين كانوا قد أعلنوا ثوراتهم على المرابطين، واستقلوا بمدنهم، وقد بايعوا عبد المؤمن بن علي وأعلنوا الدخول في طاعته وبذلك فرض الموحدون طاعتهم على قادس وإشبيلية، وقرطبة، ومالقة، والجزيرة، ولبلة، وشلب، وشريش، ومرتلة، فحاولوا استرجاع المرية في عام ٥٤٦هـ وحاصروها ، إلا أنهم فشلوا في اقتحامها وتخليصها من العدو بسبب حصانة أسوارها وإن كانوا قد نجحوا في اقتحام المرسى وحرق السفن والأجفان الراسية به، ووصلوا إلى المسجد الجامع.

وفي سنة (٥٤٩هـ) تغلب الموحدون على غرناطة بعد أن خرج عنها ميمون ابن بدر اللمتوني، وتوطد نفوذهم في جنوب الأندلس. ثم تلقى السيد أبو سعيد عثمان بن عبد المؤمن، والي الجزيرة ومالقة وغرناطة أمر أبيه بمحاصرة المرية

براً وبحراً لتخليصها من النصارى، فتقدم أبو سعيد إلى المرية للجهاد بصحبة أخيه أبي حفص، ونصب الموحدون المجانيق على القصبة بعد أن احتلوا المدينة وحاصروها حصاراً محكماً. وحاول ألفونسو السابع الملقب بالسليطين أن ينقذ النصارى من هذا الحصار فأقبل إلى نصرتهم على رأس جيش من ١٢ألف مقاتل، وانضم إليه حليفه ابن مردنيش في قوة من ٦ آلاف مقاتل، اضطر السيد أبو سعيد عثمان إلى استمداد الخليفة، فوجه إليه القائد الكاتب أبا جعفر بن عطية ومعه الأمير أبو يعقوب يوسف ابن عبد المؤمن والي إشبيلية ، فازدادت قوة الموحدين بقدومه واضطر ابن مردنيش أمام وخز الضمير ولوم النفس الشديد للرجوع من حيث أتى، إذ رأى «العار على نفسه في قتالهم مع كونهم يقاتلون النصارى فارتحل» . وولى عسكر ألفونسو الأدبار تاركين حامية قصبة المرية لمصيرها التعس، ومات ألفونسو في طريقه إلى بياسة سنة (٥٥٢هـ) وخلا الجو للموحدين، فشددوا الحصار على القصبة، واستولوا عليها في سنة (٥٥٢هـ) وهكذا استرد الموحدون المرية، وقد تهدمت أبنيتها، وتغيرت محاسنها [١] .

وفي سنة (٥٥٥هـ) أمر عبد المؤمن ولده أبا سعيد عثمان ببناء جبل الفتح وتحصينه، فتم بناؤه على يدي الحاج يعيش المهندس، وعلى إثر ذلك جاز عبد المؤمن من طنجة إلى الأندلس، فنزل بجبل الفتح وأقام شهرين أشرف خلالهما على أحوال الأندلس، ووفد إليه قوادها وأشياخها لتحيته ثم أمر بغزو غرب الأندلس، فسير الشيخ أبا محمد عبد الله بن أبي حفص من قرطبة، ففتح حصن أطرافكمش من أحواز بطليوس، واستولى الموحدون على بطليوس وباجة ويابرة وحصن القصر، ثم عاد عبد المؤمن بعد ذلك إلى مراكش [٢] .

---

(١) **انظر** : المغرب الكبير (٢/ ٧٩١) .

(٢) **انظر** : المغرب الكبير (٢/ ٧٩٢) .

رابعاً: فتح المغربين الأدنى والأوسط :

تمت سيطرة الموحدين على الأندلس عام ٥٥٦هـ وكانت أخبار المغرب الأوسط والأدنى تصل إلى خليفة الموحدين عبد المؤمن من آختلاف الأمراء وتطاول العرب من بني سليم وهلال على إفريقية بالبعث والفساد، كما بلغه استيلاء النورمانديين على سواحل إفريقية، فزحف في سنة ٥٤٦هـ من مراكش قاصداً مملكة يحيي بن عبد العزيز بن المنصور بن الناصر بن علناس الحمادي ببجاية، فدخل مدينة الجزائرعلى حين غفلة ، فخرج إليه الأمير الحسن بن علي بن يحيي بن تميم، وكان انتقل إليها بعد سقوط المهدية في أيدي النورمان، فقدمه أهلها على أنفسهم، فلما علم بقدوم عبد المؤمن بن علي خرج للقائه بحفاوة بالغة وصحبه في غزو إفريقية ثم سار عبد المؤمن نحو بجاية، فأخرج يحيي بن العزيز أخاه سبع للقاء جيوش عبد المؤمن، فانهزم هزيمة نكراء، ودخل الموحدون بجاية ولما رأى يحيي أن لا طاقه له بمحاربة عبد المؤمن، هرب في البحر إلى صقلية بقصد الانتقال منها إلى بغداد ، وحمل معه ما استطاع من الذخائر والجواهر والذهب والأموال، ثم عدل عن ذلك ونزل في بونة على أخيه الحارث، ثم رحل عنه إلى قسنطينة، فنزل على أخيه الحسن. أما عبد المؤمن فقد قصد بجيوشه قلعة بني حماد معقل الصنهاجيين الأعظم،وحرزهم الأمنع، واقتحمها عنوة، فخربها، وأضرم النار في مساكنها، وقتل جوش بن العزيز ولما استولى عبد المؤمن على الجزائر وعلى بجاية والقلعة وأعمالها، استعمل عليها ابنه عبد الله، ورتب من الموحدين من يقوم بالدفاع عنها وكر عائداً إلى مراكش. وكان يحيي بن العزيز قد نزل عن قسنطينة لعبد المؤمن على أن يؤمنه،فأمنه وأصحبه معه إلى مراكش في سنة (٥٤٧هـ) وأسكنه بها، ثم انتقل يحيي إلى سيلا سنة ٥٥٨هـ فسكن قصر بن عشيرة إلى أن توفي في هذه السنة.

أما الحسن بن علي فقد صحب عبد المؤمن في غزواته الأولى إلى إفريقية ، كما

صحبه في سنة ٥٥٤هـ في غزوته الثانية، فحاصر معه المهدية،ثم دخلها وسكن بها ثمان سنوات إلى أن استدعاه أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن، فرحل بأهله إلى مراكش، وتوفي بتامسنا في سنة ٥٦٣هـ ثار عرب الأثبج ورياح وزغبة في سطيف على عبد الله بن عبد المؤمن بن علي من أجل إعادة دولة بني حماد، فأرسل عبد المؤمن بن علي إلى ابنه مدداً، والتقى عبد الله بن عبد المؤمن بهم في سطيف، فانهزم العرب، وأعلنوا استسلامهم للموحدين، وقدم إليه وفد من كبرائهم طائعين، فأكرمهم، ووصلهم وأعادهم إلى إفريقية معززين. وكان لذلك أكبر الأثر في دخول العرب في طاعته ، فاتخذ منهم جنداً وأقطع رؤساءهم بعض تلك البلاد ثم إنه استنفرهم إلى الغزو بالأندلس، فاستجاب له منهم جمع عظيم. فلما أراد الجواز إلى الأندلس في سنة٥٥٥هـ أدخلهم بها، وجعل بعضهم في نواحي قرطبة،وبعضهم في إقليم إشبيلية، مما يلي شريش وأعمالها، وقد استكثر منهم أبو يعقوب يوسف وأبو يوسف يعقوب المنصور، ويذكر المراكشي أن بالجزيرة في أيامه من عرب زغبة ورياح وجشم وغيرهم نحو (٥ آلاف) فارس سوى الرجالة (١) .

وفي هذه الأثناء كان عبد الله بن عبد المؤمن قد خرج في جيش كبير من المصامدة والعرب ونزل على مدينة تونس سنة ٥٥٢هـ ، فحاصرها، وأخذ في قطع أشجارها وتغوير مياهها، وكان قد استقل بها عبد الله بن خراسان، فخرج أهل تونس لمقاتلة الموحدين، وانضم إليهم محرز بن زياد أمير بني علي من بطون رياح هو وقومه من العرب فهزموا الموحدين (٢) .

وتوفي عبد الله بن خراسان أثناء ذلك ، فخلفه علي بن أحمد بن عبد العزيز ابن خراسان، وعاد عبد الله بفلول أصحابه إلى بجاية فكتب إلى أبيه بذلك.

---

(١) المراكشي (ص ٢٢٦) .
(٢) **انظر** : المغرب الكبير (٢/ ٧٩٥) .

فخرج أبوه من مراكش في جيوش لا تحصى في ١٠ شوال سنة (٥٥٣هـ) بعد أن استخلف على مراكش أبا حفص بن يحيي، وترك معه ولده السيد أبا الحسن. ثم زحف إلى مدينة تونس ففتحها عنوة، ثم واصل زحفه إلى المهدية، وضرب عليها الحصار. وكانت الإمدادات تأتي حاميتها من صقلية، ولذلك طال الحصار إلى سبعة أشهر، ثم افتتحها عبد المؤمن بعد أن أمن حاميتها على أن يخرجوا منها إلى صقلية، ودخلها في سنة ٥٥٤هـ ، وكان عبد المؤمن أثناء حصاره للمهدية قد بعث ابنه عبد الله لمحاصرة قابس، فاستولى عليها من بني كامل من رياح، المتغلبين عليها، كما استولى على قفصة من بني الورد، وعلى طبرقة من مدالع بني علال، وجبل زغوان من بني حماد بن خليفة، وشقنبارية من بني عماد بن نصر الله الكلاعي، والأربس من بني فثانة العرب، ويذكر المراكشي أنه افتتح طرابلس الغرب أيضاً ، وافتتح بلاد الجريد كلها [١] ، وعاد بعد ذلك إلى مراكش بعد أن أتم إخضاع إفريقية كلها وضمها إلى دولته، وأصبحت دولة الموحدين تمتد من طرابلس شرقاً إلى السوس الأقصى غرباً، لأول مرة في تاريخ المغرب منذ عصر الولاة [٢] .

خامساً: سياسته مع النصارى واليهود وتخريج الساسه لضبط نظام الدولة :

﴿ أ ﴾ عندما استولى عبد المؤمن على مراكش، قتل المقاتلة،وكف عن الرعية، وأحضر اليهود والنصارى، وقال إن المهدي أمرني أن لا أقر الناس إلا على ملة الإسلام، وأنا مخيركم بين ثلاث، إما أن تسلموا، وإما أن تلحقوا بدار الحرب، وإما القتل. فأسلمت طائفة ولحقت أخرى بدار الحرب، وخرب كنائسهم، وعملها مساجد، وألغى الجزية، فعل ذلك في جميع مدائنه، وانفق بيوت الأموال، وصلى فيها اقتداء بعلي وليري الناس أنه لا يكنز المال، وأقام كثيرًا من

---

(١) المراكشي (ص ٢٣٠) .

(٢) **انظر** : المغرب الكبير (٢/٧٩٩) .

معالم الإسلام مع سياسة كاملة، ونادى: من ترك الصلاة ثلاثاً فاقتلوه ، وأزال المنكر، وكان يؤم بالناس، ويتلو في اليوم سبعاً، ويلبس الصوف الفاخر، ويصوم الاثنين والخميس، ويقسم الفيء بالشرع فأحبوه، وكان يأخذ الحق إذا وجب على ولده ، ولم يدع مشركاً في بلاده لا يهودياً ولا نصرانياً ، فجميع رعيته مسلمون (١) .

ورأى عبد المؤمن أنه من الحزم والفطنة أن يضع للدولة نُظُماً موطدة الدعائم، فأطلق حرية العلوم والمعارف، وسار في ذلك مع نهج الدين الحنيف، وبنى عدداً من المسجد والمدارس الفخمة التي غدت مراكز للعلوم والآداب، وقرنها بالخدمة العسكرية دوماً، مع التمرين على فنون الحرب، ذلك أن عبد المؤمن كان يخشى أن يؤدي الانقطاع إلى العلم والدرس إلى إضعاف الهمم، وفتور الحماسة الحربية لدى الموحدين.

كما أنشأ عبد المؤمن مدرسة لتخريج رجال السياسة، وموظفي الحكومة، وقادة الجيش، وكان يجمعهم يوم الجمعة بعد الصلاة في قصره، ويمتحنهم فيما درسوا، ويوجه إليهم الأسئلة بنفسه تشجيعاً لهم على الاجتهاد، ولكي يجعل منهم رجالاً أكفاء قادرين على نفع البلاد في السلم والحرب.

وفي أيام أخرى كان يمتحن تدريباتهم العسكرية، فيختبرهم في الطعن بالحراب والرمي بالقوس والسهام والمبارزة وركوب الخيل، وفي السباحة والمعارك البحرية في بحيرة أعدها ووضع فيها سفناً كبيرة وصغيرة ليتدرب الشباب على قتال البحر، وقيادة السفن، والوثب على سفن العدو، ويقدم للمهرة الممتازين الهدايا الثمينة بنفسه (٢) .

لقد استطاع عبد المؤمن في نحو عشرين سنة أن ينشيء نظاماً جديداً للدولة،

---

(١) **انظر** : الذهبي ، سير أعلام النبلاء (٢٠ / ٣٧٠ ، ٣٧١) .

(٢) **انظر** : تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ، يوسف أشباخ (٢ / ٥٠) .

إذ لم يبق من قدماء الموظفين المعارضين من يعمل على مناوأته. وكان أشد ما يعنى به عبد المؤمن ـ وهو من أعظم قادة عصره ـ تنظيم شئون الحرب والجهاد التي بث فيها الروح بجهوده ومتابعته ، وقام بنهضة إحياء شاملة وإليك وصف نظام سير الموحدين، وتقسيمات الجيش، كما كان عندما استولى على تونس والمهدية من النورمان الصقليين (١) .

كان مسير الجيش بعد الصلاة الصبح قبيل شروق الشمس، وكانت علامة المسير ثلاثة قرعات من طبل ضخم دوره خمسة عشر ذراعاً، مدهون بلون الموحدين الأخضر، ومحلى بالذهب، وقد خشب رنان، فكان يسمع على مسيرة نصف يوم إذا ضرب في مكان مرتفع في يوم ساكن لا ريح فيه، وكانت كل قبيلة تتبع علمها الخاص، وهو يحمل مطوياً أثناء السير، ولا ينشر عندئذ سوى علم الطلائع، وقد كان مكوناً من اللونين الأبيض والأزرق، وعليه هلال مذهب، وتحمل الخيام والعتاد والمؤن على ظهور الجمال والدواب، وهذا غير ما يتبع الجيش من قطعان عديدة من الثيران والأغنام تسير تحت إشراف الرعاة، وتخصص لغذاء الجند، وكان جيش عبد المؤمن النظامي يتألف ـ فضلاً عن الفرسان ـ من سبعين ألفاً من المشاة ، وكان ينقسم إلى أربعة جيوش، يفصل بعضها عن بعض أثناء السير مسيرة يوم ، وذلك حتى لا يقع في الماء أو ضيق في المكان ، وإذا كان معظم الجند مثقلاً بالسلاح فقد كانت مسيرة اليوم قصيرة المدى، وكان يقطع خلالها عادة عدة أميال فقط، وكان يقتصر على السير منذ شروق الشمس إلى وقت الظهر، حتى يتسنى للجند أن يبدءوا السير في اليوم التالي بقوى مجددة، وترتب على هذا التمهل في مسير الجيش أن اقتفى عبد المؤمن ستة أشهر ليقطع المسافة بين سلا وتونس ، وهي مسافة كانت تقطعها فرقة الفرسان الخفيفة في

---

(١) انظر : الآراك د . شوقي أبو خليل (ص ٢٩) .

نحو شهرين فقط. وكان عبد المؤمن إذا ركب أحاط به الأشياخ والقادة، وأدوا معه الصلاة، ثم ينصرف بعد ذلك كل إلى مكانه، وإلى قيادة الجند التابعين له، وكان يتقدمه مائة شيخ وقائد، يمتطون جياداً مطهمة ويتقلدون أسلحة فاخرة، ويرتدون ثياباً فخمة، وكان يحمل أمامه مصحف الخليفة عثمان بن عفان الذي غنمه الموحدين من قرطبة، تبركاً وتيمناً ، وقد وضع في ـ صندوق ـ بديع الصنع، محلى بصفائح الذهب: مرصع بأروع الآليء والأحجار الكريمة، حتى إنه قيل بحق بأن كنوز الأمويين، وبني عباد ملوك إشبيلية ، وبني هود ملوك سرقسطة، والمرابطين، قد اجتمعت فيها جميعاً وتكدست. وهذا الصندوق يحمل في هودج ثمين، على جوانبه الأربعة أربعة أعلام، ويتبعه مباشرة أمير المؤمنين عبد المؤمن، وإلي جانبه ولده وكاتب سره السيد أبو حفص والي تلمسان، وهو شقيق السيد أبي يعقوب يوسف، ويتبعه على قيد مسافة قصيرة الأمراء وأبناؤه الآخرون[١] الذين يرافقون الجيش، ثم يتبعهم بنود القبائل وفق ترتيبها، وعدد من قارعي الطبول على خيول عالية، والنافخون في الأبواق والقرون [٢] وغيرهم رجال الموسيقى العسكرية، ثم الولاة والقضاة والوزراء والكتاب، وبعد ذلك يأتي الجند متعاقبين في نظام محكم، فإذا حل الوقت الذي ينتظم فيه المعسكر، أفرد لكل قسم مكانه المعين ولا يسمح لإنسان أن يترك المعسكر دون إذن القائد المختص، ثم توزع الأقوات التي يحمل الجيش منها مقادير وافرة، على الجند بأنصبة متساوية، فلا يقتر على أحد منهم.

نستنتج من هذه النظم الصارمة، ومن المثابرة على التمارين الحربية، ومن دراسة حياة الموحدين:

﴿ ١ ﴾ أن عبد المؤمن كان يعتني عناية خاصة باختيار مواقع القتال.

---

(١) كان لعبد المؤمن ثلاثة عشر ولداً .

(٢) القرن هنا : آلة موسيقية تعتمد على النفخ ، تشبه تماماً القرن المعروف على رأس البقر أو غيره .

﴿ ٢ ﴾ كان يتولى القيادة بنفسه في كل الأمور الحاسمة الهامة.

﴿ ٣ ﴾ وكان يتبع نظاماً جديداً في منتهى البساطة، ولكنه جم الفوائد.

﴿ ٤ ﴾ وأن قيمة الجيش ليست في عدده، إنما هي قبل كل شيء في مقدرته وكفاءته ومعنوياته وإيمانه ، وكان عبد المؤمن يرى أن القوة الرئيسية يجب أن تؤلف من جند من المشاة حسنة التدريب، حسنة التسليح، فهي العامل الحاسم في مصير المواقع وفي اقتحام المدن، مع وجود جيش ضخم من الفرسان لا يستغنى عنه في المعارك.

ومن أعمال عبد المؤمن: مسح جميع أراضي مملكته، وحصل من الولاة على بيانات دقيقة عن سكان كل ولاية، وعن خواصها وثروتها وغلاتها. وكان يرمي من ذلك إلى تقرير الضرائب من ناحية، وأن تتخذ هذه البيانات أساساً لتقرير عدد الجند وأنواعه من ناحية أخرى، فسكان الثغور في المغرب والأندلس يقدمون البحارة والسفن، والمناطق الصحراوية والفنية بالخيل تقدم الفرسان ودواب الخيل والجمال، وعلى الولايات الأخرى في المدن الداخلية مثلاً ـ تقديم الجند المشاة والسلاح، كل بنسبة سكانها .

وكان عبد المؤمن يحتفظ بالسلاح بكميات وافرة، وبمقادير جيدة في المخازن المعدة له. وأنشأ مصانع السلاح في كثير من قواعد مملكته تعطي القسي والنشاب والخوذات والدروع والسهام.. وآلات الرمي والمنجنيقات التي تستخدم في الحصار[١] وعزم عبد المؤمن على تغير نظام الطبقات؛ ولذلك قام بحركة واسعة للقضاء على كل العناصر الغير موالية له، وتخلص من كل العناصر التي لم يكن ولاؤها له غير مؤكد. ومشاغبتها عليه محتمل وقوعها وخافه الموحدون خوفاً عظيماً، وأرعبت النفوس منه وساعدته الظروف على تحقيق أهدافه

---

(١) انظر : معركة الآراك(ص ٣٢) .

الشخصية وطموحه الذاتي، فمن هذه الظروف أن طبقة الجماعة قد تناقص عددها تناقصاً كبيراً. فقد قتل خمسة أفراد من أعضاء هذه الطبقة في موقعة البحيرة سنة ٥٢٤هـ التي هزم فيها الموحدون من قبل القوات المرابطية. وهؤلاء هم: أبو محمد عبد الله بن محسن الونشريسي وسليمان بن مخلوف الحضرمي، وأبو عمران موسى بن تماري الكدميوي وأبو يحيي ابن بيكيت وأبو عبد الله بن سليمان. أما أبو حفص عمر بن علي آصناك، فقد توفي سنة (٥٣٦هـ) ، وقتل عبد الله يعلي بن ملوية سنة (٥٢٧هـ) بعد أن خرج على الخليفة عبد المؤمن. إذ إنه حقد على الموحدين بيعتهم له أما أبو الحسن بن واكاك ، فقد قتله طلحة غلام أبي إسحاق أمير المسلمين المرابطي سنة (٥٤١هـ) .

وإذن فقد توفي في طبقة الجماعة، المكونة من عشرة أشخاص، ثمانية أفراد، ولم يعد باقياً على قيد الحياة منهم إلا أبو حفص عمر بن يحيي الهنتاتي وعبد المؤمن ابن علي، وإذا كان الأمر كذلك بالنسبة لطبقة الجماعة، فإنه من المؤكد أن الكثيرين من أعضاء طبقتي أهل خمسين وأهل سبعين ، وغيرهما من الطبقات قد تناقص بسبب الحروب المستمرة التي خاضها الموحدون. ولذلك أتاحت وفاة الكثيرين من أعضاء طبقات الموحدين، فرصة طيبة لعبد المؤمن بن علي لأن يجري تعديلاً في نظام الطبقات (١) .

وبعد أن تخلص من أكثر من معارضيه شرع لتنفيذ المخطط الهادف لتغيير نظام الطبقات، فأصدر أوامره لجميع الموحدين من المصامدة وغيرهم بالحضور إلى حضرته في مراكش فحضروا والرعب يملأ جوانحهم والخوف يملأ قلوبهم، خوفاً ورهبة مما يخبئه لهم الخليفة. لقد رسم عبد المؤمن خطته في أناة وروية، ونفذها على خطوات وعلى مهل وفي غير استعجال، حتى إذا ما استوفى ربط الحلقات

---

(١) انظر : سقوط دولة الموحدين (ص ٥٨)

وإحكامها، جاءت نتيجة خطته محققة لما وضعها من أجله، وهي أن يكون له في الدولة كل شيء ولا يكون للموحدين أي شيء، هكذا أصبح عبد المؤمن خليفة الموحدين اسماً وفعلاً.

ولما أن أصبحت الحال تلك، وأحضر الموحدين إلى حاضرة مراكش، أعلن فيهم تغيير نظامهم الطبقي، وأعلن عليهم النظام الجديد، وحدد فيه مكان كل منهم وتغيرت الطبقات من أربع عشرة طبقة إلى ثلاث طبقات

فالطبقة الأولى:

هم السابقون الأولون الذين بايعوا ابن تومرت، وصحبوه وغزوا معه وصلوا خلفه، والذين شاهدوا البحيرة وباءوا بفضلها واشتملوا بردة شرفها وارتقوا إلى ذروة الحظوة بها، وشهد لهم بالفضل الذي لا يوازي والرتبة التي لا تعادل. ويتلو هذه الطبقة: من آمن بهذا الأمر ودخل في هذا الحزب وانضوى تحت لواء هذا الشعب من بعد البحيرة إلى فتح وهران.

والطبقة الثانية

من فتح وهران إلى هلم جرا. ومن النظر إلى التنظيم الجديد لطبقات الموحدين، يتبين أن عبد المؤمن ألغى طبقة الجماعة إلغاءً نهائياً، وهي الطبقة التي كان لها الحق الأول في إدارة شئون الموحدين ومراقبة الخليفة. هذا بالإضافة إلى أنه ألغى طبقتي أهل خمسين وأهل سبعين وهما الطبقتان التاليتان لطبقة الجماعة في النفوذ والسيطرة. وهكذا أزاح عبد المؤمن من أمامه الطبقات ذات الشأن في نظام ابن تومرت. بل إن عبد المؤمن ألغى الأربع عشرة طبقة، وجمعها كلها في طبقة واحدة، وهي الطبقة الأولى في نظامه. وهو قد ذهب إلى مدى أبعد، إذ جعل في هذه الطبقات كل من رأى ابن تومرت وبايعه وصلى خلفه واشترك معه في حروبه. ليس هذا فقط، بل وكل من اشترك في غزوة البحيرة التي هزم فيها الموحدون عند أحواز مراكش من قبل المرابطين، يوم الثاني عشر من جمادى

الثانية من سنة خمسمائة وأربعة وعشرين هجرية الموافق الثالث عشر من مايو سنة ١١٣٠م.

ومعنى هذا أن عبد المؤمن حطم نفوذ الطبقات المتنفذة الأولى في نظام ابن تومرت ثم إنه ساوى بين أعضاء الطبقات الأخرى والطبقات الثلاثة الأول، وجعل مكانة الجميع على قدم المساواة. بين أفراد الطبقات أتاحت لأفراد الطبقات الإحدى عشر الأخيرة في النظام الملغي، كسباً معنوياً كبيراً وفائدة مادية جليلة. وبهذا استطاع أن يكسب ود وإخلاص وتأييد أفراد هؤلاء الجماعة لإتاحته لهم هذه الفرصة الذهبية. كما وأن التنظيم الجديد أتاح للكثيرين ممن كانوا خارج الطبقات الموحدية، فرصة الانتماء للنظام الموحدي واكتسابهم شرف الانضواء تحت رايته.

أما الطبقة الثانية: فهي تشمل كل الذين دخلوا في حركة الموحدين، منذ موقعة البحيرة سنة ٥٢٤هـ وحتى فتح وهران سنة ٥٣٨هـ وهذا يعنى أن النظام الجديد أتاح الفرصة للجماعات والقبائل المختلفة التي دخلت في طاعة الموحدين بعد سنة ٥٢٤هـ وحتى سنة ٥٣٨هـ، سواء كانت هذه الطاعة قد جاءت طواعية واختياراً أو إجباراً وقسراً بحد السيف. وهكذا استطاع عبد المؤمن بحركة بارعة أن يستل الضغينة من نفوس الذين فرضت عليهم طاعة الموحدين بعد عام البحيرة وحتى فتح وهران. وذلك بمساواتهم بغيرهم من الموحدين الأولين، وإدراجهم في الطبقة الثانية من النظام الجديد. وهذا بطبيعة الحال أدى إلى انتشار الرضى بينهم واطمئنانهم إلى مستقبلهم الذي يبشر به انضواؤهم في النظام الطبقي للموحدين، وهي إلى جانب الكسب المعنوي والسياسي، قد أُتيحت لهم فرصة الاستفادة المادية إلى أبعد مدى.

وهذه الطبقة سوف تنظر بعين الرضى والتأييد للخليفة عبد المؤمن بن علي، الذي أقدم بشجاعة فائقة على تغيير النظام القديم، وأتاح لأفرادها شرف الانتماء إلى النظام الموحدي، بل وفي الطبقة الثانية منه، وبهذا استطاع عبد المؤمن أن

يجعل أفراد هذه الطبقة من المخلصين له والمؤيدين لسياسته والدافعين لأعدائه.

والطبقة الثالثة: تضم من دخل حركة الموحدين منذ فتح وهران سنة ٥٣٨هـ وإلى أي زمن تلا ذلك، فاتحاً الباب لكل من يطيع الموحدين لأن ينتظم في سلك الطبقة الثالثة.

ثم إن عبد المؤمن لما أن افتتح المغرب الأوسط وأدخله في دولة الموحدين، بعد أن قضى على إمارة بنى حماد فيه، قام بمحاربة قبائل بني هلال، الذين وقفوا في وجهه، وتمكن الموحدون من هزيمتهم في أكثر من موقعة وأرغموهم على الخضوع والطاعة، وبدلاً من أن يقوم عبد المؤمن بالانتقام من هذه القبائل وزعمائها، نجده ينقل معه ألفاً من كل قبيلة منهم وينزلهم بالمغرب الأقصى كما قام في نفس الوقت برد الأموال والحرم التي غنمت من تلك القبائل ومنحهم جزيل العطاء. وعن هذه الأحداث يذكر البيذق قائلاً: «وأما ما كان من أمر غنائم العرب وسبيها، فترك منها أمير المؤمنين في فاس ومكناسة وفي سلا وحمل مع نفسه سلاطينهم إلى مراكش وعيالهم وهم: ديفل بن ميمون وحباس بن الرومية وابن الزحامس وابن زيان، وأبو قطران، وأبو عرفة، والقائد ابن معرف. فهؤلاء الملوك رد لهم الخليفة عيالهم وأعطاهم المال وصرفهم إلى بلادهم. فقالوا للخليفة تأمرنا بالرجوع إليك. فقال لهم الخليفة مجاوباً لهم نحن نصل إليكم وردهم كافة بنسائهم حملها لهم القبائل وكان ذلك في عام ٥٤٧هـ» [١].

هذا بالإضافة إلى أن الخليفة بعد غزوته للمغرب الأدنى، أحضر معه الكثير من قبائل العرب وأنزلهم بالمغرب الأقصى. وهو في الواقع قام بهذا العمل، ليبعد شر هذه القبائل عن إفريقية والمغرب الأوسط ويجعلها في متناول يده، كما أنه كان يرمي إلى كسب ودها واستخلاص ولاءها. كما وأن جلبه لتلك الآلاف منهم

---

(١) البيذق، أخبار المهدي (ص ١١٦)

وإنزالهم بالقرب منه، يخفي وراءه سياسته في أن يتقوى بهم ويجعلهم كعصبية له ضد ثورة المصامدة المحتملة [١] .

وحرص على ملاطفة العرب واستمالتهم ، وحرضهم على قتال النصارى ودخول الأندلس معه فقال :

أقيموا إلى العلياء هوج الرَّواحل ... وقودوا إلى الهيجاء جُردْ الصواهلِ

وقوموا لنصر الدين قومة ثائرٍ ... وشدوا على الأعداء شدة صائل

فما العزُّ إلا ظهرُ أجرد سابح ... وأبيض مأثور وليس بسائل

بني العمِّ من عليا هلال بن عامر ... وما جمعت من باسل وابنِ باسل

تعالوا فقد شُدَّتْ إلى الغزو نيَّةٌ ... عواقبها منصورة بالأوائل

هي الغزوة الغراء والموعدُ الذي ... تنجَّزَ من بعدِ المدى المتطاولِ

بها نفتح الدنيا بها نبلغ المنى ... بها نُنْصِفُ التَّحقيقَ من كلِّ باطلِ

فلا تتوانوا فالبدارُ غنيمةٌ ... وللمُدلْج السَاري صفاء المناهلِ [٢]

وكانت الشعراء تقصد عبد المؤمن لمدحه، ولما قال فيه التَّفاسي قصيدته :

ما هزَّ عطفيه بين البيض والأسلِ ... مثل الخليفة عبد المؤمن بن عليّ

أشار إليه أن يقتصر على هذا المطلع، وأمر له بألف دينار [٣] ، ولما سار عبد المؤمن بجيوشه ونزل جبل طارق ، وسماه الفتح، فأقام أشهراً ، وبنى هناك قصوراً ومدينة ، ووفد إليه كبراء الأندلس، وقام بعض الشعراء منشداً :

ما للعدي جُنَّةٌ أوقى من الهرب ... أين المعزُّ وخيلُ الله في الطلب

وأين يذهب من في رأس شاهقة ... وقد رمته سهامُ الله بالشُّهُب

حدِّث عن الروم في أقطار الأندلس ... والبحر قد ملأ البرَّين بالعَرَبِ

---

(١) **انظر** : سقوط دولة الموحدين (ص ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠) .

(٢) ، (٣) **انظر** : سير أعلام النبلاء (٢٠ / ٣٧٣) .

فأعجب بها عبد المؤمن وقال: بمثل هذا يمدح الخلفاء[١] ، وبعد أن اطمأن عبد المؤمن إلى سلامة الخطوات التي اتخذها في سبيل أن تكون له السيادة الكاملة في الدولة ، وضمن تحطم نفوذ الشخصيات البارزة في مجموعة الموحدين، وتأكد له ولاء أغلب الطبقات في النظام الجديد، وبعد أن ضمن حماية نفسه وأسرته بمجموع بني هلال وسليم التي أنزلها في أحواز مراكش، أقدم على الخطوة الخطيرة التي ما فتيء يستعد لها ويمهد الطريق أمامها ألا وهي جعل الحكم في دولة الموحدين في عقبه، وتولية أحد أبنائه ولياً لعهده[٢] .

وفي عام (٥٤٩هـ) أعلن عبد المؤمن للملأ من طبقات الموحدين والقبائل الداخلة في طاعتهم، من بني هلال وصنهاجة، توليته لابنه محمد وليا لعهده، وقامت تلك الجماعات في الحال بالموافقة على ذلك الأمر، وبايعت لولي العهد. وقد بين الخليفة في رسالة بعث بها إلى طلبة الموحدين في سبتة وطنجة، الظروف التي تمت فيها تولية ابنه لخلافته والعوامل التي فرضت عليه ذلك، فجاء فيها: سؤلكم أن كثيراً من أولياء هذه الدعوة العلية وإخوانها من أشياخ الأنظار وأعيانها، تقدمت رغبتهم في أمر أخرته الخيرة لميقاتها، وأرجأته التؤدة إلى خير أوقاتها... وكانت العشائر العربيةوذوي ألبابها وحلومها، يشيرون إلى ذلك على انشراحهم ويعلمون أنه غاية اقتراحهم ومادة نفوسهم وأرواحهم، ولم تزل مخاطبتهم في ذلك تتردد حيناً بعد حين ورغباتهم تتأكد لما كان عندهم فيه من ثلج ويقين. فلما اتفق بحمد الله وصولهم في هذه الوفادة، للأخذ بأطناب المنيفة بهم على مقتضى الآمال والإرادة، صرحوا لأول لقائهم بما أضمروه، وأبدوا سرهم المكنون وأظهروه. واعلموا أن محمداً ـ وفقه الله ـ هو الذي ارتضوه لحمل عبئهم وتخيروه، ورغبوا في تقديمه على بلادهم وانفاذه معهم على قصده في توليته

---

(١) انظر : سير أعلام النبلاء (٢٠ / ٣٧٣)
(٢) انظر : سقوط الموحدين (ص ٦٠)

مرادهم... فرأينا بعد استخارة الله تعالى أن نجمع في هذا الموضع المبارك من وصله من شيوخ الموحدين وطلبتهم وعمالهم ونتذاكر معهم في ذلك المسئول ونعارضهم فيه على الجملة والتفصيل، ونلقى إليهم حديث القوم المذكورين، بأتم وجوه الإلقاء والتوصيل فكان ذلك على ما أقصد وذكروا في الأمر على ما أتوخى فيه وأعتمد. وعرفوا بأن ذلك ليس مما بني عليه ولا مما أعتقد... وتقدمهم الشيخ الأجل أخونا أبو عمر بن يحيي ـ أعزه الله بتقواه ـ هذا أمر نحن أولى بتقديمه وأعلم بوجوبه ولزومه وأولى بتأميره علينا وتحكيمه، ونحن السابقون إلى مبايعته على حدود الشرع ورسومه، فهو مختارنا للدين والدنيا وسؤلنا المأمول للحياطة والرعية.. وقال أكثر الحاضرين من الأشياخ والطلبة والعمال ومن أعلم به من الطلبة والفقهاء ومن جرت مذاكرته في مثل هذه الآراء: هذا أمر في ضمائر أكثرنا معقود، وفي نفوس جمهورنا موجود، وهو الذي ليس عليه من آمالنا مزيد... وابتدأها الشيخ الأجل أبو حفص المذكور بيمناه، قصد اعتقادها على أكرم وجه وأسناه، وتتابع الأشياخ والطلبة بعده على درجاتهم، وسرى النعيم بها في أبشارهم ومناتهم، وباشرها من حضرها من القبائل الموحدين وسائر إخوانهم المؤمنين قبيلاً بعد قبيل »[1].

يتبين لنا من هذه الرسالة نقاط :

أولها : أن عبد المؤمن يبعد عن نفسه شبهة التفكير في تولية أحد أبنائه لخلافته في الحكم.

وثانيها : أن هذه الفكرة إنما أثارتها قبائل هلال وصنهاجة والقبائل الشرقية .وهي التي لم تكتف بإثارة الموضوع، بل وألحت عليه. ومسألة تعيين الحاكم أو الخليفة في دولة الموحدين، ليست من الأمور البسيطة التي يمكن لمثل

(١) انظر : سقوط الموحدين(ص ٦٢) .

هذه القبائل أن تبدي رأيها حولها وتتدخل فيها. فهي مسألة حساسة وتمس الحركة الموحدية في جوهرها فالواجب أن يثيرها الموحدون أنفسهم لا هذه القبائل التي أخضعت بحد السيف. وتدخل هذه القبائل في مثل هذا الموضوع، يثير الشك بأن الخليفة عبد المؤمن هو الذي أوحى لها بأن تثير وتلح عليه.

والنقطة الثالثة: هي أن الموحدين وأشياخهم لما أن جمعهم الخليفة في حضرته، وعرض عليهم رغبة قبائل هلال وصنهاجة والقبائل الشرقية في أن يتولى ابنه محمد الحكم بعده، بينوا أنهم أولى من غيرهم في اقتراح مثل هذا الأمر وأنهم أولى بعقد النية والعزم عليه، والحقيقة أن تغيير نظام الطبقات جعل عبد المؤمن السيد المطاع بلا منازع في دولة الموحدين ولذلك بادروا وسارعوا بالموافقة لما أراد، وتقدموا للبيعة لولي عهده.

النقطة الرابعة: يبدو أن أبا حفص عمر بن يحيي وجد نفسه أمام أمر واقع؛ ولذلك بادر بإظهار الرضى عن هذه البيعة، وكان أول المبايعين لا بن عبد المؤمن وتنازل أمام ضغط الواقع عن حقه الطبيعي لعبد المؤمن في الحكم.

وهكذا استطاع عبد المؤمن أن يجعل الحكم وراثيا في عقبه، وبذلك يكون انحرف عن تعاليم ابن تومرت في قضائه على الطبقات وجعل الحكم وراثياً.

وبهذا الفعل ثارت حفيظة الكثيرين من الموحدين مما دفع بعضهم بالثورة عليه ومن الطبيعي أن يكون أهل ابن تومرت أول المعارضين لعبد المؤمن، ولذلك قامت خيانات في الجيش الموحدي بقيادة يصلتين بن المعز الذي انفصل بجيشه في معارك الموحدين مع العرب في المغرب الأوسط؛ مما سبب في انتصار بني هلال على جيش ابن واندوين والقضاء على أغلبه، وقتل قائد الجيش الموحدي في المعركة. وطمع بنو هلال إثر هذا الانتصار في الموحدين، الذين اهتزت روحهم المعنوية لهذه الهزيمة. ولكن عبد المؤمن بقدرته العسكرية الفذة استطاع أن يهزم تلك القبائل، وأن يحافظ على وحدة الجيش الموحدي وارتفاع روحه المعنوية،

وظهر للموحدين بمظهر الرجل الفذ القادر على الوقوف في وجه العواصف الهوج، ففوت بعمله ذاك الفرصة على يصلتين الذي كان يرمي إلى القضاء على جيش عبد المؤمن بفعله ذاك، وألقي القبض على يصلتين وقتل في سبتة عام ٥٤٦هـ بتهمة الخيانة العظمى.

وفي عام ٥٤٩هـ حاول أخوا ابن تومرت، عيسى وعبد العزيز في مدينة مراكش القيام بثورة على عبد المؤمن والاستيلاء على مقاليد الحكم، إلا أن المخلصين من أنصار عبد المؤمن وأهل مراكش قضوا على تلك المحاولةالفاشلة، وكان عبد المؤمن بعيداً عن مراكش في سلا، وقبض على المتآمرين وكان تعدادهم ثلثمائة شخص، وقتلوا جميعاً، وأعدم أخوا ابن تومرت . وفي عام ٥٥٥هـ حاول بيت ابن تومرت اغتيال عبد المؤمن إلا أن تلك المؤامرات أحبطت في مهدها، وشعر عبد المؤمن بضرورة جلب قبيلته لحمايته من المؤامرات المتكررة، فأنفذ الأموال إلى زعماء قبيلته، وأمرهم أن يأتوه ركبانا ويركبوا معهم كل من تجاوز سن الحلم من أبناء القبيلة.

وقد وصل رجال قبيلة كومية سنة٥٥٧هـ إلى مراكش في تعداد تجاوز الأربعين ألفاً وفرح بهم عبد المؤمن فرحاً عظيماً وأنزلهم في مراكش وأعطاهم الدور ووزع عليهم البساتين، وجعل منهم حرسه الخاص الذي يقف بين يديه في جلوسه ويحيط به في تسياره، وبذلك اطمأن على نفسه وعلى حكم أبنائه من بعده.

إن الخطوات التي اتخذها عبد المؤمن من إبعاد قبائل المصامدة وشراء خدمات قبائل بني هلال، وإسناد أمر الحماية إلى قبيلته كومية، والقضاء على تنظيم ابن تومرت في الطبقات جعل من الموحدين خدماً لمصلحة فرد وأطماعه المادية بعد أن كانوا يخدمون فكرة ويدافعون عن مبدأ، ففقدت نفوسهم تلك الروح المتوثبة والحماس الشديد في سبيل تقدم الدولة ونجاح الدعوة.

إن مسلك عبد المؤمن في جعل الحكم وراثياً ساهم في إيجاد تنافس شديد

وتنازع مميت بين أبناء عبد المؤمن فيما بعد،بل سفكت دماء، وحيكت مؤامرات دنيئة بين الأخوة في سبيل تولي الحكم، وكان من نتيجة ذلك كله ضعف الدولة، وتدهورها السريع في فترة ليست بالطويلة [١] . لم يكتف عبد المؤمن ببيعة الموحدين لابنه، بل قام بتعيين أبنائه على أغلب ولايات الدولة، وجعل إلى جانبهم وزراء من الطلبة ليكونوا مرشدين وناصحين لهم. ومن الأمور المهمة والأحداث ذات الدلالة في تاريخ دولة الموحدين، ظهور التكتلات التي ساهمت في إضعاف الدولة، وكانت سبباً في وقوع وزيرين في نكبتين عظيمتين على يد عبد المؤمن وهما: الوزير أبو جعفر أحمد بن عطية، وعبد السلام الكومي[٢] .

شيء من سيرة عبد المؤمن ووفاته :

﴿ ١ ﴾ لما نزل عبد المؤمن سلا وهي على البحر المحيط ينصب إليها نهر عظيم ويمر في البحر عبر النهر، وضربت له خيمة، وجعلت جيوشه تعبر قبيلة قبيلة، فخر ساجداً، ثم رفع وقد بل الماء لحيته ، فقال: أعرف ثلاثة وردوا هذه المدينة لا شيء لهم إلا رغيف واحد، فراموا عبور هذا النهر، فبذلوا الرغيف لصاحب القارب على أن يعد بهم، فقال: لا آخذه إلا عن اثنين، فقال أحدهما وكان شاباً: تأخذ ثيابي وأنا أسبح، ففعل، فكان الشاب كلما أعيا، دنا من القارب ، ووضع يده عليه يستريح ، فيضربه بالمجذاف، فما عدي إلا بعد جهد فما شك السامعون أنه هو السابح ، والآخران ابن تومرت، وعبد الواحد الشرقي [٣] .

﴿ ٢ ﴾ ذكر ابن العماد في شذرات الذهب عبد المؤمن بن علي فقال: (كان ملكاً عادلاً سايساً عظيم الهيبة عالي الهمة كثير المحاسن متين الديانة قليل المثل وكان يقرأ كل يوم سبعاً من القرآن العظيم، ويجتنب لبس الحرير ويصوم الاثنين

---

(١) انظر : سقوط الموحدين (ص ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨) .

(٢) انظر : سقوط الموحدين (ص ٦٩) .

(٣) انظر : سير أعلام النبلاء (٢٠ / ٣٧٣) .

والخميس ويهتم بالجهاد والنظر في الملك كأنما خلق له، وكان سفاكاً لدماء من خالفه سأل أصحابه مسألة ألقاها عليهم فقالوا لا علم لنا إلا ما علمتنا فلم ينكر ذلك عليهم؛ فكتب بعض الزهاد هذين البيتين ووضعهما تحت سجادته وهما:

يا ذا الذي قهر الأنام بسيفه ... ماذا يضرك أن تكون إلهًا

الفظ بها فيما لفظت فإنه ... لم يبق شيء أن تقول سواها

فلما رآها وجم وعظم أمرهما وعلم أن ذلك بكونه لم ينكر على أصحابه قولهم لا علم لنا إلا ما علمتنا فكان عبد المؤمن يتزيا بزي العامة ليقف على الحقائق فوقعت عيناه على شيخ عليه سيما الخير فتفرس فيه أنه قائل البيتين فقال له: اصدقني أنت قائل البيتين؟ قال: أنا هو فقال له: لم فعلت ذلك؟ قال: قصدت إصلاح دينك فدفع إليه ألف دينار فلم يقبلها. ومن شعره وقد كثر الثوار عليه:

لا تحلفن بما قالوا وما فعلوا ... إن كنت تسموا إلى العليا من الرتب

وجرد السيف فيما أنت طالبه ... فما ترد صدور الخيل بالكتب[1]

﴿ ٣ ﴾ بعد أن أتم عبد المؤمن افتتاح المغرب الأوسط وإسقاط إمارة بني حماد فيه، وافتتاح المغرب الأدنى وإجلاء النورمانديين منه إلى صقلية، وضمها إلى دولة الموحدين، وأصبحت دولة خلافته تمتد من حدود برقة شرقاً حتى البحر المحيط غرباً، ويشمل سلطانه معظم بلاد الأندلس الإسلامية، وبعد أن تم له تعين ابنه ولياً لعهده، وعقد لأبنائه على أغلب ولايات الدولة وقضى على أغلب المتآمرين ورءوس الفتنة، وخضد شوكة أفراد بيت ابن تومرت، وعمل على تقوية جانبه باصطناع أعراب بني هلال وتقوية ظهره بعصبية قبيلة، شرع في الإعداد للمشروع العسكري الكبير الذي نوي القيام به، ألا وهو دخول الأندلس بجيش لم يسبق له مثيل للقضاء على الممالك والإمارات الإسبانية وكل من تمرد على

---

(١) **انظر**: شذرات الذهب (٤٠/١٨٣)

دولة الموحدين ولذلك استعد عبد المؤمن لهذه الحملة [١] .

يقول ابن صاحب الصلاة :

(تم إعداد مائتي قطعة بحرية جديدة في دور الصناعة بمرسى المعمورة عند حلق البحر على ضفاف وادي سبو، وغيره من الدور في بلاد المغرب وسواحل الأندلس، وهذه القطع تعتبر إضافة لقطع الأسطول الموحدي الزاخر، وكانت الاستعدادات في نفس الوقت تجري لتدريب الرجال على أفانين القتال البحري والتهيئة له. كما أنه: « أعد من القمح والشعير للعلوفات والمواساة للعساكر على وادي سبو بالمعمورة المذكورة، ما عاينته مكدساً كأمثال الجبال بما لم يتقدم الملك قبله.. ونظر في استجلاب الخيل له من جميع طاعاته بالعدوة وإفريقية، وانتخاب الأسلحة من السيوف المحلاة والرماح الطوال على الهيئات والدروع والبيضات والترسة، إلى غير ذلك من الثياب والكسا والعمائم والبرانس، ما استغربتهاالأذهان ولا تقدم بمثله زمان. وقسم ذلك كله على الموحدين...)[٢] .

خرج عبد المؤمن بن علي من مراكش في جموع الموحدين ومختلف القبائل يوم الخميس خامس عشر من ربيع الأول من عام ثمانية وخمسمائة هجرية (٥٥٨هـ) وانتهى به السير في رباط الفتح من مدينة سلا. ونزلت الجيوش في الفحوص الواقعة ما بين عين غبولة وأرض بندغل وكان تعداد الجيش حوال مائة ألف راجل ومائة ألف فارس.

وتقرر في مجلس الحرب الذي عقده الخليفة، تقسيم الجيش أربعة أقسام، وتوجيهها إلى أربع جهات مختلفة من بلاد إسبانيا :

﴿ ١ ﴾ **الجيش الأول :** يتجه إلى مدينة قلمرية عاصمة البرتغال.

---

(١) انظر : سقوط دولة الموحدين (٧٧) .

(٢) ابن صاحب الصلاة (ص ٢١٣٣ ، ٢١٥) .

﴿ ٢ ﴾ **الجيش الثاني:** إلى فرناند ودي ليون.

﴿ ٣ ﴾ **الجيش الثالث:** إلى ألفونسو الثامن ملك قشتالة.

﴿ ٤ ﴾ **الجيش الرابع:** يسير إلى برشلونة.

غير أن الذي غير هذا المخطط وجمد هذا العمل الكبير، مرض عبد المؤمن بن علي المفاجىء، وانتظار الموحدين شفاءه، إلا أن المرض أصاب قوته وأظهر ضعفه حتى أسلمه إلى منيته مساء يوم الخميس العاشر من جماد الآخرة من سنة ٥٥٨هـ[١] قال ابن كثير في عام ثمان وخمسين وخمسمئة: (فيها مات صاحب المغرب عبد المؤمن بن علي، وخلفه من بعده في الملك ابنه يوسف والذي سار إلى مراكش على صفة أنه مريض، فلما وصلها أظهر موته فعزاه الناس وبايعوه على الملك من بعد أبيه، ولقبوه أمير المؤمنين، وقد كان عبد المؤمن هذا حازماً شجاعاً، جواداً معظماً للشريعة ، وكان من لا يحافظ على الصلوات في زمانه يقتل، وكان إذا أذن المؤذن وقبل الأذان يزدحم الخلق في المسجد، وكان حسن الصلاة ذا طمأنينة فيها، كثير الخشوع، ولكن كان سفاكاً للدماء حتى على الذنب الصغير، فأمره إلى الله يحكم فيه بما يشاء...)[٢].

إن المتتبع لتاريخ عبد المؤمن بن علي يلاحظ بوضوح أن حماسه لدعوة ابن تومرت تبدد حيث انشغل بالأمور السياسية والعسكرية، واكتفى بالقيام بزيارة قبر ابن تومرت بين الفينة والأخرى، كرمز على محبته له ولدعوته ، أما العمل على تأصيلها في نفوس الناس ونشرها في أماكن جديدة فلم يذكر المؤرخون ـ على حسب اطلاعي ـ أنه قام بشيء من هذا، ويدل على ذلك أن عبد المؤمن لما بسط سلطانه على بلاد المغرب والأندلس لم تنتشر دعوة ابن تومرت في تلك الديار ، ولم تتأصل محبتها في قلوب سكانها كما تأصلت عند سكان بلاد

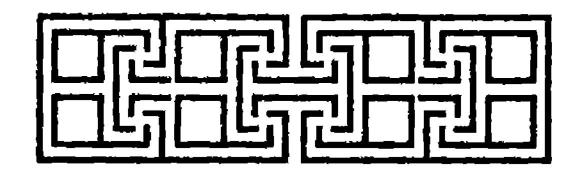
---

(١) **انظر** : سقوط دولة الموحدين (ص ٧٨) .

(٢) البداية والنهاية (١٢ / ٢٦٤) .

المغرب الأقصى الذين انتشرت بينهم تلك الدعوة في عصر ابن تومرت، ولم يسر ظل الدعوة الموحدية جنباً إلى جنب مع ظل السياسي للدولة في عهد عبد المؤمن وإن كان استمر على نفس البرنامج التعليمي الذي وضعه ابن تومرت، وأصدر أوامره إلى كافة الموحدين بشأن ضرورة المحافظة على تعاليم ابن تومرت والعمل على نشرها، وكان ذلك تكتيكاً من عبد المؤمن لكي يحافظ على مكانته بين الموحدين المخلصين لدعوة ابن تومرت.

إن تاريخ عبد المؤمن يشير إلى أنه لم يكن جاداً في الالتزام الحرفي بدعوة ابن تومرت، ولعل ما تحمله دعوة ابن تومرت من شطط وغلو في بعض أفكارها من الأسباب الرئيسية التي جعلته يعرض عن العمل على نشرها حتى لا يحدث رد فعل مضاد له، مما يعرض دولته للخطر [١].



(١) **انظر**: مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، العدد السادس (ص ٥٧٢، ٥٧٣).

المبحث الثاني

أبو يعقوب يوسف

هو السلطان الكبير، أبو يعقوب يوسف ابن السلطان عبد المؤمن بن علي، صاحب المغرب.

قيل بأنه تملك بعد أخيه المخلوع محمد لطيشه، وشربه الخمر، فخلع بعد شهر ونصف، وبويع أبو يعقوب، وكان شاباً مليحاً، أبيض بحمرة، مستدير الوجه، أفوه، أعين، تام القامة حلو الكلام فصيحاً، حلو المفاكهة، عارفاً باللغة والأخبار والفقه، متفننا، عالي الهمة، سخياً، جواداً، مهيباً، شجاعاً خليقاً للملك(١) .

أولاً: علمه وبيعته :

[أ] علمه :

قال عبد الواحد بن علي التميني :

صح عندي أنه كان يحفظ أحد الصحيحين، أظنه البخاري. قال: وكان سديد الملوكية، بعيد الهمة، جواداً، استغنى الناس في أيامه. ثم إنه نظر في الطب والفلسفة ، وجمع كتب الفلاسفة، وتطلبها من الأقطار، وكان يصحبه أبو بكر محمد بن طفيل الفيلسوف، فكان لا يصبر عنه، وسمعت أبا بكر بن يحيي الفقيه، سمعت الحكم أبا الوليد بن رشد الحفيد يقول: لما دخلت على أمير المؤمنين أبي يعقوب، وجدته هو وابن طفيل فقط، فأخذ ابن طفيل يطريني، فكان أول ما فاتحني أن قال: ما رأيهم في السماء؟ أقديمة أم حادثة، فخفت، وتعللت، ،أنكرت الفلسفة، ففهم، فالتفت إلى ابن طفيل، وذكر قول أرسطو فيها، وأورد حجج أهل الإسلام فرأيت منه غزارة حفظ، لم أكن أظنها في عالم،

---

(١) انظر : سير أعلام النبلاء (٢١ / ٩٩) .

ولم يزل يبسطني حتى تكلمت، ثم أمر لي بخلعة ومال ومركوب [١] .

وقال عنه العلامة شوقي أبو خليل: (أعرف الناس كيف تكلمت العرب، وأحفظهم لأيامها ومآثارها وجميع أخبارها في الجاهلية والإسلام، وأحسن الناس حفظًا لألفاظ القرآن الكريم ، وأسرعهم نفوذ خاطر في غامض مسائل النحو، وأحفظهم للغة العربية وكان بعيد الهمة، سخياً جواداً ، استغنى الناس في أيامه وكثرت في أيديهم الأموال، هذا مع إيثار للعلم شديد وتعطيش إليه مفرط، صح أنه كان يحفظ أحد الصحيحين وأغلب الظن أنه البخاري، حفظه في حياة أبيه بعد تعلُّم القرآن الكريم ، هذا مع ذكر جميل من الفقه ، وكانت له مشاركة في علم الأدب واتساع في حفظ اللغة وتبحر في علم النحو حسبما تقدم. وطمع به شرف نفسه وعلو همته إلى تعلم الفلسفة والطب... وجمع مكتبة، كان ما فيه قريباً مما اجتمع للحكم المستنصر بالله الأموي ثاني الخلفاء بالأندلس (٣٥٠-٣٦٦هـ) حيث احتوت مكتبته على أربعمائة ألف مجلد .

[ب] بيعته:

يرى الأستاذ الدكتور مراجع عقيله الغنائي أن بيعة يوسف بن عبد المؤمن تمت بمؤامرة دبرت بزعامة الأخوين عمر ويوسف ابني عبد المؤمن والحزب الموالي لهما وأن أبا حفص عمر بن عبد المؤمن حرص على أن يسيطر منذ توليه الوزارة لأبيه على الأمور في الدولة وأن ينظر كتلة من الموحدين ترتبط مصالحها به، ولذلك أصبح عليه من السهل تدبير أمر خلع أخيه غير الشقيق، محمد ، ووضع أخيه الشقيق يوسف على الحكم بدلاً منه. ولربما كان عمل الأمير عمر، بجعل الإمارة لأخيه يوسف بدلاً منه وهو الشخصية ذات القوة والنفوذ إنما يبعد نفسه عن شبهة التآمر، والذي يرجع الفرض القائل بوقوع المؤامرة في خلع محمد ورفع أخيه

---

(١) انظر : سير أعلام النبلاء (٢١ / ١٠٠) .

يوسف، أن بعضاً من أبناء عبد المؤمن رفضوا في أول الأمر المبايعة لأخيهم يوسف فقد رفض السيد أبو سعيد عثمان والي غرناطة، والسيد أبو محمد عبد الله والي بجاية، أن يبايعا لأخيهما بالإمارة.

ولذلك لم يستطع يوسف بن عبد المؤمن أن يسمى باسم أمير المؤمنين وإنما اكتفى باسم الأمير. كما وأن رائحة المؤامرة قد تسربت إلى جموع الموحدين والجيوش الكثيفة التي كانت نازلة بمدينة سلا [١] ، لذلك ألغي مشروع العبور إلى الأندلس، وأعطيت الجنود الأمر بالرجوع إلى مواطنها، كما أخذ شيوخ الموحدين يعملون على إزالة الشكوك من نفوس الموحدين [٢] ، فابن صاحب الصلاة يقول: (ووعظ الشيخ المرحوم الموحدين أجمع على طبقاتهم ومراتبهم وذكرهم بما يجب عليهم في دينهم وصلاح يقينهم وعرفهم بما أوجب الله عليهم من مفروضهم ومسنونهم وبحق البيعة ولم يعلم أحداً بالوفاة واشتد عليهم في لزوم الصلاة والضرب بالسياط أهل الفسق والجناة ، وشغلهم بأنفسهم من الحديث بالخزعبلات ، وألزم الحُفاظ من الموحدين وغيرهم عند المساء وعند الفراغ من صلاة الصبح بقراءة الحزب ، واشتد عليهم في ملازمة ذلك بأعظم الاشتداد ، ثم نفذ الأمر من الأمير بانصراف العساكر المجتمعة إلى قبائلهم ومواضعهم وتأخر العرض إلى وقت يأذن الله به من إزماعهم واجتماعهم) [٣] .

وسعى شيوخ الموحدين في سبيل الإصلاح بين الأخوة والتوفيق بينهم وصفا الجو بين أبناء عبد المؤمن بعد جهد جهيد، وتمت البيعة العامة ليوسف بن عبد المؤمن في منتصف جمادى الآخرة من سنة ثلاثة وستين وخمسمائة (٥٦٣هـ) ومنذ هذا التاريخ تسمى يوسف باسم أمير المؤمنين ، وهو الاسم الخلافي عند الموحدين [٤] .

---

(١) ، (٢) سقوط دولة الموحدين (ص ٨٥) .

(٣) ابن صاحب الصلاة ، المن بالإمامة (ص ٢٣١ ، ٢٣٣) .

(٤) **انظر** : سقوط الموحدين (ص ٨٨) .

ثانياً: سياسة يوسف بن عبد المؤمن في الأندلس:

كانت سياسة الموحدين بالأندلس في عهد يوسف بن عبد المؤمن تدور على ثلاثة محاور:

[١] المحـور الأول :

استكمال السيادة الموحدية على الأندلس، ولذلك استهدفوا كل الإمارات الخارجة عن سيادتهم من أجل إدخالها تحت نفوذهم.

[٢] المحور الثاني :

العمل على الحد من أطماع الممالك والإمارات الإسبانية.

[٣] المحور الثالث :

المساهمة في ازدهار الحضارة الإسلامية في الأندلس.

إلا أن الثورات العنيفة التي تعرضت لها دولة الموحدين أثخنتها وكانت حركة التمرد التي قادها محمد بن مردنيش في الأندلس من أعنفها.

ينسب محمد بن مردنيش إلى الأصول العربية وكان والده سعيد بن محمد والياً للمرابطين على افراغه [(١)] .

تولى محمد بن سعد بن مردنيش : حكم بلنسية بعد وفاة صهره ابن عياض، يوم الجمعة الثاني والعشرين من شهر ربيع الأول سنة (٥٤٢هـ الموافق ٢١ أغسطس سنة ١١٤٧م). ثم قام علي بن عبيد والي مرسيه بالتنازل لابن مردنيش يشمل شرق الأندلس، ومن بلنسية شمالاً حتى قرطاجة جنوباً.

واستطاع ابن مردنيش أن يحافظ على وحدة إمارته وتماسكها ودخل في أحلاف وعهود ومواثيق مع ممالك النصارى وإمارتها ضد الموحدين وكان غرض

---

(١) انظر : سقوط الموحدين (٨٩).

الإسبان النصارى في الوقوف مع ابن مردنيش وشد أزره، أنهم وجدوا فيه خصماً عنيداً للموحدين، كما أنهم رأوا فيه أندلسية مسلمة تستطيع أن تحارب المسلمين بنفس القوة والأسلوب، كما أنه كان من الدوافع الرئيسة لمعاضدة أمراء وملوك النصارى لابن مردنيش، هو أن لا يتيحوا الفرصة للموحدين بالسيطرة على كل الأندلس الأسلامية، وثانيا إبقاء المسلمين في حالة فرقة وتفكك.

إلا أن توسع الموحدين في بلاد الأندلس وشدة شوكتهم جعلت الكثير من الممالك والإمارات الإسبانية النصرانية توقع معاهدات هدنة وحسن جوار معهم أو تحالفهم وبهذا فقد ابن مردنيش الكثير من حلفائه الإسبان السابقين الذين كان وجوده يعتمد عليهم في المقام الأول. ولما أن أخذ سلطان الموحدين يتسع في البلاد الأندلسية، وأن أغلب إماراته وولاياته دخلت في حوزتهم، وأن معظم أمراء الأندلس سلموا ما بأيديهم للموحدين سواء عن طواعية أو كره منهم، رأى ابن مردنيش أن الحلقة أخذت تضيق عليه وأن مآل إماراته التي جهد من إقامتها، هو الوقوع في أيدي الموحدين، خاصة وبعد أن فقد الكثير من حلفائه؛ ولذلك أخذ الحقد يملأ نفسه وأخذت نفسيته تشذ في تصرفاتها ، بل وبدا الشك يختمر عنده تجاه عماله وكبار رجالات دولته الذين يعتمد عليهم، ونتيجة لهذه الأحقاد والشكوك والتبلبل الفكري، أخذ يتصرف تصرفات طائشة تكاد لا تصدر إلا عن رجل مجنون . ومنها أنه قتل وزيريه ابني الجذع ، إذ بنى لهما بناء ورماهما فيه ومنع عنهما الأكل حتى ماتا.

كما أنه قتل أخته وطفلها إغراقاً في البحر، وارتكب الكثير جداً من أمثال هذه الأعمال، ولذلك امتلأت منه النفوس رعبا خاصة أقرب الناس إليه، وتوالت النكبات على ابن مردنيش ، ولم يخلصه من مأساته إلا موته المفاجىء عام (٥٦٧هـ) ، وهو لم يتجاوز من العمر الثامنة والأربعين. وبموته قدم آل محمد ابن سعد بن مردنيش طاعتهم للموحدين، وبذلك آل حكم شرق الأندلس كله

إلى الموحدين وبذلك شملت سيادتهم كل الأندلس الإسلامية [١] .

آثار حركة ابن مردنيش على دولة الموحدين :

لقد تأثرت دولة الموحدين بحركة التمرد الواسعة في شرق الأندلس وهزت هيبتهم وسلطانهم وقوتهم في نفوس النصارى الإسبان أولاً، ثم أمراء الأندلس ثانياً، ثم المغاربه ثالثاً، وبالرغم من أن الموحدين استطاعوا آخر الأمر أن يقضوا على إمارة ابن مردنيش، وضم أملاكه ضمن حدود خلافتهم، لقد استطاع ابن مردنيش أن يقف فترة طويلة أمام الموحدين، وأن يستولي على الكثير من القواعد المهمة التي كانت في أيديهم وأن ينزل بهم الخسائر الفادحة، لقد انشغل الموحدين بحربهم مع ابن مردنيش وركزوا جل قواهم أمام ابن مردنيش مما أتاح الفرصة للطامعين والمتذمرين من أهل المغرب أن ينتهزوا تلك الفرصة ويشقوا عصا الطاعة ، وبذا كانت مقاتلة ابن مردنيش الطويلة للموحدين، واستنزافه للكثير من جهدهم ورجالهم ووقتهم، كانت إحدى البذور التي أضعفت دولة الموحدين منذ قيامها [٢] .

ثالثاً: الثورة في المغرب الأقصى:

وفي عام (٥٥٩هـ / ١١٦٤ م) قامت قبائل صنهاجة بالثورة ضد خليفة الموحدين يوسف بن عبد المؤمن وتزعم تلك الثورة مرزدغ الصنهاجي وانضمت إلى تلك الحركة بطون من صنهاجة وغمارة وأوربة وقام الثوار بمهاجمة النواحي ودخلوا تازا، حيث قُتِلَ رجالها وسُبِيَ نساءها واحتوى أموالها ولم يتوان خليفة الموحدين في إرسال جيش للثوار ففض جموعهم وقضى على زعمائهم [٣] .

وكانت هذه الثورة هي أول شرارة للثورات التي قامت في المغرب الأقصى منذ

---

(١) انظر : سقوط الموحدين(٩٠ ، ٩١) .

(٢) انظر : سقوط الموحدين(ص ٩١ ، ٩٢) .

(٣) انظر : المصدر السابق(ص ٧٥) .

٥٦٠هـ، فقد تبعتها ثورة كبيرة أخرى، قادها سبع بن منحفاد وخلفه قبيلة غمارة، وكانت هذه الثورة أخطر من سابقتها على دولة الموحدين، ولذلك خرج لهم الخليفة الموحدي على رأس جيوشه الجرارة للقضاء عليها وفي الثالث من شهر رمضان من سنة اثنتين وستين وخمسمائة تمكن الموحدون من إنزال الهزيمة بقبائل غمارة المنحازة إلي هذا الجبل. وكانت هذه الهزيمة سبباً في دخول الكثيرين من غمارة في طاعة الموحدين وأصبحت قوات المواحدين تحرز انتصاراً بعد انتصار وتلاحق المتمردين من الثوار حتى استطاعت أن تلقي القبض على سبع بن منحفاد ثم قتل وصلب ليكون عبرة لغيره وكان ذلك في عام ٥٦٢هـ. وهكذا تمكن الموحدين من القضاء على الثورة التي هزمت كيان دولتهم وأضعفت قوتهم وأوهنت شوكتهم وبذلك الانتصار اضطرت كثير من القبائل المغربية إلى الطاعة والإذعان لدولة الموحدين.

غير أن الموحدين ما كادوا يقضون على ثورتي صنهاجة وغمارة، حتى التهبت ثورة أخرى في سنة ثلاث وستين وخمسمائة (٥٦٣هـ)، ووقعت بجبل تاسررت في المغرب الأقصى ونواحيه وجرد جيش موحدي قوي إلى الثوار، بقيادة السيد أبي حفص عمر، تمكن من إخماد الثورة والقضاء على رؤوسها.

بعد ذلك هدأت الأمور في دولة الموحدين بعض الوقت وهدأت البلاد، سواء في المغرب أو الأندلس، ودخلت دولة الموحدين في فترة من الهدوء عمها الاطمئنان والراحة، فانتعشت الزراعة والصناعة وراجت الحركة التجارية [1].

رابعاً: الثورة في المنطقة الشرقية من المغرب الأقصى:

بسبب الظلم الذي تعرض له أهل قفصة في المغرب الأوسط اندلعت ثورة ابن الرند في عام (٥٧٥ هـ) واستطاع المعز بن المعتز الرندي أن يتخلص من حكم

---

(١) انظر: سقوط دولة الموحدين (ص ٩٦، ٩٧، ٩٨).

الموحدين في قفصة وساعدته عدة أسباب في تحقيق هدفه منها، ما فعله قراقوش التقوى من أعمال ضد سيطرة الموحدين ونجاحه في الاستيلاء على الكثير من البلاد من أيدي الموحدين وكان قراقوش هذا مرسلاً من قبل الأيوبيين في مصر لضم ما يمكن ضمه للدولة الأيوبية السنية الخاضعة للخلافة العباسية في بغداد، وكما أن الانشغال الذي حدث للموحدين بسبب الثورات في الأندلس والمغرب الأقصى شجع ابن الرند وأهل قفصة في السعي من أجل التخلص من الهيمنة الموحدية المتعصبة لمذهب وعقيدة ابن تومرت المنحرفة، ولذلك اهتم الموحدون بأمر هذه الثورة، وخاصة وأن قراقوش التقوى اشتهر صيته في إفريقية وقوي سلطانه وتحالفت معه قبائل من بني هلال وبني سليم، فخشيت دولة الموحدين من اندلاع الثورات وانتشار أعمال التمرد ومن حدوث تحالف ثلاثي في المغرب الأوسط والأدني بين ابن الرند وقراقوش وقبائل بني هلال وسليم بادر خليفة الموحدين يوسف بن عبد المؤمن بالخروج على رأس جيش من مراكش في عام ٥٧٥هـ واستطاع يوسف بن عبد المؤمن أن يحتل قفصة في عام ٥٧٦هـ ثم أخذ الخليفة بعد ذلك في المرور على بعض ولايات إفريقية ومدنها، ليتفقد أحوالها ويطمئن عليها، وبعد أن رتب الخليفة أمور إفريقية رجع إلى قاعدة حكمه وبمعيته قائد التمرد على ابن الرند الذي لجأ إلى الخليفة مستسلماً وتائباً وطالباً للعفو عند حصار الموحدين لمدينة قفصة [١] .

لقد ساهمت الثورات التي حدثت ضد دولة الموحدين في تشجيع ملوك وأمراء الإسبان ، على الطمع في دولة الموحدين، وأحيت فيهم روح القتال والحرب كادت تنتهي في عهد عبد المؤمن بن علي؛ ولذلك تجددت روح العداء للموحدين من جديد [٢] .

---

(١) **انظر** : سقوط دولة الموحدين (ص ١٠٠) .

(٢) **انظر** : سقوط دولة الموحدين (ص ١٠١) .

خامساً: غزو الخليفة الموحدي لبلاد الأندلس:

لما استتب الأمر ليوسف بن عبد المؤمن في بلاد المغرب، انصرف إلى الجهاد في الأندلس وكان أول عبوره لمضيق جبل طارق إلى إسبانية في صفر سنة (٥٦٦هـ/ ١١٧١م) ، واستطاع أن يوجه ضرباته الشديدة إلى ابن سعد بن مردنيش الذي توفي عام ٥٦٧هـ فتنازل أبناؤه عن أملاكهم كلها للموحدين، فتفرغ بذلك أبو يعقوب يوسف إلى حرب النصارى، ومكث في الأندلس أربعة أعوام، نظم خلالها عدة غزوات ضد النصارى، حقق فيها نجاحات رائعة، ثم عاد إلى مراكش عام (٥٧١هـ/١١٧٦م) ، بعد أن بنى جامع إشبيلية، وأدخل الماء إليها وأقام جسراً على واديها.

واستمرت الحرب بين المسلمين والنصارى في الأندلس على شدتها، برية وبحرية ولما رأى أبو يعقوب يوسف ضآلة النتائج التي أحرزتها قواته في جهاده ضد النصارى، عبر إلى الأندلس في صفر (٥٨٠هـ/ ١١٨٤م) وصمم على قتال مملكة البرتغال من البر والبحر، ثم الزحف على ضفاف نهر التاجة إلى قلب مملكتي قشتاله وليون، بينما تنشغل قوات إسلامية أخرى بالزحف من الجنوب على قوات النصارى القشتالية والليونية، وساعده في تحقيق خطته حشوده الضخمة، وقوة مسلمي الأندلس. سار أبو يعقوب على رأس الجيش الرئيسي متجها إلى بطليوس معتزماً حصار إشبونة، وكان عليه قبل أن يتمكن من محاصرتها بنجاح، أن يستولي على قلعة شنترين الواقعة على مقربة منها على ضفة نهر التاجة اليسرى، وعلى ذلك فما كاد يعبر نهر التاجة بجيشه، حتى ضرب الحصار حول قلعة شنترين مؤملاً أن تسقط في يده قبل مقدم الأسطول الذي خصص لمحاصرة أشبونة من جهة البحر.

وبعد أحد عشر يوماً من حصار شنترين بدأ يضربها بآلات الحصار ولم تمض ثلاثة أيام على مهاجمة المدينة، حتى استولى أبو يعقوب عليها، خلا قلعتها،

وذلك في (٢٢ ربيع الأول سنة ٥٨٠هـ) ، وكان أبو يعقوب يتولى القيادة بنفسه معتبراً القادة الذين معه آلات صماء لتنفيذ مشيئته، وكان ذلك يسبب المرارة الشديدة في نفوس أولئك القادة المجربين، فاعترضوا على تحويل المعسكر من شرقي شنترين إلى شماليها وغربيها، حيث يتعرض الجيش بذلك إلى خطر التطويق من جانب الأعداء ولكن إرادة أبي يعقوب يوسف هي التي نفذت دون سواها، فكان الخطر ولما دخل الليل أمر أبو يعقوب ولده إسحاق والي إشبيلية أن يبكر في صباح اليوم التالي بالسير في قوات الأندلس والقيام بالهجوم في اتجاه أشبونة، وذلك لكي يحمي الهجوم على قلعة شنترين من التعرض للمفاجأة، فهل وقع سوء فهم، أم كانت ثمة فتنة؟.

إن أبا إسحاق سار في الليل بدلاً من أن يسير في الصباح، وبدلا من أن يسير في اتجاه أشبونة عاد فعبر نهر التاجة وسار بقوات الأندلس في اتجاه إشبيلية وما كاد هذا النبأ يذاع بين بقية الجيش، حتى انتشر الاضراب والروع في أنحاء المعسكر الإسلامي، وتفاقم، الأمر، حيث زحف سانو ابن ملك البرتغال على شنترين ليلا في جيش يبلغ خمسة عشرة ألف مقاتل، وفي تلك الأثناء كان أبو يعقوب قد شرع في تنفيذ خطته لمهاجمة مدينة الكوبازة، بيد أنه حينما تحول بمعسكره إلى المواقع الجديدة، ألقى بنفسه أمام الجيش البرتغالي وجهاً لوجه.

وكان تغيير مواقع المعسكر الذي أمر به أبو يعقوب، خلافاً لنصح قواده، ووجود الجيش البرتغالي في مركز يهدد المسلمين ومسير القوات الأندلسية إلى ما وراء نهر التاجة، وهو ما بدا كأنه غير طبيعي، وأخيراً ذيوع نبأ ما لبث أن تأيد بمقدم جيش آخر للنصارى أعظم من سابقه ، كل هذه الأمور بثت في معسكر الموحدين نوعاً من الرعب العام، ترتب عليه أن غدت أوامر أبي يعقوب لا قيمة لها. وفي صباح اليوم التالي وصل جيش من النصارى يبلغ عشرين ألف مقاتل، وانضم إلى جيش البرتغال الذي يقوده ولي العهد سانشو، وبادر النصارى

بمهاجمة الموحدين وهم في اضطرابهم واختلال نظامهم، وساعدت حامية قلعة شنترين جيش النصارى بالخروج من القلعة، ومهاجمة المسلمين (١) ، ولما كان قسم كبير من الموحدين قد عبر نهر التاجة، فإنه لم يبق لدى أبي يعقوب سوى حرسه الخاص، وقليل من القوات الأخرى، وقوافل العتاد والمتاع التي لم تستطع لحاقاً بباقي الصفوف. ورأى زعيم الموحدين وهو يضطرم سخطاً، أنه وقع ضحية خيانة، أو ضحية سوء تفاهم، لقد وجد نفسه أمام الأعداء وخاض معركة كانت كفة النصارى فيها أرجح فقد قتل حرس أبي يعقوب وحمل أبو يعقوب على النصارى بسيفه وقتل ستة من الرجال، وأخيراً طعنه أحد النصارى بسيفه طعنة نافذة فسقط على الأرض ملطخاً بدمائه (٢) .

ولما بلغ اشتباك الخليفة مع النصارى بقية الجيش رجع الأمير أبو إسحاق بقواته وهاجم بها النصارى وسالت دماء الفريقين غزيرة، فتح المسلمون في نهايتها قلعة شنترين (٣) .

استشهد أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن في (١٢ ربيع الأول ٥٨٠هـ/ ٢٤أيار) (يوليو سنة ١١٨٤م) ، وكانت مدة حكمه اثنين وعشرين عاماً.

لقد حمل الجنود خليفتهم إلى إشبيلية، وأرسل منها في تابوت إلي تينلل حيث دفن بجوار أبيه عبد المؤمن (٤) .

سادساً: أسباب فشل أبي يعقوب يوسف في توحيد الأندلس:

لم يستطع السلطان يوسف بن عبد المؤمن أن يحقق نصراً حازماً على النصارى في الأندلس لعدة أسباب منها:

﴿١﴾ لم تكن قيادة يوسف بن عبد المؤمن قد وصلت إلى درجة النضج العسكري والسياسي ولذلك نجده يحشد الجيوش الكبيرة التي تحتوي على

---

(١) ، (٢) ، (٣) **انظر** : الآراك شوقي أبو خليل (ص ٤٢) .

(٤) **انظر** : المعرب الكبير (٢ / ٨٠١) .

عناصر مختلفة من قبائل بني هلال وسليم وقبائل الموحدين ومقاتلة الأندلس والجند الموحدي وليست لهذا الجيش خطة مرسمة يسير عليها، كما حدث عند غزوه لمدينة وبذة عام (٥٦٧هـ) حيث كان قرار الغزو قد جاء متأخراً عن وقت وصوله إلى الأندلس بقرار فردى من خليفة الموحدين والذي كان هو صاحب الرأي النهائي والقاطع في إدارة قيادة الجيش وكان من سماته أخذه للقرارات بسرعة مذهلة وبدون تروٍ أحياناً ، فقد قرر أن تكون وجهة حملته الكبيرة مدينة ونده، بمجرد اقتراح وفد شرق الأندلس ذلك عليه، ثم إنه أثناء مسيره إلى وندة ، غير وجهة مسيرة الجيش لافتتاح حصني بلج والكرسي وذلك لمجرد اقتراح ابن همشك عليه بذلك.

﴿ ٢ ﴾ ومما يعيب كفاءة خليفة الموحدين ، عدم تقديره للظروف وعدم قدرته على الوصول إلى هدفه من أيسر الطرق وعلى سبيل المثال ما حدث من رفضه لعرض أهل مدينة ونده تسليم مدينتهم مقابل حصولهم على الأمان وكان من المشرف له أنه قبل هذا العرض وحصل على المدينة بدون أي جهد كان.

﴿ ٣ ﴾ كانت للخليفة الموحدي ميولات فكرية طغت على الاهتمامات العسكرية والسياسية ولذلك نجد الخليفة الموحدي بدلاً من أن يكون مشرفاً على تيسيير دفة المعارك وهو القائد الوحيد والمسئول الأول، مشغولاً بمناقشة مسائل فكرية لا تمت إلى المواقف العسكرية بصلة، فعندما كانت جيوش الموحدين مدينة وندة جاءه أحد قادة الموحدين وطلب من الخليفة إمداد ببعض الجند حتى يتمكن من إحراز النصر لم يلتفت بإليه واستمر في مناقشة تلك المسائل [١] .

﴿ ٤ ﴾ لم يكن ولاء المسلمين قوي لدولة الموحدين؛ ولذلك كلما تحين فرصة للطعن فيها والثورة عليها يستغلها خصومهم الذين تعرضوا للظلم والقهر من

---

(١) انظر : سقوط الموحدين (ص ١٢٠) .

زعماء الموحدين.

﴿ ٥ ﴾ انتشار الخيانة في أداء الواجب والتعدي على أموال الدولة من قبل الولاة في عهد يوسف بن عبد المؤمن؛ ولذلك اضطر الخليفة لمحاسبة الولاة ومعاقبة الجناة في الأموال التي اغتصبوها، ونفيهم من البلاد إلى أن أنزل بهم عقوبة الإعدام ، لقد شمل ظلم الولاة الكثير من رعايا الدولة وتولدت قاعدة عريضة من المجتمع تعارض سياسة الولاة الظالمة القمعية وواصلوا جهادهم السلمي بمطالبة الدولة بمحاسبة بعض الولاة، واضطر الخليفة لمحاسبة بعض مسئولي الدولة ومن أشهر هذه الحوادث :

- محاسبة محمد بن أبي سعيد مسئول الأعمال المخزنية في إشبيلية وثبتت عليه خيانته للدولة فصودرت أمواله وممتلكاته وامتحن في نفسه طويلا ثم ضرب وكان ذلك عام ٥٧٣هـ [١] .

﴿ ٦ ﴾ انتشار الطاعون في بلاد المغرب والأندلس في زمن يوسف بن عبد المؤمن في عام ٥٧١ هـ واستمر لمدة عام تقريباً ، بالمغرب الأقصى وامتد إلى الأندلس وإلى المغرب الأوسط والأدنى. وقد قضى على الكثيرين من السكان وعلى بعض زعماء دولةالموحدين منهم أربعة من أبناء عبد المؤمن بن علي . وقد أصيب الخليفة الموحدي نفسه وأخوه السيد أبو حفص عمر، ولكنهما شفيا من المرض وعوفيا، وكاد هذا المرض أن يقضي على من كان بدور الخليفة وأهله، أما أهل مدينة مراكش فقد قضى على الكثيرين منهم وضاق المصلى بالموتى، فأمر الخليفة بأن يصلى عليهم في عامة مساجد مراكش، ونتيجة لهذا الوباء الفاتك، فقد خيَّم جو من الكآبة والحزن على مراكش الزاهرة ، ولم يعد يخرج منها أحد أو يأتي وافد إليها [٢] .

---

(١) **انظر** : سقوط دولة الموحدين(ص ١٢٧) .

(٢) المصدر السابق ،(ص ١٢٩) .

ومن كبار الشخصيات التي قضى عليها هذا الوباء الشيخ أبو حفص عمر بن يحيي الهنتاتي، وهو أحد طبقة الجماعة، ومن كبار الشخصيات التي ساهمت في إقامة دولة الموحدين، فقد كان قادماً من قرطبة إلى مراكش فأصيب في الطريق ومات عام ٥٧١هـ، وكان لهذا الوباء الذي فتك بالكثيرين من أهل المغرب والأندلس أثره في إضعاف المعنويات، وفي قلة الأيدي العاملة، وتعطل التجارة، وتوقف الحياةالزراعية والصناعية، وقد ترتب على ذلك أزمة اقتصادية حادة كانت ذات أثر مادي ومعنوي سيء على الرعية، وشجعت هذه الظروف العصيبة التي تمر بها دولة الموحدين ممالك وإمارات النصارى من النيل من الموحدين؛ ولذلك نقضت تلك الممالك والإمارات المعاهدات التي بينها وبين الموحدين وأخذت تعبث في بلاد الأندلس بالفساد[١] «وكان الناس من ضعف المرض لا يستطيعون الحركة»[٢] ونتيجة لهذه الظروف القاسية لم يستطع الموحدون أن يقوموا برد حاسم على التو والحين[٣] .

﴿ ٧ ﴾ تمرد قبيلة هرغة على الخليفة الموحدي: وهذه القبيلة ينحدر ـ منها محمد بن تومرت مؤسس دولة الموحدين، ففي سنة ٥٧٨هـ وصلت الأخبار إلى الخليفة الموحدي في مراكش بأن قبيلة هرغة قد استولت على معدن الفضة الذي يستخرج بقربهم من جبل السوس فاهتم الخليفة بهذا الحادث لأمرين:

الأمر الأول :

وهو وجوب القضاء على تمرد هذه القبيلة التي تشعر بسموها لانتهائها إلى ابن تومرت وخوفاً من التفاف قبائل الموحدين حولها.

---

(١) **انظر** : سقوط دولة الموحدين (ص ١٢٩) .
(٢) البيان المغرب (٣ / ١١٠) .
(٣) **انظر** : سقوط دولة الموحدين (ص ١٢٩) .

والأمر الثاني :

فإن معدن الفضة يمثل مورداً مالياً مهما لخزانة الموحدين، ولذلك فإن فقده يصيب هذه الخزانة بضربة عنيفة.

ولذلك بادر الخليفة بالخروج من مراكش في صفر سنة ٥٧٨هـ على رأس قواته. ولما وصل إلى جبل السوس أرغم قبيلة هرغة على تجديد الولاء والتوبة مما ارتكبته واسترجع منها ما كانت اغتصبته من المعدن. ثم بعد ذلك أمر ببناء حصن منيع حول المنجم، ووضع عليه جنداً لحراسته، لقد كان لهذه الثورة أثر في إضعاف شوكة الموحدين واضطراب هيبتهم ، وتشجيع خصومهم على محاربتهم (١) .

﴿ ٨ ﴾ ضعف التكتيك العسكري عند الخليفة الموحدي وحرصه على أن يتولى جميع الأمور بنفسه وعدم إصغائه لنصح الناصحين ، ويظهر ضعف تكتيكه العسكري في حصر جيوشه الضخمة في مهاجمة نقطة صغيرة، كما حدث في مهاجمته لمدينة وبذة وشنترين على التوالي، مما أتاح لملوك وأمراء الإسبان التحالف فيما بينهم ومواجهة الموحدين وهم في مركز قوة.

ولو اعتمد أسلوب الكر والفر بالجيوش الصغيرة ذات القوة والحركة السريعة لجعل الإسبان يضطرون إلى مدافعة كل فريق عن مملكته وإمارته وإلى مواجهة الموحدين متفرقين مع حالة الضعف التي تؤدي إلى انهزام النصارى (٢) .

﴿ ٩ ﴾ استطاع النصارى أن يوحدوا صفوفهم وجهودهم ضد الموحدين ويتخذوا موقفاً عدائياً واحداً منهم (٣).

هذه أهم الأسباب التي منعت خليفة الموحدين من ضم الأندلس للمغرب ومن ثم الانطلاق لتوحيد العالم الإسلامي تحت لوائهم ونفوذهم وسلطتهم، لقد كان

---

(١) **انظر** : سقوط دولة الموحدين (ص ١٢٩) .

(٢) المصدر السابق (ص ١٤٥) .

(٣) **انظر** : سقوط دولة الموحدين (ص ١٥٤) .

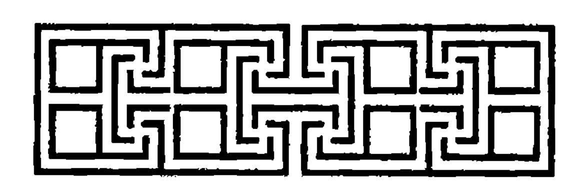
يوسف بن عبد المؤمن يتطلع إلى توحيد العالم الإسلامي كله، وقد عبر عن تلك الرغبة بوضوح شاعر الموحدين أبو العباس ابن عبد السلام الجراوي في بعض أشعاره في قوله يمدح خليفة الموحدين يوسف بن عبد المؤمن:

ستملك أرض مصر والعراقا ويجري نحوك الأمم استباقا [١]

إلا أن قدرته ومواهبه كانت محدودة، ولم يتح الفرصة لظهور قادة عظام من الذين يستطيعون أن ينظموا ويقودوا الجيوش الضخمة بعكس يوسف بن تاشفين الذي أبدع في صقل قادته ودفعهم نحو المعالي،فعرفوا كيف ينزلون الهزائم بالإسبان.

وعلى أي حال فأبو يعقوب يوسف كان دائماً رجلاً مريضاً وفي تتبعنا لتاريخه نجده يصاب بالمرض المرة بعد المرة ، حتى لقد ظل مرة سنة كاملة مريضاً طريح الفراش، ولهذا يذهب بعض المؤرخين إلى أنه مات إثر مرض أصابه أثناء الحصار [٢] .

توفي أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن في السابعة والأربعين من عمره، وكان رجلاً شهماً بذل أقصى جهده في بناء الدولة، وهو يعد من كبار الخلفاء والسلاطين في تاريخ المغرب الإسلامي [٣] .



(١) انظر : دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ، العبادي (ص ١١٥).
(٢) انظر : معالم تاريخ المغرب والأندلس ، حسين مؤنس (ص ١٥٤).
(٣) انظر : نفس المصدر السابق (ص ١٩٤).

المبحث الثالث

أبو يوسف يعقوب المنصور

أولاً: اسمه وشيء من سيرته :

هو أبو يوسف يعقوب بن أبي يعقوب يوسف بن أبي محمد عبد المؤمن بن علي، القيسي الكومي صاحب بلاد المغرب - كان صافي السمرة جداً، إلى الطول مائل ، جميل الوجه أفوه أعين شديد الكحل ضخم الأعضاء جهوري الصوت جزل الألفاظ، من أصدق الناس لهجة وأحسنهم حديثاً وأكثرهم إصابة بالظن ، مجرباً للأمور ولي وزارة أبيه، فبحث عن الأحوال بحثاً شافياً وطالع مقاصد العمال والولاة وغيرهم مطالعة أفادته معرفة جزئيات الأمور، ولما مات والده اجتمع رأي أشياخ الموحدين وبني عبد المؤمن على تقديمه فبايعوه وعقدوا له الولاية ودعوه أمير المؤمنين كأبيه وجده ولقبوه بالمنصور، فقام بالأمر أحسن قيام، وهو الذي أظهر أبهة الملك ورفع راية الجهاد ونصب ميزان العدل وبسط أحكام الناس على حقيقة الشرع ونظر في أمور الدين والورع والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأقام الحدود حتى في أهله وعشيرته الأقربين كما أقامها في سائر الناس أجمعين، فاستقامت الأحوال في أيامه وعظمت الفتوحات (١) .

ولما مات أبوه كان معه في الصحبة، فباشر تدبير المملكة من هناك، وأول ما رتب قواعد بلاد الأندلس، فأصلح شأنها وقرر في مراكزها ومهد مصالحها في مدة شهرين (٢) .

[أ] إصلاحاته في منهج دولة الموحدين:

صرح زمن حكمه بعدم صحة الاعتقاد بعصمة ابن تومرت (٣) وجالس

---

(١) ، (٢) وفيات الأعيان (٤/٧) .

(٣) انظر : سير أعلام النبلاء (٢١/٣١٦) .

الصلحاء والمحدثين ومال إلى الظاهر، وأعرض عن كتب المالكية، وأحرق ما لا يحصى من كتب الفروع [١] .

قال عبد الواحد بن علي: كنت بفاس فشهدت الأحمال يؤتى بها، فتحرق، وتهدد على الاشتغال بالفروع، وأمر الحفاظ بجمع كتاب في الصلاة من « الكتب الخمسة »، و« الموطأ » ومسند ابن شيبة ومسند البزار وسنن الدارقطني وسنن البيهقي وكان يملي ذلك بنفسه على كبار دولته وحفظ ذلك خلق، فكان لمن يحفظه عطاء وخلعة [٢] ، وكان لا يحب التعمق في آراء الفقهاء البعيدة عن الدليل، قال مرة لعبدالواحد بن علي: (أنا أنظر في هذه الآراء التي أحدثت في الدين، أرأيت المسألة فيها أقوال، ففي أيها الحق؟ وأيها يجب أن يأخذ به المقلد؟ فافتتحت أبين له، فقطع كلامي، وقال: ليس إلا هذا، وأشار إلى المصحف، أو هذا ، وأشار إلى « سنن » أبي داود، أو هذا، وأشار إلى السيف[٣] .

قلت: والذي ينبغي للحاكم أن يوسع دائرة المذاهب، والاطلاع على ما دلَّتْ عليه أصول أهل السُنَّة والجماعة ، وهذا ما فعله السلطان الكبير والقائد الفذ نور الدين محمود زنكي حيث ترك مذاهب أهل السُنَّة والجماعة تنشط في دعوتها ودعم مدارس المالكية والحنابلة والشافعية مع كونه حنفياً، واهتم بالمحدثين ووفر لهم ما يحتاجون من أجل تبليغ رسالتهم وكذلك القراء والحفاظ وبذلك الفعل الجميل استطاع أن يجند أهل السُنَّة والجماعة ضد الرافضة وضد النصارى وواصل السير بعد وفاته تلميذه المخلص صلاح الدين وتحققت الانتصارات الكبرى والفتوحات العظمى.

إن هذا التضييق الذي فعله أبو يوسف يعقوب الناصر وبعض حكام الموحدين جعل أسباب الثورات الدخلية متواجداً .

---

(١) نفس المصدر السابق (٢١/٣١٣) .

(٢) ، (٣) سير أعلام النبلاء (٢١/٣١٤) .

لقد نظر الموحدون إلى الذين خالفوهم في ميدان العقائد والمبادىء نظرة معادية اتسمت بالحقد والكراهية، على أنهم من غير أهل الإيمان فعاملوهم بقسوة بالغة، مما أثار لدى بعض العلماء والفقهاء موجة من الذعر والخوف، ولعل أوضح مثال على هذه الحالة ما جاء على لسان الوهراني بعد سقوط دولة المرابطين بقوله: (لما تعذرت مآربي واضطربت مغاربي، ألقيت حبلي على غاربي، وجعلت من مذهبات الشعر بضاعتي ومن أخلاق الأدب رضاعتي)[١] .

وعبر الوهراني عن كرهه الشديد من خلال جواب على سؤال حول رأيه في عبد المؤمن بن علي الموحدي وأولاده وسيرته ببلاده فقال: (مؤيد من السماء خواض للدماء مسلط على من فوق الماء حكم سيفه في المعمم وأعمله في رقاب الأمم.. ولوأن للعلم لساناً والورقة إنسانًا لتألمت وتظلمت.. ولكن السكوت على هذا الحال أرجح ومسالمة الأفاعي أنجح)[٢] .

وهذا أبو الوليد محمد بن عبد الله القرطبي، الذي يصف المقرى أحواله في كتاب نفح الطيب بقوله: (وخرج من الفتنة بعد ما علا ذكره في قرطبة وأقام بالإسكندرية خوفاً من بني عبد المؤمن بن علي، ثم قال: كأني والله بمراكبهم قد وصلت إلى الإسكندرية، ثم سافر إلى مصر، وأقام بها مدة ثم قال فوالله ما مصر والإسكندرية بمتباعدين، ثم سافر إلى الصعيد وحدث بقوص بالموطأ ثم قال ، ويصلون إلي هذه البلاد ولا يحجون ما أنا إلا هربت منه إليه، ثم دخل اليمن ولما رآها قال: هذه أرض لا يتركها بنو عبد المؤمن فتوجه إلى الهند، حيث أدركته منيته بها سنة ٥٥١هـوقيل باليمن)[٣] .

ولله در الإمام مالك في نصحه لأبي جعفر المنصور العباسي عندما أراد أبو

---

(١) الدور الفكري للأندلسيين والمغاربة في المشرق ، د . عليّ أحمد (ص ٨٦) .

(٢) نفس المصدر السابق (ص ٨٥ ، ٨٦) .

(٣) الدور الفكري للأندلسيين والمغاربة في المشرق ، د . عليّ أحمد (ص ٨٧) .

جعفر أن يحمل الناس على الموطأ:

قال أبو مصعب: سمعت مالكاً يقول: دخلت على أبي جعفر بالغداة حين وقعت الشمس بالأرض، وقد نزل عن شماله إلى بساط، وإذا بصبي يخرج ثم يرجع، فقال: أبو جعفر:- أتدري من هذا؟ قال: لا، قال: هو والله ابني وإنما يفزع من شيبتك، وحقيق أنت بكل خير، وخليق بكل إكرام، يقول مالك: وقد كان أدناني، وألصق ركبته بركبتي، فلم يزل يسر لي حتى أتاه المؤذن بالظهر، فقال لي: أنت أعلم الناس،فقلت: لا والله يا أمير المؤمنين، فقال: بلى ولكنك تكتم ذلك، ولئن بقيت لأكتبن كتابك بماء الذهب، ثم أعلقه في الكعبة، وأحمل الناس عليه. فقلت: ياأمير المؤمنين لا تفعل، فإن في كتابي حديث رسول الله ﷺ، وقول الصحابة، وقول التابعين، ورأياً هو إجماع أهل المدينة لم أخرج عنهم، غير أني لا أرى أن يعلق في الكعبة [١] .

وفي رواية: يا أمير المؤمنين إن أصحاب رسول الله ﷺ تفرقوا في البلاد ، فأفتى كل في مصره بما رآه «فلم يزل يؤخذ عنهم كابراً عن كابر إلى يومنا هذا، فإن ذهبت تولهم عما يعرفون إلى ما لا يعرفون رأوا ذلك كفراً، فأقر كل أهل بلد على ما فيها من العلم، وخذ هذا العلم لنفسك [٢] .

لقد كان عصر أبي يوسف يعقوب الناصر من أفضل عصور دولة الموحدين ولا يمنع ذلك أن نعلق على بعض الأخطاء التي حدثت في فترته، وإن كان الرجل استطاع أن يصلح بعض الانحرافات العقدية عند الموحدين مثل زعمهم العصمة لابن تومرت [٣] وينكر على من قدم كتبه على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

ذكر الذهبي أن أبا يوسف يعقوب المنصور سأل الفقيه أبا بكر بن هاني الجياني

(١) **انظر** : الإمام مالك بن أنس ، عبد الغني الدقر (ص ١٣٣) .
(٢) نفس المصدر السابق (ص ١٣٤) .
(٣) **انظر** : سير أعلام النبلاء (٢١ / ٣١٦) .

ما قرأت؟ قال: تواليف الإمام - يعني ابن تومرت - قال: فزوروني [١] ، وقال ما هكذا يقول الطالب! حكمك أن تقول: قرأت كتاب الله، وقرأت من السنة، ثم بعد ذلك قل ما شئت [٢] .

وكان مجلسه عامراً بالعلماء وأهل الخير والصلاح يقول تاج الدين ابن حمويه: دخلت مراكش في أيام يعقوب، فلقد كانت الدنيا بسيادته مجملة، يقصد لفضله ولعدله ولبذله وحسن معتقده، فأعذب موردي، وأنجح مقصدي، وكانت مجالسه مزينة بحضور العلماء والفضلاء، تفتح بالتلاوة ثم الحديث، ثم يدعو هو، وكان يجيد حفظ القرآن، ويحفظ الحديث، ويتكلم في الفقه، ويناظر، وينسبونه إلى مذهب الظاهر. وكان فصيحاً، مهيباً، حسن الصورة، تام الخلافة، لا يرى منه اكفهرار، ولا عن مجالسه إعراض، بزي الزهاد والعلماء وعليه جلالة الملوك، صنف في العبادات، وله «فتاو»، وبلغني أن السودان [٣] قدموا له فيلاً فوصلهم، ورده، وقال: لا نريد أن نكون أصحاب الفيل وكان يجمع الزكاة ويفرقها بنفسه، وعمل مكتباً للأيتام، فيه نحو ألف صبي، وعشرة معلمين . حكى لي بعض عماله: أنه فرق في عيد نيفا وسبعين ألف شاة [٤] .

وكان يهتم بطلاب العلم الذين يأتون من الآفاق، وقال ذات مرة: يا معشر الموحدين، أنتم قبائل، فمن نابه أمر، فزع إلى قبيلته ، وهؤلاء - يعني طلبة العلم - لا قبيل لهم إلا أنا ، فعظموا عند الموحدين [٥] .

وكان يجمع الأيتام في العام، فيأمر للصبي بدينار وثوب ورغيف ورمانة واهتم

---

(١) أي : نظر إليه نظرة المغضب .

(٢) **انظر** : سير أعلام النبلاء (٢١/٣١٦) .

(٣) تطلق على بلاد غرب إفريقيا وجنوب الشمال الإفريقي سابقًا .

(٤) **انظر** : سير أعلام النبلاء (٢١/٣١٤) .

(٥) المصدر السابق نفسه .

بالمرضى وبنى لهم مارستان ، وغرس فيه من جميع الأشجار، وزخرفه وأجرى فيه المياه، ورتب له كل يوم ثلاثين ديناراً للأدوية،وكان يعود المرضى في الجمعة (١) .

ولم تكن للفلاسفة عنده مكانة وأحرق كتبهم واهتم بالطب والهندسة (٢) .

وحارب الخمر في ملكه وتوعد عليها فعدمت (٣) .

قال عنه ابن كثير- رحمه الله -:

« كان دينًا حسن السيرة صحيح السريرة ، وكان مالكي المذهب، ثم صار ظاهرياً حزمياً ثم مال إلى مذهب الشافعي واستقضى في بعض بلاده منهم قضاة، وكانت مده ملكه خمس عشرة، وكان كثير الجهاد رحمه الله، وكان يؤم الناس في الصلوات الخمس، وكان قريباً إلى المرأة والضعيف رحمه الله » (٤) .

وقال عنه ابن العماد: (كان ذكياً شجاعاً مقداماً محباً للعلوم كثير الجهاد ميمون النقيبة ظاهري المذهب، معادياً لكتب الفقه أباد منها شيئاً كثيراً بالحريق وحمل الناس على التشاغل بالأثر) (٥) .

وربما كان فعل أبي يوسف بن يعقوب المنصور في حرقه لكتب الفروع إنما كان من أجل مؤلفات ابن تومرت والتي أخذ كثير من الموحدين بما فيها دون سواها، ولا أستبعد أن يكون هذا العمل من قبل أبي يوسف يعقوب المنصور إنما كان من أجل مؤلفات ابن تومرت لكنه لم يستطع أن يفردها دون غيرها حتى لا يثير الناس (٦) .

إن هذا السلطان طلب من العباس أحمد بن إبراهيم بن مطرف المري – أحد

---

(١) المصدر السابق (٢١/ ٣١٥) .
(٢) ، (٣) سير أعلام النبلاء (٢١ /٣١٧) .
(٤) البداية والنهاية ، المجلد السابع ، الجزء (١٣ / ٢٢) .
(٥) شذرات الذهب (٤ / ٣٢١) .
(٦) ربما هذا التعليل لا يكون صحيحًا .

المقربين إليه أن يشهد له بين يدي الله عز وجل بأنه لا يقول بالعصمة – يعني عصمة ابن تومرت ولم يكتف المنصور بهذا بل إنه حاول إرجاع الناس إلى الكتاب والسُنَّة واستئصال ونبذ تعاليم ابن تومرت التي توغلت في قلوب بعض الناس في المغرب والأندلس.

ولقد استخف السلطان يعقوب بن يوسف بمن بالغوا في تعظيم ابن تومرت وتقديسه، والعمل بما قال به، أو دعا إليه «لانه لا يرى شيئاً من هذا كله وكان لا يرى رأيهم في ابن تومرت..» [١].

ولعل هذا الشعور هو الذي دفعه إلى أن يؤثر في الطلبة الذين جاءوا من أنحاء بلاد المغرب والأندلس لطلب العلم في حاضرة الدولة على شيوخ الموحدين الذين تأصل حب ابن تومرت وما دعا إليه في نفوسهم فلما بلغه حسد شيوخ الموحدين لهؤلاء الطلبة على مكانتهم عنده وتقريبه لهم خاطبهم قائلاً: «.. يا معشر الموحدين أنتم قبائل فمن نابه منكم أمر فزع إلى قبيلته وهؤلاء – يعني الطلبة – لا قبيل لهم إلا أنا فمهما نابهم أمر فأنا ملجؤهم وإلي فزعهم وإلي ينتسبون» [٢].

إن الخليفة الثالث للموحدين عمل على محو الباطل من دعوة ابن تومرت وسعى لتقويضه بعد نصف قرن من انتشار تعاليم ابن تومرت، وهي مدة قصيرة في عمر الدعوات ؛ لأن ما تحمله دعوة ابن تومرت من جنوح في بعض أفكارها جعلت أقرب الناس منها يسعون لتقويضها ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ** ﴾ [يونس:٨١] ﴿ **فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ** ﴾ .

[الرعد:١٧].

إن المنصور الموحدي لم يعلن صراحة بطلان ما دعا إليه ابن تومرت، لأن الكثير

---

(١) **انظر** : مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود ،(ص ٥٧٥) .

(٢) **انظر** : نفس المصدر السابق(ص ٥٧٦) .

من الناس ببلاد المغرب، الأقصى، لا سيما العامة وشيوخ الموحدين، وزعماء القبائل، قد تعلقوا بدعوة ابن تومرت، واقتنعوا بصحة ما قال به أو دعا إليه، فلو واجههم المنصور بالنقد الصريح أو العمل الجاد للقضاء على دعوة ابن تومرت لنشأ عن ذلك رد فعل خطير من قبل أولئك القوم قد لا يستطيع رده أو التصدي له، وهذا بلا شك جعله يكتفي بموقفه منها دون اتخاذ أي خطوات عملية ضدها، ولكن وبالرغم من قلة ما قام به المنصور من جهد، أو عمل مضاد لدعوة ابن تومرت، إلا أن عمله هذا كانت له نتائج إيجابية وطيبة، حيث إنه بهذا الإجراء كسر ذلك السياج الذي أحيطت به دعوة ابن تومرت، مما دعى الكثير من الموحدين لا سيما المنصفين منهم إلى التمعن في حقيقة دعوة ابن تومرت ودراستها بموضوعية وإنصاف، فبانت لهم حقيقتها وما تحمله من جنوح في تفكير ها مما دفعهم إلى الأخذ بالتحلل من تعاليمها شيئاً فشيئاً [١].

ثانياً: سياسة أبي يوسف يعقوب المنصور في الحروب:

تعتبر السنوات الخمس عشرة التي حكمها أبو يوسف يعقوب المنصور، ثالث الخلفاء الموحدين، العصر الذهبي للدولة الموحدية والذروة التي وصل إليها التطور السياسي في المغرب نحو التوحيد وإقامة الدولة الكبرى الموحدية.

ولقد كان ذلك العصر الذهبي قصيراً، لا يتناسب مع دولة ضخمة مترامية الأطراف غزيرة الثروة والموارد مثل دولة الموحدين، فإن خلفاء الموحدين حكموا بلاداً تضاهي ما حكمه العباسيون في أوج قوتهم، وكانت تحت إمرتهم حشود من الجند القوي القادر على كسب المعارك لم تتيسر للكثير من الدول في التاريخ الإسلامي، فقد كانت جيوش الموحدين تعج بحشود من أبناء القبائل المغربية من المصامدة أولاً، ثم من بقية الصنهاجيين والزناتيين ممن اجتذبتهم الدولة الموحدية

---

(١) انظر: مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود، (ص ٥٧٥).

بقوتها وهيبتها، ثم أضيفت إلى هؤلاء حشود من العرب الهلاليين الذين انضووا تحت لواء الدولة الكبيرة،ولم يخل الأمر من قوات أندلسية ذات قدرة ومهارة (١) .

رغم هذه القوات كانت القوة العسكرية الموحدية دائماً مفككة، تنقصها القيادة الحازمة التي تقبض على الجيش قبضة محكمة، وتوجه الأعمال وفق خطة واحدة مرسومة، وكان أبو يوسف يعقوب المنصور من زعماء الموحدين القلائل الذين استطاعوا قيادة جيوشهم قيادة سليمة حكيمة، وكان الرجل في نفسه كذلك رجلاً حازماً موهوباً في شئون الإدارة والقيادة العسكرية، وكان شديد الإيمان فانتقل إيمانه إلى رجاله ، وكسبت جيوش الموحدين في أيامه قوة ضاربة كبرى (٢) .

[أ] الصراع مع بني غانية المرابطين :

استطاع بنو غانية أن يقودوا في المغرب الأوسط ضد أبي يعقوب يوسف المنصور، واستطاعوا أن يحتلوا مدينة بجايه بأربعة آلاف من الطوارق الملثمين بسبب ضعف حامية الموحدين هناك، وكان من سوء حظ دولة الموحدين أن ابتليت بمشكلة بني غانية التي لم تقدرها الدولة حق تقديرها وأصبحت في النهاية من أسباب سقوط الدولة.

كان زكريا بن يحيي بن غانية قد تولى بعض الأعمال في قرطبة في عهد الخليفة المرابطي علي بن يوسف بن تاشفين ثم تولى أخوه ابن غانية حكم جزر البليار وهي الجزر الشرقية منذ عام (٥٤١هـ /١١٤٦م) وظل يحكمها حتى سقطت دولة المرابطين وعندما بسط الموحدون سلطانهم على الأندلس ظل بنو غانية لا يخضعون لسيطرتهم وظل عدم خضوعهم حتى موت محمد ابن مردنيش عام (٥٦٧هـ /١١٧١م) ، وبسط الموحدون سيطرتهم على بلنسية

---

(١) **انظر** : معالم تاريخ المغرب والأندلس (ص ١٩٤) .

(٢) المصدر السابق (ص ١٩٥) .

ومرسية وشاطبة وبلاد الساحل الشرقي وكان على حكم جرز البليار في ذلك الوقت محمد بن إسحاق بن محمد بن غانية، وقد كان يريد الدخول في طاعة الموحدين، لكن إخوته عزلوه ورفضوا ذلك وولوا بدلا منه أخاه علي بن إسحاق الذي بادر بإعلان الثورة على الموحدين وخاض ضدهم معركة طويلة الأجل .

ويرجع أصل بني غانية إلى مسوفة الصنهاجية وعرفوا ببني غانية على اسم أمهم ، **وأمثال هذه التسميات كانت معروفة عند المرابطين**:

لقد كان بنو غانية شوكة ضد الموحدين، كانوا من خيرة المجاهدين ضد القوى الصليبية، واشتهروا بالغزو البحري لجنوب فرنسا وقطلونيا ، وساروا على سنة أسلافهم في العقائد والتزام منهج أهل السُنَّة والدعاء للخليفة العباسي في بغداد واتخاذ ألويتهم السوداء شعاراً لهم وهادنوا الموحدين بعض الوقت، ولما مات خليفة الموحدين يوسف بن عبد المؤمن واضطربت أحوال الدولة الموحدية بعض الشيءاستغل بنو غانية هذا الاضطراب وأظهروا العصيان وخرجوا عن سياسة المهادنة واستولوا على أسطول موحدي ضخم عندما كان في زيارة الجزر الشرقية، ثم خرجوا بأساطيلهم ورجالهم إلى المغرب الأوسط عام ٥٨١هـ / ١١٨٥م وتحالف بنو غانية مع قبائل بني سليم وبني هلال ومع جنود الغزو المملوكي الذي كان يقوده قراقوش التقوى وأعلنوا ولاءهم للدولة العباسية ورفعوا شعارها ، وأصبح المغرب الأوسط والأدنى تابعاً وخاضعاً لأتباع الخلافة العباسية.

وكان أول عمل قام به المنصور يعقوب بن يوسف هو الشروع في القضاء على بني غانية، فأرسل العيون والأعوان إلى المغرب الأوسط وإفريقيا وحاول تفكيك التحالف الثلاثي بين بني غانية والقبائل العربية أتباع قراقوش وواعد زعماء القبائل وأعيان البلدان بالعفو والإحسان وشرع في إرسال الجيوش تتلوها الجيوش وانكسرت بعض جيوش الموحدين وارتفعت معنويات بني غانية أمام الموحدين إلا أن السلطان يعقوب ابن يوسف استمر في إرسال الحملات وفقد الألوف من

جنوده ومن خيرة رجاله، وأنفق الملايين من الأموال وكان بنو غانية وحلفاؤهم قد اتخذوا الصحراء ملجأهم فكلما تضيق عليهم الدائرة يفرون إلى الصحراء ثم لا يلبثون أن يعودوا من جديد، واستمرت هذه المعارك سنوات طويلة ولكن في النهاية استطاع أبو يوسف يعقوب بن يوسف أن يسحق هذه الثورة العنيفة ويقبض على زعمائها وقاد العمليات العسكريةبنفسه عام (٥٨٢هـ /١١٦٨م) وجعل من مدينة تونس مقراً لقيادته، واستطاع بفضل حزمه شجاعته أن ينتصر على الثوار وفر علي بن غانية إلى الصحراء وظل بها إلى أن مات عام ٥٨٤هـ وانضم إلى جيوش الموحدين كثير من الأعراب والأتراك واستطاع يعقوب بن يوسف أن يوحد بلاد المغرب كلها غربها وشرقها إلى المحيط الأطلسي غربا. ولقد استعمل يعقوب بن يوسف الدهاء والمكر والحنكة والسياسة والمال ضد خصومه وقبل رجوعه إلى المغرب الأقصى رتب أمور القبائل ونظم أمور الولاة، واهتم بإدارة الأموال، ونقل معه كثيراً من القبائل العربية إلى المغرب الأقصى، ليستخدمها في الجهاد ضد النصارى ويأمن من ثوراتها المستمرة.

لقد استطاع أبو يعقوب يوسف المنصور أن يؤمن خط ظهره ويوحد الجبهة الداخلية وأعاد تنظيم البيت المغربي الموحدي من الداخل، وأمن خطر القبائل العربية ووظف طاقاتها في حربه في الأندلس، لقد كان هذا العمل الحاسم القوي في توحيد الجبهة الداخلية سبباً انتصاره على النصارى في الأندلس في معركة الأرك الكبيرة.

لقد كانت أهداف أبي يوسف يعقوب المنصور واضحة المعالم في حركته ولذلك أرجأ جهاد النصارى في الأندلس إلى حين الانتهاء من مشاكل بني غانية وحلفائهم وهذا يدل على عمق تفكيره الإستراتيجي وبعد نظره العسكري[1] .

---

(١) انظر : موسوعة المغرب العربي (٣١/ ٢٢٤ - ٢٢٧)

إننا ونحن ندرس التاريخ أمام درس عظيم ومهم في حياتنا المعاصرةألا وهو إذا أردنا بالفعل استرداد الأندلس فإن ذلك الأمر العظيم وهذا الهدف السامي الجميل يسبقه عمل جاد ومتواصل من أجل توحيد بلاد المغرب على أصول منهج أهل السُنَّة والجماعة وبعد ذلك تبدأ حركة الدعوة والجهاد المقدس نحو أراضينا المفقودة وعزنا المنشود.

إن تحرير بيت المقدس ما تم إلا بعد توحيد العراق ومصر والشام وإزالة البدع بالحجة والبرهان وقلع دولة الرافضة بالسيف والسنان مع التدرج المدروس والهمة العالية في تحقيق الأهداف السامية.

[ب] جهاده في الأندلس:

بعد استشهاد السلطان الموحدي أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن في الأندلس (٥٨٠هـ) ، هدأت الحرب بضعة أعوام لسببين مهمين:

﴿١﴾ انشغال الموحدين بثورات قامت في إفريقية، ومرض أبي يوسف المنصور في مراكش، فقد كان يرغب في تولي أمر الجهاد بنفسه.

﴿٢﴾ الخلاف الذي وقع بين ملوك الإسبان في تلك الفترة، فحرص الملك ألفونسو على عدم إثارة المسلمين ضده فيغريهم بالسير إلى غزوه ولكن بعد وفاة المطران (جونزالو) وتعيين « مارتن دي بسيرجا » مطراناً لطليطلة، شَرَعَ الأخير في زرع الحقد والبغض وتأجيج صدور النصارى الإسبان ضد المسلمين وعمل على إعداد حملة كبيرة في الأندلس مع التنسيق مع القوة السياسية والعسكرية والنصرانية والحاكمة وبالفعل تم للنصارى ما خططوه وقاد ذلك المطران الحاقد حمله دمرت كل شيء في طريقها بالنار والسيف، وشرعت تلك الحملة الحاقدة في تدمير مدن وقرى المسلمين القريبة منهم،فانتسفت الغلات والكروم، وقطعت أشجار الزيتون، وخربت الضياع والقرى، وسيقت الماشية، وسبي المسلمون العزل رجالاً ونساء، وقتل قسم كبير منهم، وزحفت قوى من فرسان النصارى إلى

أقصى جنوب الأندلس، وهم يتابعون العبث والتخريب [١] .

وظهر غرور ألفونسو الثامن ملك قشتالة واعتزازه بالنصرانيةولم يقتنع بالغنائم العظيمة التي رجع بها المطران مارتن إلى طليطلة، فكتب إلى سلطان الموحدين خطاباً يشابه كتاب ألفونسو السادس إلى يوسف بن تاشفين يدعوه إلى القتال .

وهذا نص الخطاب كما ورد في وفيات الأعيان:

«باسمك اللهم فاطر السموات والأرض، وصلى الله على السيد المسيح روح الله وكلمته الرسول الفصيح . أما بعد.. فإنه لا يخفى على ذي ذهن ثاقب ولا ذي عقل لازب ، أنك أمير الملة الحنيفية، كما أني أمير الملة النصرانية، وقد علمت الآن ما عليه رؤساء أهل الأندلس من التخاذل والتواكل وإهمال الرعية، وإخلادهم إلى الراحة، وأنا أسومهم بحكم القهر وجلاء الديار، وأسبي الذراري، وأمثل بالرجال، ولا عذرلك في التخلف عن نصرهم إذا أمكنتك يد القدرة، وأنتم تزعمون أن الله تعالى فرض عليكم قتال عشرة منا بواحد منكم، فالآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً، ونحن الآن تقاتل عشرة منكم بواحد منا، لا تستطيعون دفاعاً ولا تملكون امتناعاً، وقد حُكِي لي عنك أنك أخذت في الاحتفال، وأشرفت على ربوة القتال ، وتماطل نفسك عاماً بعد عام، تقدم رجلاً وتؤخر أخرى، فلا أدري أكان الجيش أبطأ أم التكذيب بما وعد ربك؟ ثم قيل لي إنك لا تجد إلى جواز البحر سبيلا لعلة لا يسوغ لك التقحم معها، أنا أقول لك ما فيه الراحة لك وأعتذار لك وعنك، على أن تفي بالعهود والمواثيق والاستكثار من الرهان، وترسل إلى جملة من عبيدك بالمراكب والشواتي والطرائد والمسطحات، وأجوز بحملتي إليك، وأقاتلك في أعز الأماكن لديك، فإن كانت لك فغنيمة كبيرة جلبت إليك، وهدية عظيمة مثلت بين يديك، وإن كانت لي كانت يدي

---

(١) انظر : تاريخ الأندلس ، يوسف اشباخ(٢/ ٨١) .

العليا عليك، واستحقيت إمارة الملتين والحكم على البرين، والله تعالى يوفق للسعادة، ويسهل الإرادة، لا رب غيره ولا خير إلا خيره إن شاء تعالى » [١] .

فلما وصل كتابه إلى الأمير أبي يوسف المنصور مزقه وكتب على ظهر قطعة منه : ﴿ **ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لاَّ قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ** (٣٧) ﴾ [النمل : ٣٧]. الجواب ما ترى لا ما تسمع.

ولا كُتبَ إلا المشرفية عنده ... ولا رُسُل إلا الخميس العرمرم [٢]

لقد اشتد غضب أبي يعقوب المنصور على ألفونسو الثامن وغطرسته، وأخذته غيرة الإسلام، فبادر بالتأهب للجهاد في الأندلس، وأمر أن يذاع الخطاب في جنود الموحدين ليثير غيرتهم ، وضج الناس وصاحوا بشعارات الجهاد ، وأمر السلطان الموحدي بإخراج أخراق القبة الحمراء وسيفه الكبير إيذانا بالدعوة العامة إلى الجهاد ، والعبور إلى الأندلس.

ودوت صيحات الجهاد في جميع أنحاء المغرب، من مدينة سلا على المحيط الأطلسي، حتى برقة شرقاً على حدود مصر، ضد النصارى الذين غدوا خطراً على الإسلام. في الوقت نفسه الذي كانت أخبار انتصار صلاح الدين على الصليبيين في حطين واستعادة مدينة القدس من أيدي الصليبين قد وصلت إلى مسامع المغاربة وأحيت قلوبهم وطهرت نفوسهم وتعلقوا بالشهادة في سبيل الله؛ بل نجد أن بعض المغاربة فضّل الذهاب إلى الشام والانضواء تحت لواء الناصر صلاح الدين الأيوبي.

لقد استجاب الرجال والشيوخ والشباب وسكان الصحاري والمدن والقرى والهضاب والشواطىء والجبال في أنحاء المغرب الكبير إلى نداء الجهاد وانضموا إلى ألوية الجهاد في إسبانية، وبدأ الخطر الداهم ينذر الغرب في الوقت الذي

---

(١) وفيات الأعيان (٧/ ٦) .

(٢) وفيات الأعيان (٧/ ٧) .

حاول النصارى فيه أن يرفعوا الصليب في المشرق.

وبعد أن سير أبو يوسف المنصور جميع قواته إلى الأندلس، عبر إلى الجزيرة الخضراء في ٢٠ رجب سنة ٥٩١ هـ، ولم يسترح بها إلى قليلا ، ثم أسرع بالسير إلى قشتالة خشية من نفاذ المؤن، ولكي يكسب حماسة جنده وظمأهم للجهاد وحبهم للاستشهاد.

وكانت خطة زعيم الموحدين ترمي أولاً إلى اختراق قلب إسبانية وافتتاح طليطلة، ومتى ظفر ببغيته استطاع أن يحارب الممالك الأخرى بسرعة وسهولة، ولكنه لما علم بأن ملك قشتالة قد حشد قوات شمال قلعة رباح، على مقربة من قلعة الأرك ، اتجه بجيشه إلى ذلك المكان . ولما وصل إلى قيد مسيرة يومين من جيش النصارى، ضرب معسكره في يوم الخميس الثالث من شعبان سنة (٥٩١هـ / ١١٩٥م) ، وعقد مجلساً من القادة والأشياخ للبحث في الخطط التي يجب اتباعها لخوض المعركة [١] .

ثالثا: معركة الأرك:

(الأرك): حصن على بعد عشرين كيلومتراً إلى الشمال الغربي من قلعة رباح، على أحد فروع وادي آنه وهي نقطة الحدود بين قشتالة والأندلس، وفي حينه تجهز ألفونسو الثامن ملك قشتالة للقاء الجيش الإسلامي منذ سمع بعبور الموحدين وطلب العون من ملكي ليون ونبارة [٢] واستفز كل ملوك إسبانيا المسيحية ، واستصرخ البابا في روما ، وقدمت إليه جيوش من فرنسا وألمانيا وهولندا وغيرها من الديار الأوربية،ووافته جنود أوروبية كبيرة يقودها فرسان ذوو خبرة عسكرية طويلة وتجربة ماهرة وممتازة في الحروب ضد المسلمين حتى لقد قدرت القوات الأوروبية التي احتشدت في مواجهة القوات الإسلامية بـ(١٥٠

---

(١) **انظر** : الأراك ، شوقي أبو خليل (ص ٥٣ ، ٥٤) .

(٢) المصدر السابق ، (ص ٥٤) .

ألف جندي) تزيد عن ثلاثة أضعاف القوات الإسلامية [١] .

وتحركت تلك القوات ونزلت في الأرك، ونزل أبو يوسف يعقوب المنصور على مقربة من المعسكر القشتالي، ومرت عدة أيام لم يقع فيها اشتباك [٢] .

خطة الموحدين :

اجتمع المجلس الحربي الاستشاري للموحدين برئاسة زعيمهم أبو يوسف يعقوب المنصور وتناقشوا في الخطة التي يجب اتباعها في المعركة، واستمع الزعيم لرأي الجميع، ثم التفت إلى زعماء الأندلس، وطلب رأي أبي عبد الله بن صناديد، لقد كان من أعقلهم وأخبرهم بمكائد الحروب وكان أبو يوسف المنصور يفضل آراء الأندلسيين في معرفة أفضل الخطط لمحاربة النصارى، إذ أنهم يخوضون الحرب مع جيرانهم بلا انقطاع، فهم لذلك أعرف الناس بطرق النصارى ومكائدهم، وكان من رأي ابن صناديد أنه يجب أن توضع خطة موحدة لتسيير دفة الحرب، إذ كان هذا التوحيد والنظام والتنسيق التام ينقص الموحدين في حروبهم السابقة، ولا سيما في معركة شنترين، وأنه يجب أن يختار أمير الموحدين قائداً عاماً للجيش كله، فوقع اختيار المنصور على كبير وزرائه أبي يحيي بن أبي حفص، الذي امتاز بالفطنة وصفاء الذهن والشجاعة في كثير من الحروب والوقائع.

وكذلك يجب أن يتولى قيادة الأندلسيين زعماؤهم، وهو ما لم يتبع دائماً، فكان يترتب على ذلك اضطراب الصفوف أثناء المواقع ، وكانت حماسة الأندلسين تهبط حينما يتولى الأجانب قيادتهم، على أنهم مع ذلك كانوا يؤلفون قسماً مستقلاً من الجيش ينضوي تحت لواء القائد العام أبي يحيي بن أبي حفص، ولما كان الأندلسيين والموحدين أو الجند المغاربة النظاميون يؤلفون قوة

---

(١) انظر : موسوعة المغرب العربي (ص ٢٣١) .

(٢) انظر : معركة الأرك (ص ٥٥) .

الجيش الرئيسية، فقد نصح عبد الله بن صناديد بأن يتولى هؤلاء لقاء العدو والمواجهة الأولى ، وأما بقية الجيش وهي المؤلفة من قبائل البربر، ومعظمهم غير النظاميين، وجمهرة كبيرة من المحاربين والمجاهدين فيجب أن تكون قوة احتياطية للموحدين الأندلسيين، تقوم بالعون والإمداد. أما أبو يوسف المنصور فيستطيع بحراسه أن يرجح كفة الموقعة كلها، ويجب أن يرابط بقوته وراء التلال على مسافة قريبة، ثم ينقض فجأة بجنوده المتوثبين على الأعداء المتعبين، ويبادر بحضوره إلى تدعيم النصر المكسوب، كل هذه الآراء أبداها الزعيم الأندلسي، وأعجب أبو يوسف المنصور بها ، وأمر بتنفيذها [١] .

قلت: وهذه الخطة شبيهة بخطة المرابطين التي وضعوها في معركة الزلاقة عام ٤٧٩ هـ وهذا يدل على اهتمام أبي عبد الله ابن صناديد بالدراسة التاريخية الواعية.

وفي تلك الأثناء كان ألفونسو يستعد لمهاجمة المسلمين ونتيجة للأعداد الضخمة التي في حوزته رأى أن يترك أساليب الإسبان القديمة في الحرب، وهي تقضي بتجنب الاشتباك في المواقع والامتناع في القلاع، حتى تُرغم قوى المسلمين الجرارة على الانسحاب، إما لنفاد المؤن، أو لتفشي الأمراض، أو لحلول الشتاء ، ولكن ألفونسو رأى ـ وهو سيد جيش ضخم حسن الأهبة ـ أنه من العار أن ينسحب أمام العدو، خصوصاً ، وقد كان يؤمل أن يستطيع بقيادته أن يحرز نصراً باهراً على جيش الموحدين [٢] .

وفي (٩ شعبان ٥٩١هـ/٨تموز يوليه ١١٩٥م) كانت موقعة الأرك الفاصلة الحاسمة . وفي صباح هذا اليوم، أذاع أبو يوسف يعقوب المنصور بين سائر الجند، لكي يذكي حماستهم للقتال، خبر حلم رآه في الليلة السابقة، مفاده أنه رأى

---

(١) انظر : معركة الأرك(ص ٥٦) .

(٢) انظر : معركة الأرك(ص ٥٧) .

في نومه فارساً بهي الطاعة، على فرس أبيض يخرج من باب فتح في السماء، وبيده رايه خضراء، وقد انتشرت في الآفاق، يقول له : إنه من ملائكة السماء السابعة، وإنه جاء يبشره بالنصر بحَوْلِ الله .

ونظم أبو يوسف يعقوب المنصور جيشه، الذي قدرته الروايات الأوروبية الكنسية بستمائة ألف مقاتل وهذا بالطبع مبالغ فيه، فقد كان في الأغلب يساوي عدد جيش النصارى [١] ، فاحتل الموحدون ـ أو القوات النظامية ـ القلب، واحتل الجناح الأيسر الجند العرب أو أحفاد فاتحي المغرب المسلمين، ومعهم زناتة وبعض القبائل الأخرى تحت ألويتهم الخاصة، واحتل الجناح الأيمن قوة الأندلس بقيادة عبد الله بن صناديد . وتولى أبو يوسف المنصور قيادة الاحتياط والمكونة من صفوة الجند والحرس الملكي، ووضعت صفوف المتطوعين ومعظمها مكون من الجند الخفيفة،ولا سيما حملة النبال، تحت أعلامها الخضراء، وهو لون الموحدين، إلى المقدمة، لتفتتح القتال، وهم جميعاً يضطرمون شوقاً إلى الفوز بالشهادة في سبيل الله تعالى[٢] . وحين كمل الحشد قال القائد العام للجند إن المنصور أمير المؤمنين يقول لكم « اغفروا له ـ فإن هذا موضع الغفران ـ وتغافروا فيما بينكم، وطيبوا نفوسكم وأخلصوا لله نياتكم »[٣] .

فبكي الناس وأعظموا ما سمعوه من أميرهم المؤمن المخلص، وما جرى من حسن معاملتهم وعدله بينهم[٤] .

وقام وخطب وحرض على الجهاد وبين فضله ومكانته وقدره، وأخذ الناس مواقعهم وقد تنورت بصائرهم، وخلصت لله ضمائرهم وسرائرهم، وقويت أنفسهم وعزائمهم، وتضاعفت نجدتهم وإقدامهم [٥] .

---

(١) ،(٢) **انظر** : معركة الأرك (ص ٥٨) .

(٣) ،(٤) صلاح الأمة في علو الهمة ، د . سيد العفاني (٦ / ٢٤٠) .

(٥) **انظر** : تاريخ الأندلس لعبد الرحمن الحجي (ص ٤٨٦) .

ونظم ملك قشتالة في تلك الأثناء جنده المتوثبة إلى القتال، وكانت قلعة الأرك تحمي موقعه من جانب، وتحميه من الجانب الآخر بعض التلال، ولا يمكن الوصول إليه إلا بواسطة طرق ضيقة وعرة، وكان الجيش القشتالي يحتل موقعا عالياً، وكانت هذه ميزة له في بدء القتال (١) .

ولما تقدمت صفوف المسلمين المهاجمة إلى سفح التل الذي يحتله ملك قشتالة، واندفعت إليه تحاول اقتحامه على إثر كلمات قائدها الملتهبة، انقض زهاء سبعة أو ثمانية آلاف من الفرسان القشتاليين المثقلين بالدروع على المسلمين كالسيل الجارف المندفع من علٍ (٢) .

وفي « البيان المغرب » في معرض الحديث عن القشتاليين، لما رأوا الجيش الإسلامي في سهل الأرك، وهم في المرتفع المشرف عليه: « فهبطوا من مراكزهم كالليل الدامس والبحر الزاخر، أسراباً تتلوها أسراب، وأفوجًا تعقبها أفواج، ليس إلا الصهيل والضجيج والحديد على وقع العجيج، فدفعوا حتى انتهوا إلى الأعلام، فتوقفت كالجبال الراسيات، فمالوا على الميسرة فتزحزح قوم من المطوعة وأخلاط من السوقة والأحرجة، فصعد غبارها إلى الجو، فقال « أبو يوسف، المنصور لخاصته ومن طاف به: جددوا نياتكم وأحضروا قلوبكم ثم تحرك وحده وترك ساقته على حالها، وسار منفرداً من خاصته مقدماً بشهامته ونجدته، ومر على الصفوف والقبائل، وألقى إليهم بنفسه كلاماً وجيزاً في الهجوم على عدوهم والنفوذ إليه، وعاد إلى موضعه وساقته » (٣) لقد رد المسلمون هجمات القشتاليين مرتين، ولكن العرب والبربراستنفذوا جميع قواهم لرد هذا الهجوم الشرس، ولما عززت صفوف النصارى بقوى جديدة، هجموا للمرة الثانية، وضاعفوا جهودهم واقتحموا صفوف المسلمين وفرقوها، وقتلوا قسماً منها،

(١) ،(٢) انظر : معركة الأرك(ص ٥٩) .
(٣) انظر : البيان المغرب(ص ١٩٤ / ١٩٥) .

واضطر الباقون إلى التقهقر والتراجع، وأكرم الله الآلاف من المسلمين بالشهادة، منهم القائد العام أبو يحيي بن أبي حفص، الذي سقط شهيداً وهو يقاتل بمنتهى الشجاعة والرجولة والعزة والبسالة، وظن النصارى أنهم أحرزوا النصر بعد أن حطموا قلب جيش الموحدين، ولكن الجناح الأيمن للمسلمين بقيادة القائد الأندلسي أبي عبد الله بن صناديد انقض على النصارى انقضاض الأسد على فريسته وأصابوا قلب جيشه القشتالي إصابة دامغة وكان ملك قشتالة يقود جيشه بنفسه ويحيط به عشرة آلاف فارس، منهم فرسان الداوية وفرسان قلعة رباح، ولقد استمرت المعركة وهي حامية الوطيس ساعات متتالية واستبدل المسلمون النقص في العدد، بالإقدام والشجاعة، حتى أنه لمّا زحف زعيم الموحدين في حرسه وقواته الاحتياطية ، ورد تقدم الفرسان القشتاليين واضطرهم إلى الفرار في غير انتظام ، لم يغادر ألفونسو وفرسانه العشرة آلاف مكانهم في القلب، ذلك لأنهم أقسموا جميعاً بأن يموتوا ولا يتقهقروا، فاستمرت المعركة على اضطرامها المروع، والفريقان يقتتلان تحت سحب كثيفة من الغبار، وأرجاء المكان تدوي بوقع حوافر الخيل، وقرع الطبول، وأصوات الأبواق، وصلصلة السلاح، وصياح الجند، وأنين الجرحى [1] .

وأيقن الموحدون بالنصر حينما انحصرت المقاومة في فلول من النصارى التفّت حول ملك قشتالة ، وهجم أمير الموحدين في مقدمة جيشه لكي يجهز على هذه البقية، أو يلجئها إلى الفرار، فنفذ إلى قلب الفرسان النصارى، والعلم الأبيض يخفق أمامه منقوشاً عليه : « لا إله إلا الله محمد رسول الله، لا غالب إلا الله » . ولم يشأ ألفونسو بالرغم من اشتداد ضغط المسلمين عليه من كل صوب، ومواجهته لخطرالهلاك والسحق المحقق، أن ينقذ نفسه بالفرار، وأن يتحمل عار الهزيمة ، وتساقط معظم الفرسان النصارى حول ملكهم مخلصين لعهدهم، ولكن بقية

(١) انظر : تاريخ الأندلس لأشباخ (٢/ ٨٦) .

قليلة منهم استطاعت أن تنجو وأن تقتاد الملك بعيداً عن الميدان ، وأن تنقذ بذلك حياته (١) .

لقد انتهى يوم الأرك بهزيمة النصارى على نحو مروع، وسقط منهم في القتال ثلاثون ألف قتيل، بينهم زهرة الفروسية الإسبانية، وغنم المسلمون معسكر الإسبان بجميع ما فيه من المتاع والمال، واقتحموا عقب الموقعة حصن الأرك، وقلعة رباح المنيعتين (٢) .

وسرعان ما ارتفع نجم الموحدين الحربي في كل مكان بعد انتصارهم في موقعة الأرك، وأمر يوسف المنصور بإذاعة النبأ من منابر المساجد في جميع مملكته الشاسعة، وخصص خمس الغنائم بعد أن وزع باقيها على الجند لبناء مسجد ضخم في إشبيلية، اشتهرت منارته بارتفاعها البالغ مائتي متر(٣) ،كما بنى حصناً كبيراً في مراكش لتخليد ذكرى الموقعة.

وعامل أبو يوسف يعقوب المنصور الأسرى بالإحسان ومنحهم الحرية دون افتداء وكان عدددهم عشرين ألفاً ، قد ساء وقع هذا الجود لدى الموحدين واعتبروه خطأ لكون ذلك العدد الهائل سيكون قوة عسكرية كبيرة ستشد أزر مملكة قشتالة فيما بعد وستسعى للانتقام من المسلمين (٤) .

لقد رأى أبو يوسف المنصور أن ينتهز فرصة انهزام ملك قشتالة وتفرق النصارى،فقام في أوائل سنة (٥٩٢هـ/ ١١٩٦م) بغزوة جديدة في قلب الأراضي النصرانية واخترق ولاية « أستراما دورة » وعبر النهر الكبير « الوادي الكبير » في اتجاه نهر التاجة، وبعد أن فتح عدة حصون وقلاع، ظهر أمام أبواب طليطلة عاصمة قشتالة، فامتنع ألفونسو مع جيشه الصغير بعاصمته ولم يجرؤ أن

---

(١) انظر : الأرك (ص ٦١) .

(٢) انظر : روض القرطاس (ص ١٤٥) .

(٣) ، (٤) انظر : معركة الأرك (ص ٦٣) .

يحارب المسلمين في ميدان مكشوف نظراً لهبوط معنويات جنده الأرك ، ولقلة عددهم، وحاصر أبو يوسف المنصور طليطلة عشرة أيام محاولاً اقتحام أسوارها المنيعة، لكنه لم ينجح، فعاد منسحباً بسبب نقص التموين، بعد أن انتسفت الزروع بيد القشتاليين قبيل الأرك، فدب المرض في صفوف الموحدين، وكثر الموت بينهم، فاضطر أبو يوسف المنصور إلى الانسحاب بعدأن وصل إلى مقربة من ضفاف دويرة، الذي لم يقترب من ضفافه منذ مدة طويلة أي جيش أسلامي، وكانت حملتهم هذه آخر حملة إسلامية تهيأ لا حتلال طليطلة [١] .

واستطاع أبو يوسف يعقوب المنصور أن يفرق بين ممالك النصارى بعقد أحلاف معها وساعده على ذلك موقعه القوي ، ولذلك استجاب لطلب ملك ناقار وليون وعقد معها حلفاً واضطر ملك قشتالة إلى مقاومة هذه الأحلاف، فعقد في سنة ٥٩٢هـ/١١٩٦م الهدنة مع الموحدين لكي يستطيع التغلب على أعدائه ورحب أبو يوسف المنصور بعقد هذه الهدنة؛ لأن ثورات جديدة قامت في إفريقية كانت تستدعي عودته إلى مراكش [٢] .

ولما جاءت رسل ألفونسو المهزوم لمصالحة الموحدين قال الشاعر في مدح المنصور:

أهل بأن يسعى إليه ويرتجى	ويزار من أقصى البلاد على الرجا
من غدا بالمكرمات مقلدا	وموشحاً ومختماً ومتوجاً
عمرت مقامات الملوك بذكره	وتعطرت منه الرياح تأرجا [٣]

.

رابعاً: نتائج الأرك :

[١] ارتفعت الروح المعنوية لمسلمي الأندلس بعد أن نزل بهم الويل والهلاك

---

(١) **انظر** : تاريخ الإسلام ، د . حسن إبراهيم حسن (٤/ ٢١٥) .

(٢) **انظر** : معرك الأرك (ص ٦٥) .

(٣) **انظر** : نفح الطيب (١/ ٤١٩) .

يحارب المسلمين في ميدان مكشوف نظراً لهبوط معنويات جنده الأرك ، ولقلة عددهم، وحاصر أبو يوسف المنصور طليطلة عشرة أيام محاولاً اقتحام أسوارها المنيعة، لكنه لم ينجح، فعاد منسحباً بسبب نقص التموين، بعد أن انتسفت الزروع بيد القشتاليين قبيل الأرك، فدب المرض في صفوف الموحدين، وكثر الموت بينهم، فاضطر أبو يوسف المنصور إلى الانسحاب بعدأن وصل إلى مقربة من ضفاف دويرة، الذي لم يقترب من ضفافه منذ مدة طويلة أي جيش أسلامي، وكانت حملتهم هذه آخر حملة إسلامية تهيأ لا حتلال طليطلة (١) .

واستطاع أبو يوسف يعقوب المنصور أن يفرق بين ممالك النصارى بعقد أحلاف معها وساعده على ذلك موقعه القوي ، ولذلك استجاب لطلب ملك ناقار وليون وعقد معها حلفاً واضطر ملك قشتالة إلى مقاومة هذه الأحلاف، فعقد في سنة ٥٩٢هـ/١١٩٦م الهدنة مع الموحدين لكي يستطيع التغلب على أعدائه ورحب أبو يوسف المنصور بعقد هذه الهدنة؛ لأن ثورات جديدة قامت في إفريقية كانت تستدعي عودته إلى مراكش (٢) .

ولما جاءت رسل ألفونسو المهزوم لمصالحة الموحدين قال الشاعر في مدح المنصور:

أهل بأن يسعى إليه ويرتجى	ويزار من أقصى البلاد على الرجا
من غدا بالمكرمات مقلدا	وموشحاً ومختماً ومتوجاً
عمرت مقامات الملوك بذكره	وتعطرت منه الرياح تأرجا (٣)

.

رابعاً: نتائج الأرك :

[١] ارتفعت الروح المعنوية لمسلمي الأندلس بعد أن نزل بهم الويل والهلاك

---

(١) **انظر** : تاريخ الإسلام ، د . حسن إبراهيم حسن (٤/ ٢١٥) .

(٢) **انظر** : معرك الأرك (ص ٦٥) .

(٣) **انظر** : نفح الطيب (١/ ٤١٩) .

والدمار من قبل النصارى الإسبان.

[٢] سقوط هيبة ملوك النصارى أمام مسلمي الأندلس والمغرب والعالم الإسلامي كله .

[٣] حقق الموحدين نصراً عظيماً جعلهم يفكرون بجد في توحيد العالم الإسلامي كله تحت سلطانهم.

[٤] ارتفاع نجم السلطان أبي يوسف يعقوب المنصور والموحدين في العالم أجمع.

[٥] انصاعت بعض قبائل المغرب التي تفكر في الثورة على الموحدين وكانت تنتظر فرصة الوثوب على دولتهم.

[٦] عمت الأفراح أرجاء العالم الإسلامي في شرقه وغربه وأعتقت الرقاب، وسر العلماء والفقهاء والأدباء وعامة المسلمين بهذا النبأ السعيد .

[٧] أصيب نصارى الإسبان بهزيمة نفسية أثرت في نفوسهم وتحطمت آمالهم في الاستيلاء على أراضي المسلمين في الأندلس وإبعادهم.

[٨] جعلت ملوك النصارى يتسارعون في عقد المعاهدات مع دولة الموحدين وإيقاف الحروب والإذعان للشروط التي يضعها الموحدين.

[٩] تفجرت أحقاد القساوسة والرهبان في نفوسهم، فعملوا على توحيد الممالك وترتيب الأمور ورص الصفوف والدعوة إلى التنازل عن صراعات النصارى الداخلية.

[١٠] دخلت معركة الأرك سجل التاريخ الإسلامي المجيد وسجلت على صفحات الزمان بماء الذهب الصافي. وغير ذلك من النتائج.

خامساً: أسباب انتصار الموحدين في معركة الأرك :

لا شك أن النصر العظيم الذي حدث في معركة الأرك ، له أسباب عدة

منها :

﴿ ١ ﴾ الاهتمام بتصحيح العقيدة ومحاولة الرجوع إلى الفهم الصحيح والتصور السليم وهذا قام به خليفة الموحدين أبو يوسف يعقوب بن يوسف حيث أعلن براءته من الاعتقاد بعصمة ابن تومرت واستخف بمن بالغوا في تقديسه واهتم بالقرآن والسنة وشجع على الاهتمام بكتب الحديث المعتمدة وهذه محاولة جادة في إصلاح المنهج والاقتراب من منهج أهل السُنَّة والجماعة.

﴿ ٢ ﴾ اهتمام دولة الموحدين بالمرضى والضعفاء والأيتام والفقراء ، وكان السلطان أبو يوسف يعقوب المنصور يشرف بنفسه على هذه الأعمال لعلمه أن طريق النصر والتمكين من أسبابه الواضحة الاهتمام بالضعفاء .

﴿ ٣ ﴾ محاربة المنكر والتضييق على الفساق وتغليظ العقوبة على أهل الكبائر بإشراف السلطان بنفسه ونشر العدل بين الرعية والسعي لتنفيذ أحكام الشرع ولو على نفسه وأهله وأقاربه وحارب الظلم وعاقب العمال الذين تشكو الرعايا منهم وكان يشدد في إلزام الرعية بإقامة الصلوات الخمس.

﴿ ٤ ﴾ فتح باب الاجتهاد وحارب الجمود وألغى اهتمام الدولة بفروع الفقه وألزم العلماء بأن لا يفتون إلا بالكتاب العزيز والسنة النبوية، ولا يقلدون أحداً من الأئمة المجتهدين المتقدمين[١] ، بل تكون أحكامهم بما يؤدي إليه اجتهادهم من استنباط القضايا من الكتاب والحديث والإجماع والقياس وبذلك فتح باب الاجتهاد لمن اجتمعت فيه شروطه. وأبطل التقليد[٢] ومن هؤلاء العلماء الذين مشوا على هذه الطريقة: أبو الخطاب بن دحية وأخوه أبو عمر وغيرهم[٣] .

---

(١) كان الأولى أن يفتح باب الاجتهاد لمن توفرت فيه شروطه ، وترك من أراد أن يقتدي في فتاويه بالأئمة الأعلام من أمثال أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد الزهري والأوزاعي – رحمهم الله – .

(٢) انظر : الأعلام للزركلي (٨/٢٠٣) .

(٣) انظر : معركة الأرك (ص ٧١) .

﴿ ٥ ﴾ احترام العلماء والقضاة والفقهاء في زمن أبي يوسف يعقوب بن يوسف وهذه قصة رائعة تدل على احترام أبي يوسف يعقوب المنصور للقضاة ووقوفه عند الشرع، روى ابن خلكان: أن الأمير الشيخ أبا محمد عبد الواحد بن الشيخ أبي حفص عمر والد الأمير أبي زكريا يحيي بن عبد الواحد صاحب إفريقية، كان قد تزوج أخت الأمير أبي يوسف المنصور، وأقامت عنده، ثم جرت بينهما منافرة فجاءت إلى بيت أخيها ، فسير الأمير عبد الواحد لطلبها فامتنعت عليه، وشكا الأمير عبد الواحد ذلك إلى قاضي الجماعة بمراكش، وهو القاضي أبو عبد الله بن علي بن مروان، فاجتمع القاضي المذكور بأبي يوسف المنصور وقال له: إن الشيخ أبا محمد عبد الواحد يطلب أهله، فسكت الأمير أبو يوسف المنصور. ومضت بعد ذلك أيام . ثم إن الشيخ عبد الواحد اجتمع بالقاضي المذكور في قصر الأمير بمراكش، وقال له :أنت قاضي المسلمين، وقد طلبت أهلي فما جاءوني، فاجتمع القاضي بأبي يوسف المنصور وقال له: ياأمير المؤمنين، الشيخ عبد الواحد قد طلب أهله مرة وهذه الثانية، فسكت الأمير يعقوب. ثم بعد ذلك بمدة لقي الشيخ عبد الواحد القاضي بالقصر المذكور وقد جاء إلى خدمة الأمير أبي المنصور فقال له: ياقاضي المسلمين، قد قلت لك مرتين وهذه الثالثة، أنا أطلب أهلي وقد منعوني عنهم. فاجتمع القاضي بالأمير ، وقال له: يا مولانا إن الشيخ عبد الواحد قد تكرر طلبه لأهله، فإما أن تسير إليه أهله وإلا فاعزلني عن القضاء. فسكت الأمير يعقوب أبو يوسف المنصور، ثم قال: ياأبا عبد الله ما هذا إلا جد كبير، ثم استدعى خادماً وقال له في السر: تحمل أهل الشيخ عبد الواحد إليه فحملت إليه في ذلك النهار ولم يتغير على القاضي ولا قال له شيئاً يكرهه، لقد تبع في ذلك حكم الشرع المطهر وانقاد لأوامره ، هذه حسنة تعد له، وللقاضي أيضاً، فإنه بالغ في إقامة منار العدل [1] .

---

(١) انظر : وفيات الأعيان (٧ / ١٠، ١١) .

﴿٦﴾ الحزم والقيادة الرشيدة التي تميز بها أبو يوسف المنصور في قيادته لدولة الموحدين حيث استطاع أن يوحد البيت الموحدي من الداخل وأن يقضي على ثورات الأعراب وبني غانية والمتمردين وقاد المعارك بنفسه وأسند المهام الكبرى لأصحاب خبرة وحكمة ودراية وتجربة واسعة.

﴿٧﴾ الاهتمام بمبدأ الشورى والابتعاد عن التسلط والإعجاب بالرأي وتهميش الآخرين ، ولذلك استمع أبو يوسف إلى الآراء في مجلس حربه ، وأعطى لأهل الاختصاص مكانة معنوية واستمع لزعيم الأندلسيين ، واستفاد من خبرته الطويلة في محاربة النصارى ، واعتمد خطة أبي عبد الله بن صناديد ذات الأبعاد المتعددة.

﴿٨﴾ الاهتمام بمعرفة نفسية الأقوام المشاركة في الجهاد ، فمثلاً الأندلسيين يفضلون أن يكون زعيمهم منهم وترتفع معنوياتهم وتنشط هممهم ويندفعون كالأسود عندما يكون قائدهم منهم ، ويحدث العكس عندما يكون قائدهم من غيرهم ، ولذلك جعل المنصور قيادة الأندلسيين لزعيمهم العظيم أبي عبد الله بن صناديد.

﴿٩﴾ جودة التخطيط، وظهر ذلك في حشد الألوف من المجاهدين وتوفير العدة والعتاد وتقسيم المواقع وإحكام الخطة في المعركة الفاصلة.

﴿١٠﴾ الاهتمام بتوحيد القيادة في المعارك الفاصلة ولذلك عين أبو يوسف المنصور أبا يحيى بن أبي حفص قائداً أعلى لجيوش الموحدين لما تميز به من حنكة وشجاعة ومهارة في القتال.

﴿١١﴾ إذكاء روح الجهاد في الجنود وكان من عادة الموحدين من زمن أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن قبل الحرب أن يذكروا المجاهدين بأحاديث الجهاد، ولقد أمر السلطان أبو يعقوب العلماء بأن يجمعوا أحاديث الجهاد على الموحدين من أجل دراستها وحفظها وأصبح ذلك الفعل سنة في دولة الموحدين.

﴿ ١٢ ﴾ تواضع القيادة، ويظهر ذلك عندما طلب الأمير أبو يوسف المنصور من رعيته أن يغفروا له وأن يتغافروا فيما بينهم ، فتأثر الناس وبكوا مما سمعوا من زعيمهم.

﴿ ١٣ ﴾ سريان روح الأمل والتفاؤل بالرؤى ، ويظهر ذلك عندما أخبر أبو يوسف المنصور جيشه بما رأى من نزول فارس بهي الطلعة، على فرس أبيض من باب فتح من السماء وبيده راية خضراء وقد انتشرت في الآفاق يقول له: إنه من ملائكة السماء السابعة، وأنه جاء ليبشره بالنصر بحول الله وقوته.

وغير ذلك من الأسباب التي ظهرت من خلال دراسة عصر أبي يوسف يعقوب المنصور.

سادساً: السفارة بين السلطان صلاح الدين الأيوبي وأبي يوسف يعقوب المنصور:

توجت الأعمال العظيمة التي قام بها عماد الدين زنكي ومن بعده نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي بتوحيد الشام مع مصر وتولى القيادة بعد نور الدين صلاح الدين الأيوبي فاستمر صلاح الدين في دفع حركة الجهاد، وأخذ يستولي على مواقع الصليبيين حتى استولى على بيت المقدس سنة ٥٨٣هـ، فتأهب الصليبيون لحرب صلاح الدين وتتابعت أساطيلهم على الإسكندرية. لذلك فكر صلاح الدين في طلب النجدة من يعقوب المنصور الموحدي وأرسل إليه هدية تشتمل على مصحفين ومائة درهم من دهن البلسان،وعشرين رطلاً من العود، وستمائة مثقال من المسك والعنبر،وخمسين قوساً عربية بأوتارها، وعشرين من النصول الهندية وعدة سروج موشاة [(١)] .

وقد بعث صلاح الدين مع هذه الهدية كتاباً رقيقاً [(٢)] جاء فيه:

«الحمد لله الذي استعمل على الملة الحنفية من استعمر الأرض، وأغنى من

---

(١) انظر: تاريخ الإسلام ، د . حسن إبراهيم حسن (٤/٢١٦).

(٢) الاستقصا للسلاوي (٢/١٦٣).

أهلها من سأله الفرض، وأجرى على يده النافلة والفرض وزين سماء الذراري، التي بعضها من بعض» وكان عنوان الكتاب: من صلاح الدين إلى أمير المسلمين، وفي أوله: الفقير إلى الله تعالى يوسف بن أيوب.

ويذكر السلاوي أن يعقوب المنصور لم يعجبه أن يخاطبه صلاح الدين بلقب أمير المسلمين لا أمير المؤمنين، وأن يعقوب أسرها في نفسه، ولكنه أكرم وفادة رسول صلاح الدين دون أن يحقق له غرضاً. وقد قيل: إن يعقوب المنصور جهز مع ذلك مائة وثمانين سفينة ، وحال دون استيلاء الصليبيين على سواحل الشام، وقد دلل ابن خلدون [١] بذلك على تفوق المغرب على ملوك الشرق في إنشاء الأساطيل الجهادية [٢] .

ولا يبعد أن يكون استنجاد صلاح الدين بيعقوب المنصور الموحدي راجعاً إلى حاجة الأسطول المصري إلى بعض قطع من الأسطول الموحدي لدفع خطر الصليبيين الذين كانوا يغيرون على بلاد الشام بحراً، إذ عني المغاربة في عهد الموحدين خاصة ببناء الأساطيل البحرية لاجتياز البحر إلى عدوة الأندلس وليكونوا دائماً على أهبة الاستعداد لحرب نصارى الأندلس الذين كانوا يتطلعون إلى اغتصاب الأندلس من أيدي المسلمين بسبب الحروب المتصلة التي كانت تدور بين المغاربة ونصارى الأندلس. على أن ما ذكره بعض المؤرخين من أن يعقوب المنصور الموحدي لم يقابل كتاب صلاح الدين بالارتياح؛ لأنه لم يلقبه بلقب أمير المؤمنين لا ينهض دليلاً على عدم استجابة يعقوب المنصور الذي كان دائماً على أهبة الاستعداد لحرب النصارى في الأندلس[٣] .

وذكر بعض المؤرخين سبباً آخر منع أبو يوسف المنصور من دعم صلاح الدين وذلك لأن توسع صلاح الدين في غرب مصر، بحروب قام بها بعض أتباعه

---

(١) انظر : العبر (٦ / ٤٩٠) .

(٢) ، (٣) انظر : تاريخ الإسلام (٤ / ٢١٦) .

وخصوصاً قراقوش التقوي الذي حالف بعض أعداء الموحدين كعرب بني هلال، وابن غانية الذي كان يدعو إلى المرابطين، وهذا سبب وجيه [١] .

ويبدو أن ظهور دولة صلاح الدين الأيوبي على أنقاض الدولة العبيدية الرافضية في مصر ساءهم؛ لأن ذلك ترتب عليه ظهور شعار العباسيين من جديد في تلك الديار؛ ولأن الموحدين لم يعترفوا بخلافة العباسيين، وكانوا يرون أن دار الخلافة الشرعية هي مدينة مراكش لا بغداد وكانت طموحات خلفاء الموحدين ظاهرة من أجل توحيد العالم الإسلامي تحت لوائهم ولا سيما في عهد الخليفة يعقوب المنصور الذي ينسب إليه صاحب المعجب تصريحات تدل على رغبته في الرحلة إلى المشرق وتطهيره من عيوبه [٢] .

وقد أثار الذهبي إلى تصريح السلطان أبي يوسف المنصور برغبته من قصد مصر [٣] .

وقد عبر عن هذه الرغبة بوضوح شاعر الموحدين أبو العباس ابن عبد السلام الجراوي في بعض أشعاره كقوله في مدح الخليفة الموحدي يعقوب المنصور:

إن الخلافة نالت من محاسنكم ... أوفى الحظوظ فأبدت منظراً عجبا

أعلى المراتب من بعد النبوة قد ... حبا بها الله أعلى الخلق وانتخبا

سينظم السعد مصراً في ممالكه ... حتى يدوخ منها خيله حلبا

إلى العراق إلى أقصى الحجاز إلى ... أقصى خراسان يتلو جيشه الرعبا

هو الذي كانت الدنيا تؤمله ... وكل عصر له ما زال مرتقبا [٤]

---

(١) انظر : معركة الأرك (ص ٧٠).

(٢) انظر : دراسات في تاريخ المغرب (ص ١١٤).

(٣) انظر : سير أعلام النبلاء (٢١ / ٣١٥).

(٤) انظر : دراسات في تاريخ المغرب ، للعبادي (ص ١١٥).

لاشك أن الموحدين كانوا يخططون لغزو بلاد المشرق الإسلامي، وأن أولى الخطوات المستهدفة هي البلاد المصرية لقد صرح سلطان الموحدين المنصور برغبته في غزو البلاد المصرية وذكر ما فيها من المناكر والبدع، وقال: نحن إن شاء الله مطهروها، ولم يزل هذا عزمه إلى أن مات رحمه الله (١).

إذن فقد كان الموحدون يخططون لغزو المشرق كله. ولا شك أن أمراء الدولة النورية والأيوبيون يعلمون بهذا. ولذلك أرادوا أن يأخذوا زمام المبادرة في أيديهم. فقام الأيوبيون بتكليف بعض كبار شخصياتهم بالتوجه إلى بلاد المغرب وإيجاد مراكز نفوذ لهم بها. وذلك حتى تكون هذه المراكز خط الدفاع الأول والإمارات المشرق في وجه الأطماع الموحدية، وكانت غزوة قراقوش على المغرب هي إحدى هذه الخطوات التي بادر الأيوبيون باتخاذها (٢).

لقد تحركت الحملات الأيوبية نحو المغرب واتخذت الطريق الصحراوي، لقصره أولاً ثم لقلة الأخطار التي يمكن أن يتعرضوا لها ولذلك تركوا الطريق الساحلي الذي كان مليئاً بقبائل بني سليم وبني هلال الذين استطاعوا أن يُخضِعُوا شرق ليبيا لسيادتهم ونعموا فيها برغد العيش ورفاهته، ولذلك عملوا على التمسك بهذه البلاد ومقاتلة كل من يحاول النزول فيها أو الاستيلاء عليها منهم (٣).

وقد رفض المنصور إرسال النجدة لدوافع نفسية، وحزازات سياسية، وموقف داخلي متوتر، خارجي متربص، ولقد أكرم سلطان الموحدين سفير صلاح الدين وبالغ في إكرامه ، ولما مدحه سفير صلاح الدين ابن منقذ في قصيدة عدتها أربعون بيتاً أعطاه بكل بيت ألفاً .

---

(١) ،(٢) ،(٣) انظر : سقوط دولة الموحدين(ص ١٩٨) .

ومن القصيدة :

سأشكر بحراً ذا عباب قطعته إلى بحر جود ما لأخراه ساحل
إلى معدن التقوى إلى كعبة الندى إلى سمت بالذكر منه الأوائل
إليك أمير المؤمنين ولم تزل إلى بابك المأمول ترجى الرواحل
قطعت إليك البر والبحر موقنا بأن نداك الغمر بالنجح كافل
وحزت بقصيدك العلا فبلغتها وأدنى عطياك العدد والفواضل
فلا زلت للعلياء والجود بانياً تبلغك الآمال ما أنت آمل [١]

إن صلاح الدين الأيوبي يعترف بخلافة السلطان الموحدي ولم يخاطبه بلقب أمير المؤمنين في الخطاب الذي أرسله إليه مع رسوله ابن منقذ وهذه مسأله لها أهمية خاصة على أساس أن الاعتراف بالخلافة الموحدية وبشرعية الدولة الموحدية القائمة في العلن على تعاليم ابن تومرت المنحرفة وهذا ما بينه القاضي الفاضل مستشار صلاح الدين الأكبر عندما قال : (... بأن الخطاب يكفي، وطريق جحدنا له ممكن، والكتابة حجة تقيد اللسان عن الإنكار، ومتى قرئت على منبر من منابر المغرب جعلنا خالعين في مكان الإجماع، مبايعين من لا ينصره الله ولا شوكة فيه، ولا يحل اتباعه، مرخصين الغالي، منحطين عن العالي شاقين عصا المسلمين، مغرقين كلمة المؤمنين مطيعين لمن لا تحل طاعته، متقلدين لمن لا تصح ولا يته [٢] .

لو قدر الله أن يلتقي صلاح الدين مع السلطان يعقوب المنصور في غرفة مباحثات مغلقة ، لتوصلا إلى حل إلى أمور الأمة كلها ، نظراً لما تميز به صلاح الدين من مرونة سياسية منقطعة النظير ، ولما وصل إليه السلطان المنصور من حرصه على إصلاح عقائد الموحدين والاقتراب من منهج أهل السُنَّة والجماعة ولكن الله غالب على أمره .

---

(١) انظر : معركة الارك (ص ٧٤) .

(٢) دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي ، عز الدين عمر أحمد موسى (ص ٣٩) ، وانظر دراسات في تاريخ المغرب والأندلس (ص ١١٧) ، للعبادي .

ومهما يكن من شيء فإن هذا الخلاف السياسي والعقدي الذي وقع بين عاهل المشرق والمغرب، لم يحل دون تعاون شعوبهما في السراء والضراء كما هو الحال في كل زمان ومكان فمن المعروف من كتب التراجم المختلفة أن عدداً كبيراً من المغاربة، قد ساهموا في الحروب الصليبية إلى جانب إخوانهم المشارقة، واستشهد منهم عدد كبير دفن في فلسطين [(١)] .

ويشير الرحالة ابن جبير وكان معاصراً لزمن صلاح الدين إلى الضريبة الإضافية التي فرضها الإفرنج في الشام على تجار المغاربة دونًا عن سائر تجار المسلمين «لأن طائفة من أنجاد المغاربة غزت مع السلطان نور الدين محمود زنكي أحد الحصون فكان لهم في أخذه غنى ظهر واشتهر، فجازاهم الإفرنج بهذه الضريبة المكسية ألزموها رءوسهم، فكل مغربي يزن على رأسه الدينار المذكور في اختلافهم على بلادهم... » ثم يشير ابن جبير في مكان آخر من كتابه إلى اهتمام الملوك وأهل اليسار والخواتين من النساء في المشرق العربي بفداء الأسرى من المغاربة: فكل من يخرج من ماله وصية من المسلمين بهذه الجهات الشامية وسواها إنما يعينها في افتكاك المغاربة خاصة لبعدهم عن بلادهم[(٢)] .

سابعاً: وفاة السلطان وبعض أعماله وأخلاقه :

لقد كان عصر أبي يوسف يعقوب المنصور من أفضل عصور دولة الموحدين ولقد اهتم بالبناء والعمارة، فسعى لإكمال مدينة الرباط التي رسم حدودها وبدأ بناءها والده، وبنى بها مسجداً عظيماً متسع الفناء له مئذنة شامخة على هيئة منارة الإسكندرية ، يصعد إليها بغير درج ، وتسمى الآن منارة حسان.

كان عبد المؤمن بن علي قد هدم مدينة فاس في أثناء حروبه مع المرابطين، فأقام حفيده يعقوب المنصور هذا السور. ومما ساعد على إقامة هذه المنشآت هذه

---

(١) انظر : دراسات في تاريخ المغرب والأندلس (ص ١١٨) .

(٢) راجع : رحلة ابن جبير (ص ٢٧٤ ، ٢٨٠) ، نقلاً عن دراسات في تاريخ المغرب والأندلس (ص١١٩) .

الأموال الضخمة التي تدفقت على دولته [١] .

وقد أحاط المؤرخون موت يعقوب المنصور ببعض القصص التي هي أقرب إلى الخيال. فقال بعض : إنه بايع ابنه الناصر بعد عودته من وقعة الأرك، ثم زهد في الدنيا وساح في الأرض حتى وافته منيته. وقال بعض آخر: إنه ذهب للحج وعاد منه زاهداً فمات في الطريق ودفن في الشام [٢] .

ولم يذكر أحد من المؤرخون أنه مات بالمغرب سوى عبد الواحد المراكشي، فقد ذكر أن يعقوب المنصور كان يتوق إلى فتح مصر وأن ذلك لم يزل عزمه حتى مات في مستهل سنة ٥٩٥هـ ودفن بتينملل مع آبائه ويبدو أن ما ذكره المراكشي أقرب هذه الروايات إلى الصواب [٣] .

يروى ابن زرع أن المنصور لما أشرف على الموت قال: ما ندمت على شيء فعلته في خلافتي إلا على ثلاث وددت أني لم أفعلها:

الأولى: إدخال البدو – العربان – من إفريقية إلى المغرب، مع أني أعلم أنهم أهل فساد .

والثانية: بناء (رباط الفتح)، أنفقت فيه المال وهو بعد لا يعمر .

والثالثة: إطلاق إسارى الأرك، ولا بد لهم أن يطلبوا بثأرهم .

وصدقت فراسة يوسف المنصور في الأولى والثالثة ، وكتب لربط الفتح أن يعمر، ولكن بعد قرون من وفاته، حيث غصت هذه المدينة بالأسر المهاجرة من الأندلس [٤] .

لقد توفى هذا السلطان المجاهد الذي أصلح ما استطاع من عقائد الموحدين عام ٥٩٥هـ [٥] فرحمة الله عليه ومغفرته ورضوانه.

---

(١)، (٢) المصدر السابق نفسه .

(٣) انظر : معركة الأرك (ص ٧٦) .

(٤) انظر : سير أعلام النبلاء (٢١ / ٣١٩) .

(٥) انظر : موسوعة المغرب العربي (٣ / ٢٣٦) .

المبحث الرابع

الخليفة الموحدي أبو محمد عبد الله الناصر

توفي الخليفة الموحدي يعقوب المنصور عام ٥٩٥هـ/١١٩٩م وقد أثارت وفاته حزناً عميقاً في الأوساط الإسلامية المغربية ، وذلك لأن كثيراً من الناس كذبوا وفاته وقال البعض: إنه قد تخلى عن الملك وذهب خفية إلى الأندلس حيث يرابط في ثغورنا لجهاد الكفار، وقال البعض الآخر : بل إنه توجه إلى البيت الحرام وجاور في المدينة عند قبر الرسول ﷺ حيث يخفي أمره، وقال فريق ثالث : بل إنه رحل إلى الأراضي المقدسة بفلسطين لجهاد الصلبيين هناك .

وقد كذب المؤرخون هذه الروايات وكما علمنا فإنه قد مات في المغرب ودفن بجوار آبائه في تينملل [١] إلا أنه في الوقت نفسه حركت وفاته أطاع الطامعين من خصوم دولة الموحدين من جديد، وقد خلفه في الإمارة أبو محمد عبد الله الملقب بالناصر وكان عمره يوم ارتقاء عرش سلطنة المغرب والأندلس ثمانية عشر عاماً ، حيث إنه ولد في عام ٥٧٦هـ/ ١١٨٠م.

توالى الحكم عام ٥٩٥هـ/١١٩٩م وقد كان شاباً طموحاً معتزاً بنفسه وبرأيه قليل الذكاء ولا يحترم أصحاب الخبرات الواسعة من رجالات دولة الموحدين،واستبد بالأمور ورفض النصائح من أقرب المقربين من رجاله، وكان والده قد أطلعه على سير الأمور في البلاد وأمره بأن لا يقطع برأي حاسم يهم البلاد دون مشاورة أبي حفص محمد أبي حفص إلا أن أبا محمد الله الناصر استبد بالأمر [٢] .

---

(١) ،(٢) انظر : موسوعة المغرب العربي (٣/ ٢٣٦) .

أولاً: ثورة بني غانية:

شغل محمد الناصر عند استلامه حكم الموحدين بثورة آل غانية التي نشطت من جديد والتي تمكنت من الاستيلاء على تونس والمهدية وبلاد الجريد والدعاء فيها للخليفة العباسي جرياً على عادة أسلافهم المرابطين، واستطاع عبد الله بن غانية أن ينظم فلول المرابطين ويجعلهم شوكة في حلق الموحدين، لقد كانت أسرة بني غانية لها نفوذ من زمن المرابطين، واستعمل السلطان المرابطي على بن يوسف رجلين منهما في الأندلس وهما محمد ويحيى، وكان يحيى وهو الأكبر من أخيه محمد، حسنة من حسنات الدهر، اجتمع له من المناقب ما افترق في كثير من الناس، منها أنه كان رجلاً صالحاً شديد الخوف من الله عز وجل، والتعظيم له والاحترام للصالحين، هذا مع علو قدم في الفقه، واتساع في رواية الحديث، وكان مع هذا شجاعاً فارساً إذا ركب عد وحده بخمسمائة فارس. وكان بن يوسف بن تاشفين الملثمي يعده للعظائم ويستدفع به المهمات، وأصلح الله على يديه كثيراً من جزيرة الأندلس،ودفع به عن المسلمين غير مرة مكاره كانت قد نزلت بهم، منها إنقاذ جزيرة فراغة في شمال شرق الأندلس عام ٥٢٩هـ من ألفونسو ملك أراغون، بعد ما احتل هذا سرقسطة وطليطلة قلعة أيوب.

ولى علي بن يوسف بن تاشفين يحيى بن غانية بلنسيه، ثم عزله عنها ليوليه قرطبة، فلم يزل بها والياً إلى أن مات، وبموته كانت أولى الفتن على المرابطين، فبدأ أخوه محمد بن غانيه يجول الأندلس والفتنة تتزايد، ودعوة الموحدين تنتشر، ولما اشتد خوف محمد بن غانية، وصل دانية وعبر منها إلى جزيرة البليار (منورقة ويابسة مع ميورقة).

ضبط محمد إمارة جزيرة البليار تحت سلطة المرابطين، داعياً للخلافة العباسية، وبعد محمد ملك ابنه إسحاق، فَأَمَّهُ بقايا المرابطين، فأحسن إليهم وأكرمهم حسب طاقته.

وأقبل إسحاق بن محمد على الجهاد في سبيل الله وسجل صفحات عطرة خالدة في جهاده الميمون، وكان في كل عام يغزو مرتين بلاد الروم - غرب إيطاليا وجنوب فرنسا - فيغنم وينكى في الأعداء أشد نكاية، واشتد بذلك عوده وقوي أمره، وتشبه بالسلاطين العظام ولم تزل هذه سيرته إلى أن توفي عام ٥٧٩هـ .

وكان إسحاق هذا له سياسة مرنة مع الموحدين، فلاطفهم وأرسل لهم الهدايا الثمينة وهادنهم وأشغلهم عنه، ولم يلتفت الموحدون إلى جزر البليار باهتمام يذكر، فلما كان سنة ٥٧٨هـ كتبوا إليه إلى الدخول في طاعتهم والدعاء لهم على المنابر ويتوعدونه إن لم يلب مرادهم، فأعطاهم العهود المؤجلة، واستشار وجوه أصحابه، فاختلفوا عليه، فمنهم من أشار بعدم طاعة الموحدين والامتناع عنهم بجزر البليار، ومنهم من رأى أن الدخول أسلم لحماية الأنفس والأعراض وخرج ذلك المجاهد الكبير في غزوة من غزواته، فأكرمه الله بالشهادة، فتولى الأمر من بعده ولده الأكبر عليّ بعهد من والده، والذي دخل في حرب مع الموحدين طويلة المدى، واستطاع الخليفة الموحدي المنصور أن يكسر شوكته وجرد الجيوش لحربه وقادها بنفسه واستطاع أن يخمد ثورة بني غانية في المغرب الأوسط وإفريقية وطرابلس بحد السنان ومزق تحالف بني غانية مع قبائل بني سليم وبني هلال وأمراء الأيوبيين [١] .

ومع وفاة الخليفة الموحدي المنصور عاد بنو غانية الميورقيون إلى شن غاراتهم على إفريقية وتمكنوا من الاستيلاء على تونس والمهدية وبلاد الجريد والدعاء فيها للخليفة العباسي جرياً على عادة أسلافهم المرابطين وكان عبد الله بن غانية قد حاول في عام (٥٩٦هـ/ ١٢٠٠م) أن يسترد جزيرة يابسة من الموحدين ، إلا أنه فشل في تحقيق ذلك الهدف.

---

(١) انظر : العقاب ، شوقي أبو خليل (ص ١٥ ، ١٦).

ورأى الخليفة الموحدي الجديد أبو عبد الله الناصر لدين الله ابن المنصور أن استقرار نفوذ الموحدين في إفريقية لن يستتب إلا إذا استولى على جزر البليار قاعدة بني غانية، ومصدر المتاعب التي يواجهها الموحدين في إفريقية؛ لهذا صمم الناصر على بسط نفوذه في تلك الجزر مصدر القلق المستمر للموحدين وشرع أبو محمد الناصر بتوجيه حملة بحرية كبرى للجزائر الشرقية كان قد أعدها لهذا الغرض في ثغر دانية ، وأسند قيادة الأسطول إلى عمه أبي العلاء إدريس بن يوسف بن عبد المؤمن كما أسند قيادة الجيش إلى شيخ الموحدين أبي سعيد عثمان بن حفص .

كانت الحملة تتكون من ألفين ومائتي فارس وسبعمائة من الرماة وخمسة عشر ألف من الرجال، وغير رجال الأسطول وكان الأسطول في ثلاثمائة جفن (سفينة) (أو أنواع السفن) وأقلعوا يوم السبت ٢٤ ذي حجة (٥٩٩هـ /١٢٠٣م) من جزيرة يابسة قاصدين ميورقة ونزلوا فيها وأحاطوا بها وخرج إليهم عبد الله بن غانية لكنه هزم وقتل وتغلب رجال الأسطول والجيش على المدينة ودخل أبو العلاء إدريس قائد الأسطول والشيخ أبو سعيد عثمان قائد الجيش ثم تحرك الأسطول إلى جزيرة منورقة فدخل البلد عنوة وأرسل حاكمها إلى العاصمة مراكش وبذلك تم للموحدين احتلال الجزر الشرقية أو جزر البليار وتم لهم ذلك سنة (٦٠٠هـ/١٢٠٣م) وأقيم عليها عبد الله ابن طاع الله الكومي والياً عليها وبذلك يكون الموحدين قد قطعوا جذور بني غانية في الجزر الشرقية (جزر البليار وهي ميورقة ومنورقة ويابسة).

وبقي عليهم أن يقطعوا فروعهم في إفريقية والمغرب الأوسط، فتحرك إليهم الناصر بجيشه وأسطوله عام (٦٠١هـ/ ١٢٠٤م) واستولى على تونس والمهدية وفر يحيى بن غانية بأهله وولده إلى صحراء ليبيا وأقام الناصر الشيخ عبد الواحد بن أبي حفص الهنتاتي جد ملوك الحفصيين والياً على إفريقية وأعطاه مطلق

التصرف في إدارتها.

واستطاع الوالي الموحدي الجديد أن يقضي على مقاومة الأعراب وبني غانية وأحلافهم في إفريقية، ونستطيع أن نقول: إن عام ٦٠٤هـ الذي كانت فيه الزاب النهاية الحقيقية لنشاط بني غانية في إفريقية، لقد تعقب أبو محمد الحفصي جيوش يحيى بن غانية حتى أنهكها وشتت جموعها وأحلافها، وفي عام (٦٣١هـ-٦٣٣هـ/١٢٣٤م أو ١٢٣٦م) توفي يحيى بن إسحاق بن غانية في مدينة مليانة على نهر شلف في الجزائر وكانت هذه نهاية ثوار المرابطين الذين قضوا حياتهم في معارك طاحنة مع الموحدين. وقد أضعفت هذه الحركة قوات الموحدين نحو نصف قرن من الزمان [1].

لقد كان الدافع العقدي لثورة بني غانية واضح المعالم؛ لأنهم رأوا في الموحدين دولة منحرفة عن أصول منهج أهل السُّنَّة والجماعة؛ ولأنهم حرصوا على وحدة الأمة تحت لواء الدولة العباسية ولذلك سعى بنو غانية إلى تأسيس دولة سنية على نهج دولة المرابطين التي كسبت سمعة طيبة عطرة بسبب إخلاصها وصدقها للإسلام الصحيح، وهذا يفسر لنا وقوف أهالي المغرب الأوسط وإفريقية لمدة تزيد على أربعة عقود مع ثورة بني غانية.

لقد كان تلك المحاولة الجادة التي قام بها بنو غانية بسبب الضربات الموحدية القوية والمركزة وبسبب ضعف الخلافة العباسية التي لم تستطع أن تمد بني غانية بالعدة والسلاح والرجال في حربهم الطويلة مع دولة الموحدين وبسبب انشغال الأيوبيين بمشاكلهم الداخلية بعد وفاة صلاح الدين وبحروبهم مع الحملات الصليبية الحاقدة.

---

(١) انظر: موسوعة المغرب العربي (٣/٢٣٦ إلى ٢٤٠).

ثانياً: جهاد الناصر لدين الله في الأندلس :

لقد كانت معركة الأرك من المعارك الخالدة في تاريخنا المجيد، ولقد تركت آثاراً عميقة في نفوس النصارى وخصوصاً ألفونس الثامن ملك قشتالة الذي لم يستطع أن ينسى مرارة الهزيمة، فشرع يحصن قلاع بلاده الواقعة على الحدودالإسلامية تحصيناً قوياً عام (١٢٠٩م) ، ثم نقض القشتاليون الهدنة القائمة بينهم وبين الموحدين ، لذا لم يكد الخليفة الناصر لدين الله يخمد ثورات المغرب حتى سمع باستعداد ألفونسو في الأندلس، الذي سعى في توثيق عهوده مع ملكي نافار وأراغون، وحصل منهما على وعد بتأييده وإمداده بالجند عند الخطر لمحاربة المسلمين واعتزم بعد ذلك محو وصمة هزيمة الأرك ، بإحراز نصر على الموحدين [١] .

لقد تغيرت الأوضاع السياسية في الأندلس في ذلك الوقت، واستطاع الإسبان النصارى أن يوحدوا جبهتهم الداخلية، وأن يدعو نصارى أوروبا لحرب صليبية باركها البابا أنوسنت الثالث، فحركت تلك الدعوة الحاقدة جموع النصارى في أوروبا وتوافدوا بجيوش جرارة من ألمانيا وفرنسا وإيطاليا لمناصرة الصليب في الأندلس [٢] .

وشرع النصارى الحاقدون في إحراق الزروع والحقول، ونهب القرى وقتل السكان وسبى منهم جموعاً كبيرة.

وأمام هذه الاعتداءات الهمجية المتكررة على الأندلس، أعلن الناصر لدين الله الجهاد ، فحشد قوات كبيرة وشرع في إرسالها من المغرب ، **وقسمها إلى خمسة جيوش :**

---

(١) **انظر** : معركة العقاب ، شوقي أبو خليل (ص ٢٣) .

(٢) **انظر** : موسوعة المغرب العربي (٣ / ٢٤٠) .

﴿ ١ ﴾ الجيش الأول من قبائل البربر.

﴿ ٢ ﴾ والثاني من الجنود المغاربة.

﴿ ٣ ﴾ والثالث من الجنود الموحدية النظامية.

﴿ ٤ ﴾ والرابع من المتطوعة من جميع أنحاء المملكة.

﴿ ٥ ﴾ والخامس هو جند الأندلس.

وقدر جيش أبي عبد الله محمد الناصر بنصف مليون مجاهد وفي ٢٥ ذي القعدة سنة ٦٠٧هـ أوائل أيار (مايو) سنة ١٢١١م، جاز سلطان الموحدين بنفسه إلى الأندلس، ونزل في جزيرة طريف، ثم سار بعد أيام إلى إشبيلية وهناك كان الخطأ الفادح [١] .

نتيجة لصغر سنه ولقلة خبرته، واستبداده بالرأي حيث أرسل خيرة جنده إلى حصن سلبطرة، فأنهك بذلك قواهم، ولبث الجيش أمام هذا الحصن ثمانية أشهر وهو ممتنع عليه وأصر أبو عبد الله محمد الناصر نزولاً على نصح حاجبه أبي سعيد ابن جامع، وكان الموحدون يشكون في صدق نياته - ولكن أبا عبد الله محمد الناصر وضع فيه كل ثقته، وأصر أبو سعيد بن جامع على ألا يتقدم جيش الموحدين قبل الاستيلاءعلى حصن سلبطرة.

وهكذا استمر الحصار طوال الصيف حتى دخل الشتاء، وعانى المغاربة في الجبال الوعرة المحيطة بالحصن من قسوة الطقس ما لا يطاق كما أودى المرض بحياة الآلاف منهم، وأخذت وسائل التموين لهذا الجيش تصعب وتتعثر يوماً فيوماً.

وحاول ملك قشتالة ألفونسو أن ينقذ الحصن ويرغم الموحدين على رفع الحصار ولكن هذه المحاولة لم تفلح، وفجع ألفونسو بفقده لولده الذي قاد الجيش لإنقاذ الحصن، وسقطت قلعة سلبطرة أخيراً بيد الموحدين، بسبب الجوع الذي

---

(١) انظر : معركة العقاب ، شوقي أبو خليل (ص ٢٣) .

حل بها بعد انتهاء مخزونها من التموين.

لقد فجر سقوط سلبطرة براكين الغضب النصراني في أوروبا ، وتحرك الرهبان والقساوسة والملوك ليثيروا بذلاقتهم حماسة الشعوب النصرانية لكي تساهم في كفاح الصليب المقدس [١] .

وقام البابا أنوسنت الثالث بدور كبير في نفخ روح الحقد في النصارى وطلب من الأساقفة في جنوبي فرنسة (بأن يعظوا رعاياهم بأن يسيروا بأنفسهم وأموالهم لمؤازرة ملك قشتالة وأنه –أي البابا – يمنح كل من لبى الدعوة الغفران التام) [٢] .

وتحركت الأمواج البشرية النصرانية من أوروبا للوقوف مع نصارى الإسبان وكان الأساقفة يرأسون صفوف المحاربين من المدن المختلفة، وقد تولوا الإنفاق على حشودهم [٣] .

ووفدت على إسبانية جموع المحاربين من جميع البلدان الأوروبية ليقاتلوا دفاعاً عن النصرانية متقلدين الصلبان، وكان الفرنسيون أكثر الوافدين عدداً، وقاد أرنولد مطران أريونة جيشاً من لانجدوك وبروفانس وبرجونية وكان يضطرم شوقاً للقاء المسلمين. ووفق أرنولد إلى ما هو أهم من ذلك وهو أن يحمل بذلاقته وضراعته ملك نافار – بعد أن كان غاضباً من ملك قشتالة – أولاً على أن يؤيد قضية إسبانية بالمال والجند، ثم – وهو الأهم – على التعهد بأن يسير في فرسانه، وأن يشترك بنفسه في القتال .

واجتمع في مملكة قشتالة ما لا يحصى من جنود النصارى المتعطشين لسفك دماء المسلمين ، وكان في مقدمة تلك الحشود الضخمة ألمان من البارونات مع حاشياتهم، وبيدور الثاني ملك أراغوان في جيشه الضخم، كما توافدت

---

(١) انظر : العقاب (ص ٢٦) .

(٢) انظر : العقاب (ص ٢٧) .

(٣) انظر : العقاب (ص ٢٩) .

إمدادات ليون وجليقية والبرتغال، وكانت القوات البرتغالية تتكون من عدد من الفرسان والمشاة البارعين، يقودهم أمير برتغالي هو بيورو الثالث، أحد أبناء الملك سانشو الأول.

لقد تجمعت هذه الحشود في طليطلة التي لم تستطع أن تستوعبهم، فاضطرت الألوف الكثيرة أن تقيم في الخيام خارج المدينة، بأنواع من السلاح والملابس واللغات والعادات، لقد اشتركت أوروبة فعلياً بأمر من البابا وقامت فرنسا وإيطاليا بإرسال الأموال اللازمة والسلاح والمؤن كل ذلك مكن ألفونسو من أن يمد جيش الوافدين بالمؤن والرواتب المالية المغرية والهدايا النفيسة إلى القادة والزعماء [١].

وفي روما أمر البابا أنوسنت الثالث بالصوم ثلاثة أيام، والاكتفاء بالخبز والماء التماساً لانتصار الجيش النصراني، وأقيمت الصلوات العامة، وعمد الأكليروس والرهبان والراهبات إلى ارتداء السواد والسير حفاة، وسارت المواكب في الطرقات خاشعة متمهلة من كنيسة إلى أخرى، ومن دير إلى آخر، وألقى البابا أنوسان الثالث موعظة صليبية، طلب فيها إلى النصارى أن يتضرعوا إلى الله التماساً لنصر الإسبان.

وفي (٢٠ حزيران – يونية – ١٢١٢م)، تأهب الجيش النصراني للسير إلى لقاءالمسلمين، ونظمت القوات في ثلاثة جيوش، حتى لا يصاب الجند أثناء السير بنقص في المؤن، وسار في الطليعة جيش القادمين من أوربا وكان تعداده ما بين ستين ومائة ألف محارب تحت قيادة إمرة القائد القشتالي (ديجو لويبزدي هارو) ويقود وحداته المختلفة مطران أربونة، ومطران بوددو (بردال) وأسقف نانت.

---

(١) انظر : العقاب (ص ٣٠ ، ٣١).

وكان الجيش الثالث يقيادة بيدور الثاني، وهو مؤلف من الأراغوانيين والقطلونيين فقط مع فرسان الداوية.

أما الجيش الثالث، وهو أضخم الجيوش الثلاثة، ويتألف من جنود قشتالة،ويقود وحداته كبير أساتذة جمعيات الفرسان، الأمير الليوني سانشو فرنانديز، والأمير البرتغالي بيورو، وردريك مطران طليطلة، وخمسة أساقفة أُخر.

وتقدر الرواية عدد الفرسان في هذا الجيش بثلاثين ألفاً، ولكنها لم تحدثنا عن عدد المشاة لحشدهم الضخم الكبير (١) .

[أ] حصار قلعة رباح :

وفي اليوم الخامس في بدء السير من طليطلة في الرابع والعشرين من حزيران (يونية) ١٢١٢م ، هاجم جنود النصارى حصن (مجلون)، وأبادوا جميع من فيه، بعد ذلك ساروا إلى قلعة رباح، وكانت بها حامية قوية من الموحدين، ولقي النصارى في عبور وادي يانة الذي يقع عليه المدينة صعاباً فادحة، إذ كان المسلمون قد نثروا على جانبي الوادي الصانير والخوازيق الحديدية.

وهاجمت الجيوش الثلاثة قلعة رباح في جوانبها الثلاثة المنيعة، حتى سقطت المدينة في أيديهم، ولكن القلعة كانت مجهزة بالأبراج العالية، والأسوار المنيعة، وكان يخشى أن تقتضي حصاراًطويلاً. وأبدى ملك أراغون والمحاربون الوافدون في اقتحام المدينة شجاعة عظيمة، ولكنهم تكبدوا أفدح الخسائر ، **ويقول يوسف أشياخ :** (٢)

(وقبل أن يعود النصارى إلى مهاجمة القلعة ، عقد مجلس حربي للبحث فيما إذا لم يكن من الأفضل أن يقتصر على تطويق القلعة، دون محاولة

---

(١) **انظر** : العقاب (ص ٣٢) .

(٢) تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين (٢ / ١١٣) .

افتتاحها، وأن يبدأ بالسير توًّا لمهاجمة المسلمين) [١] .

لقد تغلب الرأي القائل بمهاجمة القلعة، إذ كان من المعروف أنها تحوي أموالاً هائلة، وكميات عظيمة من المؤن التي بدأ النصارى يشعرون بنقصها.

لقد ضيق النصارى على مسلمي القلعة واضطر قائدها أبو الحجاج يوسف بن قادس بأن يفاوض النصارى وانسحب بجنوده وترك القلعة ووجد ألفونسو في القلعة رباح كميات عظيمة من المؤن [٢] .

وسار النصارى إلى لقاء المسلمين بعزم أقوى، وأذكى شجاعتهم استيلاؤهم على حصن الأرك، وهو المكان الذي لقي فيه ملك قشتالة قبل ذلك بسبعة عشر عاماً هزيمته الشنعاء، وأذكى شجاعتهم قدوم شانشو ملك نافار، وقد اشتهروا بالبراعة في الحرب والشجاعة في القتال.

وعلى إثر ذلك تحرك الملوك الثلاثة، ألفونسو الثامن ملك قشتالة، وسانشو ملك نافار، وبيدرو الثاني ملك أرغوان نحو مدينة سلبطرة، وهي القلعة التي افتتحها الموحدون في العام السابق بعد حصار طويل.

وعرض الملوك الثلاثة هنا جيشًا لم تخرج إسبانية النصرانية مثله من قبل ، بيد أنهم لم يقفوا بسلبطرة لمناعتها ، واتقاء لحصار لا طائل منه، فاخترقوا ممر « ورادال » في جبال سيارا مورنيا « جبل الشارات » لكي يلقوا المسلمين في ناحيتها الأخرى [٣] .

[ب] مقتل البطل يوسف بن قادس أبو الحجاج :

عندما سقطت قلعة رباح ورجع قائدها الذي بذل ما في وسعه وطاقته من أجل الإسلام والمسلمين غضب السلطان الناصر على أبي الحجاج وبدسٍ من وزيره

---

(١) **انظر** : العقاب (ص ٣١) .

(٢) **انظر** : العقاب (ص ٢٣) .

(٣) **انظر** : العقاب (ص ٣٥) .

أبي سعيد بن جامع أمر السلطان الناصر بقتل هذا المجاهد العظيم جهاراً، فكان لهذا الفعل أثر سيىء في الجيش الإسلامي كله ، ولا سيما في جند الأندلس، ذلك لأنهم كانوا يعلمون أن ابن قادس قد بذل كل المستطاع ، وأن مقتله لم يقع إلا بتحريض الوزير الذميم ، وهذا خطأ آخر وقع فيه السلطان الناصر (١) .

قلت : وهذا الفعل يدل على ضيق أفق السلطان الناصر وعلى ظلمه لقادته، وعلى تأثره بنصائح لا تنفع الأمة ولا تقوي صفها ووحدتها في صفوف الأعداء، ولو كان هذا السلطان لديه فقه في السياسة الشرعية ومعرفة بنفوس جنوده لكان الموقف غير ذلك ونجد في الشريعة الغراء قواعد واضحة المعالم في دفع المفاسد وجلب المصالح ، ومعرفة مقاصد الشريعة.

إن هذا العمل الخاطىء الذي قام به الناصر لدين الله يجر على الأمة الهلاك والدمار والعار.

المعركة :

قام ملوك الإسبان في صباح ١٦ تموز « يولية » بترتيب جندهم لخوض المعركة، فرابط بعضهم على سفح الجبل، والبعض فوق الربى، تزعم ألفونسو ملك قشتالة قلب الجيش مع احتفاظه بنوع من الإشراف على الجيش كله، وكان القلب يضم أربعة فرق :

﴿ ١ ﴾ تتألف الفرقة الأولى من سكان الجبال القشتالية، ويقودها « ديجولويز » .

﴿ ٢ ﴾ وتتألف الفرقة الثانية من فرسان قلعة رباح، وشنب ياقب، والاسبتارية والداوية، وبعض جند الحدود القشتالية، ويقود هذه الفرقة الكونت « جونزالو نونيز دي لارا » .

﴿ ٣ ﴾ والفرقة الثالثة وتتألف من جند وفرسان قشتالة القديمة واشنترويش،

---

(١) انظر : العقاب(ص ٣٦) .

وبسكونية، ويقودها الكونت «ردريك دياز كاميروس».

﴿٤﴾ وتتألف الفرقة الرابعة من الجند الاحتياطي من طليطلة، وبعض قوات ليون، ويقودها ألفونسو نفسه، فهو هنا يقلد تنظيمات المرابطين والموحدين، وكان يرافق القوات الاحتياطية فضلاً عن المطران «ردريك الطليطلي» (١)، عدة أساقفة من قشتالة وليون مع جندهم.

وكان يقود الجناح الأيمن سانشو ملك نافارا، وفيه فرسان فرنسيون بقيادة آرنولد مطران أربونة، وجند جليقية والبرتغال وعلى رأسهم الأمير البرتغالي.

أما الجناح الأيسر، فكان ينقسم أيضاً إلى أربع فرق، ويتألف من قوات أراغون، ما عدا بعض جند المشاة القشتاليين، ويقوده الملك بيدروا، ومن حوله الأحبار والأرغونيون.

أما جيش الموحدين، فقد قسمه أبو عبد الله محمد الناصر إلى خمس فرق، كانت الفرقة الأمامية تتألف من المتطوعة، وهم الذين يتطوعون من تلقاء أنفسهم، وبدافع ذاتي محض للجهاد والموت في سبيل الله، ونشر الإسلام. وتقدرهم الرواية العربية بمائة وستين ألف مقاتل. واصطفت القوات الأندلسية في الميمنة، والقبائل البربرية في الميسرة، وأما القلب والقوات الاحتياطية فكانت تتألف من صفوة الجيش، من الجند المغاربة والنظاميين، أو بعبارة أخرى من جند الموحدين. وضرب أبو عبد الله محمد الناصر قبته الضخمة الحمراء في وسط الصفوف، وربط أمامها جواده المسرج. وقعد في داخلها على درقته (٢)، إيذاناً باقتراب المعركة، ومن حوله حرسه من مشاة وفرسان. وشهر الجند حرابهم في اتجاه معسكر النصارى الإسبان ومن معهم من قوات أوربية صليبية، فكانت سداً

(١) انظر: تاريخ الأندلس في عصر المرابطين والموحدين، لأشباخ (٢/١١٧).
(٢) انظر: تاريخ الأندلس في عصر المرابطين والموحدين، لأشباخ (٢/١١٨).

منيعاً دون اختراقه الموت.

ولما تمت استعدادات المعركة ، خرج سلطان الموحدين من قبته وهو يرتدي عباءة سوداء من مخلفات جده عبد المؤمن، وقد رفع المصحف الشريف بإحدى يديه، وشهر سيفه بالأخرى بينما كان قرع الطبول الضخمة يدوي بشدة في ساحة المعركة (١) وسارع جند المتطوعة المسلمين للقتال وطلب الشهادة في سبيل الله وكان هجومهم عنيفاً قوياً ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يخترقوا صفوف النصارى التي كانت مدعومة بجماعات الفرسان الدينية - الاسبتارية والداوية - فاستطاعوا أن يردوا جموع المسلمين ، وأن يمزقوها.

واستشهد ألوف من المسلمين في سبيل الله والإسلام ، ولكن القشتاليين حينما عمدوا إلى مطاردة المتطوعة المسلمين، وتقدموا بذلك ظافرين من قلب الجيش الإسلامي، حيث حشدت صفوة الجند، لقوا أشد مقاومة، وسرعان ما اضطروا إلى مغادرة مراكزهم الأمامية، وارتدوا فارين، فتابعهم الفرسان المسلمون في ارتدادهم وفرارهم.

ولما رأى ملك قشتالة من الربى تطور المعركة على هذا النحو السيىء، أراد أن يسير بنفسه على رأس الجنود الليونيين والطليطليين، وهم جماعة مختارة كانت تؤلف القوة الاحتياطية، وأن يقتحم الميدان ليحاول محاولة اليأس الأخيرة، وكانت كلماته التي قالها لمطران طليطلة وهي: «إن الساعة قد حانت لتلقي الموت المجيد» (٢) .

تدل على أنه لم يكن يأمل النصر بعد ، ولكن اعتراضات المطران ردت ألفونسو عن أن يخوض بنفسه أعظم الأخطار، وأرسلت في الوقت ذاته قوات من أشجع الجند لإمداد الجيش المرتد، وسار الأحبار أنفسهم على رأس الجند إلى

---

(١) **انظر** : العقاب (ص ٤٢) .

(٢) **انظر** : تاريخ الأندلس في عصر المرابطين والموحدين (٢ / ١١٨) ، نقلاً عن العقاب (ص ٤٥) .

قلب المعمعة ، وهم يرفعون أعلاماً عليها صورة المسيح، يثيرون بذلك أعظم الحماسة الصليبية في نفوس جنودهم . وانتهزت جماعات الفرسان والجند الجبليين فرصة تقدم الإمدادات الجديدة، ليلموا شعثهم، وينظموا جموعهم، ثم عادوا فاستأنفوا زحفهم بمؤازرة القوى الجديدة، وهم يحطمون كل مقاومة في اتجاه قلب الجيش الإسلامي، حيث كان الناصر لدين الله وحرسه، وفي الوقت الذي ضربوا فيه هجومهم على السلاسل الحديدية التي احتشدت من ورائها ألوف مؤلفة من الحراس شاهرين الحراب، كان جناحا الجيش الإسلامي قد حُطِمَا ، ذلك أنه ما إن بدأت الموقعة حتى ركن الأندلسيون الذين كانوا يقاتلون مرغمين مع الموحدين إلى الفرار، وترتب على ذلك أن وقع اضطراب عظيم في الجيش الإسلامي، ولم يصمد في ذلك القتال إلا جند الموحدين النظاميين، والحرس المغاربة ، فقد صمدوا في مقاومة هجمات النصارى ، وصدوهم في كل ناحية بشجاعة فائقة، وبسالة نادرة، ورجولة فريدة، وجلد لا مثيل له، ولكن الدائرة حطمت وأصبح نصر النصارى لا مفر منه ، وحاول الناصر لدين الله أن يلهب مشاعر جنوده ويذكي حماسهم حتى اللحظات الأخيرة مع نفر من جنوده ، واتجه نحو بياسة ولكنه لم يقف بها بل سار منها إلى إشبيلية .

لقد كانت هذه المعركة الخاسرة للمسلمين السبب في هلاك الأندلس وبداية أفول شمس الإسلام في الأندلس، حيث كانت النهاية، أو نهاية البداية مصرع غرناطة .

لقد كانت حشود النصارى في معركة العقاب ضخمة جداً وكانت التعبئة والنفير العام على مستوى أوروبا كلها يدفعهم الحقد الصليبي، للانتقام من المسلمين والقضاء على شوكتهم وإضعاف قوتهم [١] .

---

(١) انظر : العقاب (ص ٤٦ ، ٤٧) .

لقد استشهد في المعركة الألوف من المسلمين ومن العلماء العاملين المجاهدين ومن أشهر هؤلاء العلماء:

﴿١﴾ أبو عمر أحمد بن هارون بن عات النضري (٥٤٢-٦٠٩هـ) ، من أهل شاطبة، صاحب التآليف الذي «كان أحد الحفاظ للحديث، يسرد المتون والأسانيد ظاهراً، لا يخل بحفظ شيء منها . موصوفاً بالدراية والرواية، غالباً عليه الورع والزهد، على منهاج السلف، يأكل الجشب، ويلبس الخشن، وربما أذن في المساجد، وله تآليف دالة على سعة حفظه، مع النظم والنثر .. ثم توجه إثر ذلك غازياً. وشهد وقعة العقاب التي أفضت إلى خراب الأندلس بالدائرة على المسلمين فيها ، وكانت السبب الأقوى في تحيف الروم بلادها حتى استولت عليها ففقد حينئذ ولم يوجد حياً ولا ميتاً ، وذلك يوم الإثنين منتصف صفر سنة تسع وستمائة..»[١] .

﴿٢﴾ القاضي الفقيه أبو إبراهيم إسحاق بن يعمر المجابري. من سكان فاس الذي تولى قضاء سبتة ثم بلنسية «فقد في كائنة العقاب يوم الإثنين الرابع عشر من صفر سنة تسع وستمائة...».

﴿٣﴾ أبو الصبر أيوب بن عبد الله الفهري. من أهل سبتة، الذي «استوسع في الرواية. وكان معروفاً بالزهد، واستشهد في كائنة العقاب»[٢] .

﴿٤﴾ أبو محمد تاشفين بن محمد المكتب، من أهل فاس «كان زاهداً، عابداً معلماً للقرآن له حظ من قرض الشعر، ودخل الأندلس غازياً وقدم قرطبة في ذي الحجة سنة ثمان وستمائة، فأقام هنالك أياماً يلقى الزاهدين.. ثم خرج إلى غزوة العقاب. ذكره ابن الطيلسان وقال: أراه استشهد بها فإنه انقطع عني خبره..»[٣] .

---

(١) التكملة(١/١٠١-١٠٢) رقم(٢٦٢) نقلاً عن التاريخ الأندلسي(ص ٤٩٤) .
(٢) المصدر السابق(١/٢٠٢) رقم(٥٣٦) نقلاً عن التاريخ الأندلسي(ص ٤٩٥) .
(٣) المصدر السابق(١/٢٣٥) رقم(٦٢٣) نقلاً عن التاريخ الأندلسي(ص ٤٩٥) .

﴿ ٥ ﴾أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الحضرمي،من أهل اليُّسَّانة عَمِل في قرطبة «ولي قضاء موضعه مدة طويلة، مضافاً ذلك إلى الصلاة والخطبة بجامعه. وله تأليف في رجال الموطأ ، واستشهد في وقيعة العقاب منتصف سنة ٦٠٩» [١] .

لقد كان ديدن العلماء المسلمين وفقهائهم وقضاتهم تصدر المقدمة عند الأحداث والملمات وفي المخاطر ويتسابقون في بذل دمائهم وأرواحهم من أجل الإسلام والمسلمين.

ثالثاً: أسباب الهزيمة في العقاب:

﴿ ١ ﴾ الإعجاب بالكثرة، وكأن غزوة حنين تتكرر بعد حوالي ستة قرون في هضاب الأندلس. إن الثقة بآلاف الجند، وبمقدرة القادة، أفقد القائد وأفقد الجند اعتمادهم على الله سبحانه، وهذا يفسر لنا عبارة الناصر لدين الله التي قالها قبيل انسحابه ، ألا وهي : «صدق الرحمن ، وكذب الشيطان» [٢] .

﴿ ٢ ﴾ لم يكن التكتيك الحربي على مستواه المطلوب، ولم تكن المجالس الاستشارية ذات قيمة بالنسبة للناصر لدين الله ولذلك رفض نصيحة أصحاب الخبرة برفع الحصار عن سلبطرة ، وأخذ برأي الوزير أبي سعيد بن جامع الذي أصر على ملازمة الحصار واستمر لمدة ثمانية أشهر، وتعرض الجيش الموحدي لأقسى عوامل الطبيعة ونقص التموين والمؤن بسبب الأخذ بالرأي الفردي وترك الرأي الجماعي.

﴿ ٣ ﴾ ضعف شخصية الناصر لدين الله الذي أصبح ألعوبة وخاتماً في يد الوزير أبي سعيد بن جامع.

﴿ ٤ ﴾ سبب مقتل أبي الحجاج يوسف بن قادس أمير قلعة رباح استياء في الجيش كله ، ولا سيما بين جند الأندلس لعلمهم أن ابن قادس قد بذل كل

---

(١)المصدر السابق (٢/٥٨٥ -٥٨٦)رقم (١٥٥٩)نقلاً عن التاريخ الأندلسي (ص ٤٩٥) .

(٢)انظر : العقاب (ص ٥٠) .

المستطاع ، وأن قتله لم يقع إلا بتحريض الوزير الذميم، كل هذا مهد للفرار وانسحب الأندلسيون من المعركة وركنوا إلى ترك القتال بعد معارك قصيرة وكان هذا الانفصال الغير متوقع من أسباب وعوامل الهزيمة النكراء.

﴿ ٥ ﴾ إصرار ملك قشتالة على الانتقام من هزيمة الأرك وأخذ بكافة الأسباب التي تعين على تحقيق النصر الحاسم، فعمل على توحيد الجبهة الداخلية وطلب إمدادات من البابا ومن ملوك أوربا وجعل الحرب مقدسة من أجل العقيدة.

﴿ ٦ ﴾ الثورات التي حدثت في المغرب من قِبل بني غانية جعلت الموحدين ينفقون فيها نفائس أموالهم ويقدمون خيرة رجالهم [١] .

لقد فقد المسلمون ثلث قواتهم في هذه المعركة وقام النصارى بقتل كل الأسرى الذين وقعوا بين أيديهم وباشر ألفونسو احتلال حصون المسلمين والمدن: فرال، تولوزا، بياسة، بلقيس، بانيوس، وأبدة التي أعملوا السيف في رقاب أهلها وحطموا كثيراً من مبانيها، بينما كان الرهبان والقساوسة يرتلون الصلوات فرحاً بنكاية المسلمين، ولولا الأمراض التي فتكت بجيوش النصارى لتابعوا بطشهم بالمسلمين، فاضطروا إلى الرجوع إلى طليطلة حاملين مئات الأسرى من النساء والصبية، ولكن بعد ارتكابهم المجزرة الرهيبة [٢] .

لقد كانت المجزرة الإنسانية في مدينة بياسة . يقول أشياخ في تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين [٣] : «ولم يكن في بياسة سوى المرضى والضعاف، والظاهر أنها كانت بمثابة المستشفى للجيش، وكان هؤلاء التعساء قد احتشدوا في مسجد المدينة الكبير ينتظرون مصيرهم جزعين، فشاءت قسوة النصارى أن يجهزوا عليهم جميعاً بالسيف، ما عدا قلائل منهم أخذوا أسرى؛ بل ذهب

---

(١) **انظر** : العقاب (ص ٥١) .

(٢) **انظر** : العقاب (ص ٥٢) .

(٣) **انظر** : تاريخ الأندلس ، ليوسف أشباخ (٢ / ١٢٣) .

النصارى الذين أعمتهم نشوة الظفر في قسوتهم وبطشهم إلى أسفل درك، حينما هاجموا مدينة أبدة التي اعتصم بأسوارها القوية بعض فلول الجيش المنهزم وسكانها العزل،وكان المسلمون يأملون نظراً لمناعة المدينة الطبيعية والحربية أن يردوا هجمات أعدائهم حتى يحل فصل الشتاء.

ونظم النصارى في الواقع على المدينة هجوماً عاماً خسروا فيه كثيراً من القتلى ولم يسفر عن أي نجاح، لولا أن استطاع الأرغونيون أن يتسلقوا الأسوار في أضعف نقطة فيها، وأن يحتلوها، ولكن القلعة وباقي أطراف المدينة بقيت على ثباتها رغم جهود الإسبان، وعندئد رأى الملوك، أن خير الطرق وأكثرها إنسانية هي أن يقبل النصارى ما عرضه المسلمون، وكان المسلمون حينما سقطت بعض أجزاء السور في يد الأرغونيين قد خشوا العاقبة ، وأرسلوا إلى ملوك النصارى يعرضون عليهم فدية قدرها ألف ألف قطعة من الذهب « مليون دينار » على أن يتركوا المدينة حرة يسكنهاالمسلمون وفقاً لشريعتهم وشعائر دينهم، وهكذا قبل العرض وعقد الملوك مع المدينة إتفاقات بهذا المعنى نظراً لما أنسوه من صعاب في افتتاحها.

ولكن الأحبار الظامئين إلى دماء المسلمين، أعلنوا بطلان هذا الاتفاق، وطلبوا أن تسلم المدينة دون قيد أو شرط،فشاء ضعف الملوك أن ينقضوا العهد المقطوع، منتحلين لذلك عذراً هو أن المسلمين بعد أن فتحوا أبواب المدينة للنصارى، لم يؤدوا الضريبة المضروبة عليهم في الحال، وسرعان ما أطلق النصارى العنان لقسوتهم في معاملة هؤلاء المنكودين، فقتل في أبدة زهاء ستين ألفاً، وسبي مثل هذا العدد، وهدمت الدور بعد أن خلت المدينة من سكانها، وعندئذ أبدى الأحبار رضاهم، ورتلوا أناشيد الشكر ضارعين إلى المولى أن يشملهم برحمته [١] .

---

(١) انظر : العقاب (ص ٥٣) .

أين هذا من سماحة الإسلام ورحمته وإنسانيته ووفائه للعهود واحترامه للأديان؟ .

قال الشاعر:

ملكنا فكان العدل منا سجية ... فلما ملكتم سال بالدم أبطح

وحللتم قتل الأسارى وطالما ... غدونا على الأسرى نمن ونصفح

فحسبكم هذا التفاوت بيننا ... وكل إناء بالذي فيه ينضح [1]

لم تكن موقعة العقاب سبباً في تحطيم قوى السلطان الناصر بالأندلس فقط ولكنها أدت فوق ذلك إلى تدمير سلطان الموحدين في المغرب أيضاً. فقامت دويلات في المغرب وبدأ عصر ظهور ملوك الطوائف الثاني بعد الموحدين وآل الأمر إلى سقوطها بيد النصارى.

جاء في نفخ الطيب: (كانت العقاب سبب ضعف المغرب والأندلس، أما المغرب فبخلاء كثير من قراه وأقطاره، وأما الأندلس فبطلب العدو لها..) [2] .

وبعد هزيمة العقاب غادر الناصر لدين الله ميدان الحرب الذي غص بالقتلى من جنده مسرعاً إلى إشبيلية، وهنالك صب حُمَام غضبه على شيوخ الموحدين المحليين وسحقهم وأذل القادة والزعماء وفصل وعين ثم رجع إلى الأندلس حزيناً كئيباً ولكي ينسى حزنه وكدره قضى بقية أيامه في الملذات والشهوات، ولم يقم بشيء من شئون الحكم سوى أن عين لولاية عهده ولده أبا يعقوب يوسف الملقب بالمستنصر بالله، وكان يومئذ طفلاً في العاشرة من عمره، ولما انتهى من هذا التعيين، ترك شئون الحكم كلها للطفل ووزرائه واعتكف في قصرهْ وحدائقه بمراكش، وأطلق العنان لأهوائه وملاذه وقضى أمداً لا يجاوز العام في هذا اللهو الصاخب ثم دس له خدمه السم وتوفي مسموماً بأمر من وزرائه؛ لأنه كان قد

---

(١) **انظر**: صلاح الدين بطل حطين، لعبد الله بن علوان (ص ٨٤) .

(٢) نفح الطيب (١ / ٤٢٠) .

عزم على قتلهم، فعاجلوه بالقتل. فمات ولما يجاوز الرابعة والثلاثين من عمره في (١١ شعبان ٦١٠هـ/٢٥ كانون الأول «ديسمبر» سنة ١٢١٤م) ، بعد أن حكم خمسة عشر عاماً وبضعة أشهر (١) .

وبعد موت السلطان الناصر بدأ الانحدار في دولة الموحدين والصراع الداخلي والأهداف الخسيسة تظهر بين زعماء الموحدين.

والذي يقلب صفحات تاريخ ذلك الفترة من الدولة الموحدية يدرك مدى الخزي والعار والاستهانة بديار المسلمين من أجل تحقيق مصالح شخصية على حساب الشعوب والعقيدة. وهكذا توضع أمور الدول في يد أشخاص يخونون الله ورسوله وقرآنه وشعوبهم بعد أن ماتت ضمائرهم، فنجد هنا إدريس المأمون بن المنصور يزحف من الأندلس ويقرر العبور إلى المغرب معتمداً على محالفة العرب ومعاونة قوات مسيحية من جنود قشتالة يقدر عددها بخمسمائة فارس مقابل التنازل عن عشرة حصون بالأندلس لمملكة قشتالة وقبوله ببناء كنيسة في مراكش تجاور جامع القرويين، وهكذا دخلت دولة الموحدين في صراع داخلي عنيف كلف الموحدين دماء وأموالاً، وتفككاً داخلياً وسقطت دولة الموحدين بعد فترة طو يلة من الصراع والانحدار والضعف عام ٦٦٨هـ/١٢٦٩م رغم أن الدولة كانت قد انتهت فعلاً عام ١٢١٢م وليس عام ١٢٦٩م إذ أن الدولة استمرت تمارس وجودها طوال سبعة وخمسين عاماً بعد معركة العقاب ولكنها لم تكن دولة بمعنى الكلمة؛ إذ بدأت عوامل الانهيار والانقسام والتفكك تنتاب الدولة، وأخذت تتهاوى مع الأيام حتى كانت أيامها الأخيرة على أيدي بني مرين ومن قبلهم بني عبد الواد في تلمسان وبني حفص في تونس (٢) .

---

(١) انظر : العقاب (ص ٥٧) .

(٢) انظر : موسوعة المغرب العربي (٣/٢٤٨ إلى ٢٥٣) .

رابعاً: أسباب سقوط دولة الموحدين:

﴿ ١ ﴾ ظلمهم الفظيع للمرابطين وسفكهم للدماء واعتدائهم على الأموال وسبيهم للنساء بدون وجه حق، لقد تعامل الموحدون مع المرابطين على نحو ظالم، مستخدمين كل وسائل العنف مع خصومهم؛ ولذلك كفروهم واستحلوا دماؤهم وأموالهم وسبوا نساءهم، فأفنوا أعداداً كبيرة من المغاربة، ولأسباب تبدو أحياناً واهية ، أو ليس لها ما يبررها ، فمضت فيهم سُنَّة الله في الظلم والظالمين، والغالب أن الظالم حسب سُنَّة الله في الظلم والظالمين - يعاقب في الدنيا على ظلمه للغير- ومن العادة أن المظلوم يدعو عادة على ظالمه لينتقم الله منه في الدنيا ليشفي ما في صدره من غيظ على ظالمه وحيث أن دعوة المظلوم مستجابة لقوله ﷺ : لمعاذ ابن جبل رضي الله عنه حين بعثه الله إلى اليمن.. « ... **واتق دعوة المظلوم فإنها ليس بينها وبين الله حجاب** » .

ومن سُنَّته تعالى في الظلم والظالمين أنهم لا يفلحون ولا يفوزون في الدنيا وإن مآلهم إلى الخسران والهلاك كما أن الأمة الظالمة لها أجل محدود (١) .

إن الظلم في الدولة كالمرض في الإنسان يعجل في موته بعد أن يقضي المدة المقدرة له وهو مريض، وبانتهاء هذه المدة يحين أجل موته، فكذلك الظلم في الأمة والدولة يجعل في هلاكها بما يحدثه فيها من آثار مدمرة تؤدي إلى هلاكها واضمحلالها خلال مدة معينة يعلمها الله هي الأجل المقدر لها، أي الذي قدره الله لها بموجب سنته العامة التي وضعها لآجال الأمم بناء على ما يكون فيها من عوامل البقاء كالعدل، أو من عوامل الهلاك كالظلم التي يظهر أثره وهو هلاكها بعد مضى مدة محددة يعلمها الله (٢) .

---

(١) **انظر** : المغرب في تاريخ الأندلس والمغرب ، د . عُبادة كُحيلة (ص ١١٩) .

(٢) **انظر** : السُنن الإلهية ، د . عبد الكريم زيدان (ص١٢١) .

قال تعالى: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ (٣٤) ﴾ [الأعراف : ٣٤].

قال الألوسي ـ رحمه الله ـ في تفسيره لهذه الآية: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ﴾، أي لكل أمة من الأمم الهالكة أجل أي وقت معين مضروب لاستئصالهم (١) . ولكن هلاك الأمم وإن كان شيئاً مؤكداً وقت حلوله مجهول لنا، أي أننا نعلم يقيناً أن الأمة الظالمة تهلك حتماً بسبب سنة الله تعالى في الظلم والظالمين، ولكننا لا نعرف وقت هلاكها بالضبط، فلا يمكن لأحد أن يحدد بالأيام ولا بالسنين، وهو محدد عند الله تعالى (٢) .

إن سنة الله مطردة في هلاك الأمم الظالمة، قال تعالى: ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ (١٠٠) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ (١٠١) وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (١٠٢) ﴾

[هود: ١٠٠-١٠٢] .

إن الآية الكريمة تبين أن عذاب الله ليس مقتصراً على من تقدم من الأمم الظالمة، بل إن سنته تعالى في أخذ كل الظالمين سنة واحدة فلا ينبغي أن يظن أحد أن هذا الهلاك قاصر بأولئك الظلمة السابقين، لأن الله تعالى لما حكى أحوالهم قال: ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ﴾ .

فبين الله تعالى أن كل من شارك أولئك المتقدمين في أفعالهم التي أدت إلى هلاكهم فلا بد أن يشاركهم في ذلك الأخذ الأليم الشديد. فالآية تحذر من وخامة الظلم.

---

(١) **انظر** : تفسير الألوسي (٨/ ١١٢) .

(٢) **انظر** : السُّنن الإلهية في الأمم (ص١٢١) .

إن الدولة الكافرة قد تكون عادلة بمعنى أن حكامها لا يظلمون الناس والناس أنفسهم لا يتظالمون فيما بينهم، فهذه الدولة مع كفرها تبقى، إذ ليس من سنته تعالى إهلاك الدولة بكفرها فقط، ولكن إذا انضم إلى كفرها ظلم حكامها للرعية وتظالم الناس فيما بينهم[١] .

قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ .

[هود:١١٧] .

قال الإمام الرازي - رحمه الله - في تفسيره :

(إن المراد من الظلم في هذه الآية الشرك. والمعنى أن الله تعالى لا يهلك القرى بمجرد كونهم مشركين، إذا كانوا مصلحين في المعاملات فيما بينهم يعامل بعضهم بعضاً على الصلاح، وعدم الفساد)[٢] .

وفي تفسير القرطبي قوله تعالى: ﴿ **بِظُلْمٍ** ﴾ أي بشرك وكفر ﴿ **وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ** ﴾ أي فيما بينهم في تعاطي الحقوق. ومعنى الآية: إن الله تعالى لم يكن ليهلكهم بالكفر وحده حتى ينضاف إليه الفساد كما أهلك قوم شعيب ببخس المكيال والميزان وقوم لوط باللواط [٣] .

قال ابن تيمية في هلاك الدولة الظالمة وإن كانت مسلمة: (وأمور الناس إنما تستقيم مع العدل الذي يكون فيه الاشتراك في بعض أنواع الإثم أكثر مما تستقيم مع الظلم في الحقوق وإن لم تشترك في إثم، ولهذا قيل إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا يقيم الدولة الظالمة وإن كانت مسلمة. ويقال: الدنيا تدوم مع العدل والكفر، ولا تدوم مع الظلم والإسلام. وذلك أن العدل نظام كل شيء فإذا أقيم أمر الدنيا بالعدل قامت وإن لم يكن لصاحبها من خلاق – أي في

---

(١) **انظر** : السُنن الإلهية في الأمم والأفراد (ص ١٢٢) .

(٢) تفسير الرازي (١٨ / ٧٦) .

(٣) تفسير القرطبي (٩ / ١١٤) .

الآخرة - وإن لم تقم بالعدل لم تقم ، وإن كان لصاحبها من الإيمان ما يجزي به في الآخرة) [١] .

إن دولة الموحدين قامت على أساس دموي في إرساء دعائمها ولذلك أسرف ابن تومرت في سفك الدماء وهتك الأعراض ومصادرة الأموال وسار خليفته عبد المؤمن على منواله وكذلك كثير من زعماء الموحدين، فجرت فيهم سنة الله التي لا تتبدل ولا تتغير ولا تجامل، فانتقم من الظالمين وجعل بأسهم فيما بينهم حتى أفضى أمر الدولة إلى الزوال.

[٢]من أسباب سقوط دولة الموحدين، ثورة بني غانية وهم من بقايا المرابطين:

حيث قامت هذه الثورة على أسس فكرية وعقدية ناهضت الأصول العقدية والأسس الفكرية التي قامت عليها دولة الموحدين والتزمت بأصول منهج أهل السُنَّة والجماعة وأعلنت انتماءها وولاءها للخلافة العباسية السنية، ورفعت شعاراتها وحاربت بكل ما تملك نفوذ الموحدين وظلمهم الوخيم ، واستمرت لمدة خمسة عقود متتالية ، كانت تلك الحروب الطاحنة من الأسباب المباشرة في ضعف دولة الموحدين ومن ثم سقوطها.

[٣] ثورات الأعراب المتتالية :

حيث إن قبائل بني سليم وبني هلال التي سكنت إفريقية والمغرب الأوسط وبعد ذلك المغرب الأقصى لا تنظر إلا لمصالحها، فأحياناً تتحالف مع بني غانية ومع قراقوش التقوى ضد الموحدين، وأحياناً تخضع لدولة الموحدين ثم دخلت في الصراع الداخلي بين أعداء الموحدين، فكانت من الأسباب التي فجرت الثورات الداخلية والتي ساهمت في الإفساد ودمار دولة الموحدين ، لقد قَدِمَ

---

(١) **انظر** : رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لشيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - تحقيق صلاح المنجد (ص٤٠) .

الأعراب البدو إلى المغرب الأقصى أيام المنصور الموحدي عام ٥٨٤هـ ومنذ وفاة المستنصر سنة ٦٢٠ هـ أصبحوا يتدخلون في شئون الدولة ويرهقونها بطلباتهم ويعملون بدورهم على عزل وتولية بعض ملوك الموحدين ، ومن هؤلاء الأعراب بنو معقل، وبنو جابر «ولهؤلاء دور هام في تعريب قسم من سكان المغرب على سواحل الأطلسي، بمصاهرتهم للبربر، وبالاحتكاك بهم» [١] .

[٤] ثورات الأندلس ضد دولة الموحدين :

ومن أشهر هذه الثورات، ثورة محمد ابن مردنيش الذي لم يتم القضاء عليها إلا بعد قرن من تحافله مع النصارى ولم يبال ابن مردنيش أن يتحالف مع النصارى من أجل القضاء على نفوذ الموحدين في الأندلس، ولقد كلفت هذه الثورة الموحدين الأموال الكثيرة وقتل في تلك المعارك خيرة رجالهم، وثورة ابن هود، وعامل بلنسيةالذي التجأ إلى ملك ليون.

وتقاعس الأندلسيون عن نصرة الموحدين لأول فرصة واتتهم، عندما أهانهم الوزير ابن جامع خلال معركة العقاب [٢] .

[٥] النزاع على الخلافة بين الموحدين ولم يستطيعوا أن يضعوا نظاماً ثابتاً لتولي الخلافة عندهم :

كان لهذا النزاع آثار وخيمة على الدولة ومصيرها، فمنذ وفاة المستنصر أصبح من المعتاد أن يكون على رأس الدولة أكثر من خليفة، فاضطر كل منهم أن يستنجد بعناصر من قبائل الموحدين والعرب المهاجرين وأصحاب المصالح من حكام الولايات المستبدين، بل وبأعدائهم من النصارى فوجدت مراكز القوى في النزاع فرصة سانحة لبسط نفوذها وتولية من تشاء وعزل من تريد، فسقطت هيبة الخلافة ، مما ساعد اضمحلالها وزوالها.

---

(١) **انظر** : العقاب (ص ٦٨) .

(٢) **انظر** : دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي عز الدين عمر أحمد موسي (ص ٨٣) .

ونستطيع أن نحدد آثار طريقة اختيار الخليفة وما أعقبها من نزاع على السلطة على كيان الدولة في ثلاثةمظاهر: تعدد الخلفاء في وقت واحد، والاستعانة بالنصارى، وتولية حكام ضعاف (١) .

﴿ أ ﴾ ولما تولى الخلافة عبد الواحد بعد وفاة يوسف المستنصر خالف عليه بعد شهرين ابن أخيه العادل بن المنصور بمرسية، وحسم الأمر بخلع عبد الواحد ثم قتله والإجماع على خلافة العادل، وبعد قليل خرج على العادل واليه على قرطبة في ٦٢٣هـ/١٢٢٦م السيد أبو محمد عبد الله العباسي وبمقتل العادل بايع الموحدون المأمون بن المنصور، فلما خشي الأشياخ قوة شخصيته بايعوا يحيي بن الناصر، وظل كل منهما مدعياً للأمر، عاملاً على إحراز النصر على منافسه طوال خلافة المأمون وما يقرب من الأربعة أعوام من خلافة الرشيد (شوال ٦٢٤- ٦٣٣هـ/ ١٢٢٧-١٢٢٦م) ، وفي عام (٦٢٩هـ/ ١٢٣١م) ظهر إلى جانبهم خليفة ثالث لما ادعى بالأمر السيد أبو موسى بن المنصور بسبتة وتسمى بالمؤيد، فلما حصره المأمون فر إلى ابن هود في الأندلس. ولا ريب في أن هذا النزاع أفقد الخلافة هيبتها، فأهملت الإدارة، وانتشرت الفتن، وقلت المجابي، واستبد الولاة بولاياتهم عندما اندلعت نار الحروب الضارية بين بني عبد المؤمن (٢) .

﴿ ب ﴾ دخل زعماء الموحدين من البيت الحاكم في محالفات مع النصارى من أجل تحقيق كل فريق النصر على خصومه، فأبو محمد عبد الله البياسي يستعين بالنصارى، والمأمون لما نكث أهل مراكش بيعته وهو بالأندلس استنصر ملك قشتالة الذي اشترط عليه عشرة حصون يختارها وأن يبني كنيسة للروم بمراكش مقابل عدد من الفرسان الروم ، فهكذا دفع الصراع أمراء الموحدين إلى التنازل عن أراضي الدولة في سبيل تحقيق مصالحهم الخاصة.

---

(١) انظر : دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي(ص ٦٣) .
(٢) انظر : دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي(ص ٨٤) .

﴿ جـ ﴾ إن النزاع بين أمراء البيت الحاكم في دولة الموحدين جعل المتنفذين من أشياخ الموحدين أو الإداريين أو القواد العسكريين يتدخلون في اختيار الحكام منذ وفاة المستنصر، ولما كانت الخلافة قد استقرت في بني عبد المؤمن فقد عمدوا لتولية حكام ضعفاء صغار السن أو مقعدي الشيوخة أو باحثين عن ملذاتهم(١).

إن ضعف الخلفاء يسر الطريق لمجموعات متعددة للسيطرة والتسلط على مقدرات الدولة والتحكم في سياستها وتوجيهها. وكان لأشياخ الموحدين أثر بالغ في ذلك من دون سائر المجموعات الأخرى إدارية أم قبلية أم عسكرية (٢).

ومنذ وفاة الناصر استبد هؤلاء الأشياخ بالأمور، فرفعوا للخلافة من شاءوا وخلعوا من كرهوا، وقتلوا من أرادوا، وصار أمرهم كالأتراك مع بني العباس (٣).

إن أشياخ الموحدين الذين احتلوا المراكز الأساسية في الدولة أصبحت لهم مكاسب لن يتخلوا عنها، فكانوا دائماً يبسطون نفوذهم ويمسكون بزمام الحكم في أيديهم ولهذا استبدوا ، ولما كانت مصالحهم متضاربة فقد أغرقوا الدولة في فتن وثورات لم تهدأ (٤).

إن هذا الخلاف الشديد والنزاع الذي استحكم بين أبناء عبد المؤمن، وظهور الخلفاء الضعفاء وتحكم أشياخ الموحدين على العاصمة، ونشوب الفتن فيها، جعل ولاة الأقاليم يستبدون بولاياتهم، وانفصل بعضهم نهائياً عن مراكش. لقد رافق الضعف السياسي المتمثل في الخلفاء وأشياخ الموحدين والولاة ضعف إداري ظهر في تحكم الولاة والوزراء.

لقد كانت الإدارة الموحدية في عصر ازدهار الدولة تمتاز بدقة الجهاز الإداري

---

(١) **انظر** : دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي (ص ٨٥) .
(٢) **انظر** : دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي (ص ٨٦) .
(٣) **انظر** : دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي (ص ٨٧) .
(٤) **انظر** : دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي (ص ٨٩) .

وحسن ضبطه، ومتابعة الخلفاء وإشرافهم بأنفسهم وكان عمل الوزراء والولاة هو التنفيذ والتبليغ ومن ظهرت منه بوادر الاستبداد والتهاون نكب بلا رحمة [١] .

[٦] الانهيار العسكري الذي أصاب دولة الموحدين، وتغير أهداف الجيش الموحدي:

لاشك أن النزاع السياسي وضعف الهيكل الإداري للدولة تركا أثراً بالغاً في التنظيم العسكري للدولة، ولقد كانت قوات الموحدين العسكرية على مستوى رفيع من التعبئة المعنوية والاستعداد المادي، ولذلك حققوا انتصارات هائلة على خصومهم وحفظوا دولتهم من الطامعين في إسقاطها إلا أن جيش الموحدين في زمن السلطان الناصر فقد قدرته على الضبط والربط وعلى وضع الخطط الحربية وضعاً صحيحاً وتنفيذاً أكيداً.

وظهر ذلك العجز القيادي والقدرة القتالية في معركة العقاب التي انهزم فيهاالموحدين وتأثرت معنوياتهم القتالية ولم يستطيعوا بعد تلك الكسرة العنيفة في موقعة العقاب أن يغدوا جيشاً قادراً على تحقيق انتصارات بل تابع جيش الموحدون مسيرته الهابطة ، فتكرس انحلاله وتفككه في الهزائم المتكررة أمام النصارى في الأندلس وأمام بني مرين في المغرب الأقصى.

لقد ساهم في ضعف انحلال الجيش، ضعف مبادىء الموحدين في نفوس الجند الذين أصبح همهم الأوحد الغنائم وجمعها لا القتال في سبيل المعتقد والمبدأ والفكرة.

ولقد تبدل هدف القادة في استعمال الجيش، فبدلاً من ردع الثوار المحاربين وجهاد الأعداء الكافرين عَمَدوا إلى اتخاذ الجيش أداة سياسية للاستعلاء وفرض النفوذ لحساب أشخاصهم أو لحساب غيرهم ولذلك فتحت أبواب الانضمام للجيش من المرتزقة من عرب وعجم.

---

(١) انظر : دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي (ص ٩١ ، ٩٢) .

لقد كان لإدخال العربان في الجيش الموحدي أثره الخطير على أهدافه ونظامه إذ لا هم لهم سوى السلب والنهب واكتساب المال ، ولا يعرفون نظاماً ولا يتقيدون بأوامر وبعد النزاع بين السادة والتسلط من مراكز القوة ، وجد هؤلاء العربان سوقاً رائجة وتجارة رابحة، ففي كل فتنة تنشب وكل حرب تندلع لهم دور بارز يشايعون هذا أو ذاك متوخين مصلحتهم المادية، ولا يتورعون عن بيع قائدهم مقابل جعل من المال فينهزمون ساعة الصدام الحاسمة (١) .

[٧] الترف والانغماس في الشهوات :

الترف والانغماس في الشهوات الذي وقع فيه خلفاء الموحدين المتأخرون وانهماكهم في ملذاتهم غير مهتمين بشئون الدولة والحكم، فقد فقدت الدولة سهر الحكام الأُول وتدقيقهم في أمور الحكم، وإشرافهم على كل أمر جل أم صغر، فالناصر منذ هزيمة العقاب احتجب وانهمك في الملذات حتى وافاه حينه، و يوسف المستنصر لم يخرج من حضرته طوال أيام خلافته، وكان مولعاً بانتجاع البقر والخيل في رياضة وتوفي من طعنة بقرة شرود، والمرتضى كان ميالاً للدعة والمسالمة، ومولعاً بالسماع ليلاً ونهاراً (٢) وكذلك المقربون منهم.

وهكذا أصبح هؤلاء المترفون لا يهتمون إلا بملاذ الدنيا وشهواتها وجمع المال ، ولا يهمهم ما يكون في الناس من منكرات فهي لا تقلقهم ولا ينهون عنها لأن انشغالهم واهتمامهم بما يجلب الملذات فقط ، ولو كان ذلك على حساب الآخرة ونعيمها . قال تعالى : ﴿ **فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ (١١٦)** ﴾[سورة هود : ١١٦]. وقوله تعالى : ﴿ **وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا**

---

(١)**انظر** : دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي (ص ٦٥ ، ٩٦) .

(٢)**انظر** : دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي (ص ٨٦).

أُتْرِفُوا فِيهِ﴾ أراد بالذين ظلموا: تاركي النهي عن المنكرات، أي لم يهتموا بما هو ركن عظيم من أركان الدين وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإنما اهتموا بالتنعم والترف والانغماس في الشهوات والتطلع إلى الزعامة والحفاظ عليها، والسعي لها وطلب أسباب العيش الهنيء [١] .

وقد مضت سُنَّة الله في المترفين الذين أبطرتهم النعمة وابتعدوا عن شرع الله تعالى بالهلاك والعذاب.

قال تعالى: ﴿ **وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ (١١) فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ (١٢) لا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ (١٣)** ﴾ [الأنبياء:١١-١٣].

ومن سنة الله تعالى جعل هلاك الأمة بفسق مترفيها، قال تعالى: ﴿ **وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا (١٦)** ﴾ .

[الإسراء:١٦].

وجاء في تفسيرها : وإذا دنا وقت هلاكها أمرنا بالطاعة مترفيها أي متنعميها وجباريها وملوكها ففسقوا فيها فحق عليها القول فأهلكناها. وإنما خص الله تعالى المترفين بالذكر مع توجه الأمر بالطاعة إلى الجميع؛ لأنهم أئمة الفسق ورؤساء الضلال، وما وقع من سواهم إنما وقع باتباعهم وإغوائهم، فكان توجه الأمر إليهم آكد [٢] ، وهذا أحد وجوه تفسير الآية .

[٨] تقلص أراضي الدولة في إفريقية والمغرب والأندلس:

فنتيجة لضعف السلطة المركزية، وتناحر عناصرها، اغتنمت المراكز البعيدة الفرصة وانفصلت، فخرجت الأندلس عن طاعة الموحدين وتبعتها إفريقية ،

---

(١) **انظر** : السُنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد(ص ١٨٦) .

(٢) **انظر** : تفسير الآلوسي(١٥/ ٤٢) .

وتقلص نفوذ الموحدين بالمغرب الأقصى نفسه حتى سقطت عاصمتهم في يد المرينيين.

ففي فترة الانحلال ازداد ضغط الممالك المسيحية على الأراضي الأندلسية: أرغون من الشرق وقشتالة من الشمال والبرتغال من الغرب، وظهر في شرق الأندلس أبو عبد الله محمد بن هود في رجب (٦٢٥هـ/١٢٢٨م) في مرسية وحكم تحت شعار العباسيين وسيطر ابن هود على معظم الأندلس وخلع أهل الأندلس طاعة الموحدين (وقتلوهم في كل بلد منها وأجلوهم واستأصلوهم إلا من ستره الله منهم وأخفاه في ذلك الوقت عنهم) [١].

ودخلت الأندلس في دور طوائف ثالث فقام في سنة (٦٢٦هـ/١٢٢٩م) زيان بن مردنيش وفي سنة (٦٣٠هـ/١٢٣٣م) ثار محمد بن يوسف بن الأحمر بأرجونة ونازع ابن هود على زعامة الأندلس فما جاء عام (٦٣٦هـ/١٢٣٩م) إلا وقد سيطر على غرب الأندلس [٢].

زالت هيبة الموحدين من نفوس الأندلسيين وتحولوا شطر تونس حيث القوة الموحدية الجديدة بقيادة الحفصيين واضطرت الأندلس لمجابهة النصارى منفردة، فابتلعوها ما عدا دولة بني نصر في غرناطة، وسقطت حواضر الأندلس واحدة تلو الأخرى فسقطت قرطبة عام (٦٣٣هـ/١٢٣٦م)، وبلنسية في عام (٦٣٦هـ/١٢٣٩م)، ومرسية (٦٤٤هـ/١٢٤٦م) وإشبيلية (١٢٤٦م) وكان هذا السقوط المريع في مدة قصيرة جداً.

وانفصلت إفريقية سنة (٦٢٧هـ/١٢٣٠م)، وقد ساعد على قيام دولة الحفصيين بها بعدها عن العاصمة، ثم إن الصراع والثورات والفتن جعلت أهل المدن يتشوقون للاستقرار والأمن فوجدوه مع الحفصيين، وبخاصة أن لهم سابقة

---

(١) انظر: البيان المغرب (٣/٢٦٩) نقلاً عن دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي (ص ١٠٨).

(٢) انظر: دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي (ص ١٠٨).

وفضلاً في الدعوة وبناء الدولة الموحدية بالمغرب ، وواتتهم الفرصة لما تنكر المأمون للدعوة المهدية وأزال رسومها ، فجاء أبو زكريا بن أبي محمد عبد الواحد الحفصي إلى تونس وسيطر عليها، واستقل بها، واتبع نظم الموحدين وكتب للجهات بطلب البيعة [١] .

وفي الوقت نفسه انفصلت الأندلس، وإفريقية وبدأت أحوال الخلفاء في المغرب تضطرب والولايات تستقل [٢] ، فسيطرت قبائل بني مرين على وادي المغرب، وانفصل بني عبد الواد في تلمسان، واستقل الحفصيون في تونس وطرابلس فهذه الانقسامات ساهمت في إضعاف الدولة الموحدية.

[٩] فتور مبادىء ابن تومرت في نفوس الموحدين بل هناك من زعماء الموحدين من أعلن البراءة منها:

كانت فكرة الموحدين قائمة على العقائد ومرتكزة على المهدية الهادفة للتجديد وهي سر حيوية التنظيم الدقيق في أجهزة حزب الموحدين والذي توصلوا من خلاله إلى الدولة، فأنتج هذا الإيمان طاعة عمياء يسرت تنظيم الحزب فالجيش ثم الإدارة، يصف لنا المراكشي نوعية تلك الطاعة فيقول: « ولم تزل طاعة المصامدة لابن تومرت تكثر وفتنتهم به تشتد ، وتعظيمهم له يتأكد إلى أن بلغوا في ذلك حداً عظيماً ، لو أمر أحدهم بقتل أبيه أو أخيه ، لبادر إلى ذلك من غير إبطاء » [٣] . ولم يكن لهم من هدف في بداية أمرهم سوى تحقيق فكرتهم في واقع الحياة ونشرها في العالمين.

ولما نجح عبد المؤمن في الانتقال بالدعوة من الثورة إلى نظام الدولة رافق ذلك تبدل مفهومه الأساسي، فنقل الدولة من دولة الفكر إلى دولة الوراثة، فكان هناك

---

(١) انظر : دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي(ص ١٠٩) .
(٢) انظر : دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي(ص ١١١) .
(٣) المعجب ،(ص ١٩١) .

انحراف في المبادىء التي قامت عليها فكرة الموحدين؛ لأن دولة الفكرة والمبادىء تقدم على مؤسساتها من يؤمن بالفكرة والمنهج والمبادىء التي عليها ويلتزمها وتبعد من يحيد عنها.

ولكن دولة الوراثة لا تنظر إلا في تقديم من يثبت أقدامها، ولهذا استقدم عبد المؤمن قبيلة كومية متقوياً بها وولاهم المناصب في الدولة ، وأصبحوا متقدمين على كثير من الموحدين، ولم تكن كومية مؤمنة بأفكار الدولة الأساسية بل خاضعة لسيادة الدولة، ولهذا فإن كثيراً ممن قدم منهم كان يسعى لمصلحة نفسه غير مهتم بأفكار لم يؤمن بها ومع تقادم الزمن ضعفت الفكرة في النفوس وذبل الإيمان في القلوب فدب النزاع على المصالح الخاصة كما يصور ذلك خير تصوير النزاع على العرش واستبداد مراكز القوة المختلفة في الدولة.

ويبدو أن الخلفاء أنفسهم فقدوا الإيمان بالفكرة ، فالمنصور يصرح بذلك لخاصته والمأمون يمحو آثارها ويزيل رسومها، ويبدو أن هذا التحول قد بدأ في أيام عبد المؤمن، ومع مرور الأيام حدث انفصام بين الفكرة والدولة، فتجسد عملياً في خلافة المستنصر، وقام على مرتكز نظري في عهد المأمون ولا ريب أن الفكر إن لم يداوم أصحابه عليه يتحجر ويغدو آفة عليهم [١] .

كما لا يخفى انحراف الفكر التومرتي الذي فرض على الناس بالسيف والقوة ، مع كونه يتنافى مع الإسلام الصافي والعقيدة الصحيحة والتصور السليم، فجعلت الناس تنسل من المنظومة الموحدية والعقدية وتحاول أن تبحث لها عن المنهج الصحيح الذي ينسجم مع الفطرة والفهم السليم للإسلام.

هذه بعض الأسباب التي ساهمت في إسقاط دولة الموحدين.

---

(١) انظر : دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي (ص ١١٧) .

خامساً: خلفاء الموحدين:

[١] عبد المؤمن بن علي ٥٢٤-٥٥٨هـ/ ١١٢٠-١١٦٣م .

[٢] أبو يعقوب يوسف ٥٥٨-٥٨٠هـ/ ١١٣٦-١١٨٤م .

[٣] أبو يوسف يعقوب المنصور ٥٨٠-٥٩٥هـ/ ١١٨٤-١١٩٩م .

[٤] أبو محمد عبد الله الناصر ٥٩٥-٦١٠هـ/ ١١٩٩-١٢١٣م .

[٥] أبو يعقوب يوسف المستنصر ٦١١-٦٢٠هـ/ ١٢٠٣-١٢٢٤م .

[٦] عبد الواحد بن يوسف بن عبد المؤمن ٦٢٠-٦٢١هـ/ ١٢٢٤م .

[٧] أبو عبد الله بن يعقوب المنصور (العادل)٦٢١-٦٢٧هـ/ ١٢٢٤-١٢٢٧م.

[٨] يحيي بن الناصر ٦٢٤-٦٢٤هـ/ ١٢٢٧-١٢٣٠م .

[٩] المأمون بن المنصور ٦٢٧-٦٣٠هـ/ ١٢٣١-١٢٣٢م .

[١٠] الرشيد بن المأمون بن المنصور ٦٣٠-٦٤٠هـ/ ١٢٣٢-١٢٤٢م :

[١١] السعيد علي أبو الحسن ٦٤٠-٦٤٦هـ/ ١٢٤٢-١٢٤٨م .

[١٢]أبو حفص عمر المرتضى ٦٤٦-٦٦٥هـ/ ١٢٤٨-١٢٦٦م .

[١٣] أبو دبوس الواثق بالله ٦٦٥-٦٦٨هـ/ ١٢٦٦-١٢٧٠م .

الفصل الثالث

الأندلس والشمال الإفريقي بعد سقوط دولة الموحدين

بعد سقوط دولة الموحدين في عام ٦٦٨هـ/١٢٦٩م مرت بلاد الأندلس بمرحلة طويلة امتدت قرنين ونصف ثم بعد ذلك سقط آخر معاقلها في يد النصارى الإسبان في عام ٨٩٧هـ ويظهر جهاد بني الأحمر وزعامتهم القوية لغرناطة بعد سقوط الموحدين، وهذه المرحلة من تاريخ الأندلس الإسلامي غنية بالعبر والعظات لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، وتظهر سنن الله في سقوط الدول واضحة المعالم وكذلك الآثار المترتبة عن الابتعاد عن منهج الله تعالى.

أما الشمال الإفريقي بعد سقوط الموحدين، فانقسم إلى دول، لا تجاوز الواحدة منها في أحيان إطار المدينة، ولا تجاوز في أحيان إطار القبيلة واتسمت تلك الفترة التاريخية بالتداخل والتعقيد والغموض، واشتدت النزاعات الداخلية وتتابعت الهجمات الخارجية، وظهرت فتن تجعل الحليم حيران من كثرتها وتشابهها ، ومرت المنطقة بعملية مخاض طويلة؛ لأن دولة الموحدين نفسها مرت بمرحلة سقوط طويلة،وخرج من ذلك المخاض الطويل، دول من أهمها: دولة بني حفص في إفريقية، دولة بني زيان في المغرب الأوسط، دولة بني مرين (ثم بني وطاس في المغرب الأقصى).

وسنحاول بإذن الله تعالى في الصفحات القادمة أن نتحدث عن تلك الدويلات التي قامت في الأندلس والشمال الإفريقي، مستخلصين العبر والعظات والدروس المستفادة من دراسات تلك الدويلات ، التي أصبحت كأن لم تغن بالأمس.

المبحث الأول

مملكة غرناطة

سقطت دولة الموحدين على يد المرينيين في المغرب الأقصى، وملك محمد بن يوسف هود قواعد شرقي الأندلس، وظهر محمد بن يوسف الأنصاري في الجنوب، وغلب بعض الأمراء على إشبيلية، ونشب صراع على السلطة والملك بين أمراء الأندلس ودخلوا في قتال لنزع الحصون والقلاع من بعضهم البعض.

وكانت مملكة قشتالة النصرانية الإسبانية تتابع ما يدور في أراضي المسلمين بواسطة أجهزة استخباراتها التي استطاعت أن تجند رجالاً يعملون لحسابها،فرأت أن الفرصة حانت لتوجيه ضربة مميتة للمسلمين في الأندلس، فبدأت هجومها بالفعل، وكان احتلال قرطبة في (٢٣ شوال ٦٣٣هـ/ ٢٩ حزيران - يونية - ١٢٣٦م) ، صيحة النذير المدوية، لقد كان سبب سقوط قرطبة المعاصي والآثام والابتعاد عن منهج الله العظيم، وبالتالي أصابهم الضعف ودخلوا في الفوضى والنزاع والخلاف، فقادهم ذلك إلى فقد الأوطان والأرض ومن ثم ضاعت الحضارة والتراث والإسلام وبدأت مدن الإسلام الكبرى تتساقط في يد النصارى، فسقطت بلنسية عام (٦٣٦هـ /١٢٣٨م) ثم شاطبة ودانية وفي عام (٦٤٦هـ) سقطت إشبيلية بعد حصار شديد ودفاع من المسلمين مجيد ، ودام الحصار ثمانية عشر شهراً، أبدى فيها المسلمون آيات من البسالة والجلد والدفاع عن إشبيلية، وأخيراً جاء مصير أسود محتوم واستسلمت المدينة لفرديناند الثالث، على أن يخير المسلمون بين البقاء في إشبيلية، أو يهاجروا وفي الحال حول مسجدها الجامع إلى كنيسة ، وأزيلت منها معالم الإسلام وتوزع أهلوها في الحواضر الإسلامية الباقية.

لقد كان سقوط إشبيلية إيذاناً بسقوط سائر المدن والحصون الإسلامية فيما بينها وبين مصب الوادي الكبير فاستولى النصارى تباعاً على: شريش، شذونة، قادس،شلوقة، غليانة، روضة، ثغر شنتمرية ، وغيرها... وتحالف ابن الأحمر مع النصارى وعاونهم في الاستيلاء على قادس، وبهذا بسط القشتاليون سلطانهم على سائر الأراضي الإسلامية في غربي الأندلس، وانكمشت رقعة الدولة الإسلامية بسرعة مروعة (١) .

ويصف الشاعر أبو البقاء صالح بن شريف الرندي تلك الأوضاع التي وصل إليها حال الأندلس ووضح في قصيدته أسباب تلك المأساة التي وقعت فيها شعوب الأندلس من تركهم القوة والنصر، وحبهم للدعة والخنوع والترف، لقد عبرت تلك القصيدة عن مشاعر وأحاسيس الشاعر بوضوح وأعطت تلك الأحاسيس الصادقة والمشاعر المخلصة والحزن العميق على ما حل بالمسلمين روحاً لتلك القطعة الشعرية المعبرة عن تلك الأحداث الجسام، عندما سقطت القواعد الأندلسية الكبرى، كقرطبة، وبلنسية وإشبيلية ومرسية بيد النصارى.

لقد صور الشاعر المسلم أبو البقاء الرندي مأساة الأندلس في قصيدة تقطر ألماً وحزناً، فلله دره فلكم أغنت عن عشرات الكتب والمجلدات.

قال الشاعر:

لكل شيء إذا ما تم نقصان ... فلا يغتر بطيب العيش إنسان

هي الأمور كما شاهدتها دول ... من سره زمن ساءته أزمان

وهذه الدار لا تبقي على أحد ... ولا يدوم على حال لها شان

أين الملوك ذوو التيجان من يمن ... وأين منهم أكاليل وتيجان

---

(١) انظر: سقوط غرناطة (ص ٣٠).

أتى على الكل أمر لا مرد له ... حتى قضوا فكأن القوم ما كانوا
فجائع الدهر أنواع منوعة ... وللزمان مسرات وأحزان
وللحوادث سلوان يسهلها ... وما لما حل بالإسلام سلوان
وهي الجزيرة أمر لا عزاء له ... هوى له أحد وانهد ثهلان [1]
أصابها العين في الإسلام فامتعنت ... حتى خلت منه أقطار وبلدان
فاسأل بلنسية ما شأن مرسية ... وأين شاطبة أم أين جيان
وأين قرطبة دار العلوم فكم ... من عالم قد سما فيها له شان
وأين حمص وما تحويه من نزه ... ونهرها العذب فياض وملآن
قواعد كن أركان البلاد فما ... عسى البقاء إذا لم تبق أركان
تبكي الحنيفية البيضاء من أسف ... كما بكى لفراق الإلف هيمان
على ديار من الإسلام خالية ... قد أقفرت ولها بالكفر عمران
حيث المساجد قد صارت كنائس ما ... فيهن إلا نواقيس وصلبان
حتى المحاريب تبكي جامدة ... حتى المنابر ترثي وهي عيدان
ياغافلاً وله في الدهر موعظة ... إن كنت في سنة فالدهر يقظان
وماشياً مرحاً يلهيه موطنه ... أبعد حمص تقرُّ المرء أوطان
تلك المصيبة أنست ما تقدمها ... وما لها مع طول الدهر نسيان
يا أيها البيضاء رايته ... أدرك بسيفك أهل الكفر لا كانوا
ياراكبين عتاق الخيل ضامرة ... كأنها في مجال السبق عقبان
وحاملين سيوف الهند مرهفة ... كأنها في ظلام النقع نيران
وراتعين وراء البحر في دعة ... لهم بأوطانهم عز وسلطان
أعندكم نبأ من أهل أندلس ... فقد سرى بحديث القوم ركبان

كم يستغيث بنا المستضعفون وهم قتلى وأسرى فما يهتز إنسان
ماذا التقاطع في الإسلام بينكم وأنتم يا عباد الله إخوان
ألا نفوس أبيات لها همم أما على الخير أنصار وأعوان
يا من لذلة قوم بعد عزهم أحال حالهم كفر وطغيان
بالأمس كانوا ملوكاً في منازلهم واليوم هم في بلاد الكفر عبدان
فلو تراهم حيارى لا دليل لهم عليهم من ثياب الذل ألوان
ولو رأيت بكاهم عند بيعهم لهالك الأمر واستهوتك أحزان
يا رب أم وطفل حيل بينهم كما تفرقت أرواح وأبدان
وطفلة مثل حسن الشمس إذ طلعت كأنما هي ياقوت ومرجان
يقودها العلج للمكروه مكرهة والعين باكية والقلب حيران
لمثل هذا يذوب القلب من كمد إن كان في القلب إسلام وإيمان [١]

«وكان لابن الأحمر من هذه الحوادث موقفاً شاذاً مؤلماً، فقد كان يقف إلى جانب أعداء أمته ودينه، وكان يبذل للنصارى ما استطاع من العون المادي والأدبي، وكان معظم الزعماء المسلمين من حكام المدن والحصون الباقية - قد أيقنوا بانهيار سلطان الإسلام في الأندلس - يهرعون إلى احتذاء مثاله، وإلى الانضواء تحت لواء ملك قشتالة» [٢].

لقد غدر النصارى بحليفهم محمد بن يوسف الأحمر، فغزوا أراضيه وشنوا عليه الحرب، فتغيرت حساباته وطمع إلى جمع كلمة الأندلس تحت لوائه ودمج ما تبقى من تراثها وأراضيها في مملكة موحدة تكون ملكاً له ولعقبه، فصانع النصارى، وتجنب الاشتباك معهم، فشهد التهامهم لأشلاء الوطن الممزق وقلبه

---

(١) نفح الطيب (٤/ ٤٨٦،٤٨٧،٤٨٨).
(٢) انظر: نهاية الأندلس وتاريخ المتنصرين (ص ٣٣).

يقطر حزناً وأسى [١] .

واستطاع هذا الرجل العجيب أن يؤسس دولة في الأندلس في غرناطة في الجنوب الشرقي في الأندلس وحاول ابن الأحمر أن يواجه النصارى وخرج عن طاعتهم وأعلن النصارى الحرب عليه في عام (٦٦٠هـ/ ١٢٦١م)، فردهم بمعاونة المجاهدين الذين قدموا من العدوة المغربية، وهذا أول انتصار مبين منذ انهيار الموحدين. وفي عام (٦٦٢هـ) استطاع المرينيون بقيادة الفارس عامر بن إدريس فتح مدينة شريش وتخليصها من يد النصارى.

شدد النصارى هجماتهم بدءاً من عام (٦٦٣هـ) وبدأت الهزائم تتلاحق على محمد بن يوسف ابن الأحمر على يد (دون نوينو دي لارا) صهر ملك قشتالة، فبايع ابن الأحمر المستنصر صاحب تونس فبعث المستنصر لابن الأحمر هدية وعوناً، ولكنها لم تجد نفعاً، فسوء المصير لاح في الأفق، فاضطر ابن الأحمر أن يهادن ملك قشتالة ثانية في أواخر سنة (٦٦٥هـ/١٢٦٧م) متنازلاً له عن أكثر من مائة موضع معظمها غربي الأندلس، منها شريش والمدينة والقلعة.

ودخلت غرناطة في حرب داخلية بين ابن الأحمر وبعض أصهاره وهو أبو محمد بن أشقيلولة وكان في مالقة وتحالف ابن الأحمر مع الإسبان عام (٦٦٥هـ/١٢٦٧م) وحاصروا أبا محمد بن أشقيلولة في مالقة ولكنهم لم ينالوا منه مأرباً [٢] .

وفي عام (٦٦٨هـ) ساءت العلاقات بين ابن الأحمر وملك قشتالة الذي بدأ بالجزيرة الخضراء خراباً، فطلب ابن الأحمر العون من أمير المسلمين أبي يوسف المريني، ولكنه مات قبل أن يرى ما حدث، وذلك في (٢٩ جمادي الثانية

---

(١) المصدر السابق (ص ٣٤) .

(٢) انظر : مصرع غرناطة (ص ٣٣) .

٦٧١هـ كانون الأول « ديسمبر » ١٢٧٢م) وقد قارب الثمانين من عمره ، بعد أن وطد الملك لبني نصر بقي زهاء مائتين وخمسين عاماً أخرى [١] .

أولاً: ترجمة ابن الأحمر:

هو أبو عبد الله محمد بن يوسف محمد بن أحمد بن خمسين ابن نصر بن قيس الخزرجي. يرجع في نسبه إلى سعد بن عبادة الأنصارى، أحد كبار صحابة رسول الله ﷺ، وكان نقيباً شهد العقبة وبدراً [٢] .

ولد محمد بن يوسف في مدينة أرجونة من حصون قرطبة في جهة الشرق سنة ٥٩١هـ، (١١٩٥م) وهو عام الأرك. كان جندياً وافر العزم والجرأة دعا للَم الشمل، فاجتمع حوله الكثير، وكانت بيعته لمملكة غرناطة يوم الجمعة ٢٦ رمضان سنة ٦٣٥هـ[٣] .

[أ] شيء من سيرته :

كان في أوقات السلم ينصرف إلى شئون مملكته ، فكانت له سلسلة من الأعمال المجيدة. نظم الشرطة والقضاء، وطبق القوانين العادلة التي وضعها الفقهاء، فشعر الضعيف بالحماية والطمأنينة بعدما فتح السلطان أبوابه لأصحاب المطالب لتلقي المظالم،فكان قريباً من شعبه. ويروي المؤرخون أنه كان يتوخى البساطة في المأكل والملبس فيبدو في مظهره الخارجي كسائر الناس[٤] . يقول فيه لسان الدين بن الخطيب: « كان هذا السلطان آية في السذاجة والسلامة، عظيم التجلد رافضاً للدعة والراحة، مؤثراً التقشف بعيداً عن التصنع، شديد الحزم، فظًا في طلب حقه، مباشراً للحرب بنفسه يلبس الخشن ويؤثر التبدي » [٥] .

---

(١) ابن خلدون (٧ / ١٩٠) ، نقلاً عن سقوط غرناطة (ص ٣٣) .
(٢) ، (٣) **انظر** : التاريخ الأندلسي (ص ٥١٧) .
(٤) **انظر** : غرناطة في ظل بني الأحمر ، د . يوسف شكري فرحات (ص ٣١) .
(٥) ابن الخطيب : اللمحة البدرية (ص ٤٣) .

وكانت له أوقات يختلي فيها بنفسه ويتمشى في حديقة القصر يتأمل ويفكر ويقرأ، وكانت تبدو عليه مسحة من الحزن والكآبة ربما لأنه اضطر إلى محالفة أعداء المسلمين ومعاداة أبناء دينه من العرب والبربر.

من أعمال ابن الأحمر إلى جانب بنائه القصر المشهور، أنه أنشأ مأوى للعميان وداراً للعجزة، وبنى مستشفى كبيراً ونشر المدارس، وأعد المنازل للغرباء دون تمييز بين الأديان والقوميات، وكان يتفقد رعيته متستراً بعيداً عن مظاهر الأبهة وعظمة الملك (١) «وكان يعقد للناس مجلساً عاماً يومين في كل أسبوع ترتفع إليه الظلامات ويشافهه طلاب الحاجات وينشده الشعراء وتدخل إليه الوفود ويشاور أرباب النصائح في مجلس يحضر به أعيان الحضرة وقضاة الجماعة وأولو الرتب النبيهة» (٢) .

كما اهتم بالحياة الاقتصادية فأقام المخازن للحبوب وسائر المواد الغذائية، وكانت توزع بأسعار عادلة «فتوفر ماله، وغصت بالصامت خزائنه، فأفعم الأهراء، وملأ بطن الجبل المتصل بمعقله حبوباً مختلفة» (٣) . ولما ابتنى قصر الحمراء جلب له المياه التي أوصلها كذلك إلى المدينة، فكثرت البرك والنوافير وسبل المياه والحمامات العامة، ومد إلى سهول غرناطة قنوات الري التي ما يزال بعضها قائماً حتى اليوم (٤) .

لقد نجح هذا السلطان في تأسيس دولة غرناطة في الأندلس، وكان لقيام هذه الدولة وثباتها عدة أسباب منها:

(١) موقعها الجغرافي، حيث كانت في الزاوية الجنوبية لشبه الجزيرة الأندلسية التي قد تبدو منقطعة ، حيث البحر من الجنوب والعدو من الشمال

---

(١) **انظر** : غرناطة في ظل بني الأحمر ، د . يوسف شكري فرحات (ص ٣٢) .

(٢) ابن الخطيب : اللمحة البدرية (ص ٤٤) .

(٣) المصدر السابق (ص ٤٣) .

(٤) **انظر** : غرناطة في ظل بني الأحمر ، د . يوسف شكري فرحات (ص ٣٢) .

فكانت مملكة غرناطة أبعد مكان بالنسبة لمدن الأندلس للوقوع في يد عدو الأندلس من حيث الموقع ومن حيث قربها من بلاد المغرب وعدم وجود خط معاد أمام مسلمي غرناطة، يقف حائلاً دون إعانة المغاربة في الشمال الإفريقي لإخوانهم في الدين والعقيدة.

﴿ ٢ ﴾ ظهور دولة بني مرين في المغرب وكان من أهدافها الكبرى مواصلة الجهاد في الأندلس، ولذلك لم تبخل بالوقوف بكل ما تملك من جهد لدعم مملكة غرناطة ضد النصارى في الأندلس، فقامت دولة بني مرين بالمرابطة والجهاد مع مسلمي الأندلس، فكان لهذا العمل الجليل أهمية بالغة في الحفاظ على الأندلس.

﴿ ٣ ﴾ هجرة المسلمين في الأندلس من مدنهم التي سقطت إلى مملكة غرناطة وأصبحت لهم ملاذاً يحتمون به ويلجئون إليه، فكثر في غرناطة أهل المهارات والكفايات والذين برعوا في كل الميادين العسكرية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية والدينية، فأضافت إلى قوات غرناطة قوات أخرى تتطلع إلى أن تعيش عزيزة أبية وتضع حضارة منبثقة من دينها وعقيدتها وتصورها وفكرها [١].

﴿ ٤ ﴾ حب الجهاد في سبيل الله تعالى فجر طاقات المجتمع الغرناطي المتطلع للصمود أمام الغزاة النصارى، لقد كان للعقيدة الإسلامية والمعاني الإيمانية أثراً مباشراً في بقاء تلك الدول الصغيرة وصمودها وجهادها أمام ممالك النصارى الحاقدة.

﴿ ٥ ﴾ براعة حكام غرناطة في الاستفادة من الصراع بين ممالك النصارى وتقوية النزاعات بينها والتدخل في هذه النزاعات ومناصرة فريق على فريق آخر [٢].

وغير ذلك من الأسباب.

---

(١) **انظر** : التاريخ الأندلسي (ص ٥٢١ ، ٥٢٢).

(٢) **انظر** : المغرب في تاريخ الأندلس والمغرب ، د . عبادة كحيلة (ص ٢٦٩).

ثانياً : جهاد المرينيين في الأندلس :

تولى الملك في مملكة غرناطة بعد وفاة أبي عبد الله الغالب بالله ، ابنه محمد الذي اتصف بخلال حسنه من القوة والعزم وبعد الهمة، وسعة الأفق، مع علم وأدب، وكان شاعراً فقيهاً، حتى أنه دعي باسم « محمد الفقيه » وفي أول عهده تحركت قوات نصارى قشتالة بقيادة ألفونسو العاشر للقضاء على غرناطة وضمها تحت مملكة قشتالة، فاتجهت أنظار المسلمين في غرناطة إلى نصرة المرينيين في المغرب، فأرسلوا إليهم طالبين منهم الغوث والنجدة والمدد وتوالت الكتب على سلطان المغرب أبي يوسف يعقوب المريني من أهالي غرناطة يستنصرونه ويستدعونه إلى الجهاد، فخرج أبو يوسف من مدينة فاس ملبياً دعوتهم، وقاصداً نصرتهم، في النصف من شهر رمضان المعظم سنة (٦٧٣هـ) فسار حتى نزل مدينة طنجة، فكتب منها إلى صاحب سبتة يأمره بعمارة الأجفان [١] الغزواتية حتى يركبها المسلمون المجاهدون لتيسر بهم نحو الأندلس، ثم دعا ابنه أبا زيان وجعله على رأس خمسة آلاف من خيرة المجاهدين وأعطاه مالاً وبنوداً وطبولاً وجهزه بكل ما يحتاج إليه، ثم عقد له لواء الجهاد، وأوصاه بتقوى الله في سره وجهره، ودعا له ووجهه، وانصرف الأمير أبو زيان بجيشه من طنجة إلى قصر المجاز، فركب الأمير مع جميع جيوشه من قصر المجاز، فنزل مدينة طريف من سواحل بلاد الأندلس، وكان جوازه في١٧ ذي الحجة ٦٧٣هـ ، فأقام أبو زيان بطريف ثلاثة أيام حتى استراح الناس والخيل من هول البحر، ثم قصد منها الجزيرة الخضراء فغنمها وواصل السير في بلادالعدو حتى وصل إلى شريش، وهو يغنم ويفتح ما مر عليه من القرى والحصون والبروج، وتهاوت مقاومة الإسبان أمام جيشه المظفر، وجمع في طريقه غنائم ضخمة، وقفل بها إلى الجزيرة فدخلها

---

(١) أي ببناء السفن .

ففرح أهلها بدخوله، وارتفعت معنوياتهم وقويت نفوسهم وهكذا استطاع الأمير أبو زيان – حامل راية والده المنصور – أن يعز الإسلام ويذل النصارى الحاقدين في الأندلس.

وكانت غزوة أبي زيان غزوة ريادة واستطلاع، وعزم أبو يوسف يعقوب سلطان المرينيين على العبور بنفسه مع جيشه، فبعث سفارة يتزعمها حفيده تاشفين بن الأمير أبي مالك إلى يغمراس بن زيان أمير تلمسان يطلب منه الصلح والألفة واجتماع الكلمة لكي يجاهد في الأندلس وهو مطمئن على بلاده آمن عليها، فوافق يغمراس على مبدأ الصلح فتم الصلح بين بني مرين وبني زيان (بني عبد الواد) وأبعد الله عنهم التحاسد والتنافس والاقتتال وجمع الله كلمة الإسلام وألف بين المسلمين.

وسر أمير المسلمين أبو يوسف بذلك سروراً عظيماً، وتصدق بصدقات كثيرة، وكتب إلى زعماء بني مرين، وأمراء العرب، وشيوخ قبائل المغرب من المصامدة وجزولة وصنهاجة وغمارة وزناته يستفزهم إلى الجهاد ثم ارتحل إلى قصر المجاز ٦٧٤هـ وأخذ في إرسال المجاهدين إلى الأندلس بالخيل العتاق، والعدة الكاملة والسلاح، فكان يبعث كل يوم قبيلة من بني مرين وطوائف من المطوعين وقبائل العرب، فلما فرغ من إرسال بني مرين والعرب أخذ في إرسال أجناده، فكان الناس يجوزون فوجاً بعد فوج، وقبيلة بعد قبيلة، فكانت السفن والمراكب غاديات ورائحات آناء الليل وأطراف النهار، من قصر المجاز إلى طريف يزدحمون في ذلك المعبر.

قال الشاعر:

فالمرسلات تسوق العاديات إلى ... غزو العداة وتجويز صباح مسا
كأنما البحر أضحى للجياد مدى ... وكل عشية ماء حولت فرسا
كأنما اقترب البران واتصلا ... فصار ذاك طريقاً للورى يبسا [1]

---

(١) انظر: مصرع غرناطة (ص ٤٣).

فلما وصلت عساكر المسلمين بلاد الأندلس انتشرت بين مدينة طريف إلى الجزيرة الخضرة، جاز أمير المسلمين أبو يوسف في آخرهم في خاصته ووزرائه وخدام دولته، ومعه جماعة من صلحاء المغرب، وكان جوازه يوم الخميس (٢١ صفر ٦٧٤هـ) ، وفي الأندلس تلقاه ابن الأحمر والرؤساء من بني أشقيلولة بعساكرهما، واهتزت الأندلس فرحاً وسروراً واستبشاراً بقدومه.

وكان بين محمد الفقيه ابن الأحمر وبين أشقيلولة منافسة ومخاصمة وشحناء فعمل أبو يوسف على إزالتها وأصلح بينهما، وتصافت القلوب وتعاهدوا على التقوى والجهاد ورجع محمد الفقيه إلى غرناطة لترتيب أمورها وسار بنو أشقيلولة إلى مالقة، ومضى المجاهد أبو يوسف بجيشه الجرار قاصداً جهاد النصارى، ولم يعقد، ولم يبال أو يكترث بمن سار عنه أو قعد أو أبطأ أو تخلف، ولم تستطب جفونه مناماً، ولم يلتذ شراباً ولا طعاماً ، ولم يزل يجد الرحيل، ويوالي المسير، حتى وصل إلى الوادي الكبير، فعقد هنالك لولده الأمير أبي يعقوب من شجعان بني مرين والعرب، فتقدم والده بمرحلة، وسار أبو يوسف في إثر ابنه في جميع جيوشه،فانتشرت عساكر المجاهدين في أرض الإسبان، ووصل إلى حصن المقورة ما بين قرطبة وإشبيلية ودخل حصن (بلمه) عنوة بالسيف، ثم سار إلى أحواز قرطبة ثم إلى إستجة.

ووصلت الأخبار إلى أبي يوسف بتحرك حشود النصارى بقيادة « دونونة » في جيش كبير في ثلاثين ألف فارس، وستين ألف راجل قاصدين هزيمة جيش المسلمين وأخذ ما في أيديهم من الغنائم [١] .

[أ] مجلس الشورى الحربي :

عقد أمير المسلمين أبو يعقوب مجلس شورى من قادة الأندلس وأشياخ

---

(١) انظر : مصرع غرناطة (ص ٤٥) .

قبائل مرين، وأمراء العرب، ومن في عسكره من الفقهاء والعلماء، ليشاورهم كيف يكون العمل في لقاء العدو المقبل إليهم وسمع أبو يوسف آراء الجميع ، وأخذ أجودها، وأمرهم بالاستعداد للقاء العدو، والصبر والثبات عند اللقاء والتطلع إلى معية الله وما عنده من الأجر والمثوبة للمجاهدين في سبيله وبينما هم كذلك أذ نظر الناس إلى طلائع النصارى قد أقبلت نحوهم على بعد والرجال أمام الخيل ودونونه في وسط الجيش، وكان ملك قشتالة حزمه بيده ، وزوجه ابنته، وفوضه على جيوشه وحروبه، وفوض إليه الأمر في جميع بلاده وجنوده، وكان النصارى قد سعدوا به؛ لأنه كان لم ينهزم قط، وكان وبالاً ودماراً ومصيبة على بلاد الإسلام، شديد الانتقام، ولا يمل من القتل وسفك الدماء وسبي نساء المسلمين في كل الأوقات، فأقبل في كبريائه وغروره تحت ضلال البنود وأصوات الأبواق تخفق على رأسه في جيش قد ملأ الأرض يموج كأنه الجراد، والرجال والرماه أمام الجيش كلهم قد شرعوا [١] الحراب معتمدين على الكثرة ووفرة العدد.

[ب] ترتيب أبي يوسف لجيشه :

أمر أمير المسلمين أبو يوسف بالغنائم فبعث بها مع ألف فارس وألف راجل من المجاهدين المطوعين إلى الجنوب بعيداً عن أرض المعركة، وتأخر هو ومن بقي معه من المسلمين مستعدين لقتال النصارى، ثم ترجل عن جواده فأسبغ وضوءه، وصلى ركعتين ثم رفع يديه وأقبل على الدعاء والمسلمون يؤمنون على دعائه فكان في آخر دعائه ما دعا به النبي ﷺ يوم بدر للصحابة « اللهم انصر هذه العصابة وأيدها وأعنها على جهاد عدوك وعدوها » فأجاب الله تعالى دعاءه ورحم تضرعه وابتهاله، فلما فرغ من دعائه قام فاستوى على جواده، واستعد للقتال

---

(١) **انظر** : مصرع غرناطة (ص ٤٦).

وجلاده، وعقد لولده الأمير الأجل يوسف على مقدمته ، ونادى على المسلمين فقال: يا معشر المسلمين، وعصابة المجاهدين، أنتم أنصار الدين ،الذابون على حماه والمقاتلون عداه، وهذا يوم عظيم،ومشهد جسيم، له ما بعده، ألا وإن الجنة قد فتحت لكم أبوابها، وزينت حورها وأترابها، فبادروا إليها، وجدوا في طلابها، وابذلوا النفوس في أثمانها، ألا وإن الجنة تحت ظلال السيوف، « وإن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة » فاغتنموا هذه التجارة الرابحة، وسارعوا إلى الجنة بالأعمال الصالحة، وشمروا عن ساعد الجد في جهاد أعداء الله الكفرة، وقتال المشركين الفجرة، فمن مات منكم مات شهيداًو من عاش منكم رجع إلى أهله سالماً غانماً مأجوراً حميداً، ﴿ **اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ «فلما سمعوا منه هذه المقالة، تاقت أنفسهم للشهادة، وعانق بعضهم بعضاً للوداع، والدموع تنسكب والقلوب لها وجيب وانصداع، وكلهم طابت نفسه بالموت، وباعها من ربه بالجنَّة قبل الفوت، وارتفعت أصواتهم بالشهادة والتكبير، وكلهم يقول عباد الله إياكم والتقصير، فتسابقت أبطال المسلمين نحو جيش الروم معتمدة على الحي القيوم» [١] .

فالتقى الجمعان والتحم القتال، واشتد النزال، وعظمت الأهوال، وقسم « دونونة » جيوشه إلى خمسة أجزاء ليظهروا جموعاً متكاثرة، فكانت تقبل بجموعها ، فيدفعهم المسلمون، وتتلقاهم سيوف المجاهدين ، وحرابهم ، وقلوب المجاهدين أثبت من الجبال الرواسي في ساحات الوغى وسيوفهم تحصد رقاب الإسبان، وقتل زعيم الإسبان « دونونة » كما قتل ولده وهزم جيشه وتكسرت أعلامه [٢] .

لقد استطاعت الجيوش الإسلامية المتحدة بين المغاربة والأندلسيين بقيادة أبي

---

(١) **انظر** : التاريخ الأندلسي (ص ٥٣٨) نقلاً عن الذخيرة السنية (ص ١٤٩ - ١٥٠) .

(٢) **انظر** : مصرع غرناطة (ص ٤٨) .

يوسف يعقوب أن تحقق نصراً حاسماً في هذه المعركة التي أعادت ذكريات الزلاقة في زمن المرابطين، وذكريات معركة الأرك في زمن أبي يوسف يعقوب المنصور الموحدي وبعد انتهاء المعركة رجع السلطان المريني منصوراً مظفراً إلى الجزيرة الخضراء للاستراحة ليعود إلى أراضي قشتالة وحاصر إشبيلية العاصمة التي طلبت الأمان والصلح فأجابهم وعاد إلى جزيرة الخضراء عبر البحر إلى المغرب في أواخر رجب سنة ٦٧٤هـ ، بعد أن قضى حوالي خمسة شهور في الأندلس، وبعد أن ترك في الجزيرة الخضراء ثلاثة آلاف فارس لمعاونة إخوانهم الأندلسيين في رد اعتداء جند قشتالة ومن معهم [١] .

لقد كانت المعركة التي انتصر فيها السلطان المريني على الإسبان قرب إستاجة ، وظهرت ملكات أبي يوسف يعقوب المريني القيادية في النقاط التالية:

﴿١﴾ الاهتمام بعنصر الاستطلاع حتى لا يفاجئه العدو ولذلك عقد لواء لابنه أبي يعقوب ليقدم جيش المسلمين لمراحل ثم يكون هو على إثره.

﴿٢﴾ إبعاده للغنائم عن ساحة المعركة حتى لا ينشغل بها المجاهدين وحتى يتفرغوا لمجاهدة عدوهم ، وهذا يدل على نظر عميق في التاريخ واستخرج الدروس والعبر من صفحاته الماضية.

﴿٣﴾ صدق السلطان المريني في خطبته لجنوده والتي ألهب فيها المشاعر وحرك بواعث الفداء، ورغبهم في الشهادة، فرفعت تلك الخطبة الصادقة معنويات جند المسلمين، فجاهدوا صابرين محتسبين، طالبين للشهادة على الرغم من أن عدوهم أقبل عليهم بقوة فتية وقيادة مجربة لم تعرف الهزيمة ومهرت في الحروب وخططها.

---

(١) **انظر** : التاريخ الأندلسي(ص ٥٣٨) .

﴿٤﴾ باشر الأمير المريني في هذه المعركة القتال بنفسه، وقتل عدداً من الإسبان بيده، وهذا يذكرنا بيوسف بن تاشفين ويعقوب المنصور الموحدي، اللذين صنعا نصر الزلاقة ونصر الأرك العظيمين.

﴿٥﴾ أرسل أبو يوسف أعلام النصارى المنكسة إلى أعلى منار «القرويين» ومنار جامع الكتبيين بمراكش ليعاينها المسلمون ولترتفع معنوياتهم وتتحطم هيبة النصارى من نفوسهم[١] .

لقد اهتز العالم الإسلامي فرحاً وسروراً لهذه الأخبار السارة، فتحركت قرائح الشعراء لتمجيد ذلك العمل العظيم، حيث أرسل ابن أشقيلولة كتاباً للتهنئة إلى السلطان المريني ، **وفيه قصيدة من أبياتها:**

هبت بنصركم الرياح الأربع	وسرت بسعدكم النجوم الطلع
وأتت لنصركم الملائك سبقاً	حتى أضاق بها الفضاء الأوسع
واستبشر الفلك الأثير تيقنا	أن الأمور إلى مرادك ترجع[١]
وأمدك الرحمن بالفتح الذي	ملأ البسيطة نوره المتشعشع
لم لا؟ وأنت بذلت في مرضاته	نفساً تفديها الخلائق أجمع
وأتيت تنصر دينه متوكلاً	بعزيمة كالسيف بل هي أقطع
أين المفر ولا فرار لهارب	والأرض تنشر في يديك وتجمع
فلقد كسوت الدين عزاً شامخاً	ولبست منه أنت ما لا يخلع
إن قيل من خير الملوك بأسرها	فإليك يا يعقوب تومي الأصبع[٢]

(١) **انظر** : سقوط غرناطة (ص ٥٠) .

(٢) أن الأمور مردها ومرجعها إلى الله تعالى .

[جـ] الغزوة الثانية :

عبر أبو يوسف يعقوب إلى الأندلس للمرة الثانية سنة ٦٧٧هـ/١٢٧٨م ، وتوغل بجيشه في أراضي قشتالة ، إلا أن النصارى استطاعوا أن يصانعوا ابن الأحمر زعيم غرناطة وأن يكسبوه لجانبهم ، ودخل معهم في أحلاف أضرت بالمسلمين واضطر سلطان المرينيين أن يرجع إلى المغرب بجيشه واستمر ابن الأحمر في تصرفاته الشاذة، وعقد تحالفاً مع قشتالة، فسارا إلى أقصى الجنوب لاحتلال « طريف » مدخل الأندلس كلها، واشترط ابن الأحمر على ملك قشتالة أن يسلمه ثغر طريف .

واستطاعت طريف أن تصمد أربعة أشهر إلا أنها اضطرت للخضوع والاستسلام فطالب بها ابن الأحمر ملك قشتالة، فامتنع عن تسليمها، مع أن ابن الأحمر تنازل له مقابلها عن عدد من الحصون الهامة، فأدرك ملك غرناطة محمد الفقيه ابن الأحمر عندئذ خطأه الفاحش والمزلق الخطير في الركون إلى وعود ملك قشتالة، وفي مغاضبة المرينيين حلفائه الطبيعيين، وإخوانه في الدين والمنهج والتصور والاعتقاد، فعاد يخطب ودهم من جديد [١] فأرسل الوفود من أجل الصلح مع المرينيين واعتذر عن مسلكه في شأن طريف، وأجابهم السلطان أبو يوسف المريني إلى طلبهم وبقي ملك غرناطة علي عهده مع المرينيين حتى توفي - محمد الفقيه - في شعبان سنة (٧٠١هـ/أيار « مايو » ١٣٠٢م) ، بعد حكم دام أكثر من ثلاثين سنة [٢] .

ومما يذكر أن أبا يوسف المنصور أرسل ابنه الأمير أبا يعقوب في أسطول مريني ضخم في أوائل سنة ٦٧٨هـ ١٢٧٩م، وانتصر على الأسطول القشتالي وحرر الجزيرة الخضراء. ولما تم الصلح مع ابن الأحمر أصبحت مالقة قاعدة لبني مرين

---

(١) **انظر** : مصرع غرناطة (ص ٥١) .

(٢) **انظر** : مصرع غرناطة (ص ٥٣) .

ومحطة لعبور جندهم إلى الأندلس للجهاد.

عبر أبو يوسف المنصور - عبوره الرابع - في صفر سنة ٦٨٤هـ إلى الأندلس، وجاهد في البر والبحر، وأرغم شانجة الرابع ملك قشتالة على طلب السلم، فأرسل شانجة وفداً من الأحبار يفوض السلطان المريني على ما يراه ووضعت شروط أهمها مسالمة المسلمين كافة وعدم الاعتداء على الأندلس (١) .

توفي أبو يوسف يعقوب المنصور المريني سنة ٦٨٥هـ/ ١٢٨٥م ، بعد حياة حافلة بالجهاد في المغرب والأندلس.

هذه نبذة مختصرة عن حياته تغمده الله عز وجل برحمته :

كان رحمه الله صواما قواما، دائم الذكر، كثير الفكر، لايزال في أكثر نهاره ذاكراً، وفي أكثر ليله قائما يصلي، وسبحته في يده لا يزايلها أكثر أوقاته مكرمًا للصالحين، كثير الرأفة والحنين على الضعفاء والمساكين، وتواضعاً في ذات الله تعالى لأهل الدين، متوقفاً في سفك الدماء كريماً جواداً، وكان مظفراً منصور الراية ميمون النقيبة، لم تهزم له راية قط، ولم يكسر له جيش، ولم يغز قط عدواً إلا قهره، ولا لقي جيشاً إلا هزمه ودمره، ولا قصد بلداً إلا فتحه (٢) .

ولا ننسى أنه كان خطيباً يؤثر في نفوس جنده، شجاعاً مقداماً يبدأ الحرب بنفسه عليه رحمة الله.

لقد كان من صنف يوسف بن تاشفين، وأبي يوسف المنصور الموحدي (٣) .

قال عنه ابن كثير - رحمه الله - في وفيات عام ٦٨٥هـ :

(أبو يوسف المريني سلطان بلاد المغرب، خرج على الواثق بالله دبوس فسلبه الملك بنظام مراكش، واستحوذ على بلاد الأندلس والجزيرة الخضراء، في سنة

---

(١) انظر : مصرع غرناطة(ص ٥٤) .

(٢) ،(٣) انظر : مصرع غرناطة(ص ٥٥) .

ثمان وستين وستمائة واستمرت أيامه إلى محرم هذه السنة، وزالت على يديه دولة الموحدين بها) [١] .

[د] مشيخة الغزاة :

نتيجة للمصالح المشتركة بين بني مرين وبني الأحمر ملوك غرناطة استطاعوا أن يصلوا إلى نتائج حسنة ومهمة للتعاون المشترك والتنسيق العريض لرد الخطر النصراني القادم، من مملكة قشتالة ولذلك رأت القيادتان المرينية والغرناطية ضرورة وضع قوات من المجاهدين في الأندلس للإقامة فيها، ليكونوا على أهبة الأستعداد من أجل الجهاد والدفاع عن مسلمي الأندلس، فظهر ما يعرف في تاريخ الأندلس بمشيخة الغزاة ، وهذا تعريف أطلق على الجنود المرابطين للذود عن العقيدة والدين وأطلق على اسم زعيمها شيخ الغزاة.

وتزعم بنو العلاء (من أقارب السلطان المريني) قيادة المشيخة، وهو منصب عسكري تولى رياسة المشيخة عبد الله بن أبي العلاء حتى استشهد سنة ٦٩٣هـ ، فكانت لأخيه أبي سعيد عثمان بن العلاء [٢] .

عن هذه المشيخة يذكر المقري في نفح الطيب أنه « لم يزل ملوك بن مرين يعينون أهل الأندلس بالمال والرجال، وتركوا منهم حصة معتبرة من أقارب السلطان بالأندلس غزاة، فكانت لهم وقائع في العدو مذكورة، ومواقف مشهورة، وكان عند ابن الأحمر منهم جماعة بغرناطة، عليهم رئيس من بيت ملك بني مرين يسمونه شيخ الغزاة » [٣] .

توفي محمد (الثاني) الفقيه سنة ٧٠١هـ (١٣٠١م) فخلفه ولده أبو عبد الله محمد الملقب بالمخلوع الذي خلع سنة ٧٠٨هـ ليتولى الحكم أخوه نصر وبويع يوم

---

(١) البداية والنهاية (١٣ / ٣٢٧) .

(٢) انظر : التاريخ الأندلسي (ص ٥٤٠) .

(٣) نفح الطيب (٤ / ٣٨٥) نقلاً عن التاريخ الأندلسي (ص ٥٤٠) .

الجمعة غرة شوال عام (٧٠٨هـ) .

وكان مجبولاً على الهدنة محباً للعلم وأهله يخط التقاويم الصحيحة، ويصنع بيده الآلات الطريفة، نازل طاغية قشتالة على الجزيرة الخضراء، وطاغية أراغون في ثغر المرية، فهزم النصارى في المرية، وانتصروا عليه في الجزيرة الخضراء حيث سقط جبل طارق في أيديهم بعد حصار طويل مضن دام حتى آخر سنة ٧٠٩هـ .

وفي عهد أخيه، ثم عهده حصل جفاء وعداء بينه وبين بني مرين حكام المغرب بواسطة جواسيس النصارى المندسين بين المسلمين، واستغل النصارى ذلك التنافر، فشددوا على مملكة غرناطة الخناق، فاضطر السلطان نصر بن محمد إلى دفع الجزيرة لهم فثار الشعب في وجهه، وكان أن خلع سنة (٧١٣هـ) ورشح الخارجون عليه للملك بدلا عنه: أبا الوليد إسماعيل بن فرج، وحفيد إسماعيل بن يوسف أخي محمد يوسف رأس الأسرة النصرية، ومؤسس دولتها [١] .

﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً ﴾ [البقرة: ٢٤٩] .

امتاز عصر السلطان أبي الوليد إسماعيل بتوطيد الملك، واستقرار الأمور وإحياء عهد الجهاد، وحاول الاستنجاد ببني مرين المغاربة على أعدائه النصارى، ولكنهم نكلوا عن معاونتهم، بسبب سوء تصرفات سابقيه ضدهم [٢] .

في أوائل عهده غزا القشتاليون غرناطة وكان من ضمن القشتاليين جيش السلطان المخلوع، فهزموا المسلمين هزيمة شديدة في وادي فرتونة سنة (٧١٦هـ) واستولى النصارى على بعض القواعد والحصون [٣] .

وفي سنة تسع عشرة وسبعمائة ألب ملوك النصارى على غرناطة، وجاءها (دون بطرة) في جيش لا يحصى كثرة، وكان وصيا على الملك الصبى ألفونسو

---

(١) **انظر** : الأعلام للزركلي (٨/ ٢٨) .

(٢) **انظر** : نهاية الأندلس (ص ١١٧) .

(٣) **انظر** : ابن جزي ومنهاجه في التفسير ، لعليّ الزبيري (١/ ٥٦) .

الحادي عشر ملك قشتالة، ومعه خمسة وعشرون ملكاً أو أميراً بغرض استئصال ما تبقي من المسلمين بالأندلس، وكانت حملة قد باركها مرجعهم الكنسي «البابا» في طليطلة (١) وكان من ضمن هذا الجيش فرقة من المتطوعة الإنجليز بقيادة أمير إنجليزي (٢) .

كان عدد الجيش الإسلامي حوالي ستة آلاف ، منهم ألف وخمسمائة فارس والباقي رجالة . لكنهم صفوة مختارة بقيادة شيخ الغزاة أبي سعيد عثمان بن أبي العلاء (٣) ، وبعد أن يئس المسلمون من نصرة إخوانهم المغاربة ، لجئوا إلى الله تعالى ، وكان نصراً عزيزاً ، ويوماً مشهوداً . زاد عدد القتلى في هذه المعركة على خمسين ألفاً، وبلغ جملة السبي فقط سبعة آلاف نفس، وهلك الأمراء النصارى جميعهم، واستمر البيع في الأسرى، والأسلاب والدواب ستة أشهر، وإنه لنصر ما كان يؤمل لولا لطف الله بعباده لما رأى صدق توجههم إليه (٤) .

لقد كان السلطان أبو الوليد إسماعيل هذا من خيرة سلاطين بني الأحمر وأصلحهم فمما وصف به : (كان حسن الخلق، وسليم الصدر، كثير الحياء، صحيح العقل، ثابتًا في المواقف ، عفيف الإزار، ناشئاً في حجرة الطهارة بعيداً عن الصبوة، بريا من المعاقرة) (٥) .

وفي سنة (٧٢٤هـ) زحف السلطان إسماعيل على مدينة بياسة الحصينة، وحاصرها بشدة، وأطلق المسلمون عليها الحديد والنار من آلات قاذفة تشبه المدافع حتى استسلمت المدينة، ونزل أهلها على حكمه (٦) .

وفي رجب من عام خمسة وعشرين وسبعمائة دخل موتش الحصينة التي تقع

---

(١) **انظر** : ابن جزي ومنهاجه في التفسير ، لعليّ الزبيري (١/٥٦) .

(٢) التاريخ الأندلسي (ص ٥٤١ ، ٥٤٢) .

(٣) المصدر السابق (ص ٥٤٢) .

(٤) **انظر** : ابن جزي ومنهاجه في التفسير ، (١/٥٧) .

(٥) الإحاطة (١/٣٧٧) **بريًا من المعاقرة** : أي بعيدًا عن شرب الخمر .

(٦) **انظر** : نهاية الأندلس (ص ١٢٠) .

في جنوب غربي جيان عنوة ، وكانت من أعظم غزواته، وامتلأت أيدي المسلمين بالسبي والغنائم، وعاد إلى غرناطة مكللاً بالنصر (١) .

لكنه ما لبث سوى ثلاثة أيام حتى قتل بباب قصره غيلة من قبل ابن عم له تربص به، وطعنه بخنجر له، وهو بين وزرائه وحشمه، فحمل جريحاً وتوفي على إثر ذلك في اليوم التالي رحمه الله وتقبل شهادته (٢) .

وفي عام (٧٣٣هـ) استطاع الغرناطيون في زمن السلطان محمد الرابع من تخليص جبل الفتح -أي جبل طارق - من أيدي النصارى بعد أن ظل تحت سلطانهم من عام (٧٠٩هـ) وكان للسلطان أبي الحسن عليّ بن عثمان المريني سلطان المغرب ، دور يشكر عليه في تخليص جبل طارق ، الذي كان ذا أهمية بالغة بالنسبة للأندلسيين ، إذ هو همزة الوصل بينهم وبين إخوانهم في العدوة المغربية (٣) .

هـ - موقعة طريف :

وقد تجلي تحالف ملك المغرب مع ملك غرناطة مرة أخرى في المعركة التي أصيب فيها الملكان بهزيمة فادحة في معركة طريف سنة ٧٤١هـ من قبل النصارى.

منذ استعاد الأندلسيون سنة (٧٣٣هـ) بمساعدة بني مرين - حكام المغرب - جبل طارق بعد أن ظل بأيدي النصارى أربعة وعشرين عاماً - إذ سقط في أيدي النصارى سنة (٧٠٩هـ) توطدت العلاقة أكثر فأكثر بين بني الأحمر من جهة وبني مرين من جهة أخرى.

وكان الأندلسيون كلما أحسوا بخطر النصارى يحدق بهم سارعوا إلى

---

(١) انظر : نهاية الأندلس (ص ١٢٠) .
(٢) المصدر السابق (ص ١٢١) .
(٣) انظر : ابن جزي ومنهجه في التفسير (١/ ٥٩) .

الاستنجاد بإخوتهم في الدين العدوة المغربية من بني مرين، وكانوا يقومون بالدور الذي كان يقوم به المرابطون والموحدون من الجهاد في أرض الأندلس «وفي عهد أبي الحجاج يوسف (ولايته ٧٣٣-٧٥٥هـ)».

كثرت غزوات النصارى لأراضي المسلمين وكان ألفونسو الحادي عشر تحدوه نحو المملكة الإسلامية أطماع عظيمة فكان أن استنجد أبو الحجاج بأبي الحسن سلطان المرينيين، الذي أرسل ابنه أبا مالك إلى الأندلس، فاخترق سهول الجزيرة الخضراء معلناً الجهاد، فاجتاح أراضي النصارى وحصل على غنائم لا تحصى غير أن النصارى من قشتالة وأرجوان والبرتغال كونوا أسطولاً بحرياً متحداً ليستقر بالمضيق فيمنع الإمداد عن جيوش المغرب وسارت قوى النصارى المتحدة للقاء المسلمين وبارك البابا هذه الحملة، فباغتوا أبا مالك عند عودته بالوادي الذي يقع بين حدود النصارى وأرض المسلمين فكانت موقعة عظيمة قتل فيها أبو مالك، وهزم جيشه هزيمة منكرة ، وبلغ أبا الحسن المريني الخبر، فاحتسب عند الله ابنه وشرع في الجهاد من جديد على إثر هذه المعركة. تجهز السلطان أبو الحسن واستنفر معه أهل المغرب فتوافت أساطيل المغاربة بمرسى سبتة تناهز المائة فأخرج الطاغية أسطوله إلى الزقاق (مضيق جبل طارق) ليمنع السلطان من الجواز إلى الأندلس فوقعت معركة بحرية عظيمة أظفر الله المسلمين فيها بعدوهم وخالطوهم في أساطيلهم واستلحموهم هبراً بالسيوف ، وطعناً بالرماح، وألقوا أشلاءهم في اليم، وقتلوا قائدهم، واستاقوا أساطيلهم إلى مرسى سبتة [1] . ثم بعد أن جلس السلطان للتهنئة وأنشدت الشعراء بين يديه، استأنف إجازة العساكر فانتظمت الأساطيل سلسلة واحده من العدوة إلى العدوة. ونزل السلطان بعساكره بساحة طريف وأناخ بها ، ووافاه سلطان الأندلس أبو الحجاج بعساكر الأندلس وأحاطو بطريف وأنزلوا بها أنواع القتل ونصبوا عليها الآلات .

---

(١) انظر : ابن خلدون (٧/ ٢٦١) نقلاً عن ابن جزي ومنهجه في التفسير (١/ ٧٢) .

غير أن الطاغية جهز أسطولاً آخر اعترض به المضيق لقطع المرافق والمؤمن عن المعسكر، وطال ثواء المسلمين بمكانهم من حصار البلد، ففنيت أزودتهم وافتقدوا العلوفات فوهن الظفر، واختلت أحوال المعسكر، وحشد الطاغية أمم النصرانية، وظاهره البرتغاليون وبالرغم مما قيل من أن جيش المسلمين كان زهاء ستين ألفاً، فإن طول محاصرتهم للبلد وانقطاع المؤن عنهم من أول المحرم سنة (٧٤١هـ) وإلى أوائل شهر جمادى الأولى من نفس العام، ثم المكيدة التي دبرها لهم أعداؤهم وعدم تلافيها كان وراء انكسار شوكتهم [(١)] وهذه المكيدة كما يصفها ابن خلدون تتلخص فيما يأتي: (ولما قرب معسكرهم سرب الطاغية إلى طريف جيشاً من النصارى أكمنه بها فدخلوه ليلاً على حين غفلة من العسس المسلمين، الذين أرصدوا لهم غير أنهم أحسوا بهم آخر ليلتهم، فثاروا بهم من مراصدهم، وأدركوا أعاقبهم قبل دخول البلد، فقتلوا منهم عدداً ولبسوا على السلطان بأنه لم يدخل البلد سواهم حذراً منه وتزاحفوا. كما تولى السلطان يوسف قيادة فرسان الأندلس ولما نشبت الحرب برز الجيش الكمين من البلد وخالفوهم إلى المعسكر، وعمدوا إلى فسطاط السلطان ودافعهم عنه الناشبة الذين أعدوا الحراب فاستلحموهم ، ثم دافعهم النساء عن أنفسهن فقتلوهن وخلصوا إلى حظايا السلطان فقتلوهن، واستلبوهن وانتهبوا سائر الفسطاط وأضرموا المعسكر ناراً وأحس المسلمون بما وراءهم في معسكرهم فاختل مصافهم وارتدوا على أعقابهم بعد أن كان ابن السلطان صمم في طائفة من قومه وذويه حتى خالطهم في صفوفهم فأحاطوا به، وتقبضوا عليه وولى السلطان متحيزاً إلى فئة من المسلمين واستشهد كثير من المسلمين من سادتهم وقادتهم [(٢)] .

---

(١) **انظر** : ابن جزي ومنهجه في التفسير (١ / ٧٣) .
(٢) **انظر** : العبر لابن خلدون (٧ / ٢٦١-٢٦٢) ، نقلاً عن ابن جزي (١ / ٧٤) .

وكانت محنة عظيمة لم يشهد المسلمون مثلها منذ موقعة العقاب [(١)] ، **يقول المقري في وصف هذه الفاجعة :**

« فقضى الله الذي لا مرد لما قدره أن صارت تلك الجموع مكسرة ورجع السلطان أبو الحسن مغلولاً وأضحى حسام الهزيمة عليه وعلى من معه مسلولاً . . وقتل جمع من أهل الإسلام ولمة وافرة من الأعلام . . واشرأب العدو والكفار لأخذ ما بقي من الجزيرة ذات الظل الوريف، وثبت قدمه إذ ذاك في بلد طريف، وبالجملة فهذه الموقعة من الدواهي المعضلة الداء، والأرزاء التي تضعضع لها ركن الدين بالمغرب،وقرت بذلك عيون الأعداء » [(٢)] .

ويرى الأستاذ نجيب زبيب البناني أن هزيمة المرينيين كانت بسبب الخيانة والعمل الاستخباراتي الذي قامت به ممالك النصارى ويرى أن حكام غرناطة كانوا يتجسسون لصالح النصارى : (فالقشتاليون على سبيل المثال اتخذوا من حكام غرناطة جواسيس لهم في جميع أنحاء المغرب . وفي المناطق المنفصلة عنه مثل المغرب الأوسط وإفريقية وكان بنو زيان في تلمسان والحفصيون في المغرب الأوسط على اتصال مستمر مع حكام غرناطة ، وينقلون إليهم كل المعلومات المستجدة عن الدولة المرينية ، حتى أنهم صاروا يقومون بدور مخلب القط للقشتاليين فكل المعلومات التي كانت ترد إليهم من الحفصيين والزيانيين كانوا يقدمونها إلى القشتاليين.

وكثيراً ما حث القشتاليون حكام غرناطة على طلب النجدة من المرينيين للإيقاع بالجيوش المرينية وأساطيلها في المكائد والشراك المنصوبة . .) [(٣)] .

ولاشك أن العمل الاستخباراتي من الأعمال التي تدمر الأمم إذا لم يكن لها

---

(١) **انظر** : نهاية الأندلس(ص ١٢٨) .

(٢) **انظر** : ابن جزي ومنهجه في التفسير(١ / ٧٤) ، نقلاً عن نفح الطيب(٦ /٣١٧) .

(٣) الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس ، الأستاذ / نجيب زبيب(٣ / ٨١) .

عمل مضاد ضد مخططات الأعداء؛ بل إن نجاح الدول في تحقيق أهدافها منوط بتحقيق هذا المفصل المهم في بنائها.

[و] العلماء الذين سقطوا شهداء في معركة طريف :

﴿ ١ ﴾ أبو محمد عبد الله بن سعيد السلماني، والد الوزير الغرناطي والأديب الكاتب لسان الدين بن الخطيب.

﴿ ٢ ﴾ القاضي أبو عبد الله محمد بن بكر الأشعري المالقي ، أحد أشياخ ابن الخطيب وصاحب كتاب التمهيد والبيان في مقتل الشهيد عثمان، « كان حسن التخلق عطوفاً على الطلبة محباً للعلم والعلماء مُجلاً لأهله مطرح التصنع عديم المبالاة بالملبس بادي الظاهر عزيز النفس نافذ الحكم صوالة معروفاً بنصرة من آوى إليه. تقدم للمشيخة ببلده مالقة ناظراً في أمور العقد والحل ومصالح الكافة ثم ولي القضاء بها فأعز الخطة وترك الهوادة ملازماً للقراءة والإقراء محافظاً للأوقات حريصاً على الإفادة ، ثم ولي القضاء والخطابة بغرناطة » [١] .

« وتصدر لبث العلم بالحضارة يقري فنوناً منه جمة فنفع وخرج ودرس العربية والفقة والأصول وأقرأ القرآن وعلم الفرائض والحساب ، وعقد مجالس الحديث شرحاً وسماعاً، على سبيل من انشراح الصدر وحسن التجمل وخفض الجناح » [٢] .

« واستمر على عمله من الجهاد إلى أن فقد – رحمه الله – في مصاف المسلمين، يوم المناجزة الكبرى بظاهر طريف، شهيداً محرضاً يشحذ البصائر و(يدمي) الأبطال، ويشير على الأمير من أن يكثر من قول: « حسبنا الله ونعم الوكيل » .

﴿ ٣ ﴾ أبو القاسم محمد بن جزي وهو أحد أشياخ ابن الخطيب وصاحب

---

(١) الإحاطة (٢/ ١٧٦ ، ١٧٧) .

(٢) نفس المصدر السابق (٢/ ١٧٧) .

المؤلفات . كان « فقيهاً حافظاً قائماً على التدريس، مشاركاً في فنون من عربية وفقه وأصول وقراءات وأدب وحديث، حافظاً للتفسير، مستوعباً للأقوال، جماعة للكتب، ملوكي الخزانة، حسن المجلس، ممتع المحاضرة، قريب الغور، صحيح الباطن، تقدم خطيباً بالمسجد الأعظم من بلده على حداثة سنه، فاتفق على فضله، وجرى على سنن أصالته » [(١)] .

« فقد وهو يحرض الناس ويشحذ بصائرهم ويثبتهم، يوم الكائنة بطريف . . » [(٢)] .

وغير ذلك من الفقهاء والعلماء والصلحاء الذي كان همهم نصرة دين الله والموت في سبيل الله تعالى .

وبعد معركة طريف أصبحت مملكة غرناطة في مد وجزر، واعتورتها حالات الحرب والهدنة، والمسالمة والتحالف جنباً مع قشتالة ضد بني مرين، ومع بني مرين ضد قشتالة ، وأراجون حيناً ، ثم ما لبثت هذه المملكة أن أصابها الهرم، ولحقتها الشيخوخة وأضعفها الانقسام والتناحر الداخلي مع الانغماس في اللذات وفي نفس الوقت ضعفت دولة بني مرين المغربية التي كانت عوناً في كثير من الأحيان لمسلمي الأندلس ضد أعدائهم النصارى وكان زمن سقوط دولة بني مرين (٨٦٩هـ) [(٣)] .

واندلعت الحرب الأهلية في داخل غرناطة بسبب النساء حيث إن ملك غرناطة أصبح أسيراً لحب امرأة رومية نصرانية تدعى « ثريا » وأصبح أداة سهلة في يد زوجته الفتية الحسناء وكانت كثيرة الدهاء والأطماع، فقد تطلعت إلى أن يكون ولدها الأكبر السيد يحيي ولياً للعهد، وكان المؤهل لولاية العهد ابن عائشة الحرة أبو عبد الله محمد، وتمكنت ثريا من إقناع زوجها أبي الحسن لإقصاء عائشة

---

(١) نفح الطيب (٥/٥١٤) .

(٢) نفس المصدر (٥/٥١٤) نقلاً عن التاريخ الأندلسي (٥٤٧) .

(٣) انظر : ابن جزي ومنهجه في التفسير (١/٧٤) .

وولديها حتى أقنعته باعتقالهم جميعاً، وفي برج قمارش أمنع أبراج الحمراء زجت عائشة الحرة مع ولديها، وشدد الحجر عليهم، وعوملوا بمنتهى الشدة والقسوة وانقسم المجتمع الغرناطي إلى فريقين.

فريق يؤيد السلطان ومحظيته (سيدة غرناطة الحقيقية) المستأثرة بكل سلطة ونفوذ. وفريق آخر يؤيد الأميرة الشرعية (عائشة الحرة وولديها).

ولم تستسلم عائشة الحرة إلى واقعها المؤلم، واتصلت سراً بمؤيديها وأنصارها، وفي مقدمتهم بنو سراج، وتمكنت من الهرب من قصر الأحمر في ليلة من ليالي جمادى الثانية سنة (٨٨٧هـ/ ١٤٨٢م) بمساعدة بعض المؤيدين المخلصين.

وظهرت في وادي آش حيث مجمع أنصار ولدها.

وقرر فرديناند وازبيلا البدء بالحرب بعد أن سنحت الفرصة، وبعد أن دخلت مملكة غرناطة في صراعها الداخلي وسار القواد القشتاليون إلى جنوب غربي غرناطة إلى مكان اسمه الحمة، لضعف وسائل الدفاع عنها من أجل احتلالها ومن ثم احتلال غرناطة ومالقة معاً، وتم ذلك ولم يستطع أبو الحسن ملك غرناطة استردادها، ولكنه استطاع أن يدعم أمير مدينة لوشة الواقعة على نهر شنيل شمال ألحامة وعلى مقربة منها وأن يردًّا معاً الإسبان في جمادى الأولى (٨٨٧هـ/ تموز «يولية» ١٤٨٢م).

وتعاطف الشعب الغرناطي مع الأميرة الشرعية (عائشة الحرة واضطر ملك غرناطة أن يترك كرسي الملك وفر إلى مالقة، وكان فيها أخوه الأمير أبو عبد الله محمد بن سعد المعروف بالزغل يدفع عنها جيشاً جراراً سيره ملك قشتالة لافتتاحها، وجلس ابن عائشة الحرة أبو عبد الله محمد مكان أبيه على عرش غرناطة أواخر سنة ٨٨٧هـ، وعمره ٢٥ سنة وأراد أن يحذو حذو عمه الزغل في الجهاد، وباشر القتال بنفسه وحقق انتصارات على النصارى وانتزع منهم حصوناً وقلاعاً سنة (٨٨٨هـ نيسان «أبريل» سنة ١٤٨٣م)، إلا أنه وقع أسيراً في يد

النصارى في إحدى المعارك.

واستطاع فرديناند أن يجعل من أبي عبد الله الصغير وسيلة لتدمير غرناطة من الداخل؛ ولذلك رفض الأموال الطائلة التي عرضت عليه من أجل فك أسره واستغل النصارى قلة خبرة أبي عبد الله الصغير، وانعدام حزمه، وضعف إرادته، وطموحه للحكم.

ولما تولى عرش غرناطة أبو عبد الله الزغل واستطاع أن يرد بكل جرأة وشجاعة وبطولة هجمات النصارى إلا أن الكيد النصراني الحاقد استخدام أسلوب تقوية الفتن الداخلية في غرناطة وفي أحرج الظروف أطلق فرديناند سراح أبي عبد الله الصغير، بعد أن وقعه على معاهدة أعلن فيها خضوعه وطاعته لملك قشتالة مدتها عامان، وأن تطبق في جميع البلدان التي تدين بالطاعة لأبي عبد الله الصغير، وأخذ يبث أبو عبد الله الصغير دعوته في شرق الأندلس، والحرب قائمة في غرناطة وزاد الأمر سوءاً سقوط مدينة لوشة بيد النصارى في أواخر جمادى الأولى (٨٩١هـ / أيار مايو ١٤٨٦م) ، وكان موقف أبي عبد الله الصغير أثناء هذه الحوادث الجسام مريباً .

فهو ما زال يشيد بمزايا الصلح المعقود مع النصارى.

وبقي يستظل بمظاهرته للنصارى وبتأييدهم له .

وأنه غداً آلة في يد ملك قشتالة يعمل بتوجيهه ، فهو الورقة الرابحة بيد فرديناند.

ودعم فرديناند أبا عبد الله الصغير ضد عمه وانقسمت غرناطة إلى شطرين وتحقق لفرديناند ما أراده وسعى إليه، فقد تمزقت دولة الإسلام بالأندلس وستمضي بخطوات سريعة نحو دمارها قبل أن ترجع إلى وحدة صفها مرة أخرى.

وشرع فرديناند في محاربة المناطق الشرقية والجنوبية التي تخضع لأبي عبد الله الزغل، وزحف على مالقة وطوقها براً وبحراً في جمادى الثانية (٨٩٢هـ/ حزيران يونيه ١٤٨٧م)، وخاف الزغل أن يسير إلى إنجادها من وادي آش، خاف غدر ابن أخيه أبي عبد الله الصغير، فاستنجد بسلطان مصر الأشرف قايتباي، ولم يكن من المنتظر أن تقاوم مالقة حتى يأتيها المدد من القاهرة، فسقطت في أواخر (شعبان ٨٩٢هـ/آب أغسطس ١٤٧٨م)، ونكث فرديناند بوعده التي قطعها لأهل مالقة، فغدر بهم واسترقهم جميعاً، وهذا مثال لسوء طوية نفس فرديناند تجاه المسلمين.

كانت مصر في تلك الفترة لا تستطيع أن ترسل قواتها إلى الأندلس لأسباب عديدة ، إلا أن حاكمها المملوكي استعمل الضغط السياسي، فأرسل راهبين لسفارة مصرية مملوكية، إلى البابا أنوسان الثامن، وإلى ملوك النصرانية ليبين لهم أن النصارى في بلاد المسلمين في منتهى الأمان والاطمئنان والحرية والحماية، والمسلمون تسفك دماؤهم، وتُستحل حرمتهم، وتُغزى أراضيهم في الأندلس وتوعد سلطان المماليك فرديناند إن لم يغير خطته وسياسته تجاه غرناطة، وإلا اضطر إلى تغيير سياسته حيال النصارى في بلاد المسلمين كمعاملة بالمثل، استقبل فرديناند السفيرين، ولم يعبأ بوعيد السلطان الأشرف، ولم يغير خطته، ولكنه كتب إليه في أدب المجاملة: «أنهما – فرديناند وزوجه إيزابيلا – لا يفرقان في المعاملة بين رعاياهما المسلمين والنصارى ، ولكنهما لا يستطيعان صبراً على ترك أرض الآباء والأجداد في يد الأجانب يلقون منهما ما يلقاه الرعايا الآخرون من الرعاية» [1] .

وفشلت المحاولة الدبلوماسية ، وتركت غرناطة إلى قضاءها المحتوم ، ولم ينفذ

---

(١) نهاية الأندلس وتاريخ المنتصرين (ص ٣٦٩).

السلطان تهديده، فلم يضطهد أحداً؛ لأن الإسلام لا يجيز له ذلك. وأخذت المدن تتساقط تباعاً بيد فرديناند، فسقطت المرية في عام (٨٩٥هـ/ ١٤٩٠م).

واستسلمت بشروط هي أنموذج لشروط سقوط باقي القواعد الإسلامية وأهمها:

[١] أن يحتفظ المسلمون بدينهم وشريعتهم وأموالهم.

[٢] تخفف عنهم أعباء الضرائب.

[٣] ألا يولى عليهم يهودي.

[٤] إلا يدخل نصراني في «الجماعة الإسلامية».

[٥] وأن يختار الأولاد الذين يولدون من أمهات نصارى الدين الذي يريدون عند البلوغ.. وغيرها من الشروط إلا أن النصارى لا يلتزمون بشيء من ذلك بل يسبون النساء ويسترقون الرجال ويغتصبون الأموال.

وسقطت الثغور التي كانت تصل غرناطة بالمغرب حيث كانت تفد بعض المتطوعة، وانقطعت الصلة نهائياً بعدوة المغرب والشمال الإفريقي [١].

وتطور سير الأحداث وخضع أبو عبد الله الزغل لملك قشتالة على الرغم من شجاعته وبسالته وبقي الزغل يحكم وادي آش تحت حماية ملك قشتالة، ولم تقبل نفسه الأبية هذا الوضع المهين، فترك الأندلس مهاجراً إلى المغرب، ونزل وهران، ثم استقر في تلمسان حزيناً على ضياع الأندلس.

وبقيت غرناطة وعلى عرشها أبو عبد الله الصغير تنتظر مصرعها والضربة القاضية من النصارى [٢].

في سنة (٨٩٥هـ/ ١٤٩٠م)، أرسل الملكان الكاثوليكيان - فرديناند

---

(١) انظر: مصرع غرناطة (ص ٧٢، ٧٣، ٧٤، ٧٥، ٧٦، ٧٧).

(٢) انظر: مصرع غرناطة (ص ٧٧).

وزوجه إزابيلا - وفداً يطلب تسليم غرناطة من أبي عبد الله الصغير، فثارت نفس عبد الله الصغير لهذا الغدر والخيانة، وأدرك فداحة الخطأ الذي ارتكبه في محالفة هذا الملك الغادر، ومعاونته على بني دينه وعقيدته ووطنه فرفض الانقياد والخضوع وقرر المقاومة وسار فرديناند بجيش تراوح ما بين ٥٠ - ٨٠ ألفاً، مع مدافع وعدد ضخمة، وذخائر وأقوات، وعسكر على ضفاف نهر شنيل على مقربة من غرناطة في ١٢ جمادى الثانية سنة (٨٩٦هـ/ سنة ١٤٩١م) ، وأتلف الزروع والحقول والقرى كي لا تمد غرناطة بأي طعام ، وحاصر غرناطة المدينة الوحيدة المتبقية من عز تليد وملك مديد ضارب في ذاكرة التاريخ السحيق وأصبحت محاطة بالعدو من كل جهاتها.

لقد استبسل المسلمون وتحملوا الحصار بل خرجوا لقتال العدو المحاصر وأفسدوا عليه خططه وتدابيره.

وظهر في تلك المقاومة موسى بن أبي غسان، والذي قرر الموت دون الاستسلام ومن أقواله في ذلك: (ليعلم ملك النصارى أن العربي قد ولد للجواد والرمح، فإذا طمع إلى سيوفنا فليكسبها، وليكسبها غالية، أما أنا فخير لي قبر تحت أنقاض غرناطة في المكان الذي أموت فيه مدافعاً عنه، من أفخر قصور نغنمها بالخضوع لأعداء الدين) (١) .

وتولى موسى قيادة الفرسان المسلمين ، يعاونه نعيم بن رضوان ، ومحمد بن رائدة ، وتولى آل الثغري حراسة الأسوار ، وتولى زعماء القصبة والحمراء حماية الحصون .

وحل الشتاء ، وقلت المؤن والذخائر ، ودخل الوزير المسئول عن غرناطة « أبو القاسم عبد الملك » مجلس أبي عبد الله الصغير ، وقال : إن المؤن الباقية لا

---

(١) **انظر** : مصرع غرناطة (ص ٨١) .

تكفي إلا لأمد قصير ، وإن اليأس قد دبَّ إلى قلوب الجند والعامة ، والدفاع عبث لا يجدي ، ولكن موسى بن أبي غسَّان قرر الدفاع ما أمكن،فقال للفرسان : « لم يبق لنا سوى الأرض التي نقف عليها ، فإن فقدناها فقدنا الاسم والوطن » (١) .

استمر الحصار سبعة أشهر، واشتد الجوع والحرمان والمرض، وأعيد تقييم الموقف في بهو الحمراء فأقر الملأ التسليم إلا موسى بن أبي غسان الذي قال بحزم: «لم تنضب كل مواردنا بعد . . ولنقاتل العدو حتى آخر نسمة، وإنه لخير لي أن أحصى بين الذين ماتوا دفاعاً عن غرناطة من أن أحصى بين الذين شهدوا تسليمها . . » (٢) .

وكانت هذه الكلمات الصادقة تخاطب أناساً انهزموا في داخلهم وخارت عزائمهم، وضعفت معنوياتهم، فقرروا المفاوضة والتسليم، وكلف لهذه المهمة الأليمة الوزير أبو القاسم عبد الملك (٣) جاء في نفح الطيب : « وفي ثاني ربيع الأول من السنة – أعني سنة سبع وتسعين وثمانمائة – استولى النصارى على الحمراء ودخلوها بعد أن استوثقوا من أهل غرناطة بنحو خمسمائة من الأعيان رهناً خوفاً من الغدر، وكانت الشروط سبعة وستين منها : تأمين الصغير والكبير في النفس والأهل والمال وإبقاء الناس في أماكنهم ودورهم ورباعهم وعقارهم، ومنها إقامة شريعتهم على ما كانت، ولا يحكم على أحدهم منهم إلا شريعتهم وأن تبقى المساجد كما كانت والأوقاف كذلك، وأن لا يدخل النصارى دار مسلم ولا يغصبوا أحداً، وأن لا يولى على المسلمين نصراني أو يهودي ممن يتولى عليهم من قبل سلطانهم قبل وأن يفك جميع من أسر في غرناطة من حيث كانوا، وخصوصاً أعياناً نص عليهم، ومن هرب من أسارى المسلمين ودخل

---

(١) **انظر** : مصرع غرناطة (ص ٨٢) .
(٢) **انظر** : مصرع غرناطة (ص ٨٢ ، ٨٣) .
(٣) **انظر** : سقوط غرناطة (ص ٨٣) .

غرناطة لا سبيل عليه لمالكه ولا سواه، والسلطان يدفع ثمنه لمالكه، ومن أراد الجواز للعدوة لا يمنع، ويجوزون في مدة عينت في مراكب السلطان لا يلزمهم إلا الكراء ثم بعد تلك المدة يعطون عشر مالهم من الكراء، وأن لا يؤخذ أحد بذنب غيره، وأن لا يقهر من أسلم على الرجوع للنصارى ودينهم، وأن من تنصر من المسلمين يوقف أياماً حتى يظهر حاله ويحضر له حاكم من المسلمين وآخر من النصارى، فإن أبي الرجوع إلى الإسلام تمادى على ما أراد، ولا يعاقب من قتل نصرانياً أيام الحرب، ولا يؤخذ منه ما سلب من النصارى أيام العداوة، وترفع عنهم جميعهم المظالم والمغارم المحدثة، ولا يطلع نصراني للسور، ولا يتطلع على دور المسلمين، ولا يدخل مسجداً من مساجدهم،ويسير المسلم في بلاد النصاري آمنا في نفسه وماله، ولا يجعل علامة كما يجعل اليهود وأهل الدجن [(١)] .

ولا يمنع مؤذن ولا مصل ولا صائم ولا غيره من أمور دينه، ومن ضحك منهم يعاقب، ويتركون من المغارم سنين معلومة، وأن يوافق على كل الشروط صاحب رومة ويضع خط يده ويقول المقري بعد هذا: «وأمثال هذا مما تركنا ذكره» من الشروط [(٢)] .

يقول الأستاذ محمد عبد الله عنان:

وهذا أفضل ما يمكن الوصول إليه في مثل هذه المحنة، لو أخلص النصارى في عهودهم، لقد ارتضاها المسلمون والشك يساورهم في وفاء أعدائهم، ولما أنسى فرديناند وإزابيلا ريب المسلمين وتوجسهم أعلنا في يوم ٢٩ تشرين الثاني «نوفمبر» مع قسم رسمي بالله أن جميع المسلمين سيكون لهم مطلق الحرية في العمل في أراضيهم ، أو حيث شاءوا، وأن يحتفظوا بشعائر دينهم ومساجدهم كما كانوا، وأن يسمح لمن شاء منهم بالهجرة إلى المغرب، ولكن سوف نرى أن

---

(١) المدجنون هم الذين بقوا من المسلمين تحت حكم الإسبان .

(٢) نفح الطيب (٦/ ٢٧٧/ ٢٧٨) نقلاً عن سقوط غرناطة (ص ٨٣)

الأيمان والعهود لم تكن عند ملكي النصارى سوى ستار للخيانة والغدر، وأن هذه الشروط الخلابة نقضت جميعاً لأعوام قلائل من تسليم غرناطة، ولم يتردد المؤرخ الغربي بروسكوت نفسه أن يصفها بأنها أفضل مادة لتقدير مدى الغدر الإسباني فيما تلا من العصور» (١) وهذا ما تنبأ به فارس الأندلس موسى بن أبي غسان حينما اجتمع الزعماء في بهو الحمراء الكبير ليقعوا على قرار التسليم وقال: «اتركوا العويل للنساء والأطفال، فنحن رجال لنا قلوب لم تخلق لإرسال الدمع، ولكن لتقطر الدماء، وإني لأرى روح الشعب قد خبت حتى ليستحيل علينا أن ننقذ غرناطة وسوف تحتضن أمنا الغبراء أبناءها أحراراً من أغلال الفاتح وعسفه، ولئن لم يظفر أحدنا بقبر يستر رفاته لن يعدم سماء تغطيه، وحاشا لله أن يقال إن أشراف غرناطة خافوا أن يموتوا دفاعاً عنها) (٢) .

وساد سكون الموت في ردهة قصر الحمراء واليأس ماثل في الوجوه، وغاص كل عزم في تلك القلوب الكسيرة ، عندئذ صاح أبو عبد الله الصغير : « الله أكبر لا إله إلا الله محمد رسول الله ، ولا رادَّ لقضاء الله ، تالله لقد كتب لي أن أكون شقياً، وأن يذهب الملك على يدي» (٣) ، وصاح من حوله على: «الله أكبر ولا راد لقضاء الله» وقرروا جميعاً التسليم وأن شروط النصارى أفضل ما يمكن الحصول عليه.

نهض موسى بن أبي غسان وصاح: «لا تخدعوا أنفسكم ولا تظنوا أن النصارى سيوفون بعهدهم، ولا تركنوا إلى شهامة ملكهم، إن الموت أقل ما نخشى، فأما منا نهب مدننا وتدميرها ، وتدنيس مساجدها، وتخريب بيوتنا ، وهتك نسائنا وبناتنا، وأمامنا الجور الفاحش، والتعصب الوحشي والسياط والأغلال، وأمامنا السجون والأنطاق والمحارق وهذا ما سوف نعاني وهو أقل من

(١) نقلاً عن مصرع غرناطة (ص ٨٥) .

(٢) ، (٣) انظر : مصرع غرناطة (ص ٨٦)

الموت الشريف، أما أنا فوالله لن أراه » [١] ، ثم قام وخرج وجاهد حتى استشهد رحمه الله تعالى.

ولقد صاغ الشاعر عدنان مردم بك هذه الصورة على لسان موسى بن أبي غسان فقال:

أنا لن أقر وثيقة	فرضت وأخضع للعدا
ما كان عذري إن جبنت	وخفت أسباب الردى
والموت حق في الرقاب	أطال أم قصر المدى
إني رسمت نهايتي	بيدي ولن أترددا
كنت الحسام لأمتي	واليوم للوطن الفدى
أنا لن أعيش العمر	عبداً بل سأقضي سيدا [٢]

ثالثاً: وصف حي لتسليم غرناطة:

وفي الثاني من ربيع الأول (٨٩٧هـ) ، كانون الثاني -يناير- سنة (١٤٩٢م) وفي وقت الصباح تم تسليم المدينة، فما أن تقدم النصارى الإسبان القشتاليون من تل الرحى صاعدين نحو الحمراء حتى تقدم أبو عبد الله الصغير وهو يلبس أثواب الهزيمة وعلى وجهه العار والشنار وقال للقائد القشتالي بصوت مسموع: « هيا يا سيدي في هذه الساعة الطيبة وتسلم القصور - قصوري باسم الملكين العظيمين اللذين أراد لهما الله القادر أن يستوليا عليها، لفضائلهما وزلات المسلمين» [٣] .

وتم تسليم القصور الملكية والأبراج على يد الوزير ابن كماشة الذي ندبه أبو عبد الله الصغير للقيام بهذه المهمة. وما كاد الكردينال وصحبه يجوزون إلى داخل القصر المنيف حتى صعدوا ووضعوا فوق برجه الأعلى صليباً كبيراً فضياً

---

(١) المصدر السابق نفسه.
(٢) سقوط الأندلس، د. ناصر العمر (ص ٦٥).
(٣) الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس (٣/ ١٢٤).

وبجانبه علم قشتالة وعلم القديس يعقوب ، وأعلن من فوق البرج ثلاثاً أن غرناطة أصبحت ملكاً للملكين الكاثوليكيين.

وأخذ رنين وبكاء يتردد في غرف قصر الحمراء وأبهائه وكانت الحاشية منهمكة في حزم أمتعة الملك المخلوع في ركب قاتم مؤثر يحمل أمواله وأمتعته ومن ورائه أهله وصحبه القلائل وبعض الفرسان المخلصين، وكانت أمه الأميرة عائشة تمتطي صهوة جوادها يشع الحزن من محياها الوقور. وحين بلغ الباب الذي سيغادر منه المدينة إلى الأبد ضج الحراس بالبكاء [١] وتحرك الركب نحو منطقة البشرات وفي شعب من الشعاب المطلة على غرناطة وقف أبو عبد الله الصغير مودعاً لمدينته وملكه، فأجهش بالبكاء على هاتيك الربع العزيزة، فصاحت به أمه عائشة الحرة: «إبك مثل النساء ملكاً مضاعاً لم تحافظ عليه مثل الرجال ».

إن هذه الجملة حري بها أن تكون إطاراً لمأساة غرناطة وقد جمعت فيها كل العبر والأمثلة والحكم.

يقول الأستاذ نجيب زبيب عن هذه الكلمة:

« ولما حاولت التعليق عليها ارتعشت يدي وتساقطت الدموع من عيني أسى وخشوعاً وتهيباً من عظمتها لأنها أصبحت كلمة تاريخية. لا بل وأعظم كلمة قيلت في سقوط غرناطة» [٢] .

ولقد صور أحد الشعراء على لسانها قولها:

تذكر الله باكياً هل يرد الدمع ... مجداً ثوى وعاراً أقاما

هدني فوق خطبنا أنك ابني ... يا لأم تسقى عذاب تؤاما

لم تصن كالرجال ملكاً فأمسى ... ركنه اندك فابكه كالأيامى [٣]

---

(١) نفس المصدر السابق (٣/١٢٥).

(٢) الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس (٣/١٢٦,١٢٧).

(٣) انظر : سقوط الأندلس (ص ٧٠).

يقول المؤرخ عنان: «وتحتل شخصية عائشة الحرة في حوادث سقوط غرناطة مكانة بارزة، ليس ثمة في تاريخ تلك الفترة شخصية تثير من الأعجاب والاحترام، ومن الأسى والشجى قدر ما يثير هذه الأميرة النبيلة من شجاعة وإقدام وتضحية» (١) .

وبعد شهور من مصرع غرناطة غادر أبو عبد الله الصغير إلى المغرب مع أسرته وأمواله، ونزل مدينة مليلة ثم استقر في فارس (٢) ، مستجيراً يالسلطان أبي عبد الله محمد الشيخ زعيم بني وطاس، معتذراً عما أصاب الإسلام في الأندلس على يديه ونظم هذا الاعتذار شعراً أبو عبد الله محمد بن عبد الله العربي العقيلي، وقدمه على لسان أبي عبد الله الصغير لزعيم بني وطاس في رسالة ومنها في مطلعها :

مولى الملوك ملوك العرب والعجم	رعيا لما مثله يرعى من الذمم
بك استجرنا ونعم الجار أنت لمن	جار الزمان عليه جور منتقم
حتى غداً ملكه بالرغم مستلباً	وأفظع الحظ ما يأتي على الرغم
حكم من الله حتى لا مرد له	وهل مرد لحكم منه منحتم
وهي الليالي وقاك الله صولتها	تصول حتى على الآساد في الأجم
كنا ملوكاً لنا في أرضنا دول	نمنا بها أفنان من النعم
فأيقظتنا سهام للردى صبب	يرمي بأفجع حتف من بهن رمي
فلا تنم تحت الملك نومتنا	وأي ملك بظل الملك لم ينم
يبكي عليه الذي قد كان يعرضه	بأدمعٍ مزجت أمواهها بدم (٣)

(١) نهاية الأندلس بتصرف (ص ١٩٧)، نقلاً عن سقوط الأندلس (ص ٦٩) .
(٢) **انظر** : سقوط الأندلس (ص ٧٠) .
(٣) نفح الطيب (٦/ ٢٧٨) نقلاً عن سقوط غرناطة (ص ٩٦) .

ومرت سنون، وخبا أثر مصرع الأندلس شيئاً فشيئاً في نفوس المسلمين، وأسدل ستار من النسيان عليه، ولكن مأساة المسلمين المنتصرين «أو المور يسكين» لم تقف، وظهرت محاكم التفتيش التي هدفت إلى إبادة المسلمين في الأندلس.

لقد بدأت بمصرع غرناطة مرحلة مؤلمة ومؤسفة لشعب مغلوب، وعدو خائن نقض شروط المعاهدة بنداً بنداً ، فمنعوا المسلمين من النطق بالعربية في الأندلس، وفرضوا إجلاء العرب المتواجدين فيها ، وحرق من بقي منهم، وزاد الكردينال «كمينسس» على ذلك، فأمر بجمع كل ما يستطاع جمعه من الكتب العربية ونظمت أكداساً في أكبر ساحات المدينة، وفيها علوم لا تقدر بثمن، بل هي خلاصة ما تبقي من التفكير الإنساني وأحرقها [١] ، ولقد ظن رئيس الأساقفة بفعله ذلك أنه سوف يقضي على الإسلام في إسبانيا وأنى هذا له، وقد تركت حضارة الإسلام في الأندلس من آثار ما يكفي لتخليد ذكرها على مر الدهور وكر العصور وإن للإسلام جولة وصولة من جديد بإذن الله في ديارنا التي سلبت من أيدينا ، وسيكون ذلك قريباً عندما يمكن الله لهذه الأمة وإنها لتمر في مراحلها المعاصرة نحو وعد الله بالنصر والفوز والفلاح، ﴿**وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا**﴾ [الإسراء : ٥١] .

رابعاً: محاكم التفتيش:

هدفت إلى تنصير المسلمين بإشراف السلطات الكنسية، وبأشد وسائل العنف، ولم تكن العهود التي قطعت للمسلمين لتحول دون النزعة الصليبية، التي اسبغت على السياسة الإسبانية الغادرة ثوب الدين والورع ولما رفض المسلمون عقائد النصارى ودينهم المنحرف وامتنعوا عنه وكافحوه، اعتبرهم

---

(١) انظر : سقوط غرناطة(ص ٩٨) .

نصارى الإسبان ثواراً وعملاء لجهات خارجية في المغرب والقاهرة والقسطنطينية، وبدأ القتل فيهم وجاهد المسلمون ببسالة في غرناطة والبيازين والبشرات، فمزقوا بلا رأفة ولا شفقة ولا رحمة وفي تموز (يولية) ١٥٠١م أصدر الملكان الكاثوليكيان أمراً خلاصته « أنه لما كان الله قد اختارهما لتطهير مملكة غرناطة من الكفرة، فإنه يحظر وجود المسلمين فيها ، ويعاقب المخالفون بالموت أو مصادرة الأموال ».

فهاجرت جموع المسلمين إلى المغرب ناجية بدينها، ومن بقي من المسلمين أخفى إسلامه وأظهر تنصره، فبدأت محاكم التفتيش نشاطها الوحشي المروع،فعند التبليغ عن مسلم أنه يخفي إسلامه ، يزج به في السجن وكانت السجون مظلمة عميقة رهيبة، تغصُّ بالحشرات والجرذان ، يقيد فيها المتهمون بالأغلال بعد مصادرة أموالهم، لتدفع نفقات سجنهم. ومن أنواع التعذيب، ملء البطن بالماء حتى الاختناق، وربط يدي المتهم وراء ظهره، وربطه بحبل فوق راحته وبطنه ورفعه وخفضه معلقاً ، سواء بمفرده أو مع أثقال تربط معه، والأسياخ المحمية، وسحق العظام بآلات ضاغطة، وتمزيق الرجل وفسخ الفك.. ولا يوقف التعذيب إلا إذا رأى الطبيب أن حياة المتهم في خطر، ولكن التعذيب يستأنف متى عاد المتهم إلى رشده أو جف دمه [١] .

وقرار المحكمة لا يمكن استئنافه ، وهو إما سجن مؤبد، أو مصادرة أموال وتهجير، أو إعدام حرقاً ، وهو الحكم الغالب عند الأحبار الذين يشهدون مع الملكين الكاثوليكيين حفلات الإحراق [٢] .

ومما يذكر .. أن هناك عذاباً اختص به النساء وهو تعرية المرأة إلا ما يستر عورتها، وكانوا يضعون المرأة في مقبرة مهجورة ويجلسونها على قبر من القبور،

---

(١) **انظر** : محاكم التفتيش(ص ٩١) نقلاً عن سقوط غرناطة(ص ١٠٠) .
(٢) **انظر** : سقوط غرناطة(ص ١٠٠) .

ويضعون رأسها بين ركبتيها ويشدون وثاقها، وهي على هذه الحالة السيئة، ولا يمكنها الحراك، وكانوا يربطونها إلى القبر بسلاسل حديدية، ويرخون شعرها فيجللها وتظهر لمن يراها عن كثب كأنما هي جنية لاسيما إذا ما أرخى الليل سدوله، وتترك المسكينة على هذه الحال إلى أن تجن أو تموت جوعًا ورعباً (١) .

« لقد قام النصارى بإجبار المسلمين على الدخول في دينهم، وصارت الأندلس كلها نصرانية، ولم يبق فيها من يقول: لا إله إلا الله، محمد رسول الله ، إلا من يقولها في قلبه، وفي خفية من الناس وجعلت النواقيس في صوامعها بعد الأذان،وفي مساجدها الصور والصلبان، بعد ذكر الله وتلاوة القرآن، فكم فيها من عين باكية وقلب حزين، وكم فيها من الضعفاء والمعذورين ، لم يقدروا على الهجرة واللحاق بإخوانهم المسلمين قلوبهم تشتعل ناراً، ودموعهم تسيل سيلاً غزيراً، وينظرون إلى أولادهم وبناتهم يعبدون الصلبان، ويسجدون للأوثان، ويأكلون الخنزير والميتات، ويشربون الخمر التي هي أم الخبائث والمنكرات، فلا يقدرون على منعهم ولا على نهيهم فيا لها من طامة ما أكبرها » (٢) .

« وانطفأ من الأندلس الإسلام والإيمان ، فعلى هذا فليبك الباكون، ولينتحب المنتحبون، فإنا لله وإنا إليه راجعون، كان ذلك في الكتاب مسطوراً وكان أمر الله قدراً مقدوراً» (٣) .

لقد كانت محاكم التفتيش والتحقيق مضرب المثل في الظلم والقهر والتعذيب.

كانت تلك المحاكم والدواوين تلاحق المسلمين حتى تظفر بهم بأساليب بشعة تقشعر لها القلوب والأبدان.

---

(١) انظر : محاكم التفتيش (ص ٩٣) ، نقلاً عن سقوط غرناطة (ص ١٠٩) .
(٢) انظر : نهاية الأندلس (ص ٣٢١) ، نقلاً عن سقوط الأندلس (ص ٧٢) .
(٣) انظر : سقوط الأندلس (ص ٧٢) .

فإذا علم أن رجلاً اغتسل يوم الجمعة يصدر في حقه حكماً بالموت ، وإذا وجدوا رجلاً لابساً للزينة يوم العيد عرفوا أنه مسلم فيصدر في حقه الإعدام.

لقد تابع النصارى الصليبيون المسلمين، حتى إنهم كانوا يكشفون عورة من يشكون أنه مسلم فإذا وجدوه مختوناً أو كان أحد عائلته كذلك عُلم أنَّ الموت نهايته هو وأسرته [١] .

وكان دستور محاكم التفتيش في ديوان التحقيق يجيز محاكمة الموتى والغائبين وتصدر الأحكام في حقهم وتوقع العقوبات عليهم كالأحياء. فتصادر أموالهم وتعمل لهم تماثيل تنفذ فيها عقوبة الحرق. أو تنبش قبورهم وتستخرج رفاتهم لتحرق في موكب «الأوتودافي» وكذلك يتعدى أثر الأحكام الصادرة بالإدانة من المحكوم عليه إلى أسرته وولده فيقضى بحرمانهم من تولى الوظائف العامة وامتهان بعض المهن الخاصة [٢] .

وكان أعضاء محاكم التفتيش يتمتعون بحصانة خارقة وسلطان مطلق تنحني أمامه أية سلطة وتحمي أشخاصهم وتنفذ أوامرهم بكل دقة ، وكان من جراء هذه السلطة المطلقة أن ذاع في هذه المحاكم العسف وسوء استعمال السلطة والقبض على الأثرياء بل كثيراً ما وجد بين المحققين رجال من طراز إجرامي لا يتورعون عن ارتكاب الغصب والرشوة وكانت أحكام الغرامة والمصادرة أخصب مورد لاختلاس المحققين والمأمورين وعمال الديوان وقضاته. وكانت الخزينة الملكية ذاتها تغنم مئات الألوف من هذا المورد. هذا بينما يموت أصحاب الأموال الطائلة في السجن جوعاً.

وكان العرش يعلم بهذه الآثام الكثيرة ولا يستطيع دفعاً لها ؛ ولأنه كان يرى

---

(١) انظر : سقوط الأندلس (ص ١٠) .
(٢) انظر : ديوان التحقيق والمحاكمات الكبرى ، محمد عبد الله عنان (ص٢٤ / ٣٢) ، نقلاً عن الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس (٣/ ٢٢٢) .

فيها في الوقت نفسه أصلح أداة لتنفيذ سياسته في إبادة الموريسكيين الذين ظلوا دائماً موضع البغض، والريب وأبت إسبانيا النصرانية بعد أن أرغمتهم على اعتناق دينها أن تضمهم إلى حظيرتها وأبت الكنيسة الإسبانية أن تؤمن بإخلاصهم لدينهم الجديد، ولبثت تتوجس من رجعتهم وحنانهم لدينهم القديم وترى فيهم دائما منافقين مارقين.

وإليك ما يقوله في ذلك مؤرخ إسباني كتب قريباً من ذلك العصر وأدرك الموريسكيين وعاش بينهم حيناً في غرناطة. وكانوا يشعرون دائماً بالحرج من الدين الجديد فإذا ذهبوا إلى القداس في أيام الآحاد فذلك فقط من باب مراعاة العرف والنظام. وهم لم يقولوا الحقائق قط خلال الاعتراف وفي يوم الجمعة يحتجبون ويغتسلون ويقيمون الصلاة في منازلهم وفي أيام الآحاد يحتجبون ويعملون. وإذا عمدوا أطفالهم عادوا فغسلوهم سراً بالماء الحار. ويسمون أولادهم بأسماء عربية وفي حفلات الزواج متى عادت العروس من الكنيسة بعد تلقي البركة تنزع ثيابها النصرانية وترتدي الثياب العربية ويقيمون حفلاتهم وفقاً للتقاليد العربية [١].

وقد وصلت إلى المؤرخين وثيقة هامة تلقي ضوءاً أكبر على أحوال الموريسكيين في ظل التنصير وتعلقهم بدينهم القديم، وكيف كانوا يتحايلون لمزاولة شعائرهم الإسلامية خفية ويلتمسون من جهة أخرى سائر الوسائل والأعذار الشرعية التي يمكن أن تبرر مسلكهم وتشفع لهم لدى ربهم [٢].

خامساً: فتاوى هامة:

وهذه الفتاوى عبارة عن رسالة وجهت من أحد فقهاء المغرب إلى المسلمين الذين أُكرهوا على التنصر، حيث قدم لهم بعض النصائح التي تعاون اتباعها على

(١) أي: الأحكام الإسلامية.

(٢) انظر: الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس (٣/٢٢٣).

تنفيذ أحكام الإسلام عند الإكراه من قبل القوة النصرانية الحاقدة، وكان تاريخ هذه الرسالة سنة (٩١٠هـ/ ٢٨ نوفمبر ١٥٠٤م) .

وهذا نص الفتاوى :

«الحمد لله والصلاة على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً»

إخواننا القابضين على دينهم، كالقابض على الجمر، من أجزل الله ثوابهم فيما لقوا في ذاته. وصبروا النفوس والأولاد في مرضاته، الغرباء القرباء إن شاء الله من مجاورة نبيه في الفردوس الأعلى من جناته، وارثوا سبيل السلف الصالح في تحمل المشاق وإن بلغت النفوس إلى التراق، نسأل الله أن يلطف بنا وأن يعيننا وإياكم على مراعاة حقه بحسن إيمان وصدق، وأن يجعل لنا ولكم من الأمور فرجاً ومن كل ضيق مخرجاً، بعد السلام عليكم من كاتبه إليكم، من عبيد الله أصغر عبيده وأحوجهم إلى عفوه ومزيده، عبيداً لله تعالى أحمد ابن بوجمعة المغراوي ثم الوهراني. كان الله للجميع بلطفه وستره، سائلاً من إخلاصكم وغربتكم حسن الدعاء بحسن الخاتمة والنجاة من أهوال هذه الدار والحشر مع الذين أنعم الله عليهم من الأبرار ومؤكداً عليكم في ملازمة دين الإسلام، آمرين به من بلغ أولادكم،أن لم تخافوا دخول شر عليكم من إعلام عدوكم بطويتكم، فطوبى للغرباء الذين يصلحون إذا فسد الناس، وإن ذكر الله بين الغافلين كالحي بين الموتى ، فاعلموا أن الأصنام خشب ومنجور وحجر جلمود لا يضر ولا ينفع وأن الملك لله ، ما اتخذ الله من ولد، وما كان معه من إله. فاعبدوه واصطبروا لعبادته، فالصلاة ولو بالإيماء، والزكاة ولو كأنها هدية لفقيركم أو رياء لأن الله لا ينظر إلى صوركم، ولكن إلى قلوبكم، والغُسل من الجنابة ولو عوماً في البحور وإن منعتكم فالصلاة قفاء بالليل لحق النهار وتسقط في الحكم طهارة الماء ، وعليكم بالتيمم ولو مسحاً بالأيدي للحيطان، فإن لم يكن فالطهور سقوط الصلاة وقضاؤها لعدم الماء والصعيد إلا أن يمكنكم الإشارة إليه يالأيدي والوجه

إلى تراب طاهر حجر أو شجر مما يتيمم به، فاقصدوا بالإيماء. نقله ابن ناجي في شرح الرسالة لقوله ﷺ فأتوا منه ما استطعتم. وإن أكرهوكم في وقت صلاة إلى السجود للأصنام أو حضور صلاتهم فأحرموا بالنية وانووا صلاتكم المشروعة وأشيروا لما يشيرون إليه من صنم ومقصودكم الله. وإن كان لغير القبلة تسقط في حقكم كصلاة الخوف عند الالتحام، وإن أجبروكم على شرب خمر، فاشربوه لا بنية استعماله. وإن كلفوا عليكم خنزيراً فكلوه ناكرين إياه بقلوبكم ومعتقدين تحريمه. وكذا إن أكرهوكم على محرم. وإن زوجوكم بناتهم فجائز لكونهم أهل الكتاب وإن إكرهوكم على إنكاح بناتكم منهم فاعتقدوا تحريمه لولا الإكراه، وأنكم ناكرون لذلك بقلوبكم ولو وجدتم قوة لغير تموه. وكذا إن أكرهوكم على ربا أو حرام فافعلوا منكرين بقلوبكم، ثم ليس عليكم إلا رءوس أموالكم وتتصدقوا بالباقي، إن تبتم لله تعالى وإن أكرهوكم على كلمة الكفر فإن أمكنكم التوبة فافعلوا ، وإلا فكونوا مطمئنين القلوب بالإيمان إن نطقتم بها ناكرين لذلك وإن قالوا اشتموا محمداً فإنهم يقولون له ممد، فاشتموا ممداً، ناوين أنه الشيطان أو ممد اليهود فكثير بهم اسمه، وإن قالوا عيسى توفي بالصلب فانووا من التوفية الكمال والتشريف من هذه وإماتته وصلبه وإنشاد ذكره إظهار الثناء عليه بين الناس وأنه استوفاه الله برفعه إلى العلو وما يعسر عليكم فابعثوا فيه إلينانرشدكم إن شاء الله على حسب ما تكتبون به. وأنا أسأل الله أن يديل الكرة للإسلام حتى تعبدوا الله ظاهراً بحول الله من غير محنة ولا وجلة بل بصدمة الترك الكرام. ونحن نشهد لكم بين يدي الله أنكم صدقتم الله ورضيتم به ولا بد من جوابكم والسلام عليكم جميعاً . بتاريخ غرة رجب عام عشرة وتسعمائة عرف الله خبره «يصل إلى الغرباء إن شاء الله تعالى» [١] .

---

(١) هذه الفتاوى عثر عليها الأستاذ محمد عبد الله عنان خلال بحوثه في مكتبة الفاتيكان بروما، انظر : الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس (١ / ٢٢٥) .

سادساً: القواعد النصرانية الإسبانية في معاملة من أكرهوا على النصرانية :

لقد نقل المؤرخ (الدون روني) مؤرخ ديوان التفتيش الإسباني وثيقة من أغرب الوثائق القضائية تضمنت طائفة من القواعد والأصول التي رأى الديوان المقدس أن يأخذ بها المسلمون المتنصرون في تهمة الكفر والمروق، وإليك ما ورد في تلك الوثيقة الغريبة [١] .

« يعتبر الموريسكي [٢] أو العربي المتنصر قد عاد إلى الإسلام: إذا امتدح دين محمد، أو قال إن يسوع المسيح ليس إلهاً وليس إلا رسولاً . أم أن صفات العذراء أو اسمها لا تناسب أمه، ويجب على كل نصراني أن يبلغ عن ذلك . ويجب عليه أيضاً أن يبلغ عما إذا كان قد رأى أو سمع بأن أحداً من الموريسكيين يباشر العادات الإسلامية . ومنها أن يأكل اللحم في يوم الجمعة وهو يعتقد أن ذلك مباح . وأن يحتفل يوم الجمعة بأن يرتدي ثياباً أنظف من ثيابه العادية . أو يستقبل المشرق قائلاً باسم الله، أو يوثق أرجل الماشية قبل ذبحها، أو يرفض أكل تلك التي لم تذبح، أو ذبحتها امرأة . أو يختن أولاده أو يسميهم بأسماء عربية، أو يعرب عن رغبته في اتباعه هذه العادة، أو يقول : إنه يجب ألا يعتقد إلا بالله وبرسوله محمد، أو يقسم بأيمان القرآن، أو يصوم رمضان ويتصدق خلاله، ولا يأكل ولا يشرب إلا عند الغروب ، أو يتناول الطعام قبل الفجر (السحور) أو يمتنع عن أكل لحم الخنزير وشرب الخمر . أو يقوم للوضوء والصلاة . بأن يوجه نحو الشرق ويركع ويسجد ويتلو سوراً من القرآن . أو أن يتزوج طبقاً لرسوم الشريعة الإسلامية . أو ينشد الأغاني العربية . أو يقيم حفلات الرقص والموسيقى العربية . أو أن يستعمل النساء الخضاب في أيديهن أو شعورهن، أو يتبع قواعد محمد الخمس، أو يلمس بيديه على رءوس أولاده أو غيرهم تنفيذاً لهذه

---

(١) **انظر** : الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس (٣/ ٢٢٦) .

(٢) الموريسكي يطلق على المسلم الذي أكره على الدخول في النصرانية .

القواعد. أو يغسل الموتى ويكفنهم في أثواب جديدة أو يدفنهم في أرض بكر. أو يغطي قبورهم بالأغصان الخضراء أو أن يستغيث بمحمد وقت الحاجة منعتاً إياه بالنبي ورسول الله. أو يقول: إن الكعبة أول معابد الله، أو يقول إنه لم ينصر إيماناً بالدين المقدس، أو أن آباءه وأجداده قد غنموا رحمة الله؛ لأنهم ماتوا مسلمين..» [١].

لقد استمرت محاكم التفتيش الظالمة وأصبح لهذا العمل الفظيع والحقير تلاميذ في الديار الإسلامية والعربية، يمارسون القهر والظلم والجور بكل أنواعه على أبناء المسلمين الذين يطلبون بإعادة نظام الحكم الإسلامي في كافة حياتهم، إنها حلبة الصراع بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والعدل، والظلم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

لقد استمرت محاكم التفتيش قروناً عدة، وعندما احتل نابليون إسبانية بعد قيام الثورة الفرنسية أصدر مرسوماًسنة ١٨١٨م بإلغاء محاكم التفتيش في إسبانيا، ولكن رهبان «الجزويت» أصحاب المحاكم الملغاة استمروا في القتل والتعذيب، فشمل ذلك الجنود الفرنسيين، فأرسل المريشال «سولت» الحاكم العسكري الفرنسي لمدريد الكولونيل «ليمونكي» مع ألف جندي وأربعة مدافع، وهاجم دير الديوان، وبعد احتلال الدير وتفتيشه عنوة لم يعثروا على شيء فقرر الكولونيل «ليموتكي» فحص الأرض، وعند ذلك نظر الرهبان إلى بعضهم نظرات قلقة فأمر الكولونيل جنده برفع الأبسطة، فرفعت، ثم أمر بأن يصبوا الماء بكثرة في أرض كل غرفة على حدة، ففعلوا. فإذا الماء يتسرب إلى أسفل إحدى الغرف، فعرفوا أن الباب من هنا يفتح بطريقةماكرة بواسطة حلقة صغيرة، وضعت إلى جوار رجل مكتب الرئيس. وفتح الباب بقحوف البنادق، واصفرت

---

(١) الموسوعة العامة لتاريخ المغرب(٣/٢٢٦,٢٢٧).

وجوه الرهبان وكستها غبرة. وظهر سلم يؤدي إلى باطن الأرض ونزل القائد الكولونيل وجنده. ويذكر هذا الإنسان في مذكراته ما يلي [١] .

فإذا نحن في غرفة كبيرة مربعة، وهي عندهم قاعة المحكمة، في وسطها عمود من الرخام، به حلقة حديدية ضخمة، ربطت بها سلاسل، كانت الفرائس تقيد بها رهن المحاكمة وأمام ذلك العمود عرش «الدينونة» كما يسمونه، وهو عبارة عن «دكة» عالية يجلس عليها رئيس الديوان [٢] ، وإلى جانبيه مقاعد أخرى أقل ارتفاعاً معدة لجلوس جماعة القضاة ثم تواجهها غرف آلات التعذيب، وتمزيق الأجسام البشرية. وقد امتدت تلك الغرف مسافات كبيرة تحت الأرض. وقد رأيت بها ما يستفز نفسي، ويدعوني إلى التقزز ما حييت رأينا غرفاً صغيرة في حجم جسم الإنسان، بعضها عمودي وبعضها أفقي، فيبقي سجين الأفقية ممداً بها حتى يموت. وتبقى الجثة في السجن الضيق حتى تبلى، ويتساقط اللحم عن العظم، ولتصريف الروائح الكريهة المنبعثة من الأجداث البالية تفتح كوة صغيرة إلى الخارج، وقد عثرنا على عدة هياكل بشرية ما زالت في أغلالها سجينة.

والسجناء كانوا رجالاً ونساءً تختلف أعمارهم بين الرابعة عشرة والسبعين، ، واستطعنا فكاك بعض السجناء الأحياء وتحطيم أغلالهم، وهم على آخر رمق من الحياة ، وكان فيهم من جن لكثرة ما لاقى من عذاب ، وكان السجناء عرايا زيادة في النكاية بهم ، حتى اضطر جنودنا أن يخلعوا أرديتهم ويستروا بها لفيفاً من النساء السجينات.

وانتقلنا إلى غرف أخرى فرأينا هناك ما تقشعر لهوله الأبدان ، عثرنا على آلات لتكسير العظام، وسحق الجسم وكانوا يبدءون بسحق عظام الأرجل، ثم عظام

---

(١) **انظر** : التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام ، لمحمد الغزالي نقلاً عن مصرع غرناطة .
(٢) رئيس ديوان محكمة التفتيش .

الصدر والرأس واليدين، وذلك كله على سبيل التدريج حتى تأتي الآلة على البدن المهشم، فيخرج من الجانب الآخر كتلة واحدة

وعثرنا على صندوق في حجم رأس الإنسان تماماً، يوضع فيه الرأس المعذب، بعد أن يربط صاحبه بالسلاسل في يديه ورجليه فلا يقوى على الحركة وتقطر على رأسه من ثقب في إعلى الصندوق نقط الماء البارد، فتقع على رأسه بانتظام في كل دقيقة نقطة. وقد جن الكثيرون من ذلك اللون من العذاب، قبل أن يحملوا به على الاعتراف، ويبقي المعذب على حاله تلك حتى يموت (١) .

وعثرنا على آله ثالثة للتعذيب تسمى السيدة الجميلة، وهي عبارة عن تابوت تنام فيه صورة فتاة جميلة مصنوعة على هيئة الاستعداد لعناق من ينام معها ، وقد برزت من جوانبها عدة سكاكين حادة. وكانوا يطرحون الشاب المعذب فوق هذه الصورة. ثم يطبقون عليه باب التابوت بسكاكينه وخناجره، فإذا أغلق مزق الشاب وتقطع إرباً إرباً.

كما عثرنا على جملة آلات لسل اللسان ، ولتمزيق أثداء النساء ، وسحبها من الصدور بواسطة كلاليب فظيعة، ومجالد من الحديد الشائك لضرب المعذبين وهم عرايا حتى يتناثر اللحم عن العظم.

ولما شاهد الناس بأعينهم وسائل التعذيب جن جنونهم وانطلقوا – كمن به مس – فأمسكوا برئيس الدير ووضعوه في آلة التكسير، فدقت عظامه دقاً، وسحقتها سحقاً.

وأمسكوا أمين سره، وزفوه إلى السيدة الجميلة، وأطبقوا عليهماالأبواب، فمزقته السكاكين شر ممزق، ثم أخرجوا الجثيين، وفعلوا بسائر العصابة وبقية الرهبان كذلك (٢) .

(١) **انظر** : مصرع غرناطة (ص ١١٢) .
(٢) **انظر** : مصرع غرناطة (ص ٩٣) .

قلت: ومن سنن الله الجارية تسليط بعض الظالمين على بعض ؛ ولذلك انتقم الله من هؤلاء القساوسة والمتوحشين الذين نزعت من قلوبهم أدنى مشاعر وأحاسيس الإنسانية وانقادوا في حزب الشيطان اللعين.

سابعاً: أهم أسباب سقوط غرناطة والأندلس عموماً:

﴿١﴾ تفتت كيان الشمال الإفريقي بعد سقوط دولة الموحدين حيث تحملت دولة بني مرين حمل الجهاد وحدها في الأندلس ، إلا أنها ضعفت وعجزت عن أداء رسالتها الجهادية في الدفاع عن ما تبقى للإسلام في الأندلس.

﴿٢﴾ سعى ممالك إسبانيا نحو الاتحاد وتم ذلك في الزواج السياسي الهام الذي تم بين (فرناندو) الذي أصبح ملكاً لمملكة أرجون ، وإيزابيلا التي تبوأت عرش مملكة قشتالة فيما بعد، ثم اتحدت المملكتان النصرانيتان وتعاونتا معاً بعد اتحادهما على القضاء كلية على سلطان المسلمين السياسي في الأندلس [١] .

﴿٣﴾ الانغماس في الشهوات والركون إلى الدعة والترف وعدم إعداد الأمة للجهاد.

يقول المؤرخ النصراني كوندي: (العرب هووا عندما نسوا فضائلهم التي جاءوا بها ، وأصبحوا على قلب متقلب يميل إلى الخفة والمرح والاسترسال بالشهوات) [٢] .

أما شوقي أبو خليل فيقول: (والحقيقة تقول: إن الأندلسيين في أواخر أيامهم ألقوا بأنفسهم في أحضان النعيم، وناموا في ظل ظليل من الغنى والحياة العابثة، والمجون،وما يرضي الأهواء من ألوان الترف الفاجر، فذهبت أخلاقهم كما ماتت فيهم حمية آبائهم البواسل ، الذين كانوا يتدربون على السلاح منذ نعومة أظفارهم، ويرسلون إلى الصحراء ليتمرسوا على الحياة الخشنة الجافية وغدا

---

(١) انظر : مصرع غرناطة (ص ٩٣) .
(٢) انظر : مصرع غرناطة (ص ٩٤) .

التهتك، والإغراق في المجون، واهتمام النساء بمظاهر التبرج والزينة والذهب واللآلىء.

لقد ديست التقاليد وانتشر المجون وبحث الناس عن اللذة في مختلف صورها، فكانت الخمور والقيان والمتع، وأقبلوا على الحياة يعبون من بحرها ويسكرون بعطرها، لقد استناموا للشهوات والسهرات الماجنة، والجواري الشاديات، وبحكم البديهة فإن شعباً يهوي إلى هذا الدرك من الانحلال والميوعة والمجون، لا يستطيع أن يصمد رجاله لحرب أو جهاد، أو يتكون منهم جيش قوي، كفء للحرب والمصاولة) [(١)] .

لقد تنافس الولاة والحكام في الجواري حتى أصبحت ساحات للمعارك والقتال، وأصبح الاقتران بالنصرانيات سنة متبعة بينهم، وقف عند هذه الحادثة: ذكر المؤرخين أن وفاة ابن هود **عام ٦٣٥هـ** كانت على يد وزيره محمد الرميمي بسبب النزاع حول فتاة نصرانية كانت لابن هود، فدبر له مكيدة قتل بها.

أهذه قيادة تستحق أن تحكم رقاب أمة محمد ﷺ [(٢)] دخل المسلمون الأندلس وأصبحوا ساداتها عندما كان نشيد طارق في العبور «الله أكبر»، وبقينا فيها زمناً حين كان يحكمها أمثال عبد الرحمن الداخل عندما قدم إليه خمر ليشرب قال: إني محتاج لما يزيد في عقلي لا ما ينقصه [(٣)] .

يقول الدكتور عبد الرحمن الحجي عن الفاتحين الأوائل للأندلس:

(كانت غيرة هؤلاء المجاهدين شديدة على إسلامهم، فدوه بالنفس وهي عندهم له رخيصة، فهو أغلى من حياتهم أشربت نفوسهم حبه، غدا تصورهم وفكرهم ونورهم وربيع حياتهم) [(٤)] .

وضاعت ممالك الأندلس من أيدي المسلمين عندما كان نشيد أحفاد الفاتحين

---

(١) مصرع غرناطة (ص ٩٤).
(٢) انظر : سقوط الأندلس (ص ٢٩).
(٣) المصدر السابق (ص ٢٧).
(٤) انظر : التاريخ الأندلسي (ص ٢١١).

دَوْزن العود وهات القدحا راقت الخمرة والورد صحا [(١)]

وعندما قصد الإفرنج بلنسية لغزوها عام (٤٥٦هـ) خرج أهلها للقائهم بثياب الزينة فكانت وقعة بطرنة التي قال فيها الشاعر أبو إحسان بن معلى:

لبسوا الحديد إلى الوغى ولبستم حلل الحرير عليكم ألواناً

ما كان أقبحهم وأحسنكم بها لو لم يكن ببطرنة ما كانا [(٢)]

﴿٤﴾ الاختلاف والتفرق بين المسلمين ، ولو نظرت إلى تاريخ العلاقات بين مملكة غرناطة ودولة بني مرين وبني عبد الواد الحفصية لوجدت أمراً فظيعاً،وصل إلى حد الاشتباك والقتال بين المسلمين؛ بل أكثر من ذلك حيث تحالف المسلمون مع النصارى ضد إخوانهم في العقيدة من أجل شهوة السلطة، وكان هذا التفرق الذميم منذ ملوك الطوائف، بل إن التفرق من أبرز سمات عصر ملوك الطوائف .

قال ابن المرابط واصفاً حال المسلمين :

مابال شمل المسلمين مبدد فيها وشمل الضد غير مبدد

ماذا اعتذاركم غداً لنبيكم وطريق هذا الغدر غير ممهد

إن قال لم فرطتم في دينكم وتركتموه للعدو المعتدي

تالله لو أن العقوبة لم تخف لكفى الحيا من وجه ذاك السيد [(٣)]

إن سُنَّة الله تعالى ماضية في الأمم والشعوب لا تتبدل ولا تتغير ولا تجامل، وجعل سبحانه وتعالى من أسباب هلاك الأمم الاختلاف، وقال ﷺ في حديث أخرجه إمام المحدثين البخاري رحمه الله تعالى: « **فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا** » وفي رواية «**فأهلكوا**» [(٤)] .

---

(١) **انظر** : النصر والهزيمة لشوقي أبو خليل (ص ١٢٣) .

(٢) **انظر** : فقه التمكين عند دولة المرابطين ، لعلي محمد الصلابي (ص ٩٠) .

(٣) **انظر** : سقوط الأندلس (ص ٣٣) .

(٤) صحيح البخاري ، بشرح ابن حجر (٩/ ١٠١،١٠٢) .

وعند ابن حبان والحاكم عن ابن مسعود ﷺ: «**فإنما أهلك من كان قبلكم الاختلاف**» [(١)].

قال ابن حجر العسقلاني: «وفي الحديث والذي قبله الحض على الجماعة والألفة والتحذير من الفرقة والاختلاف» [(٢)].

وقال ابن تيمية رحمه الله: «وأمرنا الله تعالى بالاجتماع والائتلاف ونهانا عن التفرق والاختلاف» [(٣)].

والاختلاف المهلك للأمة هو الاختلاف المذموم، وهو الذي يؤدي إلى تفرقها وتشتتها وانعدام التناصر فيما بين المختلفين كل طرف يعتقد بطلان ما عند الطرف الآخر، وقد يؤل الأمر إلى استباحة قتال بعضهم بعضاً [(٤)].

«وإنما كان الاختلاف علة لهلاك الأمة كما جاء في حديث رسول الله ﷺ؛ لأن الاختلاف المذموم الذي ذكرنا بعض أوصافه يجعل الأمة فرقاً شتى مما يضعف الأمة؛ لأن قوتها وهي مجتمعة أكبر من قوتها وهي متفرقة، وهذا الضعف العام الذي يصيب الأمة بمجموعها يجرىء العدو عليها فيطمع فيها ويحتل أراضيها ويستولي عليه ويستبعدها ويمسخ شخصيتها وفي ذلك انقراضها وهلاكها»[(٥)].

إن من الدروس المهمة في هذه الدراسة التاريخية أن نتوقي الهلاك بتوقي الاختلاف المذموم، لأن الاختلاف كان سبباً من الأسباب في ضياع الأندلس وهلاكها واندثارها وإن أخطر ما نعاني منه الأن الخلاف في صفوف الحركات الإسلامية التي تقوم بواجب الدعوة إلى الله تعالى وهذا الخلاف قد يؤدي ضعف الحركات العاملة إذا لم نأخذ بسبل الوقاية منه .

---

(١)، (٢) المصدر السابق (٩/٢٠٢).

(٣) انظر: مجموع الفتاوى (١٩/١١٦).

(٤) انظر: السُنن الإلهية، د. عبد الكريم زيدان (ص ١٣٩).

(٥) انظر: السُنن الإلهية (ص ١٣٩).

يقول الشيخ عبد الكريم زيدان : « والاختلاف كما يضعف الأمة ويهلكها يضعف الجماعة المسلمة التي تنهض بواجب الدعوة إلى الله ثم يهلكها؛ ولهذا كان شر ما تبتلى به الجماعة المسلمة وقوع الاختلاف المذموم فيما بينها بحيث يجعلها فرقاً شتى، بحيث ترى كل فرقة أنها على حق وصواب وأن غيرها على خطأ وضلال، وتعتقد كل فرقة أنها هي التي تعمل لمصلحة الدعوة، وهيهات أن تكون الفرقة والتشتت والاختلاف المذموم في مصلحة الدعوة أو أن مصلحة الدعوة تأتي عن طريق التفرق، ولكن الشيطان هو الذي يزين الفرقة في أعين المتفرقين المختلفين فيجعلهم يعتقدون أن اختلافهم وتفرقهم في مصلحة الدعوة.

والاختلاف في الجماعة لا يقف تأثيره عند حد إضعاف الجماعة، وإنما يضعف تأثيرها في الناس وتجعل المغرضين ينفثون باطلهم في الناس ويقولون : جماعة سوء تأمر الناس بأحكام الإسلام، والإسلام يدعو إلى الألفة والاجتماع وينهى عن الاختلاف، وهي تخالفه إذ هي متفرقة مختلفة فيما بينها، كل فرقة تعيب الأخرى وتدعي أنها وحدها على الحق. ثم يئول الأمر إلى انحسار تأثير الجماعة في المجتمع ثم اضمحلالها واندثارها وقيام جماعات جديدة مكانها هي فرق المنفصلين عنها ، ووقائع التاريخ البعيد والقريب تؤيد ما نقول » (١) .

﴿ ٥ ﴾ موالاة النصارى والثقة والتحالف معهم حيث نجد أن تاريخ الأندلس مليء بالتحالف مع النصارى إلى أن بلغ ذروة رهيبة واضطرب بسبب ذلك مفهوم الولاء والبراء والحب في الله والبغض في الله بل هذه المعاني كادت تندثر.

إن الأمة حين تخالف أمر ربها وتنحرف عن طريقه ، فلا بد أن يحل بها سخطه وتستوفي أسباب نقمته.

قال تعالى : **﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ**

---

(١) السُّنن الإلهية (ص ١٤٠ ، ١٤١).

الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ .
[المائدة : ٥٧] .

وقوله عز وجل : ﴿ **لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ** ﴾ [آل عمران : ٢٨]

وقوله تعالى : ﴿ **لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ** ﴾ [المجادلة : ٢٢] .

وقد أبان رسول الله ﷺ طريق الأمة في الولاء والبر فقال : «**أوثق عرى الإيمان الموالاة في الله والمعاداة في الله ، والحب في الله والبغض في الله**» (١) .

ويقول ﷺ فيما يرويه عن ربه – عز وجل : « **من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب** » (٢) .

فإذا كان هذا كله مسطراً في كتاب ربها وسُنَّة نبيها وتخالفه ، فلا بد أن ترى فيها سُنَّة الله التي لا تتغير ولا تتبدل .

فهذا المعتضد بن عباد يذهب إلى ملك قشتالة ويطلب منه الصلح ويدفع له المال، ونراه جاهداً في حرب أمراء الطوائف واستئصالهم، أما كان الأفضل له أن يتحد مع إخوانه أمراء الطوائف وفي ذلك مصلحة له ولهم والأندلس عامة والإسلام وأهله ، ولكنك لا تجني من الشوك العنب .

بل ضعف مفهوم الولاء والبراء حتى أن بعض حكام المسلمين استوزروا وزراء نصارى ويهود يصرفون أمور دولة الإسلام فهل يؤمن الذئب على الغنم !! (٣) .

وهذا أبو عبد الله الصغير سلطان غرناطة الأخير يرسل رسالة إلى ملك الإسبان

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده(٤ / ٢٨٦) .
(٢) البخاري مع الفتح ، كتاب الرقائق رقم(٦٥٠١) .
(٣) سقوط الأندلس(ص ٢٤) .

يعتذر فيها عما فعله أبو عبد الله الزغل في إحدى المعارك ضد النصارى من قتل وجراح. ولما سقطت مالقة وحول مسجدها الأعظم إلى كنيسة ، أرسل أبو عبد الله الصغير إلى النصارى يهنئهم في ذلك ، وسبب فرحه بسقوطها أنها كانت معقلاً لمنافسه عمه الزغل.

وعلى يد هذا الصغير قدمت الأندلس للنصارى على طبق من ذهب ، دون أن يجد النصارى في ذلك عناء يذكر !.

وهل شكر النصارى لهذا المتخاذل خذلانه؟ ، لقد طردوه من الأندلس إلى المغرب وفي ذلك يقول المقري – رحمه الله – : (ثم ارتحل السلطان أبو عبد الله إلى مدينة فاس – حرسها الله – وما زال أعقابه بها إلى الآن من جملة الضعفاء السُّؤَّال ، بعد الملك الطويل العريض، فسبحان المعز المذل ، المانح المانع لا إله إلا هو) [١] .

[٦] التخاذل عن نصرة من يحتاج إلى نصرة :

لقد كانت أحاديث الرسول ﷺ في تلك المرحلة معطلة كأنهم لم يسمعوا قول رسول الله ﷺ : « **المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه** » [٢] .

وقاله ﷺ : « **المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً** » [٣] .

لقد تخاذل ملوك الشمال الإفريقي عن نصرة ما تبقى من الإسلام والمسلمين في الأندلس بسبب حروبهم الطاحنة المدمرة فيما بينهم، وانشغالهم ببعضهم وأنهكت قواهم في حروب مريرة لم يستفيد منها إلا أعداء الإسلام.

لقد كان التخاذل في الأندلس من زمن ملوك الطوائف حيث يتخاذلون عن نصرة من يستحق النصرة ، وإليك ما حدث في طليطلة.

---

(١) **انظر** : سقوط الأندلس (٦٧ ، ٦٨) .
(٢) البخاري مع الفتح ، كتاب المظالم ، رقم (٢٤٤٢) (٥/١١٦) .
(٣) المصدر السابق ، كتاب المظالم ، رقم (٢٤٤٦) (٥/١١٧) .

قال د. عبد الرحمن الحجي عن سقوط طليطلة وموقف حكام الطوائف :

قام حاكم بطليوس عمر بن محمد الأفطس الملقب بالمتوكل على الله ببعض واجبه تجاه طليطلة في محنتها ، التي لو أدى بقية ملوك الطوائف ما يجب عليهم لما لاقت هذا المصير، ولحموها وحموا أنفسهم، كان بعضهم لا هم له إلا تحقيق مصلحته وإشباع أنانيته وكأن الأندلس وجدت لمنفعته وليتربع على كرسي حكم، مهما كان قصير العمر ذليل المكان مهزوز القواعد) [١] .

وبسبب هذا التخاذل سقطت كثير من الولايات الأندلسية في الفترة الزمنية بين عامي (٦٢٧-٦٥٥هـ) ، وكانت فترة سقوط أكثر الممالك الإسلامية في الأندلس ، أقل من ثلاثين عاماً تنقلب خارطة الأندلس ، ويتمكن منها عُبَّاد الصليب، وتصبح معظم الأندلس أرضاً نصرانية تحارب الإسلام بكل ما تملك ، من أجل سحقه ومحوه من الوجود .

يقول المقري في نفح الطيب عن استعداد النصارى لإحدى المعارك :

« وجاء الطاغية دون بطء في جيش لا يحصى ومعه خمسة وعشرون ملكاً، وذهب إلى طليطلة، ودخل على مرجعهم البابا، وسجد له وتضرع، وطلب منه استئصال ما بقي من المسلمين في الأندلس، وأكد عزمه على ذلك» [٢] .

ويقول جوستاف لوبون في (حضارة العرب) إن الراهب بليدا أبدى ارتياحه لقتل مئة ألف مهاجر من قافلة واحدة ، كانت مؤلفة من ١٤٠ ألف مهاجر مسلم حينما كانت متجهة إلى إفريقية [٣] .

---

(١) انظر : التاريخ الأندلسي (ص ٣٣٢) .
(٢) نفح الطيب (١/ ٤٤٩ ، ٤٥٠) نقلاً عن سقوط الأندلس (ص ٤٥) .
(٣) انظر : عوامل النصر والهزيمة (ص ١٢١) .

وكانت نتيجة تخاذل المسلمين واستماتة النصارى كما قال الشاعر:

كم جامع فيها أعيد كنيسة ... فأهلك عليه أسى ولا تتجلد
أسفاً عليها أقفرت صلواتها ... من قانتين وراكعين وسجد
كم من أسير عندهم وأسيرة ... فكلاهما يبغي الفداء فما فدى
كم من عقيلة معشر معقولة ... فيهم تود لو أنها في ملحد
كم من تقي بالسلاسل موثق ... يبكي لآخر في الكبول مقيد
ضجت ملائكة السماء لحالهم ... وبكى لهم من قلبه كالجلمد
أفلا تذوب قلوبكم إخواننا ... مما دهانا من ردى أو من ردي[1]
أفلا تراعون الأذمة بيننا ... من حرمة ومحبة وتودد
أكذا يعي الروم في إخوانكم ... وسيوفكم للثأر تتقلد
يا حسرتى لحمية الإسلام قد ... خمدت وكانت قبل ذلك توقد[2]

[٧] غدر النصارى ونقضهم للعهود:

لم يكن النصارى عباد الصليب محلاً للعهود وأهلاً للوفاء إلا القليل النادر، فهم تبع لمصالحهم وأهوائهم وهي التي تحكم وفاءهم ونقضهم[3].

قال تعالى: ﴿ **وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ** ﴿١٤﴾ ﴾ [المائدة: ١٤].

لقد سطر النصارى في الأندلس تاريخاً مليئا بالدماء وهتك الأعراض وقتل النفوس وسبي النساء.

---

(١) انظر: سقوط الأندلس (ص ٤٦).
(٢) انظر: الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس (٣/ ٦٣).
(٣) انظر: سقوط الأندلس (ص ٤٠).

قال تعالى: ﴿ لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ⑩ ﴾ .

[التوبة : ١٠] .

وقال تعالى: ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ .

[البقرة: ١٢٠] .

لقد استماتت النصارى في حروبهم مع المسلمين فمارسوا كافة الأساليب المعوجة من أجل تحقيق أهدافهم الشيطانية.

ولقد استطاعوا أن يضعوا برامج محكمة للقضاء على ملوك الطوائف ومن ثم على المسلمين عموماً، وكان من أكبر ملوك النصارى الذي أشرف على هذه المخططات وسهر على تنفيذها فرناندو ملك قشتالة ، واستطاعوا أن يوحدوا كلمتهم وأن يجعلوا صفهم متراصاً في مواجهة الإسلام وإزالتهم من الأندلس.

[٨] إلغاء الخلافة الأموية وبداية عهد الطوائف :

لا شك أن بداية الانهيار الفعلي في الأندلس كان بزوال الخلافة الأموية ، ونشأ على إثر ذلك عهد السنوات الصعاب كانت كلمة الأمة واحدة وخليفتهم واحداً وأصبحت الأمة كما قال الشاعر:

مما يزهدني في أرض أندلس ... أسماء معتمد فيها ومعتضد
ألقاب مملكة في غير موضعها ... كالهر يحكي انتفاخاً صولة الأسد[١]

ولم يكن حكام الأندلس أهلاً لقيادة في عمومهم ، **واسمع إلى ابن حزم وهو يقول عن هؤلاء الحكام:** (والله لو علموا أن في عبادة الصلبان تمشية أمورهم لبادروا إليها، فنحن نراهم يستمدون النصارى فيمكنوهم من حرب المسلمين ، لعن الله جميعهم [•] وسلط عليهم سيفاً من سيوفه..) [٢] .

---

(١) انظر : سقوط الأندلس (ص ٣١) .

(•) في هذا اللعن نظر ، لكون هؤلاء الحكام مسلمين .... فليراجع .

(٢) مجموع رسائل ابن حزم (٣/ ١٧٦) .

فبعد أن كانت دولة الإسلام واحدة، أصبحت أسر الطوائف سبعاً وعشرين طائفة أو إمارة أو دويلة تتنافس فيما بينها.

يقول د. عبد الرحمن الحجي عن هؤلاء الحكام: « وهكذا وجدت في الأندلس أوضاع يحكمها أمراء، اتصف عدد منهم بصفات الأثرة والغدر، هانت لديهم مصالح الأمة، وتركت دون مصالحهم الذاتية، باعوا أمتهم للعدو المتربص ثمناً لبقائهم في السلطة، ولقد أصاب الأمة من الضياع بقدر ما ضيعوا من الحظ الخلقي المسلم، انحرف هؤلاء المسئولون عن المنهج الحنيف الذي به كانت الأندلس وحضارته » (١) .

[٩] عدم سماع ملوك الطوائف لنصح العلماء:

لقد بذل مجموعة من العلماء جهداً مشكوراً لتوحيد صفوف المسلمين وتصدى أبو الوليد الباجي لهذه المهمة بنفسه بعد عودته من المشرق الإسلامي: (فرفع صوته بالاحتساب ومشى بين ملوك أهل الجزيرة لصلة ما انبت من تلك الأسباب، فقام مقام مؤمن آل فرعون ولكنه لم يصادف أسماعاً واعية ؛ لأنه نفخ في عظام ناخرة ، وعطف على أطلال دائرة، بيد أنه كلما وفد على ملك منهم في ظاهر أمره لقيه بالترحيب، وأجزل حظه في التنافس والتقريب، وهو في الباطن يستجل نزعته ويستقل طلعته وما كان أفطن الفقيه رحمه الله بأمورهم وأعلمه بتدبيرهم، ولكنه كان يرجو حالاً تثوب، ومذنباً يتوب) (٢) .

إلا أن هناك بعض العلماء تخلوا عن واجبهم المقدس، وقدموا مصالحهم الذاتية على مصالح الأمة ودخلوا في معارك فرعية وبالغوا فيها فحين كانت الأمة تغرق في الأندلس بسبب الاجتياح النصراني المتلاطم، وانصرف عدد من العلماء إلى

---

(١) التاريخ الأندلسي (ص٣٢٥) .

(٢) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، القسم الثاني (٩٥ ، ٩٦) .

العناية المبالغة [١] بالفقه المذهبي وفروعه ، ونسوا وتناسوا واقع الأمة وآلامها وبعض هؤلاء هم ممن قال فيهم ابن حزم – رحمه الله – : « ولا يغرنك الفساق والمنتسبون إلى الفقه، اللابسون جلود الضأن على قلوب السباع ، المزينون لأهل الشر شرهم، الناصرون لهم على فسقهم » [٢] .

[١.] الرضا بالخضوع والذل تحت حكم النصارى والطاعة لهم:

« ففي عام ٦٤٣هـ تم الاتفاق على أن يحكم ابن الأحمر مملكته وأراضيه باسم ملك قشتالة وفي طاعته، وأن يؤدي له جزية سنوية، قدرها مئة وخمسون ألف قطعة من الذهب وأن يعاونه في حروبه ضد أعدائه!! فيقدم إليه عدداً من الجند أينما طلب منه ذلك، وأن يشهد اجتماع مجلس قشتالة باعتباره من الأمراء التابعين للعرش، وسلم ابن الأحمر جيان، وأرجونة، وبركونة، وبيغ، والحجاز وقلعة جابرللنصارى » [٣] .

ولما حاصر النصارى إشبيلية في جمادى الأولى عام ٦٤٥هـ ، قدم ابن الأحمر قوة من الفرسان للمعاونة في حصار الحاضرة الإسلامية والاستيلاء عليها. وأبدى المسلمون آيات من البسالة والجلد في الدفاع عن إشبيلية ، وطال الحصار زهاء ثمانية عشر شهراً اضطروا إلى الخضوع والتسليم مقابل أن ينجوا بأنفسهم وأموالهم وفي أوائل رمضان ٦٤٦هـ ، دخل فرناندوا الثالث مدينة إشبيلية، وفي الحال حول مسجدها الجامع إلى كنيسة وأزيلت معالم الإسلام منها بسرعة [٤] .

ونتيجة لتصرفات هؤلاء الولاة هاجر كثير من أهل الأندلس المسلمين إلى بلاد المغرب فراراً بدينهم وأرواحهم، مع أن بلادهم يحكمها المسلمون، حتى قال

---

(١) سقوط الأندلس(ص ٣٥) .
(٢) مجموع رسائل ابن حزم(٣/١٧٣) .
(٣) نهاية الأندلس(ص ٤٣) ، نقلاً عن سقوط الأندلس(ص ٢٢) .
(٤) انظر : سقوط الأندلس(ص ٢٢) .

شاعرالأندلس ابن الصلصال :

حثوا رواحلكم ياأهل أندلس ... فيما المقام بها إلا من الغلط

السلك ينشر من أطرافه وأرى ... سلك الجزيرة منثوراً من الوسط

من جاور الشر لا يأمن عواقبه ... كيف النجاة مع الحيات في سفط (١)

[١١] سوء سياسة الولاة وإرهاق الأمة بالجبابات:

وظهرت ظواهر متعددة تدل على سوء السياسة في الأندلس، منها تولية صغار السن الولاية وبعضهم لم يبلغوا الحادية عشرة ومنها الاستئثار بالأمر وترك الشورى، ومنها تخوين الأمين، وتأمين الخئون، ومنها ظهور الظلم والعسف والجور وتمثل ذلك في صور عدة منها، إرهاق الأمة بالضرائب والجبايات والإتاوات والمكوس التي ما أنزل الله من سلطان.

يقول الدكتور الحجي: « ساءت أحوال بلنسية بسوء السياسة وإرهاق أهلها بالضرائب لسداد مطالب القشتاليين الذين كثر عبثهم، وغدت لهم السيادة الحقيقية على المدينة، وغادرها كثير من أعيانها نتيجة لهذه السياسة الطائشة التي اتبعها القادر ؛ إرضاء لأنانيته ورغبة في البقاء بمركزه، ولو كان في ذلك ضياع الدين وانتقاص البلد وإرهاق الناس، وتحت حماية عدو متربص وخصم غادر » (٢) .

وترتب على هذه السياسات الظالمة والمظاهر المنحرفة ، والمظالم المتعدية، والجور المنتشر اضطرابات، وفتن وصراعات كثيرة، فمثلاً مملكة غرناطة حكمت بين عام (٦٣٥هـ وعام ٨٩٣هـ) من قبل تسعة وعشرين حاكماً، حتى إن بعضهم لم يستمر في الحكم أكثر من عدة أشهر وبعضهم سنة أو سنتين. لقد كان تقديم المصالح الشخصية مقدماً عند كثير من الولاة على مصالح المسلمين؛ ولذلك

---

(١) نفح الطيب (٤ / ٣٥٢) ، نقلاً عن سقوط الأندلس (ص ٤٩) .

(٢) التاريخ الأندلسي (ص٣٦٨) .

غلبت الأنانية وحب الذات والزعامة على كثير من المبادىء والمثل والقيم [١] .

[١٢] الثورات الداخلية في الأندلس:

وكانت لها أسباب متعددة منها ظلم الولاة ، ومنها قيام بعض النصارى الذين أخفوا مسيحيتهم وأظهروا الإسلام، فاستطاعوا أن يتصلوا بممالك النصارى ويقوموا بدور تخريبي واستخباراتي ضد دولة الإسلام في الأندلس، وظهرت ثورات عديدة في الأندلس تنادي وتطالب بالاستقلال الذاتي، ومن أشهر هذه الثورات تلك التي قادها عمر بن حفصون والذي استطاع أن يعزل قرطبة عن سائر المناطق الأخرى، ثم اتصل بالعباسيين في العراق والأغالبة في إفريقية، ولما يئس من الوصول إلى أهدافه أظهر ما كان يبطنه من النصرانية **عام (٨٩٩هـ)** ، واتخذ اسم صموئيل وهو اسم في المعمودية، وأعلن عداءه للإسلام والمسلمين وقاتلهم بكل كره وعنف وحقد حتى كاد أن يسقط عاصمة الأمويين إلى أن جاء الخليفة الأموي عبد الرحمن الثالث - الناصر وكان شجاعاً حازماً، فواصل الفتوحات وطالت مدته في الحكم **« نصف قرن »**، فكانت أول مدينة استسلمت له إستجة ثم لحقت بها مدينة ألبيرة كذلك استسلمت مدينة جيان وقبلت « ارخدونة » أن تدفع الجزية، ورضخت إشبيلية لقوات عبد الرحمن في **٩١٣م** وأخضع « ريه » التي كانت ملاذاً لعاصمة ابن حفصون الذي قاد حركة عدائية ضد الإسلام في الأندلس **٣٧ عاماً**، وحاصر طليطلة **سنة ٩٣٢م** واستسلمت له، وكان الأعداء يتربصون بالإسلام في الأندلس، فملوك النصارى في الشمال لا يكلون ولا يملون في زرع الجواسيس وتفجير الثورات ودعم المنشقين ، من أجل القضاء على الإسلام،والدولة العبيدية الرافضية في إفريقية تحالفت مع ابن حفصون النصراني المرتد ضد مسلمي الأندلس، وأرسلت الدعاة وأسسوا حزبًا عبيديًا رافضيًا في

---

(١) انظر : سقوط الأندلس **(ص ٥١)** .

الأندلس وتستروا بالطرق الصوفية، وقاومهم عبد الرحمن الثالث واستطاع أن يقضي على معظم مخططات الأعداء الهادفة للقضاء على الإسلام في الأندلس، وكان بوسع عبد الرحمن أن يقضي على ممالك النصارى في الأندلس ولكن لله في خلقة شئون (١).

لقد كانت الشبكات التخريبية الاستخباراتية التي فجرت الثورات وتسترت بالإسلام من الأسباب التي أدت إلى سقوط دولة الأندلس الإسلامية وزوال الإسلام منها.

ولقد اكتشفت مخابرات دولة المرابطين تلك اللعبة المزدوجة التي كان يقوم بها بعض الخونة المندسين بين المسلمين، والذين يتجسسون على حكام الإسلام في الأندلس والمغرب لصالح ملوك النصارى، فاستفتى السلطان يوسف بن تاشفين بشأنهم الفقهاء فأفتوا بوجوب هدم الكنيسة القوطية في غرناطة التي كانت بؤرة الفساد والتجسس على الدولة المرابطية السنية وواصل ابنه الأمير علي بن يوسف متابعة الأعمال التخريبية، فألقى القبض بعد ثبوت التهم على عملاء النصارى، فأعمل في بعضهم السيف ونفى من تبقى منهم إلى المغرب، لقد أثبتت التحقيقات أنهم كانوا يتجسسون لصالح ملك النصارى القشتالي وغيره من ملوك القوط ولم تعط مخابرات دولة المرابطين أدنى فرصة لهؤلاء المندسين (٢).

ثامناً: آثار الابتعاد عن تحكيم شرع الله على مسلمي الأندلس:

{١} إن الابتعاد عن تحكيم شرع الله تعالى يجلب للأفراد والأمة تعاسة وضنكاً في الدنيا وهلاكاً وعذاباً في الآخرة وإن آثار الابتعاد عن شرع الله لتبدو

---

(١) **انظر**: ابن عذاري (١/٤٧)، نقلاً عن الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس (٣/٢٦٢ إلى ٢٦٧).

(٢) **انظر**: الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس (٣/٣٤٦)، لقد نقلت من الكتب الآتية في تحليل أسباب سقوط الأندلس، سقوط الأندلس، د. ناصر العمر، مصرع غرناطة، شوقي أبو خليل، عوامل النصر والهزيمة، شوقي أبو خليل، السُنن الإلهية، د. عبد الكريم زيدان، التاريخ الأندلسي، د. عبد الرحمن الحجي وغيرها من الكتب.

على الحياة في وجهتها الدينية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية . وإن الفتن تظل تتوالى تترى على الناس ، حتى تمس جميع شئون حياتهم ، قال تعالى : ﴿ **فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ .

[النور : ٦٣] .

﴿ ٢ ﴾ لقد كان في ممارسة ملوك الطوائف للحكم البعيد عن شرع الله آثار على الأمة فتجد الإنسان المنغمس في حياة المادة والجاهلية مصاباً بالقلق والحيرة والخوف والجبن يحسب كل صيحة عليه، يخشى من النصارى ولا يستطيع أن يقف أمامهم وقفة عز وشموخ واستعلاء، وإذا تشجع في معركة من المعارك ضعف قلبه أمام الأعداء من أثر المعاصي على قلبه، وأصبح في ضنكه من العيش ﴿ **وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا** ﴾[طه : ١٢٤] .

أما الآثار على الأمة الأندلسية فقد أصيبت بالتبلد وفقد الإحساس بالذات ومات ضميرها الروحي فلا أمر بمعروف تأمر به ولا نهي عن منكر تنهى عنه وأصابهم ما أصاب بني إسرائيل عندما تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: قال تعالى : ﴿ **لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٧٩)** ﴾ [المائدة : ٧٨ ، ٧٩] .

فإن أي أمة لا تعظم شرع الله أمراً ونهياً فإنها تسقط كما سقط بنو إسرائيل . قال رسول الله ﷺ : « **كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ثم لتأخذن على يد الظالم ولتأطرنه على الحق أطراً، ولتقصرنه على الحق قصراً أو ليضربن الله على قلوب بعضكم ببعض، ثم ليلعنكم كما لعنهم** »[١] .

﴿ ٣ ﴾ أن ملوك الأندلس تحققت فيهم سُنة الله الماضية بسبب تغير النفوس من

---

(١)أبو داود ، كتاب الملاحم ، باب الأمر بالمعروف رقم (٤٦٧٠).

الطاعة والانقياد إلى المخالفة والتمرد على أحكام الله: ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ** ﴾ [الأنفال:٥٣] .

كما أن المجتمعات التي ترضخ تحت الحكام الذين تباعدوا عن شرع الله تذل وتهان حتى تقوم أمام من خالف أمر الله وتطلب العون من إخوانهم في العقيدة لإرجاع حكم الله في مجتمعاتهم.

إن ملوك الأندلس انعكس انحرافهم على شعب الأندلس كله، وفرط أهل الأندلس في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وانعكس ذلك على حركة الفتوحات الإسلامية التي توقفت؛ ولذلك حرمت شعوب كثيرة من سعادتها في الدنيا والآخرة بسبب تضييع الأمانة والرسالة والدعوة إلى هذا الدين، لقد قست قلوب ملوك الطوائف وكثير من أتباعهم إلا من رحم الله ، وتركوا الحق وانقادوا للضلال وابتلوا بالنفاق، وفضحهم الله بذلك ، وحرموا التوفيق والرجوع للصواب، وخف دينهم وضعف إيمانهم، بسبب بطرهم للحق وغمطهم لحقوق الناس وابتعادهم عن شرع الله.

﴿٤﴾ لقد كانت ممالك الأندلس مليئة بالاعتداءات على الأنفس والأموال والأعراض، وتعطلت أحكام الله فيما بينهم، ونشبت حروب وفتن وبلايا تولدت على إثرها عداوة وبغضاء لم تزل عنهم حتى بعد زوالهم.

﴿٥﴾ وبسبب الابتعاد عن كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ سهلت مهمة النصارى في الأندلس فأصبحت شوكتهم تقوى وتحصلوا على مكاسب كبيرة وغاب نصر الله عن ملوك الطوائف وأهل الأندلس، وحرموا من التمكين وأصبحوا في خوف وفزع من أعدائهم ، وبعض المدن تبتلى بالجوع بسبب حصار النصارى لهم، وكم قتل النصارى من المسلمين وكم سبوا من نسائهم.

﴿٦﴾ أن الابتعاد عن شرع الله في الأندلس ترتب عليه انتقاض الأرض وضياع الملك، وتسلط الكفار وتوالي المصائب.

﴿٧﴾ أن من سنن الله تعالى المستخرجة من حقائق الدين والتاريخ أنه إذا عصي الله تعالى ممن يعرفونه سلط عليهم من لا يعرفونه؛ ولذلك سلط الله النصارى على المسلمين في الأندلس وعندما تحرك الفقهاء والعلماء وبعض الملوك واستنصروا إخوانهم في الدين في زمن المرابطين والتفوا حول دولة الشريعة نصرهم الله على أعدائهم ثم خلص الله أهل الأندلس من ملوك الطوائف الظالمين وأبدلهم بأمراء عادلين منقادين لشريعة رب العالمين.

﴿٨﴾ إن الذنوب التي يهلك الله بها القرون ويعذب بها الأمم قسمان:

- معاندة الرسل والكفر بما جاءوا به.
- كفر النعم بالبطر والأشر وغمط الحق واحتقار الناس وظلم الضعفاء ومحاباة الأقوياء والإسراف في الفسق والفجور، والغرور بالغنى والثروة، فهذا كله من الكفر بنعمة الله واستعمالها في غير ما يرضيه من نفع الناس والعدل العام، والنوع الثاني من الذنوب هو الذي مارسه ملوك الأندلس وأمراؤهم وأتقنوه إتقاناً عجيباً.

يقول الشاعر البسطي الأندلسي:

هذا جزاء مخالف مثلي أبي ... تقوى الإله ودان بالعصيان

وقال المرابط كاتب ابن الأحمر:

سودت وجهك بالمعاصي فالتمس ... وجهاً للقياه غير مسود
من ذا يتوب لربه من ذنبه ... أو يقتدي بنبيه أو يهتدي[١]

وكان من إجابة المتوكل بن الأفطس لأوفونس ملك النصارى:

«أما تعييرك للمسلمين فيما وهن من أحوالهم فبالذنوب المركوبة، ولو اتفقت كلمتنا مع سائرنا من الأملاك علمت أي مصاب أذقناك» [٢].

---

(١) انظر: سقوط الأندلس (ص ٦١).
(٢) التاريخ الأندلسي، د. عبد الرحمن الحجي (٣٣٧)، نقلاً عن الحلل الموشية في ذكر الأخبار المركشية (ص٢٣،٢٠)، كذلك الطوائف، محمد عبد الله غسان (ص ٩٠، ٩١).



المبحث الثاني

أولا : دولة بني مرين في المغرب الأقصى

استطاعت قبيلة بني مرين أن تسقط دولة الموحدين عام ٦٦٨هـ/١٢٦٩م وهم يتفرعون من قبائل (زناتة)، مثل (مغراوة) وبني (يفرن)، وكانت مضاربهم في الصحراء الكبرى وتعتبر من القبائل البدوية المتنقلة، وقد تزعم هذه القبيلة زعماء اشتهروا بالصلاح والتقى وبسلامة العقيدة عن الأفكار التومرتية المنحرفة ومن أشهر زعمائهم قبل الوصول إلى الدولة :

أولاً - عبد الحق بن محيو المريني :

كان عبد الحق أول من تزعم قبائل بني مرين ضد الدولة الموحدية، وأول من رسم الخطوط العريضة لدولة بني مرين، وكان قد اشتهر بالورع والتقى، وبسلامة العقيدة والابتعاد عن البدع ، والأفكار الغريبة ، والتزم بالمذهب المالكي في سيرته [١] وقد مات عبد الحق سنة ٦١٤هـ ، فخلفه بعده أبناؤه الأربعة [•]: أبو سعيد العثمان، مات سنة(٦٤٢هـ) ، وأبو بكر عبد الحق، مات سنة (٦٥٦هـ) ، ويعقوب بن عبد الحق ، وهو الذي استطاع أن يقضي على الموحدين ، وصار أمير المغرب سنة ٦٦٨هـ(١٢٦٩م) ، وقد تكلمت عن سيرته الجهادية في الأندلس [٢] .

ثانياً - المنهج الذي قامت عليه الدولة :

لا تستطيع أي حركة في المغرب أن تصل إلى القواعد الشعبية بدون رفع شعارات الإسلام؛ ولذلك من الطبيعي أن تستند دولة بني مرين إلى كونهم حماة

---

(١) **انظر** : الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس(٣/ ٥٥) .

(•) **انظر** : لم يذكر الشيخ [حفظه الله] الابن الرابع لعبد الحق بن محيو المريني .

(٢) **انظر** : قادة فتح بلاد المغرب(٢/ ٢٠٠) .

الإسلام والمسلمين، وقد أثبتت الأحداث صدق هذه الدعوة في وقوفهم مع مسلمي الأندلس ضد الخطر النصراني على دولة الإسلام هناك إلا أن صدامهم مع الموحدين وانتصاراتهم المتتالية أقنعت بعض المؤرخين [١] أن حركة المرينيين ذات دلالة سياسية أكثر منها دينية وبأنهم لم يمكن لهم مذهب ديني يدعون له كالمرابطين والموحدين وكانت شعاراتهم المرفوعة في حركتهم الانفصالية، العمل على استتباب الأمن والعمل لصالح الرعية، ومن هنا كسبوا محبة الناس إلا أن إقدام زعماء بني مرين على قتال الموحدين يدل على قناعتهم الراسخة بأن الموحدين ليسوا مؤهلين لقيادة المغرب، سواء من المنظور الشرعي أو السياسي.

واتخذ زعماء بني مرين أسلوباً عسكرياً وسياسياً للوصول إلى الحكم وإسقاط الموحدين، حيث خاضوا معارك ضارية مع الموحدين وحققوا انتصارات كبيرة عليهم، ومن أجل الحفاظ على تلك المكاسب والانتصارات استعملوا أسلوباً سياسياً بارعاً، تمثل في الاعتراف بالخلافة الحفصية في تونس وطلب العون منهم وبذلك حققوا مكاسب متعددة، منها وقف خطر بني زيان القادم من الجزائر نحوهم، وتضعيف التحالف بين بني زيان ودولة الموحدين بإدخال طرف قوي في النزاع [٢]، وقام بنو حفص بمساعدة بني مرين وتدمير تحالف زيان مع الموحدين والاستيلاء على تلمسان عاصمة بني زيان عام ٦٤٠هـ/١٢٤٣م. ومن ذلك الموقف والتاريخ بدأ بنو مرين يحافظون على مظهر التبيعية لبني حفص [٣].

وعندما وصل السلطان أبو يوسف يعقوب المنصور للحكم استقل بالإمارة والسلطنة وانفصل عن الحفصيين.

وقام أبو يوسف باستكمال بناء الدولة بجهود ضخمة وقوية، من أجل تثبيت

---

(١) من أمثال عبد الفتاح الغنيمي، والدكتور احمد مختار العبادي.

(٢)، (٣) انظر: موسوعة المغرب العربي (٣/٢٠٧).

البناء الجديد وفرض سيطرتها وقوتها على كافة الأقاليم، واستطاع في فترة قصيرة أن يحقق نجاحات واسعة، فاستطاع أن يضبط الأمن، ويرعى مصالح العباد، وعمل على توحيد المغرب الأقصى وضم كافة المدن التي كانت منفصلة عن دولة الموحدين.

ووضع خطوطاً دفاعية ضد الخطر الزياني القادم من الشرق، واستطاع أن ينظم القبائل العربية ويستخدمها في محاربة الأقاليم المنفصلة عن الدولة، واستطاع أن يضم سبتة وطنجة تحت حكمه، وبذلك ضمن مفتاح العبور للأندلس وضم إقليم سجلماسة للدولة في صفر (٦٧٣هـ/ ١٢٧٤م)، وبذلك أصبحت كل أراضي المغرب الأقصى تحت نفوذ الدولة المرينية، وأصبحت فاس عاصمة الدولة المرينية الجديدة. وفي عام (٦٧٤هـ/ ١٢٧٥م) أمر السلطان المريني ببناء عاصمة جديدة وسميت البيضاء وأصبحت فاس القديمة مركزاً للتجارة والعلم [١].

ثالثاً - حركة التوحيد للشمال الإفريقي:

حاولت دولة بني مرين أن توحد الشمال الإفريقي تحت نفوذها ودخلت في معارك عنيفة مع بني عبد الواد والحفصيين في المغرب الأوسط والأدنى.

واستطاع المرينيون في عصر أبي الحسن المريني (٧٣١/ ٧٥٢هـ - ١٣٣١/ ١٣٥١م) وولده أبي عنان فارس (٧٥٢هـ / ١٣٥١م) أن يوحدوا الشمال الإفريقي بالقوة، وعادت وحدة الشمال الإفريقي لمدة قصيرة وأزال السلطان أبو الحسن بني زيان عن تلمسان في سنة ٧٣٧ هـ / ١٣٣٧م ثم أحسن إليهم وفرض لهم العطاء وتوقف عن التوسع لانشغاله بالجهاد في الأندلس وعادت حركة التوسع في الشمال الإفريقي بعد هزيمته أمام النصارى في الأندلس ودخل تونس في عام ٧٤٨هـ/١٣٤٧م، لتمتد مملكته من مصراته في ليبيا إلى السوس الأقصى

(١) انظر: موسوعة المغرب العربي(٣/ ٢١٩,٢٢٠,٢٢١).

وإلى رندة من عدوة الأندلس.

لم يتألف أبو الحسن الحفصيين والقبائل العربية بالمال والإحسان إليها، ففجروا ثوراتهم ضده واستطاعوا أن يهزموه على مقربة من القيروان.

وفي هذه الأثناء خرج عليه ولده أبو عنان وطلب الزعامة لنفسه واضطر أبو الحسن أن يتخلى عن السلطة في سنة (٧٥٢هـ/ ١٣٥١م)، ثم مات بعد شهور.

واصل أبو عنان حركة التوحيد لأقطار الشمال الإفريقي وأزال دولة بني زيان سنة (٧٥٣هـ/ ١٣٥٢م) وتابع سيره إلى إفريقية ودخل تونس في سنة (٧٥٨هـ/ ١٣٥٧م) إلا أن انفجار الثورات على مستوى المغرب كله خصوصاً في فاس وطمع بعض أقرباءه في السلطة جعله، يعود إلى عاصمته، فوافاه الأجل في العام التالي [١].

وبوفاة أبي عنان انتهت المحاولات المرينية من أجل توحيد الشمال الإفريقي وتقلص النفوذ المريني في المغربين الأوسط والأدنى، ثم زال النفوذ المريني من جهة الشرق فلم يحاول السلاطين الذين من بعده أن يقوموا بأية غزوة في الأقاليم.

وبدأ التدهور في الدولة المرينية بعد وفاة أبي عنان بسبب تسلم أمرها سلاطين ضعاف ففقدوا المغربين الأدنى والأوسط، كما استولى البرتغاليون على مدينة سبتة سنة (٨١٨هـ/ ١٤١٥م)، فكان هذا بداية لانهيار دولة بني مرين، ثم استولى البرتغاليون على جزء كبير من ساحل المغرب واحتلوا طنجة سنة (٨٦٩هـ/ ١٤٦٤م) واقتصرت الدولة المرينية على فاس [٢].

واضطربت أحوال الدولة بتعدد الثورات وتدهورت الأمور بفاس وتسلط على الأمور رجال لا هم لهم إلا مصالحهم الشخصية، وفي عهد آخر سلاطين بني مرين عبد الحق بن أبي سعيد بن سعيد العباس (٨٢٣-٨٦٩هـ/ ١٣٢٠- ١٤٦٥) قرب اليهود من مقاليد الحكم وتسلطوا على رقاب الأهالي، فانفجرت

---

(١) انظر: المغرب في تاريخ الأندلس والمغرب، د. عبادة كحيلة (ص ١٤١).

(٢) تاريخ المغرب والأندلس من القرن السادس إلى القرن العاشر (ص ١٤٢).

الثورة التي عمت أحياء فاس كلها واضطروا إلى مبايعة سلطان جديد هو الشريف أبي عبد الله محمد ابن علي الإدريسي نقيب الأشراف بفاس في رمضان (٨٦٩هـ/١٤٦٥م) وبذلك انتهت دولة بني مرين [١] .

رابعاً: أسباب سقوط دولة بني مرين:

[١] دسائس ملوك الإسبان ضدها، وتحالف زعماء غرناطة معهم ضد دولة بني مرين ساهم في إضعافهم وتقويض دولتهم، ودخول حكام غرناطة في تحالفات مع بني عبد الواد والحفصيين ضد بني مرين ضيق الخناق على دولة بني مرين.

[٢] دخول بني مرين في صراع عنيف مع دويلات، المغرب الأوسط والأدنى، كلفها الأموال والرجال والعتاد والأوقات، وكان قتال بني العقيدة الواحدة والدين الواحد مما ساهم في إضعاف الشمال الإفريقي كله والتعجيل بسقوط دولة بني مرين.

[٣] ضعف الأمراء والسلاطين في آخر عهد الدولة مما ساهم في إضعافها وتسلط الوزراء العرب في شئونها، وتنازعت الأهواء والمصالح، فتولدت انفجارات داخلية ونزاع بين الأبناء والأعمام عجل بسقوط الدولة.

[٤] المخاطر الخارجية والمكايد من قبل النصارى والذين شنوا حرباً على هذه الدولة التي شكلت خطراً على حركة الاسترداد في الأندلس، ولذلك هاجم البرتغاليون بني مرين واحتلوا سبتة عام (٨١٨هـ/١٤١٥م) ، فكان ذلك الاحتلال بداية الانهيار [٢] .

[٥] تولي اليهود مناصب في دولة بني مرين ، ومارس اليهود الظلم والجور على أهالي المغرب، فكان ذلك سبباً في قيام الشعب بثورة ضد دولة بني مرين

---

(١) انظر : موسوعة المغرب العربي (٣/٣٣٦,٣٣٧) .

(٢) تاريخ المغرب والأندلس في القرن السادس الهجري حتى نهاية القرن العاشر لمجموعة من الباحثين (١٤٢) .

وإزالتها من الوجود .

[٦] أجل الله في هذه الدولة؛ لأن الدول لها آجال لا تتعداها وغير ذلك من الأسباب .

خامساً : الدولة الوطاسية :

ترجع الدولة الوطاسية إلى بني وطاس فرع من بني مرين وكانوا أصحاب نفوذ وسلطان وشوكة في الدولة المرينية ، وأنزل بهم السلطان عبد الحق آخر سلطان للدولة المرينية نكبة عظيمة ونكل بهم أشد تنكيل ، واستطاع محمد الشيخ أن يفلت من تلك التصفية الجسدية التي نزلت بقومه .

وبعد أن تولى حكم المغرب الشريف محمد بن علي الإدريسي في عام ٨٦٨هـ ، استطاع محمد الشيخ أن يجهز جيشاً لنزع السلطة والحكم من الإدريسي ودخل في حروب طاحنة واحتل فاس عام ٨٧٧هـ/ ١٤٧٢م وكلفه ذلك ضياع مدينة أصيلا من يده حيث استغل البرتغاليون الحرب الأهلية القائمة في المغرب وانصراف أمير أصيلا لمحاصرة فاس ، فأرسلوا ٤٧٧ سفينة محملة بـ(٣٠ ألف مقاتل) في زمن ملك البرتغال ألفونس الخامس، ووقعت أسرة الشيخ الوطاسي في الأسر، فاضطر للمفاوضة معهم وترتب عن تلك المفاوضات تنازل الوطاسيون عن أراض من المغرب واحتل البرتغاليون مدينة العرائس إلى جانب أصيلا، وأطلق سراح ابن السلطان محمد الشيخ وزوجاته [١] .

وكانت الفتن في المغرب على أشدها عندما تولى الحكم محمد الشيخ واستطاع البرتغاليون النصارى أن يتوسعوا للاستيلاء على موانيء المغرب مثل سبتة وطنجة وأصيلا، وتوغلت سراياهم وبعوثهم في الأطراف المجاورة التي احتلوها وكان سقوط غرناطة في فترة الوطاسيين (١٤٩٢م) وقدم أهالي الأندلس في هجرات عظيمة نحو المغرب، واستمر النفوذ الإسباني والبرتغالي في التوسع

---

(١) انظر : موسوعة المغرب (٣/ ٢٣ ، ٢٤) .

وبناء الحصون والقلاع والمراكز والنقاط الإستراتيجية التي امتدت على سواحل المحيط الأطلسي والبحر المتوسط وكانت هذه الموانيء والحصون تتخذ كمراكز لتموين السفن والأساطيل البحرية البرتغالية في طريقها إلى الهند والشرق الأقصى، كما كانت هذه المراكز نقاطاً للتوسع إلى المناطق الداخلية ببلاد المغرب، وامتد نفوذ هذه المراكز إلى زعماء بعض القبائل والأهالي الذين تعاملوا معهم ووجدوا مصالحهم الذاتية في الخضوع لهم.

وقامت إمارات عديدة في المغرب الأقصى حملت على كاهلها مقاومة النفوذ الأجنبي في البلاد.

وظهرت قيادة السعديين كقوة حيوية ، ورفعت لواء الجهاد، ودعت إلى الوحدة المغربية ، وتدرجت في تحقيق أهدافها واستطاعت أن تكسب ود الطرق الصوفية وزعماء القبائل، وتخوض حرباً جهادية ضد النصارى الإسبان والبرتغاليين وحرروا الأراضي المحتلة وبرز الزعيم محمد الشيخ السعدي الهاشمي القرشي في تلك المعارك واستطاع أن يسقط دولة الوطاسيين**عام ٩٥٦هـ** .

إلا أن أبا حسون الوطاسي الذي فر من السعديين استطاع أن يتحالف مع العثمانيين ، ويهزم السعديين في فاس**عام (٩٦١هـ)** وأعاد زعيم السعديين الكرة من جديد وأسقط الدولة الوطاسية في**نفس العام ٩٦١هـ** [١] .

سادساً: أسباب سقوط الدولة الوطاسية:

[١] دخولهم في معاهدات مع النصارى المحتلين من الإسبان والبريغاليين من أجل مصالحهم وسلطتهم ونفوذهم.

[٢] عجزهم عن الوقوف بجانب مسلمي الأندلس والدفاع عنهم وحمايتهم.

[٣] ظهور الحركة الجهادية التي جعلت أهداف الشعب المغربي في أولوياتها

---

(١) **انظر** : موسوعة المغرب العربي(٣/٥٣) .

وقد تزعم تلك الحركة السعديون.

[٤] الضعف الاقتصادي الذي أصاب الدولة بسبب استيلاء النصارى على الحركة التجارية في الموانىء.

[٥] التفكك السياسي بسبب الحروب الداخلية الطاحنة، بين المغاربة.

سابعاً : السعديون :

يرجع أصل السعديين من الجزيرة العربية ويرجعون في نسبهم إلى الإمام علي ابن أبي طالب رضي الله عنه [١] ويرى الأستاذ محمود شيت خطاب أن الدولة السعدية هي الدولة العلوية الثانية في المغرب بقطع النظر عما أرجف به خصومها من الطعن في نسبها [٢] . وهي لم تعتمد في قيامها إلى (مهدوية) كاذبة، أو عصبية قوية.

وأما تسميتهم بالسعدين، فيرى الأستاذ شوقي أبو خليل أنها لم تكن لهم في القديم ولم تظهر في سجلاتهم ورسائلهم، بل لم يجترىء أحد على مواجهتهم بهذه التسمية، لأنهم إنما يصفهم بها من يقدح في نسبهم، ويطعن في شرفهم، ويزعم أنهم من بني سعد بن بكر بن هوازن الذين منهم حليمة السعدية ظئر [٣] رسول الله ﷺ.

وكثير من العامة يعتقدون أنهم إنما سموا بذلك لأن الناس سعدوا بهم [٤] ثم استدل بقول أبي العباس الناصري السلاوي: «وإنما نصفهم نحن بذلك لأنهم اشتهروا عند الخاصة والعامة، فصار كالعلم الصرف المرتجل، مع أنه لا محذور بعد تحقيق النسب وثبوت الشرف» [٥] .

---

(١) انظر : وادي المخازن لشوقي أبي خليل (ص ٣١).
(٢) قادة فتح بلاد المغرب (٢/٢٠٢).
(٣) الظئر : المرضعة والعاطفة على غير ولدها .
(٤) انظر : وادي المخازن لشوقي أبي خليل (ص ٣٢).
(٥) المصدر السابق (ص ٣٢) نقلاً عن الاستقصاء (٥/٦).

أما صاحب موسوعة المغرب العربي الدكتور عبد الفتاح الغنيمي فقد ذكر نسب محمد القائم السعدي مؤسس الأسرة السعدية ورافع لواء الجهاد الإسلامي فقال: هو محمد بن عبد الرحمن بن علي بن مخلوف بن زيدان بن أحمد بن محمد بن أبي القاسم بن محمد بن الحسن بن عبد الله بن أبي عرفة بن الحسن بن أبي بكر بن علي بن حسن بن أحمد بن إسماعيل بن قاسم بن محمد النفس الزكية بن عبد الله الكامل بن حسن المثنى بن الحسن السبط علي بن أبي طالب رضي الله عنه [1].

كانت بواعث الالتفاف حول الزعامة السعدية تتمثل في حب المغاربة للجهاد ودحر المعتدين، ولذلك بحثت قبائل المغاربة عن شخص يقودهم في حركة الجهاد ضد المحتلين النصارى من الإسبان والبرتغال، فأرشدوا إلى الشريف أبي عبد الله محمد القائم بأمر الله وكان مقيماً في درعة فأرسلوا إليه فجاء إليهم، واجتمع فقهاء المصامدة وشيوخ القبائل وبايعوه، فكان هو واضع النواة الأولى للدولة السعدية، وشرع في حركة الجهاد ووفقه الله في معارك ضارية وحقق انتصارات رائعة على النصارى، وزحزح أقدام الغزاة النصارى من أراضي المغرب، وأصاب هيبتهم، فتيمن المسلمون بقيادته، وتفاءلوا بانتصاراته الرائعةو وظل في جهاده المبارك إلى أن توفاه الله سنة ٩٢٣هـ، وخلف ولدين، وكان أبو العباس أحمد الأعرج أكبرهم، فبايعه الناس بعد والده، وحارب البرتغاليين وانتصر عليهم، وفي سنة (٩٣٠هـ) دخل مراكش وجعلها عاصمة السعديين. وفي سنة(٩٤٠هـ) رحل من (تادلة) [2] إلى (السوس)، وفر الوطاسيون من (تادلة) إلى المغرب الأوسط.

---

(١) انظر: موسوعة المغرب العربي (٣/١١٤,١١٥).

(٢) انظر: قادة فتح بلاد المغرب (٢/٢٠٤).

وانتزع أبو عبد الله محمد الشيخ الأخ الأصغر الملك من أخيه وألقى القبض عليه واستطاع أن يقبض على الوطاسيين سنة (٩٦١هـ) ودخل مدينة فاس فصفا له ملك المغرب، ولكنه قتل سنة (٩٦٤هـ) وتولى زمام الأمور من بعده إبنه عبد الله الغالب، فحارب الأتراك والبرتغاليين وتوفي سنة (٩٨١هـ) [1] فقام على العرش بعده ولده محمد المتوكل وكان فظاً غليظاً مستبداً ظالماً، قتل اثنين من إخواته عند وصوله إلى الحكم، وأمر بسجن آخر، فكرهته الرعية [2] ووصفه السلاوي بقوله: (وكان السلطان المذكور فقيهاً أديباً مشاركاً مجيداً قوي العارضة في النظم والنثر، وكان مع ذلك متكبراً تياهاً غير مبال بأحد، ولا متوقف في الدماء، عسوفاً على الرعية، **ومن شعره قوله:**

فقم بنا نصطبح صهباء صافية	في وجهها عسجد في وجهه نقط
وانهض إليها على رغم العدا قلقاً	فإن تأخر أوقات الصبا غلط

ومن شعره إيضاً:

ساروا فسار فوادي إثر ظعنهم	وخلفوني نحيل الجسم حيرانا
لا افتر ثغر الثرى من بعد بينهم	ولا سقى هاطل ورداً وريحانا [3]

إلا إن هذا المتعجرف السفاك للدماء لم يهنأ بملكه حيث استطاع عمه أبو مروان عبد الملك،وأبو العباس أحمد أن يتحالفوا مع الأتراك في الجزائر، وسافر أبو مروان عبد الملك إلى عاصمة الخلافة العثمانية وطلب من السلطان سليم نجدته ومعونته إلا أن السلطان العثماني انشغل بتخليص تونس من يد الإسبان فجهز قوات عثمانية بقيادة سنان باشا واستطاعت أن تحرر تونس من الاحتلال النصراني الإسباني، وكان أبو مروان عبد الملك في تلك الحملة وأبلى فيها بلاء حسناً، ثم

(١) المصدر السابق نفسه.
(٢) انظر: وادي المخازن، (ص ٢٣).
(٣) الاستقصاء (٥/٥٨) نقلاً عن وادي المخازن (ص ٣٤).

كان هو أول من أبلغ بشارة الفتح إلى السلطان، فجازاه على ذلك بأن أمر صاحب الجزائر بمده بالجنود والعتاد حتى يرجع إليه حقه المغصوب في الحكم [١] .

وما أن وصل جيش عبد الملك المدعوم من قبل الخلافة العثمانية فاس ، حتى خرج إليه ابن أخيه محمد المتوكل على الله واستطاع عبد الملك أن يستميل القواد والوزراء فانقادوا إليه جميعاً وبايع أهل المغرب عبد الله الملك بن محمد الشيخ سنة (٩٨٣هـ) .

ثامناً: من إصلاحات عبد الملك وأعماله :

[١] أمر بتجديد السفن،وبصنع المراكب الجديدة ، فانتعشت بذلك الصناعة عامة .

[٢] اهتم بالتجارة البحرية، وكانت الأموال التي غنمها من الحروب الدائمة على سواحل المغرب سبب في انتعاش ونمو الميزان الاقتصادي للدولة .

[٣] أسس جيشاً نظامياً متطوراً واستفاد من خبرة الجندية العثمانية وتشبه بهم في التسليح والرتب .

[٤] استطاع أن يبني علاقات متينة مع العثمانيين وجعل منهم حلفاء وأصدقاء وإخوة مخلصين للمسلمين في المغرب .

[٥] فرض احترامه على أهل عصره ، حتى الأوروبيين ، احترموه وأجلوه .

قال الشاعر الفرنسي أكبريبا دو بيني المعاصر لأحداث هذه الفترة:

« كان عبد الملك جميل الوجه؛ بل أجمل قومه، وكان فكره نيراً بطبيعته، وكان يحسن اللغات الإسبانية والإيطالية والأرمينية والروسية، وكان شاعراً مجيداً في اللغة العربية، وباختصار، فإن معارفة لو كانت عند أمير من أمرائنا لقلنا إن هذا أكثر مما يلزم بالنسبة لنبيل، فأحرى لملك » [٢] .

---

(١) انظر : قادة فتح بلاد المغرب (٢/ ٢٠٤) .

(٢) انظر : وادي المخازن (ص ٣٧) .

[٦] اهتم بتقوية مؤسسات الدولة ودواوينها وأجهزتها، واستطاع أن يشكل جهازاً شورياً للدولة أصبح على معرفة بأمور الدولة الداخلية، وأحوال السكان عامة، وعلى اطلاع ودراية بالسياسة الدولية، وخاصة الدول التي لها علاقة بالسياسة المغربية وكان أخوه أبو العباس أحمد المنصور بالله الملقب في كتب التاريخ بالذهبي ساعده الأيمن في كل شئون الدولة [١] .

تاسعاً: معركة وادي المخازن :

إن من الأعمال العظيمة التي قامت بها الدولة السعدية في زمن السلطان عبد الملك انتصارهم الرائع والعظيم على نصارى البرتغال في معركة الملوك الثلاثة، والتي تسمى في كتب التاريخ معركة القصر الكبير أو معركة وادي المخازن بتاريخ: (**٣٠ جمادي الثانية ٩٨٦هـ الموافق: ٤آب ـ أغسطس ـ ١٥٧٨م**) .

ولقد كان لتلك المعركة أسباب من أهمها :

﴿١﴾ أراد البرتغاليون أن يمحو عن أنفسهم العار والخزي الذي لحقهم بسبب ضربات المغاربة الموفقة والتي جعلتهم ينسحبون من أسفى وأزمور وأصيلا وغيرها في زمن يوحنا الثالث آب **(١٥٢١-١٥٥٧م)** .

﴿٢﴾ أراد ملك البرتغال الجديد سبستيان بن يوحنا أن يخوض حرباً مقدسة ضد المسلمين حتى يعلو شأنه بين ملوك أوروبا ، وزاد غروره بعد ما حققه البرنغاليون من اكتشافات جغرافية جديدة أراد أن يستفيد منها من أجل تطويق العالم الإسلامي يدفعه في ذلك حقده على الإسلام وأهله عموماً، وعلى المغرب خصوصاً لقد جمع ذلك الملك البرتغالي بين الحقد الصليبي والعقلية الاستعمارية التي ترى أن يدها مطلقة، في كل أرض مسلمة تعجز عن حماية نفسها من أي خطر خارجي من جهة أخرى ، فخطط

---

(١) المصدر السابق ، (ص ٣٩ ، ٤٠) .

لغزو واحتلال المغرب [١] .

وشجع ملك البرتغال مجيء المتوكل (المخلوع) وطلبه للعون من النصارى والوقوف معه من أجل استرداد ملكه والقضاء على عميه عبد الملك المعتصم بالله، وأحمد المنصور، مقابل أن يتنازل له عن موانيء وشواطيء المغرب « فشرط عليه أن يكون للنصارى سائر السواحل، وله ما وراء ذلك » [٢] .

[٢] حشود النصارى:

استطاع سبستيان أن يحشد من النصارى عشرات الألوف من الأسبان والبرتغاليين والطليان والألمان ، وجهز هذه الألوف بكافة الأسلحة الممكنة في زمنه ، وجهز ألف مركب لتحمل هؤلاء الجنود نحو المغرب [٣] .

ووصلت قوات النصارى إلى طنجة وأصيلا في عام ١٥٧٨م .

[٢] الجيش المغربي:

كانت الصيحة في جنبات المغرب الأقصى : « أن اقصدوا وادي المخازن للجهاد في سبيل الله » .

والتفت جموع المغاربة حول قيادة عبد الملك المعتصم بالله، وحاول المتوكل المسلوخ أن يخترق هذا التلاحم ، فكتب إلى أهل المغرب ما استصرخت بالنصارى [٤] ، حتى عدمت النصرة من المسلمين ، **وقد قال العلماء :** إنه يجوز للإنسان أن يستعين على من غصبه بكل ما أمكنه ، وتهددهم قائلاً: **﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾** [البقرة: ٢٧٩] [٥] .

---

(١) **انظر** : وادي المخازن (ص ٤٥ ، ٤٦) .
(٢) **انظر** : الاستقصاء (٥/ ٦٩) ، نقلاً عن وادي المخازن (ص ٤٦) .
(٣) **انظر** : وادي المخازن (ص ٤٩) .
(٤) سمى النصارى أهل العدوة واستنكف عن تسميتهم نصارى .
(٥) **انظر** : وادي المخازن (ص ٥١) .

فأجابه علماء الإسلام عن رسالته، برسالة دحضت أباطيله، وفضحت زوره وبهتانه وكذبه، ومما جاء فيها:

(الحمد لله كما يجب لجلاله، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خير أنبيائه ورسله، والرضى عن آله وأصحابه الذين هجروا دين الكفر، فما نصروه، ولا استنصروا به، حتى أسس الله دين الإسلام بشروط صحته وكماله.

وبعد، فهذا جواب من كافة الشرفاء والعلماء والصلحاء والأجناد من أهل المغرب. لو رجعت نفسك اللوم والعتاب، لعلمت أنك المحجوج والمصاب...

وأما قولك: في النصارى فإنك رجعت إلى أهل العدوة واستعظمت أن تسميهم بالنصارى، ففيه المقت الذي لا يخفى، وقولك: رجعت إليهم حين عدمت النصرة من المسلمين ففيه محظوران يحضر عندهما غضب الرب جل جلاله، أحدهما: كونك اعتقدت أن المسلمين كلهم على ضلال، وأن الحق لم يبق من يقوم به إلا النصارى والعياذ بالله، والثاني: أنك استعنت بالكفار على المسلمين.. قال ﷺ: **«إني لا أستعين بمشرك..»**، الاستعانة بهم - بالمشركين - على المسلمين فلا يخطر إلا على بال من قلبه وراء لسانه، وقد قيل قديماً: لسان العاقل من وراء قلبه.. وقولك: فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله، إيه أنت مع الله ورسوله..

ولما سمعت جنود الله وأنصاره وحماة دينه من العرب والعجم قولك هذا، حملتهم الغيرة الإسلامية، والحمية الإيمانية، وتجدد لهم نور الإيمان، وأشرق عليهم شعاع الإيقان، فمن قائل يقول: لا دين إلا دين محمد ﷺ، ومن قائل يقول: سترون ما أصنع عند اللقاء، ومن قائل يقول: ﴿**وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ** ⑪﴾ [العنكبوت: ١١].

وقد افتخرت في كتابك بجموع الروم وقيامهم معك، وعولت على بلوغ الملك

بحشودهم، وأنى لك مع قول الله تعالى: ﴿ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾[التوبة: ٣٢] (١).

ولما عاين أهل القصر الكبير النصارى واستبطئوا وصول السلطان عبد الملك أرادوا الفرار والتحصين في الجبال، فقام الشيخ أبو المحاسن يوسف الفاسي بتثبيت الناس.

وكتب عبد الملك المعتصم بالله من مراكش إلى سبستيان: (إن سطوتك ظهرت في خروجك من أرضك، وجوازك العدوة، فإن ثبت إلى أن نتقدم عليك، فأنت نصراني حقيقي شجاع، وإلا فأنت كلب بن كلب) (٢). فليس من الشجاعة، ولا من روح الفروسية أن ينقض على سكان القرى والمدن والعزل، ولا ينتظر مقابلة المحاربين وكان لذلك الخطاب أثر في غضب سبستيان وقرر أخيراً التريث رغم مخالفة أركان جيشه الذين أشاروا عليه بالتقدم لاحتلال تطوان والعرايش والقصر (٣). وتحركت قوات عبد الملك المعتصم بالله، وسار أخوه أحمد المنصور بأهل فاس وما حولها وكان اللقاء قرب محلة القصر الكبير.

[٣] قوى الطرفين [البرتغالي النصراني والإسلامي المغربي]:

الجيش البرتغالي:

١٢٥,٠٠٠، بما يلزمهم من المعدات، والرواية الأوروبية تقلل بعد الهزيمة عدد جيشها، وتضخم عدد جيش المغرب، فهي تتحدث عن ١٤,٠٠٠راجل، و ٢٠٠ فارس، و٣٦ مدافعاً، مقابل: ٥٠,٠٠٠راجل في الجيش المغربي، و ٢٢,٠٠٠ فارس، و ١,٥٠٠من الرماة، و ٢٠مدفعاً.

ذكر أبو القاضي في (المنتقى المقصور: عدد الجيش البرتغالى مائة ألف

---

(١) الاستقصا (٥/ ٧٩) نقلاً عن وادي المخازن (ص ٥٣).

(٢) انظر: وادي المخازن (ص ٥٣).

(٣) انظر: وادي المخازن (ص ٥٤).

وخمسة وعشرون ألفاً) (١) .

وقال أبو عبد الله محمد العربي الفاسي في (مرآة المحاسن):

إن مجموعهم كان مئة ألف وعشرين ألفاً، وأقل ما قيل في عددهم ثمانون ألف مقاتل (٢) .

كان مع الجيش البرتغالي: ٢٠,٠٠٠ إسباني، ٣٠٠٠ ألماني، ٧٠٠٠ إيطالي. وغيرهم عدد كبير، مع ألوف الخيل، وأكثر من أربعين مدفعاً... وكل هذه القوى البشرية والمادية بقيادة الملك سبستيان. وكان معهم، المتوكل المسلوخ بشرذمة تتراواح ما بين: ٣٠٠-٦٠٠ رجل على الأكثر (٣) .

الجيش المغربي :

وكان جيش المغاربة تعداده ٤٠,٠٠٠ مجاهد، يملكون تفوقاً في الخيل ومدافعهم أربعة وثلاثون مدفعاً فقط وكانت معنوياتهم مرتفعة جداً بسبب:

﴿١﴾ ذاقوا حلاوة الانتصار على النصارى المحتلين واستخلصوا من أيديهم ثغوراً كثيرة كانت محاطة بالأسوار العالية، والحصون المنيعة، والخنادق العميقة.

﴿٢﴾ التفاف الشعب حول القيادة، تم التحام بين القبائل والطرق الصوفية وأهل المدن لأن المعركة كانت حاسمة في تاريخ الإسلام وفاصلة في تاريخ المغرب، وكان الشيخ أبو المحاسن الفاسي زعيم الطريقة الشاذلية الجزولية لا يكل ولا يمل في شحذ الهمم ورفع المعنويات ، وقاد هذا الشيخ (أبو المحاسن يوسف الفاسي أحد جناحي الجيش المغربي وأبلى بلاء حسناً رائعاً وثبت إلى أن منح الله المسلمين النصر، وركبوا أكتاف العدو يقتلون ويأسرون ، وتورع أبو المحاسن عن الغنيمة بعد الانتصار العظيم، وعف عنها، ولم يأخذ منها شيئاً (٤) .

---

(١) ، (٢) الاستقصا (٥/٦٩) نقلاً عن وادي المخازن (ص ٥٦) .

(٣) انظر : وادي المخازن (ص ٥٦) .

(٤) انظر : وادي المخازن (ص ٥٨) .

وأظهر عبد الملك المعتصم بالله عبقرية فذة في المعركة، وكذلك أخوه أبو العباس أحمد الذهبي.

«لقد حنكت التجارب عبد الملك المعتصم بالله، فعزل عدوه عن أسطوله بالشاطىء بمكيدة عظيمة، وخطة مدروسة حكيمة، عندما استدرج سبستيان إلى مكان حدده عبد الملك ميداناً للمعركة. وكان عزله عن أسطوله محكماً عندما أمر عبد الملك بالقنطرة أن تهدم ووجه إليها كتيبة من الخيل بقيادة أخيه المنصور فهدمها» [(١)].

لقد جعل عبد الملك المدفعية في المقدمة، ثم صفوف الرماة المشاة وجعل قيادته في القلب وعلى المجنبتين رماة فرسان والقوى الإسلامية المتطوعة وجعل مجموعة من الفرسان كقوة احتياطية لتنقض في الوقت المناسب وهي في غاية الراحة لمطاردة فلول البرتغاليين، واستثمار النصر [(٢)].

كان صباح الإثنين ٣٠ جمادى الآخرة ٩٨٦هـ/١٥٧٨م يوماً مشهود في تاريخ المغرب، ويوماً خالداً في تاريخ الإسلام. وقف السلطان عبد الملك المعتصم بالله خطيباً في جيشه، **مذكراً بوعد الله للصادقين المجاهدين بالنصر**: [(٣)]

﴿ **وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ** ﴾ [الحج: ٤٠].

﴿ **وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴾ [الأنفال: ١٠].

كما ذكر بوجوب الثبات:

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلا تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ (١٥)** ﴾.

[الأنفال: ١٥].

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٤٥)** ﴾.

[الأنفال: ٤٥].

---

(١)، (٢)، (٣) انظر: وادي المخازن (ص ٦٢).

وبضرورة الانتظام:

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴾[الصف: ٤] .

وذكر أيضاً حقيقة لا مراء فيها: إن انتصرت الصليبية اليوم، فلن تقوم للإسلام بعدها قائمة.

ثم قرئت آيات كريمة من كتاب الله العزيز، فاشتاقت النفوس للشهادة (١) .

ولم يأل القسس والرهبان جهداً في إثارة حماس جند أوروبة الذين يقودهم سبستيان، مذكرين أن البابا أحل من الأوزار والخطايا أرواح من يلقون حتفهم في هذه الحروب التي اتسمت بطابع الحروب الصليبية.

وانطلقت عشرات الطلقات النارية من الطرفين كليهما إيذانًا ببدء المعركة.

لقد قام السلطان عبد الملك برد الهجوم الأول منطلقاً كالسهم شاهراً سيفه يمهد الطريق لجنوده إلى صفوف النصارى، وغالبه المرض الذي سايره من مراكش ودخل خيمته وما هي إلا دقائق حتى فاضت روحه في ساحة الفدى ، لقد رفض أن يتخلف عن المعركة قائلاً ومتى كان المرض يثني المسلمين عن الجهاد في سبيل الله، وأمر هذا القائد المجاهد عجيب في الحزم والشجاعة، ولقد فاضت روحه وهو واضع سبابته على فمه مشيراً أن يكتموا الأمر حتى يتم النصر، ولا يضطربوا وكان حاجبه يقول للجند: (السلطان يأمر فلاناً أن يذهب إلى موضع كذا وفلاناً يلزم الراية، وفلاناً يتقدم وفلاناً يتأخر) (٢) .

وقاد أحمد المنصور مقدمة الجيش وصدم مؤخرة الجيش البرتغالي ، وأوقدت النار في برود النصارى، وصدم المسلمون رماتهم، فتهالك قسم منهم صرعى، وولى الباقون الأدبار قاصدين قنطرة نهر وادي المخازن وكانت تلك القنطرة أثر بعد عين، نسفها المسلمون بأمر سلطانهم، فارتموا بالنهر، فغرق من غرق وأسر من أسر، وقتل من قتل، وصرع سبستيان، وألوف من حوله، ووقع المتوكل رمز الخيانة

---

(١) انظر : وادي المخازن (ص ٦٤) .

(٢) الاستقصا (٥/ ٨٠) ، نقلاً عن وادي المخازن (ص ٦٦) .

غريقاً في نهر وادي المخازن.

واستمرت المعركة أربع ساعات وثلث الساعة، وكتب الله فيها النصر للإسلام والمسلمين [١].

جاء في (درة السلوك) لأحمد بن القاضي، وهو معاصر لأحداث المعركة« مخطوطة بدار الوثائق بالرباط، د ٤٢٨، ص١٤ » [٢].

وابن أخيه [٣] بالنصارى اعتصما	وصار يستنجدهم لمن سما
أجابه اللعين بستيان [٤]	بجيشه ومعه الأوثان
وعدد الجيوش الذي جمعا	ينيف عن مائة ألف سمعا
فقيض الله له المنصورا [٥]	ملكاً شجاعاً أسداً هصورا
فخلص الإسلام من يد اللعين	بصبره على لقاء المشركين
ما منهم إلا قتيل وأسير	في ساعة من الزمان [٦] ذا شهير
مات بها بستيان اللعين	فما له عن الردى معين
ثم محمد [٧] الذي أتى به	مات غريقاً [٨] يومه فانتبه
لحكمة الله العظيم القاهر	أفدهم وزين المنابر
بذكر عمه أبي العباس	الحازم الرأي شديد الباس
نجل الرسول المصطفى المختار	به زها المغرب على الأقطار [٩]

(١) انظر : وادي المخازن ، (ص ٦٦، ٦٧) .

(٢) دعوة الحق ، السنة (١٩) ، العدد (٨)، رمضان (١٣٩٨هـ) ، (ص ٥٦) نقلاً عن وادي المخازن (ص٦٧).

(٣) إشارة إلى المتوكل .

(٤) **بستيان** : لضرورة الوزن وإلا فهو سبستيان .

(٥) أحمد المنصور ، أخو عبد الملك المعتصم بالله قاد المعركة بعد وفاة أخيه ، وكان جديراً بالشاعر أن يذكر عبد الملك الذي هيأ وخطط للمعركة .

(٦) إشارة إلى قصر مدة المعركة .

(٧) محمد المتوكل المسلوخ .

(٨) في نهر وادي المخازن .

(٩) برده الغزو الصليبي وانتصاره بالدهر في معركة وادي المخازن .

عاشراً: أسباب نصر وادي المخازن:

[١] القيادة الحكيمة التي تمثلت في زعامة عبد الملك المعتصم بالله وأخيه أبي العباس، ولحاجبه المنصور، وظهور مجموعة من القادة المحنكين من أمثال، أبي على القوري، والحسين العلج، ومحمد أبي طيبة، وعلي بن موسى، الذي كان عاملاً على العرائش.

[٢] التفاف الشعب المسلم المغربي حول قيادته بسبب الشيخ أبي المحاسن يوسف الفاسي والذي استطاع أن يبعث روح الجهاد في القوى الشعبية.

[٣] رغبة المسلمين في الذود عن دينهم وعقيدتهم وأعراضهم، والعمل على تضميد الجراح بسبب سقوط غرناطة، وضياع الأندلس، والانتقام من النصارى الذين عذبوا المسلمين المهاجرين الذين حكمهم في الأندلس.

[٤] اشتراك خبراء من العثمانيين تميزوا بالمهارة في الرمي بالمدفعية وشارك كذلك مجموعة من الأندلسيين تميزوا بالرمي والتصويب بدقة مما جعل المدفعية المغربية تتفوق على المدفعية البرتغالية النصرانية.

[٥] الخطة المحكمة التي رسمها عبد الملك المعتصم بالله مع قادة حربه حيث استطاع أن يستدرج خصومه إلى ميدان تجول فيه الخيل وتصول، مع قطع طرق تموينه وإمداده ثم نسفه للقنطرة الوحيدة على نهر وادي المخازن.

[٦] القدوة والأسوة المثالية التي ضربها للناس كل من عبد الملك وأخيه أحمد المنصور حيث شاركوا بالفعل والسنان في القتال فكان حالهما له أثر أشد في اتباعهم من قولهم.

[٧] تفوق القوات المغربية بالخيل حيث استطاع الفرسان أن يستثمروا النصر ويطوقوا النصارى المنهزمين ومنعتهم خيل المسلمين الخفيفة الحركة من أي فرصة في الفرار.

[٨] استبداد سبستيان بالرأي وعدم الأخذ بمشورة مستشاريه وكبار رجال

دولته مما جعل القوب تتنافر.

[٩] وعي الشعب المغربي المسلم بخطورة الغزو النصراني البرتغالي وقناعته بأنه جهاد في سبيل الله ضد غزو صليبي حاقد [١] .

[١٠] دعاء وتضرع المسلمين لله بإنزال النصر عليهم وخذل وهزيمة أعدائهم.

وغيرذلك من الأسباب.

الحادي عشر: نتائج المعركة:

[١] أصبح سلطان المغرب بعد الملك أحمد المنصور بالله الملقب بالذهبي وبويع بعد الفراغ من القتال بميدان المعركة، وذلك يوم الإثنين ٣٠ جمادى الآخرة سنة ست وثمانين وتسعمائة للهجرة.

[٢] وصلت أنباء الانتصار بوسطة رسل السلطان أحمد الذهبي إلى مقر السلطنة العثمانية، في زمن مراد خان الثالث، والى سائر ممالك الإسلام المجاورة للمغرب، وحل السرور بالمسلمين وعم السعد في ديارهم ووردت الرسل من سائر الأقطار مهنئين ومباركين للشعب المغربي نصرهم العظيم.

[٣] ارتفع نجم الدولة السعدية في أفق العالم وأصبحت دول أوروبة تخطب ودها واضطر ملك البرتغال الجديد «أنريك» أن يرسل وفداً إلى المغرب وكذلك ملك الإسبان محملة وفودهم بالهدايا الثمينة. ثم قدمت رسل السلطان العثماني مهنئة ومباركة ومعهم هداياهم الثمينة [٢] .

وبعدها رسل ملك فرنسا وأصبحت الوفود (تصبح وتمسي على أعتاب تلك القصور) [٣] .

[٤] سقط نجم نصارى البرتغال في بحار المغرب واضطربت دولتهم، وضعفت شوكتهم، وتهاوت قوتهم.

---

(١) انظر : وادي المخازن (ص ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥) .

(٢) انظر : وادي المخازن (ص ٧٠).

(٣) الاستقصاء (٥ / ٩٢) نقلاً عن وادي المخازن (ص ٧٠) .

يقول لويس مارية - المؤرخ البرتغالي - واصفاً نتائج المعركة:

« وقد كان مخبوءاً لنا في مستقبل الأعصار، العصر الذي لو وصفته - كما وصفه غيره من المؤرخين - لقلت: هو العصر النحس البالغ في النحوسة، الذي انتهت فيه مدة الصولة والظفر والنجاح، وانقضت فيه أيام العناية من البرتغال، وأنطفأ مصباحهم بين الأجناس، وزال رونقهم، وذهبت النخوة والقوة منهم، وخلفها الفشل، وانقطع الرجاء، واضمحل إبان الغنى والربح، وذلك هو العصر الذي هلك فيه سبستيان في القصر الكبير في بلاد المغرب » (١) .

[٥] مات في تلك المعركة ثلاثة ملوك، صليبي حاقد سبستان ملك البرتغال، ملك مخلوع خائن محمد المتوكل، مجاهد شهيد، عبد الملك المعتصم بالله.

[٦] سارع البرتغاليون النصارى بفكاك أسراهم ودفعوا أموالاً طائلة للدولة السعدية.

[٧] سادت فترة هدوء ورخاء وبناء في العلوم والفنون والصناعات في بلاد المغرب.

[٨] حدث تحول جذري في التفكير والتخطيط - على مستوى أوروبا حيث رأوا أهمية إتقان الغزو الفكري لبلاد المسلمين، لأن سياسة الحديد والنار تحطمت أمام إرادة الشعوب الإسلامية في المشرق والمغرب (٢) .

الثاني عشر: السلطان أبو العباس أحمد المنصور بالله الذهبي:

ولد أبو العباس أحمد المنصور بالله بفاس سنة ٩٥٦هـ/١٥٤٩م . أبوه محمد المهدي، وأمه بربرية الأصل لها أوقاف بمراكش معروفة لدى المغاربة (٣) .

درس في مراكز علمية عديدة ومن أهم هذه المركز: (فارس، مراكش بتارودانت . . .) . ودرس علوم اللغة والأدب والتاريخ والتراجم والفقه والحديث

---

(١) الاستقصاء (٥/٨٥ -٨٦) نقلاً عن وادي المخازن (ص٧١) .

(٢) انظر : وادي المخازن (٧٦) .

(٣) انظر : وادي المخازن (ص٣٧) نقلاً عن الاستقصا (٥/١٣٦) .

والمنطق والبلاغة والفلك والرياضيات والأصول والتفسير.

[أ] من أشهر شيوخه :

[١] أبو العباس أحمد بن علي المنجور، المعروف بتبحره في العلوم واهتمامه بالفنون، وتوسعه في علم النحو والبلاغة والمنطق وعلم الكلام.

[٢] شقروان بن هبة الله الوهراني، درس عليه الفقه والتفسير وغيرها من العلوم.

[٣] أبو زكريا يحيى السرج.

[٤] محمد بن يوسف الدرعي.

[٥] سليمان بن إبراهيم.

[٦] موسى الروداني (١) .

[ب] من مؤلفات أبي العباس أحمد المنصور:

[١] «المعارف في كل ما تحتاج الخلائق» يتكلم هذا الكتاب عن فقه الدولة وسياستها ويهتم بالطرق العلمية لصناعة الأسلحة والذخيرة، وبناء نقاط للدفاع، ويهتم بالطرق التقنية ويرسم التفكير الإستراتيجي القتالي.

[٢] مؤلفه في دراسة الحديث النبوي: « **نحن معاشر الأنبياء لا نورث ، ما تركناه صدقة** » (٢) .

[٣] كتابات أدبية وشعرية متميزة، تظهر فيها المحسنات البديعية أحياناً (٣) .

وصَفَه السلاوي فقال:

(نشأ المنصور في عفاف وصيانة وتعاط للعلم ومثافنة (٤) لأهله عليه، كانت مخايل الخلافة لائحة عليه من نعومة أظفاره (٥) . كان طويل القامة ممتلىء

---

(١) **انظر** : وادي المخازن (٣٨) .

(٢) حاول أن يزيح بعض الإشكالات العلمية المتعلقة ببحث الحديث والفقه .

(٣) **انظر** : وادي المخازن (ص ٣٨) .

(٤) **ثافن الرجل** : لازمه حتى عرف باطن أمره .

(٥) أي : طفولته .

الخدين، واسع المنكبين، تعلوه صفرة رقيقة، أسود الشعر، أدعج أكحل ، ضيق البلج [١] براق الثنايا، حسن الشكل، جميل الوجه، ظريف المنزع، لطيف الشمائل) [٢] .

[جـ] إدارته للدولة:

استمر على منهج أخيه في بناء المؤسسات واقتناء ما وصلت إليه الكشوفات العلمية وتطوير الإدارة والجيش، وترتيب وتنظيف الأقاليم التابعة للدولة.

وكان أحمد المنصور يتابع وزراء وكبار موظفيه ويحاسبهم على عدم المحافظة على أوقات العمل الرسمية، أو التأخير في الرد على المراسلات الإدارية والسياسية.

وأحدث حروفاً لرموز خاصة بكتابة المراسلات السرية حتى لا يعرف فحواها إذا وقعت في يد عدو وهذا يدل على اهتمامه الشخصي بجهاز الأمن والاستخبارات التي تحمي به الدولة من الأخطار الداخلية والخارجية.

واهتم بالجهاز القضائي، وفصل السلطة القضائية عن السلطة التنفذية تماماً، ومنع السلطة التنفذية من التدخل في السلطة القضائية.

وقد قارن مؤرخ فرنسي بين القضاء الأوروبي والقضاء المغربي في القرنين (١١و١٢هـ) ، (١٦و١٧م) فقال: «في الوقت الذي كانت أوروبة في العصر السعدي يحتفظ الملوك فيها وحدهم بحق الحكم في عدد من القضايا فإن الملوك السعديين لا ينظرون إلا في القضايا المرفوعة ضد رجال السلطة، وهذا ما كان يدعى بقضاء المظالم» [٣] .

وترأس أحمد المنصور مجلس المظالم وجعله في جامع القصبة في مراكش، بجوار قصره، وشكل لجنة تراقب مجرى القضاء في الأقاليم ويهتم بمطالعة

---

(١) **البلج** : تباعد ما بين الحاجبين .

(٢) **انظر** : وادي المخازن (ص ٣٩) .

(٣) **انظر** : دعوة الحق نقلاً عن وادي المخازن (ص ٤١) .

ودراسة تقاريرهم بعناية واهتم بضبط الإدارة وإحكام دولته وإقامة العدل على رعاياه.

وعمل على إقامة محطات في أرجاء البلاد، يحرسها جنود مقيمون لا يبعد بعضهم عن بعض إلا بمسافة عشرين كيلوا متراً بحيث يستطيع المسافرون والقوافل أن يمر عبر القرى والبوادي بأمن وسلام.

وطور عمل المؤسسات الأستشارية وأوجد مجلس الديوان أو مجلس الملاء، واختصاصاته سياسية وقضائية وعسكرية ، وهو أعلى مرجع قانوني للبلاد، إلا أنه لا يستطيع أن يتجاوز أحكام السلطة القضائية، ولو كانت ضد المجلس كله أو بعض رجاله.

وكان مجلس الديوان من المرونة وسعة الأفق بحيث يسمح بدخول المختصين أو ممثلين المدن والمراكز القروية عندما يقتضي الأمر استشارات على نطاق شعبي واسع [١] .

وطور السلطان أحمد المنصور جيش دولته واقتدى بالنظام العثماني في التسليح والرتب واللباس واهتم بإسناد القيادات لمن أظهر كفاءة عسكرية عالية وأثبتت الأيام أنه أهل لذلك ومن أهم هذه القيادات، إبراهيم بن محمد السفياني قائد الجبهة الأمامية في وادي المخازن، وأحمد بن بركة، وأحمد الحداد العمري المعقلي.

ودعم جيشه بالوحدات الطبية من جراحين وغيرهم وأقام مستشفيات متنقلة ميدانية تستقبل الجرحى والمرضى في الحروب بتأهيل التقنيين المتخصصين في جيشه، قام السعديون ببناء دار العدة لصناعة المدافع واهتموا بتطوير الأسطول،خصوصاً في ميناءي العرائش وسلا [٢] .

(١) انظر : وادي المخازن (ص ٤٢ ، ٤٣).

(٢) المصدر السابق (ص ٤٤).

ومد نفوذ الدولة السعدية نحو الجنود وضم بلاد السودان الغربي إلى نفوذه ودخل في لعبة الموازنات الدولية بين الإسبان والإنجليز والأتراك، وظهرت منه مواهب سياسية متميزة، واستطاع أن يحقق الأمن والازدهار والرفاهية والخصب لبلاده [١] .

[د] انهيار الدولة السعدية :

بعد وفاة أحمد المنصور الذهبي في عام ١٠١٢هـ/١٦٠٣م دخل المغرب في حالة من الضعف والتفكك ، آل به إلى الأمر سقوط الدولة السعدية ، **وقد كان لذلك السقوط عدة عوامل منها:**

[١] الصراع المرير على كرسي الحكم بين أبناء الأسرة السعدية من الأسباب القوية التي عجلت بنهاية الأسرة سريعاً وانهيارها .

[٢] ساهم ذلك الصراع في قيام الثورات والحركات الانفصالية والإمارات المستقلة عن الحكومة المركزية في المغرب الأقصى وانشغل الأمراء السعديون بالصراع فيما بينهم عن أحوال الرعية والعدو الخارجي .

[٣] دخلت الولايات والإمارات المنفصلة في نزاع عسكري فيما بينها من أجل الحدود ،التوسع كل إمارة على حساب الأخرى ولم تكن هذه الإمارات في وئام فيما بينها .

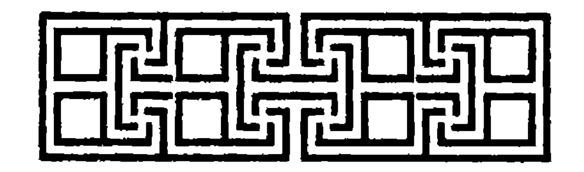
[٤] ظهور إمارة قوية بقيادة الأسرة العلوية الشريفة أخذت تسعى لتوحيد المغرب .

[٥] تولى الزعامة السعدية أبو العباس أحمد وكانت قد وصلت الدولة في عهده إلى حالة من التردي والضعف والأنهيار ، حيث لا يزال طفلاً صغيراً وكان أخواله من العرب الشبانات لهم تطلع للوصول للحكم انتهى الأمر بإن قامت قبيلة الشبانات بقتل السلطان السعدي آخر السلاطين السعديين

---

(١) **انظر** : تاريخ عصر النهضة الأوروبية ، نور الدين حسام (ص ٤٥٦ ، ٤٥٧ ، ٤٥٨) .

عام (١٠٦٩هـ/١٦٥٨م) وأزالوا نهائياً معالم الأسرة السعدية بمقتل أبي العباس ، واستيلاء عرب الشبانات على مقاليد الأمور في البلاد ، وبايعوا إبراهيم عبد الكريم زعيم القبيلة وكان من الطبيعي أن تسقط تلك القبيلة والمليئة بالصراع والتمزق على الساحة الداخلية والخارجية ، وسقطت تلك القبيلة أمام زحف الأشراف العلويين الذين أصبحوا محل ثقة الشعب المغربي في عام (١٠٧٥هـ - ١٤١٢هـ) ، وتولوا مقاليد المغرب ودخلوا مراكش ولا تزال أسرة الأشراف العلويين في حكم البلاد ، إلى يومنا هذا [1] .



(١) انظر : موسوعة المغرب العربي (٣/٣٤٨).

المبحث الثالث

بنو عبد الواد «بنو زيان»

[أ] بنو عبد الوادُ « بنو زيان » :

كان بنو زيان ولاة للجزائر من قبل الموحدين وعندما ضعف أمر الموحدين، انفصلوا بالمغرب الأوسط وجعلوا مدينة تلمسان عاصمة لهم وترجع أصولهم إلى قبائل زناتة الكبرى وعرفوا في كتب التاريخ ببني عبد الواد [(١)] .

وكان بنو عبد الواد من أمراء القبائل الرحل التي تنتقل في الصحراء الكبرى خلف الماء والكلأ والمراعي ثم ساعدتهم الظروف والأحوال التي مرت بها المغرب على الاستقرار وتكوين دولة استمرت ما يقرب من ثلاثمائة سنة تقريباً. وكان استقرار قبائل عبد الواد في سواحل المغرب الأوسط واستطاعوا أن يفرضوا أنفسهم بالقوة على أهالي هذه البلاد وأصبحوا فيما بعد سادة المغرب الأوسط.

انفصل زعيم بني عبد الواد يغمراسن بن زيان عن دولة الموحدين وأبقى الطاعة الشكلية لها إلى أن سقطت فعليا وحكم زعيم بني عبد الواد ما يقرب الخمسين سنة (٦٣٣هـ/١٢٣٥م - ٦٨١هـ/١٢٨٢م) .

كان يغمراسن يدرك صعوبة الموقف الذي أصبح فيه، لكون دولته أصغر دويلات الشمال الإفريقي وأقلها قوة، وأيقن بالخطر القادم من المغرب الأقصى بعد صعود نجم قبائل بني مرين لذلك تحالف مع خلفاء الموحدين لكسرشوكة المرينيين إلا أن تلك الأحلاف لم تستمر وانتهت بوصول بني مرين إلى الحكم بعد إسقاطهم للموحدين.

وأرادت الدولة المرينية أن تأمن حدودها الشرقية ودخلت في صراع عنيف

---

(١) انظر : تاريخ قادة بلاد المغرب (٢/ ٢٣٤) .

وقتال مرير مع بني عبد الواد الذين هزموا في عام ٦٧٠هـ/ ١٢٧١م أمام الضربات المرينية قرب وجدة ثم تحركت القوات المرينية نحو تلمسان، وضربت عليها حصاراً استمر لمدة عام كامل ، ثم رفع حتى تتفرغ الدولة المرينية للاستيلاء على ما تبقى من أقطار المغرب الأقصى (١) .

وكان من سعد بني عبد الواد أن انشغل المرينيون بالجهاد في بلاد الأندلس. وتحالف بنو عبد الواد مع بني الأحمر لما ساءت العلاقة بين بني مرين وبني الأحمر بفعل العمل الاستخباراتي النصراني الإسباني.

وقام بنو عبد الواد بالهجوم على حدود الدولة المرينية فاضطر المرينيون أن يعودوا لحرب بني عبد الواد وألحقوا بهم هزائم في عام (٦٧٩هـ/ ١٢٨٠م) .

وكان بنو عبد الواد يجدون في الصحراء الواسعة ملاذاً لهم عندما يشتد خطبهم وتنكسر حشودهم، وتنهزم قواتهم أمام المرينيين، ثم ينتظرون الوقت المناسب والفرصة الملائمة ليعودوا إلى مدنهم في المغرب الأوسط.

كان بنو عبد الواد ينتهزون الفرص التي تحدث بين أبناء البيت المريني، فيناصرون فريقاً على حساب آخر، كما كانوا يدخلون في أحلاف ضد المرينيين مع الحفصيين الذين رأوا في بقاء بني عبد الواد درعاً حصيناً بينهم وبين بني مرين إلا أن تلك الحالة لم تستمر طويلاً حيث دخلت الدولتان في صراع عنيف ضد بعضهم البعض وإن كان أخف من الصراع مع المرينيين.

واستطاعت الدولة المرينية أن تزيل الوجود الزياني والحفصي وتوحد المغرب كله في زمن أبي الحسن المريني في عام ٧٣٧هـ/١٣٣٧م إلا أن تلك الوحدة لم تستمر بسبب عوامل مرت بنا.

لقد تعرضت دولة بني عبد الواد للإنهيار أكثر من عشرين مرة ومع ذلك

---

(١) انظر : المغرب في تاريخ الأندلس والمغرب(ص ١٣٤) .

استطاعت أن تبقى في حكم المغرب الأوسط لمدة ثلاثة قرون ،**ويرجع ذلك إلى أسباب منها :** [١]

﴿١﴾ ظهور الزعيم يغمراسن بن زيان والذي استمر في الحكم لمدة نصف قرن يقول ابن خلدون عنه : (كان يغمراسن بن زيان من أشد بني عبد الواد بأساً وأعظمهم في النفوس مهابةً وإجلالاً ، وأعرفهم بمصالح قبيلته، وأقواهم كاهلاً على حمل الملك واضطلاعاً بالتدبير والرياسة، شهدت له بذلك آثاره قبل الملك وبعده، وكان مرموقاً بعين التجلة، مؤملاً للأمر عند المشيخة، تعظمه من أمره الخاصة وتضرع إليه في نوائبها العامة، فلما تولى الأمر بعد أخيه قام به أحسن قيام واضطلع بأعبائه وظهر على الخارجين وصيرهم في جملته وتحت سلطانه، وأحسن السيرة في الرعاية بحسن السياسة والاصطناع وكرم الجوار واتخذ الألة ورتب الجند والمصالح وفرض العطاء) [٢] .

﴿٢﴾ حصانة مدينتهم وموقعها الوعر، وخصوبة الإقليم المحيط بها، وصبرهم ومصابرتهم في القتال وتحملهم للحصار.

﴿٣﴾ حسن سياستهم مع القبائل العربية الهلالية، فمنحوهم إقطاعات واسعة وأكرموهم بالأموال والعطاء فكانوا من الأسباب الظاهرة في حماية الدولة.

﴿٤﴾ إسناد مرافق الدولة للأندلسيين الذين هاجروا من ظلم النصارى الإسبان وجورهم وتعسفهم، فاستفادت الدولة من خبرتهم في الوزارة، وفي الحياة المعمارية، والحياة الثقافية

﴿٥﴾ اهتمامها بالتجارة واستفادوا من موقع تلمسان الذي كان محطة بين إفريقية المدارية وأوروبا، فكان يتم التبادل بين التجار بين ما يحملون من إفريقيا من تبر ورقيق وجلود وعاج وبين ما يحمله التجار من أوروبا وأخصها السلاح.

---

(١) انظر : المغرب في تاريخ الأندلس والمغرب (ص ١٣٦) .
(٢) ابن خلدون في تاريخه (٧ / ٧٩) .

فهيأت الدولة الأمن للتجار وخفضت عنهم الضرائب، واكتفت ما تحصله من رسوم فكان للتجارة سبب في ازدهار الدولة وحصولها على الأموال اللازمة.

﴿٦﴾ اهتمام الدولة بالعلماء والأدباء والشعراء حتى أن يحيي بن خلدون (ت ٧٨٠هـ) وهو شقيق المفكر الكبير والمؤرخ المعروف ابن خلدون استطاع أن يصل إلى وظيفة الحجابة في زمن الأمير أبي حمو موسى الثاني (٧٥٣هـ/١٣٥٢م - ٧٩١هـ/١٣٨٩م) وكان هذا الأمير محباً للعلماء والأدباء وكان هو نفسه أديباً شاعراً وله كتاب اسمه: (**نظم السلوك في سياسة الملوك**) ووقف مع غرناطة في جهادها بالمال والرجال [١].

وفي عهد بني زيان على العموم نبغت جماعات من أشهر العلماء والأدباء والكتاب والمفكرين، ولعل في قمة هؤلاء عبد الرحمن الثعالبي مؤلف الجواهر الحسان، والمقري مؤلف نفح الطيب كما امتازت هذه الدولة ببناء المدارس الفسيحة التي تعتبر من آيات الفن المعماري العربي، وأجريت على طلبتها وشيوخها الأرزاق [٢].

[ب] التنظيم الإداري في عهد بني عبد الواد:

قسمت السلطات في الدولة إلى :

[١] **السلطة العسكرية** : ويتولاها صاحب السيف.

[٢] **السلطة الإدارية** : ويتولاها صاحب القلم.

[٣] **السلطة القضائية** : ويتولاها قاضي القضاة.

[٤] **السلطة المالية** : ويتولاها صاحب المال.

ويتابع مسؤلي السلطات السابقة شخص يطلق علية (مزاول) وله حق

---

(١) المغرب في تاريخ الأندلس والمغرب (ص ١٣٦).

(٢) موسوعة التاريخ الإسلامي، د. أحمد شلبي (٤/٢٥٢)

الإشراف على كل هؤلاء وهو ما يعرف في زماننا رئيس الوزراء وفي كل مدينة أو قبيلة كان يوجد الحافظ (الوالي) وهو حافظ النظام الإسلامي، وإلى جانبه المحتسب وهو المشرف على الحسبة، والقاضي وغيرهم من موظفي الدولة وجباة الضرائب (١) .

[جـ] أسباب السقوط لبني عبد الواد :

[١] النزاع الداخلي بين أبناء الأسرة الحاكمة من أجل الوصول إلى الحكم.

[٢] قتال الحفصيين لهم في عهد أبي فارس عبد العزيز وعهد أبي عمر وعثمان أضعف الدولة وخلخل بنيتها القائمة عليها .

[٣] ظهور دويلات على الساحل انفصلت عن قلب الدولة في تلمسان.

[٤] مجيء الغزو الصليبي النصراني الإسباني واحتلالهم بجاية سنة (٩١٠هـ/ ١٥٠٤م) ثم استيلاؤهم على وهران (٩١٤هـ) ، ثم سعيهم للاستيلاء على الجزائر وعاشت هذه المدينة تحت تهديد المدافع الإسبانية(٢)، وعجز بنو عبد الواد في التصدي لهم.

[٥] ظهر على الساحة المجاهدون المسلمون الذين ينتمون إلى الدولة العثمانية وكان على رأسهم خير الدين بربروسة الذي استطاع أن يضع حداً لعدوان الإسبان وانتهى الأمر بزوال دولة بني زيان في عام (٩٦٢هـ/ ١٥٥٤م) ودخول المغرب الأوسط تحت الحكم الإسلامي العثماني الذي استطاع أن يهزم الإسبان (٣) وكان تفاعل أهالي المغرب الأوسط مع الدولة العثمانية عظيماً؛ لأن المسلمين العثمانيين دحروا الإسبان وهزموهم وخلصوا البلاد من التواكل والتخاذل الذي أخلد إليه بنو عبد الواد ، فكان ذلك التخاذل

---

(١) انظر: موسوعة التاريخ الإسلامي د . أحمد شلبي (٢٥٢,٢٥٣)

(٢) ، (٣) انظر : المغرب الكبير (٢ / ٨٧٥) .

والتواكل سبباً في تجرؤ الإسبان على احتلال وهران واعتدى الجيش الإسباني النصراني على حرمات الدين والأعراض والنفوس والأموال وارتكبوا الفواحش، وقتلوا نحو ثمانية آلاف من الأطفال والشيوخ والنساء، وانتهكت حرمات المساجد والبيوتات الشريفة وفي أواخر رمضان سنة (٩١٥هـ/ ١٥١١م) اقتحم النصارى الإسبان أسوار (بجاية) وحطموا الجامع الأعظم فيها وكثيراً من معالم المدينة [١] .

فكان من الطبيعي أن يفرح أهالي المغرب الأوسط لمجيء إخوانهم في العقيدة والدين الذين جاءوا من أجل الدفاع عن الإسلام وأهله في الشمال الإفريقي .

---

(١) **انظر** : قادة فتح المغرب العربي (٢ / ٢٣٥) .

المبحث الرابع

الدولة الحفصية

[أ] الدولة الحفصية :

اختلف علماء التاريخ في نسب أمراء بني حفص، فمنهم من أرجعهم إلى عمر ابن الخطاب كابن نخيل،الذي يعتبر أول كاتب لديوان الدولة الحفصية [١] .

ومنهم من أرجعهم إلى قبيلة هنتاتة ، التي تعتبر من أهم قبائل المصامدة على وجه الخصوص، ومن أكبر قبائل البربر في المغرب على وجه العموم .

وموطنها بجبال درن القريبة لمراكش، ويعتبر أبو حفض من زعماء المصامدة وله مكانة ونفوذ بين قبائل المصامدة وهو من خواص ابن تومرت، وآمن بدعوته وبذل قصارى جهده في مناصرته، وكان يأتي بعد عبد المؤمن في المنزلة عند الموحدين، من غير منازع، ويشترك معه في الألقاب الرئاسية، فبينما كان ابن تومرت يسمى بالأمام،وعبد المؤمن بن علي بالخليفة كان يسمى هو بالشيخ[٢] . وبلغ من احترام عبد المؤمن له وحُسن تقديره إياه أن كان يأخذ برأيه في كل مشاكل الحكم،وأكرم أولاده من بعده وأسند لهم المناصب والإمارة في الأندلس وإفريقية .

وعندما تولى الخلافة الموحديةالناصر بن المنصور[٣] أسند إلى أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص الهنتاتي أمر إفريقية وأعطاه مطلق التصرف في إداراتها كي يستطيع القيام بأعبائها علي الفتن والثورات المستمرة هناك بزعامة بني غانية وأحلافهم من العرب .

وكان من شروط أبي محمد الحفصي على الخليفة الموحدي، أن يقيم ثلاث

---

(١) ابن خلدون ، تاريخ الدول الإسلامية بالمغرب (١ / ٣٧٤) .

(٢) انظر : بحوث في تاريخ الحضارة الإسلامية (ص ٢٢٠) .

(٣) انظر : دراسات في تاريخ المغرب والأندلس للعباد (ص ١٢١) .

سنين ريثما تترتب الأحوال وتنقطع أطماع بني غانية عنها، وأن يحكمه الناصر فيمن يبقيه معه من الجند ويرضاه من أهل الكفاية، وأن لا يتعقب أمره في ولاية ولا عزل، فقبل الناصر شروطه، ومن هنا ورث الملوك الحفصيون سلطنة تونس وإفريقية [١] .

ويعتبر الانفصال الرسمي عن الدولة الموحدية بالنسبة للحفصيين على يد أبي زكريا بن عبد الواحد الحفصي سنة (٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م) [٢] .

وكانت هناك عدة أسباب شجعت الأمير أبا زكريا بن عبد الواحد الحفصي على الانفصال، منها:

(١) انهيار دولة عبد المؤمن في المغرب والأندلس عقب الهزيمة التي حاقت بجيوشها في موقعة العقاب سنة (١٢١٢م) .

(٢) رفض الخليفة الموحدي إدريس المأمون في عام (٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م) لتعاليم ابن تومرت ثم إزالة اسمه من السكة والخطبة.

(٣) قتل الخليفة الموحدي إدريس أشياخ الموحدين الذين عارضوا سياسته ومعظمهم من هنتاتة، قبيلة الحفصيين.

فاستغل أبو زكريا عبد الواحد الموقف المتأزم ورفض مبايعة الخليفة إدريس المأمون، واتخذ الأسباب المذكورة ذريعة للخروج عن طاعة عبد المؤمن والاستقلال بولايته واعتبر نفسه أحق بميراث فكر وعقائد وأهداف حركة ابن تومرت، ولذلك حرص الحفصيون منذ إعلانهم للانفصال على التمسك بتعاليم ابن تومرت ، وذكروا اسمه في الخطبة والسكة ، كما طبقوا رسوم الموحدين واسمهم وتقاليدهم على دولتهم الناشئة وإن كانت الظروف اقتضت تعديل بعض القضايا بحكم تغير الزمان والمكان [٣] .

---

(١) **انظر** : دراسات في تاريخ المغرب والأندلس للعباد (ص ١٢١) .

(٢) ، (٣) **انظر** : دراسات في تاريخ المغرب والأندلس للعباد (ص ١٨٠) .

واستطاع أبو زكريا بن عبد الواحد أن يشكل إمارة في تونس وقضى على البقية الباقية من بني غانية، واستولى على قسنطينة وبجاية ودخل تلمسان وأتته بيعة أهل طنجة وسبتة وسجلماسة، كما أتته بيعة بني مرين عندما كانوا يقاتلون الموحدين في المغرب الأقصى وكانت مناورة سياسية تدل على دهاء ومكر زعماء المرينيين [١]، ودعا له عدد من ولاة الأندلس وبايعه أهل شرق الأندلس وإشبيلية والمرية وإلى الأمير أبي زكريا عبد الواحد وجه أمير بلنسية وفداً برئاسة ابن الأبار يستصرخه لنجده أهل بلنسية فقام ابن الأبار القضاعي بين يدي أمير الحفصيين منشداً قصيدته السنية الفريدة التي قال عنها المقري أنها فضحت من باراها وكبا دونها من جاراها [٢] وهي:

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا ... إن السبيل إلى منجاتها درسا

وهب لها من عزيز النصر ما التمست ... فلم يزل منك عز النصر ملتمسا

وحاشى مما تعانيه حشاحشتها ... فطالما ذاقت البلوى صباح مسا

ياللجزيرة أصبح أهلها جزراً ... للحادثات وأمسى جدُّها تعسا

في كل شارقة إلمام بائقةٍ ... يعود مأتمها عند العدا عرسا

وكل غاربة إحجاف نائبة ... تثني الزمان حذراً والسرور أسى

تقاسم الروم لا نالت مقاسمهم ... إلا عقائلها المحجوبة الأنسا

وفي بلنسية منها وقرطبة ... ما ينسف النفس أو ما ينزف النفسا

مدائن حلها الأشراك مبتسماً ... جذلان، وارتحل الإيمان مبتئسا

وصيرتها القوادي العائثات بها ... يستوحش الطرف منها ضعف ما أنسا

فمن دساكر كانت دونها حرساً ... ومن كنائس كانت قلبها كنسا

---

(١) انظر: المغرب في تاريخ المغرب والأندلس (ص ١٢٧).

(٢) انظر: الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس (٣/ ١٢٠).

يا للمساجد عادت للعدى بيعاً ... وللنداء غداً أثناءها جرسا
لهفي عليها إلى استرجاع فائتها ... مدارسا للمثاني أصبحت درسا
وأربعاً نمنمت أيدي الربيع لها ... ما شئت من خلع موشية وكسا
كانت حدائق للأحداق مونقة ... فصوح النصر من أدواحها وعسى
وحال ما حولها من منظر عجب ... يستجلس الركب أو يستركب الجلسا
سرعان ما عاش جيش الكفر واحربا ... غيث الدبا في مغانيها التي كسبا
وابتز بزتها مما تحيفها ... تحيف الأسد الصاري لما افترسا
فأين عيش جنيناه بها خضراً ... وأين عصر جليناه بها سلسا
محا محاسنها طاغ أتيح لها ... ما نام عن هضمها حيناً ولا نعسا
ورج أرجاءها لما أحاط بها ... فغادر الشم من أعلامها خنسا
خلا له الجو فامتدت يداه إلى ... إدارك ما لم تطأ رجلاه مختلسا
وأكثر الزعم بالتثليث منفرداً ... ولو رأى راية التوحيد ما نبسا
صل حبالها أيها المولى الرحيم فيما ... أبقي المراس لها حبلاً ولا مرسا

إلى أن قال :

طهر بلادك منهم إنهم نجس ... ولا طهارة ما لم تغسل النجسا
وأوطىء الفيلق الجرار أرضهم ... حتى يطأطىء رأساً كل من رأسا
وانصر عبداً بأقصى شرقها شرقت ... عيونهم أدمعاً تهمي زكاً وخساً
هم شيعة الأمر وهي الدار قد نهكت ... داء ما لم تباشر حسمه انتكسا
فاملأ هنئاً لك التأييد ساحتها ... جرداً سلاهب أو خطيذة دعساً
واضرب لها موعداً بالفتح ترقبه ... لعل يوم الأعادي قد أتى وعسى [1]

---

(١) **انظر** : الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس (٣ / ١٢٠، ١٢١، ١٢٢) .

ولقد لبى السلطان الحفصي النداء وأرسل السفن المحملة بالعدة والعتاد والرجال والمؤن إلى المدينة المحاصرة إلا أن تلك الإغاثة لم تفد أهل بلنسية بسبب الحصار المحكم من قبل النصارى مما جعل أهالي المدينة يضطرون إلى التسليم والخضوع للمعتدين النصارى الحاقدين (١) .

وفتح أبو زكريا أبواب إفريقية للهجرة الأندلسية وبلغ التأثير الأندلسي في الدولة الحفصية ذروته في عهد أبي عبد الله المستنصر خليفة أبي زكريا يحيى ، وكان من أعظم حكام دولة الحفصيين ، وكان بلاطه يزخر بأهل الأندلس الذين هاجروا إلى جواره .

لقد كانت مناورة أبي زكريا عبد الواحد السياسية قد حققت أهدافها حيث استطاع أن يمكن لبني حفص الحكم في إفريقية وتوسع نفوذه من أحواز طرابلس شرقًا إلى مدينة الجزائر غربًا ، وبدا وكأنه سيعيد الوحدة إلى أقطار المغرب (٢) .

[ب] ولاية العهد :

سلك الحفصيون في ولاية العهد مسلك تعيين الأفراد من الأسرة الحاكمة. وفي عام ٦٣٣هـ/١٢٣٥م عين الأمير أبو زكريا ابنه على ولاية بجاية وخوَّل له معظم الصلاحيات في سائر أعمالها .

وتميز أبو يحيي بحسن الكفاءة وسعة العلم وكثرة الورع وحب العدل، وجعل أهل مشورته وخاصته من أهل العلم والتقوى والدين والرأي السديد .

وكانت وصية أبي زكريا لابنه مليئة بالنصح والإرشاد ، ومما جعل في وصيته قبل موته في عام (٦٤٧هـ/١٢٤٩م) :

[١] المحافظة على إقامة شعائر الإسلام في اتباع أوامر الله واجتناب نواهيه .

---

(١)المصدر السابق (٣/١٢٣).

(٢)انظر : المغرب في تاريخ المغرب والأندلس (ص ١٢٨).

[٢] تفقده للجيش وحُسن معاملته لأفراده حسب درجاتهم، فلا يلحق السفيه بالكبير ، فيجرىء السفيه عليه ، ويفسد نية الكبير ، فيكون إحسانه مفسده له في كلا الوجهين.

[٣] أوصاه الأمير بعدم الجزع عند حدوث الملمات؛ لأن الجزع يؤدي إلى القلق والاضطراب، وبالتالي إلى الفشل في معالجة الأمور، لذا عليه أن يعالجها بالصبر والاتزان مع استشارة النبهاء، وذوي التجارب من قادة الجيش.

[٤] إن يحسن اختيار مستشاريه، ممن اتصفوا بصدق القول والإخلاص في العمل، وأن لا يقتصر في استشارتهم على أحد منهم دون الآخر، بل يأخذ بآرائهم جميعاً، فإن في تعداد الآراء هداية لمعرفة الصواب.

[٥] عليه أن يتفقد أحوال رعيته، ويراقب العمال والولاة في أعمالهم، ويبحث عن سيرة القضاة وعن أحكامهم، ومهما دعّي للكشف عن ملمة فليكشفها، ولا يراع من حكمه أحداً إذا زاغ عن الصواب، ولا يقتصر على شخص واحد فقط في رفع مسائل وحوائج المتظلمين من أبناء رعيته.

[٦]أوصاه بالتواضع والصفح عن الهفوات؛ لأنهما أنجح الطرق في معالجة الأمور.

[٧] أن يعاقب بشدة كل مفسد عابث في طرقات المسلمين وأموالهم، متماذ في غيه في فساد صلاحهم، ومثل هذا ليس له إلا السيف.

أما الحسود فعليه أن لا يقيل عثرته ؛ لأن في إقالته يشجعه على القول والقول يدفعه إلى العمل ، ووبال عمله يضر غيره، فليسم داءه قبل انتشاره ويتدارك أمره قبل إظهاره.

[٨] عليه أن يزهد في الدنيا ، فلا ينشغل بلهوها وزينتها ، بل يعمل الأعمال الحميدة المشكورة التي تخلد ذكراه في الدنيا ، وينال بها

مرضاة الله في الآخرة] [١] .

وبعد موت أبي زكريا تولى زعامة الحفصيين ابنه أبو عبد الله محمد الذي تسمى بالمستنصر بالله الذي أعلن نفسه أميراً للمؤمنين بعد سقوط بغداد بيد التتار عام (٦٥٦هـ) وكان إعلانه كأمير المؤمنين للمسلمين (٦٥٧هـ/١٢٥٩م) وبايعه شريف مكة بالخلافة [٢] .

وحاول الحفصيون أن يستندوا إلى الأسس الشرعية اللازمة في باب الخلافة، كالأصل العربي، والنسب النبوي، إلى جانب قرابتهم للموحدين. فزعموا أنهم من سلالة عمر بن الخطاب [٣] ، وعمر رضي الله عنه كما تعلم من أشراف قريش وكانت إليه السفارة في الجاهلية، وقد تزوج النبي ﷺ ابنته حفصة فالحفصيون بحكم هذا الأصل القرشي، وهذا النسب النبوي، وبحكم قرابتهم للموحدين، وجدوا في أنفسهم الشرعية الكافية لأن يرثوا خلافة الموحدين المنهارة [٤] .

وحرص الحفصيون على الاعتزاز بهذا الأصل، وإعلانه في كل حفل ومناسبة وتبارت أقلام كتابهم وقصائد شعرائهم بإطلاق اسم الدولة العمرية أو الفاروقية على الدولة الحفصية وذكر نسبهم يرجع إلى عمر الفاروق كما يقولون، فهذا ابن خلدون يمدحهم ويقول:

قوم أبو حفص أب لهم   وما أدراك والفاروق هو أول [٥]

ودعم موقف الحفصيين في إعلان الخلافة سقوط بغداد بيد المغول واعتراف شريف مكة وأهل الحجاز بالخلافة الحفصية وسارع ملك غرناطة ابن الأحمر بمبايعة الحفصيين وكذلك المرينيين في المغرب الأقصى.

---

(١) ابن خلدون تاريخ الدول (١/٤٠٦ ، ٤٠٨) .

(٢)انظر : دراسات في تاريخ المغرب والأندلس للعبادي (ص ١٢٣) .

(٣)نفس المصدر السابق (ص ١٢٤) .

(٤)، (٥) دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ، للعبادي (ص ١٢٤) .

يقول السلاوي الناصري: «ولما بلغ بنو مرين بالمغرب، وغلبوا على الكثير من ضواحيه، كانوا يدعون إلى أبي زكريا الحفصي تأليفاً لأهل المغرب، واستجلاباً لمرضاتهم، وإتياناً لهم من ناحية أهوائهم إذ كانت صبغة دعوة الموحدين قد رسخت في قلوبهم...» [١] واعترف بنو زيان في تلمسان في المغرب الأوسط بهذه الخلافة. الحفصية، وكانت السياسة المصرية في عهد المماليك تهدف إلى مد سلطانها على الحجاز لأسباب دينية واقتصادية وسياسية ومن أهم تلك الأهداف السيطرة على البحر الأحمر وتجارته، فجميع الحكام الذين حكموا مصر واستقلوا بها، كالطولونيين، والإخشيديين والفاطميين (العبيديين) قد حرصوا على مد سلطانهم على الحجاز ثم جاء الأيوبيون والمماليك والعثمانيون، فساروا على نفس هذه السياسة لدرجة أنهم لقبوا أنفسهم بلقب «خدام الحرمين» [٢].

وكان يحكم مصر في تلك الفترة (٦٥٨-٦٧٦هـ) السلطان الظاهر بيبرس وكان من أقوى السلاطين الذين حكموا مصر واستطاع أن يهزم المغول عند الحدود العراقية، وانتصر على الصليبين في الشام حتى صارت سيرته مضرباً للأمثال، رأى السلطان بيبرس أن سياسة الدولة الحفصية تتعارض مع أهداف دولته،لهذا عمد إلى إحياء الخلافة العباسية في القاهرة سنة (٦٥٩هـ/ ١٢٦١م)، فأتى بأمير من أمراء العباسيين الفارين من المغول وبايعه بالخلافة في احتفال كبير بالقاهرة، ولقبه بالمستنصر بالله وقام الخليفة الجديد وقلد السلطان بيبرس حكم مصر والشام والحجاز، وما يغزوه من بلاد الأعداء وبهذا العمل كسب بيبرس نفوذاً أدبياً وروحياً وسياسياً ووجه ضربة موجعة للدولة الحفصية وشرع بيبرس بعدة إصلاحات بالحرم النبوي الشريف وأرسل كسوة الكعبة وأرسل الصدقات والشموع والزيت والطيب...إلخ، ثم أدى بيبرس فريضة الحج وظهر منه خشوع

---

(١) **انظر**: السلاوي «الاستقصا» (٣/ ٢٨، ٢٩) نقلاً عن العبادي دراسات في تاريخ المغرب والأندلس.

(٢) **انظر**: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس (ص ١٢٧).

وكرم متميز وأزال أنصار الحفصيين، وأمر بالدعاء للخليفة العباسي على منابر الحجاز بدلاً من الخليفة الحفصي ووضع مندوباً تابعاً له بجانب شريف مكة إلا أنه بعد مضي وقت قصير، ضعف نفوذ كل من الخلافتين وصار سلطانها في المنطقة التي تعيش فيها (١) .

استطاع المستنصر أبو عبد الله محمد أبي زكريا الحفصي أن يطور الدولة ويجعلها مقصداً للعلماء والأدباء وأن تتخذ مكانة رفيعة على المستوى الدولي في زمانه، وجاءته سفارات من دول متعددة، بعضها من السودان، وبعض آخر من أوروبا، واهتم بعاصمة الدولة، وتطور العمران وازدهرت الأحوال العامة في أيامه وأصبحت أعز أيام الدولة الحفصية.

وتعرضت الدولة الحفصية لهجمات نصرانية همجية يقودها لويس التاسع ملك فرنسا في سنة ٦٦٨هـ/ ١٢٧٠م أي بعد عشرين سنة من غزوته الخائبة لمصر، إلا أنها أخفقت، بسبب الوباء الذي عصف بحياة الملك نفسه (٢) .

مات المستنصر الموحدي عام (٦٧٥هـ/١٢٧٧م) وبعد انقضاء القرن السابع الهجري، ضعف أمرها وتوقف الدعاء لها في المغرب والأندلس، ثم لم تلبث أن نخرتها وأضعفتها الحروب الأهلية، واستقلت بجاية عن تونس، وانتهز بنو مرين هذه الفرصة، وأخذوا يتدخلون في شئون الدولة الحفصية واستولوا على تونس عدة مرات (٣) وأصبح الشمال الإفريقي في دوامة الصراع.

واستطاع الحفصيون أن يعودوا إلى حكم إفريقية، لدى انسحاب المرينيين، وبزغت مرحلة جديدة من الأستقرار النسبي في ولاية أبي العباس أحمد المعروف بالمستنصر ٧٧٢هـ/ ١٣٧٠-٧٩٦هـ/ ١٣٩٤م ، واستطاع أن يقف أمام

---

(١) انظر : دراسات في تاريخ المغرب والأندلس (ص ١٢٧) .

(٢) المغرب في تاريخ المغرب (ص ١٢٨) .

(٣) عام (١٣٤٦ ، ١٣٥٠ ، ١٣٤٧ م) نقلاً عن العبادي دراسات (ص ١٢٩) .

هجوم من النصارى على المهدية سنة (٧٩٢هـ/ ١٣٩٠م) ، فهزموهم واستعادت الدولة الحفصية شيئاً من هيبتها وتمكن ابنه أبو فارس من الاستيلاء على تلمسان، وضم بعض الإمارات التي استقلت في حياة أبيه (٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م) ، وعلى بسكرة سنة (٨٠٥هـ/ ١٤٠٢م) ، ثم نجح في الاستيلاء على مدينة الجزائر سنة (٨١٣هـ/ ١٤١٠م)

وفي عهد أبي فارس قدمت السفارات إلى تونس من جميع الأنحاء تخطب مودته وتطلب مصالحة خاصة ، ومنها سفارة من غرناطة وفاس ومصر وتوفي أبو فارس سنة (٨٣٨هـ/ ١٤٣٤م) وخلفه ابنه الأصغر المستنصر فحكم ١٤ شهراً ومات، وفي عهد أخيه أبي عمر وعثمان اشتعلت نار الفتنة بسبب أطماع أبناء عمومته بالسلطان إلا أن أبا عمر استطاع أن يقضي على هذه الثورات سنة (٨٥٠هـ/ ١٤٤٦م) ويهزم عمه أبا الحسن [١] .

وتقدمت تونس في مجال الحضارة في عهده، وشكلت علاقات ومعاهدات تجارية مع فرنسا، وسلاطين مصر والأندلس، ثم تمزقت وحدة الحفصيين بعد وفاته، وهاجم الإسبان سواحل تونس، وتبدلت الحال حتى أصبحت حال الحفصيين يرثى لها وعبر أبو محمد الحفصي عن الحالة التي وصلت إليها في بيت شعر قال فيه :

وكنا أسوداً والرجال تهابنا فجاء زمان فيه نخشى الأرانب [٢]

وكان هذا الأمير قد تحالف مع الإسبان وثار عليه ابنه، فقبض عليه وسمل عينه وخلعه من منصبه، ثم قام الإسبان بمذبحة في تونس سنة ٩٤١هـ/ ١٥٣٤م فكانت نهاية الحفصيين، وبدأ الصراع عليها بين العثمانيين والإسبان واستطاع العثمانيون أن يتغلبوا على الإسبان وبذلك دخلت تونس في حكم الدولة

---

(١) المغرب الكبير (٢/ ٨٧٩) .

(٢) انظر : موسوعة التاريخ الإسلامي (٤/ ٢٠٥)

العثمانية الإسلامية عام (٩٧٦هـ/١٥٦٨م) [١] .

وذكر الدكتور عبادة كحيلة أن الأمر خلص للعثمانيين عام ٩٨١هـ/١٥٧٣م [٢] .

[جـ] طرابلس والدولة الحفصية :

اتخذ بنو حفص تونس مركزاً لسلطانهم وأرسلوا الأمراء على طرابلس، ومن أمرائهم على طرابلس أبو عبد الرحمن يعقوب الهرغي، وعبد الله بن إبراهيم بن جامع، ومحمد بن عيسى الهنتاتي، ويوسف بن طاهر اليربوعي، وقد حاول الأول الاستقلال بطرابلس ولكنه لم ينجح وثار أعيان طرابلس ضده فقبضوا عليه وقتلوه، ولم تظهر حركات انفصالية في عهد الوالي الثاني، أما الوالي الثالث فقد انفصل بطرابلس عن أمراء بني حفص في أثناء إمارة أبي عبد الله محمد (٦٤٧-٦٦٥هـ)فعاد يعلن ولاءه إليه وتبعيته لإمارته، وجاء يوسف بن طاهر اليربوعي فأعلن استقلاله التام عن الحفصيين واستبد بالأمر.

لقد كانت حركة انفصال المدن عن الدولة الحفصية كثيرة وكانت الثورات متصلة من أمير ضد أمير، وكان ذلك مما سبب الضعف والوهن للأسرة الحفصية الحاكمة، وفي مطلع القرن الثامن الهجري كان الاضطراب قد بلغ أشده وكان زكريا بن أحمد اللحياني أحد أمراء بني حفص قد عاد حديثاً من الحج إلى طرابلس، فاجتمع حوله الناس واختاروه أميراً لهم سنة ٧١١هورأى اضطراب الأحوال بتونس فعقد العزم على غزوها واحتل تونس وجعل ابنه أميراً عليها ثم سار شرقاً حتى وصل إلى برقة ثم رجع إلى طرابلس [٣] .

وأصبحت طرابلس عاصمة النشاط السياسي بإفريقية حوالي ست سنوات، ثم

---

(١)انظر : موسوعة التاريخ الإسلامي (٤/٢٠٥).

(٢)انظر : المُغرب في تاريخ المغرب (ص ١٣٢).

(٣)انظر : تاريخ الفتح العربي (ص ٣٤٢).

انهزمت هذه الحركة أمام القوات التي قادها يحيى أبو بكر سنة ٨١٨هـالذي استطاع أن يحرر تونس، ولكنه فشل في ضم طرابلس، بل ظل أمراء طرابلس يهددون تونس من حين إلى آخر [١] .

[د] طرابلس بين بني ثابت وبني مكي وبني حفص :

بنو ثابت عرب وشاحيون من بني سليم آل إليهم حكم طرابلس من سنة ٧٢٤هـ وظلوا يحكمونها – بدون استقرار – حتى قبيل غزو الإسبان لها [٢] .

ومن ولاة بني ثابت :

- **ثابت بن محمد (الأول)** [٧٢٤هـ].
- **محمد بن ثابت** [٧٣٠هـ].

غزا جزيرة جربة وضمها إلى طرابلس واستعادها بنو حفص سنة ٧٤٨هـ[٣] .

ثابت بن محمد بن ثابت الثاني (٧٥٠هـ) :

استطاع تجار جنوه أن يخدعوا الطرابلسيين ويحتلوا المدينة في عام ٧٥٥هـ وهرب ثابت من المدينة وحيل بين الأهالي وبين أسباب الدفاع، وغلبوا على أمرهم فملكوا البلاد ونهبوا الأموال وتملكوا المتاع، وأسروا الرجال وسبوا النساء، ونقلوا كل ما استطاعوا إلى جنوة، فتدخل بنو مكي وهم من البربر، ونسبهم في لواتة بزعامة أحمد بن مكي وكان حاكماً لقابس وتفاوض مع الجنويين وطلبوا أن يدفع لهم خمسين ألف مثقال من الذهب العين، فقبل، وأرسل إلى السلطان أبي عنان في تونس يستنهض همته في دفع المبلغ، فلم يتفاعل، فأخرج ما عنده ووقف معه أهل قابس والجريد وتم دفع المبلغ وحرر بذلك طرابلس ، وبعد ما مكث الجنويين بها حوالي خمسة أشهر.

---

(١) انظر : موسوعة التاريخ الإسلامي (٤/ ٣٧٨).
(٢)، (٣) انظر : موسوعة التاريخ الإسلامي (٤/ ٣٧٩).

وقد أرسل إليه سلطان الحفصيين أبو عنان المال الذي دفعه فاعتذر عن أخذه، وإنها لشهامة ونخوة ورجولة وموقف يدل على حميته الإسلامية القوية وعاطفته الجياشة نحو إخوانه في العقيدة [١] .

وبعد هذا الموقف الشهم النبيل رأى السلطان أبو عنان أن يعقد لأحمد بن مكي على طرابلس فتولاها وجعلها دار إمارته وبقي أميراً عليها إلى أن توفي عام ٧٦٦هـ.

وتولى ابنه عبد الرحمن ولاية طرابلس بعد وفاة أبيه فكان سيىء المعاملة عاجز الرأي مستبداً في الأمر كرهه الناس وسئموا حكمه.

واستطاع أبو بكر بن ثابت أن يحتل طرابلس بأسطول جاء به من مصر ، ووقف الأهالي معه من أجل التخلص من ولاية عبد الرحمن بن مكي وعمل أبو بكر بن ثابت على تحسين علاقته مع بني حفص واعترف لهم بالولاء [٢] .

وبعد وفاة أبي بكر بن محمد سنة (٧٩٢هـ)ولي طرابلس ابن أخيه علي بن عمران ابن محمد بن ثابت واستطاع أن ينفصل عن الحفصيين وتعرض لحصار عنيف استمر لمدة سنة إلا أنه قاوم ذلك واستطاع الحفصيون أن يدعموا ابن عمه يحيى بن أبي بكر واستطاعوا أن يمتلكوا طرابلس ويقبضوا على واليها علي بن عمران . وأسند الحفصيون ولاية طرابلس إلى يحيى بن أبي بكر ثم رأى الأمير الحفصي أن يعزل يحيى بن أبي بكر وعين عليها رجلاً من قبله يثق فيه وأصبحت طرابلس تابعة له. وانقرض حكم بني ثابت من طرابلس، وإمارتهم عليها [٣] ، بعد أن حكموها نحو ٧٩ سنة[٤] .

---

(١)انظر : تاريخ الفتح العربي في ليبيا (ص ٣٥٢).

(٢)المصدر السابق نفسه (ص ٣٥٣).

(٣)المصدر السابق نفسه (ص ٣٥٥).

(٤)المصدر السابق نفسه (ص٣٤٦).

وتولى المنصور محمد بن عبد العزيز بن أبي العباس ولاية طرابلس عام ٨٠٣هـ واستمر في الحكم إلى وفاته عام (٨٣٣هـ).

ثم تولى ولاية طرابلس عبد الواحد بن حفص وقبل الشروع في عمله اشترط لقبولها شروطًا :

[١]أن يبق واليها على البلاد ولا يعزل حتى يعيد البلاد إلى مجدها التجاري ونشاطها الثقافي.

[٢]أن يستقل بالإدارة ولا يرد أمره في شيء.

[٣]أن يتخذ من الجند لنفسه ما يريد.

وافق الأمير عبد العزيز الحفصي على تلك الشروط وظهر من عبد الواحد بن حفص حزماً ورأياً وإرادة ونشر العدل ومنع الظلم واستتب الأمن واطمأن الناس على أموالهم وأرواحهم ونعمت البلاد بالخيرات واتسعت التجارات، وكثرت الأموال وبقي والياً إلى أن توفي عام ٨٥٨هـ وكانت مدة حكمه ٢٥ سنة كانت أيام رغد وهنأ على أهل طرابلس [١] .

[هـ] ثورة بني غراب :

ثار بنو عليّ والي طرابلس أبي بكر بن عثمان وألقوا القبض عليه وأرسلوه إلى ابن أخيه يحيى بن محمد المسعود بن عثمان في تونس فسجنه ثم قتله.

ودخلت البلاد في الانقسامات والتحزب وقام رجل يقال له منصور أصلح بين المتخاصمين وهدأت الفتنة واختار الطرابلسيون الشيخ منصوراً وهو الذي سعي في الإصلاح والياً عليهم بدلاً من الحاكم الحفصي أبي بكر وسمع سكان الدواخل ببيعة الشيخ منصور حاكماً على المدينة، فجاءته البيعة من غريان، وترهونة

---

(١)**انظر** : تاريخ الفتح العربي في ليبيا (ص ٣٥٧).

ومسلاته وبني وليد وخلفه رجل يقال له يوسف مات بالطاعون عام ٨٨٥هـ وخلفه في الحكم مامي وبقي في الحكم نحو اثنتي عشرة سنة . وتوفي عام (٨٩٨هـ) ، واتفقت كلمة الطرابلسيين على تعيين الشيخ عبد الله بن شرف فولوه حاكماً عليهم، وكان رجلاً يميل إلى الزهد في الدنيا حتى لقب بالمرابط. وتغلب عليه أمر الزهد والانشغال بالعبادة ولم يكن أهلاً للولاية فأهمل تحصين البلاد، وتقوية أبراجها وأسوارها وإعداد الجند اللازم للدفاع عن المدينة، فأصبحت عرضة لطمع الأعداء ولم تكن ثورة بني غراب ذات أثر كبير على ثروة البلاد ودام حكم الشيخ عبد الله بن شرف نحو ١٨ سنة توسع أهالي طرابلس في التجارة وجمع الأموال والثروات (١) .

ويرى الشيخ طاهر الزاوي بأن طرابلس منذ أن تولاها عبد الواحد بن حفص سنة (٨٣٣هـ) إلى أن احتلها الإسبان سنة (٩١٦هـ)كانت في رخاء مستمر وأمن شامل، واستطاع أهالي أن يجمعوا ثروة هائلة كانت مضرب المثل في الشمال الإفريقي، وانغمس أهلها في متع الحياة ووقعوا في الترف الذي أفسد عزائمهم، وأخلاقهم وضعفت روح الجهاد والكفاح والنضال في نفوسهم، فطمع فيهم الأعداء من النصارى فتكالبوا عليهم (٢) وحانت الفرصة للإسبان فجهزوا مائة وعشرين قطعة بحرية وانضمت إليها سفن أخرى من مالطة، وشحنت بخمسة عشر ألف جندي من الإسبان، وثلاثة آلاف من الإيطاليين والمالطيين. وفي ٨ من ربيع سنة (٩١٦هـ) تحركت قواتهم نحو طرابلس ووصلت أساطيلهم ليلة الثامن عشر من ربيع الآخر سنة (٩١٦هـ) الخامس والعشرين من يوليو سنة (١٥١٠م) وبدأ القتال بين النصارى الإسبان والطليان والمالطيين وبين أهالي

---

(١) انظر : تاريخ الفتح العربي في ليبيا (ص ٣٥٧) .

(٢) المصدر السابق نفسه (ص ٣٦٠) .

طرابلس ولم تكن القوات متكافئة وسقطت المدينة في يد الأعداء، فهتكت الأعراض وسبيت النساء وقتل الرجال وديست المقدسات واستمر الإفساد الإسباني في البلاد ما يقرب من عشرين سنة ولم يستطيعوا أن يتجاوزوا فيها أسوار المدينة ثم سلمت طرابلس إلى فرسان القديس يوحنا في عام ٩٤٢هـ ١٥٣٥م واستمر فرسان القديس يوحنا حتى عام ٩٥٨هـ ١٥٥١م حيث استطاع الأبطال العثمانيون السنيون أن يحكموا الحصار، ويحرروا أسر مدينتنا الحبيبة من قبضة فرسان القديس يوحنا ، وسنتعرض للتفاصيل في الكتاب السادس من سلسلة صفحات من التاريخ الإسلامي في الشمال الإفريقي بإذن الله تعالى عندما نتحدث عن الدولة السنية العثمانية العلية ودورها في العالم الإسلامي عموماً والشمال الإفريقي خصوصاً.

[و] أسباب سقوط الدولة الحفصية :

﴿ ١ ﴾ اعتمادها للمنهج المنحرف الذي نظَّر له ابن تومرت وحرصها على تبني عقائده الفاسدة بعد أن انكشف زيف العقيدة التومرتية ومنهجه البدعي لكثير من أهالي الشمال الإفريقي فأصبح الولاء ضعيفاً للفكر التومرتي حتى عند أمراء الدولة الذين استخدموا تبني منهج ابن تومرت كمناورة سياسية من أجل القضاء على بقايا دولة الموحدين.

﴿ ٢ ﴾ الصراع الداخلي على الحكم بين أبناء البيت الحفصي وما ترتب على ذلك من صراع عنيف وقتال دموي.

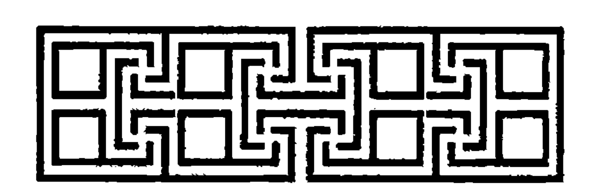
﴿ ٣ ﴾ استقلال بعض المدن كإمارات مستقلة عن عاصمة الحفصين، فتضطر أحياناً الدولة لتجريد الجيوش وتجهيزها من أجل إخضاع المدن لسلطانها، فيكلفها ذلك الكثير من الأموال والعتاد والرجال، وأحياناً تنهزم جيوش الدولة أمام مقاومة المدن المستقلة .

﴿٤﴾ استهدفت مدن إفريقية من قبل الإسبان النصارى والأوروبيين عموماً فعملوا على تنصير الشمال الإفريقي من المسلمين واستغلال خيراتهم وثرواتهم، فدخلت في صراع معهم انتهى بالتحالف بين الإسبان والحفصيين.

﴿٥﴾ ظهور قوة إسلامية سنية أصيلة متمثلة في السلطنة العثمانية و التي استطاعت أن تهزم النصارى في ميادين البر وميادين البحر، وكان دافع الدولة العثمانية في صراعها مع النصارى نصرة الإسلام والمسلمين وحب الجهاد في سبيل رب العالمين.

﴿٦﴾ تطلع أهالي الشمال الإفريقي إلى قوة إسلامية سنية تقوم بتحريرهم من الإسبان ومن الأمراء الذين تحالفوا معهم ولم يحترموا مقدسات الأمة وعقيدتها ودينها، فوجدوا في العثمانيين بغيتهم فراسلوهم واتصلوا بهم وتعاونوا على البر والتقوى من أجل إعزاز الإسلام والمسلمين ودحر النصارى الغاصبين.

﴿٧﴾ كان سقوط دولة الحفصيين نتيجة طبيعية لما آلت إليه من التنازع بين المسلمين وعدم حرصهم على سلامة وحدة الأمة وأهدافها العظمى.



الخلاصة

[١] يعتبر محمد بن تومرت المؤسس الحقيقي لدولة الموحدين؛ لأنه وضع الخطوط العريضة التي قامت عليها الدولة.

[٢] يعتبر منهج ابن تومرت خليطاً من علم الكلام والمعتزلة والأشاعرة والإمامية والخوارج.

[٣] لم يتورع ابن تومرت عن سفك الدماء وسبي النساء وتكفير المسلمين، واستخدام الأساليب الملتوية من الكذب والخداع من أجل الوصول إلى أهدافه.

[٤] يعتبر ابن تومرت هو الناشر الفعلي لعقائد الأشاعرة في الشمال الإفريقي بقوة السلطان، وتأليفة لكتب في مجال العقائد حكم عليها علماء أهل السُنَّة بالابتداع.

[٥] أخطأ بعض المعاصرين عندما نظروا إلى حركة ابن تومرت كحركة إصلاحية؛ لأنها في الحقيقة كانت حركة تدميرية بعيدة عن معالم الإصلاح التي جاءت في الكتاب والسُنة؛ بل كانت حركة ابن تومرت من الأسباب البعيدة في ضياع الأندلس وتمزق وحدة الشمال الإفريقي.

[٦] كانت لابن تومرت عبقرية تنظيمية ومنهجية تربوية وأهداف سياسية سعى بكافة الوسائل والأساليب لتحقيقها.

[٧] ساعدت سذاجة المجتمع المغربي وجهله على تغلغل معتقدات ابن تومرت المنحرفة في أوساطه.

[٨] تزعم عبد المؤمن بن علي قيادة الموحدين بعد موت ابن تومرت وخاض حروباً ضارية انتهت بسقوط دولة المرابطين وتوحيد الشمال الإفريقي.

[٩] ظهرت مواهب سياسية فذة عند عبد المؤمن بن علي تمثلت في إبعاده لقبائل المصامدة عن الحكم، وتقريبه لقبائل بني هلال وبني سليم منه، وإسناد أمر حمايته إلى قبيلة كومية، وتدرج في القضاء على تنظيم ابن تومرت في الطبقات، وجعل الحكم وراثياً في أسرته.

[١٠] لم يلتزم عبد المؤمن بالمنهج التومرتي حرفياً وإنما استفاد منه فيما يحقق أغراضه وأهدافه السياسية ولذلك نجده ينحرف عن تعاليم ابن تومرت كلما

حانت له فرصة كما حدث عندما ألغي نظام الطبقات وهذا العمل يدل على عدم اعتقاده في عصمة ابن تومرت وإن كانت توجيهاته وأوامره إلى كافة الموحدين تحض على ضرورة المحافظة على تعاليم ابن تومرت والعمل على نشرها ويعتبر ذلك تكتيكًا من عبد المؤمن لكي يحافظ على مكانته بين الموحدين المخلصين لدعوة ابن تومرت.

[١١]تولى أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن عام ٥٥٨هـبعد مؤامرة دبرت لخلع أخيه واستقر له الحكم وبايعه جميع الموحدين في (٥٦٣هـ)وكان أبو يعقوب مولعاً يحب الفلاسفة ولذلك قرب إليه ابن طفيل.

[١٢]عمل أبو يعقوب يوسف على ضم الأندلس بالقوة واستطاع محمد بن مردنيش أن يقاتل الموحدين لمدة طويلة واستنزف جهودهم وأخذ من أوقاتهم وقتل من رجالهم وشجع الأمراء الطامعين والمتذمرين من أهل المغرب لأن ينتهزوا فرصة انشغال الموحدين به ، وشقوا عصا الطاعة ولم يستطيع الموحدين أن يضموا شرق الأندلس لدولتهم إلا بعد موت ابن مردنيش عام (٥٦٧ هـ).

[١٣]اشتعلت ثورات المغرب الأقصى ضد دولة الموحدين عام (٥٥٩هـ)وكانت ثورات ضارية أضعفت قوات الموحدين وأوهنت شوكتهم إلا أن الموحدين استطاعوا أن يقضوا على ثورتي صنهاجة وغمارة عام ٥٦٣هـ.

[١٤]قامت في المغرب في قفصة في عام ٥٧٥هـثورة ضد الموحدين بقيادة علي بن المعز الرندي واستطاعت تلك الثورة أن تخلص قفصة من تحت حكم الموحدين إلا أن جيوش الموحدين الجرارة استطاعت إرجاعها في عام (٥٧٦هـ).

[١٥]عجز يوسف بن عبد المؤمن أن يحقق نصراً حازماً على النصارى في الأندلس؛ لعدة أسباب منها، نقص الخبرة العسكرية والسياسية عند الخليفة الموحدي، وعدم قدرته على تقدير الظروف، وعدم قدرته على الوصول إلى هدفه من أيسر الطرق، وميولاته الفكرية التي طغت على الاهتمامات العسكرية والسياسية وانشغاله بالمناقشات الفكرية حتى عند حصاره لأعدائه ، وبسبب ضعف ولاء المسلمين لدولة الموحدين بسبب انحراف منهجها وظلمها للرعايا، كما أن الخليفة الموحدي يوسف كان حريصاً على أن يتولى جميع الأمور بنفسه ، وعدم إصغائه لنصح الناصحين.

[١٦]توفي السلطان يوسف في ٥٨٠هـ ودفن في تينملل بعد أن بلغ السابعة والأربعين من عمره وهو يعد من كبار الخلفاء الموحدين والسلاطين العظام في تاريخ المغرب الإسلامي.

[١٧]تولى أبو يوسف يعقوب بعد وفاة أبيه، فقام بالأمر أحسن قيام وأظهر أبهة الملك ورفع راية الجهاد ونصب ميزان العدل وبسط أحكام الناس على حقيقة الشرع، وأقام الحدود حتى في أهله وعشيرته الأقربين كما أقامها في سائر الناس أجمعين، فاستقامت الأحوال في أيامه وعظمت الفتوحات.

[١٨]صرح السلطان يعقوب المنصور بعدم صحة الاعتقاد بعصمة ابن تومرت ، وحرص على مجالسة الصلحاء والمحدثين.

[١٩]عمل السلطان يعقوب على القضاء على ثورات بني غانية والأعراب واستطاع أن يخضد شوكتهم وأن يوحد الشمال الإفريقي كله.

[٢٠]عمل على استنفار المسلمين في بلاد المغرب كلها من أجل الجهاد ضد النصارى واستجاب له المسلمون وتوافدوا على معابر العبور استعداداً للجهاد ضد النصارى في الأندلس.

[٢١]استطاع يعقوب المنصور أن يحقق نصراً حاسماً على النصارى في الأندلس معركة الأرك عام (٥٩١ هـ) وترتب على هذا النصر الحاسم نتائج عظيمة للمسلمين في الأندلس والشمال من أهمها، ارتفاع الروح المعنوية لمسلمي الأندلس، وسقط هيبة ملوك النصارى.

[٢٢]نستطيع أن نقول بأن يعقوب المنصور أخذ بأسباب النصر المعنوية، والحسية حيث شرع في تحشيد الجيوش وترتيبها وتنظيمها، ووحد القيادة، وأعطى مجلس الشورى صلاحيات واسعة، وأسند المهمام إلى أهلها.... إلى آخره.

[٢٣]طلب السلطان صلاح الدين الأيوبي من يعقوب المنصور أن يمده بمدد ضد النصارى في المشرق إلا أن السلطان يعقوب امتنع لأسباب سياسية وعقدية ونفسية ومع هذا أكرم رسول صلاح الدين غاية الإكرام ، ولم يمتنع المغاربة من المساهمة في جهاد المسلمين ضد النصارى في المشرق تحت قيادة صلاح الدين.

[٢٤] توفي السلطان يعقوب المنصورعام ٥٩٥هـ بعد أن جاهد بالسيف وحرص على إصلاح عقائد الموحدين والاقتراب بهم نحو منهج أهل السُنَّة والجماعة.

[٢٥] تولى أبو محمد عبد الله الناصر لدين الله خلافة الموحدين عام ٥٩٥هـ واستطاع أن يقضي على ثورة بني غانية وأن يوحد المغرب كله الأقصى والأوسط والأدنى وعبر بجيوش ضخمة جبل طارق قاصداً جهاد النصارى في الأندلس وانهزم في معركة العقاب عام (٦٠٩هـ) أمام الجحافل النصرانية ثم رجع إلى المغرب وانهمك في الشهوات والملذات حتى قتل مسموماً عام (٩١٠هـ) .

[٢٦] بعد هزيمة العقاب توغل النصارى في مدن وقرى المسلمين مرتكبين أشنع المجازر البشرية من قتل وهتك الأعراض وسبي النساء ويتقدمهم القساوسة بالأناشيد والتشجيع على استئصال المسلمين من ديار الأندلس.

[٢٧] تعتبر موقعة العقاب بداية الانهيار الفعلي لدولة الموحدين ولقد كان سن الخليفة وقلة خبرته وإعجابه بنفسه وتسلط الوزير ابن جامع عليه دور في هزيمة العقاب.

[٢٨] لقد ساهمت عوامل عديدة في سقوط دولة الموحدين ومن أهمها، هزيمة معركة العقاب وظلم الموحدين للمرابطين، والثورات المتتالية في الأندلس والمغرب الأقصى والأوسط والنزاع على الخلافة داخل البيت الموحدي، والانهيار العسكر الذي أصاب القوات الموحدية، وانكماش العقيدة التومرتية في نفوس الموحدين، وتحول الحكم إلى الوراثة.

[٢٩] بعد زوال دولة الموحدين في عام (٦٦٨هـ/ ١٢٦٩م) انقسم الأندلس والشمال الإفريقي إلى دويلات من أهمها، دولة بني الأحمر في غرناطة، وبني مرين في المغرب الأقصى، وبني عبد الواد في المغرب الأوسط، وبني حفص في المغرب الأدنى.

[٣٠] كان لظهور مملكة غرناطة وصمودها أمام الهجمات النصرانية أسباب من أهمها، موقعها الجغرافي المتميز، ووقوف دولة بني مرين معها بكل ما تملك، هجرة الكوادر الأندلسية من المدن الإسلامية التي سقطت إليها، قانون التحدي عند الشعور بالخطر، حب أهالي غرناطة للجهاد في سبيل الله، براعة حكام غرناطة في إدارة الصراع العسكري والسياسي.

[٣١] ظهر في ميدان الجهاد الأندلسي السلطان أبو يوسف يعقوب المريني الذي استطاع أن يحقق نصراً حاسماً على النصارى في معركة قرب إستاجة وظهرت ملكات قيادية للسلطان المريني في أمور منها ، اهتمامه بعنصر الاستطلاع، أبعاده للغنائم عن ساحة المعركة ، خطبته المؤثرة في جنوده، دخوله في المعركة بنفسه وقتله للنصارى بيده.

[٣٢] كانت العلاقة بين بني الأحمر يعتريها الذبول والشك بسبب عملاء النصارى الذين استطاعوا أن يقنعوا بني الأحمر بعقد اتفاقيات مع ملوك النصارى إلا أنها سرعان ما تتبخر أمام الخطر الداهم وترجع علاقات المسلمين إلى مجاريها الطبيعية.

[٣٣] كان لمشيخة الغزاة دور عظيم في الدفاع عن غرناطة، لقد سجلت لنا كتب التاريخ انتصارهم الساحق على جيوش النصارى وكانت أعداد مشيخة الغزاة قليلة أمام قوات النصارى إلا أنهم عوضوا نقصهم بالإيمان وصحة اللجوء إلي الله فأنزل الله نصره عليهم وكان ذلك النصر العظيم الذي حصد فيه أمراء النصارى وملوكهم فيعام ٧١٩ هـ وكان عدد الملوك والأمراء القتلى أكثر من عشرين والقتلى من الجنود أكثر من خمسين ألفاً.

[٣٤] كانت موقعة طريف فيعام (٧٤١هـ) والتي انهزم فيها المسلمون وضعفت شوكتهم أمام النصارى من المواقع التي لم يشهد المسلمون مثلها منذ وقعة العقاب ولقد استشهد في هذه المعركة مجموعة من العلماء من أشهرهم المفسر الكبير محمد بن جزي ، ووالد الوزير الغرناطي لسان الدين بن الخطيب.

[٣٥] اندلعت الحرب الداخلية في غرناطة بسبب النساء واستغل ملوك قشتالة هذه الفرصة وتحركوا من أجل احتلال غرناطة فيعام ٨٨٧هـ واستطاع أبو عبد الله الصغير أن يستولي على عرش غرناطة بعد أن أزاح والده عنه وباشر الحروب بنفسه ضد النصارى إلا أنه وقع أسيراً بيد النصارىعام ٨٨٨هـ .

[٣٦] استطاع ملك قشتالة أن يستفيد من أبي عبد الله الصغير ، وأطلق سراحه في الوقت الحرج فزاد من الصراع الداخلي في غرناطة ، بعد أن جعله يوقع على وثيقة الخنوع والخضوع لملك قشتالة.

[٣٧] في عام ٧٩٧هـ حاصرت جحافل النصارى غرناطة ونقضوا كل العهود والمواثيق وضيقوا الخناق على المسلمين حتى اضطروا إلى تسليمها، ليدخل المسلمون تحت ظلم وعسف وجور محاكم التفتيش بعد ذلك بسنين.

[٣٨] كانت محاكم التفتيش مضرب المثل في الظلم والقهر والتعذيب، ولقد ارتكبت في حق المسلمين ما تقشعر منه الأبدان وتشيب من هوله الولدان.

[٣٩] حاول المستضعفون من المسلمون أن يحافظوا على دينهم ومعتقدهم وراسلوا العلماء ليستفسروا عن بعض الفتاوى وقد دونت في هذا البحث إحدى الفتاوى الهامة.

[٤٠] كانت هناك أسباب عديدة ساهمت في سقوط الأندلس من أهمها، تفكك وحدة الشمال الإفريقي، الانغماس في الشهوات والركون إلى الدعة والترف، الاختلاف والتفرق بين المسلمين ، موالاة النصارى والثقة بهم والتحالف معهم، التخاذل عن نصرة من يحتاج إلى نصرة، غدر النصارى ونقضهم للعهود، إلغاء الخلافة الأموية وظهور عصر الطوائف، عدم قيام العلماء بدورهم المطلوب، الرضا والخضوع والذل تحت النصارى والطاعة لهم، سوء سياسة الولاة وإرهاق الأمة بالجبايات.

[٤١] لقد تباعد أهالي الأندلس عن تحكم شرع الله، فترتب على ذلك ضنك في الحياة الاجتماعية والسياسة والاقتصادية وضياع الملك والعزة والتمكين.

[٤٢] زالت دولة الموحدين من الوجود عام (٦٦٨هـ) واستولى على مقاليد الحكم في المغرب الأقصى بنو مرين.

[٤٣] حاولت دولة بني مرين أن توحد المغرب كله الأقصى والأوسط والأدنى ونجحت في فترات قصيرة في هذا الهدف إلا أنها ضعفت وتقلصت ثم زالت من الوجود عام ٨٦٩هـ وسجل لها التاريخ جهادها العظيم ضد النصارى في الأندلس.

[٤٤] من أهم أسباب سقوط دولة بني مرين؛ دسائس ملوك الإسبان، وتحالف غرناطة معهم ضد بني مرين، ودخولهم في صراع مرير مع دويلات المغرب، وتولى الحكم بعض الأمراء الضعاف، الخطر الخارجي من البرتغال علي مواني الدولة، وغير ذلك من الأسباب.

[٤٥] بعد سنتين من تولي أبي عبد الله محمد الإدريسي الحكم بفاس خرج عليه الشيخ محمد الوطاسي واحتل فاس وأقام الدولة الوطاسية وكان دخوله لفاس عام (٨٧٧هـ/ ١٤٧٢م) .

[٤٦] استطاع السعديون أن يسقطوا الدولة الوطاسية في عام (٩٥٦هـ) وساعدتهم عدة عوامل في نجاحهم الكبير منها : دخول الوطاسيين في معاهدات مع الإسبان والبرتغاليين، عجز الدولة الوطاسية عن حماية أراضيها وموانيها، فظهر السعديون كقادة لحركة جهاد تبنت أهداف الشعب المغربي، فالتف الشعب حولهم.

[٤٧] استطاع الأمير أبو مروان عبد الملك السعدي أن يتحالف مع العثمانيين فساعدوه على تخليص المغرب من ابن أخيه محمد المتوكل وبايعه أهل المغرب عام ٩٨٣هـ .

[٤٨] كان السلطان عبد الملك يمتاز بالذكاء والقدرة على التخطيط وله من بعد النظر حظ وافر، فأقام دولته على أسس علمية، وسلح جيشه وطور بلاده واستفاد من النظم الإدارية والعسكرية العثمانية.

[٤٩] حقق السعديون بقيادة السلطان عبد الملك وأخيه أحمد المنصور انتصاراً حاسماً على النصارى في معركة وادي المخازن في عام ٩٨٦هـ وتجلت عبقرية السلطان عبد الملك العسكرية في وضعه خطة محكمة وشرع في تنفيذها بنفسه.

[٥٠] استشهد السلطان عبد الملك في وسط المعركة وتولى أخوه أحمد المنصور الحكم من بعده وبايعه أهالي المغرب.

[٥١] كان السلطان أحمد المنصور الذهبي متبحراً في العلم وترك مؤلفات في فنون متعددة منها، أدبية وشعرية وحديثية ومن أشهر كتبه المعارف في كل ما تحتاج الخلائق.

[٥٢] استطاع السلطان أحمد المنصور أن يقطع بدولته أشواطاً نحو التقدم والازدهار وبناء الدولة على أسس علمية متطورة في كافة مجالات الدولة.

[٥٣] بعد وفاة السلطان أحمد المنصور في عام ١٠١٢هـ/١٦٠٣م ضعفت الدولة السعدية ودخلت في حالة من التفكك والصراع الداخلي وانفصلت عن كيانها

مجموعة من الأمارات والولايات وانتهت فعلياً على يد قبيلة الشبانات العربية في عام ١٠٦٩هـ/٦٥٨م وأزالوا نهائياً الأسرة السعدية.

[٥٤] لم تستطيع قبيلة الشبانات أن تقوم بالدور القيادي في المغرب فكان من الطبيعي أن تسقط تلك القبيلة أمام زحف الأشراف العلويين الذين أصبحوا محل ثقة الشعب المغربي في عام (١٠٧٥هـ/١٤١٢م) وتولوا مقاليد المغرب ودخلوا مراكش ولا تزال أسرة الأشراف العلويين إلى يومنا هذا في حكم المغرب الأقصى.

[٥٥] حكم المغرب الأوسط بنو عبد الواد بعد زوال دولة الموحدين واستمرت دولتهم لمدة ثلاثة قرون وتعرضت لمخاطر عظيمة من أشدها احتلال الإسبان لمدينة وهران وبجاية في عام (٩١٥هـ/ ١٥١١م) وزالت الدولة الزيانية من الوجود عام (٩٦٢هـ/ ١٥٥٤م) على يد الفاتحين العثمانيين.

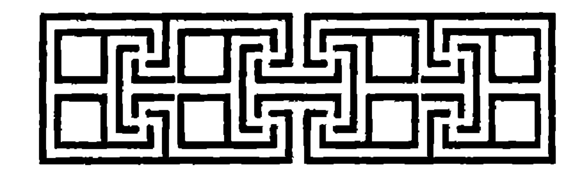
[٥٦] حكم إفريقية في فترة حكم الدويلات للشمال الإفريقي بنو حفص وتعرضت دولتهم للمد والجزر وزال ملكهم من الوجود في عام (٩٧٦هـ/١٥٦٨م) على يد العثمانيين.

[٥٧] سقطت مدينة طرابلس الحبيبة تحت قبضة الإسبان في عام (٩١٦هـ) ثم سلمت إلى فرسان القديس يوحنا في عام (٩٤٢هـ/ ١٥٣٥م) واستمر فرسان القديس يوحنا حتى عام (٩٥٨هـ/ ١٥٥١م) حيث استطاع الأبطال العثمانيون السنيون أن يحكموا الحصار ويحرروا أسر مدينتنا الحبيبة من قبضة فرسان القديس يوحنا.

كتبه

علي محمد محمد الصلابي

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين



أهم مراجع البحث

[١] ابن جزي ومنهجه في التفسير، علي محمد الزبيري، دار القلم، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ،١٩٨٧م.

[٢] ابن خلدون، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد، العبر وديوان المبتدأ والخبر، مؤسسة جمال، بيروت - لبنان.

[٣] أعز ما يطلب لابن تومرت، تقديم وتحقيق عمار الطالبي، نشر المؤسسة الوطنية للكتاب بالجزائر سنة ١٩٨٥م.

[٤] ابن ماجة للإمام أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني، حققه محمد فؤاد عبد الباقي، دار التراث العربي.

[٥] أشراط الساعة للوابل، يوسف عبد الله الوابل،الطبعة الثالثة،١٤١١هـ - ١٩٩١م، دار ابن الجوزي.

[٦] إلجام العوام عن علم الكلام، لأبي حامد محمد محمد الغزالي الطوسي.

[٧] البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، لابن عذارى المراكشي، الدار العربية للكتاب، بيروت، ط٣,١٩٨٣م.

[٨] المغرب الكبير، د. السيد عبد العزيز سالم، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨١م.

[٩] البيذق أخبار المهدي ابن تومرت، أبو بكر الصنهاجي، تحقيق ليفي بروفنسال، باريس ١٩٢٨م.

[١٠] الدعوة الموحدية بالمغرب، عبد الله على علام، دار المعرفة بالقاهرة، الطبعة الأولى ١٩٦٤م.

[١١] المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان، القاهرة ١٩٦٣م.

[١٢] النهايةفي الفتن والملاحم للحافظ إسماعيل بن كثير، تحقيق د.طه زيني، دار النصر للطباعة، الناشر دار الكتب العلمية، بيروت سنة ١٣٩٩هـ.

[١٣]المنار المنيف لابن القيم ، شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، تحقيق الشيخ عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، ١٣٩٠هـ.

[١٤]النبوة والأنبياء ، لمحمد علي الصابوني.

[١٥]الملل والنحل للشهرستاني، للعلامة أبي الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، تحقيق محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٥هـ.

[١٦]الحموية ، لشيخ الإسلام أبي العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية.

[١٧]أخبار المهدي ، تحقيق عبد الحميد حاجيات، نشر الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بتونس ١٣٩٥هـ.

[١٨]الكامل في التاريخ لابن الأثير، لعز الدين أبي الحسن علي بن أبي المكارم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ،١٩٨٩م.

[١٩]الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية ، مؤلف مجهول، اعتنى بنشره السيد بشير الفورتي، تونس ١٣٢٩هـ.

[٢٠]ابن صاحب الصلاة ، عبد الملك بن محمد أحمد بن محمد بن إبراهيم الباجي.

[٢١]المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم أئمة وجعلهم الوارثين ، دار الأندلس بيروت الطبعة الأولى ١٩٨٣م.

[٢٢]الدور الفكري للأندلس والمغاربة في المشرق ، د. علي أحمد، دار شمال دمشق، ١٩٩٥م.

[٢٣]النجوم الزاهرة ، في ملوك مصر والقاهرة، ليوسف بن تغرى بردى الآتابكي، وزارة الثقافة والأرشاد القومي في مصر.

[٢٤]المغرب في تاريخ الأندلس والمغرب ، د. عبادة كحيلة، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ -٩٩٧م.

[٢٥]التكملة لكتاب الصلة ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي ابن الأبار.

[٢٦]العقاب ، شوقي أبوخليل، دار الفكر، تصوير ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م عن ط١ ١٩٧٩م.

[٢٧]الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس ، نجيب زبيب، دار الأمير، الطبعة الأولى ٢٤١٥هـ، ١٩٩٥م.

[٢٨]السنن الإلهية ، د. عبد الكريم زيدان مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ، ١٩٩٣م.

[٢٩]الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق صلاح الدين المنجد.

[٣٠]الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، لابن بسام أبي الحسن علي الشنتريني.

[٣١]الأعلام ، لخير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت.

[٣٢]الإمام مالك بن أنس ، عبد الغني الدقر، دار القلم، الطبعة الثانية، ١٤١٠هـ، ١٩٩٠م.٣٣ –.

[٣٣]الأرك ، د. شوقي أبو خليل، دار الفكر، الطبعة الأولى ١٩٧٩م.

[٣٤]الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، الشيخ أبو العباس أحمد بن خالد الناصري.

[٣٥]الإذاعة لما كان وما يكون بين يدي الساعة ، للسيد محمد صديق حسن القنوجي البخاري، طبع دار الكتب العلمية بيروت سنة ١٣٩٩هـ.

[٣٦]الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية ،سليمان بن عبد الله الباروني النفوسي، مطبعة الأهار البارونية .

[٣٧]الإبانة عن أصول الديانة ، لأبي الحسن الأشعري، نشر دار البيان، دمشق سنة ١٤٠١هـ.

[٣٨]بحوث في تاريخ الحضارة الإسلامية ، مجموعة من البحوث التي ألقيت في ندوة الحضارة الإسلامية في ذكرى الأستاذ د. أحمد فكري ١٦–٢٠ أكتوبر ١٩٧٦م شباب الجامعة.

[٣٩]تاريخ الإسلام ، د. حسن إبراهيم حسن، دار الجيل، بيروت الطبعة الثالثة عشر (١٤١١هـ، ١٩٩١م) .

[٤٠] تاريخ الفتح العربي في ليبيا ، الطاهر أحمد الزاوي، دار التراث العربي، الطبعة الثالثة.

[٤١] تاريخ عصر النهضة الأوروبية ، د. نور الدين حسام، دار الفكر طبعة (١٩٦٨م) .

[٤٢] تاريخ المغرب والأندلس من القرن السادس إلى القرن العاشر الهجري ، تأليف مجموعة من الأساتذة، دار الأمل للنشر والتوزيع.

[٤٣] تاريخ الأندلس ، عبد الرحمن الحجي، دار القلم، الطبعة الرابعة ١٤١٥هـ، ١٩٩٤م.

[٤٤] تاريخ المغرب والأندلس في عصر المرابطين ، د. حمدي عبد المنعم محمد حسين مؤسسة شباب الجماعة، طبعة ١٩٨٦م.

[٤٥] تجربة الإصلاح في حركة ابن تومرت ، د. عبد المجيد النجار، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الطبعة الثانية ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.

[٤٦] تفسير الرازي ، للإمام الفخر الرازي.

[٤٧] تفسير القرطبي لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي.

[٤٨] تفسير الألوسي ، روح المعاني للإمام الألوسي.

[٤٩] البداية والنهاية لأبي الفداء الحافظ ابن كثير الدمشقي، دار الريان، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ،١٩٨٨م.

[٥٠] دراسة لسقوط ثلاثين دولة إسلامية ، د. عبد الحليم عويس، دار الوفاء الطبعة الثالثة، ١٤١٠هـ،١٩٨٩م.

[٥١] دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ، د. أحمد مختار العبادي، مؤسسة شباب الجامعة.

[٥٢] دعوة الحق ، السنة ١٩ ، العدد ٨ ، رمضان ١٣٩٨هـ.

[٥٣] ديوان التحقيق والمحاكمات ، لمحمد عبد الله عنان.

[٥٤] دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي ، عز الدين أحمد موسى، دار الشروق، الطبعة الأولى، ١٩٨٣م.

[٥٥]دولة المرابطين ، سلامة محمد سلمان الهرفي، دار الندوة ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

[٥٦]دائرة معارف القرن العشرين ، لمحمد فريد وجدي، مطابع دائرة معارف القرن العشرين، الطبعة الثالثة ١٣٤٣هـ.

[٥٧]رحلة ابن جبير ، أبو الحسن محمد بن أحمد، دار صادر، بيروت ١٩٦٤ .

[٥٨]تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ، يوسف أشباخ، ترجمة محمد عبد الله عنان، القاهرة، ١٩٥٨م.

[٥٩]تفسير المنار ، لمحمد رشيد رضا، دار المعرفة بيروت، الطبعة الثانية بالأوفست.

[٦٠]درء تعارض العقل والنقل ، الإمام شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية.

[٦١]سقوط الأندلس ، د. ناصر العمر، مؤسسة المؤمن، دار الوطن، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ.

[٦٢]سقوط غرناطة ، شوقي أبو خليل، دار الفكر، الطبعة الثانية ١٩٨١م.

[٦٣]سقوط دولة الموحدين ، د. إمراجع عقيلة الغناكي (١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م) منشورات جامعة قاريونس .

[٦٤] سير أعلام النبلاء ، للإمام شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، تحقيق شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة بيروت ، الطبعة الثانية، ١٤٠٢هـ.

[٦٥] سنن أبي داود ، للإمام أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني.

[٦٦]شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، عبد الحي بن أحمد بن محمد الحنبلي، المسمى ابن العماد (ت: ١٠٨٩هـ).

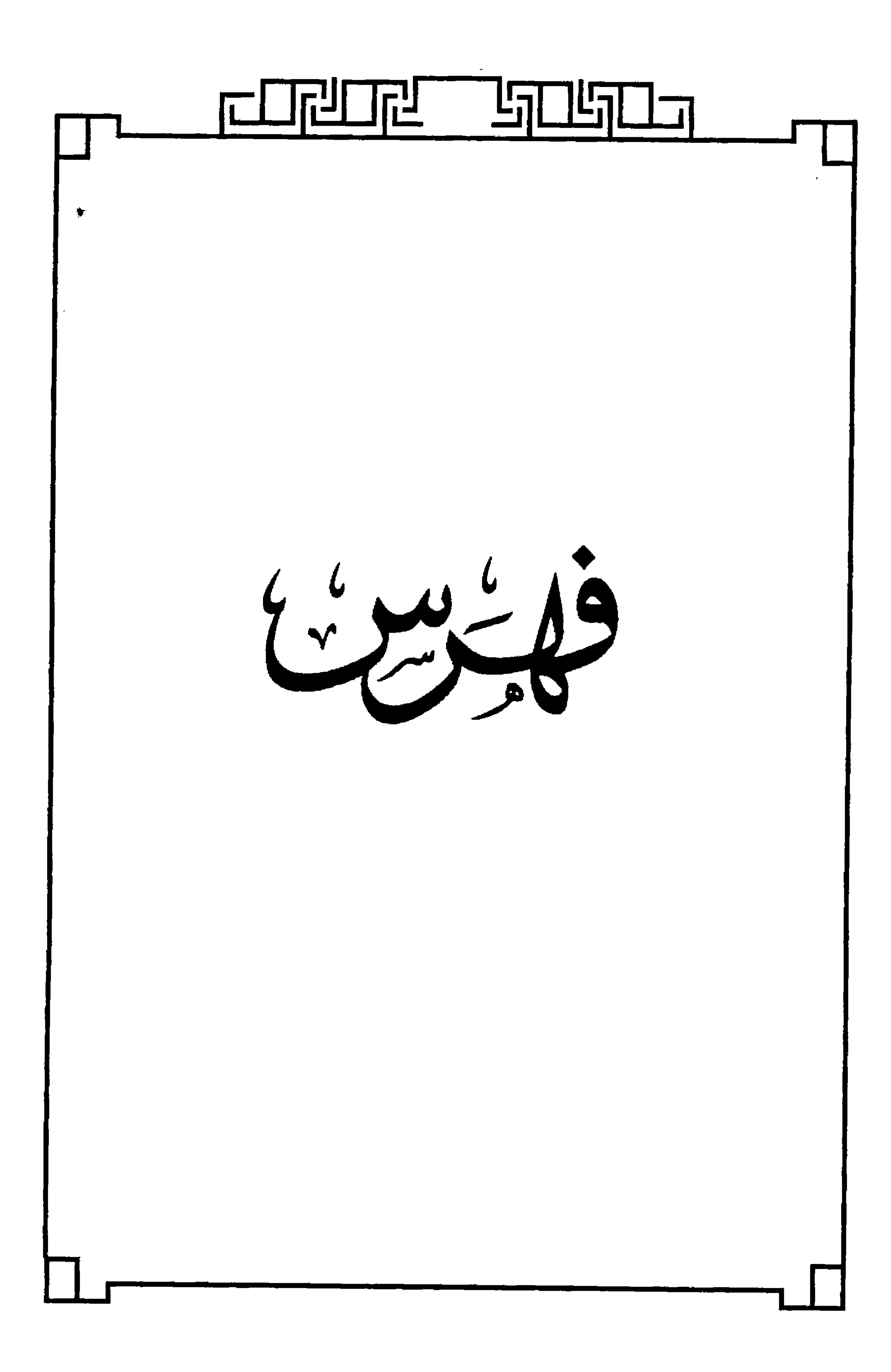
[٦٧]صحيح البخاري ، للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى المتوفى ٢٥٦هـ.

[٦٨]صحيح مسلم ، مسلم بن الحجاج القشيري، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي دار إحياء التراث.

[٦٩]صحيح الجامع ، للألباني، تحقيق: الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي،الطبعة الأولى، ١٣٨٨هـ.

[٧٠] صلاح الأمة في علو الهمة، د. سيد بن حسين العفاني، مؤسسة الرسالة، الطبعة الإولى ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.
[٧١] صلاح الدين بطل حطين، عبد الله علوان، دار السلام، القاهرة، الطبعة السادسة، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.
[٧٢] عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، محمد عبد الله عنان، القاهرة، ١٩٦٤م.
[٧٣] عقيدة أهل السُنَّة والجماعة والأثر في المهدي المنتظر للشيخ عبد المحسن ابن حمد العباد، مطابع الرشيد، المدينة المنورة، الطبعة الأولى.
[٧٤] عقد بيعة بولاية العهد، في مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة ، حسن مؤنس.
[٧٥] عقائد الإمامية، لمحمد رضا ظافر.
[٧٦] عوامل النصر والهزيمة، لشوقي أبي خليل، دار الفكر، دمشق الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ،١٩٨٧م.
[٧٧] غرناطة في ظل بني الأحمر، د. يوسف شكري فرحات، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ،١٩٨٢م المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.
[٧٨] فقة التمكين عند دولة المرابطين، علي محمد محمد الصلابي، سلسلة صفحات من التاريخ الإسلامي في الشمال الإفريقي.
[٧٩] فتح الباري شرح صحيح البخاري، للإمام أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، المطبعة السلفية، ومكتبتها، ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي.
[٨٠] فتاوى ابن تيمية، لأبي العباس، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، جمع وترتيب، عبد الرحمن بن محمد قاسم.
[٨١] قيام دولة المرابطين، لحسن أحمد محمود القاهرة، ١٩٥٧م.
[٨٢] قادة فتح بلاد المغرب، محمد شيت خطاب، دار الفكر، الطبعة السابعة، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.
[٨٣] موسوعة التاريخ الإسلامي، د. أحمد شلبي، مكتبة النهضة المصرية القاهرة، الطبعة العاشرة سنة ١٩٩٥م.

[٨٤] مجموعة رسائل ابن حزم.
[٨٥] موسوعة المغرب العربي للغينمي، عبد الفتاح مقلد الغنيمي، الناشر، مكتبة مدبولي، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.
[٨٦] مسكوكات المرابطين والموحدين في شمال إفريقيا، رسالة ماجستير في الحضارة والنظم الإسلامية، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الملك عبد العزيز، مكة ١٩٧٩م لم تطبع.
[٨٧] معالم تاريخ المغرب والأندلس د. حسين مؤنس، الطبعة الأولى القاهرة ١٩٨٠م.
[٨٨] مسند الإمام أحمد بن حنبل، شرح وتحقيق أحمد شاكر، أتمه د. عبد الحسين عبد المجيد هاشم، دار المعارف بمصر، الطبعة الأولى.
[٨٩] مجلة المنار، لمحمد رشيد رضا.
[٩٠] الأغالبة سياستهم الخارجية، محمود إسماعيل.
[٩١] مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود، العدد السادس، ١٤١٣هـ،١٩٩٢م، مجلة محكمة.
[٩٢] نظم الجمان في أخبار الزمان ، لابن القطان، أبو الحسن علي بن محمد الفاسي.
[٩٣] نظم المتناثر في الحديث المتواتر، للشيخ جعفر الحسني الإدريسي الكتاني، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠٠هـ.
[٩٤] نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب، المقري، تحقيق، د. إحسان عباس.
[٩٥] وادي المخازن، لشوقي أبي خليل دار الفكر بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م.
[٩٦] وفيات الأعيان ، لابن خلكان، شمس الدين، أبو العباس ابن خلكان، دار صادر بيروت، حققه إحسان عباس.


فهرس

فهرس
الصراع بين أهل السنة والرافضة
الدولة العبيدية الفاطمية

رقم الصفحة

فهرس

دولة المرابطين

رقم الصفحة

فهرس

دولة الموحدين

سقوط الأندلس الإسلامية ومحاكم التفتيش البربرية

رقم الصفحة


تم
بحمد الله